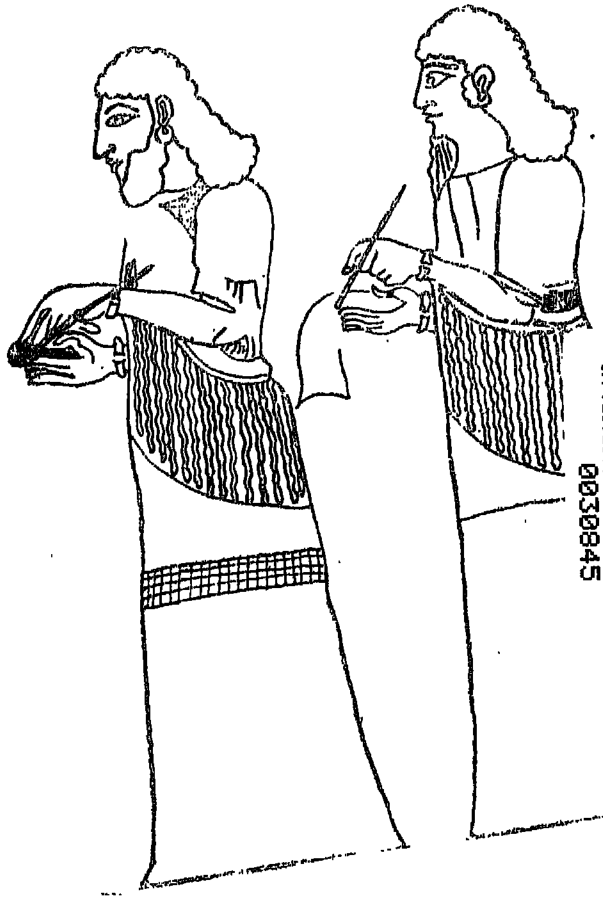
دكتور عبد الحميد زايد

الشرق الخالد

مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى
من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م



دكتور عبد الحميد زايد

الشرق الخالد

مقدمة فى تاريخ وحضارة الشرق الأدنى
من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

سألنى بعض ابنائى من الطلبة فى الجامعة أن أتخير لهم صدرا من محاضراتى التى القيها عليهم فى تاريخ وحضارة الشرق الادنى القـــديم لأطبعها وأسويها للناس كتابا . وقد تعذرت عليهم دهراً لاننى انما أعانيها على إنها بنت ساعتها ، وانها لم تكن جديرة بأن تثبت . وما برحوا يلحون على حتى لم أجد لى مفيضا من التسليم . فجمعت منها ماجمعت على عجل ، وضممت اليها بعض ما استطعت أن أضيفه قبل مغادرتى الوطن لفترة للعمل فى قطر شقيق وجامعة ناشئة فى دولة الكويت . وقد قمت اعود على تلك المحاضرات بألوان التهذيب ، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوتت العجلة من تاريخ وحضارة شرقنا الخالد .

لقد انتشرت معاول رجال علم الحفائر فى دول الشرق الادنى من جميع انحاء العالم ، وتجمعت الجهود للبحث عن مهد الحضارات فى منـــاطق الهلال الخصيب ووادى النيل . وقد تعرض الشرق الادنى فى القرنين التاسع عشر وبداية العشرين ، أيام ان كانت دولة مكتوفة الايدى لمعاول بعض المنتفعين الذين عرفوا باسم الحفريين ، وكانوا فى البداية يحفرون الأرض من أجل الحصول على الذهب واللقى من الحلى . ثم تبين للعالم بعد ذلك أشياء أنفس من الذهب فتهافتوا على كشفه واقتنائه : الا وهو التاريخ الخالد للشرق الخالد . لقد وجدوا فى تربة الشرق مستودعا كبيرا من الوثائق التى انارت الطريق لمعرفة الحضارات الانسانية الاولى .

حينما يتحدث المؤرخون عن تاريخ دولة من الدول يشيدون بالفتوحات التى قام بها ملوكها والتى غيرت بعض صفحات تاريخ هذه الدولة ، على ان فى الشرق فتوحا كبرى لا نظير لها فيما حدثنا عنه أصحاب التاريخ ، وهى فتوح الانسانية التى غيرت العالم الظاهر والباطن للانسان وصححت مفاهيم الناس وافكارهم وعلاقة الانسان بأخيه الانسان وبالدنيا التى يعيش فيها والاخرة التى سوف يراها بعد قليل : لم يكن التوحيد الذى ظهر فى الشرق هو من اسمى العبادات المفضلة فقط ، بل هو طريق الحياة

الصحيحة . آمن المصريون القدماء بالاله الواحد ، ولم تكن تلك الدعوة رسالة من السماء ، وربما ظهرت فى وقت لم يكن قد استعد فيه الانسان بعد لنبذ تعدد الالهة . لقد كانت دعوة اخناتون للوحدانية فى هيئة مراسيم صدرت من قصره ، انطفأت بعد قليل بمراسيم من الذين جاءوا من بعده من آل فرعون .

ومما لا جدال فيه أن تعدد الالهة قد سرى من مصر الى أقطار الشرق الادنى أو العكس . ومما لا جدال فيه أن عقيدة التوحيد قد نبتت فى مصر ، وانتقل زهورها من وادى النيل فى صورة من الصور الى بلاد المشرق . حيث ظهرت دعوة ابراهيم للوحدانية ، وجاء من ورائه نبوات أخرى .

أود أن ألم فى كتابة هذه العجالة السريعة عن دول الشرق الادنى بكل طرف ، وسأحاول أن أعرض لهذا التاريخ من ناحية ما قدمه باطن الارض من وثائق محفوظة حاليا بدور التحف العالمية ، ولكننى سأتعرض فى كثير من الاحيان الى ما جاء فى كتب السماء ، ذلك لان طبيعة دراسة بعض فترات تاريخ الشرق الادنى القديم تحتم علينا النظر فيما نزل من السماء من كتب مصدقة . ثم سوف نتعرض لمشكلات كثيرة ، ربما نجد فيها مخرجا ، وربما لا نستطيع الخروج منها . ولسوف نرجع الى كتب الاديان وروايات المؤرخين الاقدمين ، ومنهجنا فى الاخذ من المراجع هو الاقتباس من كتب الدين ثم تفسيره من كلام اصحابه واهل العلم الموثوق فيهم .

عديدة هى الوثائق التى جادت بها تربة الشرق الادنى ، ولكن وجد علماء التاريخ والآثار صعوبة كبرى فى ترتيب ملوكه ، فعلى سبيل المثال كان يؤرخ حمورابى قبل كشف مارى بعام ١٩٤٠ ، ولما كشف André Parrot عن مارى حسب تاريخه من عام ١٧٩٢ — ١٧٥٠ ق.م. اذ لاحظ العلماء وجود ملوك معاصرين له ، كان يظن من قبل انهم سابقين له فى حكم البلاد التى يحكمها هو . وحتى فى مصر الفرعونية ، وجد علماء المصريات فى بعض فترات تاريخها المضطرب ان الاسرة الرابعة عشرة عاصرت الاسرة الخامسة عشرة ، وان بعض ملوك الاسرة الثالثة والعشرين قد عاصر ملوك الاسرة الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين .

لماذا تكثر الغوامض فى تاريخ الشرق الادنى القديم ووثائقه كثيرة . فى يقينى ان بعض تلك الغوامض قد خلقها المؤرخون ، حينما نظروا الى التاريخ كأنه حسبة ارقام او كأنه أطلس يوضح المواقع التاريخية الهامة أو كأنه صفحات من الحوادث . على اننى لا استطيع أن أجد فى التاريخ

هو ذلك الذى يقصده جمهورة المؤرخين فقط ، بل هـــو ايضا وصف لنفوس انسانية ودراسة حضارات خلقتها الحوادث التاريخية ، وان هذه الحوادث والانباء والمعالم التى تذخر بها سجلاته من السنين ، انما هى ايضـــا تبع لوصف النفوس . ولو واجـه النـــاس التاريخ على ذلك الهدى لوضح الطريق ، وزال الغموض . من أجل ذلك حرصت بقدر الطاقة أن أقدم للقارىء الكريم نظرات عابرة فى تلك الحضارات ودراسة بعض الشخصيات التى عاشت فى الشرق وأثرت فيه واسهبت الحديث عنها أمثال سيدنا ابراهيم وحمورابى وداريوس الاول والاسكندر الاكبر .

كما حرصت فى أول كل باب أن أستهل الحديث بالبيئة الجغرافية وذلك لما لها من عظيم الاثر فى تاريخ الشرق الادنى القديم ، فما من شك انه توجد صلة بين الحضارة والارض ، من أجل ذلك كانت الظواهـــر الطبيعية متأثرة بأسباب جغرافية طبيعية . وجدير بالذكر ان دول الشرق الادنى تحيطها بحار مغلقة : البحر الابيض المتوسط والبحر الاســـود والخليج العربى والبحر الاحمر . كما أن بأرض الشرق الادنى بحار مغلقة تماما : البحر الكسبى ، البحر الميت ، بحر ارال والبحيرات المالحة الموجودة فى هضبة الاناضول . ومن الطريف حقا أن ذلك الاطار المائى الذى يحيط الشرق الادنى قد خلعت على مياهه قديما اسماء مميزة بالالوان : فنجد البحر الابيض المتوسط (لانه يتوسط القارات : أوربا وآسيا وافريقية) والبحر الاسود ، والبحر الاحمر (وكان يسمى المصريون القدماء هـــذا الاخير الاخضر العظيم) . كذلك الخليج العربى وكان يسمى قديمـــا الاخضر . فهل مياه هذه البحار لها هذه الالوان ؟ ليست هذه المياه فى الواقع ملونة كما جاء فى هذه التسميات ، انما اغلب الظن ان اشـــعة الشمس التى يمتاز بها الشرق الادنى كانت تنعكس على تلك المياه فتغير ظاهريا من لونها حسب قوة الاشعة وزمانها ، ولربما تأثر الناس بذلك فسموها بهذه التسميات التى لازالت تسمى بها حتى أيامنا هذه ، على انه ليس بين مياه بحار الشرق الادنى مياه سوداء أو حمراء أو خضراء . هذا ولا توجد منطقة من العالم ضمت مثل تلك البحار المغلقة والشبه مغلقة مثل منطقة الشرق الادنى .

امتازت حضارة الشرق الادنى القديم بغناها وتنوعها وتباينها فى بعض الاحيان . ففى كل من بلاد الرافدين ومصر الفرعونية ، اعتقد الناس أن الدنيا قد خلقت من المياه الازلى ــ ولربما كان ذلك نتيجة الاطار المـــائى الذى كان يحيط منطقة الشرق الادنى ــ الا ان المصريين القدماء قدروا ان عنصر الماء هو الذكر (الاله نون) ، وقد مثل عندهم فى مياه الفيضان السنوى والمياه الجوفية . اما فى بلاد ما بين النهرين فقد رمز للاخصاب هنا (بالاله انكى أوايا) ، ولم يكن لهذا الاله اية صلة بالمياه الازلى الاول ،

والذى تمثله الهة انثى وهى (تيامة) ، وكانت تمثل الام التى ولدت الالهة فام بقتلها الاله مردوخ ، وقد قام بصنع الدنيا من جسدها . من كل ذلك نرى أنه كان للماء مغزى عند المصريين القدماء واهل الرافدين معا ، فهو مصدر الحياة ، ولكن اختلفت وجهة نظر كل من الاقليمين .

كذلك نلاحظ ذلك التباين فى التفكير بين المصريين القـــدماء وأهل الرافدين فى نظرتهم الى الارض . فقد كانت الارض عند أهل الرافدين تمثل الام الرؤوم ، أما عند المصريين فكانت تمثل عنصرا ذكرا (= جب) ولا يوجد أى علاقة بين الالهة الام بالتربة ، بالرغم من أننا نجدها فىجميع جنبات وادى النيل . لقد صور المصريون القدماء الالهة الام على صورة بقرة (= نوت) ، فتلد الشمس والنجوم كل صباح ومساء ، وتخيلوا موتاهم وهم يدخلون جسمها ليولدوا مرة اخرى ويصبحوا خالدين .

تصور أهل الرافدين السماء الها ذكرا ، وليس كما تصورها المصريون انثى تحنو بذراعيها على بنيها من البشر . كما وجد ممثلا على كثير من صفحات جدران اثار آل فرعون .

غير ان اهتمام المصريين بالعالم الآخر والموت لا نظير له فى بلادالرافدين بل سنجد أن أهل الرافدين كانوا على عكس المصريين ، قد فهموا الموت على انه نهاية تلك الحياة وتدمير للانسان ، بينما آمن المصريون بالحساب فى العالم الآخر وكذلك آمنوا بالبعث .

مثل هذا الاختلاف بين التفكير البابلى والمصرى القديم يفصح عنتباين عميق بين نظرة أهل الرافدين الى طبيعة الكون الذى يعيشون فيـــه وبين نظرة أهل وادى النيل . ففى الكثرة الغالبة من النصوص التى عثر عليها بين مخلفات أهل الرافدين ما يشير الى قلق فيه تعبير واضح عن الخوف من قوى الطبيعة المتقلبة . بينما نجد نصوص آل فرعون ، بالرغم من وصفها الهتها بالقوة والبطش ، الا أن هذه القوة لم تكن عنيفة ، ذلك لان قوى الطبيعة المصرية كانت مستقرة ثابتة ، ليس فيها تغييراتملحوظة وان ظهرت فلم تكن الا سطحية ، وكان خطرها مؤقتا ، فى الامكان استدراكه بسهولة . كذلك كان المصريون يعتبرون فرعون البلاد الها ، فهو ابن رع اما فى بلاد ما بين النهرين فكان الالهة يعينون من البشر الفانى من يحكمهم وكثيرا ما كانت الالهة تمتنع عن منحه البركة الالهية . وقد وقع الانـ فى بلاد الرافدين تحت رحمة هذه الالهة ، من أجل ذلك وجدنا ان أهـ بلاد ما بين النهرين قد اطالوا النظر فى أفلاك السماء وفى قوى الطبيعـــة يتلمسون طريقة تكشف لهم عن (برج) من أبراج السماء يشير الى البر

والرحمة ، من أجل ذلك تطور التنجيم والتنبوء فى بلاد الرافدين ، بينما لم يتطور فى مصر الفرعونية .

لقد كان لهذا التباين أثره الواضح فى آساطير الخليقة فى كل من مصر الفرعونية والعراق القديم ، لقد نظر المصريون القدماء الى الخالق كقوة فعالة نامية قامت بتسخير عناصر الطبيعة لمشيئته . وقد كان المجتمع المصرى يشكل عضوا لا يتغير فى جسم النظام الدائم الذى خلقه . أما فى بلاد ما بين النهرين فقد قام على اختيار الخالق فى مجتمع مضطرب نتيجة التقلب والفوضى التى كانت تهدده . فنجد البابليون والاشوريون يتصورون خلق الكون كان نتيجة انتصار مردوخ على خصومه ، فالخلق فى بلادمابين النهرين قد جاء كفكرة طارئة ، وان الانسان فى هذا الوادى كان خادما للالهة .

وبالرغم من هذا التباين الذى نلاحظه بين مصر وبلاد الرافدين فى النظرة الى الدنيا ، فان الفرد فى كل من القطرين كان يعد جزءا من المجتمع الذى كان على صلة تامة بالطبيعة وقد نظر الى هذه القوى على انها تجلى الالوهية . وجدير بالذكر ان مثل هذا الاعتقاد كان قائما بين جميع مراكز الحضارات القديمة .

سوف يلاحظ القارىء الكريم حينما يتصفح ما جاء فى هذا الكتاب عن تاريخ بلاد ما بين النهرين ، انني لم اقم بسرد الحقائق التاريخية عن تلك المنطقة أى (بلاد ما بين النهرين) فى حلقات منتظمة من سلسلة تاريخها وانما آثرت ان اقوم بعرض كل حلقة من تلك الحلقات التاريخية مع القطر الذى احتك بها ، ومع ذلك كله فقد أوجزت تاريخ العراق القديم فى الباب الاول ثم تحدثت بايجاز أيضا عن علاقة اهل الرافدين بجيرانهم جميعا . ولما جاء دور النظرة العابرة فى تاريخ وحضارة سورية ولبنان وفلسطين تحدثت عن الصدام الذى حدث بين أهل الرافدين وسكان تلك المناطق من آرآميين واموريين وعبريين وخصصت بابا عن سيدنا ابراهيم وهجرته من أور الى شمال العراق ثم نزوله الى فلسطين فالحجاز . وفى الباب الخاص بالحثيين تحدثت عن علاقة الاشوريين والبابليين من أقدم العصور بهضبة الاناضــــول والصراع الذى دار فى منعرج الفرات بين الميتانيين والاشوريين والحثيين وشمالى سورية . ولما انتقلت الى الحديث عن تاريخ الايرانيين تعرضت لعلاقة سكان هذه الهضبة من عيـــلاميين وميديين وفارس وغيرهم بأهل بابل واشور . من أجل ذلك يرى معى القارىء الكريم ان تاريخ بلاد ما بين النهرين كان موزع الحلقات فى أبواب هــذا الكتاب كله ، والسبب فى ذلك ان تلك الحضــارة التى قامت فى أرض

العراق القديم قد ملأت تاريخ تلك الفترة ، وبالرغم من تعرضها لكثير من الصدام والصراع الا انها ظلت تحمل مشعل الحضارة وتفرض سلطانها على الشرق الادنى ، لهذا كان على القارىء الذى يريد ان يتتبع تاريخ العراق القديم أن يتوقف قليلا عنـــد كل باب من أبواب هذا الكتاب ، ويحتفظ بحلقة من سلسلة هـــذا التاريخ الطويل العريض المنثور بين صفحاته .

وسوف يلاحظ القارىء اننى حرصت كثيرا على مقارنة ما مر فى مصر الفرعونية من معتقدات دينية وما عبد فيها من معبودات مع ذلك الذى ظهر فى مناطق الهلال الخصيب وآسية الصغرى وغيرها ، وكذلك فنون العمارة والنحت والتصوير والرسم وغيرها من فنون ، ومقارنة اللغة المصرية القديمة بغيرها من لغات ظهرت فى الشرق الادنى القـــديم ، وكذلك مقارنة ما مر ببلاد ما بين النهرين من معتقدات وما عبد فيها من معبودات مع ذلك الذى ظهر فى مناطق الهلال الخصيب الاخرى وآسية الصغرى وغيرها ، وكذلك مختلف الوان الفنون . وكنت أود أن يتســـع لى الوقت فاقوم بدراسة تاريخ الشرق القديم المقارن دراسة مفصلة ، وأملى كبير أن تتاح لى الفرصة فى المستقبل القريب فاقوم بهذه الدراسة المقارنة الممتعة الشيقة للشرق الادنى الخالد ، فعيون العالم كله تتجـــه الى مهد الحضارات الاولى فى تلك البقعة ، والى الايام التى كان النصر يسعى فيها الى الشرق سعيا حثيثا ، حينما كان العالم لا يزال طفلا يهيم فى بحر من الظلمات .

وارجو أن يعذرنى القارىء الكريم فى اختلاف كثير وقع فى كتابة أسماء الاعلام ، وذلك نتيجة عدم الاهتداء الى نطق موحد لكثير من تلك الأسماء باللغة العربية ، من اجل ذلك وجدت من الخير أن اضع النطق بلغـــة أجنبية بجوار العربية . واحيانا اضطررت الى الالتزام بالنطق اليونانى أو الاكثر شيوعا مع وجود خطأ فيه بسيط . ومن يريد معرفة النطق المختلف لأهم أسماء الاعلام فعليه أن يراجع ذلك فى فهرست الكتاب حيث جمعت اهم اسماء الاعلام بنطقها المختلف .

ان فى تلك الآثار التى لا زال بعضها قائما فى مكانه ، أو التى نقـــلها الضعف السياسى الذى مر بالشرق الادنى فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من العصر الحديث الى دور التحف العالمية ادلة تشـــهد بما لاهل الشرق الادنى القديم من سبق فى المدنية ، ومبالغة فى اتقان العمل . وان مجد اقامة تلك الاثار ، وما تدل عليه من الحول والمقدرة يتقاسم الفخر فيه حكام البلاد واقوامه .

ان صفحات تلك الهياكل وما عليها من صور تفصح عما اراده منشئوها من المعانى . وانها صور كثيرة بل مفرطة فى الكثرة ، وقد بدت القصور والدور مزخرفة بالصور والتماثيل الرائعة ، فترى الصور تمثل الحركة وتعبر لك فى وضوح عما تريد ، وقد مرت عليها عصور مختلفة ، ودهانها غض برغم ذلك الزمن المتطاول ، لقد قدمت تلك المخلفات وتقادم العهد بها ، ولكن الفن الذى يتجلى فيها لازال غضا ناضرا كأول العهد به ، فرب نقش أو صورة فى اثر من الاثار ، كانما انتهى الصانع أمس من اتمامها وقد اتقن صنعها حتى انه ليخيل للانسان ان الله لو نفخ فيها الروح لصارت احياء ، ولو كانت ذوات اصوات لروعت بصوتها كل اصم ، كل ذلك قام به فنانو الشرق الادنى القديم على الرغم من بساطة وسائل القطع والنحت التى استخدموها .

كانوا ملوكا جديرين بالملك ، اناروا الارض بحضارتهم ، حيمنا كانت الدنيا جميعها فى ظلام دامس ، وكان الناس يعيشون فى ضلال مبين ، لقد اخذت أثينا من حضارة الشرق الادنى القديم ، واقتبست نوما من نور علم أهله .

أغرم أهل الشرق الادنى القديم بأن تصبح أعمالهم خالدة ، فعمدوا الى بناء الاثار الخالدة التى تقوم على دعائم من الخلق المتين واتقان ما يصنعون ، وحقيقة الامر ان طريق الخلود ليس سهلا ميسورا ، فهو يحتاج الى الهمم الكبيرة والعبقرية الخارقة وقد وجدها التاريخ فى الشرق الادنى الخالد .

كانت عروش أصحاب الشرق الخالد تقوم على دعائم من القوة فى البر والبحر . أما من يزعم ان ملوكهم قد ظلموا الرعية ، وانهم عسفوا بالعمال ، فاننا فى ايامنا هذه ناقصون ، فلا يجوز لنا ان نطالب الاولين بالكمال ويجب ان ننظر فى تاريخهم بدقة ونعيش أيامهم وما أحاطت حوادثهم وما اجبروا عليه من قسوة ، وليس ادل على نقص الانسان فى عصرنا الحديث ما فعلته الحروب الحديثة فى الحرب العالمية الاخيرة فى هاروشيما وغيرها .

ان مظاهر العمران والحضارة الباذخة التى عاش فيها أصحاب الشرق الادنى القديم لا تقل عن هذه الحضارة التى نعيش فيها اليوم ، انها ثمرة علم ناضج متبحر ، وفن تجاوز غاية الاعجاب . ان هؤلاء الذين قاموا ببناء تلك الحضارة مثل عليا ترفع امام الشباب ليقتدوا بهم ، ويعملوا على ان يكونوا مثلهم . وان تاج العظمة والجلال الذى استقر

فوق جبين الشرق كان يعتمد على القوى الحربية والعلمية والخلقية ، فعلى أبناء الشرق الادنى ان يتسلحوا بالعلم والخلق ويعيدوا لاوطانهم ما كان لها من مجد تالد .

وبعد أرجو أن تكون هذه المقدمة التاريخية عن الشرق الادنى القديم مصفاة من الشوائب ، والله اسأل أن يلهمنا جميعا الصواب والرشد .

القاهرة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٦٦

عبد الحميد أحمد زايد

الباب الأول

الفصل الأول

أثر البيئة فى حياة الناس

ان اثر البيئة الطبيعية فى حياة الناس فى العصور القديمة أكبر وأشد منه فى عهدنا الحاضر ، لقد خضع الانسان لظروف البيئة فى عصوره الحجرية ، ولما انتقل من طور الى طور بدأ يسيطر على البيئة ، من أجل ذلك كانت دراسة البيئة الجغرافية لأ ى قطر فى العصور القديمة هامة لمعرفة تاريخه وحضارته .

تشمل بلاد ما بين النهرين وادى دجلة والفرات اللذين يكونان الطريق الرئيسى الذى يصل آسيا الصغرى بالخليج العربى . وهى تشمل الآن الجمهورية العراقية . وكلمة العراق غالبا كلمة فارسية تعنى السواد أو السهل او البلاد السفلى . وذهب بعض المفسرين العرب الى أن كلمة العراق تعنى (الجرف) أو (الساحل) . وقد اطلق العرب على القسم الجنوبى من العراق (السواد) أو (العراق) . أما القسم الشمالى فأطلق عليه اسم الجزيرة ، ويطابق ذلك اسم ما بين النهرين الذى جاء فى كتابات قدامى اليونان Mesopotami

وقد اصبح هذا الاسم يطلق على كل العراق . وقد ورد لأول مرة فى حدود القرن الثانى عشر قبل الميلاد اسم العراق فى أواخر العهد الكشى ، اذ يرجح أن اسم العراق كان ينطق فى هذا العهد (أريقا) .

ويكون النهران حوضا يحد شرقا بمرتفعات عيلام التى يجرى فيها نهرا (كارون Karun ، وخركا Kherka) الموصلان لهضاب ايران وبلاد الهند ، وايضا بجبال زاجروس التى تجرى عبرها روافد دجلة فتكون الطرق الداخلة الى اقليم بحر قزوين . والى الغرب تمتد صحراء

سورية الواسعة التى شقتها القوافل الذاهبة الى البحر المتوسط والمتجهة الى شبه الجزيرة العربية . والى الشمال فى صعودنا الى دجلة نعبر بلاد آشور وميتانى للتوغل أخيرا فى بلاد ارمينية .

والفرات الذى يبدا منبعه بما يقرب من مائة كيلو مترا من البحر الاسود محاذيا لمرتفعات طوروس وما يواجه طوروس ، يقترب من البحر المتوسط عابرا بلاد (امورو) ، ثم يسير بعد ذلك موازيا نهر دجلة .

لم يكن وادى دجلة والفرات الا خليجا قديما يمتد على رقعة من الأرض طولها ٥٠٠ كيلو مترا ملئت بالطمى الذى كان يغمرها من مارس الى سبتمبر .

وامتاز وادى دجلة والفرات بانه اقل وحدة من وادى النيل من الناحية السياسية ، فالمنطقة من بغداد الى الجنوب كانت قديما وحدة اقتصادية وسياسية تعتمد فى ثروتها على الرى من النهرين وظهرت فيها دولة بابل ، وفى هذا الجزء نفسه ظهرت (دويلات المدن) التى ازدهرت أيام ازدهار الحضارة السومرية . وسنرى ان هناك عوامل أخرى ستدفع الى اتحاد هذه الدويلات فيما بعد لتصبح مملكة واحدة ، والى الشمال من بغداد انهار أخرى هامة وهى : ديالى والزابان الكبير والصغير والخابور والبالخ وقد شكلت هذه المنطقة وحدة اخرى سياسية واقتصادية مستقلة عن الوحدات الأخرى ، قامت فيها دولة آشور الى جانب دولة بابل فى الجنوب . وقد اختلفت العراق عن مصر فى هذه الناحية ، اذ أن النيل وهو واد واحد (خصوصا فى مصر) قد ساعد على الوحدة السياسية وبدات فيه الوحدة قبل العراق بمدة .

كان لحداثة تكوين القسم الجنوبى والاوسط أيضا من العراق وفقره الى مواد البناء اللازمة كالخشب والحجر والمعادن .. الخ اثره فى جمع بلدانه تحت راية واحدة لجلب ما يحتاجون من الخارج وسيتم ذلك أيام سرجون الأكدى . كما أن تنظيم الرى كان يلزمه توحيد الجهود .

كانت دلتا دجلة والفرات كذلك دلتا نهر النيل خصبة وغنية بالطمى ، الا انه لم يتوفر فى كل الحجارة والمعادن . فبحثوا عنها فى عيلام وشبه الجزيرة العربية ، بل وصلوا الى ارمينيا كذلك أحضروا الخشب من لبنان والمعادن مثل النحاس والفضة والذهب من القوقاز ومرتفعات طوروس وهضاب ايران وغيرها . أما عن القار الذى كان يلعب دورا كبيرا فى صناعة

السفن ، فقد ورد اليهم عبر حدود فارس حيث كان يوجد البترول الذى كان يستخدم فى الاضاءة .

وتدل الاحصاءات الخاصة بمواد البناء والمنتجات الأخرى التى كانت ترد منتظمةالى السومريين فىمدنهم وتتجمع فى دلتا بلاد الرافدينعلى أن التجارة الخارجية كانت تلعب دورا كبيرا فى تطورهم ، من اجل ذلك اهتموا بتأمين طرق الملاحة النهرية والبحرية وطرق القوافل ، وقد اعتمدت ثرواتهم عليها اعتمادا كبيرا . ومن الطبيعى أن توحى هذه الطرق اليهم بانشاء مراكز للتجارة عند نقط اتصال الانهار بطرق القوافل ، فظهرت على الفرات مدينة مارى العظيمة عند ملتقى النهر بالطرق الآتية من موانى الساحل السورى مارة بقادش أو دمشق .

ولم يأخذ دجلة مركزا هاما معادلا للفرات لابتعاده عن منطقة البحر المتوسط ، ومع ذلك فانه يكون طريقا تجاريا مهما الى القوقاز وبحر قزوين عند نقط اتصال طرق القوافل بالنهر وعندها ظهرت مدينة آشور وبعد ذلك مدينة نينوى .

وانتشرت الحضارة فى بلاد الرافدين من الجنوب الى الشمال ووصلت الى مستوى راق فى الفرات عنها فى دجلة . وتوزع السكان فى الدلتا الى شعبتين ، الساميون وقد أقاموا فى اقليم (أكد) الذى كان يمتد من (آجاد) الى (كيش) ، والسومريون الذين استوطنوا المنطقة بين (نيبور) والبحر . وأغلب الظن أن هؤلاء السكان جميعهم كانوا من يوم اقامتهم فى مستوى ثقافى واحد تقريبا . على أن السومريين قد قدموا لبلاد الرافدين حضارة تبناها الاكديون وانتشرت بعد ذلك عبر آسيا الصغرى . وأن خصوبة تربة (أكد)عن تربة سومر دفعت السومريين الى هذا النشاط التجارى ، وكان للقرب من البحر اثره فى تقدم الملاحة ، وهذا هو السبب فى التقدم الملحوظ عند السومريين . واشتهرت سومر ببلدانها التجارية والصناعية ، بينما بقيت أكد مدة طويلة من الزمن بلادا زراعية ، وتكونت فيها الاقطاعيات ، وكلما بعدنا عن البحر لمسنا نشاطا زراعيا واضحا عند هذه الجماعات . واذا حدث أن ظهرت بلدان مهمة مثل مارى على الفرات وآشور ونينوى على دجلة ، فلن يفسر ذلك الا بأن بلاد الرافدين العليا تمثل طوال تاريخها الروح الاقطاعية ، ويتجلى هذا الطابع بوضوح على دجلة ، ذلك لان النشاط التجارى وحركة مرور التجارة على هذا النهر كانت أقل بالنسبة للفرات .

وأهم صفة جغرافية تمتاز بها بلاد الرافدين عن مصر هو أن النيل لم يكن طريقا للهجرات أو للتجارة الخارجية ، بينما رأينا على العكس من

ذلك هجرات كثيرة مرت على دجلة والفرات . من أجل ذلك تكونت عليهما الطرق الكبيرة للتجارة العالمية ، كذلك نشأت عليهما طرق للجيوش ولعابرى السبيل ، وحثهم ذلك مرات عدة على الاحتفاظ ببقايا مدنياتهم . وقد دفعت الثروة الطائلة التى لم تنقطع والتى جمعتها التجارة ، كذلك النشاط الاقتصادى هجوم قبائل البدو الرحل على المدن السومرية والبابلية .

وكانت بلاد الرافدين مهددة اكثر من جيرانها فلم تحمها المرتفعات ، بينما كانت مصر التى تحميها المرتفعات والصحراوات والبحار فى شبه وعاء . كانت هناك موجات متوالية من السكان الرحل او الفرسان الاقطاعيين هجموا على بلاد الرافدين من مرتفعات عيلام وزاجورس ، وكذلك من الصحراوات السورية ، ونزل البرابرة من الشمال ، من القوقاز وآسية الصغرى ، جذبهم بريق ثروات الشرق . وتاريخ شعوب بلاد الرافدين لم يكن الا حروبا متواصلة ، وقد دفعتهم التجارة الى النشاط والاقدام والمهارة وتشريع القوانين وعلمتهم الحرب الحماس والشهامة . وجذبهم حب الربح كما دفعتهم ثرواتهم الى الدفاع المستمر ، من اجل ذلك حملوا السلاح . كانوا واقعيين فلم يخضعوا للأوهام ، ولم تكن المشاكل العقلية عندهم الا فى مرتبة ثانوية ، ونظروا للدين كوسيلة ليحصلوا من الآلهة على حياة طويلة على هذه الأرض ، اما الآخرة فلم تظهر لهم الا كنهاية لكل سرور فى هذه الدنيا . كانوا واقعين فى فنهم ، فلم يضيعوا وقتا كما فعل المصريون فى الذهاب للبحث فى المناطق النائية عن المواد اللازمة للبناء ، فاعطتهم الارض التى كانوا يعيشون عليها الصلصال ، فاقاموا بيوتهم من الطوب وفيما ندر من الحجارة ، فلم ينعكس فى نحتهم عذوبة الحياة التى نراها بشكل واضح فى الفن المصرى ، لكنهم برعوا فى بعض النواحى الفنية ، فلم يترددوا أبدا عن سرد حياتهم اليومية على الحجارة وغيرها ، ومثلوا آلهتهم ليكسبوا ودهم كما خلدوا نصرهم الحربى والملاحم مع الاعداء حتى يكثروا من احترام الناس لهم ويحيطوهم بشىء من التقدير .

لم تؤخر الهجرات ولا الحروب المجرى الطبيعى لتطورهم ، على أن هجمات البرابرة كانت فى أغلب الأحيان عائقا وقف فجأة فى سبيل تقدمهم ونجاحهم . لكن مع ذلك كله كان لتاريخ بلاد الرافدين طابع ثابت الى حد ما ، فالتجارة سبب فى تقدمهم ، وقد خلق الاقتصاد العالمى مراكز كبيرة للتجارة ، فهى السبيل دائما لتطورهم او تأخرهم ، فأحيانا كانت تقسم البلاد الى حكومات صغيرة ، واحيانا الى حكومة مركزية ، واحيانا تطغى عليها موجات البرابرة ، واستمرت بابل سواء أكانت مركزا

للامبراطورية أو مدينة مستقلة العاصمة الكبرى للعالم الشرقى ، فعندها تتلاقى الطرق الآتية من البحر المتوسط الى الهند ، ومن ثم استمرت منارا يشع منه قانون حرية الفرد ، وقد انشأها السومريون منذ ٣٠٠٠ ق.م ، من اجل ذلك فان تاريخها استمر طوال التاريخ القديم كله ، كما تعتبر عنصرا رئيسيا من عناصر المدنيات القديمة .

امتازت حضارة وادى الرافدين بالشدة من حيث مواسمها التى كثيرا ما تتغير ، وكثيرا ما تفيض أنهارها فتقضى على الزرع والدرع ، ومناخها الذى اختلف باختلاف مناطقها ، فشتاء سومر بارد معتدل ، وهو قاس فى أكد ، بينما يسقط الصقيع فى أعالى الرافدين . اما نيل مصر فقد امتاز بانتظام فيضانه وان قسا فطغى على الشواطىء فسرعان ما يعود . ان فيضان النيل ينظم زراعة الارض وحصاد الزرع يأتى فى وقت التحاريق . أما فيضان دجلة والفرات فيقع فى وقت يتهيأ فيه الزرع للحصاد ، امتازت حضارة وادى الرافدين بالعنف والمفاجآت والنوازل والمحن ، أما حضارة وادى النيل فقد امتازت بالثقة والاطمئنان. حتى نظرية الخليفة عند المصريين لم تكن وليدة كفاح ، أما عند أهل العراق القدامى فقد كانت وليدة صراع وحرب من الآلهة التى تمثل قوى الطبيعة ، وقد تميزت آلهة العراق القديم بالعنف والبطش كما سنرى فيما بعد .

كذلك من المظاهر الواضحة فى جغرافية العراق تغيير موارد المياه مجاريها ، وكان ذلك من العوامل الكبرى نحو الهجرة . وكثير من بلدان العراق القديم كانت تقع بالقرب من شاطىء النهر والآن ابتعدت لتغيير مجرى النهر . أما نيل مصر فلم يغير مكانه أبدا بشكل واضح كما هو الحال فى بلاد الرافدين .

فترة ما قبل الطوفان

شغلت دلتا بلاد ما بين النهرين حسب طبيعة تكوينها السكان الذين كانوا ضاربين فى الصحراوات وعلى الفيافى المجاورة . كذلك الحال أيضا فى بلاد الرافدين العليا حيث عثر على آثار من العصر الحجرى القديم . واقام الشعب السامى وهم المارتو Martou أو الأموريين Ammourou فى شمال صحراء سورية ، ثم نزلوا الى الوادى وعبروا بلاد أكد . بينما كان يعيش فى الشمال والشرق فى مرتفعات زاجورس وسهل دجلة قبائل يغلب على الظن أنها من أصل قوقازى وتمت بصلة القرابة الى الجوتيين الذين اغاروا فيما بعد على الوادى ، وقد قامت هذه القبائل على طول دجلة فنزلوا حتى حدود أكد . ويحتمل أن هؤلاء هم الذين سيتكون منهم

الشعب الاشورى . والساميون الرحل هم أجداد العرب الحاليين ، كانوا يرعون ماشيتهم على الهضبة الوسطى لبلاد العرب ، أقاموا فى البقاع الجنوبية لدلتا الرافدين والتى ظهر فيها السومريون وكانوا يسمونهم « ذوى الرؤوس السوداء » . ولا نعرف من أين جاء هؤلاء ، فمن الجائز أنهم نزلوا من هضاب ايران ؛ وربما ظهرت فيها جماعات خرج منها سكان وادى الهند ، كانت غالبا على صلات بها .

ويذكرنا ما جاء فى سفر التكوين عن السومريين بوجود دلتا ذات مستنقعات وشعوب بدائية كانت تستوطنها وتقيم فيها « تجمعت المياه التى تحت السماء فى نقطة واحدة ، ومنها برزت الأرض ، وبعد أن تم ذلك ، وبعد أن ازينت الأرض واخذت زخرفها واخضرت بالأعشاب ، كل ازدهر على شاكلته ، وحمل كل شجرة ثمرة وفاكهة احتوت بذورها » . وعاش الناس على هذه الأرض بعد جفافها . « وعندما خلق الانسان لم يعرف الخبز فيطعمه ولا الملبس فيرتديه ، ومشى الناس حفاة فوق الأرض ، واكلوا الحشائش بافواههم كما تفعل الأغنام وشربوا الماء من الخنادق » .

وجاء فى بعض الآراء أن السومريين من اصل مغولى ، وسواء صح ذلك الرأى أو غيره ، فليس من شك أن السومريين ليسوا من الساميين أو من السلالة العربية ، والسبب فى ذلك انهم يتكلمون لغة ملصقة Agglutinative ، وهى بعيدة فى قواعدها عن اللغات السامية الاشتقاقية Inflectiona . وعلى سبيل المثال الخاص بفكرة الالصاق الموجودة فى السومرية ، هو اننا كثيرا ما نجد ان المفردات تؤلف بادماج مفردين أو أكثر ليصبحا كلمة واحدة : اوكال = ملك . وهى مركبة من أو = رجل ، كال = العظيم .

هذه الشعوب البدائية التى وصفها السومريون وصفا غير واضح اكبر الظن انها ابيدت أو استعبدها السومريون انفسهم فانمحت وكشفت لنا الحفائر عن اقدم السكان عند قرية (العبيد) بالقرب من (أور) ، ظهرت فيها حضارة بمستوى متقدم ، وتجمعت على ربوة اكواخ صغيرة صنعت من حصائر البوص ومن الطين المجفف وغطيت بأسقف مسطحة أو مقببة احيانا يتحرك بابها الخشبى على مزلاج من الحجر المستورد . ورعى السكان الذين عاشوا فى هذه الحضارة الأبقار والأغنام والخنازير ، وزرعوا الشعير الخ اما قبورهم فكانت ذا طابع شخصى فوضعت الأحياء بجوار الأموات ليشهدوا بعض المعتقدات الخاصة بالآخرة . وتحقق لنا ان الكوخ والقبر فى هذا العهد السحيق كان بمثابة الخلية الاجتماعية للأسرة ، وسنفصل ذلك فيما بعد .

* * *

الطوفان

تقـــديم :

كان لموسم الفيضان فى العراق فصلين يكادان يكونان مستقلين ، يسمى الفصل الأول عادة (الفصل الغير مستقر) ، وعادة يقع ابتداء من تشرين الثانى حتى نهاية مارس ، وكان يحدث نتيجة هطول أمطار وجريان السيول الغير ثابتة . ويطلق على الفصل الثاني (الفيضان المستقر) أو (الفيضان الربيعى) ، ويقع فى شهرى نيسان ومايس ، وهو يعد الفيضان الرئيسى فى وادى الرافدين .

يبدأ فيضان نهر الفرات الربيعى عادة بعد فيضان نهر دجلة ببضعة أسابيع ، كما يستمر فيضانه بعد انقضاء فيضان نهر دجلة . ومياه نهر الفرات هادئة وبطيئـة فى ارتفاعها او هبوطها ، وقـد زودت الطبيعة نهر الفرات بمنخفضات كبحيرة الحبانية وغيرها وهذه تسـاعد على تخفيف حدة الفيضان .

على انه لا يمكننا أن نضع نظاما معينا ثابتا لكل من دجلة والفرات ، وكان لكل من النهرين نظام يختلف عن الآخر ، فأحيانا يفيض احدهما بينما ينخفض الثانى عن معدله . وان عدم انتظام الموارد الطبيعية لمياه الرافدين كان يعرض الأراضى غالبا لخطر الفيضان من أجل ذلك كان على العراقيين أن يقيموا سدودا ليفيدوا منها فى مواسم انخفاض النهر عن المعدل .

وجدير بالذكر أن نذكر فى تلك المناسبة الفارق بين نهر النيـل ونهر دجلة والفرات ، فهذا سير ويليم ويلكوكس يقول « ان النيل هو أكثر انهار العالم اتزانا فانه ينذر بارتفاعه وانخفاضـه قبل مدة مناسبة ولا يسلك سلوكا مفاجئا ويحمل من الغرين فى فيضانه ما يكفى لتطييب الأرض دون أن يؤدى ذلك الى طمر القنوات كمـا أنه فى حـد ذاته خال من الأمـلاح ويفيض عادة فى أشهر آب وأيلول وتشرين الأول من كل سنة مؤمنا بذلك ارواء الزُروع الشـتوية والصـيفية على السـواء ويجرى بين رواب من الحجارة الرملية والكلسية التى تجهز منها المواد الانشـائية بكثرة . أما دجـلة والفرات فانهما يرتفعان بدون انذار سابق وسلوكهما على الدوام مفاجىء ويحملان خمسـة أضعاف ما يحمله النيـل من غرين ويحـدث فيضانهما فى آذار وهـذا موسم متأخر جدا بالنسبة للزروع الشـتوية

ومبكر جدا بالنسبة للنباتات الصيفية ويحتويان على كمية جسيمة من الأملاح المحلولة ويجريان بين صحار جبسية وأراضى صالحة » .

وعلى ذلك يلاحظ ان فيضـانات الأنهر فى بلاد الرافـدين كانت من المسائل التى شغلت اذهان النـاس من قديم الزمان ، وبذلوا منـذ فجر التاريخ جهودا جبارة لدفع اخطار الفيضـانات العالية . واستمر بنـاة الحضارة السومرية ـ البابلية فى صراع دائم ضد ذلك العدو الغادر الذى غمر ارض الدلتا ، ذلك هو الطوفان الذى ظلت ذكراه فى وعى الزمن ومبعثا لتراث أدبى فلسفى . وقد تصور البابليون أن مبعث الفيضان هو غضب الآلهة نتيجة لفساد الانسـان ، وهو الطـوفان الذى جاء ذكره فى كتب السماء التوراة والقرآن الكريم .

ماذا جاء فى العهد القديم عن الطوفان ؟

جاء فى سفر التكوين : (الاصحاح السابع ـ ١١ ، ١٢) « وفى سـنة ستمائة من حيوة نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر من الشهر فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الأرض اربعين يوما وأربعين ليلة » .

ثم تقص التوراة نتائج الطوفان السيئة من هلاك الاحياء على الأرض واطيار السماء وأن نوحا وحده هو الذى سلم وكذلك من كان معه فى الفلك التى بناها نوح ، وانتقل اليها هو وزوجه وأولاده وزوجاتهم ، وكذلك من كل حيوان وطير زوج ومن كل ما « يدب على الأرض » وجاء أن السفينة قد ظلت خمسة أشهر وسط الأعاصير ، وهطلت الأمطار حوالى أربعين يوما وليلة كأفواه القرب ، ووصلت السفينة الى جبال آرارات (ارمينيا) حيث استقرت هناك . وكان ذلك بعد مضى سنة وأحد عشر يوما .

ماذا جاء فى الوثائق السومرية البابلية ؟

عثر على الواح من طين فى مختلف المواقع الأثرية تدل على وجـود تشابه بين رواية العهد القـديم والرواية البابلية . وقد اتفقت جميـع الروايات والقصص عن الطوفان على أنه طوفان قد وقع فى وادى الرافدين فى موسم من مواسم الفيضان حتى غمر دلتا دجلة والفرات كلها وقضى على المنشآت العمرانية ، وأن زعيما دينيا وعائلته والحيوانات التى كانت فى ركابه قد انقذ . واهم الألواح التى نقلت رواية الطوفان هى ملحمـة جلجامش ، وكان لهذه الملحمة اثر كبير على شعراء العالم القديم امثـال هومبروس ، ومن الجـائز انه اطلع على هذه الملحمة . ومما هو جـدير

بالذكر أن سيدنا ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا السلام كان من مواطنى أور التى كانت واقعة فى منطقة الطوفان ، وأنه رحل منها الى فلسطين كما نفصل أمر ذلك فيما بعد .

ما الذى جاء فى ملحمة جلجامش عن الطوفان ؟

تعد ملحمة جلجامش أطول قصيدة بابلية كتبت باللغة السامية (الاكدية) وقد ذكر حادث الطوفان فى هذه الملحمة ، التى عثر على القسم الأعظم من فصولها فى خزانة الكتب التى كشفت فى قصر اشوربانيبال ، الذى كانت مكتبته تضم حوالى ٣٠ الف لوح من الاجر ذكر عليها الكثير من الحوادث الماضية ، ومن بينها ألواح من الاجر الأحمر لملحمة جلجامش.

واصل الملحمة قديم ، تعود الى ما قبل الطوفان ، وقعت أثناء حياة احد ملوك سومر جلجامش ملك أوروك ، رابع ملك حكم بعد الطوفان .

كان جلجامش يبحث عن سر الحياة وسر الخلود . وقد وصفت الملحمة جلجامش بالحكمة وسعة العلم وأن الآلهة قد وهبته الشجاعة والجراة ، ولكنه كان مستبدا طاغية ظالما فخلقت الآلهة انكيدو ليدفع عن الناس ظلم جلجامش ، ولكنه لم يتغلب عليه ، ثم تصالحا ، وقام الاثنان بمغامرات كثيرة . ثم مات انكيدو ، فانزعج جلجامش من فراقه ، وظل خائفا من المصير الذى ينتظره . وكان يعلم أن جده « أوتو ــ نبشتم » وهو (نوح الطوفان البابلى) قد استطاع أن يتخلص من الموت ، عند ذلك حزن جلجامش وقفل راجعا الى بلده حيث ظل هناك ينتظر المصير المحتوم ، وقد أخذ يقوم بما ينفع الناس لتخلد ذكراه .

والى القارىء طرف من الملحمة التى تحدثت عن الطوفان .

قال أوتو ــ نبشتم لجلجامش :

سأطلعك يا جلجامش على أسرار خفية ، فسأنبئك بسر من أسرار الآلهة : شوريباك المدينة التى تعرفها الواقعة على شاطىء النهر ، تلك المدينة القديمة التى عاش الآلهة فى وسطها . فرأى الآلهة العظام ، وقد حثتهم قلوبهم ، أن يحدثوا طوفانا ، فكان آنو أبوهم وانليل البطل سيدهم، وتيبورنا وكيلهم ونائبهم وانكى وزيرهم ، وكان نينيكو أى ايا ، جالسا معهم أيضا . ونقل هذا حديثهم الى كوخ القصب (وقال) : « يا كوخ القصب ، يا كوخ القصب ! يا حائط ، يا حائط ! » يا رجل « شوريباك ، يا ابن « أوبارا ــ توتو » ! قوض بيتك ، وابن سفينة ! واترك ما تملك ، وانقذ حياتك ، وتخل عن أملاكك ، وانج بحياتك ! وخذ معك الى السفينة بذرة كل مخلوق حى ، والسفينة التى ستبنى ، يلزم أن تعين ابعادها

وتضبط قياسها ، ليكن طولها مثل عرضها ، واطلها واجعلها مثل المياه السفلى ولما ادركت ذلك قلت « ايا » ربى : اجل ، يا ربى كل ما أمرتنى به ، سأمجده وأعمل به . وحل الوقت المعين . ارسل الموكل بالزوبعة مطرا مهلكا فى السماء ، وتطلعت الى حالة الجو ، فاذا الجو مخيف لا يمكن النظر اليه ، دخلت السفينة واغلقت بابى . ووكلت ادارة السفينة الى الملاح « بوزرا ـ آمورى » ، وعندما لاح اول خيط من نور الصباح ، أتى غيم اسود من الأفق البعيد وارعد « ادد » فى داخله ، وبلغت عود « ادد » عنان السماء وقلبت النور الى ظلمة ، وكسرت الأرض مثل اناء . . . وذعر حتى الالهة من الطوفان ، ففروا وصعدوا الى سماء آنو ، ربضت الآلهة كالكلاب وقبعوا حزانى ، وصرخت عشتار مثل امراة فى المخاض ، عصفت الرياح ستة ايام وست ليال وانهمرت الأمطار وثارت العاصفة فغطى الطوفان الأرض ، ولما كان اليوم السابع ، خفت شدة العاصفة والطوفان ، وقد حاربا كما يحارب الجيش وسكن البحر ، وهدأت الزوبعة ووقف الطوفان ففتحت كوة فسقط النور على وجهى ، وتطلعت الى البحر فكان كل شيء هادئا وقد استحال البشر جميعا الى طين ، احنيت ظهرى وجلست وبكيت . . . واستوت السفينة على جبل نصير ، ومسك جبل « نصير » السفينة ولم يدعها تتحرك ، فاذا كان يوم سابع ، اطلقت حمامة وتركتها تطير ، ذهبت الحمامة ثم رجعت الى ، . . . ثم اطلقت كل شيء الى الرياح الاربعة وقربت قربانا ، سكبت سائلا مقدسا على قمة الجبل . . .

هذه هى قصة الطوفان كما وردت من الواح اشوربانيبال ، ولكن النص الاصلى كتب بالسومرية ، اذ عثر فى مدينة نفر السومرية على لوح يقص حديث الطوفان من أيام حمورابى ، على أن قصة الطوفان أبعد من ذلك التاريخ . وقد حدثنا هذا اللوح عن الخليفة وتأسيس خمس مدن من التى انشئت قبل الطوفان وهى « أريدو ، وباد ـ تبيرا ، ولراك وسيبار ، وشروباك » . ثم يأتى بعد ذلك قصة الطوفان نتيجة غضب الآلهة ، على أن أنكى اله الحكمة يعمل على انقاذ واحد من البشر كان هو «زيوسدرا»، وأوصاه الاله بأن يبنى سفينة لينجو من هذا الطوفان . وعثر على جزء من لوح فى نفر عليه قطعة من قصة الطوفان باللغة البابلية . وملحمة أخرى غير ملحمة جلجامش عليها قصة الطوفان . وتدل الملحمة الاخيرة هذه على عقاب البشر كما وردت فى ملحمة جلجامش ، وفى قصة التوراة .

من كل ذلك تتفق الروايات السومرية ـ البابلية مع ما ورد فى العهد القديم . وقد امتازت الوثائق السومرية البابلية عن التوراة فى وصفها للظواهر الطبيعية ، كما أن العهد القديم يمتاز عن الالواح البابلية بتصويره لفكرة الاله ، وما من شك أن طوفان نوح هو الطوفان نفسه الذى

ذكر فى القصص السومرى وان مكان حدوثها واحد ، وهى الأراضى الواطئة فى دلتا دجلة والفرات الواقعة شمال أور . وما من شك أن بنى اسرائيل قد أخذوا تلك القصة من هذا الشعب .

وقد اتحدت الظواهر الطبيعية على احداث الطوفان ، ففزارة الأمطار وانفجار ينابيع المياه الواردة فى التوراة تشابهت مع ما جاء فى النصوص السومرية البابلية ، فقد ذكرت هذه الوثائق هطول أمطار صحبت بأعاصير وبرق ورعد .

ليس من شك فى حدوث مثل هذا الطوفان فى وادى الرافدين الذى يعرف بفيضاناته الفجائية . ومن نتائج الكشوف التى أجريت فى السهل الرسوبى جنوبى العراق وجود طبقات من رواسب الفيضان اختلفت فى دورها التاريخى . ومن الجائز أن الطوفان المعروف لدينا كان فيضانا كبيرا بقى فى وعى الزمن .

قصة الطوفان عند العرب

جاءت قصة الطوفان فى القرآن الكريم عند ذكر قوم نوح إذ قال الله تعالى « وقوم نوح من قبل كانوا قوما فاسقين » و « أنهم كانوا هم أظلم وأطغى » (سورة النجم آية ٥٢) . وأرسل الله نوحا ليدعو الناس الى الهدى « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون » (سورة المؤمنون الآية ٢٣) « وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (٣٦) ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا أنهم مغرقون (٣٧) ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال أن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٣٩) حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل (٤٠) وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم (٤١) وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن من الكافرين (٤٢) قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٣) وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » (سورة هود من الآية ٣٦ الى الآية ٤٤) .

أين موطن الطوفان وسعته ؟

رأى معظم رجال الدين أن الطوفان شمل الأرض كلها كما جاء فى العهد القديم ، ورأى بعض رجال الدين ان الطوفان كان محليا فى سهول العراق الرسوبية . واستند أصحاب الراى الثانى الى ما جاء فى القرآن الكريم من ان سفينة نوح « استوت على الجودى » . وقد اعتبروا موقع الجودى جبلا . وورد فى القرآن الكريم أن نوحا أرسل الى شعبه لا الى العالم ، قال تعالى « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ، فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » (سورة الأعراف ، الآيتان ٦٣ ، ٦٤) .

ويتفق وولى مع ويلكوكس فى ان الطوفان لم يشمل الدنيا كلها وانه كان طوفانا كبيرا على وادى دجلة والفرات ويقدر مساحة الفيضان بحوالى ٤٠٠ ميل طولا ، ١٠٠ ميل عرضا وكان ذلك كافيا الأن يغمر الوادى كله ، اذ بلغ ٤٠,٠٠٠ ميل مربع ، فيما عدا المناطق المرتفعة .

وعلى اية حال لم يستطع احد حتى الآن أن يحدد زمن الطوفان تحديدا تاما .

* * *

الفصل الثاني

العصور الحجرية فى بلاد الرافدين

مقدمة

تعرض العالم فى العهد الجيولوجى الأول وهو الذى يطلق عليه علماء الجيولوجيا (الميسوزوئيك Mesozoic) (٢٠٠ — ٦٠ مليون سنة) لتغيرات جيولوجية وبيولوجية . وغمر أرض العراق فى العهد الجيولوجى الثانى المسمى (سينوزوئك Cenosoic) والذى يرجع تاريخه الى ما يقرب من ٣٠ مليون سنة بمياه البحر ، ثم تقلصت القشرة الأرضية فى الفترة التى تقع بين ٣٠ مليون سنة و ٥ مليون سنة ، وهى تمثل العهد الجيولوجى الثالث المسمى (تيرتيارى Tertiary) ، ونتيجة لتغير القشرة الأرضية فى العراق ، ظهرت مرتفعات شاهقة الارتفاع كانت ضعف علوها الحالى الذى يصل فى بعض الجهات الى ما يقرب من ١٤ ألف قدم فوق سطح البحر .

وفى عصر (الأيوسين Eocene) انحسرت مياه البحر تاركة خلفها رواسب بحرية كثيرة ، ثم حدثت تغييرات جيولوجية أخرى خلال الخمسة ملايين سنة الأخيرة فى عصرى (الميوسين Miocene والبلايوسين Pliocene) ، ونتيجة لذلك ظهرت مرتفعات تمتد من الشمال الشرقى للعراق الى الجنوب والجنوب الغربى . بينما حدث فى غرب المنخفض الأوسط تبدلات جيولوجية معاكسة نشأ عنها سلسلة جبال الصحراء الغربية التى يزداد ارتفاعها كلما اتجهنا غربا .

وبين هذه الالتواءات المختلفة منخفضات ظلت مملوءة بمياه البحر بعد أن انحسر عنها ، وكونت فى أول أمرها بحيرات جفت فى نهاية عصر البلايوسين تاركة فى رواسبها مخلفات سمكية غطيت بطبقة كلسية سميكة بلغت فى بعض المناطق من ثلاثة آلاف الى عشرة آلاف قدم .

ومرت أوروبا فى عصر (البلايستوسين Plioctocene) الذى تميز بالجليد الذى غطى مرتفعاتها يتخلله فترات دفء . وكان الجو فى العراق فى هـذه العصور الجليدية الأوربية وهى (كنز ومندل ورس وڤورم) ممطرارطبا ، وفى فترات الوفء كان المناخ فيها جافا . وكان لهذه التغييرات أثرها فى تعرية صخور ومرتفعات العراق وجرفت السيول أمامها الكثير من الحصى والحصباء الى المنخفضات فملئت البحيرات ووصلت فى نهاية العصر الجليدى الرابع (ڤورم Wurm) الى (سامراء) الواقعة على دجلة والى (وهيت) التى تقع على الفـرات . ثم تكونت الكهوف فى سـفوح الجبال والأنهار فى الوديان . وبمرور الزمن تكونت فى مصاب الأنهر وفى قاع البحر ترسبات من الحصى والفرين ، وارتفعت الأرض نتيجة لهذه الرواسب .

وفى نهاية عصر البلايستوسين وبداية عصر الجفاف ظهرت مرتفعات جديدة فى العراق على الحدود الشرقية جنوب جبل (حمرين) ، وعلى الحدود الغربية من جبل (سنام) الواقعة فى صحراء الزبير . واخذ البحر فى الانحسار فظهرت جزر قرب مصبى نهـر (الكرخا) ونهر (كارون) ووادى البطين والوديان الغربية الأخرى .

ثم كان للجفاف أثره فى تجفيف ميـاه البحـر من هذه الجـزر مع ترسبات غرينية من مياه الأنهار وبذلك نشأ فى العصر الحجرى القـديم أراض واسعة غنية بالرواسب فى جنوبى العراق وجنوبه الشرقى جذبت الانسان اليها فى الألف السادس ق . م ، ومهدت اليه الطريق الى حضارة راقية عرفت بالحضارة السومرية .

والخلاصة ان ارض العراق تنقسم الى الأقسام الأربعة التالية :

١ ـ الجبال الشمالية والشمالية الشرقية : وهى جبال كردستان والتى تسمى فى بعض نواحيها جبال (زاجروس) ويبلغ ارتفاعها حوالى أربعة عشر الف قدم . وبها كهوف من عصر البلايستوسين فى بدايته العصر الحجـرى السـحيق (الآيوليتى Eolithic) مثـل كهف (هزارمرد) وكهف (زرزى) وكهف (شانيدار) .. الخ لجأ اليها الانسان من البر ليتجنب الحيوانات المفترسة . ولم يعثر علمـاء الآثار على آثار لهذا الانسان ، ولكن عثر فى بعض هذه الكهوف على آثار للانسان من العصر الحجرى القديم (الباليوليتى Paleolithic

٢ ـ يتمثل هذا القسم فى الهضاب المجاورة للمرتفعات الشاهقة ، تتكون من طبقة صخرية تعلوها قشرة سميكة من الكلسيوم . وتتخلل

الهضاب سهول خصبة ووديان ومجارى مياه ، وأشهرها سهل (جمجال) الذى يصل ارتفاعه الى ما يقرب من ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر . وقد أقام فى هذه السهول انسان الفترة الأخيرة من العصر الحجرى القديم وانسان العصر الحجرى الوسيط . وعلى سبيل المثال موقع (كريم شاهر) وسهل (شهر زور) وسهل (السندى) وغيرها .

٣ ــ الصحراوات الغربية : تمتد من أعالى الفرات غربا حتى صحراء نجد ، ومنها قسم يقع بين دجلة والفرات جنوبى جبل (سنجمار) و (تلعفر) وهى تعرف بالجزيرة . وقد عاش فى هذه المنطقة انسان العصر الحجرى القديم والوسيط ، وخلف لنا آثارا من أدوات الصوان فى الواحات وفى المنخفضات ، مثل وادى (حوران) بالقرب من (الرطبة) ، ومر بهذه المنطقة فترة جفاف ، فرحل عنها السكان .

٤ ــ السهول الفرينية فى وسط وجنوبى العراق : وقد تكونت أرض هذه المنطقة من رواسب حملتها الأنهار من المرتفعات . وقد عاش هنا انسان العصر الحجرى المعدنى (الكالكوليتى Chalcolithic وهنا ستزدهر حضارات العراق القديم .

* * *

العصور الحجرية

العصر الحجرى القديم La Paléolithique Période

ينقسم هذا العصر الى ثلاثة اقسام : العصر الحجرى القديم الأسفل، والعصر الحجرى القديم الأوسط ، والعصر الحجرى القديم الأعلى .

اعتمد الانسان الذى عاش فى المناطق الجبلية والهضاب فى العراق وسكن داخل الكهوف على اصطياد الحيوان ، وترك خلفه أدواته الحجرية التى استخدمها فى الصيد من فؤوس يدوية ترجع الى العصر الآشولى ، وهو العصر الحجرى القديم الأسفل الذى يرجع تاريخه الى أكثر من مائة الف سنة ، واخصها ما كشف فى منطقة (بردة بلكة) . ثم كشف عن أدوات من العصر الموستيرى ، وهو العصر الحجرى القديم الأوسط ويرجع تاريخها الى حوالى اربعين الف سنة ، وقد كشف عن نماذج من تلك الادوات فى كهف (هزارمرد) فى (طبقة C) وفى كهف (شانيدار فى طبقة D) . فى الكهف الأول بلواء (السليمانية) ، والكهف الثانى بلواء (أربيل) . ثم تقدم الانسان فى العصر (الاورينياسى) ، وهو العصر الحجرى القديم الأعلى ويرجع تاريخه الى حوالى ثلاثين الف سنة ، وقد كشفت أدواته فى وادى (حوران) فى الصحراء الغربية وفى كهف (شانيدار) فى (الطبقة C) ، وفى (كركوك) وغيرها . ثم تقدم الانسان فى الحقبة الأخيرة من العصر الحجرى القديم الأعلى وارتقت صناعة أدواته من سكاكين ومناشير مسننة ومكاشط ، وصناعة هذه القشرة تتشابه بالصناعات الأوربية المعروفة فى العصرين (السولترى) والمجدلينى ، وبعرف فى العراق بصناعة (زرزى) ، ويقدر تاريخها الى ما قبل عشرة آلاف سنة قبل الميلاد . وأهم مواطن هذه الآلات كهف (زرزى) و (شانيدار) فى (الطبقة B) و (هزارمرد) فى (الطبقة B) وغيرها .

ثم انتقل الانسان من حياة الصيد الى الزراعة ، وتوصل الى تدجين الحيوان كالأنعام والكلب ، واستقرت حياته فسكن أكواخا من الحصير مغطاة بالطين . هذا هو العصر الحجرى الحديث (النيوليثى Neolithic) الذى تنوعت آلاته وصقلت صقلا جيدا ، منها الفؤوس والمطارق والمجارش والسكاكين والمكاشط ورؤوس السهام والمناجل ، بعضها صنع من حجر الأويسيدين الاسود فى (كريم شاهر) و (ملفارت)

وفى (چيرمو) وغيرها من المناطق التى عاش فيها الانسان فى قرى ومارس الزراعة .

والى القارىء الكريم عرضا خاطفا لأهم محـلات العصور الحجرية فى بلاد الرافدين .

بردة بلكة

تقع فى لواء كركوك على هضبة منبسطة على بعد قـريب من شـمال شرقى جمجمال . وقد قامت بعثات حفر علمية منظمة عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥١ ، وفحصت تربة الموقع فوجد أن طبقاتها السفلى مكونة من عصر (الميوسين) وفوقها ترسبات كلسية من عصر (البلايستوسين) قـدر سمكها بين ١٠ ، ١٥ مترا . وقد انتشر فى منحدرات الهضبة أدوات من ظران وحجـر مختلف اشـكالها وأحجامهـا وكذلك أجـزاء من أوانى فخارية .

وأطلق الناس على هذا الموقع (بردة بلكة) والذى يعنى (حجرة المتكأ) لأن عوامل التعرية قد تركت وراءها عمودا اسطوانى الشكل يبلغ ارتفاعه اربعة أمتار وقطره حوالى ذلك القدر ، تكون من حجارة وعظام تماسكت تماسكا قويا منذ عصور بعيدة .

قامت بعثة المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو بالكشف عن أدوات حجرية اهمها فأس يدوية على هيئـة كمثرى كانت غالبـا ما تستخدم فى قتل حيوانات الصيـد ، وبلغ طولها حوالى عشرة سنتيمترات وهى تشـبه الأدوات الحجرية التى عثر عليها فى سانت آشل بفرنسا والتى أصبحت نموذجا عالميا لما اصطلح على تسميته بالعصر الحجرى القـديم الأسفل ، وهى من أقدم ما استخدمه الانسان من أدوات حجرية فى العراق القديم . وبالمتحف العراقى فى الغرفة الأولى منه نماذج كثيرة من هذه الأداة والتى تسمى بالفرنسية (Coup-de-poing) . أما عن حالة مناخ العراق فى هذه الفترة فقد كان ممطرا رطبا ، بينما كانت أوربا فى العصر الجليدى الأخير المسمى ڤورم . كما كشفت البعثة الى جانب ذلك عن آلات أخرى هذبت حوافها وتشابهت مع الأدوات التى عثر عليها فى فرنسا واصطلح على تسميتها بالأدوات (الموستيرية) ، وهى عبارة عن مكاشط وسكاكين وقاطعات . وقد اختلطت هذه الأدوات بكثير من عظام الحيوانات كالفيل والحصان والضأن وبعض القواقع .

كهف هزار مرد

يقع الكهف على ارتفاع نحو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر فى السفح الشرقى من جبل (برناند) الذى يشرف على سهل (سنجار) ، على بعد حوالى ثمانية كيلو مترات من قرية (هزار مرد) . ويبلغ عمق الكهف حوالى ٣٠ مترا ، ويتراوح عرضه بين ١١ ، ١٢ مترا ، أما ارتفاعه فيبدأ من خمسة امتار عند المدخل الى مسافة لم يتمكن احد من قياسها .

وقد قامت احدى البعثات الأجنبية بالتنقيب فى كهوف (هزارمرد) ، والذى يمثل واحدا من ستة كهوف تقع فى صف واحد فى سفح جبل برناند . وقسمت البعثة طبقات الكهف الى ثلاثة أدوار .

(أ) فالدور الأول ويمثل الطبقة العليا وهى من العصور التاريخية المتأخرة ، عثر فيها على كسرات من فخار متنوع الشكل وبعضه اسلامى ودفنات حديثة . كما كشف فى هذه الطبقة عن ثلاث قطع من الحديد منها رأس رمح وعلى مسكوكتين ، واحدة بيزنطية ، والأخرى ساسنية .

(ب) مخلفات هذه الطبقة من الأدوات الصوانية تشبه ما عثر عليه فى فرنسا من العصر الأورنياسى ، وهو العصر الحجرى القديم الأعلى ، والتى تميزت ادواته بصغر حجمها حتى سماها بعض العلماء بالأدوات القزمية (ميكروليثية) . ويحتفظ المتحف العراقى بنماذج من هذه الأدوات .

(ج) أهم طبقة من مخلفات هذا الكهف ويتراوح سمكها بين ٥٠ سنتيمترا عند المدخل و ٣٫٩٠ مترا فى الوسط ، وعثر فيها على شظايا من الصوان كالمكاشط والقاطعات والمثاقب والسكاكين ، وهى تشبه الأدوات الموستيرية والذى يقدر تاريخها من ثلاثين الف سنة ، الى خمسين الف سنة . وأدوات هذه الطبقة تشبه الأدوات الصوانية التى عثر عليها فى الطبقة D فى كهف (شانيدار) .

كهف شانيدار

يقع الكهف على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر فى السفح الجنوبى لجبال زاجروس على بعد قريب من قرية شانيدار فى منطقة (رواندوز) بلواء اربيل . عملت فى هذا الكهف بعثات عراقية مختلفة بالاشتراك مع بعض رجال البحث من الامريكيين . ويبلغ ارتفاع مدخل الكهف ٨ أمتار

وعرضه ٢٥ مترا وعمقه ٤٠ مترا وعرضه من الداخل ٥٣ مترا وارتفاع سقفه حوالى ١٤ مترا . وقد قسمت طبقات الكهف الى أربعة أقسام وهى :

(أ) وهذا القسم يمثل الطبقة العليا ومخلفاتها اغلبها من العصور التاريخية مختلطة بكسر من الفخار وصوان وسكاكين ومكاشط .

(ب) أدوات صوانية صغيرة (قزمية) أو (ميكروليثية) وكذلك من حجر الاوبسيدين وبعض أدوات صنعت من عظام الحيوانات . وأدوات هذا القسم من العصر الحجرى القديم الأعلى (La supérieure Paléolithique) ، ويحتفظ المتحف العراقى ببعض نماذج منها .

(جـ) أدوات هذا القسم من الصوان تشبه أدوات العصر الحجرى القديم الأعلى ، وبالمتحف العراقى نماذج منها .

(د) أدوات هذا القسم الصوانية هى عبارة عن فؤوس يدوية وسكاكين ومكاشط ، وهى تشبه الأدوات التى عثر عليها فى كهف هزارمرد فيما عدا الفؤوس اليدوية . وصناعة أدوات هذا القسم تشبه الصناعات الموستيرية . وعثر فى هذا القسم على عظام حيوانات وآثار النار التى استخدمت لشى الحيوانات أو للتدفئة . وكشف بين المخلفات عن هيكل عظمى لطفل على عمق ٢٦ قدما من سطح الكهف . ويحتفظ المتحف العراقى بنماذج من الأدوات التى عثر عليها فى هذا القسم .

الصحراء الغربية (بادية الشام)

وهى تشمل المنطقة الممتدة شمالا من أعالى الفرات حتى مرتفعات نجد وغربا الى الصحراء البركانية فى الأردن وسورية ، وكانت هذه المنطقة وفيرة المياه فى عصر البلايستوسين من أجل ذلك كان بها سكان من العصر الحجرى القديم أو على الأقل مروا بها . وفى نهاية العصر الجليدى الرابع حيث اشتد الجفاف وقلت المياه استقر الناس حول الينابيع .

انتشرت بمراكز تجمعات السكان قديما فى تلك الصحراء أدوات من الصوان والحجر الجيرى من فؤوس يدوية من العصر الحجرى القديم وسكاكين موستيرية تشبه أدوات كهف شانيدار (القسم الرابع) كما عثر على أدوات أحدث من تلك الأدوات وهى من النوع الاورينياسى وهى تشبه الأدوات التى كشف عنها فى كهف شانيدار (القسم الثالث) . ووجدت

نماذج كثيرة من الادوات الصوانية من هذه الأنواع فى وادى حوران وقرب الرطبة وفى جبل عنزة وفى جنوبى سنجار . وبالمتحف العراقى نماذج كثيرة من هذه الأدوات .

كهف زرزى :

هو كهف صغير يبلغ طوله حوالى ثمانية أمتار بمثل هذا العرض وارتفاعه ٢٫٢٥ مترا ، ويقع غربى سرداش التى تبعد خمسين كيلو مترا من شمال غربى السليمانية . قسمت طبقات الكهف الى ثلاثة أدوار :

(أ) يبلغ سمك هذه الطبقة ٥٠ سم . فضلاتها متأخرة العهد .

(ب) كثرت الأدوات الصوانية التى عثر عليها داخل طبقة يبلغ سمكها ١٫٣٠ مترا . من بين هذه الأدوات المكاشط والسكاكين والقاطعات وبعض أدوات قزمية . وهذه الصوانيات جميعها من العصر الحجرى القديم الأعلى (المسيوليثى) ، ويحتفظ المتحف العراقى بنماذج كثيرة منها ، وقد اصبح صوانه مشهورا حتى اصبح يلقب به أدوات صوانية كشفت فى مواقع اخرى مثل (شانيدار) فى (القسم الثانى) و (هزارمرد) فى (الطبقة ب) .

(جـ) طبقة ضئيلة من المخلفات . ليس بينها ادوات تستحق الذكر .

كهف بالى كورة :

يقع فى لواء السليمانية بجوار قرية سليمانى بالقرب من بازيان . قام بالتنقيب فيها بعثة امريكية . وقد تمكنت من تقسيم الرديم الموجود بالكهف الى ثلاث طبقات : الاولى منها وهى العليا بها كسرات فخارية من فخار آشورى وفخار نينوى . والثانية تضم أدوات صوانية كثيرة من سكاكين الى قاطعات وأدوات صغيرة قزمية . وهى شبيهة بما كشف عنه فى كهف (زرزى) ، وهو من اواخر العصر الحجرى القديم الاعلى او المسيوليثى . ويحتفظ المتحف العراقى بين ودائعه بنماذج من مخلفات هذه الطبقة . كما وجد بين مخلفات هذه الطبقة بعض ادوات حجرية كالمطارق والمجارش من العصر الحجرى الحديث . وعلى ذلك فأدوات هذا الكهف احدث من ادوات (زرزى) .

كريم شاهر :

هذا الموقع فى لواء كركوك ، على بعد كيلو مترين فى أعلى مجرى مائى تقع عليه چرمو وقد قامت بعثة امريكية بالتنقيب فى مساحة نحو ٥٥٠

مترا مربعا وانتهت الى ان الانسان الذى عاش فى هذا الموقع قديما سكن كهوفا وقرى كانت الاكواخ فيها مشيدة من الطين ، كما عثر فى « المحلة » على ادوات حجرية كالمعازق والمجارش وجزء من منجل مصنوع من الصوان ، كل ذلك يدل على بداية حصاد الحبوب وجرشها ، وفى هذا غالبا اشارة الى بداية اختراع الزراعة . كذلك كشف عن أدوات الزينة كالخرز ودلايات الحجر . وقد استطاعت البعثة ان تؤرخ المحلة بالعصر الحجرى القديم الاعلى أو المسيوليثى . ويحتفظ المتحف العراقي بنماذج من هذه الآثار .

محلة ملفعات :

وهى تقع على مكان مرتفع يشرف على نهر الخازر بالقرب من جسر الموصل ــ اربيل الواقع فى لواء الموصل . وقامت احدى البعثات الاجنبية عام ١٩٠٤ بالحفر هناك فعثرت على أدوات من الصوان كالمكاشط والسكاكين وأدوات ميكروليثية معروض نماذج منها بالمتحف العراقى . كذلك عثر على أدوات حجرية كبيرة كالمطارق والمجارش والمعازق . وادوات هذه المحلة شبيهة بادوات محلة كريم شاهر .

العصر الحجرى الحديث : La Néolithique Période

انتقل الانسان من العصر الحجرى القديم الى العصر الحجرى الحديث وقد ظهر فى اوربا بين العصر الحجرى القديم الاعلى والعصر الحجرى الحديث الذى نحن بصدده الآن عصر سمى Méseolithique (العصر الحجرى الوسيط) وقد تبدلت فى العصر الحجرى الحديث الاخير اساليب عيشه وانتقل من حياة جمع القوت بالصيد الى الاهتداء الى اختراع الزراعة وتدجين الحيوان . فقد حرث الارض وزرعها بحبوب كانت برية فى أول امرها . وبذلك استغنى عن التجوال لمطاردة الحيوان بالاستقرار . وتجمعت بعض عائلات فى صعيد واحد واقاموا لهم مسكنا وبذلك نشأت القرية ، ومنها نبتت بذور الحياة الاجتماعية بنظمها الاجتماعية والسياسية البدائية . وقد تميزت الزراعة التى اخترعها انسان العصر الحجرى لأول مرة فى كل من مصر والعراق . الزراعة التى كانت زراعة على نطاق ضيق بالاكتفاء الذاتى ، وكان على كل عائلة أن تنتج ما تحتاجه فقط . كذلك كان كثيرا ما ينتقل حينما تستنفد خصوبة الارض التى زرعها أكثر من مرة ، لأنه لم يكن ليعرف طريقة التسميد أو لربما كان يترك جزءاً من الأرض بور فترة من الزمن لترتاح فيها التربة ويعود اليها بعد ذلك ولا زال انسان بعض مناطق أفريقية يسلك نفس الطريق الذى سلكه انسان العصر الحجرى الحديث فى مصر والعراق .

كانت أدوات الانسان محدودة وحياته الاقتصادية أيضا محدودة . ومن الادوات الرحى وهما حجران صلبان بسيطان يوضعان فوق بعضهما ويدار العلوى منهما فتجرش الحبوب . كذلك الفؤوس والمحاريث والمناجل التى كانت تتكون من اسنان من الصوان كانت تستخدم ايضا فى العصر الحجرى القديم . وغالبا فان انسان العصر الحجرى الحديث عرف الغزل وحياكة القماش وذلك بعثورنا على اقراص المغازل الفخارية .

وفى أواخر العصر الحجرى الحديث ، اى فى الألف السادس قبل الميلاد تقريبا سكن الناس فى العراق القديم اعالى الفرات وفرعيه البالخ والخابور ، فى (سكجة كوزى) و (مرسين) فى جنوب الاناضول . وقد كشف عن فخار فى أسفل طبقات تل (سكجة كوزى) . ويمتاز فخاره بالخشونة ولونه الاسود الدخانى . ولا زالت آثار أصابع صانعه على صفحته . ولم تتعدد اشكاله بل كان اغلبها من القدور والاوانى ذات الفوهة الواسعة قليلة العمق (الطست) ، واحيانا لها عروة ، وبعضها خدشت صفحته أو طليت بقشرة سميكة بنية اللون أو حمراء . وبعض فخار سكجة كوزى رقيق الجوانب ومخطط بالبياض .

لم يظهر بين هذه الجماعات فى العصر الحجرى الحديث التخصص الصحيح ، ولكن من الجائز انه كان هناك نوع من تقسيم العمل البدائى خصــــوصا بين الرجل والمراة فكانت المراة كما يرى البعض هى أول من اكتشف البذر ، من اجل ذلك قامت هى بالبذر والطهى والطحن والغزل وصنع الملابس . وكلف الرجل بالحرث واقامة المنازل والعناية بالحيوان والصيد وصناعة دوابه وحراسة منزله وصناعة الاسلحة من رؤوس سهام الى أقواس .. الخ .

والراجح انه لم يكن هناك مجتمع فى العصر الحجرى القديم ، فقد نشأ المجتمع غالبا فى العصر الحجرى الحديث . حتى تكوين الأسرة نفسه لم يكن معروفا أيام العصر الحجرى القديم ، وهناك احتمال كبير فى أن العائلة قد نشأت مع استقرار المجتمع فى قرية العصر الحجرى الحديث بعد أن ادرك العلاقة فى الاختلاط بين الرجل والمراة فانشأ اسرة ، وبدأت الديانات . وان أول اله عبد وقدس فى العراق أو فى غـــيرها من مراكز الحضارات الأولى هو اله الزراعة وصنع على هيئة دمى من الطين ، وقد كشف عن تماثيل فى محلات العصر الحجرى الحديث بالعراق تمثل امراة بدينة لها ثدى مبالغ فيه فى (چرمو) و (حسونة) . وكذلك عبدت الشمس على اعتبار انها تؤثر فى الزراعة . وكذلك الحال فى وادى النيل اذ عبد أزوريس وعرفت قصته من قديم الزمان وشبه اله النيل بين الذكر

والانثى فله من الانثى الثديان والبطن المنتفخ . كذلك عبدت الشمس فى مصر القديمة منذ أبعد العصور وصدى عبادة (رع) اله الشمس موجود فى نصوص الاهرام التى تحكى معتقدات المصريين فى العصور البعيدة فى القدم .

ومن النظم التى ظهرت فى العصر الحجرى الحديث الملكية الفردية ، وغالبا ان لهذا النظام اثره فى نشأة العائلة . وقد دفعت زراعة الانسان المتنقلة اضطراره الى التوسع والاصطدام بجماعات أخرى من التى كانت لا تزال تعيش على جمع القوت ، من أجل ذلك ظهر النزاع على الارض ، وبهذا ظهر نظام المعارك الحربية البسيطة .

اما عن تدجين الحيوان فقد ظهر غالبا بعد اختراع الزراعة ، فقد جذبته المزارع التى قام بزراعتها انسان العصر الحجرى الحديث والتى كانت تطمئنه على قوته وتكفيه عن التنقل من غابة الى أخرى .

* * *

الفصل الثالث

فجر الحضارة

تمهيد

استطاع الانسان فى كل من وادى النيل ووادى الرافدين ان يهتدى الى الزراعة واستئناس الحيوان فى العصر الحجرى الحديث كما فصلنا امر ذلك من قبل . وان هذا التطور له اثره فى التمهيد للحضارة الناضجة التى ستاتى فى اعقاب العصر الحجرى الحديث . غير أن نشأة الحضارة الناضجة لم تتم فجأة ، وانما مرت بفترات حتى تم نضوجها . فالفترة الاولى وهى فجر الحضارة فى العراق غالبا تقع بين ٦٠٠٠ ق.م أو ٥٠٠٠ ق.م وتستمر الى بداية العصر التاريخى الذى يقع غالبا فى بداية الالف الثالث ق.م.

كانت معرفة الانسان فى عصر فجر الحضارة لاستخدام المعادن فى بداية الحلقة الاولى منها وذلك لعدم معرفته وسائل التعدين ، ولوحظ أنه ظل يستعمل الحجر والعظم والعاج فى صنع أدوات الصيد والزراعة والحرب . ولما تطور فن التعدين فى الحقبة الاخيرة من هـــذه الفترة كثر استخدام المعادن خصوصا فى الفترة التى كانت تسمى فترة (العبيد) اى حــوالى ٤٠٠٠ ق.م من اجل ذلك سميت هذه الفترة بالعهد الحجرى المعـــدنى L'enéolithique période ، كذلك يسميها بعض العلماء عصر ما قبــل الأسرات فى كل من مصر والعراق وهى تتميز بما يلى :

اتساع رقعة الأرض المزروعة ، وقد أخذت المحلات الصغيرة التى كانت تضم كهوف الناس من العصر الحجرى الحديث طريقها لتصبح مدنا صغيرة اتسعت فيما بعد . ثم نشأ فى عصر فجر الحضارة هذا التخصص بمعنـــاه الحقيقى ، اذ ظهـــر فى المدن تخصصات فى صناعات ، بادلت منتجاتها للفلاحين الذين عملوا على الاكثار من الانتاج .

كان عصر فجر الحضارة فى بلاد الرافدين ممتازا فى صناعة الاوانى

الفخارية المزينة بالرسوم الهندسية والنباتية والحيوانية ومناظر الطبيعة . وانتشرت هذه الصناعة حتى بداية العصر التاريخي . وان هذه الفترة وهي عصر فجر الحضارة ، غالبا ما تكون المرحلة المشتركة بين حضارات الشرق الادنى كله . وبعد ذلك تحاول كل حضارة أن تستقل عن جارتها . وعثر على مخلفات هذا العصر في محلات لا نعرف اسماءها ، من أجل ذلك سميت أطوارها الحضارية بأسماء قراها الحديثة . وكشف عنها تحت أطلال معابد ومخلفات العصور التاريخية . وساعطي في نهاية هذا الفصل نموذجا عن أعمال التنقيب التي تمت في مراكز حضارية قديمة عثر فيها على آثار منذ فجر الحضارة حتى نهاية التاريخ العراقي القديم ، وعلى سبيل المثال (الوركاء) و (نفر) .

وتعرف الأطوار التي مربها العراق في فجر حضارته (بملفعات) ، (جرمو) (حسونة) و (سامراء) و (حلف) و (اريدو) و (العبيد) و (سوس) و (الوركاء) و (جمدة نصر) . وأما مثيلتها في مصر فهي : (الفيوم) و (العمرة) و (جرزة) و (نقادة) . وفي سورية والبلاد الشامية تتمثل في وادي (العمق) وفي منطقة (الخابور) وفي (الجديدة) و (راس شمرا) وفي (تل حلف) ، وفي (أريحا) في فلسطين وغيرها . وأما عن مثيلتها في ايران ، فقد عثر عليها في (سيالك) ، وفي تركية في (مرسين) .

وجدت آثار الاطوار الاولى لهذه الحضارة في الواحات ، وفي أعالي الفرات حيث كان يعتمد الناس في ري أراضيهم على الامطار . لقد كانت الزراعة في الواحات بجوار الآبار اسهل من الزراعة على مياه النهر التي تتطلب من الفلاح تنظيم الارواء وبناء السدود . من أجل ذلك لابد ان الانسان قد تعلم مبادىء الزراعة في مناطق الواحات والمناطق المرتفعة حيث تكثر الامطار . كما هو الحال في (جرمو) و (تل حسونة) . ثم انتقل الانسان بعد ذلك الى الوديان الكبرى ، وعندما تكون اليابس في جنوب العراق حقا . لقد كانت الوديان الكبرى مثل وادي الرافدين ووادي النيل غنية بالامكانيات الا أن سكناها يستوجب جهودا جبارة في الارواء والسيطرة على المياه .

ومن الاسباب التي دفعت الانسان في عصر فجر الحضارة الى الانتقال الى وادي الرافدين هو تكاثر الجفاف الذي مر بالشرق الادنى في أواخر العصر الحجري القديم وكذلك الحال في وادي النيل . ووفد الانسان الى هذه الوديان وهو مزود بدروس بدائية في الري وصناعة الفخار وقد تفاعل الانسان مع البيئة الجديدة .

عرف العراقيون الاقدمون صنع أدوات من النحاس في عهد (العبيد) اى منذ حوالى ٤٠٠٠ ق.م ، كما عرفوا صناعة البرونز في عهد (جمدة

نصر) أ ى منذ حوالى ۳۲۰۰ ق.م. كذلك عرفوا عجلة الفخارى لصناعة الاوانى من الطين بدلا من صناعتها باليد ، كما عرفوا العربة ذات العجلة . وعرف أهل العراق القدماء صناعة سفن شراعية ، اذ وجد فى (اريدو) وغيرها نماذج لقوارب . وبدأ فن النحت منذ عصر الوركاء ، فى النصف الثانى منه (فى حدود ٣٥٠٠ ق.م) كما ظهرت دور للعبادة منذ عصر العبيد ، وظهرت (الزقورة) من ايام عصر الوركاء .

أهم مراكز الحضارة فى فجر الحضارة فى بلاد الرافدين :

تسلسلت الاطوار الحضارية فى هذه الفترة حسب الترتيب الزمنى متخذة هذه الاسماء الحديثة التى كشفت فى اطلالها مخلفات فجر الحضارة فى العراق كما يلى : ملفعات ، چرمو ، حسونة ، وسامراء ، وحلف ، واريدو والعبيد ، وسوس ، والوركاء ، وچمدة نصر . (انظر شكل ١) .

وقد عثر فى كثير من المراكز على آثار من جميع الحضارات السالفة مرتبة بحسب الطبقات ، مبتدئة بآثار حسونة فى اسفل التل ، منتهية بأحدث الاطوار على سطح التل . وقد سمى العلماء الدورين الاخيرين من هذه الفترة وهما الوركاء وچمدة نصر بالعهد الشبيه بالكتابة . وبشكل ادق اطلق على دور چمدة نصر والنصف الثانى من دور الوركاء Proto-Literate وقد عثر فى هذه الطبقات على ادوات وآلات خاصة بكل دور كما تم الكشف عن عناصر معمارية ونماذج من النحت وبعض الفنون الاخرى . وما من شك أن جذور الحضارة السومرية قد نبتت فى تربة تلك الاطوار الحضارية .

عصر حسونة

بدات مديرية الآثار العراقية فى الكشف عن آثار هذه المنطقة عام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٤ فى قرية موضعها الان (حسونة) التى تقع جنوبى الموصل بحوالى ٣٥ كم . وتل حسونة هو مركز حضارى صغير لا تزيد مساحته عن ٢٠٠ × ١٥٠ م ولا يزيد ارتفاعه عن ٧ امتار وقد قسمه العلماء الى ستة عشر طبقة تمثل خمسة اطوار حضارية . أولها من العصر الحجرى الحديث عاش فيه السكان منذ حوالى الألف السادس قبل الميلاد فى بيوت من شعر الحيوانات ، ثم تقدموا فصنعوا بيوتا من الطين . وفخار عصر حسونة خشن الصناعة ليس عليه اصباغ ، غالبا ما يكون شبيه بفخار سكجة كوزى . وفى الطبقات السبع السفلى فخار متنوع رقيق مطلى بالوان منها البرتقالى ومخطط بخطوط على هيئة مثلثات . وكذلك هناك فخار غير مصبوغ ومخطط بخطوط محفورة بشكل غير متوازى . وقد لوحظ ان فخار

هذا العصر صنع باليد من طين فاتح مزود بالتبن أو وردى أو بنى . ومنها جرار كروية ، واطباق بيضية الشكل ليست غائرة .

وطور حسونة الذى يحدد بحوالى ٥٢٠٠ — ٥٠٠٠ ق.م هو أول فترات العصر الحجرى المعدنى L'enéolithique période . ووجد فى شمالى العراق بعض آثار تشبه المخلفات التى عثر عليها فى حسونة . وهى تشبه آثار مصر العليا والآثار التى عثر عليها فى (العمق) و (رأس شمرا) و (الجديدة) فى الشام .

عصر سمراء

كشف عن هذا الموقع عام ١٩١٢ — ١٩٤٠ فى منطقة مدينة سمراء . عثر على فخار من هذا العهد فى قبر بسمراء يقع تحت منشآت اسلامية . وقد اختلط فخار هذا العهد بفخار عصر حلف ، وهو العهد الذى يلى عصر سمراء . ولا يمكن الجزم بأيهما أقدم من الآخر . ولكن قد بين الكثير من العلماء فى بحثهم عن الفخار قدم فخار سمراء عن فخار حلف . وقد تميز فخاره برسوم انسانية وحيوانية وهندسية (انظر شكل ٢) .

وقد عثر على أوانى حجرية وسكاكين حجرية من الحجر البركانى وهو الاوبسيديان من هذا العصر . وهذا يدلنا على تقدم الصناعة وتقدم التجارة لان هذا الحجر لا يوجد عادة الا فى جبال أرمينية وبعض مرتفعات بلاد العرب .

عصر حلف

نسب هذا العصر الى تل حلف التى تقع فى أعالى نهر الخابور وعلى مسافة ١٤٠ ميلا شمال غربى نينوى . وقد كشف عن كثير من آثار ذلك العصر فى جهات عديدة فى شمالى العراق . وقد امتاز فخار هذا العهد بأوانى فخارية دقيقة الصنع صبغت بألوان مختلفة فى الاناء الواحد ، منها الاصفر والاحمر والبرتقالى وقد صقلت صقلا دقيقا . وفى الاريحية بالقرب من الموصل ظهر تقدم محسوس ، فظهرت القرية وقد كسيت شوارعها بالحجارة ، واحيطت القرية بسور ، وكشف فيها عن مبان عامة يرجح أنها دور للعبادة .

وعثر على آثار مماثلة لتلك التى كشف عنها فى خلف بسورية فى راس شمرا . وجدير بالذكر ان الحضارات التى سبق أن فصلناها تقع مراكزها فى شمالى العراق لان جنوب العراق لم يكن يصلح فى هذه العصور للسكنى .

وبعد ذلك تبرز اليابسة من مخلفات الرافدين ، وقد عثر على مخلفات من اوان فخارية جميلة فى (أريدو) أبو شهرين حاليا ، وهو العصر الذى يسمى العبيد .

عصر العبيد

ان عصر العبيد يعد اقدم عصور فجر الحضارة فى جنوبى العراق ، لان هذه المنطقة لم تكن لتصلح للسكنى الا فى هذا العصر . وقد نسبت مخلفاتها الاثرية الى تل يقع على بعد بضع كيلو مترات من الناصرية بالقرب من مدينة اريدو (ابو شهرين حاليا) . ويمتاز هذا العهد بانتشار آثاره فى جميع انحاء العراق . فى أور واريدو ، والوركاء ، ونفر ، وقلعة حجى محمد ، ولجش ، والعقير بالقرب من الخليج العربى جوار بندر بوشير . وينتشر فخار العبيد شمالى العراق وكذلك فى عيلام . ويمتاز فخار العبيد بشدة حرقه حتى اكتسبت طينته لونا اخضر وصارت صبغة . وصنعت الاوانى باليد وبالاستعانة بالدولاب الفخارى البطىء ، وغالبا ان الدولاب السريع الدوران الذى تستخدم فيه الرجل كان مستعملا فى بعض أوان فخارية من عصر العبيد . امتاز فخار هذه الفترة بتعدد اشكاله واتقان صنعه ورقته ومنه الصحون والاسفاط والاطباق المصبوغة بخطوط عريضة . وكذلك اقداح بيضية واسطوانية وطاسات عميقة وآنية صغيرة على هيئة مسرجة .. الخ وقد زخرفت جوانب الفخار بأشكال مثلثات ومربعات وخطوط متقاطعة ورسوم تقريبية تمثل الطيور والحيوانات كالماعز والغزال .

ووجد فى هذا العصر دور للعبادة فى شمالى العراق وجنوبه ، ونماذج من أبنية من اللبن بدلا من الطين (الطوف) الذى استخدم فى مبانى العهود السابقة . وانتشر فى هذا العهد استخدام النحاس فى القسم الثانى من عصر العبيد . وقد عثر على نموذج من سفن شراعية بين مخلفات تل أبو شهرين . كذلك عثر على نموذج عربة ذات عجلات . ووجد فى (العقير) وهى احدى قرى العبيد نماذج هامة من هذا العهد ولها ابواب من خشب وسقفت بسطوح مستوية ذات ميازيب فخارية . وكان كل بيت مكون من أربع أو ست حجرات منسقة ويصعد الانسان الى سطح المنزل بواسطة سلم . وعثر على ابر مصنوعة من العظم ومغازل . وفى الامكان أن نسمى اهل عصر العبيد الذين اقاموا فى القسم الجنوبى من العراق بأجداد السومريين . ومما يدل على ازدهار ذلك العصر كثرة عدد القبور المكتشفة من هذه الفترة ، اذ عثر فى (أريدو) من أواخر عهد العبيد على ما يقرب من الف قبر .

وبعض العلماء يؤرخ عصر العبيد فى حدود ٤٠٠٠ ق.م والبعض بحوالى ٤٥٠٠ ق.م خصوصا فى القسم الجنوبى من العراق . وهذا العصر يقابل عصر (الفيوم) فى مصر الفرعونية الذى يقع فى العصر الحجرى الحديث .

الفصل الرابع

الفترة الشبيهة بالكتابية أو العصر التاريخي

لم يهتد سكان العراق القديم حتى عصر العبيد الى معرفة الكتابة . ثم ظهرت الكتابة في النصف الثاني من عصر الوركاء وكانت بسيطة في مبدئها فتدون الاشياء المألوفة بتصويرها . وكانوا يكتبون على الواح من الطين قبل ان يجف ، وقد استمر العراقيون القدامى يتخذون الواح الطين سجلات يكتبون عليها حوادثهم وتاريخهم وآدابهم الى جانب الكتابة على الحجر والمعادن . ثم تطورت الكتابة الصورية بعد مرور فترة من الزمن طويلة واستخدمت مجموعة من العلامات لتعبر عن المعاني المجردة ثم اختصرت الكتابة حتى أصبحت شبيهة بالمثلثات أو المسامير ، من أجل ذلك سميت الكتابة المسمارية . وأصبحت بعد ذلك تستخدم بهيئة مقاطع صوتية .

عصر الوركاء أو أوروك

نسبة الى مدينة الوركاء التي سنتحدث عنها فيما بعد . اخترعت الكتابة في منتصف هذا العصر . وتقدم فن العمارة وأهمها دور العبادة التي اتخذت طابعا خاصا فشيدت على مصاطب صناعية وهي أصل (الزقورة) التي كانت من مميزات العمارة في الحضارة العراقية ، كالاهرام التي تعتبر من أهم خصائص الحضارة الفرعونية . وهي برج شاهق الارتفاع مثل (برج بابل المشهور) ، وقد كان يقام بجوار المعبد على هيئة طبقات أقلها ثلاثة واقصاها سبع تتناقص كلما اخذت في الارتفاع . ويقام فوق القمة معبد يعبد فيه اله المدينة : وللزقورة سلم يوصل الى قمة البرج . ويبنى بجوار الزقورة معبد المدينة .

ومن بين مخلفات عصر الوركاء نماذج من تماثيل حجرية هي أقدم أنواع فن النحت في تاريخ الفن العراقي . كذلك اخترع الناس من عصر الوركاء الختم الاسطواني ، وكان ايضا من مميزات حضارات العراق القديم وكان عبارة عن اسطوانة نقشت عليها صور ورسوم بهيئة معكوسة ، فاذا ما أريد زخرفة أي شيء يمرر الختم الاسطواني على لوح من طين لم يجف

فنحصل على شريط من وحدات زخرفية متكررة . وقد ظهرت الختوم القرصية المنبسطة قبل الختوم الاسطوانية .

أما عن فخار الوركاء ، فقد عثرت البعثة الالمانية التي كانت تعمل هناك على أوان فخارية جديدة لها لون رمادى ، وكذلك اختلطت بعض انواع من الفخار مع فخار عصر العبيد . وقد اصبح للفخار المكتشف فى الوركاء طابع خاص اذ ان بعضه يمتاز بلون واحد ، غالبا ما كان الاحمر المدلوك ، وعلى سطحه طبقة رقيقة ، ومادته ناعمة حمراء اللون لأنها تحتوى على مركبات الحديد وتحرق حرقا جيدا . من اجل ذلك لقب الفخار من هذا النوع انى وجد بفخار اوروك . وقد كشفت عينات منه فى تل العبيد وفى لجش وفى السوس ، وانتشر فى شمال العراق الا انه تاثر بفخار العبيد وشوهد فى نينوى وامتد حتى وصل الى البحر المتوسط والى الاناضول .

انتشر فخار أوروك فى منتصف الالف الرابع ق.م (٣٨٠٠ — ٣٢٠٠ق.م) وقد استخدم الانسان فى هذا العصر الدولاب سريع الدوران Tournette وقد صقل سطحه صقلا جيدا لتجنب ترشيح السوائل وبعضه محفور بسذاجة غالبا ما يكون بظفر احد اصابع اليد . واغلب اوانيه كروى وعلى هيئة طاسات . اما الفخار الاحمر فمصقول جيدا ولامع ، وهذا الاخير اكثر انتشارا عن غيره من فخار أوروك ، وأشكاله متعددة منها الكاسات نصف كروية وقوارير لها نهايات رفيعة . وبعضه مزود بفواهتين . وهناك نوع ثالث من فخار الوركاء خشن الملمس سميك ، صنع باليد .

يضع بعض العلماء حاليا عصر الوركاء والعصر الذى يليه كوحدةواحدة، وقد قيل ان السومريين قد اتوا فى هذه الفترة ، وانهم قد جاءوا وفى ركابهم ثقافات تمتاز عن ثقافات السكان الاصليين . ومن أين اتى هؤلاء ؟ وما هو اصلهم ؟ لا نستطيع ان نعطى اجابة صريحة . وعلى أية حال فالسومريون ليسوا ساميين ، وأن لغتهم ليست مثل اى لغة اخرى معروفة ، وانموطنهم الاصلى كان بعيدا عن هذا المكان .

لقد وصلت الينا معتقدات السومريين عن هذه الفترة من بعض النقوش واجملها الاناء المرمرى الكبير الذى عثر عليه فى أوروك ، وقد زين بنقوش نظمت فى صفوف وهو يعرف باناء الوركاء ، وموضوعها عبادة الالهة Innin وقد مثلت هنا برموزها : حزمتان من البوص وضعا جنبا الى جنب ، وهما يرمزان الى مدخل المعبد ، وقد اقترب من هذا المدخل حملة القرابين : وهم عبارة عن رجال عرايا يحملون سلالا مملوءة بالفواكه والخضروات وأوانى . وأحدهم يتصدر الطريق ، ومن خلفه ملك أو رئيس

دينى ، ويحيه امرأة خارجة من المعبد ، من الجائز ان تكون الالهة نفسها وربما تكون الكاهنة الكبرى ومن خلفها قرابين من سلال واطباق من الفواكه وأوانى على شكل حيوانات وغيرها . وأخيرا نرى فى الصف السفلى موكب من الحيوانات وسط أرض غنية بالمزروعات . (انظر شكل ٣)

هذا هو اقدم اناء طقسى كشف فى بلاد ما بين النهرين ، ويؤرخ من ٣٣٠٠ ق.م. تقريبا والكاهنه الكبرى تمثل Innin ، والكاهن الاكبر او الملك هو ممثل الاله ، وينتج عن هذا الزواج المقدس التى تتحد فيه Innin و Dumuzi رمز خصوبة الارض .

عثر على آثار اخرى فى أوروك وفى تل بيلا Tell Billa على أختام منحوتة فى الحجر . ففى متحف بغداد (انظر شكل ٤) خاتم ظهر عليه زورق يقوده ملاحان ، وبداخله عجل فوق ظهره مائدة قربان مدرجة يعلوها عمودان ، ومن أسفل منظر جماعة من الناس تتوجه الى المعبد والملاحظ أن الفنان لم يعرف المنظور ولا النسب . ولكن لا نستطيع أن نقرر هنا أن هذا الفن لا زال فى طفولته . فهذه لوحة من البازلت عليها نقش متقن الى حد ما يمثل صيد أسود (أنظر شكل ٥) ، ولم تنظم فى صفوف ، فمن اعلا نرى رجلا له لحية يصوب حربة فى ثور الأسد . وأسفل ذلك المنظر ، رجل آخر يصوب سهما نحو أسدين . وقد ذكر فرنكفورت أن هذه اللوحة توضع لأول مرة فى تاريخ الفن لتخلد ذكرى حوادث معينة، والتى سنراها فيما بعد فى مناظر الصيد الذى قام بها آشوربانيبال والفارق أن آشور بانيبال كان يقوم بالصيد فوق عربته ، ولكن الصياد هنا كا راجلا . وهكذا الحال فى الفن المصرى القديم ، فقد مثل الصياد فى مناظر الصيد الاولى راجلا كما هو واضح فى قبور صقارة فى وبنى حسن وغيرها ، ولما تقدمت المدنية ودخلت العربة يجرها الخيل مثل الصياد فوق العربة فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية .

وقد اعتبر صيد الحيوانات البرية فى العهدين القديم والحديث ، فى بلاد ما بين النهرين رياضة ملكية تقاس بها قوة الملك الدفاعية ، وكانت تحتاج الحيوانات الى كثير من اليقظة ، وقد مثل موضوع الصيد على كثير من الأوانى فى نقوش بارزة تمثل حيوانات . فعثر فى أوروك على أوان كثيرة ، فيها تمثيل واضح للحيوان .

لم يصور الانسان فقط ، وانما صورت أبطال اسطورية مثل جلجامش ، وقد صور مجردا تماما من الملابس . وله لحية وشعر أشعث، وكان يقوم هذا البطل الأسطورى على حماية القطعان من الماشية .

وعلى أحد طبعات ختم اسطوانى محفوظ بمتحف اللوفر ، مثلت عليه

حيوانات خرافية ، استطالت فيها رقابها . والتفت رقاب كل حيوانين منها حول بعضهما ، وانتهيا براس ثعبانين . وهذه الحيوانات تشبه الرسوم الموجودة على لوحة نعرمر ، أول ملوك الأسرة الأولى فى مصر الفرعونيه ، وهى محفوظة بمتحف القاهرة .. وبالاضافة الى ذلك فان الرسوم الموجودة على سكين جبل العرقى المحفوظ بمتحف اللوفر والذى غالبا ما كشف عنه فى نجع حمادى ، لها صلة وطيدة بالرسوم الموجودة على كثير من الأختام الاسطوانية وليس من شك فى وجود صلة بين هذه الرسوم ، ويذكر (١) A. Parrot فى كتابه الاخير عن الحضارة السومرية ، أن كل المختصين يتفقون على أن هذه الموضوعات كانت أصلا من بلاد ما بين النهرين ، وان مصر قد اقتبستها من العراق . (أنظر شكل ٦ ، وشكل ٧)

كذلك عثر على كثير من تماثيل منحوتة فى أوروك ولجش واور وتل أجرب وخفاچى ، من ثيران وكباش ، فى الفترة الاولى من الالف الثالث قبل الميلاد . وقد زينت بمختلف الالوان والاشكال الهندسية . كذلك عثر فى السوس من العصر نفسه على تماثيل حيوانية من الطين بعضها محفوظ بمتحف اللوفر ، تمثل بعض الطيور والضفادع والبط ، وقد ثقبت هذه التماثيل من ظهورها لتضم بعض الزيوت العطرية .

وعثر فى أوروك فى الموسم ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ (انظر شكل ٨) على راس لسيدة تعد من التحف الرائعة معروضة بمتحف بغداد ، من الحجر الابيض وبالحجم الطبيعى . وبالرغم من ضياع التطعيم الذى كان يملأ الحاجبين والعينين فان وجه السيدة معبر تعبيرا صادقا ، وهى اما أن تكون من كبريات الكهنة او ملكة أو آلهة ، واذا ما قارنا هذه الراس بغيرها من تماثيل هذا العهد ، مثل تمثال المراة التى عثر عليها فى خفاچى او الراس الذى عثر عليه فى تل براك ، لنجد فرقا شاسعا بين هذه الراس وبين غيرها من تماثيل . ان هذه القطعة الفنية وهى راس الوركاء ، هى وحدها من الادلة الفنية على تقدم النحت ، ولسنا مبالغين اذا قلنا اننا امام قمة من قمم المجد الذى وصل اليها الانسان فى تلك العصور الغابرة فى العراق القديم ، الذى بدات حضارته قوية فى فجر تاريخها ، واستمرت قوية كما سنرى فيما بعد .

عصر جمدة نصر

يقع المركز الرئيسى لذلك العصر على تل صغير قرب مدينة كيش ، وهو فى حدود (٣٢٠٠ ــ ٢٨٠٠ ق.م.) وقد كشف عن آثار مماثلة لتلك التى عثر عليها فى هذا المكان فى الوركاء والعقير وتل اسمر ومواقع

1 — André Parrot, Summer (Paris 1961).

اخرى . وقد تقدمت الكتابة فى هذا العصر لكنها كانت لا تزال فى مرحلتها الأولى ، وكانت تستخدم فى تدوين أمور بسيطة . اما فخار هذا العصر فمختلف الوانه . كذلك هناك فخار آخر ملون لونا واحدا ، اما أحمر أو أزرق بنفسجى او بنى قاتم . وهنا أيضا فخار خشن الصنع ولكنه قليل الانتشار . وعثر على فخار من جمدة نصر فى الطبقة الثالثة من الطبقات الخاصة بمنطقة الوركاء . وصنع فخار جمدة نصر الجيد منه على دولاب الفخار السريع الدوران . واما اشكال فخار جمدة نصر فبعضه كروى له رقبة قصيرة زودت بأربع عرى صغيرة . وبعض الاوانى كبيرة الحجم وبعضها صغير . وقد زخرفت الاوانى البنفسجية بخطوط عمودية تؤلف اشكالا هندسية ، كذلك رسم عليها أحيانا شجر . كما يوجد أيضا جرار وقوارير بيضية الشكل لها ميزب ايضا .

وقد أتقن الناس فى هذا العهد تطعيم الاوانى الحجرية بأخرى من الوان مختلفة . ويمتاز عهد جمدة نصر بختوم اسطوانية على نقوش تمثل حيوانات وأسماك وطيور ، ولكن لم تكن دقيقة الصنع كتلك التى عثر عليها فى الوركاء . أما الكتابة فقد اختصرت من ٢٠٠٠ اشارة الى ما يقرب من ٨٠٠ اشارة ثم الى ٦٠٠ اشارة فيما بعد . كذلك انتشر استخدام النحاس ، وغالبا ما عرفوا البرونز .

والخلاصة أن الفترة التى اصطلح على تسميتها بالعهد الشبيه بالكتابية لها اهمية كبرى فى بناء الحضارة فى القسم الجنوبى من العراق بحيث اننا يمكننا أن نسميه دور التأسيس . وان العصر التالى وهو عصر فجر الأسرات أو عصر ما قبل سرجون — وهذه التسمية الاخيرة هى التى فضلناها عن غيرها لهذا العهد — هو العهد الذى تبلورت فيه هذه الحضارة .

* * *

الفصل الخامس

عصر ما قبل سرجون

تقـديم :

للفترة الأخيرة من عصر ما قبل الاسرات الرافدى تسميات كثيرة .. اكثرها شيوعا (عصور فجر الاسرات Early Dynastic Periods) ، ويطلق عليها ايضا (عصر ما قبل سرجون La Période Presargonique) . وتسمى ايضا عصر لجش الاول والثاني والثالث . وتبدأ هذه الفترة أو هذه العهود من نهاية عصر (جمدة نصر) الذى يقع فى أوائل الالف الثالث ق.م . وتنتهى عند حوالى ٢٤٧٠ ق.م حينما وحد سرجون الاكدى البلاد فى مملكة واحدة . وقد اصطلح جمهرة المؤرخين على تسمية هذه الحضارة بالحضارة السومرية .

كانت الظاهرة الواضحة فى عصر ما قبل سرجون هـو قيام دويلات المدن ، وبالرغم من ذلك فان هذه الفترة تعد بحق الأساس فى الحضارة السومرية ، وأيضا أساسا لجميع الحضارات التى ظهرت فى العراق القديم وبعض الحضارات التى تأثرت بهامن التى جاورتها فى انحاءالشرق القريب . فقد اتصلت الحضارة البابلية والاشورية بالحضارة السومرية ، كما اعتمدت الحضارة الحثية اعتمادا كبيرا على الحضارة السومرية ، كذلك اعتمدت بلاد عيلام التى تقع الى الشرق من دجلة على الحضارة السومرية .

وقد قسمت تلك الفترة التى قدر لها من الزمن ما يقرب من ستمائة عام الى ثلاثة مراحل : مرحلة عصر فجر الاسرات الاول والثانى والثالث . وقد جاءت المرحلة الاولى فى اعقاب عصر جمدة نصر ، وهى تعد مرحلة انتقال وقد تميزت بالختوم الاسطوانية المزخرفة ، كذلك كشف فى هذه المرحلة عن اطلال دور لعبادة آلهة سومرية فى منطقة (ديالى) مثل (تل اسمر) (اشنونا القديمة) و (خفاجى) ، وكثرت فى هذه المرحلة الاوانى الفخارية التى طليت بلون احمر قرمزى .

وتميزت المرحلة الثانية من عصور فجر الاسرات والتي تقع في حدود ٢٨٠٠ الى ٢٤٧٠ بازدهار الحضارة ونحت التماثيل الانسانية التي كان لها مسحة هندسية تكعيبية ، لكنها كانت جامدة لانها كانت في الواقع لها أغراض دينية هي التي الزمت الفنان العراقي بعدم التصرف الا في حدود المعتقدات الدينية ، والدليل على قدرة الفنان العراقي على النحت والتصوير، هو أنه حينما أراد أن يمثل الحيوان أو يصور مناظره المختلفة وفق توفيقا كبيرا ومثله تمثيلا واقعيا رائعا .

أما المرحلة الثالثة فقد ملأت فنونها الراقية دور التحف العالمية (المتحف العراقي ، المتحف البريطاني ، متحف جامعة بنسلفانيا) ، ومنها المقبرة الملوكية التي عثر عليها في أور ، وقد تضمنت خناجر وقيثارات من ذهب ، وأكواب وقوارير وخوذ وتماثيل حيوانية بعضها من الذهب الخالص والبعض من مواد اخرى . لقد وجدت نماذج من قبور هذه المرحلة في كثير من المرحلة الاولى من عصور فجر الأسرات ووجد في بعضها عربات لها عجلات ، كما وجد لها نماذج في أور . وكان هناك نوعان من العربات أحدهما للحرب والاخرى للمواصلات العادية . وجدير بالذكر أن استعمال العربات في مصر قد تأخر الى عهد الهكسوس ، اى حوالى ١٧٠٠ ق.م.

السومريون

نستطيع أن نميز ثلاثة حوادث عن أسرة أوروك (الوركاء) الاولى :

١ ـ الحرب التي وقعت بين (جلجامش Gilgames) حاكم الوركاء وبين (أجا Agga) حاكم (كيش Kish) وانتصار جلجامش وانتهاء حكم أسرة كيش الاولى ، وأصبح أجا من موظفي جلجامش .

٢ ـ قيام جلجامش بأعمال عمرانية : من ذلك أنه بنى أسوارا في مدينة (أوروك Uruk) وكذلك بنى في (نفر وكانت تسمى قديما Nippur) مصلى للآلهة (نن ـ ليل Nin-lil) وذلك في معبد الاله (ان ـ ليل En-lil) وجاء اسمه في عدة مناسبات في كتابات (شروباك Shuruppak) وذلك أيام الأسرة الاولى لارو .

٣ ـ قام ولده (أور ـ ننجال Ur-Nungal) ويكتب أيضا Ur-nun-lugal, ur-lugal بتجديد معبد نن ليل في نفر كما قام بتقديم رمح كبير للاله (نن جرسو Ningirsu) في (لجش Lagash) وأصبحت أوروك صاحبة السيادة على كل بلدان سومر وكيش .

١ ـ عصر أور :

كان (مس انى بدا Mes-Annépàdda) هو أول من ورث الحكم من أسرة أوروك الاولى ، وهى الاراضى التى كان يحكمهـا جلجامش وولده (اورننجال) ، وكانت تضم جزءا كبيرا من جنوبى العراق وتمتد حتى شمالى نفر وقد حكمتها أسرة أور الاولى ما يقرب من مائة عام . ولقب أول ملك وهو (مس انى بدا) ملك كيش ، وكانت هذه المدينة تقع شمالى نفر أى خارج بلاد سومر ، وبذلك اتسعت مملكة أور . وأهم أعمال هذا الملك العمرانية هو قيامه ببناء معبد (نن خرساج Nin-hursag بمعنى سيدة الجبل) فى مدينة (العبيد el Abeid) التى تقع قريبا من أور . غير أنه لم يستطع اتمام بناء هذا المعبد ، ومات بعد ان حكم ما يقرب من اربعين سنة .

تولى الحكم بعده ولده (انى بدا Annépadda) فأتم معبد العبيـد الذى كان قد أسسه والده . كان هذا المعبد عظيما مزينا بنقوش وتماثيل حجرية ومعدنية من أجل الالهة (نن خرساج) التى انتشرت عبادتها فى جميع انحاء البلاد حتى مدينة مارى التى تقع على الفرات الاوسط . وكان لهذه الالهة اسماء مختلفة . كذلك اتحد اسمها بأسماء الالهة السـماوية العظام ، فـكانت مع (انليل) فى نفر تدعى (ننليل) ، ومع (انـكى) فى (أريدو) تدعى (ننكى) .... الخ . كذلك قام (انى بدا) بتجديد معبد انليل فى نفر .

جاء من وراء (انى بدا) ولده مس كياج نونا Mes-kiagnunna . قام بتجديد معبد نفر واقام فيه تمثالا للالهة ننليل .

٢ ـ العصر المتوسط :

فقدت سومر فى هذه الفترة حكمها الذاتى وانقسمت قسمين : القسم الاول كان تحت سلطـة أسرتين همـا (أوان Awan) و (خمـازى Hamazi) ، والقسم الثانى تحت حكم أسرة (كيش) . أما الفرات الأوسط فكانت أقوامها تتنازع مع العيلاميين السيطرة على البـلاد . وحينما جلس (ايلولو Elulu) بن (مس كياج نونا) على العرش كانت قد استقلت عنه أغلب المقاطعات ولم يبق له الا أور وأوروك و (شروباك Shuruppak) ، واصبح القسم الشمالى الشرقى من البلاد أى مقاطعات لجش وأوما Umma تحت حكم العيلاميين الذين اخذوا هـذا القسم من (أوان) . ثم طرد أهل كيش العيلاميين وظل ايلولو جالسا على عرش أور . وقد ثبت لدى العلماء أن عدد حكام أسرة كيش الثانية قد بلغ

ثمانية جاءوا الى الحكم بعد سقوط أسرة كيش الأولى . وقد عاصر الثلاثة ملوك الاوائل من هذه الاسرة أواخر حكم الاسرة الاولى للوركاء أو بداية حكم أسرة أور الاولى ، وقد ظهر من أسرة كيش ملك يسمى (ميسليم Mesilim) قام بنشاط عمرانى واسع وذلك فى معبد (نن خرساج) فى (ادب) وقد وسع ملكه من سومر فامتد الى الشرق فوصل الى لجش وأقام على الحدود بينه وبين مقاطعة (أوما) مسلة . وأقام ميسليم ملك كيش معبدا من أجل الاله Ningirsu فى لجش . وقيل انه وصل حتى حدود بلاد عيلام واتخذ لنفسه لقب (الحاكم العادل) وكان هذا لقب اله (الدير Der) المسمى (شتران Shatran) . وفى الواقع كان ميسليم حاكما قويا حكم بلاد سومر جميعها وغالبا انه كان أحد ملوك أسرة كيش الثانيـــة .

وفى أواخـــر أيام (ايلولو) بدأ الضعف يدب فى ملك كيش وتدخلت أسرة (خمازى) وتمكنت من الحكم واستطاع العلماء وضعها بين أسرة كيش الثانية وأسرة أوروك الثانية . وانقسمت كيش فى أواخر حكمهـــا الى قسمين قسم حول أسرة كيش الثانية وقسم حول أسرة خمازى . وظهر العيلاميون فى هذا الوقت وانتهزوا فرصة انقسام كيش وتولوا الحكم وعرفوا بأسرة خمازى ولكن لم تعمر طويلا اذ ظهر فى هذه الآونة أحـــد الحكام المسمى (اورنانشه Ur-Nansha) حيث يبدأ به عصر جـــديد للجش .

٣ ــ عصر لجش :

حكم أورنانشه :

اســـــتطاع أهــــل كيش أن يطردوا العيلاميين من القســــــم الثانى من البــــــلاد ، ولما ظهر (أورنانشة) لقب نفســـــه ملك لجش . فى ذلك الوقت كان الحكم فى كيش ضـــعيفا ، وكذلك مات (ايلولو) حاكم أور وأوروك وتولى من بعده (بالولو Balulu) الذى حكم ما يقـــرب من ٣٦ سنة ، ولم تحاول أى مدينة فى هذه الفترة التى حكم فيها أن تنازعه السلطان .

ولما تولى أورنانشة الحكم عمل على اعادة تعمير مدينة لجش وكانت قد خربت فجدد الكثير من دور العبادة ، منها معبد نانشة Nansha ومصلى نن جرسو ومعبـــد انين Anini ومعبـــد انكى Enki ومعبـــد دموزى ــ أبو Dumuzi-abou . وقام بنشاط عمرانى كبير فى غير هـــذه المعابد فحفر الترع وشق جداول المياه وأمر بنحت تماثيل كثيرة للالهة مثل تماثيل للاله نانشة والآلهة (نينيبا) وغيرها . كما ترك نقوشا عـــدة

منها تمثال صغير لاورنانشة واقفا يتعبد وقد مثل بشعر طويل يسترسل على ظهره . كما مثل فى مكان آخر على لوحة من الرخام حليق الراس . ولما مات أورنانشة جاء من بعده ولده (أكورجال Akurgal) .

حكم أكورجال :

كان يلقب بالأمير Patesi أو الحاكم ، فغالبا ما فقد لقبه كملك حينما هزم امام مدينة (اوما) . ولم توجد فى أيامه حوادث ذات اهمية كبرى . وقد مات وترك العرش لولده (اىاناتم Eannatum) .

حكم أى اناتم :

ضعفت مدينة لجش أيام والده الذى هزم فى حربه ضد مدينة (اوما). كذلك عاداه العيلاميون . فشن أى اناتم الحرب ضد العيلاميين اولا ، ففتح احدى مدنهم الصغيرة وكانت تسمى (حاتمنى) واخذها . وحاول العيلاميون عبثا الهجوم على لجش ولكن صدهم (اىاناتم) وانتصر عليهم فى معارك دامية وقعت على شاطىء نهير (الكارب Carpe) . ولما احست مدينة (أوما) بقوة لجش وانتصارات (اىاناتم) حاول حاكمها (كيش Kish) مهاجمة أراضى لجش لكنه هزم أمام جيش (اىناتم) وظل يطارده حتى وصل الى حدود (أوما) واسترجع جميع الاراضى التى كانت قد حاول (كيش) أن يأخذها . ولم تكن نتائج هذه الحرب حاسمة لأننا سنرى أن (كيش) سيحاول مهاجمة لجش بعد وفاة (اىاناتم) .

لقد كان من نتائج الانتصارات التى فاز بها (اىاناتم) ان تشجع على التقدم الى الغرب والى الجنوب حيث كان ملك اور (بالولو) . لذلك نجده يغزو مدينة (الوركاء) ويتقدم نحو (أور) . وبعد انتصارات (اىاناتم) استقرت بلاد سومر واستتب الأمن فيها طيلة ايام حكمه .

تقدم اى اناتم نحو الشرق ففتح بعض بلاد هناك وعقد صلحا مع حاكم (أوما) الذى تولى الحكم بعد وفاة (كيش) . وبعد هذه الانتصارات العديدة التى احرزها (اىاناتم) استطاع أن يسترجع لقب ملك ، فان حروبه العديدة تجيز لنا أن نلقبه ملك ، على أن المقصود بلقب ملك فى تلك الازمان ان يكون الحاكم مستقلا فى مقاطعته مثل الامير اورنانشة السابق ذكره ، أو أن يكون ملكا على بلاد ما بين النهرين على شريطة أن تكون (نفر) خاضعة له . ولكن ليس هناك اى اشارة عن احتلاله هذه المدينة سوى العثور على هاون قدمه الى الاله نانشة . وهناك احتمال فتحه نفر وذلك حينما تقدم نحو الجنوب وفتح أوروك واور . هذا ولم يستطع (اىاناتم) أن يلقب نفسه على (مسلة العقبان او مسلة النسور) (انظر شكل ٩)

ملكا ، كذلك لم يرغب فى أن يلقب بأمير Patesi . هذا وجدير بالذكر أن مسلة العقبان هذه تصور جيش (اى اناتم) وقد حمل جنوده تروسا جديدة كبيرة الحجم بها مسامير ناتئة ومقابض يحملها بعض أفراد من الجنود فوق رؤوس جماعة من الذين يحملون الرماح الطويلة ، ولذلك كانوا فى أمن من ضربات العدو خفيفى الحركة . وهو مثل من التجدد الواضح فى التسليح فى ذلك الوقت . كذلك هناك مثل آخر رسم على لوحة مطعمة من أور فقد ارتدى الجنود معاطف من الجلد السميك تقى الجنود من الضربات . كما لوحظ على مسلة العقبان فى أسفلها نوع من الجنود بسلح برماح وفؤوس .

لم يكن (اى اناتم) محاربا فقط ، بل تميز عهده بتغيير فى اصول الكتابة ، فقد استقرت الكتابة على نوع معين من المقاطع ورتبت بعناية ، كما حدث تغيير ملحوظ فى ظهور بعض العلامات المختصرة منها . وقد ساعد ذلك على تدوين الحوادث التاريخية فى سهولة ، وغيرها من الاعمال . كانت الكتابة حتى ذلك الوقت تتألف من (رموز Ideogrames) فى كل من بلاد النهرين وعيلام ومصر . ولم يستطع الساميون فى شمال العراق أن يكتبوا لغتهم بهذه الرموز . أما فى جنوب بلاد سومر فقد استخدمت هذه الكتابة لان اللغة السومرية كانت مقطعية رمزية (ملصقة Agglutinative) . من أجل ذلك استطاع الكتبة السومريون أن يدونوا اخبار ملوكهم وحروبهم وأعمالهم العمرانية . فقد بدأ فى عصر اسرة أور الأولى اندماج بعض المقاطع Syllables فى الرموز ، وعلى ذلك أصبحت اللغة سهلة فى التدوين .

أما عن الاصل فى هذه الكتابة فغير معروف ، فان أقدم أنواع الكتابات الصورية معروف فى الحضارات القديمة فى الشرق الاوسط كله فى عيلام ومصر والعراق شماله وجنوبه . وقد حاول بعض علماء اللغة أن ينسب الى السومريين اختراع هذه الكتابة حيث انهم أول من دون حوادث العراق القديم . ولكن أحد العلماء وهو I. J. Gelb ذكر فى مؤلفه « دراسة فى الكتابات » A study of writing ذكر أن السومريين قد اشتقوا كتاباتهم من كتابه أقدم سماها (بداية اللغة السومرية) .

وقد ذكر الكاتب احتمال أن يكون أصحابها قوم مجهولون اما أن يكونوا سومريين أو عيلاميين أو مصريين . وبالرغم من تقدم جنوب العراق عن شماله فى تاريخه وحضارته وكتابته وبالرغم من وجود فواصل سياسية بين القسمين فقد كانت توجد علاقات ثقافية بين الشمال والجنوب . ومنذ أيام اسرة أور الاولى امتدت حضارة الجنوب الى الشمال حتى وصل الى تبة كورا ، ونينوى ، فقد استعملت الاختام الاسطوانية التى كانت

تستخدم فى الجنوب ، وعرف اسم الآلهة عشتار فى الشمال التى كانت تعبد فى الجنوب ، وسميت فى مارى واكشاك (عشتار = تنتو) .

وارى من المستحسن ان نوضح حدود القسمين الشمالى والجنوبى من العراق القديم : كان القسم الشمالى غنيا مدنه عامرة ، وسهوله واسعة تمتد من جبال زاجورس شمالا الى منطقة ديالى جنوبا بما فى ذلك خفاجى وتل اسمر واشجالى وتل أجرب ، وفى الشرق مقاطعة أورارتو وتبة كورا وتل بلا والمثلث الاشورى (انظر فيما بعد ما هو المثلث الاشورى) . وفى الغرب نهر الفرات وسورية ومارى وغير ذلك من المواقع . أما القسم الجنوبى فحده الشمالى يقع وراء كيش التى كانت تعتبر الحد الفاصل الذى يمنع تقدم السومريين الى الشمال كما يمنع أيضا قوت مارى الشمالية من الهجوم على بلاد سومر جنوبا . ومن الشرق كانت تقع عيلام .

وقد لوحظ أن المدن السومرية الجنوبية كانت تتناوب حكم المنطقة الجنوبية فاذا ما ضعفت اسرة من الأسرات فى مدينة ظهرت غيرها فى مدينة اخرى واحتلت مكانتها ، وعلى ذلك كان على الدوام يوجد فى الجنوب حكومة قوية تربط المدن الجنوبية . وقد سبق ان بينا تطاحن الجنوب مع بعض المدن الشمالية مثل كيش واكشاك ومارى . وكان حكام (اكشاك) فى ذلك العصر اصحاب السلطة ولكنهم فقدوا سلطانهم حينما هزمهم (اى اناتم) ملك لجش ، فانتقلت السلطة الى اسرة (كيش) ، وكان آخر ملوك أسرة كيش الثانية هو الملك (انبى عشتار Enbi-Ishtar) الذى استطاع أن يضع يده على مدينته وما جاورها . وفى الجنوب ، استطاع (اى اناتم) أن يقضى على أور ويعين احد امرائها المدعو (انشاكوش انا) En-Shakush — anna ملكا على أوروك ، وهى مدينة مجاورة لاور .

بعد ذلك حاول (ان شاكوش انا) التوجه الى (نفر = Nippur) فدخلها وتقدم الى مدينة كيش ففتحها وهزم ملكها (انبى عشتار) وبذلك أصبح ملكا على البلاد . وعقد كل من ملكى كيش واكشاك صلحا مع (انشاكوش انا)

من كل ذلك نرى نزاعا واضحا بين الجنوب والشمال ، استمر واتسع مداه حتى جاء سرجون ووحد القسمين .

حكم اين اناتم الاول En-annatum :

كان عهد (اى اناتم) من العهود الزاهرة فى تاريخ سومر . وبعد وفاته تولى اخوه (أين اناتم الاول) مقاليد الحكم . وقد استفاد هذا الأخير من جهود وحروب أخيه واعاد بناء ما خربته هذه الحروب وجدد بناء معبد

نن جرسو فى لجش . وكذلك قام بترميم معابد محلة (نانشة) وغيرها من المعابد . كما قام بأعمال عمرانية فى محلة (سيراران Siraran) الجديدة فى لجش . وقد قام بمنشآت عمرانية كثيرة فى مدن سومر الأخرى ذلك لاستتباب الامن فى عهده ، ومن الأسباب التى ساعدت على نشر السلام ، ولاء (ان شاكوش انا) حاكم أوروك لأين أناتم .

انتصار مدينة مارى على الجنوب :

كان أول حكام اسرة أوروك الثانية هو الملك (ان شاكوش انا) الذى سبق أن تحدثنا عنه فقد حكم حوالى ستين عاما . ولا نعرف شيئا عن بقية ملوك هذه الاسرة . ولا نعرف من أمر حكام أسرة أور الثانية شيئا.

وقد اشارت القوائم الى ان (لوكال آن ـ مندو Lugal — anne — mundu) حكم فى (أدب) تسعين عاما .

واشارت القوائم الى حكم ستة ملوك فى مارى مدة ١٣٦ عاما .

سبق أن ذكرنا الانتصارات التى احرزها (أن شاكوش أنا) فى شمالى سومر ، وانه قد وصل الى كيش واكشاك وأصبح على بعد قريب من مارى . وقد عمل حكام مارى على محاربته ، الا أن (ان شاكوش انا) لم يتقدم نحو مارى وقفل عائدا الى الجنوب . ولما أحس حكام مارى بذلك زحفوا على المنطقة الوسطى الواقعة بين السومريين ومارى أى على مدينتى كيش واكشاك . واستطاعوا دخولهما . وتمادى ملكهم (انبو Anbu) فى الزحف حتى وصل أوروك ودخلها وقضى بذلك على أسرة أوروك الثانية .

وقد لوحظ أن الحضارة التى كانت سائدة فى المنطقة من مارى شمالا الى الوركاء جنوبا متجانسة فقد اتحدت جيوش وشعوب هذه المنطقة .

الحرب بين لجش وأوما :

سبق أن مر بنا قيام حرب بين (أى أناتم) و (كيش) ، أى بين لجش وأوما ، وأن ملك أوما (كيش) هاجم لجش فصده ملكها (أى أناتم) وأن المعركة بين الاثنين لم تكن فاصلة وحاسمة تماما . ولما تسلم أخوه (اين اناتم) السلطة اهتم بالنواحى العمرانية ، وانتهز حاكم أوما المدعو (أورلوما Urlumma) فرصة انشغال (اين اناتم) بالاعمال الداخلية كما أحس فيه بعض الضعف فحطم مسلة (ميسليم) التى كانت مقامة على الحدود منذ سنوات بعيدة ، وقام بتخريب بعض دور العبادة القائمة فى

ضواحي مدينة لجش . واعترض (اين اناتم) على ذلك . وفى النهاية تقدم (اورلوما) نحو لجش وحاصرها . وتضاربت الاراء فى نتائج المعركة الا انه غالبا ان (اورلوما) قد تراجع وهرب الى مدينة اوما . وقد قام احد الكهنة المدعو (ايلى Ili) وتقدم بجيش نحو لجش وبذلك فتح محلة (جرسو) فى لجش ، وعاد الى أوما وعين حاكما فيها وزوج ابنه من ابنة الملك (أورلوما) .

وقد عمل ايلى على اعادة سلطة أورلوما ، وقام نزاع بين (أوما) ولجش بشأن جدول المياه الذى يفصل المدينتين . وقد خاطب (انتيمينا) حاكم لجش وأوما (ايلى) يخبره أن الجدول الفاصل بين البلدين هو الحدود الاصلية بينهما ، عند ذلك أجابه ايلى بأن هذه الحدود غير صحيحة اذ يجب ان تصل حدود أوما الى معبد (انثاسورا) خارج أسوار لجش . وقد جاء فى النص ان الآلهة لم تلتفت الى ادعاء ايلى . من كل ذلك يتبين أن ايلى لم يوفق فيما ادعاه . وقد تبين أن (انتيمينا) انتصر فى هذه الحرب وظل على عرش البلاد ١٩ سنة.

والى القارىء عرض خاطف عن الحوادث التى مرت ببلاد سومر الشمالية حينما كانت تحت حكم مارى فى فترة الصراع بين أوما ولجش ، وقد انقرضت اسرة أوروك وظهرت أسرة فى ادب .

حكومة ادب :

كان لها ملك واحد وهو (لوكال ــ آن ــ مندو Lugal — anne — mundu جاء بعد اسرتى أوروك وأور الثانيتين وقبل أسرة مارى . وسبق أن بينا أن (ان شاكوش انا) ملك أوروك قام بفتح كيش وعاد الى مدينته . وان جنود مارى انتهزت فرصة ضعف مدينة كيش فيهاجمتهاوتمادت فى الزحف حتى وصلت الى أوروك وقضت على الملك (ان شاكوش انا) ، وكان النزاع بين لجش وأوما فى هذه الفترة على أشده . عند ذلك استفاد ملك ادب من تلك الفرصة وضم الى سلطته مقاطعات كبيرة كانت مجاورة له . وكون من ذلك كله مملكة قوية . وقد لوحظ أن (آى اناتم) لم يعترض على هذا ، وذلك لوجود صداقة قديمة بين البلدين . وسنرى فيما بعد توطد تلك الصداقة وذلك بتبادل الهدايا بين الملكين .

وقد تمكن بعد ذلك (لوكال ــ ان ــ مندو) حينما قويت سلطته ان يفتح مدنا ومقاطعات عدة أكثر من أربع عشرة مقاطعة منها بلاد عيلام ومرخاشى وبلاد الكدمين والسوبريين الخ . واذا صدقنا ما جاء فى هذا الشأن من نصوص فنستنتج من ذلك ان (لوكال ــ ان ــ مندو) قد استطاع ان يكون

امبراطورية كانت تضم جميع بلاد الرافدين من الشمال الى الجنوب وكذلك البلاد الشرقية المجاورة . كل ذلك دفع حكام مارى الى تكوين حلف من المدن الشمالية لمواجهته وقد استطاع هذا الحلف بزعامة مارى ان يتقدم نحو أواسط العراق وجنوبه حتى وصل الى ادب نفسها ودخلها وقضى على الملك (لوكال ـ آن ـ مندو) .

وقد استطاع حكام مارى فيما بعد أن يسيطروا على جميع بلاد الرافدين بعدما انتصروا على جنوبى بلاد سومر .

حكم أسرة مارى :

كشف الاستاذ (بارو A. Parrot) فى مارى (تل الحريرى حاليا) التى تقع على الفرات الاوسط عن حضارة ازدهرت فى العهد السابق لعصر سرجون . وتبين أن هذه المدينة كانت مرتبطة بالحضارة السومرية وان علاقتها بالعراق أقوى من علاقتها بسورية .

حكم فى تلك المدينة أسرة تعاقب ملوكها الستة على الحكم . وقد شغل الثلاثة الاوائل بالقضاء على (ان شاكوش انا) ملك أوروك وعلى (لوكال ـ آن ـ مندو) ملك أدب . أما الثلاثة الآخرين فقد حكموا كل بلادما بين النهرين حتى أيام (لوكال كنيشادودو (Lugal — Kinishe — dudu وقد تشبه ملوك مارى بملوك (نفر) فأخذوا بعض الالقاب السومرية عنهم .

انتيمينا :

سبق ان ذكرنا اسمه ، فقد تولى الحكم بعد وفاة والده (اين اناتم) وحكم أكثر من ١٩ سنة كانت كلها سنى سلام فى لجش وقد اهتم باقامة دور العبادة وترميم ما خربته الحروب . كانت تربطه بـ (لوكال ـ آن ـ مندو) ملك مدينة أدب روابط ود وصداقة ، كذلك تحالف مع ملك أوروك فى ايام ملكها (ان شاكوش انا) ، كذلك توطدت الصداقة بينه وبين المقاطعات الشرقية وبلاد عيلام . أما عدوة عدو لجش الكبرى فقد كانت مدينة أوما ، وقد سبق ان ذكرناقيام (أورلوما) بمهاجمة لجش ، ولكن هزمها (أنتيمينا) وارتبطتا البلدان بعقد . وفى الواقع لم يكن هناك من حكام يعكرون سلام المنطقة الا حكام مارى الذين تقدموا بجيوشهم نحو الجنوب واستولوا على كيش ثم زحفوا نحو أوروك وقضوا على ملكها (ان شاكوش انا) .

* * *

الفصل السادس

نظرة عابرة فى الحضارة السومرية

تطورت الحضارة فى هذه الفترة داخل دائرة حددت بمراكز رئيسية : هى نيبور ، واوروك ، واور ، واريدو ، ولجش . ولقد اختلفت حياة هذه المدن الخمس السياسية . واتفقت الآراء الآن على أن كل مدينة قد قامت بتشكيل دويلتها المستقلة والتى كان يحكمها ملك . وقد كان هذا الحكم المحلى الاستقلالى مقيدا بسلطة مركزية . ولقد استطاعت كل من أوروك واور فى مرات عدة أن تتولى زعامة البلاد ، ولم يستطع ملوك لجش النيل منهم . وبقيت كل من نيبور واريدو مراكز دينية حتى النهاية ، ولم يكن لهما مطامع سياسية . وفى بعض الاوقات اتفقت مدن الجنوب مع بعض مدن الشمال ، فقد نشرت كيش على وجـه الخصوص سيادتها مرات ، ومن قبل فعلت أكشاك Akshak (على دجله) ، والشىء الغريب هو ظهور مارى على الفرات الاوسط . والشىء المؤكد حقا هو عدم استطاعة اى أسرة من دويلات المدن فى أن تنجح فى بسط سلطانها على البلاد من الشمال الى الجنوب ، وان هذه المنطقة كانت موزعة بين القوات المتنازعة .

وكان نظام الحكومة هو ما اصطلح على تسميته Semi-anarchic state اى النظام الشـبيه بالفوضـوى . وقد استمر ما يقـرب من أربعة قرون ، حينما ظهر على مسرح السياسة محارب كبير هو سرجون الأكدى . وأن ظهوره هى من الاسباب التى دعت العلماء تسمية العصر السابق له Pre-Sargonid (ما قبل السرجونى) ، وهى مفضلة عن التسمية Early Dynastic (الاسرات الباكرة) . واحيانا نلاحظ بعض تغييرات فى الطرز حينما ننتقل من مركز حضارى الى آخر . فهذا تمثال من مارى لا يمكن ان يكون نسخة من تمثال من لجش . فهنا نجد سومريين ، وهناك نجد ساميين .

اختلفت بعض الطرز ، فمثلا استخدموا فى الجنوب نوعا من الطوب

لم تكن صفحته العليا مسطحة ولكنها منتفخة ، وسميت (Plano-Conex) وكان يحرق هذا الطوب ليصبح قويا . وبينما كان الطوب النى يتماسك بالملاط من الطين ، أما الطوب المحروق ، فكانت تبنى مداميكه بواسطة القار (الزفت) ، وجاء وصف ذلك فى سفر التكوين (١١ ، ٣) ، حينما تحدث عن المواد التى استخدمها الناس الذين قاموا ببناء برج بابل « كان لديهم طوب كالحجارة وطين لزج (القار) ، كان يستخدم كمونة » .

كان سكان بلاد الرافدين الاقدمين يقيمون مقاصيرهم على ربوة عالية لتتشابه مع الجبال . ولقد استمرت الجماعات التى كانت تعيش فى الفترة التى سميت ، ما قبل السرجونى ، على نفس الطريقة ، مثل معابد العبيد وخفاجى ، فقد كان كل منها محاطا بسور بيضوى الشكل ، وربما كان يرجع ذلك الى رمز غالبا ما يفيد الخصوبة . ومن المؤسف حقا أنه لا توجد زقورة من هذا العهد باقية ، وبدون شك أنها كانت قائمة ، لاننا نرى صورتها على رسوم طبعات الختوم الاسطوانية ، ومرة على اناء من سوسة (انظر شكل ١٢٦ من كتاب A. Parrot عن سومر الذى ظهر فى عام ١٩٦١) . واذا ما صعدنا الى أعلا نجد أن هذه الابراج قد توجت بمعبد .

وقد عثر على كثير من مقاصير ذلك العهد ، ما قبل السرجونى ، وأهمها ما كشف عنه فى منطقة Diyala ومارى وآشور ، وكانت عبارة عن معابد صغيرة خاصة بالاله . وقد بنيت لتكون مقرا للاله فقط أثناء اقامته على الارض . وتقرأ العلامة التى تدل عليها "E" ومعناها « المنزل » وكانت الحجرة الجانبية للاله تسمى Colla (صومعة) ، وكانت مستطيلة الشكل ولها مدخل .

لازلنا لا نعرف الكثير عن قصور ملوك الفترة ما قبل السرجونية . فلم يكشف اى أثر فى مارى عن قصور من هذه الفترة ، عثر عيش فى منتصف الألف الثالث عن اطلال قصر .

كشف هنرى فرنكفورت فى تل أسمر عن ١٢ تمثالا من النصف الأول للألف الثالث ، وقد رجح فرنكفورت أن التمثالين الكبيرين يمثلان الهين . ورأى Parrot فى كتابه عن سومر انهما غالبا الملك وملكة (انظر شكل ١٢٩ من كتاب A. Parrot عن سومر) . كذلك عثر فى ديلله وتل أجرب وخفاجى على تماثيل لرجال وسيدات تعبر وجوههما تعبيرا صادقا ، وقد ارتدوا ما يسمى (Kaunakes) ، وهو رداء يتكون من شرائط من القماش على هيئة جزة صوف الغنم .

أما النقوش من هذا العهد فليست عديدة ، وهى عبارة عن لوحات صغيرة ولها ثقب فى الوسط ، واخرى عبارة عن كتل من الحجر نقش عليها بعض المناظر الدينية أو التاريخية . وبمتحف اللوفر مقمعة عليها نقش بارز يمثل نسر له راس أسد ، وفى محيط دائرة المقمعة افريز مكون من ست أسود . وباللوفر لوحة خاصة لـ Ur-Nina ملك لجش ، الذى يقرأ حاليا Ur-Nausle ، وقد ظهر عليها مرتين مع أولاده وحملة الكؤوس وهو يرى على يسار النقش واقفا وعلى رأسه سلة . ومن أسفل مثل جالسا ممسكا كأسا . والمنظر يمثل وضع اللبنات الاولى لمعبد جديد (انظر شكل ١٥٩ ، وشكل ١٦٠ من كتاب A. Parrot) . وعثر فى خفاجى على الواح نذرية شبيهة بتلك المناظر التى وصفناها كما عثر على مثلها فى الوركاء . وعثر فى تللو على نقش يمثل رجلا عاريا يقدم قربانا سائلا الى الهة الجبل (انظر شكل ١٦١ من كتاب A. Parrot) . وعثر فى العبيد على نقش يمثل صقرا براس أسد ينقض على عجل براس انسان (انظر شكل ١٦١ ب) .

واللوح المشهور ، وهو لوح النسور المحفوظ بمتحف اللوفر من منتصف الألف الثالث (انظر شكل ١٦٢ من كتاب A. Parrot) ، وعليه مناظر تاريخية ودينية لتخليد ذكرى معركة انتصر فيها أى اناتم Eannatum ملك لجش على مدينة أوما . وهى تعطى فكرة عن المعركة وقد نقشت المناظر على وجهى اللوحة . فعلى أحد الوجهين مآثر المحاربين وعلى الآخر تدخل الآلهة .

وقد مثل أهل لجش على اللوحة يحملون دروعا من جلد ، وقد جهزوا بحراب ، ووقف الملك على رأس وحداته ، وقد التف بجلد سميك . وقد ظهر أى اناتم منتصرا . وصور أعداؤه وقد انقضت عليهم النسور تنهش جثثهم . وفى الصف الثانى تسير فرق المشاة ذواتى الصدور العارية وقد حملوا حرابهم فوق أكتافهم ، وأمامهم الملك . ولكن مثل هنا فوق مركبته الحربية ، مرتديا رداء من جلد سميك ملوحا بسلاحه ، فهذه حربة بيده اليسرى وسيف قصير باليمنى ، كما لو كانت المعركة مستمرة . أما خوذته المصنوعة من الجلد ، فقد قويت من الخلف بشعر مستعار ، وذلك لتؤكد حماية قفا الرقبة . لقد قام الملك بترك شعره قبل المعركة بمدة . وقد عرفت هذه الطقوس فى الكتاب المقدس ، وبقيت فى اسرائيل أيام حكم القضاة . ومثل انتصار لجش فى الصف الثالث ، اذ مثلوا وهم يقومون باحصاء موتاهم فى ميدان المعركة ، وذلك ليجهزوا لهم مكانا لدفنهم ، وقد جمعت الجثث فى كومة وغطيت بالتراب ، وذلك بعد القيام بالمراسيم الجنازية المعروفة . وبعد ذلك جاء منظر من أروع المناظر فى المعارك الحربية ، اذ مثل

الأسرى وقد جاءوا الى المعتقل . وللأسف الشديد ضاع الجزء السفلى لهذه المناظر ، ولم يبق منها الا بعض رؤوس الاسرى .

ان تخليد ذكرى تلك الحملة ، كما سبق أن ذكرنا له مظهر دينى ، فقد كرس الوجه الثانى لابراز هذا المعنى ، ويعود انتصار اى اناتم كما يعتقد السومريون الى أن الآلهة قد اشتركت معه فى هذه المعركة . ولا زال باقيا رسم تاجين من تيجان الآلهة وهما غالبا (باو Bau ، وانانا Inanna) ولكن نرى هنا صورة ننجرسو Ningirsu اله لجش الأول الذى يحتل مركز الصدارة . فقد رفع يده اليمنى وبها مقمعة من حجر يهوى بها على المحاربين البؤساء ، وقد وقعوا فى حبال شبكة واسعة فتحاتها ، قبض عليها الاله فى يده اليسرى التى تضم أيضا شعارا رمزيا (صقر برأس أسد) ، بينما نراه يحدق بعينيه الواسعتين فى أحد الاعداء الذى يقاسى من قضائه المحتوم .

وفى الواقع أن مثل هذا الأسلوب التاريخى قد وضح فيه جميع العناصر الخاصة بالموضوع وهو لايحتاج الى كثير من التفسير الذى تقتضيها لوحات أخرى عثر عليها من هذا العهد فى لجش ومعروض بعضها بمتحف اللوفر وهى ضمن اللوحات التى يطلق عليهــا اللوحات المثقوبة . ولا يستطيع الناظر اليها أن يستخلص معناها بسهولة .

وكذلك هناك بعض الأوانى زينت من الخارج برسوم بارزة للآلهة ، مثل قطعة من اناء محفوظ بمتحف برلين ، عثر عليها فى لجش ، مثل عليها الالهة ننهيرساج Ninhursag (ربة الجبــل) وعلى رأسها تاج مؤرق وقد نبت من كتفيها أفرع شجر أو زهر ، وتساقط الشعر من خلفها ، كما قبضت فى يدها على فرع يرمز للخصوبة (انظر شكل ١٦٧ ب من كتاب A. Parrot) .

أما عن صناعة العاج والتطعيم بالصدف . فقد كانوا يستخدمون جذر الزمرد فى التطعيم وكشف فى مارى عن كثير من العاج المنحوت نحتا جميلا وبالمتحف البريطانى علم يضم أربع حشوات زينت بتطعيمات مختلفة . على أحد الجوانب منظر حرب ، وعلى الآخر منظر يمثل السلام . وفى منظر الحرب ، صورت عربة أربع مرات فى مناظر مختلفة ، بدأت هادئة ثم أسرعت ثم ازدادت سرعتها . وهنا ولأول مرة فى تاريخ الفنون والحروب نرى العربات الحربية تصور أخبار المعارك . وقد بدأت العربات الحربية فى تطهير الطريق للجيش (كما تقوم المصفحات فى الحروب الحديثة) ثم تلاها المشاة . وتقدم الجنود ببطء ، وقد وضعوا خــوذات فوق رؤوسهم ،

وملابس من جلد سميك . ولم يبق امامهم الا أن يحيطوا بالاعـــداء ويحضرونهم الى الملك الذى نزل من عربته فى انتظار قدومهم ، وبهذا انتهت المعركة . ثم جاء دور الاحتفال بالنصر . فجاء حملة غنائم الحرب ومعهم الحيوانات ، وكل ما كان يجب أن ينظم فى الحفلة . وظهر الملك وقد خلع رداء الحرب وبدا يتناول بعض المشروبات مع زواره (جميعهم من الرجال) الذين جلسوا فى مواجهة الملك ، يستمعون الى غناء سيدة صاحبها حامل القيثارة . (انظر شكل ١٧٦ ، وشكل ١٧٧ من كتاب A. Parrot) .

وبمتحف الجامعة فى بنسلفانيا (انظر شكل ٩) رسوم أسطورية على صندوق قيثارة عثر عليها فى أور من النصف الأول للألف الثالث . فهذا جلجامش يصارع ثورين برأس انسان . ثم يأتى بعد ذلك مجموعة من الحيوانات تمثل حركات انسانية ، فهذا كلب قد وضع خنجرا فى منطقته ويحمل بين يديه منضدة عليها لحوم ، وقد تبعه اسد فى يده اليمنى كأس وفى اليسرى اناء كبير . وكان ذلك فى الغالب استعداد لاقامة حفلة ، قام فيها الحمار باللعب على القيثارة ، ويحرك أبن آوى الصلاصل ويضرب على رق ، بينما تقوم الدبة بالرقص . ثم يلى ذلك رجل على هيئة عقرب وفى كل يد حزمة من البردى ، ومن خلفه غزالة تقبض فى يديها على اناءين . وجميع هذه المناظر الخيالية تلائم الموسيقى والحفلات . وجدير بالذكر ان مثل هذه المناظر قد وجدت فى مصر الفرعونية . ويحتفظ متحف القاهرة ببعض الرسوم الخيالية على كسر من الحجارة فيما كشف عنه بدير المدينة الواقعة بالبر الغربى لمدينة الاقصر .

استخدمت المعادن فى الالف الثالث ، مثل النحاس والبرونز والفضة والالكتروم والذهب لصناعة اشياء مختلفـــة . ويحتفظ متحف اللوفر بتمثال من البرونز من النصف الأول للألف الثالث ، عثر عليه بناحيـــة خفاجى . وقد كشف فى تل اجرب (انظر شكل ١٠) عن عربة يجرها اربعة حيوانات محفوظة بمتحف بغداد ، ولو أن ارتفاعها لا يزيد عن ثلاث بوصات الا أنها الأثر الفريد من نوعه الذى يمثل أول وسيلة من وسائل النقل فى العصور القديمة ، وأما الحيوانات فليست خيولا ، وانما غالبا ما تكون حمرا مستانسة أو وحشية . وقد شدت الحمر الى جوار بعضها ، وقد ربط الحيوانان الوسيطان بواسطة ناف ثبت برقبتهما . وقد مرت أعنة الحيوانات فى حلقة ربطت فى الشفة العليا للحيوانات الاربعة . أما السائق فقد كان له لحية وشعر طويل ، وقد قبض فى يده اليسرى على الاعنة ، ويده اليمنى ليس فيها شىء ، وغالبا كان بها سوط أو عصا ولكن فقد . وطالما انه لم يعثر على شىء يحمى هذا السائق ، فلا يمكن ان نتصور ان هذه العربة تمثل نموذجا لعربة حرب ، مثل ذلك الذى رأيناه على لوحة النسور

ويميل بعض العلماء الى اعتبار ان مثل هذا النموذج من العربات هو الذى كان يستخدم فى الرحلات فوق صحراء الاستبس . فعجلات العربة قوية وكانت مكونة من الخشب وقد قويت بصفائح معدنية لتحمى الخشب .

وعثر فى جبانة أور الملكية على أوانى من ذهب ورأس عجل من ذهب أيضا محفوظ بمتحف الجامعة فى بنسلفانيا ، وخوذة من ذهب فى متحف بغداد (انظر شكل ١١) . الى غير ذلك من الآثار الذهبية والفضية والبرونزية والتى تدل على مهارة السومريين . لقد كثر تكرار رموز الحيوانات والنباتات المختلفة التى كان يعتمد عليها الانسان فى المعيشة ، ولقد كانت هذه تمثل شعارات الكثير من الالهة الكبرى فى بلاد سومر مثل سنبلة الشعير والثور . وكان يرمز لملكة النباتات بوريدات . وقد غطيت أفاريز الهياكل التى بنيت فى الفترة الشبيهة بالكتابية فى المخلفات الاثارية لعقير . وزخرفت المذابح برسوم حيوانية وكذلك الكثير من الادوات والاوانى الجنازية .

كانت الآلهة هم اسياد المدن . وقد نظمت حياة المجتمع فى كل مدينة حسب تقويم يلائم تطوره . وكانت هناك أعياد متكررة يتوقف فيها العمل فكثيرا ما كان يحتفل باحداث الطبيعة ، وظلت طبيعة الاحتفالات دينية حتى ايام الاشوريين ، وفى العهد البابلى الثانى وجدت رابطة بين هذه الاحتفالات والطبيعة .

لا نستطيع ان نعرف الاسباب التى دعت الها من الالهة التى تمثل الطبيعة ارتباطه بمدينة من المدن ، لقد برز فى المدينة اله معين ، ولكن عبدت بجواره آلهة أخرى صغرى .

كان السومريون يعتقدون ان الانسان خلق لخدمة الآلهة ، وهكذا فى الديانات السماوية مثل الاسلام الذى جاء فى قرآنه ما يفيد أن الله ما خلق الجن والانسان الا ليعبدوه . لقد جاء فى بعض الأساطير السومرية ان انليل شق الارض فخرج منها النبات ، ثم تذكر الاسطورة ان الالهة قد أحاطت بانليل ورجته فى تخصيص خدم لها من السومريين .

كانت المدينة تشكل الوحدة السياسية للبلاد ، وكان المعبد يشكل الوحدة الاقتصادية لها . فلكل معبد أراض هى أملاك الآلهة ، وكل مواطن تابع لمعبد من المعابد . وجميع العاملون فى المعبد من كهنة الى خدم الى عبيد الى موظفين هم عباد صاحب هذا المعبد . وهو نواة مجتمع المدينة .

لقد قام المجتمع المعبدى على العناية بأرض المعبد المشاعة أوالمشتركة

(Nigenna) وكانت لا تتجاوز ربع أرضه وذلك لصالح المجموع . وكذلك يوجد قسم ثان من الأرض يسمى الارض المقطعة (Kur) وهو يشمل الارض التى كانت تقسم وتوزع على المجتمع . وقسم ثالث وهو يشمل الارض المأجورة (Uru-lal) وهى الأرض التى تؤجر بأجر ، وكان على المستأجر أن يدفع ما يتراوح بين ثلث المحصول وسدسه .

كان يقوم المعبد بتوزيع حب البذار والحيوانات والادوات اللازمة للارض المشتركة . وعمل الناس غنيهم وفقيرهم فى أرض الاله . ويقوم المعبد بتوزيع الحبوب ايضا على المحتاجين . فيوزع الحبوب والصوف على المواطنين الذين أدوا عملا للمعبد أو لأرضه . كما كانت هناك حصص توزع على شكل مكافآت أيام الأعياد وذلك من أنصبتهم .

وقد لوحظ فى العالم القديم الرافدى حقيقة دلت على تقدم هـذا المجتمع وهى مبدأ المساواة . فقد كان كل فرد يتناول حصة من حصيلة عمله المشترك وقطعة ارض لتأمين حياته . وعمل الناس جميعا فى الأرض المشتركة وفى القنوات وبناء السدود . ولم نلاحظ وجود طبقة من الناس بدون عمل . كان هناك عبيد من الأسرى عملوا فى المعبد الى جانب الأحرار وعرفت ملكية العبيد للافراد . اما الجوارى من البنات فقد عملن كخادمات او حائكات .

لقد اختلفت ملكية الأراضى من حيث المساحة ، ولكنها لم تكن مساحات كبيرة ، وهناك بعض استثناءات فهذا معاون احد المعابد كان يملك حوالى ١٢٠ فدانا ، وهذا مراقب مخزن خشب كان يملك حوالى ٨٠ فدانا . ومثل هذه الحالة هى فى الواقع كانت من الامور غير المألوفة فى نظام هذا المجتمع . وهناك حقيقة يجب ان نسجلها هنا ، وهى أن قطعة الارض التى اطلق عليها أسم (Gan) كانت لا تتجاوز سبعة أثمان الفدان ، كانت كافية فى الواقع لسد حاجات الفرد . وكان للمرأة حق امتلاك الارض مما يدل على أن النساء خدمن ايضا فى المجتمع المعبدى . لأن القاعدة الأساسية ان الشخص يكسب عيشه نتيجة خبرته لخدمة المجتمع .

كانت مخازن المعبد هى عبارة عن مجمعات تضم جميع ما يحتاجه المجتمع من مواد تموينية يستهلكها . فيه حبوب وبصل وخضروات وبلح وسمك ودهن وصوف وجلود ، وحصر لتغطية أراضى الحجرات وخشب لازم للبناء واسفلت وحجارة ثمينة كالرخام لصناعة التماثيل . وكان يوجد جهاز لمراقبة عمليات التخزين والتسجيل . وكان هناك صناع بعضهم يهيىء الصوف ، وآخرون يقومون بغزله . وقاموا أحيانا بتصدير الصوف

والشعير هو الموسم الأساسى ، وكانت هناك مخصصات شهرية لصناعة الجعة . وقلت الماشية وذلك لقلة المراعى لأن صيف العراق شمسه قوية تحرق العشب. لذلك كانت تطعم الاغنام بالحب فى كثير من فصول السنة ما عدا الربيع .

وطعام السومريين الزلالى هو السمك لا اللحم . وكانت لديهم أغنام وماعز لحلبها والافادة من صوفها وشعرها . واستخدمت الثيران والحمير فى الحرث ، وربوا الخنازير ، وزرعوا النخيل والكروم والتين والرمان والتوت . وقيل انهم قاموا بزراعة شجرة التفاح .

انتظم المواطنون الذين كانوا يعملون فى المعبد فى هيئة جماعات أو نقابات تحت اشراف مشرف يقوم بتوزيع الأعمال بينهم . وكان المشرف على كل جماعة مسئول عن تسليم المحاصيل وكانت لديهم كشوف بمن عليه خدمة عسكرية .

انشىء نظام ادارى دقيق لمخازن المعبد مزود بسجلات مثلا للحبوب التى كانت تطعم بها الحيوانات . وكانوا يقدرون غلة الفدان بالنسبة لجودة الأرض . وجدير بالذكر انه فى مصر القديمة قدرت غلة الأرض بالنسبة لكمية مياه الفيضان . وسجلت مخصصات الموظفين الشهرية وكذلك سجلت التموينات الشهرية لمصنع البيرة والمخبز والمطبخ وغيرها . وكان يوقع الكاهن والمعاون على هذه الوثائق . وقد دلت مخلفات هذه الفترة عن وجود نظام حسابى دقيق .

كان لأصحاب المهن الحق فى استخدام مهاراتهم نظير عمولة يتقاضونها لأنفسهم . وكان للراعى حق التصرف فى جزء من قطيعه ، وكان للصياد حق التصرف فيما تبقى من نصيبه الشهرى المسلم الى المعبد .

كان التجار يحصلون على الذهب والفضة والنحاس والرصاص والخشب والروائح العطرية والحجارة للمعبد نظير تقديم حبوب وبلح ومنسوجات من أقمشة صوفية الى ستائر الى سجاد . كانوا يستبدلون البضائع المصنوعة فى المدن المحلية بمنتجات مدن أخرى غير متوفرة فيها هذه المواد . أو يذهبون الى أقطار أخرى كعيلام ، وكانوا يستخدمون حمير المعبد فى الاسفار . وقد عثر فى مقابر هذا العصر على أقداح رصاصية وأوانى حجرية . وفى خفاجى عثر على أوانى نحاسية مختلفة الاشكال والأحجام . وفى كيش وأور عثر على مرايا نحاسية ومجموعات زينة نحاسية وذهبية وعقود وتماثيل حيوانات صغيرة من رخام كانت تعلق فى العنق كتميمة وغير ذلك من آثار أخرى .

اما المنازل فقد بنيت من الطوب النى وكان لها أبواب غير مرتفعة ومقوسة ونوافذها صغيرة . اما ملابس الناس : فقد كانوا يصنعون ثيابا تشبه الشال الذى كان يلف حول الخصر . ومن الرسوم التى بقيت على مخلفات هذه العهد ، يرجح انها كانت تصنع من جلود الغنم أو الماعز . وغالبا أن هذه الأردية كانت تلبس فى الاحتفالات والأعياد . كما كان يحدث فى أردية بعض الكهنة فى مصر الفرعونية اذ ارتدى بعضهم جلود الفهد . انما كانت المنسوجات معروفة منذ منتصف الألف الثالث ق.م .

لم تفرض ادارة المعبد نظاما صارما على أعضاء المجموعة الهيكلية . وهناك نصوص تثبت وجود ملكية خاصة وتجارة خاصة وأخرى عامة . وقد افاد هذا النظام الناس خصوصا فى الأيام التى مرت البلاد فيها بمحن وأزمات نتيجةالتغييرات الفجائية التى كانت من خصائص البيئةالعراقية ، عند ذلك كانت تفتح ادارة المعبد مخازنها للناس .

وقد لوحظ أن حسابات المعبد كانت وحدة واحدة ، فالبضائع الخاصة بالقرابين الدينية كانت توضع بجوار بضائع مخصصات الأفراد والمعبد يخدم المجتمع دينيا واجتماعيا واقتصاديا .

ان الديموقراطية البدائية قد ظهرت فى بلاد الرافدين فقد تميزت مؤسسات مجموعة المعبد بتلك الروح . وقد كانت السيادة فى المدينة تتكون من مجلس للذكور . وجد ذلك على الواح من الفترة الشبيهة بالكتابية . وكانت المدن القديمة فى بلاد ما بين النهرين تشبه مدناليونان القديمة ومدن ايطاليا من ايام النهضة . اذ نجد فى هذه المدن استقلالا محليا ، وكل مواطن مسئول عن المصلحة العامة الخاصة بالمدينة . فهل كان فى بلاد ما بين النهرين حكومة من الأعيان (اوليجاركية) ؟ لا نستطيع أن نؤكد ذلك لأن الوثائق فى الفترة الشبيهة بالكتابية قليلة . ولما جاءت الأسرة الأولى وتوفرت الوثائق كان هذا النظام قد انهار وحل حكم الفرد محل هذا المجلس . أما عن السبب فى انهيار هذا النظام . هو انه كان لهذا النظام عيوب فقد منح الناس حرية واسعة ، فلم يخضعوا لراى الأكثرية بل كانوا يخضعون لتوجيه الكبار . واحيانا فى حالة الحاجة الى اتخاذ قرار هام وسريع سارت المدينة على المبدأ الذى سارت عليه الجمهورية الرومانية فيما بعد وهى الديكتاتورية . وقد كان الحاكمالمطلق فى سومر يسمى (Lugal) أى الرجل العظيم بمعنى الملك . وجاء فى أخبار جلجامش انه كان يستشير المجلس والأعيان قبل اتخاذ قرار لخطة العمل . وكان يسمى الحاكم احيانا فى اوروك (ان En) اى السيد بمعنى انه ليس (لوكال) .

كانت الملكية لمدة محدودة ، تنتهى بانتهاء اسباب قيامها ثم تعـود السلطة بعد ذلك الى المجلس . وكثيرا ما قامت الحروب بين المدن وبعضها بسبب النزاع على اراض كما سبق ان بينا ، وفى بعض الأحيان تمنح السلطة المركزية بعض الزعماء وظائف هامة ودائمة . كان الكاهن او المعاون فى المعبد هو الزعيم الادارى وايضا الى حد كبير الزعيم السياسى . وكان الشخص الذى يستطيع اغتصاب سلطة الحاكم كان يسمى (انسى Ensi) ومعناه الحاكم بأمر الله .

ولم يكتسب اللوكال أو الانسى سلطتهما نتيجة تفوق أو وراثة ، لكنه كان يحكم المدينة نيابة عن المجلس أو انه يمثل وكيلا لسيد المدينة الحقيقى وهو اله المدينة . وفى النظام (الثيوقراطى) يقوم حكم الفرد على أساس اختيار الاله ، وظل ذلك النظام حتى نهاية حكم الأشوريين . ولو أن نظام وراثة العرش كان معروفا الا أنه يعتمد على رضا الآلهة . وقد عجزت الملكية فى بلاد الرافدين على أن تكون اداة اتحاد وذلك لتفرق المدن وللبيئة التى عاشت فيها هذه الحضارة ، بينما وجدنا أن بيئة مصر قد ساعدت على اتحاد شعبها .

كان على حاكم المدينة أو الانسى التنسيق بين المجموعات التى تضم دور العبادة داخل المدينة ، فكان يعين لكل من هذه المجموعات نصيبها فى الاشتراك فى المبانى والاعمال العامة المختلفة . أما الشئون الخارجية فكانت من واجباته هو . كان هو قائد الجند فى المدينة . وكانت له ملكية خاصة وكانت حقوله تمثل جزءا من الأرض المشتركة ، وكان يكلف بعض الناس بحرثها له . وفى ذلك اشارة لاستعمال السلطة . كما كانت تقـدم اليه الهدايا فى مناسبات مختلفة مثل اعياد الآلهة . كما كان يتقاضى أجرا لاصدار قرارات قانونية أو للموافقة على الطلاق . واخيرا كان له الحق فى فرض ضرائب معينة . ومن الواضح انه كان صاحب سلطة قوية ومع ذلك لم تلغ سلطة المجلس . ولدينا حاكم أقام لنفسه قصرا كبيرا على نمط المعبد .

وهكذا نرى من هذه التصرفات الصادرة من الحكام أنها قضت على مبدأ المساواة ، وانتقـل الظـلم والاغتصاب الى أيدى الموظفين . وقد حاول احد الحكام المدعو (أروكاجينا) الاصلاح والعودة بالنظام الثيوقراطى فتعاقد مع اله مدينة لجش الاله ننجرسو ، فذكر أنه لن يتخلى عن اليتيم والأرملة وذكر على سبيل المثال لرفع المساوىء انه « استرجع المراكب من سيد البحار ، واسترد الغنم والحمير من الرئيس الراعى . واستعاد من الحجاب الضريبة التى كان يدفعها الكاهن الى القصر » . وقد عمل هذا

الحاكم على القضاء على كثير من المساوىء : فخفض اجور دفن الموتى . واعاد للفقراء حقوقهم . وقد عمل أروكاجينا على الحد من سلطة أصحاب النفوذ وبذلك عمل على اعادة النزاهة التى كانت تتمتع بها المجموعات الهيكلية ، وبذلك كسب ود الناس . ولكن حاكم مدينة أوما كما سبق أن بينا هاجمه فقضى على مدينته وبذلك لم يتمكن من تحقيق أهدافه .

السومريون ومعاصروهم :

نستطيع فى هذه المناسبة أن نتسأل ، متى نشأ السومريون ؟ ما من شك أنهم نشأوا فى عهد جمدة نصر ، لان لغة الوثائق التى عثر عليها من هذا العهد وطرق الحسابات التى اتبعت فى هذه الفترة كلها قد تمت على نهج الحضارة السومرية .

واذا تتبعنا تطور العمارة فى اريدو حيث يوجد الشكل الاساسى لتصميم المعبد والذى يمكن نسبته الى عهد العبيد ، عند ذلك نستطيع أن نقدر ظهور السومريين والتحقق من وجودهم قبل الوثائق المكتوبة التى كشفت عنها الاحافير . ومن ناحية أخرى اذا وضعنا فى الاعتبار الاختراعات الملفتة للانظار من عهد الوركاء : استخدام الفسيفساء المخروطى الشكل فى الحوائط ، والزيادة الفجائية فى التعدين ، والتغييرات الواضحة فى أشكال الفخار ، وكذلك بعض التغييرات فى عادت الدفن ، كل ذلك يدفعنا الى نسبة تلك الاختراعات الى أقوام جدد ، هم اهل سومر ، الذين تظهر ملامح سحنهم على الآثار : اشداء ، مملوءى الجسم ، لهم أنوف كالمنقار ، على اناء الوركاء ، والختوم الاسطوانية المعاصرة . ولكن مظهر رؤوسهم العريضة حينما تمثل مجردة من الشعر تختلف عن الجماجم المستطيلة التى كشف عنها فى أوروك .

على أن اختبارات الجماجم غير حاسمة ، لأننا عثرنا على جماجم مستطيل رؤوسها منذ البداية مع أخرى عريضة الرؤوس فى كيش . وكشف فى أور من ايام الاسرة الاولى حينما استقر السومريون هناك عن أنواع من الرؤوس المستطيلة والضيقة . وفى منتصف الالف الثالثة ق.م. ظهر رأس من البرونز ، غالبا ما تنسب الى سرجون الاكدى نفسه (انظر شكل ١٢) وهى تمثل صورة شيخ سامى من سكان الصحارى ، وغالبا كان صاحب رأس مستطيل ، ووجنتان مرتفع عظامهما ، وانف معقوف قليلا وشفتان مكتظتان باللحم ، وشارب قصير . وعثر فى ايران ــ سيالك وهيزار ومواقع اخرى على أنواع من رؤوس مستطيلة مختلطة برؤوس عريضة وذلك منذ العهود السحيقة .

ولما كانت بعض اسماء المدن القديمة ليس سومريا ولا ساميا ، فمن الجائز ان اسلاف السومريين ومعهم الناطقون بالسامية واللغات الاخرى كانوا يقيمون فى المنطقة منذ النشأة الاولى ، وانهم بلغوا الكمال فى طور الوركاء حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م. وامتد نفوذهم السياسى بعد ذلك لمدة الف سنة فى بابل .

وقد لوحظ فى فترة زعامة السومريين للمنطقة تقدم استخدام الختوم الاسطوانية وما عليها من وثائق مسجلة . وفى نقوش هذه الختوم لوحظ تقدم كبير فى الفن لدرجة انه وصل فى الطبقة الرابعة من عهد الوركاء درجة كبيرة فى تمثيل الحيوانات ، وقد اقتربت رسومها من الحقيقة ، وحاول الفنان مراعاة النسب ، ولوحظ فى عهد جمدة نصر اتجاه فى صناعة الختوم بدون عناية . ويحاول هذا اللون من الفنون أن يعيد وجوده فى العهود اللاحقة حتى يصل الى القمة فى أور الثالثة وفى العهد السرجونى . أما فى ايران ، حيث استخدم الناس هناك الختوم القرصية أكثر من الاسطوانية فقد كانت المساحة الخاصة بتلك الختوم غير كافية لنقوش ورسوم كثيرة من اجل ذلك لم يظهر عليها تغييرات واضحة متوالية ، فيما عدا بعض مراكز مثل السوس حيث كانت على صلة وطيدة بسومر (انظر اشكال ٧٢ ٧٣ الى ٨٠ من كتاب M.E.L. Mallowan)

العمارة خارج سومر : تبة كورة

ظهرت اتجاهات معمارية فى أمكنة خارجـــة عن التأثير السومرى المباشر . فقد حدثت بعض الاختلافات فى موقع مثـــل « تبة كوره » Tepe Gawroh والتى تقع على بعد ١٤ ميلا الى الشرق من دجلة ، وعلى بعد قريب من نينوى . وفى هذا المكان الذى يعاصر كل من طورى الوركاء وجمدة نصر ، نجد المعبد المكون من ثلاثة اقسام يتوسطه صحن وواجهة مزخرفة بمشكاوات وجدران لها بروز وغور كعمارة طور «اريدو» وكمقابر المصريين القدماء ودور عبادتهم من الاسرتين الاولى والثانية وبداية الاسرة الثالثة الفرعونية . ولكن لوحظ فى تبة كورة اتجاه مختلف غالبا جاءنتيجة تأثيرات من المنطقة المرتفعة من بلاد الرافدين وكردستان الايرانية . وقد أوضح Mallowan فى كتابه المذكور آنفا فى الصـــورة ٨٣ التأثير الجبلى فى طراز عمارة معبد تبة كورة من الطبقة الثامنة ، حيث لوحظ وجود بوابة عميقة فى المدخل . ومن الجائز انه بنى قبل عام ٣٢٠٠ ق.م. كما بين المؤلف نفسه طراز آخر استمر مدة طويلة وهو المنزل المستدير

(1) Early Mesopotamia and Iran (London 1965).

(صورة رقم ٨٤) وهذا الطراز مؤرخ من عام ٣٥٠٠ ق.م. ومن الطبقة الرابعة عشرة فى حفائر تبة كورة ، ومن الواضح انه كان يمثل بمثل منزل رئيس المدينة ، وكان مقاما فى مكان مخصص لحاكم المدينة ليتمكن منـه الدفاع عنها .

كذلك عثر على نموذج لمنزل مستدير (انظر صورة رقم ٩٢ من الكتاب المذكور آنفا) كشف عنه فى مارى وكان بمثل منزل رئيس المدينة ، وهو نموذج لطراز نادر جدا (من ٢٩٠٠ ق.م — ٢٤٦٠ ق . م .) ، وقد عثر عليه تحت انقاض احد الشوارع فى مارى ومعه اوانى من الفخار .

لوحظ ان دور الوركاء — جمدة نصر متقدم تقدما ملحوظا فى تبـة كورة ، وهناك ما يشير الى أن جميع بلاد الرافدين ، بما فيها المدن الخارجة عن دائرة سومر ، كانت مزدهرة فى ذلك الوقت . وقد ظهر هذا التقدم الفنى نتيجة انتشار المواد التى عثر على بقايا منها كثيرة تدل على الثراء الفنى فى العمارة والفنون . وقد دفن الموتى داخل الحوائط ، لأن الناس غالبا كانوا فى خوف من مهاجمة الاعداء ، لذلك خشى الاغنياء منهم على جثث موتاهم فوضعوها فى هذه الامكنة لتبقى دائما تحت بصرهم .

الحلى وأدوات الزينة والاسلحة :

عثر بتبة كورة على كميات هائلة من الخرز ، ففى احد القبور كشف عن ٣٠٠٠ خرزة ، وفى قبر آخر عثر على ٧٥٠ ودعة ، استوردت غالبا من المحيط الهندى عبر الخليج العربى . ومن بين المواد الاولية التى استخدمت فى صناعة الخرز والتمائم ، اللازورد ، والعاج والفيروز واليشب والعقيق وحجر الدم والاوبسديان والكوارتز والديوريت والقاشانى . ولا بد ايضا ان الكثير من هذه الحجارة كان مستوردا من فارس ، وبعضها من ارمينيا .

ولقد عثر على كميات كبيرة من الخرز فى نينوى وبراك والوركاء فى طور الوركاء — جمدة نصر . وقد كان يصنع من هذا الخرز عقود ، كذلك كان يصنع من هذه الحجارة الشبه كريمة تمائم وأوانى . وكشف فى تبة كورة عن رأس على هيئة ذئب صنعت من خليط من الذهب والفضة electrum وقد صنعت اسنان الحيوان من الذهب ، وقد ثبتت الاذنان بمسامير من نحاس واليكتروم . وقد ملئت الراس وتجاويف العين بالقار (انظر شكل ٨٥ من كتاب Mallowan) . وقد عثر فى بعض قبور تبة كورة من حوالى ٣٠٠٠ ق.م. على حلى وعلى سبيل المثال (شكل ٨٦ من الكتاب المذكور) وهى عبارة عن وريدات من الذهب بعضها كبير كان يسـتخدم كزينة للرأس أو تزخرف به الثياب .

وعثر عند بداية الاسرة الاولى على نماذج من فخار رمادى وأسـود محفور يعرف تحت اسم الفخار الخامس بنينوى (انظر صفحة ٨١ من انكتاب سالف الذكر) . وقد ربط هذا النوع فى بعض النماذج باسلاك من الفضة ، ومن الجائز أن بعض هذه الاوانى كان عوضا عن الاوعية المصنوعة من الفضة . وقد كشف عن نماذج من هذه الاوانى فى وادى الخابور ، عند شاجار بازار ، وفى نينوى ومواقع أخرى . وقد تعددت اشكال هذا الفخار من هذا النوع ((Ninevite V.)) ، وكان يشمل كؤوس وأوعية لها قواعد عالية ، وقد زينت غالبا هذه الاخيرة بحيوانات لها قرون ورقاب الزراف ، وهذه تذكرنا بالرسوم التى كانت موجودة على الصلايات فى مصر الفرعونية ، مثل الذى وجد على لوحة نعرمر وعلى سكين جبل العرقى . وقد طلى هذا الفخار بلون بنفسجى أو برقوقى ، وهو يشبه فخار چمدة نصر . ومن الجائز أن هذا النوع من الفخار الملون قد دخل الى تلك المنطقة من بلاد فارس ، غالبا عبر أذريبجان حيث وجد هناك عند هاسنلو Hasanlu ولقد تعددت أشكال الفخار فى مراكز الحضارة الفارسية ، وعلى وجه الخصوص هيسار Hissar وسيالك Siyalk والتى غالبا ما تكون مأخوذة عن فخار ايرانى . وحينما تظهر هذه الاوانى فى شمال بلاد الرافدين وفى اشور ، فلا بد انها كانت متأثرة بعامل آخر وهو استخدام بعض الادوات النحاسية مثل الازاميل وغيرها من أدوات متقدمة صناعتها فى تلك المناطق .

كشف فى أحد القبور الملوكية بأور عن خنجر من ذهب (انظر شكل ١١٣ من كتاب Mallowan) وغمده . وقد امتاز هذا الخنجر عن غيره من الخناجر التى عثر عليها . وقد صنع الخنجر والغمد من الذهب وقد قوى الخنجر من الوسط بضلع ثانى . اما الغمد فقد زين احد جانبيه بأشكال هندسية رائعة تدل على تقدم فن الصياغة . اما الجانب الاخر من الغمد فغير مزين ، بل أملس . اما مقبض الخنجر فقد صنع من قطعة واحدة من اللازورد رصعت بمسامير من ذهب .

اما عن الاوانى الذهبية التى عثر عليها فى مقابر أور الملكية ، فتدل على تقدم فن الصياغة (انظر شكل ١١٢ من كتاب Mallowan) . وفى كثير من الحالات صنعت من قطعة واحدة مطروقة ، وبعضها له ميزب واقداح . ومن بين هذه الاوعية كأس له أذن من اللازورد .

امتد نفوذ الحضارة السومرية فى نهاية هذا العهد ونجدها ممثلة على نهر دجلة عند مدينة آشور ، والتى أصبحت بعد عام ٢٠٠٠ ق.م العاصمة الدينية لآشور . ومعبدها الذى كان غالبا مكرسا لالهة ، يحتمل ان تكون

عشتار ، قد صمم بطراز بسيط وله مقصورة مستطيلة وغرفات جانبية وهو فى ذلك يشبه دور العبادة فى مدن بلاد الرافدين مثل مارى .. وفى معبد آشور يوجد مقاعد تجاه الحوائط ، صورت عليها تماثيل سومرية مثلت مرتدية جلود اغنام ، وقد كرست هذه للاله . واروع كشف فى هذا الشأن هو عبارة عن وجه من الجص gypsum عليه منظر الهة قد استلقت على فراشها (انظر شكل ١١٩ من كتاب Mallowan) وقد جهزت بحلى وربطة رقبة شبيهة بما عثر عليه فى المقابر الملوكية بأور (فى قبر الملكة Shub-ad واتباعها) . وتمثل مدينة آشور الطرف الشمالى للتأثيرات الحضارية السومرية فى آيام أسرة أور الثالثة ، ومع ذلك فقد وجدت اشياء صناعتها سومرية فى أمكنة بعيدة مثل بيبلوس الواقعة على ساحل البحر المتوسط .

ولما وصل سرجون الاكدى الى العرش واصبحت بلاد الرافدين فى قبضة الساميين ، استمر نفوذ الحضارة السومرية ، وعلى سبيل المثال الراس البرونزية المنسوبة الى سرجون (شكل ١٢) ففى طراز تصنيف الشعرشبيه كبير بخوذة لامير من العهدالسومرى هو (Mes-Kalam-shar) دفن بالمقابر الملوكية بأور . وقد صنعت هذه الخوذة من الاليكتروم .

ويحاول Mallowan فى دراسته المقارنة بين الاسرات الاولى ى بلاد الرافدين وما عثر عليه فى بعض المناطق الاثرية بايران ان يجد تشابها فى العمارة ، فقد حاول مقارنة معبد قائم فى تبة هيسار Tepe Hissar III يسمى « البناء المحروق » باخر عثر عليه فى آشور كرس للالهة عشتار وقد بنى على أساس سومرى .

* * *

لقد حاول سرجون الأكدى كما سنرى فيما بعد القضاء على المساوىء وانشاء دولة موحدة ، وكان سرجون من الموظفين الكبار عند ما اصبح ملكا على كيش حوالى عام ٢٣٣١ ق.م. وقد اسس مدينة له هى اكد وهزم لوكال زاجيزى وغيره حتى أصبح سيدا على البلاد . ولم يختلف عمل سرجون كثيرا عن أعمال غيره من بعض حكام المدن نحو تحقيق وحدة بعض المدن ، وقد استمرت دولته فترة طويلة حتى بعد وفاته . وربما يرجع هذا لأنه من العناصر الشمالية التى كانت تسكن بلاد الرافدين . ويتضح ذلك من الكتابات السامية وهى الأكدية التى كتبت بها النقوش الملكية من عهده . وقد أشارت هذه اللغة الى المنطقة الوسطى من الفرات وما جاورها من مناطق . وهى البلاد الأصلية لهذه اللغة . وجدير بالذكر

أن ثقافة السومريين قد دخلت هذه المنطقة من قبل وعلى ذلك لا يمكننا أن نعتبر هؤلاء الناس أجانب . فقد انتقلت الحضارة السومرية فى العهود الشبيهة بالكتابية الى الشمال كثقافة العبيد فيما قبل التاريخ وربما ايضا الثقافة السومرية . وانتشرت الأختام المميزة لتلك الفترة فى جميع أقاليم الشرق القريب . فوجدناها شمالا حتى طروادة وجنوبا حتى الوجه القبلى فى مصر وفى الشرق حتى وسط فارس وشمالها الشرقى . وكذلك وصلت الى براك على نهر الخابور شمالى سورية . واكتشف معبد على مسافة ٥٠٠ ميل شمالى أوروك على غرار المعابد الجنوبية من ناحية زخرفته بالفسيفساء المخروطية الشكل . وفى زمن الأسر القديمة عثر على معابد لعشتار فى مارى على نهر الفرات . وفى آشور على دجلة ، وقد زودت بتماثيل سومرية . من كل ذلك نرى أن التغيير اللغوى جاء نتيجة تحركات متواصلة من الناس نحو الجنوب ولكنهم كانوا متأثرين بالثقافات التى انبثقت من سومر من قبل . وأهل مارى الذين كانوا غالبا فى الاصل سومريين اعتمدوا على الكتابة السومرية ، كتبوا ايضا باللغة الاكدية . وكذلك الحال فى بعض المراكز مثل خفاجى بالقرب من بغداد . واستعمل الناس لغتين فى كيش .

من الجائز أنه كانت توجد فروق أخرى بين الشماليين والجنوبيين لكنها غير واضحة تماما . لقد قيل ان مجىء سرجون الى الجنوب هو فتح أجنبى ولكن هذه النظرية لم تجد ما يثبتها حتى الآن ، ولكن حكمه يدل على بداية عهد جديد . اذ نجد اتجاها جديدا نحو الفنون ، ومحاولة جدية نحو خلق وحدة سياسية لضم المدن تحت راية واحدة ، وقد حاول من قبل لوكال زاجيزى Lugalzaggisi الذى قضى عليه سرجون ان يلقب نفسه (ملك البلاد) .

حاول سرجون أن يسترضى العامة من الناس ويوحد البلاد فحماهم من الظلم وعمل على اعادة حقوقهم المهضومة ، اذ اننا نجد فى النص الجديد للقسم ان الملك قد اصبح شفيعا لجميع الناس الذين اقسموا باسمه كذلك من عناصر توحيد البلاد التى كان يسعى اليها سرجون هو ادخال تقويم موحد . فحتى هذه الفترة كان لكل مدينة تقويم خاص بها .

نشأت فى بلاد ما بين النهرين حضارة مزدهرة الا انه كانت تنقصها الحدود الطبيعية التى كانت تحميها من جيرانها . وكان فى امكان كل مدينة ضد الغارات البسيطة ، أما الغزوات الكبرى المتكررة فقد كانت تحتاج الى قوات كبيرة وحكومة مركزية تجمع هذه القوات . وهكذا الحال فى

تامين سلامة طرق التجارة . ومن اجل ذلك كان على سرجون الاكدى الدفاع عن البلاد وقد شغل جميع حلفـاء سرجون بذلك العمـل وكثيرا ما توجهت جيوشهم الى جبال ارمينية حتى الالف الاول ق.م .

على أننا سنرى أن الاتحاد الذى قام به سرجون وأسرته قد انهـار حوالى ٢١٥١ ق.م أمام هجمات الجوتيين الذين جاءوا من مرتفعـات زاجروس . كذلك قضت هجمات العيلاميين والعموريين على أسرة أور الثالثة حوالى عام ٢٠١٧ ق.م. وقضى الاشوريون والكاشيون على عائلة حمورابى عام ١٧٠٠ ق.م. وحطم الميديون الامبراطورية الاشـورية عام ٦٦١ ق.م . وغزا قورش الفارسي بابل وقضى عليها عام ٥٣٩ ق.م. من كل ذلك نرى أن الانتصارات التى أحرزها حكام بلاد الرافدين مرت فى جو من القلق العميق .

* * *

الفصل السابع

الهجرات السامية

تمهيـــد

قبل أن نبدأ الحديث عن الاكديين ارى من الخير ان نعرض عرضـاً سريعا لتحركات الساميين . ويرى جمهـرة العلماء ان مواطن الساميين الاصلى هو شبه الجزيرة العربية ، وانهم حينما قست عليهم الايام هاجروا فى عصور متعاقبة الى الشمال حيث اقطار الهلال الخصيب ، وغالبا انهم عاشوا مع السومريين وقد ازداد نفوذهم منذ العهد الاكدى ، وربما كان للهجرات السامية أثرها فى تكوين الشعب المصرى منذ أيام فجر التاريخ اذا فرضنا صحة وقوع هجرات سامية الى مصر فى هذه العهود البعيدة.

اما عن اهم الموجات الساميـة الى العـراق هى فى الواقع هجـرة الاكديين ، وهم فرع من الساميين ، وقد استطاعـوا فى منتصف الالف الثالث ، وفى نهاية عصر فجر الاسرات انشاء دولة كبرى سنتحدث عنهـا فيما بعد . وفى بداية الالف الثالث سكن قسم ثان من الساميين شمالى العراق ، وهم الذين تكون منهم الأشوريون . وفى منتصف الالف الثالث هاجر فرع ثالث يدعى الاموريين على الشام والمنطقة الوسطى من الفرات. كما هاجر فرع آخر من الساميين عرف بالكنعانيين فسكنوا الساحـل السورى . كذلك من الهجرات السامية الكبرى ، والاراميون الذين استقرت قبائلهم فى اعالى بلاد ما بين النهرين ومنطقة الفرات الاوسط وبلاد الشام وذلك فى منتصف الالف الثانى ق.م. كما سنرى فيما بعد . ومنهم قبيلة أقامت فى جنوبى العراق كانت تعـرف بالكلدانيين . ثم جاء بعـد ذلك العبريون وبطون اخرى قريبة منهم أقاموا فى فلسطين وشرقى الاردن. ومن القبائل السامية الاخرى التى نزحت الى تلك المناطق الخصبة اخيراً، النبط ، اللخميين والمناذرة فى العراق والغساسنـة فى الشام . ثم اخيرا هجرة المسلمين .

والساميون هم سلالة سام بن نوح ، وقد تحدثوا لغة انحدرت من

أصل واحد ، لغة غنية بمفرداتها وآثارها الادبية ، وقد تشعبت الى فروع ولهجات يمكن تقسيمها الى كتلتين : شرقية واهم فروعها اللغة الاكدية ومنها البابلية والآشورية ، ثم اللغات العربية الجنوبية كالحميرية والمعينية والسبئية . اما الكتلة الغربية فهى الامورية والكنعانية والفينيقية والعبرية والعربية الشمالية (الحجازية)

من ذلك نرى أن أقدم الهجرات السامية على بلاد الرافدين قد حلت فى بداية الالف الثالث من أيام الاشوريين ، وانهم سكنوا الاقاليم الشمالية فى بلاد الرافدين لانها كانت أكثر خصوبة وأصلح للزراعة والمرعى خلافا لأقاليم الجنوب التى كانت مغمورة بماء البحر ، وقد ظلت هذه الأخيرة زمنا طويلا قبل ان ينحسر عنها الماء حيث لم تكن تصلح فيها الارض للسكن والزراعة . ولما جفت عنها المياه ، عمرها الناس ، وقامت فيها المدن على اساس زراعى وتجارى .

وانحدرت من شمالى بلاد الرافدين قبائل المهاجرين الاول الى بادية الشام والى شواطىء البحر المتوسط بالقرب من صحراء شبه جزيرة سيناء .

وغالبا أن القبائل العربية التى أقامت فى منطقة فلسطين من شمالها الى جنوبها وفدت اليها على الارجح من الشرق لا من الجنوب ، فليس لدينا من دليل على هجرة كبيرة من طريق الحجاز أو شواطىء البحر الأحمر قبل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك لأن بلاد الحجاز هى واد غير ذى زرع ، فليس فيه حشود كبيرة كافية لغزو تلك المنطقة (فلسطين) . ولم يبق من أهل القوافل الذين كانوا يرتادون تلك المنطقة الا القليل . ومع ذلك كله فكان طريقا تجاريا .

ذلك عرض سريع لحال السكان فى بلاد الرافدين والهلال الخصيب ، فنجد من شرق دجلة الى شاطىء البحر المتوسط عشائر سامية تقيم وتترحل وينافس بعضها بعضا على المرعى والمورد كلما عضها الجوع أو اندفع اليها من الجنوب وارد جديد . وكان السلطان الاكبر على هذه البطون للدولة التى كانت تقوم فى بلاد الرافدين من أكديين أو بابليين أو اشوريين . لأن هذه البطون والعشائر كانت تقيم وتترحل فى أراض لا تنفصل عن بقاع بلاد النهرين ، وأحيانا دخلت بعض تلك الأراضى تحت سيطرة فراعنة وادى النيل ، وقد اقتدى بعض اهالى تلك المنطقة بعادات وعبادات أهل الرافدين أو اهل وادى النيل . كما جاء بعضهم الى مصر طلبا للتجارة فاقتبس هؤلاء من عادات وعبادات المصريين الشىء الكثير .

ولكن كانت وحدة اللغة ووحدة العادات ووحدة المكان هى الغالبة على هذه المنطقة طول الزمن . من أجل ذلك رأينا أن ولاة فرعون فى تلك البقاع كانوا يكاتبونه بالخط المسمارى وعلى الواح من طين مطبوخ ، وكذلك فعل انبابليون والاشوريون .

الاكديون

سرجون والامبراطورية الاكدية ٢٣٣١ ـ ٢٢٧٦ ق.م تقريبا

من الجائز أن قيام الاكديين كان نتيجة صدى تدبير ضد الاعتداءات الوحشية التى قام بها لوكال زاجيزى Lugalzaggisi. السومرى ملك اوروك (حوالى عام ٢٣٤٠ ق.م.) الذى مد سلطانه بعصا من حديد على كل انحاء بلاد ما بين النهرين وقد جاء فى قائمة الاسرة المالكة أن السومريين حكموا لمدة ربع قرن بالنار والحديد المنطقة كلها الممتدة من «البحر الاسفل» الى «البحر الاعلى» ، أى من الخليج العربى الى البحر المتوسط ، وقد انهى حكمهم الاستبدادى أحد الضباط الاكديين ، وهو سرجون . كان من عائلة رقيقة الحال ، كان أبوه ممن يقومون بحمل المياه وتوزيعها على الناس (ساقيا) .

لا نعرف شيئا عن تفاصيل أو ظروف حملته ، ولكننا عرفنا النتائج فقط . كما لم يكن هو أول الساميين الذين استوطنوا العراق ، فقد سبق أن بينا أن الساميين قد استقروا فى العراق قبل ذلك . وقد اثيرت حول هذه الشخصية الكبيرة قصص كثيرة تشبه الاساطير .

وضع سرجون غريمه لوكال زاجيزى فى قفص على بوابة معبد انليل بناحية نيبور وذلك ليثبت انتصاره . واتخذ لنفسه اسما جديدا : شاروكينو Sharrukenu. ومعناه الملك الشرعى ، وذكره التاريخ تحت اسم سرجون ، وبنوع خاص سرجون الاكدى أو الاجدى ، وذلك ليوضح انتسابه الى الجنس والمدينة التى يتبعها . وحتى يضمن نجاح ثورته فكر فى أن يبنى لنفسه مدينة جديدة ، جعلها عاصمة لمملكته : وهذه كانت أكد التى لم ينته الآثريون من تحقيق موقعها بصفة قاطعة . وبذلك وقعت مملكة لوكال زاجيزى السومرى فى أيدى سرجون الذى أوضح لقبه أنه أصبح سيدا على « اربعة اركان العالم » ، وهى آمورو Amurru فى الغرب ، وسوبارتو Subartu فى الشمال ، وسومر واكد فى الجنوب ، وعيلام فى الشرق .

وقد أشارت بعض الاخبار التى وصلتنا من وراء ايام سرجون انه كان

له اتباع خاصين لحكم المدن السومرية ، وقد لقب حاكم المدينة فى عهد حفيده (نرام ــ سين) بعبد الملك أو خادمه . ومن مظاهر توحيد البلاد السياسى ان سرجون سار على السنة التى بداها اوكال زاجيزى (ملك سومر) . ومن الاشياء التى استحدثها سرجون ، ادخال اسم الملك فى العقود مع أسماء الالهة ، وهو فوق مداوله على ولائه للملك ، اثباتلحقوق المتعاقدين . وقد قوى بذلك سلطة القضاة حتىصار حكمهم منذ ذلكالعهد الزاميا . وطبقا لذلك يكون سرجون قد انشا محكمة عليا يستانف اليها القضايا الكبرى ، وتكون مستقلة عن المدن . وهى خطوة سابقة لما سيفعله حمورابى فيما بعد ، كما انها طريقة لتوحيد البلاد . كذلك ادخل سرجون نظاما موحدا للتقويم ، ومن قبل كان لكل مدينة تقويمها الخاص وأسماء شهورها .

كذلك قام سرجون بتقوية الجيشوعتاده الحربىوطوره طبقا لمقتضيات الظروف . لم نجد كذلك انفصالا واضحا فى تسلسل الحضارة ، ولا فجوة فى تقدم الفنون . وانطلقت حياة الناس بشىء من الحرية لكن هذه الحرية لم تؤيد عدم النظام أو الفوضى ، فان حاكم مستبد مثل سرجون لا يمكن أن يقبل اى عصيان فى ملكه .

كشف عن راس فى نينوى ، أغلب الظن انها تمثل مؤسس هذه الاسرة، وهى محفوظة بمتحف بغداد (انظر شكل ١٢) ، وهى تمثل شخصية حقيقية عاشت فى النصف الثانى من الالف الثالث ق.م. تلفت هذه الراس نظر مشاهدها بالرغم من ضياع التطعيم الخاص بالعينين ، لكن لا زال على الوجه مسحة من حزم وعزم ، وعلى فمه ابتسامة هادئة رقيقة ، وقد ربط شعره بعصابة عقدت عند قفا رقبته بتسريحة شعر ثبتت بواسطة ثلاث حلقات من ذهب واما لحيته فشعرها المنظم فى هيئة خصلات تعبر عن عظمته وقوته ووضعه على راس أسرة سطرت لوطنها صفحات من المجد والفخار . كما انه اتخذ خوذة فيها شبه كبير من خوذة مسكلام شور Moskalamshar. أحد امراء اور التى سبق أن اشرنا اليها . ا معروضة بمتحف بغداد . انظر كتاب Mallowan صورة رقم ١٢٢)

سجل سرجون بعض مناظر انتصاراته على لوحة من الديوريت يحتفظ بها متحف اللوفر نقشت على الطريقة السومرية (انظر اشكال ٢٠٧ ، ٢٠٩ من كتاب A. Parrot عن سومر) ، فنظمت المناظر فى صفوف مثل ما كان الحال فى أيام اى اناتم فى لوحة النسور . ولكن لوحظ انه فى أيام ريموش Rimush. ابن سرجون الذى تولى العرش بعد وفاة والده ، بدات الى حد ما ــ تحطيم التقاليد القديمة . ويحتفظ متحف اللوفر ببعضأجزاء

كبيرة من تخليد ذكر معركة عثر عليها فى تللو (أنظر شكل ٢١٠ من كتاب Parrot) ، تقترب فى فنها من لوح نرام سين . وقد خلف ريموش ، الذى حكم تسع سنوات أخوة مانشتوسو وحكم ما يقرب من خمس عشرة سنة . وترك هذا الاخير مسلة مشهورة دونت عليها أعماله الحربية والاقتصادية والسياسية . ثم تولى بعد ذلك نرام سين حفيد سرجون والذى حكم ما يقرب من أربعين سنة واشتهر كمحارب وبناء ، كان له قصر فى تل براك بمنطقة الخابور ، وقد قاد جيوشه فى معارك النصر ، وخلد ذكرى انتصاره فى الموقع الذى انتصر فيه عند بيرحسيس فى كردستان الى الشمال من دياربكير Diarbekir . ولكن الاثر الذى خلد ذكرى نرام سين ، هو اللوح المحفوظ باللوفر ، والذى أقيم أصلا فى Sippar. مدينة الاله شمش ، ولكن كشف عنها فى سوس ، وكانت نقلت اليها بين غنائم الحرب بعد ذلك بحوالى ألف سنة أيام Shutruk Nakhunte. فى القرن الثانى عشر ق.م. وقد مثل على هذه اللوحة الفن الاكدى فى ذروة مجده وقد خلص نفسه من قيود الماضى .

فعلى هذه اللوحة المصنوعة من الحجر الرملى الوردى اللون (انظر شكل ١٣) ، صور الفنان ما لا يقل عن عشرين شخصية ترمز الى جيشين ، فعلى أحد الوجهين تسع عساكر ، وعلى الوجه الآخر مثلهم وقد صور الملك واقفا . وصورت المنطقة على هيئة مرتفعات غاصة بالغابات ، (وهى منطقة لوليبى Lulubi) ويرى المحاربون الاكديون وقد تحركوا على الجبل فى صفين من المشاه ، وقد مثل الاعداء فارين أمامهم ، فهذا نرام سين يطأ جثتين ، بينما سقط آخر من حافة الجبل مطروحا وبيده القوس وسلاح الحرب ، وقبض الملك على قوس وفأس فى يده اليسرى ، بينما وضع فى يمناه حربة ، ووضع فوق رأسه خوذة تشبه ما يتحلى به الالهة من تيجان لها قرون ، ولقد وصل الملك الى أسفل شيء شبيه بالجبل . وقد سطع فى السماء نجمان يخرج منهما أشعة وهما يشيران الى الالهة التى عاونته . وصورت حشود العدو من الموتى والجرحى .

أما عن الفتوح الاكدية لسرجون وخلفائه ، فقد استطاعوا أن يكونوا امبراطورية واسعة كانت تضم معظم أقطار الهلال الخصيب وعيلام وبعض مقاطعات فى آسيا الصغرى ، ويروى أنهم وصلوا الى ساحل البحر البحر المتوسط والتقوا بالنفوذ المصرى فى فينيقية أيام الدولة القديمة . وقد اتسمت الامبراطورية الاكدية أيام نرام ـ سين فغزا آسيا الصغرى ووطد أركان الامبراطورية فى ايران . وقد جاء فى بعض المصادر أن سرجون غزا كريت ، وانه تاجر مع الجزء الجنوبى الشرقى من جزيرة العرب (مع

مجان = عمان ومدوخا) ، وكذلك بعض جزر البحرين (دلمون) وسنقوم بشرح ذلك فيما بعد .

لما كانت بلاد الرافدين تفتقر الى كثير من المواد الأولية ، من أجل ذلك كان الهدف الأول من تلك الفتوح هو السيطرة على الاقطار التى تمتلك هذه المواد لانها كانت ضرورية للصناعة العراقية ، وأهم هذه المواد هى المعادن والأخشاب والحجارة . وبذلك حققت السيطـرة الاكدية الاستيلاء على مواد الثروة اللازمة للبلاد ، وبذلك يعد الفتح الاكدى هو من أوائل النظم للامبراطوريات الكبيرة ، ان لم يكن اولها .

وكان لتدفق تلك الثروات أثرها فى تقدم الحضارة الاكدية وانتشار استعمال الكتابة والخط المسمارى فى معظم أقاليم الشرق القريب وفى آسية الصغرى ، وأخذ الحثيون والعيلاميون الكثير من الحضارة الاكدية ، ونفذت اشعة الحضارة الى بلاد الشام وانتقلت الاساطير مثل قصـة الطوفان البابلية الى سورية . وجملة القول أن الفتح الاكدى كان عنصراً قويا فى توحيد نظم الحياة والحضارة فى الشرق القريب .

* * *

الجوتيون وقيام العهد النيوسومري

(عهد احياء السومريين مرة اخرى)

جاء من وراء نرام — سين ملوك ضعاف ، وقد انتهزت بعض القبائل التى كانت تعيش فى الشمال الشرقى للعراق هذه الفرصة واندفعت الى مواطن الاكديين وقضت على وحدتهم . وقد سميت هذه الجماعات بالجوتيين أو الكوتيين .

لم يعمل الجوتيون على التقدم سياسيا ، واكتفوا بأن استقلوا فى تلك المنطقة الخصبة ، وعاشوا على ما تنتجه البلاد من خيرات . وعلى حسب قوائم الأسرات فان استعمار الجوتيين قد استمر ما يقرب من قرن ، وكان عدد ملوكهم واحدا وعشرين ملكا ، وقد عمت الفوضى أيامهم ، وغالبا انهم لم يسيطروا الا على الجزء الشمالى من البلاد .

وكان لعدم استقرار عهدهم والفوضى التى انتشرت ، أن قامت المدن السومرية الكبرى : أوروك ، واور ، ولجش بما يشبه الاستقلال الذاتى . وقد حاول السومريون التخلص من هذا الحكم والى هؤلاء السومريين يعود الفضل فى اعادة بناء كيان الدولة السياسى والثقافى ، من أجل ذلك سمى العصر بعصر احياء الحضارة السومرية .

وظهرت فى هذه الفترة مدينتان هما لجش وأور ، وقام جدل كبير حول العلاقات السياسية بينهما ، وقد أسست لجش الأسرة الثانية . وفى أواخر هذه الأسرة ، ظهر عاهل جديد هو جودية Gudea . أما أور فقد كان لها طموح سياسى ، وقد جعل أورنامو Ur-Namwu منها مدينة ملكية واسس أسرة أور الثالثة ، والذى حكم ملوكها الخمسة اكثر من قرن من الزمان ٢١١٣ — ٢٠٠٥ كل بلاد ما بين النهرين (أنظر الثبت فى نهاية الباب الأول) . وعند نهاية ذلك العهد ستنتهى الألف الثالثة ، وتعد هذه الفترة العهد الذهبى فى تاريخ سومر .

عمل الأمير جودية ، الذى يضعه بعض المؤرخين فى أيام أسرة أور

الثالثة ، على احياء الآداب السومرية واقامة دور العبادة ، وقد جاء على آثاره أن نشاطه التجارى قد امتد فى شمالى سورية وفى عيلام وفى البحرين حتى الطرف الجنوبى الشرقى لشبه جزيرة العرب . وكشفت الحفائر عن تماثيل له من البازلت والديوريت محفوظة بمتحف اللوفر . ومن أيامه وصلت الينا أجمل وأحسن الآداب السومرية .

كيف تكونت اسرة أور الثالثة ؟ حينما ازداد اضطهاد الجوتيين ثار عليهم أهالى مدينة أوروك تحت زعامة أميرها السومرى (أوتوحيكال) الذى استطاع القضاء على آخر ملوك الجوتيين المسمى (تريقان) . وقد نصب أوتوحيكال نفسه ملكا على البلاد من (٢١٢٠ — ٢١١٤) ، فسمى ملك (سومرواكد) وجلس على العرش ما يقرب من سبع سنوات ، ثم ثارت عليه مدينة أور التى كانت تابعة له ، واستطاع أورنامو أن يؤسس أسرة أور الثالثة ، والتى تعتبر آخر عهد من حكم السومريين . وجدير بالذكر أنه كشف عن نسخة من شريعة أورنامو ، وبذلك تكون هذه أقدم من شريعة حمورابى التى سنسمع عنها بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون .

ويعتبر عهد أسرة أور الثالثة هو نهاية الحكم السومرى ، وبعد ذلك اندمجولا فى الساميين الا أن لغتهم وآدابهم قد عاشت وعمرت حتى أواخر الحضارة فى بلاد ما بين النهرين . وغالبا أن أسرة أور الثالثة كانت آخر دولة انشأها السومريون للحفاظ على الحضارة السومرية ونشرها فى كل أرجاء الشرق الأدنى الا أن ذلك لم يستمر أكثر من قرن من الزمان حينما انهارت تلك الحضارة لتترك مكانها لحضارات اخرى أشتقت منها .

أما عن نشاط ملوك أسرة أور الثالثة ، فواضح من مخلفاتهم التى أقاموها فى كثير من مدن العراق القديمة خصوصا أور عاصمتهم . وقد امتازت دولتهم بالتنظيم وتقوية الحكم المركزى فى حكم الأقاليم وذلك بدلا من توريث الأمراء .

وجدير بالملاحظة ان مؤسس اسرة أور الثالثة قد اتخذ لنفسه لقب « ملك سومر واكد » وهو الذى سبق أن اتخذه لنفسه أوتوحيكال ، وذلك الى جانب لقب ملك الجهات الأربع الذى سبق أن تسمى به سرجون . وحاول ملوك هذا العهد مساواة الاكديين (الساميين) بالسومريين ودمجهما فى الجيش والادارة ، وقد لقب بعض ملوكهم بأسماء سامية . وقد انتهت أيام أسرة أور الثالثة فى عهد آخر ملوكها المسمى (ابى سين) حينما بدأ ظهور الأموريين (وهم فرع من الساميين) وكذلك

بهجوم العيلاميين من الشرق . وبعد سقوط سرة أور الثالثة ، قامت عائلتان متعاصرتان فتنازعتا حكم البلاد مدة طويلة ، وهما أسرتا ايسن Isin ولارسا Larsa نسبة الى مدينتين معروفتين بهذين الاسمين . ومن دلائل ضعف أسرة أور الثالثة في الأيام الأخيرة من حكمها ، انقطاع تاريخ الحوادث بحكم الملك أبي سين آخر ملوكها في مدن هامة مثل سوس ولجش وأوما ونفر ، ومعنى ذلك عدم اعتراف هذه المدن بسلطان مدينة أور عليهم . وتوقف في السنوات الأخيرة ارسال القرابين التي كانت ترسل الى اله أور .

عديدة هي تلك الآثار التي عثر عليها من أيام أسرة أور الثالثة . أما بخصوص المباني السابق التحدث عنها فقط من طبعات الختوم ، فاننا نجد الكثير منها قائما من هذا العهد . لم يهتم الاكديون كثيرا باقامة منشآت . لكن ملوك الأسرة الثالثة تقدموا كثيرا في أعمال البناء . وقد ازدهرت اغلب المدن السومرية بتلك العمائر المرتفعة على هيئة جبال صناعية ، ولو أنها قد تأثرت بفعل التقلبات المناخية الا أنها لا زالت تحتفظ بعظمتها . فلا زال قائما في أور واوروك ونيبور ولارسا وأريدو زقورات من ثلاثة طوابق الى سبعة ، بنيت جميعها من الطوب (من الداخل باللبن ، ومن الخارج بالطوب المحروق) . ولا يجوز أن نخدع بمنظرها فنقارنها بالأهرام خصوصا الهرم المدرج ، ذلك لأن أغراضها لم تكن واحدة ، فالأهرام مقابر أما الزقورات فهي أبنية دينية . وتتكون الزقورة من قاعدة كبرى ليسهل نزول الآلهة الى الأرض ، وفي قمتها معبد للاستقبال وآخر على الأرض ليرتاح فيه الاله أثناء اقامته ، والمعبدان متصلان بطريق مكون من سلم تصعد عليه المواكب وتنزل منه ، وهو رمز يدل على وجود خط دائم يوصل بين السماء والأرض .

واذا ما تصورنا انه لم يستخدم في هذه المباني الضخمة الا الطوب الصغير الحجم (ولا يزيد طول الطوبة عن ذراع أي حوالى ١٥ بوصة) ، فاننا يجب أن نقدر هؤلاء الذين قاموا ببنائها فقد استخدموا ملايين القطع ، كما أشرف على هذا العمل مهندسون ، وحشد له عدد كبير من العمال ، وقد عمرت هذه المباني مدة أربعة آلاف عام لتشهد لأهل هذه المنطقة بالعظمة والقدرة والمهارة ، هذا بالاضافة الى المنشآت الأخرى ، من قبور ومعابد وقصور ومساكن كانت تزدهر بها مدن سومر ، وخصوصا مدينة أور ، واجملها قبور دونجي Dungi وبورسين Bur-Sin .

ولم يكن العهد النيوسومري هذا عظيما في عمارته فقط بل أيضا في

تماثيله . وفى هذا الميدان ذخرت لجش ، وزودتنا حفائرها بعدد وافر من تماثيل قيمة ، نسبت جميعها الى شخصية لها قيمتها هى جودية الذى حكم ما لا يقل عن ١٥ سنة ، ومن الجائز أكثر من تلك المدة . ولم يلقب بملك ولكن Patesi ، وهى وظيفة كبيرة ، كان يؤدى صاحبها وظائف دينية وسياسية وقد جعل لجش مركزا ثقافيا ممتازا ، فبنى قصورا ومعابد ومنشآت عامة ملئت بالتماثيل والأشياء الفنية خصوصا تماثيل جودية نفسه ، ونعرف حتى الآن أكثر من ثلاثين تمثالا فى دور التحف العالمية ، جميعها من عمل فنان واحد ، وبمتحف اللوفر عدد وافر منها من الديوريت والديوليت . وبالرغم من صلابة الحجارة ، فقد استطاع الفنان أن يقوم بنحتها بوسائله المعروفة فى تلك العهود .

مثل جودية وكأنه يتعبد ، فيداه مقبوضتان (انظر شكل ١٤) ، وقد التف جسمه برداء بسيط فيما عدا الكتف الأيمن والذراع الأيمن ، وقد طوى تحت ابطه وساعده الأيسر طيات الرداء ، هذا ولم يزين هذا الرداء بأى زخرف .وأقدام التمثال صلبة جامدة ، أما يداه فرقيقتان ، وأصابعه دقيقة الأطراف . وفى بعض التماثيل لجودية ، مثل وبين يديه اناء يتدفق منها مياه الخصوبة (انظر شكل ١٥) لأنه كان يعمل وسيطا بين الآلهة والناس ، خصوصا الاله ننجرسو اله المدينة .

صورت التماثيل جودية تمثيلا حقيقيا ، فقد كان قصير القامة ، له رقبة قصيرة . ولدينا مجموعات له تمثله من الخامسة والعشرين الى الأربعين من العمر .

لم يكن أور ننجرسو بن جودية مهتما بالفنون كوالده ، ومع ذلك فله تمثال يعد قطعة فنية رائعة وهو من المرمر وبنفس الهيئة التى كان عليها والده ، ومحفوظ بمتحف اللوفر (انظر شكل رقم ٢١٨ ورقم ٢٦٩ من كتاب A. Parrot) . أما الشيء الغريب فى هذا التمثال هو قاعدته ، فقد صور عليها موكب مزدوج لجماعة راكعة تقدم جزية ، كانت عبارة عن سلال بها أوانى . وهى بدون شك تمثل رسوما لأجانب ، غالبا من الساميين . ومن الغريب ندرة تماثيل السيدات ، وأهمها تمثال لامرأة تتعبد (انظر شكل ٢٧٣ من كتاب A. Parrot) ، عثر عليها فى تللو ، وقيل أنها ربما كانت زوجة جودية ، وبمتحف بغداد واللوفر تماثيل صغيرة تمثل عجولا برأس انسانى وأحيط الوجه بلفتين من شعر لتحديد الوجه (انظر شكل ٢٧٦ من كتاب Parrot عن سومر) . وبجميع هذه التماثيل ثقوب محفورة فى الظهر ، وقد كانت فارغة ، ويرجح أنها كانت تضم بخورا

او زيتا عطريا . وسنرى فيما بعد ، فى العهد الاشورى رسوم بارزة لتماثيل هائلة لهذه الثيران مجنحة وكأنها تقوم بحراسة بوابة .

أما من ناحية النقش ، فقد تفاخر جودية نفسه فى احد النقوش بأنه اقام سبع لوحات فى مقصورة واحدة . وقد أقيمت لوحة فى أور لأور نامو، ارتفاعها ١٠ أقدام ، وفيها يظهر ولاءه للالهتين نانار Nannar ، نينجال Ningal ، ويخلد ذكرى اشتراكه فى اقامة زقورة ، وهنا صور الملك مرتين يقوم بتقديم ماء التطهير عند نبات وضع فى اناء له قاعدة (انظر شكل ٢٨٢ من كتاب A. Parrot يقدم الملك الى نانار ويشترك فى بناء معبد . والمنظر جزء من لوحة أورنامو) ، ويصب الملك من يده الماء الى نينجال ونانار . وفى الحالتين تقف آلهة ترفع يديها فى اشارة تدل على الشفاعة . وقد لوحظ هنا اشتراك الآلهة مع الناس ، ونجد الملك يحمل أدوات البناء . وقد اظهر الفنان هنا ملاحظة ، اذ نراه قد نقش من وراء الملك احد خدمه يعاونه فى تثبيت هذه الأدوات أو العمل على عدم تحريكها . وقد تصدر الاله الموكب ، ويتبعه من خلفه الملك .

شغل السومريون فى هذه الفترة مع الآلهة الذين يمثلون كوسطاء أو شفعاء . وعلى احدى اللوحات المحفوظة بمتحف برلين ، يرى جودية حليق الرأس يتبع الاله ننجيزدا Nungizzida وقد قبض الاله على جودية من رسغه قبضة قوية ليقدمه الى اله أكبر مكانة ورفعة ، لكنا لم نستطع معرفة هذه الاله لأن النقش مشوه ، ولكن من المياه التى صورت متدفقة امامه ، فاننا نرجح انه أنكى ، اله الماء ، ومكن من الجائز أيضا أن يكون الاله ننجرسو « مغذى الحقول » ولوحظ أن اشخاص اللوحة قد وضعوا أردية مكونة من حواشى ، وتركوا الكتف الأيمن عاريا ، ووضعوا تيجان لها قرون ، دلالة على مكانتهم الرفيعة (انظر شكل ٢٨٤ من كتاب A. Parrot) .

لقد اله أهل الرافدين فى العهد النيوسومرى Dung دونج ملك أور ، الذى كان يلقب بالإله كما ذكر Parrot ذلك . وبعد أن توفى جودية ، اطلق شعب لجش هذا اللقب عليه .

اما عن الصناعات المعدنية أيام العصر النيوسومرى فأهمها التماثيل التى وجدت فى الأساسات من البرونز بكميات هائلة فى لجش وأور واوروك ونيبور والسوس (حاليا سوس فى ايران ، انما قديما كانت تخضع لسومر سياسيا) . وعلى سبيل المثال ، تمثال اله راكع يدخل خابورا فى الأرض ، حامل السلة ، عجل مستلق (انظر شكل ٢٩٢ من كتاب

(A. Parrot) ، وتنتهى هـذه التماثيل الثلاثة باطراف دقيقة ، وكانت توضع فى أساسات المبانى لدفع الأضرار عن أصحابها . لقد كانت هذه الطقوس افضل من تلك التى كان يفعلها الشعوب من وضع طفل ، أو مولود حديث .

من كل ذلك نرى أن العهد السومرى الجديد بما فيه من اسرة لجش الثانية واسرة اور الثالثة كان احياء للثقافة السومرية وتكاملها من ناحية العمارة ، ولا زالت بقايا عمارة أورنامو تشهد بذلك فى أور واريدو وأوروك ونفر وغيرها ، ثم قبور ملوك اسرة أور الثالثة الفخمة وما أوضحته من طرق الدفن والعقائد الدينية والمزارات التى أقيمت عند تلك القبور ، وقد كان طرازها لا يختلف عن طراز قبور عصر فجر الأسرات .

من ذلك نرى أن العهد السومرى الجديد لم يتأثر بغزوة الجوتيين ، وان السومريين فى هذه الفترة قد انشأوا عهدا ذهبيا جديدا فى بلادهم . فقد اقاموا زقورات ، كذلك نحتوا تماثيل جودية وغيرها ، وحاولوا القضاء على كل آثار الاكديين .

واذا اردنا ان نقارن تاريخ هذه الفترة بما يدور فى مصر ، فجدير بالذكر ان قيام الجوتيين فى العراق القديم واندفاعهم من الشمال الشرقى كما سبق ان رأينا واحتلالهم البلاد فترة من الزمن وتفكك وحدة البلاد فى أيامهم ، وكان ذلك من حوالى عام ٢٢٨٥ الى عام ٢١٣٢ ق . م فقد وقعت مصر فى ظروف مماثلة . اذ تعرضت البلاد لتسلل الاسيويين من الشرق ، وهى الفترة الى سميت بالعهد المتوسط الأول ، وقد عاصرت تقريبا أحداث العراق القديم ، وتشابهت مع بلاد الرافدين فى محنة الغزو ، وكان ذلك من حوالى ٢٢٨٠ الى ٢٠٥٠ ق . م . وحينما استطاعت أسرة اور الثالثة ان توحد البلاد وتجمع الشمل بين حوالى ٢١١٣ الى ٢٠٠٥ . كان صدى ذلك الاتحاد فى وادى النيل فى المحنة والاتحاد ايضا اذا استطاع أمراء من طيبة ان يوحدوا الجهود ، ويؤسسوا ما سمى فى تاريخ مصر الفرعونية بالدولة الوسطى وقد بدأت الأسرة الحادية عشرة الفرعونية من أيام منتوحتب الاول من عام ٢١٣٣ وانتهت هذه الأسرة فى حوالى ١٩٩١ ق . م بالملك منتوحتب الرابع .

* * *

الاموريون وسيادة البابليين

(٢٠١٧ - ١٥٩٥)

استطاع الاموريون والعيلاميون أن يقضوا على أسرة أور الثالثة. وتكون فى العراق أسرتان هما أسرة ايسن التى أسسها اشبى ـ ارا Ishbi-irra وقد حكم من ٢٠١٧ الى ١٩٨٥) . وحكمت الأسرة الى حوالى حوالى عام ١٧٩٤ ق . م . وعاصرتها أسرة ثانية ، هى أسرة لارسا ، من حوالى عام ٢٠٢٥ الى عام ١٧٦٣ ق . م . وقد قامت الأسرتان بحكم القسم الجنوبى من العراق فى هذه الفترة (انظر الثبت فى نهاية هذا الباب) . كما ظهر الاشوريون حول هذا التاريخ فى شمال العراق وبدأوا يكونون دولة مستقلة عن الجنوب . وبذلك عادت البلاد بعد القضاء على أسرة أور الثالثة الى حالة الانقسام التى كانت عليها فى عصر فجر الاسرات ونظام دويلات المدينة . كما استقل ملوك منطقة ديالى وكونوا مملكة اشنونا . وبعد فترة من الزمن من ظهور أسرتى ايسن ولارسا تكونت أسرة أخرى عرفت باسم أسرة بابل الأولى ، وقد بدأ حكم هذه الأخيرة من عام ١٨٩٤ الى عام ١٥٩٥ ق . م . تقريبا ، اى حوالى ثلاثة قرون . وقد استكملت مصر فى هذه الفترة وحدتها ، وذلك حينما أنشأ ملوكها الأسرة الثانية عشرة من عام ١٩٩١ الى عام ١٧٨٦ ق . م . تقريبا . وعلى ذلك نجد أن انتعاش الحضارة فى العراق أيام أسرة بابل الأولى ، عاصرها انتعاش فى الحضارة المصرية ، وكانت قد بدأت أيام أسرة أور الثالثة كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل .

أسرة مارى

قامت فى هذه المنطقة حضارة سومرية منذ عصر فجر الأسرات وقد بدأت أعمال الحفر فى مارى عام ١٩٣٣ تحت اشراف بعثة فرنسية ، فى تل الحريرى ، على بعد ٧ أميال من أبو كمال فى الحدود السورية ، على الضفة اليمنى لنهر الفرات . واستمر الحفر من ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٩ وتوقفت الحفائر بسبب الحرب العالمية الثانية ، ثم اعيدت مرة أخرى عام ١٩٥١ لمدة أربعة أعوام ، وذلك حتى عام ١٩٥٥ .

وظهر انه كان بهذه المنطقة حضارة مقسمة الى عصرين ، الاول فى العهد السابق لسرجون ، أى فى أوائل الألف الثالث ، والثانى بداية الألف الثانى (أمورى) . وبعد ما مرت بمارى تقلبات كثيرة فقدت استقلالها أو قضى عليها حمورابى ملك بابل فأخذها ودمرها حوالى عام ١٧٦٠ ، وأخيرا أقام الاشوريون فيها نقطة أمامية لجيوشهم .

كشف فيها عن معابد وقصور ومنازل وجبانات ، وعثر فيها على آثار كثيرة دلت على أن مارى كانت فى فترة من الفترات مركزا حضاريا كبيرا . وفيها صور حائطية مؤرخة من أوائل الالف الثانى . وكذلك تم الكشف فيها عن حوالى ٢٥ الف لوحة مكتوبة بالخط المسمارى ، اعطتنا صورة صادقة عن الحياة السياسية والاقتصادية فى بلاد ما بين النهرين . وقد عاصر قصر مارى عهد أسرتى ايس ولارسا وكذلك العهد البابلى .

ومن الاثار التى كشف عنهـــا فى مارى يمكننا ان نستنتج استمرار التقاليد السومرية ، فهذه الالهة باو Bau قد مثلت بردائها الطـــويل المكون من عدة حواشى ، وقد جلست مشبكة اليدين ، ومما هو مالوف فى الفن الرافدى ، تمثيل أشخاص يحملون اوعية ، وقد ظهر عند السومريين ثم انتقل الى الساميين . كذلك موضوع التضحية الحيوانية للالهة . وقد ظهر هذا اللون من التماثيل التى مثل فيها أحد العباد يحمل عنزا يقوم بتقديمه للالهة وقد عثر على هذا النوع فى مارى ، ويحتفظ متحف حلب بواحد منها (انظر شكل ١٦) .

ولم يكن قصر مارى متحفا للتماثيل فقط ، بل حفلت حوائطه بالصور فهذا احد الجنود وبيده حربة ، وهذا صياد سمك يحمل فوق ظهره صيده . وصورت مناظر التضحية فى صفوف ، ثم مناظر تتويج ملك مارى ، التى نقلت الى اللوفر مؤرخة من القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وبعض الرسوم الموجودة فى قصر مارى ، وخصوصا الحجرة رقم ١٦٤ والتى كان يحتمل أن تكون بهو الاستقبال ، كل ذلك يوحى بوجود شبه بينها وبين رسوم وجدت فى كريت بكنوسس وتابوت Haghia Triada وعثر على بعض الواح وجدت فى قصر Zimri-lim تبين وجـود علاقات اقتصادية وتجارية بينهم وبين كريت .

اما أسرتى ايسن ولارسا فقد تنازعتا السـلطة وخصصت اثبات الملوك لاسرة ايسن خمسة عشر ملكا ، حكموا ما يقرب من ٢٢٥ سنة . وللملوك لارسا أربعة عشر ملكا حكموا ٢٦٠ سنة وقد كانت أسرة ايسن الامورية أقوى الاسرات ، وقـــد تركت آثارا تدل على اهتمام ملوكها

بالعمران ، وكان لخامس ملوكها ، لبت عشتار ، شريعة ، سبقت قوانين حمورابى باكثر من قرن ونصف القرن ، كتبت باللغة السومرية . أما أسرة لارسا ، فقد كان ملوكها من البابليين ، وقد وضح تدخل العيلاميين فى شئونهم ، حتى انهم قضوا على آخر ملوكهم . وقــــد استطاع الملك العيلامى كودر ـ مابك أن ينصب ولده ملكا على لارسا ، ثم تلاه ولده ريم ـ سين ، ثم قضى هذا العيلامى على أسرة ايسن وحكمها .

وبعد أن قامت أسرتى ايسن ولارسا بأكثر من قرن ، قامت اسرة بابل الجديدة عام ١٨٤٩ ق.م تقريبا ، وهى مثل أسرة ايسن ، اى أنهم من الاموريين . وقد كان أشهر ملوكها حمورابى ، الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، والذى وصل الى العرش البابلى فى الوقت الذى قضى فيه الملك العيلامى ريم ـ سين على اسرة ايسن . ثم استطاع حمورابى أن يقضى على العيلاميين .

اما الباتيسى الخاصة بأشنونا التى سبق أن ذكرنا انها قامت فى هذه الفترة فى أعقاب سقوط أسرة أور الثالثة ، فقد كانت تحمل هذا الاسم نسبة الى عاصمتها التى تقوم خرائبها عند تل أسمر فى منطقة ديالى . ومن المخلفات الأثرية التى عثر عليها فى مراكز الحضارة فى تلك المنطقة تبين أنه نشأت فيها دولة منذ عصر فجر الاسرات ، ثم سقطت وخضعت لمملكة سرجون الاكدى ثم بعد ذلك لسلطة أسرة اور الثالثة ، ثم استطاعت ان تستقل عن مملكة أور ، ثم قضى عليها حمــــورابى ووضعها تحت سيطرته . ومن الوثائق الهامة التى عثر عليها فى المراكز الحضارية لتلك المملكة ، نسخة من شريعة أحد حكامها ، غالبا كان ، بلالاما . وهذه تسبق شريعة حمورابى بنحو قرنين من الزمان ، وتسبق شريعة لبت عشتار بنحو نصف قرن . وعلى هذا فشريعة حكام اشنونا هى أقدم الشرائع الانسانية المعروفة .

وفى تلك الفترة أيضا قامت أسرة من الملوك فى أشور بعد ضياع سلطان اسرة أور الثالثة واستقلت حتى جاء حمورابى ، وأهم ملوكهم هــــو شامشى اداد Shamshi-Adad.

أسرة بابل الأولى

أما عن أسرة بابل التى استقلت ، فقد شكلت اسرة بابل الاولى ، وكان أشهر ملوكها حمورابى ، وأما عن أصل هذه الاسرة ، فهم من الساميين المغربيين أى الاموريين ، الذين كانوا مقيمين فى بعض أقاليم سورية فى الفرات الاوسط .

كان مؤسس هذه الاسرة هو سومو ــ آبوم (١٨٩٤ ــ ١٨٨١) ، وقد اتخذ مدينة بابل عاصمة لملكه . وجدير بالذكر أن بابل هذه كانت معروفة منذ أيام فجر الاسرات ، وذكرت ملوك الاكدين وملوك اسرة أور الثالثة . ثم ازدهرت أيام أسرة بابل الاولى حتى اطلق اسمها على اغلب سكان العراق القديم ، وأصبحت عاصمة البلاد حتى نهاية البابليين . كما كانت تطلق على القسم الاوسط والجنوبى من الدجلة والفرات .

بدأت سلطة ملوكها الاوائل لا تتجاوز مدينة بابل ، ثم ضموا الى سلطانهم بعض دويلات المدن القريبة التى أنسوا فيهـــا ضعفا . كما استفادوا كثيرا من النزاع القائم بين ايسن ولارسة . ثم بدأوا يتحرشون بالعيلاميين الذين كانوا قد حكموا لارسه . ولما تولى حمورابى ١٧٩٢ق.م تقريبا . حاول ان يقضى على الانقسام الموجود فى البلاد ، ومما ساعد على نجاحه انه كان قائدا ممتازا وسياسيا لبقا ومصلحا من الطراز الاول وعادلا من أجل ذلك استطاع أن يقضى على العيلاميين ، وقضى على كل الممالك التى كانت تقوم بالحكم فى جنوبى العراق مثل امارة اشنونا (Patesis of Ashnunat) ، ثم وجه عساكره الى شمالى العراق والى اقطار الهلال الخصيب ، واستطاع أن يعيد للعراق مجده القديم .

كان برنامج حمورابى ، هو تقوية الادارة الداخلية اولا وتوطيد دعائم عرشه فى الداخل ، فاذا ما اطمأن الى ذلك كله بدا حربه مع العيلاميين وعلى رأسهم فى ذلك الوقت ريم ــ سين ، وقد اظهر حمورابى فى حربه هذه حزما وعزما قويين ، وبذلك اســـتطاع أن يقضى على العيلاميين واحلافهم وتبعهم الى بلادهم ، وعند ما تم القضاء على أكبر عدو له فى ذلك ا اوقت ، توالت الهزائم على بقية أعدائه فقضى على امارة اشنونا ، وتقدم نحو الشمال فاخضع الاشوريين ثم بسط نفوذه على معظم البلاد الشامية . وبعد أن تم له توحيد البلاد أصدر قانونه المشـــهور والذى سنتحدث عنه فيما بعد .

ولم ترزق البلاد بعد وفاة حمورابى (١٧٥٠ تقريبا) بشخصية قوية مثله ، وورث ملكه خمسة ملوك ضعاف (انظر الثبت فى نهاية هـــذا الباب) ، ووقعت بابل فى عهد آخرهم نهبا للحثيين كما سنرى فيما بعد ثم انسحب هؤلاء أمام هجمات الكشيين الذين جاءوا الى بابل وكونوا اسرة بابل الثالثة .

أما عن أهم مميزات العهد البابلى الاول هو نشاطه فى نقل ما تركه السومريون من مخلفات وجمع الشرائع وتقنينها واعادة كتابتها ، وتنظيم

الادارة ، وانشاء المحاكم المدنية ، ومن قبل قام الكهنة بنقل النصوص الادبية واللغوية والدينية الخاصة بالسومريين مع تغيير بسيط ، وقد قاموا بتدوين أسماء كثير من الحيوانات والنباتات على الواح كبيرة عثر عليها فى دور العبادة بالمدن الهامة مثل نفر وكيش وآشور وغيرها .

ثم قام أصحاب هذا العهد بتدوين الشرائع التى سبقت شريعة حمورابى ، مثل شريعة آمارة أشنونا التى سبقت حمورابى بنحو قرنين من الزمان ، وشريعة ملوك أسرة ايسن التى اصدرها لبت عشتار باللغة السومرية قبل أيام حمورابى بنحو ١٧٠ سنة . وغير ذلك من القوانين السومرية ، ثم يتوج هذا العهد ايامه باصدار حمورابى شريعة مدونة ينظم بها حياة المجتمع البابلى ، وقد دل على عدالته وتمكنه من حسن تنظيم البلاد وتوحيدها .

كان من نتائج الاستقرار والاتحاد الذى كان من خصائص عهد حمورابى أن انتشرت الحضارة البابلية فى جميع انحاء الشرق القريب وتجاوزت الى أطراف العالم المعروف فى ذلك الوقت وذلك عن طريق التجارة التى قام بتشجيعها حمورابى ، فوصل تأثير الحضارة البابلية الى الساحل الاطلسى والى وسط آسيا .

وبالرغم من الحروب التى أثيرت فى هذه المنطقة فى بعض الفترات التى مرت بها فقد ازداد العمران واتسعت المدن مثل آشور ونينوى وغيرها . وكشفت الحفائر عن قصور ومعابد من هذا العهد ، وعثر فيها على فخار وختوم اسطوانية ووثائق قانونية وغيرها . وتقدمت الصناعة وبناء السفن .

الكشيون

تعرض الشرق الادنى فى الألف الثانى ق.م لهجرات جماعات بربرية فقد تعرضت مصر فى اعقاب الدولة الوسطى لهجرة الهكسوس الذين احتلوا مصر واستغلوا أرضها مدة تقرب من قرن ونصف القرن . كذلك تعرضت بلاد الرافدين لغزو جماعة الكشيين الذين جاءوا من الشرق أو الشمال الشرقى وحلوا محل الحثيين الذين كانوا قد غزوا العراق من قبل . وقد حكموا البلاد من حوالى عام ١٧٠٠ الى ١١٥٧ ق.م وقد عرفت هذه الأسرة بأسرة بابل الثالثة على اعتبار أن أسرة حمورابى كانت تشكل أسرة بابل الاولى ، أما أسرة بابل الثانية فكانت من الامراء السومريين وشكلت فى القسم الجنوبى وكانت تعرف باسرة القطر البحرى (وقد جاء

ذكر ملوكها فى آخر هذا الباب) وبدأوا حكمهم من عام ١٧٣٥ الى عام ١٤٧٥ .

والكشيون هم من الاقوام الجبلية التى كانت تسكن شرقى دجلة وشماله الشرقى وغالبا هم من الفرع الهندى أوربى . ولم يكن لهم لغة خاصة بهم ، بل استخدموا اللغة البابلية السامية وكذلك اللغة السومرية فى الوثائق الدينية .

ولما كان الكشيون قلة وليس لهم حضارة ــ كما هو حال الهكسوس ــ لذلك استطاعت الحضارة البابلية أن تصهرهم فى بوتقتها ، فاعتنقوا الديانة البابلية ، وقدموا الاضاحى للالهة البابلية وقدسوها ، وأطلق بعض ملوكهم على نفسه أسماء بابلية ، كذلك فعل الهكسوس حينما احتلوا مصر فى تلك الفترة على وجه التقريب .

من كل ذلك نرى أن الحضارة البابلية قد استمرت وعمرت رغم احتلال الكشيين البلاد ، ولم يحدث الا تغيير طفيف . فبدلا من تأريخ الحوادث والوثائق الهامة بحوادث هامة ، أرخ البابليون فى هذه الفترة حوادثهم بسنى حكم ملوكهم كما كان يفعل المصريون القدماء .

وحينما احتل الكشيون البلاد اتخذوا فى أول امرهم بابل عاصمة ، ثم اسسوا أيام الملك كوريجالزو Kurigalzu عاصمة جديدة سميت باسمه (دور ــ كوريجالزو) .

وفى الوقت التى اسست فيه الاسرة الكشية نشات المملكة الاشورية فى الطرف الشمالى للعراق . ووقعت بين المملكتين حروب ، انتصر فيها الكشيون فى بادىء الامر ، كما تعرض الاشوريون الى هجمات الحثيين والميتانيين . ولكن استطاع الاشوريون التغلب فى النهاية على الميتانيين . ثم اتجهوا بعد ذلك لمحاربة الكشيين فقهروهم وانتزعوا منهم زعامة العراق السياسية . ولما فقد الكشيون سلطانهم ، وذلك بعد تعرضهم لهجمات كثيرة ، تولت أسرة بابلية ضعيفة الحكم ، لكنها لم تستطع الصمود أمام هجمات الاشوريين فى القرن التاسع ، الذين تمكنوا فى ذلك الوقت من تأسيس امبراطورية كبيرة .

ولقد صاحب قيام دولة الكشيين كما سبق أن بينا (١٧٠٠) ، اندفاع الهكسوس الى مصر عام ١٦٧٥ ق.م تقريبا ، وقد استمر حكم هؤلاء فى مصر حتى عام ١٥٨٠ تقريبا حينما قامت فى مصر الدولة الحديثة ، وقد

كانت قد تأسست فى ذلك الوقت دولة الكشميين واستقرت فى البلاد من عام ١٧٣٠ ــ ١١٥٥ ق.م. من ذلك يتبين أن الكشيين قد استطاعوا أن يحكموا العراق فترة طويلة بينما لم يستطع الهكسوس الاقامة فى مصر بعد عام ١٥٧٥ ، وربما كان السبب فى ذلك هو بعد هؤلاء عن مواطنهم الاصلية حيث كانت تأتيهم امدادات مختلفة ، بينما كان الكشيون قريبين من مواطنهم الاصلية .

وجدير بالذكر أنه نشأت فى هذه الفترة بين اقطار الشرق القريب علاقات من الود والصداقة بين المصريين والكشيين والاشوريين والحثيين والميتانيين منها رسائل الود والصداقة كما سنراها فيما بعد ، ومعاهدات سياسية تهدف الى نشر السلام والتعاون الاخوى بين الحكام ، وزيادة فى توثيق هذه الصداقة ارتبط الملوك والحكام فى هذه الاقطار بصلات النسب .

أما عن نهاية حكم الكشيين ، فقد كانت على أيدى العيلاميين الذين قضوا عليهم وأخذوا كثيرا من آثار بابل ، منها مسلة قانون حمورابى ، ومسلة الملك الاكدى نرام ــ سين ، لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على الموقف تماما ، فقد كان حكم البلاد قسمة بين الاشوريين والبابليين . ثم استطاع أخيرا نبوخذ نصر الاول Nebuchadnezzar I (١١٢٤ ــ ١١٠٣) طرد العيلاميين من البلاد وتعقبهم فى عيلام نفسها .

* * *

الاشوريون

تقـــديم:

سكن الاشوريون فى بادىء الأمر على شاطىء نهر دجـلة من خط عرض ٣٧° شمالا الى مصب نهر العظيم Shatt el Adheim ، وكانت محاطة من الشمال والشمال الشرقى بمرتفعات كبيرة ، وتتكون معظم أراضيها من تلال ونجاد وبعض السهول الزراعية مثـــل سهل أربيل وكركوك . وقد كانت تسقط الامطار على هذه المنطقة ، كما كانت مزودة بأنهار تغذى أراضيها . وقد تغيرت حدود آشور تبعا لقوة حكامها وكانت تمتد اراضيها فى بادىء الامر حتى نهر الخابور .

فى هذا المثلث الذى يتكون من الزاب الكبير والصغير ودجلة نشـأ الاشوريون الاقدمون منذ عصر فجر الحضارة ، وقبل ان تقوم الحضارة فى الجنوب وانتشرت الى الشمال ، حتى اصبح الشمال خاضعا للجنوب حضاريا وسياسيا . ولم يظهر الاشوريون على مسرح السياسة ويصبح لهم كيان الا فى منتصف الالف الثانى قبل الميلاد ، وهـو الوقت الذى استطاعوا فيه أن ينفصلوا عن الجنوب . وقد حاولوا قبل ذلك الاستقلال أيام الجوتيين وايام اسرتى ايسن ولارسة . وقد استطاع الاشوريون فى تلك الفترة أن يعرفوا الكثير من أصول الحضارة السومرية . ويقتبسوا منها الكثير كما فعل من قبل البابليون . وعلى ذلك فالحضارة البابلية والاشورية قد تتلمذتا على السومريين . من اجل ذلك فقد تشابهتا ، ولكن كان لكل شخصيته ، وقد استفادت الحضارة الاشورية من التجربة التى مر بها البابليون ، حينما اقتبسوا من السومريين .

أما عن كلمة آشور Assur ، فقد كانت فى العصور الاشورية تطلق على اسم أقدم مدينة ، وعلى اسم الاله الوطنى وعلى اسم البلاد التى يسكنها الاشوريون . اما معنى الكلمة : فهناك احتمال أن تكون من أصل سومرى . وقد ورد فى المصادر الارامية والعربية اسم الاشوريين على هيئة (آثور) . والاشوريون فرع من الساميين ، هاجروا من موطنهم الاصلى منذ العصور البعيدة فى القدم ، ثم استوطنوا شمالى العراق ربما

أيام العصر الاكدى أو قبل ذلك العهد . وقد اندمجوا مع السكان الذين كانوا يقيمون فى تلك البقعة .

العهد الاشورى القديم

تبين لنا ان الجزء الشمالى من العراق كان قديما فى تكوينه الحضارى فقد ظهرت حضارات من العصور الحجرية فى الجزء الشمالى الشرقى من العراق قبل ان تظهر فى الجنوب ، وقد سبق ان شرحنا الجزء الخاص بالعصور الحجرية . أما الجزء الثانى الخاص بعصر فجر الحضارة أو بداية الاسرات . فقد وضح من الكشوف التى أجريت فى آشور ونينوى ، العثور على آثار سومرية من عصر فجر الحضارة ، خصوصا الفترة الاخيرة منها . وبدون شك تشابه الشمال مع الجنوب من حيث دويلات المدينة التى كانت سائدة فى الفترة الاولى السومرية . استطاع سرجون الاكدى بعد ذلك أن يضع يده على كل بلاد الرافدين وضمنها آشور . ولكن تمكن الاشوريون فى الفترة الاخيرة من العصر الاكدى — وهى فترة حـــكم الجوتيين — أن يستقلوا مدة من الزمن ليست طويلة .

وقد كانت أشور جزءا من الامبراطورية السومرية فى أيام حكم أسرة أور الثالثة ، فقد جاء فى الخبر أن حكام أسرة أور الثالثة كانوا يعينون ولاة من قبلهم . فهذا « زريقو » حاكم آشور فى هذه الفترة يقيم بناء من أجل سيده « بورسين Bursin (٢٤٠٨ — ٢٠٣٩) » وهو احد ملوك أسرة أور الثالثة .

وقد سبق أن اشرنا الى انفصام عرى الاتحاد بعد أسرة أور الثالثة ، وتنازع كل من أسرتى ايسن ولارسة السلطان ، وظهرت أسرة بابل الاولى .

انتهزت جماعة السوباريين — وكان هذا الاسم يطلق على موطن الاشوريين
انتهزت جماعة السوباريين — وكان هذا الاسم يطلق على موطن الاشوريين
القدامى ، وكانوا يعيشون فى المنطقة الممتدة من دجلة الى جبال زاجروس وقيل ان هذه الجماعات الجبلية لم تكن ساميـــة — الفوضى التى كانت سائدة فى جنوب بلاد الرافدين وكونوا مملكة فى الشمال دخلت فيها بلاد اشور . ثم يبدأ الاشوريون انفسهم فى تأسيس أسرة ، وتستطيع هـذه الاسرة ان تبنى مملكة قوية ، ومن بين ملوكها ايلو — شوما ، وقد عاصر مؤسس اسرة بابل الاولى سومو آبوم . وقـــد أستطاع شمشى اداد Shamshi Adad الاول أن يوسع حدود مملكته ، فشملت امارة أشنونا وقد حكم هذا الملك فى آشور قبل حمورابى وعاصره حمورابى فى أيامه الاخــــيرة . وعاصر أمير مارى ، زمرى — لم Zimri-lim ، ثم قضى

حمورابى على المملكة الاشورية بعد أن قضى على العيلاميين، وبذلك دخلت آشور فى امبراطورية حمورابى .

العهد الاشورى الوسيط

قبل ان نبدأ دراسة هذا العهد ، ارى من المستحسن ان نلقى ضياء على الامم التى عاشت فى هذه الفترة وتأثرت بها بلاد الرافدين . فقد تكونت فى مصر عقب طرد الهكسوس الدولة الحديثة (١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق.م.) ، وقد امتدت الامبراطورية المصرية حتى منعرج الفرات ، ووقعت فى حروب مع الحيثيين . من ذلك نرى أن الامبراطورية المصرية والامبراطورية الحثية قد منعتا تقدم الاشوريين . ونازعهم الملك أيضا الكشيون ، وكثيرا ماوقعوا معهم فى حروب كان النصر فيها للكشيين فى أول الامر . كذلك تعرض الاشوريون فى هذه الفترة الى دولة الميتانيين ، وكانت مملكة انشأها الحوريون فى النصف الثانى من الالف الثانى ق.م. وقد عزا احد ملوكهم المسمى سوشتار ، الذى عاصر فرعون مصر تحتمس الثالث ، بلاد آشور ، وقد استطاع الميتانيون ان يسيطروا على الاشوريين فى القرن الخامس عشر واستمرت تلك السيطرة ما يقرب من قرن من الزمان . ثم تمكن الاشوريون بعد ذلك من التخلص من تلك السيطرة الميتانية . ومن محاسن الصدف التى افاد منها الاشوريون ، مهاجمة الحثيين لمملكة ميتانى كما سنرى تفصيل ذلك فيما بعد ، وقد كان ذلك ايام آشور – او باليت Ashuruballit (١٣٦٥ – ١٣٣٠) ، وقد هاجمهم هذا الاخير ، وقضى على ملكهم ايام حكم الملك الميتانى ارتاتاما الثانى . وقد استطاع آشور – أوباليت ان يتخلص من السيطرة الميتانية ، وقد سمى نفسه بعد ذلك الملك آشور – اوباليت . وقد دلت الوثائق على وجود صلات ودية بينه وبين الحثيين ، وربما كان لذلك اثره فى القضاء على الميتانيين . كما كانت تربطه بملك مصر أمنوفيس الرابع (اخناتون) ، صلات من الود والصداقة . وبعد ان اطمان الى حدود مملكته ، ووطد اركان عرشه ، بدأ يتدخل فى شئون بابل ، ولكن ثار البابليون عليه ، فارسل اليهم حملة تاديبية ، واقام على عرش بابل ملكا كشيا .

غادر آشور اوباليت الدنيا تاركا عرشه لخلفاء التزموا بسياسته وبمبادئه التى كان من أهمها عدم اقحام البلاد فى مغامرات حربية ، ومن أهم هؤلاء الخلفاء شالمانصر الاول Shalmaneser I (١٢٧٤ – ١٢٤٥ ق.م.) . وقد قام باتخاذ عاصمة جديدة لملكه وهى كالح (وتسمى الآن نمرود) وذلك نتيجة لاتساع رقعة مملكته . ثم خلفه ابنه (توكلتى – ننورتا الاول Tukulti-Ninurta I) (١٢٤٤ – ١٢٠٨) . وقد عاصر

عهده فترة من ايام رمسيس الثانى . واستطاع ان يضم الى آشور المملكة البابلية ، ولقب بعد ذلك ملك (سومر وأكد) . ثم حدث ما لم يكن فى الحسبان اذ ثار عليه ابنه وقتله . وكان من نتائج ذلك ان خرج البابليون عن طاعة ملك آشور وانفصلوا ، بل تحرشوا بالاشوريين وقد استمرت فترة الضعف هذه حوالى نصف القرن وهى شبيهة بالفترة الاخيرة من ايام الاسرة العشرين فى تاريخ مصر الفرعونية ، حيث تتابع على الفراعنة ملوك ضعاف هم الرعامسة الاواخر .

ثم نهضت آشور من كبوتها ، وظهر عاهل جديد هو تيجلات بيلاصر الاول Tiglathpileser I (١١١٤ — ١٠٧٦ ق.م) . وقد استطاع ان يوسع حدود ملكه فضيم الى حظيرة آشور بلاد الارمن ، واتسع ملكه غربا فوصل شواطىء البحر المتوسط . كذلك اهتم بشئون بلاده الداخلية واتخذ مدينة آشور القديمة عاصمة لمملكته .

ثم مرت بلاد آشور بمحنة قاسية نتيجة لظهور الاراميين على مسرح السياسة الدولية ، وقد استطاع هؤلاء أن يستقروا فى أعالى الفرات ، وكان الغزو الارامى من الدوافع الكبرى لاتحاد ملك اشور (آ شور — بل كالا Assur-bel-Kela) مع ملك بابل (مردوك شفيك — زر — ماتى Marduk Shaphk-Zer-mati) . وقد كان ملك الاشوريين سياسيا ماهرا فاعترف بالملك الجديد ، حتى انه تزوج بابنة هـذا المغتصب الارامى ، وقد احضرت هذه له مهرا كبيرا . وبتلك السياسة توقفت الضربات من الاراميين نحو الاشوريين ، ووجهت ضـد بابل . واحتلت قبائل ارامية جنوبى دجلة ، واستطاعت قبائل اخرى الاستيلاء على شواطىء دجلة الشرقية . وانهارت المملكة البابلية . وقد بلغت قوة الاراميين أوجها عند نهاية القرن العاشر ق.م. فاحتلوا معظم اعالى الرافدين ، وجعلوا الاشوريين فى اشد الضيق والحـرج . وامكنهم فى سورية الاستيلاء على مملكة اسرائيل الناشئة واخضعوها فترة من الزمن كما سنفصل ذلك فيما بعد .

الامبراطورية الاشورية الاولى

فى الامكان تقسيم هذه الفترة الى قسمين : كان على راس القسم الاول اشور دان الثانى Assurdan II (من ٩٣٤ — ٩١٢ ق.م.) ، وقـد عمرت هذه الامبراطورية الاولى ما يقرب من قرن ونصف القرن ، اى حتى أوائل حكم الملك تيجلات بيلاصر الثالث (٧٤٤ — ٧٢٧ ق.م) .

اما القسم الثانى فيشمل الامبراطورية الثانية من عام ٧٤٣ حتى عام ٦١٢ .

استطاعت آشور فى القسم الاول ، أيام الامبراطورية الاولى أن تستعيد مجدها وذلك بفضل وطنية أهلها وما تحلت ادارتها وشئونها بنظم دقيقة . كانت تستعد لعمل حربى كبير لتسترد ما اقتطعه الاراميون من أرضها (انظر الفصل الخاص بالاراميين) .

فهذا آشور دان الثانى الذى يبدأ هذا العهد الجديد ، فيحارب القبائل التى الفت السطو على بلاده من الناحية الشرقية ، ويقاتل الاراميين فى الشمال الغربى . وبعد ذلك سار ولده (اداد نيرارى الثانى Adad-nirari II (سنة ٩١١ — ٨٩١ ق.م.) على نهجه : فقد كان يقوم كل عام ما بين سنة ٩٠١ الى سنة ٨٩٦ بحملة ضد الاراميين فى منطقة « طور عبدين » Tur-Abdin فغزا الثلاث امارات الآتية : « حور بزانا Khurizana » و « جـدارا Gidara » « راقاماتو Raquamatu » و « نصيبينة Naçibina » وأحالهم الى ولايات آشورية . ثم قام فى عام ٨٩٤ بحملة كبيرة فى وادى خابور Khabur من منبعه حتى الفرات . وخضع جميع الناس فى تلك المنطقة له دون مقاومة عنيفة . فخضعت له « فوزانا Guzana » و « سيكانى Sikani » و « قتنى Qatni » و « سورو Suru » وقبيلة « خديفى Kadippé » ومعها رئيسها « برعطار Bar-Attar » كل هؤلاء قد دانوا له بالخضوع .

وفى عام ٨٨٥ ق.م. قدمت ولاية « بيت زمانى Bit-Zamani » لولده « توكولتى نينورتا Tukulti-ninurta » الجزية والخضوع التام ، وكذلك عاصمتها اميدى Amedi (دياربكر Diar Bekir) الواقعة فى اعالى نهر دجلة . وفى السنة التالية تقدم مع جماعة من الاشوريين فدخلوا اراضى الاستبس الرافدية (وهى أراضى جرداء) ، وبلغوا « دور — كوريجالزو Dur-Kurekalzu » التى تقع عند ابواب بابل ثم واصلوا الزحف حتى « سبار Sippar » ثم عاد محازيا الفرات فالخابور الى ان وصل « نصيبينة » .

وبعد ذلك خلفه « آشور ناصر پال الثانى Assur-naçir-pal II (سنة ٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م تقريبا) وكان هو اقسى ملوك آشور قاطبة فقد كان يقوم كل عام من سنة ٨٨٣ الى سنة ٨٧٨ ق.م. بحملة : فى المرتفعات الشمالية الشرقية ، وفى « طور عبدين » وفى ما بين النهرين ، وسبى الافا من الناس ، وأحرق وهدم مئات المدن . ففى عام ٨٨٣ على

وجه الخصوص عاقب بقسوة الثائرين فى « سورو Suru » وفى عام ٨٨٢ قام بحملة ضد « بيت زمانى Bit-Zamani » ، واحضر من هناك ١٥٠٠ أسير من «الاحلاميين ــ الاراميين Akhlamu-Araméens واصبحت كل بلاد الرافدين تقريبا حتى حدود مملكة بابل فى قبضة يد ملك آشور . وقد نظم تلك الامبراطورية وقسمها الى مناطق ومقاطعات وفرض على الناس الجزية وجند من هذه الاقاليم عساكر كثيرة .

الا ان مقاطعة « بيت اديني » التى كانت تحتل مكانا ممتازا فى منعرج الفرات لا زالت تتمتع بالاستقلال ، فسار « أشور ناصر پال » اليهـا واجبر ملـكها « أخونى Akhuni » على دفع الجزية ، ونفى الى « كالح Kalakh » ٢٤٠٠ آرامى من هذه المنطقة . واصبح الطريق بعـد ذلك مفتوحا امامه الى الغرب والى البحر : فعبر الفرات ودفع اليه ملك كركميش « سنجرا Sangara » جزية كبيرة . ووصل الى سورية فأحضرت اليه « حطين Khattin » الواقعة على الاورنتو Oronte الاسفل و « بيت أغوشى Bit-Agushi » الجزية التى فرضها عليهم . ووصل الى الشاطىء ، وذعرت المدن (الفينيقية) ، فقدمت له الهدايا وحقيقة الامر أن هذه المناطق لم تغز ولم تستعمر . وكانت أهداف جيوش آشور القوية هو اذاعة الرعب واحضار الجزية ، ولكن عنـدما قضى الاشوريون على الاراميين فى الرافدين عملوا على اتمام امبراطوريتهم فيما وراء الفرات .

ثم تولى الحكم بعـد ذلك شلمناصر الثالث Shalmaneser III (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق.م.) بعد وفاة والده آشور ناصر پال الثانى . وكان شلمناصر نشطا قاسيا كوالده فناصب فى عام ٨٥٨ « بيت اديني » العداء حيث كان يحكمهم الملك « أخونى » ، وكان يعمل على القضاء قضاء تاما على تلك الدولة التى كانت تقف حجر عثرة فى سبيل تقدمه الى سورية الشمالية وأحست جميع الدويلات المجاورة بالخطورة فتحالفوا مع « بيت أدينى » ومنهم « كركم Gurgum » ، وسمأل Sam'al ، وكركميش Karkemish ، وحطين Khattin ، وقى Que ، وجيلاككو Khilakku وبيت اغوشى Bit-Agushi . ولم يلق شلمناصر بالا على هذا الحلف وعبر الفرات الى الشمال متجها الى مقاطعة « كموخ Kummukh » ، وبعد ذلك نزل الى الاورنتو حتى البحر ، وهزم الحلفاء وأجبرهم على دفع الجزية وهم صاغرون . وفى العام التالى أى فى عام ٨٥٧ ق.م. أعاد ملك آشور الكرة ، وفى هذه المرة شدد الحصار على « تل برسيب Til-Barsib » عاصمة « بيت أدينى » وضيق عليها الخناق وقاومت المدينة ، ولكنها سقطت فى السنة التالية . ففر « شلمناصر »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسمها الى « كار ــ شنولمانا شريد Kar-Shulmanasharid » (اى ميناء شلمناصر) ، واقام فيها مستعمرات آشورية وبنى فيها قصرا . وهكذا اصبحت « بيت اديني » ولاية آشورية .

وقد شمل الذعر السوريين ، وفطنت اسرائيل الى الخطر الداهم الذى سيلحقها . وهذا الخطر المشترك هو الذى قرب « آحاب Achab » ملك اسرائيل من « بن ــ هداد Ben-Hadad » ملك دمشق . ودقت ساعة الخطر ، ففى عام ٨٥٣ ق.م. عبر « شلمناصر » الفرات عند « تل برسيب » وقد جاء فى بعض أقواله فى هذا الشأن ما يلى : « قد تسلمت الجزية من فضة وذهب ورصاص ونحاس وأوان من نحاس من الملوك فيما وراء الفرات وهم : سنجرا Sangara ملك كركميش ، وكونداشبى Kundashbi ملك كموخ ، وآرامى ملك بيت اغوشى ، ولالى Lalli ملك ميليد Melid ، ملاطيــة فى اعالى الفرات) ، وحيانى Khayani ملك بيت كبــارى Bit-Gabbari (سمأل) ، وكلفارودا Kalpharude ملك كركم وملك حطين Khattin « وتسلمتها عند آشور وتيرا سباتى Ashurutiraqbat فى الجانب الآخر من الفرات ، وهى مدينة اسماها الحثيون « بيترو Pitru » قمت من الفرات ودنوت من حلب . وقد خافوا من المعركة ، وقبلوا قدماى ، واستلمت منهم الجزية فضة وذهبا ومنحت قربانا لهداد حلب. ثم ذهبت من حلب ، واقتربت من مدينتى « ارخو ــ لينى Irkhuleni » ملك حماة ، وهما « ادينو Adennu وفرغا Parga واحتللت عاصمتها « ارغنا Argna » وهزمته واحضرت غنيمته وممتلكاته واغراضه وثروات قصوره ، واشعلت النار فى قصــوره ، وقمت من « أرغنا » واقتربت من « قرقر Qarqar » وهدمت عاصمتها قرقر وقضيت (عليها) ، واحرقت بالنيران ١٢٠٠ مركبة ، ١٢٠٠ حصان ، ٢٠٠٠٠ جندى من (جنود) هداد ــ ادرى Hdad-idri ملك دمشق و ٧٠٠ مركبة و ٧٠٠ حصان و ١٠٠٠٠ جنــدى من ارخوــ لينى Irkhu-leni ملك حماة و ٢٠٠٠ مركبة و ١٠٠٠٠ جندى من احاب ملك اسرائيل و ٥٠٠ جندى من قى Que و ١٠٠٠ جندى من موصرى Muçri (ليس المقصود بها مصر) و ١٠ مركبات و ١٠٠٠٠ جندى من « ارقة Arqa » (عرقا شمالى طرابلس) و ٢٠٠ جندى متينو بعلى Matinubali من ارباد ، و ٢٠٠ جندى من « اوسنو Usnu » و ٣٠ مركبة و ١٠٠٠٠ جندى من « ادونو بعلى Adunubali » من « شيانو Shiannu » ، و ١٠٠٠ جمــل من العربى « جنديبو Gindibu » ، و ١٠٠٠ جندى بعشا Ba'sa « بن « رحــوبى Rukhubi » من جبل امانا Amana (أنتيلبنان Antiliban) .

جاء هؤلاء الاثنى عشر ملكا لنصرته وقاموا لمحاربتى . ولكن بالقوة التى منحنى اياها سيدى آشور ، وبالاسلحة القوية التى وهبها لى « نرجال » الذى يسير أمامى ، حاربتهم . وقد حققت هزيمتهم من قرقر الى « غيلزو Gilzau » ، وقد صرعت ١٤٠٠٠ من مقاتليهم بسلاحى ومثل « اداد Adad » أمطرت عليهم وابلا وبددت جثثهم وملأت السهل من اشلاء جيوشهم القوية ، وبالسلاح جعلت دماءهم تسيل .. » .

ونرى من بين هؤلاء الحلفاء ان اسرائيل قد أتت من وراء دمشق وحماة . فهل معركة « قرقر Qarqar » كانت تمثل نصرا حاسما لهذا الموقف . الحقيقة انها معركة مشكوك فى أمرها : فلم يأخذ ملك أشور حماة ولا دمشق وربما السامرة ، واضطر الى العودة من حيث أتى دون أن ينهى الحرب .

حاول شلمناصر أن يقضى على سورية فى الاعوال ٨٤٩ ، ٨٤٨ ، ٨٤٥ لكن صمدت سورية . وفى عام ٨٤١ قام بحملة أخرى سنفصلها فيما بعد . ولم يستطع شلمناصر أن ينجح فى هذه الحملة .

قامت الامبراطورية الاشورية فى السنوات (٨٣٩ ، ٨٣٤ ، ٨٣٢ق.م) بحملات قام بها شلمناصر فى مقاطعات تقع فى شرق وشمال الامبراطورية فى « زاجورس ، ونائرى ، واورارتو » وكذلك غربا فى « قليقية Cilicie » وكذلك قام صراع ضد أمراء بلاد « طبال » . التى تقع شمالى طوروس ، وآخر ضد « للا Lalla ملك ميليد Melid » عام ٨٣٦ ، ٨٣٥ . كما قامت ثورة سنة ٨٣٠ فى بلاد « حطين Khattin » حيث كان على عرشها « لوبارنا Lubarna » احد المخلصين لاشور ، وقتل فى هذه الثورة « لوبارنا » وحل محله « شورى Shurri » فدخلت الجيوش الاشورية لتنقذ الموقف ، وفضل « شورى » المغتصب الانتحار ونصب « شلمناصر » آراميا اسمه « شاشى Sashi » على عرش بلاد « حطين » . ومن ذلك الوقت تغير اسم الدويلة الى « دويلة عمق » (عمقى) ʻAmqi (Umqi) وهو اسم سامى .

ثم قامت ثورة قبل نهاية أيام شلمناصر ، وذلك فى عام ٨٢٧ ق.م. وكان قائد الثورة هو ابنه « اشور دانين بال Assur-danin-bal » ولجأ شلمناصر الى « كالح » وقد انضم ولد آخر له واسمه « شمشى اداد الخامس Shamshi Adad V » (٨٢٣ — ٨١١) . واخيرا قبض على زمام الامور « اشور دانين » عقب وفاة والده . لكن لم يكف اخوه (شمشى أداد الخامس) عن محاربة « نائيرى Nairi » و « الماديين

Medes » وبابل . ولما مات اشور دانين خلفه على العرش ولده الصبى اداد نيرارى الثالث Adadnirari III » (٨١٠ — ٧٨٣) الذى ظل تحت وصاية والدته « شمورامات Shammuramat أو سمورا مات أو شميرام » (وهى سميراميس حسب رأى هيرودوت) (١) وقد حاربت هذه الملكة الماديين والمانيين (سنة ٨٠٩ ، ٨٠٧ ، ٨٠٦) كما قامت بالقضاء على ثورة قامت فى « غوزانا » عام ٨٠٨ . ومن كل تلك المنازعات نستطيع ان نستنتج ضعف الامبراطورية الاشورية .

وسنرى حينما نتحدث عن الاراميين ما قام به نيرارى الثالث ملك اشور من حروب حينما اكتملت رجولته ، كذلك قيام شلمناصر الرابع الذى خلفه (٧٨٢ — ٧٧٣) ، وجاء بعد ذلك اشور دان الثالث عام ٧٧٢ ، وقد تعرضت البلاد فى ايامه لازمات كثيرة من طاعون ألى ثورات ، وحدث فى حكمه كسوف الشمس ، وكان الاشوريون يتشاءمون من هذا الحادث . وجدير بالذكر أن لهذا الحادث أثره لضبط التقويم الاشورى اذ أمكن تاريخ الكسوف الى حزيران عام ٧٦٣ ق.م. ومن هذا العام تمكن العلماء من تسلسل التاريخ الاشورى وكذلك التأريخ البابلى ، وذلك بمقارنته بالتأريخ الاشورى الصحيح .

لقد استمر التدهور يدب فى جسم الامبراطورية الاشـــورية الاولى وتحالف الاراميون ضدها كما سنفصل ذلك .

تفكك الاراميين والقضاء عليهم

حينما اكتملت رجولة (نيرارى الثالث) عاهل آشور توجه لضرب الدويلات السورية عام ٨٠٥ فوصل (ارباد) وكانت عاصمة (بيت اغوشى) وفى العام التالى توجه الى (عزاز) التى تقع قليلا الى الشمال من (ارباد)

---

(١) جاء فى الاساطير اليونانية ان سميراميس كانت ابنة الهة ،نصفها السفلى سمكة والنصف الاخر حمامة . وبعد ان وضعت هذه الالهة ابنتها سميراميس ، قام على رعايتها طير الحمام (وكلمة سمو معناها حمامة ، ورامات معناها المحبوبة ، وبذلك فمعنى الكلمة محبوبة الحمام) ولما عثر عليها احد كبار الرعاة ، قام على تربيتها ، ولما اكتملت انوثتها تزوجها حاكم نينوى (اونيس) ، الا ان الملك (نينوس) اكره زوجها على ان يتخلى عنها وتزوجها هو بعد انتحار زوجها . وعظمت مكانتها فى القصر حتى ان الاساطير اليونانية تقول انها استدرجت زوجها الملك بان يتوجها عرش البلاد لمدة خمسة ايام ، ووافق على ذلك ، وتقول الاسطورة انها استاثرت بالملك لنفسها بعد ان وضعت زوجها فى السجن . او ربما قتلته . وعلى ذلك فقد حكمت اربعين سنة .

وفى عام ٨٠٣ وصل الى بلد غير معروف كانت تسمى (بعلى) وسجل اخبار تلك الحروب اذ قال « من شاطىء الفرات اخضعت تحت قدمى بلاد (حطى) أى (سوريا الشمالية) و (آمورو) جميعها أى (سوريا الوسطى) وصور وصيدا وعمرى أى (اسرائيل) وآدوم فلسطين الى البحر الكبير فى الغرب أى (البحر المتوسط) . وفرضت عليهم خراجا وضريبة . وسرت نحو بلاد دمشق . وحاصرت فى دمشق ملكها (مارى) فى عاصمته ، فاصابه خوف سيده (آشور) ، وقبل رجلى وخضع . فاخذت منه ٢٣٠٠ مثقال فضة و ٢٠ مثقالا من الذهب و ٣٠٠٠ مثقال نحاس و ٥٠٠٠ مثقال من الحديد ، واقمشة مختلفة الالوان ، واقمشة من كتان وأسرة من العاج ومقاعد من العاج المطعم بالذهب والمرصع بالحجارة الكريمة » .

من ذلك النص نرى ان ملك آشور كان يقصد من وراء ذلك القضاء على دمشق اذ كانت هى أهم المراكز الارامية ، ولما سقطت دمشق فى ايدى الأشوريين جاء دور الفينيقيين والاسرائيليين وسكان فلسطين ، وجميع هذه الاقطار قد وقعت فى قبضة الاشوريين . فهذا (يواحاز Joachaz) ملك اسرائيل يدفع الجزية للاشوريين . وقد دوخ الاراميون الاسرائيليين فى عهد (حزائيل Hazael) وابنه (بنهدد Ben-Hadad) . ولما كان هذا الاخير قد خسر كثيرا امام الاشوريين ، عند ذلك استعدت اسرائيل ، فهذا ملكها (يواش Joas) الذى تولى الحكم من عام ٧٩٨ — ٧٨٣ ق.م. والذى تولى الملك بعد (يواحاز) ، يتوجه الى دمشق ويخلص المدن التى اخضعها من قبل (بنهدد) . ولما تولى الملك فى اسرائيل (ياربعام الثانى Jeroboam) من عام ٧٨٣ — ٧٤٣ ق.م. رد على اسرائيل تخومها « من مدخل حماة الى بحر الغور (البحر الميت) » وانتهت الحرب باستعادة اسرائيل ما سبق ان فقدته فى حربها مع الاراميين .

أما فى آشور فقد قام (شلمناصر الرابع) الذى تولى الملك من عام ٧٨٢ — ٧٧٣ ق.م. بالتوجه الى مملكة (أورارتو Urartu) الواقعة فى منطقة بحيرة (وان Van) وقام بعدة حملات الى (جبل الارز) والى دمشق وغيرها حتى عام ٧٧٣ ق.م.

ولما تولى المملكة آشور دان الثالث Ashur-dan III عام ٧٧٢ مرت البلاد بمحن كثيرة من طاعون الى ثورات داخلية وبذلك سنحت الفرصة للدويلات السورية أن تتنفس الصعداء ، ومع ذلك فقد دخل الاشوريون فى حرب ضد (خاتاريكا) Khatarikka وذلك عام ٧٦٥

لان ذلك الموقع كان هاما لانه يشرف على مدخل (الاورنتو) . لكن لم يتمكن الآشوريين من التقدم الى ابعد من ذلك . واستطاعت أن تعيش مملكة (سمال) فى الشمال فى أيام هادئة .

ولما تولى ملك آشور نيرارى الخامس عام ٧٥٤ والذى استمر حكمه حتى عام ٧٤٥ ق.م. توجه بجيش نحو (ارباد) فهزم ملكها وفرض عليه معاهدة تحالف جاءت نصوصها مكتوبة باللغة المسمارية ، فمن بين الالتزامات التى فرضها ملك آشور ما يلى « فاذا حاربت جيوش آشور . بأمر من آشور نيرارى ملك آشور ضد أعدائه ولم يسر معها « متى ايل Matti-el » (ملك ارباد) من كل قلبه مع رؤسائه وقواته ومراكبه، فيوشح « سين » الرب الاكبر الذى يتزعم فى حران ، متى ايل وأولاده وعظماءه وأهل بلاده بالبرص كمثل لباس ، وليهيموا فى الحقول ... ولعنات اخرى لا تقل عنها وزنا تهدد ملك ارباد فى حالة نكثه وعوده نحو آشور » . غير ان هذا التحالف لم يكن ثابتا فقد توالت المحن على الآشوريين فهاجمتها بعض المقاطعات التى تقع فى شرقها (آشور) ، ووجد بعض ملوك الاراميين الفرصة سانحة لتدخلهم فى بعض شئون الامبراطورية الآشورية وقد تحالف الجميع مع مملكة (اورارتو) وبداوا يتحرشون بالآشوريين . ونقض ملك (ارباد) عهده . وكشف فى (سفيرة سجن Sefiré-Sadjin التى تبعد عن حلب بحوالى ٢٠ كم الى الجنوب الشرقى على بعض نصوص آرامية على احد النصب ، واهم شيء فى هذه النصوص هو تحالف بين ملك (كتكا Kataka) مع (متى ايل) ملك (ارباد) ضد الآشوريين . وكان مركز حركة العصيان (ارباد) كما هو واضح فى مطلع هذه المعاهدة وواضح أيضا انهم تحالفوا رغم تفككهم ضد الاشوريين والى القارىء الكريم البداية مختصرة « معاهدات كتكتا مع ارباد ومع حلفائها ، ومع ارام كله ومع موصرى ومع أولاده الذين يقومون من بعده ومع كل آرام الاعلى والاسفل » . وامتدت الثورة ضد آشور نحو الجنوب الى لبنان . ولم يتضح ان كانت دمشق قد اشتركت فى هذا التحالف ام لا . أما بلاد « موصرى Muçri » التى جاء ذكرها بجانب (آرام كله) كأنها حليفة لارباد ، فهى احدى مقاطعات تقع فى نواحى (قبدوقية Cappadoce) . أما عن موقع (كتكا) ، فهى دولة تقع شرقى مملكة (ارباد) وتشرف على نهر الفرات ، واما (سفيرة سجن) فكانت تقع بين الدولتين . وقد قلد (بركميا Bar-Ga'yah) ملك (كتكا) فى معاهدته هذه ملك آشور نيرارى خصوصا فى حالة نكثه العهود قائلا : « اذا خان متى ايل عهوده وقسمه ، لتصبح مملكته مملكة رمل ... ومثلما يحترق هذا الشمع بالنار كذلك لتحترق ارباد .... وكما ان هذا الشمع يحترق

بالنار كذلك ليحترق متى ايل بالنار ... » من ذلك نرى ان ملك (كتكا) يتصرف كما يفعل أى ملك حر عزيز الجانب بالرغم من انه لم يأت ذكر لهذه المملكة فى النصوص الآشورية وقد حاول Dupont-Sommer (١) أن يحدد موقع هذه المملكة فى شمال سورية فى المنطقة الواقعة بين (كركم وميليد وطبال) وذلك بالرجوع الى فقرة من تواريخ تيجلات بيلاصر الثالث (٧٤٤ – ٧٢٧) . وبذلك قد تحالفت الدول الآرامية الممتدة من سورية الجنوبية الى (انتى – طوروس) أى من البقاع الى (كتكا) ، ثم يحاول Dupont-Sommer أن يناقش رأيه اذ يقول : « كيف يتاح لنا أن نبين مع كتكا فى هذا القسم من الشمال الاعلى ، بينما أقيم نصب ملك كتكا فى منطقة حلب ؟ » ثم يذكر للخروج من هذه المشكلة برأى طريف اذ يفترض وجود تحالف دينى حول (متى ايل) فى قلب البلاد الآرامية ، وانه قد أقيمت لهذه انصاب كثيرة ربما بعدد الملوك المتحالفين وذلك تشابها بالعهد الذى أقيم فى سيناء ، فقد اقاموا من أجله اثنى عشر نصبا وذلك بعدد الاسباط الاثنى عشر .

---

(1) A. Dupont-Sommer, Les Arameens, Paris (1949) p. 59.

الامبراطورية الاشورية الثانية

قامت ثورة فى آشور قضت على (نيرارى الخامس) وتولى الملك من بعده فى عام ٧٤٤ ق.م (تيجلات بيلاصر الثالث Teglatphalasar III) وأول عمل قام به عام ٧٤٣ هو مهاجمة (اورارتو) والقوات الآرامية الاخرى فى ارباد و (ميليد) و (كركم) و(كموح) . وقد هزم الآشوريون هـذا الحلف الذى تزعمه (سردور) ملك (اورارتو) . وحاصر تيجلات بيلاصر الثالث مدينة ارباد ثلاث سنوات حتى سقطت عام ٧٤٠ ، واصبحت هذه البلاد مقاطعة آشورية . وجاء بقية ملوك آرام مقـدمين فروض الولاء والجزية للاشوريين ، وهم ملوك دمشق وصور وكموخ وفى وكركميش وكركم . ولكن اتحـدت الدويلات السورية الاخرى ونظـم (ازريو Azriyau) زعيم الحركة العصيان ضد تيجلات بيلاصر الثالث عام ٧٣٨ الذى لم ينتظر طويلا وانقض عليه واحتل كثيرا من المدن على شاطىء فينيقية الشمالى ، وفى بلاد حماة . وأمر باعدام (ازريو) ونصب أحـد افراد العائلة المالكة وهو (فنامو الثانى Panamu) الذى جاء ذكره فى لائحة الامراء الخاضعين التى جاءت عقب قصة حملة عام ٧٣٨ وقد جاء فى هذا الثبت اسم ملكة البلاد العربية . وقد امتد سـلطان تيجلات بيلاصر الثالث من قبدروقية وقيليقية الى صور والسامرة ودمشق حتى البلاد العربية . وقد جاء فى الكتاب المقدس أخبار تلك الحملة قائلا « جاء فول Pul وهو (تيجلات بيلاصر الثالث) ملك آشور على الارض فأعطى مناحيم Menahem لفول الف قنطار talents فضة حتى تكون يده معه لاقرار الملك فى يده » (II Rois XV 19) وأخلص (فنامو الثانى) للآشوريين لذلك كافأوه ببلاد (كركم) وقد جاء فى بعض الكتابة الآرامية ما يلى « ان والدى ملك فضة وذهبا وذلك لحكمته ونزاهته . فـكان يمسك بهدب سيده ملك آشور الكبير ، (حكام وامراء) آشور (كانوا يكرمون) حكام وامراء يعودى Yaudi . وسيده الملك اقامه فوق الملوك القديرين ... (فكان يركض مقتفيا أثر عربة) سيده تيجلات بيلاصر ملك آشور طيلة حملاته من المشرق الى المغرب ... » .

أما جنوب دمشق والسامرة فلم تخضع لتيجلات بيلاصر الا بعد أن

هاجمها عام ٧٣٤ حتى وصل شمال حدود اسرائيل ووصـــل حتى غزة واستولى عليها . وأوشك ملك يهودا Juda (احاز Achaz) على الاستسلام واستمات ملك اسرائيل وملك دمشق ، ورفض ملك يهودا معاونتهما ، وقد عمل الاثنان على ضربه ، وقد شدد النبى اشعيا عزيمته (Isaïe VII 4-9) « تنبه وكن فى دعة ولا تخف ولا يضعف قلبك من ذنبى هاتين الشعلتين ... » ولكن لم يطمئن (أحاز) فأرسل الى تيجلات بيلاصر ما يلى حسبما ورد فى ســـفر الملوك (II Rois XVI, 7-8) « أنا عبدك وابنك فاصعد وخلصنى من يد ملك آرام ويد ملك اسرائيل القائمين على » فهاجمهم وقضى ملك آشور على اسرائيل واحتلها . وبعد ذلك قسى على دمشق سنتين (٧٣٣ ، ٧٣٢) وحاصر ملكها حتى أصبح مثل « عصفور فى قفصه » وخرب حدائقهم واستولى على أغلب مقاطعات دمشق وسقطت دمشق نفسها عام ٧٣٢ وقتل ملـــكها المسمى ارصون (Rois XVI-9) . وهكذا خضعت دمشق ، ثم اخضع تيجلات بيلاصر العرب وملكتهم (Samsi سمسى) كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد . وعمل على تنظيم مملكته الكبيرة وظل (أحاز) على عرشه فى ظل الحماية الآشورية .

مات (فنامو الثـــانى) صـــاحب عرش (سمأل) والعبـــد الخاضع للآشوريين ، وقد جاء فى النصوص الآرامية عن نعيه ما يلى « بكاه اخوانه الملوك وبكته جيوش سيده ملك آشور كلها ... » وقد قدره تيجـــلات بيلاصر فأمر بأن ينقل جثمانه من دمشق الى آشور ، وبعد ذلك نقل الى عاصمته الخاصة حيث بالغ فى اكرامه . وجاء فى النصوص الآرامية عن تولى ولده (برركوب Bar-Rekub) العرش من بعده ما يلى « ... اجلسنى سيدى (تيجلات بيلاصر) (على عرش) أبى فنامو ابن برصور Bar-Sur » ويستمر النص « وانى ركضت وراء مركبة (عجلة) سيدى ملك آشور ، بين الملوك القديرين ، مالكى الفضة ومالكى الذهب . فلما قبضت على زمام الامور فى بيت أبى ، جعلته أكثر ازدهارا من بيت أى ملك آخر قدير .. » وقد كان (برركوب) مسرفا ، ولا نعرف كيف انتهى حكمه ، وغالبا أنه عاش حتى وصل الى أيام (شلمناصر الخامس) ابن تيجلات بيلاصر الثالث .

ثم حاولت مملكة (سمأل) التخلص من حكم الآشوريين ، كما رفض فى (السامرة) (هوشع Osée) ملك اسرائيل دفع الجزية سنة ٧٢٤ للآشوريين . فحاصر شلمناصر مدينة السامرة ثلاث سنين ، ثم سقطت عاصمة اسرائيل عام ٧٢٢ فى يد سرجون الثانى الذى ارتقى عرش آشور بعد شلمناصر وقد جاء فيما كتبه هذا العاهل الآشورى ما يلى « انى

طوقت مدينة السامرة واخذتها وسبيت ۲۷٫۲۹۰ من سكانها ، واخذت منهم ٥٠ مركبة ... » وبذلك اصبحت السامرة بعد دمشق ولاية آشورية .

ثم قامت فى عام ۷۲۰ ثورة فى ارباد وسيمرا Çimirra ودمشق والسامرة Samarie) وانضم اليهم ملك حماه (يوبعدى Yau-bi'di) . وكانت سكان هذه الولايات خليط من الآراميين والفينيقيين والاسرائيليين . فتقدم سرجون نحو حماه وانتصر عليها وجاء فى بعض النصوص ما يلى « انى حاصرته ، اى (يوبعدى) فى قرقر Qarqar خيرة مدنه مع جنوده ، ثم استوليت عليها . فأحرقت قرقر . اما هو فسلخته . وفى هذه المدن قتلت العصاة وفرضت السلام على الجميع واخذت ۲۰۰۰ مركبة و ٦٠٠ حصان من سكان بلاد حماة » . ثم توجه بعد ذلك الى الجنوب الغربى فاشتبك مع الجيوش المصرية والفزية وانتصر عليها فى ارافيا = بلده رفح الحالية) ، وبذلك توطدت سلطة الآشوريين فى سورية وفلسطين ثم سقطت بعد ذلك كركميش عام ۷۱۷ ، وانمحت دويلات سورية الآرامية ، كما انمحت من قبل فى القرن السابق دويلات الآراميين الرافدين . ومن ذلك التاريخ سيصبح معنى اسم (بلاد آرومو) (آرام) ، وذلك فى اخبار الآشوريين عن المنطقة التى تقيم فيها القبائل الارامية فى بابل .

موقف القبائل الارامية المنتشرة فى مملكة بابل

ظهر الآراميون فى بلاد الرافدين منذ القرن الحادى عشر وبعد ذلك فى القرن التاسع . فلما قسى عليهم الاشوريون منذ ايام (آشور دان الثانى) توجهوا الى البلاد البابلية واستقرت قبائلهم فى البقاع الخصبة الواقعة شرقى دجلة وذلك فى حدود بابل وعيلام . من اجل ذلك اطلق على ذلك الاقليم بلاد (آرومو) . ومما يدل على قوة هذه الجماعة انه حينما قام (شمش اداد الخامس) بحملة على ملك بابل عام ۸۲۳ كان من حلفاء بابل (آرومو) . وذكر تيجلات بيلاصر الثالث عام ۷۲۹ مطاردة الآراميين الذين كانوا ينتشرون فى بلاد ما بين النهرين وقد تفاخر بقوله « انى اخضعت شعب آرومو كله على شواطىء دجلة والفرات وسورافو Suroppu حتى نهر اوكنو Uknu (Kerkha كرخا الحالى) فى اقطار البحر ... وانى أتيت على شعب آرومو كله حتى الحدود الآشورية وأقمت رؤساء عساكرى حكاما عليهم » . وجاء فى بعض أخبار تيجلات بيلاصر الثالث قيامه بهجوم على (أحلامو) وهى منطقة تقع وراء نهر الزاب ، والاحلاميون هم الآراميون الذين كانوا ينتشرون على الضفة اليسرى من نهر دجلة .

وبعد انتصار سرجون (سنة ٧٢١ – ٧٠٥) فى الغرب كما رأينا فى الحلقة الاخيرة للامبراطورية الآشورية ، كان على بابل عام ٧٢٢ أحد المغتصبين السمى (مردوخ بلادان Merodach-Baladan) ، فتوجه سرجون عام ٧١٠ على الشعوب الكلدانية والآرامية التى كانت تعاون هذا الغاصب ، واستطاع أن يقضي عليهم اذ قال « انى تمكنت من تشتيت شمل الكلدانيين والآراميين » وفى مكان آخر يعدد القبائل التى واجهها وانتصر عليها ودخل بابل ، ثم طارد ملكها فى منطقة جبلية من الخليج العربى . ولما مات سرجون عام ٧٠٥ ظهر (مردوخ بلادان) فى بابل وجلس على عرشها مرة أخرى ولكنها كانت قصيرة . فلما تولى (سنحاريب) بن سرجون (من عام ٧٠٤ الى ٦٨١) توجه عام ٧٠٣ بجيش ضد « الشعوب الكلدانية الموجودة على ضفة النهر المر » و « الآراميون المردة الذين ما كانوا يعرفون (للموت) معنى » وانتصر وعاد الى آشور وفى ركابه ٢٠٨,٠٠٠ آرامى أسرى وسبايا . ولكن لم يتم القضاء تماما على الآراميين . اذ أنه فى عام ٦٩١ اتحدوا مع الكلدانيين ولكنه قضى عليهم . ولما تولى (اسرحدون) (سنة ٦٨٠ – ٦٦٩) عمل على القضاء على ابن مردوخ بالادان الذى تمرد على آشور وأقام أخاه ملكا على عرش « أقطار البحر » . ثم هاجم العيلاميين وقد عاونته احدى القبائل الآرامية . ولكن ايام آشور بانيبال (٦٦٨ – ٦٣١) تعاونت هذه القبيلة مع العيلاميين الذين احتلوا (كلدو Kaldu) . وقد استطاع الملك الآشورى أن يحتل المدينة ويقضي عليها واخذ معه ملكها الى (نينوى) وذبحه . وفى عام ٦٥٢ ثار ملك بابل (شمش شوم – أوكين Shamash-shum-ukin) وكان أخا للملك (آشور بانيبال) وكان قد نصبه ملكا على بابل ، وقد عمل ملك بابل هذا على اثارة الشعب والاتحاد مع « جميع شعوب بلاد بابل أكد وبلاد كلدو وبلاد آرام وأقطار البحر » وعيلام وغوسيوم (Gutium) (شرقى بلاد آشور) وآمورو والبلاد العربية ضد أخيه وسنفصل ذلك فى العرض الخاطف عن علاقة بلاد الرافدين بجيرانها . ولما مات آشور بانيبال عام ٦٢٦ احتل أحد القواد الكلدانيين (نابو پولاصر) بلاد بابل واعلن نفسه ملكا على البلاد . وحاول التقدم نحو آشور ، ففى عام ٦١٢ وصل الى نينوى واستولى عليها وانهارت الإمبراطورية الآشورية ، وبذلك حلت محلها المملكة الكلدانية (أو البابلية الحديثة) . أما عن الآراميين فقد ذابوا فى المملكة الجديدة ولكنهم لم يتلاشوا تماما بل انتشروا فى كل مكان ، فى بلاد الرافدين وفى سورية كلها .

هكذا انتهى تاريخ الجماعة السياسى بعد أن قاموا بدور هام مدة قرون اربعة او خمسة ، فقد تبعثروا فى أقاليم كثيرة ، ولم يمحوا من الوجود اذ أن لغتهم قد انتشرت فى بلاد الشرق القريب مدة تقرب من ألف عام حتى أتت اللغة العربية وحلت محلها .

موقف جيران الاشوريين الآخرين

لم يهتم سرجون فقط بالقضاء على الاراميين ، بل عمل على اخضاع الارمن الذين كانوا يقيمون فى أرمينية (اورارتو) ، وقد قسى فى معاملتهم، وقاوموه فترة طويلة من الزمن حتى قضى على ملكهم (روساس) .

لم تعرف نهاية سرجون ، لكن غالبا أنه اغتيل ، فخلفه على العرش ولده سنحاريب . وسلك طريق أسلافه ، فدانت له مدن قليقية ، ووصل الى المستعمرات الاغريقية فى آسية الصغرى ، وكانت له صلات بالايونيين . وكذلك وصل الى فينيقية ومملكة يهودا ، وكان على عرش هذه الاخيرة الملك الصغير (حزقيا) . وقد حاولت المدن السامية الخروج عليه ، لكنه قضى عليها . ثم حاصر أورشليم ، وقد وصفت التوراة هذا الحصار وصفا مفصلا ، وقد أطلقت على قائد الحصار ، وكان من الاشوريين اسم (الرابشاقة = كبير السقاة) ، وقد ذكرت التوراة أن جيش الاشوريين قد انسحب نتيجة انتشار الوباء بين وحداته .

تشير بعض الوثائق الرسمية وكذلك التوراة (٢ ملوك ١٩ : ٣٦ — ٣٧) الى أن سنحاريب قد اغتاله احد ابنائه ، وقد قامت ثورة داخلية استطاع ولده اسرحدون اخمادها . وقد خضع له ملوك خراسان . وقام بحملة الى شمالى شبه الجزيرة العربية لتأمين حدوده ، ولعله وصل الى مكان عرف بعد ذلك باسم دومة الجندل ، فقد جاء اسمه فى الوثائق الاشورية باسم أدومو .

كان على اسرحدون أن يقمع الثورات فى فينيقية قبل أن يبدأ فى غزو مصر . فاستولى على صور ، ثم بدء بأول محاولة لغزو مصر فى عام ٦٧٤ ق.م. ، ولكنه فشل بسبب العواصف التى واجهته فى الحدود الشرقية المصرية . وقام بعد ذلك بثلاث سنوات بحملة ثانية استولى فيها على منف ، وقد ثارت مصر وكافح طهارقة ، فجهز أسرحدون حملة ثالثة عادت قبل أن تجتاز الدلتا وذلك لمرض فجائى أصاب أسرحدون ومات فى حران .

لقد امتنعت الوثائق المصرية عن الحديث فى هذه الغزوات ، ولكن جاء ذكر بعض هذه الحوادث على الوثائق الاشورية . وغالبا ما كان خاصا بالحملة الثانية . « كنت أقاتل يوميا فى معارك دامية ضد Tarku (طهارقة) ملك مصر وأثيوبيا ، المغضوب عليه من الالهة ، وذلك من مدينة Ishhupri حتى منف ، وهى مسافة قطعت فى ١٥ يوما ،

وقد ضربته خمس مرات بسن رماحى ، وأصبته بجراح ، وبعد ذلك حاصرت منف ، مقر ملكه فحطمتها ، ودمرت أسوارها وأحرقتها » .

وبعد أن ذكر الغنائم التى حملها الى اشور استمر يقول :

« هاجر الاثيبيون من مصر ، ولم يتركوا فردا منهم يقدم فروض الولاء لى ، وقد قمت بتعيين ملوك جدد فى مصر ، وحكام وضباط ومشرفين على الموانىء وموظفين واداريين » وغالبا ان طهارقة قد فر الى طيبة ، بل الى أبعد من ذلك .

وقد خضعت كثير من العائلات المصرية للملك أسرحدون ، فمن بين من قاموا بمعاونته (منتوام حى) ، الكاهن الرابع الآمون بطيبة وحاكم الجنوب . وليس معنى ذلك أن الجيش الآشورى قد وصل حتى طيبة ، ولكن الخوف الذى حل فى قلوب الناس من ذلك الهجوم جعلهم يسارعون الى تقديم فروض الطاعة . ومن بين الشخصيات التى خضعت أمير سايس نيكاو ، وهو غالبا احد أفراد عائلة بوخاريس . ومما يدل على ولائه لاسرحدون ، أن أعطى نيكاو اسما آشوريا لمدينته سايس ولولده پسماتيك . وتسمت عائلة اخرى باسم آشورى ، شارلودارى ، ومن الجائز أن بقية الامراء سلكوا نفس الطريق . وعاد أسرحدون معلنا انه أصبح ملكا على مصر العليا والسفلى ، وملكا على أثيوبيا . وقد ترك على طول الطريق آثارا تخلد ذكرى انتصاره . وقد مثل على بعض لوحاته عملاقا يقهر أعداءه . وقد صور طهارقه فى Sendjirli راكعا يستعطف المنتصر ، ولوحظ أن الفنان الآشورى قد استطاع أن يصور سحنته الزنجية .

حينما غادر أسرحدون مصر ، حاول طهارقة أن يؤلب الامراء ضده ، وقد نجح الى حد ما ، **فقد استطاع فى عام ٦٦٩ أن يسترد منف .** وقد قام أسرحدون بحملته الثالثة على مصر لكنه مات فى الطريق ، ونجحت مصر من الغزو الآشورى هذه المرة .

كان لاسرحدون ثلاثة أبناء ، اختلفوا على من تكون له ولاية العرش ، وانتهى الرأى بأن يصبح الابن الثالث ، اشور بانيبال ، صاحبا للعرش ، وأما الابن الاكبر ، (شمش — شوم — أوكن) فقد عين وليا للعهد على عرش بابل ، معترفا بسيادة أخيه آشور بانيبال .

كان آشور بانيبال على قسط وافر من الثقافة ، فأحب الادب من أجل ذلك كانت له مكتبة شيدها فى قصره ضمت آلاف الكتب التى كانت صفحاتها من ألواح الطين ، وهى ثروة طائلة عرفنا منها الكثير من العلوم

والمعارف التى امتاز بها اهل العراق القدامى ، وقد كان آشور بانيبال حريصا فى جمع الالواح القديمة ونسخها .

اراد آشور بانيبال ان يعيد فتح مصر ، لان طهارقة استطاع ان يحكم البلاد فى هدوء وسلام مدة ثلاثة أعوام . فأرسل حملة على مصر عام ٦٦٦ ق.م . ودارت معركة فى مكان ما فى شرقى الدلتا ، وانتهت بهزيمة طهارقة ، ثم تقدم الجيش الى منف ، وفر طهارقة اثانى مرة الى طيبة .

ووجد العاهل الآشورى أن الملوك والحكام ونواب الملك الذين عينهم والده فى مصر قد فروا ، وتقضى الظروف أن يعودوا الى وظائفهم . وقد جاء على خاتم رسام Rassam المشهور قائمة بأسماء هؤلاء الامراء الصغار ، مع اضافة أهم المدن فى الدلتا ، الى جانب بعض المدن الاخرى فى مصر الوسطى مثل هيراكليوبوليس وهرموبوليس واسيوط ، ولاول مرة تحتل طيبة ، والتى كانت تسمى فى النصوص الآشورية (نى) ، ولكن لم تستسلم الا لفترة بسيطة :

« ان الرعب من السلاح المقدس لآشور سيدى ، دفع (طهارقة) Tarku للهرب (الى طيبة) ، ولم يسمع عنه بعد ذلك . وجلس تانوت آمون بن شابكو Shabako على عرش مملكته . وقد حصن كل من طيبة وهليوبوليس ، وحشد قوته فى طيبة » .

ولقد اخلص أمراء الدلتا لطهارقه ، لكنهم لم ينجحوا فى انقاذه . ويفهم من الوثائق الآشورية أن آشور بانيبال تقدم الى طيبة ، وان جيشه قد ضرب خيامه فى مكان ما بعد ابحاره بأربعين يوما فى النيل . وهناك احتمال فى تاريخ نص موجود بالكرنك من أيام منتوام حى ، يحتمل ان تكون حوادثه من هذه الفترة . فتحدثنا هذه الشخصية ، وكان يعمل حاكما للجنوب عن غزو أجنبى ، وكان عليه حماية المدينة (طيبة) . أما أمراء الدلتا فقد ثاروا فى الفترة التى ترك فيها جيش آشور بانيبال الدلتا الى طيبة . وبعد ان استتبت الامور لاشور بانيبال اقام حاميات ثابتة فى المدن الكبرى . ومع ذلك كله فقد استمرت الثورات الوطنية ، مما دفع آشور بانيبال الى التخلى عن فكرة جعل مصر ولاية آشورية ، واكتفى بابرام معاهدة مع احد الامراء الثائرين ، پسماتيك ، فيها تضامنت مصر مع الاشوريين تضامنا عسكريا دفاعيا هجوميا ، وارجع نيكاو ، وشارلوداري من نينوى اذ انهما وقعا فى الاسر من قبل ، وحملهما بالهدايا وجعل پسماتيك أميرا على اقليم أتريب ، ومات طهارقة .

عثر فى جبل بركل (بالسودان) ، فى نفس الوقت الذى عثر فيه على لوحة بعنخى المشهورة فى تاريخ مصر الفرعونية ، على لوحة من عهد تانوت آمون ، تسمى لوحة الحلم ، وقد تشابهت الحقائق التاريخية التى وردت على هذه اللوحة مع تلك التى وجد على خاتم رسام السابق ذكره، ولكن من الصعوبة بمكان عمل مقارنة . فتحكى الوثيقتان قصة انتصار ، ولكن فى أحدهما كان المنتصر آشور بانيبال ، وفى الاخرى كان تانوت آمون. فقد ذكر هذا الاخير أنه فى السنة الاولى من حكمه ، شاهد فى رؤيا ثعبانين: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره وقد فسرت الرؤيا بما يلى : « ان مصر العليا ملك الك فلتأخذ لنفسك مصر السفلى ، ستظهر فوق رأسك الالهتين العقاب والصل ، وتعطى لك البلاد كلها ، ولن يقتسمها أحد معك » .

وظهر تانوت آمون فى مصر بعد ذلك على عرش حورس وفى هذه السنة ، وتقدم من وسط الدلتا ، من المكان الذى نشأ فيه حورس ، كما تقدم الى الجنوب دون أن يعارضه أى شخص حتى وصل نپاتا ، وهناك أقام احتفالا كبيرا لآمون رع ، ثم أبحر شمالا مقدما فروض الطاعة الى خنوم رب الفنتين وآمون رع رب طيبة . وفى طريقه الى منف حياه الناس من كل مكان ، وحينما وصل الى العاصمة الشمالية تانيس « جاء أطفال الثوار ليقاتلوا مع جلالته ، وقام جلالته بمذبحة بينهم ، ولم يعرف عددهم » .

وعلى ذلك استولى تانوت آمون على منف ، وقدم القربان للاله پتاح ولبعض آلهة المدينة الاخرى ، ثم أرسل بعد ذلك أحد رجاله الى نپاتا ليقيم بوابة كبيرة اعترافا منه بالجميل .

« ثم أبحر جلالته شمالا ليقاتل مع أمراء مصر السفلى ، وبعد ذلك دخلوا فيما وراء الاسوار ... فى داخل منازلهم (فى النص الاصلى فتحات) . وعلى ذلك استمر جلالته مقيما أياما طويلة بجوارهم ، ولم يحضر أحد منهم ليحارب مع جلالته » .

لذلك عاد تانوت آمون الى منف ، وهناك انتظر قليلا للضربة القادمة وجاءته أخبار تفيد انتظار الامراء له . ثم سألهم ان كانوا يرغبون فى محاربته أو يؤثروا السلام . لكنهم فضلوا السلام على الحرب . من أجل ذلك سمح لهم بالدخول فى القصر حيث أخبرهم جلالته أن ربه آمون نپاتا قد وعده النصر ، وكان المتحدث باسانهم أمير Pi-sopd پاخرورى Pakherouri الذى قال انهم جميعا أخذوا على عاتقهم خدمة جلالته بأمانة وصدق ... وينتهى النص بخاتمة مبتورة غير مفهومة .

في الواقع أن الطريقة التى كتبت بها الوثيقتان ، وما فيهمـــا من تداخل يجعل استخلاص الحوادث من الامور الصعبة ، مما يجعل أمر تصديقها صعبا .

ان استيلاء تانوت آمون على منف واتفـاقه مع أمراء الدلتـا سابقة لهجوم آشور بانيبـال الى الجنوب نحو طيبـة ، ولكن لم تكن هـذه هى نهايته . ففى طيبة ، وفى تلك الأوقات العصيبة ، كان يوجد رجل عظيم صاحب مهارة ودهاء هو منتوام حى ، عمل على توحيد الجهود ، وقـد شاركته العـابدة الالهية شبن أوپى الثانية أو (زوجـة الاله) ، أخت طهارقة ، وقد جاء ذكر منتوام حى على الخاتم الاسطوانى المشهور باسم خاتم رسام للملك آشور بانيبال ، حيث سمى ملك طيبة ، وقد كان من سلالة كهنوتية . وليس لدينا وثائق واضحة تحدثنا عن احتلال الاشوريين القصير لمدينة طيبة . هذا وقد ظلت ذكرى الاستيلاء على طيبة فى وعى الزمن مدة نصف قرن من الزمان بعـد ذلك التاريخ ، حينما أراد النبى ناحوم أن يعلن القـدر المحتوم على نينوى ، فلم يجـد مثلا اوضـح من الاستيلاء على طيبة « هل انت أفضل من نو آمون (اى طيبة) التى كانت فى وسط الأنهار ، محاطة بالمياه وكان حصنها البحر ، وسورها البحر ، وكان الأثيبيون والمصريون باعدادهم الوفيرة يكونون قوتها وقـد عاونهم Puth والليبيون ، وقد أصبحت فى المنفى واسرت ، وقتل اطفالها فى كل ركن من أركان طرقاتها . وقد حملوا كل مسئولية هذا القـدر المحتوم اشرافها ، وقـد كبل عظماؤها بسلاسل » (سـفر ناحـوم الثالث ٨ الى ١٠) .

قام آشور بانيبال بتحقيق رغبة والده بأن عين أخاه شمش شوم اوكن ، كمـا سبق ان بينا ، على عرش بابل ، ولكن لم يتفق الاثنـان فى الرأى . وقد قام الملك البابلى بالاتصال السرى مع عيلام وأمراء العرب وفلسطين ونيكاو وملك مصر . ونشبت حـرب اهليـة بين الأخـوين . واستطاع آشور بانيبال القضاء على أخيه شمش ــ شوم ــ اوكن وكان ذلك عام ٦٤٨ ق.م . ثم توجه بعد ذلك الى تاديب القبائل العربية التى اشتركت مع أخيه ، ثم يمم وجهه نحو عيلام ، فدمر مدنها وخصوصا عاصمتها سوسه .

ولما انسحبت جيوش آشور بانيبال من مصر ، لم يكن منتظرا أن يقابل المصريون الاشوريين بالمثل ، ومع ذلك فقد لوحظ ان القـوات المصرية تبعت الجيوش الاشورية المنسحبة فى فلسطين Philistia ، كما حدث منذ حوالى ٩٠٠ سنة بعد طرد الهكسوس ، وقد جاء فيما ذكره هيردوت

(الجزء الثانى ، ١٥٧) عن استمرار حصار مدينة أشدود مدة ٢٩سنة ، وهو يعد اطول حصار فى التاريخ ، فهل فى الامكان تصديق هذه الرواية ؟.

جاء فى هذا الفصل الخاص بمقال هيردوت ما يلى (ترجمة الأستاذ الدكتور محمد صقر خفاجه) : « حكم پسماتيك مصر أربعا وخمسين سنة ، استمر اثنا وتسع وعشرين منها محاصرا لأزوتوس حتى استولى عليها ، وهى مدينة كبيرة بسورية ، وقد صمدت أزوتوس هذه أمام الحصار من بين كل المدن التى نعرفها » . وازوتوس Azotus « اشدود » ، هى مدينة موقعها فى المنطقة الحصينة الممتدة على الساحل بين غزة والكرمل ، وقد يكون موقعها قريبا من عسقلان .

وقع الأشوريون فى خطر من جراء هجرة الاسكيثيين Scythians (وهى قبائل من الفرع الهندو أوربى ، التى كانت تقيم فى جنوبى روسيا ، شرقى بحر (الارال) ، وبعض المؤرخين يرى احتمال أن تكون جماعات يجوج وماجوج التى ذكرت فى التوراة والقرآن من هذه القبائل ، كما ذكر المؤرخ اليونانى (الجزء الأول ١٠٥) ، وقد وصلوا الى الحدود المصرية ، ولم يتوقفوا عن التقدم الا بعد أن قدمت لهم هدايا والتماسات من جانب پسماتيك ، ثم ظهرت امبراطورية جديدة فى ميديا ، التى تقع الى الشمال الغربى من ايران تحت اشراف Phraortes وولده Cyaxarés

مات اشور بانيبال عام ٦٣١ ، وتولى بعده العرش ولده اشواتيليلانى (٦٣٠ ــ ٦٢٨) وحدثت اضطرابات داخلية ، كان من نتائجها انفصال بابل عن آشور تحت زعامة نابوپولاصر عام ٦٢٦ الذى استطاع الجلوس على عرش بابل . وقد حاول الأشوريون اعادة سلطانهم لكنهم فشلوا . وقد رأى پسماتيك عام ٦١٦ أن التحالف الذى أبرم بين الماذيين والبابليين سوف يشكل خطرا كبيرا عليه أكثر من خطر الأشوريين من قبل ، وعلى ذلك قرر الدخول فى حلف مع الأشوريين أعداءه السابقين ، ولكن كان پسماتيك سيىء الحظ حينما اتخذ هذا القرار ، لأنه فى عام ٦١٢ سقطت نينوى وأبيدت . وحاول الملك آشور أوباليت أن يقاوم من حران ، واستمرت الحالة غير مستقرة فى السنوات التى جاءت بعد ذلك .

كانت أسباب هزيمة الأشوريين ، تطرف ملوكها فى الغزو ، فمع أن الجيوش الأشورية أيام أسرحدون وآشور بانيبال قد استطاعت التغلب على الجيوش المصرية ، الا أنها لم تقو على الاستمرار فى المحافظة على مصر مع استمرار الالتزامات العسكرية فى مختلف الأقطار التى احتلتها فى الشرق الأدنى ، وعلى ذلك فان سياسة العنف كانت السبب فى القضاء

على الامبراطورية الأشورية ، وان التطرف فى فنون الحرب دون العناية بالفنون الأخرى ، واهمال موارد البلاد كل ذلك كان سببا فى القضاء على الامبراطورية الأشورية .

عاصمة الامبراطورية الأشورية الثانية

لما تولى سرجون الحكم ، قام بتغيير العاصمة من آشور الى مكان آخر هو كالح أولا (حاليا نمرود) . ثم انتقل بعد ذلك الى نينوى ، واخيرا قام ببناء عاصمة جديدة سميت باسمه « دور شروكين = مدينة الملك الصادق » وقد اتمها فى سبع سنوات . وكانت تقع على قرية تسمى « مكانبا » ، على بعد قريب من الشمال الشرقى لمدينة نينوى ، حيث تقع مدينة خرسباد حاليا . (حوالى ١٦ كيلو مترا شمال نينوى) . وقد كانت لا تشغل الا مساحة بسيطة من الأرض ، حوالى الميل المربع . وبمدخل المدينة طريق ممهد ومغطى بالحجارة ، وقد احيطت المدينة بسور به حوالى ١٥٠ برجا ، وبه ثمان بوابات يحمل كل منها اسم احد الآلهة الأشورية ، وزينت المداخل بثيران مجنحة لها رؤوس بشرية . ولم يبق من عمارة المدينة الا قصر سرجون وبعض ملحقاته . وكان لقصره مدخلان، زين أحدهما بثيران مجنحة . وقد زخرفت جدران حوائط القصر بألواح منحوتة من الحجر ، وعثر فى مدينة دور شروكين على نحو من ٢٦ من الثيران المجنحة ، يزن كل منها حوالى ٤٠ طنا .

وزينت بعض حوائط القصر بآجر مزين بالمينـاء بصور حيوانية مختلفة كذلك عثر بدور شروكين على تماثيل برونزية . كما عثر فى مخازن القصر على أدوات من الحديد بلغ وزنها حوالى ٢٠٠ طنا .

لم يعمر سرجون ليتمتع بمدينته الجديدة ، فقد عاجلته المنية عام ٧٠٥ . ولم يحرص خلفاؤه على الاقامة فيها ، بل هجروها وانتقلوا الى نينوى ، وشوه الكثير من تماثيلها ونقوشها ، ونقل الى قصور الملوك الذين جاءوا من بعده . وضاعت معالم المدينة ، ولكن ظل اسمها فى وعى الزمن حتى أيام الساسانيين ، الذين سموا المدينة (خسرو آباد) أو مدينة (خسرو) . وغالبا أن يكون اسم خرسباد الحالى ماتصحيف لهذا الاسم .

ولما تولى سنحاريب بعد وفاة والده سرجون ، الذى يرجح انه اغتيل . عاد الى نينوى واتخذها عاصمة لملكه ، وبنى فيها قصوره ، وخططها تخطيطا جديدا ، فزودها بالحدائق ، ووفر لها الماء العذب يأتيها من نهر (الكرمل) الذى ينحدر من المرتفعات الشمالية الشرقية ، لذلك بنى قناة من الحجر بلغ طولها حوالى ٥٠ ميلا .

***

الامبراطورية الكلدانية أو العهد البابلي الجديد

انهار البابليون سياسيا منذ أواخر الألف الثانى ق.م. وخضعوا للآشوريين فترة من الزمن ، ثم تحرروا من السيطرة الآشورية حينما فكر احد حكام البابليين وهو نابوبولاصر الذى كان يحكم فى بابل عام ٦٢٦ تقريبا ، واستطاع أن يقضى على النفوذ الآشورى وكون عهدا جديدا يسمى العهد الأخير فى بابل أو العهد الحديث . ولما كان نبوخذ نصر الكلدانى قد دون امبراطورية هى آخر دولة وطنية قديمة قامت فى بلاد الرافدين ، من اجل ذلك سمى العهد أيضا بالعهد الكلدانى . وقد دام هذا العهد فترة قصيرة من الزمن ، من ٦٢٦ الى ٥٣٩ ق.م. (انظر ثبت الملوك فى نهاية هذا الباب حيث ذكر أسماء ملوك الامبراطورية الكلدانية أو العهد البابلى الجديد) .

انهارت الامبراطورية الأشورية عام ٦١٢ بعد تحالف الماذيين والكلدانيين ، وقد تقاسم الاثنان ارضها ، فكان نصيب الكلدانيين وسط بلاد الرافدين حتى الجنوب . واستولى الماذيون على الأراضى الأشورية نفسها . ورايت من الخير أن اتعرض لهذا الوضوع (وهو الفترة الاخيرة من العهد البابلى والفترة الاولى من تاريخ الايرانيين) فى مكان آخر من هذا الكتاب عند بدء الحديث عن تاريخ ايران .

وانتهزت مصر فرصة تقسيم الامبراطورية الأشورية ، فتقدمت الجيوش المصرية الى آسيا وتشير الحوادث فى ذلك الوقت الى وقوع معركة فى مجدو عام ٦٠٩ ، وحسب راى Kienitz قامت حملتان أيام نيكاو الثانى ، واحدة عام ٦٠٩ ، والثانية عام ٦٠٨ . ولم يتم الاستيلاء على غزة بطريقة اكيدة فى هذه الحملة . وقد وضع هيردوت (الجزء الثانى ١٥٩) الاستيلاء على غزة (كان يسميها .Cadytes) بعد حفر قناة البحر الأحمر (وقد اخطأ هيردوت فى ذلك) وفى عام ٦٠٦ ــ ٦٠٥ ق.م. استولى المصريون على نقطة هامة تسمى .Kimkhu كمخو ، وهزموا البابليين عند Kuramati قوراماتى . ويقع هذان المكانان على الفرات ، الى الجنوب من كركميشن . وحسب الرواية البابلية ، تقدم نبوخذ نصر ابن نابوبولاصر . فعبر النهر ليذهب ضد الجيش المصرى الذى رابط فى كركميشن .... وانسحب الجيش المصرى ، وقد حقق هزيمتهم وضربهم الى غير رجعة » . اما بالنسبة لما بقى من الجيش المصرى من الذين فروا

من الهزيمة ولم يصيبهم الأسلحة ، فقد لحقت بهم الفرق البابلية وهزمتهم فى منطقة حماة ، حتى انه لم يستطع رجل واحد الفرار الى بلده . وفى ذلك الوقت انتصر نبوخذ نصر على كل منطقة اراضى بلاد الحثيين .

كما جاء فى (سفر الملوك ، الجزء الثانى ٢٤ ، ٧) « لم يأت بعد ملك مصر مرة أخرى من بلاده ، لأن ملك بابل قد استولى على كل المنطقة من نهر مصر الى نهر الفرات ، كل ما كان يمتلكه ملك مصر .

ذكرت فى كتابى مصر الخالدة ص ٩٢٣ تعليقا على هذا الموقف ما يلى:

« ان الانتصار على غزة ، كما ذكر هيردوت ، كان له علاقة بنصر احرزه نيكاو الثانى عند Magdolos . فاذا ما تأكد لنا أن هذه البلدة هى مجدو ، على ذلك لابد أن نقدر أن أعمال القناة قد تمت منذ السنة الأولى لحكم نيكاو ، وذلك طبعا مستحيل . وعلى ذلك يجب ان نفترض أن هيردوت قد اخطأ فى تلك الملاحظة . أو نفترض ان الاستيلاء على غزة أو اعادة استرجاع غزة بواسطة نيكاو قد تم أثناء حملة ثانية فى اسيا ، يرجح انها لاحقة لعام ٦٠٥ ، والتى ربما اشير اليها بالانتصار فى ماجدولس . وفى حالة قبول الرأى الثانى ، يجب ان نستخلص من ذلك أن نيكاو الثانى قد تمكن من وضع قدمه فى آسيا ، فى نهاية عهده . وغالبا ان هذا هو التفسير للحالة التى تشير اليها بعض الوثائق من ايام بسماتيك الثانى .

مات نابوبولاصر بعد شهر او شهرين من معركة كركميش . وانتصر البابليون عام ٦٠٤ ونهبوا عسقلون . وفى عام ٦٠١ كما جاءت الاخبار البابلية ، أن نبوخذ نصر يمم وجهه الى مصر . لكنه عاد الى بابل بعد ان فقد كثيرا من رجاله .

أما عن الرحلة التى وقعت حوادثها ايام بسماتيك الثانى فى الأقاليم الآسيوية فلا زال امرها معقدا . وقد ذكرت على بعض الوثائق من البردى الذى كتب باللغة الديموطية ، والظاهر انها كانت بعثة لها اغراض سلمية ، لأن كثيرا من الكهنة اشتركوا فيها ، أو انها ربما كانت زيارة دبلوماسية الى الولايات الآسيوية التى ظلت مخلصة لمصر .

جرد نبوخذ نصر حملة ضد اليهود ليؤدبهم ، فسقطت اورشليم ، واخذ منها آلاف من الأسرى مكبلين فى الحديد وملكهم يهو ياقين . وبالرغم

من ذلك ثارت مرة أخرى ، ولكن باغت نبوخذ نصر الثوار وحاصر أورشليم ، وهدمت جميعها .

وسيق جمع غفير من اليهود الى بابل ، ولكن أحس بعد ذلك من بقى من اليهود بسوء الحالة فى يهودا ففروا الى مصر ومعهم النبى ارميا (سفر ارميا الفصل ١١١ ، ٦) ولم يتضح تماما الدور الذى قام به أپريس ، فلم تسعفنا الوثائق المصرية بأية بيانات عن هذا الموضوع . ففى بداية حكمه الظاهر أنه أرسل وحدات من جيشه الى فلسطين ، ولكنه سحبها بعد ذلك . وأرسل حملة برية من جيشه على صيدا وأخرى بحرية على صور (هيردوت : الجزء الثانى فصل ١٦١) .

حاصر نبوخذنصر بعد ذلك مدينة صور مدة طويلة ، فقد بين الكاهن ايزاكيل أن حصار نبوخذ نصر لمدينة صور مدة ١٣ سنة دون الاستيلاء عليها (من عام ٥٨٥ الى ٥٧٣) وغالبا أن صلحا تم بينهما .

وقد جاء فى الأخبار ، وذلك فى نص باللغة المسمارية محفوظ بالمتحف البريطانى يصف السنة السابعة والثلاثين من حكم نبوخذ نصر (٥٦٢ ـ ٥٦٧) حديثا عن عمل حربى ضد أمازيس ملك مصر فى تلك الفترة ، ولكن من الأشياء البعيدة الاحتمال قيام قتال بين نبوخذ نصر وامازيس فى هذا الوقت أو مؤخرا ، لأن الملوك الذين جاءوا من وراء ملك بابل العظيم ، ثلاثة ، لكنهم ضعاف ، وانتهى الأمر أيضا بملك رابع نابونيدوس (٥٥٦ ـ ٥٣٩) ، كان ضعيفا أيضا ، واضطربت البلاد فى عهده ، حتى أنه لم يستطع مجابهة الحوادث الدائرة فى مصر ، ولم يخرج شمالا عن سورية وادوم (التى تقع جنوبى البحر الميت) .

اما عن علاقة نبوخذ نصر بالماذيين فقد كانت طيبة ، وقد تزوج نبوخذ نصر من بنت الملك الماذى .

كان نابونيدوس اصلا كاهنا نصبه اخوانه ملكا على بابل ، ولم يكن من الأسرة الكلدانية ، الغريبة عن البابليين ، ومن الحوافز التى ساعدت بلوغ هذا الكاهن العرش أن الوطنيين البابليين عاونوه للوصول اليه . وقد حالف نابونيدوس كورش ضد الماذيين حينما ثاروا على الملك الفارسى ، وقد استطاع الملك الفارسى أن يقضى على الماذيين ، كما قضى على الليديين . وفى ٢٩ تشرين الأول عام ٥٣٩ دخل كورش بابل غازيا وسقطت المملكة البابلية وطوى تاريخ بلاد الرافدين القديم .

من هم هؤلاء الجمـــاعة التى اســتطاعت أن تقضى على دولة بابل الجديدة ؟

ظهرت تلك الجماعة فى عيلام حينما دب الضعف فى جسم الامبراطورية البابلية الجديدة ، وكانوا من قبل خاضعين للماذيين . ثم ثار أحد زعمائهم وهو كورش على رئيســه استباكس وتولى العــرش ، ثم هاجم الليديين وانتصر عام ٥٤٦ ، ثم اســتولى على بابل عام ٥٣٩ فى ســهولة ويسر ، وسقطت بابل العظيمة بعد آشور .

* * *

الفصل الثامن

العلاقات بين بلاد ما بين النهرين وجيرانها

١ ــ علاقة بلاد الرافدين بالحثيين وسورية وفلسطين ومصر

لم يستطع احد من العلماء حتى ايامنا هذه ان يقطع براى اكيد نحو نشأة الحضارات الانسانية ، ففريق يميل الى القول بأن مهد الحضارات كان وادى النيل ، وفريق يرى أن وادى الرافدين كان هو عهد أيضا ، وفريق ثالث يرى أيضا أن الحضارات الانسانية لا يقتصر أمر نشأتها على حضارة أصلية واحدة بل على الأكثر على ست حضارات ، وكانت هذه الحضارات الست غير الحضارتين المصرية والسومرية هى الصينية والأندية والمنوية والمايا . وقد حاول Toynbee أن يذكر أن جميع هذه الحضارات الأصلية غير مشتقة من حضارات سابقة ، وأن الحضارة المصرية القديمة والسومرية قد بلغ كل منهما حد الأصالة والقدم وأن كلا منهما قد نشأ فى الحلقة الأولى للتطور فى الحضارة فى العصر الحجرى القديم فى موطنها الأصلى وفى بيئتها . حاول كثير من علماء المصريات وغيرهم من علماء الحضارات فى أقطار الشرق القديم ايجاد تشابه ، فنظروا الى الأدوات التى كشف عنها فى العصور الحجرية وفى عصر فجر التاريخ ، ووجد بعضهم أن المصريين أتقنوا تلك الصناعة فصنعوا منها الفؤوس والمكاشط ورؤوس السهام ، وكذلك كانت هذه الصناعة فى كل من بلاد ما بين النهرين وعيلام وفى الجنوب الغربى من بلاد ايران منذ الألف السادس الرابع قبل الميلاد . وبقيت أطوارها فى مصر ، حضارة الفيوم ، مرمدة ، والعمرى ، وتاسا والبدارى وجرزة ونقاده . وفى سوريا فى (العمق) وفى (رأس شمرا) وفى (الجديدة) و (أريحا) . وفى العراق ظهرت الأطوار التالية :

(حسونة ، سامراء ، حلف ، العبيد ، الوركاء ، جمدة نصر) . وقد

كتب دى مورجان فى مجلة علم الأجناس أنه غير مستطاع وجود اتصال بين البيئتين العراقية فى هذه العصور البعيدة فى القدم وحضارة السوس من الطراز المسمى رقم ١ وبين عصر فجر التاريخ فى مصر القديمة . وانتهى دى مورجان الى القول بأن هذه الأفكار القديمة لم تكن فى الواقع الا افكار تلقائية عند تلك الجماعات البدائية دفعت اليها ظروف معيشتهم وبيئتهم وأنها توجد فى اى مكان . وهذا هو السر فى التشابه بين الحضارة فى سوس وعيلام ومصر ، وقد ظهر فى مصر والعراق نوع من الفخار جميل لونه منقوش بدأت صناعته فى أواخر العصر الحجرى القديم وانتشر فى اقطار الشرق الأدنى حتى بداية العصر التاريخى اى فى أواخر الألف الرابع ق.م. كذلك وجدت آثار مادية وصناعات وطرز فنية مشتركة بين كل من الحضارتين المصرية والعراقية فى عصر ما قبل الأسرات المصرية وحضارة السومريين الأولى ثم حضارة الأسرات الأولى المصرية (عصر التأسيس) وحضارة السومريين الأولى .. وابرز الآثار التى وجدت فى مصر من هذا العهد (نقادة ٣) والتى يوجد تشابه كبير بينها وبين الحضارة السومرية هو مقبض سكين جبل (العرقى) وبعض الرسوم التى وجدت فى قبر من العصر نفسه فى (هيراكونپوليس) منها سفن صغيرة من نوع غير مألوف شبيه بالقوارب السومرية . صور على مقبض سكين جبل العرقى هذا بعض الحيوانات التى كانت كثيرا ما تظهر فى الرسوم العراقية كالكلب . وصور (بطل يصارع اسدين) كما لوحظ أن تماثيل الأسود التى نحتت فى الأطوار الأولى من الفن المصرى تبدو فاغرة الأفواه وذلك على طراز الأسد البابلى (السوسى) وقد تطور بعد ذلك هذا اللون من تمثيل الحيوانات فى الفن العراقى ولكن توقف تمثيله فى مصر أما فى بداية الأسرات المصرية فى عصر التأسيس فقد ظهرت على الصلايات المصرية بعض الرسوم الحيوانية مثل لوح نعرمر وما عليه من نقش يمثل حيوانات خرافية استطالت رقابها . اما طرز العمارة فقد ظهرت طرز فى الوركاء تتمثل فى وجود مبان بالطوب النى من عصر الأسرات الأولى فى الحضارة السومرية تتميز بوجود بروز فى الأسوار التى تحيط معابد الوركاء وقبور الملوك فى مصر الفرعونية من الأسرات الأولى ويستمر ذلك الطراز حتى نجده فى المبانى الحجرية أيام الأسرة الثالثة فى الهرم المدرج لزوسر بصقاره وغيره .

وقد افترض دى مورجان — لامكان وصول هذه الحضارة الى مصر — احتمال غزو الأسيويين وادى النيل فى تلك العصور البعيدة ، لكنه لم يستطع تحديد مكان أو زمان هذا الغزو . والأقرب الى الصواب هو أن المصريين والعراقيين الاقدمين قد اتصلوا فى تلك العصور القديمة فى نقطة التقاء تجارى واحد غالبا ما كان مركزا من مراكز انتاج البخور والدهون

العطرية التى كانت لازمة للحضارتين فى باكورة نشأتها . وفى ذلك المكان تلاقت الأفكار وانتقلت الى البيئة المصرية وظلت فيها فترة من الزمن وهى فترة التكوين . ثم بعد ذلك هجرت هذه الطرز وتلك الرسوم الحيوانية وغيرها الى طرز ورسوم نباتية من طبيعة بيئتها . أما فى بلاد مابين النهرين فقد عاشت تلك الطرز وتطورت الرسوم الحيوانية وغيرها فى الحضارات التى مرت فى العراق القديم من أيام السومريين الأولى حتى العصر الآشورى .

أما عن علاقة ملوك السومريين ممن كانوا قبل سرجون الأكدى الذين تقدموا الى الشمال فوصلوا الى الأناضول فمنهم الملك السومرى (لوكال زاكيزى أو لوجال زاجيزى) . كما هناك ما يشير الى اقامة بعض السومريين فى (كبدوكيه) قبيل العهد الأكدى وذلك لاستخراج المعادن .

كان للحملات الحربية التى قام بها (سرجون) و (نرام رسين) الملكين الأكدين فى بلاد الأناضول أثرها فى انتقال الحضارة . وكان لهذه الفتوح اثرها فى نشر الحضارة السومرية فى بعض أجزاء من الشرق القديم ، وانتشر الخط المسمارى فى بلاد الأناضول واستعمله سكان (كبدوكيه). ولو أن الحملات المختلفة التى قام بها الأكديون لم تسفر عن امتداد سلطانهم الكامل الدائم فوق كل البلاد التى مروا بها الا انهم تركوا آثارا حضارية فى نقطة التقاء الخابور بالفرات ، ثم امتدت آثارهم الى أعالى الدجلة وانتشرت الحضارة الأكدية من فن وعمارة ولغة ، حتى الكتابة المسمارية ، وانتشر فى سورية منذ تلك العهود كثير من المعتقدات البابلية ، وليس من شك أن الملاحم الهامة مثل قصة الطوفان والخليقة غالبا ما انتقلت من البابليين (السومريين القدامى) وظل يتوارثها الناس جيلا بعد جيل . وتلاقت الحضارتان المصرية والعراقية القديمة فى مراكز التقاء الحضارات فى مدن فينيقية ، جبيل ، وأوغاريت .

وكان التاريخ كان على موعد فى كل من وادى النيل ووادى الرافدين ، فقد توقف ركب الحضارة فى أعقاب الدولة القديمة المصرية فى مصر الفرعونية ، وكذلك اضطربت الحياة فى نفس الوقت أيام المملكة الأكدية فقد قضى على الدولة القديمة فى مصر الانقسام الداخلى بين حكام الأقاليم وتسلل عناصر من البدو الرحل من شرق مصر . وكذلك الحال فى العراق اذ قضى على الأسرة الأكدية الجوتيون وهم جماعات من البرابرة اندفعوا الى موطن الحضارة الأكدية من شمال العراق وشرقه . وبعد حوالى قرنين من الزمان من الانحلال فى مصر الفرعونية وهى العهد المتوسط الاول ، انتهى ذلك العهد بتوحيد البلاد وتأسيس الدولة الوسطى والتى

كانت تشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة . أما فى العراق فقد استمرت فترة التدهور حوالى قرن من الزمان ، انتهى ايضا بعهد جديد فى امكاننا أن نعـده آخـر دولة سـومرية وهى أسرة اور الثالثة التى اشتهرت فى تاريخ العـراق القديم ، فقد نشطت العـلاقات فى ايامها بين العراق والبلاد السومرية .

وتوطدت الصـلات بين مصر واقطـار الشرق الأدنى ايام الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة وقد تم ذلك فى مواقع بسورية وكان النفوذ سياسيا وثقافيا . كذلك بالنسبة للعراق فقد انتشر النفوذ البابلى ايام أسرة بابل الأولى فى عهد سادس ملوكها حمورابى . فقد قامت صـلات بينه وبين ملك تسمى باسمه كان يحكم مملكة (يمخد) التى اتخـذت حلب عاصـمة لها (سنفصل ذلك عند الحديث عن الحثيين فيما بعـد) وقـد انتشرت الحضارة البابلية الجديدة فى المدن الكنعانية . وقـد كشفت الحفائر عن مخلفات بابلية فى بعض المـدن السورية مثل (تل العطشانة) وهى مدينة (الالاخ Alalakh) وفى مارى وفى رأس شمرا (أوغاريت القديمة) . ومما ساعد على نشر الحضارة البابلية فى ارض سورية ، وجود روابط جنسية بين ملوك بابل وسكان هذه المنطقة فقد كانوا من الساميين الغـربيين اى الأموريين والذين حكموا قبل عـام ٢٠٣٠ ق.م. فى المنطقة الوسطى من الفرات وامتد نفوذهم الى الجنوب فأسسـوا أسرة بابليـة تزعمتها اسرة حمورابى . وجـدير بالذكر أنه لم يحـدث صدام بين البابليين أيام حمورابى والمصريين فى الأسرة الثانيـة عشرة . والتقت الحضارتان هناك فى مدن الساحل الفينيقى . فقد كشف فى قبـور أمراء محليين فى بيبلوس تاثيرات مصرية وكذلك فى اوغاريت كشف عن مستعمرة مصرية . ومن الجائز أن المصريين كانوا يتبادلون السلع البابلية عن طريق الموانى السورية . وقد كشف فى مصر العليا عن آثار داخل صندوق وضع تحت معبد مصرى ، تدل محتوياته على وجود صلات تجارية بين مصر وأقطار الشرق القريب منها اختـام اسطوانية بابلية من حجر اللازورد واوانى من الفضة والذهب ايجيه وهى محفوظة بمتحف القاهرة .

ثم انتهت أيام الدولة الوسطى فى مصر الفرعونية وفى اعقابها انتكست وحدة البلاد مرة اخرى . فاندفع الى وادى النيل جماعات الهكسوس ، وكذلك اندفعت جمـاعات شبيهة بها الى بلاد الرافدين وهم الكشيون الذين حكموا العـراق بعد أسرة حمورابى ، وصل فى الأناضول وشمال سورية أقوام جديدة سموا الحيثيين ثم ظهر بعد ذلك فى شمالى العراق الاشوريون الذين جاوروا الميتانيين ، وقد كانت هذه الجماعات الأخيرة من الأقوام (الهند اوربية) .

وتمكن المصريون بعد جهاد عنيف من تحرير الوطن وطرد الهكسوس بل وتعقبوهم فى آسيا وأسسوا الدولة الحديثة التى كانت تضم الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين والتى دامت ما يقرب من خمسة قرون . وفى العراق اندمج الكشيون بالبابليين ، وقد استطاعت الحضارة البابلية أن تصهر الكشيين فى بوتقها .

وفى ذلك العهد الجديد انمحت جميع الحواجز بين دول الشرق القريب واتصلت الشعوب وتطورت العلاقات الدولية الدبلوماسية والتى تعد الأولى من نوعها . وقد توفرت الوثائق التاريخية فى كل من مصر و (خيتا) التى اوضحت اوجه النشاط السياسى والثقافى بين مصر واقطار الشرق القريب .

تميزت العلاقات السياسية والحربية فى تلك الفترة بما نسميه الآن توازن القوى الدولية وذلك فى النزاع الذى قام أولا بين المصريين والحثيين والميتانيين ، ثم بين الآشوريين والبابليين والآراميين . وظهرت لأول مرة فى تاريخ العلاقات الدولية الدبلوماسية أول معاهدة تحالف وسلام بين دولتين كبيرتين مصر وخيتا وهى معاهدة (قادش) كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد . كذلك كان من نتائج الاتصالات الواسعة المباشرة بين حضارات الشرق القديم انها تطورت نحو الوحدة فى الحضارة : فى فنونها وعاداتها بل وازيائها . فقد استخدمت لغة واحدة ، وكانت هى اللغة البابلية بالخط المسمارى وذلك فى المعاملات التجارية فقد عثر فى مصر فى دار المحفوظات بتل العمارنة من أيام أمنحتب الثالث والرابع على ألواح من الطين المجفف كتبت بالخط المسمارى ، وكانت موضوعاتها عبارة عن رسائل بين ملوك مصر وامراء وملوك آسيا .

كذلك انتقلت المعتقدات الدينية فى أقطار الشرق القديم ، فهذا (تشوراتا) ملك ميتانى يرسل الى أمنحتب الثالث فرعون مصر حينما اشتد به المرض تمثال الآلهة الآشورية عشتار نينوى لتشفيه من مرض اجهده واضناه ، وغالبا أن جماعة من الأطباء الآشوريين قد حملوا التمثال وجاءوا ليقدموا خدماتهم وخبراتهم الطبيبة الى الملك . كذلك أرسل بعض ملوك بابل مرة طبيبا وراقيا الى ملك الحثيين (مواتلى ١٣٠٠ ق.م.) . هذا وقد عاد أطباء من مصر كثيرين من أمراء وملوك أقطار الشرق القريب . والى القارىء طرف من تلك الرسائل .

فقد كتب ملك الازيا : « الى ملك مصر ، اخى ، أقول : انا ملك الازيا ، اخوك . صحتى جيدة ، وانى ابعث بأفضل تحياتى اليك ، والى

أقربائك ، والى خادماتك ، والى أبنائك ، والى زوجاتك وابعث بتهنأتى لك على عرباتك العديدة وخيولك كما أبعث بتمنياتى لبلادك مصر » .

وكتب ملك ميتانى : « الى امنوفيس ، ملك مصر العظيم ، واخى ، وصهرى الذى احبه ويحبنى اقول : أنا دوشراتا ملك ميتانى العظيم ، واخوك ، وحموك الذى يحبك . صحتى جيدة ، وانى أبعث بتحياتى اليك انت اخى وصهرى ، والى أقاربك وزوجاتك وابنائك ورجالك » .

ومن ذلك نعلم أن امنوفيس الثالث والد امنوفيس الرابع قد تزوج من بنت دوشراتا ملك ميتانى .

وكتب ملك آشور : « الى أمنوفيس الرابع (أخناتون) أخى أقول : انا آشور أوباليت ملك آشور واخوك الملك ، أدعو بالسلام لك ، لأقاربك ولبلادك » .

تلاحظ فى هذه الخطابات الثلاثة وحـدة فى الأسلوب غالبا ما كانت نتيجة تقاليد متبعة فى هذا العصر بين أقطار الشرق القريب وهو ما يطلق عليه فى أيامنا هذه (البروتوكول) . كانت التقاليد فى هذه العهود البعيدة فى القـدم تسمح للملوك او تقضي عليهم بأن يحى فيها كل زوجة الآخر حتى ولو لم تربطه علاقة مصاهرة بينه وبين أخيه الملك مثل ما رأينا من ملك الازيا وملك مصر . هذا الأسلوب فى الخطابات الملكية انتقل من الشرق الى الغرب واضحى (بروتوكولا) فى الدول الغربية . مما يدل على ان الشرق هو مدرسة الغرب فى الأساليب السياسية وغير ذلك من فنون وآداب .

وقـد وصلت الينا رسـالة تدخل فى صميم الأحاديث والمخاطبات الدبلوماسية ، ومنها نعـلم مقـدار التنافس بين كل من ملك بابل وملك آشور لاكتساب عطف مصر والتحالف معها ، ففى احدى رسائل العمارنة كتب (بورنابورياش) ملك بابل الى امنحتب الرابع (أخناتون) :

« الى أنفخوررع » (أى نفر خبرورع أمنحتب الرابع) ملك مصر . هكذا يقول « بورنابورياش » ملك بلاد بابل ، أخوك .

انني بخير . فعسى ان تكون انت وبيتك وزوجاتك واولادك وبلادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال .

« منذ عقد ابى وابوك الود فيما بينهما كانا يتهاديان أنفس الهدايا . ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر منه مهما عز وغلا » .

« والآن لقد اهـدى الى اخى منين من الذهب . فوددت لو أنك أرسلت الىّ ذهبا بقـدر ما كان يهـديه ابوك . واذا كان لابد من تقليل المقدار فارسل الى نصف ما كان يرسله ابوك . فلم ارسلت « منين » من الذهب فقط ؟ اننى الآن باذل جهدا كبيرا فى المعبد . وقد تعهدت العمل بقوة وسوف انجزه بدقة فأرسل الى قدرا كبيرا من الذهب . واذا رغبت فى شىء فى بلادى مهما كان فابعث رسلك يأتون به . »

« فى عهد أبى « كوريكالزو » ارسل اليه الكنعانيون يقولون : (لنذهب الى حدود مصر ولنغزها جميعا وسوف نعقد معك حلفا) . أما ابى فقد اجاب على هذه الرسالة قائلا : كفوا عما تنشدونه من الحلف اذا كنتم اعداء ملك مصر اخى فليكن الحلف فيما بينكم . ولكن لتحذروا جانبى . اذ لما كان ملك مصر حليفى فمن ذا الذى يصدنى عن أن أغزوكم . »

« وهكذا فلأجل ابيك لم يسمع ابى مقالتهم . »

« اما مايخص بعض الآشوريين من اتباعى (كذا) أفلم اخبرك برسالة فى شانهم ؟ فلم دخلوا بلادك ؟ »

« وبما انك تحبنى فيقيننى أنك لن تدخل معهم فى شىء وانك ستعمل على احباط جهودهم وسعايتهم » .

« وبالختام لقد أرسلت اليك هدية : ثلاثة « منات » من اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات من الخشب » .

يمكننا تقسيم قصة العلاقات الدبلوماسية بين أقطار الشرق الادنى فى هذه الفترة وهى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية الى قسمين . أما القســم الأول يعد أروع ما فى تاريخ العــلاقات البشرية من الارتباطات الدولية . لقد كان النزاع الحربى بين فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وبين من طارد المصريون من الهكسوس ، فهـذا تحتمس الثالث يذكـر فى حولياته انه ما جاء الى هذه البلاد الا ليحارب الهكسوس اعداء مصر . اما دول الشرق الأدنى فقد تعاونت فى ذلك الوقت مع أمراء الهكسوس ومن والهم .

اما الحثيون فلم يدخلوا فى ذلك النزاع فى أول الأمر ، وظلوا يراقبون

الحوادث على بعد قريب . ولما جاءت ايام امنحتب الثالث وانغمس فى الترف والنعيم والملاذ وخلف من ورائه تركة مثقلة لولده اخناتون الذى نشغل بالثورة الدينية ولم يلتفت الى شئون الدولة الداخلية والخارجية ؛ وقد عاصره على عرش (خيتا) الملك (شوبيلوليوماش) وقد اتصف بالدهاء . وظهر فى ذلك الوقت عند منعرج الفرات دولة ميتانى والتى كان يسميها المصريون (نهارينا) وقد دخلت فى نزاع حربى مع مصر من أجل التنافس على حكم بعض الولايات هناك ، وانضم الآشوريون الى الميتانيين . وسلكت مصر فى تلك الظروف مسلكا يدل على حسن التصرف وبعد النظر تجاه الخطر الحثى والآشورى فتزوج ملك مصر من ابنة ملك ميتانى . وانتهز الحثيون فترة انقسام فى البيت المالك الميتانى وفرضوا حمايتهم على مملكة ميتانى . ولما هادن الآشوريون الحثيين ، كان فى ذلك القضاء على الميتانيين .

ثم بدأ النزاع بين مصر والحيثيين منذ ايام شوبيلوليوماش الذى استمر ما يقرب من قرن من الزمان وانتهى بمعاهدة (قادش) بين رمسيس الثانى والملك الحيثى (خاتوشيليتش) كما سنفصل ذلك فيما بعد . وهى تعد فى نظر كثير من المؤرخين اول معاهدة فى التاريخ تهدف الى الود والسلام وعدم الاعتداء بين المصريين والحثيين . لقد ادرك الملك الحثى خطورة الموقف بعد قضاء الآشوريين على مملكة ميتانى التى كانت بمثابة الدرع الواقى من الخطر الآشورى ، وان غزو (شالماناصر الأول (١٢٧٤) ميتانى وتقدمه نحو كركميش واخضاع كمدوكيه ، كل ذلك دفعه الى ادراك ما يحتمل أن يتعرض اليه من جانب الآشوريين ، من اجل ذلك لم يتأخر عن ابرام تلك المعاهدة المشهورة ، وقد تزوج رمسيس الثانى بأميرة حثية وذلك تحقيقا لروابط الود والصداقة بين الدولتين . وعادت بذلك العلاقات الدولية بين مصر واقطار الشرق القريب الى ما كانت عليه من ود ومحبة وتعاون ، ومرت فترة هدوء وسلام وازدهرت المدن الفينيقية من جديد ونشطت فيها العلاقات التجارية كما كانت من قبل .

لكن فترة السلام لم تدم طويلا ، اذ اضطربت الأمور فى اقطار الشرق القريب بسبب امور خارجية نتيجة هجرات الشعوب (الهندو ــ أوربية) التى ضغطت بدورها على بعض الاقوام فاندفعوا الى اقطار الشرق القريب ، شبيه بذلك ما حدث من اندفاع الكشيين والهكسوس على وادى الرافدين ووادى النيل . كان من نتائج ضغط الشعوب (الهندو ــ أوربية) أن دفعت القبائل الافريقية جماعات جزر بحر أيجيه الى الهجرة من جزرهم ، فركبوا البحر هاربين باحثين عن ملجأ يضمهم ، فاستقرت

بعض قبائلهم فى سورية وفلسطين وغزا بعضهم بعض المدن الفينيقية مثل چبيل وأوجاريت . كما نزلت وحدات منهم سواحل مصر الشمالية ، ولولا يقظة فرعون مصر رمسيس الثالث وقيامه بمعـارك برية وبحرية لوقعت البلاد فريسة فى أيدى شعوب البحر ولتغير وجه التاريخ . أما الحثيون فلم يستطيعوا الصمـود أمام اندفاع تلك الشـعوب وأبيدت الامبراطورية الحيثية وكان ذلك فى حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. وقد تمكنت بعض فرق ايجيه وهم الفلسطينيون من الاستقرار واقامة بعض دويلات فى بعض المدن الشامية كعسقلون واشدود وغيرها .

وقد تبين لنا من الدراسة السابقة حدوث اضطراب فى هذه الفترة نتيجة هجرات أقوام سامية وهى الجماعات الارامية . فقد سبق أن أوضحنا النزاع الذى قام بين الآشوريين والآراميين فى القرنين الحادي عشر والعاشر .

أما القسم الثانى من طور العلاقات بين أقطار الشرق القريب فانه يبـدأ بزوال الدولة الحـديثة ، مصر الفرعونية وبداية الأسرة الحادية والعشرين حوالى عام ١٠٩٠ ق.م. وقد ظهرت بوادر هذا التدهور من عهد الملك مرنبتاج ، ومن أدلة هذا التدهور قصة طريفة بطلها ون آمون سفير فرعون مصر حريحور الى مدينة جبيل . وقد ظهر فى هذا العهد الاسرائيليون وحاولوا السيطرة على أرض فلسطين أيام شاؤول وداود .

تصدى الأراميون للآشوريين ووقفوا كثيرا فى سبيل تقدمهم نحو الغرب ، ولم يستطع الاشوريون مقاومة الدويلات الآرامية الا فى النصف الثانى من القرن الثامن ق.م وقد قضى الاشوريون فى خلال ذلك الوقت على مملكة اسرائيل عام ٧٢١ ق.م.

وظلت مصر الفرعونية رغم ما أصـابها من محن تعمـل على مؤازرة الدويلات السورية والفينيقية ومعاونتها حربيا ضد المعتدين عليها من الآشوريين الذين اضطروا أخيرا الى غزو مصر أيام اسر حدون وآشور بانيبال فى القرن السابع ق.م. أيام الأسرة الخامسة والعشرين . وقـد بينت الأيام أن لقاء الآشوريين بالمصريين قد كان له أثر حسن فقد تميز بصداقة وتعاون واخلاص خصوصا فى الفترة الأخيرة من العهد الآشورى ، مما يدل على حسن نية المصريين وطيبة نفوسهم ونسيانهم الاساءة أن بعض فراعنة الأسرة السادسة والعشرين وقف الى جانب الآشـوريين وعاونهم ضد أعدائهم من الكلدانيين وغيرهم . الا أن البابليين استطاعوا فى النهاية القضاء على الآشوريين فى العهد البابلى الجديد ، وقضى بعد ذلك (نبوخذ نصر الثانى) على دولة يهوذا كما دمر الآشوريون من قبل مملكة اسرائيل . وبتلك النهـاية طوى سجل تاريخ أقطار الشرق الأدنى القديم .

٢ ـ علاقة بلاد الرافدين بسكان الجزيرة العربية

لقد كان للجدب والجفاف الذى مر ببلاد الجزيرة فى نهاية العصور الجليدية اثره فى اندفاع قبائلها الى الاراضى التى تقع فى الشمال الشرقى من الجزيرة العربية والى سورية والى افريقية وغالبا الى وادى النيل الذى يحتمل احتمالا كبيرا انه تاثر بهجرات الساميين منذ الالف الرابعة قبل الميلاد . كما حل الساميون فى وادى الرافدين الاسفل وما من شك انهم ساهموا فى بناء الحضارة السومرية . ولا زالت نظرية ارجاع اصل الساميين الى الجزيرة العربية لها قوتها . وقد ثبت لنا ان اولى الهجرات السامية كما سبق ان اشرنا الهجرة الآشورية فى بداية الالف الثالثة قبل الميلاد وتلتها هجرة الاكديين . وقد توطدت العلاقات التجارية بين اهل الرافدين وبعض مناطق الجزيرة العربية ، فجلبوا من بعض مرتفعاتها الحجارة اللازمة لهم والمعادن وذلك منذ أبعد العصور ، مثل النحاس الخام وذلك من الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية (أطلق العرب فى الجاهلية وفى الاسلام على بلادهم جزيرة العرب ، على ان الحقيقة كما نعلم انها شبه جزيرة ، ذلك لان العرب اطلقوا ذلك من باب التجوز فمثلا سموا جزيرة الاندلس وهى شبه جزيرة) فى عمان (وقد كتبت هذه الاخيرة فى المصادر المسمارية مجان) .

وارى من الخير ان نقسم مناطق الجزيرة العربية فى تلك العصور الى ثلاثة اقسام :

١ ـ الجزء الجنوبى والشرقى ومنطقة الخليج العربى : وهو يشمل البحرين والكويت والاحساء وعمان ومنطقة الخليج العربى .

٢ ـ الجزء الجنوبى الغربى ، وهو يشمل اليمن وحضرموت وجزء من الساحل الجنوبى .

٣ ـ البوادى الشمالية ، وهو يشمل بادية الشام وجزء من الحجاز والبادية الشمالية الغربية .

القسم الاول (البحرين والكويت)

هذا الجزء يسمى قديما دلون او تلمون وكان يؤلف قطرا كبيرا كان له صلات بالسومريين والبابليين والآشوريين منذ الألف الثالثة ق . م واستمرت هذه العلاقات الى عام ٥٠٠ ق.م تقريبا . وقد ظهرت دلمون

فى الآداب السومرية والمصادر المسمارية . وقد جاء فى الخبر أيام سرجون الثانى أن الملك (أوفيرى) ملك دلمون « يعيش كالسمكة الى مسافة ٣٠ بيرو (والبيرو ، ساعة بابلية تعادل ساعتين حاليا) فى وسط البحر الذى تشرق منه الشمس » ، وجدير بالذكر أن الاشوريين أطلقوا على الخليج العربى « شروق الشمس » وأيضا « البحر الأسفل » و « البحر المر » أى الملح - وجاء فى بعض آثار آشور بانيپال اخبار عن « دلمون » وأنها تقع وسط البحر الاسفل . وقد قام علماء التاريخ والآثار القديمة بتقدير بعد جزر البحرين عن اسفل الفرات على حسب ما جاء فى أخبار سرجون الثانى بحوالى ٣٠٠ ميل . وذكر المؤرخ الرومانى Arrian أن تيلوس Tylos (غالبا قد اشتقت من الاسم السومرى دلمون أو تلمون وغالبا هو الاسم الذى أطلقه الكتاب الاغريق والرومان على البحرين) تبعد عن مصب الفرات بمسيرة يوم وليلة لسفينة شراعية .

وقد وجدت كتابات مسمارية فى البحرين عام ١٨٧٩ مؤرخة من النصف الثانى للألف الثانى ق.م. وفيها ذكر اسم الاله « انزاك » الذى كان يعبد فى دلمون وهو الاله البابلى « نبو » حيث ذكر فى اثبات الآلهة البابلية المحفوظة بالمتحف البريطانى . ومن الجائز انه هو الاله « انشاك » الذى جاء بهذه الصيغة فى بعض الاساطير السومرية .

ومن الجائز جدا أن الساحل الشرقى من الجزيرة كان يقع فى مملكة « دلمون » . وذكر سرجون الثانى فى معرض الحديث عن دلمون أنه «اخضع الى سلطانه » بيت ياكين « فى ساحل البحر المر الى تخوم دلمون » . والراجح أن اقليم « بيت ياكين » امتد حتى شمل دولة الكويت أو جزءا منها .

من كل ذلك يتبين انه قد نشأت مملكة الدلمونيين فى الالف الثالثة ق.م وقد كانت تشمل البحرين والاحساء وانهم كانوا على اتصال مستمر بالسومريين والبابليين والأشوريين .

وقد جاء فى بعض النصوص التاريخية اتصال ملوك السومريين بالدلمونيين ، فهذه زوج أمير لجش « لوكا لندا » قامت بابدال بعض منتجات سومر من حنطة وجبن وشعير بمعدن النحاس الذى كان يجلبه الدلمونيون من منطقة « مجان » التى سنفصل الحديث عنها بعد قليل . وقد غزا سرجون الاكدى مملكة الدلمونيين ومجان وملوخا واستمرت تلك العلاقات أيام الأشوريين . وقد حاول سنحاريب أن يهدد الدلمونيين بعد

أن قضى على بابل عام ٦٨٩ فأرسل اليهم رمادا من مخلفات حريق بابل لينذرهم ، لكنهم لم يخضعوا له .

اشتهرت منطقة دلمون قديما بتمرها ، وكذلك اشتهرت الاحساء بتمورها الجيدة ، واشتهرت دلمون بلؤلؤها النفيس ، ومن الجائز أن تلك الشهرة تعود الى ماقبل عهد الاسكندر الاكبر ، اذ جاء على لوح من الطين ذكر « عيون السمك » التى جيء بها من دلمون ، فاذا صح أن هذه الاشارة تدل على اللؤلؤ ، فعلى ذلك ستصبح شهرة البحرين باللؤلؤ ترجع الى ما قبل ايام الاسكندر .

أما عن الآداب والاساطير السومرية التى جاء فيها ذكر دلمون ، فقد جاء وصفها بأرض غريبة مملوءة بالاعاجيب ، فقد ذكرت ان فيها آبارا غريبة . وفى أسطورة سومرية تحت عنوان « انكى » و « ننخرساك » وصف لدلمون كأنها تشبه جنة عدن وان أرضها خيرة طاهرة وذلك لحلول الاله انكى وزوجه فيها . وفى تلك الجنة « لم يفترس الاسد » ولم يعرف فيها شر أو مرض » ، وقد قلت فيها المياه العذبة فتوسلت الهة دلمون « نن ـ سكل » الى « انكى » اله سومر أن يمنح المدينة الماء العذب ؛ فأمر الاله « شمش » بأن يهيأ لها الماء العذب ، وتحقق آمر ذلك كله .

كذلك جاء ذكر دلمون فى ملحمة جلجامش التى اشارت الى الطوفان، وذلك عن القصة السومرية لا البابلية . وتبدأ القصة بخلق الانسان والحيوانات واقامة المدن الخمسة التى اسست قبل الطوفان وهى « أريدو » و « باد ـ تبيرا » و « لراك » و « سيپار » و « شروباك » . وقد عمل انكى على تخليص البشرية ، فأشار على نوح الطوفان السومرى « زيوسدرا » أن يبنى سفينة ، وبعد أن صنع الفلك فار التنور ودام سبعة أيام وليال . وذكرت الاسطورة السومرية أن الالهة قد اسكنت نوح « زيوسدرا » أرض دلمون .

وفى تلك المناسبة ارى من الخير أن نلقى نظرة عابرة عن الخليج العربى عبر التاريخ القديم ، اذ كانت له شهرته فى العالم فكان ممرا لطرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب ، ولعب الدور الذى كان يلعبه البحر الاحمر تماما .

* * *

الخليج العربى عبر التاريخ القديم

تمهيـــد

الخليج العربى والذى كان يسمى قديما الخليج الفارسى ، هو فى الواقع بحيرة صغيرة شبه مقفلة . لعب هذا الخليج دورا كبيرا فى التاريخ القديم ، اذ كان بمثابة الاصبع الذى يشير الى الطريق المؤدى الى قلب أمم الشرق الادنى التى كانت تحمل مشاعل الحضارات الانسانية .

شهد هـــذا الخليج وما تضمه شـواطئه من اراض حضــــارات وامبراطوريات ومذاهب وأديان ما لم يتيسر لغيره من بقاع العالم الاخرى المشابهة له من خلجان ومضايق فى العالمين القديم والحديث . كان مسرحا للسومريين والاكديين والبابليين والعيلاميين والفرس ، حتى أيام الحضارة الاسلامية لعب دورا كبيرا أيضا . وفى العصر الحديث دفعت ميـــاهه الساحرة الخضراء الكثير من كتاب الروايات والقصص تصنيف الروايات الرائعة . وليس بغريب أن كاتب قصة السندباد البحرى رأى فى ميـــاه الخليج العربى الفاترة الحالمة نزوة خصبة لاسطورته .

لقـــد تكون الخليج العربى فى البليوسين الاعلى . وحـــوالى عام ۱۰٫۰۰۰ ق . م أقام فيـــه ثلاث جماعات من البشر : الدرافيـــديين Dravidians ومنهم جمـــاعات الاوريين Oritae الذين كانوا يقيمون على ساحل مجران Makran وقد اندمجوا حاليا فى الفزاة . وسكنت الجماعة الثانية السامية الشاطىء العربى للخليج . كما أقامت الجمـــاعة الثالثة ، وهى السابقة للعيلاميين رأس الخليج .

كان يصب قديما كل من نهر دجلة والفرات وكارون فى الخليج العربى على حدة . وبتوالى الرواسب السنوية لهذه الانهر الثلاثة انحسرت مياه البحر عن الشاطىء والتقت هذه الانهار الثلاثة عند عبدان بعد أن شكلت لسانا من الماء سمى شاطىء العرب أو شط العرب . ولا زالت حتى يومنا هذا تتجمع عند مصب شط العرب الرواسب سنويا والتى تقدر بحوالى خمسة وعشرون مترا . ويعد حاليا المنفذ البحرى الوحيد للجمورية العراقية وهو يمثل بهو الخليج العربى . وهو يمثل الطرف الجنوبى للهلال الخصيب الذى يمتد من شط العرب حتى سهل فلسطين مارا بلبنـــان

وسورية وبلاد الرافدين ، وهو عبارة عن نصف دائرة مفتوحة نحو الجنوب ، من ورائها جبال مرتفعة ، وأمامها صحراء واسعة انتثرت فيها بعض الواحات .

وشواطىء هذا الخليج كلسية ، مظهرها جدب ، انما فى جوفها ثروة طائلة من الذهب الاسود ، كان سببا فى بعث ماضيها المجيد . وقد دبت الحضارة فى تيريدون وتيلوس وامام جزيرة فيلكا تحت اسم البصرة والبحرين والكويت .

لقد تعود قديما سكان تلك المنطقة سكنى الجزر اكثر من سكنى الشواطىء . وكان عليهم أن يركبوا البحر ، يبحثون عن قوت لهم ، فامتهنوا صيد اللؤلؤ الوردى والمذهب والاسماك ، ورعى القليل منهم الماشية ، كما زرع البعض قليلا من الزراعات حول الينابيع . انما كانت عيونهم دائما شاخصة الى البحر .

وتقوم على هذا الشاطىء حاليا دول وامارات ومشيخيات من مضيق هرمز الى شط العرب : السواحل الغربية : الكويت ، السعودية ، البحرين، قطر ، عمان . وفى الطرف الشمالى - الجمهورية العراقية . وفى الساحل الشرقى ايران (انظر شكل ١٧) .

ويمتاز الشاطىء الغربى للخليج العربى بكثرة رؤوسه وخلجانه والسنته وجزره الصغيرة ، كل ذلك ساعد أهله على صيد اللؤلؤ والاسماك . ويمتاز القسم الشمالى من الخليج العربى بأنه اكثر ازدهارا من غيره وأوفر مياها .

ويعتبر رجال الجغرافيا والتاريخ ان هذه البحيرة الاسلامية التى تسمى حاليا الخليج العربى حدا فاصلا بين العالم العربى وايران وحاجزا بين مفهومين اسلاميين مميزين .

وللخليج العربى شخصيته العربية على شاطئيه . فالشاطىء العربى كله عربى ، وتنتشر اقليه عربية على الشاطى الشرقى .

اراد التاريخ لهذا الخليج أن يكون معبرا للتجارة بين أمم العالم القديم فى فترة طويلة من الزمن ، ومعقلا للمغامرات الكبيرة ومستودعا للثروات منذ ابعد العصور حتى يومنا هذا

ففى الشمال ، لازال الكثير من المخلوقات البر مائية والتى تقيم قد

رأس الخليج العربى ، فى شط العرب ، تعيش فى أكواخ صنعت من اعواد البوص ، كما كان يعيش اسلافهم الذين جاء ذكرهم فى أسطورة خلق العالم البابلية ، وفى الطوفان . ويحاول تونبى المؤرخ البريطانى أن يشبه حوض دجله والفرات بحوض النيل من حيث أنه « متحف غنى بالوثائق ، نستطيع أن ندرس فيه المظهر العادى الطبيعة البكر التى تسلط عليها الانسان . . . » ثم هو يستطرد فى حديثه قائلا « انه لازال يعيش فى بلاد النهرين بقايا الانسان القديم فى المستنقعات عند الخليج العربى »

وتمثل البصرة المنفذ الضيق للعراق على الخليج العربى .

والمحمرة وقد كانت مشيخة تقع شرقى شط العرب ، وقد ضمت الى ايران وهى تبعد عن البصرة بحوالى ٨٠ كيلو مترا . وتسمى المحمرة حاليا بالايرانية (هورام شهر) . وهو مكان استراتيجى غنى بالبترول . ويجرى بالمحمرة القسم الصالح للملاحة من نهر كارون . وبين دولة الكويت والجمهورية العراقية منطقة محايدة تسمى المنطقة المحايدة الشمالية .

وتقع دولة الكويت على الشاطىء الغربى للخليج العربى . وكلمة الكويت تصغير كلمة « كوت » اى الحصن الصغير . وحينما أحس الكويتيون قديما أن منطقتهم محرومة من كل شىء وان الرمال تحاصرهم ، من أجل ذلك يمموا وجوههم تجاه البحار ، لذلك كانوا من أشجع من ركب الماء ، ومهروا فى بناء السفن والغطس وراء اللؤلؤ . ثم أخيرا وفقهم الله الى ثروة أخرى هى البترول . وقد شبه بعض المؤرخين الكويت بأسفنجة مشبعة بالبترول .

ثم يلى ذلك جنوبى دولة الكويت ، المنطقة المحايدة الجنوبية بين الكويت والمملكة السعودية . وتخضع تلك المنطقة حاليا لحكم مشترك بين دولة الكويت والمملكة السعودية .

والاحساء على بعد ستين كيلو مترا الى الجنوب من « وفرا » ، وهذه الاخيرة تبعد خمسين كيلو مترا عن البرقال فى الكويت . واسم الاحساء مشتق من مدينة محصنة بنيت فى القرن العاشر الميلادى . وفيها واحة الهفوف حيث بنيت على ماء ينابيعها الخضر والتمر والارز . وتعتبر حاليا خزانا طبيعيا للبترول لا يقل أهمية عن الكويت .

اما البحرين ، وكانت غالبا تسمى قديما « دلمون » ، أما العرب فقد أطلقوا على جزر البحرين « لؤلؤة بحر الزمرد » . ويتألف هذا

الارخبيل الذى يقع بين قطر وساحل المملكة العربية السعودية من ست وعشرين جزيرة ، من بينها ست كبار . وتنبع المياه العذبة فى ثلاث منهـا هى : البحرين والمحرق وسترة . والبحرين هى الجزيرة الكبرى يفصلها عن جارتيها الصغيرتين المحرق وسترة برزخ .

لا تتجاوز مساحة هذه الجزر ستمائة كيلو متر مربع ، ومن الطريف أن بعض ينابيعها تنفجر مياهها العذبة فى قاع البحر بين المياه المالحة . وقد قيل أن صيادى اللؤلؤ وهم يبحثون فى قاع البحر عن صيدهم يغبون من تلك المياه . ومنـذ التاريخ البعيد ، كان صيد اللؤلؤ هـو الصناعة الاساسية فى البحرين . وقد جاء ذكر ذلك عن Pliny وغيره . كما ذكر فى كثير من الوثائق الاشورية من قبل . ولا زال صيد اللؤلؤ منتشرا فيها بالرغم من استخراج البترول .

وكانت البحرين ، وجزرها تعد واحات بحرية ، مطمع الغزاة وذلك لموقعها الجغرافى الخطير وسيطرتها على الطريق الخاص بالسفن المـارة بالخليج العربى . فقد اتجهت اليها انظار حكام بلاد الرافدين . ويعتقـد بعض المؤرخين أن البحرين هى الوطن الاصلى للفينيقيين كما سنفصـل ذلك فيما بعد .

وصيف البحرين حار رطب ، وشتاؤه معتدل البرودة ، ولا يجرى فى تلك الجزر انهار ولكن تعتمد زراعة النخيل فيها على الينابيع والآبار الارتوازية .

أما قطر ، فهى شبه جزيرة واقعة على كتف الجزيرة العربية . وقد كشف فيه البترول حديثا فى « دخان » .

وقد عرفت البحرين أيام العهد اليونانى باسم تيلوس وارادوس ، ولا زال حتى يومنا هذا اسم « اراد » مدونا فى جزيرة المحرق . أما اسم البحرين ، فقد اطلق فى القرن الرابع الميلادى حتى القرن السادس عشر على الشاطىء الغربى من الخليج العربى ، من دولة الكويت الى قطر ، بما فى ذلك الجزر المنتشرة فى البحر امامه . ولما استعمر البرتغاليون الخليج العربى ، أطلقوا اسم البحرين على مجموعة الجزر السابق الاشارة اليها .

الخليج العربى بين الوثائق الرافدية واليونانية

لقد جاء فى الوثائق الأكدية ذكر جزيرة كانت تسمى Niduk-Ki وبالاشورية Tilwun or Dilmun ويحتمل ان تكون البحرين ، حيث

جاء ذكرها فى أخبار سرجون الاكدى حين الاشارة الى البحر الاسفل وهو الاسم الذى كان يسمى به الخليج العربى. ثم ذكر نرام سين حفيد سرجون انه غزا ملك Apirak وحليفه ملك مجان . وهذه الكلمة الاخيرة تتكون من السومرية Ma بمعنى سفينة ، والسبب فى تسميتها بذلك هو شهرة اهلها فى ركوب الماء . كما جاء نص من أيام Dungi أحد ملوك أور حوالى ٢٤٥٠ ق.م. يحدثنا عن صناع السفن من مجان . وتجمع الوثائق السومرية مجان بملوخا Melukha ، وغالبا ما كانت هذه تمثل قطرا على الشاطىء الجنوبى للخليج العربى . وفى أيام الاشوريين كانت تعنى ملوخا اثيوبيا . وقد سبق ان أوضحنا الاسباب الداعية لتعرض ملوك الرافدين الى مجان وان احتياجهم الشديد الى الحجارة دفعهم الى الذهاب للحصول عليه من مجان .

وكانت تسمى مجان جبل النحاس . وكان يطلق عليها فى بعض الوثائق السومرية ارض الدواريت . وقد أشار جودية ملك لجش الى الخشب المستورد من مجان وملوخا وجوبى ودلمون . وقد اشتهرت بمعيزها ، وكان يطلق على اله مجان فى الاساطير السومرية أو قصة الجنة الخاصة بدلمون « نن دولا Nindulla » والتى تعنى (ملكة القطيع) . وان الاشارة لمجان على انها جبل النحاس تدفعنا الى أن ندخل فى دائرتها منطقة الجبل الاخضر بعمان ، حيث يوجد النحاس ، وعلى ذلك سيصبح لدينا من القرائن القوية التى تقربنا من وضع مجان كمرادف صحيح لعمان ، لان الديوريت والدولوريت والماعز ، كل ذلك موجود فى عمان ، أما الخشب ، فمن الجائز انه كان يستورد من الهند ، ويعاد تصديره من هناك ، كما يتم حاليا أجراء ذلك العمل . وتشترك دلمون مع مجان وملوخا فى انتاج التمر الفاخر . ولا زالت عمان من المناطق المشهورة بانتاج التمر حتى وقتنا الحاضر .

ولقد سبق أن إشرنا الى أن نرام سين غزا مجان . وقد جاء فى أحد سجلات الهياكل من أيام دونجى Dungi ، والذى حكم من وراء أيام نرام سين بحوالى اربعة قرون ، أن Manium صاحب مجان قد كرمه الناس فأطلقوا اسمه على مدينة تسمى Manium-Ki . كما لدينا ما يدل على ان مواطنى مجان كانوا خاضعين للسومريين وانهم كانوا يرسلون الجزية الى دور العبادة الرئيسية فى سومر . واشتهرت أيضا المنطقة بنوع من الحجارة كان يطلق عليه بالسومرية (Gug) وبالاشورية (Samtu) ، والذى يحتمل أن يكون (Shoham) بالعبرية . أو ربما يكون هو العقيق اليمانى onyx .

استورد جودية من مجان الديوريت . وقد جاء فى نصوص نقشت

على تمثال عثر عليه فى تللو مايشير الى بناء سفينة خاصة بالالهة (Bau باو) ، والى رحلة بحرية الى مجان وملوخا . وأمر هذه الرحلات حوله شبه الجزيرة مالوف فى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد . وقد جاء فى أحد النصوص الخاصة بجودية أن سفائنه قد جلبت له « من بلاد الهة غنا Ghanna والاله ننجرسو ، منتجات من كل لون ، من مجان ، وملوخا ، وجوبى ، ونيدوك — كى .. ومن ملوخا احضر خشب يسمى (Ushu) يلزم دور العبادة ، وأنه قطـــــع من جوبى خشب يسمى (Khuluppu) ، وانه استورد من مجان الديوريت » .

وجدير بالذكر أن C. L. Woolley كشف عن لوحة من الطين فى أور عام ١٩٢٦ بها ثبت بما كان يستورد الى سومر من دلمون من سلع : خشب ، أنواع مختلفة من الحجارة ، عيون السمك (اللؤلؤ ؟) ، النحاس ، العاج . وعلى الجانب الآخر من اللوحة اشارة الى « رحلة الى دلمون » ، وذكر سفينة ، وملاحظة تفيـد ان هـذه السلع كانت « ملكا لمعبـد Nin-gal نن — جال » .

كل ذلك وغيره يدفعنا الى التأكد من وجود صلات بين شمال الهنـد ودلتا شط العرب من التاريخ البعيد ، تمت عن طريق البحـر أو على اليابس . ومما يؤيد ذلك الرأى أن E. Mackay عثر على خاتم منقوش فى كيش عام ١٩٢٢ — ١٩٢٣ يشـــبه الختوم التى عثر عليهـا Sir John Marshall فى شمال الهند .

ولقد دفع هذا اللون من التجارة البحرية بعض العلماء الى افتراض أن هذه الجماعة التى كانت تقوم بحمل هذه السلع على سفن انهم اجداد للفينيقيين ، وان هذا الجنس من الفينيقيين هو الذى قام ببناء القبور التى نشاهدها حاليا فى جزيرة البحرين وفيها شبه كبير بمقابر الفينيقيين التى كشفت فى لبنان . ولكن اعتقد أن احتمال اصل اجداد الفينيقيين من هذا الخليج امر قبوله يحتاج الى براهين قوية والى حقائق اقوى من تلك التى ذكرت . وان أمر ارتيادهم البحار الشرقية لا زال قبوله يحتاج الى كثير من الوثائق .

لقد ذكر هيرودوت (الجزء الاول : الفصل الاول) « ان اهل المعرفة من الفرس ذكروا أن الفينيقيين ... قد جاءوا الى بحارنا من البحـر الذى يطلق عليه الاحمر ، وانهم أقاموا فى المنطقة التى لا زالوا يشغلونها ، وبدأوا فى الحال يقومون برحلات طويلة » .

ويذكر هيردوت ايضا (الجزء الثانى : الفصل ٤٤) أن كهنة صور قد اكدوا له حينما قام بزيارة البلاد حوالى عام ٤٥٠ ق.م. أن معبد ملقارت قد بنى عند بناء المدينة نفسها منذ عام ٢٣٠٠ ق.م. اى انه بنى حوالى عام ٢٧٥٠ ق.م. وهناك راى آخر لجوستان (Justin, XVIII.3) يعيد أصلهم الى البحر الميت . ويرى استرابو (XVI.III.3.4) « انهم غالبا ما يرحلون الى بابل على عائمات ويبحرون على الفرات الى Thapsacus = (الرقة حاليا) ومعهم حمولتهم ، ولكن يحملونها بعد ذلك على اليابس الى كل انحاء البلاد . ولما يتقدمون للابحار (الى الجنوب من Gerra) فهناك جزر اخرى : Tyrus and Aradus ، وقد كان بها دور للعبادة تشبه معابد الفينيقيين . (واذا صدقنا) ما يقوله سكان هذه الجزر من أن الجزر والمدن تحمل نفس اسماء المستعمرات الفينيقية . وتبعد هذه الجزر عن Tredon بمسيرة ابحار عشرة أيام وعن الرأس عند مدخل الخليج فى Makae بمسيرة ابحار يوم واحد » . وجدير بالذكر أن ميناء صور الصغير الحالى الواقع على ساحل عمان يشبه فى شكله العام ميناء صور الفينيقى على ساحل البحر المتوسط .

ويصف Pliny (VI.32) الساحل نفسه بما يلى :

« سوف نقوم الآن بوصف الساحل (الساحل الغربى للخليج العربى)، بعد ان نغادر Charax او Charax Spasinu (التى أنشأها الاسكندر الاكبر ، وهى تقع بين مصبى دجلة والفرات ، ومن الجائز انها تقع عند مدينة المحمرة الحالية) ... » . واستمر بلينى يذكر اسماء الجزر والخلجان الموجودة فى هذا الساحل الى ان ذكر جزيرة Tylos (وهى البحرين والتى جاء ذكرها عند استرابو تحت اسم Tyrus) وشهرتها باللؤلؤ ، كما ذكر جزيرة صغيرة اخرى يحتمل أن تكون جزيرة Aradus.

وتقع الجبانة القديمة فى جزيرة البحرين بالقرب من (ابو على) ، وهى قرية فى المنطقة الشمالية من الجزيرة ، وعلى بعد ستة اميال من الجنوب الغربى لميناء منامه (انظر شكل ١٨) . ويوجد بها مساحة من الاطلال الاثرية على هيئة تلال . وقد فحصت جميعها مرات عدة فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى .

وقد تبين من دراسة نتائج هذه الاحافير ان المبانى التى بقيت كانت مكونة من طابقين ، بنيت من كتل حجرية . وكان الطابق السفلى أكثر ارتفاعا من الطابق العلوى . وقد أقيم على جانبى الممر المتجه الى الشرق حجرات كانت تضم لحود الموتى كدست فوق بعضها . وقد غطى سقف الممر بكتل من الحجارة . وقد بنى بجانب الحجرات كوات صغيرة كانت

مخصصة غالبا لمواد القربان الذى كان يقدم الى الموتى . وقد عثر احد المكتشفين لهذه الجبانة (E. L. Durand) فى حجرة من هذه الحجرات على حجر أسود نقش بالحروف الاشورية .

ولم يستطع احد حتى الآن معرفة الاصل التاريخى لهذه القبور . فقد عثر فيها على عظام انسانية وآخر حيوانية : منها جمجمتان ، وبعض أجزاء من عظام ثور ، واجزاء من صناديق مستديرة ، وتميمة من ذهب ، وكميات كبيرة من فخار مزخرف . ولم يكشف حتى الآن عن اية نصوص ولم تعطنا هذه الاكتشاف اى اشارة عن اى رأى معمارى خاص بهذه المبانى . . وقام Mackay عام ١٩٢٤ بفحص ودراسة هذه المقتنيات مرة أخرى ، وانتهى الى احتمال ان يكون الموقع كان مخصصا للدفن ، حيث كان يقبر فيه غالبا المواطنون من اليابسة ، ويؤيده هذا الرأى عدم العثور على قبور فى اليابسة .

وطـــراز هذه القبور يشبه الى حد كبير ما عثر عليه من مقـابر الفينيقيين . وقد اشار فعـــلا استرابو الى ذلك عند قوله فى (XII.3) « يوجد فى جزيرتى Tyrus and Aradus معابد تشبه تلك المعروفة عند الفينيقيين » . فالحجرات الجانبية على طول الممر والتى كانت مخصصة للدفن لها نظائرها عند الفينيقيين ، حيث انه يوجد أمثلة من مقابر ذا طابقين فى جبانة (عمريت) بفينيقية ، وفى جزيرة سردينيا وقرطاجنــة . وان التشابه بين Tyrus او Tylus وآرادوس (وهى اسماء الجزر التى اعطاها استرابو وپلينى) الموجودة فى الخليج العربى ، وبين صور وارواد على الساحل الفينيقى كل ذلك يستحق الاعتبار . ولكن لا يميل بعض العلماء الى الاعتماد كثيرا على مثل هذا التشابه فى أسماء المدن . وعلى اية حال لا زال أمر نسبة هذه المقابر أو هذه الموانى الى اصل فينيقى يحتاج الى كثير من البراهين .

اما عن الحركة التجارية فى الخليج العربى أيام البابليين ، فقد عرفنا أنه كان للبابليين اسطول . وقد كانت بابل مركزا تجاريا رئيسيا . وقد قام نبوخذ نصر الثانى (٦٠٥ ــ ٥٦٢) فى العهد البابلى الحـــديث ببناء مرفأ فى المستنقعات ، وشيد مدينة Teredon ، الى الغرب من الفرات . وكان يهدف من وراء ذلك ــ الى جانب أغراض اخرى ــ حماية بلاده ضد غزوات البدو . ويظن بعض العلماء أن من الاسباب التى دفعت نبوخذ نصر القضاء على صور هو اتساع تجارة الهند عن طريق الخليج العربى وبابل . ومن هذا المركز الاخير كانت توزع السلع الى دمشق وسورية . وحتى يحقق أهدافه ويسهل أمر توزيع التجارة بنى قناتين ، وفتحات واسعة

لتصريف المياه (اهوسة) ، وبنى خزانا لحجز مياه دجلة . واقام مدينة Teredon كما سبق أن اشرنا لحماية البلاد من هجمات البدو الرحل .

واذا صحت المعلومات التي وصلت الى الفيلسوف اليوناني Theophrastus فقد كان يزرع فى Tylos زراعات كبيرة من شجرة القطن ، وان مساحات كبيرة من الجزيرة كانت تنبت فيها . وقد ذكر Pliny مايشير الى استمرار زراعة القطن فى Tylos او Aradus حتى ايامه . وبالاضافة الى ذلك ، يتحدث Theophrastus قائلا : « كان يوجد فى هذه الجزيرة نوع من الخشب يصلح لبناء السفن ، يعيش فى الماء ولا يتلف ، ويبقى اكثر من مائتى سنة وانه يتلف بسرعة خارج الماء » . وقد كانت بابل تفتقر الى الخشب ، فيما عدا جزوع النخيل وشجر السرو ، وكلاهما لا يصلح لبناء السفن . وليس من شك أن هذا النوع من الخشب ــ بدون شك التك ــ كان يستورد الى تيلوس من الهند ، لانه لا يمكن انباته فى الجزيرة .

ولما انتهت ايام البابليين وانتهى نشاطهم البحرى التجارى فى الخليج العربى ، ظهر البحارة العرب وحلوا محلهم .

لقد تعطلت الملاحة فى الخليج العربى حينما ظهر الفرس (فى القرن الرابع قبل الميلاد) . والظاهر أن تقهقر الملاحة قد بدأ فى الايام الاخيرة من بوخذ نصر ، حينما حولت تجارة صور نظرهم عن هذه السوق الى طريق البحر الاحمر . ولقد ذكر الكتاب القدامى أن الفرس كثيرا ما كانوا يلقون فى مداخل انهارهم حجارة تعيق الملاحة بقصد بناء خزانات للمياه (Strabo, XVI.I.9) وظل كذلك حتى جاء الاسكندر الاكبر ، وفكر فى تطهير هذه الاودية من الصخور ، ولكنه غادر الدنيا قبل أن يحقق أهدافه . وقد وجدت مثل هذه الخزانات فى نهر كارون الاسفل حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ولكنها كانت مجهزة بممر مائى لتسمح بمرور السفن . وقد عادت الملاحة الى سابق عهدها فى القرن الرابع قبل الميلاد بعد غزوة الاسكندر بين موانى الخليج العربى والهند والشرق . ولكن اثناء ازدهار الامبراطورية الرومانية ، وحينما كانت لها مركز مرموق فى بحار الشرق ، كان البحر الاحمر هو القناة الرئيسية بين الشرق والغرب واستمر كذلك حتى انحلال الامبراطورية فى بداية القرن السادس بعد الميلاد .

جاء فى أخبار المؤرخين اليونانيين القدماء انه حينما عاد الاسكندر الاكبر من الهند مر بالخليج العربى ، وقد أمر أحد قواده أن يستطلع مياه هذا الخليج ، وقد قام نيارك من نهر الهندوس عام ٣٢٤ ق.م على ظهر احدى السفن وظل مائة وثلاثين يوما قبل أن يصل الى الخليج العربى . وبعد هذه المرحلة الطويلة وصل الاسطول الى مصب الفرات عند قرية

تسمى ديريدونيس وقد استمر أسطول نيارك فى التقدم فى مجرى نهر كارون الذى يجرى فى بلاد فارس حتى وصل الى مدينة سوس والتقى هناك بالاسكندر الاكبر الذى استقبله استقبالا رائعا . وبذلك افتتح أول طريق الى الهند عبر الخليج العربى . ومن ذلك نرى أن الاسكندر قد فطن الى أهمية الخليج العربى كطريق رئيسى للتجارة بين الهنـــد والبحر المتوسط عن طريق الفرات .

ومن ذلك يتبين لنا ان نيارك لم يقبل على هذا العمل الا بأمـر من الاسكندر الذى لم يتوقف طموحه عند هذا الحد من اكتشاف الشاطىء الفارسى للخليج العربى بل كان واسع الافق فامتد بصره نحو الجزيرة العربية . من اجل ذلك يمم وجهه نحو شبط العرب ، وعمل جاهدا على اكتشاف تلك الارض المجهولة على الشـاطىء العربى وذلك ليسيطر سيطرة تامة على الشاطئين العربى والفارسى للخليج العربى .

ويذكر استرابون(Strabo, XVI, I, II) « انه (الاسكندر) فكر فى أن يجعل نفسه سيدا على البلاد (الجزيرة العربية) ، وقد اعد فعلا اسطولا ومواقع للالتقاء فيها ، وبنى سـفنا فى فينيقية وقبرص ، وبعضها كان مفككا الى قطع ، وبعضها كان مكونا من أجزاء كبيرة وقد ربط بمسامير ، وبعد أن سلمت هذه الى Thapsacus بعد سبع مسافات من مسيرة تقدمت الى النهر عند بابل . وكذلك بنى سفنا اخرى فى بابل من شجر السرو الذى ينمو فى الغابات الصغيرة والحدائق ، لان هناك ندره واضحة فى الخشب فى بابل » .

وفى نفس الوقت اوفد بعثات استطلاعية لكشف الساحل العربى للخليج العربى : وقد كان على راس احد تلك البعثات أركاياس Archias الذى وصل حتى Tylos والتى يحتمل أن تكون هى البحرين . ومن البعثات الاستطلاعية التى اوفدها الاسكندر أيضا ، بعثة اندروستين Androsthenes وكان مواطنا من ثاسوس Thasos (احدى جـــزر بحر أيجه) وقد تقدما هـــذان المكتشفان فى تلك الاراضى . وجاء من بعدهما هيرون دى سولى Hieron du Soli ، ولم يستطع هذا الاخير ان يصل الى نتيجة حاسمة .

وبالرغم من عدم نجاح هذه البعثات فان الاسكندر كما هو عادته لم ييأس من مواصلة جهوده لمعرفة الشاطىء العربى لهذا الخلج ، فاصدر أوامره الى نيارك Nearchus باعداد اسطول لتحقيق اهدافه ، ولـكن عاجلت العاهل الكبير المنية فى السنة الثالثة والعشرين بعد الثلاثمائةق.م فغادر الدنيا دون أن يتمم كشف سواحل الجزيرة العربية جميعها .

وقـد ترك مؤرخون آخـرون أمثال Eratosthenes of Cyrene الذى عاش من (عام ٢٧٦ الى عام ١٩٤ ق.م) معلومات كثيرة عن تلك المنطقـة . ومن حديث استرابون عن مصبات دجلة والفرات فى الخليج العربى ، يتبين ان هذه الأنهار قد كانت فى أيامهما يصب كل منهما على حدة في النهر . ثم وصف Pliny (٢٣ ــ ٧٩ بعد الميلاد) هذه المنطقة ايضا بما فيها من مصبـات دجلة والفـرات بشىء من التفصيل وكذلك عيلام . وانتقلت السيادة التجارية للخليج العـربى الى البحـر الأحمر عندما تعلم الرومان الذين كانوا يحتلون مصر الأبحار فى البحر الاحمر الى المحيط الهندى .

الكويت عبر التاريخ القديم :

بعد ان دالت دولة اليونان ، واسس الرومان امبراطوريتهم قلت اهمية الخليج العربى وتحولت الأنظار الى البحر الاحمر . ولما ان زالت الامبراطورية الرومانية ، عاد النشاط التجارى البحرى الى موانى الخليج العربى ايام قيام الدولة العربية ، ومن مرافئه المشهورة البصرة والبحرين وسيراف وعمان . وقد نشا سندباد البحر فى هذا الخليج الذى اشتهر اهله بالمغامرات البحرية . وقد نشأ بين اهل الخليج العربى ابن ماجد اعظم بحار عربى فى العالم القديم . كما قامت على سواحله دولة كبيرة هى عمان ، جاء فى الخبر ان نابليون كتب الى اميرها طالبا منه العون لفتح الهند وطرد الانكليز . واخيرا قامت عليه دولة الكويت التى ساهمت فى بناء حضارة الخليج العربى القديم ، ونشط اهلها منذ اقدم العصور فى تزويد أهل الرافدين بما يحتاجونه من مواد اولية ، وكانت مركزا تجاريا هاما ، تنقل اليها البضائع من الهند . من اجل ذلك امتاز اهلها بركوب الماء وصناعة السفن واستخراج اللؤلؤ .

لقد دلت اعمال التنقيب التى قامت بها البعثة الدنمركية فى جزيرة فيلكـا بالكويت منـذ عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٦٠ ان اهل الكويت كانوا اصحاب حضارة منذ خمسـة آلاف سنة . ولقد تميزت حضـارة تلك المنطقة بطابع خاص ، كما ان وقوع المراكز البحرية الهامة مثل البحرين وفيلكا ــ التى يحتمـل ان تكون دلمون ــ على طرق التجارة البحرية بين الهند والعراق جعلها تتأثر بحضارات تلك البلاد التى كانت على صلة بها .

وتقع جزيرة فيلكا الى الشرق من مدينة الكويت بحوالى ثلاثين كيلو مترا . ويبلغ طول الجزيرة حوالى ١٢ كيلو مترا ولا يزيد اقصى عرض لها

من ستة كيلو مترات . وتكثر بها التلال الأثرية اخصها : سعد وسعيد ، والخضر ، والقرينية ، والقصور ، والعوازم ، والصباحية .

عثرت البعثة الدنمركية فى عامى ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ فى تل سعد وسعيد الواقع فى الزاوية الجنوبية الغربيــة من جزيرة فيلكــا على بعض الختوم وانقاض منازل قديمــة فى طبقات بنى بعضــها فوق بعض ، كذلك عثرت البعثة على كسر من الفخار يرجع تاريخها الى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد . ومن الأشـياء الغير مألوفة من التى عثرت عليـه البعثة ، ختم مســتدير شكله من حجر التالك Steatite ، وهو يختلف عن ختوم العراق الأسطوانية ، وختوم الهند المربعة ، وقد نقش وجهه وظهره . وقد استطاعت البعثة بعد فحص طبقات هــذا التل ودراســة الفخار المتنوع الشكل من معرفة تاريخه ، فأرخت تل سعد بالعصر النحاسى أى حوالى ٣٥٠٠ ق.م ، وأرخت تل سعيد بالعهد اليونانى .

عثرت البعثة فى التل الشرقى من المركز الذى سبق أن ذكرناه وهو سعد وسعيد على سور المدينة وســور القلعة التى كانت تحمى الميناء الجنوبى فى الجزيرة . اما عن طراز السور فهو مزدوج ، وغالبا ما يرجع تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد . وغالبا أن هذا السور كان ممتــدا حول المدينة أو القلعة . ويقع مدخل السور فى الناحية الشمالية حيث توجد حفرة صــغيرة كان يثبت فيها مزلاج باب المدخل وجــدت بجواره بعض أحجار عليها نقوش يونانية .

وفى أحد مواسم البعثة الدنمركية تم العثور على أطلال منزل مؤلف من ١٢ حجــرة . ولا تزال جدران هــذا البنــاء قائمة الى ارتفــاع ٧٠ سنتيمترا ، وقد بنيت فى بعض أجزائها من (الاجر) المستخدم فى بابل . وقد عثرت البعثة فى هذا البيت على بعض قوالب من الاجر ، منها قالب صور عليه وجه الاسكندر ، وقوالب أخرى صبت فيها مادة طرية فخرج تمثال يونانى يمثل اله النصر اليونانى Nike . وعثرت البعثة ايضا فى هذا المنزل على حجر صغير صور عليه رسم اله أو ملك يقبض فى يده على شىء شبيه بالتفاحة . ومن بين مقتنيات البعثة التى كشفت عنها فى هذا الموقع رأس صغيرة لأحد ملوك آشور وقد وضع فوق رأسه غطاء رأس مدبب ، وأعفى لحيته كما يفعل ملوك آشور .

ولما عادت البعثة للعمل فى هذا المكان عام ١٩٦٠ ، فواصلت الحفر ، وعثرت على معبــد ، يقع أمامه مذبح . وقد ظهر ان هــــذا المعبد قد بنى على الطراز الهلينى : ومكون من قسمين : Cella وهو القســم الداخلى

والقسم الخارجي . وعثر عند مدخل المعبد على قاعدتين وتاج أيوني لأحد الاعمدة ، وكتلة حجرية زخرفت على هيئة نخيلة . ووجد الى جانب ذلك أحجار كبيرة من عناصر معمارية للمعبد .

والراجح أن المعبد قد كان قائما وسط ساحة كبيرة مغطاة فى بعض أجزائها بكتل من الحجارة ، وفى بعضها مغطاة بالجص . وقد عثرت البعثة على بعض الحجارة التى تحمل كتابة يونانية فيها ما يشير الى من قام ببناء المذبح ، كذلك كشفت عن رأس تمثال صغير يونانى . وأما أهم ما عثرت عليه البعثة فى موسم عام ١٩٦٠ هو حجر ايكاروس ، و ١٣ عملة فضية كما كشفت عن ختمين . وجميع هذه الكشوف تدل على أن هذه المبانى من عصور مختلفة .

أما عن حجر ايكاروس والذى يعد من أهم ما كشفت عنه البعثة عام ١٩٦٠ ، لأنه فريد من نوعه فى هذا المكان ، ويبلغ طوله ١١٦ ١/٢ سم وعرضه ٦٢ سم ، وعليه نقوش يونانية بلغت ثلاثة واربعين سطرا . جاء فيها ما يشير الى أن الملك (وغالبا ما يكون الاسكندر أو أحد الذين جاءوا من بعده) أصدر أمرا الى حاكم جزيرة ايكاروس (وهى فيلكا حاليا) ، يطلب من أهالى جزيرة ايكاروس العناية بمعبد (المخلصة) ، وكان يقصد من وراء ذلك الآلهة (ارتميس) اليونانية ، وهى الهة الصيد والهة القمر ، كما يطلب من أهالى ايكاروس العناية بمعبد الاله (مترا) (وهو الاله متراس اله الشمس) ، كما يرغب من أهل الجزيرة أن يعتنوا بالجزيرة فيفلحوا أرضها وتكثر الغزلان فيها .

لقد اكد هذا الكشف صدق رواية المؤرخ اليونانى آريان ، الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد . اذ جاء فى أخباره أن الاسكندر الأكبر أرسل بعثة الى الخليج العربى تمهيدا لفتحها ، واستطرد قائلا ان هذه البعثة قد عادت بعد أن نزلت فى جزيرتين ، أحدهما كانت مساحتها كبيرة وسماها تيلوس = (البحرين) ، والأخرى كانت صغيرة ، وذكر أن المواطنين فى هذا الوقت كانوا يعبدون ارتميس الهة القمر . وقد جاء فيما كتبه آريان ان الاسكندر أصدر أمرا بتسمية الجزيرة الصغيرة (ايكاروس) وذلك تشبها بجزيرة يونانية من جزر بحر ايجه كان تقدس فيها الالهة ارتميس . لان اليونانيين كلما نزلوا بأرض خلعوا عليها اسما من الأسماء الموجودة عندهم ، وقد وجدنا ذلك فى مصر وفى سورية وآسيا الصغرى .

لقد ثبت اذن بعد الكشف عن هذا الحجر الذى وجد بين نقوشه اسم ايكاروس ان جزيرة فيلكا كانت تسمى باسم ايكاروس أيام الاسكندر

وانها كانت آهلة بالناس ، وانها كانت مستقرًا يلجأ اليه الحكام للراحة والهدوء فى بعض فصول السنة .

نجد والاحساء وعمان وملوخا عبر التاريخ القديم

قام اسرحدون بحملات حربيــة فى قلب الجزيرة العربيــة ، فى بلاد « باصو » و « بازو » = نجد ، وبلاد « حاسو » = الاحساء . وذكر أنه قتل فى هذه الأقاليم ثمانية ملوك . كما جاء ذكر هرب الملكة « شمس » او « شمسية » زوج الملك الآشورى تيجلات بيلاصر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م) الى « باصو » وذلك من قسوة زوجها . اما « حاسو » فهى غالبا المنطقة الواقعة بين نجد والخليج العربى وبلاد بابل السفلى . وجـدير بالذكر أن جزءا من منطقة الاحساء كانت تشمل مملكة دلمون .

جاء ذكر منطقة « مجان » وهى حاليــا = عمـان و « ملوخا » (غير معروفة) فى بعض الوثائق السومرية . جاء ذكر تلك المنطقة فى أخبار الملوك الأكديين وبعض ملوك سومر من وراء العهد الأكدى . وقد اتفق جمهرة العلماء على أن منطقة « مجان » هى منطقة عمـان ، اى الطرف الجنوبى الشرقى للجزيرة العربية . وجدير بالذكر عدم الخلط بين مجان ومعـان الواقعة فى المملكة الأردنية حاليا .

وغالبا ان الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة قد اتصل بالسومريين اتصالا تجاريا وغير تجارى . جاء ذكر مجان وملوخا ايام سرجون الأكدى، فقد اشار الى انه احضر سفنا من ملوخا ومجان ودلمون . وقد اشتهرت مجان ببناء السفن حتى أنه يحتمل أن تكون الكلمة سومرية « مجـان » تعنى « أرض السفن أو ميناء الســفن » . كذلك ذكر « نرام — سين » حفيد سرجون أنه غزا مجـان . وقـد ذكر نرام — سين ملكها المســمى « مانيئوم » كما سبق أن اشرنا الى ذلك ص ١٢٣ .

وتشتهر مجان بالنحاس الخام الذى يحتوى على كمية من القصدير ، وكذلك بحجر الديوريت الأسود وهو يختلف عن الديوريت المصرى . وقد احضر نرام سين وغيره الديوريت من مجان لصناعة التماثيل . كذلك أحضر جودية أمير لجش الخشب لصناعة السفن من مجان وملوخا ودلمون والحجارة من مجان . وقد جاء على احد الأسطوانات المصنوعة من الطين من ايام جوديه ما يفيد أنه رأى فى الرؤيا الاله « ننجرسو » وقد امره ببناء معبده الذى « سيجمع اسمه جميع البلدان من حدود تخوم السماء ، حتى مجان وملوخا سيجذبهما من جبالهما » . وجدير بالذكر انه لا زال

يوجد موضع فى اقليم عمان ، يقع بين عمان حاليا والبحرين يطلق عليه « ميجان » أو « مجان » ، وهى تقع عند مصب واد طويل يسمى وادى « شبهة » بالقرب من ساحل الخليج العربى ، وفى الامكان تحديد ميجان بخط طول ٥٥ شرقا وخط عرض ٢٤ شمالا ، وبحوالى ٤٥٠ ميلا الى الشمال الغربى من مسقط . اما اقليم ملوخا فلم يتمكن احد من تحديده .

القطر البحرى

اما القطر البحرى ومنطقة الخليج العربى فقد جاء ذكرهما فى كثير من الوثائق المسمارية ، وهما يشملان الى جانب شاطىء الخليج العربى جزءا من جزيرة العرب حتى حدود دلمون ، وقد جاء فى اخبار سرجون الثانى أن حدوده الشرقية امتدت حتى دلمون . وقد أطلق ايضا «بيت ـ ياكين» على القطر البحرى أو الجزر الهامة فيه . وبعض الباحثين يعتقد أن القطر البحرى كان ممتدا الى بادية الشام وبلاد دلمون . وجاء فى أخبار آشور بانيبال فى هذا شأن أن القطر البحرى كان ممتدا من مدينة «عقبة» الى « باب ـ ساليمتى » .

وجاء فى اخبار سرجون الأكدى التى دونت من وراء ايامه اهتمام الاكديين بالقطر البحرى ، جاء فيها أنه غزا القطر البحرى ثلاث مرات ، وهذا دليل على أن اهل هذه المنطقة لم يقبلوا احتلال سرجون الأكدى لهم وحاولوا الثورة عليه مما دعا الى اعادة الكرة لغزوهم . ومن الجائز جدا انه قامت اسرة فى العهد الأكدى استطاعت أن تستقل وتحكم نفسها وتكون مملكة ، كما قامت فيها ايضا اسرة مالكة فى العهد البابلى القديم . كذلك من الجائز ان العلاقات بين القطر البحرى والدول التى نشأت فى بلاد ما بين النهرين تعود الى أيام السومريين .

(انظر الثبت باسماء ملوك هذه المملكة فى نهاية هذا الباب تحت اسم **الاسرة الثانية لبلاد البحر اى القطر البحرى**) .

ظهر فى القطر البحرى اسرة بعد ايام حمورابى حكم منها ما يزيد عن احدى عشر ملكا عملوا أسماء سامية وسومرية بلغت مدة حكمهم ما يقرب من ٢٦٠ سنة ، وقضى عليهم الكشيون بعد أن خربوا مدينتهم التى كانت تسمى « دور ـ ايا » ، وغالبا ما كانت هذه عاصمة القطر البحرى . وبعد مضى حوالى ٥٠٠ عام من الأسرة الأولى ، قامت أسرة أخرى بعد أيام الكوشيين ، وقد عرفت تلك الاسرة باسم « باشى » . وقد وقع اقليم

القطر البحرى فى خرب مع الآشوريين ، وذلك أيام آشور بانيبال . وواضح أن سكان القطر البحرى كانوا دائما يتحالفون مع العيلاميين ضد الآشوريين . ومن الشخصيات الكبيرة من هذا القطر والتى ثارت على الآشوريين هو « مردوخ ـ بلادان » أيام سرجون الثانى وولده سنحاريب. اما آشور بانيبال فقد غزا القطر البحرى حينما آراد أن يقضى على أخيه « شمش ـ شوم ـ أوكين » . ويغلب على الظن ان الكلدانيين الذين قضوا على الاشوريين بمعاونة الميديين هم اصلا من القطر البحرى ، وقد كانت قبيلة من الاراميين معروفة باسم « كلدو » أو « كالدى » كما سبق ان ذكرنا ، وقد تسللت من الشمال الغربى الى بلاد بابل الجنوبية واقليم القطر البحرى وذلك من الألف الأول ق.م. وهى التى انشأت آخر مملكة قامت فى بلاد الرافدين .

القسم الثانى (معين وسبأ)

اتصلت الدول التى قامت فى اليمن بالسومريين والبابليين والآشوريين وكذلك اتصلت بمصر والشام والحبشة وعيلام . وبالرغم من أن النقوش المعينية وغيرها ترجع الى أوائل الألف الأول ق.م. الميلاد ، فما من شك فى أن حضارة قديمة سامية عاشت فى اليمن قبل ذلك بكثير ربما الى الألف الثانى ق.م. ومن الجائز قيام مملكة سامية فى بلاد معين امتدت الى الحجاز ، وغالبا انها ازدهرت أيام الأكديين ، وان « نرام ـ سين » حفيد سرجون الأكدى كانت له صلة بهذه المملكة ، وكان هناك طريق يبدأ من جده الى مكة وجبل شمر الى أن يصل الى بابل وهو طريق الحج عند المسلمين الشرقيين . ويتفرع من هذا الطريق ، آخر يتصل به فى جبل شمر مارا بينبع والمدينة المنورة . وهناك احتمال فى أن أهل الرافدين قد اتصلوا ببلاد اليمن عن طريق البحر فركبوا مياه الخليج العربى مارين بدلمون (الكويت والبحرين) الى ان وصلوا اليمن . كما كانت هناك طرق قوافل تحمل التجارة بين « مريابة » (مارب عاصمة سبأ) تستمر شمالا الى أن تصل الى « تيماء او تيما » التى جاء ذكرها ايام نابوبولاصر كما سنفصل ذلك فيما بعد ، وهى مركز تجارى هام ، وملتقى طرق تجارية مختلفة ، فمنها تتجه القوافل شمالا الى دمشق ، واخرى تتجه الى سيناء فمصر ، وثالثة تتجه الى العراق .

اقام المعينيون والسبئيون مناطق تجارية امتدت الى شمالى الجزيرة ، امتدت الى الشمال فشملت الحجاز . وان من الاسباب القوية فى نشأة الحضارة فى اليمن ، تجارة البهار واللبان والتوابل المختلفة ، كذلك ان أساليب الرى واقامة السدود والتحكم فى المياه ، كل ذلك كان له اثره

فى اتساع رقعة الأرض المنزرعة ، من أجل ذلك تشابهت الحضارة اليمنية فى حلقاتها الاولى مع تلك التى قامت فى بلاد الرافدين ووادى النيل الاسفل. ولقد اعتنى اليمنيون بتصريف المياه وفلاحة الأرض واستغلالها ، هذا والقرآن الكريم يصف تلك المنطقة بتلك الآيات الكريمة « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وعن شمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور » .

تدل النقوش المعينية والسبئية على قيام اربع ممالك فى الجنوب العربى ، اقدم تلك الممالك معين ثم سبأ وحضرموت ومملكة « قتبان » . وغالبا أن دولة معين هى أول مملكة ازدهرت فى الجنوب منذ عام ١٣٠٠ ق.م. تقريبا الى ٧٠٠ ق.م. تقريبا . ازدهر المعينيون فى جوف اليمن ، بين نجران وحضرموت وامتد نفوذهم جنوبى الجزيرة العربية كلها . وقد امتد نفوذهم الى الشمال والشمال الغربى ، وأهم مراكز نفوذهم «معان». وقد كشف هناك عن نقوش معينية .

كانت عاصمة الدولة المعينية « قرناو » التى تقع حاليا الى الشمال الشرقى من صنعاء . ولقد ظلت دولة معين قائمة حتى عام ٢٤ ق.م. تقريبا . ومن الجائز جدا أن السبئيين الأول قد عاصروا المتأخرين من ملوك معين وورثوا مملكتهم . وتبدأ مملكة سبأ من عام ٩٥٠ — ١١٥ ق.م. تقريبا .

والراجح ان أقدم الهة معين ثلاثة هم : « أثتار » و « ود » و «نكرخ». وغالبا ما تكون « أثتار » هى الالهة الرافدية المشهورة « عشتار » ، التى عاشت عند عرب الجنوب وغالبا انها اتصفت باله ذكر ، والاله « ود » هو الاله القمر « سين » أو « شهر » كما يطلق عليه عرب الجنوب . أما ثالث الالهة فغير معروف اشتقاق اسمه . وقد عثر فى حضرموت ، فى موقع يدعى حريضة على اطلال معبد الاله « سين » ، ويرجع تاريخه الى ما بعد القرن السادس ق.م. وهو يشبه المعابد البابلية فى طراز عمارته . وقد عثر الباحثون هناك على ختوم من العهد الآشورى المتأخر أو البابلى المتأخر وغيرهما لها علاقة قوية بختوم بلاد الرافدين .

أما عن السبئيين ، فقد عرفنا اخبارهم من اصحاب الحضارات الأخرى . استوطن السبئيون الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية، وقد تشابهوا بالفينيقيين فركبوا مياه البحر العربى وعرفوا موانيه وطافوا سواحل الجزيرة العربية . وكذلك سلكت قوافلهم الطرق البرية التى تصل بسورية عن طريق الساحل الغربى من الجزيرة العربية ، عن طريق مكة الى بطرى ، ذلك الطريق الذى يتشعب منه طرق أخرى تصل الى

مصر والعراق. واتصلت مملكة سبأ بحضرموت ، اذ كان يوجد طريق يخرج من تلك الأخيرة الى مأرب (مريابة) عاصمة سبأ .

قسم الباحثون تاريخ سبأ الى دورين : الدور الأول من ٩٥٠ ـــ ٦٥٠ ق.م. ولقب ملوكه بلقب دينى : « المكربين » . ويبدأ الدور الثانى من عام ٦٥٠ ـــ ١١٥ ق.م. وقد أطلق على ملوك هذا الدور « ملوك سبأ » واتخذوا مأرب عاصمة لهم ، وهى تقع الى الشرق من صنعاء بحوالى ٦٠ ميلا .

أقام ملوك الدور الأول حصنا كبيرا ، غالبا كان يقع بالقرب من عاصمتهم الأولى ويسمى « صروح » أو « صرواح » وهو على مسيرة يوم واحد الى الغرب من مأرب .

أما الدور الثانى ، فقد عاصر ملوكه مملكتين اخرتين فى الجنوب مملكة « قتبان » و « حضرموت » .

ولما زالت دولة سبأ ، جاء من ورائها الدولة الحميرية (١١٥ ـــ ق.م. الى ٣٠٠ للميلاد) .

اما عن علاقة السبئيين ببلاد الرافدين : فقد ذكر الملك تيجلات بيلاصر الثالث انه اخذ فى عام ٧٣٢ من «ملكة العرب» الملكة «سمسى» (انظر ص٩٣) كما جاء فى أخباره بعض أسماء القبائل العربية التى قدمت له الجزية ، منها مدينة « مساء » Mas'a » وتيماء وسبأ الخ . وذكر كذلك ملكة تسمى « زبيبى » . ومن بين الجزية التى وردت اليه الذهب والفضه والجمال والأعشاب ذات الرائحة الذكية . كما جاء اخبار ورود جزية من تلك المنطقة الى بلاد الرافدين أيام سرجون الثانى . وقد جاء فى الوثائق السمارية والسبئية اسم ملك يقال له « اتهمارة Yith 'i-amaras وكلمة يثع = امارة بالسبئية » . وهذا الملك هو الذى أتم اقامة سد مأرب المشهور والذى بداه من قبل ابوه . كما جاء فى أخبار سرجون الثانى ذكر ثمود اذ يقول فى حولياته فى السنة السابعة « قبائل ثمو وعبابيدى والمرسيمانو والخيافة ، وهم العرب البعيدون القاطنون فى البادية الذين لا يعرفون ملكا ولا حاكما ، والذين لم يؤدوا الجزية الى اى ملك لقد ضربتهم بسلاح آشور الهى ونقلت بقيتهم واسكنتهم فى السامرة » . وغالبا أن هذه القبائل كانت تقيم فى القسم الشمالى الغربى من الجزيرة .

ومن الراجح ورود اسم اليمن فى اخبار نبوخذ نصر الثانى ، انما أمر ذلك لم يثبت تماما.

اما عن اقدم ذكر لكلمة عرب : فقد جاء ذلك أيام شلمناصر الثالث حينما كان يحارب الاراميين فى موقعة قرقر ، عندما ذكر أن أميرا أو شيخا عربيا يسمى « جندب Gindibu — العربى » قد مال الى ملك دمشق الارامى . ولما تولى العرش تيجلات بيلاصر الثالث تمكن من تأمين طرق المواصلات التى تربط الامبراطورية الآشورية بالبحر المتوسط وخضعت له بعض القبائل العربية فى شمال الجزيرة العربية . فقد جاء فى أخباره انه تسلم الجزية فى العام الثالث من حكمه من « زبيبى » ملكة العرب Aribi ، ومن قبل ذكرنا أنه أخضع فى سنته التاسعة ملكة عربية سبئية كانت تسمى « سمسى » (شمس أو شمسية) ، وكانت تحكم فى شمالى الجزيرة .

كذلك ذكر سنحاريب انه فى حملته الأولى ضد بابل اسر فى مدينة كيش جنودا من العرب تحت قيادة « بصقانو Basqânu » وكان أخا الملكة العربية « يائى Ya'tie » . كما تسلم هدية من ملك سبأ « كريبى — ايلو » . وجاء فى اخباره أيضا انه حارب فى عام ٦٩١ ق.م. منطقة « دوماتو » وملكتها « تلخونو » ملكة العرب . وقد تعددت اخبار حملات ملوك آشور نحو السبئيين الذين استعمروا الأقسام الشمالية من الجزيرة العربية وكانوا يعرقلون طرق التجارة التى تسير عليها قوافل الآشوريين . اما مملكة سبأ الجنوبية فلم يثبت انها خضعت للآشوريين .

القسم الثالث

اما القسم الثالث من مناطق الجزيرة العربية وهو بادية الشام والتى كانت مسرحا لصراع كبير بين اهل الرافدين والاراميين والكنعانيين والعبريين كما سبق أن فصلنا الحديث عن جزء منه من قبل . وسنورد ما تبقى من هذا النزاع فى حديث آخر بعد ذلك .

* * *

الفصل التاسع

نظرات عابرة فى حضارة بلاد الرافدين

ديانة أهل الرافدين القدامى

تمهيـــد

ان دراسة ديانة أهل الرافدين الاقدمين هى الركن الأول من أركان الحضارة التى ظهرت فى وادى دجلة والفرات .

ان أول ديانة ظهرت للانسان غالبا ما تكون فى نهاية العصر الحجـرى الحديث ، وقد مثلت فيها آلهة الارض والخصب . كانت الظواهر الطبيعية لها أثرها فى ديانة وادى الرافدين وقد انعكست تلك البيئة القاسية على ديانة أهل البلاد الاقدمين . واتخذت السماء والارض مركز الصدارة فى الظواهر الطبيعية .

وأهم مصادر الديانة الرافدية : الاساطير والقصص مثل اسـطورة الخليقة وقصة جلجامش ، وارشادات عن كيفية اقامة الشعائر الدينية وعن بناء المعابد واقامة الطقوس الدينية فيها ، وكذلك التعاويذ والرقى ونصوص التنبؤ والتنجيم واثبات الالهة والوثائق الخاصـة بادارة دور العبادة واملاكها .

وواضح من تاريخ ديانة اهل الرافدين خصوصا عندما تم نضوجها فى الالف الثالثة ق.م. عدم تغيير اسسها تغييرا واضحا . فالظواهر الطبيعية التى قدسها البابليون هى نفسها التى قدسها الاشوريون . وثمة ظاهرة واضحة فى الديانة البابلية هى تعدد الالهة Polytheism وقد كثرت بحيث أنها تملأ مجلدا كبيرا . كان لكل فرد اله خاص به . وكان لـكل ظاهرة طبيعية اله ، ولكل منطقة من الكون اله أو مجموعة من الالهة . ولم يعرف البابليون التوحيد . كما نسبوا الى الالهة صفات البشر من روحية ومادية من حيث وجود صور لهذه الالهة واعضاء كما هى عند

الانسان . وقد تصوروا فى الالهة كما كانت الحال فى بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ ، لها مجالس شورى مقدسة تقرر فيها شئون الكون ، كما كانت الحال فى الديمقراطية التى كانت موجودة فى العصر الشبيه بالكتابية وفى بداية عصر فجر الاسرات .

كان لكل اله بطانة كبيرة وزوجة وأولاد ، اذن كانت الآلهة تعيش كما يعيش الانسان الا أنها كانت تسكن المعابد ، غير أن الآلهة كانت فى نظرهم خالدة ، فيما عدا بعض الآلهة التى كانت تموت لفترة وتحيا ، مثل الاله تموز الذى كان يمثل الربيع . كانت الآلهة تسكن السماء ، فاذا ما نزلت الى الارض تقيم فى دور العبادة الفخمة . وقد مثلت الآلهة على هيئة آدمية انما تختلف قليلا عن البشر العادى ، فقد بولغ فى سعة العيون وكبر الاذان ، واحيانا كانت توجد أربع عيون . وجدير بالذكر أن الآلهة الرافدية اختلفت عن الآلهة المصرية القديمة ، فقد مثلت هذه الأخيرة فى بعض الأحيان مركبة من جسم انسان ورؤوس حيوان او طائر مثل الآلهة حاتحور وسخمت ، فقد مثلت الأولى أحيانا بجسم انسان وراس بقرة ، والثانية مثلت أحيانا بجسم انسان وراس لبؤة . كذلك الاله سوبك مثل احيانا بجسم انسان ورأس تمساح . والاله حور آختى مثل احيانا بجسم انسان وراس الباشق . أما الآلهة الرافدية فقد كانت غالبا تمثل رموزا للظواهر الطبيعية .

عمل الناس على تقديم الطعام والشراب واقامة دور العبادة للآلهة لأنها كما سبق أن ذكرنا لها صفات البشر الروحية والمادية . وقد جاء فى نظرية الخليقة عند البابليين ان الانسان خلق ليعبد الآلهة . واذا لم يقم الناس بتحقيق ذلك عوقبوا فى هذه الدنيا ، كان لكل ملك اله او الهة ولو أن اهل الرافدين قدسوا ملوكهم الا انهم لم يؤلهوهم ، كما فعل المصريون القدماء الذين اعتبروا فراعنتهم آلهة . وركبت بعض أسماء الاشخاص من اسماء الالهة مثل « ايلى ــ امرانى » أى (الهى انظر الى) . و « ايليشو ــ ابوشو » أى (الهه ابوه) ، و «جميل ايليشو » ، اى (عطية الهة) ، « ما نوم ــ باو اليشيو » أى (من يستطيع الحياة بغير الهة ؟) . وكذلك أسماء بعض الملوك ، و « نرام ــ سين » أى (محبوب الاله سين) ، و « اداد ــ نرارى » أى (الاله أداد مساعدى) .

كان سكان الرافدين القدامى يخشون الآلهة ، فكان حمورابى يخشى الآلهة ، كما كان على كل فرد أن يصلى للاله ــ ويقدم الاضاحى والقربان الذى كان عبارة عن طعام وبخور وسوائل من ماء نقى ونبيذ . أما أخص حيوانات التضحية فقد كانت الاحمال والجديان اذ رؤيت صورها فى

المناظر الدينية فى الالف الثالثة ، ويضحى ايضا بالخنازير والسمك والثيران والنعاج .

العالم الآخر

فرض الموت على البشر ، وكما جاء فى اسطورة الخليقة التى سنوردها فيما بعد ان الاله الذى وكل بالموت وجد قبل خلق الانسان . حتى جلجامش لم يستطع الحصول على الخلود . ولم يعتقد الرافديون فى الفناء المطلق ، فقد تصوروا ان الكائن الحى ينقسم الى جزئين ، هما الجسد والروح ، فاذا مات الانسان انفصلت روحه عن جسمه ودخلت فى دائرة جديدة هى عالم الارواح السفلى وتبقى هناك الى مالا نهاية . ولم تصلنا وثائق تثبت ان اهل الرافدين كانوا يعتقدون بعودة الروح الى الجسم فى القبر او فى البعث كما اعتقد المصريون القدماء . ومع ذلك كله فقد اعتنوا بتهيئة قبر الميت . وتطور بناء القبر ، ففى سبار ، منذ الالف الثالثة ق.م كان يوضع الميت على ظهره داخل بناء مستطيل الشكل من الطوب ومعه أوان من طين وبرونز . ثم تطور الاثاث الجنازى فاصبح يشمل اشياء كثيرة منها السكاكين والموازين وحبات من عقيق . وكانت تقدم القرابين كل شهر . فبماذا يفسر ذلك كله ؟

ربما كانوا يقصدون من وراء ذلك اتقاء الاذى الذى يحتمل ان يلحق به اكثر منه تكريما له .

وصف اهل الرافدين عالم الارواح السفلى بانه عالم مخيف وكانه مدينة احيطت بسبعة اسوار ، على كل منها شيطان مارد . وتقوم الهة قاسية بالحكم فى هذه المدينة . وطالما ان اهل الرافدين لم يؤمنوا بالبعث فلم يعتقدوا فى الثواب او العقاب الاخروى ، اى انهم لم يتصوروا وجود جنة أو نار كما تصورها المصريون القدماء .

أصل الخليقة

وصل الينا الكثير من الاداب السومرية والبابلية التى تحدثت فى هذا الشأن ، ونستطيع أن نضع امام القارىء طرفا مما تحدث فيه الناس فى ذلك الوقت عن الخليقة واصل الوجود .

نظروا الى الماء كانه العنصر الاساسى لجميع الاشياء . وقد كانت المياه الاولى مؤلفة من الماء العذب ، وهو العنصر المذكر ، والماء المالح ، وهو

المؤنث . واطلقوا على الاول « آبو » وعلى الثانى « تيامة » ، ومنهما ولدت الالهة جميعها .

ثم قام الاله مردوخ بفصل الالهة تيامة الى نصفين ، أحدهما السماء ، والثانى الارض . وبعد ذلك قام بخلق الكواكب والنجوم ، واشترك مع ابيه الاله « ايا » فى خلق البشر وذلك اعتمادا على دم الالهة . وفى بعض الروايات الخاصة فى هذا الشأن أن خلق البشر جاء بعد ان خلق العالم وما فيه من حيوانات ونبات .

وعلى وجه العموم لوحظ ان عملية الخلق بوجه عام فى الديانة البابلية لم تتم بعملية هادئة كما هو الحال فى نظرة المصريين القدماء فى الخلق . وانما انعكست البيئة الرافدية التى تميزت بالمفاجآت على اصل الخليقة فى انها صراع وكفاح بين الآلهة .

وقد وصلت الينا آراء اخرى من الاساطير الدينية السومرية عن أصل الخليقة سبقت آراء فلاسفة الاغريق ، التى كانت ترجع اصل الاشياء الى عناصر اربعة . ولكن الفضل فى الواقع يرجع الى السومريين حينما ذكروا فى قصصهم واساطيرهم ، ان الماء كان هو العنصر الاول ، ثم ولد منه عنصر الارض والسماء متحدتين ، ثم انفتقتا بواسطة الهواء « انليل » ثم ولد من الهواء القمر ، ومن هذا الاخير ولدت الشمس ، ثم خلقت النباتات والحيوانات والانسان بعد أن تم انفصال السماء عن الارض . ليس من شك فى ان هذه هى أساس نظرية العناصر الاربعة عند الاغريق .

لم يؤمن اهل بلاد الرافدين بفكرة الجنة والنار التى آمن بها المصريون القدماء ، وكان عقاب الفرد على اثم اقترفه أو ثواب على خير فعله يتم فى الحياة الدنيا . لذلك عملوا على سلوك طرق الخير وتجنب فعل الشر ، وتمسكوا بالقوانين التى كانت مستمدة من الالهة ، وقد كان للدين أثره فى اخلاق الناس خصوصا فى المعاملات التجارية ، وفى اعمال الملوك وسلوكهم

ولما كان البابليون لا يعترفون بالبعث ، من أجل ذلك احبوا الدنيا وتمتعوا بها وخلدوا أنفسهم بما تركوه من أعمال عمرانية ، وفى قصة جلجامش ما يشير الى ان هدفه من المغامرات المختلفة التى قام بها هو تخليد ذكراه .

كانت فكرة الطاعة واجبة لاقامة المجتمع والدولة فلا بد ان يطيع الفرد رب الأسرة ، ثم راس المجتمع والالهة . لا بد من طاعة السلطة الحاكمة

لان عليها أساس المجتمع ، فالجنود بلا ملك كقطيع بلا راع . وكان السبب فى وجوب طاعة أفراد المجتمع البابلى للالهة والسلطة ، هو أن الفرض من خلق الانسان كانت عبادة الالهة ، من أجل ذلك كان من الواجب على العبد ان يطيع خالقه وصانعه ، وكان ينشد من وراء ذلك الجزاء والثواب فى الدنيا التى يعيشها ، ولم يكن هناك الزام من الالهة بثواب الفرد نتيجة خير قدمه ، ثم تطورت العدالة الى أن اصبحت حقا من حقوق الفرد على الدولة كما هو واضح فى شريعة حمورابى .

تطرق الشك كثيرا الى الناس خصوصا فى مصيرهم بعد هذه الحياة وشغلوا بما بعد الموت كما سنجده فى ملحمة جلجامش التى لم تستطع أن تضع حلا فى مشكلة الخلود وما الذى سيحدث للانسان بعد الموت ، وهل يسلك الانسان فى حياته الدنيا مسلك صاحبة الحانة ، كما جاء فى الملحمة أم يسلك طريقا آخر وهو تخليد ذكراه كما فعل جلجامش فى نهاية الملحمة . لقد ترك كاتب الملحمة لنا الطريقين امام كل فرد وله أن يختار ما يريد . وبذلك لم توفق الملحمة الى أصل الخير والشر ، والى احسن الطرق التى يجب أن يسلكها الفرد .

على أن ما لا توفق فيه ملحمة جلجامش استطاعت بعض القطع الادبية الاخرى أن تجد له حلا . لقد أصبح من حق الفرد على الدولة ان يطالب بتحقيق العدالة ، كما طالب الالهة بمجازاته بالثواب على ما فعل ، فاذا لم تجبه الى رغبته له أن يستجوبها ، أى انه بدأ يتشكك فى ارادة الالهة . ومن ذلك قطعة أدبية رائعة تسمى بالبابلية "indul bal nemeqi" أى « لأمجدن رب الحكمة » ، وهى تشبه ما جاء فى التوراة على لسان ايوب ، هذا العبد الورع الذى قاسى العذاب والالم ، اذ يقول « لم اعرف سوى الصلاة والعبادة » ، وبالرغم من ذلك فقد حل بجسمه الالم ، عند ذلك يقول « لقد خذلنى الاله ، لم يأت اله لمساعدتى ، ولم تعطف على الهتى فتخلصنى من مصائبى » . فهذا لون من عبد مطيع لا تحسن اليه الالهة ، فما الذى فكر فيه صاحب تلك القطعة الادبية من مخرج . وضع لها حلين ، احدهما عقلى والآخر عاطفى ، أما الاول فهو ضعف عقل الانسان امام ادراك تصرفات الآلهة لانه مخلوق وليس خالقا ، اذ نجده يقول «كيف يستطيع البشر وهم محفوفون بالظلام أن يدركوا قصد الآلهة » . أما الحل الثانى هو أن ما وقع على هذا الفرد لن يستمر طويلا ، وأنه اختبار من الآلهة ولسوف يرفع عنه هذا الالم .

الآلهة

كانت للالهة الرافدية ظاهرة واضحة وهي علاقتها بظواهر الطبيعة والحياة ، فحينما تحدثوا عن أصل الوجود جسموا السماء والارض والماء والشمس والقمر والهواء ، كما خصصوا آلهة اخرى لمختلف شئون الحياة كالحرب والموت والحب والعلوم .. الخ . وقد تعددت الالهة كما سبق أن اشرنا ، وسنضع تحت بصر القارىء اهم هذه الآلهة .

الاله آنو

كان أبا الآلهة ، ولذلك كان يعد النموذج الأول لكل اب . كان أيضا الملك والحاكم ، من أجل ذلك اعتبروه النموذج الأول لكل حاكم . وكان آنو يمثل السلطة ، لذلك اعتبرت رموز السلطة (الصولجان ، والتاج ، ورباط الرأس) كلها مستمدة من آنو ، وانها نزلت من السماء الى الارض.

ولما كان اهل الرافدين يؤمنون بأن الارادة الالهية هي التي خلقت الكون ، لذلك كانت كلمة آنو هي أساس السماء والارض . وقد وصف آنو بسيد الدنيا فقد خوطب بما يلي « يا سيد الآلهة ، يا من كلمتك هي الغالبة ، يا غالب الزوابع العاتية » .

انتشرت عبادة آنو في جميع انحاء بلاد ما بين النهرين ، وفي جميع العصور ، وأقيمت له دور العبادة في مدن كثيرة اهمها نفر واور والوركاء . وقد سمي معبده في مدينة الوركاء باسم « اي ــ انا » اي منزل السماء أو مسكن آنو .

وحينما انتقلت السيادة على بلاد الرافدين من السومريين الى البابليين لم يستطع آنو أن يحتفظ بالسلطة العليا . فقد سيطر على تلك المكانة ايام البابليين الاله مردوخ . كمـــا اغتصب « انليل » رب الارض في بعض الاحايين القاب آنو .

عبدت الآلهة الشهيرة « عشتار » مع آنو في الوركاء . ولما حـــكم الاشوريون البلاد اقاموا له دارا للعبادة في مدينة آشور واشركوا معـــه الاله « أدد » .

الاله انليل

يدل اسمه « ان ــ ليل » ، على أنه كان (سيد العاصفة) . كان

سيد ما بين السماء والارض ، وهو يعد ثان الالهة . فهو اله الهواء والجو وما يتعلق بهما ، كما لقب ايضا بابى الآلهة . فرضت عبادته فى الدنيا جميعها . وهو الذى ينزل العقاب على الملوك اذا ما ظلموا . ومما يدل على مقدار تصور أهل الرافدين لقوة انليل ، انه حينما قضى العيلاميون على اور التى حكمت ارض بابل فترة من الزمن ، نسب الناس من اهل المنطقة انهزيمة التى وقعوا فيها الى جيش العدو الذى جاء فى ركابه عاصفة انليل فقد وصف هجوم العدو بما يلى : « دعا انليل العاصفة والشعب ينوح . واخذ من الارض رياحا منعشة ، والشعب ينــوح . ودعا رياحا شريرة والشعب ينوح . والعاصفة التى امر بها انليل فى حقده ، هى العاصفة التى تأكل الارض ، كست أور كالثوب ، وغلفتها كالدثار . واكتست مداخل المدينة ، لا بشظايا الفخار ، بل بالموتى من الرجال » .

كان يقود انليل الالهة الى الحرب ، فهو يمثل القوة والبطش . كان آنو يرأس الاجتماعات فى مجمع الالهة ، وكانت وظيفة انليل تنفيذ احكام هذا المجمع . فانو وانليل هما العنصران الرئيسيان فى الدولة : همـا السلطة التشريعية والتنفيذية .

جاء ذكر انليل فى شريعة حمورابى . وخصصت لعبادته مدينة نفر ، وقرن به آلهة مؤنثة هى « نن ــ ليل » . وقد كانت زوجة للاله انليل . كذلك كان الاله « نن ــ جرسو » اله مدينة لجش احد ابناء الاله انليل . وقد عبد نن ــ جرسو مع انليل فى معبد خاص بنفر . وقد عهد الى الاله انليل بالمحافظة على (الواح القدر) .

عثر فى مدينة نفر على تمثال من الطين كبير الحجم ، يحتمل انه كان يمثل الاله انليل جالسـا على عرش وقد مد يديه الى الامام ، وله لحية طويلة وقد وضع على راسه تاجا من تيجان الالهة . ولا زال على التمثال بقية من الوان .

الاله أنكى أو ايا

هو ثالث الالهة الكبرى فى بلاد الرافدين ، وانكى هو الاسم السومرى ومعناه (سيد الارض) وكانت مملكته هى « ابسو » وهى المياه التى تحمل الارض وتنتشر حولها . واسماه الساميون « ايا » ومعناه (بيت الماء) .

كان انكى القوة الخلاقة ، وكما قلنا ان اسمه السومرى معناه (سيد الارض) . وقد عرف أهل الرافدين القوة الموجودة فى الارض ، فكانت تعتبر الأم . وجدير بالذكر أن المصريين القدماء اعتبروا الأرض فى نظرية

الخليقة عنصر الذكر (جب) . كان ينظر أهل الرافدين الى الأرض كأنها أم تلد في كل سنة النبات ، وقد مثلت على هيئة امرأة ترضع طفلا ، ومعه أطفال آخرون التفوا بثوبها . كانت تعد أم الالهة ، وبذلك فهى أم البشر .

كان أنكى رمزا للماء ، فهو القوة الخلاقة . كان ماكرا ، لأن الماء حينما ينساب يسلك الطريق السهلة متجنبا المرتفعات واشباهها ، من أجل ذلك نسبت الى انكى المهارة والذكاء . كان فيه قوى فعالة في كل مكان يحل به، كذلك كان يمثل الفكر في الخليقة ، فسمى رب الحكمة وسيد المعرفة ، وهو الذى علم الناس الكتابة والفنون والصنائع . كانت سلطته مستمدة من آنو وانليل ، فكان يعتبر وزيرا لهمـــا . ويمكننا أن نشبهه بوزير الزراعة ، اذ انه كان يشرف على الانهار والجداول . والى القارىء الكريم طرف من نشيد سومرى جاء في وصفه : « يا أنكى ، يا سيد اللفظ الحكيم اياك احمد . لقد خولك أبوك آنو ، أول ملك وحاكم على عالم لم يكن قد اكتمل ، خولك في السماء والأرض أن تصنع وترشد ، ورفعك ســـيدا عليهما » .

كانت دار عبادته في أريدو . وقد سمى معبده « أى ــ ابسو » اى (بيت المياه) . وكان له رفيقه هى « نن ــ كى » اى (سيدة الارض) . وقد قدسه الناس في جميع انحاء بلاد ما بين النهرين وعلى الاخص في أور ولارسا والوركاء . وقد جاء في الخبر انه حينما تقـــدم سنحاريب ملك الاشوريين للقضاء على عيلام ، فلما بلغ شاطىء الخليج العربى قدم الى الاله « ايا » قربانا ، كان مكونا من قارب وسمكة من ذهب وقذف بهما في الماء من أجل هذا الاله .

وبذلك أصبح لدينا ثالوث من الالهة « انو » و « انليل » و « ايا » يأتى بعد ذلك ولد « ايا » « مردوخ » ، وولد مردوخ وهو « نبو » .

الاله مردوخ

اختصت به بابل في أول الأمر ، وحينما تولى حمورابى الملك رفع من شأنه وانتشرت عبادته في جميع أنحاء العراق . كان والده الاله « ايا » . وقد تخلى الاله « آنو » عن سلطاته الى الاله مردوخ . وقد منحه والده اسمه ، من أجل ذلك اعتبر ساحر الالهة . وقد مثل باذنين كبيرتين كناية لاحرقهر به تسامة في نظرية الخليقة ، حيث اعتبر

الاله نبو

كان يعد كاتم سر الالهة البابلية فى المجالس المقدسة ، وهو الابن البكر للاله مردوخ أقيم معبد له فى « بورسبا » وهى (برس نمرود حاليا) وله فيها زقورة لازالت اطلالها قائمة هناك .

الاله سين

كانت مركز عبادته « أور » وله فيها دار للعبادة لا زالت اطلالها باقية. وقد مثل الاله القمر بهلال وحده أو بهلال مع صورة انسان ، وذلك مثل ما مثل الاله خونس ، اله القمر فى الديانة المصرية القديمة اذ غالبا ما كان على هيئة انسان وفوق رأسه هلال .

سماه السومريون والبابليون « سين » وكذلك سمى «ننار» أو « ننا » ، ومعناه (رجل السماء) . وكان يشترك مع الاله « شمش » رمز الشمس فى تصريف أمور القضاء . وقد ربط العراقيون القدامى بين سبب ظاهرة خسوف القمر هو تمكن سبعة شياطين او أرواح شريرة من القمر ، من اجل ذلك كانوا يقومون بتقديم القربان ويصلون حتى يعود القمر الى حالته الطبيعية . وكان له رفيقة وزوجة ، وهى « ننجال » .

وجدير بالذكر انه يسن على المسلم حين كسوف الشمس او خسوف القمر أن يؤدى صلاة ، من المستحسن ان تكون جماعية يدعو فيها الى الله أن يذهب عنه وعن المسلمين الاذى . كل ذلك رواسب عاشت من الماضى البعيد وأبقى عليها الاسلام فليس لها أى ضرر على المجتمع وعلى العقيدة الاسلامية .

هذا وقد انتقلت عبادة الاله سين الى سورية وعبده الفنيقيون وكذلك الاراميون وكذلك العرب البدو .

الاله شمش

كان يعتقد البابليون ان الاله « شمش ، وهو رمز للشمس ، كان ابنا للاله « سين » رمز القمر . واطلق عليه السومريون اسم « اوتو » بمعنى (الضوء والنور واليوم) . وجدير بالملاحظة ان العلامة الدالة عن هذه المعانى فى اللغة المصرية القديمة يرمز اليها بعلامة الشمس .

أطلق عليه الساميون

« شمش » والعرب شمس . ورمز لاله الشمس فى مصر الفرعونية غالبا بقرص ، وفى العراق كثيرا ما مثل الاله الشمس على هيئة قرص له اربعة خطوط تنبعث منها الاشعة ، وفى يقينى أنها تشبه الفكرة التى جاءت فى الديانة الفرعونية من أيام تحتمس الرابع وانتشرت بشكل واضح أيام اخناتون حينما انتشرت عبادة آتون ورمزها الذى كان يمثل على هيئة قرص الشمس الذى يرسل أشعته على هيئة خطوط منبعثة من هذا القرص . ومثل الاله شمش فى العراق القديم ايضا على هيئة آدمى كما هو واضح فى النصف العلوى لمسلة حمورابى ، اذ مثل بهيئة ملك جالس وبيده اليمنى الصولجان والحلقة . كذلك الحال فى بعض المناظر الخاصة بالاله « آتوم » وهو رمز للشمس فى الديانة الفرعونية فى حالة غروبها ، يصور برجل توج احيانا بقرص الشمس « اذ ان رع » = شمس الظهيرة وبداخله الجعل (خپرى) رمز الصباح . كذلك توج رمز الاله شمش بتاج له اربعة ازواج من القرون وله لحية مثل الاله « أتوم » ، وتخرج من كتفيه حزم الاشعة .

وكان الاله شمش اله العدل والحق ، فهو الذى أوحى لحمورابى بتلك الشريعة ، فهو القاضى الكبير . وكان له فى مدينة لارسا دار للعبادة . وقدسه الاشوريون .

الاله أدد

اله الأمطار والرعد والفيضان . ومن الراجح أنه كان من أصل سامى وقد قدسه الحثيون باسم « تشوب » كما عبده الاشوريون وشيدوا له معبدا فى آشور .

الالهة عشتار

الهة الحب والحرب فى وقت واحد ، ورمز لها بالزهرة . وقد انتشرت عبادتها فى جميع انحاء بلاد الرافدين ، وكذلك امتدت عبادتها فعبرت البحر الى بلاد الاغريق ، وسميت هناك « أفروديت » وانتقلت بعد ذلك الى روما فعبدها الرومان وسموها « ڤينوس »

سماها السومريون « اينانا » أو « انينى » بمعنى سيدة السماء . وأطلق عليها الاكديون والاشوريون « عشتار » ، وعرفها بعض الساميين فى سورية « عشتاروت وعشتوريت » .

هى ابنة اله القمر ، وقد اختصها الأشوريون بصفة الحرب ، ولذلك مثلت على هيئة أسد ونعتت باللبؤة .

كان الاله « تموز » هو زوج الالهة «عشتار» ، وقد مات فندبتهزوجه كان تموز يمثل الخضرة فى وقت الربيع . وجاء فى بعض الملاحم نزول عشتار الى عالم الآخرة عند بداية كل ربيع لتعيد تموز من عالم الاموات فى الصيف من كل عام . وكانت عبادة تموز دائما تقرن بعبادة عشتار .

نرجال

كان يعتبر اله الارض السفلى حيث توجد ارواح الموتى ، وزوجه « ايرشكيجال » التى كانت تعد ملكة الارض السفلى . وكان اصل نرجال من الاله الشمس . وقد ذكرت مدينته التى كان يعبد فيها وهى مدينة كوتى (تل ابراهيم حاليا) فى التوراة (٢ ملوك ١٧ ، ٤ ، ٣٠) . وقد أقام له سنحاريب وغيره من ملوك آشور دورا للعبادة فى شمال العراق . كما كشف له عن معبد فى مدينة مارى .

الاله آشور

حينما استطاع الاشوريون ان يسيطروا على بلاد الرافدين جميعها ، ساروا على العبادات القديمة التى كانت فى أوروك وبابل . ولكن لوحظ ان العقيدة قد تناولها بعد التعديل حتى تلائم الحياة الحربية التى عاشها الاشوريون . وقد لوحظ ان زخارف صممت لتسجيل امجادهم الحربية ولم يكن لها طابع دينى .

عبد الاشوريون معظم الالهة السومرية ـ البابلية ، الا ان الاله اشور كان له مكانة عظمى . وجدير بالذكر أن هذا الاله عبد منذ القرن الخامس والعشرين ، وقدس بناحية قيصرية فى كبدوكيه . وقد اتحد بانشار الذى جاء فى نظرية الخليقة البابلية وانه كان اسبق من آنو اله السماء .

اشتق اسم الاشوريين من اسم الاله آشور . وقد كان اشور الها محليا لم تتجاوز سلطته مدينة آشور . ولكن عندما عظم شان الآشوريين ارتفع شأن آشور فى جميع انحاء البلاد ، واقيمت له معابد فى آشور وغيرها من المدن الهامة بآشور . وكان يمثل الاله آشور على هيئة انسان له جناحان ، وقد وضع فى يده قوسا وسهما .

من كل ما سبق نرى أن اهل الرافدين قدسوا الكثير من الظواهر الطبيعية ، كما قدسوا الاجرام السماوية لانها كانت تسهل عليهم عملية

التوقيت . وجدير بالذكر أن المصريين القدماء قاموا أيضا برصد النجوم والكواكب ، خصوصا فى مدينة هليوبوليس (أونو) ، وذلك لتسهل عليهم معرفة مواعيد الفيضان فينظموا مواسم النبت .

وكان لشدة عناية أهل الرافدين بملاحظة النجوم والكواكب ان تقدموا فى علم الفلك . وكان القمر فى نظرهم ابو الشمس والزهرة ، وذلك على انعكس من المصريين القدماء الذين جعلوا الشمس (رع) ابنا للالهة (نوت) الهة السماء ، واعتبر القمر ممثلا له فى السماء .

نظرة عابرة فى الطقوس الدينية فى بلاد ما بين النهرين :

آمن اهل الرافدين ان الانسان قد خلق ليعبد الالهة ويقيم لها المعابد والطقوس الواجبة ويقدم لها القرابين . واذا لم ينفذ الانسان تلك المناسك عوقب فى الدنيا عقابا شديدا .

تنوعت العقائد والصلوات والاعياد الدينية والقرابين ، منها ما كان خاصا بالعرافة ، ومنها ما كان لدفع الأذى الروحى من البشر وشفاء المرضى ، ومنها ما يتعلق بالسحر . تعددت الصلوات ، منها ما كان يقوم بها الانسان بنفسه دون تدخل رجال الدين . وكانت للصلوات بعض الحركات ، منها رفع اليد أو الركوع أمام تماثيل الالهة . وفى ذلك وجه شبه كبير بين الحركات التى كان يؤديها المصريون القدماء .

كانت هناك عبادات عامة مثل الاعياد السنوية فى رأس السنة ، وقد كانت هذه تقام فى كل سنة فى المدن المختلفة . وكان يستمر العيد السنوى فى بابل حوالى اثنى عشر يوما . وكان يسير موكب الاله فى أحد شوارع بابل مارا بباب عشتار . وكان يقام ذلك العيد فى بابل فى الربيع من كل سنة . وهذا العيد كان رمزا للصراع بين قوى الطبيعة حتى انتصرت العناصر الخالقة فازدهرت الارض بالنبات فى بداية الربيع . كان يقوم الالهة بالدور الرئيسى فى هذا العيد ، اشترك الملك معهم . وقد عبد الاله تموز فى هذا العيد على اعتبار أن هذا الاله يمثل الانبات ، ثم يموت فى الصيف ، وينعيه الناس اعتقادا منهم انه انتقل الى العالم السفلى . ويظل مأسورا هناك ويظل الناس يقيمون من أجله الصلاة حتى تعود اليه روحه فيزدهر .

وقد كانت المناسك التى تؤدى فى هذه الايام الاثنى عشر منظمة ، منها التهيئة للعيد وذلك فى أوائل شهر بيسان . وكذلك يتوجه الى مدينة بابل الهة مختلفة وذلك لتحرير مردوخ (حيث كان يمثل الحياة فى

الطبيعة) . وقد مثل انتصار الالهة فى موكب الى معبــد رأس السنة (بيت اكيتو) . وكان الملك يشترك فى هذا الموكب . وتقام وليمة كبرى كمظهر لهذا النصر يدعى اليها الهة العالم العلوى والسفلى . ويعــود مردوخ بعد ذلك الى معابد بابل وذلك من أجل الدخول بعروسه . واذا ما انتهى الاحتفال فى اليوم الثانى عشر يعود الالهة كل الى معبده .

كانت تتلى اسطورة الخليقة فى هذا المعبد ، وجدير بالذكر ان المصريين القدماء حينما يقومون بالحج الى ابيدوس للمشاركة فى أعياد أوزوريس حيث كانت تقام الاحتفالات الدينية الخاصة بهذا الشهيد ، فتمثل فيها مأساته وبعثه ، كما كانت تمثل تماما اسطورة الخليقة فى بابل . وقد كان رأس السنة الجديدة يمثل لونا من الخلق الجديد . كان يقوم كبير الكهنة باعادة شارات الملكية الى الملك وتطهيره . وقد تقلد احيانا الحكام والامراء والاميرات منصب كبير الكهنة .

تعددت الكهنة فبلغت حوالى الثلاثين صنفا : منها الكاهن الاكبر ، وكان عليه ادارة شئون المعبد ويرأس جميع طبقات الكهنة . ثم هنــاك طبقات تتولى التطهير الدينى . ومنها من كان يتخصص فى الاعمال الادارية للمعبد ، ومنها من اختص بالسحر والعرافة ، ومنها المغنون والمرتلون . ثم ايضا الى جانب ذلك طبقات من الكاهنات . وقــد ارتدى الكهنة والكاهنات اردية خاصة واجريت عليهم مرتبات من ايرادات المعبد . كل ذلك وجد فى المعابد المصرية من كبار كهنة الى كهنة من الطبقة الثانيــة والثالثة والرابعة وكذلك كهنة لترتيل الاناشيد الدينية وللتطهير ، كما كان للكهنة فى مصر الفرعونية أردية خاصة تميزهم عن بقية الناس ، فمنهم من كان يضع جلد فهد .

العرافة

اعتنى الناس منذ القدم بمعرفة ما يخبئه الغيب . كان يود الانسان ان يعرف مستقبله ليتجنب الاخطار . وهو فى ذلك يحاول ان يعرف ارادة الالهة . وحتى يصل الى غرضه كان يقوم بالعرافة خبراء لديهم مجموعات من المخطوطات مدون فيها قواعد قديمة . وتتابع الاحداث الشديدة التنوع وتسجيلها بدقة ، أمكن وضع قوانين قواعد تعتمد على مشيئة الالهــة فى الظواهر السماوية . وكذلك اعتمدوا على الرؤية والاحلام وعلى بعض المخلوقات التى يظهر فيها بعض الشذوذ . وذلك مثل فحص كبد الحيوان المضحى . وقد انتشر فحص الكبد عند كثير من امم الشرق القديم مثل الحثيين . والاصل فى هذا اللون من العرافة هو وجود علاقة بين الحيوان المضحى به وروح الاله . ثم تتحد روح الذبيحة بروح الاله . وكان يعتقد

البابليون في وجود علاقة بين الكبد والروح والحياة ، وعلى ذلك يمكن فحص الحيوان المضحى به وملاحظة بعض العلامات . وقد وصل لدينا من البابليين والاشوريين والحثيين بعض الواح من الطين عليها صور الكبد واسماء أجزائه وتعليمات خاصة يجب ملاحظتها في هذه الاجزاء اذا ما أريد عمل اختبارات خاصة بالتنبؤ . كانت هذه العلامات عبارة عن فقاقيع وخطوط وتشققات .

كان زجر الطير وتموج الماء واللهيب ، كل ذلك كان له مغزى . كذلك استخدموا للعرافة صب الماء في الاناء مع الزيت ، ويلاحظ العراف ماينشأ من حلقات من الزيت ومقدار طوافها فوق الماء واتجاهاتها .

التنجيم

كان يعتمد على ملاحظة النجوم والكواكب ومراقبة الأحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، وهي تنبىء عن الأحداث التي سوف تحدث على الأرض . وجدير بالذكر انه ليس من الصواب اعتبار أن منشأ علم الفلك عند أهل الرافدين هو رغبتهم في معرفة الغيب . وأن اهتمامهم بمعرفة مواسم الزراعة وقياس الزمن ومواعيد الفيضان وغير ذلك هي التي دفعتهم الى الامتياز في علم الفلك . والتنجيم نوعان : أولهما هو رصد الاجرام السماوية ومراقبتها ومحاولة الافادة من هذه الملاحظات بما سيحل بالملك أو الدولة اما النوع الثاني فهو طالع الانسان بالنسبة للبرج منذ ولادته . ولم يعرف هذا النوع الا في الحقبة الاخيرة من تاريخ العراق القديم (٣٠٠ ق.م.) .

تشاءموا من خسوف القمر وكسوف الشمس وعدوها من فعل الشياطين نتيجة قتالها مع الآلهة . كذلك راقبوا الزهرة ، وكانت تمثل الالهة عشتار ، واستخدموها في التنجيم ، كذلك استعمل المشترى ، وكان يمثل الاله مردوخ ، في التنجيم . كما كانت هناك ظواهر طبيعية اخرى تستخدم في التنجيم وللتفاؤل والتشاؤم مثل المطر وهبوب الرياح والزوابع والصواعق .

كانت الرؤى والاحلام لها احترامها عند أهل الرافدين ، خصوصا تلك التي يراها الصالحون ، وكان بعضها يحتاج الى من يعبر عن مدلول تلك الرؤى اذا كانت غامضة ، وتفاءل البابليون ببعض أيام الشهر وتطيروا من بعضها ، وكان العدد ١٣ من الأيام التي تشاءموا منها . كذلك تطيروا أو تفاءلوا باتجاهات طيران الطيور .

وجدير بالذكر أن الاسلام اعترف برؤى الانبياء والصالحين انما نهى عن التشاؤم والتفاؤل .

السحر

عالجوا مرضاهم بالسحر ، لانهم كانوا يعتقدون أن الامراض نتيجة ارواح خبيثة . وكان يعتمد السحر قديما على قاعدتين : قانون التشابه وقانون المصاحبة أو العدوى . ففى القاعدة الاولى يقوم الساحر باحداث شيء وذلك بتقليد حدوثه فاذا اريد ايذاء أحد الاعداء تعمل دمية أو صورة ، ويعين الساحر المواد التى تصنع منها الدمية أو الصورة وتكسر أو تحرق مع تلاوة بعض التعاويذ . وبمقتضى هذه القاعدة وهى كسر أى عضو من اعضاء التميمة أو الصورة يحدث الضرر لهذا العدو الذى كانت تمثله الدمية أو الصورة . أما القاعدة الثانية هى القيام باحداث خير او شر ببعض أجزاء من الانسان مثل شعره أو أجزاء من ملابسه .

ومن الطريف أن هذا اللون من السحر لا زال قائما فى كثير من القرى وبين كثير من الناس . وقد نهى الاسلام عن ايذاء الناس بهذه الطريقة فى قول الله فى سورة الفلق « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد اذا حسد » .

تعرض قانون حمورابى لاعمال السحر وحرم ما كان فيه ضرر للانسان ، وأما ما يصلح لشفاء المرض فقد اباحه .

دور العبادة

لعبت المعابد دورا دينيا ودنيويا فى العراق القديم . فكان المعبد مركزا للقضاء ، ورجاله يقضون بين الناس ، وكان بعد المعبد مركزا اقتصاديا هاما ، فيدع الناس فيه مدخراتهم ، ويقوم المعبد باعارة الناس ما يحتاجون فكان بمثابة بنك التسليف . من أجل ذلك عثر فى المعابد الرافدية على كثير من المخلفات الدينية والدنيوية ، وعثر فى سجلاته على كثير من الوثائق المتعلقة بالمداينات والايداع ، كما كان المعبد مركزا يشع منه نور العلم والمعرفة ، فحفظ فيه سجلات الاداب والعلوم .

وجدير بالذكر أن دور العبادة فى مصر الفرعونية كانت ايضا مركزا لحفظ الوثائق ومنارا يشع منه العلم ويتلقى فيه الناس بعض العلوم والحق بالمعبد مكتبة .

ظهرت المعابد من عصر ماقبل الاسرات ، من أيام دور حلف ، وازدادت أيام العبيد فظهرت فى الشمال والجنوب ، فى تبه كورا ، التى تقع الى الشرق من الموصل ، وظهرت معابد جنوبا فى اريدو وظهرت أول زقورة فى الوركاء . وقد قسم المعبد العراقى قديما الى قسمين . العلوى ويمثل فى الزقورة ، والارضى الذى كان يقام بالقرب من الزقورة وعلى أرض مستوية . واختير المكان المرتفع للقسم الاول وهو الزقورة تكريما للاله وكناية عن السمو . وسبق أن ذكرنا ان الزقورة كانت مكونة من مدرجات اقلها ثلاثة واكثرها سبعة مدرجات ويقام فوق الطبقة العليا مزار، وقد كان للزقورة ثلاثة سلالم ، واحيطت الزقورة بحجرات وسور . أما المعبد الارضى فقد كان يضم تماثيل للالهة ، وكان به هيكل ومحراب يوضع فيه تمثال الاله ، وبالمعبد ساحات خارجية وحجرات ومرافق تحيط بالساحة .

وقد خلع أهل الرافدين أسماء على دور العبادة بنوعيها ، أى الزقورة والمعبد الارضى ، وحفلت المدن فى العراق القديم بالمعابد ، فلم تخل أى مدينة من معبد .

بعض الاساطير المتعلقة بالالهة

ظهر مكتوبا فى أواخر الالف الثالثة وأوائل الالف الثانى أدب أسطورى غنى متنوع ، منها اساطير تبحث فى أصل الكائنات ، من آلهة أو نباتات أو بشر ، ومنها أساطير تبحث فى تنظيم الدنيا وتوزيع سلطات الالهة ، أو تنظيم الزراعة أو ظهور بعض غرائب البشر ، وكان الجواب دائما هو وجود قرار الهى بذلك . ومنها أساطير تعطى كل فرد من أفراد الاسطورة الحق فى شغل منصبه فى العالم الدنيوى . فنجد مثلا موازنة بين الفلاح والراعى ، أو بمعنى آخر بين القمح والصوف .

والى القارىء نموذج من الاساطير التى تبحث فى أصل بعض النباتات، وهى اسطورة تلمون التى تحدثت عن انكى ونهورساجا وذلك حينما حدثت قسمة الدنيا بين الالهة . واقترحت ننهورساجا على انكى أن يقوم بتزويد الارض بالماء العذب ، ثم يرغب انكى فى الزواج منها ، ونراها تمتنع فى أول الامر ، ، ثم توافق بعد ذلك ويولد نتيجة لزواج انكى الماء من ننهورساجا ولادة ننسار ، وفى ذلك تشبيه بانحسار مياه الفيضان السنوى فى الرافدين قبل أن تخضر الارض وتأخذ زخرفها ، ولا تأتى الخضرة الا فى أواخر الربيع ، كما تخرج ننسار الى الوجود حيث يقيم انكى حول ضفاف النهر . وعند ما يرى انكى الهة النبات هذه ، لا يتذكر أنها ابنته ، فيختلى بها ويخالطها ، على أن اقامته معها لم تكن طويلة . وكان من نتيجة

مخالطته اياها ، ميلاد الهة آخرى تمثل الياف الكتان القوية ، اذن فهى ابنة اله الماء والهة النبات . وتعيد القصة نفسها ، فتولد الهة الاصباغ التى كانت ضرورية لتلوين النسيج ، ثم تولد منها الهة النسيج أوتو ، كل ذلك من انكى عند ذلك تتنبه الالهة ننهورساجا الهة التربة مدى تقلب انكى ، وتحذر اوتو منه . ولكن يتزوج انكى ايضا أوتو بعد أن يقبل اشتراطاتها فى أن يقدم لها هدية من خيار وتفاح وعنب ــ وأكبر الظن أن هذه هى هدية الزواج المألوفة ــ ويضاجعها انكى . ولكن يتوقف النص بعد ذلك من جراء حدوث تشويه به . ثم تظهر ثمانية نباتات فيلتهمها انكى قبل أن تراها ننهورساجا ، فتغضب من أمره وتلعنه ، وتضطرب الالهة من جراء هذه اللعنة ، فتفيض المياه العذبة من الآبار والانهار فى فصل الصيف . ولكن يتدخل الثعلب فتحضر ننهورساجا التى تقوم على شفاء انكى من جراء التهامه الثمانية نباتات السابقة ، فتلد ثمانية الهة تخصص لكل منها مكانة فى الحياة .

تبين هذه القصة التفاعل بين قوتين هما الارض والماء على اعتبار انهما مصدرين من مصادر الحياة الهامة ، اذ انهما مصدر النباتات والنسيج والثياب .

أما الاساطير الخاصة بتنظيم الدنيا ، فمنها اسطورة تبحث فى كيفية تعيين انكى فى منصبه بواسطة آنو وانليل . اذ يزور انكى الاقاليم فى رحلة تفتيشية حيث يحط رحاله فى كل قطر فيباركه وينظم توزيع الماء فيه ، فنجده يملأ دجلة والفرات بالماء العذب ، ويعين من قبله الها للاشراف عليهما . كذلك يملؤها بالسمك ، ويعين ايضا الها للاشراف عليهما . كذلك يقوم بتنظيم البحر ويخصص له الها للاشراف عليه . ثم يتجه انكى بعد ذلك الى الرياح المحملة بالامطار ، ويشرف على شؤون الزراعة ، ثم ينصرف بعد ذلك الى المدن والقرى لينظم شؤونها الخاصة بالاسكان ، فيعين البناء الاكبر ، وهو الاله « مشداما » ، وقد كان يقوم بالاشراف على البناء والتعمير . ثم ينظم حياة البرارى ، ويعين لها الها ، هو الاله « سوموكان » وكذلك يأمر باقامة حظائر .

يتبين من ذلك أن انكى هو صاحب تنظيم اقتصاديات بلاد الرافدين فى العصور القديمة .

أما الاساطير الخاصة بتقييم الاعمال فقد كانت على هيئة تراتيل أو نقاش بين عنصرين يحتكمان فى النهاية الى أحد الالهة . فمنها مثلا قصص تروى احداها أصل الاغنام والحبوب منذ النشأة الاولى ، حينما كانت

هذه خاصة بالالهة فقط ، وفيها يظهر جدل بين هذين العنصرين ، وأيهما أحق بالاسبقية على الآخر . ومنها قصة الفلاح الالهى أنكميدو والراعى الالهى دموزى وذلك حينما قدم الاثنان طلبا للزواج من الالهة انانا ، ومثلت فى القصة على أنها شابة عذراء وليست زوجة آنو اله السماء . ويفضل اخاها الذى كان وصيا عليها ، وهو الاله الشمس أوتو ، الزواج من الراعى لكنها كانت ترغب فى الزواج من الفلاح ، فترد على أخيها قائلة « لن أقبل بالراعى زوجا لى ، فهذا ثوبه الخشن يكسونى .. لن آخذ ، أنا العذراء الا الفلاح زوجا لى » . عند ذلك يغضب الراعى ، ويبدأ فى التعريف بنفسه قائلا « ما الذى يفوقنى به الفلاح ، أنكميدو ، صاحب السد والساقية ؟» ويقارن بين نتاجه ونتاج المزارع ، فيضع الحليب امام الخمر ، والجبن امام الخضار ... ويظهر من ذلك تنافسه بالعطاء والكرم ، وهى صفة أهل الشرق . ثم يسوق قطيعه فى وسط المزارع ، ويرى الفلاح وانانا . وتصيح هذه الاخيرة فى وجهه لكنها لا تضمر للراعى اى سوء ، على أنها تفضل الفلاح قائلة « أنت الراعى لا تستطيع ـ لكى تصبح زوجى ـ أن تتحول الى فلاح ، وهو الرجل الذى اريد صديقا ، لا تستطيع أن تتحول الى صديقى انكيمدو الفلاح ، ومع هذا فلسوف أجلب لك القمح ، وأجلب لك الخضار .... »

ومن ذلك نرى انه بالرغم من مفاضلة انانا الزواج من الفلاح على الراعى ، وأن هذا التفضيل كان وجهة نظر شخصية فقط فيجب أن يعمل الاثنان جنبا الى جنب .

تلك نظرة عابرة فى ديانة أهل الرافدين فى العصور القديمة ، ومنهـا يتبين تأثرهم بالظواهر الطبيعية وربطهم حياتهم الدينية بها ، وتقديسهم السماء والارض والماء والهواء ، وهى عناصر الخليقة التى تقوم عليها . ومع وجود تشابه كبير بين الديانة الرافدية والفرعونية فى بعض أشكالها الخارجية الا انها تختلف عنها من حيث نظرة أهل الرافدين الى حيـاة الآخرة ، فلم يكن يؤمن بوجود الجزاء والعقاب والبعث من الموت كما آمن المصريون القدماء ، ولكن كان يعتقد أن الانسان يكافأ على خير فعله فى تلك الحياة وتعاقبه الالهة فى الدنيا اذا ما اقترف اثما أو فعل سيئة . كما اختلفت دور العبادة المصرية القديمة وقبور الفراعنة عن المنشآت الدينية والجنازية الخاصة بأهل الرافدين .

لم تكن نظرة البابليين للكون كنظرتنا نحن من حيث وجود شطرين هما الحى والجماد ، بل نظروا لكل حجر وشجر وكل ما يخطر على البال على انه يتمتع بارادة ذاتية وله شخصيته . فالكون لدى البابليون قد

نسق على هيئة مجتمع أو دولة يتمتع أفرادها بديمقراطية . لقد عرفت الديمقراطية البدائية فى الوقت الذى ولدت فيه الحضارة الرافدية . فقد ساهم جزء كبير من المواطنين فى الحكم فى دويلات المدن فيما عدا العبيد والاطفال والنساء ولم يتدخل الانسان فى شئون الدولة الـــكونية اذ ان مركزه كان يشابه العبيد فى دويلات المدن . فأصحاب النفوذ السياسى فى الكون ، هم أولئك الذين كانوا فى مصاف الالهة وأهمهم ، السماء ، والعاصفة والارض والماء . وكان كل اله من هذه الالهة يمثل ارادة ، فانليل كان قادرا على اثارة الغضب بعواصفه ، أو يدمر مدينة فى هجوم مثل الذى قام به انعيلاميون ، والغضب والتدمير هما جوهر هذا الاله . وقد كان آنو يقوم بتنسيق ارادات القوى المختلفة التى تتعاون فيما بينها على تنظيم الكون . وكان يقوم انو بجمع المواطنين ليتشاوروا فى القضايا التى تعرض عليهم ، حتى يصلوا الى رأى قاطع توافق عليه الاغلبية . وكان على انليل أن ينفذ ما اتفقت عليه الاغلبية .

* * *

الشكل الاقتصادى فى بلاد الرافدين

اعتمدت اقتصاديات بلاد الرافدين على اسس ثلاثة : الزراعة والتجارة والصناعة .

الزراعة

سمى المؤرخون العرب بلاد العراق ارض السواد وذلك لكثرة الزراعة بها ، ويمكننا أن نقسم العراق زراعيا الى قسمين : (سومر واكد) ، ويمتد القسم الاول من شمالى بغداد الى قرب الناصرية جنوبا . وينتفع هذا القسم بمياه دجلة والفرات . والقسم الثانى هو بلاد آشور فى شمالى العراق ، وكثير من اراضى هذا القسم صالحة للزراعة ، وبعض اراضيه جبلى ويروى هذا القسم بواسطة الامطار . ولكن جزء من هذا القسم يعتمد على الارواء النهرى وهو الذى يقع بين الزابين وبين دجلة .

وكانت تعتمد الزراعة القديمة على انتظام الدولة والحكم فيها وحسن الارواء والاهتمام بالانهار واقامة السدود وكذلك الجهود التى يبذلها الناس ونوع الارض .

اما عن الوثائق الخاصة بتأريخ الزراعة فى العراق القديم ، فقد ورد الكثير منها فى الشرائع العراقية القديمة . فهذا حمورابى قد خصص الكثير من المواد من شريعته لتنظيم الزراعة والرى وحقوق الفلاحين ونصيبهم فى المحصولات التى كانت تقسم بينهم وبين ملاك الاراضى ، كما ورد الكثير من الاساطير خاصا بالزراعة وكذلك ذكرت القصص الادبية طرفا من الاشياء الخاصة بالزراعة . وقد اهتم الكثير من الملوك بالزراعة ، فهذا نبوخذنصر هو الذى أقام الحدائق المعلقة فى بابل ، كما كان يلقب « فلاح بابل » .

كانت الآلة التى تستخدم فى الزراعة هى المحراث ، وقد عثر على نماذج لهذا المحراث فى عصور ما قبل التاريخ ، وكانت عبارة عن قطعة من الحجر مثبتة فى مقبض من الخشب . كذلك استخدمت المناجل ، وهى لا تختلف كثيرا عن المناجل الحديثة ، وبعضها قد صنعت أسنانه من حجر الصوان

ولها مقبض من الخشب ، وبعضها من الفخار ، وبعضها مصنوع من النحاس والبرونز . كذلك من الادوات التى استخدمت الفؤوس ، وقد كشف عن بعض مناظر تختص بالشؤون الزراعية كحلب الابقار وصناعة الالبان (خض اللبن) .

أما الحيوانات الزراعية الهامة فى العراق : البقر ، والغنم ، والحمير ، والخيل ، ثم الحيوانات الداجنة .

ثم تدرجت صناعة المحراث الى أن أصبح كالمحراث الحديث مزودا بانبوبة على هيئة قمع وذلك لبذر البذور .

وقد اشتهر الملوك البابليون بزراعة البساتين العامة والتى اشتهرت فى مدينة بابل مثل الملك سنحاريب واهتمامه بزراعة الجناين فى نينوى وبابل .

لقد كان النخيل هو أقدم شجر فى تاريخ العراق . وقاموا بزراعة بعض أشجار أخرى غير أشجار النخيل ، منها الكرم والتين والرمان والتفاح والكمثرى والفستق وغيرها . أما الاشجار التى دخلت الى العراق هى الزيتون وشجرة القطن التى يرجح أنها وردت من الهند ، وقد جاء فى الخبر أن سنحاريب هو الذى جلب هذه الشجرة وقيل أنها « هى شجرة تحمل الصوف قد جناها الناس ومشطوا صوفها لصنع الملابس » .

أما عن النخيل فقد جاء ذكره فى عهد العبيد أى فى حوالى ٤٠٠٠ق.م. وقد تأثر الاقتصاد العراقى القديم بنتاج هذه الشجرة ، ولا زالت هذه الشجرة تلعب دورا كبيرا فى اقتصاديات العراق وتذخر المنطقة الجنوبية من العراق بهذه الشجرة . وجدير بالذكر أن العراق ينتج حوالى ٨٠ ٪ من تمر العالم وبالعراق حاليا أكثر من ٢٣ مليون نخلة ، ويبلغ عمر بعضها من قرنين الى ثلاثة قرون .

ومما يدل على اهمية شجرة النخل فى اقتصاديات العراق أن حمورابى قد خصص بعض القوانين فى شريعته لشؤون النخيل .

قام العراقيون بتنظيم الارواء وضبطوا الرى وذلك باقامة السدود وشق الترع وتجفيف الاخوار وذلك بالوسائل البدائية التى كانت فى متناولهم . لقد استغل العراقيون القدامى ارتفاع الفرات عن دجلة وذلك بأن شقوا جداول من الفرات الى دجلة . وكثيرا ماقام الملوك بشق الجداول لتعميم الرى . وقد خصصت شريعة حمورابى الكثير من القوانين لتنظيم الارواء .

التجـــارة

اشتهرت بابل قديما بالتجارة ، وجاء ذكر ذلك كثيرا عنـــد الكتاب اليونان والرومان . وقد اقتبس الكثير من الشعوب القديمة مصطلحات البيع والشراء من العراق القديم مثـــل الاراميين والعبرانيين . وكانت الفتوح الخارجية من الاسباب القوية التى دعت الى الاهتمام بالتجـــارة الخارجية وذلك لاحضار المواد الخام وتصدير الناتج الزراعى والصناعى . ولقد خصصت شريعة حمورابى حوالى ١٢٠ مادة للشئون التجارية من مواد شريعة حمورابى التى بلغت ٢٨٢ مادة . وقد عنيت الشرائع بتحديد الاسعار والاجور . ومن الطريف أنها حددت أجور الاطباء والجراحين والبياطرة . وقد خصصت شريعة حمورابى ٢٦ مادة لشركات نقـــل البضائع وايداع الاموال . وكان هناك نوع من التجارة كان يسمى بالمتاجرة أى أن يقوم شخص بالاتجار فى أموال شخص آخر .

كما اورد حمورابى فى شريعته نصيب المرأة فى التجارة وأنها كانت تتمتع بحرية الاتجار كالرجل تماما .

وقد عثر على كثير من العقود والوثائق الخاصة بالاتجار ، وجميعها تلقى ضوءا كافيا على نشاط العراقيين الاقدمين . ومما يؤيد الاهتمـــام بالتجارة ضبط الموازين والمكاييل وقد عثر على الكثير من الاوزان الرسمية على هيئة طيور وأسود .

ما هى واسطة التعامل عند العراقيين الاقدمين ؟ وهل هناك اشارات تدل على انهم استخدموا النقود ؟ لم يعرفوا النقود بمعناها الذى نعرفه الآن ، غير أنهم استخدموا المعدن ، وقبل معرفتهم للمعدن كانوا يتعاملون بالحبوب والحيوانات . أما المعادن التى استخدمت فهى النحاس والفضة والذهب ، على هيئة صفائح أو حلقات أو أقراص . وقيل أنهم أحيـــانا طمغوا هذه القطع المعدنية . وأعتقد أن هذه الفكرة تشبه فكرة النقود . وقد أخذ الليديون حوالى عام ٧٠٠ ق.م. فى آسية الصغرى بهذه الفكرة وحسنوها ورمزوا لها باسم ملك من الملوك . ومن ذلك نستطيع ان نؤرخ معرفة البشرية بالنقود منذ عام ٧٠٠ق.م. وقد بدأ الاثينيون فى اليونان فى تحسين صك النقود ، وبذلك ازدهرت الحياة الأقتصادية فى القرن الخامس ق.م . ومن ذلك نرى احتمال أن تكون فكرة النقود قد انتقلت من العراق الى اليونان ، فقد استعمل اليونان الأوزان البابلية ، منها «المنا» ١/٢ كيلو جرام ، وقد قسم الى ١٠٠ قسم واستخدم كوزن وعملة ، وسمى « دراخما » . وغالبا ما تكون مشتقة من الكلمة العربية «درهم» .

اهتم العراقيون الاقدمون بطرق المواصلات وذلك لترويج التجارة ، واهتموا بتأمين هذه الطرق ، وغالبا ما كانت أسباب الحروب تأمين طرق المواصلات التجارية . فهذا سرجون الاكدى يجرد حملة الى الاناضول لحماية احد المواطنين الاكديين المقيمين فى كبدوكية بالاناضول كان يقوم بتجارة الصوف والفضة كما سيأتى تفصيل ذلك عند حديثنا عن الاناضول. ولذلك أقاموا كثيرا من القلاع والحصون بجوار تلك الطرق . كما نظموا البريد . ولقد سبق ان أشرنا الى الكشف عن العربة فى عصور ما قبل التاريخ أى من منتصف الالف الرابعة ق.م. كما عثر على نموذج لقارب فى اريدو (أبو شهرين حاليا) يرجع تاريخه الى عهد العبيد أى حوالى ٤٠٠٠ ق.م. وقد اهتم حمورابى فى شريعته بشئون الملاحة واجور السفن.

استورد العراقيون الاقدمون النحاس من جزيرة العرب كما سبق ان بينا (من مجان وملوخا) واستوردوا بعض الاحجار للبناء ولصنع التماثيل من الشمال الشرقى لدجلة . وجلبوا القصدير من ايران وسورية وآسيا الصغرى لخلطه بالنحاس لانتاج البرونز . وأما الفضة والرصاص فاستوردوها من جبال طوروس . والاخشاب من سورية ولبنان ، وبعض الاحجار الكريمة من الافغان .

وعثر بالقرب من قيصرية الى الجنوب الشرقى من انقرة بتركيا على الواح من الطين كتبت بالخط المسمارى وختوم اسطوانية وهى عبارة عن رسائل متبادلة بين مدينة آشور وبين بعض التجار فى آسيا الصغرى . وقد بان لنا من هذه الوثائق تنظيم القوافل التجارية وتمويلها وتنظيم تسلم البضائع وطرق السفر . يذكرنا هذا المركز التجارى فى الاناضول عن وجود صلات تجارية بين العراق القديم وبين هذه المنطقة منذ ايام سرجون الاكدى .

أما عن الصناعات التى تعتبر من العناصر الاساسية فى بناء الحضارات فلم يشتهر العراق القديم بصناعة من الصناعات . أما صناعة الخزف والتماثيل والنقوش فسنشير اليها فى البحث الخاص بالفنون .

الشكل الاجتماعى فى بلاد الرافدين

دولة المدينة

كانت تتالف من المدينة وما يحيطها من اراض ، وكانت أحيانا تضم أكثر من مدينة . وقد حاول بعض الحكام توحيد بعض المدن وانشاء دولة قوية لم تكن لتدوم طويلا . وكانت تدار المدينة من معبد اله المدينة الذى كان يشرف على أملاك المدينة . وكان يوجد الى جانب ذلك المعبد ، معابد أخرى لزوجة الاله وأولادهما ، ولكل مخصصات . من كل ذلك نرى أن اراضى الدولة فى منتصف الألف الثالثة ق.م. كانت خاضعة لاشراف دور العبادة . ومن ذلك نرى أن السكان جميعا كانوا يعملون عند الالهة . من أجل ذلك كان يؤمن أهل الرافدين أن الانسان خلق ليريح الآلهة .

لقد كثرت المعابد ، فقد وجد فى لجش فى أوائل الألف الثالثة نحو خمسين معبدا كان أخصها معبد « نن — جرسو » وحاشيته التى يمكن تقسيمها الى فئتين ، فئة تعمل فى المعبد والأخرى تعمل فى الحقول . وكان يضم الفئة الأولى أحد أبناء « نن — جرسو » الذى كان يعمل حاجبا لقدس الاقداس ، وآخر يشرف على تقديم الطعام والشراب وشئون الرعاة . ثم نجد آخرين يقومون بالعناية بالعتاد الحربى الالهى ، الى غير ذلك من المشرفين .

كان المعبد يشبه القصر الملكى ، فهو عالم مستقل . وقد كانت تؤدى فى المعبد بعض حرف يقوم الكهنة بتدريب الاولاد عليها . ولقد كثرت تلك المهن ومثلت فيها كل الطبقات ابتداء من العبد حتى أبناء الملوك ، والجميع كان تحت اشراف الكاهن الأكبر .

كان للمعبد أملاك يؤجرها الى الغير وأخرى يقوم باستئجارها بنفسه وذلك بما عنده من أدوات وحيوانات وعمال ، كما كان يقوم بتسخير الناس . كما كان للمعبد مصانعه ، يقوم العمال فيها بصناعة ما يلزم الطقوس الدينية . وللمعبد أيضا مخازنه . وبذلك كان المعبد يهيمن على قسط كبير من الحياة الاقتصادية وكان للكهنة نفوذهم الدينى والدنيوى .

من كل ذلك نستطيع أن نستنتج ان الكهنة كانوا يتولون ادارةالمجتمع الخاص بالمعبد وذلك نيابة عن الاله . انما لم يستطع الكهنة تنظيم الحروب التى كانت تدور بين هذه الدويلات وبين احدى الدويلات والبدو . وعلى ذلك كان يخرج من بين افراد ذلك المجتمع أحد الأبطال هو الذى يتمكن من التغلب على الأعداء . وفى اسم الملك بالسومرية « لوكال » ومعنـاه « الرجل العظيم » وايضا « المدير » ما يدل على حقيقة عمله . وقد تحدث العهد القديم عن انتقال الحكومة من الكهنة الى نظام الملوكية (صموئيل الكتاب الاول الاصحاح ٨ والعاشر وما بعده) . ومن الجائز حدوث نزاع بين طبقة الكهنة وطبقة الملوك .

كانت أراضى المعبد ، بعضها مشاع ، ويقوم بحراثتها أفراد المجموعة بالمعبد ، وبعضها مقسم بين أفراد المجموعة وذلك ليقوموا هم بانفسهم بالتصرف فيها لمصلحتهم . وقسم ثالث كان يطلق عليه الأرض المأجورة ، وكانت تؤجر للناس الذين كانوا يقومون بسداد الايجار الذى يتراوح بين سدس المحصول وثلثه .

كانت ادارة المعبد تقوم بتقديم حبوب البذار والحيوانات وجميع الوسائل الخاصة بالزراعة وذلك للأرض المشتركة . ويكلف جميع الأهالى بالعمل فى هذه الأرض يستوى فى ذلك أصحاب المراكز الكبرى والصغرى . كان المعبد يؤمن قوت أفراد المجتمع ، وكان يقوم بتوزيع بعض نتاج اعمالهم المشتركة على هيئة مكافآت خصوصا أيام الأعياد .

وقد لوحظ أن أفراد المجتمع فى ظل هذا النظام الذى لم يكن له مثيل فى العالم القديم كانوا متساويين . كان كل فرد له حصة من الأرض لتأمين حياته ، وقد عمل الجميع فى شق الترع وبناء السدود ، ولم نلاحظ وجود عاطلين .

لم تصلنا وثائق تفيد بوجود ملكيات كبيرة للأفراد من جماعة المعبد ولو أنه جاء فى بعض الاخبار أن معاونا من معاونى الاراضى قد امتلك حوالى ١٢٠ فدانا ، وهذا مراقب بعض المخازن كان يملك نحو ٨٠ فدانا ، على أن هذه الحالات كانت شاذة .

لقد تعددت المحاصيل والحاجيات المودعة فى مخازن المعبد من الأسر الأولى السومرية ، كان فيها بذور السمسم الذى كان يستخرج منه الزيت ، والبصل ، والخضروات المختلفة ، والجعة ، والبلح ، والسمك (المجفف والمملح) ، والدهن ، والصوف ، والجلود ، وكميات كبيرة من

الغاب الذى كان يستعمل فى السقوف وغيرها من الأغراض ، والحصر ، والخشب ، والاسفلت ، (وكان يستخدم لمنع تسرب الميـــاه) ، وأنواع الحجارة الثمينة كالرخام والديوريت ، وذلك للاغراض الدينية من صناعة تماثيل الى موائد قرابين وأوان وغير ذلك . كما كان يقوم المعبد بتأجير كثير من أدواته الى الفلاحين أو اعارتها .

وكان يقوم الكهنة فى المعبد بتسجيل كل ذلك فى كشوف . وكان يقوم الصناع بمختلف الحرف من نجارين الى دباغين ، واستخدمت البنات فى غزل الصوف . وكان جز الاغنام يتم فى مكان خاص خارج المعبد ، وتطحن الحنطة فى مكان مجاور للمعبد .

لوحظ أن السمك هو الطعام الزلالى ولم يكن اللحم . وكانوا يقتنون الأغنام والماعز للحليب والصوف ، واستخدمت الثيران للحـــراثة هى والحمير ، واستخدمت على شكل رباعى . كما ربيت الخنازير . وكان يمتلك المعبد مروجا من أشجار النخيل والكروم والتين والرمان والتوت .

من كل ما تقدم يلاحظ أن هذا النظام قد افسح المجال لتكديس ثروة البلاد فى المعبد ، وفى كثير من الحالات يدفع جزء من ايجار الارض فضة ، كما أن تنوع المواد المنتجة والمستوردة كان يعطى مجالا كبيرا للمقايضة . فقد كانت هناك تجارة للاستيراد والتصدير . فكانوا يصدرون الاقمشـة الصوفية والستائر والسجاد . كان يقوم التجار باستبدال البضــــائع المصنوعة محليا بما ينتج فى مدن اخرى ، واحيانا فى السهل نفسه او فى بلاد أخرى كعيلام . وكان هؤلاء التجار يعملون لحساب المعبد فى نظـــير منحهم قطعة ارض يستغلونها لحسابهم . والى جانب ذلك كانت هنـــاك تجارة خاصة .

وبالرغم من كل ما تمتع به الكهنة فى المعبد من امتلاك هذه الاراضى والتصرف فيها وفى محاصيلها فلم يقوموا بالاشراف السياسى على المجتمع وفى الغالب كانت السلطة السياسية فى أيدى المواطنين . لقد كانت السيادة تنحصر فى مجلس مكون من جميع الذكور الاحرار ويقيم بارشاده جماعة من الشيوخ ، وقد جاء ذلك فى ألواح الفترة الشبيهة بالكتابية . وهكذا كانت المدينة فى بلاد ما بين النهرين تشبه مدن اليونان ومدن ايطاليا فى عصر النهضة وذلك فى نواح كثيرة . ونلاحظ فى كل مدينة استقلالا محليا كما نلاحظ أن كل فرد مسئول عن المصلحة العامة للمدينة ، والى جانب ذلك كانت تؤلف فى كل مدينة جماعة من شيوخها يشرفون على المسائل العامة . وليس لدينا من هذه الفترة الشبيهة بالكتابية وثائق مفصّلة عن

هذا النظام فى بلاد ما بين النهرين . وسوف يتغير هذا النظام عندما تتكون الاسر الاولى وسوف يحل حكم الفرد محل حكم المجالس .

النظام الملكى الموحد

استطاع سرجون الاكدى أن يقضى على نظام دويلات المدن وينتقل ببلاد الرافدين الى نظام ملكى موحد يضم بلاد النهرين جميعا تقريبا فى قبضة يد رجل واحد ، وقد سلك طريق سرجون هذا أسرة أور الثالثة وأسرة بابل الاولى والدولة البابلية المتأخرة ، وقد عمل هؤلاء الملوك على توسيع رقعة بلادهم بالفتوح الخارجية وذلك لحاجتهم الشديدة لمواد أولية غير متوفرة فى بلادهم كالمعادن والاخشاب والاحجار وغيرها . ولقد اقتضى نجاح التجارة الخارجية التى كانت تتطلبها حياتهم ضرورة توحيد بلادهم ، لان نظام دويلات المدن وما كان يقوم بينها من حروب يقف حجر عثرة فى سبيل تقدم مصالحهم . ومن أجل ذلك قام لوكال زاجيرى بالعمل على توحيد البلاد منذ الحلقة الاخيرة فى عصر فجر الاسرات ، وحقق ذلك كله سرجون الاكدى بصورة واضحة .

أما عن شكل الحكومة فى بلاد الرافدين ، فكان هو الشكل الملكى الاوتوقراطى ، اى أن السلطة كانت متمركزة فى يد الملك . وقد ساد هذا الشكل منذ فجر الاسرات الى نهاية حياة الدولة البابلية . كان الملك هو صاحب السلطان المطلق . الا انه سبق ان رأينا انه قد قامت فى العراق شبه ديمقراطية خصوصا فى الفترة الشبيهة بالكتابية ، أى فى النصف الثانى من عصر الوركاء وعصر جمدةنصر . وقدترك هذا النظامالديمقراطى قصصا طريفة ، ففى بعض الوثائق ما يفيد من انه لما ساءت العلاقات بين كيش وأوروك (آجاوجلجامش) ، وقبل أن يعلن آجا الحرب على جلجامش ، أرسل آجا الى عدوه وفدا ينذره بالخضوع لسلطان كيش ، وقبل أن يتخذ جلجامش قرارا فى ذلك ، جمع مجلس الشورى الذى كان يتكون من أعيان المملكة وكان يجتمع فى مثل هذ الاحوال ، وعرض عليهم انذار اجا ملك كيش ، ولمح برفض مطالب اجا ، ولكن غالبا أن المجلس لم يوافق على راى جلجامش . عند ذلك جمع جلجامش المجلس الثانى الذى كان يتكون من جميع القادرين على حمل السلاح (أى جمع المؤتمر العام او ما يشبه الجمعية العامة) ، وقد رات الجمعية العامة رفض انذار كيش وتخويل جلجامش اعلان الحرب اذا وجد فى ذلك مصلحة للبلاد . وقد أعلنت الحرب وانتهت كما سبق أن بينا امر ذلك .

والذى يهمنا من ذلك وغيره من الوثائق التى تشير الى النظام

الديمقراطى فى بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ ، هو أن شـئون الدولة كانت قسمة بين الملك وبين مجلسين من مجالس الشورى . وبالرغم من عدم وفرة الوثائق عن تفاصيل هذين المجلسين ، الا اننا لا نستطيع ان نرى فى بعض الاشارات ما يفيد هيمنتها على شؤون الحرب والسلام والضرائب ، بل أن هناك بعض الاشارات التى تدل على أنه كان لهما الحق فى انتخاب الملك . ونرى مثل ذلك النظام عند الرومان (مجلس السنات) ، وهو يشبه مجلس الشيوخ ، ومجلس « التريبيون » وهو يشبه مجلس العوام أو الجمعية العامة لجميع القادرين .

ومما يدل على مبلغ معرفة أهل بلاد الرافدين لنظام الحكم الديمقراطى انهم تصوروا الالهة كالبشر يجتمعون فى مجلس شورى فى السماء وذلك للفصل فى شؤون الناس ولقد اشتركت الالهة فى هذه المجالس ، مما يشير الى احتمال اشتراك المراة فى مجالس الرجال .

الا أن النظام الديمقراطى الذى ظهر فى فجر التاريخ فى بلاد الرافدين لم يتطور كما تطور فى بلاد اليونان الى ديمقراطية كتلك الديمقراطية الاثينية . ولا نعرف لذلك من سبب الا أن يكون هذا النظام لم يكن متفقا مع أحوال البلاد ، اذ أنه كان يحول دون التوسع السياسى من مدينة الى دولة كبيرة . كما أن الديمقراطية على الصورة التى رأيناها فى العراق فى فجر تاريخه لا تصلح اذا ما مر بالبلاد أزمة من الازمات خصوصا الحروب الخاطفة التى تتعارض مع البطء فى أخذ قرارات من هذه المجالس . لذلك انتقل الحكم من النظام الديمقراطى البدائى الى نظام ملكى أوتوقراطى . على أن مجالس الشورى السابقة ظلت لها اختصاصات أخرى وهى الاشراف القضائى والنظر فى التشريعات . وظل فى بلاد الرافدين مجلسان عامان فى كل مدينة ينظران فى الدعاوى المهمة مثل توقيع عقوبة الاعدام وتنفيذها (مجلس القضاء الاعلى) ، هذا الى جانب وجود محاكم مختلفة مؤلفة من قضاة مدنيين وكهنة . ومما يدل على وجود هذا المجلس أنه جاء ذكره فى مناسبات كثيرة ، فمثلا جاء ذكره فى قانون حمورابى ،ورسائله الذى كان يحيل فيها بعض القضايا الهامة الى مجلس المدينة .

كيف كان يتم تعيين الملك ؟

كان مظهر الملكية العراقية ثيوقراطيا اى دينيا ، فقد جاء فى الآداب الدينية أن شارات الملك كانت فى السماء عند الاله آنو ، وان الالهة فى السماء قد انابت عنها فى حكم البشر الملوك والحكام . وان نظام الملوكية

فقط هو الذى هبط من السماء ، ولما نزلت وظيفة الملوكية وشاراتها من السماء الى الارض قام الاله انليل والالهة عشتار بالبحث عن راع يرعى مصالح الناس . لقد كان الالهة يقومون بانتخاب حكام الارض . وكثيرا ما كان يتذكر الملوك الانتخاب الذى وقع عليهم من قبل الالهة . وحتى فى فترة اوج الامبراطورية الاشورية ، كان الملك يباشر ، وهو على قيد الحياة انتخاب احد اولاده ، وتقر الالهة هذا الانتخاب . وبعد المصادقة على الانتخاب يدرب الولد على مهام منصبه الجديد . وحينما يرتقى العرش تجرى احتفالات دينية يمنح اثناءها اسمه الملكى وشعارات الملك . وقد كانت تقام هذه الاحتفالات فى آشور ، وهى المدينة المقدسة للامبراطورية ، وليس فى نينوى او فى مدينة اخرى حيث كان يقام القصر الملكى .

من اجل ذلك نستطيع الآن أن نعلل فهم الاسطورة التى تجعل من سرجون الاكدى ابنا لاحدى الكاهنات ، وانه ربى عند بستانى . كما توجد أسطورة اخرى تؤكد ان آشورناصربال الثانى ملك آشور فى القرن التاسع قد كان من أصل جبلى بسيط ، مع انه كان ابنا لملك ، اذ يقول « انت باعشبتار ياسيدة الالهة الرهيبة ، قد القيت نظرك على ، واردت أن أصبح ملكا ، واتيت بى من بين الجبال ... وعهدت الى بصولجان العدالة » . وقد بقيت فكرة انتخاب الملك بواسطة الالهة حتى العهد الفارسى ، فهذا كورش يبرر حكمه بابل بانتخاب الاله مردوخ له . وقد لمسنا فى تاريخ سومر أن الخلافات التى كانت تحدث بين المدن ، كان يقوم بالفصل فيها الالهة ، ففى نص لانتيمينا نجد الاله انليل يقوم بفض النزاع بين الاله « نن — جرسو » اله لجش وبين الهه اوما « شارة » . وجدير بالذكر أن ملوك العراق القديم لم يصبحوا الهة كما كان الحال فى مصر الفرعونية، اذ كان الفراعنة فى مصر يعتبرون آلهة او ابناء آلهة . وقد فعل العراقيون الاقدمون شيئا شبيها بما كان موجودا فى مصر الفرعونية اذ اعتبروا بعض ملوكهم من صلب الالهة فهذا سرجون الاكدى ، الذى لم يكن من دم ملكى، وانما كان أصله من عائلة رقيقة الحال ، لكن الالهة عشتار قد نصبته ملكا . وقد وجد مثل ذلك فى مصر الفرعونية اذ حاول بعض الفراعنة ان يرجعوا بنوتهم الى دماء الالهة مثلما فعلت حتشبسوت وامنوفيس الثالث وكذلك اليونان مثل الاسكندر الاكبر .

أما عن تدرج الالقاب التى كان يحملها الحكام ، ففى فترة دويلات المدن ، كثيرا ما وجدنا لقب « حاكم المدينة » ، ثم لقب « ملك » ، وفى أواخر عصر فجر الاسرات لقب « ملك البلاد » وأول من استعمل هذا اللقب الاخير « لوكال زاجيزى » ملك أوما الذى أصبح ملكا على كل البلاد . ومما يدل على مبلغ تقديس الملوك للالهة ، أن الملك لوكال زاجيزى ادعى

ان الاله انليل هو الذى خلع عليه هذا اللقب . ولما انتصر سرجون الاكدى عليه لقب نفسه « ملك الجهات الاربع » وكان هذا لقبا لبعض آلهة سومر العظام مثل آنو وانليل وشمش ، حيث كان العالم فى عرفهم مكونا من أربع جهات . وبذلك اصبح للملوك بموجب هـذا اللقب معنى دينى . وقـد استخدم الاشوريون أيضا لقبا شبيها بذلك فلقب الملك « ملك الكون » ، ثم لقب أيضا بـ « ملك سومر وأكد » وقد حمله غالبا ملوك أسرة أور الثالثة .

واجبات الملك الدينية

كان الملك هو الكاهن الاكبر للاله الوطنى ، وهو الذى كان يقوم بطقوس العبادة ، وهو الذى يقوم ببناء المعابد وطقوس التطهير واستشارة الالهة ، وهو الذى كان يراقب ادارة اموال الهياكل ، كما يقوم بتعيين الكهنة . كانت عليه واجبات معنوية ، فكثيرا ما ذكرت كلماته «عدالة» و «انصاف» و «حقيقة» . فمثلا حمورابى ذكر فى قانونه انه أراد أن يرضى «شمش» اله العدل وان « يؤمن الحق فى البلاد ويقضى على فاعل الشر والرذيلة ، ويمنع القوى من الحاق الاذى بالضعيف » ، على أن العدالة فى الحقيقة هى ارادة الالهة التى لا يمكن للبشر أن يصلوا الى أسبابها ، وليس لهم الحق فى مناقشتها . هذا وقد ترك لنا كثير من الملوك ما يفيد على أنهم أقاموا الشرائع وحفروا الترع والقنوات ، وكثيرا ما صوروا وهم يحملون سلال التراب والآجر كناية عن اقامتهم دور العبادة . فهذا « نابوبولاصر » صور هو وولداه يحملون الآجر والسلال ، حينما تطلب الامر تجـديد برج بابل الشهير .

ومع كل ذلك لم يعتبر الملوك فى بلاد ما بين النهرين آلهة كما كان الحال فى مصر ، فيما عدا نرام ــ سين الخليفة الثالث لسرجون الاكدى الذى توج نفسـه بتاج الاله ذوى القرون على لوح اللوفر الشهير . ولو أنه أحيانا كان يستعمل اسم اله بدل اسم ملك وذلك لتكوين اسماء اشخاص مثال ذلك « حمورابى هو الهى » ولا يدل ذلك الا على احترام شخصى وليس تأليها رسميا .

وخلاصة القول انه بينما نجد فرعون مصر الذى انحـــدر من دماء الهية يرتقى العرش على يد الألهة ، بل ويحتل مكانتهم حتى بعد مماته ، نجد الملك فى بلاد ما بين النهرين كان ممثـلا للالهة فقط تجاه الناس ، فهو يعد حلقة الوصل بين العالم الالهى والعالم البشرى .

سلطات الملك وواجباته

كان للملك معاونون منهم الوزراء ورئيس الوزراء يقومون بمساعدته

في الاعمال الداخلية والخارجية . اما المنصب الخطير في الدولة هو وزير الخزانة (ولا زال وزير الخزانة في الدول الحديثة له مركز خطير) . ويلي مناصب الوزراء في الاهمية قواد الجيش . اما عن السلطات الملكية ومبلغ طاعتهم له ، فان خضوع الملك للرغبات الالهية تقابلها من جهة اخرى طاعة مرءوسيه طاعة عمياء . من اجـل ذلك شملت سلطاته جميع مرافـق الحيـاة .

كان الملك هو قائد الجيش الاعلى . وقد تباهى الملك ببطولته ، وكثيرا ما كانت تعده الالهة بالنصر وتمنحه اياه ، وقد كثرت الحروب حتى انه لا تنقضي سنة دون أن يخوض الملك فيها حربا . ومن النادر أن ينيب عنه أحدا في قيادة الجيش .

كان للملك حاشية من الموظفين ، منهم ناظر القصر او رئيس الديوان الملكي ورئيس السقاة ورئيس الخبازين ورئيس الخصيان ... الخ . كما كان للملك سفراء خاصـون يوفدهم ليمثلوه في بعض المهام لدى الدول الاخرى ، ويرافق هؤلاء تراجمة وكتبة .

كان الملك يقوم بتعيين القضاة على جميع درجاتهم . وقام الكهنـة بتطبيق احكام القانون وتفسيرها . أما عن أعمال الملوك الادارية ، فقـد جاءتنا أخبارها من الاوامر والمراسيم التي كانوا يصدرونها والرسـائل التي يبعثونها الى الحكام في الولايات مثـل رسائل حمورابي الى ولاة الاقاليم . ومن هذه الرسائل يتضح لنا مبلغ دراية الملوك بما يدور في الولايات . فكان الملك ينظر الى الشكاوى البسيطة . وكثيرا ما كان يرد الملوك على الحكام لفحص بعض الدعاوى بدقة . ومن المسائل الادارية اهتمام الملك بشئون الارواء وتطهير الانهار .

كان الملك مسؤولا أمام الاله عن حسـن القيام بأعماله وهو على رأس رجال الدين ، وكان الملوك الاشوريون يتخذون بعض العرافين لتفسـير ارادة الالهة ، كما كانوا يرسلون بعض هؤلاء العرافين لرصد النجوم . وتصل رغبات الالهة الى الملوك عن طريق الرؤى والاحلام ، وقد وصـل الينا مثال مشهور عن رؤيا رآها جوديه بتحديد معبد ننجرسو في لجش . كان الملك مسؤولا عن أعمال البشر والتكفير عن ذنوبهم قبل الالهة . وقد جاءتنا وثائق تدل على ان الملوك كانوا يقومون ببعض الطقوس حين حدوث خسوف للقمر أو زلزال ، من اداء الصلاة أو حلاقة شعر الجسم . وكان الكهنة في المعابد يقومون بالعبادة نيابة عن الملك . كان لا يعرض الملك الى

المخاطر فى الشعائر التى تنذر بالشر ، من أجل ذلك يعين بديل عنه ، أو شيء يدل عليه كالرداء الخاصة أو صورته . وفى حالة اجراء بعض الامور التى تتعلق بالسحر ، ينوب عنه بديل حتى أن هـذا البديل كان يحكم أحيانا مائة يوم ثم يقتل أحيانا ، وذلك للتخلص من الشر الذى كان يحتمل وقوعه على شخص الملك نفسه ، وقد فسر بعض رجال الآثار القبـور الملكية فى أور المؤرخة بعصر فجر الاسرات انهم ضحايا قد وجدوا ومعهم أثاثهم وحلاهم . كانوا ابدالا عن حكام . وجدير بالذكر أن الفراعنة لم يعرفوا تعيين الابدال بدلا من الملوك لان فراعنة مصر كانوا آلهة .

كانت اقامة دور العبادة هى أهم مظهر لعلاقة الملوك بالالهة . وكان ملوك بلاد الرافدين يعتمدون فى بناء المعابد على التنبؤ والفال وذلك لمعرفة رغبة الالهة فى الكيفية التى يرغبون فيها بناء معابدهم . وعندما يستقر الامر على رغبة الالهة ، يهيىء الموقع ويأمر الملك بتهيئة اللبن ، هذا وعلى أحد النقوش البارزة مثل ملك لجش أورنانشة يحمل فوق رأسه سلة مملوءة بالطين وذلك لصنع أول لبنة من لبنات المعبد . وقد صور أغلب ملوك آشور على هذه الهيئة . كان يقوم الملك بنفسه بصنع اللبنة الاولى ويحمل طينها فوق رأسه . وقد وصف جوديه الاحتفال بصنع أول لبنة خاصة بمعبد ننجرسو . هذا وقد كان للفراعنة طـريقة فى اقامة دور العبادة لا أقل من هذه الطريقة . فقد كان يختار المكان المعد لاقامة المعبد ويشترك الملك مع الالهة فى قياس ابعاد الارض التى سيقام عليها المعبد ، وعلى سبيل المثال نجد فى بهو الاعمدة الاول فى معبد سيتى الاول بالعرابة المدفونة ، على الحائط الشرقى مناظر تمثل تأسيس المعبد . وفيها يرى الملك وآلهة التسجيل « سشاة » وهى تقوم على وضع أسس البناء وبيدها عصا يحتمل أن كان بها شيء يشبه شريط المهندس الحالى والى يمينها يقف أوزوريس ليشرف على هذا العمل ، ويمثل المنظر الثانى على هذا الحائط الملك يعاونه الاله حورس بن أوزوريس فى مد حبل القياس وبينهما واجهة القصر . أما حالة التنبؤ أو الاحلام فقد عرفت فى مصر ، واعتمد بعض الملوك على الاحلام فهذا تحتمس الرابع حينما أخذته سنة من نوم بجانب أبو الهول فرأى الاله حورآختى فى نومه وطلب منه ازالة الرمال عنه . فلما استيقظ من نومه حقق له تلك الرغبة . ولكن كانت المعابد فى العراق القديم تقام لدفع الخوف أو أنها تعد واجبا . أما دور العبادة فى مصر الفرعونية فقد كانت تقام لان الملوك أنفسهم هم آلهة .

تتويج الملك

لم نعرف شيئا فى بلاد الرافدين عن اشراك الملوك لاولياء العهود كما كان يحدث فى مصر الفرعونية منذ ايام الدولة الوسطى . وقـد كان ولى

العهد ابنا للملك الجالس على العرش . اما فى العراق القديم فقد كان يستشار الالهة فى أمر تعيين أولياء العهود . وليس ضروريا أن يكون ولى العهد من أكبر أبناء الملك . أما مراسيم تتويج الملك هى تسلمه شارات الملك من معبد الاله الرئيسى للمدينة . وكان التاج والصولجان السومرى على هيئة الهتين . واستمرت حفلات التتويج حتى أيام الاشوريين ، فيتوجه الملك الى معبد الاله آشور فى مدينة آشور اذ كانت تودع فيهـا الشارات الملكية ويجلس الملك على عرش تحمله الرجال فى حفل كبير ، ويدخل الملك المعبد فيقبل الارض ويحرق البخور ثم يرقى منصة عالية حيث يوجد تمثال الاله ، ويقدم لتمثال الاله بعض الهدايا من ذهب ثمين وكمية من الفضة ، ثم يحضرون له تاج الاله آشور (لان هذا الحفل كان أيام الامبراطورية الاشورية) وأسلحة زوجه الالهة ننليل ، ثم يحمل الكاهن الاكبر التاج والصولجان الى الملك . وبعد أن ينتهى الكاهن الاكبر من الطقوس الخاصة بالتتويج ، يصلى كبار رجال الدولة من أجل الملك. وحينما يعود الملك الى قصره يجتمع كبار رجال الدولة حول عرشه مقدمين له فروض الولاء والطاعة ، كذلك يقدمون له هدايا .

الجيش

لم تبدأ الجيوش النظامية فى بلاد سومر الا فى أواخر عصر فجر الاسرات ومنذ أيام الاكديين حيث اقتضت الحروب الخارجية ضرورة وجود جيوش منظمة . ومنذ أن عرف العراقيون الاقدمون المعدن (النحاس عرف أيام عهد العبيد، وعرف البرونز أيام عصر جمدة نصر) صنعوا منها الاسلحة الحربية من قؤوس ورؤوس سهام ورماح . ولما عرف الاشوريون الحديد استغلوه فى آلاتهم الحربية الى جانب المعادن الاخرى . كذلك استخدموا تلك المعادن فى أغراض أخرى مثل صناعة العربات وغيرها .

أما عن طريقة الحروب ، فقد صور بعضها على بعض المخلفات الاثرية، فمثلا صور آى أناتم على لوحة النسور انتصاره على أوما . فمن هـذا الاثر عرفنا أنواع العتاد الحربى . وقد صور الملك فى مقدمه الجيش وفوق جسده درع خاص ويحمل رمحا وسيفا قصيرا مقوسا ، ومن خلفه الجيش فى صفوف ، ويحمل كل جندى رمحا وعلى صدره درع وبه نتوءات كانت عبارة عن مسامير . وأسفل هذا الجيش ، آخر مسلح بأسلحة خفيفة . وعلى الوجه الاخر من اللوحة اله مدينة لجش « ننجرسو » وقد قبض على الاعداء فى شبكة ، وقد هوى الاله على أحد الاعداء حاول الهـرب بمقمعته . وقد استخدم السومريون العجلات فى الحرب كما شوهد ذلك مصـورا على بعض الاثار . وكانت عجلات تلك العربات ثقيلة ، ولم تعرف العربات ذات البرامق الا فى الالف الثانى ق.م. وقد استخدم اجر

العربات أما الحمير أو الخيول الوحشية . ولم يستخدم الحصان المستأنس الا فى أواخر أسرة بابل الاولى . وقد استخدمت الخيول بكثرة فى عهد الكيشيين .

ليس من شك فى أن الجيش الاكدى كان اكثر عددا وعدة من الجيش السومرى . وقد جاء فى الخبر ان سرجون كان له جيش بلغ عدده ٥٤ الف من الرجال . وقد أدخل الاكديون الكثير من التحسينات فى أساليب القتال ، فاستخدموا القوس والسهام والرماح ، كما وجدت طريقة المبارزة . وصنعوا خوذات من جلد وبرونز . وهناك اشارات عن وجود نظام التجنيد من أيام الامبراطورية فى عهد أسرة أور الثالثة . وكذلك نظم حمورابى شئون الجند والخدمة العسكرية .

كان الاشوريون قواد حرب من الطراز الممتاز وقد طغت عليهم الحياة الحربية . صنع الاشوريون من الحديد أسلحتهم الثقيلة الفتاكة ، منها آلات لدك الحصون ، ومنها أداة شبيهة بالدبابة اذ انها كانت عبارة عن برج كبير من الحديد بداخله رماة السهام ، وفى مقدمة هذا البرج عمود من الحديد لهدم الاسوار .

كان يجر العربة الحربية الاشورية حصانان ، ويقف السائق الى جانبى مجر الحصانين ومن خلفه المحارب وبالقرب منه حربة وجعبة للسهام ، وكان خلف الاثنين ثالث يقلب بين يديه ترسا دفاعا عن رفيقه . وقد ساعد الحصان فى بداية القرن التاسع تكوين فرق الخيالة . وقد استوجب الامر معرفة الفروسية (لم يصور المصريون كثيرا وهم فوق ظهور الجياد) (انظر مصر الخالدة من ص ٦٩٢ — ص ٦٩٥) أما فرق المشاة الاشورية فكانت أكثر عددا من فرق الخيالة والمركبات . وكانوا يحملون الحربات ووضع بعضهم الخوذ والدروع والاحذية . وكان من بين فرق المشاة من يقوم بالسباحة النهرية مستعينين بظروف من جلد منفوخة ، أو انهم كانوا يقلبون مجاذيف القوارب . وكان للجيش الاشورى فعلة مجهزون بفؤوس ومعاول وذلك لشق الطرق واقامة الجسور ومعاونة الجيش فى أعمال الحصار ، كما كان للجيش فرق للتموين بالغذاء والعتاد ، وكانت تستخدم الحمير والجمال .

لقد امتاز الاشوريون فى فن الحصار ، فقد كانوا يستخدمون لذلك أبراجا متحركة كما سبق أن ذكرنا ذلك . وكانوا يقومون بهجوم خاطف بواسطة سلالم .

* * *

الفنون

الادب

يشمل الادب قسمين : القصة (Legends) والأسطورة (Myth) وأولهما عبارة عن وقائع كتبت بأسلوب خيالي ويدخل فيها الملاحم الكبرى، مثل ملحمة جلجامش . وأما القسم الثاني فهو أدب خيالي لتوضيح بعض ظواهر الكون أو أصل الخليقة ، وأصدق مثل لهذا النوع الثاني أسطورة الخليقة البابلية .

كان تفكير العراقيين الأقدمين أسطوريا باستثناء بعض المواضيع التي كانت تعد انتاجا فلسفيا . الا أن أساطيرهم كانت تعبر عن الحقيقة وقد لوحظ على الادب العراقي القديم التناقض في الآراء والمعتقدات . كما ساروا على مبدأ القياس والتمثيل وذلك في السحر وطرق العرافة والكهانة وذلك على أساس التشابه الظاهر . فقد تصوروا الكون يحكمه الالهة بأسلوب ديمقراطي وذلك قياسا على التجارب البشرية التي لمسوها في المجتمع العراقي القديم ، كما سبق أن مربنا .

ظهر في الادب العراقي القديم ، الشعر السومري والبابلي وقد كان يتكون كل بيت من مصراعين (الصدر والعجز) ، وقد تشابه المصراعان في المعنى والتأليف ، وهو شبيه بالشعر الافرنجي ، وكان الشعر السومري والبابلي لكنه لم يكن له قافية . وكانت القصيدة تتكون الوحدة فيها من بيتين من الشعر .

لقد اثرت الاداب البابلية في الدين منها ما كان خاصا باشتراك الالهة وذلك في الملاحم والاساطير والصلوات والتراتيل . أما النثر فقد استخدم في تسجيل الحوادث والتاريخ وفي رسائل الملوك .... الخ .

امتاز الأدب الرافدي بالتكرار والاعادة ، ونجد ذلك واضحا في قصة جلجامش ، وقدأفاد التكرار في حالة ضياع بعضأجزاء الملاحم أو القصص وامتاز أيضا الأدب العراقي القديم باستباق النتائج Anticcpation كما

هو واضح فى ملحمة جلجامش وقصة الخليقة . اذ نجد مؤلف الرواية يبدأ بالمقدمة ويعرفنا بطل الرواية ويشير الى موضوع الرواية ونتائجها . وقد سارت الاوديسه والالياذة على تلك الطريقة .

كذلك لوحظ فى الأدب الرافدى وجود نسخ من الملاحم والقصص كتبت بالبابلية عن اصول سومرية ، وقد حاولوا ان يغيروا فى بعضها مثل ملحمة جلجامش .

ومن المجاميع الأدبية المشهورة : اسطورة الخليقة البابلية ، ثم قصة الطوفان وقد جاء خبرها فى ملحمة جلجامش ، ثم اعمال البطولة مثل قصة جلجامش ، ثم قصص اخرى حول العالم الاخر ومنها « قصة نزول عشتار » الى العالم السفلى ثم بعثها . وسبق أن اشرنا الى قصة الخليقة وقصة الطوفان ، نرجو الرجوع اليهما .

فن النحت والعمارة .

كان مهد الفنون الشرق الادنى (مصر والعراق القديم) . وظهر ذلك فى صناعة الفخار وما عليه من رسوم . وبلغت صناعة الفخار الذروة فى عصرى حلف والعبيد . ثم ظهرت أول الابنية المعمارية فى عصر العبيد ، وذلك فى العمارة الدينية . فوجدت نماذج من المعابد فى شمال العراق وجنوبه ، وعلى وجه الخصوص فى اريدو . اما الفنون الاخرى : النحت والرسم وكذلك العمارة كلها كانت لها علاقة بالالهة ، كما أن حياة الناس الاجتماعية تتصل ايضا بدور العبارة .

استخدم العراقيون الاقدمون الطين لبناء منازلهم فى طور العبيد ، ثم صنعوا اللبن ، وظلوا يستعملون اللبن حتى نهاية التاريخ القديم الى جانب الطوب المحروق .

وظهرت الزقورة أو الصرح المدرج فى عصر الوركاء ، وقد كشف فى الوركاء والعقير عن نماذج لهذه الصروح المدرجة . فقد كان يقام المعبد فوق الشكل المدرج . وقد كان يزخرف جدران المعبد برسوم حيوانات ورسوم بشرية ثم اضيف اليها تزيين الجدران بالتماثيل وكذلك الآجر المغطى بالمينا مثل ذلك الذى كشف عنه فى قصر سرجون الثانى فى خرسباد وكذلك باب عشتار فى بابل وسبق أن أشرنا الى أن صفحات جدران المعابد وبعض الأعمدة قد زينت منذ أيام الوركاء بالفسيفساء على هيئة رؤوس مسامير ملونة . وظهر فى فن العمارة العراقية القوس الصحيح

من اريدو ومن عصر الوركاء . وعرفت القبة المعقودة منذ (True arch) فجر الأسرات في المقبرة الملوكية في اور . وظهرت الختوم الأسطوانية من النصف الثاني من طور الوركاء ، ومن قبل استخدموا الختوم القرصية واستخدمت الأختام الاسطوانية لختم العقود وغيرها اما الأختام القرصية فكان يطمغ بها سدادات الجرار . صنعت بعض الختوم الاسطوانية من الأحجار الثمينة مثل اللازورد وحجر اليشب والعقيق وغيرها . وكانت تزين هذه الختوم برسوم وصور واحيانا باسم صاحبها . وقد كانت هذه الختوم كثيرة وشملت مناظرها بعض عقائد الناس وبعض اعمال الناس اليومية . لقد ظهر فن النحت في عصر الوركاء اذ عثر على بعض نماذج جميلة لتماثيل واوان وكذلك في عصر جمدة نصر . منها اناء الوركاء السابق وصفه . وكذلك راس الوركاء لامرأة الذى سبق الاشارة اليه . وقبل استخدام الحجر في صناعة التماثيل ، صنعوا من الطين بعض التماثيل الانسانية والحيوانية وذلك في أواخر العصور الحجرية .

ازدهار فن النحت والعمارة السومرى :

ثم مر السومريون بعصر فجر الأسرات الأول الذى جاء من وراء عصر جمدة نصر وظهرت في هذا العصر مبان عامة الى جوار دور العبادة ، ثم ازدهرت المعابد في الفترة الثانية من عصر فجر الأسرات وكثرت فيها التماثيل الخاصة بالالهة والأشخاص في تل أسمر (عاصمة مملكة اشنونا) وفي معبد بتل اجرب بناحية منطقة ديالى . وقد استمرت صناعة التماثيل عبر تاريخ العراق القديم كله وكان لكل عصر ميزات وقواعد في نحت تماثيل الأفراد والالهة . وكانت الأغراض الدينية هي الهدف الأول في صناعة تلك التماثيل . وكثيرا ما كانت تزين هذه التماثيل بالأحجار الكريمة والذهب ، غير ان ما وصل منها لا يعدو نماذج قليلة . وقد اوحظ أن الفنان العراقي كان مقيدا في نحت التماثيل انما كان حرا في نحت الحيوانات . ومن بين مخلفات الآشوريين في نحت الحيوان « اللبوءة المحتضرة » والأسد الجريح فقد استطاع الفنان ان يعبر عن ذلك تعبيرا صادقا دل على درايته التامة بطبائع الحيوان . ثم تمثيل الأسود ومناظر الخيل والحمير الوحشية ، كل ذلك استطاع أن يخرجه الفنان العراقي بدقة ممتازة واتقان وعناية بالغة .

وقد تميزت الفترة الثالثة من عصر فجر الأسرات بالقبور الملكية حيث عثر فيها على ثروة كبيرة من الفنون . منها اوعية ذهبية وخناجر من ذهب وخوذ من ذهب وقيثارات ذهبية ورؤوس حيوانات سبكت من نحاس

وبرونز وقد برع السومريون أيضا فى عصر فجر الأسرات العراقى فى فن التطعيم الذى بدأ فى عصر جمدة نصر اذ طعمت الحجارة والخشب بالمحار والصدف وحجر اللازورد وغيرها من الأحجار الكريمة الملونة .

اما فن نحت الحجارة فى عصر فجر الأسرات : فعلى سبيل المثال لوحة اى اناتم المحفوظة بمتحف اللوفر والتى يطلق عليها لوحة العقبان أو النسور والتى تخلد انتصاره على مدينة أوما .

هذا وقد انتشرت حضارة السومريين فى شمال العراق ، فقد عثر على آثار فى مدينة اشور من عصر فجر الأسرات ، كذلك عثر على آثار فى مركز حضارى سومرى هام فى سورية فى مدينة مارى القديمة (تل الحريرى حاليا) منها تماثيل وصرح مدرج وختوم اسطوانية ، الى غير ذلك من فنون العصر السومرى .

فن النحت فى العصر الأكدى وما بعده :

اذا ما انتقلنا بعد ذلك الى الفن فى العصر الأكدى نلاحظ ظهور اتجاهات جديدة نحو فن النحت منها التمثيل الحيوى للانسان ، وبداية ظهور اتجاه دنيوى لم نره فى عصر فجر الأسرات . وقد وضح ذلك فى « لوحة النصر » للملك « نرام سين » فقد تحرر الفنان فى هذا الأثر من قيود كانت موجودة فى العهد السومرى ، ومحاولة الفنان معرفة فن المنظور Perspective ومن القطع الفنية الرائعة رأس سرجون الأكدى . أما فن نقش الختوم الاسطوانية فقد تقدم تقدما كبيرا . أما عمارة هذه الفترة فقليلة . وفخار العصر الأكدى ليس له ميزات خاصة .

أما عن العهد الكوتى أو الجوتى الذى جاء من وراء العهد الأكدى فهو عهد مظلم ، الا أن السومريين الذين اقاموا فى لجش قد حفظوا الكثير من نواحى الحضارة السومرية . اذ عثر على سبيل المثال على تماثيل كثيرة من ذلك العهد لجودية . وكان عهد جودية هذا عهد انتعاش للفن السومرى وكذلك للأدب السومرى . ولا بد أن التقدم الفنى قد استمر أيضا أيام اسرة أور الثالثة وأهمها كتلة من الحجر صور عليها الملك « أور — نمو » مؤسس أسرة أور الثالثة أمام الاله « سين » يقدم الماء . وقد تسلم الملك من الالهة الأوامر لاقامة زقورة أور . ويعد عهد أسرة أور الثالثة من العهود الممتازة فى فن العمارة .

لا يمكننا أن نميز الفن فى العهد البابلى الأول والثانى عن فن عهد

« ايسن ــ لارسا » وذلك لندرة آثار تلك الفترة فيما عدا المعابد ومسلة حمورابى والرأس الجرانيتية المنسوبة لحمورابى .

أما العهد الكشى ، فلا توجد آثار مميزة له ، وغالبا إنهم ساروا على الطرز القديمة ، وربما امتـــاز الفن الكشى بالنتؤات المنحوتة فى الآجر . وكذلك قام الكشيون بزخرفة جدران القصور بصور آدمية وهندســية ونباتية لكن عرف ذلك من قبل فى قصور مارى ألتى هدمها حمورابى .

وخلاصة القول أن الفترة التى جاءت من وراء عصر فجر الأسرات قد تميزت بضخامة العمارة من ذلك الزقورات التى اتسع حجمها وزاد ارتفاعها وكثرت . كذلك كثرت دور العبادة التى كانت تبنى بالقرب من الزقورة واتسعت . كذلك اتسعت قصور الملوك أيضا .

* * *

الشرائع والقوانين

تقـــــديم :

لم تظهر القوانين والشرائع بشكل واضح عند شعب من الشـــعوب كما ظهرت فى وادى الرافدين . وكان يعتبر العراقيون الاقدمون ان الالهة قد أوحت الى الحكام اصدارها . فهذا حمورابى فى مقدمة شريعته يقول « لما عهد « آنو » العظيم سيد الآلهة و « أنليل » رب الســـماء والأرض الذى بيده مصير البلاد ، الى مردوخ بكر « ايا » أن يحكم جميع البشر .. انتدبنى آنئذاك « آنو » و « أنليل » . أنا حمـــورابى ، الأمير الكريم عابد الآلهة ، لأنشر العدل فى البلاد واقضى على الشر والغش وأمنع القوى من اضطهاد الضعيف .. » .

لقد كان الحاكم ممثلا للآلهة ، من أجل ذلك كان الاعتقاد النظرى أن هذه القوانين لها صفة الثبات والاستمرار .

وفى العصــــور السحيقة لم تكن القواعــد التى تنظم المجتمع فى بلاد الرافدين مكتوبة على هيئة قوانين ، وكان قضاة هذه الفترة يسيرون على ما جرى به العرف . وقد كانت تعـد القضايا التى تم الفصـــل فيها من الاسناد القانونية التى اعتمد عليها فيها بعد القانون المكتوب ، وعلى هــذا الأساس نشأ قانون حمورابى من جمع أحكام سابقة .

لقد امتازت شرائع العراق القديم بقدمها ونضوجها ورقيها عن جميع الشرائع القديمة . على أنها لا تخلو من العنف الذى يمقته النـــاس فى عصرنا الحديث . ومع ذلك كله فهى ممتازة ما فى ذلك شك .

ومنذ النصف الثانى من عصر الوركاء ، ومنذ ظهور الكتابة جاءتنا على ألواح الطين نصوص من المعاملات التجارية والادارية كانت تسجل فيها شئون الحقول والأراضى . ولكن لم تصلنا قوانين مدونة كما وصلتنا على طريقة شريعـــة حمورابى أو شريعة أشـــنونا . ولكن جاءت اشارات تدل على أن الملوك فى عصر فجر الأسرات قد نشروا العدل بين الرعية . فهــذا

« أوركاجينا » Urukagina (٢٣٤٧ ــ ٢٣٤١ ق.م تقريبا) امير لجش هو اول من قام باصلاحات اجتماعية : فنظم الادارة وجبى الضرائب وقضى على الظلم . ولما نشأت الامبراطورية بعد انقضاء عهد دويلات المدن كان لابد من سن قوانين لادارة املاك الامبراطورية الواسعة . وانتشر القضاة المدنيون بين افراد الشعب . ومن قبل رأينا كيف ان سرجون الاكدى قد ادخل فى القسم بين المتعاقدين لأمر من الأمور اسم الملك ، وكذلك لقب سرجون الأكدى بملك العدل .

الشرائع المدونة :

قانون « أور ــ نمو » Urnammu

أصدر « أور ــ نمو » مؤسس أسرة أور الثالثة ، (٢١١٣ ــ ٢٠٩٦ ق.م. تقريبا) ق.م. شريعة له ، وبالرغم من ورودها الينا ناقصة ، فهى تعد أقدم شريعة صدرت فى العراق قبل شريعة حمورابى بحوالى ثلثمائة سنة . وجدير بالذكر ان هذه الشريعة الأولى فى العراق القديم فيها شبه كبير بشريعة « لبت ــ عشتار Lipitishtar » وشريعة « اشنونا » وذلك من حيث مبدأ الدية والتعويض ، اذ لا تعتمد على مبدأ القصاص .

قانون « اشنونا » Eshnunna

ظهر فى العهد البابلى القديم ، أيام ملك من ملوك اشنونا « بلالاما » Bilalama (حوالى عام ٩٨٠ ق.م) اى سابق لحمورابى بنحو قرنين . ووجد مدونا على لوحين من الطين باللغة الأكدية . وقد بلغت مواده التى وصلت الينا ٦١ مادة قانونية . وواضح أن هذه الشريعة كانت بدون شك منقولة من شريعة اخرى أقدم منها .

وبدأ قانون اشنونا بمقدمة باسم الملك « بلالاما » وتاريخ اصدار القانون . وجاء بعد ذلك ذكر مواد خاصة بتحديد الاسعار التى بلغ عددها ١٢ مادة . وقد ذكر القانون الاحكام الخاصة بمعاملة المعتدين على حقوق الغير أو الأحكام المختلفة التى تتعلق بالبيع والشراء والأحوال الشخصية والى القارىء طرف من بعض مواده .

مادة ٢٩ : « اذا فقد رجل فى اثناء حرب أو غارة او انه اخذ اسيرا وبقى فى بلد غريب زمنا طويلا ، فاذا اخذ رجل آخر زوجته اى تزوجها وولدت له طفلا فاذا رجع الزوج الاول فله الحق فى استرجاع زوجته . »

مادة ٤٢ : اذا عض رجل أنف رجل وقطعه فانه يؤدى « منا » والمن البابلى حوالى ١/٢ كيلو جرام واحد من الفضة ، ودية العين « من » واحد من الفضة وللسن نصف « من » من الفضة ، وللصفع على الوجه عشرة شيقلات من الفضة » (الشيقل = $\frac{1}{60}$ من المن) .

قانون « لبت ـ عشتار » : Lipitishtar

(١٩٣٤ ـ ١٩٢٤ ق.م تقريبا)

كان هو الملك الخامس من أسرة « ايسن » فى بداية الحكم البابلى القديم . وكتب القانون باللغة السومرية . وهو مكون مثل قانون حمورابى من مقدمة وخاتمة كتبت على أجزاء من الواح من الطين عثر عليها فى نفر . ومن الجائز انه سجله على لوحة او مسلة كما فعل حمورابى ، لانه توجد اشارات عن قيام لبت عشتار بكتابة قانونه على أثر شبيه بأثر حمورابى . ولم يصلنا من مواد هذا القانون الا ٣٥ مادة ، من حوالى مائة مادة كانت هى اصل هذه الشريعة وليس من شك ان المواد الاخرى لم يعثر عليها .

وجدير بالذكر أن هناك مجموعات أخرى صغيرة من مواد قانونية وجدت مدونة على الواح من طين ، وكانت تضم ما يقرب من ٢٦ مادة . وغالبا ما تؤرخ بأسرة بعد أور الثالثة بمدة وجيزة .

قانون حمورابى :

مهدت القوانين السابقة لحمورابى اصدار قانونه الشهير بعد أن قام بكثير من التغيير والتعديل . وتعد قوانين حمورابى هى أتم شريعة فى تاريخ الحضارات القديمة . وتشير مقدمة القانون الى انه أصدره حينما قضى على اعدائه فهدأت الأمور فى البلاد . فأصدر تلك الشريعة فى السنوات الأخيرة من حكمه .

كشف عن الأثر الذى نقش عليه القانون فى مدينة السوس (فى عيلام) ، فى معبد Inshushinak اذ كان الأثر قد وقع فى أيدى العيلاميين من مدينة سيبار الذى كان مقاما فيها فى معبد الاله شمش ، اله الشمس. قام بالكشف عن هذا الأثر بعثة فرنسية عام ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ فى عيلام وهو الآن محفوظ باللوفر . أما عن السر فى وجودها فى عيلام ، هو أن العيلاميين غزوا العراق أيام الفترة الأخيرة من العهد الكشى ، أى حوالى القرن الثانى عشر ق.م. وأخذوا ضمن غنائمهم هذا الأثر الذى هو عبارة عن اسطوانة

من الحجر الأسود ، وهى غالبا من البازلت . وقد بلغ ارتفاعها ٢٥ سنتيمترا أو (٧ أقدام ونصف بوصة) .

احتل الاله الشمسى « شمش » اله العدل الجزء العلوى من المسلة . ثمثل جالسا على عرشه الذى غالبا ما وضع على جبل كما هو ملاحظ فى الصورة ، وقد وقف امامه حمورابى يتلقى الأوامر من الاله . وتغطى المسلة بكتابة مسمارية على شكل عمد أو حقل (٤٤ حقلا) ، قد شوه الغزاة العيلاميون بعض أجزائها ، كما طرق القرص الشمسى الذى كان يعلو هام الاله .

ويقول حمورابى فى مقدمة شريعته .

دع كل مظلوم من حالة يحضر أمامى ، ملك العدالة ، دعهم يتلون على ما سجل على لوحتى . ليته ينتبه الى كلامى الواضح . لربما تضىء لوحتى حالته ، ولربما يفهم دعواه . ولربما يطمئن قلبه . دعه يقرأ بصوت مرتفع : « حقا ان حمورابى حاكم مثل الوالد نحو مواطنيه ، انه احترم كلمة ربه مردوخ . انه حقق أغراض مردوخ فى الشمال والجنوب . لقد أدخل البهجة على قلب ربه مردوخ . لقد نشر الرخاء لمواطنيه فى كل زمان وأصلح البلاد » .

تختلف مقدمة قانون حمورابى عن قوانين لبت عشتار فى عباراتها المطولة . ذلك لأن شريعة لبت عشتار كانت خاصة بدويلة المدينة ، أما شريعة حمورابى فقد سنت من أجل امبراطورية . وهكذا نجد لبت عشتار يعلن انه « الراعى المتواضع لنفر = (نيپور قديما) ، فلاح أور القوى ، والذى لم يتخل عن أريدو سيد أوروك الصالح ، ملك ايسن ، ملك سومر وأكد » ، ونجد على الطريقة نفسها يفتخر حمورابى بنفسه فيقول « انه هو الذى وفر السعادة والرفاهية ، وانه هو الذى أمد نفر بكل ما تحتاجه من أشياء على نطاق واسع ، رسول السماء والأرض ، عضد المحبين لاكور Ekur ، الملك الهمام ، والذى رمم اريدو وأعادها الى ما كانت عليه ، الذى صفى عبادة ايابچو Eabju ، واسع الخطى الى جهات العالم الأربع ، الذى رفع اسم بابل عاليا ، هو الذى شرح قلب ربه مردوخ ، وطوال حياته كان مسئولا عن Esagila ، سليل الملكية الذى انجبه Sin » . واستمر على ذلك الحال فى حوالى ٢٥٠ سطرا يصف انتصاراته العديدة . وفى ختام ذلك يعلن ما يلى : « حينما أمرنى مردوخ بنشر العدالة بين الناس فى البلاد ، ولأمنحهم حكما طيبا ، لقد حققت الصدق وأقمت العدالة فى كل البلاد ويسرت للناس أمورهم . وفى ذلك

الوقت أصدرت القوانين الآتية » . وهكذا أصدر ٢٨٢ مادة تعرضت لكل ما يحقق العدالة بين الرعية . وقد ختم هذه المواد القانونية بعبارات تختلف أيضا في أسلوبها المسهب عن تلك التى انتهت بها شريعة لبت عشتار . فهى تخبرنا ، كيف قام حمورابى بعد أن نشر السلام فى بلاده ، اعلن شريعته واقامها فى معبد مردوخ ببابل حتى يتمكن المظلوم ، ومن ضاقت به الدنيا أن يطلع عليها . وتنتهى بستة عشر سطرا فيها يتمنى الملك السعادة والرفاهية لكل من يحقق ما جاء فيها .

وتبدأ الشريعة بمجموعة من القوانين التى تناقش الاجراءات القانونية التى تتبع فى ساحات القضاء . ومن الأمور التى تعرضت لها شريعة حمورابى انه اذا اتهم شخص آخر بتهمة لم يتمكن من اثباتها عندئذ يعاقب بالعقوبة التى كان سوف يعاقب بها الذى اتهم . من أجل ذلك كان على كل فرد أن يتحرى الصدق حينما يتهم آخر بأى أمر من الامور والا وقعت عليه عقوبة التهمة . وبذلك امتنعت الدعاوى الباطلة . أما المادة الثانية فقد تعرضت لهذا المجتمع الذى كان يؤمن بالتنجيم والعرافة . وعلى ذلك فقد كان المنجم والعراف حريصا على ما يقول والا فسيعاقب عقابا صارما ان لم يتحقق تنجيمه . وكثيرا ما كان يلقى به فى الفرات ، فاذا غرق كان مذنبا واخذ صاحب الحق أملاكه . واذا ما طفا على الماء فهو برىء .

وقد خصص قسم كبير من تلك الشريعة فى شهادة الزور . وقد كان يعاقب كل شاهد زور بالعقوبة التى تخصص للدعوى التى شهد فيها باطلا . وخصص القسم الثانى لتأكيد نزاهة القضاء .

وقسم النص الى ثلاثة أقسام : الأول كان يشمل مقدمة دينية وسياسية ومعنوية رائعة يعلن فيها حمورابى « محاكمات عدالة » كانت تهدف الى « اقامة الحق فى البلاد ، وقد أصدرها حمورابى الذى كلفته الآلهة بحكم الأرض ، فهو « ملك الحق الذى وهبه شمش العدل » . ثم نجده يقوم بسرد الأقاليم التابعة له وبعض أعماله . أما القسم الثانى فيشمل مواد القانون ، وكان عددها ٢٨٢ مادة أو قضية . والقسم الثالث كان عبارة عن الخاتمة ، قال فيها حمورابى ما يلى « الأحكام العادلة التى أصدرها حمورابى الملك العظيم للبلاد فازدهر فيها العدل والحكم الصالح » ثم يحذر كل من يحاول أن يشوه تلك الشريعة بلعنات الآلهة .

لم تشمل شريعة حمورابى الا ٢٨٢ قضية ، وهى القضايا المشهورة

فقط ، اما بقية القضايا الأخرى التي لم يات ذكرها على هـذا النصب ، فقد كانت معروفة لدى الناس ومدونة على الواح من طين . وتتشـابه شريعة حمورابي بالقانون المدني الروماني من حيث التقسيم ، اذ نجد أن مواد هذا القانون التي عد منها ٢٨٢ مادة قسمت الى أبواب ثلاثة : أولها نظام التقاضي اى ما نسميه بأحوال المرافعات وكان يشمل المواد الخمسة الأولى . وكانت تتناول التهم البـاطلة وشهادات الزور وكيفيـة نقض الأحكام التي اصدرها بعض القضاة . اما الباب الثاني فكان خاصا بقانون الأموال : ويمكن تقسيم هذا الباب الى ثلاثة أقسام فرعية ، ١ ــ الشريعة الخاصـة بالسرقات ، واختطاف الأطفـال ونهب البيوت التي تحرق ، والسرقات بوجه عام ، وقد بدات (من المادة ٦ الى المادة ٢٥) ، ٢ ــ وهي الأحكام الخاصة بالأراضي ، (من المادة ٢٦ الى المـادة ٦٠) ، واجبـات الفلاحين من ديون واجب اداؤها ، وجرائم ومخالفات الرى ، وما ينجم من أضرار نزول ماشية في حقول الغير . والتعدى على أشجار الغير والعناية بجنائن النخيل . ٣ ــ وفي هذا القسم الذى يشمل المواد ٦١ الى المـادة ١٢٦ المعاملات التجارية . ولوحظ وجود تشويه في هذا القسم ، ولكن أمكن الرجوع الى نسخ اخرى كتبت على الواح من الطين . وقـد كانت مواد هذا القسم تهدف الى تنظيم الفنادق والحانات وكذلك تنظيم وسائل المواصلات ، والودائع الخ . وثالث ابواب شريعة حمورابي ، كانت تتناول الاحوال الشخصية . فقد تناولت المواد من ١٢٧ الى ١٩٤ الأحكام الآتية ، قذف النسـاء بالزنا . وتعريف المراة المتزوجة ، وحالة زواج المراة في غياب زوجها . وتبحث مواد القانون من ١٣٧ ــ ١٤٣ في احكام الطلاق ، وكيف تعامل زوجة المتوفى . وهدايا الزوج الى زوجته ، ومسئوليات الزوجين عن الديون . وحالة الزواج غير الكامل . والهبات التي يقدمها الآباء الى أولادهم في حياتهم . ونظام الوراثة ، وحرمان الأولاد من الارث . ومال الأرملة وزواج المراة الحرة بالعبد . وتبنى الأطفال . ثم بحث المواد الباقية من شريعة حمورابي متنوعات فمنها مواد كانت فيها أحكام خاصة بالاعتداء على الأب . وكانت تتناول المواد من ٢١٥ الى ٢٤٠ الأحكام الخاصة بالمهن الطبية الخاصة بالجراحين والبياطرة والحلاقين والذين يقومون بمزاولة أعمال الكى وعمال البناء والسفن . وقد تناولت المادة ٢٤١ الى ٢٧٣ بعض المهـام الخاصـة بالزراعة من حيث غش علف المواشي وتبـديل الآلات الزراعية التي كانت تعار الى الفلاحين . وتأجير عمال الزراعة والحيوانات . الخ . ونظمت المواد من ٢٧٤ الى ٢٧٧ أجور العمال . اما المواد من ٢٧٨ الى ٢٨٢ فقد تناولت أحكام تداول الرق من الخارج .

والى القارىء بعض نماذج من الأحكام التي اصدرها حمورابي :

المادة ٥ « اذا قضى قاض فى حكم وقرر فيه واصدر بذلك وثيقة ثم رجع من بعد ذلك عن حكمه وبدله ، فسوف يحاكم ذلك القاضى فى الدعوى التى حكم فيها ويدان بذلك التغيير ، ويغرم غرامة تعادل ١٢ مثلا مما فى تلك الدعوى . وسوف يطرد علنا من منصبه ولن يرجع اليه ، وسوف لا يجلس فى مجلس قضاة مع القضاة » .

المادة ١٤ ـ « اذا سرق ـ اختطف = شخص ابن رجل صغير فانه يقتل » .

المادة ١٢٧ ـ « اذا رفع شخص أصبعه فاشار بسوء الى كاهنة أو الى امراة رجل بدون ان يثبت التهمة ، فسوف يجلد ذلك الرجل أمام القضاة وسوف يرسم عبدا » .

المادة ١٤٤ ـ « اذا تزوج رجل من كاهنة واعطته جارية فولدت له الجارية أولادا فلا يجوز له أن يتزوج من سرية » .

المادة ١٤٥ ـ « واذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له واراد ان يتزوج من سرية وان يؤويها فى بيته فهذه السرية لا تكون مع زوجته فى منزلة واحدة » .

المادة ١٤٦ ـ « واذا تزوج رجل من كاهنة واعطته جارية فولدت له الجارية أولادا وجعلت نفسها فى منزلة السيدة لأنها حملت أولادا فلا يجوز السيدة ان تبيعها بالفضة بل تقيدها وتبقيها مع الخدم » .

المادة ٢٠٩ ـ « اذا ضرب رجل بنت انسان حر ضربا أسقط حملها فعليه عشرة مثاقيل من الفضة غرامة لاسقاط حملها . فان ماتت فبنته تقتل ... »

المادة ١٩٦ ، ١٩٧ ـ « اذا أتلف رجل حر عين رجل آخر حر فتتلف عينه ، واذا كسر عظمه فيكسر عظمه » .

المادة ٢١٥ ـ اذا اجرى طبيب لرجل حر عملية بأداة برونزية وشفاه او انه اجرى له عملية فى راسه وشفى عينى الرجل فسوف يتسلم أجرة قدرها عشرة شقيلات من الفضة » .

المادة ٢١٨ ـ « اذا عالج طبيب رجلا وأجرى له عملية جراحية بأداة

برونزية وسبب موت الرجل او انه أجرى عملية فى عينه فاتلف عينه فانهم يقطعون يده » .

وواضح من تلك النماذج الترتيب والتصنيف المنطقى . فقد شملت تلك الشريعة احوال المجتمع ونظامه الاجتماعى والاقتصادى . كما لوحظ انها تضمنت بعض المبادىء القانونية التى نراها فى عهدنا الحديث . ففيها مبدأ الحوادث الطارئة والتى تسمى فى القانون الفرنسى Force majeure أى ان الملتزم لا يعفى من تنفيذ التزامه الا اذا استحال تنفيذ هذا الالتزام وذلك بقوة قاهرة منعت تنفيذه . ونجد هذه الصورة فى المادة ٤٨ من قانون حمورابى التى تنص على أنه « اذا كان على شخص دين ، ثم أغرق الاله « أدد = فيضان » حقله وأتلف حاصله ، أو لم ينتج الحقل غلة لنفاد الماء ، فسوف يعفى ذلك الشخص فى تلك السنة من تسليم حبوب الى صاحب دين عليه ، وسوف يغير عقده ولن يدفع ربا ـ فائض تلك السنة » . فما أشبه اليوم بالبارحة .

أما عن مبدأ « السن بالسن والعين بالعين » المعروف فى الشريعة الاسلامية والعبرانية وبعض شرائع أخرى فقد تشابهت شريعة حمورابى فى هذه الناحية الى حد ما مع تلك الشرائع (انظر ما سنفصله فيما بعد من مقارنة بين شريعة حمورابى والشريعة الموسوية) . اوحظ تناقض واضح فى شريعة حمورابى وسبب ذلك هو أن تلك الشريعة قد صدرت الى شعب حياته معقدة من أجل ذلك تضاربت بعض هذه الأحكام . ففيها اختلاف العقوبات بالنسبة الى مركز المجنى عليه . وفيها القصاص الصارم العنيف الذى لو نفذ مثل ذلك على الأطباء لما بقى طبيب . انما بالرغم من ذلك كله فلا زالت شريعة حمورابى أولى الشرائع فى تاريخ البشرية .

وفى نهاية ذلك الاثر يوجه حمورابى الى الأجيال من بعده ما يلى :

فى الأيام المقبلة ، ولكل زمان ، ليت الملك الذى يعتلى العرش يحقق العدالة التى سجلتها على اوحتى ، ليته لا يغير فى أحكام البلاد التى أعلنتها والأحكام التى أصدرتها ، ليته لا يمحو تماثيلى . وعاقل هذا الرجل الذى يوجه بلاده الى الصواب ، اذا ما انتبه الى كلامى الذى سجلته على لوحتى . ليت هذه اللوحة تضىء له الطريق فى الاجراءات القانونية والادارية ، والأحكام الخاصة بالبلاد التى أعلنتها ، والقرارات التى أصدرتها ... ليته يقضى على الرذيلة وفاعل الشر من بلاده . ليته يسعد مواطنيه .

اذا راعى ذلك رجل كلامى الذى سجلته على لوحتى ، ولم يشنوه أحكامى ، ولم يبطل كلامى ، ولم يشوه تماثيلى ، ليت شماش يبارك حكم ذلك الرجل كما فعل بى ، ملك العدالة . واذا لم يلتفت الى كلامى ، الذى سجلته على لوحتى ، واذا تجاهل لعنانى ولم يخش لعنات الاله ، واذا شوه أحكامى التى أصدرتها ومحى كلامى وبدل تماثيلى ، ومحى كتابة اسمى وكتب اسمه فلتصب عليه لعنة آنو (ويلى ذلك ثبت بالآلهة الأخرى) .

القوانين الأشورية :

لم يكشف بعد عن قانون كامل كان ينظم المجتمع الأشورى . وما عثر عليه الأثريون حتى الآن نماذج فقط . وهناك بعض نماذج لقوانين آشورية صدرت فى أواخر الالف الثالثة ق.م. غالبا ما كانت خاصة ببعض المستعمرات التجارية الآشورية فى آسيا الصغرى .

وقد تم العثور على الواح من طين دون عليها مجموعة من القوانين مؤرخة بين ١٤٥٠ و ١٢٥٠ ق . م . تقريبا ولم يعرف منظم هذه القوانين . ولكنها لا تؤلف شريعة مثل التى قام باصدارها حمورابى . وقد لوحظ أنها غير تامة . نظمت هذه القوانين الأحوال الشخصية ، وتناولت العقوبات الخاصة بمرتكبى الجرائم الجنائية . وقد رأى فيها بعض الباحثين فى هذا الموضوع أنها ليست الا قرارات صدرت بشأن قضايا معينة ثم صيغت على هيئة مواد قانونية . ويرى البعض انها تفسيرات لمواد قانونية اخرى لا زالت مجهولة أو أنها مأخوذة من قانون حمورابى . وأما عن الفارق بين القوانين الأشورية والبابلية ، هو ان القوانين الاشورية قد وضح فيها الصرامة والعنف . كما أن الاشوريين لم يهتموا بتدوين الشريعة كما فعل البابليون .

كيف كان يتم التقاضى فى العراق القديم ؟

كثر القضاة فى عهد أور ، ولدينا أحكام صدرت فى هذا العهد . وفى أيام الأسرة الأولى كانت المحاكم الابتدائية تقوم باصدار الأحكام وتستأنف الأحكام برفعها الى الملك . وقد حرم على القاضى تغيير حكم كما سبق أن أشرنا فى احدى مواد شريعة حمورابى ، المادة ٥ من قانون حمورابى .

كان يعد الملك « ينبوعا للعدالة » . وكان يحيل القضايا التى ترد

انيه الى محاكم الاقاليم . واحيانا كان يتدخل الملك فى حالة التأخير فى نظر قضية . ومنذ أيام سرجون الأكدى أنشئت محكمة استئناف برآسة الملك ، وكان يدخل فى صيغة القسم اسم الملك . لكن لم تكن هذه المحكمة موجودة بصفة منتظمة ، وانما تؤلف فى قضايا خاصة .

كان هناك قاض ، وآخر يترأس عدد من القضاة ، وذلك على هيئة رئيس محكمة . كما يوجد قضاة تابعين لدور العبادة كقضاة معبد الاله شمش ، وقضاة المعابد الخاصة بالكهان والكاهنات . وهناك احتمال كبير فى أن القضاة كانوا أصلا كهنة لأنهم كانوا يمثلون الطبقة المثقفة فى المجتمع .

وكان يعد المعبد دار القضاء يقضى فيه الكهنة وغير الكهنة . والى جانب ذلك كانت هناك محاكم أخرى تقام احيانا فى القصر فى العاصمة أو فى المدن . وكانت تسمى المحكمة فى شريعة حمورابى « بيت القضاء او الحكم » وفى بعض الوثائق سميت « بيت قضاة البلاد » . وهناك اشارات تفيد أن القضاة احيانا يجلسون فى « بوابة المدينة » . هذا وقد سلك العبريون هذا المسلك ، واحيانا كان يجلس « شيوخ المدينة » مع القضاة كمحلفين .

أما عن بقية موظفى المحكمة ، فقد عرف منهم المسجل ، اذ كان المتبع أن تدون الاحكام القضائية ، فيقوم بتحريرها هذا المسجل. وهناك موظف كان عليه أن يحضر المجرمين وغالبا ما كان مسئولا عن تنفيذ القوانين .

وشهود المحكمة ينقسمون الى فئتين : المحلفون الذين تنفذ الاحكام بحضورهم ، والبعض الآخر هم اولئك الذين يقومون بالشهادة فى القضايا وذلك بحلف اليمين . وجدير بالذكر أنه فى حالة عدم اثبات شهادة شاهد عن حادث خطير يترتب عليه حكم الاعدام ، كان الشاهد عرضة لأن يعدم . وأما فى الشئون المالية كان يقوم بدفع مصاريف الدعوى . كما الزم القانون ضرورة حضور الشهود فى حالة تحرير العقود . فمن يقوم بشراء العبد او البيت يطلب شهادة اولاد البائع ان كان له ولد حتى يتجنب اى اعتراض من ورثته .

كان على الطرفين المتنازعين أن يحلفا بعد النطق بالحكم بالتعهد أمام الآلهة باحترام الحكم النهائى أو كان يوضع احيانا شرط ينص على توقيع عقوبة أو تعويض لمن يخالف ما قضت به المحكمة اضعافا مضاعفة .

أما عن العقوبات : فمنها عقوبة الموت التى غالبا كانت السلطة التنفيذية

هى التى تقوم بتنفيذها غالبا بالاغراق فى الماء ، ومن هذه الجرائم ثبوت حالات الزنا . وغش الشراب . وأحيانا فرضت عقوبة الحرق على الزانى . ثم هناك حالة واحدة فى شريعة حمورابى وضع فيها المجنى على الخازوق وذلك فى حالة قتلت فيها الزوجة زوجها وذلك من أجل رجل آخر . وقد وجدت عقوبة الموت بالخازوق فى القوانين الاشورية .

كما اخذ أيضا بمبدأ القصاص فى شريعة حمورابى فابن البناء يقتل اذا ما تسبب فى إسقاط بيت على ابن صاحب المنزل . كذلك عرفت عقوبة النفى فى شريعة حمورابى (المادة ١٥٤) . وجدير بالذكر أن شريعة حمورابى قد نصت على أن الابن لا يحرم من ارث أبيه الا اذا اثبت الوالد اعتداء الولد عليه .

ان شريعة حمورابى ترينا المدى الذى بلغه المجتمع السامي فى الألف الثانى قبل الميلاد فنجده يسن قوانين ليحمى الضعيف من بطش القوى ويزود عن الارامل واليتامى ، وسوف نرى أن المجتمع الاسرائيلى سيتأثر بشريعة حمورابى . واذا اضفنا الى هذا أن أصحاب شريعة حمورابى قد نزلوا الى أرض الرافدين من الجزيرة العربية وغالبا من جنوبها . ادركنا الصلة بين المعينيين السبائيين من ناحية وبين أهل بابل وآشور من ناحية أخرى .

كما أن هناك صلة واضحة بين شريعة موسى وبين التشريعات العربية سواء ان كانت مأخوذة من نبى مدين أو ما يسمى فى بعض الكتب كاهن مدين (يثرون) أو متأثرة بشريعة حمورابى كما سنرى فيما بعد وقد عرف المجتمع الاسرائيلى هذه الشرائع قبل أن ينزل الى فلسطين .

لقد بلغت الأمم التى نشأت فى بلاد الرافدين شأوا بعيدا من الحضارة والثقافة ، فتشريعاتهم فيها طابع الانسانية العالمية بينما نجد المجتمع الاسرائيلى لم ينهض برسالة عالمية مثل ما نهض العربى البابلى . ومن تلك النقطة نستطيع أن ندرك مدى حرص الشريعة البابلية الى الحفاظ على الملكية والضرب على أيدى المعتدى وتوقيع أقصى العقوبات ، أما التشريع الاسرائيلى فلم يبلغ مكانته العالمية .

وكتاب العهد عند الاسرائيليين يكاديكون نسخةمن شريعة حمورابى . وينقسم كتاب العهد الى قسمين مختلفين شكلا وموضوعا ، فالقسم الاول يعتنى بمواد القانون ، ويختص الثانى بالعقيدة . وأسلوب كتاب

المهد لا يفترق عن اسلوب شريعة حمورابى ، فالجملة الشرطية فى شريعة حمورابى هى شرطية أيضا فى العبرية .

كما ان سفر التثنية يعتمد اعتمادا كليا على كتاب المهد وعلى شريعة حمورابى . كل ذلك سنفصله فى حينه .

* * *

تطور اللغـــة

سبق أن ذكرنا أن الكتابة قد ظهرت فى النصف الثانى من عصر الوركاء أى حوالى عام ٣٥٠٠ ق ٠ م ٠ وجدير بالذكر أن الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) قد ظهرت تقريبا فى مثل هذا التاريخ ٠ كانت الكتابة فى العراق القديم فى هذه الفترة على هيئة صور لما يراد تدوينه ، وتعرف الكتابة التصـــويرية ٠ وكان لتطور الحضارة فى أواخـــر عصر ما قبل الأسرات اثره فى تطور الكتابة ٠ واقدم سجلات فى هذا الشأن ما عثر عليه على الواح من الطين من عصر الوركاء فى معابد مدينة الوركاء ٠ وكانت فى بدايتها مكونة من نحو ٢٠٠٠ علامة ثم اختزلت حتى وصلت الى ٦٠٠ علامة ٠ وقد مر العراق القديم فى تطور اللغة الى ثلاثة اطوار :

أولا ـ الطور الصورى وكانت تكتب الاشياء بصورها ٠ وقد استطاع الناس فى هذه الفترة أن يقوموا بتدوين ما يرغبون من أشياء مادية بهذه الكتابة الصورية على هيئة صور موجزة ٠ انما صادفتهم صعوبة وهى رسم المعانى المجردة بهذه الطريقة ٠ فاضطروا الى الانتقال الى الطريقة الرمزية وعلى ذلك انتقلوا الى :

ثانيا ـ الطور الرمزى : وهى طريقة للتعبير عن الأفكار والمعانى المجردة بالصور المادية موجزة ، على أنهم كانوا لا يقصدون من ورائها صورة الشىء المادية وانما معناه أو كل فكرة مشتقة منه أو لها علاقة به فمثلا صورة الشمس أصبحت لا تؤدى معنى هذا الجرم الكبير ولكن رسمت لتدل على الحرارة واليوم وكل ما يتعلق بالشمس ٠ وقد وجدت هذه الطريقة أيضا فى اللغة المصرية القديمة ٠ ولكن مع تطور الكتابة كما رأينا ، ظلت هناك صعوبة فى التعبير عن الآراء المجردة كالأمانة والصدق الخ ٠ وكذلك كتابة اسماء الاعلام أو الاشخاص ٠ من أجل ذلك انتقل الانسان الى :

ثالثا ـ الطور الصـــوتى : استخدم السومريون الأقدمون فى هذا الطور الصور وأصولها (وكان ذلك فى فترة جمدة نصر ، حوالى ٣٢٠٠ ق ٠ م ٠) ولم يكن القصد من تصويرها هنا هو التدليل على معنى الشىء

المادى الذى يمثل الصورة كما سبق ان رأينا فى الطور الصورى ، وكذلك لم يقصد من الصورة فى هذه المرحلة التدليل عن الآراء والافكار كما رأينا فى الطور الرمزى . ولكن كان الغرض هو ان تستخدم هذه الصور لكتابة الكلمات وكذلك الجمل على هيئة اصوات . ثم تجمع هذه الاصوات لتكون مقطعا . وجدير بالذكر الى ان هذه الاصوات كانت تكون مقاطع وليست حروفا ، لان السومريين لم يصلوا الى معرفة حروف هجائية كما عرف المصريون الاقدمون . وعلى سبيل المثال اذا رغب احدهم فى كتابة شخص يدعى « كوراكا » باللغة السومرية . فكان يسلك الطريقة الآتية : لما كانت كلمة كور تعنى الجبل ، من اجل ذلك يرسمون صورة جبل . اما الصوت « آ » فكانوا يعبرون عنه برسم خطين يمثلان موجات الماء . لأن « آ » هو الماء باللغة السومرية . اما كلمة « كا » فكان الصوت المعبر عنها فى اللغة السومرية هو الفم . وبذلك يتكون اسم هذا الشخص من ثلاثة مقاطع « كور ــ آ ــ كا » .

هذا عرض خاطف لتطور الكتابة فى حلقاتها الأولى ، وقد لوحظ ان الكتبة حين دخلوا فى الطور الصوتى بدأوا يختصرون فى تصوير اشكال الاشياء . واضيفت الى الكتابة علامات اخرى لتعبر عن معان واصوات مختلفة .

كتب العراقيون الاقدمون اكثر كتاباتهم على الواح من الطين ، واستخدموا لذلك اقلاما مثلثة الشكل ، لذلك كانت تنتهى العلامات بشىء شبيه بالمسامير ، من اجل ذلك سميت الكتابة المسمارية Cuni form وكان منها المسامير الأفقية والعمودية والمائلة ، ومسامير على هيئة رؤوس السهام . وقد بلغت العلامات المسمارية نحوا من ٦٠٠ علامة . منها ما يقرب من ١٠٠ الى ١٥٠ علامة استخدمت للتدليل على المقاطع الصوتية . اما بقية العلامات فاصبحت تعبر عن الطريقة الرمزية ideogram ، واصبحت العلامة الواحدة تؤدى معنى كلمة . وعلى ذلك فالخط المسمارى يعد مزجا من الطريقة الصوتية التى تكون من مقاطع والطريقة الرمزية .

هكذا نشأت الكتابة السومرية ، وغالبا ان السومريين هم الذين اخترعوا تلك الكتابة منذ عصر جمدة نصر وفجر الاسرات . وقد انتشر الخط المسمارى الى العيلاميين والى الحيثيين ، والميتانيين والحوريين ، والى بعض مدن سورية والفرس الاخمينيين . واشتقت الخطوط الاكدية والبابلية والاشورية والحورية والحثية والعيلامية المسمارية من الخط

المسماری السومری . وقد ظل الخط المسماری معروفا فی بلاد الرافدین حتی بدایة میلاد المسیح . وذلك الی جانب الخط الارامی الذی کتب بحروف هجائیة أیام الاشوریین . وقد اخذ هذا الخط الأخیر یحل محل الخط المسماری حتی جاءت فترة توقف استخدام الخط المسماری وظل مجهولا حتی منتصف القرن التاسع عشر المیلادی .

کیف تم حل رموز الکتابة السومریة ؟

جاء فی بعض الأخبار أن الاسکندر الأکبر أقام حفلا کبیرا فی مدینة « برسیبولیس » عاصمة الفرس الاخمینیین ، وعلی بعد خمسین کیلوا مترا شمالی مدینة شیراز ، بالقرب من مدینة وزفول الحالیة . وقیل أن أحد الراقصات قذفت بمشعل علی أحد الاعمدة المکسوة بالخشب فأتت علی الردهة ، وسلك الاسکندر المسلك نفسه فحرقت المدینة . وظهرت کتابات من أیام الملك داریوس الاول . وشوهد مثل هذه النقوش علی بعد ١٥ کم الی الشمال الغربی من مدینة برسیبولیس نحتت علی القبور الحجریة لملوك الاخمینیین : داریوس الاول ، وارتکرکسس الاول وداریوس الثانی واکسرکسس .

وتعود الکتابة الأولی الی داریوس الأول الذی حکم من عام ٥٢١ الی ٤٨٦ ق . م . ووجدت کتابات أخری فی مواقع اخری وعلی أوان . ومعظم هذه الکتابات مکونة من ثلاثة أنواع من الاشارات والرموز المسماریة مما یفید انها تدل علی ثلاثة أنواع من الکتابات واللغات وهی : اللغة الفارسیة القدیمة (البهلویة) واللغة العیلامیة الحدیثة واللغة البابلیة . وجدیر بالذکر انه حینما حلت رموز اللغة المصریة القدیمة ، کان حجر رشید هو الوثیقة التی عاونت شامبلیون وزملاءه علی حل رموز اللغة اعتمادا علی الثلاث لغات التی کتبت علی هذا الاثر وهی الیونانیة والهیراطیقیة والدیموطیة .

عرف کتاب الیونان القدماء أمثال هیردوت وسترابون وبلوتارخ الکتابة المسماریة التی کانوا یسمونها بالکتابة الاشوریة أو الکتابة السوریة (السریانیة) .

کان الفضل فی حل رموز تلك اللغة الی کروتفند الالمانی الذی ولد فی عام ١٧٧٥ م واستطاع أن یحل رموزها فی ستة أسابیع عام ١٨٠٢ م . کذلك کان الضابط الانجلیزی هنری روبنصون الذی کان یعمل فی الجیش الهندی یشتغل فی حل رموز تلك اللغة منذ عام ١٨٣٥ ، واستطاع ان

بقرأ الاسماء الثلاثة التي جاءت في هـــذه الكتابة وهي : هستاسبس (Hystaspes) وداريوس (Darius) . واكسركسس (Xerxes)
وقد قام هذا الضابط بنسخ كتابات بيستوم Bistum عام ١٨٤٦ .

ثم توالت الدراسات من مختلف الدول الاوربية . وقد تبين للعلماء أن هذه الكتابات المسمارية تضم حوالى ٥٠٠ اشارة . وتبين انها لم تكن مؤلفة من حروف هجاء بل من رموز مقطعية . وقد قام العالم السويدى Iowenstein والفرنسي داي ساسي (de Sacy) والايراني هنكس بجهود جبارة نحو قراءة الكتابات الثلاثة . وقد اكدت الجمعية الاسيوية الملكية في لنــدن نتائج ابحــاث روبنصون فــكلفت Iulius Oppert المستشرق الاستاذ في جامعة الســوربون والايرلندى Hincks والمستشرق الانجليزى Fox Tallot بأن يقوم كل منهم بالدراسة منفردا وذلك في قراءة النصوص الخاصة بروبنصون : وقد تبين ان التراجم الثلاث متطابقة .

اما عن النص الذى قام بدراسته كروتنفند ترجمه كما يلى :

« داريوس الملك العظيم ملك الملوك ملك البلاد ابن الاخميني الذى بنى هــذا القصر » واللوحة الثانية هي « اكسركسس الملك العظيم ملك الملوك » « داريوس الملك ابن الاخميني » .

وقد امكن معرفة اللغــة البابلية بسهولة ، وذلك لتشابهها باللغــة السامية الاخرى مثل العربية والعبرية . ولكن تأخر حل رموز اللغــة السومرية لانها لم تكن من اللغات السامية . ثم لما تقدمت دراسة اللغة البابلية لوحظ بعض ترجمات لكتابات سومرية بلغة بابلية . من اجل ذلك تم معرفة حل رموز السومرية بعد معرفة اللغة البابلية .

كيف كان يدون التاريخ عند العراقيين القدماء ؟

لم يكن لأهل بابل أو آشور عهد ثابت قاموا بتأريخ حوادثهم به ، كما هو الحال في التقويم الخاص بميلاد المسيح او التقويم الهجرى الخاص بهجرة الرسول . ولكنهم كانوا يؤرخون السنة بحادث شهير وقع في العام السالف . وبقيت هذه الطريقة حتى أيام حمورابى . ثم تركوا هــذه الطريقة الى اخرى وهي تاريخ الحوادث بالنسبة الى سني حكم الملوك وتلك الطريقة الاخيرة شبيهة بما فعله الفراعنة في تأريخ حوادثهم . وقد استمر العراقيون الاقدمون على تلك الطريقة حتى نهاية بابل وحتى بعد

سقوطها . أما الاشوريون فقد اتخذوا طريقة اخرى وذلك بان سـموا السنين بعظماء رجال الدولة .

وقد قام الكتاب فى العصور القديمة بتدوين حوادث الملوك فى قوائم منذ توليهم العرش كذلك أيضا وصلتنا طريقة التأريخ الاشورى . كما ذكروا بعض الحوادث الهامة مثل حادث كسوف الشمس الذى تبين انه حدث فى ١٥ حزيران عام ٧٦٢ ق.م. وقد اتخذ هذا الحادث اساسا فى معرفة بداية التاريخ الاشورى وعلاقته بالسنة الميلادية . وقد وصلنا الكثير من قوائم باسماء الاسرات التى حكمت فى العراق مما قبل الطوفان وغالبا ما كان ذلك فى بداية أسرة أور الثالثة . وقد قسم التاريخ عندهم الى عهدين : التاريخ القديم ويبدأ منذ بدأ العالم الى ما بعد حدوث الطوفان والتاريخ الحديث وكان يبدأ بالنسبة لهم بعد الطوفان .

وقد لوحظ ان الكتاب حينما ينتهوا من كتابة قائمة باسرة من الاسرات يضيف حاشية قائلا مثلا « قضى على مملكة الوركاء بالسيف ، فانتقلت الملكية منها الى (اكد) فصار فى اكد سرجون ملكا وحكم ٥٦ سنة . وهو الذى تبناه فلاح وصار ساقيا للملك « أور ـ البابا » ملك بلاد أكد . وقد بنى سرجون مدينة أكد . وحكم مانشتوسو الاخ الاكبر لرموش وابن سرجون ١٥ سنة الخ . » وبعد ان ينتهى من سرد الاسرة الاكدية يشير الى عهد الفوضى الذى مر بالبلاد قائلا « من هو الملك ومن هو غير الملك ؟ » ويقصد بذلك العهد الجوتى .

وأما عن طريقة تأريخ الاشوريين ، فقد كتبوا قائمة باسماء ملوكهم وكانت القائمة تقسم الى فئتين : تتمثل الفئة الاولى فى ملوك بابل والفئة الثانية والتى تناظر الاولى هم ملوك اشور المعاصرين لهم . فمثلا قدكتب فى القائمة مثلا نبوخذ نصر الاول قد عاصر ثلاثة من ملوك الاشوريين ذكروا قرين اسم نبوخذ نصر .

وبالاضافة الى هذه القوائم الخاصة بالملوك ، فقد ترك لنا البابليون والاكديون نقوشا وكتابات تاريخية تقص علينا اعمـال الملوك وحروبهم ومآثرهم المختلفة . كل ذلك جاء مدونا على التماثيل واللوحات الحجرية والطينية . ولقد كان يأخذ الملوك معهم فى الحملات الحربية كتاباعسكريين للقيام بتسجيل الحوادث فى ميادين الحرب ، ثم كذلك اتبعوا نظام الحوليات وهى تدوين الحوادث على حسب السنين ، وكذلك فعل المصريون القدماء واشهر حوليات الاشوريين التى جمعت معلومات جغرافية هى حوليات

الملك « توكلتي ننورتا » الثاني (٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق.م.) والملك « اداد ـ نرارى » الثاني (٩١١ ـ ٨٩١ ق.م.) وكذلك حوليات «شالمانصر الثالث» (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م) التي سجلت حملاته الحربية . وجدير بالذكر ان تحتمس الثالث قام بتسجيل حوادث حملاته الحربية على جدران معبد الكرنك قبل ذلك التاريخ باكثر من خمسة قرون . وقام الكتبةالاشوريون بتسجيل اعمال الملوك الحربية على صفحات جدران قصورهم . وهولون من الوان الدعاية .

وسلك البابليون طريقة أخرى غير التي سلكها الاشوريون ، اذ انهم دونوا حوادثهم المعاصرة والتي سبق أن حدثت في بلادهم . وقدوصلت الينا من العهد البابلي الحديث (٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق.م..) فقد ذكروا اخبار الدولة الاكدية ، وما كان بين بابل وآشور وعيـلام من علاقات من ايام اشور بانيپال الى أيام الملك البابلي نابو بولاصر وقد استمر هذا اللون من التاريخ حتى ايام الاسكندر والعهد السلوقي . وكان من المـؤرخين المشهورين البابلي الشهير برعوشا (Berossus) الذى قام بكتابة تاريخ البلاد باللغة الأغريقية في القرن الثالث ق.م. ولم تصلنا اصول هـذا التاريخ ولكن جاء بعضها في كتابات بعض اليونانيين . وجدير بالذكر ان الحالة نفسها قد حدثت في التاريخ المصرى . اذ قام مانيتون السمنودى (٣٢٣ ـ ٢٤٥) بكتابة تاريخ مصر باللغة اليونانية وكذلك الحال لم يصلنا الاصل وانما جاءنا تاريخه عن طريق افريكانوس ويوزيب .

* * *

تقدم العلوم والمعارف

الجغرافية :

اما فى علم الجغرافية فقد ترك البابليون ما يدل على تمكنهم من هذا العلم من خرائط مختلفة للبلدان والاقطار . واقدم رسوم هى خريطة مدينة نفر منذ الالف الثانى ق.م. ثم رسموا خرائط لاقاليم وخريطة للعالم المعروف . وقد صور البابليون الارض على هيئة دائرة ، ويجرى فى وسطها الفرات . وفى مركز الدائرة تقع بابل ، وفى جانب من هذه الدائرة تقع بلاد آشور . وكانوا يضعون دوائر كناية عن المدن وبجوارها اسم كل مدينة كما نفعل فى الخرائط الحديثة حاليا . والمثلثات التى رسمت خارج الدائرة كانت تعبر عن البلاد الاجنبية .

العلوم الرياضية والطبيعية :

لقد نبغ اهل الرافدين فى العلوم الرياضية . فاهتدوا فى أول الامر الى العمليات الحسابية البسيطة من جمع وطرح . ثم تلى ذلك وضع جداول مطولة للضرب . ولعل معرفة العراقى القديم لكتابة الارقام والحساب قد بدات فى حوالى ٣٥٠٠ ق.م. وكان سبب ذلك حاجتهم الى التقويم لضبط الفصول . ثم بدات الموازين والمكاييل وحساب الارباح والمعاملات التجارية منذ ايام الاكديين . ثم الاعمال الهندسية الخاصة بالمبانى العمرانية وبناء الطرق وشق الانهار والجداول . وقد امتاز العهد البابلى القديم بنضوج العلوم والمعارف والتدوين . ولقد نضجت المعارف الجبرية التى بلغت مرتبة كبيرة أكثر من علم الهندسة . وقد عرف البابليون المعادلات الجبرية الاساسية .

لقد نبغ العراقيون الاقدمون فى العلوم الطبيعية مثل تلك التى تتناول حياة الحيوان والنبات منذ العهد البابلى القديم ، وتركوا لنا جداول فى الحيوانات والنباتات والاحجار . كما تقدموا فى معركة خواص المعادن ، وصنع الاصباغ والعقاقير والادوية والصابون والعطور والجعة الخ وعرفوا

ما نعرفه فى ايامنا هذه بالماء الملكى الذى يذيب الذهب وهو ذلك الحامض الذى اخرجه الكيماوى العربى جابر بن حيان فى القرن الثانى للهجرة .

الطب :

أما الطب فقد خالطه السحر ولكن نشأ عندهم أطباء عالجوا مرضاهم بالعقاقير . وكان بينهم الجراحون والبياطرة . وقد حدد قانون حمورابى الاجور الخاصة بالاطباء والجراحين وكذلك البياطرة . كما حدد العقوبات التى تفرض على الاطباء اذا ما اساؤا الى وظائفهم . وعرف الاطباء البابليون الكثير من الامراض والأوبئة وذكروا بعض الأمراض المستعصية مثل السرطان والدرن والجذام . وكانت أدويتهم تتركب من مستخرجات من مواد نباتية أو من أصول حيوانية أو معدنية . فمن النباتات زهور بعض النباتات أو عصيرها أو لبها . أما أعضاء الحيوانات التى كانت تستخدم فى العقاقير فمن مختلف انواع الحيوانات والطيور . وكانوا يأخذون نتاج بعض الحيوانات او اجزاء خاصة منها كالعظام والشحم أو الحليب أو الشعر أو الجمجمة يداوا بها بعض الامراض الخ . واستحضروا بعض الادوية من بعض المعادن بسحقها او خلطها أو تسخينها .

وجدير بالذكر أن لغة النصوص الطبية القديمة كانت السومرية ، كما تستعمل اللاتينية فى عهدنا الحاضر فى المستصلحات الطبية الحديثة .

الفلك :

علمنا من قبل ان السومريين لاحظوا خسوف القمر ، وسار الكلدانيون على طريقة السومريين ونظروا فى نجوم السماء وكواكبها ، واصبح ذلك العلم ليس خاصا بمعرفة الغيب ، بل هو علم يدرس له قواعد واصول ، ولقد عمل (نبوخذ نصر) على تدوين الظواهر الفلكية وتسجيلها بدقة وحفظ تلك المعلومات فى سجلات بمكان خاص ، وقد وصل الينا بعض هذه الالواح مؤرخة بعام ٥٦٨ ق.م . وهى توضح أقدم المعلومات القديمة فى علم الفلك وهى تعد أول تسجيلات للارصاد الفلكية ، وهى شبيهة بسلسلة الأرصاد الفلكية التى اقيمت فى انجلترا عام ١٧٥٠ ميلادية .

ظهر فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد اول فلكى بابلى جاء ذكره عند الكتاب اليونان : نابو ـ ريمانى Nabu-rimani بن بالاتو Balatu سليل أحد كهان اله القمر ، والذى شاهد وثائق هامة فى بابل فى عام ٤٩١ وعام ٤٩٠ . وقد سماه استرابو Naburianus ولقبه بالرياضى ،

ولو أن نتائج دراساته اعتمدت على الملاحظة ، الا أن التفاصيل كانت نتيجة حساب دقيق . وقد شرحت طريقته فى كتاب خاص بتلك الوثائق ، نقلت قديما .

هذا وقد استطاع نابو ــ ريمانى أن يضع جداول لتحركات الشمس والقمر . وهى أقدم تسجيلات لحساب ما تستغرقة كل من الشمس والقمر فى دورتيهما اليوميــة والشهرية والسنوية .. الخ . واستطاع أن يؤرخ وقت كسوف الشمس وخسوف القمــر . وحسب طــول السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوما وست ساعات وخمسين دقيقة وواحد وأربعين ثانية . وتعد حسابات (نابو ــ ريمانى) أقدم بحث علمى فى هذا الميدان كان قريبا من الصواب ، وأن أرقامها التى جاء ذكرها فى الجدول لا يوجد بينها وبين أرقامنا الحالية الا فارق بسيط أقل من عشر ثوان خلال السنة كلها . كما وضع بعد ذلك بقرون كلدانى اسمه (كيدينو Kidinu) حسابا أدق من الاول .

وكان كيدينو Kidinnu (وعرف عند اليونان بكيدناس Cidenas من أعظم الفلكيين البابليين (Strabo XVI.1.6) وارخت طريقته بعام ٣٧٩ أو عام ٣٧٣ .

وجدير بالذكر ان تقدم العراقيين الأقدمين فى علم الفلك لم يكن منشأه التنجيم ، والعكس هو الصحيح . وعلى ذلك فقد نشأ علم الفلك وذلك لحاجتهم لضبط الفصول والتقويم . واستعملوا آلات لرصد الافــلاك . فقــد استخدم الملك الاشورى (توكلتى ــ ننورتا الاول ١٢٦٠ ــ ١٢٣٢ ق.م.) آلة عندما قام ببناء قصره .

قسم البابليون اليوم الى ١٢ قسما مضاعفة من ساعتنا . وقسمت الساعة الى ٣٠ جزء فقسم اليوم اذن الى ٣٦٠ جزءا . وقسمت السنة الى ٣٦٠ يوما وعلى ذلك فقد كانت الدقيقة البابلية تساوى أربع دقائق من الدقائق الحالية . كل ذلك منذ أيام الاسرة الاكدية . واستند التقويم الى الشهر القمرى ، واستطاعوا ان يميزوا بين الشهور التى تتكون من ٢٩ يوما ومن ٣٠ يوما . وبذلك بلغت السنة القمرية ٣٥٤ يوما أى انها تقل عن السنة الشمسية بحوالى ١١ يوما . وقد وصلوا الى تصحيح السنة القمرية بالسنة الشمسية وذلك باضافة شهر للسنة القمرية عندما يشعروا بهذا الخطأ ، وقد قسم العراقيون الاقدمون الشهر الى أربعة أسابيع لكنها كانت غير مستقرة ، كذلك عــرف البابليون البروج الاثنى عشر (Zodiac) ومثلوا كل كوكب خاص ببرج من الأبراج برمز .

وقد نقل الاغريق آراء الكلدانيين فى علم الفلك ، وفى الواقع ان هذين العالمين الفلكيين من أهل العراق القديم يفخر بهما الشرق كله حيث مهدا للعالم أجمع السبيل الى معرفة حساب السنين والايام بدقة ، وأطلعا البشرية لاول مرة فى التاريخ على نظام ثابت للاجرام السماوية وقد سجلا لأنفسهما وللعراق القديم وللشرق القريب كله صفحات من المجد والفخار وحينما كان العالم يتيه فى ظلمات من الجهل والضلال كان النور يشع من الشرق وقد قدم للغرب هذه الابحاث والجهود الذى سطا عليها واستغلها وحاول أن يقلل من قدرها ، وبالرغم من أنه نشر ذلك فى أبحاث وكتب الا انه كان حريصا على الا يعرفها الى ابناء الأمة ويربى فيها من يحمل مشاعل النور من أبناء العروبة ، فقد باعد الاستعمار البغيض فى الشرق كله فى فترات الضعف السياسى التى مرت أن تنقل حضارة هذا القطر الشقيق وهو العراق القديم الى المصريين ليعلم مقدار تقدم الفكر العراقى والشرقى ومبلغ مساهمته فى النهضة العالمية مع شقيقته مصر الفرعونية . حرمنا نحن فى طفولتنا وفى مطلع حياتنا من ان نتعلم شيئا عن تاريخ العراق القديم وحضارته القديمة الرفيعة ، تلك الحضارة التى ظهرت واتخذت مكانتها بين الحضارات القديمة يوم أن كان التاريخ طفلا ، وسارت جنبا الى جنب مع الحضارة المصرية القديمة وامتزجت الحضارتان فى فجر تاريخهما وتأثر كل بالآخر فى فنونه المعمارية ورسومه وفنون النحت وحاول كل ان يقتبس من الآخر ما يلائم بيئته ، كما كان هناك بدون شك صلة وثيقة بين نظام الكتابة فى كل من مصر والعراق القديم . ولم يقلد كل من الحضارتين الآخر تقليدا اعمى ، فالمصريون مثلا أدركوا أنه فى الامكان تمثيل اللغة تصويرا عند ذلك اخذوا يطورون لغتهم بنظام خاص ، فاشارات المصريين الهيروغليفية لاعلاقة لها أبدا بالاشارات المسمارية فى بلاد الرافدين . ففى مصر اشاراتنا مصرية صميمة بنيت حتى نهاية التاريخ الفرعونى ، أما فى العراق القديم فقد اتجه العراقيون القدماء الى الرموز المجردة وذلك منذ العهد الباكر فى تاريخهم ، ولوحظ أنه قبل منتصف الالف الثالثة قبل الميلاد فقدت الصور ما يحتمل أن يوجد من شبه بينها وبين الاصل . والسبب فى ذلك هو أن المصريين قد احبوا الاشياء الملموسة مما نلاحظه عادة فى عدم تشويه اشكال الحيوانات التى كانت تستخدم فى الزخرفة ، لذلك اتخذوا من صور الاشياء حيوانات أو نباتات أو غيرها اشارات كتابية . وجدير بالذكر ان الكتابة فى مصر منذ العصور الاولى كانت الى جانب ما تؤديه من تعبير كانت تستخدم عنصرا أساسيا فى الفنون والزخرفة . أما فى بلاد ما بين النهرين فقد كانت الكتابة تستخدم بغرض التعبير فقط .

* * *

نظرات عابرة فى نشاط الحفر
فى بعض المدن القديمة بالعراق

استطاع علماء الآثار والحفائر أن يكشفوا لنا ألنقاب عن هذين المركزين الحضاريين (الوركاء ، ونفر) الى جانب غيرهما من مراكز الحضـــارة القديمة فى بلاد الرافدين . انما اخترت هذين المركزين لان المنقبين قد استطاعوا فيهما أن يكشفوا عن أدوار تأريخ العراق منذ العهود الاسلامية المتاخرة والتى عثر عليها فى أعلا تلال هاتين المنطقتين وما تلتها من عهود كالعهد الساسانى والفرثى والبابلى المتأخر والاشورى والسومرى حتى طور العبيد .

الوركاء

تقع الوركاء فوق أطلال مدينة (أوروك) القديمة التى جاء ذكرها فى التوراة باسم (أرك) ، و (الوركاء) تسمية عربية ، ما هى الا تحريف الاسم السومرى القديم (أوروك) . وهى على بعد حوالى ١٨ كيلو مترا شرقى محطة خط الدراجى ، وحوالى ٣٠ كيلو مترا جنوبى السمادة . وترجع أقدم عمارة فيها الى الالف الخامسة قبل الميلاد . وقد احتلت الوركاء أو (أوروك) مركزا ممتازا فى الحضارة السومرية فى الالف الرابعة قبل الميلاد ، وقد ظلت عامرة حتى صدر الاسلام .

كانت تقع المدينة قديما على شاطىء الفرات ، ولكن حينما غير النهر مجراه فى الألف الأول الميلادى أصبحت الوركاء على بعد ١٨ كيلو مترا شرقى الفرات . وقد ذكرت المدينة فى تاريخ الطبرى وفى معجم البلدان لياقوت الحموى .

وقد اتجه اليها علماء البحث والتنقيب منذ عام ١٨٤٩ من انجليز والمان وآخربعثة حفر عملت بالوركاء هى البعثة الالمانية برئاسة البروفسير هينرش لنزن وأصدرت حتى الآن احدى عشرة نشرة سنويا ، هذا عـدا الكتب المختلفة التى قام بنشرها بعض أعضاء البعثة .

تطور الحياة في الوركاء

أول من سكن الوركاء طوائف أقامت فى الالف الخامسة قبل الميلاد فى اكواخ أقيمت من اعواد القصب أو الحصير المغطى بالطين وذلك بالقرب من مجرى مائى فى جنوبى العراق الذى كانت تغمره المياه وانحسرت عنه فى العصور اللاحقة . وقد تقدمت الحياة فى المدينة فسكنها السومريون فالاكديون والبابليون والكيشيون وأقاموا فيها دورا للعبادة وقصورا للسكنى . كما نزل فيها الاشوريون فالكدانيون والفرس الاخمينيون . وترك فيها الاغريق السلوقيون والفرثيون ثم الساسانيون عمائر لا زالت اطلالها باقية فى أماكن مختلفة من المدينة .

من ذلك نرى ان الحضارات كلها قد تعاقبت فى هذه المدينة فكونت طبقات وانتشرت فيها التلول . وقد تمكن العلماء من تميز ثمانى عشرة طبقة لما قبل التاريخ وذلك ابتداء من طبقة عصر فجر الاسرات أو مايسمى بعصر لجش — كما قسموا الادوار التاريخية الى سبعة ادوار رئيسية قسمت الى اثنتى عشرة طبقة .

وجدير بالذكر ان أهالى الوركاء قد استخدموا فى مختلف طبقات الوركاء الثمانى عشر لما قبل التاريخ أنواع مختلفة من اللبن . والنوع الاول كبير الحجم سماه الالمان (المنتفخ Patzen) والنوع الثانى صغير الحجم منها ما سماه الالمان (Riesmchen) وهو طويل ورفيع ومتوازى المستطيلات ، وطوله أكثر من ضعف عرضه ، ومنها ما سمى (المستوى — المحدب Plano-Convex) .

وقد عثر فى الطبقة الاولى على أبنية مشيدة باللبن (المستوى — المحدب) وبعضها بلبن كبير الحجم من نوع متوازى المستطيلات . وذلك فى منطقة معبد (أى — انا) . وعثر فى الطبقة الثانية على كثير من آثار عصر (جمدة نصر) وفخاره الملون . أما مبانى هذه الطبقة فقد أقيم بعضها من اللبن المستوى — المحدب وبعضها باللبن متوازى المستطيلات . أما مبانى الطبقة الثالثة فهى ترجع ايضا الى عصر جمدة نصر ، وأغلب واجهات معبد هذه الطبقة قد ازدان بنوع من الفسيفساء (الموزائيك) ، كما استخدم التطعيم فى آخر هذا العصر وذلك باضافة قطع من الفخار تمثل أشكالا هندسية كالزهرة . وترجع مبانى الطبقة الرابعة الى عصر (أوروك) وقد زينت واجهات عماراتها بالفسيفساء . وقد عثر فى هذه الطبقة على الواح من طين عليها كتابات تصويرية وطبعات أختام . أما أبنية الطبقة

الخامسة فقد شيدت من اللبن المسمى ريمشن كبير الحجم وكشف فى هذه الطبقة عن قوالب طوب صنعت من خليط الجبس والرمل على هيئة متوازى المستطيلات . وأساس هذه الطبقة قد بنى من الحجر الجيرى الابيض . والطبقة السادسة أيضا من عصر أوروك . ومبانى الطبقة السابعة من عصر العبيد اذ عثر هناك على فخار من هذا العصر مختلط مع فخار أوروك الاحمر والرمادى . ومن الطبقة السابعة حتى الطبقة الثانية عشرة عثر على كثير من فخار أوروك بأنواعه المختلفة كذلك فخار العبيد ، كذلك كشف عن مناجل من الفخار واقراص المغازل وثقالات لشباك صيد الاسماك ودمى من الطين تمثل هيئة انسان أو أشكال حيوانات خصوصا الثور ، وكذلك عثر على سكاكين من حجر الاوبسيديان والصوان ومثاقب من العظم ومطاحن من الحجر . وعثر فى الطبقة الحادية عشرة على كسرة من النحاس . وقد تميزت الطبقات الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة بانقطاع فخار أوروك ، وقلت بعض انواع من فخار العبيد .

واطلال مدينة الوركاء تظهر فى أيامنا هذه على هيئة مرتفعات ما هى الا بقايا معابد — ومبان ضخمة تهدمت فى العصور الغابرة وتحولت الى اكوام وتلال . وأهمها :

منطقة معبد (أى — انا) أى (بيت السماء) شيد فى وسط المدينة تقريبا من اجل الالهة Inanna سيدة السماء وهى تسمى بالعربية (انا — انا) وهى التى سميت بعد ذلك عشتار . وقد امكن تاريخ اول معبد لهذه الالهة فى هذا المكان بمنتصف الألف الرابعة قبل الميلاد وهو العصر الذى اصطلح على تسميته بعصر أوروك . وفى الطبقة الرابعة كانت واجهة المعبد مزينة بالفسيفساء ، وكذلك زينت أعمدة المعبد أيضا بالفسيفساء . وقد استطاعت البعثة ان تقوم بعمل رسم مخطط لاكثر اقسام المعبد وهو يتكون من عدة حجرات بعضها حجرات مقدسة وبعضها مخازن . وقد عثر على طبعات اختام اسطوانية وأخرى على هيئة اقراص ، وكذلك على كسر فخارية عليها رموز الالهة انا — انا .

أما معبد الطبقة الثالثة وهو من عصر جمدة نصر فاطلاله قليلة قد اقيمت فوق مصطبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة امتار تقريبا . ومن ذلك يلاحظ ان معابد (أى — انا) لما قبل التاريخ قد انشئت على مصاطب مرتفعة . وزينت واجهات معبد الطبقة الثالثة بالفسيفساء ايضا . وقد كشف فى مخازن المعبد على آنية حجرية منقوشة واختام قرصية واسطوانية ونماذج من الفخار تمثل رموز الالهة انا — انا . وكذلك على الواح من الطين عليها كتابات تصويرية ورمزية .

أما معابد الطبقتين الاولى والثانية قد هدمت عندما شيدت الزقورة

وقد أمكن التأكد ان معبـد (أى ـ انا) من الطبقة الثالثة قد أقيم فوق مصطبة . وان اركانه كانت تتجه نحو الجهات الاصليـة الاربع . وكانت له قاعة فى الوسط مقدسة ، وتقدم القرابين خارج الحجرة المقدسة فوق المصطبة . وقد استمرت عبـادة الالهة (انا ـ انا) فى العصـور التاريخية فى هذه المنطقة ايضا . من اجل ذلك استعملت المعابد القديمة فى العهد الاكدى ولما حكم (أور ـ نمو) مؤسس أسرة (أور) الثالثة مدينة الوركاء وكان ذلك فى نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد ، قام بتجـديد معبد (اى ـ انا) تجديدا تاما . فنجده قام بهدم المعبد القديم وسوى الارض واقام فوقها صرحا كبيرا من اللبن .

وقد سمى البابليـون هذا الصرح الذى بنى على هيئـة مدرجات (زقورة أوزيكوراتى) وهى كلمة تعنى العلو والارتفاع . ومن قبل لم تعرف امثال هذه الزقورات . ولكن تم الكشف فى الوركاء وفى بعض المدن القديمة عن ابنية اقيمت فوق مصاطب قليلة الارتفاع مثل مصطبة معبد (أنو) فى الوركاء ، ومصطبة معبـد (اى ـ انا) من عصر جمدة نصر (الطبقـة الثالثة) وغيرها ولكن فى عهد (أور ـ نمو) تطورت بناء هذه المصاطب فاقيمت مصطبة فوق الاخرى على هيئة برج مدرج مربع القاعدة أو مستطيلها عرف بالزقورة . وقد اختلفت عدد هذه المصاطب باختلاف المدن والمعابد فبعضها يتكون من ثلاث مصاطب والبعض من سبع مصاطب ، وجميعها عبارة عن كتلة من اللبن غطيت بغلاف من الآجر . وقد بنى فوق المصطبة العليا معبد صغير . ويقام عادة على المصاطب الوسطى معبد أو معبدان صغيران يعرفان بالمعبد الارضى أو السفلى . واحيطت الزقورة بسـاحة كبيرة واحاط الزقورة وملحقاتها سور كبير .

أما ما بقى من معبد (أى ـ انا) من ايام اور ـ نمو ، فلم يبق من زاقورته الا مصطبة واحدة لا يزيد ارتفاعها عن ١٦ مترا تقريبا ، ويبلغ طول قاعدتها ٦٠ مترا فى مثل ذلك عرضا . وكان يصل الزائر الى هذا الارتفاع بواسطة درج لا زال باقيا منه بعض معالمه . وقد حدثت لهذه الزقورة اضـافات وتجديدات فى العصور التاريخية المتعاقبة . وقد كان سور المعبد ايام أور ـ نمو مزدوجا احدهما داخلى والآخر خارجى وبينهما حجـرات وردهات . وقد قدر المكتشفون مساحة المعبد بملحقاته بنحو ١٢ الف متر مربع .

وحينما جاء البابليون جددوا كثيرا من اقسام المعبد . كما اضاف اليه

الكشيون اقساما جديدة ، واهم هؤلاء (كريندداش) وهو الذى قام باضافات ضخمة فى جانبه الشرقى وزين جوانب حجرة الهيكل بجدار من الآجر يمثل الاله والالهة بالحجم الطبيعى وقد وقف كل منهم بالتناوب قابضا فى يده على اناء يسكب منه ماء . ويحتفظ المتحف العراقى بقطعة كبيرة من هذا الجدار ، ووسع المعبد أيام سرجون الثانى من ملوك الاشوريين ، فقد قام بتغطية ارضية الساحة الكبيرة بطبقة طبعت باسمه . وكذلك قام بترميمه أسرحدون واشور بانيبال . وقام نبوخذ نصر بتجديد اقسام هامة فى المعبد نراها فى القسم الشرقى من الزقورة . وبالرغم من مرور ما يقرب من الف وخمسمائة سنة من أيام (أور ــ نمو) حتى أيام (كورش) فلم يحدث تغيير فى معبد (اى ــ انا) . فكانت دائما الزقورة فى الوسط وحولها سور ، فتح فيه فى أواخر العهد أربعة أبواب تتصل بالمدينة ، ويحتمل وجود باب خامس فى الناحية الغربية . وقد بلغ طول الضلع الجنوبى الغربى لهذا السور ٣٢٠ مترا .

كانت زاقورة أور ــ نمو مكونة من مصطبة واحدة حتى العهد السلوقى . وقد تبين أن السلوقيين قد جعلوها مكونة من أكثر من مصطبة كما شيدوا معابد أخرى فى المدينة للالهة عشتار فى أقسام أخرى من المدينة .

منطقة معبد آنو وما حولها

وهناك بالوركاء معابد أخرى ، فقد كشفت البعثة التى كانت تقوم بالحفر هناك عن أطلال مبان عرفت بالمعبد الابيض وذلك لطلاء بعض أجزاء منه بالجص الابيض . وقد أقيم هذا المعبد من أجل الاله (آنو) سيد السماء . ومخططة لا يختلف فى كثير من تفاصيله عن معبد (أ ى ــ انا) ، وما تبقى من جدرانه لا يزيد عن ثلاثة أمتار . وتتجه زواياه نحو الجهات الاصلية الاربع ، غطيت أرضيته بالقار . ويحيط به ساحة مكشوفة بنى فى جانبها الشمالى الشرقى مذابح تقدم عليها القربان . وشيد المعبد فوق مصطبة من اللبن وذلك ليتشابه بالزقورة ، ويبلغ ارتفاع هذه المصطبة حوالى ١٢ مترا ، أما قاعدتها فمربعة الشكل تقريبا ما يقرب من ٧٠ مترا . وكلما ارتفع بناء المصطبة لاحظنا انها تميل نحو الداخل ، وقد لوحظ انها صممت على هيئة بروز وغور أى انها مضلعة بما يشبه (الطلعات والدخلات) كذلك الحال فى المظهر الخارجى للمعبد الذى سبق ان ذكرنا انه كان فى بعض اجزائه قد طلى بالجص الابيض ، وجدير بالذكر أن مثل هذا الطراز وهو البروز والغور اى (الطلعات والدخلات) كذلك

طلاء بعض جوانب الحوائط بالجص الابيض موجود فى المقابر المصرية من العصر العتيق (الاسرة الاولى والثانية) فى سقارة على وجه الخصوص .

هذا وكان يصل الناس الى هذا المعبد بواسطة درج بنى فى الركن الشرقى للمصطبة وقد استطاع علماء الآثار أن يرجعوا هذا الطراز الى أواخر عصر جمدة نصر . هذا وقد بان للعلماء أنه يوجد تحت المعبد عدة طبقات مماثلة للمعبد قد بلغت ثمانى طبقات جميعها من عصر جمدة نصر . ويوجد فى أسفل مصطبة آنو طبقات كثيرة يرجع تاريخها الى عصر العبيد . ويمكننا أن نستنتج من ذلك كله أن معبد آنو هنا قد أقيم منذ أقدم العصور ، وأنه استخدم خلال عصور العبيد وأورك وجمدة نصر . وقد تغلبت عبادة الهة أخرى هى الالهة (انا ــ انا) التى كانت فى منطقة (اى ــ انا) من اجل ذلك اتجه اهتمام الملوك الى معبد (اى ــ انا) أكثر من معبد آنو . ثم أعاد السلوقيين مجد الاله آنو وذلك بأن أقاموا له معبداً جديداً من الآجر شمالى شرقى معبد آنو القديم ، وقد سميت هذه المبانى (بيت ريش) وخصص جــزء كبير منهــا لعبادة الاله آنو وزوجته . ومبانى هذا المعبد واسعة . كما أقام السلوقيين مبانى أخرى بالآجر تقع الى جنوبى (بيت ريش) وسميت بــ (البناية الجنوبية) غالبا ما تكون للالهة (عشتار) وقد زججت جوانب البناء ، وقد وجد على جدار المحراب كتابة آرامية تشير الى اسم من قام ببناء هذا المعبد وهو المدعو (آ نو أو بلط) الملقب (كيفالون) ، ومن الجائز أنه كان احــد حكام بابل من السلوقيين عام ٢٠١ ق.م هــذا وقد أهمل المعبد بعــد أيام السلوقيين فاتخذته جماعات من (الفرثيين) و (الساسانيين) سكنا وبنوا على أنقاضه بعض مساكن لهم .

وقد احيطت مدينة الوركاء بسور كبير كان يبلغ طوله ما يقرب من تسعة كيلو مترات ونصف كيلو متر لا زالت أجزاء من اطلاله باقية على هيئة تلال ، وكان السور دائرى أو بيضوى ، وكان بالسور بابان احدهما فى الشمال والثانى فى الجنوب ويطلق على هذا الاخير باب أور . ويتكون السور من جدارين متلاصقين يبلغ عرضه الداخلى نحو خمسة أمتــار والخارجى نحو مترين . وقد أقيمت سلسلة من انصاف الابراج من الداخل بلغت نحو تسعمائة برج . وقد قدر علماء الاثار تاريخ هــذا الســور بحوالى ٣٠٠٠ قبل الميــلاد . ومن الجائز أنه بنى قبل ذلك . وفى تلك المناسبة أرى من الخير الاشارة الى ما قام به المصريون القدماء من اسوار كانت تحيط مدنهم . فهذا (مينا نعرمر) مؤسس الاسرة الاولى ٣٢٠٠ ق.م بعد أن قام بتوحيد مصر العليا والسفلى اختار عند ملتقى الدلتا بمصر

العليا فى ذلك الحين عاصمة سماها (الجدار الابيض) اذ انه بنى سورا كبيرا حول مدينته الجديدة وطلى هذا السور بطلاء أبيض وهو الجير . وتلك طريقة كانت متبعة فى الحضارات القديمة باحاطة مدنهم بأسوار لحمايتها من الإعداء والحيوانات المفترسة . كذلك أيضا من بين مخلفات المصريين القدماء أطلال أسوار موجودة فى ناحية (العرابة المدفونة) مركز البلينا محافظة سوهاج حيث مدينة أزوريس (أبيدوس) ، فالى الشمال من المدينة بناء مسور بسور مزدوج من اللبن لا زالت أجزاء كبيرة منه باقية ويطلق عليه (شونة الزبيب) . هذا السور المزدوج يعطينا فكرة عن هذا اللون من المبانى الذى رأيناه فى الوركاء من ناحية ازدواج الاسوار . ويعتقد بعض علماء المصريات أن شونة الزبيب ترجع الى الدولة القديمة فى تاريخ مصر الفرعونية .

كشف فى الوركاء عن آثار كثيرة فنية وتاريخية من تماثيل وألواح من الطين واوان حجرية منقوشة ومطعمة واختام اسطوانية وقرصية نشرت اغلبها فى تقارير البعثات التى قامت بالحفر هناك .

نفـــر

كانت تسمى قديمـــا نيبور Nippur ، وتقع على بعد ٢٥ كيلو مترا شمال شرقى الديوانية . وقديما كان يجرى الفرات وسطها ، ولا زال أثر ذلك واضحا فيما يعـــرف حاليا بشط النيـــل . وفى القسم الشرقى من المدينة تل مرتفع يسمى حاليا بتل بنت الامير فوقه زقورة الاله انليل رب الهواء وأعظم الالهة السومرية . وحول معابد المنطقة سور ذو أبراج . وبالمدينة سور كبير يحيطها ويقيها من هجمات الاعداء . جاء ذكرها فى الاساطير السومرية والبابلية منذ الالف الثالثة قبل الميلاد . وكشف فيها عن آلاف من ألواح من الطين .

بدات الحفائر فى المدينة عام ١٨٥١ تحت اشراف أحد العلماء الانجليز، وفى عام ١٨٨٩ بدأ بعض علماء جامعة بنسلفانيا فى فلادلفيا التنقيب هناك باشراف الاستاذين Hilprecht & John P. Petero وقد عثرت البعثة فى موسمين على آثار ذات قيمة منها ألواح من الطين كثيرة العدد متنوعة اللغات سومرية وبابلية وأشورية ، وكذلك مختلفة مواضيعها من أدبية الى دينية الى تعليمية وغير ذلك . ثم قامت البعثة أيضا بأعمال الحفر هناك عام ١٨٩٣ وعثرت على آثار هامة من ألواح من الطين الى تماثيل من الحجر والدمى والاختام والخرز والاوانى الفخارية الى غير ذلك من آثار قيمة . وقد استمرت أعمال الحفر حتى عام ١٩٠٠ تخللتها فترات انقطاع وتبادل العمل علماء

آخرون متخصصون . وقامت البعثة بالحفر فى جهات مختلفة من المدينة وركز العمل فى تل يسمى (تل الرقم) وهى منطقة غنية بالواح الطين المكتوبة ، لذلك عرفت (بالمكتبة) . وكشف بين الآثار عن لوح من الطين حفر عليه رسم تخطيطى من النصف الاول من الالف الثانى ق.م. لمدينة نيپور نفسها وقدكتب عليه بالبابلية أسماء بعض منشآت المدينةوشوارعها والقنوات المارة بها . وغالبا أن ذلك من العصر البابلى القديم . على أنه يرجح انه منقول عن نسخة أقدم من ذلك العهد . وقد عثرت البعثة على آثار من مختلف العصور من منتصف القرن الرابع قبل الميلاد الى عصر الوركاء الى العصر الفرثى وبينهما آثار من عصر فجر الاسرات والعصر الاكدى والعصر البابلى القديم والعصر الاشورى والبابلى من أيام نبوخذ نصر والعصر الاخمينى الى العهد السلوقى .

ثم بعد نصف قرن استأنفت جامعة بنسلفانيا بالاشتراك مع جمعية الآثار للابحاث الشرقية فى شيكاغو العمل فى المنطقة .

وقد بنى فى وسط المدينة (زقورة) ارتفعت عن مستوى الارض بحوالى خمسة عشر مترا . وقديما كان يعلوها معبد صغير يصعد اليه الزائر من ثلاثة سلالم لا زالت آثارها باقية وأمام هذه السلالم ساحة كبيرة ، وبموازاة الجانب الشمالى الشرقى للبرج معبد مستطيل . وبين الزقورة والمعبد شارع عريض بلط بالآجر والزفت . ويحيط بالمنطقة سور ذو أبراج .

ومن الكتابات العديدة التى عثر عليها فى المنطقة قد تبين للعلماء أن هذا المعبد قد بنى من أجل الاله انليل سيد الهواء وكبير الالهة السومرية فىالالف الثالثة قبل الميلاد كما سبق أن اشرنا فى بداية هذا الحديث .

وقد تبين أن كثير من الملوك من عهود مختلفة قد اشتركوا فى بناء وترميم وتوسيع هذا المعبد وبرجه وقد استطاعت البعثة أن تكشف عن ست طبقات .

١ ـ آثار هذه الطبقة العليا من العهد الفرثى والبابلى الحديث بعضها باسم نبوخذ نصر البابلى .

٢ ـ آثار من أيام الاشوريين بلطت أرضيتها بآجر باسم اشور بانيبال.

٣ ـ غلف جدار المعبد فى هذه الطبقة بآجر بارتفاع حوالى متر من العصر الكشى .

٤ ــ اطلال معبد من أسرتي (ايسن) و (لارسا) .

٥ ــ بقايا جدران من أسرة أور الثالثة ، اذ بينها آجر مطبوع باسم (أور ــ نمو) مؤسس هذه الاسرة .

٦ ــ اطلال من أواخر العصر الاكدي .

وقد استطاعت البعثة ان تحصل تحت الطبقة السادسة على انقاض يرجع قسمها العلوي الى العصر الاكدي وأما القسم الاسفل فالى عصر الاسرات القديمة الاولى والثانية . وسنحاول في عرض سريع أن نبسط للقارىء الكريم صفة هذه المعابد .

ذكرنا من قبل انه قد اتضح لبعثات الحفر ان معبد أنليل يتكون من ستة طبقات رئيسية ، أقدمها يرجع الى الاسرات القديمة وتتدرج حتى تصل الى العصر الاكدي حيث عثر على طبعات أختام باسم (شاركالي شاري) . وقد تبين أن المعبد الذي بني بعد ذلك يرجع اما الى أواخر العصر الاكدي أو الى ما بعده بقليل أي اما في بداية أيام (أور ــ نمو) أو قبلهمن الزمن . ومن الجائز ان أور ــ نمو جدد بناءمعبد للاله انليل كان موجودا قديما ووسعه ونظم المنطقة بما في ذلك البرج المدرج والسور ، وبذلك شيد المعبد الخامس ولكن معالمه بسيطة بسبب تغلغل اسس المعبد الرابع والثالث في الطبقة الخامسة . وقد لوحظ ان المعبد الخامس لا يختلف كثيرا عن السادس . ووجدت آجرات مطبوعة باسم (برسن) و (اورننورتا) من المعبد الرابع . ومعبد الطبقة الثالثة بقاياه كثيرة . وفي داخل المعبد حجرتان مقدستان ، ولوحظ ترميمات متأخرة عن ذلك مطبوعة بأسماء ملوك كشيين بينهم نبوخذ نصر الاول . وآثار المعبد الثاني باقية تظهر بوضوح ،وقد لوحظ عليها ترميمات وآجر مطبوع باسم الملك آشور بانيبال مما يثبت أن هذه الطبقة من العصر الاشوري . وتقع بقايا المعبد الاول فوق الطبقة الثانية التي ترجع الى العهد الاشوري . وقد عثر بين آثار المعبد الاول على آجر مطبوع باسم الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني .

وقد عثرت البعثة في غير هذا المكان على اطلال معابد اخرى وعلى آثار سومرية قديمة متنوعة منها أجزاء من تمثال من الرخام ربما يمثل الاله انليل .

كذلك قامت البعثة بالحفر في منطقة (تل رقم الطين) التي سمتها البعثات السابقةبالمكتبة . وقد عثرت البعثة على مزيد من الرقم . وقد

استطاعت البعثة فى ثلاثة مواسم النزول الى طبقات أسرة أور الثالثةوذلك بعد مرورها بحوالى أربع عشرة طبقة ، وفيما يلى عرض سريع لها :

وجد على سطح التل مقابر اسلامية بعثرت بين بقايا آثار من الطبقة الاخمينية ، وبين هذه القبور ما يرجع الى العهد الفرثى كانت الجثة موضوعة فيها داخل جرار كبيرة بيضوية الشكل . وكشف فى هذهالطبقة عن كتابات باسم الملك الفارسى (داريوس) و (كورش) وغيرهما . وعثرفى الطبقة الثانية على كتابات من العهد البابلى الحديث بعضها باسم (نابوبولاصر) . وظهر فى آثار الطبقة الثالثة مخلفات آشورية تذكر بعضها اسم آخر ملوكهاوهو (سين شارى شكون) أما الطبقتان الرابعةوالخامسة فهما آشوريتان أيضا يرجع تاريخهما بين القرنين التاسع وأواخر السابع ق.م. ذكر فيها اسم أشور بانيبال . ثم ظهر بعد ذلك طبقة رملية سميكة تفصل الطبقتين الخامسة والسادسة . أما الطبقة السادسة فآثارها من أيام الكشيين ، وقد لوحظ أن الطبقة السابعة تضم آثارا كشية من قبور غنية بمخلفاتها الاثرية الى دور للسكنى فقيرة . أما الطبقة الثامنة فكانت من العصر البابلى القديم وتداخل قسمها الاسفل فى الطبقة التاسعة التى تليها والتى خربت آثارها . أما الطبقة العاشرة فكانت مخلفاتها أغنى الطبقات بما عثر عليه فيها من رقم الطين الذى دون آداب السومريين وقد بلغ ما كشف منها حوالى ٥٠٠ رقم . وارخت الطبقة الحادية عشرة والثانية عشرة من أيام أسرتى (ايسن) و (لارسا) وبلغ الحفر الى طبقتين هما الطبقة الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، وأثارهما من عصر أسرة أور الثالثة.

وقد عثر خلال عمليات التنقيب عن آثار مختلفة فى منطقة المعابد وفى منطقة تل الرقم من أوان فخارية الى ادوات من النحاس الى دمى من الطين الى خرز مختلف أشكاله الى أختام أسطوانية وقرصية ، ولكن أهم هذه اللقى هى الكتابات ورقم الطين التى تقدر بحوالى الفى قطعة ، ومن الدراسة الاولية امكن معرفة ان أكثر الرقم عددا هى الالواح الخاصة بالشئون الاقتصادية كالبيع والشراء والقرض والمقايضة واغلبها من أيام اسرتى (ايسن) و (لارسا) من بداية الالف الثانى قبل الميلاد . ثم من بين الرقم الواح مدرسية لتدريب الطلاب على الكتابة وبها بعض المفردات اللغوية . ثم من بينها قليل يحمل نصوصا رياضية أو فلكية . ووجد بين الرقم مجموعة كبيرة أشورية . وبينها كتابات تتعلق ببيع أطفال وقد لوحظ أن اغلبهم من البنات فى مدينة نيبور . ومن الرقم الهام ما تضمن مواضيع ادبية وأسطورية ودينية سومرية بعضها ترتيلة دينية مع مديح الالهة (نانشة) احدى الهات (لجش) وبهذا الرقم تم اخراج الترتيلة كاملة . وملخصها أن الالهة نانشة رحيمة وعادلة وتساعد الضعفاء لذلك فهى

تجلب الخير الى مدينة لجش واميرها (جوديه) الذى يقدم لها الولاء .... الخ وقد ارخت لوحة ترتيلة ناشئة هذه الى نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد . كذلك من بين الآثار التى عثر عليها لوحة كبيرة تضم حوالى مائتى سطر ، وهى قطعة ادبية تدور على نقاش أدبى بين أستاذ وشاب فيرشده الى التحلى بمكارم الاخلاق ، وكذلك عثر على رقيم يحتوى على نصائح فلاح لولده فيرشده الى طرق الارواء والحراسة وحصاد الشعير . وهذا الرقيم يعد من أقدم الرقم الذى يقدم للحضارة الانسانية أقدم تقويم زراعى فى العالم . ويحتفظ المتحف البريطانى بقطعة مشابهة فى موضوعها عثر عليها فى (أور) . ومن بين اللوحات الهامة رقيم أكمل تسلسل قضية كانت معروفة جزء منها فى رقيم سابق . والقضية هى أن أشخاصا ثلاثة قتلوا شخصا واخبروا زوجته بقتله ، فكتمت الزوجة السر ولم تخطر رجال الحكومة . ورفعت القضية الى الملك (حاكم بلاد سومر) فحول الملك القضية الى المجلس الاعلى فى (نيبور) الذى كان مشكلا من تسعة أشخاص لمحاكمة المتهمين الاربعة لان الزوجة اعتبرت شريكة . وتذكر النصوص أن اثنين من القضاة دافعا عن المراة والراجح أن المجلس وافق فى النهاية على تبرئة المراة وحكم باعدام الثلاثة . كذلك عثر على أختام اسطوانية وقرصية وطبعات اختام ، اهمها مناظر التقويم . وكذلك عثر على دمى من الطين . وتمثال من الطين كبير الحجم (٣٦ × ١٨ × ٤١ سم) يحتمل أنه كان يمثل الاله (انليل) جالسا على عرش وقد مد يديه الى الامام ، وله لحية طويلة ووضع على رأسه تاجا الهيا . ولا زال على أجزاء من التمثال بقايا آثار الوان . كذلك عثر على أوان فخارية مختلفة الاشكال والانواع تمثل العصور المختلفة من العصر الفرثى والاخمينى حتى العصر الاكدى .

* * *

ثبت بملوك بلاد الرافدين

من الامور الصعبة التى تعترض كل من يقوم بالكتابة فى تاريخ بلاد الرافدين هو التأريخ ، والسبب فى ذلك هو قيام بعض الحكام بالحكم فى بعض أجزاء من الوادى بينما يقوم آخرون بالحكم فى نفس الوقت فى أجزاء أخرى . وكذلك أيضا حدوث فترات تخلخلت فيها الاوضاع وزلزت فيها الأمة زلزالها .

وكما قام الفراعنة فى مصر القديمة بتقديم مداون حفظت فيها اسماء ملوكهم ، كذلك الحال فى بلاد الرافدين قام أهله بتسجيل اثبات بحكامهم ومدد حكمهم . ومنذ أقدم العصور سمى الاشوريون سنى حكم ملوكهم طبقا لما وضعه الكتبة فقد قاموا بجمع حوادث كل ملك فى ثبت خاص منذ توليه العرش . وقد تركوا لنا ما سمى Limmu وهو غالبا ما يكون دورة من الدورات الرسمية التى كانت تعرف عند الاشوريين (وهى طريقة تأريخ السنة بحسب فترة حكم كبار الموظفين ومن بينهم الملك) . كذلك اعتادوا ان يذكروا بعض الحوادث الهامة . فمثلا ذكر Pursagale حاكم Gazana حادث كسوف الشمس الذى تبين انه حدث طبقا للحساب الفلكى الدقيق فى ١٥ يونية (حزيران) ، عام ٧٦٣ ق.م. وقد اتخذه العلماء أسسا لضبط التاريخ الاشورى . وتمكن العلماء من وضع اثبات الملوك والاسرات مستندة الى السجلات المختلفة التى دونت فيها الحوادث . وقد أصبح لدينا بذلك نماذج مهمة باسماء الاسرات والملوك التى حكمت فى بلاد الرافدين منذ بدء الخليقة . وقد وصل الينا ليس فقط اثبات بالاسرات والملوك وسنى حكمهم بل نجد لمصنفى هذه الوثائق حواشى مختلفة بعد كل أسرة . فمثلا نجد الكاتب يعلق عند نهاية حكم الوركاء ومملكتها وذلك حينما قضى عليها سرجون الاكدى . ثم يتسأل مؤلف الاثبات بعد أن ينتهى من سرد الاسرة الاكدية عن الفوضى التى مرت على البلاد بعد الاسرة الاكدية فى العهد الجوتى .

وقد ترك لنا الاشوريون اثباتا بالملوك الذين حكموا ومن قابلهم من ملوك بابل . فقد عاصر نبوخذ نصر البابلى ثلاثة من ملوك بابل .

كذلك قدمت لنا آحافير بلاد الرافدين نقوشا وكتابات تاريخية تسجل مآثر الملوك وكبار رجال الدولة سجلت على مختلف التماثيل والالواح الطينية ، وذلك منذ فجر التاريخ .

كما ترك لنا مدونو التأريخ ما يسمى الحوليات Les annales وقد رتبت الحوادث بالسنيين وذلك طبقا لترتيب سنى الملوك أو طبقا

للترتيب الذى سمى بالتأريخ الدورى (Limmu) . ومن أشـــهر الحوليات التى وصلت الينا هى حوليات الملك ـ نيرارى الثانى ٩١١ ـ ٨٩١ ق.م. وتوكولتى ننورتا الثـانى (٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق . م .) . والملك آشور ـ ناصربال الثانى ٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م. وقدتضمنت هذه الحوليات معلومات جغرافية هامة . وجدير بالذكر آن هذه الحوليات تشبهماسجله تحتمس الثالث على صفحات جدران معبد الكرنك من حوادث الحروب التى قام بها . كذلك سجل على جدران بعض ردهات معبد الكرنك مناظر تمثل نماذج من النباتات والحيوانات التى أتى بها تحتمس الثالث من آسيا .

كذلك من الوثائق التى ساهمت فى معرفة ترتيب ملوك بلاد الرافدين السجلات التى يمكن ان نسميها سجلات الدعاية وقد دون فيها أعمال الملوك الحربية وقد سجلت فيها المواقع حسب التسلسل الجغرافى لتلك الاقاليم . وهكذا الحال حينما قام تحتمس الثـالث وولده امنوفيس الثانى بحملاتهم المختلفة على آسيا فسجل تحتمس الثالث اسماء كثير من المدن التى مر عليها وكذلك سجل امنوفيس الثانى اسماء كثير منالمدن الاسيوية التى حاربها .

ومن الغريب ان البابليين لم يتركوا لنا مثل الاشوريين سجلاتتاريخية دونت فيها حروب ملوكهم وانما وصل الينا من عهدهم ما يسمى التأريخ Chronicles وهى تشبه الى حد كبير التدوين التاريخى الذىيسلكه المؤرخ الحديث . وقد سلك فيها ألكاتب فوق تدوينه حوادث بابل ومن عاصرها من الاقطار المجاورة الماضى البعيد الذى مر على بلاد الرافدين .

هذا وقد قام مؤرخ بابلى المشهور (برعوث Berossus) فى القرن الثالث ق.م بكتابة تأريخ البلاد باليونانية وقد فقدت أصـــول كتاباته ولكن نقلها غيره من اليونان . وجدير بالذكر أن المـؤرخ المصرى مانيتون قد كتب تأريخ مصر باللغة اليونانية كما فعل ذلك البابلى . وقد ضاعت الاصول التى كتبها أيضا كما ضاعت كتابات برعوث . ووصلت الينا عن طريق افريكانوس ويوزيب .

ولقد اعتمد العلماء اخيرا فى تأريخ العصور البعيدة فى القدم علىطريقة جديدة وهى اختبار الاشعة Radio-Carbon ولكن هذه الطريقة الاخيرة لازالت تحت البحث .

والى القارىء اثبات بملوك بلاد الرافدين منذ أقدم العصور طبقا لآخر دراسة قام بها James G. Macqueen فى كتابه الاخير Babylon الذى نشر عام ١٩٦٤ مع بعض التصرف والمقارنات .

(١) المراكز والحضارات القديمة فى بلاد الرافدين

	شمال بلاد الرافدين	جنوب بلاد الرافدين
١٠٫٠٠٠	زرزى	
٩٠٠٠	كريم شاهر	
٧٠٠٠	چرمو	
٥٠٠٠	حسونة	
٤٧٥٠	سمراء	
٤٥٠٠	تل حلف	
٤٢٠٠		اريدو
٤٠٠٠		حاچى محمد
٣٩٠٠		العبيد
٣٦٠٠		أوروك
٣٤٠٠	العصر الشبيه بالكتابية	أوروك الأخيرة
٣٣٠٠		چمدة نصر
٣٠٠٠		الأسرة الأولى
٣٨٠٠		الأسرة الثانية
٢٦٠٠		الأسرة الثالثة
٢٣٤٠		أسرة أكد

ملاحظة : أثير جدل كثير حول بداية العصورالأولى . وعلى سبيل المثال ، يرى بعض العلماء ان چرمو تؤرخ بحوالى عام ٥٠٠٠ ق.م.

(ب) اسرة أكد وأسرة أور الثالثة

٢٣٤٠ — ٢٣٣١	لوكال زاجيزى صاحب أوماواوروك
٢٣٣١ — ٢٢٧٦	سرجون الاكدى
٢٢٧٥ — ٢٢٦٧	ريموش
٢٢٦٦ — ٢٢٥٢	مانيشتسو
٢٢٥١ — ٢٢١٥	نارام سين
٢٢١٤ — ٢١٩٠	شاركاليشارى
٢١٨٩ — ٢١٨٧	لجيجى، نانوم، امى، ايلولو
٢١٨٦ — ٢١٦٦	دودو
٢١٦٥ — ٢١٥١	شودورول
٢١٩٠ — ٢١٢٠	تفوق الجوتيين
٢١٢٠ — ٢١١٤	أوتوهيجال صاحب أوروك
٢١١٣ — ٢٠٩٦	أورنامو صاحب أور
٢٠٩٥ — ٢٠٩٤	شولجى
٢٠٤٨ — ٢٠٣٩	بورسين
٢٠٣٨ — ٢٠٣٠	شوسين
٢٠٢٩ — ٢٠٠٥	أبيسين

(جـ) حكام ايسن ، ولارسا ، وبابل (٢٠٠٠ ـ ١٧٠٠ ق.م.)

ايسن

٢٠١٧ ـ ١٩٨٥	ايشي ـ ايرا	
١٩٨٤ ـ ١٩٧٥	شؤلي اشو	
١٩٧٤ ـ ١٩٥٤	اددينداجان	
١٩٥٣ ـ ١٩٣٥	اشم داجان	
١٩٣٤ ـ ١٩٢٤	لپت عشتار	
١٩٢٣ ـ ١٨٩٦	اورنينورتا	
١٨٩٥ ـ ١٨٧٤	بورسين	
١٨٧٣ ـ ١٨٦٩	لپت انليل	
١٨٦٨ ـ ١٨٦١	ارايمتي	
١٨٦٠ ـ ١٨٣٧	انليل باني	
١٨٣٦ ـ ١٨٣٤	زامبيا	
٨١٣٣ ـ ١٨٣١	اتيرپيشا	
١٨٣٠ ـ ١٨٢٨	اوردوكوجا	
١٨٢٧ ـ ١٨١٧	سين ماجير	
١٨١٦ ـ ١٧٩٤	دامي قيليشو	

لارسا

٢٠٢٥ ـ ٢٠٠٥	ناپلانوم	
٢٠٠٤ ـ ١٩٧٧	امني سوم	
١٩٧٦ ـ ١٩٤٢	سام ايوم	
١٩٤١ ـ ١٩٣٣	زابايا	
١٩٣٢ ـ ١٩٠٦	جون جونوم	
١٩٠٥ ـ ١٨٩٥	أبيسارا	
١٨٩٤ ـ ١٨٦٦	سومؤل	
١٨٦٥ ـ ١٨٥٠	نورأداد	
١٨٤٩ ـ ١٨٤٣	سنيدينام	
١٨٤٢ ـ ١٨٤١	سنراباm	
١٨٤٠ ـ ١٨٣٦	سنيقيشام	
١٨٣٥	سيلي اداد	
١٨٢٤ ـ ٨١٢٣	واراد سين	
١٨٢٢ ـ ٨١٦٣	ريم سين	

بابل

الاموريون (الاسرة الاولى)

١٨٩٤ ـ ١٨٨١	سوموابوم	
١٨٨٠ ـ ١٨٤٥	سومولايل	
٨١٤٤ ـ ١٨٣١	سابئوم	
٨١٣٠ ـ ١٨١٢	أپيلسين	
١٨٢١ ـ ١٧٩٣	سين موباليت	
١٧٩٢ ـ ١٧٥٠	حمورابي	
١٧٤٩ ـ ١٧٩٢	سامسوايلونا	

(د) ملوك بابل وآشور (١٧٠٠ ــ ٥٣٩ ق٠م تقريباً)

بابل

الاسرة الاولى (استمرار لما سبق)

١٧١١ ــ ١٦٨٤	أبيشو
١٦٨٣ ــ ١٦٤٧	أميدتيانا
١٦٤٦ ــ ١٦٢٦	اميزادوجا
١٦٢٥ ــ ١٥٩٥	سامسوديتانا

الكشيون (الاسرة الثالثة)

١٥٩٠ ــ ١٥٣٠	آجوم الثانى
١٥٣٠ ــ ١٥٠٠	بورنابورياش الاول
١٥٠٠ ــ ١٤٩٠	(غير معروف)
١٤٩٠ ــ ١٤٧٠	كاستيلياشي الثالث
١٤٧٠ ــ ١٤٦٠	أولامبووررياش

الحكام الكشيون الاوائل

١٧٠٠	جانداش
	أجوم الاول
	كاشتيلياس الاول
	ابيراتاش
	اورزيجوروماش
	خارباشيخو
١٦٠٠	تيپتاكزى

القطر البحرى (الاسرة الثانية)

١٧٣٥	الومايلو
	اتى ــ الينيبى
١٦٥٠	دامى قيليشو
	اشكيبال
	سوشى
١٥٩٥	جوكيشار
	پشجالدارامـاش
	أداراكالاما
	اكوررلانا

آشور

١٧٠٠	اداسى
١٦٩٢ ــ ١٦٨٣	بل باني
١٦٨٢ ــ ١٦٦٦	ليباچو
١٦٦٥ ــ ١٦٥٤	شارما ــ أداد الأول
١٦٥٣ ــ ١٦٤٢	ان ــ تار ــ سين
١٦٤١ ــ ١٦١٤	بازاچو
١٦١٣ ــ ١٦٠٨	لولاچو
١٦٠٧ ــ ١٥٩٤	شونينوا
١٥٩٣ ــ ١٥٩١	شارما ــ آداد الثانى
١٥٩٠ ــ ١٥٧٨	ارى شوم الثالث
١٥٧٧ ــ ١٥٧٢	شماشى أداد الثانى
١٥٧١ ــ ١٥٥٦	اشمداجان الثانى
١٥٥٥ ــ ١٥٤٠	شماشى ادادى الثالث
١٥٣٩ ــ ١٥١٤	اشور ــ نيرارى الاول
١٥١٣ ــ ١٥٠٠	بوزور ــ آشور الثالث
١٤٩٩ ــ ١٤٨٧	انليل ــ ناصر الاول
١٤٨٦ ــ ١٤٧٥	نوريلى
١٤٧٤	آشور ــ شادونى

بابل

١٤٦٠ — ١٤٥٠ آجوم الثالث
١٤٥٠ — ١٤٣٥ كاداشهان خاربى الاول
١٤٣٤ — ١٤١٨ كارايندااش
١٤١٧ — ١٤٠٠ كوريجالزو الاول

١٣٩٩ — ١٣٨١ كاداشمان انليل الاول
١٣٨٠ — ١٣٥٠ بورنابورياش الثانى
١٣٤٩ — ١٣٤٨ كاراخارداش الثانى
١٣٤٧ — ١٣٤٦ نازبوجاش
١٣٤٥ — ١٣٢٤ كورى جالزو الثانى
١٣٢٣ — ١٢٩٨ نازيماروتاش
١٢٩٧ — ١٢٨٠ كاداش مانتورجو
١٢٧٩ — ١٢٦٥ كاداشمان انليل الثانى
١٢٦٤ — ١٢٥٦ كودورانليل
١٢٥٥ — ١٢٤٣ شاجاراكتيشورياش
١٢٤٢ — ١٢٣٥ كاشتيلياش الرابع
١٢٣٤ — ١٢٢٨ حاكم اشورى
١٢٢٧ — ١٢٢٦ انليل ناديشومى
١٢٢٦ — ١٢٢٥ كاداشمان خاربى الثانى
١٢٢٤ — ١٢١٩ اداداشوميدين
١٢٨١ — ١١٨٩ اداداشوموسور

القطر البحرى

١٤٧٥ ملاكوركورا
ايجاميل

آشور

١٤٧٣ — ١٤٥٣ آشوررابى الاول
١٤٥٢ — ١٤٣٣ آشور نادينهى الاول
١٤٣٢ — ١٤٢٧ انليل ناصر الثانى
١٤٢٦ — ١٤٢٠ آشور نيرارى الثانى
١٤١٩ — ١٤١١ آشور بل نيششو
١٤١٠ — ١٤٠٣
١٤٠٢ — ١٣٩٣ آشور نادينهى الاول
١٣٩٢ — ١٣٦٦ اربا ــ أداد الاول
١٣٦٥ — ١٣٣٠ آشور أوباليت

١٣٢٩ — ١٣٢٠ انليل نيرارى
١٣١٩ — ١٣٠٨ أرك ــ دن ــ يلى
١٣٠٧ — ١٢٧٥ أداد نيرارى الاول
١٢٧٤ — ١٢٤٥ شلمناصر الاول

١٢٤٤ — ١٢٠٨ توبكولتى نينورتا الاول

١٢٠٧ — ١٢٠٤ آشور نادين ابلى
١٢٠٣ — ١١٩٨ اشور نيرارى الثالث

بابل

١١٨٨ — ١١٧٤ مليشخو
١١٧٣ — ١١٦١ مردوك پاليدينا
١١٦٠ زاباباشوميدينا
١١٥٩ — ١١٥٧ انليل نادينا هي

الاسرة الرابعة فى ايسن

١١٥٦ — ١١٣٩ مردوك كابيتاهيشمو
١١٣٨ — ١١٣١ اتيماردوكبالاتو
١١٣٠ — ١١٢٥ نينوتهانادينشومى
١١٢٤ — ١١٠٣ نبوخذ نصر الاول
١١٠٢ — ١٠٩٩ انليل نادين أپلى
١٠٩٨ — ١٠٨١ ماردوك نادينا هي

١٨٠٠ — ١٠٤٦ اداد أپاليدينا
١٠٤٥ ماردوك آهي — اربا ؟
١٠٤٤ — ١٠٣٣ ماردوك ؟
١٠٣٢ — ١٠٢٥ نابوشومليبور

القطر البحرى (الاسرة الخامسة)

١٠٢٤ — ١٠٠٧ سيماشيهو

اشور

١١٩٧ — ١١٩٣ انليل كودورسور
١١٩٢ — ١١٨٠ نينورتا — اپاليكور
١١٧٩ — ١١٣٥ آشوردان الاول

١١٣٤ نينوتاتوكوتياشور
١١٣٤ موتاك كيلنوسكو
١١٣٣ — ١١١٥ آشور رشيشى
١١١٤ — ١٠٧٦ تيجلات پيلاسر الاول
١٠٧٥ — ١٠٧٤ اشارى داپاليكور
١٠٧٣ — ١٠٥٦ آشور بلكالا
١٠٥٥ — ١٠٥٤ اربا — اداد الثانى
١٠٥٣ — ١٠٥٠ شماشى اداد الرابع
١٠٤٩ — ١٠٣١ آشور ناصيربال الاول
١٠٣٠ — ١٠١٩ شلمناصر الثانى

١٠١٨ — ١٠١٣ آشور نيرراري الرابع

بابل

القطر البحرى (الاسرة الخامسة)

١٠٠٧ اموكينشومى
١٠٠٦ – ١٠٠٤ كوشاناديناهى

البازى (الاسرة السادسة)

١٠٠٣ – ٩٨٧ اولماشاشالينشومى
٩٨٦ – ٩٨٧ نينورتاكودوروسور الثانى
٩٨٤ شيرى قتوشوقامونا

الاسرة العيلامية

٩٨٣ – ٩٧٨ ماربيتيا پالوسور

الاسـ ة الثامنة

٩٧٧ – ٩٤٢ نابوموكيناپيل
٩٤١ نينورتاكودوروسور
؟ ماربيتاهيدين
؟ شماش موداميق
٨٩٤ – ٨٨٢ نابوشوميشكون
٨٨١ – ٨٥١ نابواپاليدن

آشور

١٠١٢ – ٩٧٢ آشور رابى

٩٧١ – ٩٦٧ آشور ريشيش الثانى
٩٦٦ – ٩٣٥ تيجلات پيلاصر الثانى
٩٣٤ – ٩١٢ آشوردان الثانى
٩١١ – ٨٩١ أداد نيرارى الثانى
٨٩٠ – ٨٨٤ توكولتى نينورتا الثانى
٨٨٣ – ٨٥٩ اشور ناصرپال

بابل

٨٥٠		ماردوك بلوساتى
٨٥٠	٨٢٢	ماردوك زاكيرشومى
٨٢١	٨١٤	ماردوك بالاتسواقبى
٨١٤	٨١٣	باباهيادين

فترة غامضة

٨١٢	٨٠٣	نابوموكنزرى – ماردوك بلزرى – ماردوك پاليدوانا الثانى

الإسرة التاسعة

٨٠٢	٧٦٣	اربامادوك
٧٦٢	٧٤٨	نابوشوميشكون
٧٤٧	٧٣٤	نابوناسر
٧٣٣	٧٣٢	نابونادينزرى
	٧٣١	نابوشوموكين
٧٣١	٧٢٩	نابوموكينزر

تفوق الاشوريين

٧٢٨	٧٢٧	پولو (تيجلات بيلاصر الثالث صاحب آشور)

أشور

٨٥٨	٨٢٤	شالمناصر الثالث
٨٢٣	٨١١	شماشى أداد الثانى
٨١٠	٧٨٣	اداد نيرارى الثالث
٧٨٢	٧٧٣	شالمناصر الرابع
٧٧٢	٧٧٥	آشوردان الثالث
٧٧٤	٧٤٥	آشور نيرارى الخامس
٧٤٤	٧٢٧	تيجلات بيلاصر الثالث

بابل

	تفوق الاشوريين
٧٢٦ — ٧٢٢	ولولاى (شالمناسر صاحب آشور)
٧٢١ — ٧١٠	ماردوك پاليدين
٧٠٩ — ٧٠٥	سرجون الاشورى
٧٠٤ — ٧٠٣	سنحاريب صاحب آشور
٧٠٣	ماردوك زاكيرشوم
٧٠٣	ماردوك پاليدين (مرة اخرى)
٧٠٢ — ٧٠٠	بليبنى
٦٩٩ — ٦٩٤	آشور نادينشوم
٦٩٣	نرجال شيززيب
٦٩٢ — ٦٨٩	موشيزب ماردوك
٦٨٨ — ٦٨١	سنحاريب صاحب آشور
٦٨٠ — ٦٦٩	اسرحدون صاحب آشور
٦٦٨ — ٦٤٨	شماش شوموكين
٦٤٧ — ٦٢٧	كاندالانو
	العهد البابلى الجديد
٦٢٦ — ٦٠٦	نابوپولاصر
٦٠٥ — ٥٦٢	نبوخذ نصر الثانى
٥٦١ — ٥٦٠	أملِ ماردوك

اشور

٧٢٦ — ٧٢٢	شالمناصر الخامس
٧٢١ — ٧٠٥	سرجون الثانى
٧٠٤ — ٦٨١	سنحاريب
٦٨٠ — ٦٦٩	اسرحدون
٦٦٨ — ٦٣١	آشور بانيپال
٦٣٠ — ٦٨٢	آشور اتيليلانى
٦٢٧ — ٦٢١	سشارى شكون
٦١١ — ٦٠٨	آشور أوباليت (فى حران)

العهد البابلي الجديد

٥٥٩ ــ ٥٥٦	نيري جليصر
٥٥٦	لابشي ماردوك
٥٥٦ ــ ٥٣٩	نابونيدوس

(د) حكام بابل من الفرس واليونان

١ ــ ملوك فارس

٥٣٩ ــ ٥٣٠	كورش
٥٢٩ ــ ٥٢٢	قمبيز
٥٢١ ــ ٤٨٦	داريوس الاول
٤٨٥ ــ ٤٦٥	اكسر كسيس الاول
٤٦٤ ــ ٤٢٤	ارتكسركسس الاول
٤٢٤	اكسر كسيس الثانى
٤٢٣ ــ ٤٠٤	داريوس الثانى
٤٠٣ ــ ٣٥٩	ارتكسركسيس الثانى
٣٥٨ ــ ٣٣٨	ارتكسركسس الثالث
٣٣٧ ــ ٣٣٦	أرسس
٣٣٥ ــ ٣٣١	داريوس الثالث

٢ ــ الغزو المقدوني

٣٣١ ــ ٣٢٣	الاسكندر الاكبر

ثبت بالعصور التى مرت ببلاد الرافدين وما يناظرها من الأقطار الأخرى

ق.م.	بلاد الرافدين	ق.م.	الأقطار الأخرى
١٠٫٠٠٠	نهاية العصر الحجرى القديم فى شمال بلاد الرافدين .	١٠٫٠٠٠	نهاية العصر الحجرى القديم فى مصر وفلسطين .
٩٠٠٠ — ٧٠٠٠	بداية الزراعة فى شمال بلاد الرافدين .		
٧٠٠٠ — ٥٠٠٠	المراكز الحضارية فى شمال بلاد الرافدين.	٧٠٠٠	السبيل : فى مصر ، چيركو : فى فلسطين .
٤٢٠٠	أقدم موقع حضارى فى جنوب بلاد الرافدين .	٤٥٠٠	الفيوم : أقدم مركز حضارى فى العصر الحجرى الحديث . زراعة .
٤٠٠٠	قيام دويلات المدن .		
٣٥٠٠	اختراع الكتابة .	٣٥٠٠	اختراع الكتابة فى مصر .
		٣٢٠٠	اتحاد مصر العليا والسفلى ، الأسرة الأولى فى مصر .
٢٧٠٠ —	الأسرات السومرية الأولى : أوروك ،	٢٦٧٠	الهرم المدرج للملك زوسر فى مصر (تقريبا) .
٢٣٣٠	أور ، كيش الخ .	٢٥٩٨	بداية حكم الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر (تقريبا) .
٢٣٣٠ — ٢٢٠٠	أسرة أكد : سرجون ونارم سين .		
٢٢٠٠ — ٢١٢٠	تفوق الجوتيين .		
٢١٢٠	عهد احياء السومريين .		
٢١١٣ — ٢٠٠٥	أسرة أور الثالثة .	٢٠٠٠	بداية عهد القصر فى كريت .

بلاد الرافدين

ق.م.	
٢٠٠٥ ــ ١٧٩٣	الصراع بين ايسن ولارسا فى جنوب بلاد الرافدين .
١٨٩٤	سومو ابوم يؤسس أول أسرة فى بابل .
١٧٩٢ ــ ١٧٥٠	حكم حمورابى . السيطرة البابلية الأولى .
١٧٤٢	الغزو الكشى الأول .
١٥٩٥	الغزو الحثى . انهيار أسرة بابل الأولى .
١٥٩٥ ــ ١١٥٧	الحكم الكشى فى بابل .

الأقطار الأخرى

ق.م.	
١٩٠٠	دخول الحثيين فى آسيه الصغرى . أول دخول الشعوب اليونانية فى اليونان.
١٨٠٠	ظهور آشور . شماشى اداد الأول .
١٧٢٥	غزو الهكسوس فى مصر .
١٥٦٧	جلاء الهكسوس عن مصر .
١٤٥٠	ظهور ميتانى . تحالف الميتانيين مع المصريين .
١٤٠٠	القضاء على قصور كريت .
١٣٧٠	انهيار الميتانيين . غزو الحثيين شمال سورية .
١٣٦٧ ــ ١٣٥٠	ثورة اخناتون فى مصر . القضاء على الحلف المصرى الميتانى .
١٣٥٠	ظهور الآشوريين مرة أخرى .
١٢٨٥	حروب المصريين فى شمالى سوريا (رمسيس الثانى وموقعة قادش) .
١٢٢٠ (؟)	خروج بنى اسرائيل من مصر .
١٢٠٠	سقوط الامبراطورية الحثية . غزو الدوريين لبلاد اليونان .

بلاد الرافدين

ق.م.	
١١٥٦ ــ ١١٠٠	احياء الوطنية البابلية .نبوخذ نصر الأول
١١٠٠ ــ ٩٠٠	فترة الضغط الارامى .
٩٠٠ ــ ٦٢٦	فترة سيطرة الأشوريين .
٦٢٦ ــ ٥٣٩	السيطرة الثانية لبابل . نابوپولاصر ، نبوخذ نصر الثانى ونابونيدوس .
٥٣٩	سقوط بابل على يد كورش .
٥٣٠ ــ ٣٣١	فترة الاحتلال الفارسى .

الأقطار الأخرى

ق.م.	
١٠٨٠	انهيار آشور أمام هجمات الاراميين
١٠٦٩	بداية افول نجم الحضارة المصرية (العصر المتوسط الثالث) .
١٠٠٠	حكم كل من داود وسليمان فى اسرائيل .
١٠٠٠	دخول الميديين والفرس فى ايران .
٩٣٠	عهد الملوك فى اسرائيل ويهودا .
٩٠٠	احياء الآشوريين .
٧٣٠	غزو بعنخى مصر .
٧٢٢	قضاء الآشوريين على سمريا . وسقوط اسرائيل .
٦٧٥	ظهور الميديين فى ايران .
٦٦٠ تقريبا	غزو آشور بانيپال مصر .
٦١٢	القضاء على نينوى .
٥٩٧	سقوط أورشليم على يد بنوخذ نصر
٥٨٦	القضاء على أورشليم . سقوط يهودا
٥٥٠	الفرس يقضون على الميديين .
٥٢٤ ــ ٤٠٤	الاحتلال الفارسى فى مصر يتخلله فترات ثورات المصريين ضد المحتل (الأسرة السابعة والعشرون فى مصر) .

الاقطار الأخرى

٣٩٩ — ٣٤٣	تمكن المصريين من الاستقلال (الأسرات الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون) .
٣٤٣ — ٣٣٢	غزو الفرسي مصر مرة ثانية (الأسرة الحادية والثلاثون) .
٣٣٦	تولى الاسكندر فى اليونان .
٣٣١ — ٣٢٣	الاسكندر الأكبر .

أرجو ملاحظة أن جميع هذه التواريخ تقريبية .

الباب الثانى

الفصل الأول

عرض عابر لتاريخ وحضارة سورية ولبنان وفلسطين

طبوغرافية المنطقة

تتميز طبوغرافية سورية بتناوب أرضها المنخفضة والمرتفعة المتجهة من الشمال الى الجنوب، وقد قسمت الى خمس مناطق :

السهل الساحلى :

يقع الى أقصى الغرب، ويمتد من الشمال، من خليج اسكندرونة (ايسوس قديما) الى الجنوب عند شبه جزيرة سيناء . ويتسع شمالا ويضيق عند سفح جبل لبنان، ولا يزيد عرضه هنا عن اربعة اميال . وأصل معظم هذا السهل قديم، اذ كان غالبا نتيجة ارتفاع قاع البحر ثم جاءه طمى من المياه الجارية من الجبال الشرقية . وقد اشتهرت بعض السهول بخصوبتها، مثل سهل صارونة وسهل فلسطيا، الذى اشتق منه اسم فلسطين . ويبلغ طول هذا السهل من الشمال حتى حدود مصر حوالى ٤٤٠ ميلا .

الجبال الغربية :

تشمل المنطقة الثانية وتشرف على السهل الساحلى سلاسل جبلية وهضاب من الامانوس شمالا حتى سيناء جنوبا، واهمها جبال لبنان . وهى تمثل حاجزا كبيرا بين البحر والشرق، وفى الامكان اختراق هذا الحاجز عند وادى نهر الكبير (نهر Elentherus قديما) شمالى طرابلس . وقد أحاطت مرتفعات الامانوس بخليج اسكندرونه، ويبلغ ارتفاعها نحو ٥٠٠٠ قدم . وفى طرفه الجنوبى يشقه نهر العاصى (نهر Orontes قديما) . وبين سلاسل الجبال طرق تؤدى الى انطاكية وحلب . وتتكون سلاسل

جبال الامانوس من الحجر الجيرى وبعض الصخور البركانية . وتمتد سلسلة هذه الجبال جنوب العاصى عند جبل الاقرع (Casius قديما) ، وتستمر حتى نهر الكبير الذى ينبع من مرتفعات النصيرية ، ثم تبدأ بعد ذلك جبال لبنان من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالى صور على مسافة ٥٠ من الاميال . واعلى قمة فى لبنان هى القرنة السوداء ، وتبلغ ١١٠٢٤ قدما فوق سطح البحر . وفلسطين هى امتداد لجبال لبنان ، ويستمر سهل لبنان الساحلى فى سهل صارونه (من العبرية شارون Sharon) الذى يمر من الكرمل الى جنوب يافا ليفصل سهل فلسطيا . وتستمر مرتفعات سوريا الغربية الى مرتفعات الجليل حيث تبلغ اعلا قمة فى فلسطين حوالى ٣٩٣٥ قدما . ووسط المرتفعات وادى يسمى مرج بن عامر (Esdraelon) ، وهو يمر بفلسطين ، فيفصل مرتفعات الجليل عن السامرة واليهودية جنوبا . ثم تنحدر هضبة اليهودية نحو بئر سبع . وقد سمى العبرانيون هذه المنطقة الصحراوية بالنقب .

منطقة التصدعات:

أما المنطقة الثالثة فى سورية ، هى حوض طويل ضيق ، يبدأ عند المنحنى الغربى لنهر العاصى عند سهل العمق كما جاء اسمه فى النصوص المصرية القديمة وهو يرتفع عند حماة بحوالى ١٠١٥ قدما فوق سطح البحر وبعد ذلك يسمى سهل البقاع بين مرتفعات لبنان ، ثم يستمر جنوبا فى وادى الاردن حتى يصل الى البحر الميت ، ثم يستمر فى وادى العربة حتى خليج العقبة . ويتراوح عرض سهل البقاع بين ستة وعشرة أميال عند بعلبك الى ٣٧٧٠ قدما عن سطح البحر والعاصى والليطانى هما النهران الكبيران الوحيدان فى سورية ويجريان فى سهل البقاع الذى يشكل أحسن تربة للزراعة ولكن مجرى العاصى منخفض جدا ، حتى انه يصعب استخدام مياهه ، واستعملت الروافع للافادة من مياهه . أما وادى الاردن (يسمى الاردن أيضا نهر الشريعة) فيبلغ طوله نحو خمسة وستين ميلا ، ويتراوح عرضه بين ثلاثة وأربعة عشر ميلا . وتنصرف المياه فى البحر الميت الشديد الملوحة .

وقد تعرضت سورية قديما لحوادث زلازل ، فتعرضت انطاكية فى القرون الستة الاولى الميلادية لهزات كثيرة . وكذلك بعلبك واريحا .

المرتفعات الشرقية :

وهى المنطقة الرابعة فى طبوغرافية سورية . وتبدأ هذه السلسلة من

جنوبى حمص ، ثم تنحدر من حرمون نحو هضبة حوران ومنطقة التلال ثم جلعاد فى شرقى الاردن وهضبة مؤاب ثم جبل سعير الواقع جنوب البحر الميت (سعير مرادف لادوم) . وتقع سلسلة لبنان الشرقى وسط هضبة بردى (نهر أبانافى التوراة) . وسلسلة لبنان الشرقى أقل كثافة فى السكان من سلسلة لبنان الغربى . واما نهر بردى فينبع من مرتفعات وادى الزيدانى ويتجه شرقا الى الاراضى السورية وهو السبب فى خلق مدينة دمشق . ثم يتفرع من هناك الى خمسة فروع .

اما منطقة حوران (قديما سميت) Auranitis وفى التوراة باشان ، واسمها الاشوريون ، حوارنو) فهى هضبة بركانية فى أغلب أقسامها ، تبدأ جنوبى دمشق فى مساحة ٦٠ ميلا طولا وعرضا . وترتفع الكتلة الجبلية فى شرقى حوران الى مابين اربعة الاف وخمسة الاف قدم وتستمر تلك المرتفعات فى السلسلة الشرقية فى شرقى الاردن عند جبل عجلون (٤١٣٧ قدما) ويبلغ ارتفاع صخور البتراء الرملية حوالى ٤٤٣٠ قدما .

بادية الشام :

وهى المنطقة الخامسة فى تضاريس سورية ، وهى تبدأ من هضبات شرقى حوران وشرقى الاردن متجهة الى منطقة السهوب والحرات والرمال حتى تشكل ما يسمى بادية الشام وسهولها جيرية غالبا . وصحراء البادية هى متممة الصحراء العربية الكبرى ، ويسمى قسمها الشرقى ببادية الجزيرة أو بادية ما بين النهرين فى القسم الشمالى وتسمى بادية العراق أو السماوة فى القسم الجنوبى . وهى تؤلف مثلثا قاعدته ترتكز عند خليج العقبة وخليج الكويت وقمته منطقة حلب ، ويبلغ أقصى عرض لها ٨٠٠ ميل .

المناخ والنباتات والحيوانات

ومناخ سورية هو مناخ البحر المتوسط ممطر شتاء وجاف صيفا . وبها ثلاث مناطق نباتية متباينة فينمو بالسهل الساحلى والسفوح المنخفضة (المنطقة الأولى والثانية) نبات البحر المتوسط كالقمح والشعير والدخن (وهو نوع من الذرة) وغيرها من النباتات التى اضيفت الى هذه المنطقة حديثا. أما أهم اشجار المنطقة فهى السنديان والصنبور والتوت والزان . وفى المنطقة الثانية وهى المرتفعات تنمو أشجار الأرز والشوح . وتتمثل المنطقة النباتية الثالثة فى منطقة التصدعات ، وقد كان لشدة

الحرارة وقلة الأمطار أثرها فى انعدام وجود أشجار ، وتنمو فيها الأعشاب، اذا ما سقطت الأمطار وكذلك بعض شجيرات . أما نهرا العاصى والأردن فيجريان فى أودية عميقة ، مما جعل الفائدة المرجوة منهما فى الرى قليلة .

كانت شجرة الزيتون فى العصور القديمة وكذلك التين والكرمة من الأشجار التى نمت فى مساحات واسعة . وقام الفينيقيون بادخال الكرمة الى اليونان . وتنمو شجيرة الزيتون بكثرة فى جنوبى بيروت . أما أفخم اشجار لبنان ، هو الأرز (Cedrus Libani) . وقد كان لهـذه الشجرة أثر فى شـهرة الفينيقيين فى صـناعة السـفن ، وهو الذى دفع المصريين وسكان الرافدين الى الاتصـال بلبنـان . ولا زال يوجـد فى مجموعات صغيرة . ويبلغ ارتفاع اعلاها نحو ٨٠ قدما .

أما الحيوانات التى عاشت فى سورية ، الأغنام والماعز ، وظهر الحصان البرى منذ الدور النطوفى فى فلسطين . وقد استؤنس فى العصور القديمة شرقى بحر الكسپى ، وجاء به الكشيون الى بلاد الرافدين . ثم نقـله الحثيون الى الليديين ثم الى اليونان . وأدخـل الهكسوس الحصان الى سورية ومصر . وأقدم رسوم معروفة للجمل فى العصور الحجرية كشفت فى (كلوة) فى الاردن . واكتشفت صـورة جميلة للهجين وراكبه فى تل حلف (٣٠٠٠ و ٢٩٠٠ ق.م) ومما يثبت استئناس هذا الحيوان هو وجود الراكب . ووجـد مونتيه فى جبيـل تمثال صـغير مصرى من النصف الأول من الألف الثانى ق . م يمثل جملا مضطجعا . ووجـد الحمار والبغل وغيرهما من حيوانات حمل الأثقال . وكذلك البقر والغنم والخنازير . أما الحيوانات البرية هى الضبع والذئب والثعلب وابن آوى والظبى والوعل . وكان يوجد بسورية الأسود والفهود ولكنها انقرضت . أما الطيور فأهمها النسر والباشق والبوم .

* * *

العصور الحجرية

العصر الحجرى القديم

ظهرت فى سورية عصور حجرية كبقية أقطار الشرق ، وقد قابلها فى اوربا ايضا العصور الحجرية المعروفة . وأهم الكهوف التى قام العلماء بدراستها فى لبنان وفلسطين كهوف عدلون وجبل الكرمل وأم قطفة والزطية . ووجد فيها فؤوس يدوية ومكاشط وبلط .

وقد تميز العصر الحجرى القديم الاعلى بأنه كان أكثر مطرا من العصر الحجرى القديم المتوسط . وكانت حيواناته من تلك الحيوانات التى تعيش على منطقة غنية بالنباتات ، لكنها انقرضت . ومن عظام الحيوانات التى وجدت فرس النهر وحيوان يشبه الفيل . وجدير بالذكر أن أوربا كانت تمر فى هذه الفترة بالعصر الجليدى .

وقد عثرت الآنسة Garrod فى كهفين من كهوف جبل الكرمل على هياكل عظيمة بشرية من العصر الحجرى القديم المتوسط . كذلك كشف Rene Neuville فى كهف يقع فى جنوبى الناصرة عن هياكل بشريةمن هذا العصر ايضا . وهى تتشابه مع ما عثر عليه من نماذج موستيرية : وهى تشبه نوعا يمكن وضعه بين النوع النياندرتالى (وهو اسم فى وادى الرين) والجنس البشرى الحالى . وقد قام
Theodore D. Mc. Cown and Arthur Keith
بفحص هذه الهياكل وأثبتا انها تشبه الى حد كبير الانسان الحديث .

كانت تقوم صناعة الانسان فى العصر الحجرى المتوسط على الشظايا من الصوان تستعمل كبلط يدوية ومكاشط وسواطير ومطارق . وكانت تدل صناعات تلك الحضارة على تغير فى النواحى المناخية ، فقد اتجه المناخ الى الجفاف ، وظهرت بقايا حيوانات ترمز الى هذا اللون من المناخ مثل الغزال والضبع، المرقط والدب والجمل والوعل وكذلك أيضا استمرت حيوانات أخرى مائية مثل فرس النهر . ومع وجود جفاف الا آن الانهار الدائمة كانت تجرى وتروى الأرض بمياهها .

ثم تغير المناخ فى العصر الحجرى القديم الأعلى ، فهطلت الأمطار ، وبذلك حدثت فترة ممطرة أخرى . وللأسف الشديد لا نعلم شيئا عن هذه الفترة بالنسبة لسورية وفلسطين .

وفى الفترة الأخيرة من هذا العصر بدأ يزحف الجفاف على البلاد . ويقابل هذا الدور فى أوربا الحضارة الأورنياسية Aurignacian (*) وظهر فى كهوف انطلياس ونهر الكلب وفى كهف قرب بحيرة طبريا (مغارة الأميرة) . وظهرت هياكل عظيمة لحيوانات تدل على بداية الجفاف مثل الماعز والغزلان . أما الأدوات التى كانت تستخدم من الحجارة فقد بدأت تصغر ، وهى التى نسميها بالأدوات القزمية .

العصر الحجرى الوسيط (الميزوليتى)

وهى فترة مر بها الانسان بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث من اجل ذلك سميت الفترة الانتقالية ، وقد دامت نحو ستة آلاف سنة وذلك اعتبارا من عام ١٢٠٠٠ قبل الميلاد . وقد قام الانسان فى هذه الفترة بصقل أدواته الحجرية وتهذيبها . وتتمثل هذه الحضارة جيدا فى فلسطين وفى وادى النطوف الذى يقع الى الشمال الغربى من القدس فى كهف الشقبة . ويسمى الدور النطوفى . وقد بدأت هذه الحضارة فى أوائل العصر الحجرى الوسيط واستمرت فى الألف السادس. وانسان هذا العصر شبيه بالانسان الذى عثر على هياكله فى العصر البرونزى الحجرى فى بيبلوس وانسان عصر ما قبل الأسرات فى مصر . كانوا نحاف الجسم مستديرى الرؤوس .

ومن بقايا الحيوانات أمثال الغزلان والضبع ، نستطيع أن نفترض وجود جفاف . وكثرت الأدوات العظمية والأدوات القزمية .

وقد استؤنست الحيوانات فى هذه الفترة . وفى الواقع أن تدجين الحيوان قد جاء نتيجة الشفقة أو المحبة أو الحاجة . فقد قام الانسان بحماية الحيوان فى نظير أن قدم له هذا الأخير اللبن أو نقله من بلد الى بلد أو نقل أثقاله .

والراجح أن الحضارة النطوفية قد شهدت الزراعة بعد أن استقر الانسان وفكر فى فلاحة الأرض .

كان القمح والشعير البرى ينموان فى سورية الشمالية وفلسطين .

وقد ترك الانسان الذى عاش فى الدور النطوفى مناجل حيوانية كثيرة .. كذلك ترك معاصروهم من أهالى سورية وفلسطين مثل هذه المناجل .

كانت الزراعة فى بداية أمرها تستوجب من الانسان ضرورة التنقل. وذلك عندما تقل صلاحية الارض للزراعة. لانه لم يكن يعرف تسميد الأرض .

ولا نستطيع أن نقطع بصورة اكيدة عن ممارسة أى شعب للزراعة فى هذه الفترة . وقد ذكر Hall ان المهاجرين من الساميين أتوا من سورية ، وقد جاءوا ومعهم القمح والكرمة وقاموا بزراعتها فى مصر . وقد ذكر Albright ان كلمة قمح gmhw وكذلك كلمة كرمة Ka(r)mu فى اللغة المصرية القديمة مشتقة من السامية .

أما عن كيفية تمكن انسان العصر الحجرى الوسيط تدجين النبات فهذا أمر يصعب معرفته : وعلى أية حال فهى تدل على تفوق الانسان وقدرته على اقناع الناس بعدم استهلاك كل الحبوب التى جمعها فى فصل معين .

دفعت الزراعة وتربية المواشى انسان هذا العصر الى الاستقرار . وقد عثر فى أريحا ورأس شمرة وبيبلوس وغيرها على بقايا مساكن بدائية ترجع الى نحو ٥٠٠٠ ق.م. وبدأ الانسان يهجر الكهوف الى مساكن بدائية بناها فى السهول وكذلك مخازن .

وقد عثر فى أماكن الدفن من العصر الحجرى الوسيط على أوانى الطعام والتقدمات ، وغالبا أن هذه توحى لنا عن معرفته لعقيدة دينية . وقد كان لتربية الانعام وممارسة الزراعة اثرها فى تعقيد الديانة . وفى مرحلة الرعى عبد الناس القمر الذى كان أكثر نفعا لهم من الشمس ، وعثر فى أريحا على معبد يرجع الى أواخر الألف السادس ق.م اغلب الظن انه بنى من أجل اله القمر . ثم أدرك الانسان ، حينما اخترع الزراعة أهمية الشمس لنمو النبات ، ثم عبادة الأرض الأم . ولابد أن القصص الخاصة بالزراعة مثل قصص أدونيس وأوزوريس التى ظهرت فى فينيقة ومصر ترجع الى ذلك العهد .

كان الخوف هو العنصر الأساسى فى الديانات الأولى بصفة عامة . كما كانت عبادة الأرواح والسحر هما من الأسس الخاصة أيضا بالديانات الأولى . وأن عبادة الأرواح هى التى دفعت الانسان الى افتراض وجود .

أرواح شريرة أو نافعة تسكن أجسام تلك الحيوانات وعليه تقدم القرابين لها لاتقاء شرها أو للانتفاع بها .

وعثر من العصر النطوفى على تمثال صغير لغزال من العظم .

العصر الحجرى الحديث (النيوليتى)

بعض العلماء يرى أنه بدأ سنة ٦٠٠٠ ق.م وبعضهم يرى أنه بدأ من ٥٠٠٠ ق.م ودام نحو الفى سنة . تقدمت الزراعة وتربية المواشى وصناعة الأدوات الحجرية . وظهرت صناعة الفخار وتم اكتشاف المعدن . وبذلك حلت محل الأوانى التى كانت تصنع من الجلد والخشب المجوف أو قطع الحجارة .

كان تستخدم الاوانى الفخارية فى الطهى وفى خزن الحبوب . لان الانسان بعد ان كان فى مرحلة البداوة جامعا للطعام سيطر على موارده وقام بحفظه . وظهر الفخار فى الطبقات السفلى فى أريحا بفلسطين (شمال غربى البحر الميت) . واتخذ أول الامر شكل أحواض مجوفة . ويرجع فخار سورية الشمالية ذو اللون الواحد الى حوالى ٥٠٠٠ ق.م. ثم ظهر بعد ذلك فخار مدهون فى تل الجديدة الواقعة فى شمالى شرقى أنطاكية .

وكانت منطقة سورية الشمالية وبلاد الرافدين ، وهى حضارة تل حلف (نسبة الى تل حلف على نهر الخابور) . وقد اشتهرت المنطقة بصناعة الفخار من القسم الأول من الألف الرابع ، فظهرت الصحون والكاسات والزوارق والكؤوس . وزخرفت الأوانى برسوم هندسية ونباتية متعددة الألوان .

عصر النحاس

استخدم النحاس فى سورية وفلسطين حوالى ٤٠٠٠ ق.م. وفى الامكان أن نسميه العصر النحاسى الحجرى لأنه استخدم الى جانب النحاس الحجارة وصناعة بعض الأدوات . وقد ظهرت الصناعات النحاسية الحجرية فى أوغاريت ، وبعض مراكز حضارية أخرى فى شمالى سورية ، وفى تليلات الغسول بفلسطين ، وفى بعض مراكز أخرى هناك . أما عن كيفية اكتشافه فقد جاء نتيجة الصدفة عندما كان أحد الناس يحرك النيران صدفة بمعدن النحاس الخام فذاب بعضه وترك بريقا أصفر اللون . وقد انتشر استخدام النحاس فى كل سورية . وهكذا تظهر فى

هذه البقعة التى تمتد فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرونة ومنعرج الفرات أهميتها كمنـار شـع منه اختراع الزراعة والفخار واكتشـاف المعدن .

وقد عثر فى تليلات الفسول شمالى البحر الميت على منـازل من العصر النحـاسى بنيت من اللبن ولهـا أساسات من الحجـارة وسقفت بأعواد من البوص المغطى بالطين . وتحت أرضية المنزل دفن أولاد داخل جرار . ولوحظ حرق بعض الموتى . وفى تل الجزر خصص كهف لحرق جثث الموتى . كمـا وجـد موتى دون حرق داخـل جرار فى أوغاريت وكركميش وفى جزر عثر بجوار احدى الجثث على فخار مملوء بالطعـام والشراب .

وغالبا ما يكون موطن الكرمة وشجرة الزيتون وشجرة التين الطرف الشمالى الشرقى للبحر المتوسط . ثم انتشرت من هذا المكان الى الغرب .

اتسعت الزراعة وتربية الحيوانات . وتقع محطات تلك الحضـارة بالقرب من أودية الأنهار ، اى أن الانسان بدأ يعتمد فى زراعته على الرى ، وبدأوا يقومون بزراعة الخضر كالخس والثوم والبصل والفول .

أما العناصر التى سكنت هذه المراكز فليست سامية ، لأن الساميين سيأتون بعد ذلك وغالبا أن ظهورهم قد تم عند أواخر العصر النحـاسى الحجرى ، وقد جاءوا الى شمالى سورية وجنوبها .

وتقدم الفن ، خصوصا الفن التشـكيلى ، وكثرت الأختـام والحلى والأوانى المصنوعة من النحاس وعثر على رسوم على جدران الحوائط فى مجدو وغيرها . وفى نهاية الألف الرابع ظهر الطلاء الزجاجى . كما ظهر فى تل الجديدة فى شمالى سورية تماثيل صغيرة مصنوعة من النحاس وبينها اله والهه للخصب ويظن أنهـا أول لون من ألوان التمثيـل البشرى من النحاس .

وقد نتج عن استخدام المعدن والفخار انشاء حرف أخرى ، وازدهرت المدن . ولم يبق الا اختراع الكتابة التى ستظهر فى سومر حوالى ٣٥٠٠ وتنتشر من جنوبى بلاد الرافدين الى شمالى سورية ثم تتقدم الكتابة فى أوائل الألف الثالث .

* * *

الفصل الثانى

عرض خاطف لتاريخ البلاد

تقـــديم :

لم تظهر سورية كدولة مستقلة خلال تاريخها القديم ، وكانت دائمـا تشكل جزءا من دولة كبرى . وطبيعة البيئة السورية تميل الى التنوع فى الحكم اكثر من الوحدة . اما اسم سورية فهو يونانى الأصل (هيرودوت، الجزء الثانى ، الفصل الثانى عشر) . وفى أوائل القرن الرابع عشر ق.م ظهر فى آداب اوغاريت بشـكل شرين . Shryn وفى العبرية أطلق عـلى لبنان الشرقى سيريوس Syrus. وعرفت احدى المناطق الواقعة شمالى الفرات باسم Su-Ri . وكانت قديما تشمل المنطقة الواقعـة بين جبال طورس وشبه جزيرة سيناء وبين البحر المتوسط وبادية الشام . واعتبر هيرودوت فلسطين قسما من سـورية . واسم فلسطين كان أصـلا من « فلسطيا » ، متصل بذكرى جماعات من الهنود اوربيين احتلوا المنطقة الساحلية فى القرن الثالث عشر ق.م ولم يرد اسم سورية أو السوريين فى النص العبرى للعهد القديم ، لكنها استعملت فى بعض التراجم للدلالة على آرام والآراميين . ثم سماها العرب الشـام أو المنطقة الواقعـة الى اليسار . واسم سيروس Syrus (سورى) هو رومانى ، ومعناه الشخص الذى يتكلم السريانية (الآرامية) . وكانت ولاية سورية الرومانية تمتد من الفرات الى مصر . كانت سورية لها وحدة طبيعية ولكن ليس لها وحدة جنسية أو سياسية . وكانت كثيرا ما تتغير حدودها الشرقية .

وقد تأثرت سورية بثلاثة عوامل : أولها الوضع الجغرافى ، فقد لاحظنا أنها تتكون من خمس مناطق مختلفة ، كان لها أثرها فى اختلاف السكان واتجاهاتهم ومذاهبهم الدينية . وثانيها موقعها الاستراتيجى ووقوعها بين قارات ثلاث عرضهـا للغزوات البابلية والآشـورية والمصرية والحثيـة والفرس والمكدونين والرومان والعرب والمغول والأتراك والصـليبيين .

وثالثها مجاورتها لأقدم مركزين من مراكز الحضارات القديمة الحضارات في بلاد الرافدين وحضارة وادي النيل .

كما أن هناك عاملا آخر ، هو أن سورية ، خصوصا أطرافها الشرقية والجنوبية مسرح لنزاع متواصل بين سكان البادية وسكان السهول . وجزء كبير من تاريخ سورية يحكي قصة حوادث الاضطرابات الكثيرة لهذه الجماعات . وأن قصة بني اسرائيل كما جاءت في العهد القديم هي اصدق مثل لهذا الانتقال . وقد سبقها هجرات سامية كثيرة الى سورية

أما عن الساميين ، فهو اسم اشتق من سام بن نوح ، وهي تسمية لغوية ، تطلق على من يتكلم السامية : الآشورية البابلية ، الكنعانية (الفينيقية) والآرامية والعبرية والعربية والحبشية . وقد تشابهت هذه المجموعة من أجل ذلك كانت من أهم الروابط التي تدفعنا الى ضم شعوب هذه المنطقة تحت اسم واحد . كما أن العقائد الدينية لتلك الشعوب وصفاتهم قد تشابهت ، وعلى ذلك لابد أن أسلاف تلك الشعوب كانت تضمها جماعة واحدة تتكلم لغة واحدة .

وغالبا أن الموطن الأصلي للساميين هو شبه الجزيرة العربية ، وقد اتجه منه الساميون الى الشمال الشرقي حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م ، وانتشرت جماعات منهم في بلاد الرافدين بين السومريين الذين كانوا يشكلون السكان الاصليين . وعلى ذلك تكونت الجماعات الاكدية نسبة لكلمة (Agadè) السومرية وهي اسم عاصمة سرجون مؤسس أول امبراطورية سامية . وقد سادت اللغة السامية البلاد كلها . واحتل الكنعانيون السهل الساحلي . وفي حوالي عام ١٤٠٠ ق.م خرجت جماعات أخرى من شبه الجزيرة العربية ، فدخل الآراميون سورية المجوفة كما سنرى فيما بعد . وانتشر العبرانيون القسم الجنوبي من سورية . وحوالي عام ٥٠٠ ق.م استقر الأقباط شمالي شرقي شبه جزيرة سيناء واتخذوا البتراء عاصمة لهم . ثم حدث أخيرا في القرن السابع الميلاد اندفاع الاسلام وانتشار في سورية وفي سائر اقطار الهلال الخصيب .

الأموريون

هم أول شعب سامي رئيسي في سورية . والكلمة غير سامية ، وتعني الجماعة التي تقيم في الغرب (الغربيين) وكانت العاصمة الأمورية (ماري)

التى تقع جنوبى مصب الخابور (ومارى كلمة سومرية وهى شبيهة باسم البلاد أمورو اى بلاد الغرب . ثم أطلق البابليون الاسم كله على سورية ، كما سموا البحر المتوسط (بحر أمورو العظيم) . وقبل أن يدخل سرجون السامى بلاد آمور ، كانت مارى مركزا لبعض الأسرات السومرية القديمة . وفى خلال الألف الثانى أصبحت مارى وما حولها أمورية ، ولم تقتصر الامر على اقامتهم فى المنطقة الوسطى من الفرات وانما احتلوا بلاد ما بين النهرين وأسسوا أسرات حاكمة من آشور شمالا حتى لارسا جنوبا وذلك بين عام ٢١٠٠ وعام ١٨٠٠ ق.م وأولها أسرة حمورابى، وهو الذى قام بفتح بلاد آمور .

وبذلك الفتح قضى على مدينة مارى حتى كشفت عنها الحفائر الحديثة التى اجريت فى تل الحزيرى التى تقع على بعد ميل واحد تقريبا من غربى الفرات ، بالقرب من بلدة أبو كمال وقد كشف فى هذا الموقع الاثرى على اكثر من ٢٠الف لوح مسمارى ، كما ضم قصر الملك ٣٠٠ حجرة عليها رسوم جميلة . ووجد بالقصر الذى كانت مساحته ما يقرب من ٦ افدنة بما فى ذلك أمكنة للاستحمام وتصريف المياه وهى كانت تمثل الأرشيف الخاص بآخر ملوك مارى ، زمرى ليم (حوالى عام ١٧٣٠ — ١٧٠٠) . وظهر فى هذه الألواح اسم حلبو Halabu (حلب) ، وجبله Gubla ، (جبيل = بيبلوس) وغيرها من البلاد الهامة ، وقد كان اسم احد امراء جبيل ، ينتن عمو يرجع الى أصل أمورى ، (عمو) معناها قبيلة

كانت المنطقة التى سكنها الأموريون تشكل ممرا طبيعيا له أهميته من الناحية التجارية ونقل التراث الحضارى . وكان من الناحية الغربية يؤدى الى البحر المتوسط ومن الناحية الشرقية الى منعرج الفرات . وقد حاول كل من البابليين والمصريين والاشوريين والكلدانيين والفرس والمكدونيين السيطرة على المنطقة .

لعب الأموريون دورا كبيرا فى أوائل الألف الثانى ق.م فى الشمال . وبعد منتصف الألف الثانى تحول مركز الحضارة الى وسط سورية ، وفى تلك الآونة بدأت مصر توسعها الخارجى أيام تحتمس الثالث ، ثم ظهر فى الوقت نفسه فى الشمال الحيثيون . ومما يدل على مقدار خضوع تلك المنطقة ، فالى القارىء خطاب من عبد عشرتا أحد ملوك الدول الموجودة هناك الى امنحوتب الثالث (١٣٧٥) .

« الى الملك الشمس ، سيدى ، هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك عند قدمى الملك سيدى سبع مرات وسبع مرات أخرى أجثو . انظر ، اننى خادم الملك وكلب بيته وجميع أمورو أحرسها للملك سيدى » .

وكان يقيم هـذا الملك فى ارقة الفينيقيـة (هى rqt فى النصـوص المصرية) على بعد ١٢ ميل شمال شرقى طرابلس (وعرفها العرب باسم عرقة) .

كان هذا الملك منافقا اذ انه ساعد الحيثيين على فتح سـهل العمق (بين انطاكية وجبال الأمانوس) . وقد استولى عبد عشرتا وولده ازيرو على مدن ساحلية ، واستولى على دمشق وغيرها من البلاد . وكانت جبلة مركزا لحكم الامير الموالى للمصريين ، رب عدى وكثيرا ما ارسـل لمصر يطلب النجـدة ويشكو خيانة عبـد عشرتا (الكلب ، كما كان يسـميه فى الرسالتين رقم ٧٥ ، ٨٥) ولما مات عبد عشرتا ، تولى من بعده ولده ازيرو الذى سار على سياسة والده واستمر رب عدى يرسـل الخطابات الى مصر ، وفى أحدها يقول « ان ملوك كنعان عندما كانوا يرون مصريا ، يهربون من أمامه ، ولكن أبناء عبد عشرتا يهزأون بشعب مصر ويهددونى بأسلحة دموية » (الرسالة رقم ١٠٩) . وسقط كثير من البلاد فى يد أزيرو . ومما يدل على نفاق هذا الملك انه يخاطب فرعـون مصر بعـدم تمكنه من الاستجابة لأمر فرعون ليشاهد « وجه سيدى الجميل » (الرسائل من رقم ١٦٤ الى رقم ١٦٧) . وقـد أصبح على حد تعبير عبد عـدى كعصفور فى شبكة ، من أجل ذلك أرسل بعض أفراد عائلته الى صـور ، وفد من أصدقاء رب عدى ، ومن الموالين للمصريين . ثم هرب رب عـدى الى بيروت ، وقد أخذ أزيرو نساءه وأبناءه . ثم هرب بعد ذلك الى صيدا ، ولكن وقع فى يد أزيرو . وبذلك تخلت مصر عن شـمالى سـورية وعن فينيقية .

الأموريون فى فلسطين

سكن الخابيرو وكذلك الاراميون (وسنقوم بدراسة خاصة عن الاراميين فيما بعد) المنطقة الجنوبية من سورية وفلسطين وذلك بعد أن قضى على الأموريين فى سورية الوسطى . أما الحثيون فقد أقاموا فى شمالى سورية وأواسطها . وعندما حل الخابيرو بفلسطين وجدوا فيها جماعات سامية من الاموريين تقيم فى بعض أجزاء منها . وقد جاءت أسماؤهم فى أسـفار عدة ، وأنهم أقاموا فى فلسطين قبل الاسرائيليين (سفر العدد ١٣ ، ٢٠ ، يشوع ٢٤ : ٨ ، ١٨ ، عاموس ٢ : ١٠ حزقيال ١٦ : ٣ ، ٤٥) . وقد سـيطر الأموريون فى القرن الثـالث عشر على المواقع الاستراتيجية وأما البادية فقد سكنها الكنعانيون . وقـد تمكن الاسرائيليون بعـد فترة من الزمن أخذ المنطقة من الاموريين والكنعانيين .

لقد عبد الاموريون قوى الطبيعة ، واهمها حدد (ويكتب بالاكدية آدد أو آدو) ، ويعرف أيضا باسم رمانوا (صانع الصواعق) ، وهو اله مطر وعواصف ، ثم أصبح يطلق بعد ذلك على البعل الأعظم . ثم الاله رشف ، ويحتمل انه كان له صلة بالنار . ووجد فى مصر الفرعونيـة أيام الدولة الحديثة . ثم الاله دجن اله السمك عبد فى غزة ، كان فى الأصل من الهة الأموريين .

وكانت عاشيرات Ashirat شريكة الاله أمورو ، وهى تشبه عشتار . ومن الديانات القديمة التى أدخلها الأموريون فى جنوبى سـورية العمود المقـدس ، وهو يمثـل عادة اله القبيلة ويقـام عادة فى مكان ظاهر . وأن السـاميين الذين سـكنوا جزر وقاموا بالتضـحيات البشرية هم من الأموريين . وقد سار الكنعانيون على النظم والعادات التى كان يسـير عليها أبناء جلدتهم الاموريين الذين سكنوا البلاد قبلهم .

من كل ذلك يلاحظ أن مركز الأموريين الأصلى كان فى شمال سورية، من أجل ذلك تعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية ، أما مركز الكنعانيين كان هو الساحل ، وهم الذين سماهم اليونان بالفينيقيين ، والذين سنخصص لهم دراسة خاصة .

* * *

الفصل الثالث

الفينيقيون

تمهيد

كانت معلوماتنا عن الفينيقيين حتى القرن التاسع عشر مستمدة من شعوب أخرى هم اليهود والاغريق والرومان ، وهؤلاء كانوا على صلة وثيقة بهم ، وهذه الصلة لم تكن فى جميع الأحوال مبنية على الصداقة . أما آداب الفينيقيين فقد ضاعت .

وقد كتب بلوتارخ Plutarch اليونانى فى القرن الاول الميلادى بعد سقوط قرطاج بمدة ما يلى : « انهم شعب مملوء بالصرامة والمشاكسة ، مطيع لحكامه ، مستبد مع أولئك الذين حكمهم ... عنيف اذا ما غضب ، لا يتزعزع اذا ما صمم على شىء أو اذا قرر شيئا ، وصارم حتى انه يكره الملاطفة والشفقة » .

وذكر Pompouius Mela الأسبانى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد فى وصف الجماعات الفينيقية « ان الفينيقيين جنس مجتهد ، نجحوا فى الحرب والسلام ، فقد برعوا فى الكتابة والأدب وفى فنون أخرى ، وفى الملاحة وفى الحروب البحرية وفى حكم امبراطورية » .

لم نعثر على وثيقة مكتوبة فى منطقة فينيقية تحدثنا عما كان يفكر فيه الفينيقيون وعلاقاتهم بالشعوب الأخرى خصوصا المصريين والأشوريين والاغريق وسلوكهم السياسى والتجارى مع جيرانهم ، أو عن فنونهم المختلفة وصناعاتهم المعدنية وبناء السفن ، ولكن نعتمد فى معرفتنا تاريخهم عما ورد عنهم من الشعوب الأخرى ، وكذلك من المقارنات بين الآثار التى كشف عنها ، وغالبا ما يوجد ثغرات وأحيانا لا نجد بعض الحقائق لمعرفة بيانات خاصة .

وكان الفينيقيون فى العصور القديمة مكتشفين لا نظير لهم : وكذلك كانوا مستعمرين وتجار فقد حملوا اشياء مصنوعة للعالم المعروف . أما تجارتهم فقد عرفت ليس فقط من حرب قرطاج مع روما . فان صور Tyre وصيدا Sidon قد وقفتا أمام تقدم بلاد الرافدين وبعض الغزاة . وفى خدماتهم الملاحية ذهبوا حتى بلاد الفرس. ولكن أهم من ذلك كله الابجدية، فقد لعبوا فى هذا الميدان دورا كبيرا . وقد استخدمت الأبجدية الفينيقية جميع الشعوب الهند أوربية والشعوب السامية ، واتخذها كثير من الدول ومنهم الاغريق .

كان يقيم الفينيقيون فى شريط ضيق من الساحل الشرقى للبحر المتوسط من Tarsus الى جبل كرمل .

ان تاريخ دخول الكنعانيين الى المنطقة موضع جدل كبير . فقد عرف عادة أن هناك موجات هجرات سامية جاءت ــ كما يرى بعض العلماء ــ من بلاد العرب أو من الخليج العربى . ولكن لا زالت مشكلة أصلهم وميعاد مجيئهم لم تحل بعد . ومعظم الوثائق تتجه الى مساواة الهجرة الرئيسية الأولى للفينيقيين بالتحركات التى جاء فى ركابها الأكاديون وتسلطوا على بلاد الرافدين حوالى عام ٢٣٥٠ ق.م .

غالبا ما كان يوجد ساميون فى بيبلوس منذ بداية عهد البرونز . أما من ناحية التركيب الجسمانى ، فسكان هذا الساحل خليط من أجناس مختلفة بحيث يصعب فحص جماجمهم ؛ وكذلك من ناحية الآثار فان الاثريين لم يستطيعوا أن يوازنوا بدقة تامة ويعطوا مجموعة منظمة من الفخار أو الأسلحة أو الأختام ، ولذلك نرى أن الأثرى يعتمد كثيرا فى هذه الناحية على الترجيح . والشىء المؤكد حقا هو انه فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، فى رسائل العمارنة سمى سكان كنعان باللغة الأكادية Kinanu أو Kinahu .

اذن من اين اتى الاسم (Phoenicians الفينيقيون) وقد أصبح هذا الاسم عالميا ، وهم فرع من الكنعانيين . لم يخترع الكنعانيون هذا الاسم بأنفسهم ، والظاهر أن الاغريق هم الذين خلعوا عليهم هذه التسمية، وغالبا ما تكون جماعة الميكانيين Mycenaeans الذين جاءوا اليها للاتجار فى أواخر الالف الثانى قبل الميلاد . وفى البداية كان يستعمل لكل الكنعانيين ثم حدد الى الذين يسكنون الساحل .

وجدت الكلمة عند Homer مفردها Phoenix وجمعها Phoenikes

والظاهر انها تشير أصلا الى اللون الأحمر القانى أو الارجوانى البنى ، ثم انتقلت الى شجرة البلح ، أو الجلود البنية عند الكنعانيين . وغالبا أن اسم الطائر الأسطورى Phoenix قد اشتق من هذا اللون . والاسم الرومانى (اللاتينى) Poeni القرطاجنيين ، وقد فرق الرومان بين Poeni الغربيين و Phoenices الشرقيين ، واو انهم هم من نفس الشجرة .

وفى العهد الجديد تحدث St. Mark عن امرأة Syro-phoenician كما تحدث أيضا St. Matthew وكتب عن اليهود وسماها امرأة من الكنعانيين .

ولا يختلف الفينيقيون فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد عن جماعة الكنعانيين ، لقد وصلوا الى قمة مجدهم فى أول الألف الأول قبل الميلاد حينما بدأوا ينشرون سلطانهم بواسطة التجارة واستعمروا كثيرا من اقطار البحر المتوسط وغيره . وسنتتبع تاريخهم حتى عام ٣٣٢ ق.م ، حينما اخذ الاسكندر الأكبر مدينة صور Tyre وفى الغرب حتى عام ١٤٦ ق.م. ، حينما اخذت روما قرطاج Carthage ومن ذلك الوقت انتقل شرق فينيقية الى الاغريق ، ودخلت فينيقية الغربية الى الرومان .

* * *

البيئة الجغرافية فى بلاد فينيقية

تقع فينيقية فى جزء من شاطىء البحر المتوسط الشرقى يمتد شمالا من خليج ايسوس وجنوبا الى (جبل الكرمل) ، وبذلك تشمل اقليم مدينة أرادوس وحوض نهر (اليتير) ويسمى فى أيامنا هذه بالنهر الكبير . أما من الناحية الشرقية فتطل عليها سلسلة جبال لبنان ، ومن الناحية الغربية تطل على البحر المتوسط .

وقد نشأت جبال لبنان الشرقية والغربية نتيجة تشققات حدثت فى العصور الجيولوجية القديمة ، كما كانت هناك صخور بركانية كثيرة وهى أصل كتل (اللافا) التى نجدها حاليا فى جهة (حوران) والى الجنوب من دمشق ، والى الشرق منها أيضا فى ناحية (الصفا) .

وكان للطبيعة اثرها فى حضارة هذه المنطقة ، فلم تخلق هذه البيئة

الجغرافية زراع كما هو الحال فى مصر أو العراق ، لأن سهولها ضيقة مثل الذى يقع بالقرب من مصب نهر (اليتير) ، وكذلك حول (عكا) ، وسهل فينيقية حاليا الذى يقع عند نهر (اسكليبيو Asklepios) ويسمى حاليا نهر (الأولى) . من ذلك يتبين لنا أن الفينيقيين اعتمدوا على البحر اقتصاديا .

هذا وجبال لبنان هى امتداد لجبال (النصيرية) التى تقع شمالا ، وتمتد جبال لبنان فى حوالى ١٠٠ كم شمالا من النهر (الكبير) وتنتهى جنوبا عند منحنى نهر (القاسمية) . ويبلغ أقصى ارتفاع لها ثلاثة آلاف متر . وتتخلل هذه المرتفعات ممرات أهمها ممر (غيتة) ويصل ارتفاعه الى حوالى ١٥٠٠ متر والى الشرق من جبال لبنان الغربية جبال اخرى تقل قليلا عن الغربية فى الارتفاع اذ تبلغ احيانا حوالى ٢٨٠٠ متر . وبين الجبال الشرقية والغربية وادى البقاع الذى يبلغ طوله حوالى ١٢ كم ، وكان يسمى قديما (جوف سوريا) .

أما عن مجارى المياه الموجودة فى فينيقية فهى نهيرات صغيرة تجرى فيها المياه فى فترة الفيضان فقط وتجف فى شهور الصيف وذلك لقرب الجبال من الشاطىء . ويقع بين الجبال الشرقية والغربية نهران هما (الاورونت) ويسمى حاليا نهر (العاصى) ، وينبع عند (بعلبك) وينحدر شمالا مارا ب (انطاكية) حتى يصل الى البحر . أما النهر الثانى فهو نهر (ليونيتس) ويطلق عليه حاليا نهر (الليطانى) ، وعند ما يصب عند (صور) يسمى نهر (القاسمية) .

وقد قسمت الطبيعة السهل الساحلى الضيق والذى لا يزيد عرضه عن ٥٠ كم الى أقاليم مختلفة وكان لهذا الانقسام أثره فى ايجاد وسيلة لاتصال كل اقليم بالآخر عن طريق البحر لأن الطريق البرى صعب ، كما أثر ذلك فى عدم قدرة السكان على تكوين مملكة متحدة ، فنشأت دويلات كثيرة .

وهذه البيئة هى التى دفعت الفينيقيين الى تأسيس مدنهم عند مدخل الأودية وبالقرب من الجزر القريبة من الساحل مثل أرادوس وصيدا وصور .

أما مناخ فينيقية فى العصور القديمة فهو يشبه الى حد كبير ما هو عليه الآن ، فيبدأ الربيع فى شهر مارس ، وصيفها يبدأ فى شهر مايو وبينهما تنضج المحاصيل ويستمر الصيف الى منتصف اكتوبر حيث

تهطل الامطار فى الشتاء بغزارة . على أن أمطار المنطقة كانت أكثر منهـا قديما عن أيامنا هذه فكانت غاباتها أكثر غزارة منها حاليا . أما صخور لبنان فليست ذات ثروة كبيرة . اما نباتاتها قديما وحديثا البرتقال ، وكان ينبت فيها النخيل بكثرة ولكن قل الآن . وكانت مشهورة قديما بالتين والجميز والزيتون . وقـد ذكر لنا تحتمس الثالث انه جاء من هناك بأشجار كثيرة استطعنا ان نعرف من بينها شجر الرمان . وقد جاء فى وصف بعض الحملات الحربية صعوبة اجتياز بعض المناطق لكثرة الغابات . أما أهم الأشجار التى كانت تنمو هناك فهى (البلوط = الارو) والصنوبر والسرو . ولكن اغلب الاشجار هو خشب الارز ، وقد انقرض الأرز تقريبا ولم يبق منه الا غابة بسيطة فى منطقة جبل (خديد) . أما حيوانات المنطقة فمنها الوحشى مثل القط الوحشى والفهد ، ولا زال بها الدب والضبع والذئب وابن آوى ، ومن الحيوانات المستأنسة الحمير والثيران ذات القرون المستديرة والجاموس والغنم والماعز . اما شواطئها فتكثر بها الاسماك . وكان يوجد ببعض انهارها بعض التماسيح الصغيرة لكنها انقرضت .

اما مدنها الهامة فتبلغ خمسا وعشرين مدينة منها الكبير والصغير . ويعتبر الجغرافيون فينيقية ممرا بين أفريقيـة وآسيا ، لان الصحراء السورية التى تقع شرق جبال لبنان صعب اجتيازها . من أجل ذلك كانت فينيقية دائما معرضة لمرور جيوش هذه الاقطار فى العالم القديم ، وحرصت كل دولة على ضمها اليها لتتمكن من السيطرة على منافذ فى البحر المتوسط .

وقد سكن فينيقيـة أيام فجـر التاريخ فى الألف الثالث ق . م فى قسمها الجنوبى والجنوبى الشرقى جنس عاش فى الكهوف ، ثم هاجر اليها الساميون فى العصر التاريخى ، وقد أسمى المصريون بعض سكانهم (العامو) ، أما سوريا العليا فقد عرفت فى ذلك الوقت باسم (أمورو Amurru) اى بلاد الغرب كما سبق ان ذكرنا ، وقد هبط فيها الساميون، وهاجروا منها الى الشمال وإلى الشرق متجهين الى بابل . وقد قسمت سوريا العليا قديما الى دويلات صغيرة أهمها دولة دمشق ، وقد سكنها فى الألف الأول ق . م الاراميون وهم من نسل سام بن نوح ، وقد اختلط سكان هذه المنطقة بالحيثيين ، وهم من الشعوب الهندو أوربية . . .

أما اسم كنعان فقد سميت به البـلاد الداخلية وكذلك فينيقية ، وكان يظن قديما ان اسم كنعان سامى الأصل ، من فعل كنع أى انخفض أو تواضع ، ولكن عدل عن ذلك الرأى ، ويظن حاليا أن أصل الاسم غير

سامى ، ويحتمل أن يكون مشتقا من الحورى Knaggi بمعنى الصباغ الارجوانى . والصيغة الاكادية له هى كناخنى Kinakhni ، وكتب فى خطابات العمارنة كيناخى Kinakhi وكتبت بالفينيقية كنع ، Kena' وبالعربية كنعان أى بلاد الارجوان . وحينما اتصل الحوريون بساحل البحر المتوسط فى القرن الثامن عشر أو السابع عشر ، كانت صناعة الارجوان منتشرة فى كل البلاد . اما اسم فينيقية فهو مشتق من اليونانية Phoinix كما سبق أن أوضحنا ذلك .

وكان يطلق الاسم فى أول الامر على المنطقة الساحلية وكذلك غربى فلسطين . ثم صار علما على فلسطين وجزء كبير من سورية . أما عن المدن الكنعانية القديمة التى لها أسماء كنعانية : اريحا ، وبيت شان ، ومجدو ، (وهذه لها أسماء كنعانية قبل عام ٣٠٠٠ ق . م) . كما ظهر فى النصف الاول للألف الثانى مدن أخرى لها أسماء سامية ، وفى الامكان اعتبارها كنعانية مثل عكو (١) وصور وصيدا وجبله (جبيل) وأركه وسيميرا .

وقد تشكلت ممالك المدن ، فكانت تتجمع كل جماعة حول مدينة محصنة بأسوار لها شرفات وأبراج (مجدل Migdol) . وكانت هذه المدن ملجأ لأهل الريف المجاورين يلجأون اليها وقت الخطر ، كما كانوا يتخذونها سوقا لهم وقت السلم . كما انتشرت المدن الكنعانية الأولى على الساحل . وقد لوحظ أن جبال أمانوس وكاسيوس فى الشمال وكذلك مرتفعات فلسطين فى الجنوب لم تكن درعا واقيا للهجمات كما كانت جبال لبنان . من أجل ذلك ازدهرت المدن فى سفح جبال لبنان مثل طرابلس ، وبوترس (البترون) وبيبلوس (جبيل) ، وبيرتيوس (بيروت) وصيدا وصور وغيرها من المدن التى كانت تشكل مجموعة من الممالك الصغيرة . وهناك مدن كثيرة فى الداخل جاء ذكرها فى حملات تحتمس الثالث وغيرها مثل جزر ولاكش ومجدو وهازور وقد كانت مساحة هذه المدن صغيرة . فمساحة جزر وهازور ، وقد كانت من أكبر المدن بين خمسة عشر وستة عشر فدانا ، ومساحة اريحا ستة افدنة فقط . وقد سور بعض هذه المدن ، فمثلا كان سمك سور جزر حوالى ستة عشر قدما . وبلغ ارتفاع سور اريحا ٢١ قدما . أما منازل الكنعانيين فى القرن الخامس عشر كما كشفتها الحفائر فقيرة فى عمارتها وغير منتظمة فى تخطيطها .

---

(١) وهى مشتقة من 'akko بمعنى رمل احمر وهى بتولمايس Ptolemais ايام حكم البطالمة . وعكا العربية .

اما المدن الساحلية مثل ارادس (اروواد) وصيدا وصورا فكان أهلها يتمتعون بموردين : فيقومون بزراعة البساتين الموجودة على الساحل ، ويركبون الماء من الجزر التى كانت تواجه هذه المدن . وكانوا ابضا محصنين بخط دفاع مزدوج فهم يلجأون الى الجزر اذا ما هاجمهم الأشوريون .

ان القسم السورى الفلسطينى أو الذى اصطلح على تسميته فى فترة من الفترات (الشاطىء الشرقى (Levant Coast) يمتد حوالى ٤٣٠ ميلا من خليج اسكندرونة الى الحدود المصرية ، وقد كانت تقع المدن الفينيقية وسط هذه المنطقة المستطيلة من الشاطىء من Antaradus (طرطوس) فى الشمال الى دور Dor أو عادة الى يافا . وهى مسافة حوالى ٢٠٠ ميلا . وأهم المدن هى :

١ — Aradus وهى ارواد Ruad ، وكانت تقع على جزيرة تجاه Tartus

٢ — Byblos بيبلوس : وهى جبيل Gebel

٣ — Sidon صيدا

٤ — Tyre صور .

وهناك مدن اخرى ، مثل Marathus وهى عمريت Amrit و Berytus وهى بيروت . وهناك مدن أخرى صغيرة .

كان السهل الذى يفصل سلسلة جبال لبنان عن البحر غير كاف لامداد السكان بالمؤن ، من اجل ذلك اتجه الفينيقيون الى البحر . وقد كانت وفرة الاخشاب سببا فى تفوقهم فى صناعة السفن وفى ركوب البحار .

وفى هذا الساحل خلجان كثيرة صغيرة تحمى السكان من اى هجوم وأحيانا كانت توجد جزر صغيرة تواجه هذا الساحل كانت ايضا تحميهم من السطو البحرى ، وحينما حاول الفينيقيون أن يجدوا لأنفسهم ارضا أخرى اختاروها مثل أرضهم محمية من الأعداء ، فنجدهم مثلا فى اسبانيا اتخذوا موقع Cadiz, Valetta فى مالطة ، Bizerta فى تونس ، وفى Cagliori فى سردينيا ، و Palermo. فى صقلية Sicily . أما المواقع الأخرى الصغيرة مثل قرطاج Motya, Carthage فى صقلية ، وفى صور وفى صيدا ، كانت هناك موان صغيرة لسفن صغيرة أيضا .

كانت اراود جزيرة صخرية لا يزيد محيطها عن ١٥٠٠ ميلا ، وقد

ذكر استرابو أنها كانت مغطاة بالمبـــانى بارتفاعات شـــاهقة ذات طوابق عدة . وبالرغم من صغر مساحتها ، فقد سجل التاريخ انها كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة مثل Simyra, Marathus ولا نعرف كثيرا عن تفاصيل تخطيطها . ومن الجائز أن جباناتها وكذلك ضواحيها كانت تمتد الى الارض الرئيسية . وكان الارواديون ملاحين مهرة ، وكانت لهم فرق كبيرة فى الاسطول الفينيقى ، وقد رسم على ظهر عملتهم الأولى سفينة هى شعار المدينة .

وتقع بيبلوس على بعد ٢٨ ميلا الى الشـــمال من بيروت ، ويرجـــع تخطيطها الى نهاية عصر البرونز . وتقع أطلال من عصر الحديد الى الشمال وتحت القرية الحديثة . وتقع المـــدينة على صقع الجبل ومنها ينحدر طريق يتصل بالمينا . وفى نظر الفينيقيين تعد بيبلوس اقدم مدينـــة فى العالم بناها الاله (ايل El) ، وقد كشفت الحفائر هناك عن آثار من عصر Chalcolithic ويحتمل أن تكون هناك مخلفات قبل ذلك ، وأنها كانت من المراكز الهامة والقديمة لعبادة الالهة عشتارة .

اما مدينة صيدا Sidon فهى تقع على المنحدر الشمالى للجبل . وقد سكن الرومان ومن جاء بعدهم هذا المكان .

اما مدينة صور Tyre فهى تقع بين سلسلتى من الصخور بالقرب من الساحل . وان شبه الجزيرة الحالى والذى يصل الجـــزيرة القـــديمة بالارض الاصلية بمثل الحاجز الذى كان موجوداً لكسر الامواج والذى بناه الاسكندر الاكبر . وقبل ذلك كان لا يوجد مدخل الا بالقوارب ، وقد امتدت المدينة الى الارض التى تحيطها من الشرق ، وكان يوجد فى الناحية الشمالية ميناء طبيعى وفى الجنوب ميناء صناعى .

أما قرطاج فكانت غالبا تقع على شـــبه جزيرة بين سيدى بوسعيد Sidi Bou Said وجولت Goulette ومنطقة Sebkret-er-Riana التى تقـــع الى الشمال ، وهى حاليا أرض مقفولة نتيجـــة ترسب نهر Bagradas (يسمى حاليا Medjerda) . وكانت المنطقة قديما مفتوحة على البحر ، بينما تقع فى الجنوب بحيرة تونس ، ولكنها حاليا ضاحلة المياه عن العصور القديمة . وقد كانت تقف السفن قديما عندها وعند سبكرت الريانا . أما شاطىء سيدى بوسعيد والجالوت فلا زالا بحالتهما التى كانا عليها .

وعلى ذلك كانت تمتد المدينة من Le Kram الى Bordj-el-Djedid ومن الداخل حتى Le Malga أو ما يقرب من ذلك . وقد ذكرت النصوص

القديمة أن هذه المساحة كانت تقع فى الارض السهلة بين مرتفعات St. Louis والموانى . ولا نستطيع أن نذكر كثيرا عن التخطيط الداخلى فيما عدا Tanit Precinct وهى تقع الى الغرب من مستنقع ، وكذلك الجبانات . وعثر على آثار كثيرة رومانية أو بيزنطية ، فقد كشف Cartoo عن هيكل فى Salammbo ، وهيكل فى بوسعيد ، ولكن لم نعرف حتى الآن مكان معبد . كما أنه كشف عن بعض احواض ماء بدون شك – رومانية مثل التى وجدت فى La Malga, Bordj-el-Djedid والبئر المسمى النافورة ذات الألف اناء Fountain of 1000 amphoroe كان بناؤه الاصلى قرطاجى مربع الشكل . وعثر حديثا على منازل كانت قائمة فى المنحدر الجنوبى لمرتفعات سانت لويس ، وبعض أطلال قرطاجية فى Dermech, Douirchott (١)

وجاء فى الحرب القرطاجية الثالثة أن المدينة كانت محاطة بحائط بلغ طوله ٢١ ميلا وقد لوحظ أن اقدم الجبانات التى كانت موجودة فى قرطاج ترجع الى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكانت تقع هى والتى جاءت بعدها بحوالى قرنين على منحدرات جبال سانت لويس . Juno وفى منطقتى Dermech, Douimes وانتشرت مقابر القرن الخامس قبل الميلاد على منحدرات جبال Bordj-el-Djedid وفى القرن الرابع احتلت المقابر المنطقة الموجودة بين مرتفعات Bordy-Djedid, Odeon وأخيرا تقع قبور القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد على مرتفعات الاوديون وسانت مونيك Ste. Monique ، وكانت غالبا الى الشمال ، والشمال الشرقى من كل ذلك نرى أن أقدم مكان فى قرطاج ، أما عند Le Kram أو بالقرب منها .

وهنالك مرافىء اخرى كان يحتلها القرطاجيين ، فمثلا الى الجنوب من Mogador على ساحل مراكش بين Casablanca = الدار البيضاء واغادير Agadir حيث يقع نهر صغير يسمى Ksob ويصب فى خليج صغير ، ويغلق بواسطة جزيرة طولها حوالى ثلاثة و ٢/١ ١ كم . وعلى بعد حوالى ٥ر١ الى ٣ كم من الشاطىء . فى هذا المكان كانت ترسو سفن الفينيقيين ، وعثر فى هذا الموقع على مخلفات لهم . (انظر صورة رقم ٥ من المرجع السابق) .

كذلك سكنوا فى صقلية Motya ومن هذا المكان استطاعت قرطاج أن تقوم بحروبها فى صقلية حتى حوصرت وقضى عليهـــا

---

(١) انظر صورة رقم ٤ من كتاب
Donald Harden, The Phoenicians, London (1962).

Dionysius of Syracuse عام ٣٩٨ . وهنـــا يلاحظ أن اقامتهـا كانت على مكان صغير وعلى بعـــد قريب من شاطىء الجـزيرة وكانت محاطة فى القرن السادس بحائط كبير يبلغ طوال ٢ ١/٢ كم يحيط بمنطقة تبلغ مساحتها ٥٠ هيكتار ، وقد عثر على قبور فى Birgi واساسات بعض الطريق لازالت تحت الماء تصل هذا المكان Birgi بالجزيرة . (انظر صورة رقم ٦ من المرجع السالف ذكره) . واما المنشآت الداخلية فلدينا اثنان وهما عبارة عن منزل جميل من الطراز اليونانى بالقرب من الساحل الجنوبى الشرقى ، وكذلك أساسات لا بد انها كانت لمعبد أو بناء عام فى مكان يسمى Cappiddazzu (انظر صورة رقم ٧ من المرجع السالف ذكره) .

وفى سردينيا Sardinia كانت هناك أربع مدن رئيسية وهى Tharros, Nora, (Cagliari) Caralis (S. Antioco) Sulcis وجميعها تمثل جبال داخلة فى البحر ما عدا Sulcis التى تقع بالقرب من طريق يصل حاليا الجزيرة بالارض الاصلية ، ولكن يحتمل أنه لم يكن موجودا ايام القرطاجيين . وقد عثر فى Sulcis على فخار من القرن الثامن قبل الميلاد ، وهو اقدم فخار معروف فى سردينيا (أنظر صورة رقم ١٤ من المرجع المذكور آنفا) ، وكذلك عثر على لوحات شبيهة باللوحات التى كشفت عنها فى Tanit بقرطاج .

وفى الاراضى الاسبانية هنـــاك ثلاث مواقع رئيسية للفينيقيين أو القرطاجيين وهى Gades (Cadiz) Ebusus (Ibiza) ، اساسات فى Carthago Novo Hasdrubal (Cartagena) (انظر صورة رقم ١٣ من المرجع المذكور آنفا)

ويقع أقدم موقع فى اسبانيا للفينيقين وهو Gades فى الطرف الشمالى لجزيرة طولها ٢٠ كم . واكبر عرض لها ١ كم وهى تكون حاجزا عبر خليج عند مصب نهر Guadalete . وبين هذه الجزيرة والأرض الاصلية جزيرة أصغر . ويقع فى الطرف الجنوبى للجـــزيرة الخارجية معبد هرقل Heracles (Melqart) ، وقد جاء وصفه فيما كتبه استرابون . وقد حدث تغيير فى المكان فاتصلت الجزر بالارض الاصلية وببعضها ، ولكن قطعت مكان المعبد الذى هو Isla S. Petri وقد اكلت أمـواج البحـر جزءا من غـرب المدينـة . ولا زال تحت مدينة Cadiz الحالية بعض أطلال لأكثر من ١٥٠ قبر من القـــرن

السادس ق.م. الى القرن الثالث ق.م. (انظر صورة رقم ٨ من المرجع المذكور آنفا) .

هناك موقع آخر فى Ibiza وجد ايام قرطاج ٦٥٤ ــ ٦٥٢ ق.م. وأول مكان وضعوا رجالهم فيه هو جزيرة كانت تحمى خليجا من الخلجان الصغيرة ، ولا زال اسم هذا المكان باقيا حاليا فى اسم Isa Plana ويتصل حاليا بالارض ، عثر هنا على آثار لمبان من القرن السابق فيها تأثيرات فرعونية كما عثر على آثار لمبان يحتمل انها كانت تستخدم فى الصباغة .

ونشأت بعد ذلك Carthago Nova لأغراض سياسية وحربية وهى مستعمرة حقيقية للهجرات الاولى القرطاجيين ، وكانت تشغل خليجا مقفولا ومحميا بجزيرة (Isla Escombrera) وقد تغير الموقع حاليا اذ جفت المياه وحلت محلها Cartagena الحديثة .

* * *

مجمل تاريخ فينيقية

كنا نعتمد فى معرفة تاريخ الفينيقيين حتى أوائل القرن الماضى على ما تركه الكتاب اليونان والرومان الذين زاروا هـــذه المنطقة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكذلك أيضا على ما جاء فى التوراه انما بعد ما تمكن العلماء من قراءة ما كتبه المصريون القدماء والاشوريون استطعنا أن نعرف الكثير عن تاريخ هذا القطر الشقيق .

اما عن كيفية تاريخ الحوادث ، فقد لجأ الاثريون فى كل الحضارات التى لم تظهر فيها الكتابة فى العصور البعيدة فى القدم الى الفخار والمعادن التى كشف عنها فى الحفـــائر وكانت ترتيباتهم تقريبية . فيبدأ عصر البرونز القديم فى فينيقية بحوالى ٣٠٠٠ ق.م. الى ٢١٠٠ ق.م. وعصر البرونز الوسيط يبدأ من ٢١٠٠ الى ١٥٥٠ ق.م. والبرونز الحديث من ١٥٥٠ ق.م الى ١١٠٠ ق.م ، وذلك كله بالنسبة لسوريا وفلسطين . أما بعد ذلك فيسهل تأريخه لوجود وثائق وذلك حتى فتح الاسكندر الأكبر مصر .

العصور الحجرية :

عثر فى محلات كثيرة فى فينيقية على آثار لمخلفات انسان عاش فى هذه الفترة ، منها مواقع تقع فى وادى نهر الجور شمال البترون Batroun بين جبيل وطرابلس ، واخرى فى وادى نهرى ابراهيم وبيروت ، وجنوب صيدا موقع يسمى عدلون Adloun . وعثر فى تلك المحلات على بقايا أدوات من الظران وبقايا عظام حيوانات مثل البقر الوحشى Bison Priscus والماعز الوحشى الخ ، ولا زالت فصائلها تعيش هناك فى ايامنا هذه مع تطور طفيف . وهناك مواقع أخرى فى نهر الكلب ونهر الزهرانى . وقد عثر فى بعض المواقع على مخلفات تشبه العصر الشيلى ذرب اللاذقية عند اطلال قرية تسمى Hillalé وبالقرب من رأس شمرا وجدت بقايا من العصر الحجرى الشيلى . وفى محلة أخرى تبعد حوالى ٧ كم جنوبى طرطوس تسمى عمريت بقايا أدوات من عصر اللفلواز . ومثل العصر الاورينياسى فى أبو حلقة التى تقع فى الطرف الجنوبى من طرابلس وأهم تلك المحلات هى Antélias التى تقع بين بيروت ونهر الكلب .

تاريخ فينيقية قبل الألف الثانى قبل الميلاد :

اتحدت الشعوب فى العالم القديم فى نسبة خلقها الى الاساطير ، فنجد ذلك فى الحضارة المصرية القديمة ونظرة المصريين فى الخليقة ونشأتها وقصة أزوريس وايزيس ، وكذلك الحال فى قصة أوزوس الصياد Ousoos وفيها شبه كبير بين الأسطورة المصرية الخاصة بأزوريس فقد ذكرت قصة Ousos انه هو اول من القى بنفسه فى البحر فحملته شجيرة الى شاطىء احدى جزر البحر المتوسط المجاورة للشاطىء السورى ، وأقيم بالجزيرة عمودان مثلا النار والريح ، وقدم الناس فى هذه الايام البعيدة دماء حيوانات الصيد قربانا للآلهة ثم أسست مدينة صور Tyre . كذلك فى نشأة جزيرة صور تقول بعض الاساطير انها كانت طافية فى البحر وان نسرا وثعبانا كانا يقومان بحراسة الالهة عشتارة وقد استطاع أوزوس (يشبه هرقل فى الأساطير الاغريقية) أن يسكنها وقد ولدت بها عشتارة . وهناك روايات اخرى لا تتفق مع تلك الاساطير فى نشأة المدن الفينيقية وخاصة مدينة صور .

وذكر هيردورت حينما زار صور حوالى عام ٤٥٠ ق.م . أن الكهنة قالوا له ان معبد ملقارت قد بنى منذ عام ٢٣٠٠ ق.م. اى أن تاريخ انشاء معبد بصور على حسب رواية هيردوت منذ حوالى ٢٧٥٠ سنة . وقد ثبت من نتائج أعمال الكشف الحديثة أن تاريخ هيردوت هو أقرب التواريخ الحديثة لهذه المدينة . وقد هاجر الساميون الى شمال سورية عند أوائل القرن السادس والعشرين ق.م. الى المنطقة التى اسماها البابليون بلاد امورو (ارض المغرب). وكان ذلك ايام سرجون الاول ونرام سين . وقد كشف بالقرب من قيصرية القديمة عن ثلاثين لوحة نقشت بالخط المسمارى تثبت وجود ساميين سكنوا تلك المنطقة فى أواخر الالف الثانى قبل الميلاد . وقد قيل أن سرجون وصل حتى قبرس . وعلى أى حال فقد كثرت هجرات الساميين الى سورية العليا والى بلاد النهرين والى آسية الصغرى . ومن كل ذلك نستطيع أن نقبل تاريخ هيردوت الذى ذكره عن تاسيس صور فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، وهو يطابق استقرار الهجرات السامية استقرارا دائما .

راس شمرا :

كشف م. شيفر Schaeffer على بعد حوالى ٧ كم شمالى أوغاريت عن حضارة منذ العصر الحجرى القديم وذلك بالكشف عن أدوات شيليه ، ثم ادوات من العصر الحجرى الحديث . وقد قسمت

الحفائرالى طبقات ، وقد عثر فى الطبقةالخامسة على بعد حوالى ١٨ — ١٦ مترا على أدوات من الظران والعظم والفخار ، وفى الطبقة الرابعة كشف عن ادوات من العصر الحجرى الحديث من الحجر والنحاس وعلى عمق حوالى ١٦ — ١٢ مترا ووجد به فخار عليه بعض الصور وهو شبيه بفخار تل حلف . وكشف فى الطبقة الثالثة عن فخار شبيه بما وجد فى العبيد بدلتا الرافدين ، كما يماثل چمدة نصر أيضا ، وكذلك عصر الوركاء وقد ارخ العلماء هذا الفخار بالألف الرابع قبل الميلاد ، وقد استمر خلال الألف الثالث قبل الميلاد . وظهر فى هذه الطبقة فخار كنعانى تتميز قدوره بقواعد مسطحة ، وكذلك ظهرت اوان من الطمى مموه بالميناء وهى تشبه السلاطين النصف دائرية التى كشف عنها فى قبرس ويرجعها العلماء الى العصر البرونزى القديم والذى حدد بين ٢٦٠٠ — ٢١٠٠ ق.م. ومن ذلك نرى وجود علاقة بين قبوس وراس شمرا . وقد امتازت هذه الفترة باستقرار الفينيقيين فى راس شمرا .

بيبلوس :

روى بلوتارخ قصة أزوريس حينما غدر به أخوه فوضعه فى التابوت وألقاه فى اليم فحمله الى الساحل حتى شاطىء مدينة بيبلوس ، ثم نبتت من فوقه شجرة فضمته . وقد هامت أخته ايزيس فى البحث عنه ، فلما بلغت بيبلوس علمت أن ملك هذه المدينة قطع الشجرة التى كانت تضم جثمان أخيها وزوجها ، واتخذها دعامة لاحد أبهاء قصره وقد احتالت ايزيس على الملك ، وعملت بقصره كخادمة ، وظلت تقوم كلما جن الليل بالصلاة من أجل أخيها ، ولما علم الملك بأمرها اعطاها العمود الذى كان به أزوريس .

نستطيع ان نستنتج من ذلك قدم العلاقات المصرية الفينيقية ، وأنها كانت علاقات دينية وتجارية ايضا . واذا ما تقدمت بنا الايام نجد أنه كشف فى بيبلوس عن أوان أهديت الى حكام بيبلوس منذ أيام خع سخموى وخوفو ومنكاورع وساحورع واوناس وتيتى وبيبى الاول وبيبى الثانى . كل ذلك يدل على أن العلاقات بين مصر وفينيقية لم تتوقف بل كانت مستمرة منذ قيامها قبل ابتداء العصر التاريخى . وعلاقة مصر بفينيقية واضحة أيضا مما ذكره أحد ملوك الاسرة الخامسة على حجر بالرمو ، فمن عهد الملك سنفرو ذكر أن أربعين سفينة قد وصلت الى مصر محملة بأخشاب الارز ، كذلك النقش الذى نقش على معبد الشمس للملك ساحورع ، قد رسمت عليه حملة بحرية الى فينيقية ووردت فى أعقابها جزية كثيرة من هذه المنطقة . وكذلك ذكر لنا (أونى) قائد حملة أيام

الملك بيبى الأول فى الأسرة السادسة قيامه بحملة برية وبحرية على المنطقة وقد كانت أهداف المصريين القدماء من وراء تلك الحملات الحصول على الاخشاب اللازمة للمنشآت الدينية والعمرانية والتى تفتقر اليها مصر ، وكذلك حماية حدودها الشرقية من غزو تسللات البدو الرحل الضاربين فى شرقى آسيا .

وسمى المصريون بيبلوس (جبيل) ، وكان هذا هو اسمها الفينيقى ثم حرف الى (كپن) أيام الاسرة الثانية عشرة ثم (كبن) .

هل اثرت الحضارة المصرية فى آسيا أو تاثرت بها ؟

قبل معرفة ذلك يجب ان نشير الى ان هناك حضارة قديمة فى العراق القديم كان يطلق عليها حضارة العبيد ، ويسمى العصر (عصر العبيد) يبدأ من حوالى عام ٣٤٠٠ ق.م وقد ظهر هذا العصر بالقرب من اور ، اذ كشف فيها عن أدوات عظيمة وصخرية ، وكذلك اكواخ كسيت بالطين ، وكان فخارها اكثر اتقانا من أى فخار آخر فى الحضارات القديمة المعروفة فى ذلك الوقت ، اذ صنع من عجينة دقيقة صفراء اللون مشوبة بخضرة زخرفت بخطوط هندسية ، ووجد فخار شبيه بذلك الفخار وفى نفس العصر فى شمالى بلاد الرافدين مع اختلاف فى شكله وتعـــدد فى الوان زخرفه ، وقد سمى بفخار تل حلف . وقد خلا عصر العبيد من المعادن . ثم بعد ذلك عصر الوركاء (٣٤٠٠ ـــ ٣٢٠٠ ق.م) الذى سمى فى التوراه (ارك) ، وقد ظهر فى هـــذا العصر النحاس والاختام الطولية منهـــا والاسطوانية ، كما ظهرت الكتابة . وفى هذا العهد اختفى الفخار الملون وظهر فخار خشن الصنع غير ملون وقد زود بمقابض . ثم جاء بعد ذلك عصر اطلق عليه عصر چمدة نصر (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م) التى تقـــع بالقرب من كيش بجوار بابل . تقدمت فى هذا العصر الصناعات التى نشأت فى العصر السابق ، الا ان فخار هذا العصر غليظ صناعته .

وبين العصر التاريخى وعصر چمدة نصر يوجد عصر له طابع خاص يتمثل فى قبر أور الملكى وبعض حكام تللو . وقد حاول كثير من علمـــاء المصريات والشرقيات ايجاد تشابه ، فنظروا الى الادوات التى كشف عنها فى عصر فجر التاريخ ، ووجد بعضهم أن المصريين اتقنوا تلك الصناعـــة فصنعوا منها الفؤوس والكاشط ورؤوس السهام ، وكذلك كانت هـــذه الصناعة أيضا متقنة فى كل من بلاد ما بين النهرين وعيلام وفى الجنوب الغربى من ايران . وقد كتب دى مورجان فى مجلة علم الاجناس انه غـــير مستطاع وجـــود علاقـــة بين البيئتين ، كذلك بين حضـــارة سوس من

الطراز المسمى رقم (١) وبين عصر فجر التاريخ فى مصر القديمة (وهى مرحلة متخلفة من حضارة العبيد) . وخلاصـــة القول الذى رآه دى مورجان ان هذه الافكار القديمة كانت أفكار تلقائية عند تلك الجماعات البدائية ، دفعت اليها ظروف معيشتهم وبيئتهم ، وأنها توجد فى أى مكان وهذا هو السر فى التشابه بين الحضارة فى سوس وعيلام ومصر ، وتأكيدا لتلك النظرية فان الفخار العيلامى الذى يمثل النموذج الأول لم يتأثر به الفخار المصرى ، بينما نجد أن النموذج الثانى من الفخار العيلامى ، وقد صنعت آوانيه من طمى ملون بلون أحمر وخشن الصناعة ولون بنقط كثيرة ، يشبه بعض الفخار المصرى الذى كشف عنه فى عصر ما قبـــل الأسرات .

وربما أن الحضارات ــ على حسب رأى دى مورجان ــ لم تتصل بعضها البعض فى فترة تأسيسها ، وانما يرجع انها اتصلت بعد ذلك . مالت الحضارات القديمة فى الفترة الثانية الى ازدواج الزخارف الهندسية وتصوير الحيوانات . ونستطيع ان نطبق تلك الحالة على الحضاراتالتى نشأت فى سورية وفلسطين حيث كانت معبرا للساميين والمصريين ، اذ كنا نقبل الرأى القائل بحدوث اتصال بين شعبى وادى النيـــل وبلاد الرافدين . ثم هناك تشابه بين الاوانى الحجرية التى ظهـــرت فى عصر التأسيس فى مصر (الأسرتين الأولى والثانية) وبين الأوانى التى ظهرت فى عيلام والمنسوبة الى عصر النموذج الثانى . ولوحظ فى هذا العصر أن الفنان قد مال فى زخارفه الى الرسوم الحيوانية وظهر على الصـــلايات وبعض مقابض السكاكين وقد جاء فى بعض الرسوم مناظـــر لحيوانات مختلفة مثل الفيل ووحيد القرن والزراف والنعام والوعول التى كانت تكثر فى الصحروات المصرية منذ اقدم العصور .

لقد ظهرت فى بلاد ما بين النهرين أولا الاختام المسطحة وذلك فىمناطق كثيرة ، صنعت من الطمى وكانت تطبع عليه علامة الختم قبل أن يجف . وفى عصر النموذج الثانى ظهرت فى عيلام وسومر أختام أخرى اسطوانية من الحجر أو الصدف أو العجين الصناعى ، وكانت تنحت عليها الزخارف المطلوبة . وأما عن طريقة استخدام كل من هـــذين النوعين . فالاول يستخدم كما نفعل باختامنا فى عصرنا الحـديث ، أما الثانى فكان يدار على طمى لم يجف بعد وتظهر رسوم الختم على شريط تكررت زخارفه . وقد كشف عن كثير من هذه الاختام الاسطوانية فى كل مكان حل فيــه الساميون فى مصر مثلا ، وحمل فى أول أمره صور رمزية مثل ما كان يحمل عند العيلاميين .

ولما تقدمت الحضـــارة المصرية غطى بالكتابة . كل ذلك فى دور التأسيس الخاصة بالحضارة المصرية وما بعدها بقليـــل . ولما عرف المصريون البردى تركوا استخدام هذا الختم الاسطوانى . ولكن حينما يدخل الساميون مصر يظهر هذا الختم مرة أخرى .

اما مناجل المصريين والسومريين فقد تشابهت فصنعت اسنانها من حجارة صغيرة من الصوان ركبت فى تجاويف خشبية مقوسة . كذلك وجدت فؤوس نحاسية فى عصر ما قبل الاسرات فى كل من مصر وعيلام . كذلك هناك تشابه بين عمارة القبر فى كل من الحضارتين فى هذه الفترة بينما يرى بعض العلماء ومنهم هوميل ان المصريين قد اقتبسوا حضارتهم من بلاد ما بين النهرين وحاولوا أن يقربوا بين الكتابة المصرية القديمـة والكتابة السومرية وهذا رأى بعيد عن الصواب حقا أن كل كتابة من هاتين الحضارتين قام على نظرية الرمز التصويرى للافكار . ثم هنـاك نظرية أخرى هل هناك رابطة بين الديانة فى كل من الحضارتين ، فقـد عثر مونتيه P. Montet فى بيبلوس عن اسطوانة يذكر ان اصلها من منف ، وقد ذكر عليها اسم الاله (حاى تاو) وقد رأى مونتيه اعتمادا على نص مصرى قديم أن المصريين كانوا يعتبرون ان الاله (حاى تاو) ما هو الا (أوزوريس) . وقد عبد الاله (حاى تاو) فى بلاد نيجا التى تقع فى منطقة جبلية عبد فيها أدونيس اله النباتات . وقد سمى المصريون اله النبات فى أيام تانيس (حاى تاو) كذلك تصور الاغريق أن أدونيس ولد من شجرة ، والمصريون ايضا تصوروا ان (حاى تاو) أصبح شـــجرة صنوبر .

وقد إفترض دى مورجان – لامكان وصول هذه الحضـــارة الى مصر – احتمال غزو الاسيويين وادى النيل فى عصور بعيدة وقبل بدء العصور التاريخية ، ولم يستطع دى مورجان تحديد مكان أو زمان هذا الغزو . وهناك احتمال ان هذا الغزو قد تم بعد ان تمكنت الحضارة فى بلاد الرافدين من تأسيس بعض وحداتها الحضارية ، وكان ذلك عقب ما يسمى فى الحضارة السومرية بالنموذج الثانى والذى سبق الاشارة اليه . ولا بد أن ذلك كله كله قد حدث قبل الوحدة التاريخية المعروفة فى مصر منذ عام ٣٢٠٠ ق . م .

اذن هناك تشابه بين آثار عصر ما قبل الاسرات فى مصر وعصر الوركاء فى العراق القديم ، كذلك هناك تشابه بين آثار عصر التأسيس فى مصر وعصر جمدة نصر فى العراق القديم .

أما عن طريقة الاتصال فقد اختلفت فى أمره العلماء ورأى بعضهم أن العراقيين القدامى قد غزوا مصر واتخذوا طريق سوريا ، ورأى البعض أن ذلك قد وقع فى الشام العليا . بينما يرى البعض عدم حدوث غزو وان هناك اتصالات تجارية قامت بين الدولتين .

وهل لنا أن نفترض ان المصريين قد تأثروا بالحضارة الاسيوية عن طريق الفنيقيين ؟ فى الواقع لا يمكننا فرض ذلك اذ لا يوجد سند مادى ملموس .

ونقطة أخرى حتى لو فرضنا أن الآسويين غزوا مصر فان هـــذه العناصر لم تكن من الساميين لان اصحاب حضارة سومر ، وهى غالبا مركز للحضارة السومرية ، عملوا على نشر حضارتهم فى آسيا الغربية بوجه عام .

أما فى الألف الثانى حيث بدات تظهر فينيقية لأول مرة فى التاريخ ، اتصلت مصر ببيبلوس أيام الأسرة الثانية عشرة فقد أرسل اليهم فراعنة مصر امنمحات الثالث وأمنمحات الرابع هدايا ، وقد سموهم النبلاء ، وكان يخلع هذا اللقب على حكام المحافظات ، وقد لوحظ أن أحدهم وهو ابشيموابى Ypshemuabi قد كتب اسمه داخل خرطوش ، وكان ذلك وفقا على الملوك فقط . ثم مغامرات سنوهى وما جاء فيها من اتصاله بأهل بيبلوس . ولا يوجد مثيل لهذه القصة فى الآداب الآسيوية فقد صورت حياة سكان سورية العليا واخلاقهم وطبائعهم ، وكانت تعتبر المنطقة التى حدثنا عنها سنوهى ضاحية كبرى لفينيقية وذلك حينما ازدهرت مملكة حمورابى فى بابل . وقد اخذ الفينيقيون عن الحضـــارة المصرية عادة التحنيط .

ولما هاجم الهكسوس الشرق ساقوا امامهم شعب الأموريين الذين كانوا يقيمون فى سورية العليا ، وكذلك ساق الشعب الكنعانى الذى كان يقيم فى بعض نواحى سورية . وليس من شك أن بين الكنعانيين جماعة الاراميين ، والتى جاء تاريخهم فى قصة ابراهيم الذى خرج من أور التى تقع فى كلديا السفلى الى حران على رافد من روافد الفرات يسمى بلخ ، ثم اتجه معهم الى كنعان .

لقد استعمر الهكسوس مصر فترة من الزمن ، ثم تحرروا أخيرا على يد الملك أحموس ، وبعد ذلك سرى فى مصر روح الانتقام وتأمين الحدود .

فقد تنبه المصريون الى ان الباب الحقيقى للشرق ولمصر بوجه خاص هو سورية ، ولا يصح ان يكون مفتوحا امام الغزاة ، من أجل ذلك تكررت حملاتهم ايام الأسرة الثامنة عشرة لتامين الحدود ، وعلى ذلك كانوا كثيرى الاتصال بمدن فينيقية ، وقد زاحف تحتمس الأول حتى وصل الى منعرج الفرات حوالى ١٥٢٥ ق.م ، وكذلك تحتمس الثالث ١٥٠٣ – ١٤٤٩ ق.م وكانت فينيقية بلادا صديقة لمصر أيام الدولة الحديثة ، وجاء ذلك على وثائق كثيرة بعضها يتمثل فى رسائل تل العمارنة ، صورت علاقة أهل فينيقية بالمصريين فبعض المدن مثل ارادوس وصيدا كانت على عدم وفاق مع مصر ، بينما كانت صور وبيبلوس حليفة وصديقة ، ومما يدل على مبلغ اخلاص أهل بيبلوس لمصر أنه بعد ضعف نفوذ مصر فى هذه المنطقة ظل أهل هذه المدينة موالين لحكام مصر أوفياء لعهودهم ، اما أوجاريت فقد آثرت الانضمام الى الحثيين . وهذه الوسائل كانت بين كل من ملكى مصر أمنوفيس الثالث ١٤٠٥ – ١٣٧٠ ق.م. تقريبا وأمنوفيس الرابع ١٣٧٠ – ١٣٥٢ ق.م تقريبا الى حكامهم فى سوريا وفلسطين أو من بعض ملوك آشور وبابل والبعض منها من امراء آسيا الصغرى .

وقد دلت تلك الرسائل على ضعف سلطان مصر فى بلاد فينيقية ، وأن الحثيين كانوا كثيرا ما يتسللون الى فينيقية عن طريق سوريا العليا . والواقع ان رسائل العمارنة هى عبارة عن استغاثة ارسلها بعض حكام فينيقية الى فراعنة مصر يخبرونهم بما حدث من مؤامرات وخيانات ضدهم وقد كانت تنتهى كل رسالة من هذه الرسائل بطلب بامدادات ، ولكن لم يستجب الفراعنة لتلك الصرخات . وهى فى مجموعها تصور عدم الاستقرار الذى كان يسود فينيقية ايام فرعون مصر أمنوفيس الثالث والرابع ، وقد جاء فيها ذكر المدن الفينيقية بيبلوس وسيميرا وبيروت وصيدا ، وقد بلغت رسائل أحد حكام بيبلوس (رب عدى) خمس وأربعين رسالة . وواضح من تلك الرسائل أن أمراء شمالى الشام هم الذين كانوا خارجين على فرعون مصر وأهمهم (عبد اشيرتا) وولده (ازيرو) . ولما لم يهتم ملوك مصر بالاستجابة لتلك الصرخات سقطت كثير من المدن فى يد شعب امورو الذى كان حليفا للحيثيين .

كذلك ذكرت بردية انستاسى مدينة Kepuna (بيبلوس) وبيروت وصيدا ودير صور التى تكثر اسماكها حتى تبلغ عدد حبات الرمل .

والى القارىء أهم الرسائل التى جاءت على لسان بعض حكام فينيقية من رسائل العمارة :

رسالة زيمردا حاكم صيدا (١) :

يقول حاكم صيدا « الى سيدى والهى وشمسي ونفس حياتى : وعند قدمى سيدى والهى ... أسجد سبع مرات وسبعا . واعلم يا سيدى الملك ان صيدا مطمئنة خادمة لسيدى الملك الذى أودعها بين يدى . ثم اننى عندما علمت رسالة سيدى الملك . واعلم أيها الملك انى اقود جند سيدى الملك وانى أنفذ كل ما يأمر به ، واعلم أيها الملك أيضا ان لى اعداء أقوياء ، وأن كل المدن التى أولانيها الملك سقطت فى يد « اللصوص » فهل يأذن الملك بأن أضع نفسى تحت حماية قائد جنده لاسترد البلاد التى سقطت فى يد « اللصوص » ولاستعيد قبضتى عليها ، ولامضى فى خدمة سيدى الملك كما خدمه آبائى من قبل » .

رسالة رب عدى حاكم جبيل :

« من رب عدى الى سيدى الملك : القى بنفسى بين قدمى سيدى سبع مرات وسبعا ، ها أنذا سمعت كلام سيدى الملك فانشرح به قلبى كثيرا . وليعجل سيدى بارسال الجند على جناح السرعة فاذا لم يرسل سيدى الملك جندا نموت وتؤخذ معنا مدينة جبيل . وهى الان كما كانت بالامس وقبل الامس فى قلق . والآن وأمس وقبل أمس ما زال الناس يقـولون « ليس لدينا جند » وقد كتبت مرة فجاءتنى جنود وأسرت أياشانو ، وها هم أولاد الناس الآن يقولون « لم يكتب واذن فستؤسر » وها هم أولاد الاعداء يسعون الى الاستيلاء على جبيل ويقولون « لو استولينا على مدينة چيبل لتقوينا بها » واعلم انهم لو استولوا على چيبل لتقووا بها . وأنا لا منجد لى اذا لم تسر الى لنحاربهم معا . واعلم انى أحفظ مدينـة الملك ليلا ونهارا ، ولوسرت لفتح بلد تخاذل الناس عنى لكى يستأثروا بالبلد لانفسهم وليس لدينا جند لحفظ مدينة جبيل التى هى مدينـة سيدى الملك : فليعجل سيدى الملك ببعث الجند والا هلكنا . ولو اقتصر الملك على الكتابة لايقن الناس انهم هالكون . أما من يقـول للملك « ان الطاعون بالبلاد » فهم ساعون الى الشر ، فلا يصغ سيـدى الملك لكلام الغير ، فلا طاعون بالبلاد ، والحالة الصحية بها أحسن من ذى قبل . وسيدى يعلم انى لا اكتب بخبر كاذب الى سيدى . والرؤساء عادة لايحبون أن يسيروا بالجنود الا اذا كانت الظروف ملائمة لهم ، لكنى أنا أود أن

---

(١) انظر G. Contenau, La Civilisation Phénicienne (Paris 1948). وقد ترجم الى العربية بمعرفة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة . وقد آثرت ان اضع تراجم هذه الخطابات كما هى واردة فى الترجمة لهذا الكتاب من ص ٦٣ وما بعدها .

يسير الجنود وان يرى الملك بلاده وان يستولى على كل شيء ، واليوم الذى تتحرك فيه للسير هو اليوم الذى تنحاز فيه كل البلاد لمولاى الملك ، ومن ذا الذىيستطيع ان ينهض فى وجهجند الملك . فلا يتركنى سيدى الملكهذا العام لابناء عبد اشيرتى وانت تعرفهم : انهم نزلوا جميعا فى أرض سيدى الملك » .

ونتيجة لعدم استجابة ملوك مصر ولكثرة هجمات الحيثيين ضاعت شمالى سوريا . وان تمثيل محاربة الاسيويين أيام توت عنخ آمون لا يعدو أن يكون الا تقليدا كان متبعا عند كل فرعون وهو تمثيله للخروج لقتال الاعداء لان توت عنخ آمون كان صغير السن حين تولى العرش ولم يعمر طويلا اذ مات فى سن الثامنة عشر وكان مريضا معتلا . ولما جاءت أيام رمسيس واتخذ (بى رمسيس) عاصمة لمصر ، وهى تقع حاليا عند تانيس فى شرق الدلتا ، وذلك ليراقب منها مملكته وضمنها فينيقية . وفى العام الثانى من حكمه خرج الى الشرق واقام نصبا ليثبت انتصاراته بالقرب من بيروت . والى شمال هذا الموقع تقابلت جيوش رمسيس الثانى مع جيوش الحيثيين بما فيها من مرتزقة . وقد حفظت لنا أشعار هوميرية اسماء هؤلاء المرتزقة (بيداسا وجمعها البيداسيون) ، (ماسا وجمعها الميسيون) ، (الدروانوى وجمعها الدروانيون) ، (اليونا وهم أهل اليون)، (دناوانا وجمعها الدنانيون) ، (لوكى وجمعها الليكيون) .

وكان موقف الفينيقيين هو مراقبة الحوادث الدائرة بين الحيثيين والمصريين عند قادش على نهر الاورنتو جنوبى البحيرة ، وقرب مدينة حمص الحالية . وقد وصفت معركة قادش على كثير من دور العبادة المصرية ، انتهت بمعاهدة السلام المعروفة عام ١٢٧٨ ق.م. تقريبا ، وقد كان الفينيقيون يسيرون فى فلك المصريين ، ومما يدل على ذلك الكشف عن انائين فى جبيل عليهما اسم رمسيس الثانى ، دفنها أحد ملوك جبيل معه فى قبره . وبذلك يتبين لنا من هاتين الزهريتين أن التبعية لمصرالتى سمعنا عنها من قبل قد عادت الى فينيقية مرة اخرى أيام الاسرة التاسعة عشرة. والفارق بين ما رأيناه أيام الاسرة الثانية عشرة وأيام هذه الاسرة أن أمير ببلوس المسمى احيرام قد نقش اسمه فى هذا العصر باللغة الفينيقية .

ومن الطريف أن الحفائر التى اجريت عند كفر الجرة كشفت عن وثيقة اثرية هامة توضح لنا التأثيرات المصرية والايجية التى دخلت على الطابع الكنعانى ، وقد سارت هذه التأثيرات فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد حول مدينة صيدا .

ومرت بلاد فينيقية بعد ذلك فى فترة قلاقل من جانب عملاء الحيثيين وهم شعوب البحر ، فقد قام هؤلاء بغزو آسيا الغربية عن طريق البر والبحر حول عام ١٢٠٠ ق.م. وحطوا رحالهم فى أراضى الامبراطورية الحيثية وسوريا وبلغوا حتى مصر ولولا قوة رمسيس الثالث ١١٩٨ — ١١٦٦ ق.م. لاحتلوها . ونتيجة لذلك الغزو استقر شعب جديد فى جنوب فلسطين وهو الشعب بولوساتى Pulusati الذى جاء منه اسم الفلسطينيين ،وقد مس فينيقية من وراء ذلك بعض البأس فنهبت صيدا ، ولحق صور بعض الضرر .

أما عن علاقة مصر بفينيقية بعد غزو شعوب البحر فقد اعتراها بعض الضعف ، ومما يؤيد ذلك أن مبعوثى رمسيس التاسع فى بيبلوس ظلوا هناك مدة سبعة عشر عاما ولم يستطيعوا العودة الى مصر . وكذلك ما جاء فى قصة (ون آمون) والتى حدثت فى أواخر أيام الاسرة العشرين ١٠٠٠ ق.م.

رحلة ون آمون :

تدور حوادث الرحلة عن قيام ون آمون باعتباره « سفيرا من بنى الانسان » الى ساحل فينيقية ليحضر خشبا كان لازما لاصلاح قارب آمون . وقد رحل ون آمون فى فترة كانت السلطة فى مصر منحلة موزعة بين الكاهن الاول حريحور فى طيبة وبين سمندس فى تانيس . وكان ون آمون باعتباره أحد كبار الموظفين قد أخذ معه تمثالا لآمون يسمى « آمون الطريق » ليكون الممثل الشخصى أو المبعوث فوق العادة الذى يمثل الاله فى الخارج . وبعد أن مر ون آمون على تانيس فأطلع أمراءها على الخطابات التى معه من حريحور ، أبحر متجها الى فينيقية . وقد سرقت أمواله فى أول ميناء نزل به ، ثم تتابعت عليه المحن فلاحقته فى صور وبيبلوس وقبرس ، ولا تعرف نهاية الرحلة لفقدان خاتمتها .

كانت الرحلة مؤرخة بالسنة الخامسة من سنى عصر النهضة ، وكان حريحور كبيرا للكهنة بالكرنك ، بينما كان نسى بانب چو أو سمندس الملك الاول من ملوك الاسرة الحادية والعشرين فى تانيس . كان هذان الرجلان على وفاق تام ، ولم يطلب أى منهما التاج لنفسه فى تلك الآونة وكان الملك الحقيقى رمسيس الحادى عشر ، وذكر مجازيا فى نص من نصوص . وفى مثل هذه الظروف ، كانت مصر حقيقة ضعيفة جدا لتلقى احتراما خارجيا . وان محاولات ون آمون مع الامراء الذين اتصل بهم ،

تعطينا فكرة عن العالم المعاصر الغير متكافىء . والى القارىء ترجمة هذه القصة حسب آخر ترجمة لجاردنر مع بعض التصرف .

السنة الخامسة ، الشهر الرابع لفصل الصيف ، اليوم السادس عشر ، وهو اليوم الذى ذهب فيه ون آمون كبير بوابى منزل آمون ، رب عروش الارضين ، وذلك للبحث عن خشب للقارب العظيم المبجل ، ملك الالهة ، الذى كان على النهر ، وكان يسمى ، آمون أوسر حيه Amen-user-he وعند يوم وصولى الى تانيس حيث المكان الذى اقام فيه نسى بانب چو ، وتنت آمون ، أعطيت لهما رسالة آمون رع ، ملك الآلهة . فأمرا بأن تقرأ عليهما ثم قالا سنعمل بكل تأكيد كما أمر آمون رع ، ملك الالهة ...

ولقد بقيت حتى الشهر الرابع لفصل الصيف (التواريخ فى الاصل غير متفق على صحتها) فى تانيس . وارسلنى نسى بانب چو وتنت آمون مع قبطان السفينة منجبت ، وذهبت متجها الى البحر العظيم لسوريا فى الشهر الاول لفصل الصيف

ولما وصلت الى دور (يرى لفيڤر احتمال ان تكون دور واقعة فى جنوب جبل الكرمل ، مكان (دورا) التى غناها شعراء اليونان والرومان أى مدينة تنتورا الحالية) احدى مدن ثيكر Tjekker . وامر أميرها بيدر أن يحضر لى خمسين رغيفا ، وقنينة من نبيذ وفخذثور . وقد هرب رجل من سفينتى بعد ما سرق اناء من ذهب قيمته خمسة دبن deben واربعة أوان من الفضة قيمتها ٢٠ دبنا deben ، وحقيبة من الفضة قيمتها ١١ دبنا ، ومجموع ما سرقه ٥ دبنات من ذهب ، ٣١ دبنا من فضة . (كان وزن الدبن فى هذا العصر ٩١ جراما تقريبا . وبذلك يصبح وزن ما سرق : ٤٥٥ جراما من ذهب ، ٢٨٢١ جراما من فضة) .

استيقظت فى الصباح ، وتوجهت الى المكان الذى كان فيه الامير (= القصر) قائلا له : لقد سرقت فى مينائك . ولكن انت امير هذا البلد وانت راعيه . فابحث لى عن مالى ، والحقيقة أن هذا المال ملك لآمون رع ملك الالهة ، سيد العالم ، انه ملك لنسى بانب چو ، انه ملك لحريحور ، سيدى ، وملك عظماء مصر ، أنه ملك لك ، انه ملك لورات انه ملك لمكمار ، انه ملك لثيكار بعل اميربيبلوس ، . وقال لى : أتتحدث بحق أم انك تخترع؟ لاننى حقا لا اعرف شيئا عن هذه القصة التى اخبرتنى اياها . اذا كان السارق رجلا من بلدى ونزل الى سفينتك وسرق مالك ، فاننى لابد أن أعيده اليك من مخازنى حتى يوجد اللص ، من اذن يحتمل أن يكون ، ولكن

الحقيقة أ ناللص الذى سرقك ، هو ن عندك ، انه تابع لسفينتك . فلتبق معى بضعة أيام ، فسوف أبحث عنه .

أمضيت تسعة أيام قائما فى مينائه ، وبعد ذلك ذهبت اليه وقلت له : انظر ، ما دمت لم تجد مالى ، فسأبحر مع بحارة السفينة ومع من يريد أن يبحر ..

ثم تأتى بعد ذلك فقرات مشوهة من النص ، خلاصتها أن ون آمون أراد أن يقلع مع بعض قبطانات السفينة ، ولكن نصحه الامير بالامتناع ، مقترحا عليه انه سوف يأخذ بعض السلع الخاصة بالاشخاص المشتبه فى أمرهم كرهينة حتى يذهبوا للبحث عن اللص . ومع ذلك كله فقد فضل ون آمون الاستمرار فى رحلته . وبعد أن وصل الى صور ، ترك هذا البناء فى الصباح ، فوصل بيبلوس حيث كان أميرها ثيكار بعل ، وهنــاك التقى بسفينة تحمل ٣٠ دبنا من فضة ، وذكر أيضا أن المال سيبقى معه حتى يحضر هؤلاء الاشخاص اللص . ثم يستمر النص .

... ولما رحلوا احتفلت (بعيد) فى فسطاط على شاطىء البحر فى ميناء بيبلوس . ووجدت مكانا خفيا (للتمثال المسمى) آمون الطريق ، ثم وضعت أمواله داخلها . وأرسل الى أمير بيبلوس قائلا : ارحل بنفسك من مينائى ، وأرسلت اليه قائلا : الى أين أذهب ؟ ... اذ كنت تستطيع أن تجد سفينة تحملنى دعنى أعود الى مصر ثانيا ، وقد أمضيت ٢٩ يوما فى مينائه ، وهو يبعث الى يوميا قائلا : ارحل بنفسك من مينائى .

وفى ذات يوم ، حينما كان يقدم الى آلهته ، قبض الاله على رجل صغير من رجاله الصغار ، والقى الرعب فى قلبه ، وقال له : احضر الاله ، واحضر الرسول الذى يحمله . انه آمون الذى ارسله ، انه هو الذى عمــل على احضاره . وكان الرجل الغاضب فى حالة غضب طوال هذه الليلة ، ولمــا وجدت سفينة تولى وجهها نحو مصر ، وكانت قد حملت كل اغراضى عليها ، وراقبت الظلام قائلا : حينما تبحر (= تنزل الى مصر) ، فسوف أضــع (تمثال) الاله فى السفينة ، وسوف لا تراه عين أخرى ، وجاء المشرف على الميناء الى قائلا : انتظر هنا حتى باكر ، هكذا قرر الامير . وقد قلت له : الم تكن أنت الذى انفقت وقتا فى الحضور الى يوميا قائلا : ارحل بنفسك من مينائى . ألم تقل انتظر هنا هذا المساء ، وذلك لتدع السفينــة التى وجدتها ترحل ، وبعد ذلك ستحضر مرة أخرى وتخبرنى لارحل ؟ وذهب وأخبر الامير . وأرسل الامير الى قبطان السفينــة قائلا « انتظر حتى الصباح بأمر الامير » .

فلما جاء الصباح أرسل الى (رسولا) ذهب بى الى أعلا ، بينما كان الاله يرتاح فى الفسطاط التى كان بها عند شاطىء البحر . فوجدته جالسا فى حجرته العليا وظهره مستند الى نافذة ، بينما ترتفع (فى النص تضرب) أمواج البحر العظيم لسوريا خلف رأسه . فقلت له « أعف عنى يا آمون (؟) » . فقال لى « وكم يوما حتى الآن » . فقال لى « هب أنك على حق ، أين هى رساله آمون التى تحت يدك ، أين خطاب الكاهن الاول لآمون التى تحت يدك ؟ » . فقلت له « أعطيتها لنس بانب چو وتنت آمون » . فغضب جدا وقال لى : « حسنا الآن ، لا يوجد معك خطاب ، ولكن أين سفينة خشب الصنوبر التى أعطاها لك تس بانب چو ؟ وأين بحارتها السوريون ؟ الم يسلمك الى قبطان تلك السفينة الاجنبى ليقتلك، ولسوف يلقونك فى البحر ؟ عند من اذن كنا نلتمس الاله ؟ وأنت نفسك عند من كنا نجدك . هكذا قال لى ، فاجبته : « ولكن اليست هى سفينة مصرية ؟ وبحارة مصريون الذين كانوا يحملون = (يجذفون) نس بانب چو ؟ لم يكن لديه بحارة سوريون » . فقال لى « الم توجد فى مينائى عشرين سفينة تقوم بربط العلاقات التجارية مع نس بانب چو . وأما من جهة صيدا ، ذلك المكان الذى تمر منه ، ألم يوجد أكثر من خمسين سفينة هناك تعمل مع واراكاتير وتبحر الى منزله ؟ » .

وقد لزمت الصمت فى هذه اللحظة الدقيقة .

ثم استطرد قائلا لى : « ما هى المهمة التى جئت من اجلها ؟ » فقلت له : « اننى جئت فى طلب خشب اليخت العظيم لآمون رع ، ملك الآلهة . ما فعله أبوك ، وما فعله والد والدك ، سوف تفعله أنت » . هكذا قلت له وقال لى : « فعلوها حقا . سوف تدفع لى من أجل عملها ، ولسوف أفعلها . وبالتأكيد انجز رجالى هذا الطلب ، ولكن ذلك بعد أن عمل فرعون على ارسال ست سفن محملة بالخيرات المصرية فكانوا يفرغونها فى مخازنهم . ولكن ما الذى أحضرته لى ؟ » وأرسل فى طلب السجل اليومى لآبائه وأمرهم بأن يقرأ أمامى . ووجدوا داخل هذا الملف أشياء من كل صنف قيمتها الف دبن من الفضة . وقال لى : « اذا كان حاكم مصر صاحب ما املك ، وأنا أيضا خادمه ، فلم يكن هناك ما يستوجب احضار فضة وذهب حينما قال لى : « أنجز رسالة آمون » ، (ويقصد من ذلك أنه اذا كان آمون يقصد تنفيذ أمر من الاوامر فلن يدفع له اى مقابل) لم تكن الاشياء التى يقدمونها لوالدى على سبيل الهدية بدون مقابل . وأنا أيضا لست خادما لك ، ولست خادم من أرسلك أيضا . (يقصد هنا حريحو الذى يعتبره ون آمون سيده) . حينما أرفع صوتى فى لبنان انشقت السماء وامتدت الاشجار هنا على شاطىء البحر . أعطنى القلاع

التى احضرتها لاحمل سفنك التى معك لانقل خشبك الى مصر ، أعطنى الحبـال التى احضرتها لاحـزم (اشـجار) الارز الذى سأسقطه لك = (سأقطعه) لاقدمها لك (والا كيف نأخذ الاخشاب التى سأمدك بها) ترجمة وتقدير لفيڤر) فربما تكون الاحمال ثقيلة على قلاع سفنك ، ولربما تهلك وسط البحر . انظر ! سوف يعلو صوت آمون فى السـماء وقد وضع ست بجواره . حقا ، ان آمون أنشأ كل البلاد ، لقد أنشأها ولكن أنشأ من قبل أرض مصر التى أتيت منها . لقد أتت منها الصناعة لتصل الى مكانى . لقد أتت الحكمة منها لتصل الى مكانى (أى الى بلادى) . فما معنى هذه الرحـلات السخيفة التى تقوم بعملها ؟ » ولكن قلت له : كذب ! ليست رحلات سخيفة تلك التى أقوم بها الآن . فما من سفينة فى النهر ليست لآمون . ان البحر ملك له . ان لبنان التى تقول عنها « أنها ملك لى » ملك له . انه مكان النبت لآمون أو سرحيه سيد كل السفن . حقـا انه آمون رع ملك الآلهـة الذى قال لسيدى حريحور « أرسله » ، وأمـر بسفرى مع هذا الاله العظيم . ولكن انظر الآن ، انك تركت هـذا الاله العظيم يقضى التسعة والعشرين يوما هذه فى مينائك بدون علمك . ألم يكن هنا . أليس هو بعينه كما كان ؟ وانت تقف تساوم آمون سيد لبنان . أما عن قولك بأن الملوك الاوائل قد عملوا على احضـار الذهب والفضة ، (فانى أجيب) بأنهم اذا كانوا يملكون الحياة والصحة ، لما عملوا على أن يرسلوا شىء من المنتجات ، وعوضا عن الحياة والصحة عملوا على أن ترسل منتجات لاجدادك . ولكن آمون رع ، ملك الآلهة ، انه صاحب هذه الحياة والصحة ، وانه سيد أجدادك . قد أمضوا حياتهم يقدمون القرابين لآمون ، وانت أيضا خادم آمون . اذا قلت « نعم ، سوف أعملها » الى آمون ، ان أتممت طلبه سوف تعيش ، وسوف تكون ناجحا ، وسوف تكون بصحة ، وسوف تكون محبوبا لكل بلادك ولكل رجالك . فلا تطمع فى مال آمون رع ، ملك الآلهة — الحق أن الاسـد يحب ماله . دع كاتبك يحضر الى لارسله الى نس بانب چو وتنت آمون ، وهم الولاة الذين ولاهم آمون على شـمال بلاده ، ولسوف يعملون على اعطائك كل ما تحتاجه من أموال . سوف أرسـله اليهما قائلا « دع هذا يرسـل حتى أعود الى الجنوب » (أى فى طيبة عند حريحور) ، وسأعمل على أن أحضر اليك كل ما أدين به لك أيضا ؟ هكذا قلت له .

ووضع خطابى فى يد رسوله ، وحمل السفينة ، جوفها ومقدمتها ، ومؤخرتها ، وأربعة الواح خشب سميكة مبخرة ، والمجموع سبع (قطع) ، وعمل على ارسالها الى مصر . وأما عن رسوله الذى ذهب الى مصر فقد عاد الى فى سوريا فى أول شهر من فصل الشتاء ، وأرسل نس بانب چو وتنت آمون أربعة أوان من ذهب ، ووعاء (يسمى باللغة المصرية القديمة

كاكامن) ، وخمسة اوان من فضة ، وعشر قطع من غطاء فراش من الكتان الملكى ، وعشر خمر من كتان مصر العليا ، وخمسمائة ملف من البردى وخمسمائة من جلد العجول ، وخمسمائة حبل ، وعشرين غرارة عدس ، وثلاثين سلة سمك (مجفف) . وارسل (تنت آمون) الى خمس قطع من غطاء الفراش من كتان مصر العليا الدقيق ، وخمسة خمر من كتان مصر العليا الدقيق ، وغرارة عدس ، وخمس سلال من سمك . وسر الامير وجهز ثلثمائة رجل وثلثمائة ثور : ووضع على رأسهم مشرفين ليعملوا على قطع (النص الاصلى اسقاط) كتل الخشب . واسقطوها ، وتركوها هناك طوال الشتاء . وفى الشهر الثالث من الصيف ، سحبوها الى شاطىء البحر . وذهب الامير ووقف قريبا منها ، وارسل الى يخبرنى بالحضور . ولما جئت اليه ، ضمنى ظل مروحته اللوتية (أى التى على شكل زهرة اللوتس . والمعنى الحرفى لتلك العبارة : سقط على ظل مروحته اللوتية) . وجاءنى تابعه (پن آمون I'enamun) قائلا : لقد وقع عليك ظل سيدك فرعون ، فغضب عليه (الملك) وقال « دعه وحده » وجىء بى اليه ، وتوجه الى قائلا : « انظر ! لقد قمت بانجاز الطلب الذى قام به اباتى من قبل ، ولكن لم تفعل لى انت ما فعل اباؤك الآبائى . انظر ! وصلت آخر اخشابك وفى مكانها . اعمل على حسب رغبتى ، وتعال وضعها فى السفينة ، السنا مستعدين لتسليمها لك ؟ لا تحضر لترى مخاطر البحر ، ولكن اذا نظرت الى مخاطر البحر ، انظر أيضا الى مخاطرى . حقا اننى لم افعل بك ما صنع برسل (خع ام واست Kha'mwise) حينما امضوا سبعة عشر عاما فى هذه الارض وماتوا فى مكانهم ، وقال لتابعه : « خذه ودعه يرى قبورهم حيث يرقدون» ولكنى قلت له : « لا تجعلنى أراها . اما بالنسبة للرسل التى أرسلها اليك خع أم واست من الرجال ، وهو أيضا رجل . ولكن ليس لديك واحد واحد من رسله حينما تقول «اذهب وانظر رفاقك» . لما لا تفرح وتعمل على ان يقام لوحة وتستطيع أن تقول فيها « آمون رع ، ملك الآلهة ، أرسل الى آمون الطريق رسوله ، وذلك مع ون آمون سفيره من بنى الانسان ، ليحضر الخشب ليخت آمون رع المظيم الفاخر ملك الآلهة لقد قطعتها (النص الاصلى اسقطتها) وحملتها على السفينة ، وزودته بسفنى وبحارتى . وعملت على أن يصلوا الى مصر يرجون من أجلى آمون ليطيل عمرى خمسين عاما فوق ما قدر لى » . حتى اذا قدم من مصر رسول يعرف الكتابة فيقرأ اسمك على هذه اللوحة ، سيقدم لك ماء الغرب كما يقدم للآلهة التى هناك » . فأجابنى : « ان هذا لدرس ثمين ، ذلك الحديث الذى تقوله لى » فقلت له : « أما من حيث الاشياء التى ذكرتها لى ، فاذا ما وصلت الى المكان الذى يقيم فيه الكاهن الاول لآمون ، ورأى أن طلبه (قد انجز) ، فسوف تنال جزاء ما أديت » .

ورحلت الى شاطىء البحر عند المكان الذى وضعت فيه كتل الخشب، فرأيت أحد عشر سفينة تقبل على البحر كانت ملكا لقوم ثيكر Tjekker ، فقالوا : اسجنوه ، لا تدعوا سفينة له تبحر الى أرض مصر ، عندئذ جلست وبكيت . وخرج الى كاتب خطابات الامير وقال لى : « ما الذى يضايقك ؟ » فقلت له : « الم تر الطيور التى تنزل الى مصر مرتين ؟ انظر اليهم ، كيف أتوا الى المياه الباردة . وحتى متى سأظل مهملا هنا ؟ ألم تر الذين أتوا ليسجنونى مرة أخرى ؟ » وذهب وأخبرها الامير . وبدأ الامير يبكى متأثرا مما قيل له من أحزان ، وأرسل الى كاتب خطاباته ومعه قدحان من نبيذ وخروف ، وعمل على أن يبعث الى تنتناو ، مغنية مصرية كانت لديه ، قائلا : « غن له ، لا تترك قلبه منزعجا » . وأرسل الى قائلا : « كل واشرب ولا تدع قلبك يتملكه الرعب سوف تسمع فى الغد كل ما أقوله » . ولما جاء الغد عمل على استدعاء مستشاريه ووقف بينهم وقال : لقوم ثيكر « ما معنى مجيئكم هنا ؟ » فأجابوه : « اننا جئنا نتعقب السفن المحاربة التى ترسلها الى مصر مع أعدائك » . فقال لهم : « لا يمكننى أسجن رسول آمون فى أرضى . فدعونى أرسله ثم طاردوه لتحاصروه » .

وحمل لى السفينة وأرسلنى الى ميناء البحر . ودفعتنى الرياح نحو بلاد الاسيا Alasia فخرج أهل المدينة (فى الاصل المكان) ضدى ليقتلوننى ، ولكن اخترقت طريقا بينهم حيث حاتيبه Hatiba ، أميرة هذه المدينة ، فوجدتها وهى خارجة من أحد منازلها لتدخل منزلا آخر . فحييتها ، ثم قلت لمن وقفوا حولها : « أليس بينكم واحد يفهم لغة مصر ؟ » فاجاب احدهم قائلا : « اننى أفهمها » . فقلت له : بلغ سيدتى انه من هنا حتى (نى) اننى كثيرا ما سمعت فى المدينة حيث يقيم آمون أن المظالم ترتكب فى كل مدينة ، ولكن العدالة تقام فى آلسيا . فهل ترتكب المظالم كل يوم هنا ؟ » فقالت : « ما الذى تقصد من قولك ؟ » فقلت لها : « اذا مايهيج البحر وتدفعنى الرياح الى الارض التى أنت فيها ، لسوف تسمحى بأن يمسك رجالك بى ليقتلوننى ، مع اننى رسول آمون ؟ انتبه الآن ! بالنسبة الى ، فلابد انهم سيبحثوا عنى الى الابد ، ولكن بالنسبة لبحارة أمير بيبلوس الذين يريدون رجالك قتلهم ، أليس فى مقدور رئيسهم ايجاد عشرة بحارة من رجالك وهو معهم لقتلهم ؟ » وعملت على استدعاء رجالها ، ووجهت اليهم الاتهامات . ثم قالت لى : « نم فى (أمان) ... »

وقد ضاع الجزء الاخير من النص ، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نستنتج أن ون آمون قد استطاع العودة الى مصر ، فلو لم يكن قد عاد

الى الوطن لما وصلت الينـا تلك القصة فتظهر لنا صفحة من صفحات التاريخ المصرى .

فى هذه القصة حوار أدبى ممتاز : فحينما حلت به الكارثة الاولى فى دور وسرق فى هذاالمكان «لقد سرقت فى مينائك ، ولكن انت أمير هذا البلد ، وأنت راعيه ... » ثم حينما وصل الى قوم ثيكر قالوا « اسجنوه ، لا تدعوا سفينة له تبحر الى أرض مصر ! .. » ويخرج من المأزق الاول بأن يأخذ ثلاثين دبنا من الفضة رهينة حتى ترد اليه أغراضه. وفى المأزق الثانى يستخدم فى الخروج منه أسلوبا عاطفيا اذ يقول « ألم تر الطيور التى تنزل الى مصر مرتين ؟ انظر اليهم ، كيف أتوا الى المياه الباردة . وحتى متى سأظل مهملا هنا .. » وقد كان لحديثه أثر كبيرحتى « بدأ الامير يبكى متأثرا مما قيل له ... وأرسل الى كاتب الخطابات ومعه قدحان من نبيذ وخروف ... ومغنية مصرية ... كل واشرب ... » . ثم يظهر قوة حجة ون آمون وبيانه حينما أقنع الامير بأن يقيم لوحة يسجل فيها ما قام به من أعمال نحو آمون . وهى فوق انها تعطينا فكرة طيبة عن قوة مركز آمون ، فهى أيضا تدل على قوة حجة بطل قصتنا فهذا الامير نفسه يقول « ان هذا الدرس ثمين » . واستطاع ون آمون أن يوضح للامير قوة سيده حريحور ومكانته . ففى بداية الحديث قال أمير بيبلوس لون آمون « لست خادم من أرسلك أيضا »، ثم هو فى نهاية الحديث ، وبعد أن بين له خطورة عدم امداده بما يطلبه آمون نراه يقنعه بضرورة انجاز ما طلبه ويقول له « اذا ما وصلت الى المكان الذى يقيم فيه الكاهن الإكبر لآمون (يقصد حريحور) ورأى أن طلبه قد أنجز فسوف تنال جزاء ما أديت » .

ثم ظهر أيضا اهتمام المصريين بالاحتفال بأعيادهم الوطنية فى أرض الغربة مما يدل على تمسكهم بالتقاليد حتى فى السفر ، اذ يقول ون آمون « احتفلت بعيد فى فسطاط على شاطىء البحر فىميناء بيبلوس » . ثم كذلك عالمية آمون واعتراف أهل الشرق بسلطانه العالمى اذ يقول أمير بيبلوس على لسان ون آمون « أن آمون أنشأ كل البلاد . لقد انشأها بعد ان انشأ من قبل أرض مصر » وهو اعتراف صريح من الاجانب بسلطان آمون . ثم يظهر له ون آمون قوة آمون اذ يقول « ان البحر ملك لآمون . ان لبنان التى تقول عنها انها ملك لى ، انها ملك له » . « آمون سيد لنا » ثم يقول للامير « أنت خادم آمون » .

وظهر اعتراف الاجانب بفضل مصر الصناعى والثقافى اذ يقول أمير

ببيلوس على لسان ون آمون « لقد اتت منها الصناعة لتصل الى مكانى . لقد اتت منها الحكمة لتصل الى مكانى » أى الى بلادى .

تذكر القصة شيئا عن الحكم : أولا حكم نس بانب چو فى الشمال وسلطان حريحور فى الجنوب . ثم ذكرت تنت آمون زوج الاول الى جانبه فى القصة وتوجيه ون آمون الحديث اليهما يدل على تدخلها فى حكم البلاد وفى العلاقات الخارجية .

والقصة توضح العلاقات التجارية بين مصر واقطار الشرق القريب ، اذ قال الامير لون آمون « الم توجد فى مينائى ٢٠ سفينة تقوم بربط العلاقات التجارية مع نس بانب چو (سمندس) . ثم كان فى مصر ممثلون تجاريون اذ يقول : ألا توجد أكثر من خمسين سفينة هناك تعمل مع واراكاتير .. » وهو اسم أحد الفينيقيين الذين كانوا يقيمون فى تانيس ويعملون فى التجارة وشحن وتفريغ السفن . ثم كان يوجد سجلات عند الامير خاصة بعمليات الاستيراد . أما عن المنتجات التى كانت تصدر من مصر فقد عددها ون آمون . ومنها يستفاد تمتع مصر بمحاصيل مختلفة يمكنها تصديرها الى الخارج منها مواد غذائية واخرى تستخدم فى بعض الأعمال الادارية والصناعية .

وفى الواقع أن القصة رائعة ما فى ذلك شك ، فقد قصت علينا حالة البلاد السياسية والاجتماعية والتجارية ، فهى مرآة لذلك العصر وما فيه من احداث فى الداخل والخارج . فهى توضح انقسام السلطة بين حريحور وسمندس ، وهى توضح سلطان مصر الخارجى . كذلك توضح الحياة العامة والاقتصادية والادارية فى فينيقية فى هذه الفترة وعلاقة مصر بها .

* * *

أوجاريت فى الالف الثانى :

عظمت تلك المدينة فى الالف الثانى ، فهذا حمورابى العظيم يكتب الى ملك (مارى) على زيارة ملك أوجاريت (لمارى) . وقد أثبتت الحفائر التى أجريت فى أوجاريت وكشفت عن قلائد ودبابيس وغير ذلك أن اثار الفترة الاولى من الالف الثانى تشبه ما عثر عليه فى بيبلوس ، وأن أصل هذه الآثار أغلب الظن من القوقاز والبلقان والدانوب الاوسط ، كما كشف فيها أيضا عن آثار مصرية وكريتية .

وفى فترة هجمات الهكسوس على الشرق أستقر الحوريون فى أوجاريت ، وهناك رأى يقول أن السبب فى حركة الهكسوس وضغطهم على مصر هو فى الواقع تمكن استقرار الحوريين فى أوجاريت الا أن هذا الاستقرار كان لفترة بسيطة اذا ما علمنا أن مصر قد استطاعت طرد الهكسوس واستعادت نفوذها فى ميناء أوجاريت ، وتم تكوين حلف لان هذه الاقطار ادركت أن صوالحها فى الاشتراك فى حلف واحد وضم شعب ميتانى ومملكة سورية الشمالية ومصر وموانى الساحل ، وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر الى العشرين ، وذلك للدفاع عن ديارهم من هجمات بلاد الخيثيين ومن جاورهم من الناحية الشرقية . وقد نشطت أوجاريت فى هذه الفترة نشاطا عمرانيا كبيرا فعبدت بها الطرق واقيمت المساكن والمدافن وجهزت الميناء بمرافق مختلفة ، وكثرت بها المنتجات المصرية والايجية . ولكن منيت بزلزال فى منتصف القرن الرابع عشر كان من نتائجه طغيان البحر فضيع ثرواتها ، ثم وقعت فريسة للحيثيين أيام شوپيلو ليوماش Shuppilulumash . وقد انحازت أوجاريت الى الحيثيين أيام الحرب التى وقعت بين مصر وبلاد الحيثيين فى قادش . وعاد السلام الى البلد مرة أخرى واستوطنها أهل ميكينى Mycene واهل قبرس . ولما أغار على أوجاريت شعوب البحر حوالى عام ١١٨٠ ق.م. خربوها تماما .

من كل ذلك نعلم أن جميع المدن الفينيقية كان لها طابع واضح وهو وجود عناصر أجنبية فى الموانى وهذا أمر طبيعى . وكان لتلك العناصر والجاليات اثره فى القضاء على فينيقية ، وكثيرا ما كانت تميل الى الانحياز الى الأحلاف ، وكان لموقع هذه المدن الجغرافى أثره فى الانحياز الى الحلف ، فبيبلوس قد انحازت للمصريين وذلك لقربها من مصر ، أما أوجاريت فقد انحازت للحيثيين وللحوريين وللقبارسة .

الالف الاول فى عهد الاستقلال

فى هذه الفترة التى بدات بأفول نجم النفوذ المصرى فى هذه المنطقة استطاعت فينيقية أن تتخلص من التبعية لمصر ، كما انها أيضا لم تتأثر بدولة اشور التى شغلت فى أوائل الألف الأول بالصراع مع بابل ، ومن عام ١٠٠٠ الى ٥٠٠ ق.م تقريبا تمتعت فينيقية باستقلال ومر بها عهد زاهر خاصة مدينة صور ، ومخرت أساطيلها البحار واسست لنفسها وكالات تجارية ومستعمرات مختلفة ثابتة .

وقد اعتمد المؤرخون فى معرفة نشاط الفينيقيين الساميين فى هــذه الفترة على التوراة وكذلك الوثائق المسمارية لملوك آشور وبعض كتابات المؤرخين القدامى ممن نقل عنهم جوزيف .

حكم صور ملك اسمه حيرام أو أحيران (٩٨٠ ــ ٩٣٦ ق.م) فأقام فيها منشآت عمرانية كثيرة وأوصل احدى الجزر الصغيرة المجاورة لصور بالشاطىء ، وهيأ مرافىء لترسو بها السفن فى سهولة ويسر ، وكانت علاقته طيبة مع داود والد سليمان ، وتحالف مع ســليمان ملك اسرائيل الذى طلب منه امداده بالفينيين وبمواد البناء ، وقد جاء فى ســفر الملوك الاول اصحاح ٥ : ٦ ــ ١٢ اذ قال له سليمان « والآن فأمر ان تقطعوا لى ارزا من لبنان وتكون عبيدى مع عبيدك ، وأجرة عبيدك أعطيك اياها حسب كل ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا احد يعرف قطع الخشب مثل الصيدويين وقد فرح حيرام حينما سمع كلام سليمان وقال : « قد سمعت ما أرسلت به الى » ، وأنا أجعله ارماثا فى البحر الى الموضع الذى تعرفنى عنه وانقله هناك وأنت تحمله وأنت تعمل مرضاتى باعطائك طعاما لبيتى : فكان حيرام يعطى سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته ، وأعطى سليمان حيرام عشرين الف كرة حنطة طعاما وعشرين كرزيت رصد ، هكذا كان سليمان يعطى حيرام سنة فســنة ... وكان صلح بين حيرام وسليمان فقطعا كلاهما عهدا » .

وجاء فى التــوراة أن ســليمان كافأ حيرام عن ذلك باقليم قريب من الجليــل يضم عشرين بلدا ، ولكن تلك الهــدية لم ترض حيرام اذ جاء فى التوراة سفر الملوك ٩ : ١٠ ــ ١٤ « وبعد نهاية عشرين سنة بعد ما بنى سليمان البيتين بيت الرب وبيت الملك ، وكان حيرام ملك صور قد ساعد ســليمان بخشب أرز وخشــب سرو وذهب حسب كل مسرته ، أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام عشرين مدينة فى أرض الجليل . فخرج حيرام من صور ليرى المدن التى أعطاها اياها سليمان فلم تحسن فى عينيه فقال

ما هـذه المدن التى أعطيتنى يا أخي ودعاها أرض كابول الى هـذا اليوم فأرسل حيرام للملك منه عشرين وزنة ذهب » .

وقد اشـتدت روابط الصـداقة بين حيرام وسـليمان وذلك لقوة سليمان ، والدليل على الصلات ما جاء فى التوراة فى هذا الشأن سفر الملوك ٩ : ٢٦ ــ ٢٨ « وعمل الملك سليمان سفنا فى عصيون جابر التى بجـانب ايله (او ايلات) على شاطىء البحر الأحمر فى أرض أدوم . فأرسل حيرام فى السـفن عبيـده النواتى العارفين بالبحر مع عبيـد سليمان ، فأتوا الى أوفير وأخذوا من هناك ذهبا أربع مئة وزنة وعشرين وزنة وأتوا بها الى الملك سليمان » .

وكما اشـتهر سليمان بالحكمة ، كذلك اشتهر أيضـا جاره وحليفه حيرام ، كما جاء ذلك فيما كتبـه جوزيف الذى ذكر أن كلا من سليمان وحيرام تبادلا الاحاجى والرهائن ، وهى عادة الفتها الشعوب القـديمة ، وكانت عبارة عن أسئلة الى الخصوم قبل الدخول فى المعارك ، وكان القصد من تلك الأسئلة خلق بلبلة افكار وحيرة . فهذا شمشون طلب من بعض شباب فلسطين أن يحلوا لغزا ، وأن حياتهم متوقفة على تلك الاجابة ، وهذا شـبيه بما جاء على لوح كارنارفون فى طرد الهكسوس من مصر ، حينما طلب ملك الهكسوس ابوپى من الملك المصرى فى طيبـة أن يسكت افراس النيل التى تزعجه أصواتها وكان مقيما فى الدلتا عند أواريس . كما ملئت الأساطير اليونانية بمثل تلك الاحاجى مثل الذى وجد فى قصـة أوديب الملك والأسئلة التى كانت توجه الى أهل طيبة اليونانية من الماردة التى كانت على هيئة Sphinx والتى كانت تقف عند مشارف المدينـة ، وغيرها من القصص .

وجاء من وراء (حيرام) ولده بعل اتسور Baal Utsur الذى حكم سبع سـنين . وورث الملك بعـده (عبد عشـتارت) . ثم قامت ثورة فى صور . وجاء بعد ذلك ملك قوى يسمى (اتبعـل) وقد كان متحمسـا للدين ، كاهنا للآلهة عشتارة .

اما اسرائيل فقد فرقتها الانقسامات الدينية منـذ عام ٩٣٣ ق.م ، فنشأ فى الجنوب مملكة (يهوذا) وعاصمتها اورشليم ، وفى الشمال مملكة اسرائيل وكان عليها الملك (آخاب بن عمرى) وقد زوج (ابتعل) ابنتـه (ايزابيل) التى كانت شديدة الورع كأبيها الى الملك (آخاب) . وقـد عملت الملكة على ادخال العبادة الفينيقية محل عبـادة الله فى اسرائيل . ونجد ذلك واضحا فى التوراة فى لعنات (ايليا) ، وعملت (ايزابل) على

الاتصال بمملكة يهودا ، فزوجت ابنتها (عتليا) من يهورام ملك يهوذا ، وقد طبقت ما فعلته فى مملكة يهودا على مملكة اسرائيل ، اذ أحلت الآلهة الفينيقية محل عبادة الله . ومن ذلك نرى كيف استطاع الفينيقيون السيطرة على كل فلسطين حتى قيام الأنبياء بالثورة عليهم .

ولما مات (اتبعل) شمل البلاد اضطراب فترة من الزمن ، وملئت أخبار هذا العصر بالأساطير منها ما كان خاصا بنشأة قرطاج ، فقد قيل أنه كان لاتبعل حفيد يسمى (متان Mattan) ، كانت له ابنة اسمها (اليسا Elisa) ، وابنا اسمه بيجماليون . وقد ابعدت اليسا عن العرش بعد أن وصلت اليه ، وانتقل الملك الى اخيها بيجماليون ، وقد قام هذا الأخير بقتل زوج أخته (أخرباس Acharbas) ، واخذ أملاكه وفرت اليسا الى قبرص ، ومنها الى شمال افريقية عند المكان الذى نشأت فيه قرطاج ، وأسست مملكة هناك وكان ذلك حوالى عام ٨١٤ ق.م .

ظهر فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد الميكنيون Myceneans واصبحت لهم السيطرة على التجارة فى النصف الشرقى للبحر المتوسط لمدة قرنين تقريبا ، وانتشر الفخار المعروف بالزخارف الايجية اللولبية والزخارف النباتية ، وكثر فى أوجاريت ، و Alalakh فى شمال سورية وفى قبرص ، وتقدم سكان البحر فطغوا على شرق البحر المتوسط فى نهاية عهد البرونز كما سبق أن بينا ،واحتل الفلسطينيون شريطا عريضا من السهل الساحلى ، وغالبا ما كان ذلك فى القرن الثالث عشر ، وغالبا ما كانوا ايجيين ، لكنهم لم يكونوا ملاحين وأسسوا مدنهم فى الداخل .

وقد عمل خروج اليهود من مصر Exodus على مجىء الاسرائيليين تحت اشراف Joshua فى كنعان . وأما عن تاريخ خروجهم فقد كان موضع جدل كبير ، ولكن اتفق حاليا على أنه تم فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد ضيق الفلسطينيون والعبرانيون على الكنعانيين الجنوبيين . وضغط الحيثيون والعموريون على الكنعانيين الشماليين . ولم يستقل الا الشريط الساحلى الأوسط حوالى عام ١٢٠٠ وهو الذى كان يسمى فينيقية .

لماذا لم يرسل الفينيقيون بعثات استعمارية الى جزيرة قبرص أو رودس وقد امتازوا فى ركوب البحر ؟ كانت مصر فى ذلك الوقت قوية وكان كل من الجزيرتين خاضعتين للنفوذ المصرى ، من أجل ذلك لم

بتمكن الفينيقيون من الاستعمار أو الخروج عن دائرتهم فى هذا الوقت . ولما جاءتهم دماء جديدة من الميكيين وجاءتهم أيضا أفكار جديدة بثت فيهم روح النشاط البحرى الحربى .

وقد ظلت فينيقيــة قوية حوالى عام ٦٠٠ ق.م ، وكانت صـــور هى المدينة الرئيسية ، أما بقى من المدن الاخرى فكانت اقل منها فى الاهمية ، وظلت صـــور سائدة حتى قضى عليهـــا نبوخذنصر Nebuchadenezzar وأصبح لصـيدا مركز السيادة .

تبعد قبرس عن الساحل السورى بمائة كيلو مترا عند رأس شمرا ، ومنذ بداية القرن الخامس عشر وأثناء القرن الرابع عشر قبل الميلاد عثر على فخار وأختام اسطوانية تثبت وجود صلة بين الجزيرة والساحل حتى أننا لا نســـتطيع أن نفرق بين هـــذه الأنواع . وفى أثناء تلك الفترة دخل الميكينيون الى الجزيرة كما سبق أن دخلوا الأرض الأصلية لفينيقية فى شمال سوريا ، وقد دخلت عبادة عشتارت فى قبرس خصـــوصا مدينة Paphos حيث قصة Elissa اليسا . كما أن هناك هجرات من الارض الأصلية الى الجزيرة وضحت فى بعض الأسماء الســـامية فى فترة حرب الحيثيين والعموريين والأشوريين مثـــل اسم Kitien وتسمى حاليـــا Larnaka

ومهما كان الامر فهناك صلات واضحة بين القبرسيين والفينيقيين ، فقد كانت قبرس ميناء طبيعيا لسفن فينيقية .

الأخطار الأشورية

ظلت حالة المدن الفينيقية مستقرة طوال الفترة من ١٠٠٠ الى ٥٠٠ ق.م ما عدا ما تخللها من محاولة قامت بها مصر أيام شيشنق فى القرن العاشر .

حاول الأشوريون أن يجدو منفذا لهم على البحر المتوسط فتقدموا بجيوشهم الى الناحية الشمالية من فينيقية واستطاعوا ان يخضعوا بعض المدن هناك . وقد تملك (تيجلات بيلاصر) أرواد عام ١١٠٠ ق.م وقام اشور ناصربال حوالى ٨٢٦ ق.م. بفرض الجزية على ملوك صور وصيدا وارواد مما يدل على أن الاحتـــلال لم يدم طويلا على ارواد . وقد جاء فى النصوص الاشورية هـــذه العبارة : « فى هذا الوقت جاءتنى جـــزية ملوك ساحل البحر وملوك طرف الأرض كأهل صور وأهل صـــيدا ... وأهل بيبلوس ... ومدينة ارواد الواقعة وسط البحر فقبضت فضـــة

وذهبا ورصاصا وبرونزا وخمســا وثلاثين زهرية من البرونز وثيــابا من القماش الملون بالألوان الزاهية وعاجا ودلفينا ١ وهو حيوان من حيوانات البحر ينجى الفريق) من مخلوقات البحر » .

وجاءت الجزية الى آشور أيام شالمناصر (٨٥٨ ــ ٨٢٤) من صور وصيدا وجبيل أكثر من مرة . ونشب قتال فى ارواد بين ملك هذه المدينة والأشوريين ، وعثر بصور هذه المعارك على ألواح من البرونز كشف عنها فى بلاوات Balawat ، واغلبها محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن . وهى تمثل المدن الفينيقية وقد جاء أهلها يحملون لملك آشور هدايا .

وغزا شالمناصر الخامس (٧٢٦ ــ ٧٢٢) ملك صور وصــيدا المدعو (ايلولايوس = اولولى باللغة الأشورية Elulaeus, Luli) .

أما بلاد كنعان القديمة وقبائلها المجاورة للبحر الميت ، فكانت تشتعل فيها نيران الفتن أيام العصر الأشورى فى ممالك يهودا واسرائيل ودمشق وفينيقية ، وقد استنجدت بمصر التى لم تجبها الى مطالبها .

وقد حاول شالمناصر الخامس غزو جزيرة قبرس أثناء قيامه بالقضاء على ثورة فى صور ، فجمع حوالى ستين سفينة من صيدا وجبيل وارواد. الا أن ملك صور استطاع أن يدمر أسطول الأشوريين ، وحاول شالمناصر محاصرة جزيرة صور ، الا انه مات قبل أن يقضى عليها .

دمر سرجون الثانى مملكة السامرة عام ٧٢٢ ق.م تقريبا ، ولما شعر الفينيقيون بقوة الأشوريين تحالفوا مع الســامريين ، الا أن سنحاريب (٧٠٤ ــ ٦٨١) اســتطاع أن يقضى على هــذا الحلف عام ٧٠١ ، وهرب (اولى) الى قبرس ، وأقام سنحاريب اتبعل بدلا منــه (يقــرأ توبعلو بالاشورية) وخلد سنحاريب ذكرى انتصاره باقامة لوح الى جانب لوح رمسيس على صخور نهر الكلب . ولما مات اتبعل ، جاء من بعده (عبــد ملكوت Abd Milkut) الذى ثار على (اسرحدون ٦٨٠ ــ ٦٦٩) ملك اشور عام ٦٧٨ ق.م ، وجرد أسرحدون حملة عليها كما جاء فى حولياته : انا فاتح صيدا الواقعة على ساحل البحر ، ومخرب مبانيها ، اخذت حصنها وقذفت به الى البحر ، وخربت مواضع مياهها ، وأمام جيوشى هــرب ملكها (عبد ملكوت) الى وسط البحر كأنه سمكة فاصطدته وسط البحر وقطعت رأسه .. .وبنيت مدينة أخرى وسميتها أسرحدون ، وجاء أن الملك اخذ غنائم كثيرة من صيدا منها الذهب والفضة والأحجار الثمينــة

الخ . ولم يستطع علماء الآثار حتى أيامنا هذه معرفة موقع هذه المدينة التي سميت (أسر حدون) .

ثم مرت فترة صعب فيها معرفة حقائق تاريخية ، وهي العهود التي التزم بها ملك صور الى (أسر حدون) ، فقد كان ملزما بنقل غنائم الآشوريين من الجنوب الى الشمال . ولكن صور لم تف بالتزاماتها وعادت الى حظيرة مصر مرة اخرى أيام طهارقة ملك مصر ، والذي كان على غير وفاق مع ملك آشور ، وكان ذلك عام ٦٧٢ ق.م ، وقد استطاع الآشوريون أن يقضوا على هذا التحالف ، وقد كشف في (زنجيرلي) التي تقع في شمالي سوريا الشمالية عن لوح صور عليه أسر حدون قابضا على حبل يجر به ملك مصر وصور من شفاههما . ولا يفهم من هذا الرسم أن كلا الملكين قد وقعا في الأسر ، أما المقصود منه الهزيمة فقط .

ولما تولى اشور بانيپال العرش ٦٦٨ ــ ٦٣١ قام بحصار عام ٦٦٨ وقد صعب اخذ المدينة لأنها كانت تقع على جزيرة ، وقد عقد صلحا وفرض عليها جزية وأخذ بنات الملك وبنات اخته كرهائن لكن أشور بانيپال لم يفعل بصور ما فعله سنحريب بصيدا اذ أن هذا الأخير كما نعلم قد هدمها . أما ارواد فقد جاء ملكها (ياكن لو Jakin lou) الى أشور بانيپال حاملا اليه جزية من ذهب وحريرا وسمكا وطيوار وابنه ، ولما مات هذا الملك ذهب أبناؤه العشرة الى أشور يقدمون الى مليكها الولاء والطاعة .

وقد كانت السيادة تنتقل بين مدينتي صور وصيدا ، وقد حمل أغلب ملوك صور لقب ملوك صيدا ، وقد سمت التوراة صيدا بوليد كنعان . أما هومير فقد أطلق على كل سكان فينيقية (الصيداويين) .

والراجح أن صيدا قد ظلت حتى الألف الأول قبل الميلاد لها زعامة القسم الجنوبي من فينيقية . ومن المحقق أن اسم صيدا كان يطلق على الفينيقيين . أما بيبلوس فلم تكن لها هذه الشهرة ولم تلعب دورا كبيرا في سياسة فينيقية ، وربما رجع ذلك لتبعيتها لمصر . أما مدينة أوجاريت فلم نعد نسمع عنها شيئا يذكر بعد ذلك .

تحالف البابليون مع الفرس وقضوا على الآشوريين عام ٦١٢ وغزت شعوب البحر بلاد الحيثيين وقضت عليها ، وبذلك تحولت سياسة فينيقية من الآشوريين الى المصريين . ولكن استطاع البابليون أن يحتلوا مكان سيادة الآشوريين . وعمل ملك مصر (ابريس) على استرداد هيبة مصر وسلطانها في الشرق القريب ، وحمل كل من صور وصيدا عباء

الدفاع ، ولكن هزمها نبوخذ نصر الثانى (٦٠٥ ـ ٥٦٢) ملك بابل وأقام على صور أحد أنصاره وهو بعل الثانى (٥٧٤ ـ ٥٦٤) .

***

فينيقية أيام عصر الفرس

قضى الفرس على الميديين ، وسقطت بابل على يد الفرس عام ٥٣٩ ق.م ، فانحاز الفينيقيون الى الفرس لأنهم كانوا يبحثون عن منقذ لهم على البحر المتوسط ، بينما استولى ملك مصر أمازيس على قبرس . ثم عادت صيدا للظهور مرة أخرى بعد أن انزوت مدة خمسمائة عام ، بينما تدهورت صور ، وكادت تنفصل عنها مستعمراتها فى قرطاج عام ٥٢٠ ق.م .

حينما حكم الفرس امبراطوريتهم الكبيرة كما سنفصل ذلك فيما بعد قسموها الى أقاليم ، والاقليم بالفارسية كان يسمى (ستراپيه) . وكانت فينيقية وقبرس وسورية الستراپية رقم (٥) وقد عمل الفرس والفينيقيون على القضاء على اليونان ، وارتاح الفينيقيون لذلك لأنهم كانوا منافسين ، ولكن انهزم الفرس . واستطاع اليونان أن يستولوا على قبرس وهاجموا فينيقية فاستولوا على صور ، أما صيدا فقد تقرب ملكها (استراتون الأول) حول عام ٣٦٠ ق.م . الى اليونان وخلع عليه اليونانيون لقب (محب اليونان) ، بل شارك فى الثورة على الفرس عام ٣٦٢ ، ورحب أهل صيدا بقدوم جيش مصرى ليعاونهم ضد الفرس . وجدير بالذكر أن صيدا فى هذا الوقت كانت عاصمة فينيقية ، وكان بها مقر لملك الفرس ، وكشفت فى صيدا فعلا عن آثار فارسية مزدانة بأعمدة لها تيجان على شكل ثيران .

وعادت صيدا للثورة عام ٣٤٦ ق.م وهدموا قصر (الستراب) ، وقد تقدم (ارتاكسركسس) Artaxerxes وقيل أنه قضى على ٤٠ ألف من سكان صيدا بعد أن أحرق المدينة . ثم انهارت الدولة الفارسية بعد أن قضى عليها الأسكندر المقدونى . وسنفصل ذلك فيما بعد .

لقد أفاد الفرس من الفينيقيين وخبرتهم فى الملاحة ، فهذا سنحاريب حينما حارب عيلام استعان بالفينيقيين والسوريين فى بناء أسطوله ، بل نقل قطع الأسطول الى الخليج العربى عن طريق نهر الفرات .

استخدم الفرس الفينيقيين فى حملاتهم ، غير أنهم رفضوا أن يهاجموا

قرطاج ، وقد أرضاهم قمبيز فلم يهاجم قرطاج نظير قيامهم بدفع ما عليهم من التزامات .

كما أن الفينيقيين حسموا نزاعا قام به يونان آسيا عام ٤٩٨ ، وقضت الفرق الفينيقية البرية على ثورة قامت فى قبرس ، وانهزم الايونيون فى معركة بحرية عام ٤٩٤ ، كما اشترك الفينيقيون فى حملة على بلاد اليونان عام ٤٩٠ كما اشتركت فينيقية فى اعداد حملة قام بها (اكسركسس ... Xerxes) وقاموا بحفر قناة فى برزخ بين جبل (أتوس) والقارة . وأبدوا قدرة فائقة فى وقعة (سلاميس) عام ٤٨٠ ، وأظهرت البحرية الفينيقية تفوقا كبيرا على اليونانيين حتى أجبروهم على الصلح المعروف الفينيقية تفوقا كبيرا الى أحد اليونانيين على الصلح المعروف بصلح بصلح (انطالسيداس Antalacidas) ، وكان هذا درسا لليونانيين حرم عليها القيام بأى عدوان على آسيا .

اعتمد أغلب المؤرخين على ما كتبه اليونان فى الحرب التى قامت بينهم وبين الاسيويين ، ولم يصف هؤلاء المؤرخون النزاع الا من وجهة نظرهم ، واغفلوا ما كان عليهم الاسيويون من امتياز . فلقد اعتبر اليونان الاسيويين (برابرة) ، وهذا شبيه بما اطلقه المصريون على أعدائهم حينما اسموهم (سكان الرمال) .

ان الاتصال كان قائما بين آسيا واليونان على أساس التبادل التجارى والفنى وتبادل خبرات العلماء . وكانت (أيونيا) منطقة التقت فيها الحضارة الآسيوية والحضارة اليونانية ، وتبادلت الحضارتان اسسهما الحضارية . وكانت دلتا وادى النيل فى العصر المتأخر فى مصر حقلا خصيبا للحضارة اليونانية ، كذلك تأثر الفينيقيون بالحضارة اليونانية ، وقد سمى الملك استراتون (محب اليونان) .

وحينما غزا الاسكندر آسيا تردد الفرس فى الدفاع عن امبراطوريتهم ، اما جمع الأسطول أو الحرب فى بلاد الفزاة ، ولكن اختاروا الحل الأول وانتصر الجيش المقدونى وانهزم داريوس فى أسوس ٣٣٣ ق.م وهرب الى العاصمة ، وتقدم الاسكندر الأكبر الى الشاطىء السورى ومصر ، وكانت الأساطيل الفينيقية بعيدة عن صيدا ، وكانوا يحسون بانتهاء امبراطورية الفرس ، فتسابقوا الى التقرب للاسكندر فقابله سكان ارواد وجبيل وصيدا بالابتهاج . ولما قرب من صور لم تكن بها حاميات فارسية بعث اليه أمراؤها تاجا من ذهب وهدايا ، واعترفوا به سيدا لمدينتهم ، ولكن لم تفتح الابواب فحاربهم الاسكندر وكانوا يظنون أن حصونهم مانعتهم خصوصا انهم كان فى مأمن لأن المدينة كانت تقع على جزيرة ولديهم

أسطول قوى . لكن الاسكندر القائد الممتاز قام بردم المجرى المائى بين الجزيرة والساحل ، ووصل الى منتصف المجرى ، ولكن حاول الفينيقيون اقامة عقبات له ، ولم يثن ذلك من عزيمته ، وأجبر أساطيل خسيد وجبيل وارواد وقبرس الانضمام اليه ، وبذلك استطاع بعد أن تمكن من تجهيز ٢٢٤ سفينة محاصرة الجزيرة واستطاع بذلك أن يتم الجسر ، واتصلت صيدا بالساحل الآسيوى ، وبدأ يحاصرها . وقاومت المدينة مقاومة كبيرة الا انها سقطت فى النهاية بعد حصار دام سبعة أشهر .

وتوفى الاسكندر فوزعت امبراطوريته بين قواده ، ولكن فينيقية كانت فى نزاع بين البطالمة والسلوقيين ، وكانت من قبل منطقة نزاع بين مصر وكل من الأقطار الآسيوية .

* * *

النشاط السياسى لفينيقية

أما عن الدور السياسى الذى لعبته فينيقية فقد كان لجغرافيتها اثر كبير فى توجيه سياستها ، فبها موان لها أثرها التجارى المعروف ، وكانت جبالها قريبة من الشاطىء فلم تكثر بها السيول ، وافتقرت البلاد الى الرجال والى الأرض السهلة ، ولذلك لم يكن جيشها كبير المدد ، ثم انها كانت حلقة الوصل بين مصر وسوريا ، وكانت دائما تقع فريسة لأحد هاتين المنطقتين . ولم يحفل تاريخها بحوادث تاريخية كبيرة مثل التى ظهرت فى بعض الممالك الاخرى ، وكثيرا ماكانت تتطالب بمعونة الدول المجاورة . لم تكن فينيقية دولة سياسية ممتازة . وظهر فى صور نشاط ثقافى كبير ، وكثيرا ما انحازت الى مصر . كانت المدن مفرقة وليس بينها وحدة تحت اشراف قائد واحد ، حقيقة انهم اشتركوا فى بعض ميادين القتال ، انما كان سبب هزيمتهم عدم اتحادهم .

المستعمرات الفينيقية

جاء فى بعض الروايات التاريخية أن صور هى التى قامت بتأسيس المؤسسات الفينيقية الكبيرة . والواقع أنهم أسسوا فقط الكثير من الوكالات التجارية فى قبرس ، وكانت لها صفة سياسية أيضا ، وأقام بعض يونان آسيا الصغرى الساحلية فى تلك الجزيرة مع الفينيقيين . اما عن ثروات الجزيرة فأهمها الأحجار الثمينة والمعادن وأخصها النحاس ، وكثر فيها أشجار الزيتون والكروم والحبوب . و (قليقية) كشف عن آثار للفينيقيين . كما أسس الفينيقيون بعض المؤسسات فى رودس ، ومن

أهم مدنهم هناك (ياليزوس ، وكاميروس Cameiros) وقد نزل الفينيقيون في كريت وبعض جزر الارخبيل مثل جزيرة (الاسبوارد) و (الكيكلاد) . وكانت خطة الفينيقيين أنهم اذا نزلوا في مكان ما اكتفوا بشراء حق الاتجار واقامة مؤسسات تجارية فقط . فنجدهم حينما نزلوا مصر أقاموا عند مصبي فرع رشيد وفرع دمياط ، كذلك أقاموا في بعض نواحي منف ، فكان معسكرهم يسمى معسكر الصوريين . وجاء فيما كتبه هيردوت أنهم بنوا معبدا هناك للالهة (عشتارة) . وقد كانت صقلية تعد محطة لهم خصوصا حينما كانوا يذهبون الى (أعمدة هرقليس) ، فكانوا يحطون رحالهم في مدينة (پانورموس) وهي (بالرمو) حاليا . كما كانت لهم مؤسسات في جزر صغيرة أخرى مثل (مالطة) و (جولوس) . وقد كانت تقعا على الطريق المؤدى من شرق البحر المتوسط الى غربه . كذلك أقاموا في جنوب جزيرة سردينيا وجزيرة (افيسا) . كما كانت لهم محطات في أسبانيا التى كانت تسمى عندهم (ترشيش) ، في جادير أوجاديس وتسمى حاليا (قادير Cadiz) وكانت تقع بالقرب من مصب النهر الكبير ، كانوا يحصلون منها على الفضة . وخرجت سفنهم الى الشاطىء الغربى لاسبانيا وذلك لاحضار القصدير ، كما ذهبوا الى الجزائر .

قرطاج

أما في شمال افريقية ، فقد كان مركز نشاطهم قرطاج ، وقد تحول مركز الصدارة التجارية والسياسية من فينيقية الأم الى قرطاج . والملاحظ أن اليونان كانت تنافس فينيقية في حوض البحر المتوسط الشرقي أكثر منها في الغرب ، وكان من نتائج ذلك أن تقدم الفوكيون في أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس الى أسبانيا ، وأسس هؤلاء مسيليا عام ٦٠٠ ق . م ، والتى تسمى حاليا مرسيليا ، وقد نافست هذه المدينة الفينيقيين . وقد قامت قرطاج بحماية المستعمرات الفينيقية في الغرب ، لأن صور أصبحت عاجزة عن نجدة مستعمراتها الغربية وذلك لبعدها .

كانت مستعمرة (أوتيك) وهي التى تقع حاليا قرب مصب نهر مجردة بتونس والتى أسستها صور عام ١١٠٠ ق.م. في شمالى افريقية هي غالبا أقدم المستعمرات هناك . وهناك مستعمرات أخرى في افريقية مثل (هيبو = بنزرت) ومستعمرة (ليبتيس) .

كانت قرطاج أهم مدينة في فينيقية ، وقد سجل لها التاريخ الكثير من الذكريات حتى فاقت الأرض الأم في صور . وان زعامتها للفينيقيين في الغرب من القرن السادس ق . م أمر مسلم به حتى سقطت عام

١٤٦ ق . م . والى جانب ذلك فلدينا وثائق أدبية وأثرية فى قرطاج أكثر من غيرها من المدن الفينيقية .

يعتقد بعض العلماء أن تاريخها يبدأ من عام ٨١٤ ق . وقد جاء فيما نقله يوزيب أن هناك بعض المنشآت تعود الى أواخر القرن الثالث عشر . وقد ذكرت اسم صور Zor = Tyre وقرطاج Carchedon = Carthage ولكن عام ٨١٤ هو العام الذى لا يشك فيه أحد . وقد عثر على فخار فى المقابر البونية فى الطبقة السفلى فى Tonib Precinet وكذلك مقصورة صغيرة . واسم قرطاج بالفينيقية مكونة من كلمتين « قارط هادشت » ومعناها المقر أو العاصمة الجديدة ، وكانت تقع فى بطن خليج (أوتيكينيسيس Uticensis) وهو حاليا خليج تونس ، وفى الشرق والغرب راسان يحميانها وكان موقعها يشبه سائر المدن التى انشأتها فينيقية ، فهى شبه جزيرة متقدمة فى البحر وكانت تربطها بالبر أرض تنحصر بين بحيرة ـ وجدير بالذكر أنها كانت أكثر امتدادا مما عليه الآن ـ من ناحية وسبخة (اريانه) . وعلى ذلك كانت متصلة اتصالا كاملا بالبحر ، واتقت الهجمات البرية غالبا ببنائها سورا حولها من الناحية الجنوبية فى الارض الممتدة بين البحيرة وسبخة (اريانة) وقد كان لتأسيسها أسطورة ، فقد جاء فى قصة (اليسا Elissa) أن عمتها Jezebel تزوجت Ahab. فى الربع الثانى من القرن التاسع ، وقد ذهبت Elissa الى قرطاج بعد ذلك بحوالى أربعين أو خمسين سنة وفى صحبتها بعض الارستقراطيين الصوريين الذين كرهوا الملك ، فقد ذهبوا كما جاء فى القصة أولا الى قبرس (١) ، ثم توجهت الى الغرب ومعها ٨٠ عذراء الى قرطاج ، حيث ساوموا على امتلاك قطعة أرض قيست بمقدار ما يضم شريطا من جلد ثور (وهذا شبيه بما جاء فى قصة عمرو بن العاص حينما فتح مصر واقطعه حاكم المدينة أرضا بنى عليها جامع الفسطاط) وقد سميت الأرض التى اتخذها Byrsa = الجلد . ولكن هناك من يزعم أن هذه هذه الكلمة معناها حصن (٢) .

لقد أصبح اسم Byrsa يستخدم علما على قلعة قرطاج ، وهو الآن ينطق على جبل سان لويس St. Louis وبدون شك أنها تقع بين المستنقعين عند (Le Karm الكرم) .

---

(١) ظهرت الاسطورة عند كثير من كتاب التاريخ القديم وهى موضحة فى
Justin, XVIII, 5

(٢) A. Audollent, Carthage romaine (1901), 269, note 2.

ولما انشئت قرطاج أصبحت هي الرائدة للفينيقيين في وسط البحر المتوسط بما في ذلك Utica, Motya واول شيء سجله التاريخ في هذا الشأن هو تأسيس مستعمرة في Ibiza ٦٥٤ ــ ٦٥٣ ق . م . وبعد ذلك بحوالي نصف قرن ، أي حوالي عام ٦٠٠ ق . م حاولت محاولة يائسة منع الفوكي Phoceans من تأسيس Massalia وبعد ذلك بنصف قرن هزم قائدها Malchus (الرئيس Milk = lord) اليونان في صقلية ، ولكن هزم أثناء عودته في سردينيا ثم طرد . ثم عاد أخيرا الى قرطاج وأخذ السلطة وتبعه Magon الذي قام بحملات ضد اليونان وكان معه ولداه (هسدروبال Hasdrubal) وهاملكار Hamilcar وتحالفت قرطاج مع (Etruscansالاترسكي وهزم الاثنان ا الفوكي Phocaeans) في معركة بحرية وقعت في كورسيكا Corsica ، والنتيجة ان أغلقت كورسيكا وسردينيا في وجه اليونان .

ثم قضى الرومان على ملوك الاترسكي (Etruscan = Tarquin) عام ٥١٠ ق . م وأصبحت روما جمهورية مستقلة ، وعقدوا مع قرطاج محالفة ، ولكن لا زال اليونان أعداء القرطاجنيين ، وقد كانت فينيقية الآم خاضعة في هذا الوقت للاحتلال الفارسي ، وقد عزم الفرس على غزو اليونان . وفي عهد الحرب الفارسية الثانية أيام Xerxes عام ٤٨٠ ق.م حرض الفرس القرطاجنيين أو أن الفينيقيين حرضوهم فقاموا بحملة ووصلوا الى Panormus في جزيرة صقلية وهزموا في Himera (صقلية ايضا) ، وهزم اليونان في نفس الوقت أسطولا فارسيا في موقعة Salamis .

وعاد القرطاجنيون مهزومين الى شمال افريقية ، وحاولوا أن ينهضوا من كبوتهم فتوسعوا في الأراضي الخصبة التونسية خصوصا وادي Bagrades والسهل الساحلي خلف حضرموت Hadrumetum (حاليا سوس) ، وقد ساعدها ذلك على تموين سكانها المتزايدين ، كما أخضعوا الليبيين لنفوذهم واستخدموهم في القتال .

وفي أواخر القرن الخامس قامت حرب مرة أخرى بين يونان صقلية والقرطاجنيين وانتصرت قرطاج أولا ، ولكن نهب قائد أعدائهم Motya واستمرت المناوشات بين الاثنين حتى جاء جبار Syracuse Agathocles وأعلن الحرب ، وبعد أن هزم في Sicely أغار على رأس Bon في أرض قرطاج ، واستمرت هذه الحرب حتى وفاة أجاثوكلس عام ٢٨٩ ق.م. ولم يكسب أي من الجانبين الحرب .

ولما ظهرت روما فى هذا الوقت ، وأثناء النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد ، رات قرطاج أنه من الخير لها أن تبرم معاهدتين تجاريتين مع روما ، كانت احداها عام ٣٤٨ ق . م والأخرى عام ٣٦٠ ق . م ومعاهدة ثالثة عام ٢٧٩ ق .م فيها اتفق الرومان مع القرطاجنيين ضد عدو اغريقى معروف وهو Pyrrhus وقد خلقت وفاة Pyrrhus عام ٢٧٢ اثرا كبيرا ، فقد تحملت روما وحدها بعد ذلك عبء المحافظة على شبه الجزيرة الايطالية كلها بما فى ذلك الجزء الجنوبى منها والذى كان خاضعا لليونان ، وبعد ذلك اتجهت الى صقلية وقامت حرب بينها وبين القرطاجنيين عام ٢٦٤ لتملك هذه الجزيرة (صقلية) وانتهت هذه الحرب البونية عام ٢٤١ بانتصار الرومان البحرى ، وقبلت قرطاج شروط الصلح القاسية التى حرمتها من الرقابة على صقلية وغرامة كبيرة .

واصبحت منطقة شمال افريقية فى مناوشات ، وحاولت Utica وبعض المدن الأخرى التحرر من القرطاجنيين وكذلك حاول الليبيون التخلص من هذا الاستعمار ، ووقعت قرطاج فى أزمة اقتصادية نتيجة الالتزامات التى كانت تدفعها للرومان ، وحاولت أن تنقذ الموقف وذلك بانهاض امبراطوريتها فى أسبانيا ، وقام رائدها الأول Hamilcar Barca بمهمة انقاذ بلاده وأشرك معه فى عام ٢٣٧ ولده Hannibal وكان عمره فى ذلك الوقت تسع سنوات ، ولما مات هاملكار عام ٢٢٩ ق.م. تبعه زوج ابنته Hasdrubal فأسس مدينة Carthago Nova عام ٢٢٨ وعقد معاهدة مع روما عام ٢٢٦ ، واغتيل هسدروبال عام ٢٢١ . وتبعه هانيبال وقد بلغ من العمر الخامسة والعشرين .

وبدأت الحرب البونية الثانية ، وذهب هانيبال الى ايطاليا بجيش كبير به افيال سارت فى جبال البيرنى والالب وقطع نهر الرون ، وانتصر انتصارات باهرة رغم أن جيشه وصل الى ايطاليا منهوك القوى (خرج من أسبانيا ومعه ٥٩٠٠٠ رجل و٣٧ فيل ولم يصل الى شمال ايطاليا الا ٢٦٠٠٠ مقاتل و ٢١ فيل ، واستطاع أن يقضى على جيش الرومان ، خصوصا عند بحيرة Trasimene عام ٢١٧ وعند Cannae عام ٢١٦ . كما هزمت الجيوش الرومانية فى أسبانيا ، ولما انتخب الصغير P. Cornelius Scipio Africanus ليشرف على أسبانيا عام ٢١٠ هاجم Carthago Nova عام ٢٠٩ ثم هاجم كل Baetica بما فى ذلك Gades وفى عام ٢٠٤ هاجم افريقية . واستدعى هانيبال ، وقامت المعركة فى Zama عام ٢٠٢ . وانتهى الأمر بعقد محالفة كانت قاسية على قرطاج واعترف Scipio فيها بأن هانيبال قد قام يوم (زاما) بكل ما فى

استطاعة البشر أن يقوم به . لقد حرق أسطول قرطاج وتقلصت حدودها حتى وصلت Territorium وأصبح Massinissa ملكا على Numidia وعاصمتها Cirta (قسطنطين) ، وكانت الغرامة الحربية كبيرة .

ولا نعلم شيئا عن الخمس سنوات التى مرت على قرطاج بعد ذلك ، ولم تستطيع بعد ذلك أن تؤسس مستعمرات ، ووقعت فى حرب مع جارها Massinissa وهزمت وفرضت عليها غرامة كبيرة أرهقتها ثم وقعت مع روما فى حرب عام ١٤٩ لنقضها المعاهدة ، وقضى عليها ونهبت المدينة وأحرقت، وأصبحت قرطاج مستعمرة رومانية ، وأصبحت العبادات الفينيقية رومانية فمثلا الآلهة الآتية Baal-Hammon, Tanit, Eshmun and Melgort أصبحت بالتوالى عند الرومان هى :
Saturn, Caelestis, Aesculapius and Hercules

* * *

الفصل الرابع

الحضـــارة الفينيقية

النظم السياسية فى فينيقية وقرطاج :

اعتمدنا فى معرفة النظم السياسية لفينيقية وقرطاج خصـوصا فى الالف الثانى قبل الميلاد على أقوال المؤرخين القدامى . وتدل رسائل العمارنة على انهم كانوا أتباعا لملوك مصر ، ولكن علمنا بعد ذلك أن هذه المدن قد استقلت وحكمها حكام وطنيون كانوا يلقبون بالملوك ، وقـد انتخبوا من أسر منسوبة الى أصل مقدس . (وذلك شبيه بملوك بعض المدن فى مجاهل افريقية حتى سنوات بسيطة) أى انه كان هناك أسر حاكمة ، وحدد سلطان الملك بمجلس الشيوخ الذى كان يتكون من الاغنياء من تجار المدينة ، وكانت هذه الحال متبعة أيضا فى قرطاج . وقد جاء فى نصوص رأس شمرا (١) حديثا مسهبا عن تجارة المدينة ، فقد ذكر أنه كان بها وكالات للاقمشة المصبوغة باللون القرمزى ، كما جاء ذكر جميع الحرف الموجودة بالمدينة ورؤساء هذه الحرف ، وقد كان يسمى الواحد منهم (ربا) ، وفى أواخر عصر الفينيقيين كان لمجالس الشيوخ سلطان كبير يعادل سلطان الملك ، حتى أنهم فى صيدا كانوا قوة توجه الملك ، وبلغ عدد أعضاؤه فى مجلس صيدا مائة عضو . مثل هذه المجالس لم نجدها فى بابل ولا فى مصر ، غير أن هذا النظام وجد عند الفرس الذين نزلوا فى آسيا الصغرى ، كذلك قامت الجمهورية فى صور فى العصر البابلى الجديد أو الثانى وكان يترأسها قضاة على غرار ما كان متبعا فى مملكة اسرائيل فى العصور القديمة وعين هؤلاء القضاة لمدة عامين ، وكان يتولى الحكم منهم اثنان مرة واحدة . كما قامت الجمهورية فى قرطاج وحكمتها اسر غنية ، كان مجلس الشيوخ يختار اثنين (سوفيت) Suffetes وذلك بتشديد الفاء ، وهى أصل الكلمة السامية وكانت الفاء مخففة (شوفيت) بمعنى قاضى .

---

(١) مجلة سوريا عدد ١٥ (١٩٣٤) ص ١٣٧ وما بعدها .

وغالبا ما استقل ملوك فينيقية بعضهم عن بعض ، واستخدم الفينيقيون مرتزقة فى جيوشهم وقد سبب هؤلاء لهم متاعب كثيرة .

الحكومة وبناء المجتمع :

ظلت المدن الفينيقية الشرقية مستقلة سياسيا كل واحدة عن الاخرى وعملت كل منها على تقوية نفسها وكونت مملكة كانت عادة حدودها صغيرة لا تزيد عن الارض اللازمة لاطعام الناس وكسوتهم . وبدون شك ان المدن الرئيسية خصوصا صور وصيدا كانت تتمتع ببعض الزعامة على بعض المدن الاخرى وذلك فى أوقات محددة ، ولم يوجد ابدا اتحاد فينيقى

ذكر هيردوت انه كان يوجد فى حملة Xerxes عام ٤٨٠ ثلاثة ضباط فينيقيون وهم :
Tetramnestos of Sidon, Mattan of Tyre and Marbalos of Aradus
ولو كان يوجد اتحاد فينيقى حقيقى لكانت كل السفن الفينيقية تحت زعامة قائد واحد . وجدير بالذكر ان الأثينيين قد عملوا على الاتحاد ، وعلى ذلك ففى القرن الخامس قبل الميلاد استطاعوا باتحادهم السيطرة على شرق البحر المتوسط .

وحتى قرطاج لم تستطع ان توحد مناطقها ، وكان ينظر الى سكان المدن الخارجة عن اقليمها كأنهم غير مواطنين ، فهؤلاء أهل صقلية كانوا يضربون نقودهم وذلك حتى قبل ان تضرب قرطاج نقودها . وضربت Ibiza, Gades أثناء القرن الثالث ق.م. نقودهما حينما كانت قرطاج قوية . وفى مالطة عثر على نقش يشير الى وجود قانون او نظام فى الجزيرة يتكون من قضاة Suffetes وسناتو وشعب كما كان فى قرطاج نفسها . وهناك اشارة الى وجود هذا النظام فى جهات اخرى فى Tharros وفى Gades وكانت بهذه المدن اسوار ضخمة ووسائل مختلفة للدفاع عن نفسها ولم يظهر انه كان لديها جيوش أو اساطيل ، ولكن كانت تعتمد على قرطاج لتساعدها فى حالة الهجوم (مثل ما حدث فى Motya عام ٣٩٨) . والظاهر انه لم تمتلك اى مدينة سفنا تجارية فيما عدا Gades.

كانت تشغل قرطاج فى بادىء الامر مساحة بسيطة من الارض ، ثم اتسعت فى القرن الخامس الى الشمال الشرقى لتونس فأصبحت تضم (حضرموت Hadrumetum ، واوتيك Utica) وبعض المدن الاخرى المستقلة . وفى بعض الاحيان تحدد هذه المساحة باخدود . ولم يكن لتملك

قرطاج هذه الحدود ان تحولها من حكم المدينة الى الدولة . ولكن ذلك منحها حكما مباشرا على مساحة كبيرة من أرض خصبة جدا ، كما مكنها من موارد غذائية من كل الانواع كافية لحفظها من المجاعات .

اما فى سردينيا ، فبينما ترك وسط الجزيرة منعزلا نشأ فى الجنـــوب والغرب مقاطعات ، وجاء أفارقة لفلاحة ارضها ، واستغلت المعادن مثل القصدير والفضة ، وحدث نفس الشيء فى اسبانيا بعد الحرب البونية الثانية نتيجة لغزوات (هاميلكار باركا) و (هاسدروبال) و (هانيبال) ولا نعلم مساحة البقعة التى استولى عليها هؤلاء الغزاة ، وكل الذى نعرفه هو أنهم اتخذوا عاصمة جديدة هى Carthago Nova وكانت تقوم بدفع ضرائب الى قرطاج وتجند لها الجيوش .

وفى المناطق الأخرى فى الغرب كان اشراف قرطاج عليها غير مباشر ، ولم تجاهر أى مدينة بعدائها حتى Utica (١)

كانت الملكية فى فينيقية كما جاء فى رسائل العمارنة غالبا وراثية مع انقطاع فى بعض الاوقات بسبب بعض الثورات . وفى الامكان عمل قوائم باسرات حكمت فى مدن عدة ولكنها غير كاملة ، فهذا حيرام Hiram ملك صور وأسرته و Suli ملك صيدا وصور و Tabnit وأسرته فى صيدا وقد عرفنا بعض تاريخ هؤلاء من بعض النصوص وما جاء فى التوراة وبعض وثائق الاشوريين أو المؤرخين القدامى ، عليسة Elissa اميرة مملكة Ithobaal فى صور (وتنطق أيضا اليسا) ، وقد انشأت قصرا ملكيا فى قرطاج . وليس لدينا تسجيلات لحكمها ، ولكن نحن نعرف أن «الملكية» قد وجدت فى قرطاج بعد ذلك بمدة ، وأن هناك قرطاجنيين منهم أعضاء عائلة Magonid فى القرنين السادس والخامس مثل هاميلكار الذى ترأس حملة ضد صقلية عام ٤٨٠ ق.م، وكذلك المكتشف المسمى Hanno والذى يحتمل أن يكون ابن هاميلكار . كل هؤلاء أطلق عليهم فى النصوص القديمة ملوك . والظاهر أنه حدث فى بعض الاوقات توقف الوراثة الملكية فى كل المدن الفينيقية وحلت محلها حكومات خاصة Oligrachy استأثرت بالحكم . فقـــد

---

(١) فى القرن الخامس وقعت قرطاج ومعاهدة مع Utica ، وفى المعاهدة الثانية مع روما عام ٣٤٨ وفى المعاهدة التى ابرمتها مع Philip of Macedon عام ٢١٥ ، ذكرت Utica وحدها دون الحلفاء الغربيين . وقد ظلت امينة على اتحادها مع قرطاج حتى الحرب البونية الثالثة حينما انحازت الى روما وقد كوفئت بان اصبحت عاصمة لعاصمة مقاطعتها فى أفريقية .

تكون تحت الحكم الفارسي ــ وربما أبعد من ذلك ــ مجالس شورى من الكبار بدأوا من التجار الاغنياء ، ووجدوا بدون شك من قبل كخبراء للملكية يتمتعون بسلطان كبير . وقامت فى صور حكومة ثنائية اخذت على عاتقها الامور التنفيذية . وحدث مثل ذلك فى قرطاج ايضا غالبا فى القرن الخامس حينما قضى على السيادة الماجوية Magonid فقد ذكر ارسطو الذى كتب فى القرن الرابع قبل الميلاد أن القوة الشرعية بقيت فى أيدى اثنان من القضاة كانا ينتخبان كل سنة ويسيمان الملوك أو القضاة Suffetes وكان هناك مجلس سناتو يتكون من ثلثمائة عضو يعينون مدى الحياة ، وهناك مجلس آخر مكون من ١٠٤ عضو يكونون « مجلس شعبى للسلام Committee of public safety » ولا تعرف علاقتها بالسناتو . وهناك جمعية عمومية للناس . وهذا النظام الدستورى بدون شك فيه تأثيرات يونانية ، وهو يشبه النظام الثلاثى الذى كان فى أثينا وغيرها ، وكذلك القنصليات الرومانية والسناتو والجمعيات العمومية الشعبية . والظاهر أن اختيار القضاة والدخول فى السناتو كان متوقفا على الثروة أكثر من الوراثة وعلى الاقل بعد القرن السادس .

* * *

الديانة :

ان الدين فى الحضارات القديمة هو الذى يوحى الناس بفنونهم ونظمهم وهو الذى يوجه تلك الجماعات ويسيرها فى فلكه . واعتمادنا فى معرفة ديانة الفينيقيين هو الرجوع الى ما جاء فى التوراة والنقوش وروايات المؤرخين اليونان واللاتين . وقد مرت ديانة الفينيقيين بمرحلتين الاولى النصوص التى سجلت فى راس شمرا والثانية مصير هذه الديانة أيام العصر اليونانى الرومانى .

أما عن نصوص راس شمرا فقد حدثتنا عن الاساطير خلال الالف الثانى . وقد تشكلت خلال الالف الثانى ملاحم دينية مثل الملاحم التى وجدت فى بلاد الرافدين سجلت معالم الدين . فملاحم الملك (نقماد) وجدت فى منتصف القرن الرابع عشر . وكذلك كان من خصائص ثالوث الالهة هل ايل داجون ويطلق عليه فيلون ودمسقيوس ايل كرونوس ، وقد كان يشرف على الأنهار ويتنبأ بالأمطار ، وكانت زوجه هى عشيرات البحر Ashérat de la mer وتسمى أيضا ايلات .

ويأتى بعد ذلك (بعل) ويعنى (السيد) ، وهو وصف لاله معين كان (حدد) عند السوريين و (أدد) عند أهل بلاد ما بين النهرين . وهو آله يشرف على القمم والعواصف والرعد والمطر . وقــد ذكرت بعض الاساطير فى رأس شمرا أن بعل اله ليس له معبد بينما كانت لاغلب الالهة معابد . وغالبا ما يكون الاله بعل اله محلى سابق على العصر الفينيقى ، وقد صور على شكل محارب على رأسه خوذة وبيده مقمعة ، أما زوجه فهى عشيرات ، وهى غير عشيرات البحر قرينة ايل .

ثم يأتى بعد ذلك (أليبان بن بعل) ، وهو شبيه بأبيه ، وكان يشرف على منابع والانهار .

ثم بعد ذلك (أنات) Anat أخت (أليبان) وهى تشبه عشتار صاحبة أربل الاشورية . وقد عبدها المصريون عند ما دخلوا ارض كنعان وصوروها بصورة الالهة (انتا Anta) .

ثم عشتار وهى تشبه الالهة (قدش) عند المصريين ، وكانت تصور على هيئة امرأة عارية امتطت أسدا .

وكان خصم (اليبان) اخاه موت Mot (وهذا شبيه بما جاء فى قصة أزوريس من أن أخيه ست كان عدوه) ، وهو يشبه الاله (نرجال) البابلى وهو يدل على شمس الظهيرة المحرقة فهو اله الجحيم .

كان بعل اله العاصفة والمطر ، وكذلك كان اليبان اله المنابع والانهار ، ثم هو أيضا اله الفيضان الذى يغمر الارض . أما (موت) فهو رمــز الحصاد . وقد كان كل من الالهين اليبان وموت اذا اجتمعا يمثلان تعاقب الفصول حسب ما جاء فى أسطورة عشتار وأدونيس .

واسطورة الربيع والشتاء قد قسمت الى اربعة فصول ، أولها موافقة ايل على أن يبنى معبدا لبعل ، وثانيها اختياره المهندس المسمى كوسر ليبنى معبدا وتخليته مكانا لموت فينزل الى الجحيم حيث تنعيه اخته (أنات) وثالثها وهو وقت الحصاد فيقطع سنبلة ويذرى ويخبز ويأكل ، ورابعها بعث اليبان من مكان اختفائها وكانت تكلف بالبحث عن الهة الشمس شاباش Shapash (والشمس هنا مؤنث) .

ثم هناك طقوس الحصاد الزراعية وأسطورة ميلاد الالهة الظريفة

الجميلة ، وأناشيد مثل أنشودة الاله (نيكال) وهى تشبه الاناشيد البابلية .
وكان يسمى اله القمر (يريه .. Yarih)

من كل ما تقدم نرى أن الدين الفينيقى فى منتصف الألف الثانى هو فى الواقع نوع من الدين الآسيوى الذى يمثل الخصب والأخصاب ، لأن فينيقية قد احتفظت بالعناصر الآسيوية القديمة الموجودة فى ديانتها كما كان للايجيين تأثير واضح فى شمال فينيقية .

أما عن علاقة ديانة الفينيقيين بالعهد القديم :

فقد جاء الكثير من نصوص هذه الفترة فى قصائد راس شمرا الذى نجد فيها وصفا شاملا للعادات والعقائد الكنعانية ، وهذه النصوص تلقى ضوءا كافيا على اخبار الكنعانيين القديمة وعلى بعض أوامر الكتاب المقدس فمثلا تحريم طبخ العنز الصغير بلبن أمه ، فهو صدى عادة كنعانية جاء فيها (اطبخ الحمل فى اللبن) .

وفى نصوص راس شمرا تعبيرات شعرية استخدمت فى العهد القديم، وفيها اساطير متصلة بعضها ببعض على انها مختلفة عن نصوص ما جاء فى العهد القديم .

أما ديانة الفينيقيين فى العصور التالية لذلك ، وما كتبه الكتاب امثال فيلون وسانخونياتون Sanohoniaton والأول يطلق عليه فيلون البيبلوسى ! وهو كاتب يونانى ولد فى فينيقية عام ٤٢ ميلادية تقريبا وقد كان يسمى هيرينيوس Herennius وقد عاش فى أيام الامبراطور هدريان عام (١١٧) . وهو الكاتب الذى أوضح لنا فكرة الديانة الفينيقية عن خلق العالم وقد ذكر لنا انه نقلها مماكتبه الكاهن الفينيقى سانخونياتون الذى ولد فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد تقريبا . وبذلك هى وثيقة لها قيمتها اذ تشبه النظريات الآشورية البابلية التى قام بجمعها رجل كلدانى اسمه (بيروز ، وقد ضاعت ثم أوردها أحد كتاب اليونان . وقد ضاعت مؤلفات فيلون وأوردها (يوزيب) الذى كان يلقب بأبى التاريخ الكنسى وقد كتبت كتبه فى أوائل القرن الرابع للميلاد . وقد تضاربت الآراء فيما كتبه يوزيب .

الآلهة

يطلق بعل على الآلهة بوجه عام ، وذلك فيم عدا اطلاقه على الاله الاكبر

بعل ، فيقال بعل هذا الاقليم مثل بعل صور وبعل لبنان ، وذلك بمعنى سيد صور وسيد لبنان . واذا ما أشار الصوريون الى الههم يقولون بعلنا بمعنى سيدنا . أما أغلب الاسماء الربانية فكانت جملا مثلا (ملقارت) بمعنى ملك المدينة . وكانت الشعوب الآسيوية القديمة تعتقد فى وجوب تسمية الاله ، وأن بقاء هذا الاسم ضرورى للاله ، والتسمية تقتضى وجود الشىء، وان تسمية شىء هو نوع من خلقه . وفى الحضارة الفرعونية كان محو الاسم هو محو للاله مثل ما فعل اخناتون حينما محا اسم (آمون) ، وبعد ذلك محا كهنة آمون اسم (اخناتون) من آثاره .

كان لأغلب المدن الفينيقية بعولة يقدسونها ، وكان يوصف الاله بالمكان الذى يعبد فيه مثل (بعل روشى) أى (سيد الرأس) و (بعل آسافون) أى (سيد الشمال) و (بعل شمين) أى (سيد السموات) وزيوس كاسيوس جوبيتر وهو الذى كان يحمل جبل كاسيوس .

كان للحياة البحرية التى عاشها الفينيقيون اثرها فى نسبة صفات بحرية الى آلهتها . وقد أضيفت تلك الصفات الى الصفات القديمة ، وكان هذا أمر طبيعى . وكان يغلب على بعل صور فى العصور القديمة الصفة البحرية ، وكذلك بعل داجون الملقب سيتون Siton فقد كان يوصف فى العهود القديمة بصفة بحرية .

والراجح انه بالرغم من تعدد الآلهة فى الحضارات الآسيوية القديمة فى غرب القارة فان الجميع يرجع الى رب واحد اختلفت أسماؤه وذلك بسبب الأماكن المختلفة التى عبد فيها . وقد عبدت المدن الفينيقية الى جانب آلهتها الأصلية أربابا أخرى فينيقية وأخرى أجنبية من بلاد النهرين ومصر واليونان .

ملقارت :

هو بعل صور واسمه بمعنى (اله المدينة) . وكان هذا الاله أصلا الها قبليا . ويشبهه اليونان بالاله هرقليس . واقيم فى صور عيد سنوى للاله ملقارت . وبنى حيرام له معبدا كما سبق أن بينا ذلك . وكانت له أصلا صفة شمسية ثم اكتسب صفة بحرية .

أشمون :

عبد فى صيدا ولا يحمل لقب بعل . ولو أن كتاب اليونان اختلفوا كثيرا فى الآلهة الا أنهم لم يختلفوا فى رأيهم عن اشمون ، فهو يشبه

(اسكليبيوس) فهو اله الصحة أو الطب . وله معبر فى صيدا اكتشفت اطلاله . أما اسمه فيرى بعض العلماء أنه مشتق من (شيم) بمعنى الاسم الأعظم . وتقابل طبيعة أشمون شخصية (اله الفداء) الذى يطلق عليه اسم (داجون) على اعتبار أن أشمون أصلا رب مانح للحياة . وقد كانت طبيعته الأولى شمسية .

عشـــتارة :

اللفظ صيغة مؤنثة من البعل أى بعلة ، أو السيدة . وأصح نطق لها عشترة (وذلك بالتاء المربوطة للمؤنث) كما جاء فى رسائل تل العمارنة . وفى النصوص اليونانية تنطق (اشتارتيه) . أما كلمة عشتارة فقد أشيعت بدون ما سند صحيح . وهى الهة ترمز الى الخصب على الصورة المألوفة فى كل آسيا الغربيـــة . فهى الهـــة الأمومة والخصب . وقد أضـــاف الآشوريون والبابليون الى صفاتها الهة المعارك . وقد عرفت عند اليونان تحت اسم (افروديت) . وقد كانت صاحبة سيادة قوية فى ريف صيدا أكثر من المدينة نفسها والدليل على ذلك هو العثور على كهوف خصصت لعبادتها فى (مقدوشة) قرب صيدا .

أدونيس :

اله على صورة شاب قام بقتله خنزير وحشى كان يصيده ، ولما كانت له صلة وطيدة بالآلهة عشتارة من أجل ذلك تنزل هذه الآلهة الى الجحيم لتنقذه من الموت . وأقدم نص يونانى عن قصة أدونيس ما كتبه بينازيس ... Panyasis (فى النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد) . كانت أمه على هيئة شجرة ولد هو منها ، وعند ولادته أخذته (ڤينوس) وكلفت به (پروزرپين) التى آثرت أن تستبقيه عندها ، وقد رفضت أن ترده . عند ذلك كان لا مفر من تدخل (چوبيتر) . وقد اشتهرت الرواية بموت أدونيس ونزوله الى الجحيم . لقد اتفقت جميع الروايات على موت الاله وهو يصطاد وأن نزاعا قام بين ڤينوس وپروزرپين . ثم عودة الاله الى الأرض .

ونستنتج من ميلاد أدونيس الخارق من أنه كان يعد من الهة الزراعة فى فينيقية ، وكان يحتفل بأعياده سنويا وسميت أعياده (الأدونيـــات) . ومن الغريب أنه لم يذكر فى جميع النصـــوص الفينيقية أو اليونانيـــة أو اللاتينية من التى كشفت فى فينيقية . أما صيغة اسمه فهى صيغة يونانية من الكلمة السامية (أدون) بمعنى السيد وهى تساوى لفظ بعل أى أنها اسم عام ، وقد أشيع اسمه (أدونيس) عند الاغريق فقط . وقد اسماه

انعبرانيون الاله (تموز) تشبيها له باله بلاد ما بين النهرين المختص بالحب والأنبات . وقد ذكر دمسقوس في القرن الرابع الميلادى أن أدونيس ليس مصريا ولا يونانيا بل فينيقيا . وهناك صلة وثيقة بين عبادتى أدونيس وعشتارة ، وتقول الاسطورة أنه حينما علمت عشتارة بوفاة أدونيس ندبته . على أن عبادة أدونيس عريقة جدا في القدم فيحتمل أنها ترجع الى فجر التاريخ ، فقد أوضح لنا بلوتارخ الصلة بين مدينة بيبلوس وازوريس. فكانت هناك صلات قوية بين مصر وبيبلوس ، وهناك تشابه في العقائد بين القطرين ، ومما يؤيد ذلك الكشف عن خاتم أسطوانى في صور عليه نقش مصرى لآلهة بيبلوس في النصف الثاني من الألف الأول ، وقد اتخذت هيئة ايزيس ــ حاتحور ــ جالسة وقد زينت رأسها بقرون ، والى جانبها الاله أدونيس وكان يلقب بـ (حاى تاو) (المتقمص صورة الصنوبر) وتتفق قصته مع قصة أزوريس في انطواء جسم الشجرة على أزوريس كما انطوت على أدونيس ، وذلك على أساس أنه روح الأنبات والنباتات والأشجار . وهذا التقريب بين أدونيس وبين الشجرة يعد تقريبا طبيعيا في قطر غنى بالأشجار وأما عند المصريين القدماء فقد شبه الملك (بيبى الأول) نفسه في احد النقوش الجنازية حينما احتواه تابوته المصنوع من الخشب بالاله (حاى تاو) رب نيجا .

أما تطبيق عبادة تموز على الشجرة في بلاد ما بين النهرين فغير مؤكدة. على أنه يوجد أسطوانة من عصر أكد تجعل ميلاد تموز من الشجرة (١) . فقد جاء في الخبر أن ميرا Myrrha ، كانت أميرة الآشور قد خدعت أباها في وقت سكره فاتصل بها ، وحينما عاد الى صوابه وعلم بجرمه أراد أن يقتل ابنته . عند ذلك تدخلت الالهة عشتارة وحولت الأميرة الى شجرة المر . وبعد مضى تسعة شهور ولد من الشجرة أدونيس لذلك يلاحظ أنه يوجد على الاسطوانة تموز وتتلقاه عشتارة من الشجرة ، ولكن يحاول والد (ميرا) أن يقضى على الشجرة التى تقمصتها (ميرا) .

آلهة قرطاج

كانت مدينة صور تعتبر الوطن الأم لقرطاج ، من أجل ذلك كانت آلهة قرطاج مثل بعل حمون ثم الآلهة تانيت هى عشتارة . كانت أهم عبادة في قرطاج هى عبادة (بعل حمون) وهو اله سماوى ، وقد عبد بافريقية اله يسمى (جوبتر آمون) ، واتخذ شخصية زيوس كويليستيس وذلك بالاتصال بالاله بعل حمون الذى سمى خطأ بعل آمون مع أن الاسمين

(١) G. Conteau, Revue d'assyriologie 1942, 44.

مختلفـان وهما لربين مختلفين . وقـد عرفه الرومان وشـبهوه بالاله (كرونوس أوماتورن) كما عرف الرومان تانيت وكان معبـدها يشبـه معبد (جينـون كويليتيس ... Junon Coelestis) . ثم الالـه (أدونيس) وقد شبهه الرومان بالاله مركور . ثم الاله (بس) الذى كان يعبد فى مصر وهو على شكل قزم .

أصل الآلهة الفينيقية :

ترد الآلهة فى الثالوث الفينيقى الى مبـدأين مقدسـين وهما التذكير والتانيث ، وهو مبدأ معروف فى جميع الديانات القـديمة ، ففى الديانة البابلية نجد عشتار الهة التكاثر أو عشتارة الفينيقية . ويمثل الاله الذكر على هيئة رجل تم نضجه ملتحى وقد قبض فى يده على مقمعة وبجواره الثور ، وهو بذلك الشكل يعبر عن العواصف والمطر ، وقد سمى فى سوريا (حداد) ، وفى بلاد ما بين النهرين (أدد) وفى آسـية الصغرى وسـوريا العليا (تشوب) .

لم يوجد فى رسائل تل العمارنة اسماء أعلام مركبة من اسم بعل ، على انه بها أسماء مركبة من (أدو ... Addu) وهى فى الواقع صيغة من الاله (حداد) اله القمم والعواصف السـورى ، ويمثل واقفـا فوق ثور ويقذف بالصاعقة (نجد مثل ذلك التمثيل فى بعض الآلهة المصرية) . أما فى النقوش الفينيقية فنجد منها أسماء أعلام مركبة من لفظ بعل .

وكما ظهر عند الفينيقيين آلهة ترمز الى الطبيعة كانت موجودة ايضا فى بلاد الرافدين وكلها تعبر عن مبدأ التكاثر ممثلة فى عشتارة ثم فى تموز ، ثم فى أدد وهو اله يرمز الى الصاعقة والسماء بوجه عام ، وكذلك الحال فى بعولة لبنان وصور وحرمون الخ ، ثم فى الاله (ريشيف) اله البرق ، الذى جاء ذكره فى النصوص المصرية القديمة أيام الدولة الحديثة (أيام أمنحتب الثانى) .

وعمل الكتاب اليونان على أيجاد تقابل بين الآلهة الفينيقيـة والآلهة اليونانية ، فنجدهم قد أوجدوا الهة تقابل الهة القمم والصواعق والسماء، فشبهوها بالاله زيوس ، وشبهوا الهة البحر بالهة تحمل اسم (بوزيدون).

وعلى العموم فان الدين الفينيقى يرجع أصله الى الديانة التى تتصل بالطبيعة والتى عرفت فى آسيا الصـغرى ، ولمـا كان الفينيقيون يهتمون بالتجارة البحرية اكثر من الزراعة ، فقد أضاف الفينيقيون الى آلهتهم هذه صفات الأرباب البحرية .

وعلى ذلك فهل آلهة الفينيقيين آلهة سامية مثل التى وجدت فى آشور وبابل وسوريا ؟ وأين نشأت عبادة الطبيعة ؟ الحقيقة أنها نشأت فى آسيا الصغرى التى لم تتأثر بالحضارة الا قليلاً . ولم تتعد هذه التأثيرات اقليم جبل (ارجيه Argée) . وأن السومريين ليسوا ساميين ، ومع ذلك فكانت مدنهم تعبد مبدأ التكاثر ، وقد جردت فى بادىء الامر عن الجنس او التذكير والتأنيث ، ثم بعدذلك قسمت الى مذكر ومؤنث . فأدونيس يقابل تموز عند الاشوريين والبابليين ويكتب باللغة السامية (دموزى) أى بمعنى (الابن الشرعى) . ولقب بعل=بيل بمعنى السيد ، وهى ترجمة للفظ (ان) بمعنى السيد ايضا . وهذا اللفظ سومرى يدخل فى تركيب اسماء الآلهة القديمة ، فيقال : ان ــ ليل ، وان ــ زو ، وان ــ كى . وتوجد جمل تصف الاسم الحقيقى تعبر عن حقيقة الطبيعة المميزة له مثل الاله (شارا) بمعنى الخضرة ، ونينهرسج ... Ninharsag بمعنى سيدة الجبل . وكل هذه خصائص قديمة للالهة اضيفت اليها آلهة أخرى استحدثت كانت فلكية فى أول الأمر ، فالشمس مثلا تبدو وكأنها تحى الأشياء ، ثم اخلاقية بعد ذلك وهى الهة العدل .

الأشياء المقدسة

هناك أشياء كانت تقدس لصلتها بالاله مثل المياه والجبال وبعض الأشجار . اما عن المياه المقدسة . فأشهر معبد لها هو معبد (افقا) الذى يقع فى جبال لبنان عند منابع نهر أبراهيم حاليا ، والذى كان يسمى قديما (ادونيس) ، والنهر محاط بالصخور ويصل الىّ مكان خصص لعبادة (عشتارة) حيث يوجد حوض يلقى فيه القرابين ، فاذا ما غاصت القرابين كان ذلك علامة على قبولها . واذا ما طافت كان هذا علامة على رفضها . ويتلون هذا النهر بلون أحمر نتيجة طميه الحديدى اللون فيعتقد المؤمنون من الناس أن ذلك آثار من دم (أدونيس) . وجاء فيما كتبه لوسيان (١) بقصة أدونيس ما يلى :

« نلاحظ أيضا معجزة اخرى فى اقليم بيبلوس ، ففيه نهر ينبع من جبل لبنان ويصب فى البحر ويطلق عليه اسم أدونيس ، وهو يغير لونه الطبيعى كل سنة دون انقطاع ويصطبغ بالدم حتى مصبه ، ثم يصبغ البحر بصباغ أحمر الى مسافة بعيدة ، وهو بهذا يؤذن أهل الايمان بزمام حدادهم ، ويزعمون أن أدونيس جرح فى هذا الوقت من السنة ، وأن

(١) ذكر ذلك عن الالهة : ترجم النص الى العربية ومقتبس من كتاب الحضارة الفينيقية تاليف ج . كونتو وترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ص ١٣٢ .

طبيعة النهر تتغير بسبب سيلان دمه مع تيار النهر وبسبب هذا الدم سمى نهر ادونيس ، وتلك هى القصة المصدقة عندهم الا أن رجلا من بيبلوس يبدو لى انه أصدق . اخبرنى بسر هذا التغيير العجيب وقال لى « هذا النهر يا صديقى وضيفى يمر خلال جبال لبنان ، وهذا الجبل غنى بالتربة الحمراء ، وفى هذا الفصل تهب بانتظام رياح عنيفة فتجرف الى النهر باللون الاحمر ، وليس التغيير من الدم كما يؤمن الناس ، بل من طبيعة التربة . فاذا سلمنا بقوله فانى أرى مع ذلك فى هذا التوافق المنتظم بين الرياح وتلوين النهر شيئا خارقا للعادة » .

وجدير بالذكر أن فى قصة هلاك البشر فى الديانة الفرعونية ، أن المصريين أرادوا أن يخدعوا الالهه (سخمة) التى كانت تمثل على هيئة لبوءة ، فقد قيل انهم القوا أمامها مياه ملونة بلون أحمر ، وقيل أنه نبيذ ، وقيل انه لون بصخور حمراء اللون من التى تكثر فى اسوان والتى يستخرج منها حاليا الحديد .

وقد آمن اهل قرطاج بهذه المعتقدات تماما ، ودليلنا على ذلك أن هانيبال حينما قسم الى فيليب المقدونى استشهد بآلهة قرطاج وهى الشمس والقمر والارض والانهار .

على أن تقديس الأنهار معروف فى جميع الديانات القديمة ، ففى مصر الفرعونية رمز للنيل بالاله (حعبى) الذى شبه ببشر يجمع بين الذكر والأنثى لأنه يهب لمصر الحياة ، هذا وقد ذكر هيردوت قوله المأثور (مصر هبة النيل) ، هو فى الواقع امر حقيقى وواضح اذ لولا النيل لكانت مصر صحراء جرداء . كذلك فى الديانة اليونانية والرومانية ، فقد مثلت الديانة الأنهار على هيئة آلهة أو فى شكل اله يتكىء على صندوق ينصب منه الماء.

قدست الأشجار والنباتات فى فينيقية وفى قرطاج على أنها مساكن للآلهة . وقد كانت هذه الأشجار من لوازم المعابد ففى (أفقا) غرست شجرة بجوار حوض مقدس كان أصلا خاصا بالقرابين ، ولا زال كثير من الفلاحين يربطون بأطراف الشجرة قطعا من الثياب ويتضرعون اليها . وفى مصر الفرعونية قدست بعض الأشجار وظهرت بعض الآلهة تخرج من شجرة . ولا زال بعض أهالى القرى فى مصر الحديثة يتبركون ببعض الأشجار ويربطون بها بعض قطع من ثياب تبركا ، كل ذلك رواسب من الماضى البعيد ظلت عالقة بأذهان الناس ، فورثوها عن أجدادهم دون أن يدركوا معناها .

كل هذه العبادات الخاصة بالمياه والشجر ، كان الأصل فيها أن الناس قد عبدوها وقدسوها لما تدره عليهم من خير ، وجاء فى كتاب الله الكريم أن الله جعل من الماء كل شىء حى ، كما جاء كذلك أن عرشه على الماء . أما الاشجار فانها ترمز لكل نبت من الفواكه والحبوب والنباتات الطبيعية .

ولكن ما هى الأسباب التى دعت الناس فى العصور القديمة أن يتخذوا من الجبل متعبدا ومقرا ومقاما لهذه الآلهة ، وكانت هذه الصخور تتخذ شكلا مخروطيا مهذبة جوانبها قليلا وسميت الواحدة منها فى اللغة السامية (بيتيل) ومعناها بيت الاله واشهرها فى فينيقية ما وجد فى معبد بيبلوس . وقد ظهر على أحد العملة الروماتية وكان عبارة عن صخرة مخروطية الشكل بها تمثيل طفيف للرأس والذراعين وأحيانا على هيئة أقماع السكر . اذن ما هو السر فى هذه العبادة التى نجدها فى بلاد كنعان قديما وعلى سبيل المثال فى بلدة (جزر) بين يافا والقدس ، وكذلك وجدت فى مكة فى الحجر الأسود قديما . ذكر بعض المؤرخين أن لها أصلا قديما سماويا ، بينما ذكر بعضهم أن شكلها المخروطى يذكرنا بالجبال ، وآخرين ذكروا أنها تمثل عنصر التذكير . قد احترم الساميون الوثنيون هذا الشكل المخروطى مثل مسلة الملك (منشتوسو) المعروضة بمتحف اللوفر ، فهى تمثل هرما مدببا . كما أنهم كانوا يقدسون الصخور بحالتها التى كانت توجد عليها وذلك واضح من عدم تهذيب الصخرة الخاصة بقوانين (حمورابى) . وجدير بالذكر أن المصريين عبدوا أشياء هرمية مثل الطرف المدبب فى المسلة والذى كان يسمى (بن بن) ولكن كان ذلك الشكل الهرمى المدبب منظما بينما الصخرة التى عبدت عند تلك الجماعات لم تهذب . أما من ناحية الحجر الأسود الذى لم يهذب فقد كان الحجر معروفا من قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قام عليه الصلاة والسلام بوضعه فى مكانه الحالى وقبله ، وسار المسلمون من ورائه على ذلك وأصبح من مناسك الحج . وكذلك فى رمى الجمرات فى (منى) اذ يلقى المسلمون بحصى معدودة على نصب من صخر لم يهذب ترمز الى الشيطان . كل ذلك من مناسك الحج الذى فعلها الرسول وأمر المسلمون باتباعها . وكما نرى فقد كان لها جذور فى الماضى البعيد . و (الأشيرا) عبارة عن عمود صغير من الخشب خاص بالنذور كان يوضع فى المعابد فى بيبلوس . وأن الاله أدونيس عبد على هيئة شجرة . وجاء فيما كتبه بلوتارخ أن الناس فى بيبلوس كانوا فى أيامه يقدسون عمودا من الخشب يقام فى المعبد .

كما أن آلهة الاسرائيليين آلهة جبلية ، وأن تقديس الجبال عند

الاسرائيليين قد انتقل الى الاحجار .. كذلك أيضا قدست الأشجار . كذلك قدس الساميون مظاهر الطبيعة ، فقدس العرب العزى وشجرتها . ولما فتح محمد صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له أيت بطن نخلة فانك تجد ثلاث شجرات فاعضد الاولى فأتاها فعضدها . ثم عضد الثانية فالثالثة فاذا هو بحبشية نافشة شعرها . ثم ضربها ففلق رأسها فاذا هى حممه ثم عضد الشجرة . وكان يعبد أهل نجران ، وهم على دين العرب فى ذلك الوقت نخلة طويلة كان لها عيد كل عام ، فاذا كان هذا اليوم علقوا عليها كل ثوب حسن وحلى النساء .

أما عن تقديس ينابيع المياه وانتشار عبادتها فى غير أمة الفينيقيين ، فنجد الاسرائيليين يقدسون ينابيع المياه ، فقد قدسوا « بئر شبع » وغيرها . ولا زال المسلمون حتى اليوم يقدسون بئر زمزم فهو جزء من مناسك الحج ، والارتواء بمائه من سنن الاسلام .

وهذا العمود الرمزى الذى نجده فى الديانة الفينيقية وجد شبيه له فى بلاد الرافدين ووادى النيل متمثلة فى المسلات ، عند مداخل المعابد . وعند الاسرائيليين هى (المصاباه) وهى عبارة عن حجر واحد أو أكثر ، وأحيانا نجدها صخرة لم تهذب جوانبها وأخرى مستديرة أو فى هيئة المسلة الفرعونية . وترتبط المصاباة بالعقيدة الفلكية البابلية ، فهى تمنح الحياة ، ولذلك نجدها فى شكلها تحاول أن تعبر عن احليل الرجل . وقد جاء فى سفر التثنية (١٢ : ٣ ، ١٦ : ٢١) ما يشير الى أن المصاباة رمز للاله بعل .

كما قدس الاسرائيليون « الاشيرا » وهى (عمود السارية) وهو رمز للالهه عشتار ، الاشيرا ملازمة للشجرة ، والعمود الخشبى الذى جرد من الأغصان والأوراق هو رمز لانتقال عشتار الى عالم الموتى ، ووجدت أسماء أشخاص انشبوا الى تلك الالهة . فمثلا عبد اشرتوا أو عبد اشرتى .

أما عن أماكن العبادة فكانت عند جميع الكنعانيين فى أماكن مرتفعة ، أو هى بعبارة أخرى كانت عبارة عن مساحات كبيرة تقام فى قمم الجبال ، كذلك أقيم فى كل من (ارواد) و (جبيل) معابد فى الجبال ، وأقيمت دور العبادة فى صيدا على قمم الجبال . ويقع معبد اشمون بين قمة الجبل وقدمه .

وأهم العناصر المعمارية لدور العبادة فى فينيقية هو سورها المقدس غير المسقوف ، وهى خاصة من خواص المعابد الفينيقية . ويقام المعبد

الصغير فى الوسط أو يقام بيتيل أو هيكل صغير بداخله بيتيـل ، وامام المعبد مذبح للقرابين . وبالمعبد حوض مقدس . ومن أمثلة هذه المعـابد ما وجد منقوشا على بعض المسكوكات مصورا حرم (ربة بيبلوس) . وقد كشف عن أطلال بعض هذه المعابد فى ارواد وفى صيدا ومعبـد أورشليم وساحته الواسعة ، وكذلك الحرم المكى وساحته الواسعة فهناك احتمال بناؤه على هـذا الطراز وأن ذلك من رواسب المـاضى البعيد . كذلك اذا ما انتقلنا الى معبد اخناتون فىمصر الفرعونية نجده أنه كان بناء مكشوفا على غرار الطراز الذى وجد فى بيبلوس . وما من شك أن ذلك نتيجـة اتصال الحضارات .

وأما فى افريقية الشمالية فقد كشف فى (عين طنجة) و (بهنشـير الرصاص) ، وهما فى احدى جبـال (جرن الحلفاية) شـواهد قائمة فى مكانها كانت أصلا موضوعة داخل سور .

فهل اذن فكرة بنـاء (البيتيـل) على الجبـل فكرة كانت خاصـة بالساميين فى العصور القديمة . فى الواقع وجدت عروش نحتت فى جبال آسيا الصغرى ، كانت عروشا للأرباب ، كذلك وجد فى (سوس) نوع من النذور من القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وهى تعد أقـدم ما عرف من أشكال لمرتفعات مقدسة وجدير بالملاحظة ان سكان السوس الاصليين لم يكونوا من الساميين . وكشف فى معبد الاله (شوشيناك) عن لوحة من البرونز وقد غطيت بكتلة حجرية وعليها نقش حافل بتقديس المرتفعات ، فقد وجد فيها البيتيـل والحوض ومذبح للتضـحية والقرابين وبعض المتعبدين وعدة أشجار ، تمثل الغابة المقدسـة التى كانت لازمة لاماكن العبادة ، وهذه اللوحة محفوظة بمتحف اللوفر .

الشواهد وأعمدة القبور

الشاهد أو العمود هو عبارة عن بناء تذكارى أو نذرى ، وقد كشف عن أعمدة فى المستعمرات الفينيقية مثـل مالطة ، وكشف عن عـدد من الشواهد فى قرطاج . وكان هنـاك نوعان من الأعمدة ، كبيرة تقـام عند المداخل وصغيرة تقام عند المذبح . ومن النوع الصغير عمودان فى معبـد (ملقارت) فى صور ذكرهما هيردوت (١) . فقال انهما صنعا من مادة ثمينة ، وهما لا يمثلان عناصر معمارية ، وانما هما من أبنية النذور . وذكر استرابو (٢)

(١) هيردوت الجزء الثانى فصل ٤٤ .

(٢) استرابو الجزء الثالث فصل ٥ .

انه كشف فى معبد Gades عن أعمـدة برونزية نذرية . وهـذه الأعمدة تختلف عما سمى أعمـدة Ashera التى كانت تصـنع من جزع شجرة وتوضع بجوار مذبح .

رعاية دور العبادة :

كان يقوم على تنفيذ الشعائر كهنة ، يحمل أكبرهم لقب (رب) أى رئيس ، وأحيانا كانت النساء يعملن كاهنات ، واعتبر العرافون كهنة ، وأما الخدم فكان أولهم الحراس وهم يشبهون اللاويين عند العبرانيين . ومن بين الخدم أهل الحرف والحلاقون . وغالبا ما كان يقوم الحلاقون بحلق شعر كل من يريد أن يتعبد للآلهة . وجدير بالذكر أن قص الشعر فريضة فى الشعائر الكلدانية القديمة ، اذ وجد فى هـذه الحضارة بعض رسـوم للكهنة وعباد يقدمون قرابين للآلهة جردوا من ثيابهم تماما وحلقوا شواربهم وشعور رؤوسهم ، والوظائف الكهنوتية شرفيـة خاصة ببعض الاسر ، ولا زال ذلك موجودا عند الاسرائيليين وعند الصوفية فى مصر الاسلامية، وكان موجودا فى قرطاج . كذلك كان هناك الرقيق المقدس ذكورا وأناثا وكانوا يقومون بالبغاء المقدس ، وقد كان هذا البغاء المقدس يلازم الآلهة عشتارة لأنها آلهة اخصاب . ولم يتمكن المؤرخون من معرفة سر وجود البغـاء المقـدس ، فقد أنكرته التوراة والآباء فى الكنيسة ، ووجـد عند اليونان .

طبيعة الآلهة الفينيقية :

كانت هذه الآلهـة كآلهة الاشوريين والساميين ، ودليلنا على ذلك أسماؤهم مثل (بعل) و (ملك) و (أدونا) ، وقد اقترنت الآلهة بصفة وهى « قدوش » ، وهو غير لفظ « قديس » فمعناها الحقيقى (المنفرد أو المنعزل) . فقد وصفت الآلهة الفينيقية بأنهم يرون ويسمعون وأنهم يمنحون الحياة ويحمونهم ويقدرون الأرزاق ، ويفصلون فيما شجر بين الناس ، واسم العلم عند الفينيقيين يؤلف من جمل قصيرة تشير الى عبادة العبد لربه ، فمثلا اسم العلم « شيل بعل » بمعنى بعل الذى يحمنى .

ولما كان الاله يعتبر سيدا لذلك وجدنا فى بعض الاعلام اعتبارها عبيد اله ، حتى أن بعض العباد كان يسمى « كلب الاله فلان » ، وذلك نقلا من الكلدانيين ، وغالبا ما كانوا يسمون موالى الرب ، مثل ما هو موجود فى

الأسماء العربية الحالية ، وبعض الأسماء تصرح بأن الشخص هو ابن أو أخ للرب وهى نادرة عند الفينيقيين ، ولوحظ ان أهل بلاد النهرين يعتبرون الانسان أصلا « ابنا الله » ، واذا ما خالف انسان ربه انقطع عنه بره .

الأضاحى :

حتى يصل الانسان الى رضاء الله كان لابد عليه من تقديم ضحية ، وقد صور الانسان يشارك الاله فى التضحية ، اذ وجد على أختام اسطوانية تمثيل الرب والعبد يشربان من اناء واحد . وكانت تقدم الاضاحى عند التكفير عن السيئات أو طلب البر لمريض ، وقد اعتقدوا أنه فى هذه الحال ينزل غضب الاله فى الضحية المقدمة ويبتعد بذلك الشر عن مقدم الضحية . ثم ان فكرة التضحية فيها معنى البذل عن قبل مقدمها، كما اعتبرت بمثابة وجبة تقدم للاله ، وهناك أمثلة فعلية منها وجبات كبيرة وأخرى صغيرة كل يوم مثل التى كانت تقدم الى آلهة انانا التى تقيم فى مدينة « الوركاء » (١) وأهم هذه الاضاحى أولها الثيران ثم العجول والظباء والكباش والجديان والحملان والماعز الصغير والظباء الصغيرة والطيور والحبوب والزيت واللبن والنبيذ .

وجاء فى بعض الاكتشافات أثمان الاضاحى (٢) .

« معبد بعل » (سافون) :

« تعريفة الواجبات التى حددها القوام على الواجبات فى زمن السادة : السوفيت هيلليس بعل بن بودتانيت بن بودشمون ، والسوفيت هيلليس بعل بن بود شمسون بن هيلليس بعل وزملائهم » :

« عن كل ثور سواء كان أضحية للتكفير ، أو للسلام ، أو للتعظيم : فللكهنة عشر قطع من الفضة عن كل رأس ، ولهم فى حالة التكفير فوق ذلك ــ لحم الضحية من وزن ثلثمائة . . . »

« فى أضحية السلام : الاطراف والمفاصل (؟) والجلود والسيقان (؟) والاقدام وباقى اللحم تبقى لمقدم الضحية . . . »

ويستمر النص يبين نصيب الكهنة من مختلف الاضاحى العجول

(١) ف . تورو دانجان . Etudes d'archéologie orientale 1921

(٢) الحضارة الفينيقية تاليف كونتنو ترجمة عبد الهادى شعيرة ص ١٤٣ .

والكباش والعنز والحملان والطيور المنزلية وغيرها . والاضاحى الفينيقية شبيهة بالاضاحى السامية .

أما الضحايا البشرية :

فقد وجد عند الفينيقيين الضحايا البشرية ، فقد ضحى بالطفل البكر ، وكشف فى (جزر) دليل لاشك فيه اذ وجدت عظام أطفال مودعة فى أسس المنازل الخاصة بالكنعانيين . وقد احتفظ أهل فينيقية بهذه العادة ، وروى فيلون أنه كان يضحى بأعز ولد لديهم فى حالة الوقوع فى بعض الأخطار وذلك لابعاد الشرور . كما روى ديودور تضحية بمائتى طفل فى صقلية . وكشف فى حفائر (كفر الجرة) وهى من المواقع الكنعانية عن صندوق يضم عظام اطفال تحت أساس جزء من سور وهى غالبا ضحية التأسيس وكشف فى قرطاج (١) عند أطلال معبد تانيت تحت الأرض صناديق حمراء تضم عظاما متحجرة وكذلك بقايا عقود وطلاسم اخرى ، كما عثر أيضا فى طبقات من نفس الحفائر على صناديق ايضا وبها عظام حملان وماعز وبعض عظام أطفال لم تزد أعمارها عن ستة أشهر . وواحد من هذه الصناديق محفوظ بمتحف اللوفر .

الأعياد ــ الأدونيات :

كانت غالبا ما تقام معابد المدن فوق روابى عالية قريبة من المدينة ويحج اليها الناس ، ومن أهم الأعياد الفينيقية المشهورة عيد (أدونيس) فى (أفقا) صيفا ، وكان يأتى اليه الناس من كل فج عميق ، وتتقدم المواكب نحو جبال لبنان ، ويتوقف الناس فى الطريق فى الأمكنة التى نزل فيها أدونيس للصيد ، وتصنع لأدونيس فى تلك الأعياد تماثيل من الطين الذى يحرق أو من الشمع وتوضع فى صفوف عند مدخل المعبد أو فى شرفاته ، وتأتى النسوة ويرقصن حول هذه التماثيل ، ويغنين أغنيات حزينة ، وكذلك كان يوضع فى بعض الأوانى الفخارية بذور سريعة الانبات تنبت وتذبل من حرارة الصيف ، وكان هذا رمزا لتمثيل مانزل بأدونيس. وهذا شبيه بتمثيل أزوريس فى مصر الفرعونية حينما كان يبذر المصريون فى تجويف محفور على شكل أزوريس قمحا أم شعيرا والراجح ان ذلك لتمثيل قصة حياته ومماته ، ولا زال نموذج من هذه التماثيل المحفورة معروض ضمن مجموعة توت عنخ آمون بمتحف القاهرة .

---

(١) E. Vassel et F. Icard, Les inscriptions votives du Temple de Tauità Carthage.

وقد انتقلت أعياد أدونيس هذه الى مصر أيام البطالمة ، فقد ذكر أن أهل الاسكندرية كانوا يحتفلون بجنازة أدونيس فى القرن الثانى ق.م. فى ثلاثة أيام تعطل فيها مصالح الدولة ، ويعتبر أول يوم عيداً حقيقياً حيث تقدم فيه القرابين ، واليوم الثانى حداد على أدونيس ، واليوم الثالث الاحتفال ببعثه .

والأدونيات هى فى الواقع تمثيل للجنازة . وجاء فيما كتبه بعض المؤرخين أن امرأتين من أهالى الاسكندرية كانتا تسرعان الى حيث مثوى الرب فوجدتا الرب مغطى بالحشائش ومن حوله الملائكة وهو من فوق سريره (كأزوريس) وقد غطى بأقمشة ووقفت بجواره فينوس (كما تقف ايزيس بجوار أزوريس) وقد وضعت الزهور بجواره ومن بينها زهر الادونيس . وعند الكلدانيين احتفالات شبيهة بتلك فى ملحمة البطل (أدابا) اذ يرتدى أحد الشخصيات ملابس الحزن على موت (تموز) الذى يعتبر أدونيس عند الفينيقيين .

كما أقيم عيد للقارت فى صور حيث اعتقدوا أنه مؤسس المدينة ، وقد مات بطريق حرقه بالنار ، وهو يشبه هرقليس عند اليونان . ويحرق تمثال هذا الاله فى ذكرى الاحتفال به ، ومن الجائز أن يكون الأصل هو احراق ضحايا بشرية ثم استعيض عنها بتمثال .

أما مقدار نظرة الفينيقيين لما وراء العالم ، فقد كانوا يعتقدون فى بقاء الروح بعد موت الانسان ، وان هذه الروح تظل متصلة بجثمان صاحبها ، ولذلك حرصوا على حفظ جثة الميت فى (منزل الراحة) ، كما كانوا يطلقون على القبر ، وكان المصريون القدماء يطلقون عليه منزل الحياة . وحرصوا على أن يحفظوا الجثة فى تابوت يوضع فى بئر عميق أو كهف يصعب طريق الوصول اليه حتى لا تستطيع لصوص القبور دخوله . ولم يعرف الفينيقيون حرق الجثث الا بعد أن دخلت تأثيرات سامية .

وكان يوضع أحيانا الى جوار الميت بعض الحلى والفخار ، وقد حنط الأغنياء من الموتى ، وكان ذلك فقط عند القرن الخامس قبل الميلاد ، وهذا تأثير من الحضارة المصرية القديمة . وجاء على تابوت الملك (تابنيت) الذى حنط ولكن لم يعمر التحنيط طويلا ووجد فى حالة سيئة ما يلى على شاهد القبر :

« انا تابنيت ، كاهن عشتارة ملك الصيداويين ، ابن أشمونزر كاهن

عشتارة ملك الصيداويين ، أنا ثاو بهذا الصندوق ، فأيا من تكنو يأيها الانسان الذى يقع على هذا الصندوق لا تفتح قبرى ولا تقلقنى ، فليس لدينا فضة ولا ذهب ولا أى نوع من الأوانى ، بل أنا ثاو مجردا وحيدا فى هذا الصندوق فلا تفتح قبرى ولا تقلقنى . فان ذلك امر منكر عند عشتارة ، فاذا تجاسرت على فتح قبرى وجرؤت على اقلاقى فليأذن الرب بألا يكون لك عقب بين الاحياء تحت الشمس ولا مهد للراحة عند « الريفاييم » (١) .

والخلاصة أن الفينيقيين قد نسبوا الى آلهتهم صفات سامية من العدل والخير . هذا وقد تأثرت الديانة الفينيقية ببعض المعتقدات الكنعانية . ومن أهم الأشياء التى أخذوها عنهم ، والتى نفرت الكثير من المتدينين هى عادة الضحايا البشرية التى أخذوها من الكنعانيين . هذا وقد تأثرت الحضارة المصرية فى الدولة الحديثة ببعض المعتقدات الفينيقية ـ على أن مصر كانت تمد الحضاة الفنيقية بالكثير من الفنون والآداب والديانة ـ مثل عبادة الهة العواصف والقتال وهما بعل الجبال (رشف) وآلهة الحرب (قدش) وقد ظهرا فى بعض النصوص المصرية القديمة .

* * *

الفنــــون :

ان الفن الفينيقى مركب من عناصر مختلفة نتيجة لتعدد الأقاليم التى سكنها الفينيقيون ليس فقط فى الساحل الاسيوى ، بل أيضا فى قبرس وفى الساحل الافريقى . وقد تأثر هذا الفن بمن جاوره من الحضارات المختلفة فى بلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية وبلاد الحيثيين ومصر واليونان ، وقد استطاعت فينيقية أن تصهر كل هذه الفنون فى بوتقتها وتخلق منها فنا له طابع متميز عن غيره من الفنون . وأحيانا كانوا يقومون بالاقتباس الكلى لبعض الفنون ، فنراهم مثلا اقتبسوا التوابيت الفرعونية، كذلك أيضا اقتبسوا بعض النقوش السورية كلية . وحينما ظهرت الحضارة اليونانية تأثر الفينيقيون بها ، ليس فقط فى الفنون بل فى اللغة والدين .

ان نفوذ الحضارة المصرية كان واضحا فى بيبلوس منذ عصر فجر التاريخ ، ثم يقل هذا النفوذ تدريجيا اذا ما اتجهنا شمالا حيث يحل

---

(١) ح . كونتنو : الحضارة الفينيقية ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ص ١٥٢ .

مكانه نفوذ الحوريين وكذلك حضارة بحر ايجه ، ونجد هذا التأثير واضحا فى (أوجاريت) . وقد حاول الناس فى تلك العصور أن يعملوا على تكوين فن لكنها كانت فنونا متواضعة ظهرت فى بعض أوان فخارية خشنة الصناعة . على أن لوكيه (١) قد ذكر أن الفينيقيين لاحظ لهم من الابتكار ، وقد كانوا يعملون كوسطاء ، كما أنهم كان بينهم العمال المهرة ، وأنهم كانوا فى الواقع يمثلون نشر الفنون بين الشعوب ، جاء كل ذلك عن طريق التجارة . على انه يجب ان نشير هنا الى أن الحضارة الحيثية وحضارات الشعوب الهند أوربية قد دخلت أوربا وآسيا الغربية دون الاعتماد على الفينيقيين ، بل اعتمدت على تيارات أخرى من اسيا ، بمعنى أن الفينيقيين لم يكونوا فى جميع الأحوال وسطاء فى نقل الحضارات .

ويمكننا تقسيم الفن الفينيقى الى عصرين منذ البدء الى أول الألف الأول ق . م . وهو العصر الذى قلد الفنان الفينيقى فنون مصر وايجه وغيرها من البلاد الأجنبية . أما العصر الثانى فيبدأ من الألف الأول الى نهاية العصر اليونانى الرومانى ، ويحاول الفنان فى هذا العصر أن يخرج وحدة انتظمت فيها اقتباساته ، وظهرت فيها بعض انطباعاته . ثم الى جانب ذلك فن جنازى يمكننا أن نعزله عن فنون العصرين السابقين .

وطالما أن الفن الفينيقى تأثر بالحضارات المجاورة لذلك نحاول أن نقارنه بها . فقد كشف فى بيبلوس عن آثار من الدولة القديمة المصرية (٢٧٧٨ — ٢١٥٠ ق . م) ، كان بعضها عبارة عن أشياء يحتمل أنها أرسلت من مصر ، وبعضها أشياء صنعت فى فينيقية ، وهى عبارة عن تماثيل صغيرة الحجم تمثل اشخاصا ، صنعت من النحاس يتراوح طولها من خمسة الى ثمانية سنتيمترات ، وكذلك عثر على تماثيل صغيرة لحيوانات مثل الظباء والثيران والقطط الوحشية والغزلان ، ويلاحظ أن بعض هذه الحيوانات لا توجد فى الأقاليم السورية الواقعة فى فينيقية . كذلك كشف عن ختم اسطوانى الشكل غالبا ما يكون منذ أيام الدولة القديمة . وكان على هذه الاسطوانة صور مصرية تمثل آلهة من بيبلوس (البعلت) وقد صورت على الطريقة المصرية فى هيئة ايزيس أو حاتحور وقد ارتدت رداء طويلا ضيقا ووضعت على رأسها تاجا مكونا من قرص الشمس بقرنين . ومن الآلهة التى صورت على الاسطوانة الاله (حاى تاو) كما جاء فى النقش المصاحب للصورة .

---

(١) Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 1935, 249-250.

وكشف عام ١٩٢٢ فى بيبلوس عن قبر لاحد ملوك بيبلوس عاصر فرعون مصر امنمحات الثالث الذى عاش فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريبا ، عثر فيه على تابوت وعلى فخار محلى وعدة أوان تشبه الاوانى المصرية وكؤوس مصنوعة من البرونز . وبداخل التابوت عثر على صندوق خاص بالعطور طعم بالذهب وعليه اسم امنمحات الثالث ، وكذلك نعل من الفضة ولكنه صناعة محلية ، وكذلك بقايا صناديق من العاج أو من العظم . وبالتابوت حربة من البرونز لها مقبض طويل ينتهى بسلاح عريض معقوف يشبه شكل المنجل وهو تأثير من الفن البابلى . وجدير بالذكر أنه يوجد بمجموعة توت عنخ آمون المحفوظة بمتحف القاهرة سلاح من هذا النوع صنع من الحديد . على أى حال وجد هذا السلاح فى فينيقية . وقد وضع فوق التابوت اناء من الفضة له ميزب يشبه أباريق الشاى ، وكان سطحه مضلعا وبدون شك أن هذا الابريق يدل على التأثير الميكينى ، غير انه يوجد له شبيه من الفخار فى السوس وفى هضبة ايران كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد . وقد عثر على كثير من الفخار فى قبور أخرى فى فينيقية فى النصف الاول من الالف الثانى .

وكشف أيضا عن ثلاثة قبور أخرى فى نفس المكان وجد بها حراب جديدة واشياء أخرى من التى كان يرسلها ملوك مصر الى أمراء بيبلوس ، ثم الى جانب ذلك أشياء محلية قلد فيها الصانع الفن الفرعونى ، وقد نقش على أحد هذه الأسلحة اسم صاحبها باللغة المصرية القديمة (ابشيموابى) وكذلك عثر على صدريات شبيهة بالصدريات التى كشفت أيام ملوك الدولة الوسطى فى مصر الفرعونية عند أميرات من هذا العهد ومحفوظة بمتحف القاهرة . ثم عثر على ميدالية على هيئة محارة وعليها اسم الأميرة باللغة المصرية القديمة (يوجد بعض الحلى فى متحف القاهرة من هذا النوع الاخير ايضا) . ومظهر هذه الحلى مصرى ولكنها غالبا ما تكون صنعت بأيدى فينيقية حيث ينقصها الدقة .

وقد كشف فى هذا المكان أيضا عن سكين لها حد من الفضة طعمت بالذهب ، كما عثر على قدر من الفخار يضم حلى ثمينة اهمها جعارين حلزونية الشكل وهى من مميزات عصر الهكسوس وكذلك بالقدر خواتيم صنعت من أسلاك (بمتحف القاهرة خواتيم من هذا النوع) وبالاناء ايضا زهرية من الفضة صغيرة ولها حامل فيه تأثير من الفن الفينيقى شاع فى هذا العصر . كما عثر أيضا على أختام اسطوانية ظهرت بصماتها على اللوحات الكبادوكية (نسبة الى كبادوكية بآسيا الصغرى حول عام ٢٠٠٠ ق.م) وقد سكنت هناك جماعة سامية وقد عاصرت الدولة الوسطى فى العصر الفرعونى . وقد صور على هذه الأختام صور حيوانية وانسانية ، وأحد

هذه الاختام قد صور عليه حيوان يحمل شكلا مخروطيا غالبا ما يكون رمزا لبيت الرب (البيتيل) ، وفى الجانب الآخر يرى شخص فوق حيوان لا يستطيع أن نتبين شكله ، وبين المجموعتين مائدة قربان ، وهناك بين هذه الصور قرص داخل هلال وهلال واناء .

وعلى صفحات بعض هذه الاسطوانات نقوش متاثرة بالفن الذى كان سائدا فى عيلام وبلاد ما بين النهرين ، كما عثر فى نفس الاناء على بعض حلى فيها تأثيرات من بلاد القوقاز (١) بعضها على شكل سلال ومواسير مكونة من أسلاك نحاسية ملفوفة بطريقة استخدام الزنبرك . وقد عثر على أصل هذه الحلى فى بلاد القوقاز ، وكان يستخدم فى الشعر ، وهى متأثرة بالحضارة السومرية والمصرية .

أما المعبد الذى كشف فى بيبلوس ، فهو بناء ظهرت فيه تأثيرات مصرية وأخرى سامية ، فقد شب حريق فى المعبد فى أواخر الدولة القديمة ، واعيد بناؤه فى الدولة الوسطى ، وظل ذلك البناء باقيا حتى العصر الرومانى ف، ثم رمم المعبد بعد ذلك . والمعبد كما وصفه (بنجامان التوديلى) الذى زاره عام ١١٦٥ م يشبه ما وجد مرسوما على عملة من ايام الامبراطور (ماكرين Macrin) فى آخر القرن الثانى الميلادى . وبعض العلماء يرى أن المعبد شبيه بمعبد أورشليم وما فيه من خواص سامية . وكشف عن معبد آخر عام ١٩٣٢ فى بيبلوس به مسلات صغيرة، ووديعتى تأسيس ، احداهما عبارة عن اناء يضم ودائع ذهبية وفضية وبرنزية ، وكذلك فاسان احداهما محدبة ثم خنجر حده من الذهب ، وعلى غمده الذهبى نقشت صور حيوانات وشخص امتطى بغلا ، وقد بنى المعبد نفسه على اطلال بناء قديم ، ووجد به عشرون مسلة صغيرة يتراوح ارتفاعها بين ٨٠ سنتيمترا ، ٣ ١/٢ مترا ، وغالبا أن هذا المعبد من أيام الدولة الوسطى الفرعونية .

والخلاصة أن الفن الفينيقى فى عصره الأول به أشياء مستوردة وبه أشياء حاول الفنان فيها أن يحاكى هذه الأشياء المستوردة من مصر ومن كريت (ميكيه) ومن آشور ، أما التأثر القوقازى الذى ظهر فى الحلى المكتشفة فهى أما مستوردة أو انها مقتبسة من هذا الفن . وسنفصل تأثير الفن السكيثى الذى جاء من القوقاز وغزا الشرق الادنى ، وذلك عند الحديث عن الهضبة الايرانية .

---

(١) H. Hubert, De quelques objets de bronze trouvés à Byblos.

أما حفائر رأس شمرا فقد تميزت بوجود طبقات قسمها مكتشفها خشنة الصناعة محفورة عليها خطوط لها مقابض سنامية (ledge handle) وأدوات صنعت من الصوان والعظام. أما فخار الطبقة الرابعة فهو ملون برسوم هندسية فى القسم الجنوبى (فى الفخار المصرى رسوم حيوانية) وقد لون بلون واحد ، والفخار نفسه أصلا ملون باللون الأصفر ومن نوع فخار (العبيد) . بينما نجد فخار القسم الشمالى مزود برسوم هندسية أو حيوانية مع اتجاه فى التلوين بالنقط البارزة ، وفخاره بطانته صفراء أو مائلة الى لون الجلد وهو يشبه فخار (تل حلف) . والنوع الشمالى هو الاهم اذ انه له شكلين ليس لهما مقابل فى الجنوب وهما الكؤوس المقدسة وأوعية شبيهة بالمصابيح التى توجد فى المساجد .

وحضارة العبيد التى ظهرت واستكملت خصائصها بالقرب من (أور) قد اختلفت مدة بقائها فى الاماكن التى ظهرت فيها . وقد ظهر بعد ذلك فى (أوروك) وهى الوركاء الحديثة حضارة استخدمت النحاس ونشأت فيها أشكال معمارية أخرى ، كما ظهرت فيها الكتابة واختام عادية واخرى أسطوانية ، وفخارها وردى اللون أو الاحمر زين احيانا بالحفر وله مقابض.

ويظهر بعد ذلك بالقرب من كيش فخار (جمدة نصر) ويحل محل فخار الوركاء ، وعلى صفحته خطوط دائرية وقد لون بألوان مختلفة . والمركزان الاخيران (الوركاء وجمدة نصر) يعتبران عند بداية العصر التاريخى حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. غير انه فى بعض الاحيان استمر استخدام فخار العبيد اثناء الالف الثالث قبل الميلاد (وعلى ذلك فتؤرخ الطبقة الرابعة بحوالى النصف الاول من الالف الرابع) .

وأمكن تأريخ الطبقة الثالثة فشملت النصف الثانى من الالف الرابع واستمرت خلال الالف الثالث وفخارها ينقسم الى قسمين الاعمق يشبه فخار العبيد الحديث المزود بمقابض مثقوبة ، أما القسم الثانى فهو يشبه السلاطين وقد صنع من مادة طينية حمراء أو سوداء لها بريق ، وسمى بالفخار الكنعانى ، وهو يعطينا فكرة عن مطلع ظهور العنصر الكنعانى وهو جديد لم نسمع عنه من قبل .

وأمكن تأريخ الطبقة الثانية من ٢١٠٠ الى نهاية القرن ١٦ ق.م. وهو يقابل عصر الدولة الوسطى الفرعونية .

على أن الفينيقيين كما سبق أن ذكرنا لهم طابع خاص ويظهر ذلك واضحا فى دور العبادة وقد بنيت هذه المعابد (اثنان منها تم معرفة

تاريخهما) فى الفترة التى مرت بها الطبقة الثانية فى حفائر رأس شمرا ، ثم رمما فى عصر الطبقة الاولى ، والمعبد عبارة عن ساحة يتوسطها مذبح ، وبالمعبد منصة زينت بصورة الاله ، وقد سورت الساحة بسور مزدوج بينهما رديم من اللبن ، واحدهما كان خصيصا للاله بعل (١) . والمعبد الثانى يقع على مسافة ٥٢ مترا من هذا المعبد وكان مكرسا للاله (داجون) والد الاله (بعل) . اما فخار هذه الطبقة فكان عبارة عن جرار لها عنق طويل وفوهة ضيقة زينت بالتنقيط الذى لون أو خطط . وظهر فى هذه الطبقة تأثيرات خارجة اتت من آسيا الصغرى نتيجة لفتح الحيثيين لبابل ، فقد كشف عن قلائد ودبابيس ثقبت فى ثلثيها الاعلى . كما ظهر أيضا فى هذا الوقت تأثير مصرى قديم فى رأس شمرا ، وقد سبق أن ظهر فى بيبلوس ، وقد عثر فى أوجاريت عن قرابين قدمها سنوسرت الاول واخرى من زوجته وبعض أجزاء من تمثال لابى الهول الملك امنمحات الثالث ولوح لاحد الولاة الذين كانوا من سفراء فرعون هناك .

أما الطبقة الاولى : فهى تتمثل فى عصر البرونز الحديث (١٥٠٠ — ١١٠٠ ق.م) ، وقد ذكر شيفر ملاحظة عن حدوث حريق فى الآثار المكتشفة التى أرخت بأيام امنحتب الرابع (اخناتون) كما ظهر تأثير ايجى الى جانب التأثير المصرى . وفى هذا الفخار فخار مستورد به بعض كؤوس عليها اقنعة وجوه آدمية . ثم هناك نفوذ ثالث وهو التأثير الحورى نتيجة استقرار الكشيين فى بابل وتأسيس الدولة الميتانية وهى التى دفعت الهكسوس الى مصر . وقد ظهر أن الحوريين اقاموا فى أوجاريت فترة من الزمن طويلة وأحاطوا المدينة بالاسوار ، وقد اثروا فى لغتهم وقلدوا انواع الفخار الايجى ، كما دفنوا الموتى بأسلحتهم ، وكشف عن أسلحة واطباق من ذهب عليها رسوم حيوانية متأثرة بالفن الفرعونى والاشورى كما عثر على تماثيل برونزية بعضها له غطاء رأس على الطراز المصرى . ومنها تمثال للاله بعل من البرونز يرتدى رداء الى الركبة . كما عثر على موازين وصنوج ، وبعض هذه الصنوج على شكل ثيران كما هو موجود فى صنوج الفراعنة ، واحدة لها رأس حيوان (٢) . ومن فحص الصنوج أمكن الوصول الى معرفة ان الفينيقيين قد تركوا النظام السومرى الستينى الى نظام الـ (مين) ويزن ٤٦٩ — ٤٧٠ جراما ، وهو يعتبر وسطا بين المين البابلى والذى كان يزن ٦٠٥ أو ٤٩١ جراما وبين المين المصرى الذى كان يزن ٤٣٧ جراما ، واستخدم هذا المين فى فلسطين ، وكان يقسم المين الى ٥٠ شيقلا ، والثالان الى ٣٠٠٠ شيقل . كما عثر على تماثيل فضية

(١) مجلة سوريا ١٩٣١ لوحة رقم ٦ .

(٢) مجلة سوريا ١٩٣٧ لوحة رقم ٢٣ ، ٢٤ .

خشنة الصناعة ضيقة الجبهة ولها انف كالمنقار ، وهى فى شكلها تشبه التماثيل السومرية أو التماثيل الحورية أو تماثيل تل حلف .

وكشف أيضا عن صفائح من ذهب عليها صور لالهة عارية مثلت واقفة على ظهر أسد ، كما عثر على اسطوانات عليها تأثير مصر وقبرس وبلاد الرافدين .

اما عن الآثار التى عثر عليها من الالف الاول الى آخر العصر اليونانى الرومانى :

تتمثل فى دور العبادة ، وقد كان المعبد يتألف من ساحة يوضع فيها تمثال الاله وحده أو معه معبد صغير ، ويوضع أمام التمثال مذبح مثل معبد (عمريت) وساحته منحوتة فى الصخر لمسافة ٢٥ مترا وعرضها ٤٨ مترا ، وترتفع جدران السور الى خمسة أمتار ، ويطل جداره الشمالى على وادى نهر عمريت . وكان فى كل نواحى السور أروقة لها غالبا عمد خشبية . ويتوسط الحوش كتلة تركها النحات يبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة أمتار ليقام عليها معبد صغير ، وغالبا ما كانت الساحة تملأ بالماء فيصبح المعبد الصغير منعزلا عن الناس (وجدير بالذكر ان قبر أزوريس فى الديانة المصرية القديمة قد أقيم فوق جزيرة تحيطها المياه) ويحتمل أن هذا المعبد مؤرخ من القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد . وهو معبد يدل على اتجاه الفينيقيين نحو الضخامة والابنية المنقورة فى الصخر الطبيعى .

وكشف عن اطلال معبد (اشمون) عام ١٩٠١ فى صيدا ، وكان على تل بالقرب من نهر (أوالى) وكان يسمى قديما نهر (اسكليبيوس) ، وبين هذه الاطلال سور عرضه ٥٩ مترا وطوله ٤٥ مترا على وجه التقريب والراجح أن المعبد كان مدرجا درجات متتابعة ليصبح المعبد الصغير فى المدرج الاعلى . وقد كشف عن منشآت أخرى عام ١٩٢٠ ، وعثر فى هذه المبانى على نصوص تضم اسم من أقام هذا البناء وهو (الملك بودعشترت) ملك صيدا حكم آخر القرن الخامس قبل الميلاد جاء فيها « الملك بودعشترت مع ولى عهده ... بنى هذا المعبد للاله أشمون سارقادش » وهى صفة للاله اشمون .

أما معبد (أفقا) فقد بنى فوق ساحة جزء منها طبيعى والجزء الآخر ردم ويشرف على نهر ابراهيم وهناك نص ينسب الى عهد قسطنطين ، ويرى البعض أنه بنى أيام جوليان (٣٥٥ — ٣٦٣) . وهدم المعبد نتيجة زلزال أيام القرن السادس الميلادى ، ولا زال يقدس الناس بعض الاشياء

التى وجدت فى مكانه فيعلقون هناك مصابيح فى شجرة ، ويدهنون الشجرة بشىء من عطر . وهناك معابد تشبه معبد (أفقا) فى خارج فينيقية مثل تخطيط معبد هيرابوليس ، ويعرف حاليا باسم (منبج) وكذلك معبد (جوبيتر) الذى كان فى دمشق وتحول أيام (تيودوز) الى كنيسة مسيحية ، واصبح بعد ذلك الجامع الاموى الكبير ، وكان بناء للاله (حداد) الاله الاكبر الخالق . وكان أيام الرومان عبارة عن معبد صغير امامه مذبح فى ساحة محيطة ببواكى من الداخل ، وهذه كانت تدخل فى ساحة أكبر لها سور ولها رواق داخلى ، والسوق العتيق كان مبنيا فى هذه المساحة الكبيرة . وقوس النصر الموجود حاليا فى دمشق يمثل احدى البوابات الخاصة بهذا السور الخارجى . وضاع كل ذلك فيما عدا السور الثانى وكان ليس به المعبد ولا المذبح ، وهو الذى نراه حاليا حول الجامع الكبير .

وقد جاء تمثيل كثير من المعابد الفينيقية أو القبرسية على النقود الرومانية ، منها عملة بيبلوس من عصر الامبراطور (ماكرين) ٢١٧ م وعليها رسم معبد المدينة محاط بسور ، وبوسطه ساحة منتصفها قاعدة . اما المدخل فكان على شكل بوابة . كما عثر على عملة قبرسية عليها معبد من العصر الرومانى عبارة عن حوش صغير نصف دائرى ، وأمام المعبد عمودان ينتهيان بفرعين فوق كل فرع كرة . وكان ذلك من الامور المعروفة لدى الفينيقيين والساميين جميعا ، وتنسب الاعمدة الى أسرة أور الاولى . كما مثل المعبد القبرسى على لوحات صغيرة فخارية دائرية أو مربعة وامامها عمودان . ويعلو المعابد ثقوب تشبه فتحات أبراج (١) الحمام ، لان الحمام كان من لوازم عشتارة اذ انه كان يأتى الى معبد الالهة بأعداد كبيرة . وقد صور الحمام فوق البوابات مرسوما على عملة (بافوس Paphos) من العصر الرومانى .

والى جانب النحت ، قام الفينيقيون بالبناء بالحجر دون ملاط وأحكموا اتقان عدم وجود فواصل واسعة ، وقووا هذه الحوائط بعجينة من الرصاص . واخذوا من الفرس بعض الاعمدة ذات التيجان الحيوانية خصوصا ايام أن كانت صيدا عاصمة سترابية فارسية ، كما أنه عثر على أعمدة فى صيدا تيجانها فيها رسوم أنصاف دوائر تتعاكس وتتداخل وهذا لون من تأثير الفن الرافدى . أما عن الزينات الزخرفية فقد كشف عن بلاط من المرمر فى بيبلوس وحلى بشكل سلالم من ناحيتين يلتقيان على شكل قمة ، وهى حلية من الحضارة العراقية القديمة ، فقد وجدت مثلها فى

(١) ج . كونتنو ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة شكل ٩ وصفحة ٨٩ .

تينوى وكذلك فى سوس ، وعلى العموم فالسلم كان وحدة زخرفيةمألوفة فى فينيقية أيا مالعصر الفارسى . وهناك زخارف أخرى وحدتها الزخرفية على هيئة بيض أو قلوب ، ثم زينة على هيئة القرص المجنح ، ثم زخارف على صور دوائر الزهر وفروعه المنحنية . كما يوجد عناصر زخرفية أخرى مثل السعف ، وغالبا ما يحيط بالصور نسور أو اباء الهول ؛ وكانت هذه الاخيرة مجنحة بأجنحة مطوية ، وهى ليست مصرية ولا أشورية .

كما وجدت معابد صغيرة منحوتة فىالصخر على شكل معبد صغير قائم فوق قاعدة وبأعلاه كرة مجوفة ، وغالبا حليت الواجهة بافريز من النجوم واحيانا يضاف اليها القرص المجنح . وداخل المعبد عادة مفرغ كله أو نصفه بصورة الرب ، وهذه النماذج كانت توضع فى المنازل للعبادة ويحتفظ متحف اللوفر بنماذج منها ، وفى أحدها صورة لاله فينيقى وهو بعل الرعد والبرق .

وكان بالمعابد الفينيقية أثاث من مذابح وعروش للالهة وتماثيلها ، وزخرفت المذابح من العصر الرومانى بزخارف كثيرة . وكانت عروش الالهة من الحجر على هيئة كرسى له ظهر بجانبه صور السبع أو ابوالهول أو العقاب ، وذلك شبيه بما هو موجود فى بعض عروش الملوك فى العصر الفرعونى .

من كل ذلك نلاحظ ان الفن الفينيقى وجد ونما ، ولكن حينما نحاول تمييز الفن الفينيقى عن غيره من الفنون او نحدد صفاته تصادفنا صعوبات كثيرة .

ففى نهاية عهد البرونز نجد خليطا من الفن فى الساحل وما وراءه . ومنذ أيام الاسرة الثانية عشرة الفرعونية ، أو ما قبلها ظهر فى فينيقية روائع من الفن الفرعونى عند الكنعانيين واستمرت التأثيرات المصرية خلال الأسرة الثامنة عشرة ، ولا نعجب اذ نجد هذا الاتجاه مستمرا حتى بعد ضعف الحضارة المصرية فى الأيام الأخيرة من عهد الرعامسة .

ولم تكن التأثيرات الفنية من بلاد الرافدين قوية فى الألف الثانى قبل الميلاد كما لاحظنا فى التأثيرات المصرية ، وقد وجدناها على وجه الخصوص فى النقش على الحجارة الكريمة ، وفى الاختام الاسطوانية والعادية وقد اختلطت ببعض التأثيرات والزخارف الفرعونية . وقد تأثرت فينيقية بالفنون الحيثية أيضا . وكذلك فى خلال القرنين الخامس عشر والرابع

عشر تأثرت بالثقافات الحورية (الميتانيين) ، ولكن لم يكن لهؤلاء فن مميز لهم من العهد الميناوى الاوسط منذ أوائل الالف الثانى قبل الميلاد ، كذلك عثر فى بيبلوس على بعض رسوم حلزونية ذوات طابع كريتى على جزء من اناء من الفضة . ولكن هذه التأثيرات لم تكن مباشرة حتى منتصف الالف الثانى .

وعلى ذلك ما هى الأشياء التى يمكننا أن نطلق عليها فنا فينيقيا وسط ذلك الخليط من الفنون فى نهاية عهد البرونز وبداية عهد الحديد ؟ وللأسف الشديد أن المنطقة التى نعتمد عليها هى بيبلوس ولا زال جزء كبير من مقتنيات حفائرها لم ينشر بعد . وليس لدينا أى شيء نستطيع أن نؤرخه بشيء من الدقة قبل القرن السادس ق . م . وليس معنى ذلك انه ليس لديهم نشاط فنى قبل ذلك ، فقد كشف عن جبانة كبيرة من القرنين الثامن والحادى عشر ق . م . بالقرب من مطار بيروت وكذلك عثر على بعض قبور فى (خربت سليم) وغيرها بها فخار من عصر الحديد . وكذلك كان يشترى فى فينيقية أشياء صغيرة مصنوعة من البرونز من بعض المدن العبرانية . ويصعب على الانسان ان يفرق بين الفن الفينيقى الحقيقى وما شابهه من الفن الخليط فى شمال سوريا وما وراءها . لقد واجه الفن الفينيقى تأثيرا مصريا واضحا وكذلك رافديا وأحيانا ميكينيا .

عصر البرونز المتاخر :

وحتى نضع أمام القارىء صورة من الفن الفينيقى الناشىء فلنبدأ بتابوت (أحيرام) الذى عثر عليه فى بيبلوس . فقد وجد فى حجرة الدفن رقم ٥ والتى تعاصر عهد رمسيس الثالث (القرن الثالث عشر ق.م.) بعض آثار اهمها هذا التابوت الذى يحتمل انه أعيد استخدامه بواسطة الملك احيرام . والتابوت مستطيل الشكل يعتمد حوضه على أربعة سباع واضح أفواهها ومخالبها من حجر التابوت . وجسمها يمثل سجاف التابوت (أنظر شكل ١٩) . وقد أحيطت حافة الحوض العلوى من جهاتها الاربع بشريط زخرف بزهرات اللوتس وبراعمه على الطريقة الفرعونية . ويمين السجاف والحافة العلوى من الجانبين الطويلين منظر يمثل الملك أحيرام ملتحيا وقد استوى على عرشه الذى زين من الجانبين بأبى الهول المجنحين ، وقد قبض الملك فى احدى يديه على كأس وبالأخرى زهرة لوتس وأمام الملك كرسى عليه بعض الاطعمة ، ومن أمامه موكب فيه سبعة أشخاص عاليهم ثياب معقودة بأوساطهم ، وحمل أولهم المذبة وهى من الشارات الملكية فى الحضارات القديمة (واضحة فى الحضارة المصرية) ، واثنان من الخدم يحملان هدايا ، وشوهد الاربعة الاخرون يرفعون أيديهم تحية

للملك . وحلى كل من الجانبين الصغيرين بأربعة اشخاص رفع اثنان ايديهما الى ما فوق الرأس بينما الاخران يرفعانها الى مستوى اثدائهما وظهرت أنصاف أجسامهم العليا عارية . وهما اما يؤديان رقصة تقليدية أو أنهم يمثلون نواح النائحات . وغطاء التابوت يأتى باستدارة خفيفةوعليه صورة الملك وبكل طرف بروز يستخدم مقبضا على هيئة الجزء الامامى لأسد . وعلى الحافة نقوش مكتوبة وتذكرنا هذه الأسود بمثيلاتها فى الفن الاشورى والحثى .

وقد عثر على قطعة من العاج مع هذا التابوت تعاصر مجموعة عاج مجدو الذى يتكون من امشاط وصناديق لادوات الزينة وملاعق وقطع من اثاث مطعمة ، اغلبها يرجع الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحداتها خليط من الفن المصرى والفن الشرقى (١) وبعضهما قريب من الفن الايجى وعلى سبيل المثال عثر على قطعة من العاج (٢) نقش عليها الهة بين عنزتين وترتدى الالهة نقبة ذات حواشي وظهر نصفها العلوى عاريا ، وهى توضح التأثير الايجى فى شمال سوريا .

كذلك عثر على تماثيل برنزية فى أوجاريت وبيبلوس و Enkomi (فى قبرس) وغيرها من المواقع من عهد البرونز المتأخر وكلها فيها روح الفن الفينيقى . واغلبها يمثل الالهة (بعل أو عشتارة) من معدن وقد ارتدى كل منهما قميصا وبعضها عاريا من الملابس . وقد صنع بعضها مزدوجا او فىمجموعات من أربعة الهة . ويحتفظمتحف اشمولباكسفورد بثلاثة نماذج منها (٣) .

بعض نماذج من فنون الفينيقيين (فى فينيقية) من القرن التاسعق.م

يوجد هوة بين الآثار التى عثر عليها فى عهد البرونز المتأخر والتى سبق ان ذكرنا طرفا منها وبين المجموعة التى ظهرت بعد ذلك ، بحيث لم نجد آثارا قبل القرن التاسع .

ونستطيع ان نضع فى القرن التاسع الى نهاية الثامن المجموعات العاجية التى عثر عليها فى (سماريا) و (ارسلان تاش) و (قصور

---

(١) G. Loud, Megiddo-Ivoires (Chicago-Orient). Inst. Publ. no. 52, 1939.

(٢) عثر عليها فى منية البيدا بسورية ومحفوظة بمتحف اللوفر Louvre (AO 11601).

(٣) عثر على رقمى (٥٩٢ ، ١٨٩٠) فى بيروت . أما الاخران احدهما اشترى من حلب ، والآخر بالقرب من سرديس .

الاشوريين) فى (نمرود) و (خورس اباد) . وقد درس بعض العلماء هذه المجموعات ويميل بعضهم الى تسميتها فنونا سورية (آرامية وليست كنعانية) . والبعض يقسمها الى مجموعتين ، مجموعة فينيقية والاخرى سورية . والاولى وتتمثل فيما عثر عليه فى (ارسلان تاش) وفى الشمال الغربى من قصر نمرود ، وهى تظهر خليطا قويا من الفنـون الفرعونية والاسيوية ، لتصبح بعد ذلك فنا فينيقيا ، وعلى سبيل المثال قطعة من العاج محفوظة بمتحف المتروبوليتان (١) بنيويورك يطلق عليها « امراة فى النافذة Woman at the window » فموضوعها كله كنعانى ، اذ انها لون من عبادة الالهة عشتارة ، والمراة هنا تمثل لونا من الدعارة المكرسة لهذه الالهة ، ولكن ارتدت المراة لباسا للراس مصريا ، وقد رفعت النافـــذة بواسطة عمد زينت تيجانها بسعف النخيل . وهناك حشوة أخرى من العاج (٢) تمثل صورة لانثى وهى هنا تمثل الالهة (ايزيس) الى اليمين من شجرة مقدسة . والسيدة هنا قد ارتدت رداء مصريا الذى تضعه الالهة ايزيس وقد زودت بأجنحة وقبضت على زهرات من لوتس فى يديها ولكنها صورت امام شجرة اسيوية . كذلك هناك مثل رائع من الفن الفينيقى فيه أثر من الفنين الفرعونى والاشورى (٣) اذ عثر على قطعة من العاج فى أرسلان تاش تمثل أبو الهول مجنحا على الطريقة الاشورية ، ولكن متأثرا تأثيرا قويا بالفن الفرعونى ، ويتضح ذلك من لباس الرأس والتاج . وهناك تأثيرات اشورية فقط تظهر فى بعض القطع العاجية ، فهذه قطعة محفوظة بمتحف اشمول (٤) من نمرود وهى جزء من حشوة من العـاج خاصـة بصندوق وعليها نقش يمثـل عجـلا مجنحا وبرأسـه غالبا وردة كبيرة وظهر الرسم ممتازا ، ويحتمل أن الثور متأثر بالفن الكريتى .

والراجح أن هذه النماذج تمثل حشوات لبعض قطع اثاث صنعت بأيدى فينيقية اما فى فينيقية نفسها أو فى آشور نفسها .

والمجموعة السورية تتمثل فيما عثر عليه فى الجنوب الشرقى للقصر

---

(١) مؤرخة من القرن التاسع ق.م. من ارسلان تاش بسوريا . فى متحف متروبوليتان.
(N.E. Dept., Fletcher Fund, no. 57.80.11) H. 0.83.

(٢) مؤرخة من القرن الثامن ق.م. من ارسلان تاش بسوريا . فى متحف متروبوليتان
(N.E. Dept., Fletcher Fund, no. 57.80.10) H. 0.08 m.

(٣) مؤرخة من القرن الثامن ق.م. من ارسلان تاش بسوريا . فى متحف متروبوليتان
(N.E. Dept., Fletcher Fund, no. 57.80.1) H. 0.12 m.

(٤) جزء من حشوة صندوق من العاج . مؤرخ من القرن الثامن ق.م. فن اشورى من نمرود بالعراق ، محفوظ بمتحف
Ashmolean Museum, Oxford, No. 1956. 960. L. 0.102 m.

في نمرود وغيرها من المناطق ، وهي تضم أساسا أجزاء من صناديق صغيرة أو مذبات أو أمشاط وامثالها . وبالمتحف البريطاني (١) قطعة من وعاء عاجي عليها منظر يمثل أبا الهول مؤنثتين ، وعلى كل من جوانبهما شعر وبينهما شجرة مقدسة . والوجه سوري في طرازه وملامحه . وبالمتحف نفسه (٢) اناء للعطور من العظم على هيئة انثى تقبض على زهرة لوتس في يديها . ووجه السيدة أسيوي اكثر من أن يكون مصريا ، ولكنها وضعت لباسا للرأس فرعونيا . وبالمتحف البريطاني رأسان (٣) أحدهما يمثل امرأة وفوق رأسها تاج قصير مستدير ، وتدلى فوق صدرها جدائل من الشعر ، وهنا مثلت المرأة على الطراز السوري ، ووجه السيدة وجه سامي . والرأس الثانية ، وهي أيضا جزء من اناء للعطور ، ولكنها لها الطابع المصري الاصيل .

اما فيما يختص بفن النحت على المعادن عند الفينيقيين ، فقد عثر في القصور الاشورية ، وفي قبرس وفي بلاد اليونان وفي Etwria والكثير منها له الطابع المصري اكثر من العاج السابق وصفه ، وبعضها له الطابع الاشوري . وهي متأخرة في العهد عن الاثار العاجية السابقة وغالبا ما ترجع الى القرنين الثامن والسابع ق.م . ويحتفظ المتحف البريطاني بجزء من اناء من الفضة ظهر فيه خليط من الطرز وكشف عنه في قبرس ويمثل الافريز الخارجي غالبا هجوم على مدينة فينيقية من الاشوريين والمصريين واليونان ، والافاريز الداخلية اغلبها رسوم فرعونية ولكن فيها منظر فينيقي يتمثل في اثنين يجمعان زهورا من شجرة الحياة الفينيقية التي تشتمل على نخيل ولوتس . وواضح من يمين الرسم الافريز الاول ان العساكر الاشوريين واليونان يهاجمون المدينة ، بينما يصعد جنود مصريون على سلالم في الناحية اليسرى من الافريز نفسه ، ويقوم بعض المصريون بقطع الاخشاب بواسطة بلط مزدوجة ايجية . وفي الافريز الثاني الهة مصرية (في الوسط نفرتم غالبا) وعن يمينه الالهة نفتيس والهة اخرى بينها الجعران المجنح وقد جلس الجميع على قواعد ذات طابع مصري صميم .

وعثر في Praeneste بايطاليا في قبر Bernardeni من أواخر القرن

(١) القرن الثامن ق.م. محفوظة بالمتحف البريطاني H. 0.06 m. No. 126513

(٢) القرن الثامن ق.م. محفوظة بالمتحف البريطاني H. 0.158 m. No. 127136

(٣) رأسان من العاج ، غالبا ما كانا يمثلان جزءا من اناء والاولى (١) طرازها سوري بينما الثانية (ب) طراز مصري . وهما محفوظان بالمتحف البريطاني .
Nos. 118232 and 118216. H. 0.044 and 0.04 m.

السابع ، على انائين من هذه الأواني . أحدهما (شكل ٢٠) من الفضة وطرازه فرعوني ، وبوسطه المنظر التقليدي المعروف عند الفراعنة وهو تمثيل فرعون وهو يضرب الأعداء قابضا بيساره على شعورهم بينما يهوي بيمينه بسيف في يده ، وحول هذا النقش أربعة قوارب من البردي تضم الهة أو جعارين مجنحة . وحول الاناء نقشان من تقليد للغة المصريين القدماء التي لا تعطى أي معنى ، ولكن هناك كتابة منقوشة بالفينيقية (أضيفت) بعد ذلك ، تعطى اسم صاحب الاناء Eshmunazar ben Asto هذا هو أبرز مثل للحضارة الفرعونية في هذا العهد وانتشارها في شمال البحر المتوسط وقيام بعض هذه الشعوب بتقليدها ، وبدون شك هذا الرسم بأيدي أجنبية وليس بأيدي مصرية صميمة ، فهو تقليد للحضارة المصرية .

أما الاناء الذي كشف عنه في قبر Bernardini (شكل ٢١) فهو اناء من الفضة المذهبة طرازه أسيوى . فالافريز الخارجي يشمل نقوشا تمثل مركبات وحملة أقواس وبناء أشوري وحصون ، ومع ذلك فيوجد جعران مجنح وبالافريز الداخلي ثماني خيول تتمخطر وبعض طيور . والرسم الداخلي خليط من الصور الفرعونية والآسيوية . وبالاناء صور غريبة وهى عبارة عن ثعبان يحيط الرسوم كلها .

وبمتحف اللوفر (١) اناء من الفضة المذهبة من الداخل عليه رسوم اشورية ومصرية شبيهة بالفن الفينيقي عثر عليه في قبرس ، وهو يمثل أفاريز بها مناظر معارك رجال مع أسود وحيوانات خرافية وأبا الهول . ورسم بوسط الاناء رسم شبيه بالسابق أصله فرعوني .

أما فيما يختص بالتماثيل الصغيرة المعدنية ، فيلاحظ كثرة في صناعة هذا النوع من التماثيل عما سبق . فبمتحف اشمول (٢) باكسفورد تمثال صغير من البرونز لسيدة اشترى من حلب وقد ارتدت نقبة من ثلاثة حواش قصيرة ، وهى رداء يغلب عليه الطراز الايجي ، بينما يظهر على الوجه السحنة الفينيقية .

ومن ناحية اللوحات الحجرية ، فقد عثر في Marathus على لوح من الحجر الجيري ارتفاعه ١٫٧ مترا ، نقش عليه من أعلا قرص مجنح على الطريقة الفرعونية ، وأسفله قرص فينيقي ومن حوله هلال ، كل ذلك فوق نقش للاله بعل مرتديا رداء مصريا ، وقد توج بتاج فرعوني حلى من الامام

---

(١) رقم AO 20134 باللوفر

(٢) بمتحف اشمول No. 1913.49. H. 0.078 m.

بعل ، رافعا يده اليمنى ملوحا بسلاح ، بينما قبض فى يسراه على أسد صغير من ذيله ، وقد وقف الاله على أسد يقف على ما يشبه الجبل ، وموضوع النقش كله يذكرنا بالطرز الآشورية . وغالبا ما تؤرخ تلك اللوحة بالقرن التاسع ق.م. وعثر فى Aradus على نقش فوق قطعة من المرمر يشبه العاج وصناعته ومعاصر له ، وقد مثل عليه حشوة على هيئة سجادة بها وحدة من النخيل الفينيقى تتوسط اطارا مزخرفا. وفى الوسط أبو الهول المجنح وقد وضع فوق رأسه التاج المزدوج (مثل الذى يرتديه فرعون مصر) . ومن أسفل مذبح صغير أو منضدة .

وقد عثر على لوح من الحجر الجيرى ارتفاعه ١٫٨٠ مترا معروض حاليا فى كوبنهاجن (١) ، وقد نقش عليه Baalyaton واقفا وقد ارتدى رداء طويلا ، وفوق رأسه غطاء للرأس مستدير ويعلو اللوح قرص الشمس المجنح والمزين بصلين . واللوح طرازه فينيقى ولكن فيه تأثير اغريقى خصوصا فى سحنة الوجه . وقد كتب بالفينيقية « لوح تذكارى Baalyaton بن Baalyaton الرئيسى » ، وغالبا ما تؤرخ من القرن الرابع أو بداية القرن الثالث .

الفن الفينيقى فى قبرص :

سبق أن ذكرنا الصعوبة التى تواجه الباحثين لتمييز الطرز الفينيقية فى فينيقية الام ، كذلك الحال ايضا فيما يختص بالفن الفينيقى فى قبرص. وعلى أى حال فالفن القبرسى قد تطور تطورا واضحا فى الجزء الاول من الالف الأول ، وكان يتجه من بعض النواحى الى الفن الميكينى Mycenean ومن نواحى أخرى أنتعش بمؤثرات من الفن الفينيقى والسورى ومن بلاد الاغريق نفسها . أما اذا وجدت طرز مصرية فى قبرص فليس ضروريا أن يكون ذلك نتيجة اتصال مباشر مع مصر أو مع الفنانين المصريين وقد تأثرت الجزيرة فى القرن الثامن بمؤثرات من بلاد الاغريق نتيجة للاتصال التجارى الذى كان قائما بين قبرس وبين بلاد الاغريق .

ولقد عثر فى قبرس على لوح جنازى من الحجر الجيرى (٢) على هيئة Proto-Aeolic capital فيه بعض تأثيرات فينيقية ، وظاهر فى الاوانى التى عثر عليها فى قبرس والتمائم والجعارين النشاط الفينيقى

(١) عثر على اللوح فى قرية أم احمد بالقرب من صور ومعروض الآن بمتحف بالدانمرك: انظر Ny Carlsberg Glyptotek, Copenhagen (No. 837)

(٢) لوح على هيئة تاج عمود محفوظ بمتحف المتروبوليتان : انظر Cesnela Collection Handbook, no. 1418, H. 1,38 m.

التجارى . وعثر فى قبرس (١) على اناء فخارى له مقبض ، وغالبا ما يؤرخ بالقرن التاسع .

ومن الآثار التى عثر عليها فى قبرس (٢) من القرن الثانى عشر أو الحادى عشر قاعدة من النحاس أو البرونز بها حشوات من جوانبها الاربعة ظهر فيها عازف القيثارة ، ورجل يحمل سمكتين ، ورجل يحمل اناء ولفتين من الاقمشة ، وآخر (فى الجانب) يحمل سبيكة من النحاس على هيئة جلد حيوان . وكل ذلك واضح فيه التأثير الآسيوى (وهو سورى أكثر منه فينيقى) .

وعثر فى قبرس على تمثال صغير لسيدة (٣) صناعته جيدة فتقاطيع السيدة واضحة ، وقد انساب شعرها فوق كتفيها .

وقد ظهر فى تيجان بعض العمد طرز .. Proto-Aeolic التى سبق أن رأينا استخدامها فى بعض اللوحات ، فقد عثر فى ناحية Gologi بقبرس على تاج عمود من هذا الطراز (٤) من القرن السابع .

ويلاحظ انه لانستطيع أن نرى فى قبرس فنا فينيقيا نقيا .

الفن فى غرب فينيقية

ان الفكرة العامة عن الفن فى غرب فينيقية هو أنه قد تأثر بالطرز الشرقية فى فينيقية الأم من ناحية ، وكذلك تأثر بما كان يوجد فى تلك المستعمرات من ناحية أخرى ، خصوصا الفن الاغريقى فى صقلية و Etruscaus وبعض سكان ايبيريا . وبوجه عام فقد سادت التأثيرات الشرقية قبل القرن الخامس ، وبعد ذلك حل محلها تأثيرات أخرى خصوصا الهيلينية .

ونعنى بكلمة التعبير (الفن فى غرب فينيقية) أولا وقبل كل شىء ، الفن فى قرطاج) ، لأن تفوق قرطاج فى المجال السياسى قد عاونها على التفوق الفنى أيضا . ولم يؤثر وجود المستعمرات الاخرى بجانبها أو

---

(١) محفوظ بمتحف اشمول (no. 1959. 364)

(٢) محفوظ بالمتحف البريطانى .(no. 1920. 12 120, 1), H. 0.125 m

(٣) تمثال صغير لسيدة يحتمل انه كان يمثل مقبضا لاناء كبير مصنوع من الحجر الجيرى من القرن السابع وعثر عليه Golgo, Cyprus ومحفوظ حاليا بالمتروبوليتان : (Cesnola Collection Handbook, no. 1262) H. 0.203.

(٤) Donald Harden, The Phoenicians (1962), 196. fig. 58

استقلالها اخيرا عنها . وقد لاحظ العلماء هذه التأثيرات فى كل مكان حتى فى الاشياء التى صنعت محليا .

فمثلا فى الفخار الذى غالبا ما يصنع محليا نجده قد تأثر كثيرا بالتأثيرات الاغريقية الآسيوية فى البحر المتوسط التى كانت سائدة فى الالف الاول . فقد وضع بعض العلماء (١) رسما كروكيا للطبقات التى كشف عنها فى حفائر بناحية Tanet بقرطاج . وذكر أنه عثر على فخار احمر على هيئة بقرة ، ولون جسم البقرة بخطوط حمراء هذا الفخار وجد فى جرة Amphora من نفس الفخار . وهذا التمثال اصلا فينيقى ، عثر عليه فى الشرق والغرب واشتق أصلا من طرز أولية ميكنية Mycenean . وعثر فى Douimes بقرطاج ، غالبا من القرن السابع أو بداية السادس ، على أوانى خاصة بالقرابين (شكل ٢٢) يحتمل أن تكون محلية ولكن فيها تأثيرات واردة من الخارج ، منهما اناء غريب للقرابين به سبعة أوان صغيرة على هيئة توليب Tulip وبجانب ذلك رأس فرعونية فوق رأس بقرة (ربما هذا تمثيل للبقرة حاتحور الفرعونية) . ولو أن الفن ظاهر فيه أنه مختلط الا أنه Punic (قرطاجى) . ومن جانب آخر ، فان التماثيل الجالسة والواقفة التى تمثل الالهة من القرن السادس اما أن تكون يونانية أو مصرية فى مجموعها لكنها لا يمكن أن تكون قد صنعت محليا ، لانه لا يوجد ما يؤكد أن الفنانين اليونان أو المصريين وجدوا فى قرطاج فى القرن السابع أو السادس ق.م .

وقد عثر فى قرطاج وسردينيا و Ibiza على أقنعة ، ومن الغريب أنه لم يعثر على مثلها فى صقلية أو اسبانيا . وأمكن تقسيم هذه الاقنعة الى قسمين ، أولهما ذات الوجه العادى ، وثانيهما ذات الوجه العابس ؛ ويظهر فى القسم الأول الروح المصرية أو اليونانية ويمثل ابتسامة السيدات وعادة تضاف اليها بعض الحلى ، وأحيانا حلق فى الأنف ، ويتمثل القسم الثانى فى الأقنعة ذوات الثقوب الواسعة للعينين والفم أيضا ولها أوجه منحرفة أو مشوهة شبيهة بأقنعة القبائل الافريقية (٢) .

وهناك نوع ثالث ، ويظهر أنه قرطاجى وليس له شبيه فى الشرق ، وخير مثل له قناع من Douimes لذكر وفى انفه حلق (٣) ، وقد نحت نحتا دقيقا . كل ذلك ظهر فى القرنين السابع والسادس ق.م. وظهر فى القرن الخامس وما بعده طرز لتماثيل صغيرة فى قرطاج متأثرة بالطرز اليونانية . وغالبا أنها صنعت بأيدى يونانية هاجرت الى قرطاج . وهذه

(١) Donald Harden, The Phoenicians (1962), 189, fig. 23

(٢) ibid. fig. 63

(٣) ibid. fig. 62

التماثيل الصغيرة تمثل الهة من الجنسين ، ربما (بعل عمون) يرتدى لباس راس طويل ، أو رؤوس (ديمتر) .

فاذا ما انتقلنا الى Ibiza واسبانيا ، نجد عديدا من التماثيل الصغيرة اصلها يونانى والبعض خليط من الفن الفينيقى والايبيرى ، وبعضه قد ارتدى اردية فاخرة والبعض مثل بدون اردية ، وغالبا ما غطيت رؤوسها باغطية وحليت بحلى . وعلى سبيل المثال يحتفظ بمتحف Ibiza (١) بتمثال صغير لسيدة من الفخار من الطراز الايبيرى الفينيقى وعلى رأسها غطاء راس جميل وزينت بحلى .

لم يعثر فى قرطاج على آثار من الحجر كبيرة الحجم فى الطبقات الأولى من الحفائر . وقد عثر فى Hadrumetum على لوحة لم تتم فى الطبقة الثانية من القرن الخامس أو بداية الرابع (٢) ، وهى تمثل نقشا على الحجر الجيرى للاله بعل على عرش محاط من كل جانب بنقش يمثل أبو الهول وامامه احد العباد ، وقد ارتدى بعل فوق راسه لباسه المخروطى والتحى اللحية ، اما العابد فقد وضع رداء ساميا طويلا .

وقد كشف عن لوحات من الحجر الجيرى منذ بداية القرن الثالث ق.م ، وهى تعد بالآلاف فى قرطاج فقد عثر فى Salammbo بقرطاج على النصف العلوى لمسلة (٣) نقش عليها كاهن وفوق راسه قبعة مستديرة وحمل فى يده اليسرى طفلا .

وقد عثر على لوحات جنازية فى جبانات قرطاج وبعضها عليها نقوش . كذلك عثر على بعض تماثيل من القرن الثالث فى ناحية Ste. Monique بالجبانة (٤) وفيها يظهر الطابع اليونانى القرطاجى ، فرداء السيدة ليس يونانيا ولكن محليا ، وهى توحى بوجود علاقة بين قبرس وقرطاج فى القرن الثالث قبل الميلاد .

وعثر بقرطاج على توابيت لها اغطية على شكل انسانى (٥) من القرن

---

(١) من القرن الرابع او الثالث Ibiza, Museo-Arqueol H. 0.0.30 m.

(٢) ibid. pl. 41

(٣) L. Poinssot and R. Lantier in Rev. de l'Hist. des Religions, LXXXVII

وهى محفوظة بمتحف علوى بتونس وارتفاعها ١٫٥ مترا ومن القرن الرابع ق.م.

(٤) Cat. Mus. Lavigerie, Carthage Suppl. (1913), pls. 1, 2.

(٥) A. L. Delattre, Les Grandes Sarcophages anthropoides du Musée Lavigerie (extr. du Cosmos, 1903) and H. de Villefosse dans Monuments Piot, XII (1905), 75 ff., pl. VIII.

الثالث قبل الميلاد ، وأحسنها ثلاثة تمثل كاهنات واثنان يمثلان كاهنين. ولا زال باقيا على صورة الكاهنة بعض الالوان ، وهى تضع رداء يونانيا يحيطه من أسفل جناحى طائر وغالبا ما يكون خاصا بالعقاب (وهو تمثيل واضح للالهة ايزيس أو نفتيس فى الحضارة الفرعونية) ولكنها تحمل فى يدها اليمنى حمامة (وهذا ايضا تمثيل مصرى لأنه يوجد فى مخلفات المصريين من عهد المسيحية شيء شبيه بذلك) وهذا له صلة بالالهة (افروديت) أو (ديمتر ـ برسوفون Demeter-Persephone) ، ويعلو راسها راس عقاب ، وعلى أية حال فملامح السيدة يونانى . أما التابوتان الآخران الخاصان بالكاهنين فهما متشابهان الى حد كبير ما عدا أن أحدهما ليس له غطاء رأس ، بينما الآخر له غطاء رأس ، وكلاهما ملتحيان وله سحنة افريقية . وقد عثر على غير ذلك من توابيت أخرى كلها فيها تأثير يونانى ، ولابد أنها صناعة يونانية ليونانيين اقاموا فى قرطاج .

أما عن الصناعات البرونزية التى عثر عليها فى قرطاج فأغلبها مستورد من الخارج مثل التمثال الصغير الذى عثر عليه فى Douimes (شكل ٢٣) وهو من القرن السادس ق.م. وواضح فيه أنه من الفن المصرى القديم . وقد عثر على آثار معدنية اخرى فيها تأثير كورنثى وهيلينى من Ste. Monique ومن الغريب حقا الا يقوم القرطاجيون بصناعة تماثيل معدنية فى بلادهم مثل التى كانت موجودة فى فينيقية .

وفى أسبانيا ، عثر فى Gades على تمثال لكاهن غطى وجهه بطبقة من الذهب (شكل ٢٤) ولا يظهر عليه أى اثر يونانى أو ايبيرى ، بل فيه تأثير واضح بالفن الفرعونى ، وغالبا ما يمثل الاله (بتاح) ، لان وضع اليدين والرأس الشبه عارية هى من صفات تماثيل هذا الاله ، أو أنه ربما يمثل تماثيل (الشوابتى) المعروفة فى الفن الفرعونى . ولكن سحنة الوجه سامية ، ولابد أن يكون صناعته فينيقية من القرن الخامس .

وعثر على شفرتين من النحاس (١) فى قرطاج وسردينيا و Ibiza ، ولم يعثر عليها فى صقلية ، أو أسبانيا . وبعضها مؤرخ من القرن السادس أو قبل ذلك ، والبعض من القرن الرابع أو بعد ذلك من مقابر فى Ste. Monique وغيرها . وبعضها خصوصا المتأخرة منها عليه رسوم

(١) J. Vercoutter, Les Objets égyptiens et égyptisants du Mobilier funéraire Carthaginois (1945), 302-316, pls. XXVII-XXVIII.

مصرية وبعضه عليه رسوم قرطاجية والبعض خليط . فمثلا (شكل ٧٢ من كتاب Harden عن الفنيقيين) شفرة عليها رسوم فرعونية و(شكل ٧١) يمثل شفرة عليها رسم قرطاجي وأخرى عليها رسم اغريقى ، من جانب Heracles وعلى الجانت الآخر صورة شاب صغير يحتمل أن يكون Asclepius.

وفيما يختص بنحت العاج ، فقد عثر فى June على يد مرآة من القرن السابع فى أحد قبور تلك المنطقة ، وهى تمثل صورة لالهة واقفة ترتدى رداء طويلا ، والرأس سحنتها مصرية فينيقية وعليها شعر فيه تشابه كبير بالشعر المستعار المصرى ، وقد رفعت يديها حتى الصدر .

وعثر فى أسبانيا على أمشاط من العاج لها طراز فينيقى (١) .

والى جانب النحت على العاج ، أوانى وأقراص صنعت من بيض النعام لم تظهر هذه الأشياء فى الشرق ، لكنها كثرت فى الغرب فى قرطاج بين القرنين السادس والثالث ، اذ كانت تصنع الكؤوس من بيض النعام.

الحلى الفينيقية

لا يمكننا التفريق بين الحلى الفينيقية الشرقية والغربية . فجميعها أشياء صغيرة كانت رؤوس أموال التجار المتنقلين ، وفى بعض الأوقات فى الغرب ، خصوصا فى أسبانيا ، كان يظهر عليها بوضوح التأثير المحلى ، حتى أننا لا نستطيع ان نؤكد أن اثرا من هذه الآثار قد صنع فعلا فى الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط أو فى أى مكان آخر فى البحر نفسه . وفى الامكان — حتى القرن الخامس ق.م. على الأقل — أن نذكر أن الحلى الممتازة قد صنعت فى فينيقية أو قبرس أو مصر . وأن التشابه الواضح فى الرسوم والصناعة بينها يظهر فيها عدم وجود فوارق كبيرة .

وأغلب الحلى التى عاشت من تلك الصناعات الفينيقية كانت من الذهب ، فالفضة لم تتحمل كثيرا الأملاح التى توجد فى المواقع الساحلية بكثرة ، بينما صنع من البرونز الاشياء الكثيرة الاستخدام مثل المشابك او الاربطة التى تربط القطع الحجرية والتى كانت كثيرة الاستعمال فى اليونان وايطاليا عنها فى فينيقية . وكذلك الأساور والأقراط وغيرها . ولكن بقى جزء كبير من الحلى الذهبية صنع صناعة راقية .

(١) Donald Harden, The Phoeniciens (1962), 207, fig. 74.

لقد تعلم الفينيقيون الصياغة من الميكيين والمصريين القدماء . فقد مهروا فى تغليف المصوغات وفى تحبيبها ، وهذا الفن قد انتشر فى Etruria فى القرن السابع ، وغالبا ما يكون قد استعير من فينيقية . وقد سبق أن رأينا أن الفن الفينيقى مثل صناعة العاج قد كان خليطا من الفن المصرى والميكينى والآشورى وغيره من الفنون . وقد لوحظ ميله الى الرسوم الحيوانية والنباتية والهندسية أكثر من الرسوم الانسانية ، واذا ما صورت بعض الصور الانسانية فغالبا ما تكون جزءا بسيطا من موضوع الرسوم . ويحتفظ متحف اشمول (١) بقرط من الذهب عبارة عن تعليقة (بندتيف) مكونة من صقر واناء ، وواضح فيه التأثير المصرى ، وغالبا انه صنع فى مصر . كما يوجد بعض تأثيرات قبرسية محفوظة بالمتحف البريطانى فهذان رجلان فوق مركبة (٢) وسيدتان . اما فى الغرب، فقد عثر فى مالطة (٣) على قطعة من جلد غطيت بصفحة من الذهب برز فيها رسوم فينيقية تمثل حيوانان خرافيان يتوسطهما رسوم نخيلية ويعلوهما قرص مجنح . وهى اما أن تكون جزءا من غطاء صندوق خشبى أو بقية من ملابس أحد الحفلات ، ولا يمكن أن تؤرخ بأكثر من القرن السابع ق.م .

أما فى قرطاج و Tharros بسيردينيا فقد عثر على صدريات دائرية بها رسوم متأثرة بالفن المصرى القديم اذ مثل عليها صلان وبينهما قرص الشمس (٤) وفيهما تفاصيل دقيقة جدا . وبعض هذه الحلى كتب عليه نقوش (٥) قرطاجية عثر عليها فى جبانة Douimes بقرطاج من القرن السادس تقريبا من الذهب وكتب عليها ما يلى « الى عشتارة ، الى بيجماليون ، Yadamilk بن Padai الذين انقذهم بيجماليون قد انقذوا » . وقد كشفت الحفائر فى Tharros عن صدرية من الذهب عليها تأثير واضح من الفن المصرى القديم ، فهى تمثل النصف العلوى من تمثال لايزيس ـ عشتارة وقد قبضت على ثدييها ووضعت فوق راسها غطاء راس غريب يتكون من قرنين بداخلهما ثلاث أعمدة صغيرة Cippi تعلوها كريات (شكل ٢٥) وغالبا ما تؤرخ من القرن السادس أو الخامس

---

(١) بمتحف اشمول (Dr. Joan Evans loan, 1930) من القرن السابع الى القرن السادس H. 0.083 m. . والجزء العلوى من القرط مفقود

(٢) F.H. Marshall, B.M. Catalogue of Jewellery (1911), p. 150, no. 1485.

(٣) Ashmolean Museum, Oxford (no. G. 440). H. 0.044 m.

(٤) Donald Harden, The Phoenicians, p. 209, fig. 78.

(٥) ibid. p. 119, fig. 35.

ق.م. ويحتفظ المتحف البريطانى (١) بسوار من ذهب عثر عليه فى Tharros يتكون من ست صفائح من الذهب عليها رسوم نخيلية فينيقية أو زهرات من اللوتس ، تنتهى من كل طرف بالعين السحرية ، وهى تميمة معروفة فى الفن المصرى القديم . وجدير بالذكر أنه يوجد Cagliari عاصمة سردينيا أسورة شبيهة بالسابقة زينت من الوسط بجعران عليه صقر باسط جناحيه .

ويحتفظ متحف علوى بتونس بتعليقتين من الذهب (٢) واضح فيها التأثير المصرى على هيئة عمودين يعلو الأول منهما رأس الالهة (سخمة) الفرعونية والتى كانت تمثل على هيئة رأس لبؤة وفوق رأسها قرص الشمس المزين بالصل . ويعلو الثانى الاله آمون رع على هيئة رأس كبش . وتتميز القطعة الثانية عن الأولى بوجود بعض آثار من فضة . ويؤرخ الأول من القرن السادس تقريبا والثانى من القرن الخامس على وجه التقريب .

أما عن الحلى الفينيقية فى أسبانيا فقد كشفت بالقرب من Coceres وفيها تأثيرات فينيقية واضحة وغالبا ما يكون فيها تأثيرات Etruscan وكذلك كشف فى المستعمرة الفينيقية الكبيرة فى أسبانيا وهى Gades عن بعض حلى ولكنها أقل من غيرها (٣) .

الأختام والجعارين

منذ بداية عصر الحديد انتشرت أنواع الأختام الأسطوانية والعادية ، وحتى فى بلاد الرافدين فان الختم العادى قد فاق استخدامه الختم الأسطوانى ، على أن هذا الأخير ظل مستعملا فى بلاد الرافدين حتى العهد الفارسى . ولكن ابتداء من الالف الاول ق.م. لم يستخدم فى فينيقية الخاتم الاسطوانى ، وقد وجد قليل منها يؤرخ بأوائل الالف الاول ، فى

---

(١) F.H. Marshall, ibid., pp. 155 f. nos. 1539-40, 1542, pls. 24--25) L. 0.204 m.

(٢) J. Vercoutter, Les Objets égyptiens et égyptisants du mobilier fun. Carth., ch. IX, espec. pp. 317 ff., pl. XXIX.

الاولى H. 0.046 m.

الثانية H. 034 m.

(٣) Donald Harden, ibid. 212-214.

قبرس وفى فينيقية نفسها . والامثلة النادرة التى عثر عليهـا فى الغرب لا يزيد تاريخها عن القرن السابع .

ويقابل الكثرة الواضحة فى الأختام الأسطوانية فى الشرق ، انتشـار استخدام الجعارين والشبه جعارين والأشياء الشبه مخروطية فى الغرب كوسيلة لختم الأشياء ، والظاهر أن الأشياء الشبه مخروطية لم تنتشر فى الغرب بكثرة . وعلى هـذا فقد كثر وجود الجعـارين والشبه جعـارين بفينيقية الغربية منذ القرن السابع وما بعده . وقد كانت فى بدايتها مصرية الطراز ، ولم يكن من الضرورى أنها صنعت فى مصر ، وقد استمرت تلك الفترة المتمصرة حتى القرن الخامس ق.م .

والأختام الستة الأولى تؤرخ من القرن التاسع حتى القرن الخامس ق.م. (انظر لوحة رقم ١٠٨ من كتاب Harden) وجميعهـا محفوظة بمتحف اشمول والأول شبه جعران من حجر الدم (a) آسيوى وهو يمثل نسرا يقتتل مع غزال . (b) يمثل شبه جعران من العقيق الابيض عليـه رسم لابى الهول وصل ، والثالث جعران من العقيق الابيض وعليه حورس بين ايزيس ونفتيس (من القرن السابع أو السادس ق.م) ، والرابع شبه جعران من العقيق الأبيض ، عليه رسم يمثل أبو الهول المجنح ، وجعران مجنح ، وصلان يحيطان خرطوشا (القرن السادس ق.م.) ، والخامس يمثل جعران من حجر اليشب الأخضر عليه رسوم الهة وقرص مجنح وعلامة هيروغليفية (من القرن الخامس ق.م.) والسادس هو جعران من حجر اليشب الاخضر وقد رسم عليه حوريس واقفا بين ايزيس ونفتيس (من القرن الخامس ق.م.) والسابع جعران من حجر اليشب الاخضر عليه رسم لرأس يونانى (من القرن الرابع ق.م.) والثامن جعران من اليشب الاخضر عليه رسم حيوان بحرى (غول البحر Triton) ، من اواخر القرن الخامس أو أوائل القرن الرابع . وقد عثر على الســتة اختام الأولى من هذه الأمثلة فى أمكنة فى الشرق من فينيقية ، والأول منها آسـيوى كما سبق أن ذكرنا وليس بينها أى تأثير يونانى ، ولمـا عظم تأثير الحضـارة اليونانية ظهر فى الخاتمين السابع والثامن التأثير اليونانى ("g" and "h") .

وعلى بعض الأختام موضوعات فينيقية صميمة ، فعثر فى سردينيـا على أختام منها جعرانان (أنظر شكل ٨٢ من كتاب Harden) أحدهمـا عليه رسم يبين ملكا يضرب أسدا ، والثانى رسم يبين الاله بعـل متوجا وقد جلس على عرشه وامامه مذبح « تشتعل فيه النيران » .

ولم تستخدم الجعارين جميعها كأختـام ، فبعضها كان موضـوعا فى أقراط فى الأذن وبعضها يعلق فى عقود أو يوضع فى اساور .

والخلاصــــة

هناك عقبات كثيرة تصادف الباحث ، فقد تضاربت آراء العلماء ، فى أى مكان من الشرق انتهى الفــن الفينيقى وبدأ الفــن السورى أو الفن القبرسى خصوصا اذا ما كشف عن هذه الآثار بعيدا عن مكانها الاصلى ، فى اليونان على سبيل المثال أو فى ايطاليا. عند ذلك تتعقد المشكلة،وحقا انه من الصعب علينا أن نقرر ما هو حقيقة فن فينيقى بين الآثار الكثيرة التى عثر عليها فى المواقع الفينيقية خصوصا فى الغرب ، وكذلك لا نستطيع أن نفصــل من بينها ما قام بصناعته الفينيقيون أنفســهم عن غيره من الصناعات التى قام بها غيرهم خصــوصا أن اليونانيين كانوا يصنعون لهم بعضها .

وضح لنا أن الفينيقيين قد استطاعوا نحت العــاج وصنعوا أوان معدنية عليها نقوش لا بأس بها . وكذلك الحلى التى عثر عليها فى قرطاج و Tharros وبعض الأمكنة الأخرى دلت على قــدرة الفينيقى على هذا اللون من الفنــون . على أن الفينيقى لم يكن ماهــرا فى نحت التماثيل الحجرية أو المعدنية أو الفخارية ، وان أغلب الصناعات الفينيقية الممتازة من هذا النوع وخصوصا التوابيت لم يصنعها الفينيقيون ، لأنها ترجع الى عهد متأخر حينما أصبح الفن اليونانى مركزا فى الشاطىء الفينيقى وفى قرطاج . وعلى ذلك فلم يكن الفن الفينيقى خليطا من الطرز فقط بل كان خليطا من المهارات ، أحسنها ما كان ممتازا حقا ، وأقلها لا يستحق أن يسمى فنا وحتى نعطى صورة واضحة عن هذا الفن يجب أن نشير الى أن الفنــان الفينيقى كان بطبعه وبحكم ظروفه ورحلاته بين الأقطار التى تطل على البحر كان يميل الى استيراد ما يحتاجه منها من الأقطار التى يرتادها أكثر من أن يرهق نفسه ويضيع وقته فى صناعتها .

* * *

الشكل الاقتصادى فى فينيقية

الزراعـــة

قام الفينيقيون بفلاحة الأرض واستغلال كل شبر منها ، ورأينا أن المصريين ركبوا البحر الى سواحل لبنان لاستحضار الخشب من غاباتها التى اشتهرت بجودته . كذلك أمد الفينيقيون كما سبق أن ذكرنا سليمان ملك بيت المقدس بالخشب الذى كان فى حاجة اليه لبناء قصره ومعبده . كما قام الفينيقيون بامداد سرجون الثانى بالخشب . ويحتفظ متحف اللوفر برسم محفور جاء من خرسباد Khorsabad يمثل أسطولا صغيرا من السفن يحمل أعمدة من خشب ، وربطت ببعض مؤخرة سفن الأسطول أعمدة من خشب . وبقصر خرسباد رسوم تبين انزال الخشب الى الأرض وصفه فى أكوام ، كما أن الفينيقيين قاموا بزراعة الحبوب فى السهول والاشجار كالنخيل والعنب والزيتون .

وقد قام القرطاجيون أيضا بفلاحة الأرض واشتهر عندهم عالمان هما هميلكار وماجون ، وقد قاما بتأليف كتابين فى الزراعة .

استخدم الفينيقيون المحراث العـادى الباذر وكان يجره الثور أو الحمار أو الانسان ، واستخدم الفينيقيون الى جانب هذه الحيوانات الفيل . وكان حصاد القمح يتم فيستخلص الحب من السنابل بواسطة دوس أرجل الثيران والخيل والبغـال أو بتمرير السـنابل على الواح خشبية قد ثبتت فيها شظايا من حجر صلب . وطحن القمح على حجارة صلبة . وزرع القرطاجيون العنب واستخلصوا منه النبيذ . واستخرج الفينيقيون والقرطاجيون الزيت من شجر الزيتون . وادخل الفينيقيون شجرة الرمان الى شمال افريقية .

وقبل أن يستخدم الفينيقيون الحصـان ، استعملوا الحمـار لجر العجلات وللركوب .

استخدم الفينيقيون الماء العذب المجموع من المطر ، وجاء فى الخبر أن سكان ارواد كانوا يعتمدون على ماء عذب يفور وسط البحر الملح ، وقـد ذكر استرابو فى تاريخه ذلك ، ولا زال يستخدم هـذا الينبوع حاليا . سبق أن ذكرنا شيئا مثل ذلك عند الحديث عن البحرين انظر ص ١٢٢ .

التجـــارة

كانت التجارة هى المورد الرئيسى عند الفينيقيين ، واقيمت موانيهم عند الرؤوس الداخلة فى البحـر ، وقـد وصفت ميـنـاء صيـدا قديما

واستطعنا من ذلك الوصف أن نعرف أن لهذه المدينة أرصفة وحواجز وأحواض . ووصف ديودور ما قام به الاسكندر من استعدادات للاستيلاء على مدينة صور وكانت المدينة فى الأصل قائمة على جزيرة ، وقد اتصل الأصل بالأرض الساحلية ، وبذلك تقع صور حاليا على شبه جزيرة .

وفى قرطاج أيضا موانى لا تزال أطلالها القديمة قائمة ، وكانت هناك مرسى حربى ومرسى داخلى آخر .

كان يهتدى القرطاجيون فى الملاحة بنجم الدب الصغير ،وقد أسماه اليونان فوينيكى (أو النجم الفينيقى) ، اذ أنهم لم يعرفوا البوصلة ، أما سفنهم فكانت صغيرة ، وكانوا يعملون على الا يتغيبوا كثيرا عن الساحل ، فتقاربت موانيهم وكانوا يعودون كل مساء .

وأهم رحلاتهم رحلة Hannon هانو التى قام بها القرطاجيون وكانت من اجل كشف السواحل الافريقية كما جاء ذلك فى وصف (پلينى) . اذ رحل هانون من Gades وظل يطوف حول السواحل الافريقية .

وقد تشكك الناس فى أمر هذه الرحلة وغيرها من الرحلات ، فاعتقد استرابون أنها رحلة خرافية . وقد حاول بعض المؤرخين (١) فى عهدنا الحديث تحليل الترجمة اليونانية للرحلة فذكر ان الملك (هانو) زعيم قرطاجى وكان معه ٦٠ سفينة و ٣٠ ألف شخص فتوجه الى الشاطىء الغربى لافريقية مبتدئا بالقرب من (الرباط) حاليا ، وكانت تسمى ماهديا Mehedia ووصل حتى وسط خليج غانة حتى فرناندپو Fernando Po ولعله وصل الى مرتفعات كمرون Mt. Cameroun (أنظر شكل ١٩) .

لقد قام الفينيقيون أيضا بالتجارة البرية أيضا قبل التجارة البحرية وذلك فى داخل الصحراء الكبرى وغالبا ما وصلوا الى نيجيريا والى الجنوب . لقد كانت الصحراء أقل جفافا منها الآن ، وكان يسكنها ناس من البيض من الجنس الليبى . وانتظمت القوافل بين الساحل الشمالى ونيجيريا وبين مصر وموريتانيا Mauretania وليس هناك من شك فى أن الفينيقيين هم الذين قاموا بالاتجار مع سكان افريقية وحصلوا منهم على الذهب والعاج وبعض الحيوانات والرقيق ونقلوها الى أقطار البحر المتوسط ولم يستطع اليونانيون أن ينشئوا مستعمرات قوية ، كما أن

(1) Grell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Vol. I (1914) p. 476-507.

تجارة المصريين لم تتجاوز جنوبا حوض البحر المتوسط . ومن الراجح أن القرطاجيين استخدموا طريقا بريا للوصول الى مصر .

وجاء فيما كتبه هيردوت أنه علم من القرطاجنيين ، انه للاتجار مع الليبيين الذين كانوا يعيشــون وراء أعمــدة هرقل Pillars of Heracles فقد ابتدعوا طريقة للمقايضة ، اذ كانوا يتركون بضاعتهم على الشاطىء ويعودون الى سفنهم ويشعلون النيران فيصعد منها دخان . فيأتى أهالى البلاد ويضعون ذهبا بجوار البضاعة بدلا منها ويرجعون الى مسافة . ويأتى القرطاجيون فيرون ما وضع من ذهب فاذا وجدوه يتفق وقيمة البضاعة أخذوه وتركوا البضاعة ، واذا لم يجدوه يتفق مع قيمة بضاعتهم عادوا من حيث أتوا ، فيأتى الأهالى ويضعون ذهبا مرة أخرى ، وهكذا الى أن يقتنع الطرفان . ويضيف هيردوت ما يلى : « لا يمس القرطاجيون الذهب حتى يقتنعوا ولا يمس الاهالى البضاعة حتى يوافق الاخرون على ما قدم من ذهب » .

العمــــلة

ولو ان استخدام العملة قد بدأ عند اليونان أثناء القرن السابع ق.م وأصبح استعمالها عاديا فى بداية القــرن السادس ، فان الفينيقيين لم يخترعوها قبلهم بالرغم من تقدمهم فى التجارة والتبادل التجارى . وبدأ استعمال العملة فى بلاد الفرس أيام داريوس (Darius) عند نهاية القرن السادس ، وكانت فينيقية خاضعة لامبراطوريته ، الا أنه لم يحاول أن يضرب النقودباسمهم . وقد قام الفرس بضرب عمــلة تسمى (daric) وكذلك أخرى (sigloi) . واستعملت العملة فى بادىء الأمر لتستخدم فى مستعمراتهم اليونانية فى آسيا الصغرى .

ان أقدم عملة شرقية فينيقية ضربت فى صور عند منتصف القرن الخامس ق . م . تقريبا وتبعتها صيدا وارواد وبيبلوس فى أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع ق . م . أما بقية المدن الأخرى فلم تضرب نقودها الا أيام العهد الهيلينى .

ومن أقدم العملات من النصف الثانى للقرن الخامس ، قطعة محفوظة بالمتحف البريطانى (٢) وهى من صــور على أحـــد وجهيها Dolphin (درفيل = حيوان بحرى) وأمواج وأصداف من murex وعلى الوجه الآخر بومة داخل مربع . وعثر فى ارواد على قطعة (٣) على أحد وجهيها اله له ذيل سمكة ، وعلى الوجه الآخر زورق وفرس البحر . وتؤرخ عند بداية القرن الرابع قبل الميلاد . وفى صيدا أيضا عثر على قطعة من

---

(١) Herodotus, IV, 196.

(٢) هناك قطع من العملة كثيرة منها
G. F. Hill, B.M. Cat. Phoenicia (1910), pl 28, no. 9.

(٣) G. H. Hill, ibid, pl. 1, no. 5.

العملة (١) على أحد وجهيها عراك وزورق وأسدان ، وعلى الوجه الآخر ملك من ملوك الفرس يضرب سبعا . وتؤرخ القطعة من أوائل القرن الرابع ق . م . وبدون شك ضربت نقود فى مدن أخرى وفى بعض القطع الكبيرة (٢) رسم على أحد وجهى القطعة الملك الفارسى (أو الاله بعل المحلى) فى فخ فوق عربة مع ملك مصر أو ملك صيدا خلفه ، وقد جر العربة أربعة خيول ، وهى تؤرخ من الربع الثانى للقرن الرابع . وجميع هذه العملات الفينيقية قد صنعت من الفضة أو البرونز ، وكان يكتفى بعملة الفرس الفارسية daric التى كانت تصنع من الذهب .

وقد قامت المدن الغربية بضرب عملتها متأخرة عن المدن الشرقية ، وعلى سبيل المثال بالمتحف البريطانى (٣) قطعة عليها راس Tanit وعليها غطاء راس پونى Punic وعلى الوجه الآخر أسد وشجرة نخيل ونقش مكتوب بالپونية « رجال المعسكر » ، وتؤرخ القطعة من منتصف القرن الرابع ق . م . وضربت نقود أخرى فى كثير من المدن الغربية بقرطاج وأسبانيا من الذهب والفضة والبرونز .

وقد بدأت تضرب النقود فى صقلية منذ القرن الخامس ق . م . أما فى أسبانيا فقد ضربت فى القرن الثالث ، وكان لقرطاج نفسها مكان لضرب النقود فى Carthago Nova بأسبانيا . وضربت بعض النقود من الفضة (٤) فعثر فى Carthago Nova على قطعة على أحد وجهيها رأس انسان يحتمل أن يكون Hasdrubal وعلى الجانب الآخر مقدمة زورق وقطعة أخرى (٥) فى Carthago Nova على أحد وجهيها رأس Heracles-Melgart ويحتمل أن يكون راس Hamilcar Barca وعلى الجانب الآخر امتطى انسان فيلا . وعثر فى Gades (٦) على قطعة على أحد وجهيها رأس ملقارت وعلى الوجه الآخر فيل وحرف أبجدى aleph .

وليس لدينا أى معلومات عن تنظيم عمليات ضرب العملة الفينيقية والراجح أنهم قد قلدوا اليونان ، وغالبا أنهم استخدموا العمال اليونان .

(١) G. F. Hill, ibid., pl. 18, nos. 6-7.
(٢) G. F. Hill, ibid., pl. 19, no. 5.
(٣) G. F. Hill, Guide & Greek Coins (1932), pl. 26, no. 41.
(٤) E. S. G. Robinson, Punic Coins in Spain, ed. Carson and Sutherland in 1956, 49, no. 4 (a). تؤرخ بعد عام ٢٢٨ ق.م
(٥) تؤرخ بعد عام ٢٢١ ق.م E. S. G. Robinson, ibid., (1956), 50, no. 6 (a).
(٦) E. S. G. Robinson, ibid., 52, no. 8 (a). تؤرخ بعد عام ٢٠٩ ق.م

السفن والرحلات البحرية :

كان يوجد فى هذا الوقت نوعان رئيسيان من السفن فى البحر المتوسط فى هذا العهد ، السفن المستديرة للتجارة والسفن الطويلة للأعمال الحربية . وقد استخدم الفينيقيون النوعين . وقد حفظت لنا الايام رسما على الجص (١) من قصر سنحاريب (٧٠٤ — ٦٨١ ق.م.) من Kouyunjik حاليا (نينوى) يوضح لنا أسطولا من صور الملك (لولى Luli) ملك صور وصيدا فى عام ٧٠١ ق . م . وقد ظهر فيه النوعان من السفن وقد استخدم الفينيقيون سفنا ، عادة للصيد أو للنقل النهرى وقد سماها استرابون وغيره من المؤرخين القدامى hippos وهو نوع من القوارب تبنى مقدمته على هيئة حصان (٢) . وجدير بالذكر أن بعض السفن المصرية كانت تنتهى برؤوس حيوانات أو طيور وهى رموز عن آلهة مصرية .

لا نستطيع أن نعتبر رحلات الفينيقيين داخل البحر المتوسط رحلات كشفية ، لأنه منذ عصر البرونز على الأقل ما لم يكن قبل ذلك ، عرفت جميع الطرق الرئيسية فى هذا البحر . اما رحلات الكشف الحقيقية ، فمن حسن الحظ أن لدينا عددا من القصص عرفنا منها الكثير من هذه الرحلات . فقد جاء فيما وصفه هيردوت أن جماعة من الفينيقيين قد أبحروا الى البحر الأحمر أيام فرعون مصر نيكاو (٦٠٩ — ٥٩٣ ق.م) للطواف حول افريقية . وقد قاموا بهذا العمل فى ثلاث سنوات ، وكانوا يتوقفون كل عام بين موسم البذار والحصاد ليمونوا انفسهم قبل الاستمرار فى رحلتهم (شكل ١٩) ويوافق جميع المعقبون من المؤرخين على صحة ما جاء فى رواية هيردوت . أما الرحلتان الأخريان فهما رحلتا (هانو Hannon) الذى ذهب الى غرب افريقية ، و (هيميلكو Himilco) الذى أبحر الى الشمال حول Iberia . ولم يذكر هيردوت هاتين الرحلتين والراجح انهما وقعا فى عام ٤٢٥ ق.م. أو بعد ذلك . وقد جاءت رحلة (هانو) فى نص يونانى من معبد (Saturn) وهو (Baal Hammon) قرطاج . أما رحلة (هيميلكو) فقد جاء ذكرها فى كتاب رومانى جغرافى Ora Maritima of Avienus من القرن الرابع بعد الميلاد . وقد جاء وصف الرحلتين عند Pliny الكبير .

---

(١) R. D. Barnett, Archeology, News Letter, Jan. 1956, p. 156; Archeology, June 1956, pp. 87 ff., fig. 9; R. D. Barnett, Early shipping in the Near East, Antiquity, XXXII (1958), 226, pl. 22 b.

(٢) Donald Harden, The Phoenicians (1962), 169.

كان الفرض من رحلة (هيميلكو) بدون شك هو فتح طريق التصدير في الغرب ، غالبا جاء نتيجة نفـاد المناجم الاسبانية . وليس لدينا أدلة قاطعة عن تفاصيل رحلته وغالبا ما وصل الى بريطانيا Brittany

اما عن رحلة Hannon فالنص الوحيد الموجود حاليـا لا يرجع الى ما قبل القرن العاشر بعد الميلاد وقد حرف كثيرا . ومع ذلك يوافق عليها جمهرة المؤرخين . وقد وضع (١) Donald Harden النص الخاص بهذه الرحلة . وقام بالتعليق على بعض الأسـماء محاولا التقريب بينها وبين الأسماء الحديثة مثل (Lixos) فقد ذكر أنها ربما اسم نهر Draa بين حدود مراكش والصحـراء الاسـبانية وأن النهـر الكبير الذى ذكر فى الرحلة تحت اسم Chretes هو نهر السنغال ، وان (Cerne) التى ذكرت فى النص كانت تقع عند مصب السنغال أو بالقرب منه . أما فيما يختص بذكره Cape Verde والخليج الكبير الذى ذكر بعد ذلك ومصب نهر (قمبيا) فقـد اختلفت الآراء ، فمن قائل انه وصـل حتى (الكمرون Cameroun) أو حتى Gabon بينما يذكر آخـرون أنه توقف عنـد (سيراليون Sierra Leone) .

اما من ناحية الكشف البرى الذى قام به الفينيقيون فى الصحراء . فقـد ذكر كاتب يونانى ثرثار وهو Athenaeus من القـرن الثانى بعد الميلاد أن أحد القرطاجيين واسمه Mago قد عبر الصحراء ثلاث مرات . وقد ذكر هيردوت أن خمسة أشخاص من جماعة تسمى Nasamones قد قاموا برحلة عبر الصحراء الكبرى الى مدينة يسكنها أقزام زنوج . (انظر شكل ١٩) .

وقد ذكر ديودور أن بعض السفن القرطاجية أبحرت الى المحيط الأطلسى وقامت بكشف جزيرة كبيرة مناخها لطيف ، من الجائز أن تكون Madeira . وبدون شك أن ديودور قد نقل ذلك عن Timaeus ــ كما هى عادته ــ والذى عاش فى القرن الرابع ق . م .

* * *

(١) Donald Harden, The Phoenicians, 174-176.

اللغـــة:

لوحظ أن الفينيقيين تمسكوا بلغتهم أينما حلوا ، على أنه حدثت بعض تغييرات فى اللهجة من اقليم الى آخر . وقد ماتت اللغة الفينيقية فى عقر دارها وحل محلها اللغة الارامية واليونانية أيام الهيلينيين ، وقد جاءت اللغة البونية الجديدة واستمرت حتى القرن الثالث بعد الميلاد فى شمال افريقية الى جانب اللغة اللاتينية وكان يعتقد السكان أنهم من أصل كنعانى . وقد عاشت اللغة الفينيقية فى سردينيا فترة طويلة . وقد زحفت اللاتينية حينما اشتد نفوذ روما .

ما هى اذن هذه اللغة ؟ انها مشتقة من اللغة السامية القديمة من الفـرع الكنعانى الذى يرجع اليه الفينيقيون ، وهى قريبـة من اللغـة العبرية التى يتحدث بها الاسرائيليون وكذلك الى لغـة مؤاب .

وبوجهعام ، تنقسم اللغات السامية الىقسمين القسم الشرقىويشمل عام ، وتنقسم اللغـات السامية الى قسمين القسم الشرقى ويشـمل الاشورى البابلى ، والقسم الغـربى وهو يتكون من فرعين الجنوبى وهو اللغـة العربية والشمالى وهو اللغة الاراميـة والكنعانيـة ، وهذه الاخيرة تنقسم الى قسمين العبرية والفينيقية ويوجد بينهما تشابه كبير .

عثر فى رأس شـمرا من عهـد البرونز المتأخر على لوحات مكتوبة بأبجدية مأخوذة من الحروف المسمارية وبعضها أكدية ، وكذلك كشف فيها عن نصوص آرامية وكنعانية . وأهم هذ هاللغات هى لغة (أوجاريت كتبت بأبجدية مسمارية . وهى من الأهمية بمكان اذ نجد هذه اللهجة الكنعانية قد كتبت فى وقت أخذ فيه الفينيقيون يطورون أبجديتهم والتى يعتقد كثير من العلماء أنها اشتقت من أبجدية تتشابه معها وهى اللغـة المصرية القديمة التى كانت تستخدم فى سيناء فى النصف الأول من الألف الثانى ق.م. وقد كتب الخط طوليـا . وقد كشف عن بعض النقوش المكتوبة من عهـد البرونز المتوسط والمتأخر فى بيبلوس وأمكنة أخـرى وكانت وسطا بين النقوش السابقة فى رأس شمرا وبين اللغـة الفينيقية المتطورة ، واقدم مثل على ذلك سطر من النصوص من تابوت (أحيرام) ويرجع تاريخ النقش الى منتصف القرن الثالث عشر ق.م. وهو قريب الشبه بالنقوش التى وجدت على جزء من تمثال من الحجر الرملى للملك « أوسركون الاول (١) فرعون مصر الذى حكم مصر فى الربع الاخير من

---

(١) Louvre (AO 9502)

القرن العاشر قبل الميلاد . وهو يحمل اسم الملك نفسه بحروف مصرية قديمة ، ونقش ثانوى لملك بيبلوس (ايلى بعل) بحروف فينيقية .

وتتكون الكتابة الفينيقية الموجودة على نص (أحيرام) من ٢٢ علامة ساكنة هى التى كونت اصوات هذه اللغة . ولم يستخدم الفينيقيون الحروف المتحركة ، وعلى ذلك تطورت أخيرا اللغة العبرية لتوضح حركاتها الصوتية ، جزء منها بواسطة ازدواج حرفين ساكنين أو تكعيبهم (اي يردد الحرف الواحد الساكن ثلاث مرات) ، وجزء منها باضافة حروف لها صوت .

اتخذ اليونانيون هذه الكتابة وحسنوها خصوصا باستخدام بعض الحروف للحركات الصوتية وقد حدث ذلك فى القرن الثامن ق . م حينما كانت اليونان تنشر تجارتها نحو الشرق . ولم يمض وقت طويل حتى استخدمت الكتابة فى ايطاليا نقلا عن اليونان وليس عن الفينيقيين مباشرة . وأقدم نقش فى قبرص هو ما وجد مكتوبا على اناء من البرونز كرس لبعل لبنان من محافظ Qarthadasht خادم (حيرام) ملك الصيداويين وهو مؤرخ من النصف الثانى من القرن الثامن . واقدم نقش بونى فى قرطاج كتب على صدرية (بندنتيف) محفوظ بمتحف Lairgerie كشف عنه فى قبر من جبانة Douimes مؤرخ من القرن السادس كتب عليه « الى عشتارة ، الى بيجماليون Yadamilk بن Padai الذين أنقذهم بيجماليون أنقذوا » . واقدم نقش فى سردينيا ما وجد مكتوبا على حجر Nora وقطعتان من Bose وهما من القرن التاسع ق.م.

أما الادب القرطاجى فقليل وفيما يلى أهداء من العصر البونى « الى السيدة تانيت Tanit (وجه بعل Face of Baal) والى السيد بعل حمون : هـذا ما أهداه (بوداشتارت Bodashtart) بن (هاميلكار Hamilcar) بن عبد ملقارت Abdmelgart) بن (بوداشتارت) لأنه سمع لدعائه » .

اما أسماء الاعلام فى اللغة الفينيقية فهى تشير الى خاصية وغالبا ما تكون جملة قصيرة أو شكر ، وهى تبين الأفكار الدينية عند الفينيقيين، ومنها ما يتكون صدره من اسم « عبد » أى خادم و « أمه » أى خادمة ، ومنها ما هو ثناء على الرب مثل « متان بعل = هدية بعل » ، « هانيبال معناها بعل رحيم » . ولذلك يجب أن تنطق هذه الأخيرة « حنيبعل » .

وأهم نص هو شاهد Mesha (١) وهو مكون من ثلاثة وأربعين سطرا من أخبار الحروب بين بلاد مؤاب Moab واسرائيل أيام عمري Omri و Ahab وكان عمري قد استولى على بلاد مادابا Madaba وظلت سيادة اسرائيل فيها أيام عمري وبعض أبنائه من بعده ولمدة أربعين سنة . جاء فيه « امرني Chemosh أن اذهب وآخذ نيبو Nebo من اسرائيل فسرت اليها ليلا وهاجمتها منذ طلوع النهار حتى الظهر واستوليت عليها وقتلت الجميع : سبعة آلاف رجل ، وامرأة وبنت وجارية لانى كنت وعدت بابادتهم من أجل (عشتارة شموش Astarte Chemosh) وحملت من هناك (أواني) يهوه Yahweh وسحبتها امام Chemosh وجاء على تابوت تابنيت Tabnit من صيدا ما يلى : «لا تفتح قبرى » وينتهى « لا تزعجنى لان من يفعل ذلك فهو رجس موجه الى عشتارة واذا تجاسرت لفتحه وأزعجتنى فربما لن تصبح لك ذرية تحت الشمس بين الناس وسوف لا يكون لك مكان تهدأ فيه فى الظل » . اما نصوص تابوت الملك أشمونزار الثانى Eshmunazar فهى طريفة فقد ذكر ما يلى : « قبضت روحى قبل الاوان وعمرى سنوات قليلة ، وأنا يتيم ابن أرملة ... وانا استحلف كل أمير وكل رجل الا يفتح مكان راحتى هذا ، والا ينتزعنى من هنا ليدفننى فى مكان آخر ، واذا نصحك ناس بذلك فلا تصغ الى كلامهم ، لان كل امير وكل رجل يفتح مكان راحتى هذا أو ينزع هذا التابوت ... فليكن محروما من كل راحة بين الظلال ، ومحروما من قبر يواريه ... »

ثم يضيف « نحن اللذين (اشمونزار ووالده الملك تابنيت) بنيا معابد للالهة الصيداوية فى صيدا بلد البحر ... ولهذا وهب لنا سيد الملوك دور Dor ويافا Joppa وهى البلاد القوية لداجون Dagon الموجودة فى سهل Sharon ، من أجل الاعمال العظيمة التى قمت بها وقد أضفناهم الى حدود الولاية وعلى ذلك فهى لابد ان تكون ملكا لصيدا الى الابد » . وقد بينت هذه الوثيقة امتداد قوة الصيداويين الى الجنوب فى القرن الخامس .

وعثر حديثا بين عامى ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ عند Kara Tepe فى Taurus على نص فينيقى من القرن الثامن ق.م. ونص حثى ، وقد اقام هذا الاثر Asitawandas ملك Danunians ، يذكر فيه القضاء على أعدائه وكتب كل من النصين فى ثلاثة أعمدة طولية من نحو عشرين سطرا .

* * *

(١) W. F. Albright in J. B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts (1955), pp. 320 ff. and E. Ullendorff in Documents from Old Testament Times (ed. D. Winton Thomas, 1958), pp. 195 ff.

تذييـــــل

قام (١) W. F. Albright أخيرا فى هذا العام (١٩٦٦) بنشر بحث طريف عن سورية وفلسطين وفينيقية ، رأيت من الخير أن أختم به تلك الدراسة السريعة عن تلك المنطقة .

شعوب البحر فى فلسطين

أشرنا من قبل الى هجرات شعوب البحر على سورية وفلسطين ، وانهم حاولوا أيام رمسيس الثالث فى بداية القرن الثانى عشر دخول مصر عن طريق البحر واليابس وذلك قبل السنة الخامسة من حكم هذا الملك. وقيل ان أول أرض غزيت هى أرض الفينيقيين (جاهى) . كما جاء فى نصوص السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث وانتصاره البحرى الثانى.

وبينما تذكر نصوص السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث وجود صلة بين هذا الغزو وحركات الهجرة التى انهت الامبراطورية الحثية كما سنرى فيما بعد ، فهناك حقيقة واضحة وهو أن هذين الغزوين كانا يمثلان جزءا من اضطرابات كبيرة .

لقد قضى على الحثيين كما سنفصل ذلك فيما بعد بشعوب من اليابس اندفعت فى قلب الاناضول ، جاء خبرها فى نصوص الملك تيجلات ــ بيلاصر الاول ، وانها وصلت جنوب غربى أرمينيا حوالى عام ١١٦٥ . وتضم هذه الهجرات خمسة شعوب : مثل اثنان منها يحاربون داخل سفن . وقد استخدمت القوات الارضية للمهاجرين مركبات للحرب لها عجلات ثقيلة تجرها ثيران لها سنام .

وقد كانت الشعوب الخمسة التى ذكرت فى نصوص رمسيس الثالث موضع جدل كبير بين العلماء : وهم : البلست Peleset (Pr/lst) ، والثكر Tjekker (Tjik (k) al/r) ، والشكلش Sheklesh (Shekr/lushe)، والدنن Denen (Danuna) ، والوشش Weshesh (Washeshe) .

W. F. Albright, The Amarna Letters from Palestine, Syria, The Philistines and Phoenicia, Cambridge (1966).

والشعب الاول ، هـو الشعب الفلسطينى الذى جاء ذكره فى الـكتاب المقدس . والشعب الثانى ، هو غالبا التوكريانى Teucrians أو الذى جاء وصفه فيما كتبه هومر تحت اسم Sikeli والذى احتل جزيرة صقلية Sicily . والشعب الثالث ، شعب غير معروف . والشعب الرابع ، سكن بلاد دانونة Danuna التى جاء ذكرها فى خطاب ابى — ملكى امير صور (من خطابات العمارنة) ، وجاء ذكره مؤخرا فى قبرص تحت اسم Yad (a) nana ، وكذلك جاء ذكره فى قليقية كبلاد Dunym . والشعب الخامس غير معروف .

وقد حاول Albright فى بحثه هذا أن يبين اهمية الفخـار الفلسطينى المؤرخ بالقرنين الثانى عشر والحادى عشر ق.م. ، وقد نشأ أصلا فى حوض بحر ايجه ، وانه جاء الى فلسطين عبر قبرص .

ثم تسـاءل Albright عن أصل الفلسطينيين ، فذكر أن الكتاب المقدس يرجعهم الى كافتور Caphtor (تكتب بالاكدية Kaptara كريت . فكان يوجد جنوب غزة ، موطن سكنة الكريتيون ، وأن داود استخـدم فرقا خفيفة مسلحة من الكريتيين عملوا معه كمرتزقة . وقد ذكر احـد المؤرخين القدامى (Xanthus) (وهو معاصر لهيردوت) أن الفلسطينيين كانوا مستعمرين جاءوا من ليديا .

وقد أعاد Albright مناقشة الفرق بين Philistines and Pelasgians الفلسطينيين والپلاسجيين . فقد ذكر هومير أن طرواده الجنوبية كانت مستوطنة بالجماعات الپلاسجية ذات الحراب ، كما أن هيردوت ، وهـو مواطن من هاليكارناسوس Halicarnassus فى كاريا Caria يعيـد الايونيين Ionians والايوليين Aeolians الى أصل پلاسجينى . ولدينا بيانات لاسماء أعلام تؤكد نسب الفلسطينيين الى المنطقة الجنوبيةالغربية لآسيا الصغرى : مثل جولياث Goliath ، اشيش Achish . وكذلك جاء فى قصة ون آمون اسماء ثلاثة رؤساء من الفلسطينيين : واركاتير Waraktir (Wr/lktr/l) ، ووارت Waret (Wr/lt) ، وماكامار Makamar (Mkmr/l) . وقد تأكد لنا الآن بعد الدراسات المختلفة (١) أن أصل هذه الاسماء من جنوب غرب الاناضول . وقد قرأ Goetze هذه الاسماء كما يلى :

Warkat/dara, Ward/ta and Mag/kamola.

وكلها لها اللهجات اللوية Luwian . وقد انتهى Albright الى

A. Goetze "Cilicans." In J.C.S. 16 (1962), 50, n. 25.

احتمال أن الفلسطينيين يتشابهون فى كثير من الحالات مع البلاسجيين ، وأن لغتهم كانت لهجة لوية .

وبعـد وفاة رمسيس الثالث ركز الفلسطينيون والاجناس الاخرى المنحدرة منهم أعمالهم فى التجارة البحرية والبرية . وبعد ذلك بقرن ، لا زالت جماعة الثكر تتمتع بسلطان بحرى قوى أكثر من امارة بيبلوس ، وكانت هناك محالفة تجارية بين الامير الفلسطينى واراكتير (واركاتارا) وصيدا . ولما لم يوجد حقائق تشير الى تفوق الفينيقيين فى الاستعمار قبل القرن العاشر ، فليس هناك من شك فى أن الفلسطينيين وبعض شعوب البحر الاخرى كانوا يسيطرون على المياه فى الجنوب الشرقى للبحـر المتـوسط حتى قضى عليهم الصـوريون فى القرن العـاشر . وقد قام الفلسطينيون فى هذه الفترة مراكز استراتيجية فى سـهل اسدراليون Esdraelon ووادى الاردن (خصوصا بيت شان وسوكوث) وذلك فى الفترة السابقة لهجرات شعوب البحر أيام رمسيس الثالث .

* * *

الفصل الخامس

الآراميون

تقديم :

تخلف الآراميون (١) عن ركب الحضارة ، ولم يظهروا الا فى الحلقة الاخيرة من الالف الثانى قبل الميلاد ، حيث كانت الحضارات القديمة فى الشرق القديم فى أوج عظمتها وازدهارها فى وادى النيل والرافدين . كما أن حضارتهم لم تعمر طويلا أكثر من خمسة قرون ، كما انهم لم يكونوا مبتكرين ودورهم فى هذا الفلك لم يكن رئيسيا كل ذلك نتيجة تفككهم وعدم اتحادهم فلم يستطيعوا أن يقيموا دولة واحدة متحدة بل كونوا ما يشبه دويلات المدن شبيه بذلك الذى سيظهر فى اليونان . وبالرغم من ذلك كله فقد كانوا حجر عثر فى سبيل تقدم الاشوريين ، كما كسروا شوكة الاسرائيليين . من أجل ذلك اتصل تاريخهم بتاريخ جايرنهم الاشوريين والعبرانيين .

ويعتمد المؤرخون فى معرفة تاريخ آرام القديم على ثلاثة مصادر رئيسية ، أولها نصوص الكتاب المقدس ، وثانيها النقوش المكتوبة المسمارية الاشورية ، وثالثها المصادر الآرامية القديمة . ولن يتسع المجال لمناقشة المشاكل التى ستمر بنا مناقشة مسهبة ، ولكن سنحاول أن نضمن هذه النظرة العابرة فى تاريخ وحضارة آرام القديمة بعض تراجم النصوص الآرامية معتمدين فى ذلك على آراء مختصين من علماء فى اللغات التى كتبت بها هذه النصوص .

وسنضع أمام القارىء الكريم فى نهاية الحديث عن الآراميين صورة مبسطة عن لغتهم ، لانه بالرغم من تلاشى نفوذهم السياسى ، فان آثارهم اللغوية ظلت حية فترة طويلة من الزمن حتى بعد ان انمحت دويلاتهم ،

(1) A. Dupont — Sommer, Les Arameens, Paris (1949).

هذا وقد ترجم هذا الكتيب الى اللغة العربية فى احد اعداد مجلة سومر اخيرا ، ولكننى آثرت الرجوع الى الاصل الفرنسى .

فسنرى أن اللغة الآرامية ستصبح اللغة الرسمية للامبراطورية الفارسية، وستحل محل العبرية فى فلسطين ، ويكتب اليهود بها تراجمهم مثل التلموذ ، وسينادى يسوع الناصرى بالآرامية ، وسينتشر الالهة الآرامية القديمة فى الامبراطورية الرومانية كلها .

وسنرى أنه بالرغم من تخلف الآراميين السياسى فى الحضارات القديمة الا أنهم تركوا آثارا عن طريق لغتهم ومعتقداتهم .

* * *

الهجرات الاولى الآرامية

القرن الرابع عشر ــ القرن الثانى عشر ق.م.

يبدو ان بداية تاريخ الآراميين غامض جدا . ففى اى عصر استطاع هؤلاء أن يدخلوا فى أقطار الهـلال الخصيب ، ومن اى مـكان وفدوا ؟ لا نستطيع أن نضع أمام القارىء الكريم اجابة واضحة وصريحة عن هذين السؤالين ، اذ لا نملك حتى ولا اى اسطورة عن اصل هذه الجماعة . على انه يمكننا من جانب آخر ان نفترض انهم اتخذوا صحراء سورية العربية سكنا لهم فى الحقبة الاولى لتاريخهم ، وذلك لان أغلب الساميين الذين غزوا بلاد الرافدين وسورية استقروا اولا فى تلك الصحراء .

وعند ما نعتمد على الروايات التى جاءت فى الكتاب المقدس ، نجـد أن « الآباء » ذكروا أن الآراميين قد اقاموا فى أعالى بلاد ما بين النهـرين منذ النصف الاول من الالف الثانى ق.م. بلاد (آرام نهريم Aram-Naharaim وكذلك بلاد (بدان آرام Paddan-Aram) ، وقد كان يقيم (بتوئيلى Betuel ولابان Laban) ووصفهما الكتاب بالاراميين . كل ذلك لم يسجل الا بين القرنين التاسع والثامن ق.م.

وقد جاء فى الكتاب المقدس ما يفيـد من وجود قرابة أكيـدة بين الآراميين والعبرانيين ، وأصل الأسمين اللذين يطلقان على ذلك الشعب قد اشتقا من (آرام Aram وعبر Eber) . وقد كتب كل من الاسمين متجاورين فى القوائم الخاصة بأبناء ســام ، ومن جانب آخر فقد اختار (الآباء) زوجات آرامية . وقد جاء فى سفر تثنية الاشتراع (٢٦/٥) أن يعقوب الذى كان يطلق عليه (اسرائيل) ــ وهو السلف المباشر للاسرائيليين ــ لقب مرة « الارامى التائه Arameen errant » . وعلى ذلك فقد كان العبرانيـون الاسرائيليون اصــلا من الصحراء الســورية ، أما قرابتهم للآراميين ، التى لا يمكننا تحديدها ، ترجع بدون شك الى الماضى البعيد جدا ، حينما كان يعيش كل جماعة منهما عيشة الرعى فى الصحراءنفسـها. وجدير بالملاحظة أنه بالرغم من الروايات المختلفة ، فهناك مصدر خاص بأسفار موسى الخمسة (التوراة) ، ذكر أن موضع اقامة الآراميين الاول « بلاد أولاد الشرق Pays des fils de l'Orient » (سفر التكوين ٩٢/١) حيث يتقابل يعقوب مع (لابان) وعلى ذلك تعبر العبارة «بلاد أولاد المشرق»

بوجه الدقة فى الكتاب المقدس عن الصحراء الواقعــة الى الشرق من فلسطين وهى الصحراء السورية .

ومهما كان الامر فى هذا الاصل البعيد المشترك بين الاراميين والعبرانيين فلا تسعفنا أى وثائق مكتوبة عن القبائل الآرامية قبل القرن الرابع عشر ق.م. ثم جاء ذكرهم فى احدى رسائل العمارنة ، اذ ذكرت جماعة منهم تسمى « احلامو Akhlamu » ، وهم غزاة أتحدوا مع الآراميين ، وجاء ذكر ذلك فى نصوص متأخرة . ويظهر أن هؤلاء (الاحلامو) أقاموا فى بعض انحاء الفرات . وبعد ذلك بوقت قصير ، عثر على نص آشورى عرفنا منه ان ملك آشور « أريك دنيلى Arik-den-ili » (١٣١٩ ــ ١٣٠٨) قاتل قبيلتى « احلامو وسوتو Akhlamu Sutu » . ولما كانت الحدود الاشــورية فى هذا العهد قد انكمشت حتى منطقة أعالى دجلة ، فالظاهر أن الغزاة الآراميين اتحدوا مع حلفائهم الرحل ونجحوا فى التقدم بغزواتهم حتى تلك المنطقة ، والى ما وراء الفرات بمسافة بعيدة . وفى القرن التالى استمرت تلك الجماعة فى التوغل ونهب بلاد الرافدين ، ومما يؤد ذلك رسالة من ملك الحثيــين « خاتوشيليش الثــالث » الى « كداشمان ــ انليــل الثــانى Kadashman-enlil II» فى حوالى ١٢٧٥ تقريبا تفيد أن « الاحلامو » قد اعادوا الطرق أكثر توكيدا وأمانا بين مملكتيهما » .

مرت حكومة « ميتانى » التى كانت تسيطر منذ عدة قرون على أعالى بلاد الرافدين الى الغرب من آشور بفترة ضعف شديدة ، فقد طمع فيها الاشوريون ، وكذلك تطلع اليهم الحثيون (كما سنفصل ذلك فيما بعد) فهذا الملك « شلمناصر الاول » (١٢٧٤ ــ ١٢٥٤) يجرد حملة ضــد الملك « حانيكالبات Khanigalbat » (بمنطقة الخابور) ويحارب ايضا الحيثيون والاحلامو الذين كانوا يريدون القضاء على الميتانيين وافتراسهم

وقد عاد الصراع ضد الاحلامو أيام خليفته « توبكولتى نينورتا الاول » (١٢٤٤ ــ ١٢٠٨) ، فقد أعلن هــذا الملك انه غزا كل منطقة الفــرات الاوسط « بلاد مارى Mari » وبلاد حنا Khana (عانه) ، وبلاد ريبقو Rapiqu وجبال أحلامو » .

وحوالى عام ١٢٠٠ ق.م سقطت الامبراطورية الحثية ، فقد قضت شعوب تعرف « بشعوب البحر » عليها وامتد نفوذها فطغى على سورية وفلسطين وحاولت نزول مصر الا أن « رمسيس الثالث » حاربهم وطردهم وكان تعد آشور حائلا دون هجمات تلك الشعوب . وبدأت آشور من جديد حينما أحست بزوال قوة الحيثيين تتطلع للتوسع فى الناحيــة العربية ، ولغزو السهل الرافدى الذى يشرف على مدخل البحر المتوسط

ولم يدر فى خلد الاشوريين أن الاراميين كانوا يقيمون فى تلك البقعة ، ويستقبلون بدون توقف من الصحراء امدادات جديدة وبصفة مستمرة من الرجال . ودخـــل آشور ــ ريش ــ ايش Assur-resh-ishi (١١٤٩ ــ ١١١٧ ق .م تقريبا) فى حرب معهم ، وكان يفتخر بانه ذبح « الفرق العديدة من الاحلامو » . لكن هؤلاء كانوا يتكاثرون بسرعـة ، وكانوا كثيرى الاغارة كلما عضهم الجوع ويحبون دائما الاراضى الخصبة حيث يحبون الاقامة فيها .

وفى عام ١١١٤ اعتلى « تيجلات بيلاصر الاول » ابن آشور ريش أيش العرش وكان فاتحا عظيما ، وقد صمم أن يجعل من آشور امبراطورية واسعة . فمنذ عام ١١١٢ حارب « تحت رعاية سيدى الاله آشـور ، أخذت عـرباتى ورجالى الاقوياء ، فوصلت الصحـراء ، وتقدمت ضـد احلامو ــ الاراميين ، أعداء سيدى الاله آشور . ودمرت فى يوم واحد من بلاد سوشى « حتى مدينة كركميش Karkemish » التى كانت واقعة فى بلاد الحشيين وقتلتهم ، وجئت بالغنائم ثانيا ومتاعهم واموالهم الكثيرة . وقد هرب ما تبقى من فرقهم التى كانت امام أسلحة سيدى الاله آشور القوية وعبرت الفرات ، وقد ركبت الفرات خلفهم على ظروف من جلد . وفتحت ستا من مدنهم التى تقع عند أسفل جبل بشرى Bishri ، وحرقتها بالنار ، وهدمتها وابدتها ، وجئت بغنائمها ومتاعها وخيرات أملاكها الى مدينتى آشور » . وبعد أن قضى الملك على تلك العقبة وهدأت الامور تقدم الى لبنان والى بلاد آمورو Amurru وهكذا وصل الى البحر وتسلم الجزية من المدن الفينيقية بيبلوس وصيدا وارودا .

لكن هذه الغزوات لم تكن ناجحة الا نجاحا مؤقتا فقط . فلم يقض على أحلامو قضاء تاما ولم ينزعوا سلاحهم نهائيا ، واعلن الملك نفسه فى نهاية حكمه فقد مات حوالى عام ١٠٩٠ ق.م. ما يلى : عبرت الفرات ٢٨مرة خلف أحلامو ــ الاراميين ، مرتين كل عام . ومن مدينة تدمر (بالميرا) التى كانت تقع فى بلاد أمورو ومن مدينة عناة الواقعة فى بلاد سـوحى Sukhi حتى مدينة ريبقو Reipiqe التى كانت فى بلاد كردونياش Karduniash ، لقد حققت هزيمتهم ،وجئت الى مدينتى آشور بغنائمهم واملاكهم .يفهم من ذلك أنه قام بثمان وعشرين حملة ليطهر شاطىء الفرات من كركميش حتى بابل ، وتركوا حياة البداوة فى بعض الاماكن فى ستمدن من منطقـة جبال بشرى Bishri ، وكان من الواجب تتبعها حتى بالميرا فى وسـط الصحراء السـورية والتى تأتى اليهـا الامدادات التى تنقطع .

ولوحظ أن النصين الاخيرين أوضحا أن اعـداء آشـور لم يسـموا

« أحلامو » وانما ذكروا بالاسم المزدوج « احلامو ـ ارامیین
Akhlumu-Arameens
وستمر علينا هذه الاشارة المزدوجة فی كثیر من النصوص المتأخرة ، خصوصا فی نص اداد نیراری الثانی (٩١١ ـ ٨٩١) الذی وصفهم بـ « شعب الستب Gens de la steppe ای سکان الصحراء وجاء فی نص من أيام آشور ناصر بال الثانی Assurnacirpal II « انه سبا ١٥٠٠ أحلامو ـ آراميين من بيت زماتی Bit-Zamani التی تقع فی أعالی نهر دجلة . ولكن غالبا من الان فصاعدا أطلق عليهم « الاراميين» بينما لاتزال نصوص كثيرة تسميهم « أحلامو » .

لانعرف من أين أتت هذه التسمية الاخيرة ؟ . لماذا وجد اسم احلامو مزدوجا مع الاراميين ثم حل محله تدريجيا الاراميون ؟ نستطيع ان نذكر أن الاراميين كانوا من صلب الاحلامو ثم تفرقوا على بقية بطون القبيلة وعملوا على الاحتفاظ باسمهم وفرضوه على العنصر الاحلامی . ومحی الاسم الاول تاركا مكانه للاسم الثانی وهو (الارامی) . وهكذا كان اسم الاسرائيليين يشير الى بطن من بطون جماعة العبرانيين ، ثم تغلب اسمهم عبر الاجيال وأطلق اسم الاسرائيليين على الجماعة كلها .

* * *

ارتفاع شأن الحكومات الآرامية

(القرن الحادي عشر ـ القرن العاشر ق . م .) :

ان الضربة القوية التى قام بها تيجلات بيلاصر الأول لم توقف نشاط الأراميين الا فترة بسيطة لأنها لم تكن حاسمة . فمنذ أيام « آشور بلكالا الأول Assur-belkala I » ولده (١٠٧٣ ـ ١٠٥٦) وخليفته الثانى، لوحظ أن الخطر لازال قائما ، فجرد هذا الملك حملة على الأراميين . وقد وصلتنا نصوص على ما يسمى « المسلة المكسورة » تفيد قيام هذا الملك بحروب عدة ضد الأراميين . وقد استوطن الأراميون فى منعرج الفرات ، وأسسوا هناك مملكة سميت « بيت أدينى Bit-Adini » وكانت عاصمتها « بل برسيب Til-Barsib (تل الأحمر حاليا) وهى أهم المدن فى تلك المملكة . وكانت تمتد حدود هـذه المملكة الى الشرق حتى نهر « البليخ Balikh » . وجاء فى نص من عهد « شلمناصر الثالث » يفيد أنه تحت حكم « آشور ـ رابى Assur-rabi » (١٠١٢ ـ ٩٧٢) . سلب « ملك الاراميين » مدينة « پيترو Pitru » واحتلها ، وكانت تقع عنـد نهر « ساجور Sadjur » ، على بعد قريب من مدينة « كركميش » ومدينة « موتكينو Mutkinu » على الضفة اليسرى لنهر الفرات .

لقد شاهـد القرن الحـادى عشر أعنف غزوات الأراميين على أعالى الرافدين . وحقا نستطيع أن نطلق على هذا العمل فى هذه المرة غزوا ، فقد تمكن الأراميون من وضع أيديهم على كل البلاد وفتكوا بالناس فتكا ذريعا ، فضلا عما كان موجودا فى « بيت أدينى » . هذا وقد استطاعت دويلتان آراميتان فى « وادى البليخ » وغيرهما فى وادى الخابور خصوصا « بيت بيحـانى Bit-Bakhiani » وكانت لهم عواصـم أهمها « غوزانا Guzana » و « سيكانى Sikani » ، وثلاث مدن فى شرقى أعالى الخابور وهى « نصيبين Naçibina وحوريزانا Khurizana وجيدارا Gidara » وقد أسستها القبيلة الأرامية التى كانت تسمى « تيمانيـا Temania » . وقد امتد نفوذ الأراميين الى الشرق ، فاحتلت قبـائل « ساچور Sukhu » الأرامية شواطىء الفرات من « عانة Anat » الى « رپيقو » ، بينما احتلت « لاقى Laqe » السهل الجنوبى عند مرتفعات « سنجار Sindjar » ، واستولت جماعات « أوتواتى Utuate » شواطىء دجلة بين رافد الزاب Zab الى نهر العظيم Adhem .

وعلى ذلك أصبحت آشور محاصرة تماما ، لا يوجد بها منفذ لتجارتها الخارجية وأصبحت فقيرة.وفى محنة ، ولكنها كانت تحتفظ بجيش مدرب قوى ، وله قوة ارادة من جديد ، وفى هذه الظروف المرة الصعبة أخذت تستعد للانتقام . ومنذ القرن العاشر قلت موجة الغزو ، واستقر الاراميون فى الأراضى المحتلة ، وتحضروا ، وأفلحوا الأرض وانكبوا على التجارة . وبوجه عام فقد استقلت حكوماتهم كل واحدة عن الأخرى ولم تتمكن من توحيد قواها ، وقد استطاع بعضهم عادة أن ينجح فى تشكيل اتحاد الا انه كان مزعزعا نتيجة للفتن والعداوات المستمرة بين القبائل الأرامية . وقد استفاد الآشوريون من تلك الخصومات والانقسام .

كان للموجة الأرامية على أعالى الفرات اثرها على حكومة بابل فى بداية القرن الحادى عشر . وقد كان الغزو الأرامى من الدوافع الكبرى لاتحاد ملك آشور « آشور ــ بل كالا Assur-bel-kala مع ملك بابل » ممردوخ شفيك ــ زر ــ ماتى Marduk-shapik-zer-mati . ولكن فى عام ١٠٨٣ سقط هذا الأخير وحل مكانه « أداد ــ أفال ــ أدين Adad-apal-iddin الذى جاء فى بعض النصوص أنه « مغتصب آرامى » . وقد كان ملك الآشوريين سياسيا ماهرا فاعترف بالملك الجديد ، حتى أنه تزوج بابنة المغتصب وقد احضرت له مهرا كبيرا . وبتلك السياسة كان يعتقد ملك آشور أن معظم الهجرات ستوجه نحو بابل ، وفعلا استمر سيل الهجرة نحو بابل ، غير أنه لم تتوقف الارامية نحو آشور نفسها .

واحتلت قبائل آرامية تسمى « دوركوريكالزو Dur-Kurigalzu » جنوبى دجلة وذلك أيام الملك « أداد ــ أفال ــ أدين » سنة (١٠٨٣ ــ ١٠٦٢) . وزيادة على ذلك ، فقد استطاعت القبائل الأرامية الآتية « ليتو Litu » و « حينـدارو Khindaru » و« فوقـودو Puqudu » و « غامبولو Gambulul » الاستيلاء على شواطىء دجلة الشرقية وكانت هذه القبائل تحت اشراف شيوخ محنكين أقوياء . وانحطت المملكة البابلية وانهارت دولتهم . وفى عام ٩٨٦ أيام حكم الملك « نابو ــ موكين ــ بال Nabu-mukin-bal » ، وهو أول ملك من ملوك الأسرة الثامنة البابلية، وقد استطاع البابليون احتلال الجزء الواقع قريبا من الفرات والذى لا يبعد كثيراً عن بلدة « كربلماتاتى Karbelmatati » ، وقطعت الصلة بين بابل و « پارسيپا Parsippa » . وقد كثر الكلدانيون Kaldu » فى جنوب بابل حتى الخليج العربى ، وكانوا رعاة تربطهم بالأراميين صلة قرابة . وكانت تتكون بلاد « كلدو Kaldu » فى حوالى منتصف القرن التاسع من ست دويلات صغيرة هى « لاراق Larak » و « بيت ذكورى Bit-Dakhuri » أو بيت أدينى Bit-Adini » و « بيت أموكانى

Bit-Amukhani » و « بيت شيلانى Bit-Shilani » و « بيت شعالى Bit-shaalli » و « بيت يقينى Bit-Yakini » .

وفى سوريا الشمالية ، وهى المنطقة الواقعة الى الغرب من منعرج الفرات ، نشطت حركة الغزو وبقوة ، ولكن فى هذه البقعة وجد الأراميون عقبة أمامهم من جانب الحثيين الذين كانوا ، حتى بعد القضاء على امبراطوريتهم لهم سيطرة على المنطقة خصوصا فى « كركميش » و « حلب Alep » و « حماة Hamat » . ولم تسعفنا النصوص عن تفاصيل ذلك الصراع . الا أنه مما لا شك فيه أن المنطقة من « ارباد Arapad » الى « حلب » والتى ستعرف فيما بعد بمقاطعة «بيت أغوشى Bit-Aguihi» والتى تقع بالقرب من « بيت أدينى » قد استولى عليها الأراميون . ولكن كركميش قد استمرت تحت سيطرة الحثيين حتى أيام سرجون .

واذا ما تقدمنا شمالا ، نجد أن الأراميين قد تقدموا الى وادى « كراسو Karasu » وهناك عند أسفل جبل « أمانوس Amanus » المملكة الصغيرة المسماة « يعودى Ya'udi » . وتسمى أيضا بالأرامية « سمأل Samal » ، وكان لها عاصمة تسمى « زنچرلى Zendjirli »

وفى الجنوب ، وقعت حماة فى قبضة الأراميين منذ نهاية القرن الحادى عشر . فقد جاء فى الكتاب المقدس (« ٢ صموئيل ٨ : ٩ — ١٠) أنه فى عهد الملك داود كان ملك حماة يدعى « توعى TO'I » وأما ابنه فكان يسمى « يورام Ioram » . واسم الأب غالبا ما يكون من أصل حثى ، أما اسم الابن سامى الأصل .

وقد ظهر فى الاحافير التى أجريت فى حماة عن حضارة فى طبقة آرامية من طبقات الحفائر (« مع وجود نصوص آرامية صغيرة) تلى مباشرة الطبقة الحثية . ومع ذلك لا توجد أى اشارة أثرية أو لغوية تحدد لنا بوجه التأكيد تاريخ مجىء الأراميين والساميين ، وليس هناك ما يمنع من أن نضعهم فى نهاية القرن الحادى عشر . وجدير بالذكر ان الاحتلال الأرامى لم يقض على الحضارة السابقة ، فقد كشف فى حماة عن نصوص الهيروغليفية الحثية تؤرخ غالبا من القرن التاسع . ولكن هذا لا يدعونا أن نتصور أن ملوكا من الحثيين قد حكموا هناك فى ذلك الوقت ، ولكن هى تشير فقط الى أن اللغة والكتابة الحثية كانتا فى هذا الوقت الى جانب الأرامية ، وبوجه عام فان الثقافة الحثية قد أجبرت على الخضوع للغزاة الأراميين الفلاظ .

وعلى أية حال ، فمما لا نزاع فيه ، انه منذ القرن الحادى عشر ، فان الأراميين قد استقروا فى وادى أعالى أورونت ، وفى وادى « الليطانى Litani » وفى كل جنوب سوريا . ففى أيام شاول Saul الملك « سنة ١٠٤٤ ـ ١٠٢٩) وأيام الملك داود (سنة ١٠٢٩ ـ ٢٧٤ تقريبا) ذكر الكتاب المقدس أسماء كثير من الامارات الأرامية وجدت فى هذه الأقاليم منها : ـ

« آرام ـ صوبا Aram-çobah » و « آرام بيت رحوب Aram Bet-Rekhob » و « آرام معكة Aram-Ma'akah » و « جشور Geshur » و « دمشق Damas » . وكانت تقع « صوبا » فى « البقاع Beq'a (Coele-Syrie) ، بينما تقع « بيت رحوب » الى الجنوب، فى الاقليم الأوسط من مجرى « الليطانى » ، وكانت تحتل « معكة » بدون شك منطقة « دان Dan » (تل القاضى) والفولانية ، أما « جشور » فقد كانت فى الناحية الشرقية بين اليرموك ومنطقة دمشق .

اذن من أين اتى الاراميون الذين احتلوا هذه الأراضى ؟ هل جاءوا من الصحراء السورية مباشرة ، أو من سورية الشمالية ؟ أو من بلاد الرافدين؟ ليس لدينا وثيقة تستطيع أن تضع بين أيدينا اجابة واضحة . والشىء الذى لا شك فيه هو أن الآراميين لم يواجهوا من أهل سوريا الجنوبية مقاومة قوية ، فالشعب هنا كان يتكون أساسا من الأموريين Amorrheens والكنعانيين Cananeens وسادت بينهم الفوضى منذ أيام « العمارنة » . وعلى العكس فقد كانت مدن الساحل الفينيقى بيبلوس وصيدا وصور أكثر تنظيما وأكثر حماية ، وقد نجحت فى أن توقع بالغزاة خسارة كبرى ، ولم يستطع هؤلاء الغزاة أن يصلوا الى البحر .

ومن جانب فلسطين ، فقد وقفت مملكة اسرائيل الناشئة تجاههم . ففى حوالى منتصف القرن الحادى عشر تمكنت الجماعات العربية من توحيد قواتها ضد الفلسطينيين ، وكونت مملكة كان على رأسها الملك « شاءول » . ولم يحارب هذا الملك الفلسطينيين فقط ، ولكنه حارب ضد « مواب » و « عمون Ammon » وضد « آدوم Edom » وضد ملك « صوبا Cobah » كما جاء فى الكتاب المقدس (صموئيل ١٤ : ٤٧) . وليس لدينا أية بيانات عن الحرب التى قامت بين « شاءول » وملك « صوبا » . واذا كان الكتاب المقدس لم يذكر بقية أمراء المنطقة من الاراميين فغالبا ما كانوا خاضعين الى ملك « صوبا » .

ولما خلف « داود » « شاءول » كان الصراع مع الآراميين عنيفا . ففى أول اصطدام بين داود والعمونيين ، قرر القضاء عليهم ، واستنجد هؤلاء

بآرامى « بيت رحوب » و ٢٠ الف رجل من آرامى « صوبا » و ١٠ الف رجل من « معكة » و ١٢ ألف رجل من « طوب Top » . وتحرك جيش داود الاسرائيلى وعلى رأسه « يواب Ioab » ضد تحالف عمون وآرام . ودارت المعركة تحت اسوار « ربة Rabbah » عاصمة العمونيين (عمان حاليا) . وانتظم العمونيون فى معركة بالقرب من الباب ، بينما عمل آراميو « صوبا » و « رحوب » وأهالى « طوب » و « معكة » على القيام بحملة قوية . وعلى ذلك كان على جيش اسرائيل ان يقاتل فى جبهتين . وقد كان « يواب » ماهرا فوزع قواته الى قسمين . تقدم هو بنفسه لمواجهة الاراميين على راس جماعة من المختارين ، بينما راس اخوه « أبيشاى Abishai » الفرق العمونية الاخرى : جاء فى الكتاب المقدس ما يلى (صموئيل ١٠/٩ — ١٤) « اذا ما ظفر الاراميون ، قال يواب الى اخيه ، فستأتى لانقاذى . واذا ما ظفر العمونيون بك ، سأذهب لانقاذك . فتشدد ولتتجلد لأجل شعبنا ولأجل مدن الهنا ، وليصنع الرب Yahue ما حسن فى عينه . ثم أردف يواب والشعب الذين معه لمقاتلة الاراميين فانهزموا من وجهه . واذ رأى بنو عمون ان قد انهزم الاراميون انهزموا هم ايضا من وجه أبيشاى ، ويئسوا من هزيمة حلفائهم ودخلوا المدينة » .

ولم يستطع الاراميون الاستمرار فى الحرب . فقد قرر « هدد عازر Hadad-ezer » بن « رحوب » ملك « صوبا » أن ينزل المعركة . وشارك معه الاراميين من الجانب الآخر لنهر الفرات اى آراميو الرافدين . وهكذا تحرك آراميو الشمال وآراميو الجنوب ضد اسرائيل . وكان « شوباك Shobak » قائد جيش « هدد عازر » على رأس كل هذه الفرق ، فنظم مركباته الحربيةومترجلته فاصطف الاراميونللقاء داود وحاربوه ، وقابلهم عند « حيلام Khélam » (غير معروف مكانها) وهزم داود أعداءه وفقد الآراميين ٧٠٠ مركبة وأربعين ألف رجل وقتل « شوباك » فى المعركة . وذكر فى الكتاب المقدس فى هذا الشأن بالاضافة الى ما سبق أن اشرنا اليه ما يلى « فلما رأى جميع الملوك أن هدد عازر قد انكسروا امام اسرائيل تعبدوا لهم ، وخاف الاراميون أن يعودوا الى نجدة بنى عمون (صموئيل ١٠ : ١٥ — ١٩) .

ويقص الكتاب المقدس غزوة اخرى لداود ضد الاراميين (صموئيل ٨ : ٣ — ١٠) . « وكان الخصم الرئيسى جنوبا هنا أيضا كالمعتاد » فعن ملك هذه الدويلة ، وهو هدد عازر بن رحوب أن « يذهب ليسترد سلطته على الفرات » اى ليثبت سيطرته على آرامى ما بين النهرين . وكان قد تلقى من تلك الأقوام عونا عسكريا فى الحروب السابقة . غير انه يرغب الآن أن يقيم من الفرات الى الأردن اتحادا من الدويلات الارامية من الفرات حتى الأردن ، وكان يعمل على أن تكون « صوبا » عاصمة تلك الامبراطورية

الآرامية . ولكن قضى داود على أحلامه وهزمه فأخذ منه « ۱۷۰۰ فارس وعشرين الف رجل وعوقب داود خيـــل جميع المراكب وتبقى منها مئـــة مركبة » ، وبالاضافة الى ذلك أخذ منه الدروع الذهبية التى كانت مع عبيد هدد عازر ، وكذلك كميـــة كبيرة من البرونز جىء بها من منـــاجم « صوبا » وقضى داود على أرامى دمشق المتحالفين مع هذا الملك ، فقتل منهم ۲۲ الف رجل ، واقام فى معسكرات فى آرام دمشق ، وبذلك اضطر الاراميون الى الخضوع لداود ودفعوا له الجزية .

واشار نفس المصدر الى أن « توعى ، TO'i » ملك حماة كان عدوا لهدد عازر ملك « صوبا » فلما علم بهزيمته « أرسل ولده يورام الى داود الملك ليقرئه الســـلام ويباركه لأنه قاتل هـــدد عازر وكسره » وقـــدم له زهريات من فضة وذهب وبرونز . وقد وضحت عداوة ملك حماة لملك « صوبا » ، لأن هذا الأخير كان يعمـــل على احتـــلال المنطقة بينـــه وبين الفرات . ألم يكن من الواجب عليه أولا أن ينشر سلطانه على الأورونت الأوسط وعلى منطقة حماة . وبارسال « توعى » هدايا الى داود ، اعتبره هذا الأخير مواليا له . وقد تبين له أن حماية ملك اسرائيل له أقل خطورة من جاره القريب .

استطاع داود بهذه الغزوات الثلاث القضاء على قوة « صوبا » وعلى الدويلات الآرامية الأخرى المجاورة لها . وقد وصـــل سليمان بن داود وخلفاؤه (سنة ۹۷۳ ــ ۹۳٦ تقريبا) باسرائيل الى قمة المجـــد « فكان سليمان متســـلطا على جميع الممـــالك من النهر (الفـــرات) الى أرض فلسطين ، والى تخم مصر يحملون الى سليمان الهدايا خاضعين له كل أيام حيـــاته ... لأنه كان متســـلطا على جميـــع عبر النهـــر من « تفســـاح Tipaskh » (الواقعة غربى مصب نهر البليخ فى الفرات) الى غزة على جميع ملوك عبر النهر ، وكان بينه وبين جميع من يليه سلم من كل جهة (الملوك ٤ : ۲۱ ــ ۲٤) . تفيد هذه الاشارة الى أن مملكة سليمان قـــد امتدت على كل سورية . الا أن هذه العبارة تميل الى الزهوة والمبالغة ، فليس هناك ما يدل على أن سليمان قد ضم الى ملكه أقطارا بعيـــدة عن فلسطين وأنه كون امبراطورية أوســـع من تلك التى كان يحلم بهـــا ملك « صوبا » ، ولكن الانتصارات المتتالية على الآراميين دفعت اسرائيل الى الوهم بأنها تسيطر فعلا على المنطقة كلها وقد خدعتهم أحلامهم قديمـــا بذلك ويحاولون فى العصور الحديثة أن يوقظوا هذه الأوهام ولكن العرب لن يتركوهم فى تلك الأضـــغاث . وسيحررون أرضهم وبلادهم ووطنهم فلسطين العربية .

وجاء فى الكتاب المقدس « ومضى ســـليمان الى حماة صـــوبا وتغلب

عليها ، وبقى تدمر (بالميرا) فى البرية وجميع المدن المجاورة فى (اقليم) حماة » (٢ أخبار ٨ : ٣ — ٤) . وهنا أيضا افتراء آخر من الاسرائيليين بادعائهم أنهم أصبحوا أسيادا فى هاتين المدينتين ، وليس هناك دليل ثابت على صحة ادعائهم هذا وانهم مسيطرين على هاتين المدينتين الواقعتين بين فلسطين والفرات . ولكن من الجائز أنه كان على صلة تجارية أو ماشاكل ذلك فقد رأينا أن أباه داود قد تلقى بعض الهدايا من ملك حماة . اما فيما يختص بتدمر ، فقد كانت منطقة تجمعات الاراميين الرحل ، يبدأون منها على الأقاليم الخصبة .

وعلى أية حال ، فقد أورد العهد القديم معلومات هامة عن تاريخ الاراميين فى سورية فى القرن العاشر : « وآثار الرب فاتنا آخر على سليمان ، رزون بن الياداع ، وكان قد هرب من عند مولاه هدد عازر ملك صوبا . فجمع اليه رجالا وصار رئيس غزاة عندما كان داود يدمرهم فانطلقوا الى دمشق وأقاموا بها وملكوا فى دمشق . فصار فاتنا فى اسرائيل كل أيام سليمان » (١ ملوك ١١ : ٢٣ — ٢٥) . وقد رأينا أن ملك « صوبا » قاسى أيام داود هزائم مرة ، حقا ان « صوبا » قد قوضت شوكتها وقد كسرت : فقد أسر داود عددا كبيرا من فرقها ، وقضى على مركباتها حينما قطع عواقيب خيلها . وقضى على دمشق ووضع فيها ثكنات بها جنود اسرائيليين . ولكن أحد ضباط مملكة « صوبا » يدعى « رزون Rezon » خرج على ولاء سيده وكون هو وبعض الرجال الاشداء الأحرار فرقا لمقاومة المستعمرين الاسرائيليين وطردهم من دمشق وأقام نفسه ملكا عليها . وتسلمت دمشق من هذا التاريخ زعامة العالم الآرامى فى سوريا ، وقادت الصراع ضد العبرانيين ، حتى أنه جاء فى النصوص الآرامية القديمة اشارة الى أن ملك دمشق كان يطلق عليه لقب « ملك آرام » فقط . وكان « رزون » هذا الآرامى السورى العدو الأكبر لاسرائيل . وليس لدينا أية وثيقة عن تفاصيل الحروب أيام سليمان ، ولكن عداوة ملك دمشق تحدد هذه السيطرة الكبيرة على كل البلدان السورية التى نسبتها الأسطورة الاسرائيلية وخيال الاسرائيليين وأوهامهم الى الملك سليمان .

***

نهضة آشور وتقلص النفوذ السياسى للآراميين

القرن التاسع :

بلغت قوة الآراميين اوجها عند نهاية القرن العاشر ق.م. فاحتلوا معظم أعالى الرافدين وجعلوا الأشوريين فى أشد الضيق والحرج (شكل ٢٧) . وأمكنهم فى سورية الاستيلاء على مملكة اسرائيل الناشئة واخضعوها فترة من الزمن ولكن سرعان ما نهضوا من كبوتهم واعادوا تأسيس مملكتهم . فعند وفاة سليمان عام ٩٣٦ ق.م قسمت المملكة الى قسمين ، احتفظ « رحبعام Roboam » بن سليمان بالقسم الجنوبى ، وكانت عاصمته « أورشليم Ierusalem » ، وسميت مملكة « يهودا Iuda » بينما حكم « يوربعام Ieroboam » الغاصب القسم الشمالى جميعه وسمى مملكة اسرائيل وقد استفاد الآراميون من هذا الانقسام بين العبرانيين واستطاعوا أن يستقلوا بزعامة دمشق .

ودقت ساعة اليقظة فى آشور ، واستطاعت أن تستعيد هذه الأمة الفتية مجدها وذلك بفضل وطنية أهلها وما تحلت ادارتها وشئونها بنظم دقيقة ، وقد سبق أن رأينا خضوع الآراميين لنفوذ الأشوريين أيام أداد تيرارى الثانى ، وتوكولتى نينورتا واشور ناصربال .

واثناء هذه الفترة ، كانت تتمتع مملكة دمشق باستقرار كبير . فلم تكن التهديدات موجهة من الأشوريين اليها مباشرة مثلما كان الحال تجاه البلدان الارامية الشمالية ، ومن جانب آخر فان التنافس بين المملكتين العبرانيتين قد افسح الطريق أمامها لانجاز مشروعاتها العمرانية الكبيرة فهذا هو « أسا Asa » ملك « يهودا » قد وقع فى خلاف مع ملك اسرائيل « بعشا » فى بدء القرن التاسع فيعتدى على أرضه . وتراه يعتمد على ملك دمشق الآرامى طالبا منه العون ضد عدوه ، وكان ملك دمشق فى هذا الوقت هو « بن هدد طاب ريمون بن حزيون Ben-Hadad Tab-Rimmon Fils de Khozion » ، وقد أرسل « أسا » اليه هدايا ومعها هذه الرسالة : بينى وبينك تحالف وبين والدى ووالدك وهاأنذا أرسل اليك هدية من الفضة والذهب ، اذهب واقطع علاقتك مع « بعشا » ملك اسرائيل لكى يتوقف عن حملى الا أطيق (٢ أخبار ١٦ : ٣) . والظاهر ان ملك دمشق قد وقع عهدا مع مملكتى يهودا واسرائيل فى وقت واحد .

ولكن وجد الفرصة قد هيئت لغزو اسرائيل : فجاء فى سفر الملوك (١ ملوك ١٥ : ١٦ — ٢٢) ما يلى « فوجه رؤساء جيوشه الى مدن اسرائيل وضرب غبون ووان وآبل وغيرها وكل اقليم كناروت Kinnerot ، وكذلك اراضى نفتالى Nephtali » ومعنى ذلك كل شمال مملكة اسرائيل . عند ذلك توقف « بعشا » عن الضغط على يهودا ومضايقتها ، وانقذ « أسا » . ولكن الآراميين هم الذين حصدوا نتائج هذا الصراع الأخوى .

وجاء اسم ملك دمشق هذا على لوح كشف بالقرب من حلب (وهى تقع على بعد ٧ كيلو مترات من حلب عند بريج Breidj) . وصور على اعلى اللوح الاله الفينيقى « ملقارت » ، ومعه النص الآرامى « لوح وضعها بر هدد بن طاب يحون بن حزيون ملك آرام ، من أجل ربة ملقارت لوح كرسه من أجله ، لأنه سمع صوته » . ولم نتأكد أن كان المكان الذى كشف فيه اللوح هو المكان الأصلى لهذا اللوح ، ولكن ليس هذا غير ممكن لأنه يحتمل أن ملك دمشق قد تدخل فى اقليم حلب ، اما كحليف او كعدو « لبيت أغوشى » ، كما فعل ملك « صوبا » ، أيام حكم داود ، حينما قام بحملة الى الفرات ليعيدها لحكمه .

وفى أيام « عمرى Omri » ملك اسرائيل (سنة ٨٨٦ — ٨٧٥) استمر ضغط ملك دمشق على اسرائيل . وفى الكتاب المقدس فصلة تشير عرضا الى ان والد « بن هدد الثانى » (بدون شك هو بن هدد الأول بن طاب ريمون) قد أخذ مدنا من والد « آحاب Aohab » اى من « عمرى » وأخذ منه الحق فى اقامة اسواق فى السامرة Samarie » عاصمته (١ ملوك ٢٢ : ٣٤) ونرى عمرى أنه رغم ازدياد قوة اسرائيل وازدهارها ، الا انه هزم أمام دمشق . وكان الخصام مستمرا بين الدولتين وذلك بسبب مشاكل الحدود فى الجليل وعبر الأردن . بالاضافة الى الأمور السياسية والاقتصادية . اذ أن حكومة دمشق كانت تسعى لأن يكون لها منافذ تجارية فى اسرائيل .

ولما تولى « آحاب » الحكم (سنة ٨٧٥ — ٨٥٣) بلغ النزاع أوجه . ففى عام ٨٥٧ ق.م. دخل « بن هدد الثانى » الى فلسطين بجيش كبير العدد وكان يصحبه ٣٢ ملكا . لقد اتحدت فيما يظهر الأحزاب فى اتحاد كبير ضم جميع الأسر الآرامية صغيرها وكبيرها . وجاء أمام « السامى » وحاصرها ، كما حوصر « آحاب » فى عاصمة ملكه ، ولم يستطع ان يجهز الا حامية بسيطة فلم يستطع المقاومة ، وقبل ما فرضه عليه ملك دمشق من جزية من الفضة والذهب . وتمادى ملك دمشق فى طلباته من اسرائيل، ففرض عليه أن يسلمه زوجاته وأطفاله ، ورفض « آحاب » وعزم على عدم

تحقيق الرغبة الأخيرة . وفى وقت الظهيرة ، وبينما كان الآراميون يأخذون قسطا من الراحة ويتناولون الشراب فى مخيمهم باغتهم الاسرائيليون وقتلوا منهم الكثير وانهزم الاراميون وفروا وتركوا خيولهم ومركباتهم وفر « ابن هدد » على فرس مع نفر من خيالته (١ ملوك ٢٠ : ١ — ٢١) .

لقد استاء ملك دمشق من تلك الهزيمة ، ففى العام المقبل جمع جيشا جديدا واتجه نحو فلسطين وتقدم « آحاب » هذه المرة لمواجهة عدوه ، فتقابل الاثنان عند « أفيق Apheq » وجاء فى (١ ملوك ٢٠ : ٢٢ — ٣٤) « فنزل هؤلاء تجاه سبعة أيام . ولما كان اليوم السابع التحمت الحرب فقتل بنو اسرائيل من الاراميين مئة ألف رجل فى يوم واحد .وهرب الباقون الى أفيق . وحاصر بنو اسرائيل هذه المدينة واحتلوها سريعا . وأخذ بن هدد يهرب من بيت الى بيت . أما عبيده فشدوا مسوحا على متونهم وجاءوا الى ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك ابن هدد يقول : أتوسل أن تستبقى نفسى . فقال آحاب : أوحى هو بعد ؟ انما هو أخى . فاستبشر بن هدد خيرا واستسلم . فأصعده آحاب على مركبته وقطع عهدا قال فيه بن هدد : المدن التى أخذها أبى من أبيك اردها عليك وتجعل لك أسواقا فى دمشق كما فعل أبى فى السامرة فقال : وأنا أطلقك بهذا العهد . وقطع له عهدا وأطلقه » .

لماذا كان « آحاب » رحيما مع عدوه الخطير ؟ فالاسرائيليون دائما أصحاب منفعة ولابد أنه كان من وراء ذلك الصفح أهداف ، فى هذا الوقت كانت تجرى فى الشمال احداث خطيرة ، فقد تولى « شلمناصر الثالث Salmanasar III (سنة ٨٥٨ — ٨٢٤ ق . م) الحكم بعد وفاة والده « أشورنا صربال الثانى » .

سبق أن قدمنا ، حينما تحدثنا عن الامبراطورية الاشورية الأولى ، ما قام به شلمناصر الثالث على الحلف الذى قام بتكوينه الاراميون وقد اشترك آحاب ملك اسرائيل مع ملك دمشق فى دفع الخطر الأشورى .

لم يبتعد الخطر الأشورى — الا لمدة بسيطة — واشتعلت نار الحرب بين اسرائيل ودمشق ، ولم تستمر الهدنة الا ثلاث سنوات (١ ملوك ٢٢ : ١) . وكان لدى « آحاب » جيش ومعدات أكثر من معدات ملك حماة وملك دمشق ، فقرر أن يطالب « بن هدد » بمدينة « راموت جلعاد Ramot de Galaad » وهى احدى المدن الواجب اعادتها من ملك دمشق الى ملك اسرائيل بموجب اتفاقية « أفيق Apheq » . وقد تحالف آحاب مع « يهوشافاط Iosaphat » ملك يهودا . وقام الاثنان معا بحملة ووصلا « راموت Ramot » ولكن قتل آحاب بحربة على مركبته . ولما

جن الليــل انتشر الخبر بين رجال جيشه ، فتشتت الجنــود ونودى « ليتصرف كل رجل الى مدينته وكل رجــل الى أرضــه لأن الملك قــد مات » . عند ذلك تركت الفرق حصار « راموت » وأحضروا جثة الملك الى السامرة (١ ملوك ٢٢ : ٢ ـ ٣٨) .

بدأ شلمناصر الصراع مرة أخرى ضد سورية ، فهاجمها فى الأعوام التالية ٨٤٩ و ٨٤٨ و ٨٤٥ . ولكن صمدت سورية كما هى عادتها دائما . وقد ورد تفاصيل ذلك فى البرديات الأشورية ، وكذلك حملة عام ٨٥٣ واتحد ١٢ من الملوك مع « أداد أدرى » صاحب دمشق و « أرجولينى » صاحب حماة . ولم يأت ذكر ملك اسرائيل صراحة ، ولكن هناك احتمال أنه كان يعد من بين هؤلاء الحلفاء .

تولى عرش اسرائيل بعد آحاب الملك « يورام Ioram » . وفى أيامه (سنة ٨٥٢ ــ ٨٤٢ ق.م) احيانا كانت الأمور مستقرة وأحيانا تشتعل نيران الحرب . وقد حفظ لنا الكتاب المقدس الكثير من الروايات عن هذا العهد ، وأهمها قصة « نعمان Na'omen » قائد جيش « ملك آرام » (أى ملك دمشــق) . وكان قد مر به بعض البأس اذ أصيب ببرص ، فتوجه الى السامرة طالبا الشفاء على يد النبى الشهير صانع العجائب (٢ ملوك ٥) . وتدل هذه القصة على خضوع اسرائيل لملك دمشق . وحادث آخر جاء فيه أن « اليشاع Elisee » قد جرح فى جيش آرامى كان قــد حاصره ولكنه أفلت من الحصــار الذى ضربه الاراميون حول مدينة « دوتان Dotan » (وهى حاليا تل دوتان ، تقع على بعد ٢٢ كيلو مترا شمالى السامرة) . يدل هذا الحادث على وقوع حرب بين المملكتين. فقد ورد فى الكتاب المقدس ما يلى « وكان ملك آرام يحارب اسرائيل » (٢ ملوك ٦ : ٨ ــ ٢٣) وهنــاك حرب اضرمت وحاصر « بن هــدد » مدينة السامرة ووقعت فى مجاعة وانقذت بأعجوبة (٢ ملوك ٦ : ٢٤ ــ ٧ : ٢٠) . ويبدو أن « يورام » قد نجح أخيرا فى الاستيلاء على « راموت جلعاد Ramot de Galaad » لانه لدينا اشارة بعد ذلك بفترة طويلة تقول « وكان يورام محافظا على راموت جلعاد » (٢ ملوك ٩ : ١٤) وقد دافع عنها ملك دمشق الجديد .

وملك دمشق هذا الجديد الذى خلف (بن هدد الثانى) هو « حزائيل Hazael » ، وجــدير بالذكر انه مغتصب كمـــا جاء ذلك فى نص الملك « شلمناصر الثالث » . وقد ذكر فى الكتاب المقــدس كيف تولى « حزائيل » العــرش (٢ مــلوك ٨ : ٧ ــ ١٥) ، وقــد جاء فى الرواية الاسطورية الخاصة باليشاع ، وأهم حادث هو اغتيال « بن هدد » ، اذ جاء فيها (٢ ملوك ٨ : ١٥) ما يلى « وفى الغد أخذ (حزائيل) قطيفة

وغسلها بالمـاء وبسطها على وجـه « بن هـدد » فمات وملك حزائيل مكانه ... » .

كان حزائيل « ملكا نشطا وقاسيا ، والرواية السابقة تحكى طرفا من الكلام الذى جاء من فم « اليشاع » مرجعها الى حزائيل : « اننى علمت بما ستصنعه ببنى اسرائيل من السوء . فانك ستحرق حصونهم بالنار وتقتـل فتيانهم بالسيف وتشـدخ أطفـالهم وستبقر بطون نسـوتهم الحوامل » (٢ ملوك ٨ : ١٢) . ومنذ بداية عهده ، وجدناه فى صراع ضد الاسرائيليين ، وكان يريد اعادة « راموت جلعاد » . وقد جرح « يورام » أثناء المعركة ، واجبر على العودة الى « يزرعيل Yisréel » تاركا لقواده الاستمرار فى المعركة ضد الاراميين . وفى تلك الظروف أرسل « اليشـاع » نبيا ليمسح « ياهو Iéhu » أحد قواد « يورام » ملكا على اسرائيل . ولما تم ذلك أعلن الجيش على الفور . « قد ملك ياهو » ، وقد عاد الى « يزرعيل » حيث قابل » « يورام » وقتله ، وبعد ذلك دخل الى السامرة (٢ ملوك ٩ ــ ١٠ : ٢٧) . ولم يذكر الكتاب المقدس شيئا عما حدث لمدينة « راموت جلعاد » ومن الجائز أنه تحت ظل هذه الحوادث لم يتأخر « حزائيل » عن الاستيلاء على المدينة .

وكان شلمناصر يتابع تطور الحوادث من قرب . وقـد شغلته قوة الملك الجديد . فقرر أن يضربه قوية . فقد قام فى عام ٨٤١ ق . م . بحمـلة جاء وصفها فى الكتابات الاشورية « فى سنتى الثامنة عشرة من الحـكم ، عبرت للمرة السادسة عشرة الفرات . وقـد اطمأن حزائيل (صاحب) اقليم دمشق الى جموع فرقه وعبأ وحداته فى عدد كبير . واتخذ « سانير Le Sanir (جبل حرمون) انف الجبل الذى يشرف على لبنـان حصـنا له فحاربته وانتصرت عليـه وقتلت بالسلاح ٦٠٠٠ محاربا ، و (أخذت) ١١٢١ من مركباته ، و ٤٧٠ من خيله ، وفى نفس الوقت أخـذت خيامه (أى ثكناته) ، وحتى ينقذ حياته هرب فتبعته وحاصرته حيث كان يقيم فى دمشق ، وقضيت على بساتينه ، وذهبت حتى دخـل حوران فهدمت مدنه التى لا حصر لهـا ، أتلفت وأحرقت ، وأخذت منها غنيمة كثيرة ، وتقدمت حتى جبل بعلى راسى Ba'lira'asi ووضحت فى صـورتى الملـكية . وفى نفس الوقت تسلمت الجـزية من الصوريين والصيداويين ومن « باهر » من « بيت هومرى Bit-Khumri » وفى عام ٨٣٨ ق.م جرد حملة جديدة ضد « حزائيل » : « وفى السنة الحادية والعشرين من حكمى ، عبرت للمرة الحادية والعشرين الفرات . وتقدمت نحو مدن « حزائيل » من بلدان دمشق ، واستوليت على أربع من مدنها ، وتسلمت جزية الصوريين والصيداويين والجبليين .

وقد قاسى « حزائيل » اثناء هاتين الحملتين ضربات كبيرة ، ولكن لم يستطع شلمناصر أن ينجح فى الاستيلاء على العاصمة ، ولم يتضح تماما أن كان قد حاول من جديد أن يعمل شيئا ضد دمشق حتى نهاية حكمه . وقد استفاد « حزائيل » من فترة الراحة هذه فأصلح من أمره وجدد قوته . وتوجه ضد اسرائيل ونزع منها جميع أرض جلعاد ... من عروعير التى على وادى ارنون » (٢ ملوك ١٠ : ٣٢ — ٣٣) . ولما أصبح ملك دمشق سيدا على الأردن كله ، اتجه الى أرض فلسطين الخصبة . فاستولى على « جت Gat » فى اقليم فلسطين . وبعد ذلك هدد بيت المقدس . وأمام هذا الخطر ، اشترى « يواش Ioas » ملك يهودا بالذهب والفضة فاقتنع حزائيل وعدل عن دخول أورشليم (٢ ملوك ١٢ : ١٧ — ١٨) . وقد قاست مملكة اسرائيل كل هذه المخاطر المجاورة ، ولم يذكر الكتاب المقدس حوادث تلك الفترة بالتفصيل ، وهى الفترة التى لاقت فيها اذلالا كبيرا ، ولا نعرف الا ما حدث فى عهد « يواحاز Ioachaz » الذى جاء بعد « ياهو » عام ٨١٤ ق.م. لم يكن فى جيش اسرائيل سوى « خمسين فارسا وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل لأنه أبادهم ملك آرام وجعلهم مثل التراب الذى يوطأ » (٢ ملوك ١٣ : ٧) .

سبق ان ذكرنا أن دويلة « سمأل » . قد قامت بدفع الجزية عام ٨٥٣ الى شلمناصر الثالث أيام ملكها « حيانى » الارامى . أما عن تاريخ هذه الدويلة فقد تأسست فى القرن العاشر . وجاء من وراء « حيانى » وأحيانا يكتب « حيا » أو « حى » ولده « شعيل »، وخلفه ولد آخر واسمه « كيلامو » . ومن عهد هذا الأخير وثيقتان أحدهما آرامية على غمد صغير من ذهب والأخرى بالفينيقية على احدى اللوحات التى كانت بالقصر الملكى . وهذه الوثيقة الثانية هامة لأنها فيها يمتدح الملك عهده باسلوب شعرى والى القارىء طرف منها :

« أنا كيلامو بن حيا ، جلست على عرش ابى ، وقدام الملوك السابقين، كان الموشكات يرودون مثل الكلاب ، غير انى صرت لهذا أبا ، وصرت لهذا أما ، وللآخر كنت أخا ... ومن لم يكن قد شاهد رأس خروف ، جعلته يملك قطيعا من الغنم ، ومن لم يكن قد رأى رأس ثور ، جعلته يملك قطيعا من الحيوانات ، ويملك فضة ، ويملك ذهبا » .

وهذا الجزء من تلك النصوص يختص بالسياسة الداخلية للملك اما الجزء الذى لم يتسع الكتاب لذكره وهو الاول يختص بالسياسة الخارجية . ونجده فى القسم الخارجى يذكر كيلامو الملوك الأقوياء الذين يحيطون به ، وكان أحدهم يمتاز بقوته وهو ملك « الدانونيين الذى وصل ملكه حتى سهل أدنه » وهو بذلك ليس الا ملك « قليقية » الذى حاربه

شلمناصر الثالث (سنة ٨٣٨ ، ٨٣٤ ، ٨٣٢) لمضايقته ملك سمأل . وقد أعلن كيلامو على الملا حينما أحس ضعف آشور ما يلى « انى عملت ما لم يفعله الملوك السابقون قط » وقد كانت تحمل هذه العبارة بين مفرداتها الكثير من الحقيقة الى جانب المبالغة التى كانت تسود أصحاب العروش فى الحضارات القديمة كلها فى تلك الايام . أما كلمة « الموشكات التى جاء ذكرها فى النص ، غالبا ما يكون معناها عامة الشعب (تقابل كلمة شحب بالارامية) والطبقة الراقية سميت فى النص بعد ذلك « بعرير » اذا جاء فى النص نفسه ما يلى :

« واذا اعتلى العرش أحد أبنائى من بعدى ، وعبث بهذه الكتابة ، لا يحترم بعد الموشكات بعرير ، ولا يحترم البعارير موشكات وكلمة « عرير » بالسريانية تعنى « العاتى ، والوحشى » . كان هناك صراع بين هذين العنصرين من الشعب . كان « البعرير » هم العنصر القوى وكان « الموشكاب » أكثر عددوا . وكان على « كيلامو » أن يكسب ود الطبقة العاملة ولذلك لم يهمل هذه الطبقة وحماها من سيطرة الطبقة الارستقراطية الارامية « بعرير » .

ان كتابة « كيلامو » هذه تكشف عن الأحوال الداخلية فى أغلب الدويلات الارامية ، فهناك نص آخر من أيام « زكير » « ملك حماة ولعش » تلقى بعض الضياء على العلاقات بين الدويلات الارامية فى سورية . وكتبت باللغة الارامية على نصب كشف عنه فى « أفيس » التى تبعد عن الجنوب الغربى لحلب بحوالى ٤٠ كم وهو محفوظ بمتحف اللوفر فى باريس . والنص عبارة عن نجاته من حصار ثم يلى ذلك نص مشوه يتحدث عن اقامة استحكامات ومعابد ومدن فى مقاطعة « حزرك » .

و « زكير » هذا اسم سامى ، ومن الجائز أنه كان غاصبا مثل « حزائيل » فى دمشق و « ياهو » فى اسرائيل لأنه لم يشر الى أصله فقد قال فى بداية النص السابق الاشارة اليه « زكير ملك حماة ولعش ، أنا انسان وضيع » . وكان ملكا على دولتين حماة وهى معروفة ، والثانية « لعش » وهى منطقة بين حماة وحلب ، أما مدينة « حزرك » غالبا ما كانت عاصمة « لعش » وربما كانت على بعد قريب من « أفيس » ، وعلى أية حال فهى تقع شمال حماة .

وبذلك يمكننا ترتيب الحوادث كما يلى : اغتصب زكير عرش حماة ثم احتل منطقة لعش ، ثم استولى على مدينة حزرك . وبذلك اختلت القوى فى الدويلات السورية نتيجة أطماع زكير . فتحالف ضده الدويلات الارامية الأخرى والدولة الحثية الجديدة تحت زعامة « ملك آرام »

« أى ملك دمشق » وكان هو « بن هدد بن حزائيل » وهو نفسه « بن هدد بن حزائيل » الذى جاء ذكره فى العهد القديم تحت اسمه « بن هدد الثالث » . لم تتمكن الامبراطورية الاشورية من التدخل فى الفترةالضعيفة التى مرت بها . وكان الصراع فى هذه الفترة قائما على قدم وساق بين الدويلات المختلفة فى سورية . لم يذكر لوحة زكير الدويلات المتحالفة جميعها .

أجمع المتحالفون على مهاجمة زكير فى « حزرك » وكانت المدينة محاطة بأسوار وخنادق فحاصرها الأعداء وكاد « زكير » يستسلم امام هذا الحضارة لولا أن الهه حفظه اذ جاء فى النص ما يلى : « كل أولئك الملوك حاصروا حزرك » ، وأقاموا سورا أعلى من سور « حزرك » وحفروا خندقا أعمق من خندقها ، حينئذ رفعت يدى الى « بعل شمايين » ، وبعل شمايين أجابنى ، وتكلم معى بعل شمايين بواسطة الرؤاة والعرافيين ، وقال بعل شمايين : لا تخف لأنى أنا الذى اقمتك ملكا ، وأنا سأقف معك ، وأنا سأخلصك ، من كل هؤلاء الذين اقاموا الحصار ضدك » .

* * *

اللغــــة الارامية

هى لغة سامية مثل اللغات الأشورية ـ البابلية والفينيقية والعبرانية والعربية . وقد كثر انتشارها وتداولها بين اقطار كثيرة ، من أجل ذلك تعـددت لهجاتها . والى القـارىء الـكريم صـورة مبسطة عن تاريخ هذه اللغة :

١ ـ كشف فى (غوزانا) وهى حاليا تل حلف عن مذبح صغير عليه نقش محفور بالآرامية يرجع تاريخها غالبا الى القرن التاسع أو العاشر .

٢ ـ عثر بالقرب من حلب على نصب خاص بالاله (ملقارت) وعليه اسم (بن هـدد بن طاب ريمون بن حزيون) أحـد ملوك دمشق فى أوائل القرن التاسع .

٣ ـ كشف فى (أرسلان طاش) عن قطعة صغيرة عاجية كتب عليها اسم (سيدنا حزائيل) أحـد ملوك دمشق فى منتصف القـرن التاسع تقريبا .

٤ ـ وجد فى بلد صغير تسمى (فيس) بين حماة وحلب نصب ملك حماة ولعش المسمى (زكير) وغالبا ما يرجع الى نهاية القرن التاسع .

٥ ـ بعض كتابات فى الطابوق ـ (القرنين التاسع والثامن) .

٦ ـ عثر فى الجنوب الشرقى من حلب على انصاب (سفيرة ـ سجن) عليها أسماء ملوك (بركعيا) ملك كتكا و (متى ـ ايل) ملك ارباد ، وغالبا ما تؤرخ بالعام ٧٥٠ ق.م.

٧ ـ أسفرت الحفائر التى اجريت فى (زنجرلى) عن غمـد من ذهب لملك (سمال) المسمى (كيلامو) حفر عليه اسمه من النصف الثانى من القرن التاسع تقريبا .

٨ ـ تمثال (فنامو الثانى) ملك سمال ، وقـد كتب عليه بالآرامية ، وغالبـا أن الذى قام بالكتابة ولـده (برركوب) حوالى عـام ٧٣٢ ق.م.

٩ ـ نقش بارز يمثل (برركوب) وقد جلس على العرش ، وعليه أسم الملك وربه (الاله بعل حران) وهو اله القمر .

من ذلك نرى أن جميع تلك النمـاذج من مناطق مختلفة وتمتـد من القرن التاسع الى الثامن وهى مقتبسة من الأبجدية الفينيقية المكونة من ٢٢ حرفا والتى ظهرت فى نهاية الألف الثانى على وجه التقريب . وقد أضـاف الاراميون الى تلك الأبجـدية الحـروف الآتية وهى (الألف والواو والياء) .

وجـدير بالـلاحظة أن الاراميين حينما استقروا فى بلاد الرافـدين وسورية فى القرن الحادى عشر والعاشر كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة ، من أجل ذلك اتخذوا لغات البلاد التى اقاموا فيها ، فمثلا كتابات الملك الآرامى (كفارا) فى (غوزانا) من نهاية الالف الثانى ، قد كتبت بحروف مسمارية وبلغة آشورية . كما أن العبرانيين حينما جاءوا فلسطين أهملوا لغتهم التى كانت قريبة من الآرامية واتخذوا لغـة البلاد والتى نسميها العبرانية . وتمكن بعد ذلك الآراميون من تكوين لغة فصحى كما سبق أن تعرضنا لنصوصها فى الفصول السابقة . وبعض هذه النصوص قد كتب باللغـة الخالصة مثل نصب ملقارت من النصف الأول من القـرن التاسع ، والبعض متأثر باللغة الفينيقية مثل الكتابة الموجودة على تمثال (فنامو الثانى) السابق الاشارة اليه . وقد دفعت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الدويلات الآرامية استخدام لغة واحدة خصوصا فى باكورة تاريخ آرام كانت هى لغة (آرام كله) كما جاء ذلك على نصب (سفيرة سجن) . واحتفظت (سمأل) التى تقع فى أقصى الحدود بلغة محلية هى غالبا أصل (اللغة الارامية المشتركة) .

ما من شك أن الاراميين قد استعاروا كثيرا من كلمات لغات الشعوب التى جاورتهم ، فأخذوا من اللغة الآشورية البابلية والفينيقية . ولم تكن اللغة الارامية فى القرنين التاسع والثامن لغة بربرية بل أنها ازدهرت فى هذه الفترة التى كانت فيها دمشق فى أوج عظمتها وسجل الملوك أخبارهم وطقوسهم بلغة آرامية فصحى .

هذا وقد نضجت الآرامية قبل زوال دويلات آرام ، من أجل ذلك فقد استطاعت أن تعيش بل اننا سنجدها تحاول فرض سلطانها على من احتلوهم من الغزاة ، فقد عرف الأشوريون الكثير من الآرامية ، ونرى على عـدة آثار مرسـومة من أصـل آشـورى مثل نقش عثر عليه فى (تل برسيب) ، اذ نجد كاتبين جلسا جنبا الى جنب ، أحدهما وهو الاشورى يكتب على لوحة صغيرة ، والآخر آرامى يكتب على ورق بردى . وجميع

هذه المناظر والنقوش ترجع الى القرنين التاسع والثامن . وقد ذكر فى الكتاب المقدس قصة مهمة (ربشاقا) قائد سنحاريب يخاطب (حزقيا) ملك يهودا ، وكان يخاطب مبعوثى حزقيا باللغة العبرانية ، فقالوا له « كلم عبيدك باللغة الآرامية فاننا نفهمها ولا تكلمنا باليهودية (أى العبرانية) على مسامع الشعب القائمين على السور » كان ذلك حوالى عام ٧٠٠ مما يدفعنا الى القول بأن اللغة الارامية كانت مفهومة حتى هذا التاريخ عند بعض رؤساء اليهود وانه كانت تربط اليهود والآراميين علاقات قوية وكان القواد الأشوريون يعرفون الآرامية ، وقد عثر على وثائق فى ما بين النهرين ، ففى آشور عثر على صدفية مكتوبة بالآرامية من عهد أشور بانيبال (٦٥٠ ق.م) بين اثنين من الموظفين الأشوريين ، وكذلك كشف عن عدة تماثيل فى نمرود (كالح حاليا) تمثل أسودا وكانت تستعمل كصنجة ميزان وعليها كتابة آرامية بالاضافة الى الكتابة المسمارية ، وعليها اسم (شلمناصر) (سنة ٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) وسرجون (سنة ٧٢٢ - ٧٠٧ ق.م) أو سنحاريب (سنة ٧٠٠ - ٦٨١ ق.م) وعثر فى نينوى على قطع من صكوك أو نقود ، كتبت على الواح من فخار بالخط المسمارى ، وبينها كتابة آرامية صغيرة . وكذلك عثر على أختام من الفخار بالآرامية فقط من القرن السابع فى نينوى وآشور وغيرهما من البلدان . وجميع هذه الآثار التى تحمل كتابة آرامية هى فى الواقع (الآرامية المشتركة) .

انتشرت اللغة والكتابة الآرامية فى بلاد ما بين النهرين للروابط التجارية بين الأشوريين والآراميين ، كما أن الكتابة الآرامية كانت أسرع فى التدوين من الخطوط المسمارية . كما تداولت الآرامية فى البلدان الآرامية خصوصا السورية . ووصلت اللغة الآرامية حتى فلسطين والتى كانت تسودها فى هذا الوقت العبرانية خصوصا فى مملكة يهودا وكانت الآرامية فيها وقفا على الخاصة من الناس . أما المملكة الشمالية القديمة فبعد سقوطها عام ٧٢٢ فى أيدى سرجون الأشورى فقد جاء فى الكتاب المقدس أن الأشوريين قد أتوا بأقوام من أجناس مختلفة وأسكنوهم فى السامرة ، وكان بعضهم يتكلم الآرامية . ولما قوى نفوذ الأشوريين فى نهاية القرن الثامن ، عملوا على استئصال الحركات الوطنية فى البلاد المغلوبة وزوال اللهجات الوطنية المختلفة فى هذه الأقطار واذابتها فى لغة (حيادية) ان شئنا أن نسميها وقد كانت هذه هى لغة الآراميين .

ولما أسس نابولاصر الكلدانى مملكة بابل الجديدة عام ٦٢٦ ، ازدهرت اللغة الآرامية بين المستوطنين الآراميين فى بابل بل فى غيرها من بقية أرجاء الامبراطورية البابلية الجديدة . وقد كشف عن عديد من الالواح المسمارية وعليها كتابات آرامية من أيام نبوخذ نصر وعصره . وقد سارت الآرامية

الى جانب الاكدية ، ثم تفوقت عليها حتى أصبحت فى نهاية القرن السابع لغة الدبلوماسية الدولية بدلا من الاكدية ، فقد كشف فى صقارة عن رسالة بالآرامية وجهت من (أدون) ملك احدى المدن الفينيقية أو الفلسطينية عام ٦٠٥ ق.م ، طالبا من ملك مصر معاونته ضد هجمات البابليين الذين غزوا بلاده . كتب هـــذا الفينيقى بالآرامية ولو أن لغته الأصلية كانت الفينيقية مما يدل على مدى انتشار تلك اللغة فى ومعرفة المصريين والفينيقيين لها ، والى وجود كتاب فى كل من مصر وفينيقية لهم دراية بالآرامية .

ولما قضى (كورش) على الامبراطورية البابلية عام ٥٣٩ كما سنفصل ذلك فيما بعد . أصبحت اللغة الآرامية اللغة الرسمية لجميـــع أقطار الامبراطورية الفارسية التى بلغت حدودها أيام داريوس الاول (٥٢١ ـ ٤٨٦) شرقا الى نهر الاندوس وغربا الى نهر النيل . كان لابد لهـــذه الابراطورية الواسعة من لغة دولية حتى تســهل العلاقات السياســية والتجارية والثقافية بين أقطارها المختلفة وقد كانت الآرامية هى تلك اللغة التى طغت على جميع سكان الامبراطورية . وقد ثبت لدى العلماء أن الآرامية كانت هى اللغة الادارية الرسمية لتلك الامبراطورية العظيمـــة لاسيما فى المقاطعات الغربية ، ففى مصر تراسل الموظفون الفرس والمصريين باللغة الآرامية ، وهى لغة أجنبية لكلا الطرفين ، وهذا يدل على دولية تلك اللغة . وبلغ من انتشــار اللغة الآرامية أن بعض الضباط من المصريين فى هذا العهد كانوا يراسلون بعضهم باللغة الآرامية . وقد عثر على بردى آرامى كثير فى جميع أنحاء مصر حتى الفنتين . وفى البلاد البابلية كشف عن الواح خاصة بالمحاسبة كتبت بالآرامية . وعثر فى آسيا الصغرى على كتابات آرامية من العهد الفارسى ، وعلى نقود عليها كتابات آرامية ، وأسد كصنجة للوزن عليها كتابة آرامية فى (ابيدوس) بآسيا الصغرى . وفى فارس كشف منذ أكثر من عشرين سنة بالاضافة الى ما سبق كشفه ، عن مجموعة من ٥٠٠ قطعة آرامية ، مما يدل على انتشار الآرامية فى بلاد الفرس نفسها فى العهـــد الاخمينى . وقـــد انتشرت الارامية شرقا فى أفغانستان وفى الهند اذ عثر على بعض كتابات آرامية من القرن الثالث قبل الميلاد ، وبدون شك أن الآرامية وجدت فى الهند منذ العهد الاخمينى كما انتشرت الآرامية الى الجنوب الشرقى فى شبه جزيرة سيناء حيث كشف فى (ايلات) شمالى خليج العقبة عن بعض صدفيات فى هذه البقاع الصحراوية كتبت بالآرامية نتيجة اتصال تجارى أو سياسى . وعثر فى فلسطين على كسر من الفخار عليها كتابات آرامية منذ العهد الفارسى ، وكذلك بعض أختام على جـرار فى (بيت شمش) ، وصدفيات آرامية ومنجرة عليها كتابات آرامية فى (الاكيش) . وانتشرت الآرامية فى أورشليم نفسها وكانت تسمى (الأشدودية) كما جاء ذلك فى (نحميا ٧١٣ ـ ٢٣ ـ ٢٥) نسبة الى احدى مدن فلسطين القديمة . وقد عمل نحميا على

عدم تغلغل الآرامية ، وفوق ماظهر فى مصر من أيام الفرس على البردى وغيره من صدفيات فهناك بعض أنصاب القبور مكتوبة بالآرامية وكذلك تماثيل واختام وأوانى عليها كتابات آرامية ، وبدون شك دون هذه الكتابات اليهود الذين كانوا يقيمون فى مصر فى هذه الفترة أو السوريون المهاجرون اليها أو الفرس أو المصريون انفسهم كما سبق أن بينا على اعتبار أن الآرامية أصبحت لغة دولية كان من الافضل للناس جميعا أن يكتبوا بها وقد عثر على وثائق آرامية كثيرة فى مصر وحتى بلاد النوبة . من كل ذلك أثرت اللغة الآرامية فى سياسة الدولة الاخمينية ، حتى أن بعض العلماء يسميها (آرامية الملكة) وهى فى الواقع اللغة التى سبق أن سميناها بالآرامية المشتركة التى كانت متداولة من قبل هذا العهد . وجدير بالذكر انه قد دخل فيها كثير من الكلمات الفارسية خصوصا ماكان متصلا بالادارة والفنون العسكرية . كما تأثرت (البهلوية) وهى اللغة الايرانية بالآرامية ، وعلى وجه خاص قد ظهر ذلك فى الكتابة دون النطق فالعناصر الآرامية فى اللغة البهلوية لم تكن تنطق ولكن تكتب بصيغتها الآرامية وتقرأ فيما يقابلها من الايرانية ، والبهلوية لم تشتق من الايرانية والآرامية ، انما هى لغة ايرانية معها عناصر آرامية تقرأ بالايرانية . وبالجملة فقد كانت اللغة الآرامية هى اللغة الرسمية فى كل مكان حتى فى بلاد فارس والمقاطعات الشرقية .

ولما غزا الاسكندر الأكبر الشرق أدخل اللغة اليونانية كلغة رسمية بدلا من الآرامية . ولما مات عام ٣٢٣ ق.م. وزعت امبراطوريته فنشأ منها الحكم السلوقى فى سورية وعاصمته (ايطاليا) ، والحكم البطلمى فى مصر وكانت عاصمته الاسكندرية . وكانت اليونانية هى لغة هاتين الدولتين ، وانحطت اللغة الآرامية ، واحتلت اليونانية ، واخذت منها الكثير من الكلمات اليونانية ، وتطورت اللغة والكتابة التى كادت أن تكون موحدة ايام العهد الفارسي . ثم اختلفت باختلاف المناطق ، ونشأ عن ذلك طرق جديدة لكتابة الآرامية فمنها (العبرانى المربع) (وقد قام اليهود بالاحتفاظ به فكتبوا الكتاب المقدس به) ومنها (النبطى) و (التدمرى) و (السريانى) و (المندى) . وتطورت اللغة نفسها مثل ما هو واضح فى البردى أو الصدفيات الارامية من العصر الهيلينى وخصوصا تلك التى كشفت فى (ادفو) . ومثل التى جاءت من (قبدوقية) من القرن الثانى أو الاول ق.م. وفى ارمينيا . واضحت الآرامية لغة فلسطين واحتلت مكانة العبرية كلغة محكية مقدسة وكلغة للدين والعلم . وقد تضمن الكتاب المقدس نفسه بعض فقرات آرامية من ذلك العصر : فنجد ان زيادة آرامية على النص الخاص بأرميا (١٠/١١) ، واضافة آرامية على كلمتين عبرانيتين فى سفر التكوين (٤٧/٣١ ...) ع واجزاء كثيرة هامة فى سفر عزرا (٤/ ــ ٦/١٨ و ٧/١٢ ــ ٢٦) ، وحوالى نصف سفر

دانيال (٢/٤ – ٢٨/٧) . ورجح بعض العلماء ان بعض أجزاء من دانيال يرجع الى سنة ١٦٧ أو ١٦٦ ق.م. وربما قبل ذلك . وهناك احتمال انه كتب كله بالآرامية . وآرامية الكتاب المقدس من قبل الميلاد ، وقد أطلق عليها (الكلدانية) وهى فى الواقع آرامية فلسطينية .

وتكلم الناس فى فلسطين الارامية وحدها فى أيام المسيح ، فقد تكلم بها يسوع والرسل ودليلنا على ذلك بعض الكلمات المحفوظة من الآرامية فى الاناجيل . وشرحت الاسفار المقدسة فى المجامع باللغة الآرامية . وقد ورد الينا مخطوطات منوعة منها انجيل محفوظ بالفتيكان كتب بلغة آرامية .

ولما جاء الغزو العربى فى القرن السابع الميلادى انقرضت (الآرامية الغربية) ، ولكن ظل استعمال اللغة الارامية فى ثلاث قرى هى (معلولة ونجعة وجب عدين) تقع فى شرقى دمشق . ويتكلم سكان هذه القرى لغة آرامية فيطلقون على السوق مثلا (شوقا) والبيت (بيتا) والنهر (نهرا) .

أما الكتابات النبطية فهى آرامية القرن الاول ق.م. وتمتد الى القرن الثالث الميلادى وتنتشر فى البلاد القبطية والتى تقع شمال الحجاز(حجرة) وتمتد شمالا حتى الحدود السورية الجنوبية (بصرة) وكذلك فى شبه جزيرة سيناء حيث عثر على ما يقرب من ثلاثة الف رسم ، وأصل النبطيين عرب . وفى الشمال ازدهرت مدينة (تدمر) أيام الرومانيين وظهرت فيها عدد كبير من الكتابات الآرامية من نهاية القرن الاول ق.م. الى عام ٢٧٢م وهو عام احتلال (أوريليانوس) تدمر التى زالت من التاريخ . أما فى بلاد الرافدين من أرمنية الى الخليج العربى فقد قضى على اللهجات القديمة وظهرت (الآرامية الشرقية) .

وتوطدت الآرامية القديمة منذ ظهور المسيحية وانتشارها خصوصا فى النصوص الادبية بلهجاتها الثلاث وهى : اليهودية – البابلية والمندية والسريانية . فلغة (تلمود بابل) الذى أصدرته جماعات يهود من الكلدانيين هى الارامية اليهودية – البابلية فى القرن الخامس والسادس الميلادى . ولغة المندبين الغنوسية هى المندية فى بلاد بابل . ولغة الرها الخاصة هى السريانية . وتقع مدينة (الرها) فى حوض الفرات الكبير ، على بعد قريب من (حران) القديمة . هذا وقد أخلت (الآرامية الشرقية) المكان للغة العربية كما سبق أن حل بالارامية الغربية وذلك منذ القرن السابع الميلادى . ولكن السريانية عاشت حتى القرن الثالث عشر . وبهذه اللغة نقل الكثير من مؤلفات اليونان العلمية الى العرب . ولا زالت السريانية وهى الارامية لغة الكنيسة فى أمكنة كثيرة فى الشرق الاوسط .

الحضارة الآرامية

ظهر الآراميون متخلفين عن ركب الحضارات ، اذ جاءوا فى الحلقة الاخيرة من التاريخ واندمجوا فى كثير من حضارات الرافدين ووادى النيل؛ ولكننا نراهم قد افلحوا فى نشر الآرامية اينما حلوا ، على انهم اقتبسوا الكثير من حضاراتهم من حضارات وثقافات جيرانهم من الامم والشعوب الذين اتصلوا بهم . والى القارىء الكريم بعض نتف عابرة من حضارة الاراميين .

الفن :

آثار الآراميين ضئيلة وغير مبتكرة . وقد قام (قون أو فتهايم) باجراء حفائر فى (تل حلف) (غوزانا) (١) التى تقع فى وادى الخابور وكشف عن تماثيل وبعض عناصر معمارية ، غالبا ما يرجع تاريخها الى ما بين القرن الحادى عشر والتاسع ق.م. وظاهر من زخارفها أنها قد تأثرت بالفن (الميثانى) ، لان تلك المنطقة كانت خاضعة للميثانيين قبل حلول الآراميين. وفى مجموعه فان هذا الفن خشن المظهر ، لكنه اتسم بالحركة والحياة . اما فى الشمال فى (زنجرلى) فى شمال سورية ، فواضح ان المجموعات الاثارية التى كشف عنها هناك قد تأثرت بالفن الحيثى لاننا نعلم من قبل أن الحثيين قد احتلوا تلك المنطقة فترة طويلة . ومع ذلك كله فقد وضح لعلماء الآثار أن جزءا كبيرا من هذه الآثار قد تأثر بالفن الاشورى ، فقد علمنا من قبل أن ملوك (سمأل) خضعوا للحكم الاشورى من أيام (شلمناصر الثالث) ، أى فى القرن التاسع ق.م. كما كشف فى حماة الواقعة على نهر الاورونت عن لوح زين بمشهد لتقدمه خاصة بالموتى ، وفى النصف العلوى من اللوح نسر ذو رأسين ، وربما يعود أصله الى تأثير حثى بحت . وعثر فى دمشق عاصمة أهم دويلة على نقش بارز من العصر الآرامى يمثل وحشا وهميا ووجد الاثر فى باطن احد حوائط الجامع الكبير الذى بنى فوق انقاض معبد قديم كما وضحنا ذلك عند الحديث عن الفينيقيين . وواضح من النقش انه متأثر بحضارة الفينيقيين . وعثر على مجموعات مصنوعة من العاج فى (أرسلان طاش) وفى (مجدو) و (السامرة) و (نمرود) . وواضح أن فيها تأثيرات مختلفة مصرية وحثية وفينيقية وايجية .

---

(١) لقد كشفت الحفائر التى اجريت منذ اكثر من عشرين سنة فى ناحية غوزانا اى « تل حلف Tell-Khalof » عن الاحتلال الارامى ، منها على الاقل قصر وبعض الاثار الاخرى من ايام الملك « كاپارا Kapara » ، انظر :
Von Oppenheim, Tell Halof (Paris, 1939).

الدين :

كما تأثر الآراميون فنيا بالحضارات التى احتكوا بها . كذلك أيضا تأثروا بديانات تلك الامم . اما عن ديانتهم قبل استقرارهم فى مناطق (الهلال الخصيب) فلم يستطع أحد أن يعرف حقيقتها .

اتخذ الآراميون ديانة البلاد التى أقاموا فيها ، فعبدوا آلهة بلاد الرافدين والآلهة الكنعانية والفينيقية وآلهة الحثيين والحوريين . غير أنه ليس لدينا نصوص أو طقوس تنتسب الى الآراميين خاصة . من أجل ذلك صعب معرفة ديانة الآراميين القدامى .

ان معبد (هيرابوليس) (منبج الحالية) وهى المدينة التى تقع على بعد عشرين كيلو مترا غربى نهر الفرات اسفل مدينة (كركميش) هو دار العبادة الآرامى الذى وصلت الينا معلومات عنه فيما كتبه أحد كتاب اليونان فى القرن الثانى الميلادى وهو آلوسيان الشمشاطى . وعلى ذلك فمعلوماتنا متأخرة ، وبدون شك أن عناصر هذه الديانة ترجع الى أبعد من ذلك بكثير .

كان اله هذا المعبد هو (أدد) اله العاصفة ، وواضح أن عبادته انتشرت فى بلاد ما بين النهرين قبل أن يصل الآراميون الى تلك المنطقة وقد ظهر اسمه منذ القرن الرابع عشر ق.م. وذلك فى نصوص (رأس شمرا) وكذلك يشبه الاله الحورى (يتشوب) والاله الفينيقى (بعل) أما قرينة هذا الاله فى (هيرابوليس) فهى الالهة (عتار كاتيس) ، وهذا الاسم مركب من صدر وعجز ، أما الصدر فهو (عتار) وهى (عشتار) المعبودة فى بلاد ما بين النهرين ، وعشتارة أو استورتى عند الفينيقيين . أما العجز (كاتيس) فهو تصحيف يونانى لكلمة (عتا) ، وغالبا ما تكون أحد الآلهة الكنعانية القديمة . وانتشرت بعد ذلك عبادة الهة هيرابوليس هذه فى جميع انحاء الامبراطورية الرومانية ولكنها حرفت ، فأطلق عليها أحيانا (دركيتو) وأحيانا (دياتسيرا) بمعنى الالهة السورية وأحيانا حرف الى (ياسورا) . وقد مثلت على نقود عثر عليها فى المدينة جالسة بين أسدين ، أما زوجها فقد مثل جالسا بين ثورين وفوق رأسه قلنسوة. وظهر بين الالهين معبد يعلوه علم وحمامة ، ومن أسفل صور أسد : والاسد والحمامة حيوانا الالهة ، والثور الرمز الحيوانى للاله (أدد) .

وكما كان موجودا فى مصر الفرعونية وغيرها من الحضارات القديمة من ثالوث مقدس لكل مدينة ، فقد كان فى (هيرابوليس) الى جانب (أدد) و (عتار كاتيس) اله صغير يسمى (سيميوس) يكمل الثالوث المقدس

فى المدينة ، وهو يشبه الاله (اسكليبيوس) عند اليونان ، والاله (اشمون) عند الفينيقيين .

وقد عثر فى مناطق اخرى فيما وراء الفرات مثل (تل أحمر) وغيرها على صور للاله أدد تيشوب . وكذلك عثر فى حران التى تقع على نهر البليخ على وثيقة من القرن السابع ق.م. ، ولو انها آشورية الا أنها تضم أسماء آراميين مركبة من أسماء الالهة التى كانت تعبد عندهم مثل (عتار) و (عتا) و (ا ايل) وهذا الاخير اله كنعانى ، و (نابو) وهو من آلهة بابل الكبرى ، و (شمش) اله الشمس و (سين) اله القمر و (نوسكو) ابن اله القمر .

وجاء فى بعض الوثائق الآرامية المكتشفة فى (زنچرلى) ، وهو عبارة عن تمثال للاله أدد تعلوه نصوص آرامية ، والى القارىء الكريم نتف منها (سطرا ــ ٢) « فى عهد شبانى وقف معى الالهـــة أدد وايل وريشيف وركوب ــ ايل وشمش ، وقد وضع أدد وايل وركوب ــ ايل وشمش صولجانا بيدى .. وكان معى ريشيف ... » . ويتضح لنا من تصدير النص بالاله (أدد) عظم مكانتـه ، وهـكذا فى كثير بل فى أغلب الوثائق الآرامية . ثم أتى بعده فى الترتيب الاله (ايل) ومن ورائه الاله (ريشيف) . وهذا الاخير أيضا اله كنعانى يرمز للبرق ، وشبهه المصريون بالاله (ست)، واليونان بالاله (ابولون) . ثم يأتى بعد ذلك الاله (ركوب ايل) ومعناه (عربة ايل) وهو اله من آلهة المرتبة الثانية ، وتسمى أحد الملوك كما سبق أن ذكرنا (بر ركوب) ومعناه (ابن ركوب) وهو مختصر لركوب ايل . وأخيرا الاله (شمش) وهو يرمز الى الشمس . وقد مثلت الشمس فى جميع المعابد فى الحضارات القديمة فى الشرق القديم .

وقد عبد فى المدن الآرامية الاخرى آلهة صغرى .

لقد سبق أن تحدثنا عن معاهدة عقدت فى (سفيّرة سُجِن) بين ملك (كتكا)وملك ارباد . وجدير بالذكر فى تلك المناسبة أسماء الالهة التى استشهد فيها هذان الملكان وهى « أمام مردوخ وزربانيد ، وأمام نابو ... وامام نرجال ... وأمام شـــمش ووير ، وأمام ســين نيكال ، وأمام نكار وكديمة ، وأمام أدد حلب وأمام كل آلهة روحيا ، وأمام سيبيتى ، وأمام أيل وعليون ، وأمام السماء والأرض والينابيع ، وأمام النهار والليل ... » . يلاحظ أن جميع هذه الالهة معروفة فيما عدا (نكار) و (كديعة) وهما زوجان . ويلاحظ أيضا أن القائمة قد تصدرت بآلهة ما بين النهرين الكبرى زوجا زوجا ، وهذا الاله سيبيتى (سبعة) ثم يليه ايل وعليــون آلهة كنعان . ويلاحظ أن الالهــة ختمت بالسماء والارض والينابيع ثم النهار والليل ، كل ذلك من تأثيرات حثية .

أما فى حماة على نهر الاورونت عبد اله يسمى (وير) وهـو آله العاصفة الذى يشبه (أدد) وفى بعلبك (وهذا الاسم يعنى بعل بقاع) عند منبع هذا النهر ، عرفت عبادة (أدد) بعل الذى انتشرت عبادته فى العصرين الهيليني والروماني . ولما كان هذان العهدان يعملان على مبادىء التوحيد ، فقد اندمج اله العاصفة القديم بالاله الشمس : من أجل ذلك سميت المدينة (هليوبوليس) أي (مدينة الشمس) وانتشرت فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية عبادة الاله السوري القديم تحت اسم (چوبيتر هليوبوليتانوس) ، وفى بعلبك اطلال معبد قديم بناه الامبراطور (انطونا التقى) وبالاضافة الى چوبيتر ، فينوس مركور (هرمس) ، وهذا هو ثالوث هليوبوليس وفينوس هنا من آلالهـة السامية (عتار) ومركور ولدهما .

عبد فى العصر الرومانى فى ايميسن (حمص حاليا) التى تقع بين بعلبك وحماة ، حجرة سوداء قديمة ، ظنوا أنها مقرا ورمزا لاله صـغير محلى يدعى (ايلاكابال) (اله الجبل) وقد وحدوه مثل اله بعلبك مع الشمس . ونقل الامبراطور ايلاكابال والذى سمى تحت تأثير التوحيد (هليوكابال) عام ٢٧ ميلادية حجرة ايميس الى روما ، وقد اراد أن يرفع من شـأن عبادتها هناك ، فقاومه الرومان واغتيل عام ٢٢٢ وأعيدت الحجرة السوداء الى ايميس ولكن جاء الامبراطور (أورليانوس) وسجد لها عام ٢٧٢ .

عبد فى دمشق الآرامية الاله أدد ، وكان الهها الاكبر . وسمى ثلاثة من ملوكها برادد أو برهدد اى (ابن هدد) . وكان فى دمشق اله آخـر هو (رمون) وهو رمز للرعد ، وهو ليس الا اله العاصفة . وله معبد فى دمشق ذكر فى الكتاب المقدس تحت اسم (بيت رمون) (٢ ملوك ١٨/٢) . وكان بدمشق (آيل) الاله الكنعانى ، وذلك واضح من اسم الملك (حزائيل) (ايل يرى) ، وكذلك اسم (طابئيل) (ايل هو صالح) . وذكر (يهوه) اله اسرائيل فى دمشق .

لم تصلنا معلومات اكيدة عن معتقدات الآراميين فيما بعد الموت . ولكن توحى كتـاباتهم أنهم كانوا يعتقـدون فى أن الميت يعيش فى القبر ويرجون الا يقلق فى قبره أو يلحق ضرر بهذا القبر ولذلك ذكرت اللعنات الكثيرة على كل من يحاول انتهاك حرمة الموتى . وقد فكروا فى الحياة بعد الموت ففى (سمال) بينت كتابة من ايام (فناموا الاول) آمانى المتوفى الخاصة فى الحيلة بعد الموت . وقد أقام الملك لنفسه اثناء حياته معبـدا جنازيا قائلا « .. انى أقمت تمثال أدد هذا ومعبد فنامو بن فول ملك يعودى ، مع تمثال هدد » .. قد أوصى ولده القيام بالمراسيم الخاصة بالتمثال ، وعليه عندما يقدم الضحية للاله أدد أن يتلو تلك العبارة « لتأكل

نفس فنامو ولتشرب نفس فنامو مع أدد » من ذلك نرى أنهم كانوا يعتقدون باتصال الملك المتوفى بالالهة كما هو واضح فى الديانة المصرية القديمة من أيام الدولة القديمة (نصوص الاهرام) التى كانت وقفا على الملوك فى هذا العهد لان فرعون كان مقدسا ، وكذلك الملك هنا كان أيضا مقدسا ، كذلك عند الحثيين رفع الملك الى مقام الالوهية بعد ما يفارق هـــذه الحياة . فبدلا من أن يقول الملك الجديد « عندما مات والدى » كان عليــه أن يقول « عندما الشمس ــ والدى صار اليها ... » . وكان المصريون القدماء يقولون عن الميت « عندما رحل الى الرفيق الاعلى » . وانى أرى أن هذه المعتقدات التى ظهرت عند الآراميين عن الحياة بعد الموت واتصال الملك فى الحياة الاخروية بالاله لم يكن تأثيرا حثيا وحده وانما أرى فيها تأثيرا حثيا فرعونيا .

* * *

الفصـــل الســــادس

العبريون

تمهيـــــد !

قبل أن نبدأ بدراسة تاريخ العبريين وحضارتهم ، أرى من الخير أن أستعرض حالة المنطقة الرئيســـية التي نزل فيهـــا اخيرا من النـــاحية الجغرافية : ينبع وادي الاردن من مرتفعات تبلغ حوالى ٥٢٠ مترا فوق سطح البحر ، وبحيرة الحولة على ارتفاع مترين ، وبحيرة طبرية على عمق ٢٠٨ مترا تحت سطح البحر ، بينما يقع البحر الميت على عمق ٣٩٨ر٨ مترا تحت سطح البحر . فنرى من ذلك انه شديد الانحدار ، فمنبعـــه على ارتفاع حوالى ٩١٤ مترا ، وطول النهر من هذا المنبع الى المصب حوالى ٢٢٠ كيلو مترا .

ولنهر الأردن ثلاثة موارد للمياه ، أبعدها نهر الحصباني الذي يقـــع غرب جبل حرمون بارتفاع ٥٢٠ مترا فوق سطح البحر ، وأما المنبع الثاني ممثل في نهر بنياس ، وهو يمر بالقرب من بنياس (قيصرية فيليب) ، التي تقع على ارتفاع ٣٣٠ مترا فوق سطح البحر . أما المورد الثالث فهو نهر اللدان ، ويغذى هذا النهر نبعان ، على ارتفاع ١٥٤ مترا فوق ســـطح البحر وهو تل القاضي ، وهو المصدر الرئيسي لمياه الأردن . ويلتقي نهـــر الحصباني مع نهري المنبعين السابقين على بعد حوالى ٨ كيلو مترات من تل القاضي . ويبلغ ارتفاع المياه في نقطة الالتقاء هذه حوالى ٤٣ مترا فوق سطح البحر . ويتسع النهر في نقطة الالتقاء هذه ليصل الى ١٤ مترا .

ويجري نهر الأردن شمال البحر الميت في أرض خصبة ، خصـــوصا في المنطقة المحيطة ببحيرة الحولة ، التي تكثر حولها المستنقعات . ولا يزيد طول بحيرة الحولة عن ٥ر٨ كيلو مترات ، وأقصى عرض لها يبلغ حوالى ٥ر٢ كيلو مترات . كذلك تمتـــاز الأرض الواقعـــة جنوب بحيرة الحولة بخصوبتها . ثم ينخفض مجرى النهر الى أن يصل بحيرة طبرية التي يبلغ عمق ميـــاهها بين ٥٠ ، ٧٠ مترا ، ولا يزيد عرض تلك البحيرة عن ٥ر٩ كيلو مترات ، بينما يبلغ طولها حوالى ٢١ كيلو مترا .

هناك نهيرات أخرى صغيرة تمد الأردن بالمياه شتاء ، واهمها نهير يسمى « شريعة المنادرة » ، وسماه التلمود اليرموك ، ثم نهير الجالود ، ونهير آخر يسمى الزرقاء (ويسميه العهد القديم يبوك) ، ثم وادى فرعه، ووادى الكلت .

أما البحر الميت ، ويسميه العرب بحر لوط ، فهو أكثر الجهات انخفاضا فى تلك المنطقة . ومياهه تحتوى على الكثير من المعادن والملح ، وتشتد فيه الملوحة حتى انه لا تعيش فيه أسماك .

وشرق الأردن هضبة شديدة الانحدار من الناحية الغربية ، أما من الناحية الشرقية فيتدرج ارتفاعها حتى الصحراء . الناحية الجنوبية عبارة عن سهول . وبتلك الهضبة ثلاثة وديان ، وادى الكرك ووادى المجيب ووادى زرقاء معين .

***

أصل العبريين

تمثل هذه الجماعة الشعب السامى الرابع ، ومن قبل ذكرنا كلمة عاجلة عن الأموريين كأول شعب سامى رئيسى فى سورية ، ثم تحدثنا عن الفينيقيين أو الكنعانيين ، العنصر الثانى للشعب السامى الرئيسى فى سورية ، فكلمة كنعان بالفينيقية أى بلاد الارجوان وقد أصبحت كلمة فينيقى بعد حوالى ١٢٠٠ ق.م مرادفة لكلمة كنعانى . أما الشعب الارامى فى سورية فهو الشعب السامى الرئيسى الثالث .

دخل العبريون فى كنعان ــ وهى سورية الجنوبية ــ وذلك على ثلاث موجات ، أول هذه الهجرات كانت على بلاد الرافدين ، وقد عاصرت هذه الحركة هجوم الهكسوس على مصر فى القرن الثامن عشر ق.م. وعلى أثر تلك الموجة انتشر الهكسوس والحوريون فى ساحل البحر المتوسط الشرقى (والحوريون هم من الجماعات التى تألف منها خليط الهكسوس، وهم شعب ليس بالسامى ولا بالهندى أوربى ، ولا زلنا لا نعلم عن أصله اى شىء . وجاءوا من المرتفعات الواقعة شمال شرقى الهلال الخصيب ، بين بحيرة أورميا وجبال زاجروس . ودخل هؤلاء فى أواخر القرن الثالث عشر شمال بلاد الرافدين ، ثم اتجهوا الى سورية وأسسوا احدى الممالك القوية هناك) . وأما الهجرة الثانية فهى تحركات الاراميين فى القرن الرابع عشر ، وقد عاصرت هذه الهجرة عصر العمارنة فى مصر . أما الهجرة الثالثة قد جاءت من مصر تحت اشراف موسى ويشوع وذلك

فى أواخر القرن الثالث عشر . وكان يسكن الكنعايون فى المنطقة وقد اتحد العبرانيون مع الكنعانيين . وقد استقر العبرانيون فى المنطقة وتعلموا ممن قبلهم الذين سكنوا المنطقة حراثة الأرض وبناء المنازل والقراءة والكتابة . وترك العبرانيون اللهجة السامية القديمة واتخذوا اللغة الكنعانية الفينيقية لغة لهم . ولم تختلف اللغة الفينيقية واللغة العبرانية القديمة التى كتب بها العهد القديم الا من ناحية اللهجة . وعلى ذلك فقد أصبح العبرانيون هم ورثة الحضارة الكنعانية الفينيقية .

أما عن أصل العبرانيين : جاء فى الاخبار العبرانية أن الجد الاكبر ابراهيم (١) (بالعبرية ابرام Abh-ram أى الأب الرفيع) جاء من أور (التى تقع فى دلتا الفرات) وأقام قرب الخليل فى فلسطين . وقد ترك وريثه اسحاق (من العبرية Yisha معناها يبتسم ايل) ولد اسمه يعقوب (وكان ينطق فى العبرية Ya'gobh ومعناها ليحفظ ايل) وعين يعقوب ليشرف على تلك الجماعة وقد فضل على أخيه عيسو (سفر التكوين ٢٥ : ٢٣ ، ٢٧ — ٣٤) وقد تغير اسمه الى اسرائيل (وينطق بالعبرية Yisre-'ēl بمعنى ليحكم ايل) . أما عيسو فقد تسمى باسم آخر وهو أدوم (أى الأحمر) ، وعرفت تلك الجماعة بالآدوميين (سفر التثنية ٢ : ٤ ، ١٢ ، ٢٢) . وعلى ذلك لم نسمع عن عيسو بعد ذلك ، كما لم نسمع عن اسماعيل (وينطق بالعبرية ليشمع ايل Yishmā'el أى ليسمع ايل) ابن ابراهيم . أما يوسف (ينطق بالعبرية Yāsaph أى ليضيف ايل) فكان الابن الحادى عشر من بين أولاد يعقوب الاثنى عشر .

على أن هذه الحوادث التى تواترها اقلام الكتاب الذين عاشوا بعد هذه الحوادث بسنين طويلة ليس من السهل تصديقها . وربما تعكس لنا قصة ابراهيم أخبار الموجة الأولى ، أما قصة اسرائيل ففيها انعكاس للموجة الثانية . أما الموجة الثالثة والتى تحكى قصة موسى فهى تاريخية ما فى ذلك شك .

وبعد ما هو الفارق بين العبرية واليهودية ؟

ليست العبرية واليهودية كلمتان بمعنى واحد . فالعبرية فى الألف الثانى قبل الميلاد كلمة عامة تسمى بها القبائل التى تجوب صحراء بادية الشام ، وكانوا يعملون كجنود مرتزقة ، وذكرت كثيرا فى حفائر تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق وكما أوضحت معناها فى كتابى عن مصر الخالدة ص ٥٧٤ وذلك حينما تحدثت عن لوح امنوفيس الثانى

(١) سنختم باذن الله دراسة العبريين بفصل خاص عن ابراهيم .

المكتشف بميت رهينة اذ جاء عليه ذكر (العابيرو) قلت ما يلى « وقد نوقشت هذه الكلمة الأخيرة كثيرا ، وقديما فسر بعض العلماء احتمال أن تكون تلك الجماعة هم أصل العبرانيين الذين ذكروا فى العهد القديم ، ولكن هذا الرأى غير مقبول فى الوقت الحاضر من غالبية العلماء . وغالبا ما يكونوا هم (الخابيرو) أو (الخابير) الذين جاء ذكرهم فى ألواح تل العمارنة ، وغالبا ما يكون هذا اللفظ لفظ عام لكل المطرودين أو قطاع الطرق ، ولم يتبعوا مجموعة محدودة من السلالات البشرية ، وقد ظهروا فى النصوص المصرية كأسرى آسيويين ، وكانوا يستخدمون فى أعمال قطع الحجارة من المحاجر » . وفى هذا الحين لم يكن لليهود أى وجود .

ولما ظهر اليهود ، ورفعوا نسبهم الى اسرائيل ، ذكروا أن العبرية كانت لغة كنعان ، ثم اندمجت العبرية فى الارامية ، وقد انتشرت هذه الأخيرة فى الشرق كله مع وجود اختلاف بين الارامية الشرقية والغربية . ثم أصبحت العبرية لهجة يختلف أصحابها فى نطق بعض حروفها كما يحدث الآن فى اختلاف نطق بعض الحروف مثل الشين والكاف والميم واللام .

المجتمع العبرى :

فى أوائل الألف الثالثة ق.م. تحركت الجماعات السامية غالبا من موطنها الأصلى الجزيرة العربيـة متجهة الى بلاد الرافدين واستقرت وحدات منها فى جنوب بابل . وقد كانت هذه الجماعات تشكل مجموعات من الفلاحين والبدو وقد تأصل فيها عدم الاستقرار ، وكانت تبغى من وراء ذلك ايجاد وطن لتستقر فيه ، فأخذت تتجول بين حضارتين من أقوى حضارات العالم القديم : مصر والرافدين . أخذت تتجول فى بعض أجزاء تلك البقعة التى أطلق عليها فيما بعد فلسطين وما جاورها ، من أجل ذلك تعرضت هذه المنطقة للغزو البابلى أحيانا والمصرى أحيانا أخرى . فاستولى عليها البابليون فى منتصف الألف الثانية ، ومرة أخرى استولى عليها المصريون . وقد سبق أن رأينا استنجاد ملوك وأمراء هذه المنطقة بآل فرعون ، فهذا عبد خيبا يبلغ فرعون مصر أن قبائل تتسلل من الصحراء الى فلسطين انها تهدد أمن المنطقة ، وسبق أن أشرنا ما يفيد الى أن هذه الجماعات كان يطلق عليها العبريين . فمتى اذن انفصلت تلك القبائل عن العشائر الأصلية لها ؟ لم يستطع احد حتى الآن أن يحدد الزمن الذى تسللت فيه تلك الجماعات الى أرض فلسطين ، الا أنه فى الامكان ـ اعتمادا على القصص القديم وعلى لفظ عبريين والأساطير التى جاءت عن الاباء الأولين ـ أن نقول ان الجماعات العبرية كانت تقيم قبل تسللها الى أرض فلسطين فى جنوب نهر الفرات حيث أقام سيدنا ابراهيم أبو الأنبياء كما سنفسر ذلك فيما بعد . وانهم فى تجوالهم القديم قد

صعدوا الى بلاد الرافدين متتبعين الطريق الذى سلكه الساميين الاقدمين، وبذلك اتجهوا الى سورية أولا ، ثم نزلوا الى كنعان ، ولما قست عليهم الأيام وعضهم الجوع هبطوا الى وادى النيل . واستقرت بعض جماعات منهم فى كنعان . وقد انقسمت تلك الجماعات الى بنى اسرائيل وآخرين . ثم لما كان الاستقرار يتنافى مع طبيعة تلك الجماعات ، من اجل ذلك انقسم بنو اسرائيل فى كنعان نفسها الى اثنى عشر سبطا . كل سبط يختلف عن الآخر . منهم من أقام فى كنعان وآخر نزح الى البادية ، وثالث حينما قست عليه الأيام اندفع الى وادى النيل طالبا العيش .

الخروج من مصر

عرف تاريخ بنى اسرائيل بشكل واضح منذ خروجهم من مصر . وقد وقع غالبا حادث الخروج Exodus فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

رحلت الى مصر قبيلة راحيل ، وهى احدى القبائل العبرية الى مصر غالبا حينما كان الهكسوس فى مصر فى القرن السادس عشر قبل الميلاد تقريبا ، أى ربما فى أواخر عهد الهكسوس . وأقاموا فى أرض جوشن Goshen ، وهى غالبا تقع بالقرب من أواريس عاصمة الهكسوس .

أما عن خروجهم فقد اختلف فيه . والى القارىء طرف مما نبينه فى هذا الشأن فى مصر الخالدة وقد قمت بالتعرض لهذا الموضوع فى كتابى مصر الخالدة بما يلى :

« قام أخيرا أحد المهتمين بمناقشة جميع الآراء ونشره فى بحث خاص وسأحاول أن أعطى فكرة عن قصة الخروج أيام أمنحتب الثانى ، وسأتناول الفكرة الاخرى حين الحديث عن الرعامسة . وعند ذلك سنناقش الفكرتين معا .

ماذا جاء فى الكتاب المقدس عن هذا الموضوع ؟

فى سفر الملوك الاول I Kings VI. I أن سليمان بنى معبدا ، فى بيت المقدس ٤٨٠ سنة بعد خروج بنى اسرائيل من مصر .

وفى سفر الخروج Exodus, 40 اقامة العبرانيين فى مصر وقد استمرت ٤٣٠ سنة .

وهذه النقطة الخاصة بالتقاليد الاسرائيلية قد تحققت فى سفر التكوين Genesis XV 13 (RSV) حيث أعلن الاله (يهودا) الى ابراهيم ما يلى :

« أعلم علم اليقين ان نسلك سيقيمون فى أرض ليست أرضهم ، وسيصحبون عبيدا هناك ، وسوف يضطهدون مدة أربعين عاما » .

وهناك نظريتان لخروج اليهود من مصر ، أحدهما تؤرخ خروجهم منذ أيام (أمنوفيس الثانى) وأول من نادى بها Lefébure عام ١٨٩٦ .
ويقول أصحاب هذه النظرية انه اذا عدنا الى الوراء ٤٨٠ سنة من اقامة معبد اليهود فى (بيت المقدس) والذى تم حوالى عام ٩٦٠ ق.م ، بذلك نصل الى عام ١٤٤٠ ق.م. وهى السنة العاشرة من حكم أمنوفيس الثانى تقريبا وحسب رأى هذا الكتاب ، وعلى ذلك فعام ١٤٤٠ ق.م. هو التاريخ التقريبى لخروج اليهود من مصر .

أما عن الفرعون الذى مات أثنـــاء اقامة (موسى) فى (مدين) Exodus II. 23 فهناك احتمال فى أن يكون تحتمس الثالث هو الذى مات عام ١٤٥٠ ق.م.

أما عن دخول الاسرائيليين أرض كنعان بعد أربعين سنة أقاموها فى انصحراء ، فيحتمل أن يكون ذلك قد وقع عام ١٤٠٠ م.م وسط حكم امنحتب الثالث والذى حكم من ١٤٠٥ الى ١٣٦٧ ق.م تقريبا ، وفى هذا الوقت تمالاستيلاء على Jericho ، وقد مات موسى قبل ذلك ، بعد أنبلغ من العمر ١٢٠ سنة ، وعلى ذلك فقد ولد حوالى عام ١٥٢٠ ق.م. فى نهاية عهد تحتمس الاول الذى حكم من ١٥٢٨ — ١٥١٠ ق.م تقريبا ، وقد اخذت ابنته (حتشبسوت) (موسى) وتبنته . وقد فر الى مدين فى سن الاربعين ، وكان ذلك بعد وفاة (حتشبسوت) ، فقد أحس (موسى) بأن حزبها قد ضعف وأن مركزه سيتزعزع لان تحتمس الثالث أراد أن ينفرد بالسلطة فقضى على كل من والى حتشبسوت .

وأصحاب هذه النظـرية يحاولون تبريرها فيقولون أن Garstang قد اثبت أن مدينـــة Jericho قد هدمت أيام أمنحتب الثالث . ولم يعثر فى خرائب المدينة وبعد أن تم هدمها وحرقها على جعارين أقدم من عهد امنحتبالثالث ، وهذا يؤيد القضاء على المدينة فى هذا التاريخ . وأصحاب هذه النظرية يقولون انه لا مفر من أن العبرانيين الذين نزلوا الى مصر مع الهكسوس لابد انهم خرجوا مع الهكسوس بعد طردهممن مصر .

وخطابات ملوك آسيا مثل (عبدى خيبا Abdikhiba) محافظ بيت

المقدس والذى وجهها الى أمنحتب الثالث يطلب منه العون ضد هجوم جماعة يطلق عليها Habiru قد جاء ذكرها فى هذا المجال وقد حاول بعض العلماء أن يعتبر هذه الجماعة العبرانيين الذين ذكرهم (يشوع) والذين دخلوا كنعان . وقدسبق أن بينت عند الحديث عن كلمة (عابيرو) الرأى الاخير لهذه الكلمة عند الكلام عن لوح ميبت رهينة لامنحتب الثانى .

وقد ذكر على اللوح المؤرخ فى السنة الخامسة للملك مرنپتاح كلمة اسرائيل بين سكان فلسطين ، وهى تعطينا فكرة عن أن اسرائيل كانت قائمة هناك فى هذا الوقت ، وان خروجهم قد تم من مدة . واصحاب هذه النظرية يقولون ان مانيثون قد وضع خروج اليهود ايام الملك (أمنوفيس) ، وان اسم رمسيس الذى أعطى للمدينة التى جاء ذكرها فى (سفر الخروج الاول) ، لابد انه فى هذه الحال يعد اضافة متأخرة ، ومثل هذه النتيجة نستطيع ايضا أن نبرر بها ما ذكر فى (سفر التكوين XLVII. II) حيث قيل أن يوسف قد انزل احواته فى أرض رمسيس .

وقد نشر Grdseloff بحثا عام ١٩٤٩ عن لوح عثر عليه فى (بيت شان) يحدثنا عن هجوم 'Apiru ، أيام (سيتى الاول) على بلدة تقع فى غرب الاردن . كما يذكر أن 'Apiru ، الذين جاء ذكرهم على لوح أمنحتب الثانى الذى كشف عنه فى (ميت رهينة) يتصلون بدخول (يعقوب) وأولاده الى مصر ، وقد أنهى مقاله بان وضع خروجهم من مصر فى العام الاخير من حكم (رمسيس الثانى) . وحدد Grdseloff دخول (يعقوب) الى مصر بالعام ١٤٣٨ ق.م وخروج اليهود بالعام ١٢٢٣ ق.م مستخدما فى ذلك تأريخ Rowton الذى سبق أن أشرنا اليه ، وعام ١٤٥٠ وسنة ١٢٣٥ هما السنتان المطابقتان لرأى (دريتون فانديه) .

ان نتائج حفائر (Montet مونتيه) فى (تانيس) أو Pi-Ramses تدل على صحة الرأى القائل بوقوع خروج اليهود فى عهد مرنپتاح . ولا يوجد اى أثر لنشاط الملوك وقع أيام الاسرة الثامنة عشرة ، لقد كانت (Pi-Ramses) على ما يظهر من خلق رمسيس الثانى وليست من عمل ملك آخر . لقد جاء فى المزمور ٤٣و١٢و١٣٨ ما يفيد أن الحوادث التى سبقت خروج اليهود قد وقعت فى تانيس » .

ويميل جمهرة العلماء الى ترجيح خروج بنى اسرائيل من مصر فى الايام الاولى لعهد مرنبتاح .

واول اشارة لاسرائيل قد جاءت على اثر من عهد هذا الفرعون يسمى لوح اسرائيل محفوظ بمتحف القاهرة .

ولما رحلت قبيلة راحيل من مصر ، أقامت عدة سنوات فى سيناء عند قادس ـ (غالبا ما تكون هى عين قادس التى تقع على بعد ٥١ ميلا جنوبى بئر السبع) . وتم وضع العهد الالهى فى القسم الجنوبى من سيناء ، فى مدين . وتزوج زعيم الاسرائيليين موسى (اسم مصرى معناه ابن) من ابنة كاهن مدين أو كما يسمّيناه (بنى مدين يثرون) الذى علم موسى عبادة يهوا (كان عند العرب اله الصحراء وأصلا اله القمر) .

من هو موسى وكيف تمت سكنى فلسطين ؟

وطالما نحن بصدد الحديث عن العبرانيين أرى من الخير الاشارة الى شخصية موسى . فمن هو وما الذى كان يقصده من دعوته ؟ لقد أجمعت آراء المؤرخين انه كان مهذبا طيب القلب ، هو ذلك الرجل المصرى الذى عاش فى بلاط فرعون وتأثر هو وبنو اسرائيل بعقائد المضريين . فثار موسى على تعدد الالهة وتزعم حركة الثورة على دين فرعون . وبفضل النبى موسى رغب الاسرائيليون فى الاستقرار ؛ ولذلك عمل على تخليصهم من حياة البداوة والترحال ووعدهم موسى أرض كنعان التى كانت ملكا للعرب والعبريين ، وكان عليهم ان يدخلوا فى معارك ضد أهلها ، وطالب موسى بنى اسرائيل بالقتال معتمدا على شريعة الآباء الأولين ، ثم هو يفكر فى الدعوة الى اله جديد غير تلك المعبودات التى كانت سائدة عند بنى اسرائيل .

آمن بدعوته هذه قلة من بنى اسرائيل وتبعوه الى سيناء ، وفوق جبل من مرتفعات سيناء استقر موسى أربعين سنة ينادى بوحدانية الخالق ، لكن بنى اسرائيل لم يؤمنوا بما جاء به ، وفى تلك الصحراء تزايد الإسرائيليون بالتناسل أو باختلاطهم مع بطون أخرى اسرائيلية . ثم تراءى لموسى ضرورة البحث عن وطن ليستقر هو وعشيرته فيه ، فليكن كنعان ، من أجل ذلك طالبهم بالاستيلاء عليها . فالأرض لم تكن أرضهم ولم يرثوها من أسلاف سبقوهم ، ونشأت عندهم فكرة الوطن لأن الله وعدهم استيطان كنعان . ففكرة الوطن عند اليهود جاءت بعد ظهور بنى اسرائيل وعادة تتطور الشعوب فى ظل أوطانها ولكن بنى اسرائيل ظهرت الى الوجود أولا ثم ادعت ملكية أرض لا حق لهم فيها .

دفع موسى بنى اسرائيل الى هذا الوطن الروحى ، فاندفع بجموعه الى الشمال ، فاعترضته بعض القبائل ، وأخيرا وصل الى شرق الأردن ، وتخلف عن تلك الجموع قبيلة يهوذا وشمعون ، ومن الجنوب دخلت هذه الجماعات كنعان ، وأصبحت على بعد قريب من أورشليم وقد كانت هذه

فى قبضة اليبوسيين . ودب خلاف بين تلك الأسباط . وغادر موسى دنياه قبل أن يعبر الأردن . وجاء من بعده يشوع بن نون الذى اندفع الى الأرض وحقق بعض النصر الذى كان يبغيه موسى لبنى اسرائيل فقضى على التحالف الموجود بين الاموريين والكنعانيين .

من ذلك نرى أن الأسباط قد توزعوا فى ثلاث شعب تشمل ثلاثة اقاليم : احدها يقع فى أقصى الجنوب وكان من نصيب يهوذا ، والثانى يقع شرق الأردن ، والثالث يقع وسط أرض كنعان . وكان يسكن القسم الساحلى الشمالى الفينيقيون بينما أقام الفلسطينيون فى القسم الجنوبى من هذا الساحل .

وجدير بالملاحظة أن الاسرائيليين لم يواجهوا مقاومة من سكان البلاد الأصليين ، لكن التنافس بينهم والأنانية بين أفراد تلك المجموعة كان لهـا أثرها فى تفوقها وتشتيت شملها .

وبالرغم من انتصار الاسرائيليين المؤقت فى الاستيطان فى تلك الأرض الا أنهم لم ينتصروا ثقافيا ولم يمتزجوا بثقافة الفينيقيين والفلسطينيين والاراميين والعرب وغيرهم .

أما الجزء الذى اغتصبه بنو اسرائيل فى شرق الأردن ، فكان يسمى قديما « جلعاد » ، وغالبا أنه جبل جلعود ، الواقع بين نهرى اليرموك ويبول (١ سفر التثنية ص ٣ ـ ١٠ ويشوع : ١٣ ـ ١١ والملوك الثانى ١٠ ـ ٣٣) .

ان رسائل تل العمارنة تلقى ضياء قويا على استيطان الاسرائيليين لفلسطين ، فقد استخدم الكنعانيون ، وقد جاء ذكرهم أحيانا باسم الفينيقيين ، وهم أول شعب سامى نزل الى فلسطين ، ادخلوا فى خدمتهم الخبيرى = العبيرى واختلط هؤلاء بالكنعانيين كذلك اختلط الاسرائيليون بالكنعانيين . وكانت ثقافة هذا الخليط كنعانية ، كما تلقن الاسرائيليون عن الكنعانيين الزراعة والصناعة والفنون والتجارة ، حتى الديانة الكنعانية أثرت فى الديانة الاسرائيلية ، فتحول بعل الكنعانيين الى يهوه عند الاسرائيليين .

ومما ساعد على تمكن الاسرائيليين من أرض كنعان هو تقلص نفوذ قطبى الحضارة ، مصر وبلاد الرافدين عن هذه المنطقة فى هذه الفترة . كذلك تأثر الاسرائيليون بالفينيقيين ، فقد استعان سليمان بعمال فينيقيين لبناء قصره . ولقد ظلت القبائل الاسرائيلية الشمالية أكثر اتصالا

بالفينيقيين منها بالقبائل الاسرائيلية الأخرى . حتى ان الملك الاسرائيلى « آحاب » تزوج اميرة من صور . وبلغ تأثر الديانة الفينيقية مداه عند الاسرائيليين ، الى درجة أن « آحاب » قدس اله صور « ملقارت » . ولما انتصر تيجلات بيلاصر عام ٧٣٢ على سورية ، توجه اليه الملك أحاز فى دمشق فشاهد مذبحا هناك ، ورغب فى اقامة مثيل له فى أورشليم : ولما استولى الآشوريون على سورية تيجلات بيلاصر ، وكانت دولة يهودا تابعة لتلك المنطقة ، قدس الاسرائيليون الالهة الآشورية ، واخذوا عنهم الكثير من التعاليم الدينية .

من كل ذلك نجد أن الاسرائيليين قد تأثروا كثيرا بجيرانهم واختفت تقاليدهم وعاداتهم القديمة أمام تلك الحضارات القديمة القوية القادرة على اذابة غيرها من حضارات ضعيفة وصهرها فى بوتقتها . ولما دالت أيام الآشوريين والبابليين وظهر الفرس على مسرح السياسة ودخلوا اسرائيل، تأثر الاسرائيليون بالحكم الفارسى فأرخوا بسنى حكم ملوك فارس ، وتعاملوا بالعملة الفارسية وظهرت بعض الكلمات الفارسية فى اللغة العبرية .

من هم الفلسطينيون ؟

هم غالبا من المجموعات التى سميت شعوب البحر (بحر ايجه) وسيطروا على المراكز الساحلية . (انظر ما سبق أن اشرنا اليه من ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩ وقد نشره Albright عام ١٩٦٦) . وقد حدث فى أواخر القرن الثالث عشر تحركات بعض شعوب فى آسيا الصغرى فتفرقت قبائل الفلسطينيين بطريق البر والبحر نحو سورية فقضت على اوجاريت وبعد ذلك صور ،.ثم تقدمت الى الساحل المصرى ولكنها هزمت أيام رمسيس الثالث، لكنه سمح لها أن تقيم فى ساحل سورية الجنوبى الذى أصبح يسمى سمح لها ان تقيم فى ساحل سورية الجنوبى الذى أصبح يسمى فلسطيا فلسطيا Philistia وقد امتد الساحل الذين اقاموا فيه من غزة الى جنوبى يافا . وكانت مدينة جث Gath الداخلية هى أبعد مدنهم . وكان الكرمل هو الحد بينهم وبين الفينيقيين . أما عن أهم المدن التى أقام فيها الفلسطينيون . غزة وعسقلان واشدود وعقرون وجث ، ونظمت فيها حكم ممالك المدن على انها كانت تشكل اتحاد قويا عاليا تحت اشراف مدينة اشدود . وبلغت قوة الفلسطينيين أقصاها فى النصف الثانى للقرن الحادى عشر . اذ قضوا على العبرانيين حوالى عام ١٠٥٠ ق.م وقد حملوا معهم تابوت العهد الى اشدود (سفر صموئيل الاول ٥ : ١ . وقد

اقام الفلسطينيون بعد ذلك فى حاميات مرتفعة وسيطروا على مدن داخلية مثل بيت شان (سفر صموئيل الأول : ١٣ : ٣ وما بعد ، ٣١ : ١٢ .) وكان للفلسطينيين اليد العليا على الاسرائيليين . وكان السبب فى ذلك تفوقهم فى السلاح الذى صنعوه من الحديد وجدير بالذكر أن الحيثيين كانوا قد استخدموا الحديد فى أوائل القرن الثالث عشر ولكن بصورة محدودة ، ولكن لم ينتشر استخدام الحديد فى سورية الا عند قدوم الفلسطينيين . وقد تفوق كل من تعلم صناعة الحديد من الفلسطينيين خصوصا الكنعانيين على الاسرائيليين . وبذلك انتقل الفلسطينيون بالحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة الحديد .

* * *

مملكة العبرانيين المتحدة

قاوم العبرانيون الفلسطينيين أسيادهم . وقد كان للفينيقيين ممالك مدن مثل بيبلوس وصيدا وصور ، وكان للعبرانيين فى هذا الوقت ماسمى قضاه أو زعماء . وجاء فى سفر صموئيل الأول ٨ : ٥ ، أن شيوخ اسرائيل توجهوا الى زعيمهم الدينى صموئيل قائلين له اجعل لنا « ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب » . وكان ملكهم الأول ضعيفا اقام فى جبعــة (هى تل الفول على بعد أربعة أميال شمالى أورشليم (صموئيل الأول ١٠ : ٢٦ ، ١١ : ٤) ولم تمتــد مملكته الى أبعد من منطقة قبيلته بنيــامين . وقد استطاع الفلسطينيون أن يقضوا على ملكهم فى معركة جلبوع (وهى تقريبا قرية جليون الحديثة) .

نظام الكهنة ــ والنظام الملكى

دويلتنا اسرائيل ويهودا

لم يوجــد فى المجتمع الاسرائيلى قبل أيام موسى النظام الكهنوتى ، وقد كانت عبادة يهوه عبادة عائلية وليست خاصــة بالشعب . وجدير بالذكر أن الشعب الاسرائيلى لم يظهر بعد لينشأ معه النظام الكهنوتى . ويعتبر الاسرائيليون أن موسى هو أول كاهن وذلك عندما انتهى من كتاب العهد (الخروج ٢٤ : ٦) . كما يرجع الكهنة نسبهم الى ابن موسى البكر (جيرشوم) (القضاة ١٨ : ٣٠) . وبعد ذلك يسلم موسى أخيه هرون وأولاده (الخروج ٢٩) وظيفة الكهانة . وقد اعتبر هرون والد الكهنة لأنه كان يقوم برسمهم . من أجل ذلك انقسم الكهنة الى فريقين : أحدهما يسمى « كوهين » والفريق الثانى يسمى « ليفى » . كما أطلق أيضا على هرون لفظ « اللاوى » (اصحاح ٤ : ١٤) بمعنى الكاهن تشبها بموسى .

أما واجبات الكاهن سواء عند الاسرائيليين أو العرب : تقديم القربان، التنبــؤ . وكان يتم التنبؤ بطــرق ثلاث الـ « أفــود » والـ « اوريم » والـ « تميم » .

والطريقة الأولى وهى استخدام رداء يسمى الـ « أفود » صنع من قماش ثمين غير الكتان ، يضعه الكاهن حين استخاره الله . أما الطريقة الثانية والثالثة فيستخدم فيها سهمان هما الـ « أوريم » والـ « تميم » . والأول يعنى « خير » والثانى يعنى « الشر » .

وقد تطور المجتمع الاسرائيلى وانتقل بعد ذلك الى حكم الملوك ، ثم كان السبى الاشورى (حوالى عام ٧٢٢ ق.م) واعقبه البابلى فى القرن السادس . وبعد ذلك ظهرت المسيحية لتحاول انقاذه لكنها فشلت أمام الرومان ، اذ قام تيتوس القائد الرومانى فى حوالى ٧٠ ميلادية بهدم المعبد والاستيلاء على أورشليم واخذ كل ما وجده فى هذه المدينة ونقلها الى روما . وبعد ذلك تفرق الاسرائيليون فى الجزيرة العربية ، وظهر نور الاسلام فاكرمهم واسكنهم فى منطقة الأردن .

شاءول :

أما عن أول قائد أو ملك جمع صفوف العبريين ضد الفلسطينيين فهو شاءول وقد عينه زعيمهم الدينى صموئيل اذ طلب شيوخ اسرائيل ان يجعل لهم « ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب » (سفر صموئيل الأول ٨ : ٥) . وكان ذلك حوالى عام ١٠٢٠ . وقد شغل كل أيامه بالحرب مع الفلسطينيين (صموئيل الأول ١٤ : ٥٢) . وقد كان شاءول يميل فى حياته الى التقشف ، فلم يبن قصرا كما سيفعل خلفاؤه ، كما لم يتخذ لنفسه حاشية أيضا .

كان شاءول من سبط بنيامين ، من اجل ذلك حينما تمكن من الاستيلاء على أراض من الفلسطينيين وزعها على رؤساء قبيلته البنياميين كان يعتمد فى الحرب على رجال قبيلته وبعض أفراد القبائل الأخرى المخلصة له ، وظهر من بين هؤلاء داود وكان موسيقيا وقد تزوج ابنة شاءول ، وكان من سبط يهودا .

وقد جن شاءول فى أواخر أيامه وغضب على داود وكان قائد أحد فرق جيشه . وقد استطاع داود ان يؤسس مملكة فى أقصى جنوب يهودا . لكنه فشل فهرب وانضم الى صفوف الفلسطينيين ضد بلاده .

وذكر العهد القديم ان شاءول قتل هو وأبناؤه بأيدى الفلسطينيين الذين استرجعوا قلب البلاد الى أيديهم . وبذلك تمكن الفلسطينيون فى هذه الفترة من تشتيت شمل الاسرائيليين وذلك فى معركة جلبوع (وهى حاليا جبل الفقوعة ، بين حوض قيشون ووادى الأردن ، وتسمى حديثا جلبون) وقد مثل الفلسطينيون بشاءول فسمروا جسده وأجساد أولاده الثلاثة على سور بيت شان (بيت شام) (صموئيل الأول ٣١ : ١ — ١٠ ؛ أخبار الأيام الأول ١٠ : ١ — ١٠ ، قارن مع صموئيل الثانى ١ : ٦ — ١٠)

داود

حينما قتل شاءول ويوناثان ولده تظاهر داود بالحزن عليهما ورثاهما واعلن أحد أولاد شاءول ممن بقوا على قيد الحياة وهو « ايش بعل » ملكا على « محنايم » التى تقع وراء الأردن . (أخبار الأيام الأول ٨ : ٣٣ وصموئيل الثانى ٢ : ٨) . وللمرة الثانية يعلن داود استقلاله فى الجنوب ويشكل مملكة من بعض الاسرائيليين فى يهودا وكذلك انضم له بعض أفراد من قبيلة « كالب » . واتخذ « حبرون » عاصمة لمملكته التى سماها « يهودا » وذلك نسبة الى قبيلته . ولما علم بذلك « أيش بعل » حمل على داود لكن هذا الأخير انتصر فى النهاية بعد قتال دام ما يقرب من سبع سنين . وقد نجح داود فى ذلك بوسائل حربية وبطرق أخرى ، منها تدبير مؤامرة لقتل ايش بعل بأيدى قائدين من افراد قبيلته من البنياميين . وبذلك استطاع داود أن يضع يده على اسرائيل ، وبدأ يعمل على توحيد البلاد . وتوطيد دعائم عرشه بجيش قوى واجلاء أهل البلاد الأصليين من الفلسطينيين (صموئيل الثانى ٥ : ١٧ — ٢٥ ، و ١١ : ١٥ — ٢٣) . وقد استطاع داود أن يحقق أهدافه هذه فاستولى على أورشليم التى كانت تتوسط اسرائيل ويهودا وأقام فيها وسميت قلعتها « صهيون » بمدينة داود » .

كانت أورشليم تقع خارج المراكز القبلية وبين القسم الشمالى والجنوبى للملكة التى انشأها داود ، كما كانت تسيطر على طريق داخلى هام يتجه شمالا وجنوبا فى المنطقة المرتفعة التى تقع غربى وادى الأردن. أقام داود فى هذه المدينة . وقد عاونه فى بناء مقره الملكى صديقه الفينيقى الملك حيرام (٩٨١ — ٩٤٧ تقريبا سفر صموئيل الثانى ٥ : ١١،) . كما أقام داود معبدا ليهوه فى تلك العاصمة الجديدة .

أما عن جيش اسرائيل فكان مكونا من فريقين من المحاربين : « صبا » كانوا من الشبان الاقوياء يستدعون حين تمر البلاد بأزمة من الازمات . وقد كان يستخدم فى استدعائهم النفير أو الصور (وجدير بالذكر أن

المصريين القدماء وغيرهم من أهل الرافدين كانوا يستخدمون النفير أو الصور فى استدعاء الجند ويوجد بمتحف القاهرة نفيران احدها غالبا كانت تعلن فيه الحرب أو يستدعى بواسطته الجنود والآخر قيل انه كان يستخدم لانهاء الحرب . وقد سجلت اصوات لهذين النفيرين) أو ترفع الاعلام أو تشعل النيران لاستدعاء هذه الجماعات التى لم تكن تتميز برداء خاص . أما الفريق الثانى فهو الجيش النظامى بفرقه التى كانت تعيش على السلب والنهب .

ولقد قضى على داود بالسلاح الذى اتخذه ضد أعدائه ، وهو سلاح المؤامرات . وقد ملئت الفترة الأخيرة من أيامه باضطرابات كثيرة ومؤامرات . فهذا ولده « ابشالوم » يقتل أخاه الأكبر « آمنون » لأنه فض بكارة أخته « تامار » . ولما علم داود بقتل ولده البكر حزن وطرد ابشالم ثم عفا عنه بعد ذلك . ولما عاد هذا الأخير ثار على والده فهرب ، غير أن قائد حرس داود تمكن من القبض على ابشالوم وقتله ، الا ان هذا لم يضع نهاية للمؤامرات فقد انقسمت حاشية داود الى حزبين أحدهما يميل الى تعين « أدونيا » الابن الأكبر لداود ووريثا له ، وقد ناصر داود هذا الحزب . أما الحزب الآخر فكان يظاهر « سليمان » الابن العاشر لداود . وقد أعلن أدونيا نفسه ملكا قبل وفاة والده . ولكن لعبت أم

وضعته أمه « بت سبع » وسماه أبوه رجل الحرب والقارة سليمان سليمان وزوج داود (بت شبع) وكانت أقرب النساء الى قلب الملك داود ، دوراً كبيراً فى اقناع زوجها باهداء عرشه الى سليمان .

أما عن أهم ما يلفت النظر فى حكم داود هو انه جعل ديانة يهوه الديانة الرسمية فى تلك الدولة الموحدة (اسرائيل ويهودا) . ولو أن داود كان ممن يحملون السيف الا أن الأدب العبرى فى عهده ازدهر . وقد ظهر ما يسمى المذكر mazkir وكان تقوم هذه الشخصية بتسجيل الحوادث . والمؤرخون من هذه الفترة لهم أسلوب حيوى موضوعى . ويسجل سفر صموئيل الثانى حياة داود بأسلوب رائع من الفصل التاسع الى العشرين . وظهرت مؤلفات شعرية كثيرة ، وقد كان داود نفسه شاعرا . وسبق أن ذكرنا أنه كان موسيقيا . وقد نسب اليه القيام بوضع بعض المزامير . وبذلك أسهم داود فى بناء المجتمع الاسرائيلى ثقافيا وأسس له أول مملكة موحدة بالمعنى الصحيح ، وقد كانت شخصيته متناقضة فهو جبار اذا ما اضطر الى ذلك لكنه ضعيف أمام أولاده ونسائه ثم هو بعد شاعر وموسيقى وخطيب .

سليمان

ورث داود سليمان (وحكم تقريبا من عام ٩٦٣ الى عام ٩٢٣) . وقد كانت أمه تتمتع بكثير من الدهاء وقد أضاء القرآن الكريم لنا الطريق فى هذا الشأن حينما حدثنا عن داود فى سورة ص ٢٣ — ٢٤ فى قول الله تعالى « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجـة ولى نعجـة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وأن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » صدق الله العظيم .

وضعته أمه « بت شبع » وسماه أبوه رجل الحرب والغارة سليمان بمعنى السلام .

أراد سليمان أن يحكم البلاد حكما مطلقا لذلك سلك طرقا مألوفة فى عصره : فقتل أخاه « أدونيا » وكان هو صاحب الشرعى فى عرش البلاد وكذلك قتل كبير الحاخاميين حتى لا يقف فى وجهه اذا ما خالف تعاليم الدين . ثم أطلق بعد ذلك سليمان لنفسه العنان فى تحقيق رغباته الشخصية وأراد ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . وبينما كان داود محاربا نجد سليمان يبتعد عن الحرب ويسلك طريق المصاهرة ، فقد تزوج من ملوك العمونيين والموابيين والاراميين والكنعانيين والحثيين وفراعنة مصر .

أراد سليمان أن يدعم أركان عرشه فعمل على القضاء على طموح البطون والعشائر التى كانت تطالب بضمان حياتها حيـاة كريمة . فعمل على تفتيت أى تفكير فى وجود رابطة تربط هذه الاسباط . كما حاول أن يسير على مبدأ فرق تسد وذلك بايجاد مشاكل تخص حدود أراضى هذه القبائل فأشعل بينها نار الحقد والثورة . وقد قسمت المملكة فى أيامه الى اثنى عشر اقليما ، اقام على كل منها محافظا عليه جمع الضرائب . كما كان على كل محافظة أن تقدم كل شهر جميع ما يحتاج الملك وحاشيته وجيشه وخيله والانفاق على كل ذلك من المحافظة . كما قام بتعين عيون له من رجال حاشيته بين هذه القبائل لتوجيه الشعب ولابلاغه بواطن الأمور . وقد تضافرت الجهـود العمـرانية فى أورشليم لتأخذ مكانتها بين مدن وعواصم بقية المحافظات . فكثرت بها العمائر الحكومية والملكية وحصنها، كما كانت تغذيها قناة بمياه عذبة . وختم مشروعاته باقامة هيكل وغالبا أن موقعه كان الذى تحتله قبة الصخرة حاليا . بنى هذا الهيكل ليصبح من ملحقات قصره ، وقد تم بناؤه فى سبعة أعوام . ثم أصبح بعد ذلك قبلة يتجه اليها جميع العبريين .

لقــد استخدم سليمان فى جميع منشآته العمــرانية معماريون من الفينيقيين وجلب لها الارز من لبنان . وقد سخر سليمان حوالى ثلاثين الفا من رعاياه بالتناوب ليعمل كل عشرة آلاف منهم شهرا فى لبنان ليعاونوا رجال حيرام فى قطع الأشجار ويعودون الى البلاد ثانيا ليعملوا فى عمارة الهيكل (انظــر الملوك الاول ٥ : ١٣) . وزخــرف الهيكل على أسس كنعانية ، كما كانت طقوس الهيكل وقربانه على الطريقة الكنعانية ، حتى عبيد الهيكل كانوا كنعانيين . وجدير بالذكر أن كلمة « هيكل hēkallu الكنعانية والتى استخدمها سليمان كانت سومرية (من الكلمة é-gal بمعنى البيت الــكبير) ، وهذا يدل على تأثير الحضــارة الســومرية فى الشرق .

كما أن اسطبلات سليمان التى تم الكشف عنها توضح لنا نظام وضع المرابط الخاصـــة بالخيل فى صفوف مزدوجة ، كانت تتسع لأربعمــائة وخمسين حصانا . كما قام سليمان وذلك بمعاونة حيرام الفينيقى ببناء اسطول لتمخر فيه سفنه عباب البحر الأحمر . وقد اتخذ مرفأ عند راس خليج العقبــة عند تل الخليفى حاليا والتى كانت تسمى قــديما عصيون غابر ثم اطلق عليها بعــد ذلك ايلات Elath ولــما أتى الرومان سموها ايله Aila . وقد سارت سفن سليمان على مياه هذا الخليج الى البحر الاحمر (انظر شكل ٢٨) باشراف احــــد رجال صور ، وقــاموا برحلات حول جزيرة العرب وافريقية الشرقية (سفر الملوك الأول ٩ : ٢٧ ــ ٢٨ ، ١٠ : ١١ ، أخبار الأيام الثانى ٩ : ١٠) وذلك لجلب البخور والعطور والعاج والذهب والحجارة الكريمة . ويقومون بتصدير النحاس والحديد وقد وجدا فى المنطقـــة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة (ويطلق على هذه المنطقة حاليا اسم العربة) . وكانت تصهر المعادن فى عصيون غابر .

وقد ذاعت شــهرة سليمان فائمر الجن = (هى كلمــة آرامية) معناها « مخبأ » بأمره . وجاء فى القرآن الكريم ، سورة الانبياء « آية(١٨) ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الارض التى باركنا فيها وكنــا بكل شىء عالمين (٨٢) ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين » . وجاء فى سورة النمل أيضا « آية ١٧ وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » . ولما أرسل سليمان الى بلقيس ملكة سبأ « آية ٣٢ قالت يأيها الملؤ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون (٣٣) قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين » . ثم قالت « (آية ٣٥) وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون (٣٦) فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتنى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون (٣٧)

ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صـــاغرون (٣٨) قال يا أيها الملؤ ايكم يأتينى بعرشـــها قبل أن يأتونى مسلمين (٣٩) قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين .. » حتى تمكن سليمان فى آخر الامر من القضاء على تلك المملكة وخضعت له بلقيس اذ جاء فى القرآن الكريم « (آية ٤٤) قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

ولقد جاء فى سفر الملوك (سفر الملوك الاول ١١ : ١٤ ــ ٢٢) ان أحد فراعنة مصر (لم يذكر اسم هذا الفرعون) قد حما (حدد) الأمير الصغير لآدوم حينما هاجمه الملك داود ، وزوجه بعد ذلك من أخت ملكته وكانت تسمى Takhpenes . وقد تربى Genubath ابن حدد فى بلاط فرعــون مع أولاده . وبعد وفاة داود عاد حدد ــ بالرغم من معارضة فرعون ــ الى بلاده ليزعج سليمان . ولم يستطع أحد من العلمـــاء حتى الآن معـــرفة الفرعون الذى حدثت فى أيامه هذه الحوادث على وجه التأكيد .

ولقد جاء فى (سفر الملوك الاول ٣ : ١) أن أحد فراعنة الاسرة الحادية والعشرين (وهو غير معروف اسمه) كان على علاقة طيبة بسليمان حتى أنه ارسل اليه ابنته ليتزوجها واعطى سليمان حصن جزر الكنعانى الذى استولى عليه مهرا لابنته (سفر الملوك الاول ٩ : ١٦) . وقد كانت هذه الاميرة المصرية واحدة من حريم سليمان الذى كان مؤلفا من ٧٠٠ من الزوجات و ٣٠٠ من السرارى (سفر الملوك الاول ١١ : ٣) . ولقد كانت الهدية التى قدمها فرعون مصر الى ابنته هذه هى مدينة جزر ، هدية عظيمة لان الاسرائيليين لم ينجحوا فى زحزحة الكنعانيين من المدينة . وعثر بين مخلفات الفراعنة فى تانيس على أثر صور عليه الملك سى آمون وهو يضرب عدوا راكعا أمامه قابضا فى يده على فأس للحرب مزدوجة من النوع الذى كان يتخذه الايجيون فى أسلحة الحرب ، ولكن شعوب البحر التى سكنت ساحل فلسطين بعد هزيمتهم أيام رمسيس الثـالث قد سكنوا فلسطين . وغالبا ان هذا المنظر يسجل غزوة حقيقيـــة قام بها المصريون الى الشرق القريب وانهم استولوا على جزر واذا صح ذلك فسيكون سى آمون هو الذى صاهر سليمان ، والله وحده يعلم .

أثقل سليمان كاهل الشعب بالضرائب لتحقيق مشاريعه وللانفاق على حاشيته وجيشه وقد جد سليمان وأعوانه فى انماء الدخل القومى واستغل علاقات الود التى كانت موجودة بينه وبين جيرانه ، وكان يتمتع بحنكة سياسية ، وقد نجح تجار سليمان فى احتكار التجارة المصرية فى

المتاجرة والنقـل . وكان يفرض على الشماليين شراء ما يحتاجون من متاجره . ووضع سليمان يده على كل شيء في الدخل القومى حتى تجارة المرور (الترنسيت) فرض عليهـا اتاوة طـرق . وكذلك اشـترك مع الفينيقيين فى بعض الرحلات التى توجهت الى جنوب اسبانيا .

وفى الواقع كان سليمان ملكا تاجرا ، من أجل ذلك ملئت خزائنه هو ورجال بلاطه . وظهرت طبقة من الحاشية وكبار الموظفين التجاريين التى كانت غارقة فى النعيم والملذات والليالى الحمراء . والشعب من وراء تلك الشرذمة يتضور جوعا وقـد اكتفى بالأرض يفلحها وببعض الصناعات البسيطة يمارسها ليسد رمقه وبذلك تمزق المجتمع الاسرائيلى . وكان من نتائج ذلك التذمر على سليمان ، خصوصا وانه قد تهاون فى بعض الطقوس الدينية . واتحدت بعض القبـائل الاسرائيلية فى أواخر عهـد سليمان فى مدينـة « سيلو » تحت زعامـة النبى « اخيا » وظاهـره « يربعام » . وقد حاول سليمان قتله لكنه هرب الى مصر فرعون مصر وعاد بعد وفاة سليمان ملكا لعشرة قبائل ، بينما رضى رحبعام بن سليمان بالملك على مملكةيهودا . لم يكن الفرعون الجالس على عرش مصر صهر سليمان . ومات سليمان وسط هذه الاضطرابات .

تفكك أوصار مملكتى يهودا واسرائيل .

لما تولى رحبعام العرش بعد والده حاول أن يثبت دعائم عرشه وقد عاونتـه قبيلتى يهـودا وبنيامين اللتين ناصرتا بيت داود اما بقيـة الاسباط الأخرى فقد انكرت الملكية ولم تعترف برحبعام ملكا .

وقد أعترض شيوخ الاسباط فى « شكيم » على تعيين رحعيام قائلين « ان اباك قسى نيرنا واما انت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا فنخدمك » . ولم يقبل نصحهم وقال لهم « أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقـارب (الملوك الأول ١٢ : ١١) ورفضت عشرة أسباط الاعتراف به وقرر انتخاب يربعام وهو من قبيلة افرايم ملكا على مملكة اسرائيل وكانت عاصمتها « شـكيم » فى بادىء الامر ، ثم ترزه ، ثم السامرة . وقبلت قبيلتا يهودا وبنيامين على الولاء لرحبعام وكونت مملكة يهودا وعاصمتها أورشليم .

وانقسمت المملكة وكثرت المؤامرات ، وانحلت البلاد داخليا . فدولة اسرائيل فى الشـمال ، وكانت تسمى دولة افرايم أو سماريا ، وكذلك يهودا فى الجنوب .

وقد ضاعت دولة سماريا من الوجود بسبب تدخلها فى شئون غيرها خارجيا وداخليا وقاوم يربعام معبد أورشليم وجرده من أهميته الدينية واتجه الى تدعيم معبد بيت ايل ودان وادخل عبادة أبيس (العجـل

الفرعونى) . وشجع العبادة فوق الجبال واخذ بذلك يتجه الاسرائيليون الى الوثنية مما دفع المتطرفين فى الدين الاسرائيلى الهجرة الى يهودا .

ولقد جاء فى الخبر ان فرعون مصر (شيشنق) قد أستولى على جزر ، وحرقها بالنار ، وذبح الكنعانيين الذين كانوا يقيمون فى المدينة . وحدث فى السنة الخامسة من حكم رحبعام أن هاجم شيشنق ملك مصر بيت المقدس (أورشليم) وأخذ كنوز بيت الرب وكنوز قصر الملك . ويحتمل أن يكون ذلك الحادث قد وقع عام ٩٣٠ ق.م وذلك على حسب تقدير جاردنر . ولكن هناك رأى لعالم آخر (Albright) استطاع أن يوضح فيه أن شيشنق قد غادر الدنيا عام ٩١٤ ق.م (انظر الملاحظة رقم ٣٠ من هذا الفصل (١)) . وقد لوحظ أن المؤرخ الاخبارى لم يهتم كثيرا بشرح ما حل بالمدينة المقدسة أكثر من اهتمامه بضياع الدروع الذهبية التى صنعها سليمان ، والتى استبدلت بأخرى من النحاس . هذا ولم يأت ذكر جزر ولا بيت المقدس بين الاسماء التى صاحبت المنظر الرئيسى فى البوابة البوباسطية . لم يذكر هذا الثبت البوباسطى الا الاسماء المألوفة منذ حروب تحتمس الثالث ، وقد ربطت بصدور الاسرى الذين يقودهم الملك ويقدمهم الى والده آمون رع . على انه لم تصلنا كل هذه الاسماء ، فقد شوهت جميعها ولم يبق منها الا القليل ، من أجل ذلك لم نتمكن من معرفة الطريق التى سلكته الجيوش المصرية . ولا توجد أى اشارة تفيد دخولهم مملكة يهودا . وهناك اشارات عن غزوة الى بلاد ادوم . ولم يثبت صحة ما كان يعتقده بعض المؤرخين من ذكر لما يسمى « حقول ابراهيم » . وقد كشف فى مجدو عن أثر يحمل اسم شيشنق ، مما دعا المؤرخون الى عدم التشكك فى الحملة ، ولو أن أمر ذلك لا زال غامضا . ويمكننا أن نتصور اما أن تكون تلك المحاولة التى قام بها شيشنق كانت عبارة عن احياء النفوذ المصرى والسيطرة المصرية على تلك المناطق ، أو انها ربما كانت لمعاونة يربعام ، أو اما انها كانت غزوة من غزوات النهب والسلب التى تعود عليها الليبيون . لقد ثبت أن شيشنق وخليفته أوسركون الاول قد اعادا الصداقة بين مصر وأمراء بيبلوس . وقد تأكد لنا ذلك بالعثور على تماثيلهم هناك ، وقد كانت هذه هدايا أرسلت من هؤلاء الفراعنة .

ولما علم يربعام بوفاة سليمان عاد الى وطنه مطالبا بالملك وبذلك تفككت المملكة ، وأخذت كل مملكة تقوى نفسها حربيا ، وفقد الملك سلطته الدينية . وكثرت الاغتيالات ، فهذا « بعشا » قتل الملك « نا داب » وجاء من وراء يربعام على عرش اسرائيل ومن ورائه ولده « أيلة » ، ثم قتله « زمرى » وأستولى على ملكه ، ثم ثار عليه أحد القواد وهو « عمرى » فاستولى على العرش (٨٨٥ — ٨٧٤) تقريبا .

---

(١) انظر كتاب مصر الخالدة من ص ٨٥٦ الى ص ٨٥٧ .

وعمرى اسم من أصل عربى أو نبطى وقد ترك فى مدينة السامرة أثرا يدل على اهتمامه بتلك المدينة التى أسسها وجعلها عاصمة لدويلة اسرائيل . وهى تقع على بعد ستة أميال شمالى غربى شكيم . وقد بنى فى هذه العاصمة قصر ، قام ولده آخاب من بعده بتوسيعه . وهو بيت العاج الذى جاء ذكره فى سفر الملوك الأول ٢٢ : ٢٣ ، عاموس ٣ : ١٥ ، ٦ ، ٤ : ٤ . وقد كشف فيه عن منزل به أثاث من العاج ، وغالبا ما كان مكسوا بالذهب . وقد كشف فى قصور داود وسليمان على الارجح عن حجرات مخططة بخشب الارز ومكفتة بالعاج . وقصر الملك الذى كشف عنه فى السامرة هو المثل الفريد عن قصور من هذا النوع من هذه الفترة . ومما يدل على مبلغ شهرة عمرى أن اسمه قد ظهرت ذكراه لمدة قرن من الزمان فى الحوليات الاشورية ، فأشارت الى القصر الذى أنشىء فى السامرة تحت أسم « بيت حمرى » .

وجاء من وراء عمرى ولده « آخاب » (٨٧٤ ـ ٨٥٢ تقريبا) فتزوج فينيقية « ايزابل » ابنة « اتبعل » ملك صور وصيدا وقد أدخلت هذه عبادة « بعل » و « عشتارت » اسرائيل . ودخلت الطقوس الدينية الفينيقية اسرائيل كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، وقد حمت الدولة رسميا هذه العبادات وما صحبها من تقاليد وعادات غريبة كان لها أثرها على المجتمع الاسرائيلى كانت علاقة آخاب بجيرانه طيبة ، وقد تحالف مع مملكة دمشق كما سبق أن أوضحنا ذلك فى موقعة قرقر (انظر ص ٨٦) وقد تمتعت ايزابل بشخصية قوية فسيطرت على آخاب .

وكان من نتائج تدخل ايزابل أن تعرضت للاغتيال ، فألقى بها من نافذة وأكلت جثتها الكلاب (الملوك الثانى ٩ : ٣٣ ـ ٣٥) . واستولى أحد الضباط فى الجيش (ياهو) على العرش عام ٨٤٢ . وعمل على اعادة عبادة يهوه . لكن هذا الملك لم يحقق لاسرائيل سياستها الخارجية فهزم أمام شلمناصر الثالث ، اذ وجد ممثلا على لوحة محفوظة بالمتحف البريطانى وهو يقبل الارض تحت قدمى ملك اشور مقدما جزية عبارة عن أوان من ذهب وفضة ورصاص .

هذا وقد ثار من قبل ميشا ملك مؤاب على اسرائيل وسجل انتصاره على لوحة اقامها فى ديبون (وهى ذيبان فى الأردن ومحفوظة بمتحف اللوفر) . وجدير بالذكر أن نقش هذه اللوحة يعد من أقدم النصوص العربية .

كل ذلك الانقسام كان له أثره على المجتمع الاسرائيلى فانقسم الى قسمين أحدهما بزعامة « يونا داب بر ركوب » وقد عرف أصحابه بالركابيين وكانوا متقشفين لا يميلون الى حياة النعيم والترف ، ونادوا

بالابتعاد عن المدن والنزول فى الريف ، وحرموا على أنفسهم كل ملاذ الدنيا ورغبوا فى حياة الرعى التى كان يحياها آباؤهم .

واما القسم الثانى فقد التف حول شخصية نبى يدعى « الياهو الياس » الذى كان يوعظ الناس ، ثم اختفى الياس فى الصحراء ليستمد من الله القوة والعون ، والتف حوله انصار له تسموا باسم « نزيريم » بمعنى النذر . وقبل أن يغادر دنياه اختار خليفة له وهو النبى « اليشع = اليسع » ، وقد استطاعت جماعةالنزيريم القضاء على طغيان أسرة عمرى .

وفى خلال حكم آخر ملك من ملوك اسرة عمرى وهو « يهورام » . ظهر القائد « ياهو » الذى اشرنا اليه من قبل والذى عمل على القضاء على اسرة عمرى وذلك ليحقق نبوءة الياس . فأول شيء قام به هو القضاء على عبادة بعل والقضاء على سلطان فينيقية سياسيا فى دولة سماريا أو اسرائيل . وقضى على حكم الفرد فى اسرائيل بواسطة جماعة آلـ «نزيرنم» . والى جانب ذلك لم يتمكن « يربعام » الثانى من اعادة المملكة الى حدودها الاولى والتى كانت تمتد من الفرات الى البحر الميت بعد أن امتدت فيها الفوضى وانتشر فيها العبث وفسد الجهاز الادارى الحكومى وانحرف رجال الدين ، وهذا هو السر فى ظهور انبياء امثال « عاموس » و « هوشيع » .

وكثرت الاضطرابات فى اسرائيل وتفشى فيهم الظلم ، وانتهز جيرانها هذه الفرصة فانقضوا عليها ، فاستولت مملكة دمشق علىالجليل وجلعاد وتفرق اهلها وشردوا ومزقوا شر ممزق ، فهاموا على وجوههم . وقد حاولوا الاتصال بمصر لكنها لم تستمع اليهم ووقعت البلاد فى أيدى شلمناصر الخامس وسرجون الثانى كما سبق أن بينا ذلك ، واختفى الشعب الاسرائيلى ، واهمله التاريخ اليهودى حتى ان كتابه لم يذكروهم بكلمة أو باسطورة .

اما دويلة يهودا الفقيرة والتى كانت تعتمد على منفذ لها على خليج العقبة بالبحر الاحمر وكانت تقوم اقتصادياتها على الملاحة والتجارة . اذ احس شعبها بضعفهم عادوا الى فلاحة الارض ، وانكمش سلطانهم الخارجى وتعرضت لهجوم الاشوريين وغيرهم . وجدير بالذكر أن ادارة الدويلة نفسها كانت قسمة بين الامراء والكهنة والأنبياء ، من أجل ذلك زالت من الوجود . فأمراء يهودا كانوا اقطاعيين بمضى الزمن ، ثم أصبحوا موظفين ملكيين ، ثم قضاة وكانت هذه الطبقة تقوم بتوجيه سياسة الدويلة الخارجية دون الاهتمام بمصالح الناس . والكهنة وهى الطبقة الثانية يرجع تاريخها الى هرون كما سبق أن أوضحنا ذلك ، وهى وظيفة وراثية من أيام سليمان حينما عين الكاهن « صادوق » كبيرا للكهان . وكان كبار الكهنة لهم سلطان قوى على الملوك ، وأصبحت طبقة تحرص على بقائها

دون الاكتراث بالطقوس الدينية . والفكرة اليهودية فى تلك الايام كانت فى طور التكوين فى شكلها وموضوعها ، فمن حيث الشكل تمارس الطقوس الدينية فى هيكل أورشليم ، ومن ناحية موضوعية الفكرة ، هى مقاومة كل عقيدة دخيلة عليها تعمل على اضعاف قومية اليهود وانحلال اخلاقهم، ونتيجة لهذا التطور فى التفكير ظهرت فكرة الوحدانية العلمانية . كما هو واضح فى سفر التثنية .

وجدير بالذكر أن أقدم ما وصل الينا من فصول العهد القديم كتبت ايام داود وسليمان وذلك على أيدى الانبياء ، وأثناء قيام الدولتين (يهودا واسرائيل) ، وكتبت أخبار الاسباط وقصصهم ، ولكن كان من نتائج تكرار القصص وتضاربها خلاف وقع بين الدولتين . فمثلا جاءت قصة الطوفان فى سفر التكوين الاصحاح السابع : آية ١٢ تشير الى انه دام اربعين يوما وأربعين ليلة . ومما يدل على التضارب أننا نجد فى الآية ٢٤ من الاصحاح نفسه والسفر نفسه انه دام مائة وخمسين يوما . وقصة الخلق فى الآية ٢٧ من الاصحاح الاول ، فيها ما يشير الى أن الانسان كان هو آخر الخليقة . بينما نجدها تعرض القصة نفسها فى الاصحاح الثانى : ٤ ــ ٢٥ على أن الانسان هو أول الخليقة فى هذا الوجود ومن بعده خلقت الحيوانات والطيور . وفى سفر التكوين الاصحاح الرابع من الآية ١٧ ــ ٢٢ يشير الى أن حدوث طوفان يقضى على كافة المخلوقات أمر لم يحدث ، اذ أن النص يقول ان « لامخ » يعود الى نسله جميع سكان الخيام ورعاة الماشية ... وان سلسلة الانسان لم تتوقف بين الناس وبين لامخ الذى كان موجودا قبل الطوفان . وفى سفر التكوين : ٩ آية ١٩ ، ١٠ : ١ ــ ٣٢ كانت الارض عامرة . بينما نجد فى سفر التكوين نفسه الاصحاح ١١ : ٤ ــ ٩ أن وجود البشرية على الارض لم يكن من طبيعة الوجود وانما عقوبة للانسان . كل ذلك وغيره من الامثلة المتضاربة كان لها أثرها فى المجتمع الاسرائيلى .

ولقد انتهت مملكة اسرائيل على يد سرجون الثانى بعد أن سبى رجالها الذين بلغ عددهم حوالى ٢٧٢٨٠ شخصا الى ميديا (الملوك الثانى ١٧ : ٦).. ومن بقى من الاسرائيليين ويبلغ عدده حوالى أربعمائة الف نسمة سكن غربى الاردن .

وقد قام البابليون الى جانب سبى الاسرائيليين فى ميديا ايفاد بعض قبائل من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب فسكنت السامرة وما حولها. وامتزج هؤلاء ببنى اسرائيل وشكلوا جماعة سميت بالسامريين . وقد اتحدوا دينيا فترة ثم انشق الفريقان حوالى عام ٤٣٢ ، حينما عاد عزرا ونحميا من السبى وطردا من أورشليم أحد أقرباء الكاهن الاكبر لانه تزوج من سامرية . ولما طرد هذا الشاب فوصل السامرة وأصبح كاهنا للسامريين ، أقام هيكلا على جبل « جريزيم » . وكتاب السامريين المقدس

من هذه الفترة والذى يتكون منه العهد القديم كان مكونا من كتب خمسة فقط . وأصبحت جريزيم وليس صهيون هى قبلة هؤلاء السامريين . وكان النزاع بين اليهود والسامريين قويا حتى أنه كان غير مسموح التزاوج بينهم . ولا زالت بقية من طائفة السامريين تعيش حتى وقتنا الحاضر لها معتقداتها التى تختلف عن الاسرائيليين ، ويبلغ عددهم حوالى مائتى شخص ، فى نابلس وهى مدينة شكيم .

لقد انتهزت يهودا واسرائيل توقف نشاط آشور ومصر الخارجى فى القرن الثامن ، فهذا الملك عزيا (ويسمى أحيانا عزريا الذى حكم من ٧٨٢ — ٧٥١) يحاول اعادة تنظيم جيشه ويحصن أورشليم ويفرض الجزية على جميع أعداء مملكته (أخبار الايام الثانى ٢٦ : ٦ — ٨) . كما اهتم بشئون الزراعة .

ولما زالت مملكة اسرائيل عام ٧٢١ ، خاف حزقيا ملك يهودا (٧٢١ — ٦٩٣) من اشور فقدم لها الجزية فى أول الامر ثم امتنع بعد ذلك . وقد قام بحفر قناة معروفة بنفق سلوام Siloam بلغ طولها ١٧٠٠ قدم وذلك لتمد العاصمة بالمياه وقت الشدة والضيق (سفر الملوك الثانى ٢٠ : ٢٠ ، أخبار الايام الثانى ٣٢ : ٢٠) .

وقد قام سنحاريب بغزو هذه المنطقة وفتح لاخيش . وقد اصطدم بالجيوش المصرية بقيادة طهارقة عند التقية Eltekeh (وأكبر الظن أنها خربة المقنع على بعد قريب من جنوب شرقى العقير) وارسل فرقة الى أورشليم ، وظن اشعيا وحزقيا أن يهوه سيحمى المدينة . ولكن شدد سنحاريب الحصار ، وذكر فى بعض نصوص له انه حاصر ستا وأربعين مدينة مسورة وفتحها وقال « اننى حبسته (حزقيا) كعصفور فى قفص فى أورشليم مدينته الملكية ... » .

بعد ذلك ظلت يهودا خاضعة لنينوى حوالى الثلاثة أرباع الاولى للقرن السابع واستمرت على دفع الجزية طالما كانت أشور قوية .

ولما تولى يوشع العرش حوالى ٦٣٨ احس بضعف آشور وقد حاول يوشع أن يوسع حدوده الى الشمال ويعيد توحيد اسرائيل مع يهودا .

وقامت فى هذه الفترة حرب فى آسيا بين نيكاو الثانى فرعون مصر ونابو بولاصر ملك اشور . وجاء فى العهد القديم ما يلى : حينما ذهب فرعون نيكاو ملك مصر ضد البابليين ، كان كل شىء أول الامر فى صالحه ، فقد أخطأ (يوشع Josiah) ملك يهودا وتدخل ولذلك قتله نيكاو (سفر الملوك ، الجزء الثانى ٢٣ ، ٢٩ — ٣٠) . وقد اكدت وثيقة بالهيروغليفية رقابة نيكاو للشاطىء الفينيقى .

وكان يوشع مصلحا دينيا ، وقد تعاهد الناس أيامه على عبادة يهوه وترك عبادة بعل والاجرام السماوية ، وكل ما يخالف عبادة يهوه فى بلاد يهودا وفى اسرائيل (الملوك الثانى ٢٣ : ١ ـ ٢٥ ، أخبار الايام الثانى ٣٤ : ٢٩ ص ٣٥ : ١٨) .

وفى الفترة الاخيرة من أيام يهودا ، أيام يهوياقيم (٦٠٨ ـ ٥٩٧) Jehoiachim أو الياقيم بن يوشع تعرض لهجمات نبوخذ نصر فوضعه فى سلاسل عام ٥٩٧ (أخبار الايام الثانى ٣٦ : ٦) ، وقيل انه مات أو قتل . وقد جاء فى سفر أرميا (٣٦ : ٢١ ـ ٢٣) أن يهويا قيم « سيدفن دفن حمار » . ثم حاصر أورشليم ، واستسلمت بعد حصار قصير ، ثم عاد نبوخذ نصر حينما ثارت ثانية أيام صدقيا . وعند ذلك أخذ اليهود بالصارم العنيف ، فسلمت عينا صدقيا ، ووضع فى سلاسل ، وحمل الى بابل (سفر الملوك الثانى ٢٥ : ١ ـ ٧ ، أخبار الايام الثانى ٣٦ : ١١ ـ ٢٠ ، أرميا الاصحاح ٣٩ ، ٥٢ : ٤ ـ ١١ ، ٢٧ . ودمرت أورشليم . وقد قدر من سبى من أهلها حوالى خمسين الفا . ودمرت أغلب مدن يهودا (أرميا ٣٩ : ٨ ـ ١٠ ، ٥٢ ، ١٢ ـ ٣٠ ، أخبار الايام الثانى ٣٦ : ١٧ ـ ٢١) . وظلت كذلك قرون عدة . وبذلك استطاع نبوخذ نصر اعادة السيطرة على المنطقة حتى عام ٥٨٢ فيما عدا صور التى ظلت تقاوم الحصار حتى عام ٥٧٢ والذى دام ثلاثة عشر عاما . وظلت تلك المنطقة ، من الرافدين حتى سورية الكبرى مدة ثمان وأربعين سنة خاضعة الكلدانيين حتى هاجم بابل كورش الفارسى أيام ملكها نابونيدس Nabonidus عام ٥٣٨ . وبذلك انتهت الامبراطوريات السامية ، وبدأ حكم هذه المنطقة بجماعات الهندو أوربية ، لأن الايرانيين ينتسبون الى هذا الفرع .

حكم بعد ذلك يهوياقين Jehoiachin بن يهوياقيم مدة ثلاثة شهور فقط ، وظهر نبوخذ نصر على أبواب أورشليم ، وحاصرها حصارا قصيرا حتى استسلمت وأخذ الملك ونساءه وأمه وموظفيه وسبعة آلاف من جنوده وبعض الصناع المهرة الى بابل ، وكان حزقيال أحد رجال الدين من بين من أسروا . وعين عم يهوقامين واحد أبناء يوشع وهو صدقيا على عرش يهودا . وقد حاول هذا الاخير الخروج على نبوخذنصر عند ذلك أرسل بنوخذنصر جيشا لحصار أورشيلم وهرب صدقيا حينما ضيق الجيش البابلى الحصار ، ولكن تتبعوه وقبضوا عليه فى سهل اريحا . وقد مثل به وبأولاده كما سبق أن بينا ذلك من قبل (أنظر الخريطة رقم ٢٨ ورقم ٢٩ فيها الكثير من المواقع التى ذكرت فى هذا الفصل) .

* * *

الحضارة العبرية

عندما اقام العبرانيون فى موطنهم الجديد تركوا لغتهم السامية واندمجوا فى الشعب واخذوا لهجة . وجدير بالذكر ان العبرانيين قد اندفعوا الى فلسطين وهم فى البداوة ، ولما استقروا تعلموا الزراعة عن طريق الكنعانيين .

لقد تأثرت طقوسهم بالافكار الكنعانية التى تتصل بالزراعة والخصب . وبالرغم من انهم كانوا يعترفون بالاله يهوه الا أنهم قدسوا الالهة المحلية وأحيانا اكتسب يهوه الكثير من صفات بعل . فهذا شاءول يسمى ولده ايش بعل Esh-Baal أى رجل بعل . وقد نافس بعل يهوه وطغى عليه الى حد ما .

والفن العبرانى أصله كنعانى . فهيكل سليمان طرازه كنعانى . وقد قام الفينيقيون ببناء قصر سليمان فى أورشليم . والزخارف التى كانت تزين هيكل سليمان سامية مثل الشيروبيم (الملائكة) وقد كانت على شكل حيوانات لها رؤس بشرية أيضا سامية . كان العزف يصاحب الطقوس الدينية . وقد كان الموسيقيون الاول وكذلك المغنون الاول من الكنعانيين وأخذت نماذج موسيقاهم من الكنعانيين . وقد استخدموا الدف والناى والبوق والقيثاره . وأهم وثيقة عندهم فى هذا الشأن مزامير داود .

تأثر العبرانيون أيضا فى شئونهم العامة بالكنعانيين ، كذلك فى نظرتهم للحياة الدنيا والحياة الاخروية . فدفنوا موتاهم على الطريقة الكنعانية ، فقد زودوا قبور موتاهم بالاوانى اليومية التى كانت تستخدم فى منازلهم . كذلك تأثر زيهم وحليهم بالزى والحلى الكنعانية . فكان الاثرياء منهم خصوصا الملوك والانبياء يضع ثيابا طويلة . وقدقاموا بصناعة تلك الثياب من الكتان الذى كان يزرع هناك قديما . وقد برع العبرانيون فى قطع الحجارة الكريمة .

كانت أراضى المنطقة التى احتلها العبرانيون صالحة لزراعة الحنطة والشعير والكرم والتين والرمان والزيتون . واهتموا اهتماما بالغا بزراعة القمح . وقد أشارت التوراة الى أنهم زرعوا البصل والتوم والفول

والعدس والخيار . كل ذلك يدل على أن عادات العبرانيين لم تختلف عن عادات جيرانهم (سفر العدد ١١ : ٥ ، صموئيل الثانى ١٧ : ٢٨ ، حزقيال ٤ : ٩ ، اشعيا ١ : ٨ الخروج ١٦ : ٣١ ، العدد ١١ : ٧) .

أستخدموا الخمر كقربان فى الهيكل (سفر الاويين ٢٣ : ١٣ ، العدد ١٥ :) وقد ظهرت رسوم على هيئة كرم وعنب على الفسيفساء ، كذلك استخدم الرمان كوحدة زخرفية وقد اتخذوا من عصير شرابا (نشيد الانشاد ٨ : ٢) .

وقد فضلوا من الازهار الزنبق أو السوسن (بالعبرية Shoshannah) وقد اشتق منهاالكلمة Susanna (نشيد الانشاد ٢ : ١ - ٢ ، ١٦ ، ٤ : ٥ ، ٦ : ٣ .) . وقد اتخذوا فى بعض الرسوم الهيكل السوسن كوحدة زخرفية وكذلك على بعض النقود التى لم تدخل الى فلسطين قبل القرن الخامس ق.م. وكانوا يتخذون (الشيقل) البابلى وحدة للاوزان . ثم دخلت عنــدهم فى القرن الخامس ق . م . الدراهم الاثينية المصنوعة من الفضة .

من كل ذلك نرى أن العبرانيين لم يساهموا بنشاط معروف فى التقدم العالمى فىالفن أو السياسة او الاقتصاد . ولم تظهر لهم قدرات فى هــذه الفترة ومواهب كبيرة الا فى الناحية الدينية . والعهد القديم هو صرح هذه الحضارة الى جانب بعض اثار أخرى اكتشفت فى باطن الارض . غير أن العهد القديم قد مر بأطوار كثيرة من الحذف والتحقيق والضبط وذلك قبل أن يستقر على شكله النهائى .

أما عن مادته فقد قام بكتابتها عدد من المعلمين والمؤرخين . فهناك أولا المشرع الذى كان يظهر بشكل موسى ، كما كان يتحدث بلسان يهوه .

الشرائع الموسوية

لما زحف سرجون الثانى على فلسطين فى الربع الاول من القرن الثامن قبل الميلاد انتقلت الحضارة البابلية وفى ركابها شريعة حمورابى وفرضت نفســها على المجتمع الاسرائيلى . فقــد اهتمت قصص الادباء الاولين بشريعة حمورابى .

لقد وجت تعاليم هذا الاثر طريقها الى هذا المجتمع قبل أن يحط الاسرائليون فى فلسطين ، أى الفترة التى كانوا يجوبون صحراء ســيناء فهذا اول مشرعيهم موسى لجأ الى يثرو نبى مدين الذى زوجه ابنته « صفورة » (سفر التكوين ١٣) يستشيره . وسنتحدث عن يثرو هذا

النبى العربى بعد قليل . اذن فقد اقتبس موسى شريعة عربية جنوبية ، فقد كان هذا الاقليم ومدين احد مدنه خاضعة للثقافة المعينية السبائية والتى وفدت من الجنوب الى الشمال . واذا صح الافتراض الذى سبق ان أشرنا اليه فى حديثنا عن تحركات الساميين من أن أصحاب شريعة حمورابى قد حلوا بأرض الرافديين من جنوب الجزيرة العربية عند ذلك ندرك الصلة القوية بين المعينيين السبائيين وبين البابليين والاشوريين . وقد انتشرت هذه العلاقات التشريعية والثقافية فى مختلف بقاع الجزيرة العربية مثل تلك التى استوطنت مدين .

اذن ستصبح الصلة بين التشريعات العربية والحمورابية والمدينية بعيدة القدم قد عرفت قبل أن ينزل الاسرائيليون الى فلسطين . من اجل ذلك لم ينفر هؤلاء النزلاء من تلك التشريعات التى كانت سائدة فى ارض كنعان .

تكلم ذلك المشرع الذى ظهر بشخص موسى بلسان يهوه ، والشريعة الموسوية والتى أوحى بها الله الى موسى (سفر الخروج ٢٠ : ١٩ ـ ٢٢) تمثل حقبة من الحضارة جاءت بعد شريعة حمورابى بحوالى خمسمائة سنة .هذا وان كانت شريعة موسى قد ارتبطت بالشريعة الحمورابية فقد كان ذلك مدنيا فقط ، ولكنها اختلفت لاهوتيا فان مكانة شعب بابل العربى أعلى بكثير من مكانة المجتمع الاسرائيلى . فقد كان شعب بابل فى ذلك الوقت متحدا تحكمه شخصية قوية وهى حمورابى وقد قامت على أكتافه دولة بينما كان المجتمع الاسرائيلى سلطان الدولة فيه غير محكم وذلك لوجود النزعة القبلية . من أجل ذلك وجد فى المجتمع الاسرائيلى الاخذ بالثأر والتزوج من الاقارب ، وتعدد الزوجات . وبالرغم من ان العهد القديم قد تعرض لهذه النواحى ، الا انه لم ينجح فى القضاء عليها .

وقد لوحظ فى الشريعة الحمورابية طابع الانسانية العالمية ، بينما المجتمع الاسرائيلى لم ينهض برسالة عالمية مثل تلك التى احتضنها العربى البابلى ، وهذا هو السر فى اهتمام المشرع البابلى بالمحافظة على الملكية وأخذ المعتدى بالصارم العنيف . والتشريع الاسرائيلى تشريع مجتمع لازال فى طور الطفولة لايستطيع ان يعيش فى ظل قانون عالمى . فالاسرائيلى لايهتم الا بالناحية الدينية فقط .

وكتاب العهد أقدم وثيقة جمعت الشريعة الموسوية (سفر الخروج اصحاح ١٣ ، ٢١ : ٢٣) . وهو نسخة اخرى من شريعة حمورابى . وقد تسلم موسى وحمورابى الشريعة من سلطة عليا . فقد تلقاها حمورابى من الاله شماش ، وكذلك تلقاها موسى من الاله يهوه .

وينقسم كتاب العهد الى قسمين مختلفين فى شكلهما وموضوعهما : فيتناول القسم الاول المواد القانونية (سفر الخروج ٢١ : ١ الى ٢٢ : ١٦) ويتناول القسم الثانى العقائد (سفر الخروج ٢٢ : ١٧ الى ٢٣ : ١٣) . ولغة القسم الاول شرطية بينما لغة القسم الثانى أمريه . وهذا لاينبغى عدم وجود استثناءات . نتيجة لما أصاب الكتاب من اضطراب سببه الاضافة والحزف والتكرار . واحيانا نجد بعض المواد التى وردت فى قانون حمورابى لم ترد فى كتاب العهد . وغالبا ان سبب ذلك هو ان المجتمع الاسرائيلى هذا الطور لم يكن فى حاجة اليها ، كما أن اللغة العبرية لم تكن قادرة على اخراج تلك المعانى التشريعية والتعبير عنها تعبيرا صادقا كالبابلية .

والى جانب كتاب العهد كمصدر للشريعة الاسرائيلية ، سفر التثنية ، فهو يعتمد على كتاب العهد وعلى شريعة حمورابى .

وللاسرائيليين مصدر تشريعى ثالث وهو مجموعة الشرائع التى جاءت فى العهد القديم على ايدى الكهنة ، والكاهن Kohen هو معلم عبرانى يقوم بتعليم الشريعة وكان يقوم بالمراسم والطقوس ويعمل كوسيط بين الانسان والله وقد انحصرت الكهانة عند العبرانيين فى اسرة هرون (سفر الخروج ٢٨ : ١ ، العدد ١٦ : ٤٠)

والى جانب تلك الشرائع ، كان يوجد من المعلمين من يلقب بالحكيم ، وتختلف الحكمة عن الشريعة ، فالاولى مصدرها الانسان (اسفار ايوب والامثال والجامعة) اما الثانية فمصدرها الاله . ويمتاز سفر ايوب بشاعريته ، وكان يعبر عن عواطف رجل اصابه البأس ، نجده فى وقت الضيق ، أو يمجد الله لعونه (المزامير ٣ : ٣٨ ، ٢٣) أو يظهر الفرح بسبب الغفران (المزامير ٥١ ، ٣٢) .

ثم تتطور الشريعة الاسرائيلية من العهد القديم الى التلمود ، عند ذلك تخضع الشريعة الى اهواء الربانيين ، وتبتعد احيانا عن تعاليم التوراه ، وقد ثار أصحاب المذهب القرائى على التلمود .

أما عن التقاضى فى المجتمع الاسرائيلى فكان نوعان كهنوتى وقبلى . فاذا ما عرض على كاهن قضية من القضايا استشار الله الذى كان يوحى اليه بالحل ، وهكذا فعل موسى (سفر الخروج ١٨ : ١٩ ، ١٩) ، كما كان الكاهن يقوم بارشاد الشعب للتعاليم الدينية الصحيحة . وتعرض القضايا الصغرى على شيوخ الأسرة أو القبيلة .

وقد أوجد موسى النظام التشريعى استجابة لرأى يثرو نبى مدين (سفر التثنية ١ : ١٥ ، الخروج ١٨ : ١٩ واصحاح ٢٤ : ١ ، والعـدد ١١ : ١٦) .

نظمت شريعة موسى المجتمع الاسرائيلى قضائيا واداريا :

كان على كل جماعة مكونة من الف أو خمسين أو سبعين رجلا شيخ أو رئيس . ومن هؤلاء الرؤساء يتكون مجلس الشيوخ الذى قاد الجماعة عند نزولها الى فلسطين . وقد نظر الاسرائيليون الى هؤلاء الشيوخ نظرة قدسية لأنهم اعتبروا تعينهم جاء من قبل الاله (يهوه) . وقد وجد هذا المجلس فى كل قرية .

وفى القصر الملكى منح الملك وظيفة قاضى القضاة .

كانت تقام الدعوى فى سـوق المدينة الذى كان مركزه عنـد مدخل المدينة . وقد اختصت أورشليم بقاعة أقامها سليمان ليقوم القضاة فيها بالفصل فى الدعاوى . وكان المدعى والمدعى عليه يحضرا لعرض دعواهما شفويا . وقـد نصت الشريعـة على أن كل دعوى لابد فيها من شـهادة شاهدين على الاقل (التثنية ١٧ : ٦ وانجيل متى ١٨ : ٦) . وفى حالة عدم توفر الشهود يقوم المدعى بالقسم (الخروج ٢٢ : ٦) .

أما عن قانون العقوبات فى المجتمع الاسرائيلى ، فقد ساد مبدأ العين بالعين والسن بالسـن ، وتعرف حديثـا ، Jus talionis . وكذلك شريعة الكهنة أيضا سارت على هذا المبدأ (لاويون ٢٤ : ٢٠) .

كذلك عرف مبدأ الدية بعد موافقة المتخاصمين ، ولكن لا تقبل الدية فى حالة الضرب الذى يؤدى الى الموت .

أما فى حالة العبيد فلا يطبق مبـدأ السن بالسن ، فاذا قتل عبـد يعوض سيده بثمنه . واذا اتلف سيد عين عبد أو سن من أسنانه ، يجبه على السيد أن يعتق هذا العبد (الخروج ٢١ : ٢٦ ، اصحاح ٣١ : ٣٢) .

ويطبق مبدأ السن بالسن معنويا فيبتر العضو الذى امتد على والده بالضرب .

ويطبق مبدأ السن بالسن على افراد أسرة الجانى أو على أسرتها كلها خصوصا فى حالة الثأر (الملوك الثانى ٩ : ٢٦) .

كان ينفذ حكم الاعدام بالرجم بالحجارة فى مكان بظاهر المدينة ، أو بالخازوق . واستخدم الاسرائيليون الشنق أو الحرق .

ثم هناك عقوبات أخرى : منها الجلد ، وكان أولا بالعصا ثم بعد ذلك استعيض عنها بعصا لها ثلاث شعب من الجلد .

وعرف قانون العقوبات الاسرائيلى الغرامات . وقد ظهر السجن بعد عصر السبى (الملوك الثانى ١٦ : ١٠) . كذلك من بين العقوبات النفى (الملوك الثانى ٦ : ٢٦) .

وقد لوحظ فى التشريع الاسرائيلى كثرة الحكم بالاعدام فى حالات كثيرة ، مثل الخيانة الزوجية والابن العاق وقتل النفس .

كذلك تعرضت الشريعة للاحوال المدنية والشخصية ونظمتها ، والبيع والشراء . وجدير بالذكر أن المجتمع الاسرائيلى لم يكن كما يتصوره بعض الناس مجتمعا تجاريا الا بعد السبى البابلى ، فلم يباشر التجارة الا بعد أن عاد من السبى .

على أن هناك بعض الخلاف فى العقوبات بين شريعتى حمورابى وموسى . فقد نصت قوانين حمورابى أن العبد يحرر فى السنة الرابعة(١) ، أما فى شريعة موسى فيحرر فى السنة السابعة (الخروج ٢١ : ٢ ، التثنية ١٥ : ١٢) . وكان ضرب الأب والأم عقوبته فى قانون حمورابى التشويه (المادة ١٩٥) ، وفى شريعة موسى يعاقب بالموت (سفر الخروج ٢١ : ١٥) . وقد نص قانون حمورابى بانزال العقاب على القضاة الذين يقبلون الرشوة (المادة ٨ من قانون حمورابى) ، أما موسى فاكتفى بمنع الرشوة (سفر الخروج ٢٣ : ٨ ، التثنية ١٦ : ١٨ ـ ١٩) .

* * *

(١) Robert W. Rogers, "The Code of Hammurabi", in Cuneiform Parallels to the Old Testament (New York, 1912), § 117.

الوحدانية كما يراها العبريون

حينما تحدثت عن ديانة اخناتون فى كتابى مصر الخالدة ذكرت أن المصريين قد عرفوا التوحيد ، وهو وجود اله واحد أعلى ، على أن هـذا لا يمنع الاعتقاد بآلهة أخرى ، وهو ما يسمى بالانجليزية

والى القارىء طرف مما جاء فى هذا الشأن فى كتـاب مصر الخالدة

« والواقع أن ديانة آتون لم تصبح مجرد نظرية مادية تتحدث عن القوة الكامنة فى الشمس ، ولكنها توحيد حقيقى . لقد كان لدى اخناتون شجاعة ادبية استطاع بها أن يكتسح ما تراكم من المعتقدات التافهة التى ورثها الناس من الماضى ، ولكن كان ينقص هذه الدعوة سلاح القوة التى اتخذها الرسل والانبياء بعد ذلك ، ولو فعل اخناتون ما فعله الرسل والانبياء لكتب له النصر . ومع ذلك فليس من شك أن مسلك اخناتون فى فهمه للعقيدة أحسن ما وجد فى هذا العصر البعيد الذى كثر فيه تعدد الآلهة ، وأن مسلكه الهادىء الرزين كان سببا فى تألب أعدائه عليه . والملاحظ فى تاريخ تطور عقيدة اخناتون انه كلما تقدمت به الايام تطورت العقيدة . ففى وقت من الاوقات قضى على ذكر (رع حور آختى) من خرطوشـه أو لقبه كما سبق أن أوضحنا ذلك فى بداية الحديث عن اخناتون وحل محلها (حاكم الافق) . بينما نجد فى الخرطوش الثانى أن الكلمة (شو) ليس لها معنى الا نور الشمس أو الضوء ، فقد رفض كتابتها لان هناك تشابه بينها وبين اله الفراغ » .

ووجد اخناتون انه لا يمكن أن تنتشر عقيدته الا اذا قضى على الالهة الاخرى التى لا حصر لها ، وقد تحمس لذلك وارسل حملات كثيرة فى طول البلاد وعرضها تقوم بمحو أسماء الالهة من النصوص الموجودة على صفحات القبور أو المعابد ، وليس هناك ما يدعو الى القول بأن الحملة التى وجهت لامون رع كانت أعنف الحملات وأقساها .

لاحظ علماء الآثار وجود عدم تناسب بين بعض النقوش التى وجدت فى منطقة العمارنة فنجد صورة اخناتون دائما تحتل وسط المنظر . كما لوحظ أن وضع خراطيشه بجانب خراطيش آتون . كل ذلك يدلنا على

انه لا ينوى أن يميل عن المطالبة بنصيب فى تقديسه لوالده المؤله ، وربما يشعر الانسان احيانا ان هذا قد يقترب من المطالبة الكاملة . وهناك اشارة فى هذا الشأن فى اللقب الآتى « آنه هو الموجود فى احتفال سد » وقد أصبح ذلك اللقب مقترنا بألقاب الاله ، لان عيد سد هواحتفال ملكىهام وضرورى وهناك أمر غريب فى هذه الديانة هو ظهور كل من (آتون) وابنه المؤله ويبدأن معا عهدا جديدا ليثبتوا وجودهم العام . وقد لوحظ أيضا أن اخناتون يتعبد لآتون وفى الوقت نفسه يصلى الناس لاخناتون ، وهـذا أمر له مغزاه وأهميته فى تلك العقيدة . ومن ناحية أخرى فاننا نلاحظ فى الصور والرسوم والتماثيل اهتماما من جانب آخناتون بأموره الداخلية التى لا يصح أن يعرفها الناس أو تنشرعلى صفحات قبور كبار رجالالدولة، كل ذلك لايتفق مع ذلك المطلب السامى الذى سبق ذكره وهو تأليهه هو ، اذ كيف يقوم الاله بما يقوم به عامة الناس . فمثلا نجد على أحد اللوحات الملك يقبل ابنته الطفلة ، بينما تدلل الملكة طفلتهـا الثانية على ركبتيها . وفى منظر آخر حينما كان يكرم اخناتون والدته (تى) أو انها هى التى كانت تكرمه ، نجده فى منظر لا يليق بجلاله كملك مؤله يلتهم شرحة لحم عريضة ، وقد أخذت نفرتيتى زوجـه المحبوبه تأكل طائرا جهـز على النار . كما أن تعلق الملك بزوجـه وأطفاله قد لمسناه كثيرا فى المناظـر والصور . ما هذا التناقض الغريب الذى نراه فى هذه السير الجليلة من هذه العهود البعيدة ، وقد تصل درجة الالفة العائلية الى اقصى حدودها ممثلة فى ذراع يحيط خصر الزوجة .

أشار علماء الاثار والذين قاموا بدراسة نصوص هذه الفترة واناشيد آخناتون الى ان هذه العقيدة افتقدت افتقادا كاملا التعاليم الادبيةوالخلقية فالنصوص السابقة لهذا العهد منذ أيام الدولة القديمة غنيـة بالتعاليم الخلقية والانسانية وغيرها متأثرة بقصة أوزوريس وأيزيس التى ملأت الاداب المصرية القديمة بكثير من خيالها الخصب وما فيها من خير كثير للانسانية ، كانت تتغذى عليه وتعيش فترة طويلة من الزمن . فـكانت تتحدث هذه القصة التاريخية عن اخلاص الزوجين والاخـوة الرحيمة ولا زالت الطقوس الجنازية تبقى على الكثير من أطاراتها الخارجية ، ولكن ذلك كله قد اختلس من معانيهـا القديمة . ولوحظ أن الجعـارين الكبيرة كانت توضع فى لفائف كتان الموميات ، ولكن النصوص لم تصبح كما كانت وقد كانت تهدف سابقا التوسل الى القلب الكف عن الشـهادة ضد الموتى اذا ما جاءه أهل الحساب فى عالم الآخرة يقومون بوزن أعماله . ولا زالت تماثيل (الشوابتى) (وهى تماثيل صغيرة كانت توضع مع المتوفى من أيام الدولة الوسطى مزودة بنصوص سحرية لتعين الميت على ما يكلف به من أعمال فى الحياة الاخرى) تستخدم فى عهد العمارنة ، ولكن لم يصبح لها الوظائف السابقة وهى اعفاء اصحابها من العمل فى الحقول الزراعية

فى عالم الاخرة . واكتفى بأن يكتب اسم المتوفى على هذه التماثيل فقط .
وقد بدأت هـذه العادة تظهر منذ أيام تحتمس الرابع ، حيث عثر على
تماثيل (شوابتى) من هذا النوع .

من كل ذلك نرى أن عقيدة اخناتون لم تدخل بعمق فى وعى الجماهير ولم يستطع الناس قبولها بصفاء وآخلاص وايمان قوى ، وقد عثر فى قرية تل العمارنة على كثير من آثار العبادات القديمة ، فعثر على تمائم للاله (بس) وعين حوريس المقدسة وما شابه ذلك من الادلة التى ترينا أنه حتى فى مدينة اخناتون نفسها كان هناك نفاق من الناس المحيطين باخناتون وهذا أمر موجود فى جميع البشر وفى كل زمان ومكان ، فالاخلاص نادر والوفاء نادر والايمان الكامل نادر . جاء فى بعض الوثائق انه كان لآتون معبد فى (منف) . وانه له دور للعبادة فى بعض البلاد انما يحتاج الامر الى كثير من الدراسة لان مخلفات اخناتون قد عدى عليها اعداؤه من بعده ونقلوها من مكانها واستخدموها فى منشآت أخرى فى أمكنة اخرى » .

وبعد أن مات اخناتون وانهارت الديانة الآتونية ، ظل الناس يتناقلون أناشيد شبيهة بتلك الأناشيد ، فنقرأ فى بردية محفوظة بمتحف لـنـدن مؤرخة من الأسرة التاسعة عشرة بعض الفقرات التى ترقى الى التوحيد ، وهى عبارة عن أناشيد لوصف آمون « خفى الشكل ، ذو المظهر الوضاء ، الاله العجيب ذو المظاهر المتعددة » . كما توجد أناشيد من الأسرة التاسعة عشرة والعشرين تتحدث عن آمون على أنه اله للكون .

والاعتقـاد بوجـود اله أعلا دون أن يمنـع وجـود آلهة أخرى أى henotheism تعتبر مرحلة وسـطى بين الاعتقـاد بتعدد الالهة وبين التوحيد .

ويقول الأستاذ اندرسون فى كتابه The Old Testament and Modern Study « ان الوحدانيـة التى كانوا (الكنعـانيون) يدركونها فى ذلك الوقت لم تكن وحدانية تفكير ولكنها وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب » .

أما عن الأنبياء العرب الذين عرفوا التوحيد ، فقـد أشارت التوراة الى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى قابل الخليل ابراهيم عند

بيت المقدس وهم : (يثرو ، وبلعام ، وأيوب) (١) .

وتروى قصة بلعام ما حدث لشيوخ مديان (مدين) بعد خروج بنى اسرائيل من مصر . فقد استعان بالاق ملك موآب بالنبى بلعام من تخوم العراق ، وذلك ليبطل ما كانوا يدعون به باسم النبوة . وجاء فيما ذكره بلعام تفضيل عبادة الله على عبادة بعل ، وكان معبودا يومئذ للموآبيين .

وكان يثرو أو يثرون نبيا لمدين قبل أن يخرج بنو اسرائيل من مصر ، وقد رأى فيه بعض الشراح شعيبا الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم .

اذن كانت النبوة موجودة قبل خروج بنى اسرائيل من مصر ، عندما كان موسى يتنقل فى فيا فى الصحارى ولم يرجع الى مصر ليخرج منها .

أما أيوب : فقد ذكر الرحالة برتدام توماس فى كتابه Alarms and Exploration in Arabia ، احتمال أن يكون من أهل عمان أو من أهل نجد . وقد استعان بعض العلماء بعلم الفلك لتحديد زمنه ، فذكر هاليس Hales احتمال أن يكون تاريخه قد وقع عام ٢٣٠٠ ق.م . وما من شك فى أن عهده كان سابقا لعهد الخروج من مصر . والحجة فى ذلك انه لم يشر الى شيء عن الخروج . ولم يرد اسم (يهوه) فى صلب كتابه وانما دخيلا وبعد أيامه .

وقد اعتمد أيوب فى خلاصة من العذاب الذى هو فيه من موعد الله للأباء . وقد جاء فى مزامير داود وسليمان ما يشبه كلام أيوب . وعلى ذلك يعد أيوب من أقدم الأنبياء العرب فى الجزيرة العربية . وربما كان ذلك شمال نجد أو شرق العقبة .

وكانت عقيدته المجموعة فى أحد اسفار العهد القديم تهدف الى السمو والكرم . فقد أنكر عبادة الشمس والقمر ، وقد جاء فى وصفه لله ما يلى « أوليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟ » وتدل تعاليمه كلها على النزاهة والأمانة .

---

(١) كلمة النبى عربية أصيلة . فمادتها النبأ والنبوة ، ومعناها الكشف والوحى والانباء بالغيب والتبشير والانذار . وقد جمعت هذه الكلمة العربية الاصيلة كل هذه المعانى التى لا تجمع فى كلمة اخرى من اللغات الحديثة . فكلمة الكشف هى فى الانجليزية Revelation وكلمة الوحى Inspiration ومعرفة الغيب Divination او Oracle . ولم تكن الكلمة العربية (النبى) مستعارة من معنى آخر . وهى مشتقة من الفعل الاكادى Nabu بمعنى يدعو .

ثم هو أول من اشار الى البعث فى العهــد القديم . لقــد تربى على الصبر على المرض وخيــانة أهله . ثم نجده يتســاءل « ان مات رجل أفيحيا ؟ » . ثم بعد ذلك كله ، وبعد القسوة التى مر بها يأمل فى خلود نفسه ولقاء ربه اذ يقول « فبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله » .

وسفر أيوب من الاسفار الغريبة فى العهد القديم . وجدير بالملاحظة ، ان الاسرائيليين ، قــد كان من عاداتهم الا يجمعوا فى التوراة شــيئا لغير انبيائهم ، غير انهم جمعوا سفر أيوب لأنهم وجدوا أن الناس يتذاكرونه فى بعض أطراف فلسطين الجنوبية ، وظنه بعض الناس انه من كلام موسى أو سليمان .

ويعالج سفر أيوب قضية من القضايا الكبرى وهى قضية الانسان مع القدر . وقــد قال فيكتور هيجو « انه كان أعظم آية أخرجتها بصــيرة الانســان » .

وقد ذكر بلعام فى أسفار العهد القديم لأن ظاهر بنى اسرائيــل على المؤابيين ، أما يثرون فذكر أيضا فى أسفار العهد القديم وذلك لوجود علاقة نسب بينه وبين موسى .

من ذلك العرض الخاطف لهؤلاء الأنبياء نستطيع أن نقرر أن الكهــانة كانت وظيفة ، أما النبوة فلم تكن وظيفة ، فلم نسمع عن تعيين نبى لعمل نبوة . وانما كان يعين الكاهن فى وظيفته ، فى مصر الفرعونية أو فى حضارات العراق القديم . فالنبى لا يعينه أحد ولا يأتمر بأمر أحــد ، ولكن يبعث بوحى من ضميره وخالقه . والفرق بين الكاهن والنبى واضح أيضا وذلك فى جوهر عمل كل ، فكان يوكل الكاهن بالشعائر ويحرص على أن يشترك معه أحد فى أدائها ، أما النبى فيعتنى بروح الدين قبل الشعائر والمراسم . كان النبى يعمل على تطهير سريرة بنى الانسان ، أما الكاهن فكان يهتم بنظام وتقاليد الدولة . كما أن كثيرا من كهان الحضارة الفرعونية مثــلا وغيرها كانوا يأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر ، لكن من هو الاله الذى كان يحذر الكهان من غضبه ، كان أشبه برئيس الدولة والكاهن هو ممثل له وأمين على أحكامه . أما النبى فيصور العالم الذى نعيش فيــه كأنه أسرة حية وان الاله يشرف على العالم جميعه ، وأنه قريب من عباده ، يجيب دعوتهم اذا دعوه ، وان المجتمع جميعه رهين برضاه وغضبه ، وان الاله مطلع على ما ظهر وما بطن .

لقد آمن العبريون بفوقية الله المطلقة وأنه لا يجوز للانسان حتى ذكر

موسى لله ، ها أنا آتى بنى اسرائيل وأقول لهم : اله آبائكم أرسلنى لكم .
فاذا قالوا لى : ما اسمه ؟ ، فماذا أقول لهم ؟ فقال الله لموسى : أنا الذى
أنا ، وقال ، هكذا تقول لبنى اسرائيل : أنا الذى أنا أرسلنى اليكم » .

وعلى ذلك فاله العبريين لا يحدد ولا يوصف وان طبيعة الله لا يحدها قيد ولا شرط . وقد رأى العبريون تضاؤل قيم الظواهر المحسوسة جميعها أمام الاله . وأمام ذلك القصور نقموا على التماثيل والصور فى ذلك الزمن لأن اللامحدود فى نظرهم لا يمكن وضعه فى شكل . والذى لا يمكن وصفه لا يصلح أن يصنع له تمثال .

الا انهم تخيلوا ان ارادة الله قد تمركزت فى جماعة محسوسة من البشر . فقد جاء فى (سفر اشعيا ، ٤١ : ٨ — ٩) « وأما أنت يا اسرائيل فعبدى ، يا يعقوب الذى اخترته ، يا نسل ابراهيم خليلى ، أنت الذى أخذته من أطراف الأرض ومن أقطارها دعوته ، وقلت لك أنت عبدى ، اخترتك ولم ألق ربك عنى » وفى (سفر الخروج ، ١٩ : ٦) قال الله فى سيناء « ستكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » .

تلك هى الأسطورة العبرية التى تصور فيها الشعب العبرى أنهم شعب الله المختار ، وهى تمهيد لفكرة أرض الميعاد .

وغالبا أن الاسرائيليين الى ما بعد خروجهم من مصر لم يخطر ببالهم أنهم مميزون عن سائر القبائل الأخرى . فقد جاء فى الاصحاح الأول من سفر التثنية أن الرب « لبغضه لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم الى أيدى الاموريين ويهلكهم على أيديهم » .

كان العبريون لا يعتبرون الظواهر الطبيعية لها معان الهية ، بل أن التاريخ هو الذى كان مملوءا بالمعانى ، وأن الانسان فى نظرهم كان خادما للالهة كما كانت نظرة أهل بلاد ما بين النهرين ، وليس كما كان الحال فى مصر الفرعونية اذ لا يعترض المصرى على ارادة الاله ، بينما كان الانسان فى الفكر العبرى يعتبر خادما لله ومفسرا لكلمته شرفه بالمسؤولية لتحقيق ارادته .

ففى العهد القديم شخصيات اتصفت بالقبح والجمال فى آن واحد وبالنجاح والفشل ، فهناك شخصية شاؤول المأساوية . وهناك أشخاص فرضت عليهم العزلة الرهيبة حينما واجهوا الها عليا ، فهذا ابراهيم وموقفه حينما صحب ابنه الى مكان الضحية وغيره من الأنبياء .

ما من شك أن هنـاك صلة بين الحضـارة وبين الأرض . لقـد كان العبريون قبائل رحلا ، وأقاموا فى بقاع بين البـادية والزرع بين وادى الرافدين ووادى النيل ، اذن قد عاشوا بين أخصب الأراضى وبين أفقرها. ولما عضهم الجوع تاقوا الى الاقامة فى تلك السهول اليانعة ، كانوا يحلمون بأرض تجرى فيها الأنهار وتسيل لبنا وعسلا كتلك الأرض التى تصورها المصريون فى العالم الآخر . ولعل الشـهوة فى الحصـول هـذه الأخيرة والازدراء ، والكرة لحياة البداوة والقسوة كل ذلك يفسر بعض تناقض المعتقدات العبرية .

كانت قيم المجتمع فى بلاد الرافدين ووادى النيل تناقض قيم أهل البادية ، فالفلاح المستقر يحترم السلطة اللاشخصية وسيطرة الدولة ، وهى عند البدوى تعتبر حرمانا من الحرية الشخصية . ويتصور البدوى أن اعتماد الفلاح على الزرع لون من الرق . ويحب البدو الصحراء على اعتبار أنها فى نظرهم انقى مكان . كانت هذه الحياة القاسية من الدوافع القوية للعبريين نحو التفكير فى تعاليم ثورية دينامية . فراحوا يؤمنـون بالاله العلى الواحد ، الذى لا يحده قيد ولا شرط .

كان لبعض أنبياء العبريين قدرة فى علم الفلك وأولهم يعقوب ، اذ جاء فى الاصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين ما يلى : « ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يا بنى يعقوب واصغوا الى اسرائيل أبيكم ... » واستطرد يعقوب ينبىء أبناءه بما سوف يصيبهم .

واذا صحت الطوالع التى ذكرها الأنبياء مثل طوالع بلعام التى وردت فى الاصحاح الثالث والعشرين وكذلك فى سفر العدد ، وهى تشتمل على تكرار عدد السبعة ، وعلى اسم الثور والحمل والظبى والأسد وغيرها ، مع ما وصل اليه أبناء بلاد النهرين فى علم الفلك ، فان ذلك يعد مطابقـة تلاقت فيها أخبار الأنبياء بأخبار الحفائر الأثرية .

وقد جاء فى القرآن الكريم أن ابراهيم كان ينظر فى النجوم ، كما أن يوسف كان يعبر الرؤيا ، وأن موسى كان ينظر فى سحر الكهان .

أما عن أنبياء العبرانيين فهم الذين يتكلمون بالنيابة عن الله . وقـد كانت وظيفتهم الدفاع عن يهوه . فهـل أوجد العبريون ديانة جـديدة أساسها اله واحد ؟ ، كان الاله فى نظرهم انه كامن أخلاقى عادل وأن هذا الاله كان لا يهتم بالقرابين وانما سلوك الشخص الاخلاقى فأساس عبادتهم التوحيد الاخلاقى . وربطوا الديانة بالأخلاق كما اعتبروا أن قواعد السلوك

الاجتماعي ما هي الا أوامر الهية . وقد ظهرت آداب النبوة بين عامي ٧٥٠ و ٥٠٠ ق.م .

كان يهوه اله العبرانيين في الأصل الها قبليا ، وكان يسره أن يعاقب المصريين الذين ظنوا أنهم اضطهدوا الشعب العبراني . ثم صار بعد ذلك الها قوميا سمح بقتل الأموريين والكنعانيين وجميع من نافسه من الكهنة .

وقد كان عاموس من قرية (تقوع) التي تقع الى الجنوب من بيت لحم بحوالي ستة أميال هو أول العبريين الذي نادى بوحدة الله وما له من صفة عالمية وكان ذلك في ٧٥٠ ق.م تقريبا . وجدير بالذكر أن ما نادى به اخناتون في مصر الفرعونية هو في نظر جمهرة العلماء أول نداء بالوحدانية . وليس العبرانيون هم أول من نادى بالوحدانية . لأن الوحدانية التي نادى بها اخناتون في مصر هي وحدانية صحيحة الى حد كبير وأن صاحبها كان يبغى لها أن تنتشر في جميع أنحاء العالم ولكن لم يتمكن من نشرها ، لأنها واجهت مقاومة شديدة من جانب الأحزاب المعارضة . ومع ذلك كله فقد ظل اخناتون مصرا على ايمانه متمسكا بدينه ، وأقسم أنه لن يغادر مدينته وفي قسمه هذا دليل على شدة تمسكه برأيه ورغبته ــ حينما أظلمت الدنيا في وجهه ــ أن يكون مخلصا لدعوته ، ولم يتزحزح عن عقيدته وايمانه بآتون الاله الواحد حتى غادر الدنيا وهو مؤمن بفكرته ، وبذلك يعد اخناتون أول نبي من أنبياء الوحدانية .

نظر عاموس الى يهوه كاله لشعوب أخرى غير بني اسرائيل . ثم هذا النبي أشعيا الذي بدأ نبوته حوالي عام ٧٣٨ وشاهد الأيام التي قام فيها سرجون الثاني (٧٢٢ ق.م) بتخريب السامرة ، ومهاجمة سنحاريب أورشليم عام ٧٠١ ق.م تقريبا . وقد نادى أشعيا بقدسية الله . وقد تحدث عن قدوم المسيح .

أما أرميا فقد كان نبيا وكاتبا وهو بذلك يختلف عن عاموس وأشعيا . وقد عاصر مهاجمة نبوخذ نصر لأورشليم عام ٥٩٧ ، وحينما قام بتخريبها هذا العاهل البابلي عام ٥٨٦ ق.م . وقد آمن بأن الالهة الأخرى كلها أباطيل (أرميا ٥ : ٧ ، ١٤ : ٢٢ ، ١٠ : ١٠ ــ ١٢ ، ١٦ : ١٧ ــ ٢١) أو كان هناك أنبياء آخرون مثل (هوشع) صاحب فكرة أن الله محبة (هوشع ١٤ : ٤) .

أطلق العبريون على أنفسهم أيام الفترة التي كتب فيها العهد القديم (أبناء اسرائيل) = (بني اسرائيل) . وغالبا ما يكون معنى الكلمة (الله = أيل يجاهد ، أو يبقى) . أما اسم عبري فقد سبق أن بينا مدلوله .

ويهودى معناه (رجل يهودا) وهم تلك الجماعة الكنعانية التى كانت قد نزحت الى جنوب فلسطين .

كا نيهوه الذى نقله العبريون من كنعان على هيئة ثعبان ، الها محاربا يقاتل من اجل شعبه وهو اله واحد من بين آخرين Monolatry وهذا يختلف عن التوحيد الذى يقضى بأنه لا يوجد الا اله واحد .

ولم يكن ليهوه صاحبه أو ولد كما كانت بقية الآلهة الكنعانية وكثير من الآلهة التى عاشت فى الشرق الأدنى عبر تاريخه القديم .

لم يكن الهة الكنعانيين الاخرى على غرار يهوه الهة حرب ولكنها كانت تمثل الطبيعة كما سبق أن تحدثنا عن ذلك عند الهة الفينيقيين . من أجل ذلك ظل يهوه يدفع شعبه الى الحرب والعمل على اغتصاب مزيد من الأرض فحارب العبريون الفلسطينيين فى القرنين الحادى عشر والعاشر ونجم عن ذلك قيام ملكية على يد شاءول البنياميني ذلك الملك الدينى .

وتبدأ الأسفار الخمسة « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ومنها تعبير فلسفى عن اله واحد . كذلك فان دين العبريين موحى به ولم يأت عن طريق العقل ولكن من مصدر الهى .

* * *

الختـــان

ذكر هردوت انه سال الفينيقيين والسوريين عن عادة الختان فقالوا : انهم اخذوه من المصريين ، وان المصريين كانوا يتحرون به النظافة والطهارة .

واغلب الظن أن الختان اختصار لعادة الضحية البشرية . ففى العصور القديمة فى الحضارات التى قامت فى الشرق الأدنى كان المنتصر يقدم الأسرى قربانا على محراب الالهة . ثم تدرج الحال من القتل الى قطع أعضائهم كما وجد مصورا على صفحات جدران كثير من دور العبادة فى مصر الفرعونية . ثم تدرج الحال الى قطع غلفتهم وفيها رمز على هزيمة الأعداء .

من اجل ذلك بدأ الختان بالرجال ثم نشأت بعد ذلك بزمن طويل عادة ختان النساء .

ثم تدرج الحال بعد ذلك الى اعتبار الختان علامة تسليم للاله الذى تقوم عبادته أبناء القبيلة ، من أجل ذلك أصبح واجبا على النساء والرجال . وقد اعتبره الاسرائيليون علامة تسليم لربهم لا علامة تمييز لهم فقد جاء فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين أن أبناء يعقوب أوجبوا على الرجل الذى اغتصب أختهم دينا وهو أن يختتن هو وقومه من الكنعانيين . كذلك جاء فى الاصحاح الثامن عشر أن شاءول اشترط على داود أن يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لبنته ميكال ، فقدم له مائتين .

العالم الآخر عند العبريين

نظر أهل الرافدين الى العالم الآخر كأنه جزء من عالمنا ينتقل اليه الميت ليقيم فيه ، ويسمى الهاوية ، ومكانه تحت الأرض بعيدا عن النور . أما المصريون فكانوا ينظرون الى العالم الآخر على أنه عالم الحساب والجزاء وأنه عالم الخلود والحياة الباقية .

أما العبريون فكانوا يأخذون بجزء من نظرة أهل الرافدين لهذا العالم وجزء من نظرة المصريين القدماء لهذا العالم أيضا . فقد آمنوا بأن الانسان يعود الى الدنيا آخر الزمان .

ولقد ظهرت فكرة الحساب فى العالم الآخر فى كتاب اخنوخ (٤١ : ٤) حيث توزن أعمال الانسان كما هى الحال فى مصر الفرعونية وليس كما يتصوره البعض ان ذلك تأثير فارسى . وليس ما ذكره دانيال عن اليوم الأخير (٧ : ٩ ــ ١٢) ناتج من تأثير فارسى . وربما ظن بعض الناس أن ذلك راجع من الكلمة فردوس Paradise التى أتت من الفارسية عن طريق العبرية واليونانية (١) .

الضحايا البشرية

عرفت الضحايا البشرية قبل أن يحل الساميون بوادى الرافدين وبقاع الهلال الخصيب وبقيت الى حد ما بعد ذلك بزمن طويل . فقد وجد الملوك فى أور وقد دفنوا وبجوارهم حاشيتهم . وليس هناك ما يدل على أنهم ماتوا مرغمين فلا يوجد أى أثر للذبح أو الخنق أو القتل العنيف . ويفترض Woolley فى كتابة Ur of Chaldes أنهم كانوا يعطون عقار ساما يخدرهم حتى يموتوا .

---

(١) وهى تعنى أصلا « حديقة » (سفر الجامعة ٢ : ٥) نشيد الانشاء ٤ : ١٣ ، . وقد أتت الكلمة العربية فردوس عن طريق الآرامية .

وقد بقيت التضحية البشرية الى ما بعد أيام موسى ، حيث جاء في الاصحاح الثانى والعشرين فى سفر الخروج اذ حرم على بنى اسرائيل أن يقدموا أبكار أبنائهم قربانا الى الله . وكذلك جاء فى الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ما يشير الى عقوبة الرجم لمن يقدم ابنه قربانا للرب .

وفى الاصحاح العشرين قضاة ما يشير الى أن بعض أمرائهم كان ينذر ابنه على المذبح قربانا الى الله فهذا يفتاح ونذر « نذرا للرب قائلا : ان دفعت منى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة يكون للرب وأصعده محرقه » .

وقد نعاهم النبى أرميا قائلا « أنهم بنوا مرتفعات ... ليحرقوا بنيهم وبناتهم ... »

وبعد الذى قدمنا من عرض خاطف لحضارة العبرانيين . نشعر بأن هؤلاء قد جاءوا متأخرين على مسرح الأحداث التاريخية وقد استقروا فى بلاد تنعم بتأثيرات حضارتين عظيمتين . وقد كانت كلتا الحضارتين أرفع من الحضارة العبرية وأعرق منها . ونستطيع أن نرى بوضوح انعكاس المعتقدات المصرية والبابلية فى كثير من فصول العهد القديم مما وجد من أناشيد اخناتون هى نفسها التى جاءت فى المزمور ١٠٤ وغير ذلك من تشابه .

كان العبرانيون قبائل رحل ، وعاشوا فى رقعة تقع بين البادية والزرع ، وقد تاقوا الى الاستقرار فى سهول مزروعة ، وكانوا يحلمون بأرض فيها لبن وعسل ، ولن يستقروا أبدا فى هذه الأرض العربية التى اغتصبوها قديما وحررها البابليون والمصريون قديما ..

ولن تقف الأمة العربية مكتوفة الأيدى فى أيامنا هذه وسوف يعيد التاريخ نفسه ويطردوا من أرض العروبة المغتصبة .

* * *

الفصل السابع

إبراهيم بين كتب الدين واقوال المؤرخين

تمهيد

اردت أن أضع تحت عينى القارىء الكريم بعد هذه الدراسة السريعة لحضارة وادى الرافدين والحضارات التى قامت فى منطقة الهلال الخصيب حياة شخصية قوية وهو سيدنا ابراهيم عليه وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ازكى التحية والسلام . اردت أن اقلب صفحات التاريخ لنرى فيها حياة أبى الأنبياء . فبعهد ابراهيم تبدأ الفتوح الانسانية العظيمة . ولقد غيرت تلك الفتوح مجرى التاريخ ، كما كان لها أثرها فى علاقة الانسان بالعالم . كما أن دعوته قد اقترنت بأسمى ما فى الوجود وهو التوحيد وميزان العدل الالهى وتخليص الانسان من الشرك . كل ذلك فتوح انسانية لا نظير لها .

نظر ابراهيم الى الكون والى الانسان نظرة جديدة ،ورفع ابراهيم من شأن الانسان حينما انقذه من الشرك وعبادة الأوثان . ومع أن التوحيد لم يكن مجهولا قبل أيام ابراهيم ، كذلك أيضا كان ميزان العدل الالهى وعبادة الحق معروفة من قبل . فقد عبد المصريون القدماء الها واحدا ، كما قاموا بوزن أعمال الانسان فى العالم الآخر الذى صوروه على صفحات جدران قبورهم وعلى البردى . وانما كل ذلك لم يكن دعوة نبوة ورسالة من الله ، بل كان دعوة كهان أو ملوك ، تخفى وراءها أشياء كثيرة . فاخناتون حينما نادى بالوحدانية أصدر فى ذلك مراسيم وتشريعات حكومية . وهذه قد محيت بعد أن دالت أيامه من قصر فرعون نفسه وممن خلفوه . وليس من شك أن عقيدة التوحيد قد انتقلت من مصر الى الشرق . أما تعدد الآلهة فقد عرفه العالم القديم كله ولا ندرى ان كان قد سرى من مصر أو سرى اليها . أما التوحيد الذى قصده ابراهيم كان منزها عن كل شىء فقد عرف الله خالقا للكون

وللناس وحاكما لهم وهو صاحب الأمر كله يأمر وينهى وهو خالد لا يعرف الفناء . كل ذلك بشر به ابراهيم :

ومن من شك أن ابراهيم وحده من الأنبياء هو الذى توجه الى ربه سائلا عن كيفية احياء الموتى حينما ذكر القرآن الكريم « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ... »

تلت دعوة التوحيد التى نادى بها ابراهيم نبوات أخرى نادوا بالتوحيد ذلك لأن تلك الدعوة لم ينته أمرها فى عمر ابراهيم . ومع أن ابراهيم عمر طويلا والشرك لا زال قائما ، وغادر دنياه والشرك له أتباعه الا أن دعوته بقيت وعاشت حتى أتى خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وكان هو مسك الختام فى تلك الدعوة .

تلك السيرة العطرة لابراهيم الخليل دفعتنى أن أضع تلك الشخصية القوية فى تلك العجالة السريعة عن تاريخ شرقنا القديم فهو نبى عظيم بل أبو الأنبياء كما أنه أثر تأثيرا كبيرا فى تاريخ الشرق العربى . وقد حاولت أن أقابل آراء المؤرخين المحدثين وروايات كتب الدين وما قاله المؤرخون القدماء ، واسأل الله التوفيق .

* * *

ما جاء في العهد القديم عن سيدنا ابراهيم :

حدثنا سفر التكوين حديثا طويلا عن سيرة ابراهيم عليه وعلى نبينا السلام . وقد أوضح انه ولد فى أور وانه من ولد سام بن نوح . وقد جاء فى الاصحاح الحادى عشر أن « تارح اخذ ابرام ابنه ولوطا ابن حاران ، وساراى . فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان ، فأتوا الى أرض حاران (١) واقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات فى حاران » ، « وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران فأتوا الى أرض كنعان ومعهم ذخائر وعبيد وماشية ، واختار أبرام سكنه من شكيم (٢) الى بلوطة مورة ... » ، « وظهر الرب لأبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الارض ، فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له ، ثم انتقل من هناك الى الجبل ونصب خيمته شرقا من بيت ايل بين بيت ايل من المغرب ولماى من المشرق . ثم والى رحلته الى الجنوب » .

« وحدثت مجاعة فى الارض ، فانحدر أبرام الى مصر ، وقال لساراى امرأته وهو على مقربة من مصر : انى علمت أنك امرأة حسنة المظهر ، فاذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى انك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيى نفسى من أجلك » .

ثم عاد ابراهيم الى بيت ايل بعد أن جاء من مصر ببقر وغنم وحمير وعبيد واماء وأتن وجمال .

ولم عاد ابراهيم الى ذلك المكان اشتجر الرعاة ، ورحل لوط ابن أخيه ، وبقى أبرام فى كنعان .

ثم تزوج ابراهيم من هاجر جارية ساراى وانجب منها وهو ابن ست وثمانين سنة اسماعيل . ولما بلغ تسع وتسعين سنة كما جاء فى

---

(١) تقع على احدى افرع الفرات والى المغرب من تل حلف .

(٢) تقع غالبا مكان نابلس .

الاصحاح السابع عشر « ظهر الرب لأبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا . فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثر كثيرا جدا . فخر أبرام ساجدا ، وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدى معك ، وتكون ابا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد اليوم أبرام ، بل يكون اسمك ابراهيم . لأنى اجعلك أبا لجمهور من الأمم ، واثمرك كثيراً جـدا ، وأجعلك أمما . . . »

« وقال ابراهيم لله : ليت اسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحاق ، وأقيم عهدى له عهدا أبديا لنسله من بعد » .

وجاء فى الاصحاح الحادى والعشرين أن سارة ولدت اسحاق وختنه أبراهيم وهو ابن ثمانية أيام ، وكان ابراهيم قد قرب على المائة « ورأت ابن هاجر المصرية . . . فقالت لابراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ، لان ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق . فقبح الكلام جـدا فى عينى أبراهيم . . . »

« قال الله لابراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغـلام ، ومن أجل جاريتك ، واسمع كل ما تقوله سارة ، لأنه باسحاق يدعى لك نسـل ، وابن الجارية سأجعله أمة لأنه نسـلك » .

« فبكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء ، واعطاهما لهاجر واضعا اياهما على كتفها وصرفها » .

« فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدا على مرمى القوس . لأنها قالت لا انظر موت الولد . . . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : ما لك يا هاجر : لا تخافى . لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى أحملى الغلام وشدى يدك به . لأنى سأجعله أمة عظيمـة ، وفتح الله عينها فبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغـلام ، وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية . . . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

وقطع ابراهيم عهدا مع ابيمالك وفيكول رئيس جيشه » .

« وأقام ابراهيم سبع نعاج وحدها . فقال ابيمالك لابراهيم : ما هى هذه النعاج التى أقمتها وحدها ؟ فقال : انك تأخذ من يدى سبع نعاج

لكى تكون لى شهادة بأنى حضرت هذه البئر . لذلك دعا ذلك الوضع بئر سبع . لأنهما هناك حلفا كلاهما » .

أما قصة الفداء كما جاءت فى هذا الكتاب خاصة باسحاق .

« وان الله امتحن ابراهيم فقال له : خـذ ابنك وحيدك الذى تحبه ـ اسحاق ـ واذهب الى أرض المريا واصعده هناك ... فبكر ابراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه ، واسحق ابنه ، وشقق حطبا لمحرقه ، وقام وذهب الى الموضـع الذى قال له الله » . « وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الوضع من بعيد . فقال لغلاميه : اجلسا انتما ها هنا مع الحمّار . وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما » . فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحاق ابنه . وأخذ بيده النار والسكين . فذهبا كلاهما معا » . « وكلم اسحاق ابراهيم أباه وقال : يا أبى ! فقال : ها أناذا يا بنى . فقال : هو ذا النار والحطب ، ولكن اين الخروف للمحرقة . فقال ابراهيم : الله يرى له خروف المحرقة يا بنى . فذهب كلاهما معا » . « فلما أتيا الى الموضع الذى قال له الله ، بنى ابراهيم هناك المذبح ورتب الحطب . وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب . ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ملاك الرب من السماء . وقال : ابراهيم ! ابراهيم ! فقال : ها أناذا . فقال : لا تمد يدك الى الغـلام ولا تفعل به شيئا ، لأنى الآن علمت أنك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عنى » . « ورفع ابراهيم عينيه ، نظر ، واذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه ، فذهب ابراهيم وأخـذ الكبش وأصعـده محـرقة عوضـا عن ابنه ... »

وقد جاء فى الاصحاح الرابع عشر انه لـما تقدم ابراهيم فى العمر ، قال ابراهيم لعبده « ضع يدك تحت فخـذى . فاستحلفك بالرب اله السماء ، واله الارض ، الا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل الى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخـذ زوجة لابنى اسحاق .

وجاء فى الاصحاح الرابع والعشرين « وهذه أيام سنى حياة ابراهيم التى عاشها : مائة وخمس وسبعون سنة ، وأسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ... ودفنه اسحاق واسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا » .

« وولد لاسماعيل اثنى عشر ولدا ، وولد لاسحاق من رفقة توأمان

« فخرج الأول احمر كله كفروة شعر ، فدعوا اسمه عيسو ؛ وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه يعقوب » .

وقد وصف ابراهيم بخليل الله فى كتاب الأيام الثانى من العهد القديم ـ وهو على الأرجح من جمع النبى عزرا حيث يقول فى الاصحاح العشرين : « الست أنت الهنا الذى طردت سكان هذه الارض أمام شعبك اسرائيل واعطيتها لنسل ابراهيم خليلك الى الأبد » .

هذه هى بعض العبارات التى ذكرت سيرة ابراهيم من كتب العهد القديم واخصها ما جاء فى سفر التكوين من الكتب الخمسة (١) وهى غالبا ما تسمى بالتوراة .

وقد تعددت النسخ التى كتبت بها هذه الكتب واهمها الوهيم ، ويهوه ، والكهنة ، أو المسجلين . ومن هذه النسخ ما كتب أيام قيام مملكة اسرائيل ، ومنها ما سجل وهم فى المنفى ببابل ، ومنها ما سجل

قبل ميلاد المسيح بحوالى ثلاثة قرون . ويمكننا أن نفترض أن عهد الخليل ابراهيم يبعد الف سنة بين أقدم هذه النسخ .

ما جاء فى المشنا والمدراش عن سيدنا ابراهيم

أما أهم المراجع الاسرائيلية بعد الاسفار الخمسة للعهد القديم (التوراة) هى كتب « المشنا » وهو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ، ومنه التلمود . وللكلمة مشتقة من شنا أى كرر ويقابلها فى اللغة العربية «ثنى» أى أعاد ثانية . وترجع كتابتها الى أيام النفى من عهد نبوخذ نصر حينما أقام بعض اليهود فى أرض بلاد الرافدين .

وتشتمل المشنا على تفسيرات للتوراة . وقد حصرت فى القرن الثانى الميلادى . وقسمت الى ستة أقسام تضمنت ثلاثة وستين فصلا تبلغ

---

(١) التوراة أو الاسفار الخمسة هى (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ويشوع يمثل تصنيف التاريخ والشريعة القديمين ويجب ان ندرك ان الكثير من القوانين والقصص التى وردت فى هذه الاسفار كانت اصلا عادات وتقاليد واغانى سابقة سطر بعضها مثل سفر العدد (٢١ ، ١٤ وما يليه ويشع : ١٠ ، ١٢ وما يليه) وسفر العهد او الميثاق (الخروج : ٢٠ ، ٢٢ ـ ٢٣ ، ٣٣) وكذلك الوصايا العشر (الخروج : ٣٤ ، ١٧ ـ ٢٦) كلها كانت موجودة كتابة قبل عام ٨٥٠ ق م تقريبا . اما آخر ما جمع ما جاء فى سفر القداسة (اللاويين : ١٧ ـ ٢٦) وغالبا ما كان قبل السبى (انظر)
Driver, Introduction to the Literature of the O.T. 82 ff, 116 ff.

نبـذها خمسمائة وأربعا وعشرين . ثم أضيف الى المشـنا فى العصر الحـديث « التصافوت » . وهى مشتقة من يصاف أى يضاف . أى « الاضافات » وقـد قام بهذه الاضافات كهان أوربيون فى القرن الثانى عشر للميلاد .

أما « المدراش » فهو عبارة عن شروح الفقهاء لكتب التوراة الخمسة كتبت فى القرن السادس للميلاد .

وقد جاء فى كتب المدراش ما يشير الى أنه حينما بلغ ابراهيم الثالثة من العمر خرج من الكهف ليلا فرأى النجوم فقال : هذه هى الارباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا ! بل هذه هى الرب . فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا ... فلما أفل قال : ما هذه الارباب . انما الرب المعبود الذى يديرها ويسيرها ويبديها ويخفيها .

وجاء فى هـذه الكتب انه لمـا كبر ابراهيم ذهب الى أرض بابل وبدأ بالدعوة من هناك الى الله . الاله الأحد رب السماوات ورب الأرباب ورب النمرود (الملك) . وانذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذى صنعوه على مثال النمروذ ، فان له فما ولكنه لا ينطق ، وعينا ولكنه لا يبصر ، وأذنا ولكنه لا يسمع ، وقدما ولكنه لا يسعى ...

ويخاف النمروذ فيأمر تارح (والد ابراهيم) بأن يعود من حيث أتى . وقد جاء فى « مدراش رباه » ان تارح غضب من ابراهيم حينما كسر الاصنام وقدمه الى النمروذ فسأله النمروذ : ان كنت لا تعبدالصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟ قال ابراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها . قال النمروذ : فاعبد الماء اذن ؟ قال ابراهيم : بل أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله . قال النمروذ : اذن تعبد السحاب . قال ابراهيم : وأولى من السحاب بالعبادة ريح تبدده وتسير به من فضاء الى فضاء . قال النمروذ : فما لك لا تعبد الريح ؟. قال ابراهيم : ان الانسان يحتويها بأنفاسه فهو اذن أحق منها بالعبادة .. وفى النهاية أوقد له النمروذ نارا ورموه فى النار فخرج منها سالما .

وجدير بالذكر أن التوراة لم تذكر شيئا عن القاء ابراهيم فى النار ، ولكن ذكر ذلك فى سفر دانيال : فقد غضب نبوخذ نصر على ثلاثة لم يقوموا بالسجود لصنم « حينئذ امتلأ نبوخذ نصر غيظا وتغير منظر وجهه على شدرخ ، وميشيخ ، وعبد نغو .. وأمر بأن يحمى الاتون سبعة اضعاف وأمر جبابرة القوة فى جيشه بأن يوثقوا شدرخ ، وميشيخ ، وعبد نغو ، ويلقوهم فى أتون النار المتقدة ، ثم أوثق هـؤلاء الرجال فى سراويلهم

واقمصتهم وارديتهم ولباسهم والقوا فى وسط أتون النار المتقدة ... والاتون قد حمى جدا فقتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ ، وميشيخ ، وعبد نغو ... وهؤلاء الثلاثة سقطوا موثقين فى الاتون ... حينئذ تحير (نبوخذ نصر) الملك وقام مسرعا وسأل مشيريه : الم نلق ثلاثة رجال موثقين فى وسط النار ؟ فأجابوا وقالوا : نعم أيها الملك ! قال : ها انا ناظر اربعة رجال محلولين يتمشون فى وسط النار وما بهم ضرر ، ومنظر الرابع شبيه بابن الالهة . ثم اقترب نبوخذ نصر الى باب اتون النار المتقدة ونادى فقال : يا شدوخ وميشيخ وعبدنغو ، يا عبيد الله العلى اخرجوا وتعالوا .. فخرجوا .. » .

وقد اتفقت كتب المدراش على أن ابراهيم كان سمحا كريما . وكان ابراهيم يطعم الفقير ويأوى الى بيته الضعيفان وكان يجلس الى طعام دون ان يكون معه أحد الرائحين أو الغادين . وقد ذكرت المشنا سارة فهى تارة تصفها بأنها اخت غير شقيقة لابراهيم واخرى انها كانت بنت أخيه . وانها هى المرأة الوحيدة التى خاطبها الله . وأنها أجمل النساء . ولما أسرها فرعون وحاول أن يقترب منها رصد له حارسها من الملائكة فجعل يضربه على يده كلما بسطها ، وعلى قدمه كلما سعى اليها ، وأصبح فاذا هو مصاب بالجذام وبالعنة ، واذا بنذير من الله ليرسلن الوباء على فرعون وقومه ان لم يرجع سارة الى ابراهيم .

كما جاء فى المشنا محاورة ابراهيم أباه حينما رأى الاصنام تحترق فقال له : يا أبت ! ان النار أحق بعبادتك من أصنامك ، لانها تحرقها ، ثم قال : « بيد انى لا أحسب النار الها لان الماء يخمدها ، ولا أحسب الماء الها لان الارض تبتلعهما ولا أحسب الشمس الها لان الظلام يحجبها ، ولا أحسب القمر والنجوم التى تظهر فى الظلام إلهة لانها تحتجب عند طلوع النهار ، وانما الاله القدير على كل شىء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والارض وما عليها ، وخالقى وهادى الى الحق المبين . ولم يسمع اليه أبوه فذهب الى أمه وسألها أن تعد طعاما للاصنام ، ثم أهوى على الاصنام يحطمها ووضع القدوم فى يد كبيرها ، وأسرع أبوه على صوت الحطام فسأله : ماذا دهاها ؟ قال : هذا انحى عليها فكسرها ولا يزال القدوم فى يديه ، فصاح به أبوه : انك لتكذب فما فى وسع هذا الصنم ان يفعل ما زعمت . قال ابراهيم : عجبا لك يا ابتاه ! تعبد هذه العجزة التى لا تقدر على خير — ولا نفع ، ثم وثب على الصنم الكبير فخلذ القدوم من يده وضربه فالقاه ، وهرب من وجه أبيه .

ما جاء فى العهد الجديد عن سيدنا ابراهيم

اما عن العقائد التى ظهرت فى العهد الجـــديد مع المسيحية وهى الاناجيل الاربعة وأقوال الرسل والحواريين ، فهى تشير الى أن رسالة ابراهيم روحية وليست جسدية . وأن ذرية ابراهيم التى ذكرت هم أولئك الذين يترسمون خطاه . وقد جاء فى الاصحاح الثامن من انجيل متى يقول السيد المسيح « الحق اقول لكم لم أجـد فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، وأقول لكم ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكـــوت السماوات وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجية » .

وجاء فى كلام يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان « .. اصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون فى انفسكم : لنا ابراهيم أبا ، لانى أقول لكم ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم » .

وفى الاصحاح الثانى من انجيل يوحنا أن المسيح قال لليهود « لوكنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم » .

اقوال المؤرخين فى سيدنا ابراهيم

وقد جاء فى تعليقات ابنجدون Abingdon عن قصـــة ابراهيم والعبرانيين ما يلى : « ان تاريخ العبريين الرسمى يبتدىء بقبيلة من هذه القبائل سكنت الى جوار مدينة أور فى جنوب العراق ، وعند نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد هاجر فريق منهم الى الشمال بقيادة رئيس يسمى تارح ، كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من سفر التكوين » .

« وربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسى فى جنـــوب العراق ، اصابت جرائره معيشة أهل أور ، ولعل هذا الاضطراب قد نشأ من تحول السيطرة السياسية من المدن العراقية الى قبائل عيلام ، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة فى مدينة أور ، وهذا الفرض يرجع بالحركة الى ما بين سنة ٢٣٠٠ وسنة ٢٠٠٠ ق.م. وكيفما كانت الحقيقة فالهجرة قد حدثت ونزل القوم فترة بجوار حاران الى شمال الهـــلال الخصيب .

« ومما يستحق الملاحظة أن كلا من أور وحاران كانت فى القدم مركزا لعبادة الاله سين اله القمر من معبودات الساميين .

ويحاول بعض العلماء أمثال (١) Halley : أن يضع مقابلا من التوراة

---

(١) H. Halley, The Pocket Bible Handbook

وما فيها من حوادث بما يناظرها من حوادث فى التاريخ المصرى القديم . فنجده يضع عصر ابراهيم فى الاسرة الثانية عشر الفرعونية حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. ويضع عصر يوسف ودخوله الى مصر ايام الاسرة السادسة عشرة (عند وجود الهكسوس فى مصر) اى حوالى عام ١٨٠٠ . اما عصر موسى فيقابله على حسب رأى Halley الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة اى بين سنتى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ .

وقد قمت ببحث موضوع الخروج من مصر فى كتابى مصر الخالدة واراء العلماء المختلفة ورجحت احتمال وقوع الخروج فى الايام الاخيرة لرمسيس الثانى أو الاولى لمرنپتاح .

واذا صحت تقديرات هالى فقد اعتمد على بعض المناظر الموجودة على صفحات جدران المقابر المصريين القدماء . فقد تصور ان تلك الجماعة التى صورت على قبر خنوم حتب الثانى ببنى حسن من أيام سنوسرت الثانى احتمال انها تمثل الوفد الذى جاء مع ابراهيم للقاء فرعون مصر سنوسرت الثانى اما تقديره مجىء يوسف الى مصر أيام الاسرة السادسة عشرة ففيه بصيص من نور نحو هذا الموضوع لان الهكسوس فى هذه الفترة كانوا قائمين فى مصر وان الصلات بينهم وبين فلسطين كانت مستمرة . ومن التوراة عرفنا سلالة ابراهيم كما يلى : ان يوسف بن يعقوب ، وان يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم . فاذا قدرنا ان أعمار الرجال كانت فى هذه الازمان طويلة فلربما صدق هالى فى تصوره هذا وبذلك يكون مجىء يوسف الى مصر يحتمل حدوثه فى فترة مجىء الهكسوس الى مصر .

وقد بين (١) Albright ان الهكسوس كانوا ساميين وانهم لم يكونوا من الحوريين أو من الجماعات الهندو أوربية . ثم يتحدث البرايت عن الاوراق البردية المحفوظة بالمتحف البريطانى تحت اسم شستربيتى من ايام الرعامسة وما فيها من ذخيرة أدبية ، فمن حيث أسلوبها فيها شبه بأناشيد سليمان مع اختلاف فى بعض التفاصيل . ثم فيها بعض الترنيمات الخاصة بعقائد التوحيد التى ظهرت بشكل واضح فى مصر الفرعونية ايام اخناتون وتوقفت ثم ظهرت بعض الاتجاهات المماثلة ايام الرعامسة . كما أوضح ذلك عام ١٩٦٥ (٢) لويس كريستوف Louis-A Christophe فى كتابه عن معبدى ابو سمبل وآثار مقارنات لاتزال تحتاج الى مزيد من الدراسة فى مقارنته رمسيس الثانى باخناتون (انظر التعليق على ذلك فى كتابى مصر الخالدة ص ٧٣٩ — ٧٤٠) .

---

(١) The Old Testament and Modern Study, London 1950.

(٢) نشر كريستوف هذه الاتجاهات فى كتاب له عن معبدى ابو سمبل بالفرنسية وقد نشر عام ١٩٦٥ فى بلجيكا .

ويحاول البرايت أن يجد فيما كتب على تمثال الملك ادريمى الذى كشف فى حماة والذى ارخه بحوالى عام ١٤٥٠ وان سيرة هـــذا الملك وحوادثها قد وقعت فى شمال سورية فيها شبه كبير بقصة يوسف وغيرة اخوته والسنوات العجاف .

ويحاول الاسقف يوشر فى موسوعة وستمنستر أن يجعل ميعاد ميلاد ابراهيم حوالى عام ١٩٩٦ وان طريق الجيوش التى حاربها ابراهيم كما جاء فى الاصحاح الرابع من سفر التكوين كانت تقع الى الجنوب على حافة جلعاد ومؤاب . وتدل الاكتشاف التى أجريت فى تلك المنطقة وجــود مدن عامرة قبل ذلك التاريخ . وقد ورد فى سفر التكوين ان مدينتى سدوم وعمورة دمرتا فى أيام ابراهيم . وقد ثبت بعد الكشوف التى أجريت فى المنطقة أن هذا الطريق ظل غير مطروق الى القرن الثالث عشر قبـــل الميلاد .

هذه اراء مختلف العلماء والباحثين الذين تعرضوا لدراسة التاريخ القديم من زواياه المختلفة معتمدين على الوثائق التى حفظتها لنا الايام من تراث هؤلاء الناس الذين أقاموا الحضارة وعمروا الارض ، كذلك من كتب الاديان المختلفة .

* * *

ما جاء فى القرآن الكريم عن سيدنا ابراهيم

وفى مسك ختام كتب الاديان يأتى القرآن الكريم ليثبت وجود ابراهيم الذى تشكك فيه بعض الناس . وقد وردت أخباره فى سور كثيرة .

فمن سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى اهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، قال أراغب أنت عن الهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » .

ومن سورة الأنبياء

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين قال بل ربكم رب السماوات والارض الذى فطرهن وانا على ذلك من الشاهدين وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالو احرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين » .

ومن سورة الصافات :

« وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون أافكا الهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى الهتهم فقال الا تأكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فاقبلوا اليه يزفون قال اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى أن شاء الله من الصابرين فلما اسلما وتله للجبين وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » .

ومن سورة الذاريات :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال الا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم

فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم قال فما خطبكم ايها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين » .

ومن سورة البقرة :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم » .

ومن سورة الانعام :

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر اتتخذ أصناما الهة انى اراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل راى كوكبا قال هذا ربى فلما افل قال لا احب الافلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما افل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين فلما راى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر فلما افلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا وما انا من المشركين »

ومن سورة ابراهيم :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربى لسميع الدعاء » .

ومن سورة الحج :

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت الا تشرك بى شيئا وطهر بيتى

للطائفين والقائمين والركع السجود واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

ومن سورة البقرة :

« واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم » .

ومن سورة هود :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خفية قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب قالوا اتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » .

ومن سورة النحل :

« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » .

ومن سورة آل عمران عن دين ابراهيم وسائر الاديان واخصها الاسلام :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين أن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

مما تقدم ذكره من آيات الله الكريم فى قرآنه العظيم ، نرى ان أخبار الخليل تدور فى تلك الايات حول موضوعين : أولهما قيام ابراهيم واسماعيل حول الكعبة ، وثانيهما الدعوة التى دعا اليها ابراهيم .

ويعلق الاستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه عن ابراهيم (١) بشأن

---

(١) أبو الانبياء للاستاذ عباس محمود العقاد ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٩٠ — ٩١ .

الضيوف الثلاثة الذين جاء ذكرهم فى سفر التكوين كما يلى « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، واذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد الى الارض ، وقال : يا سيد ! ان كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك ، ليؤخذ قليل ماء . واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لانكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت » . « فأسرع ابراهيم الى الخيمة ، الى سارة ، وقال : اسرعى بثلاث كيلات دقيقا سميذا . أعجنى واصنعى خبز ملة ، ثم ركض ابراهيم الى البقر واخذ عجلا رخصا جيدا واعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم ، واذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا » .

وكما يقول الاستاذ العقاد مقارنا حديث سفر التكوين عن هؤلاءالثلاثة وما جاء فى سورة الذاريات التى سبقت الاشارة اليها ما يلى :

« فالضيوف الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين كانوا يأكلون ويشبعون من الطعام ، وكان مفهوما من أسلوب بعض النسخ القديمة أن واحدا منهم هو الاله ، ثم أصبح مفهوما انه ملك يتكلم باسم الاله ومعه صاحباه من السماء . الا أن القرآن الكريم يروى قصة هؤلاء الضيوف ولا يروى انهم اكلوا وشبعوا ، بل جلسوا الى الطعام ولم تصل ايديهم اليه وسألهم ابراهيم أن يأكلوا فلم يفعلوا ، فأوجس منهم خيفة وعلم من ثم أنهم من غير البشر وان لهم شأنا غير شأن ضيوف الزاد والمقام » .

أقوال المؤرخين القدامى عن سيدنا ابراهيم

ذكر يوسيفوس اليهودى ما يلى :

« سأتكلم الآن عن العبرانيين . فالج بن عابر ولد له رعوس ، وولد لرعوس سيروج ، وولد لسيروج ناخور ، وولد لناخور ثيروس (= تارح فى كتب اليهود) وهو ابو ابراهيم العاشر من سلالة نوح ، ومولده فى سنة ٩٩٢ بعد الطوفان ... وكان لابراهيم اخوان : ناخور ، وآران (حاران) . وولد لآران لوط وبنتان هما سارة وملكة ، ومات فى بلاد الكلدان فى بلدة تسمى أور الكلدانيين ، وقبره هناك يرى الى اليوم . وتزوج ناخور بنت أخيه ملكه ، وتزوج ابراهيم بنت أخيه سارة ، وكره ثيروس المقام باور حيث فقد ابنه المحزون عليه حاران فهاجر منها الى شاران (حران) بالعراق حيث مات ثيروس وله من العمر مائتا سنة وخمس سنوات ...

ولما لم يكن لابراهيم ولد شرعي تبنى لوطا ابن أخيه حاران واخا زوجته سارة ، وترك بلاد الكلدانيين وهو فى الخامسة والسبعين ليذهب الى كنعان حيث أمره الله وحيث ترك ذريته من بعده .. (وكان ابراهيم) أول من اجترأ على المناداة بأن الله خالق الكون واحد .. والواقع أن هذه الافكار هى التى اثارت عليه الكدانيين فرأى من الخير بمشيئة الله ومعونته أن يرحل الى ارض كنعان ، وهناك استقر وبنى لله مذبحا وقدم عليه القربان.

وقال نقولا الدمشقى فى الكتاب الرابع من تاريخه : « ان ابراميس (ابراهيم باليونانية) حكم فى دمشق وكان مغيرا قدم من أرض بابل .. وهجرها وقومه الى أرض كنعان — وتسمى اليوم يهودا — ... ثم مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع ابراهيم برخاء المصريين ، فاعتزم الهجرة الى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله اخبارها فى امر الله .. واخذ سارة معه ، وخاف ولع المصريين بالنساء وان يغضبه عليها الملك ويقتله — اجلها لجمالها فأوصاها أن تقول انها أخته ، وحدث بعد وصوله الى مصر كل ما توقعه فتسامع الناس بجمال زوجته ولم يقنع فرواثيس (فرعون) ملك المصريين بالسماع فهم بأخذها لولا ان الله أحبط جريمته بما فشا فى مصر من الوباء والقلاقل ... ولما بلغ منه الرعب سأل سارة من هى ومن هو الرجل الذى جاءت به معها ، فاعتذر لابراهيم حين علم جلية الخبر وقال له انه لم يتعلق بها الا لظنه انها أخته لا زوجته .. ثم اغدق على ابراهيم ثروة طائلة ... وقد اطلع (المصريين) على علم الحساب وقوانين الفلك ولم يكن احد من المصريين على علم بها قبل مقدم ابراهيم ، وانما جاءت من الكلدان الى مصر ثم من مصر الى الاغريق . ثم قسم الارض بينه وبين لوط ... أما لوط فاختار السهل الى ناحية الاردن غير بعيد من مدينة سدوم ، وكانت مدينة عامرة قضى الله عليها بالخراب لما سنبينه فى موضعه وزحف الاشوريون (عليها) (ثم ثار ملوكها على الاشوريين بعد اثنتى عشرة سنة) .. واشتبك السدوميون والاشوريون فى قتال عنيف هلك فيه كثيرون .. وكان بين الاسرى لوط وقومه .. وسمع ابراهيم بالنكبة فداخله الخوف .. فانقض على الاشوريين بالقرب من مدينة دآن على احدى شعبتى نهر الاردن .. وجد ابراهيم فى اقتفاء اثرهم حتى بلغ (أوبة) بأرض الدمشقيين .. ولما خلص ابراهيم السدوميين ومعهم قريبه لوط عاد فى سلام .. واستقبله ملك سليمى ملكى صادق .. واصبحت سليمى هذه المكان الذى عرف بعد ذلك باسم اورسليمى (أورشليم) . ورحب ملكى صادق بابراهيم .. واحضرت سارة بامر الله الى فراشه احدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى أن يرزق منها ذرية ، فلما حملت اجترأت على اهانة سارة واتخذت سمة الملكات .. وقد وضعت بعد قليل ولدا سمته اسماعيل أى المسموع من الله ، لان الله استمع لصلاتها . وكان ابراهيم قد بلغ السادسة والثمانين حين ولد له هذا

الولد ، وبلغ التاسعة والتسعين حين تراءى له الرب وبشره بولد يرزقه من سارة .. (ثم أمره الله) أن يختتنوا لكيلا يختلطوا بالامم الاخرى .. ١
واختتن هو وآل بيته جميعا واسماعيل الذى كان يومئذ فى الثالثة عشرة وكان أبوه فى التاسعة والتسعين . . . »

ثم يذكر يوسيفوس ان سارة أقصت هاجر وابنها الى البرية وان الغلام كاد يموت عطشا لولا نبع من الماء قريب . ولما بلغ الصبى أشده واستوى عوده زوجته أمه مصرية فأنجب منها اثنى عشر ولدا هم نبايوث وقدار ، وعبدئيل ، ومبسام ، ومشمع ، وآدوم ، وماسم ، وقدوم ، وتيمان ، وجثور ، ونافش ، وقدماس . وقد استولوا هؤلاء على الارض التى تقع بين العراق والبحر الاحمر . وقد تسموا بالنباتيين (النبطيين) ثم يذكر يوسيفوس خبر وفاة ابراهيم فى كلمات قصار « ان اسحاق واسماعيل دفناه الى جوار سارة فى مقبرة حبرون » .

ومن بين المؤرخين الاسلاميين القدامى ابو الفداء الذى عاش فى القرن الثامن ولخص تاريخ ابراهيم بدقة معتمدا على مصادر قديمه فقد عاش فى بلاد الرافدين العليا فقال :

« هو ابراهيم بن تارح ، وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن رعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن ارفخشد بن سام بن نوح .. وولد ابراهيم بالاهواز ، وقيل بابل . وهى العراق ، وكان آزر أو ابراهيم يصنع الاصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها . فكان ابراهيم يقول : من يشترى ما يضره ولا ينفعه ! ثم لما أمر الله ابراهيم ان يدعو قومه الى التوحيد دعا اباه فلم يجبه ، ودعا قومه فلما فشا أمره واتصل بنمرود بن كوش — وهو ملك تلك البلاد ، وكان نمرود عاملا على سواد العراق وما اتصل به للضحاك ، وقيل بل كان نمرود ملكلا مستقلا براسه — فأخذ نمرود ابراهيم الخليل ورماه فى نار عظيمة فكانت النار عليه بردا وسلاما وخرج ابراهيم من النار بعد أيام ، ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود وآمنت به سارة وهى ابنة عمه هاران .

« ثم ان ابراهيم ومن آمن معه واباه على كفره فارقوا قومهم وهاجروا الى حرآن واقاموا بها مدة . ثم سار ابراهيم الى مصر وصاحبها فرعون ، قيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس فذكر جمال سارة لفرعون — وهو طوليس المذكور — فأحضر سارة اليه وسأل ابراهيم عنها فقال : هذه أختى ، يعنى فى الاسلام . فهم فرعون المذكور ربها فأيبس الله يديه ورجليه . فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم هم بها فجرى له كذلك ، فأطلق سارة وقال : لا ينبغى لهذه ان تخدم نفسها ، ووهبها هاجر جارية

لها ، فأخذتها وجاءت الى ابراهيم ، ثم سار ابراهيم من مصر الى الشام فأقام بين الرملة وايليا ، وكانت سارة لا تلد ، فوهبت ابراهيم هاجر ، وواقعها ابراهيم فولدت اسماعيل ، ومعنى ابراهيم بالعبراني مطيع الله . »
« ثم غارت سارة من هاجر وابنها اسماعيل ، وقالت : ابنة الامة لا يرث مع ابنى ، وطلبت من ابراهيم ان يخرجهما عنها . فأخذ ابراهيم هاجر وابنها وسار بهما الى الحجاز ، وتركهما بمكة . وبقى اسماعيل بها وتزوج من جرهم امراة . »

« وماتت هاجر بمكة ، وقدم اليه أبوه ابراهيم وبنيا الكعبة ، وهى بيت الله الحرام ، ثم أمر الله ابراهيم ان يذبح ولده ، وقد اختلف فى الذبيح هل هو اسحاق أم اسماعيل ، وفداه الله بكبش .

« وكان ابراهيم فى أواخر أيام بيوراسب المسمى بالضحاك ، وفى أوائل ملك افريدون ، وكان النمرود عاملا له حسب ما ذكرناه . »

كلمة الختام فى سيدنا ابراهيم

لوحظ أن المصادر اليهودية التى ترجع الى القرن السابع ق.م. صمتت عمدا عن حالة العرب الدينية وتعمدت تلك المصادر الا تعطى أبناء اسماعيل حقوق الوعد الذى وعد الله به ابراهيم الخليل ، ثم ارادت أن تبعد العرب عن ذلك الوعد فادعت ان الوعد كان من حق سلالة اسحاق بن ابراهيم .

من ذلك نرى أن انتساب العرب الى اسماعيل أمر لا شك فيه منذ أن كتبت تلك المصادر اليهودية الاولى . ولو لم يكن انتساب العرب الى اسماعيل بن ابراهيم امرا مقررا لما كان هناك ما يدعو الى التمييز بين أبناء اسماعيل وأبناء اسحاق . وكان كافيا أن يقال ان هذه النعمة من حق أبناء ابراهيم عامة وبذلك يخرج من هذا الوعد كل من كان غير يهودى .

ولا يمكن انكار نسبة العرب الى ابراهيم . وقد اخذ كهان اليهود يضيقون حلقة النسب خصوصا حينما احسوا بخطر المنافسة على السلطان الدينى والدنيوى . فنجدهم يخصصون الوعد لابناء يعقوب ومن قبل كان الوعد شاملا ابناء اسحاق ثم حضروا النسب فقالوا أن الاسرائيليين هم أبناء يعقوب وان اسرائيل هو لقب يعقوب .

وكما رأينا أن دولة اليهود انقسمت الى دويلتين : مملكة اسرائيل فى الشمال ، ومملكة يهودا فى الجنوب . ثم ضيق الكهان هذه النعمة مرة أخرى فقالوا انها محصورة فى أبناء داود .

ومن قبل حصر اللاويون الرياسة الدينية فيهم على اعتبار ان منهم موسى كليم الله .

كانت المنافسة الدينية بين الايمان بـ « يهوه » والايمان بالايل والاله ففى تاريخ العرب القديم نجدهم لم يتحدثوا عن « يهوه » بين الهتهم ، ولكنهم تحدثوا عن الايل والاله والله تعالى . وقد عبد اليهود الايل وكذلك فعل العرب اذ نجد ذلك واضحا فى الاسماء الاتية : بتوئيل واسرائيل واسماعيل . ولما وجد الكهان تشابه النسب وهو الانتماء الى ابراهيم وتشابه العبادة وذلك فى الاتفاق على اسم الاله . عند ذلك رأى الكهان ضرورة ايجاد استثناء ، من أجل ذلك حصروا النعمة فى بنى اسحاق ثم بنى يعقوب ثم أبناء داود .

لقد سكت كتاب اليهود عن ذكر ذلك كله والصمت المتعمد هو اقرب فى الصدق من الكلام فنسبة العرب الى اسماعيل امر لا يشك فيه أحد ولم يكن العرب بحاجة ان يخترعوا نسبتهم الى ابن جارية بينما ينتمى ابناء ابراهيم الآخرين الى سارة .

كذلك هناك كتب أخرى تاريخية لم نجدها بين كتب العهد القديم فليست الكتب الخمسة التى شملت العهد القديم هى كل كتب التوراة ، يشهد على ذلك ما جاء فى ختام كتاب الايام الاول اذ يقول الكاتب : « وأمور داود الملك الاولى والاخيرة هى مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرائى واخبار ناثان النبى واخبار آسرائيل واخبار جاد الرائى ، مع كل ملكه وجبروته والاوقات التى عبرت عليه وعلى اسرائيـــــل وعلى كل ممالك الارض . »

وفى الاصحاح التاسع من كتاب أخبار الايام الثانى ما يلى أن « بقية امور سليمان الاولى والاخيرة اما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى ، وفى نبوة اخيا الشيلونى وفى رؤى يعدو الرائى على يربعام بن نباط » .

ولا يوجد كتاب ناثان ، كما لا توجد نبوءة اخيا الشيلونى ورؤى يعدو الرائى .

وقد جاء فى الكتاب الرابع لعذرا وكتب الحكيم فيلون وكتب آباء

الكنيسة الاولين ان اسفار أخرى غير الاسفار الخمسة كانت تنسب الى موسى عليه وعلى نبينا السلام .

من كل ذلك لا يجوز أن نعتمد على صمت المراجع اليهودية وعدم استيفائها فى سجلاتها امورا كان يجب ان تستوفى ولا نعترض على أمرلانه غير مذكور فى هذه المراجع .

ولا جدال أن المصادر اليهودية ناقصة حتى فى اخبار من جاورها من الامم والمصادرالاسلامية وافية باخبار هذه البلاد أكثر من المصادراليهودية ودليلنا على ذلك ان كتب اليهود لم تشر الى قوم عاد وثمود وآختص بذكرها القرآن الكريم وقد جاء اسمهما فى جغرافية بطلميوس فذكرت عاد تحت اسم Oadita وثمود تحت اسم Thamudita وموقعهما كما وصفهما الجغرافى الاغريقى على بعد قريب من اسرائيل . فهذا بطلميوس قد أشار اليهما ، فهل كان أمرهما مجهولا عند كتاب العهد القديم . كل ذلك يدل على أن الصمت عن كل دعوة من ابناء اسماعيل أمر مقصود .

يرتبط تاريخ آبراهيم بقيام الدول فى منطقة الهلال الخصيب وفى فلسطين وانتقال العشائر فى بادية الشام . وما من شك ان هجرة ابراهيم متصلة بالاضطرابات التى اكبر الظن قد نشأت من تبدل النظم والعبادات .

ولم يستطع اليهود ان يدخلوا فلسطين الا بعد ضعف الامور بين الحثيين والهكسوس وعلى ذلك فلقد عاش الاموريون والكنعانيون والحثيون ومعهم عدد قليل من العبريين فى جنوب تلك المنطقة . واقام ابراهيم عند سيناء وشمال الحجاز وكان الطريق الجنوبى امامه مفتوحا سهل أرتياده من الشمال ، حيث كان توجد قبائل ضاربة فى هذه المنطقة الشمالية كثيرة الاتجاه على وادى الرافدين ووادى النيل .

كان ابراهيم على علاقة تامة بالحجاز والدليل على ذلك ان اسم بعل كان يطلق على الاله فى الديانات التى دانتها القبائل التى عاشت فى هذه الفترة فيما عدا اتباع ابراهيم وذريته . ولم يرد اسم البعل فى ديانة الكعبة أو الحجاز مع وروده فى بقية القبائل الضاربة فى الجزيرة العربية .

ويفسر بعض اللغويين اسم ابرام بما يلى : اب ورام ، ورام = احب واذن ابرام = محبوب الله (وهو يساوى لقبه خليل الله) .

ويفسر بعض آللغويين الملك « داميقى ايلشو » ـ وهو ملك عاش فى

حوالى عام ١٦٥٠ ق.م. وحكم فيما اصطلح على تسميته بالقطر البحرى (انظر ص ٣٣) (عند شط العرب) ــ بحبيب الله . لان صدر الكلمة تعنى الحب ، والايل تعنى الله وضمير الاضافة . وظن فليپى أن هــذا الاسم يطابق اسم ابراهيم من حيث الزمن والصفة التى خلعت عليه . ويفترض أن الخليل كان أحد الملوك الذين حكموا فى منطقة شط العرب عند راس الخليج العربى . وقد ورد اسم داميقىايلشو Damiqilishu بين ملوك القطر البحرى فيما سميناه بالاسرة الثانية لملوك هذه المنطقــة (انظر الثبت فى صفحة ٢١٥) ويحاول فليپى أن يفترض أن يكون داميقى ايلشو هو ابراهيم والله وحده يعلم .

أما من ناحية نسب الخليل ابراهيم واسم أبيه . فقد جاء فى القرآن الكريم : « واذ قال ابراهيم لابيه آزر ... » وهاجم بعض الناس ممــن يهاجمون الاسلام وادعوا فى اسم والد ابراهيم خطأ ، وقالوا أن اسمه تارح كما جاء ذكر ذلك فى العهد القديم .

واذا نظرنا بعين الدقة فسوف نرى أن هذه التخطئة لا موضوع لها . فقد علمنا من قبل أن ابراهيم قد نزل الى كنعان من بلاد آشور . وقديما كان الناس ينسبون الى أوطانهم وبلادهم . حتى اليوم فى بعض القوى فيقال ابن مصر وأبناء العروبة وأبناء الشرقية وابناء النيل الخ .

فاذا صح أن ابراهيم أصلا من بلاد الرافدين وانه منسوب الى آشور، فغالبا سيكون تارح التى وردت فى العهد القديم وآزر التى وردت فى القرآن الكريم لفظين مختلفين لاسم واحد ، علما على شخص أو على احد الاسلاف الاقدمين والذى كان ينسب الى دولة آشور . ويكتب اسم آشور فى العراق وسورية أحيانا آشور وأحيانا آزور وأحيانا آثور وأحيانا اتور وأحيــانا آسور .

وجدير بالذكر أن اللغات السامية لم تكن تضم قديما حروف علة . وقد أطلق الاغارقة اسم « اسورية » على المنطقة التى سكنها ابراهيم والتى تشمل الأقاليم الواقعة بين الفرات وفلسطين . والياء الاغريقيــة تنطق بالعربية بين الواو والياء . ولذلك نجد مثلا كلمة Syria تكتب باللغات الاوربية بالياء . بينما تكتب بالعربية بالواو ، فنقول سورية .

وتنطق كلمة تارح فى بعض الاحيان تيرح ، وكذلك تيرة وتيرا بسقوط الحاء أحيانا .

وعلى ذلك فيحتمل جدا أن تكون اثور واتير قد تحولت الى تيره وتيرح

وقد ذكر يوسيفوس هذه الكلمة بدون الحاء . كما ذكرها يوسبيوس آثور .

والخلاصة أن « آزر » هى النطق الصحيح لكلمة آسور ، وأن تيره وتيرح نطق لمن يكتبها التيرة واتيرح .

والمعقول أن نسبة ابراهيم الى آزر والتى تعنى أسور أقرب الى الصواب من تارح التى تعنى الحزن والكسل .

والذى يؤكد أن القرآن الكريم كتاب لا يعتمد على غيره من مصادر هو أنه لم يقتبس من المصادر اليهودية هذا الحديث فيسمى والد ابراهيم تارحا أو تيرحا أو تيرة وليس هناك ما يدعو بتاتا الى تسميته آزر . لكن القرآن الكريم كتاب العربية نسب ابراهيم الى آزر والده أو جده أو الى وطنه الذى نشأ فيه والله وحده يعلم .

لقد تهيأت الدعوات الدينية فى دويلات المدن ، ففيها صفات المدينة وصفات الصحراء . حقا لقد نشأ الحكام والنساك فى الاودية الخصبة فى الصين والهند مثل بوذا وغيره ولكن لم ينشأ فى هذه المناطق الاخيرة الانبياء والمرسلون والرسل المجاهدون ، وذلك لان أمانة النبوة غير أمانة الاصلاح .

واذا كانت دويلات المدن هى أصلح أرض لنمو شجرة النبوة فليس أولى من بلاد ما بين النهرين فى عصرها الغابر أن تبدأ منها الدعوة الاولى للوحدانية . وقد سبق أن بينا عند حديثنا عن السومرين نشأة دويلات المدن فى هذه البقعة من بلاد الرافدين ، وان الحضارة فيها كانت تقوم فى مدن أور واوروك والعبيد ولجش وغيرها ، وان الحياة فيها كانت تقوم على الرعى والزرع . وأن اقتصادها العام كان متوقفا على ذلك وعلى التجارة التى كانت تقوم بها القوافل . وقد سبق أن بينا نصيب أور فى بناء الحضارة السومرية ، وكانت تلتقى عند هذه المدينة التجارة الواردة من الخليج العربى ومن البر أيضا ، ثم تقوم القوافل بنقلها من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب الى المشرق ، ومن الجنوب الى الشمال والعكس .

اما مدينة آشور فقد كانت مركزا تجاريا لالتقاء التجارة فى الشمال ، وكانت تلى أور فى المركز والمكانة فى هذا العصر ، وقد وصلت القوافل منها الى أواسط آسية الصغرى .

نشأ ابراهيم الخليل فى أور وانتقل الى مدينة آشور ، لكن لم تطل

اقامته هناك . وبدأت دعوته فى هذه البقعة من الوطن العربى ، ثم تنتقل اشعة الدعوة الى حبرون أو بيت المقدس ، الى مدن خليج العقبة ، والى مدن الحجاز .

ليس من شك فى وجود ابراهيم الذى استطاع أن يربط بين أور وآشور وبيت المقدس وجاشان والبتراء ومكة . لقد تمثلت فى هذه المواقع جميعها عنصرا البداوة والحضارة .

وقد شهد ابراهيم فى عصره عبادات كانت قائمة فى بلاد الرافدين وفى وادى النيل ، وكان ينتقل بين دول تتناقض فى بعض العبادات وتتلاقى فى بعضها . وقد ظهر الخليل ابراهيم على مفترق الطرق وجاهر بالوحدانية .

كان مسلك ابراهيم المنطقى والمعقول هو الى الجنوب ، وغير معقول أن طريقه كان بيت المقدس . والمصادر الاسرائيلية نفسها تقول انه كان غريب الدعوة والوطن فى حبرون وانه اشترى مدفنه من الحثيين (سنعرض لهذا بعد قليل حينما نتحدث عن الحثيين) .

لقد اتجه ابراهيم الخليل الى الجنوب حيث اتجه أصحاب الدعوات النبوية ، وقد تعمدت المصادر الاسرائيلية اغفال تلك القبلة التى اتجه اليها أبو الانبياء ابراهيم وتعلقوا ببيت المقدس ، وان اغفالهم ذلك الاتجاه نحو الكعبة كان سببا فى اسقاط حجتهم فى اقامته فى بيت المقدس .

* * *

البـــاب الثالث

الحثيون
تاريخهم وحضارتهم

الفصـــل الأول

العصـــور الحجرية

البيئة الجغرافية :

اسية الصغرى (الاناضول) موطن الحثيين هضبة عالية يبلغ ارتفاع أحد قممها Eizil Dagh حوالى ٩٦٠٠ قدما . ويمكن تقسيمها الى أربعة أقسام :

القسم الشمالى الشرقى : وهو موطن الحثيين الاصلى ، ويجرى فيه نهر الهاليس Halys (Eizil Irmak) والذى اصطلح على نطقه بالعربية فيصل يرموق وفى بعض الكتب قزل أرمق ، ويبلغ طوله حوالى ٥٠٠ ميلا . وقد تعددت منابعه حول منحدرات ايزيل داج السابق ذكرها ، الواقعة عند خط تقسيم المياه الشمالى لنهر الفرات . وينحدر بسرعة من منبعه متجها الى الغرب فى شكل دائرى ثم يتجه الى الشمال الشرقى ليصب فى البحر الاسود ، الى الغرب من ميناء سمسون . كما يجرى فى هذا القسم الجزء العلوى من نهر ايريس Iris . وأهم مدينة تقع فى هذا القسم (خاتوساس Khattusas) .

القسم الشمالى الغربى : وهو يشمل فريجيا Phrygia ، ويحد شرقا بمياه نهرى سانجاريوس Sangarius وهاليس ، ويحد جنوبا بالبحيرات الوسطى والجنوبية الغربية . ويجرى فى هذا القسم نهـــر سانجاريوس وروافده . وأهم مدينة تقع فى هذا القسم انقرة . وتشتهر منطقتها بصناعة الصوف المعروف بالموهير Mohair ، وبالماعز التى يطلق عليه Angora والذى اشتهر بجودة صوفه . كما امتازت المنطقـــة بزراعة الفواكه واخصها الكمثرى والتفاح .

القسم الثالث : وهو يشمل الارض الواقعة بين السـهول الوسطى

وبحيرات Pisidian ، ويتخللها مرتفعات لا تصلح غالبا منحـــدراتها للزراعة . ومن ناحية اخرى ، فان المناطق التى تجاور الانهار التى تصب فى البحيرات تصلح فى كثير من نواحيها للزرع ، وبعضها تنبت فيه الفواكه بكثرة . وعمرت فى هذا القسم مدن من أيام العهد الفارسي والرومانى : جابالا Gaballa (وهى مشـــتقة من الاسم الحثى Khaballa) وجدير بالذكر ان خابالا كانت مدينة رئيسية من آحدى الامارات التى كانت تتشكل منها مملكة ارزاوا Arzawa

القسم الرابع : يقع عند اسفل مرتفعات طوروس الشمالية ، ويحفه من الغرب مرتفعات كاراداج Kara Dag . وتتجمع المياه فى داخـــل هذا القسم فى بحيرة اك جيل Ak Geul . وهى منطقة خصبة ، واهم مدنها تيانا Tyana .

ويقع بين هذه الاقسام الاربعة سهل اكسيلون Axylon وبه بحيرة مالحة ، ويبلغ ارتفاع السهل عن مستوى سطح البحر حوالى ٣٠٠٠ قدما

والمظهر العام لهضبة الاناضول فى كثير من جهاتها انها مغطاة بالزرع. ومناخ الهضبة حار جاف صيفا ، ممطر شتاء .

* * *

العصور الحجرية .

مر الاناضول بالعصور الحجرية القديمة والحديثة التى الفنا أن نراها فى جميع انحاء العالم القديم واظهرها ما يلى :

نهاية العهد الكالكوليثى :

كليكيا : تاثرت هذه الفترة بتيارات حضارية وردت اليها من شمالى بلاد الرافدين وكان مركزها مرسين Mersin : وجد فيها الى جانب الفخار الملون المتاثر بفخار العبيد ، آخر رمادى على هيئة طاسات احمر واسود فى طارسوس وبعض المراكز الحضارية الاخـــرى فى كليكيا وفى ساغوزى فى الامانوس . كما يوجد الى جانب ذلك فخـــار على صفحته خطوط محفورة كذلك تاثر هذا النوع بفخار حلف . ويسبق هـــذا الفخار الذى عثر عليه فى طارسوس مباشرة عهد البرونز .

كذلك عثر على فخار ملون برســـوم بيضاء فى وادى كاليكـــادنوس Calycadnus فى سيليفكه Silifke ومالتپه Maltepe . وقد وصلت كليكيا عن طريق سهل كونيا

ثم انمحت حضارة هذه الفترة (نهاية العهد الكالكوليثى) الخاصة بطارسوس نتيجة هجرات من المنطقة نفسها ، وهذه الجماعات الاخيرة هى التى أدخلت استخدام البرونز فى كليكيا ، ولذلك سميت هذه الفترة بعهد البرونز الكليكى ، وتاريخه غالبا يطابق نهاية عصر أوروك أو بداية العصر الشبيه بالكتابية proto-literate فى جنوبى بلاد الرافدين .

وعصر ما قبل التاريخ الخاص بسهل كليكيا يمتاز بما يلى : انه قد عمر منذ بداية العصر الحجرى الحديث بالانسان الذى كانت تربطه بالهضبة الجنوبية (سهل كونيا) روابط متينة ، وقد استمرت تلك الروابط فى العهد اللاحق وهو العهد الكالكوليثى القديم . وقد استورد أشياء كثيرة من صناعات هذه الفترة من الهضبة المذكورة آنفا . وفى بداية الكالكوليثى الاوسط وردت الى المنطقة تأثيرات من حلف . وقد بقيت الاتجاهات الواردة من حلف الى شرقى كليكيا مدة أكثر من التأثيرات الواردة من العبيد .

سهل كونيا :

ظهر فيه فخار أسود زخرف بزخارف بيضاء مثل الفخار الذى عثر عليه فى الطبقة ١٢ من طبقات مرسين وله نفس الاشكال . ولكن لم يوجد اى اثر لتاثيرات من فخار العبيد أو حلف .

الغرب ، الشمال الغربى ، ووسط الاناضول :

تطور الكالكوليثى المتأخر فى أقصى الغرب والشمال الغربى ووسط الاناضول وبعضه له ايدى على هيئة قرون .

العهد الباكر للبرونز :

لوحظ فقط ان حضارة البرونز فى سهل كليكيا قد وردت الى هذه المنطقة عن طريق جماعات هاجرت اليه ، ولكن فى بقية المناطق الاخرى بالاناضول ظهرت هذه الحضارة نتيجة تطور من العهد الكالكوليثى المتأخر لم تظهر مقابر ملكية من هذه الفترة بل ظهرت فى الفترة التالية . كان يخلو سهل كليكيا من الثروات المعدنية ، ولكن يوجد منجمان للفضة بسهل كونيا فى طوروس . ويوجد فى جنوبى غربى الاناضول النحاس والحديد والذهب . وقد كانت الاناضول فى نهاية العهد الباكر للبرونز سوقا كبيرا للمعادن كانت تستورد آشور وسورية ما يحتاجاه منها ، كذلك كان يصدر الى مصر واليونان والبلقان .

وجدير بالذكر ان هناك اختلاف واضح فى المناطق فى منطقة آسـيـة الصغرى وذلك لاختلاف تضاريسها .

عصر البرونز الباكر الفترة الاولى

المنطقة الشمالية الغربية :

ظهرت أقوام فى البلقان الشرقى عند ميخاليتس Mikhalits من هذا العهد اندفعت الى الاناضول فى العهد الباكر لعصر البرونز ووصلت حتى غربى أزمير Izmir . وقد وجدت نفس هـذه الحضارة فى وادى كايكوس Caicus وفى الجزر البعيدة عن الساحل : لمنوس Lemnos (پوليوشنى Poliochni) ، ولسبوس Lesbos (ثرمى Thermi) وخيوس Chios (امپوريو Emporio) . وقـد ظهرت مراكز لتلك الحضارة فى سهلى اخيسار Akhisar ومانيسا Manisa ، وكذلك فى سهل باليكسير Balikesir . وقد لوحظ ان المجتمع الذى عاش فى تلك السهول كان متحدا وذلك من أثر سهولة الاتصال بين أفراده .

وأهم المراكز الحضارية من هذه المنطقة هى تروى Troy . وقد عثر فيها على فخار على هيئة طاسات قليل غورها (مسطحة كالصحن) لها قاعدة مخروطية الشكل أو قصيرة . وغالبا بها زخرفة جانبية . كما عثر على صحون لها حواف سميكة وعروات انبوبية الشكل تحت الحافة

ولو ان هذه الحضارة قد اخذت لها اسم Troy الا انه ايضا وجد فى پوليوشنى ولسبوس آثار من هذا العهد . ووجدت المدن من هـذا العهـد محصنة بحوائط من الحجـارة (فى ثرمى وتروى وپوليوشنى) واحيطت البوابات بأبراج .

اما المنازل فكانت فى مجموعها مستطيلة الشكل . وبأرضية المنزل موقد ، وحفرة كانت تستخدم كمرحاض . وكان يحفظ الطعام فى أوعية كبيرة أو فى مطمورة من الطين فوق الارض أو توضع فى حفرة بأرضيةالمنزل وقد تجمعت المنازل فى ثرمى ، وفصلت كل مجموعة عن الاخرى بشوارع وأزقة . وكان لمعظم المنازل فناء خارجى امام المنزل . وزودت المنـازل بنوافذ ، كانت مرتفعة غالبا فى المنازل المشيدة بالطوب النى . ومعظم المنازل من طابق واحد وسقفها مسطح . وقـد زودت المنازل المقامة فى الغابات بسقوف صنمية الشكل (جمالونى) وذلك لتجنب الامطار ، وكانت تبنى من الخشب .

اما عادة الدفن فى هذا العهد ، فهى واضحة فى يورتان Yortan فقد عثر على قدور كبيرة من الطين كانت تستخدم للدفن وكذلك على قليل من لحود من الحجر . وغالبا ان هذه اللحود كانت ترجع الى العهد اللاحق لهذا العهد الذى نحن بصدده . وقد نظمت هذه فى صفوف مرتبة لها فتحات تتجه الى الشرق . وقد كانت الجثة منحنية (على هيئـــة القرفصاء) وملقاه على جانبها الايسر والرأس متجهة الى الشرق . ومن بين القربان نجد أوعية ، وبعض الاشياء الخاصة بالزينة الشخصية مثل الخناجر أو أسلحة أخرى . وكانت تغطى المقبرة بكتلة من الحجر نانىء وجهها العلوى لامكان التعرف على القبر . وكشفت بعض مقابر فى جبانات أخرى ، وهنا أيضا نجدان الجثث قدوضعت منحنية (على هيئة القرفصاء) ولكن على جانبها الايمن والرأس متجهة الى الغرب . وبعض الاوانى وضع بجوار الرأس . وفى حالة الاطفال وجد أحيانا رضاعات . وفى بعض المقابر الخاصة بالاغنياء عثر على صحون من الرخام المصقول .

اما فيما يختص بما عثر عليه من الاشياء المصنوعة من المعدن . فأغلب هذه الاشياء من النحاس والقليل من البرونز . والقليل من الاثار كان من الفضة ومن النادر العثور على اشياء من الذهب . ولو ان المعـــدن كان معروفا الا انه لم يستخدم بكثرة : اما عن أهم المقتنيات المعدنية من هذا العهد فهى : الخناجر ، ورؤوس الرماح ، والمدى المعقوفة والبلط المسطحة واما الادوات البسيطة فاهمها : الدبابيس ، والمخارز ، والابر ، والخرامات والمثاقيب ، والازاميل . وقد عثر على سوار من القصدير واسلاك من النحاس . وجدير بالذكر ان ترمى وپوليوشنى كانتا غنيتين بالمعادن نتيجة للتجارة التى كانت تمر بهما . اما المصنوعات الحجرية فأخصها رؤوس المقامع ، والبلط ، والاوانى المصنوعة من الرخام .

أما عن الفخار فقد تعددت اشكاله ، وقد صنع باليد وقـــد امكن تقسيمه على حسب المناطق : المنطقة الشمالية الغربية . ونجد هنا اوانى لها حافة مقلوبة وقاع مسطح بقاعـــدة أو بدونها ، وبعضها له أيدى أو عروات انبوبية الشكل على الحافة أو اسفلها . وبعض حواف الاوانى بها بعض زخارف محفورة ومملوءة بالطباشير الابيض . وبعض الاوانى على هيئة طائر

وأما فخار المنطقة الجنوبية الغربية من هذا العهد فيختلف تماما عن غيره . جميع هذا الفخار قد صقل صقلا تاما ، فيما عدا عدد بسيط . والوانها هى : الاسود الحالك ، والاصفر الرمادى ، والبرتقالى ، والاحمر الفاتح ، والقرمزى ، وكثر الفخار المرقش . لا يوجد عروات لهذا الفخار ولكن أطواق واسعة تستخدم كمقابض . وزينت صفحات الفخار برســوم

هندسية . وقد وجدت أباريق لها رقاب طويلة وميازيب وأوان كرية الشكل . وهناك أشكال مختلفة من الكؤوس منها المربعة الشكل وعلى قاعدة لها أربعة أرجل .

أما فخار المنطقة الجنوبية (سهلى كونيا وكليكيا) من هذا العهد فيختلف عن غيره من الفخار . فقد لوحظ أن فخار المنطقة الغربية للاناضول يمتاز بزخارفه البيضاء المتطور من العصر الكالكوليتى المتأخر . ولكن فى سهل كونيا وكليكيا لا نجد اثر لهذا النوع . ولكن وجد هنا الفخار الاحمر المائل الى اللون السمنى Red-on-cream . وبعض الاباريق من هذا العهد لها مقابض غالبا محفور سطحها بنقط وشرط . وعثر فى هذه المنطقة على فخار مصقول ، برتوقى اللون ، ورمادى أو أسود .

وأما فخار المنطقة الوسطى من الاناضول من هذا العهد ، فلم يوجد فيها فخار ملون بألوان بيضاء ، وأغلب فخاره مزخرف بزخارف حمراء بارزة أو غائرة .

عصر البرونز الباكر ـ الفترة الثانية

الظاهرة الواضحة فى هذه الفترة هو القضاء على حضارة تروى الاولى Troy I . وقد افترض العلماء هرب أصحاب هذه الحضارة أما الى الداخل فى المرتفعات أو عبورهم البحر الى أقطار أخرى . ومن الناحية المعمارية يعتبر حصن حضارة تروى الثانية ، وكذلك مدينة پوليوخنى الخامسة Poliochni من العمارة التى عاشت من هذه الفترة . والى جانب ذلك هناك مبانى اخرى فى مواقع أخرى .

لا زلنا نجهل أى شيء عن الكتابة فى هذه الفترة . أما طريقة الحكم . فما من شك فى وجود ملكيات صغيرة يحكم كبار رجالها باسم ملوك . ومما يدل على ثراء بعض هؤلاء ما عثر عليه من مخلفات من الحجارة النصف كريمة من اللازورد والفيروز والكهرمان فى مقابرهم . وقد افترض بعض العلماء أن الطبقة الحاكمة قد كانت من أصل أجنبى ، ولكن حتى ولو صح ذلك فليس هناك ما يدفعنا الى الاعتقاد بانهم من أولئك الذين كانوا يتحدثون اللغة الهندو ـ اوربية وذلك اعتمادا على رأى بعض العلماء حديثا .

العمارة :

من النظرة العابرة الى اطلال حضارة هذه الفترة فى مدينة پوليوخنى

فانها تعطينا فكرة طيبـــة عن مدينة منتظمـــة ، بها شـــارع رئيسى ، يبلغ طوله مائتى متر تقريبا ، وقد تجمعت المنازل فى مجمعات على جانبى الطريق . وكانت هناك منازل متوسطة واخرى كبيرة . وكذلك وجـد مبانى للمرافق العامة : مخازن ، ومسرح (؟) أو ردهة الاجتماعات .

ويقع حصن اهلاتليبل Ahlatibel على الطريق الذى يمر على حافة السهول التى تفصل سهول انقرة وجولبازى Gölbazi . ولم يبق من هذا الحصن الا الجزء الاسفل منه فقط . وقد عثر على حجرات للدفن فى باطن أسوار الحصن بها هدايا ، بينها أسلحة (سيوف ، خناجر ، بلط للحرب) . ومن هـذا العهد بقى لنا معبـدان توأمان فى بيسى سلطان Beyçesultan XVI-XIV . وقد زود كل من المعبدين بمذبح يضم لوحتين ومن خلفها جرار كبيرة كانت تستخدم لحفظ السوائل . وقد بنى المعبدان من الطوب النى ، وقد غطيت الحوائط بالملاط ، وقد لونت بلون ازرق . وقد عثر فى المعبدين على قمح ، وشعير وعدس وكشنى bitter vetch وبذور العنب ، وقد وجد بعضه فى الاوانى . وغطيت الارضية بحصر منسوجة ولباد .

هذان هما المعبـدان الوحيدان اللذان بقيا من العهد البرونزى فى الاناضول . وقد عثر فى كل منهما على كميات هائلة من الفخار .

وعثر فى طارسوس على مجموعة من المنازل الخاصة وبعض أسـوار المدينة .

عادات الدفن

كشف فى دوراك Dorak (فى شمال غرب الاناضول) عن قبرين ملكيين وعلى ١٣ قبرا فى الاسا Alaça . وقد وضح من الدراسة اختلاف عادات الدفن فى الشمال الغربى عن وسط الاناضول . فبينما نجد مقابر دوراك لحودها من الحجر وابعادها ١ر٨ × ٢ مترا ، نجد مقابر الاسا قد حفرت فى الارضية وقد حفت أحيانا بالحجارة . وبعضها يتراوح طوله بين ستة وثمانية أمتار وعرضه ٥ر٣ مترا . وقد غطيت مقابر دوراك بكتل من الحجارة ، أما مقابر الاسا فقد غطيت بكتل من الخشب قد صفت عليها رؤوس ثيران واظلافها ، وهى بقايا قربان جنازى . وقد وجد الموتى فى مقابر دوراك اما ممدين على ظهورهم أو وضعوا على هيئة القرفصاء على جنوبهم وقد اتجهوا برؤوسهم ناحية الشرق . ووضع الموتى فى الاسا على هيئة القرفصاء فى الركن الشمالى الغربى لحجرة الدفن ، على الجانب الايسر والرأس قد اتجهت نحو الغرب . ولم يعثر على أى أثر لقماش أو

حصير في مقـابر الاسا لانه قد أصابتها مياه الرشح ، ولكن عثر في قبر دوراك الملكي رقم ١ على كليم كان الملك موضوعا عليه ، وقد وضع الملك مستلقيا والملكة في القبر رقم ٢ على حصير من السمار . وقد عثر في قبر رقم ٢ بدوراك على أثاث من الخشب (مناضد أو أطباق كبيرة كان يقدم عليها بعض الاطعمة ؟) . ولكن من الاشياء الثمينة التى عثر عليها في هذا القبر أجزاء من كرسي مصري من الخشب وقد نقشت صفحته المغطاة بالذهب باللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) باسم ولقب ساحورع ثاني ملوك الاسرة الخامسة (٢٤٩٤ ــ ٢٣٤٥ ق.م. تقريبا) (١) وقد اختصت مقابر الاسا بأن دفن مع الموتى جهازهم الطقسي : تماثيل لثيران وأوعال . بينما لم يعثر في مقابر دوراك من هذا العهد على أشياء طقسية بالمرة ، وبدلا من ذلك عثر على أدوات للزينة ، وأشياء خاصة بزينة كانت تصاحب الملكة ، وأسلحة الملك . ومثل هذه الاشياء قد عثر عليها أيضا في الاسا ، ولكن في حالات دفن الملكات وجد تماثيل . وقد عثر في كل على فخار ، ولكن لم يعثر على أوان من الحجر في الاسا بينما وجدت في دوراك . وغالبا ما عثر على أوعية من المعدن في الاسا أكثر من التى عثر عليها في دوراك ، وكانت أكبر حجمـا ، وقد دفـن كل من ملوك وملكات المركزين الحضـاريين بصولجاناتهم ، كرمز للسلطان . وقد امتازت دوراك بأسلحتها العـديدة والممتازة : السيوف ، والخناجر ، وبلط المعارك ، والسهام ، وقد عثر في الاسا على أسلحة ، ولكن من نوع مختلف . وكشف في كل من المركزين على عدد من الاسلحة الخاصة بالحفلات : رأس مقمعة من الذهب في الاسا ، وأخرى من الكهرمان والفيروز في دوراك ، وعثر في الاسا على خنجرين من الحديد ، وعلى سيف من الحديد وخنجر في دوراك وغير ذلك من الاسلحة .

الصناعات المعدنية

لقد اشتهـرت كل من الاسا ودوراك بالصناعات المعدنية بمختلف الطرق ، بالصب في الشمع cire-perdue ، وبالطرق وغيرها من الوسائل . وعرف أهلهما ممارسة التطعيم في المعادن ، كما عرفوا لحام المعدن في كل من المدرستين . وكان هناك صياغ يزاولون عملهم في كل من دوراك وتروى .

أما المعادن التى كانت معروفة في كل من دوراك والاسا فهي : النحاس أو البرونز في تروى ، وجميع هذه المعادن كانت موجودة في الاناضـول فيما عدا القصدير الذى كان يستورد من الخارج . ومن بين الحجارة في الاناضول : البللور الطبيعي ، والعقيق ، واليشب ، والنفريت Nephrite

(١) J. Mellaart, "The Royal Treasure of Dorak" In Ill. Ldn News, 28 Nov. 1959, fig. 1.

والابسيديان ، وطين الخفان meerschaum حيث عثر عليه فى دوراك ، وكان يصنع القاشانى محليا . ولكن لابد أنهم كانوا يستوردون العاج والكهرمان واللازورد والفيروز . فكانوا يستوردون العاج من مصر ، والكهرمان من البلطيق ، واللازورد من باداخشان فى شرق أفغنستان ، أما الفيروز كان من نيشابور فى خوراسان (**شرق ايران**) **او من** شبه جزيرة سيناء . ولم يعثر على هذه المواد فى الاسا . **وجدير بالذكر** ان الاسا كانت تقع فى وسط شبه جزيرة آسيا الصغرى . من أجل **ذلك** كان الاتصال الخارجى بها صعبا . أما ذوراك وتروى فكانتا تقعان بالقرب من الساحل ، من أجل ذلك سهل الاتصال بهما عن طريق البحر .

الملابس والاوانى المعدنية :

اما عن الملابس ، فالقليل منها بقى حتى عهدنا الحاضر . وقد عثر على دبابيس وبروشات brooches (المشابك) كانت تستخدم فى الملابس لانهم لم يعرفوا الازرار . وعثر فى الاسا على تماثيل تضع أحذية ارتفعت مقدمتها (١) والتى لا زالت **منتشرة فى ريف الاناضول** . وعثر على تمثال فى تروى من الرصاص ، وعلى قالبين فى اخيسار Akhisar احدهما لالهة لها جدائل من الشعر **طويلة ، والآخر لالهة** تضع رداء له أهداب . كما عرفنا أنهم كانوا **يستخدمون الاحزمة ، ويضعون** الميدعة (فوطة لوقاية الثياب) . ووضعت السيدات الاساور ، والدمالج ، والعقود من حجارة مختلفة الالوان ، وختوم للاصابع ، واقراط . كذلك عثر على امشاط وأوانى الزينة .

وقد لوحظ ان الاوانى المعدنية التى كشف عنها فى الاسا قد صنعت من البرونز والنحاس والذهب والفضة ولكن لا يوجد علاقة بينها فى الشكل مع الفخار المحلى .

الفخار :

وجد بكثرة وباشكال مختلفة وقد صنع على عجلة الفخارى . وقد لوحظ انه فيما عدا كليكيا ، حيث عرف استخدام عجلة الفخارى ، فقد استمرت بقية المراكز الحضارية فى الاناضول على صناعة الفخار باليد . فعثر على أطباق ، وأكواب للشرب لها عروتان ، وجرار لها رقاب طويلة وقوارير .

***

(١) H. Z. Kozay, **Les fouilles d'Alaca Höyuk**. Ankara, 1951.

الفصل الثانى

العصر التاريخى

تقديم :

جاء فى الخبر أن أصل الحثيين يرجع الى ملك قديم هو لابارناش Labarnash ، وان اغلب بلاد هضبة الأناضول قد كانت تحت لوائه . وقد تبين أن آسيه الصغرى كانت مقسمة فى أول أمرها الى دويلات المدينة ، أو انها كانت تخضع لنظام قبلى . واشهر المدن من هذا العهد البعيد : خاتى Khatti ، وكوسار Kussar . وقد جاء اسم الحثيين فى سفر التكوين ، اذ يذكر المؤلف أن اسم الحثيين بوجه عام يطلق على جميع السكان من غير الساميين وذلك قبل مجىء العبرانيين . فقد جاء فى قصة ابراهيم ما يلى : « وفى ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقه قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين والقتريين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والاموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين » . ويعتبر سفر التكوين حبرون (الخليل) مدينة حثية (سفر التكوين ٢٣ : ٢ — ٢٠) . كما جاء فى (سفر التكوين ٢٦ : ٣٤، القضاء ٣ : ٥ — ٦) ان عيسو تزوج نساء حثيات وتزاوج بنو اسرائيل مع الحثيين . وفى (سفر الاعداد ١٣ : ٢٩) ما يشير الى منطقة سكنى الحثيين « العمالقة ساكنون فى أرض الجنوب : والحثيون واليبوسيون والآموريون ساكنون فى الجبل ، والكنعانيون ساكنون فى البحر وعلى جانب الأردن » . وجاء فى (أخبار الأيام الثانى ١ : ١٧) أن سليمان جلب خيلا من مصر وباعها « ملوك الحثيين » . وجاء فى (سفر الملوك الأول ١١ : ١ ، صموئيل الثانى ١١ : ٣) أن سليمان قد تزوج من نساء حثيات . كذلك حينما خاطب النبى حزقيال مدينة أورشليم الخائنة قال لها : « أبوك اموری وأمك حثية » . وجاء فى سفر الملوك الثانى ٧ : ٦ — ٧ فى معرض الحديث عن هجوم اسرائيل على سورية ، فمن بين أحاديث الجنود ، قال أحدهم « ها هو ذا ملك اسرائيل قد آستاجر ضدنا ملوك الحثيين » .

اما عن أول ذكر للحثيين فى الوثائق المصرية القديمة : فقد جاء ذكرهم

بين الأمراء والحكام الذين قدموا هدايا لملك مصر تحتمس الثالث عقب حملة مجدو (١) . كما راسل شوپيلوليوماش ملك الحثيين فرعون مصر ، وكما سمته الوثائق الحثية Khuria (٢) وغالبا ما يكون امنحتب الرابع (اخناتون) . وقد ورد فى خطابات تل العمارنة التى وجهت الى امنحتب الثالث من امير قطنة المسمى اكيزى Akizzi أن عدم ارسال نجدة اليه من مليكه قد شجع ايتوجاما Aitugama ، حاكم قادش الى أن يدفع الكثير من الأمراء الى الوقوف الى جانب الحثيين (٣) . وكان من نتيجة ضعف السلطان المصرى فى هذه المنطقة وهى شمال سورية ، احتلال الحثيين لها كما سنفصل ذلك فيما بعد . ثم يأتى بعد ذلك ذكر الحثيين بشىء من التفصيل أيام رمسيس الثانى .

لم يكن للحثيين أى سلطان جنوبى جبال طوروس قبل أيام شوپيلوليوماش . وحينما كانت سورية خاضعة للحكم الحثى لم يمتد نفوذ الحثيين فيما وراء قادش نحو الجنوب . ولم نسمع عن دخول جيوش حثية فى فلسطين .

لقد جاء فى الفقرة ١٣ : ٢٩ من سفر التكوين ما يشير الى أن الحثيين قد احتلوا الاقليم الجبلى ، بينما كان الاموريون فى السهل الساحلى ووادى الاردن ، والعمالقة فى الجنوب .

أنبأ الاصحاح الثالث والعشرون بموت سارة (وزج ابراهيم) وهى فى السابعة والعشرين بعد المائة . ماتت فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان . فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكى عليها . وقام ابراهيم من أمام ميته وكلم **بنى حث** قائلا : انا غريب ونزيل عندكم . اعطونى ملك قبر معكم لادفن ميتى من أمامى . فأجاب **بنوحث** ابراهيم قائلين له : اسمعنا يا سيدى : انت رئيس من الله بيننا . فى أفضل قبورنا ادفن ميتك . لا يمنع أحد منا قبره عنك . فقام ابراهيم وسجد لشعب الارض ، **لبنى حث** ، وكلمهم قائلا : ان كان فى نفوسكم أن أدفن ميتى من أمامى فاسمعونى والتمسوا لى من عفرون ابن صوحر أن يعطينى مغارة المكفيلة التى له فى طرف حقله ، وبثمن كامل يعطينى اياها . وكان عفرون جالسا بين **بنى حث** ، فأجابه على مسمع من قومه لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلا : لا يا سيدى ... اسمعنى . الحقل وهبتك اياه . والمغارة التى فيه لك وهبتها .. فسجد ابراهيم أمام شعب الارض وكلم عفرون فى مسامع

---

(١) 1. BAR II, $ 485; Onom. I, p. 127*

(٢) 2. Am. 41.

(٣) Am. 53. 11 ff; 54. 26 ff.; 55. 16 ff.

شعب الارض قائلا : بل ان كنت انت اياه فليتك تسمعنى . أعطيك ثمن الحقل فادفن ميتى هناك . فأجاب عفرون ابراهيم قائلا له : يا سيدى ! اسمعنى . أرض باربعمائة شاقل فضة ، ما هى بينى وبينك ؟ فادفن ميتك . فسمع ابراهيم لعفرون ووزن ابراهيم لعفرون الفضة التى ذكرها فى مسامع بنى حث : أربعمائة شاقل فضة جائزة عند التجار .

وقد جاء فى سفر التكوين (٢٣) : دفن ابراهيم فى مغارة المكفيلة المشتراة من حثى : «وهذه أيام سنى حياة ابراهيم التى عاشها : مائة وخمس وسبعون سنة ، واسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ، وانضم الى قومه ، ودفنه اسحاق واسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى امام ممرا » .

كذلك أيضا فى (يشوع ١ : ٢ — ٤) ما يشير الى أن الرب قد كلم يشوع قائلا : « قم ، واعبر هذا الاردن أنت وكل هذا الشعب الى الارض التى أنا معطيها لهم أى لبنى اسرائيل .. من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات ، جميع أرض الحثيين ، والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » . ويعلق (١) جورنى على ذلك بقوله « وهذا الامر ليس له معنى . فالبلاد بين لبنان والفرات لم تكن واقعة عبر الاردن بالنسبة الاسرائيليين فى ذلك الوقت — وخيامهم كانت مضروبة فى سهول موآب — كما انهم لم يحتلوها أبدا . والواقع انهم عبروا الاردن ودخلوا المنطقة الجبلية فى يهوذا — وهى بالضبط المنطقة المنسوبة للحثيين فى (عدد ١٣ : ٢٩) واذا حذفنا الكلمات (من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات) فان الفقرة تصبح فى الحال مفهومة . واضافة هذه الكلمات يمكن شرحها بسهولة كحاشية لكاتب متأخر يعنى اسم الحثيين لديه الممالك الحثية الحديثة فى سورية . لان حثى تلال يهوذا اختفوا منذ زمن بعيد . »

ثم يناقش جورنى رأيا لفورر عن حثى تلال فلسطين واعتماد هذا الاخير على وباء الطاعون الذى انتشر فى بلاد الحثيين أيام الملك مورشيليش الثانى نتيجة غضب الاله كما جاء ذلك مسطرا على لوحين أولهما اهمال عيد من الاعياد ، والثانى معاهدة أبرمت مع مصر (انظر ما سيأتى بعد ذلك) ، وحينما نقض الاتفاق يقول النص فى اللوح « ... ، أرسل أبى مشاة وفرسانا وغزوا حدود مصر وبلاد أمكا (وادى البقاع) . »

أما النص الذى يشير الى أن الحثيين أيام شوبيلوليوماش قد

(١) الحثيون : تاليف جورنى وترجمة الدكتور محمد عبد القادر محمد (ص ١٨٤) .

دخلوا بلاد مصر ، فان المقصود هنا البلاد الخاضعة للنفوذ المصرى . وقد اشير فى النص الى أن الاله جوحاتى هو المحرض وأن هـذا العمل هو فى الواقع تفكير سياسى مقصـود ، وليس هو مجرد هرب أسرى من الغزو الحثى . ومن الجائز انه كان يوجد فى سورية مستوطنون حثيون .

ولم يستطع حتى الآن احد من العلماء معرفة تفسير واضح لانتشـار الحثيين فى فلسطين كما جاء فى العهد القديم ، وبعضهم يرجعها الى انتشار اللغة الحثية بعد الألف الثانى فى هذه البقاع وكما يقول جورنى « وان حثى تلال يهوذا كانوا بقايا هؤلاء القوم الذين ظلوا منعزلين حينما احتل شمال فلسطين وسورية الساميون والحوريون فى نهاية الالف الثالثة » ، والله وحده يعلم حقيقة الامر .

أما عن العلاقات التاريخية بين سكان هضبة الاناضول وأهل الرافدين فترجع الى ايام الاكديين . فقد جاء فى أسطورة (١) "King of the Battle" ما يشـير الى أن جماعـة من التجـار من مدينة « پوروشـكندا Purushkanda » بهضبة الاناضول أرسل الى سرجون الاكدى وفـدا يلحون عليه فى طلب ارسال قوات الى مدينتهم ، ويصفون له الثروات التى تتمتع بها بلادهم . وقد جاء فى الرواية أن سرجون قد وافق بعد تردد للاستجابة لرغبة هؤلاء التجار ، وارسل وحداته فعلا كما تقول الرواية الى پوروشكندا .

وقد جاء فى رواية اخرى (٢) تحكى أن مدينة پوروشكندا تقع تحت سلطان نرام ــ سين حفيد سرجون . وقد جاء أن احدا من نزلاء مدينة شوبات ــ انليل Shubat-Enlil من بلاد سوبارتو Subartu = (الواقعة فى شمال بلاد ما بين النهرين) غزا مملكة نرام ــ سين : وقـد قام أولا بالهجوم على پوروشكندا ، وبعد ذلك اتجه الى الشرق ، ثم اخـيرا الى الجنوب ، وتقدم بعد ذلك الى قلب الامبراطورية الاكدية . وجدير بالذكر أن الروايات الحثية عن هاتين القصتين قد وصلت الينا أيضا من مقتنيات بوغاز كوى ، وأن ملك الحثيين خاتوشيليش الاول Khattushilish I (١٦٥٠ ق.م.) قد أشار الى حملة سرجون الاكدى على آسية الصغرى وذلك فى نص تاريخى (٣) ، وقد دفع ذلك سكان الاناضول القدامى اعتبار العهد الاكدى القديم بداية العهد التاريخى لبلادهم . وهناك احتمال أن

(١) Arch. of Or. 20 (1963), 161 f.

(٢) J. J. Finkelstein, "The so-called (Old-Babylonian Kutha Legend)". In .C.S. 11 (1957), 83 ff.

(٣) H. G. Güterbock, "Sargon of Akkad mentioned by Khattusili of Khattr." In .C.S. 18 (1964), 1 ff.

تجار پوروشكندا؟ لم يكونوا أكديين ولكن من الساميين الغربيين الذين كان لهم رغبة أكيدة فى الدخول فى علاقات تجارية مع الاكديين .

وعثر فى كول‌تبه Kültepe بالقرب من قرية كاريوك Karahüyük الحديثة وعلى بعد قريب من كايسرى Kayseri بوسط اسية الصغرى على نسختين من نص أصله من أيام آرشوم الأول Erishum I (١٩٤١ — ١٩٠٢ ق.م تقريبا) يشير الى قيامه بنشاط معمارى فى مجموعة معبد آشور بمدينة آشور . وبدأت علاقات آسية الصغرى بآشور تتوطد . وكان الآشوريون يستوردون من آسية الصغرى النحاس والفضة والذهب والرصاص والقمح والصوف (١) .

ومما يؤكد هذه الصلات التجارية فى هذه الفترة (القرن التاسع عشر ق.م.) العثور على آلاف من ألواح الطين المنقوش عند كول‌تبه ، تشير الى نشاط التجار الآشوريين الذين كانوا يرسلون السلع من آشور الى الأناضول ، فيقومون ببيعها هناك ، ويرسلون الى آشور الذهب والفضة . وقد عثر على بعض الوثائق المماثلة فى اليصار Alizar ، وهى المدينة القديمة Ankuwa ، وكذلك فى بوغاز كوى .

وعثر فى كول‌تبه على الواح من طين ، وكانت نصوصها عبارة عن مراسلات بين شاروم — كن Sharrum-ken ابن آرشوم الأول ، واحدها محفوظ بمتحف الجامعة بفيلادلفيا (٢) . وكان موجها الى شخصية تجارية كبيرة هى : پوشو — كن Pushu-ken ، والتى كان يراسلها من قبل والده ، وأحيانا كان يخاطبه بالعبارة الآتية : « ولدى » . اما ملوك شاروم — كن فقد كان يخاطبه بالعبارة الآتية : « والدى » .

ولما مات پوشو — كن أشرف أولاده وبناته من بعده على أعماله التجارية . وقد جاء ذكر حفيد له ، وكان سميه على لوحة لم تنشر بعد من كول‌تبه .

وقد عثر فى كول تبه على لوحتين وقد ختم كل منهما بما يلى « أبى — سين Ibbi-sin ، الملك القوى ، ملك أور » . ومعنى ذلك فهناك احتمال أن هذه المنطقة وما حولها كانت تحت سلطان ابى — سين (٢٠٢٩ — ٢٠٠٥) .

---

(١) J. Lewy, "Some aspects of commercial life in Assyria and Asia Minor in the nineteenth pre-Christian Century." In J.A.O.S. 78 (1958), 99.

(٢) Op. cit. 99 f.

وفى الفترة التى قوى نفوذ الآشوريين فى آسية الصغرى ، كانت البلاد مقسمة الى دويلات المدينة ، وكان على كل دويلة حاكم من أهلها . ولم يزعج الآشوريون هؤلاء الحكام وتركوا حكم الولايات فى أيديهم ، وقد أصبح على حد تعبير الارتباطات والمعاهدات التى أبرمت بين العاهل الآشورى وحكام تلك الولايات ، ان كل أمير اصبح « ابنا » الملك آشور الذى كان يرسل عادة أحد بنات العائلة المالكة لتتزوج تابعه الجديد ، وكذلك كان يزوده ببعض وحدات من جيشه لتحمى ولايته ومملكة الملك (١) .

كان يقوم بعض التجار الآشوريين بمصاهرة أهالى الأناضول ، ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون هؤلاء لهم زوجات أخريات تركهن فى آشور .

كانت لهذه الجاليات معابدها الآشورية ، والهها الوطنى ، وبها تماثيل للاله وكل ما يلزمه من مقدسات وطقوس . وفى أحد الخطابات التى عثر عليها فى Kanesh بآسيا الصغرى كتبت احدى الادارات الى رآستها تشكو من اقتحام اللصوص معبد آشور المحلى واغتصابهم كل ما كان به من أشياء ذهبية وفضية ، من بينها شارة الشمس كانت تزين صدر الاله .

اما العنصر السامى الثانى الذى استوطن الأناضول أيام العهد الآشورى القديم ، هم من العنصر السامى ، الفرع الغربى ، وسماه الآشوريون الاموريين (٢) . وقد أقام هؤلاء أولا فى آشور وجاءوا الى آسية الصغرى فى ركاب التجار الآشوريين .

اما عن السلع التى كان يحملها التجار الآشوريون الى آسية الصغرى فهى الأقمشة ومعدن ، وكانت توضع الأقمشة فى قطع أخرى من القماش على هيئة حقائب لتحميها من تقلبات الجو وتحمل على حمر . والى جانب الاقمشة الآشورية ، فقد كان يقوم التجار الآشوريون بتصدير ما يستوردونه من التجار الأجانب مثل البابليين ، وكان يطلق على الاقمشة البابلية « الاقمشة الأكدية » . أما عن اثمان هذه الاقمشة فقد اختلفت تحت ظروف كثيرة أخصها العرض والطلب . وكان سعر الاقمشة فى آسية الصغرى يرتفع الى ما يقرب من ثلاث مرات من سعره فى آشور(٣) .

اما عن المعدن Annukum الذى كان يحمله التجار الآشوريون الى

---

(١) H. Lewy, "The historical background of the correspondence of Bahdi-Lim." In Or. n.s. 25 (1956), 343 f.

(٢) H. Lewy, "Amurritica." In H.U.C.A. 32 (1961), 23.

(٣) P. Garelli, Les Assyriens en Cappadoce, Paris, 1963, 289.

آسية الصغرى ، فقد أختلف العلماء فى معناه فبعضهم يرى انه الرصاص، والآخر يتصوره القصدير . ويرجح البعض انه غالبا الرصاص ، على اعتبار انهذا المعدن يوجد بكثرة فى حوض الزاب الكبير ، على بعد قريب من عاصمة آشور . ومما يدعم هذا الرأى انه عثر فى كل من كول تبه وآشور على أشياء كثيرة من الرصاص : اوانى ، تماثيل ، وتوابيت كبيرة ، بينما لم يعثر على اى قصدير فى كلا البلدين . وقد كان الرصاص لازما لاستخلاص النحاس من خاماته ، وهذا الأخير كانت صناعته متقدمة فى آسية الصغرى فى العهد الآشورى القديم ، من أجل ذلك استورده اهل الأناضول من آشور . ولكن حينما اكتشف أهل آشور أن بلادهم غنية بالجالينا Galena ، توقف استيراد الرصاص من آشور .

اما عن متوسط سعر الرصاص فى آسية الصغرى فى هذه الفترة ، فقد كان الشاقل الواحد من الفضة يعادله من ٦ ــ ٨ شواقيل من الرصاص . وكان يحمل الرصاص على حمر ، ولا يزيد ما يحمله الحمار عن ٢ ١/٢ تالنت (أى حوالى ١٥٠ رطل امريكى) . وكان التجار يفضلون بيع الحمر فى آسية الصغرى حتى لا يتكلفون نفقات اطعامها فى رحلة العودة .

ومن بين السلع التى تاجر فيها الآشوريون ، الصوف . وقد كان يؤتى بأحسن صوف من موقع يسمى Mana وهو مكان تلتقى فيه القوافل فى سهل البستان Elbistan فى شرق الأناضول ، ومن هذا المكان يصدر الصوف الى كل من كانش Kanesh بآسية الصغرى وآشور .

وقد كان يرسل الذهب والفضة التى يأخذها التجار الآشوريون الى آشور بواسطة رسل يثقون فيهم . وهؤلاء هم ايضا الذين كانوا يكلفون بنقل البريد بين العاصمة والولايات البعيدة .

* * *

الدولة الحثية القديمة

تمهيـــد

قبل أن نبدأ دراسة الدولة القديمة فى تاريخ الحثيين ، أرى من الخير أن أشـــير الى اللغة التى كانت سائدة فى هضبة الأناضـــول والى أصـــل الجماعات التى عاشت فى هذه الحقبة من التاريخ .

كان يطلق على اللغة التى ضمت الكثرة الغـــالبة من النصـــوص التى تحدثت عن تاريخ الحثيين « اللغة الحثية » لأنها كانت اللغة الرســـمية « لبلاد خاتى » . والى جانب اللغة الحثية ، لم تصلنا فقط وثائق كتبت باللغة الاكدية ، وهى اللغة الدولية فى هذا العهد ، ولكن ظهر أيضـــا أربع لغات أخرى كان الناس يتحدثون بها فى مناطق مختلفة من آسية الصغرى: الخاتيه Khattian ، واللويه Luwian والحورية Hurrian ، والپاليه Palaic . وقـــد كانوا غالبـــا يســـمون اللغـــة الأكدية « البـــابلية Babylonian » .

ومن هذه اللغات الخمس ، ثلاث : الحثية ، واللوية والپالية ، تنتمى الى عائلة اللغة الهندو ــ أوربية . وقد جاء اللويون غالبا الى الاناضول من الغرب عند بداية عهد البرونز ، وانتشروا على الهضبة فى نهاية هذا العهد ، وقد قضوا على حضارة سبقتهم لم نعرف أصحابها حتى الآن . وقـــد كانوا يشكلون اغلب سكان جنوب وغرب شبه الجزيرة . ومن النـــاحية الجغرافيـــة تعنى كلمة لويا Luwiya فى الوثائق الحثيـــة ولاية أرزاوا Arzawa التى لعبت دورا كبيرا فى التاريخ فى الألف الثانى قبل الميـــلاد كمنافس للمملكة الحثية ، ويمكن وضعها اما فى الغرب أو الجنوب الغربى . وكانت أيضـــا كيزوادنا Kizzuwadna ، فى كليكيـــا فى قديم الزمان بها جماعات من اللويين . وقد ظهرت أســـماء لوية فى النصـــوص الحثية ، وكذلك كتبت اللهجـــة اللوية بالحروف الهيروغليفيـــة ، وكانت تعـــرف « بالهيروغليفية الحثية » ، وكان يستخدمها الملوك الأواخر من الحثيين فى النصوص التى كانت تكتب على الآثار وفى اغراض أخرى .

ولابد أن المنطقة الشمالية الوسطى : أحواض الأنهار الآتية : صكرك

çekerek (سيكلاكس بالكلاسيكية) ، وديليسا Delice (كاپادوكس Cappadox بالكلاسيكية) كانت عامرة من أيام ما قبل التاريخ بالجماعات الغير هنـدو ــ أوربية والتي ظهـرت لغتهم في النصـوص تحت اسـم Khatti وهي مشتقة من التركيب Khattili ، من الجائز انها تكون مماثلة للكلمة الانجليزية Hittite . ولكن أصبحت هذه التسمية تطلق على مملكة خاتوشا Khattusha وتتصل باللغة الهندو ــ أوربية . من أجل ذلك كان من الواجب أن يفكر العلماء في تسمية أخرى للغات الغير هندو ــ أوربية . ولذلك اقترح بعض العلماء تسمية اللغات التي لا يرجع أصلها الى غير هندو ــ أوربية بما يلي : Khattian or Khattic وعلى ذلك فاللغة الخاتية Khattian لا تعرف اية علاقة لأية مجموعة لغوية .

والحثية مثل اللوية ، فهي لغة بناؤها هندو ــ أوربي ، ولكن اختلط بها الكثير من المفردات الغير هندو ــ أوربية .

وقد كانت البالية ، وهي اللغة الهندو ــ اوربية الثالثة منتشرة في منطقة تسمى Pala ، وقد كانت ولاية متطرفة في مملكة الحثيين . وقد اختلفت الآراء في تحديد مكان هذه الجماعات . وهي غالبا كانت تقع في الشمال الشرقي من أرمينية الصغرى (بالقرب من بايبورت Bayburt الحديثة) (١) .

وقد دخلت اللغة الحورية مؤخرا الى آسية الصغرى . ولقـد كان الحوريون أمة غير معروفة فيما وراء المرتفعـات الشرقية في السـنوات الأولى لظهور مملكة خاتوشا . وحتى بعد عام ١٥٥٠ ق.م. لم يتمكنوا من التأثير على الحثيين . والظاهر أنهم بدأوا يتسللون الى الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة التي كانت آهلة باللويين من قبل .

لقد وضـع ملكا كوشار Kushshar ، بيتخانا Pitkhana وانيتـا Anitta نهاية للاستعمار الآشوري حوالي عام ١٧٥٠ ق.م. وقد جاء في نصوص حثية من بوغاز كوى عن الملك انيتا بن بيتخانا تشير الى كيفية مد سلطانه وتوسـيع حدود ملكه ، حتى شملت اجزاء واسـعة شرقي الاناضول ، وقضى أنيتا على خاتوشيا العاصمة التي سنسمع عنها بعـد ذلك أيام ملوك الحثيين ، واتخذ لنفسه لقب « الملك العظيم » .

وعثر في كول‌تبه (كانش) على خنجر (٢) للملك أنيتا في بناء كبير هدم

(١) Or. 27 (1958), 244.

(٢) T. Ozgüç, "The daggar of Anitta" in Bulletin XX/77 (1956), 33-4.

في حريق اضرمت نيرانه كل ما بداخله . ومن الجائز أن أحد عساكر أنيتا قد تركه أثناء القضاء على المدينة . ولقد أقام الحثيون على أنقاض قصر أنيتا بناء آخر عاش حتى نهاية الامبراطورية الحثية . وقيل أن الحثيين هم الذين هدموا قصر أنيتا في كانش ـ نيشا (وهي التسمية القريبة من الصواب لبلدة كول‌تبه) .

الفترة الأولى

ينقسم تاريخ الحثيين على حسب ما جاء في وثائق عثر عليها في دور المحفوظات القديمة الى فترتين : اتفق على تسمية الفترة الأولى بالدولة القديمة ، والفترة الثانية بالامبراطورية أو الدولة الحديثة .

وقد ندرت وثائق الفترة الأولى وأغلبها بحالة غير جيدة ، ويتخذ جمهرة المؤرخين في هذه الفترة من مرسوم تيلپينوش Telepinush المحفوظ حفظا جيدا اساسا لمعرفة تاريخها . وكان تيلپينوش آخر ملوك الدولة القديمة . وتبدأ هذه الوثيقة بما يلي :

كان لابارناش Labarnash فيما مضى ملكا عظيما ، وكان أولاده ، واخوته وأصهاره وأقاربه وعساكره متحدين ، وكانت البلاد صغيرة ، ولكن أينما شمر الى قتال يقضي على بلاد أعدائه بالقوة . فقد دمر البلاد حتى أصبحوا لا حول لهم ولا قوة ، وجعل منهم حدودا للبحر . ولما عاد من المعركة ، ذهب كل من أولاده الى كل جزء من البلاد ، والى خوپيشنا Khupishna ، والى توانوا Tuwanuwa ، والى نيناشىشا Nenashsha ، والى لاندا Landa ، والى زالارا Zallara ، والى پارشوخاندا Parshukhanda ، والى لوشنا Lushna ، وحكموا البلاد ، وأصبحت المدن الكبرى في قبضة يده .

ثم اصبح خاتوشيليش ملكا ، وكان أولاده ، واخوته ، وأصهاره ، وأقاربه ، وعساكره بالمثل متحدين . وأينما سار الى قتال ، فقد كان يقضي على بلاد أعدائه بالقوة . فقد دمر البلاد حتى أصبحوا لا حول لهم ولا قوة وجعل منهم حدودا للبحر . ولما عاد من المعركة ذهب كل من أولاده الى كل جزء من البلاد ، وعادت المدن الكبرى مرة ثانية في قبضة يده .

لقد اصبح من الأمور المتعارف عليها عند الحثيين في العصور المتأخرة ان يبدأوا تاريخهم بالملك لابارناش . وكان يوضع هو وزوجه تاوان ناناش على رأس الاثبات الخاصة بتقديم القربان الى أرواح ملوكهم وملكاتهم السابقين . وقد اتخذت أسماء كل منهما كألقاب يحملها كل ملك وملكة من أيام تيلپينوش .

كان لابارناش ذكيا . ولم يعلن تيليبينوش بصراحة ابوته له أو انه الملك أو أنه السلف المباشر للملك خاتوشيليش الأول .

ومن الغريب ان الوثائق الحثية قد صمتت عن ذكر لابارناش وحدثتنا عن خاتوشيليش وولده مور شيليش الاول Murshilish I . ولم تذكر أبدا تلك الوثائق شيئا عن لابارناش وعن عهده . حقا اننا نجد غالبا اسم لابارناش ، ولكن كان غالبا يستخدم أساسا للملك خاتوشيليش نفسه ، وكذلك أيضا لابن اخيه الذى حاول ان يرث العرش من بعده ولكن حرم من الارث ، وفى فقرة واحدة فقط تشابه له ولد من جده لأبيه ، فذكر انه يشبه لابارناش الأول .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك كله : اما أن يكون خاتوشيليش قد تولى العرش تحت اسم لابارناش الثانى ولكنه اتخذ مؤخرا اسم خاتوشيليش ، أو انه اتخذ بالتناوب اسمه الشخصى خاتوشيليش مع لابارناش كاسم للعرش . وقد أعطانا هذا الملك مرة واحدة فى نصوص معاصرة اسمه خاتوشيليش وذلك فى بعض المآثر الحربية ، من حوليات الحثية ولها مرادف بالاكدية ، والى القارىء الكريم النص ومرادفه الاكدى .

النص الحثى

(كذلك) خاتوشيليش ، الملك العظيم

ملك خاتوشا ، رجل كوشار :

(حكم كملك) فى أرض خاتوشا

النص الاكدى

مارس الملك العظيم تابارنا (١) الملكية

فى خاتوشا ، ابن أخ تاوان ناناش

وكنا نتوقع أن نجد هنا اسم لابارناش الأول ولكن اهمل ذكره .

والى القارىء الكريم فقرة معاصرة جاء فيها ذكر لابارناش الكبير :

« لقد عين جدى ولده لابارناش (كوريث للعرش فى شاناخويتا Shanakhuitta) ، (ولكن بعد ذلك) رفض أتباعه ومواطنوه كلامه وأجلسوا پاپاخديلماخ Papakhdilmakh على العرش » .

---

(١) تابارنا النطق الاكدى

ونستطيع أن نستنتج من هاتين الفقرتين انه كان يوجد على الأقل في الجيل السابق لخاتوشيليش ، لابارناش وتاوان ناناش ، وان والد هـذا الابارناش كان ملكا قبله ، واو اننا لا نعرف اسم هذا الأخير ، انما هنـاك احتمال في أن يكون هو پو ــ شاروماش Pu-sharrumash بن تودخاليش الذى جاء ذكره بين الملوك والأمراء السابقين في أحد اثبات الاضاحى (١) وتحاول الوثائق الحثية أن تعترف بلابارناش ، وتوان ناناش ملكا وملكة . ولكن كره الحثيون زواج الأخ بأخته ، وكان جزاء من يفعل ذلك الاعدام ؛ ولانستطيع ان نتحقق ان كان لابارناش هذا كان اخا لتاوآن ناناش الذى كان أبا لخاتوشيليش . ولابد للخروج من تلك الصعوبة افتراض انه كان الابارناش أخت تزوجت شقيق تاوان ناناش واصبحت بتلك الزيجـة أما لخاتوشيليش .

ولابد لنا أن ندرك أن تيليپينوش ، على حسب بيانه نفسه ، قد عاش خمسة أجيال بعد لابارناش ، ومن الجائز أنه لم يكن يسجل تقليدا قائما وحيا وانما كان يحاول تصنيف تاريخ من الوثائق التى كانت موجودة في دار محفوظات ولايته ، كما فعل الملوك من بعده .

وعلى حسب ما ذكره تيليپينوش ، يصبح لابارناش السلف السـابق لخاتوشيليش ، الذى قاد أمة الحثيين آلى طريق النصر ووسع حدودها الى البحر . ولكن يجب أن نحذر من هذا الرأى لأن نفس العبارات التى وصـفت حكم لابارناش كما سبق أن بينا هى نفسـها التي وصفت حكم خاتوشيليش . فهل لنا أن نفترض أن كتاب تاريخه قد خدعوا بالاستخدام الكثير الغـامض لاسم لابارناش من جانب الملك خاتوشيليش في نصوصه القديمة ؟ والله وحده يعلم .

وسيبقى مرسوم تيليپوش على الأقل حقيقة طيبة للمؤرخ يستطيع أن يسـتدل منها على أن توسـع المملكة الحثية قـد بدأ بادماج الاراضى الجنوبية لحوض نهر قيزيل ارماك Kizil Irmak (هاليس) حيث توجد الولايات الآتيـة : توانوآ (تيـانا الكلاسيكية) ، وخوپيشننا (سيبسـترا الكلاسيكية) وكذلك من الجائز ايضا نيناشـشا وزالارا . وليس من شك في أن هذه المرحلة قد تمت قبل أيام لابارناش لأن أولاده قد قاموا بادارة هذه المناطق فيجو هادىء عند عودتهم من حملات والدهم . وقد دخل الحثيون مرتفعات طوروس في هذه الفترة الغامضة من تاريخ الحثيين .

على أن التـاريخ الصـادق للحثيين يبـدأ بحـكم لابارناش الثانى

---

(١) O. R. Gurney, The Hittites, Pelican Books, Ed. 3. London 1961, 216.

خاتوشيليش وليس بحكم لابارناش الاول ، وبذلك تنتظم حلقات سلسلة تاريخ الحثيين بعـد تلك الفترة الغامضـة التى تلت أنيتـا صـاحب كوششار .

عديدة هى الوثائق التى وصلتنا من أيام لابارناش الثانى ، أولها النص السابق الاشارة اليه والذى كتب بلغتين . وقد رأينا انه لقب فى النص الحثى « بملك خاتوشا ، رجل كوششار » ، وقـد ظل اسـمه فى وعى الزمن قرون عدة ، فهذا أحد الملوك قد تسمى باسمه ، وهو خاتوشيليش الثالث . وتعنى العبارة التى وردت فى هذا النص والتى تصفه بأنه « رجل كوششار » ومع انها استخدمت وقت ان كان ملكا على خاتوشا ، الا انها تدل على وفاء الرجل الى منبت رأسه كوششار ، التى كانت مقرا أصيلا لأسرته ، على أن أسلافه القـريبين لم يذكروها فى وثائقهـم . كمـا أننا نستطيع أن نستنتج أيضا من هذا النص الحثى أن احتمال اعتبار هؤلاء الحكام سلالة مباشرين لپيتخانا Pitkhana وانيتا امر صعب قبوله .

واذا صح أن العاصمة قد نقلت من كوششار الى خاتوشا ، فان ذلك هو التفسير الصحيح لتغيير اسمه ، فخاتو شيليش « رجل خاتوشا » هو لقب اتخذه هذا الملك ليخلد ذكرى انتقاله اليها .

وتقع خاتوشا فى منطقة محصنة بالمرتفعات التى تحتل قطاع الدائرة الشمالى للهضبـة داخل حنية نهـر هاليس . وقد استقرت الجماعات الأولى فى المنطقة المرتفعة والتى يطلق عليها حاليا بويوكالا Büyükkale والتى تعلو قرية بوغازكوى Bogazköy التركية . وقد حصنت من الشرق بسد شديد الانحدار لنهير يسمى بوداك وزو Budak Özü ، واخيرا حينما اتسعت بويوكالا ، انتشرت المساكن فى الغـرب والشمال أسفل منحدر الجبل .

وأما عن موقع المدينة كعاصمة لمملكة تضم معظم المناطق الوسطى من هضبة الاناضول فهو لايتفق من ناحية صلاحية موقعها فى مركز دائرة يمكن الجهاز الادارى للملكة الاشراف بسهولة على جميع أطرافها ، خصوصا بعد أن اتسعت رقعة تلك المملكة فأصبحت العاصـمة بعيدة . واذا كان الملك قد اختار هذا الموقع عن قصد ليكون عاصمة ، فانه كان متأثرا بدون شك باعتبارات استراتيجية ليأمن هجمات أعدائه .

وقد وصف النص المزدوج السابق الاشارة اليه حوادث السنوات الست لهـذا الملك : ففى السـنة الاولى شن غارات على « شاخويتها Shakhiutta » و « زالپار Zalpar » ، وقد عرفت المدينتان بعد ذلك

تحت اسم شاناخويتا Shanakhiutta وزالپا Zalpa . وغالبا ما تقع شاناخويتا فى وادى كانك سو Kank Su ، أو فى وادى هاليس العلوى ، فيما وراء سيڤاس Sivas . اما زالپا ، فقد كانت موقعا لمستعمرة اشورية فى العصر السابق ، وقد كان أهلها من المنافسين الأقوياء عند قيام المملكة الحثية (٠) وقد قام ملك زالپا قبل أيام انيتا مباشرة بغزو مدينة نيشا (كانش Kanesh = كول تبة) واخذ تمثال الهها المحلى . ولكن أعاده أنيتا ملك نيشا الى مكانه . وقد جاءت حروب ملوك خاتى ضد زالپا فى نص مشوه ، أسلوبه اسطورى . وغالبا ما تقع زالپا الى الشرق أو الجنوب الشرقى من خاتوشا . ولكن يحاول بعض العلماء أن يضعها الى الشمال من خاتوشا (١) .

اما السنة الثانية من حكم خاتوشيليش ، فقد سجلت فيها حوادث هامة : « فى السنة التالية سرت الى الخالخا Alkhalkha (وهى المرادف الالخا Alalkha) ، ودمرتها ، وبعد ذلك اتجهت الى ورشو Urshu (وهى المرادف وارشوا Warshuwa) ، ومن وارشوا سرت الى اجاكاليش Igakalish ، ومن اجاكاليش سرت الى تاشخينيا Tashkhinya (وهى مرادف لتيشخينيا Tishkhiniya) . وفى طريق عودتى دمرت بلاد ورشو وملأت بيتى بالكنوز » .

غالبا ما تكون الالخا (الخالخا) هى الالاخ Alalakh الواقعة فى سهل انتيوخ Antioch . ومن ذلك النص ، نلاحظ أن خاتوشيليش فى بداية حكمه قاد حملة الى سهول سورية . ولابد أن الحثيين قاموا باختراق احدى ممرات جبال طوروس للوصول الى تلك السهول . ويحتمل جدا أن يكون هذا الطريق هو الذى كان يؤدى الى أبواب كليكيا التى غالبا ما كانت خاضعة للحثيين . وان الكشف عن مركز اناضولى للتجارة فى طارسوس يشير الى التوسع الحثى حول هذه الفترة ، كما أن الحصن الحثى الذى كشف فى مرسين Mersin والذى بنى فى الفترة نفسها يدعم فكرة امتداد سلطان الحثيين الى تلك المنطقة .

لقد ادعى خاتوشيليش أنه دمر الالاخ فى غزوته هذه . وبعد فحص الطبقات التى تضم آثار الالاخ . وجد ان هذه الفترة قد وقعت حوادثها عند الطبقة السابقة من الحفائر التى أجريت فى المنطقة الأثرية ، وقد قدر لها التاريخ التالى : ١٦٥٠ — ١٦٣٠ ق.م .

وبعد ان استولى خاتوشيليش على الالاخ تقدم للقضاء على ورشو Urshu ، واجاكاليش Igakalish ، وتاشخينيا Tashkhiniya

ولم يستطع أحد حتى الآن معرفة موقع المدينتين الأخيرتين . اما ورشو فقد أمكن تحديدها بشكل مؤكد على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، الى الشمال من كركميش . وقد دمرت ورشو فى رحلة العودة وقدمت الجزية . ومن الغريب فى هذه الرواية الصمت عن الاشارة الى الپو Aleppo (حلب) التى ينتظر ان مليكها قام بمعاونة تابعه ملك الالاخ ، أو انه على الأقل حاول عرقلة تقدم جيش الحثيين . ومن الجائز أن خاتوشيليش قد انتهز فرصة وجود نزاع فى حلب ، نتيجة ادعاء اميتا قوم Ammitaqum صاحب الالاخ الاستقلال ، وعلى ذلك كان ملك حلب عاجزا عن معاونة جاره حينما دقت ساعة الخطر .

وفى السنة التالية تقدم خاتوشيليش من عاصمته لغزو ارزاوا Arzawa . وتعد هذه الاشارة فى تاريخ المملكة الحثية من اقدم وثيقة فى الصراع الذى قام به ملوك الحثيين من أجل السيطرة على شبه جزيرة الاناضول ، وستصبح ارزاوا فى القرون المقبلة من أقوى المنافسين للحثيين. وكان يمتد سلطانها الى الغرب أو الجنوب الغربى من خاتوشيا وكان لحكامها مقر ملكى على ساحل البحر . ونتيجة لانشغال خاتوشيليش بالصراع مع ارزاوا تعرضت حدوده الشرقية لهجمات قوات وصفها النص الاكدى بـ « خانيكالبات Khanikalbat » ، ووصفها النص الحثى بـ « الحوريين Hurrians » . وقعت البلاد كلها فى قبضة يدهم فيما عدا خاتوشا . وهنا يأتى ذكر الحوريين ، وهى اقدم اشارة فى التاريخ الحثى عن أمة سوف تؤثر على الحضارة فى آسية الصغرى . وغالبا ان الحوريين غزو شمال بلاد الرافدين فى هذا الوقت حينما دب الضعف فى جسم الأمة الاشورية . ولكن شمال سورية كان فى فترة من الفترات قد تسلط عليه الحوريون ، ومن الجائز ان سكان سورية من هذه الفترة قد شاركوا فى غزوالاناضول . وقد فوجىء خاتوشيليش بهذا التهديد ، فتخلى عن غزو ارزاوا واتجه نحو حدوده الشرقية . وقد جاء ذكر ثلاث مدن كانت موضع انتقام خاتوشيليش وهى : نيناششا Nenashsha ، وولوما Ullumma، وشالخشوا Shallakhshuwa .

وقد شغل الملك فى السنتين المقبلتين فى عمليات محلية . وفى الحملة الرابعة اتجه نحو « شاناخوت Shanakhut » ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها فى السنة الأولى . واخذها بعد ستة شهور من حصارها. واستولى الحثيون فى السنة الخامسة على الاها Alahha التى لم يستطع أحد حتى الآن تعين مكانها .

وفى السنة السادسة عبر خاتوشيليش مرتفعات طوروس ، متجها الى مدينة خاششو Khashshu ، وهى مملكة حورية تقع الى الغرب من الفرات وقد قاومت المدينة وعاونتها فرق حلب التى ظهرت هنا لأول مرة . وقد هزم السوريون هزيمة منكرة ، وتقدم خاتوشيليش نحو خاششو ودمر المدينة . ثم تقدم بعد ذلك للقضاء على مدينة خاهو Khahhu . وفى الطريق استولى على مدينة زيپاشنا Zippashna ثم قضى على قوات خاهو ، ودمر المدينة ونهبها وساق مليكها الى الاسر . وجدير بالذكر أن خاتوشيليش يتباهى بقيامه بقيادة وحداته عبر الفرات (كان يسمى نهر الفرات بالحثية Mala) للقضاء على خاهو التى يقع جزء من أرضها على الضفة الشرقية للنهر .

وحينما اعيد جمع تاريخ الأجيال المستقبلة ، اتضح أن حكم خاتوشيليش قد ملء بالحروب السورية وأن عدوه اللدود كان مملكة امخاد Iamkhad (حلب) . وقد جاء فى الخبر فى معاهدة متأخرة انه فى « غابر الأزمان كان ملوك حلب لديهم مملكة كبيرة ، وان خاتوشيليش قد ملأ مملكتهم بالذعر ، ولكن مورشيليش دمرها » . وتشمل الفقرة الثانية ما يشير الى ان خاتوشيليش بدأ مهاجمه اراضى هذه المملكة ، والقضاء عليها . والظاهر انه فشل ، وغالبا ما تلقى ضربة قاتلة . لأننا عرفنا من نص مشوه يوجز أعمال الحثيين ضد حلب جاء فيه أن « مورشيليش (الابن بالتبنى وخليفة خاتوشيليش) تقدم نحو (حلب) لينتقم لابيه ، واثناء تقدم خاتوشيليش نحو حلب (الى ولده) ليتباحث معه ، قام (مورشيليش بمعاقبة ملك حلب » واصدر خاتوشيليش مرسوما يتوعد فيه حلب : « ان رجل مدينة زالپا Zalpa رفض كلمة الوالد ، سوف ترى مدينة زالپا تلك ! ان رجل مدينة خاششوا Khashshuwa رفض كلمة الوالد : سوف ترى مدينة خاششو تلك ! والآن حتى رجل مدينة حلب رفض كلمة الوالد : سوف تدمر حلب » .

والقت رواية حثية حديثة بعض الضياء على هذه الحروب السورية، وعلاقة الالاخ بحلب وبشخصية عاشت فى تلك الفترة تسمى زوكراشى Zukrashi ، وكان قائدا لملك حلب . ولقد جاء فى النص الحثى أن هذا القائد ومعه قائد آخر هو اومان ماندا Umman Manda جاء بوحدات لتعاون ملك خاششو Khashshu حينما كان يقاوم الملك الحثى . وفى نص آخر ذكر اسم ملوك حلب : اريمليم Iarimlim وولده حمورابى Hammurabi . وقد أمكن استنتاج ان هذه الحوادث تصف حملة ضد خاششو وقعت فى السنة السادسة ، بعد أربع سنوات من تدمير الالاخ. ولم يستطع أحد معرفة معانى لذكر اومان ماندا فى هذا النص .

ولدينا نص آكدى من ايام خاتوشيليش الاول (١) ، وموضوعه عبارة عن قصص نادرة عن عـــدم كفاية الضباط الحثيين ، ولكن يضم وقائع تاريخية لها قيمتها . وكان الملك يدير العمليــات الحـربية من مدينة لوخوزانتيا Lukhuzzantiya ، الواقعة عند أسفل مرتفعات طوروس من شرقى كليكيا (بالقرب من البستان Elbistan) . وكانت ورشو Urshu غالبا على صلة بولاية حورى Hurri ، وبمدينة حلب ، ومدينة أروار أو زاروار Zaruar ، وكذلك من الجائز أيضا أنها كانت على صلة بمدينة كركميش ، وقد تخبأت القوات فى جبل يطل على المدينة ويراقبها . وقد جاء ذكر القضــاء على بلاد ورشو فى الحوليات المزدوجة الســابق الاشارة اليها فى السنة الثانية من حكم خاتوشيليش ، وأما خاششو فلم يأت ذكرها الا فى السنة السادسة .

لقد سلك خاتوشيليش طريق لابارناش فى أنه جعل حدوده ساحل البحر . أما فى الشمال ، فقد جاء فى الخبر فى المعاهدة التى سبق الاشارة اليهــا أن لابارناش ــ خاتوشيليش قــد قــوى حــدوده على نهــر كومشماخش (٢) Kummeshmakhash . ولقد كان يقع هذا النهر فى منطقة بعيدة لم يكن ليزورها ملوك الحثيين ، وقد ذكر Güterbock (٣) احتمال أن يكون هو نهر يصيليرماك Yeçilirmak (ايريس Iris) . واذا صح أن ارزاوا كانت تقع فى أملاك خاتوشيليش الاول أو سلفه السابق لابارناش فمعنى ذلك أن هؤلاء الملوك الأول قد مدوا سلطانهم فى الحدود الجنوبية الغربيــة مثلما سيفعل خلفــاؤهم فى القــرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ولكن فى الايام الاخيرة لحكم خاتوشيليش تعرضت المملكة للانقسام والفوضى . فهكذا أحد أولاده عين حاكما على تاپاششاندا Tapashshanda (غير معروفة) ، واستجاب للمتمردين من المواطنين وعوقب على خيانته . وفى الوقت نفسه قام أهالى خاتوشا نفسها بالتقرب الى شخصية وصفت كأنها « ابنة » (وغالبا ما تكون ابنة الملك) وحملوها على قيادة ثورة كانت نتائجها وخيمة . كذلك ولد آخر ، خاكارپيليش ، كان قد ارسل ليحكم زالپا بناء على رغبة شيوخها ، دبر ثورة لم يعرف نتائجها .

من كل ما تقــدم نلاحظ أن احــدا من عائلة خاتوشيليش لم يصبح

---

(١) O. R. Gurney, The Hittites. Pelican Books. Ed. 3. London, 1961, 178-9.

(٢) J. Garstang, and O. R. Gurney, The Geography of the Hittite Empire. London, 1959, 119.

(٣) H. G. Güterboch, in J.N.E.S. 20 (1961), 96.

مخلصا له . والظاهر انه لم يكن له ولد يخلفه ، واضطر الى تبنى ابن اخته ، وكان يدعى أيضا لابارناش . ولكن تبين ان هذا أيضا لم يكن مخلصا له . فقد وصل الينا حديث للملك وهو على فراش المرض فى كوشار . والظاهر انها لا زالت مقبرا محبوبا لديه ، مع أن عاصمته الادارية ، اعلنت عدم احقية لابارناش ، وأخيرا تبنى ولدا كان يسمى مورشيليش Murshilish غالبا كان حفيده .

والى القارىء الكريم فقرات من حديث خاتوشيليش الذى نشعر فيها بأسى ومرارة :

انظر ، لقد مرضت ، لقد ناديت بلابارناش قائلا (سوف يجلس على العرش) ، لقد سميته ابنى ، عانقته (؟) ، وحرصت عليه باستمرار ، ولكن ظهر انه شاب لا يصلح ، فلم يذرف الدمع ، ولم يظهر رحمة ، انه بارد وقاس . . . لم يضع كلام الملك فى قلبه ، ولكن وضع فى قلبه كلام أمه الأفعى . . . كفى ! لن يصبح ابنى بعد ذلك . . . وبعد ذلك جارت أمه كالثور : « انهم شطروا رحمى فى جسمى ! لقد هدموه ولسوف نقتله ! » هل فعلت به شر وانا الملك ؟ . . والآن سوف لا ينزل مرة اخرى (من المدينة) حرا (كما يرغب) . تأمل ، لقد منحت ولدى لابارناش بيتا . لقد اعطيته (ارضا خصبة) كثيرة ، واعطيته (غنما) بوفرة . دعوه يأكل ويشرب . (وطالما انه بصحة) ربما يعود الى المدينة . (ولكن) اذا ظل فى موقفه كمدبر (للاضطراب ؟) . . . فسوف لا ينزل ، ولكن سوف يبقى (فى منزله) .

انظر ، الآن أصبح مورشيليش ولدى . . . فى موضع الاسد (فان الاله سوف يعين أسدا آخر ؟) . وفى ساعة الدعوة لحمل السلاح ، تقدم . . . أنت ، واتباعى ، ومواطنى القادة ، يجب أن تكونوا (رهن الاشارة لمعاونة ولدى) . (واذا أمضى ثلاث سنوات ، سوف يذهب للغزو . . . واذا اخذته (وهو صبى) معك فى حملة ، أحضره ثانيا (سليما) ! . .

(لقد أساءت الى شخص البنت) ، والى اسمى . . . لقد نبذت كلام الوالد جانبا ، لقد رضعت دم حياة (أبناء خاتى) . والآن (لقد نفيت من المدينة) . . . لقد (خصص لها منزل) فى القرية ، ولها أن تأكل وتشرب ، (ولكن) لا يجب أن تفعل (بها أذى) . لقد ارتكبت اثما ، سوف لا (اعاملها بالمثل) . انها لم (تنادينى) ابى ، سوف لا اسميها أبنتى .

وحتى الآن لم يستجب أحد (من عائلتى) لرغبتى . (ولكن انت ، يا بنى) مورشيليش ، يجب أن تحقق تلك الرغبة . احترم عهد (والدك) . واذا ما احترمت عهد والدك سوف (تأكل خبزا) وتشرب

ماء . وحينما تبلغ رشدك ، فلتأكل مرتين أو ثلاثا فى اليوم ، وأحسن الى نفسك ! وحينما تصل الى ارذل العمر ، عليك أن تشرب بشره ! عند ذلك لك الخيار فى ترك عهد والدك .

(الآن) أنت صفوة اتباعى ، ويجب أن تحافظ على عهودى . سوف تأكل فقط خبزا وتشرب ماء . سوف تبقى خاتوشا مرتفع شأنها ، وسوف تبقى بلادى فى (سلام) . ولكن اذا لم تحافظ على عهد الملك ... سوف لا تبقى على قيد الحياة ، وسوف تفنى .

وأنت (مورشيليش) سوف لا تتأخر ، ولا تتراخى . واذا ما تأخرت (فسيصبح معنى ذلك) انك فعلت نفس الأذى القديم ... ولدى افعل ولدى أفعل دائما ما يمليه عليك قلبك (١) .

ويعلق جرنى على هذا النص بأنه فريد من نوعه فى الأدب المسمارى بقوله أن اقرب شيء يشبه به فى الأدب التعليمى المصرى هو تعاليم مرى كارع وتعاليم أمنمحات الأول . ولكنه يتشكك كثيرا فى امكان وجود تأثير ثقافى وصل الى الأناضول فى هذه الفترة (نهاية الدولة الوسطى فى مصر الفرعونية أو بعدها بقليل) بالرغم من أنه أشار الى العثور على تماثيل من الأسرة الخامسة فى اسية الصغرى وسورية .

واعتقد ان تعاليم أخيتوى الثالث لولده مرى كارع قـــد امتازت بالمهارة والكفاية فى الحديث ، وهى تعاليم شيخ كهل ملء عهده بالحروب والكفاح ، اذ دارت بينه وبين أهل الجنوب (طيبة) حرب من حول اقليم طينة . ولم يقتصر امر هذه التعاليم على شئون الحرب والسياسة بل فيها الكثير من الحكم والامثال ويختم حديثه لولده بقوله « دع الدنيـــا جميعها تحبك » . وتعاليم امـــنمحات الاول لولده سنوسرت الاول ، صدرت من والد ملك قد تعب كثيرا فى سبيل الوصول الى العرش وتعرض لكثير من المخاطر وان مؤامرة دبرت لقتله . وفى لغته نحس بمرارة واسى من اقرب الناس كما رأينا تلك المرارة التى لمسناها فى حديث خاتوشيليش فهذا أمنمحات يخاطب ولده قائلا « لا تملأ قلبك بأخ أو صديق ، ولاتجعل لك خلصاء ـ ذلك مما لن تحمد عقباه . . لقد أعطيت الفقير وآويت اليتيم .. ولكن الذى أكل زادى هو الذى قاد جندا .. والذين ارتدوا أفخر ثيابى هم الذين نظروا الى كخرقة بالية » .

---

(١) انظر الترجمة الاخيرة كما قمت بتقديم بعضها اعتمادا على ما نشره اخيرا عام ١٩٦٢ (راجع) :

O. R. Gurney, Anatolia. C. 1750-1600 B.C. in The Cambridge Ancient History (1962), 21-22.

وجدير بالملاحظة ان الاقواس التى على هذه الصورة ( ) يحتمل أن تكون موجودة وضاعت هى احتمالات من المترجم .

وقد قمت بالتعليق على الادب في الدولة الوسطى في كتابى « مصر الخالدة » بما يلى :

« كلاهما (أى تعاليم مرى كارع وامنمحات الاول) قد تمتع بشعبية كبيرة ، ودام تداوله بين الناس فترة من الزمن طويلة . لقد استمد والد مرى كارع هذه التعاليم من تجاربه الطويلة واخطائه التى ارتكبها فى حياته العملية ونصح ولده بالسياسة التى يجب ان يتبعها فى ادارة جهـــــاز الحكومة . »

ليس من شك فى أن الملكين فى مصر أو فى آسية الصغرى كانا يهدفان الى الحرص على العرش لاحد أفراد اسرتيهما وانهما نصحا من سيتولاه بأسلوب متشابه . وطالما انه كانت توجد علاقة بين مصر واسية الصغرى وسورية منذ العصور السالفة اكدتها أيضا بعض المكتشفات التى عثر عنيها من الدولة القديمة فى تلك المناطق وكذلك ورود جماعات من آسية الى مصر فى الدولة الوسطى « وقـــد سعدت مصر ايام سنوسرت الثانى فوفد اليها بعض الساميين من الصحراء ، ومما يدل على حسن روابط الجوار ما نشاهده على قبر خنوم حتب الثانى ، وهو منظر يمثل قــدوم جماعة من العامو فى السنة السادسة من حكم سنوسرت الثانى . . على أية حال فان هذه الجماعة اعطتنا صورة صادقة عن تبادل الزيارات بين مصر وآسيا . وجدير بالذكر ان الاسيويين قد كثر مجيئهم الى مصر أيام الاسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة رجالا ونساء فى أعداد كبيرة يعملون فى منازل الاغنياء » .

كل ذلك يدفعنا الى القول بوجود تأثيرات خصوصا وان الادب المصرى فى هذه الفترة كان فى عصره الزاهر . وأن المصريين كانوا يرتادون تلك المناطق ويتركون فيها بعض الاثار كما سبق ان أشرنا . ثم أخيرا رحلة سنوهى الى آسية واقامته هناك ، وقد اشتهر ــ الى جانب صـــفاته الكثيرة ــ بطلاقة الحديث وقـــد تربى فى قصر الملك . وبعد أعتقد اننا لا نستطيع ان نهمل ما يتشكك فيه جورنى بل اننى أؤكده فليس هناك من باس فى وجود تأثير حضارى من قطبى الحضارة فى هــــذا العصر مصر والعراق على آسية الصغرى وشمال سورية .

ولكن جورنى يوضح أهمية أخرى لنص خاتوشيليش وهو الظهور الفجائى للخط المسمارى فى تلك الفترة . لان نص Anittash ، وهـــو الوثيقة الوحيدة لدار المحفوظات والتى ترجع الى عهد متقدم ، يحتمـــل أنها لم تصنف فى شكلها الحالى ، ولا يمكن الاعتماد عليها كحقيقة تؤيد كتابة اللغة الحثية بالمسمارية فى القرن التاسع عشر ق.م. والظاهر ان

أقدم نص صنف بالحثية القديمة يرجع الى السنوات الاخيرة من حكم خاتوشيليش . ويمكننا أن نتصور ان كتاب المسمارية قد جاءوا من بلاد الرافدين الى العاصمة الحثية وتعلموا كتابة اللغة الحثية .

غادر خاتوشيليش الدنيا وكان مورشيليش قاصرا ، فعين پيمپيراش Pimpirash (أو بيمبراش Bimbirash) أخو الملك الراحل وصيا عليه حتى بلغ سن الرشد .

كان أول شيء اهتم به هو الانتقام لابيه وذلك بتصفية حسابه مع حلب ولم تصلنا تفاصيل عن الخطوات التى اتخذها مورشيليش ، ولكن هناك أكثر من وثيقة تسجل انهيار حلب على أيدى مورشيليش . وغالبا ان معنى ذلك القضاء على مملكة امخاد Iamkhad التى حكمت شمال سورية منذ أيام حمورابى البابلى .

ذكر تيليپينوش أن مورشيليش قضى على بابل وهزم الحوريين . وقد جاء وصف هزيمة بابل فى صدى كتابات بعض الاجيال المتأخرة حينما كان يتباهى الحثيون ببراعة أسلحتهم التى لم يكن لها مثيــل بين ملوكهم . كذلك يتميز هذا الحادث بأنه الوحيد فى التاريخ الحثى القديم الذى تأيد بمصادر خارجية . فحينما سجل البابليون نهاية الاسرة الاولى البابلية ذكروا : « فى أيام سامسو ديتانا Samsuditana (١٦٢٥ — ١٥٩٥) تقدم رجال من خاتى نحو بلاد أكد » . وبذلك نجد هنا رابطة بين التأريخ الحثى والبابلى ، لانه اذا صح أن سامسو ديتانا مات عام ١٥٩٥ ق.م. فلابد أن الغزو الحثى قد حدث اما فى هذه السنة أو بعد ذلك بقليل . وقد أثار هذا الموضوع أسئلة لم يتمكن العلماء من الوصول فيها الى حلول مؤكدة . لان نتيجة انتصار الحثيين لم ينجم عنها استعمار حثى على بابل بل احتلال الكشيين لبابل . ولماذا اذن قام الملك الحثى بهذه الغزوة طالما أن نتائجها لغيره ؟ وكيف تمكن الجيش الحثى من التقدم مسافة خمسمائة ميل حتى الفرات دون ان تعترضه أية جيوش ويقضى على مدينة كانت من مدة أجيال قليلة عاصمة لامبراطورية كبيرة ؟ ومتى اصطدم مورشيليش فى تلك الغزوة بالحوريين وهزمهم ؟

وقد وصلت الينا وثائق من حنا Khana على الفرات الاوسط ، عند مصب نهر الخابور ، ألقت ضوءا كبيرا على هذه الاسئلة . كانت هذه المنطقة ، فى فترة من الفترات جزءا من مملكة مارى ، التى استولى عليها حمورابى صاحب بابل عام ١٧٦١ ق.م. وظلت فى قبضة البابليين على الاقل حتى أواخر حكم ساموسيلونا Samsuiluna (١٧٤٩ — ١٧١٢) وقد استقلت ايام ابيشو Abieshu (١٧١١ — ١٦٨٤) أو ايام اميديتانا

وقد عرف على الاقل ستة ملوك حكموا فى حنا وقد عاصروا أربعة ملوك من الاسرة البابلية الاولى (انظر الثبت الموجود فى صفحة ٢١٤ وما بعدها)، وقد سجلت فى أيامهم الاثار الاولى للكشيين فى بلاد الرافدين ، وقدحمل احد ملوك حنا اسم كشى . والآنستطيع أن نصدق أن الملوك الكشيين الاول والذين حكموا بعد ذلك بابل تحت اسم الاسرة الثالثة ، كانوا من نفس هذا العهد . وعلى ذلك يحتمل انه كانت توجد فى هذا الوقت مملكة كشية فى مكان ما بوسط بلاد ما بين النهرين ، وكانت على صلة بمملكة حنا عند مصب الخابور ، والله وحده يعلم . وواضح انه فى عام ١٥٩٥ لايمكن لمورشيليش أن يهاجم بابل دون أن يمر على هذه المنطقة ، واذا صح أنها كانت تقع فى دائرة الكشيين ، وواضح لنا انه لم يهزمهم ، فلا بد اذن أنه كان حليفا لهم . وعلى ذلك فلا بد ان الكشيين هم الذين بدأوا بمهاجمة البابليين . ولنا ان نفترض ان الحثيين قد دعوا للمعاونة ووعدوا المشاركة فى غنائم الحرب . تلك الاسلاب التى جىء بها الى خاتوشا وسجلت فى وثائق الحثيين . وفى الامكان ان نتصور أن مورشيليش حالف الكشيين ليجعل منهم درعا واقيا له من هجمات قوة الحوريين الناشئة وعلى أية حال ، فان هزيمة بابل لن تكون على أيدى مورشيليش بل كانت على ايدى الكشيين .

اما الاشارة التى جاءت فى الحديث السابق عن الحوريين فلا زالت غامضة . لابد ان نفترض أن هزيمتهم متصلة بالقضاء على حلب ، لاننا سبق أن رأينا أن خاتوشيليش قد نازل الحوريين فى هذه المنطقة . وعلى ذلك حينما سجل تيليبينوش هزيمة الحوريين بعد القضاء على بابل ، فلا بد أنه وضع الحادثين كل مكان الاخر . وخلافا لذلك لا بد أن نستنتج أن الحوريين قد قاتلوا مورشيليش حين عودته الى اسية الصغرى .

عاد مورشيليش الى خاتوشا وفى ركابه اسلاب كثيرة ، لكنه لم يعمر طويلا ليستفيد من هذا الانتصار . فقد مرت البلاد بفترة اضطراب داخلى فبعد عودته بعام تقريبا أو عامين اقنع خانتيليش Khantilish ، زوج اخته خارآپشيليش Kharapshilish زيدانتاش Zidantash الاشتراك فى مؤامرة . وقد قتل مورشيليش ، وتولى العرش بعده خانتيليش .

وعلى ذلك انتهت الفترة الاولى من التوسع الحثى . فغالبا أن مورشيليش لم يتخذ خطوات ايجابية لتدعيم سلطانه ولتثبيت نجاحه الذى احرزه وأن اغتياله يعد بداية فترة المحن التى قربت مملكة الحثيين من شفا جرف أوشك على الانهيار .

الفترة الثانية :

جاء فى الخبر انه بعد أن اغتال خانتيليش مورشيليش تملكه الخوف ، وتصف النصوص انه مر بفترة عصيبة وذلك أثناء قيامه بحرب غالبا ضد الحوريين ، وعاد منها بعد ذلك الى تجاراما Tegarama (غالبا ما تكون جورون Gürün الحديثة الواقعة غربى ماليتيا) وقد ظلت الالهة وراءه لتنتقم من دم مورشيليش . فعاد الى خاتوشا ، ولكن الظاهر ان الحوريين كانت لهم الغلبة واضطربت البلاد . وقد جاء فى فقرة من النص الاكدى لاحد المراسيم يفترض احتمال وقوع زوج الملك ، خاراپشليش ، وأولادها، فى قبضة الحوريين ، وجىء بهم الى شوجزيا Shugziya (لم يتمكن أحد حتى ان من معرفتها ولكن غالبا ما تقع فى مرتفعات طوروس) حيث قتلوا .

مات خانتيليش فى سن متقدمة ، ولو أن مرسوم تيليپينوس ، بحالته الراهنة لم يمدنا بمعلومات مفصلة عنه الا أن حكمه كان طويلا . والوثائق المعاصرة قليلة . ففى أحد الوثائق يتباهى خانتيليش بأنه هو اول من قام ببناء مدن محصنة فى البلاد وانه هو الذى حصن خاتوشا نفسها . وجاء فى اخبار بعض النصوص المتأخرة بأن الحثيين فى الشمال قد تعرضوا للكوارث فى عهده . لقد استولت جماعات كاسكا Kaska (أوجاسجا Gasga) على المدينة المقدسة نريك Nerik وظلت مهملة ما يقرب من خمسمائة سنة . لقد أصبحت مدينة تيليورا Tiliura نقطة امامية للجيش ووقعت فى قبضة الغزاة . وان ظهور جماعات كاسكا هذه سيشكل تهديداً للحثيين منذ ذلك الوقت ، وان ضغطها كان على الاراضى الحثية من الشمال ، وكذلك هجمات الحوريين من الجنوب كل ذلك كان سببا فى ضرورة قيام الحثيين بالدفاع عن حدودهم ولكن لم يستطيعوا المحافظة على تلك الحدود ووقعت البلاد فريسة لهاتين الجماعتين أثناء حكم خانتيليش .

نعود مرة أخرى الى رواية تيليپينوش لنرى فيها الحوادث المتلاحقة فى الايام الاخيرة لحكم خانتيليش : فهذا زيدانتاش زوج أخته والذى اشترك معه فى قتل موشيليش ، يقوم بقتل كاششنيش Kashshenish ابن خانتيليش ، وكذلك اولاده وخدمه . وعلى ذلك حاول المطالبة بالعرش ولكن أنتقمت الالهة من دماء كاششنيش ، فاغتاله ولده اموناش Ammunash . لم يطل كثيرا حكم زيد انتاش ، فلم يترك لنا نصوصا من أيامه .

انهارت ثروات البلاد أيام أموناش ، ويعد عهده من العهود المظلمة .

فقـــد تعرض الجيش لكثير من الكوارث وضاعت من المملكة الكثير من المقاطعات ، بينها ادانيا Adaniya (= أضنه) وارزاويا Arzawiya وبعض المدن الاخرى . ومن الجائز أن الحوريين او جماعات الهندو ـ اريه قد قاموا بانشاء مملكة كيزوادنا Kizzuwadna . وهذا هـــو الوقت الذى اصبح ادريمى Idrimi ملكا فى الالاخ بسورية وحـكم مدة ثلاثين سنة . وهذا الوقت يتفق مع الحالة المؤسفة التى وصل اليهـا الحثيون فى عهد اوموناش حتى ان هذا الامير السورى كان يتباهى بغزوه سبع مراكز فى حدود بلاد الحثيين ، ولم يستطع أحد التعرض له . ومن بين هذه المراكز زارونا ، وقد جاء ذكرها فى الغزوة التى قام بها خاتوشيليش فى السنـة السادسـة . كان أدريمى أحـد اتباع باراتارنا Parattarna وهو ذلك الملك الحورى الذى على يديه استطاع الحوريون أن يمـــدوا سلطانهم على شمال سورية وبلاد الرافدين وقام بعقد محالفة مع پيليا Pelliya ملك كيزوادنا (١) . ولقد حرمت غزوات الحـوريين الحثيين لمدة ما يقرب من قرن من الزمان من ثروات السهول الجنوبية لمرتفعات طوروس . كذلك استمرت كيزوادنا تشرف على كليكيا الى ما يقرب من نهاية حكم شوپيلوليوماش .

وقد ضاعت أرزاويا Arzawiya وشالاپا Shallapa . وپاردواتا Parduwata ، والغالب أن هذه المناطق كانت واقعة الى الغرب أو الجنوب الغربى لبلاد الحثيين وقد كان لها عاصمة على ساحل البحر المتوسط . وبذلك انكمشت الحدود الحثية .

ولدينا نص واحد من أيام أموناش ذكر فيه بعض الاسماء ، من بينها : تيپيا Tipiya ، وخاشپينا Khashpina ، وپاردواتا ، وخاها . وكانت تقع تيپيا فى الشمال الشرقى . ولم يعرف مكان خاشپينا ، ولكن خاها ـ اذا كانت هى التى هاجمهــــا خاتوشيليش من قبـــل ـ فعلى ذلك فهى التى تقع على الفرات . ويؤكد هذا النص على الاقل نشاط هذا الملك فى التوسع ، ويدفعنا هذا الى افتراض حكم طويل له .

وبعد وفاة أموناش تعرضت البلاد مرة أخرى لنشوب ثورة . فهـذا أحد الرؤساء ، زوروش Zurush مهد السبيل لقتل تيتيش Tittish وخانتيليش (لم يعرف هذا المكان فى موضع آخر) ، وكذلك ابنائهما ، وعلى ذلك أصبح خوزياش Khuzziyash ، وهو شخص رقيق الحال ، ملكا . وجدير بالذكر أننا فى هذه الفترة قد اقتربنا من الحوادث السابقة لاعتلاء تيليپينوش ، كاتب الرواية والحوادث الذى سبق الاشارة اليها . فقد

(1) O. R. Gurney, Anatolia, C 1600-1380 B.C., C.A.H. (1966), 6.

تزوج تيليبينوس اشتاپارياش ، الاخت الكبرى لخوزياش . ولما تمكن هذا الاخيرة من اعتلاء العرش بعد اراقة الدماء ، لوحظ انه يدبر خطة لقتل اخته وزوجها ، ولكن أدرك تيليبينوش أمر هذه الخطة ، ونفى خوزياش واخوته الخمس . وقد ختم تاريخ الحثيين بتلك العبارة التى قال فيها انه « تولى بنفسه عرش والده » .

ومن الحوادث الاخيرة ، نستطيع أن نستنتج أن زوروش كان هو المحرض لخوزياش . وكان المفروض أن يتولى العرش خوزياش بعد أن أبعد تيتيش وخانتيليش . فقد كان خوزياش ابنا لاموناش ، وكان تيتيش وخانتيليش اكبر آخواته . وان تدبيره خطة ضد أخته وزوجها كانت رغبة منه فى القضاء على من تبقى من منافسيه . ولكن هل حقيقة أن تيليبينوش قد « تولى عرش والده » كما ادعى هو . لقد افترض العلماء أن هـذه الطريقة فى التعبير كان يقصد منها الاشارة الى حماه ، اموناش ، أو انه يحتمل أن يكون الغرض منها العرش الخاص بالعائلة المالكة . أو انه كان يقصد بذلك « عرش آبائه (١) » . ولم يقبل جورنى هـذا الاراء كلها وافترض أن تيليبينوش كان صادقا ، وانه كان ابنا للملك السابق اموناش وانه اخا صغيرا لتيتيش وخانتيليش . وان خوزياش ، زوج أخته كان مغتصبا وأنه تولى العرش بالقوة ولكنه لم يدم على العرش طويلا .

اما عن أهم سياسة تيليبينوش الخارجية هى المعاهدة التى أبرمها مع اشيوتاخشو ملك كيزوادنا . وقد كان هذا الاخير علما من أعلام هـذا العصر . وقد عمل تيليبينوش على التقدم نحو سورية .

وقد اشتهرت أيام تيليبينوش باهتمامه بالتنظيم الداخلى فقد أصدر مرسوما باجراء اصلاحات داخلية فى مملكته . وقام بتغيير نظم الحكم القائمة ، لقد أبقى للامراء سلطانهم ، ولكن منع التدخل فى الحكم أو بمعنى أصح الالتجاء الى سياسة الاغتيالات فى حالة انحراف الجالس على العرش وضرورة عرض مثل هذه الانحرافات على الجمعية العامة للمواطنين . وجدير بالذكر أن مثل هذا النظام كان قائما من قبل ولكن لم يكن نافذ المفعول . وعلى ذلك كل ما فعله تيليبينوش هو اعادة سلطان هذه الجمعية .

---

(١) E. A. Menabde, "De l'ordre de succession dans l'empire hittite," dans XXV Congrès International des Orientalistes, Moscow, 1960, 8, n. 20.

ولقد وضع تيلپينوش قاعدة ثابتة لتولى العرش : « لنفترض ان اميراً ولد من الصف الاول وصل الى العرش . اذا لم يوجد أمير من الصف الاول ، فليأت بعده فى الملك ولد من الصف الثانى . واذا لم يوجد أمير ، (ولا) وارث ، فليبحثوا عن زوج لابنة من الصف الاول ليصبح ملكا . » لقد سبق أن خاتوشيليش الاول امام جماعة المحاربين والامراء أعلن تولية مورشيليش الابن بالتبنى عرش البلاد . وعلى ذلك فقد محى تيلپينوش بقراره هذا حرية الملوك فى اختيار أولياء عهـودهم واستعاض عن ذلك بقانون ثابت لتولى العرش .

* * *

المملكة الحثية الحديثة

لم نعرف شيئا عن نهاية حكم تيليبينوش ، كذلك ماتت زوجه اشتاپارياش Ishtapariyash ومات ولده اموناش قبله فى ظروف غامضة ولما مات تليپينوش تولى العرش بعده اللوامناش Alluwamnash وكان متزوجا من امرأة تسمى خاراپشكيش Kharapshekish . وقد عثر على بعض الوثائق تعطى اللوامناش لقب « الابن الملكى » وتصف زوجه خاراپشكيش بأنها « ابنة ملك » . ولقد جاء اسم اللوامناش فى اثبات الملوك المعروفة من هذا العهد .

لقد سبق ان اشرنا الى النجاح الذى احرزه تيلپينوش ، خصوصا العلاقات الطيبة التى حققها مع كيزوادنا لكنها لم تعمر طويلا . فأثناء حكم خلفائه قويت ميتانى أيام ملكها سوستاتار Saustatar حتى شملت امبراطوريته شمال سورية . وعادت كيزوادنا مرة اخرى الى حظيرة ميتانى . وقد تولى العرش كما جاء فى اثبات الملوك الخاص بهذا العهد خانتيليش الثانى وزيدانتاش الثانى . وجدير بالذكر أن هذه الفترة تقابل الفترة التى قامت فيها جيوش تحتمس الثالث باعادة النفوذ المصرى فى سورية واقصاء الميتانيين عنها الى شرقى الفرات . وما من شك ان اعادة النفوذ المصرى فى سورية والمحافظة عليه (يجب ان نشير هنا الى أن تحتمس الثالث حينما خاض تلك المعارك التى جاءت فى حولياته ذكر فى أحدها أنه جاء ووضع لوحة شرقى الفرات بجوار لوحة تحتمس الاول وهذا معناه أن تحتمس الاول قد قام بحملة الى تلك المنطقة واستطاع أن يهزم الميتانيين كما اثبت ذلك تحتمس الثالث فى حولياته وذلك فى حملته الثامنة) (١) قد لاقى ذلك هوى فى نفوس الحثيين ورأوا فيه خيرا كبيرا . وعلى ذلك فمن المرجح ان ملكا حثيا ، يحتمل أن يكون زيدانتاش الثانى أو خوزياش Khuzziyash ــ قد ارسل الى فرعون هدايا حين عودته الى مصر من حملته الثامنة والتى تقع فى العام الثالث والثلاثين من حكمه (حوالى عام ١٤٧١ ق.م.) وقد قام ملك الحثيين بعد ذلك بثمانى سنوات أيضا بمواصلة ارسال جزية الى فرعون مصر (٢) .

---

(١) مصر الخالدة : للدكتور عبد الحميد زايد صفحة ٥٢٦ (القاهرة ١٩٦٦)

(٢) W. Helck, Die Beziehungen Aegyptens zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend V. Chr. Wiesbaden, 1962, 152, 173, n. 144.

وكذلك جاء فى نهاية لوح منف من أيام امنوفيس الثانى فى هذا الشأن ما يلى : « الآن لما سمع أمير نهرين وأمير خاتى وأمير سنجر النصر العظيم الذى احرزته ، تسابق كل مع زميله بكل وسيلة من الهدايا من كل البلاد وقد تحدثوا فى قلوبهم و (قسموا) بآباء آبائهم انهم سوف يدعون للسلام مع جلالته ردا على عطائه لهم نسيم الحرية . حضرنا ومعنا جزيتنا الى قصرك ، يا ابن رع امنحتب حاكم الحكام ، الاسد المغوار فى كل مصر ، وفى هذه الارض الى الابد » (انظر مصر الخالدة ص ٥٧٤) .

ولا بد انه فى هذه الفترة بوجـــــه التقريب أن قام ملوك المصريين والحثيين بالاتفاق على ترحيل بعض سكان المدينة الشمالية لخوروشتانا الى الاراضى المصرية . وهذه المعاهدة أو الاتفاق قد اشارت اليه الوثائق اللاحقة مرتين كانه أقدم وثيقة صداقة بين الحثيين والمصريين ، ولكن لازالت الظروف التى احاطت بنهايتها غامضة .

وبعد أن تولى العرش خوزياش الثانى . وبين هذا الملك وشوپيلوليوماش يمكننا ان نضع حوالى أربعة ملوك آخرين .

واحد هؤلاء الملوك هو ارنوانداش وزوجه اشمو ــ نيكال Ashmu-Nikal وقد جاء اسمهما على عديد من الوثائق المعاصرة . والظاهر أنهما كانا من أولاد تودخالياش وزوجـــــه نيكال ــ ماتى Nikkal-mati ــ وهى حالة من زواج الاخ بأخته ، بالرغم من وجود اشارة فى وثيقة متأخرة تفيد الى عدم السماح بمثل تلك الزيجات. وغالبا أن ولده تودخالياش Tudkhaliash تولى العرش من بعده . وجاء من ورائه ولده تودخالياش الصغير الذى تسمى باسم والده ، وهو الملك الذى سبق شوپيليوليوماش على العرش .

الظاهر اننا الآن فى الدولة الحديثة بصدد تغييرات فى الملكية . فلم نعد نرى تلك الديموقراطية التى ألفناها فى الدولة القديمة أو الحكم الخاص (oligarchic) بالدولة القديمة ، وقد أصبحت سلطة الملك مطلقـــة ، وقد لوحظ أن الاسرة أصبح لها طابع خورى . وقد تأثرت كثيرا بالحضارة الحورية . فجيش الامبراطورية الذى امتاز بسلاح المركبات قـــد قام بتدريبه حورى اسمه كيكولى Kikkuli (١) . وقد حمل كثير من اواخر الملوك والملكات والامراء من هذا العهد اسماء خورية . وحينما يعين احد هؤلاء ملكا لابد أن يستبدل اسمه بآخر حثى . فزوجتا تودخالياش وارنوانداش كانتا تحملان اسمين حوريين ، نيكال ــ ماتى ، واشمو نيكال وابن الاخيرة كان يسمى اشمى ــ شاروناAshmi-Sharruna .

G. Walser, Neuere Hethiterforschung. Historia, Eingelschriften, Heft 7 Wiesbaden, 1964, 29 f.

وتقص علينا اخبار معاهدة حلب انه بعد ان غزا مورشيليش الاول حلب ، مال ملك حلب الى جانب الميتانيين . فلما تولى تودخالياش العرش حارب كل من حلب وميتانى وابرم معاهدة مع حلب . وعلى حسب ماجاء فى معاهدة شوناششورا الثانى Shunashshura ، أصبحت كيزوادنا من « بلاد خاتى » اثناء حكم الجد الاكبر لشوبيلوليوماش .

اما سورية فقد احتلها فى تلك الفترة تحتمس الثالث فرعون مصر بعد حملاته المتكررة عليها . (١٤٧١ ــ ١٤٥٠ ق.م تقريبا) وقداستمر سلطان المصريين قائما قويا هنــاك حتى السنة العاشرة من ايام ولده امنوفيس الثانى (اى حوالى ١٤٤٠ ق.م) وغالبا أن الثورة التى قامت فى حلب وقعت عند الفترة التى مات فيها تحتمس الثالث وتولى العرش بعده امنوفيس الثانى . وبعد عهد تودخالياش بعثا جديدا للحيثيين . فقد بدأ غزو المناطق الغربية . فقد اتجه نحو ارزآوا ، وقد جاء خبر ذلك فيما يسمى حوليات توداخالياش . ويصف النص أربع غــزوات متوالية . وقد سجل فى الحملة الاولى اسماء الاقطار التى غزيت ، منها ارزاوا وغيرها أما الحملة الثانية فقد وجهت نحو ٢٢ مدينة تحت اسم « بلاد آسوا Assuwa » ، ويحتمل ان تكون الكلمة الرومانية Asia قد اشتقت منها ، وقد ذكرت لاول مرة كاسم لاقليم بالقرب من سارديس Sardis وما من شك أن آسوا كانت واقعة فى الغرب . وتمثل هذه الغزوة اقصى تدخل غربى للملك حثى . واثناء فترة غياب تودخالياش فى الغرب هاجمت جماعات كاسكا بلاد الحثيين . واثناء عودة الملك الى خاتوشا اضطر الى التوجه اليهم وهزمهم فى موقعة تيوارا Tiwara (لم يعرف مكانهــا بعد) . وهذه هى الغزوة الثالثة . وبعد عام لم يقم فيه الملك بأى حملات توجه الى الشرق ليخمد ثورة فى اشوا Ishuwa التى حركهــا ملك الحوريين ، وهى منطقة تقع عند منعرج الفرات ، جنــوب مورادسو Murad Su . لقد استطاع تودخاليلش الاول هذا أن يستولى على ميتانى ويدخل عاصمتها . وقد سلم كل الاراضى التى غزاها الى ملك كيزوادنا الذى كان حليفا له .

ولكن حينما ظهر ارتاتاما الاول Artatama I ، حوالى عام ١٤٣٠ ق.م. بدأت ميتانى تنتعش . وقد واجهت دولة الحثيين ملكى ميتانى ومصر . ففى نهاية عهد امنوفيس الثانى ارسل ملك ميتانى بعثة الى مصر تناشد فرعون السلام (١) . ومن ثم جاءت رسل فرعون الى ارتاتاما تطلب منه رباطا يؤكد التحالف الذى قام بينهما ، فارسل ارتاتاما ابنته لتتزوج الملك تحتمس الرابع الذى تولى العرش فى مصر بعد وفاة والده امنوفيس

(١) Helck, op. cit., 161.

الثانى . وسوف نرى بعد ذلك سلسلة من المصاهرات تتم بين ملوك ميتانى وآل فرعون .

لم يكن تودخالياش الثالث هو رجل هذا الموقف الذى تأزم سريعا ، وقد علمنا ذلك من مرسوم صدر فى القرن التالى . وان فشل اعادة سلطان الحثيين فى سورية كان نذيرا بثورة عامة . فقد غزت جيوش ارزاوا اقليما يسمى « البلاد السفلى » (وهى ربما تكون سهل كونيا Konya) وقد وصلت هذه الجيوش حتى توانوا Tuwanuwa (تيانا Tyana) واودا (هيدا Hyde) . ومن الناحية الجنوبية الشرقية ، قام رجال من ارماتانا Armatana بنهب أراضى الحثيين حتى مدينة كيزوادنا ، مما يدل على أن هذه الاخيرة كانت من املاك تودخالياش ومعها بعض بلاد من طوروس . ولم يستطع احد حتى الان معرفة المكان الذى كانت تحتله ارماتانا . كما وقع سهل مالاتيا حتى الفرب الى مدينة جورون Gürün الحديثة فى ايدى رجال اشوا . كما قام احد البرابرة فى الشمال بالقضاء على « البلاد العليا » (وهى الوادى العلوى لكل من كيزيل ارماك Kizil Irmak والفرات) . وكذلك تعرضت مقاطعة كششيا Kashshiya لهجمات غالبا من الشمال الغربى وعادت قبائل كاسكا لنهب المدن المجاورة للعاصمة . واخيرا دخل الاعداء العاصمة خاتوشا واحرقوها وعند ذلك قضى على مملكة الحثيين .

ولقد عرفنا امتداد سلطان ميتانى وارزاوا فى هذا الوقت من المراسلات التى تمت بين ملوكهما مع فرعون مصر أمنوفيس الثالث فى نهاية حكمه ، وقد كان هذا الفرعون منغمسا فى اللهو والملذات واهمل الشئون الخارجية فى مصر الفرعونية . فهذا توشراتا الميتانى ، والذى زوج أخته للفرعون حينما وصل الى العرش ، يخاطبه كأنه أخوه ، وكانت المعاملة بالمثل . وقد ارسل مع خطابه الاول الى فرعون هدايا من الغنائم التى غنمها من الحثيين . ولم يلاحظ فى اسلوب الخطابين اللذين تبودلا بين تارخوندارادو Tarkhundaradu ملك ارزاوا وفرعون مصر الاسلوب المألوف فى المراسلة ، وانما توحى هذه المراسلات بان هناك مفاوضات كانت تجرى بخصوص ارسال اميرة ارزاوية لتصبح زوجا لفرعون مصر ، وقد كانت هذه المحاولة تقليدا لخطة اتبعت مع ملك ميتانى .

وقد وصلتنا حوادث الفترة التالية من تاريخ حياة شوپيلوليوماش الذى كلفه والده خاتوشيليش بقيادة جيوشه . وواضح ان خاتوشيليش قد اضطر لترك الحكم لولده لمرضه . وجدير بالذكر ان شوپيلوليوماش لم يكن هو الابن البكر ولكن كان هناك خاتوشيليش اخر « الصغير » وهو غالبا الذى اراد والده ان يوصى اليه بالعرش .

قاد شوبيلوليوماش جيوش الحثيين واتجه الى الناحية الشمالية الشرقية « البلاد العليا » وقد انتصرت جيوش الحثيين . اما معلوماتنا عن بقية الحروب التى قام بها شوبيلوليوماش للقضاء على الفوضى ففير معرفة تماما .

مات تودخالياش الثالث وخلفه تودخالياش الصغير الذى اغتاله جماعة من الضباط ووضعوا مكانه شوبيلوليوماش . ويعد عهده صفحة جديدة فى تاريخ الحثيين .

الحثيون والمصريون فى صراعهم بسورية ومنعرج الفرات

كانت سورية تقع كما سبق أن اشرنا فى معبر الطرق بين بلاد الرافدين فى الشرق : والاناضول فى الشمال ومصر فى الجنوب . وكانت كل من بلاد الرافدين والاناضول فى حاجة ماسة الى بعض المواد الاولية اللازمة لهما والتى لابد أن تمر عبر سورية . وكان بسواحل سورية مرافىء تستقبل سلعا من مختلف الاقطار البعيدة . كما كانت سورية متصلة بمصر عن طريق البحر والبر . من أجل ذلك كانت مطمعا لقطبى الحضارتين مصر وبلاد الرافدين ، وكذلك للحثيين . وتسابق الجميع فى احتلالها . وقد كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد من القرون التى كثرت فيها الازمات السياسية والحربية العالمية .

فقد أقام الاموريون الذين كانوا يحكمون سورية فى هذه الفترة حكومات تشبه دويلات المدينة . وفى هذا الوقت تحرك الحوريون من المنطقة العليا لبلاد الرافدين نحو الغرب . وقد حل فرسان الحوريين محل الامراء الاموريين واخذوا أحسن الاراضى لانفسهم .

أما عن سلطان مصر فقد كان قويا أيام تحتمس الثالث ، وبدأ يدب الضعف فى جسم الامبراطورية المصرية أيام أمنوفيس الثالث (١٤١٧ — ١٣٧٩ ق.م. تقريبا) . وقد ظهر ذلك واضحا فى مراسلات تل العمارنة حيث عثر عليها فى انقاض مدينة العمارنة التى أسسها اخناتون . وكانت هذه المراسلات الاكدية مكتوبة بالخط المسمارى على الواح من طين غير مطبوخ ارسله حكام معاصرون بآسيا الى بلاط آل فرعون ، وكذلك أمراء مستقلون من فلسطين وسورية . وقد قام الفراعنة بتعيين بعض ضباط اتصال للاشراف على الاعمال التى كانت تجرى هناك لمراقبة الامراء ولجمع الجزية التى كان يقوم بتاديتها هؤلاء الامراء الى فرعون . وقد سمت الوثائق الاكدية هؤلاء الضباط رابيسو Rabisu ومعناها « الملاحظ ، المراقب » . ومرادفها بالسامية ساكينو Sakinu (بالكنعانية .

سوكينو Sokinu) . وفى تلك الفترة أقام وكلاء سورية هؤلاء فى مدينتى كوميدو Kumidu وسومورا Sumura . وكانت هاتان المدينتان تقعان فى مكانين محصنين . فالاولى تقع عند مدخل سهل البقاع، وهو سهل ضيق سبق أن وصفناه يقع بين لبنان فى الغرب وانتى لبنان Antilebanon وحرمون Hermon فى الشرق . وهو قريب من مراقبة ما يجرى فى دمشق أيضا . أما سومورا فتقع على الشاطىء المرتفع ، بالقرب من مصب نهر اليوثيروس Eleutheros ، وأيضا تشرف على الطريق الذى يتجه شرقا على طول هذا النهر الى وادى الاورنت . اما على الساحل فقد كانت دوريات المصريين أشد منها فى داخل البلاد . حتى اذا ما تعطلت أو تعرضت الطرقات البرية كانت البوارج المصرية تقوم بمهمتها.

قام ملوك ميتانى فى بلاد الرافدين العليا بالحكم من عاصمتهم واش شوجانى Washshuganni التى غالبا ما كانت تقع بالقرب من نهر الخابور العلوى . وقد كان سلطان الميتانيين على سورية متوقفا على توسع الحوريين . وفى أوقات ضعف النفوذ المصرى فى سورية قام الميتانيون بالارتباط مع الحوريين فى احلاف . وقد بلغ الميتانيون ذروة المجد فى بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

لقد احتل الميتانيون مكانة الحثيين فى هذه الفترة ..ولقد قام الحثيون فى فترة ضعف نفوذ مصر بعد وفاة تحتمس الثالث ، باعادة نفوذهم فى سورية كما كان الحال فى دولتهم القديمة . ولكن لما تعرضت بلادهم الام الى الخطر من كل النواحى أيام تودخالياش الثالث ، اضطروا للتخلى عن سورية .

كانت سورية فى هذه الفترة مسرحا للقوات المصرية والميتانية تعاونها الحورية وأخيرا القوات الحثية .

ومنذ منتصف الالف الثانى قبل الميلاد كان الميتانيون لهم الغلبة على الحوريين . فلقد نشروا سلطانهم من عاصمتهم واش شوجانى نحو الشرق الى اشور والمناطق الواقعة شرقى دجلة ، كذلك امتد سلطانهم الى الشمال ، فى المنطقة التى سميت بعد ذلك أرمينية ، وفى الغرب مدوا نفوذهم على سورية .

كانت توجد منافسة بين ملوك ميتانى والحكام الذين سموا انفسهم « ملوك بلاد حورى Khurri » . وغالبا كان نهر الفرات هو الحد الفاصل بين بلاد حورى ومملكة الميتانيين . والظاهر أن بلاد حورى كانت أقدم من مملكة الميتانيين ، ولكن لحقتها ميتانى فى القوة وفى النشاط السياسى.

فهذا توشراتا ، الابن الصغير لشوتارنا الذى عاصر امنوفيس الثالث فرعون مصر ، تولى الملك بطريقة غير مألوفة . وقد جاء من وراء شوتارنا ولده ارتاشوارا Artashuwara . وقد ذبحه وتخى Utkhi أحد الضباط الكبار فى حكومته ، وتولى العرش من بعده توشراتا ، أخوه الصغير . ولم يعترف ارتاتاما صاحب بلاد حورى بتوشراتا سيداً عليه ، والظاهر انه حاول الاستقلال . ولم يستطع العلماء حتى الآن الوصول الى الحقيقة الواضحة فى العلاقات بين الميتانيين والحوريين .

ويقع تولى توشراتا العرش فى أيام حكم امنوفيس الثالث (١٤٠٥ ــ ١٣٦٧) ، وبشكل ادق فى النصف الثانى من حكمه . وقد وصل الينا من دار محفوظات العمارنة سبعة خطابات من توشراتا الى امنوفيس الثالث تؤكد الصداقة فيما بينهما سنوات عدة . وعلى ذلك يمكننا تاريخ حكم توشراتا بحوالى عام ١٨٣٥ ق.م.

ومهما كانت البلاد التى يحكمها ارتاتاما صاحب حورى ، فان توشراتا قد استطاع ان يقيم نفسه ملكا فى هذا الوقت على بلاد ميتانى ، وبالاضافة الى ذلك اشور وما جاورها من امارات فى الشرق ، والقسم العلوى من بلاد الرافدين واجزاء من سورية . وكان تقع الى الشمال فى كليكيا من حدود تلك المملكة الى البحر المتوسط ، كيزوادنا ، وقد كانت تتعرض كثيرا للحثيين والميتانيين . وكان للقضاء على الحثيين أيام تودخالياش الثالث اثره فى وقوع كيزوادنا فى أيدى الميتانيين . ولابد أن شيئا شبيها بذلك قد وقع أيضا لاشوا فى الشرق البعيد . ولم تستقل مملكة كركميش ولا مملكة حلب عن الميتانيين فى هذه الفترة . كما توطدت العلاقة بين الميتانيين ومملكة موكيش Mukish وعاصمتها الالاخ ، اما أوغاريت فيتشكك العلماء فى وجود علاقات بينها وبين الميتانيين فى هذه الفترة . وقد كان لوقوع أوغاريت على البحر المتوسط اثره فى تمتعها بشىء شبيه بالاستقلال . ولقد كانت بلاد نوخاش Nukhash ، الواقعة بين منعرج الفرات والاورنت ، بدون شك خاضعة لمملكة ميتانى فى هذه الفترة . ونجد فى نهر الاورنت ، نيا Neya (Neca) ، واراختو Arakhtu ، واوكولزات Ukulzat تحت حكم الحوريين ، وبدون شك لها علاقات طيبة مع ملك ميتانى . واخيرا ، المدن التى تقع فى الجنوب من سورية : قطنه Qatna وكينزا Kinza (وكدسا Kidsa = وهى قادش التى تقع على الاورنت) وامورو Amurru . ففى هذه البلاد جميعها تأرجحت العلاقات بين الميتانيين والمصريين ، فبعضهم مال فى فترة الى المصريين ، وآخرون مالوا الى الميتانيين ، والجميع كان ينافق .

وفى بادىء الامر لم تتأزم العلاقات بين توشراتا والمملكة الحثية .

وطالما كان الحثيون آمنين فى بلادهم ولم يتعرضوا الى اية صعوبات وأزمات . عند ذلك لم تكن هناك أية فرصة للاحتكاك .

وكانت العلاقات بين مصر وميتانى طيبة ، بل تنم عن صداقة وذلك لاجيال عدة . وعديدة هى تلك الزيجات التى تمت بين البيتين الملكيين . فقد أرسل ارتاتاما ، الجد الاكبر لتوشراتا احدى بناته الى فرعون ، كما زوج شوتارنا ، والده ، ابنته جيلو ــ خيبا الى امنوفيس الثالث ، وقد وقع ذلك كما هو مدون على أحد جعارينه فى السنة العاشرة من حكمه (١٣٩٨ ق.م.) . وقد استمر توشراتا نفسه على هذه السياسة بارساله احدى بناته ، تادو ــ خيبا ، لحريم الملك .

وقد كان لكسل المصريين فى سورية اثره فى بقاء الصداقة قائمة بين توشراتا وامنوفيس الثالث وذلك فى الفترة الباقية من حكم امنوفيس الثالث . ولما كان هذا الوضع مفهوما بالرغم من الاتجاهات التوسعية للميتانيين فى سورية ، فيحس الانسان أن ساحل سورية وفلسطين ، بما فى ذلك منطقة دمشق كان يعترف بسلطان مصر ، اما بقية سورية كانت تعتبر خاضعة لنفوذ الميتانيين . وقد لوحظ فى الفترة الاخيرة من حكم توشراتا ، توطد العلاقات بين مصر بشكل واضح ، وذلك لوجود شخصية قوية اعتلت عرش الحثيين .

ومن الجائز انه حدث بعد تولى توشراتا عرش ميتانى (١٣٨٥ ق.م.) تغيير فى الحكم فى مملكة الحثيين . فقد تعرضت هذه المملكة الاخيرة لازمات قبل وفاة تودخالياش الثالث . واذا حدث ان أعيد جزء من أرضها ، خصوصا فى الحدود الشرقية ، فقد كان الفضل فى ذلك يعود الى بسالة شوبيلوليوماش ابن الملك .

لقد تولى شوبيلوليوماش عرش البلاد بعد وفاة أبيه . وقد كان هذا العاهل يتمتع بشخصية قوية ، فمد بصره نحو سورية حيث كان للحثيين نفوذ . عند ذلك كان لابد من الوقوع فى صدام مسلح مع توشراتا . وقد تأخر موعد الهجوم قليلا وذلك ليطمئن شوبيلوليوماش على مملكته داخليا قبل الخروج الى سورية . قام هذا العاهل بتعيين حكام من افراد عائلته على أقاليم الاناضول . ودعم الجهاز الحكومى بموظفين أوفياء مخلصين، كما أحاط نفسه بسياج من حكام موالين له فى الولايات المختلفة ، كماربطهم بالبيت المالك الحثى برباط المصاهرة .

نستطيع ان نقدر بلوغ شوبيلوليوماش العرش فى الفترة التى كان يحكم فيها امنوفيس الثالث مصر (١٠٤٥ ــ ١٣٦٧ ق.م.) ومن الجائز

أيضا بعد تولى توشراتا الملك كماسبق أن اوضحنا ذلك بحوالى عام ١٣٧٣ . وغالبا على هذا الافتراض يكون شوبيلوليوماش قد تولى العرش حوالى عام ١٣٦٨ .

لابد أن توشراتا قد اصطدم بشوبيلوليوماش بعد تولى هذا الاخير سلطته . ففى احد خطابات توشراتا الى امنوفيس الثالث ، يحدثه عن انتصار احرزه على جيش حثى هاجمه . وان صح ذلك فيكون شوبيلوليوماش قد فشل فى حملته هذه على الجنوب . وربما أن هذه الحملة التى قام بها كانت على سبيل الاستطلاع فقط .

أستطاع شوبيلوليوماش الاستيلاء على اشوا ، وكانت فقدت من أملاك الحثيين . ثم تعاقد مع شوناش شورا ملك كيزوادنا . وعقد أيضا اتفاقا مع ارتاتاما ملك بلاد حورى . وقد عامله على أنه « ملك عظيم » ند له . وبدون شك كان معنى ذلك ان هذه المعاهدة خنجرا وضع فى ظهر توشراتا . وقد اطمأن شوبيلوليوماش الى ذلك وضمن عدم دخول الحوريين معه فى نزاع مسلح اذا هاجم الميتانيين . وعلى ذلك ركز جهوده كلها ضد الميتانيين .

أما علاقة شوبيلوليوماش بمصر فى هذه الفترة فتتسم بالدبلوماسية السائدة فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت علاقات فاترة . كانت توجد بين العاهلين ، علاقات من الود ، بين شوبيلوليوماش وامنوفيس الثالث ولما تولى امنوفيس الرابع (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق.م. تقريبا) استمرت رسائل الود . وهى تنم عن وجود حالة من التوتر بين الدولتين . ويمكن ادراك ذلك الوضع اذ تذكرنا وجود روابط عائلية بين فرعون وتوشراتا ، فتادو — خيبا ابنته قد تزوجت من امنوفيس الثالث ، وانتقلت بعد وفاة الاخير الى حريم امنوفيس الرابع . وقد حاولت أن أوضح فى كتابى مصر الخالدة (١) ، المحاولات التى كان يقوم بها امنوفيس الرابع نحو انقاذ مملكته فى سورية وخطاباته المتبادلة مع الامراء والملوك .

الحرب السورية الاولى لشوبيلوليوماش

ولما حانت لشوبيلوليوماش الفرصة للقيام بالغزوة الكبرى ، تحركت جيوشه نحو سورية . وقد خضعت له كل المناطق بين الفرات والبحر المتوسط . وما من شك أن توشراتا قام بغزوة مضادة الى سورية ، وقد قيل انه بلغ سومور Sumur (وقد كانت من قبل وبعد ذلك حصنا مصريا) ، وحاول الاستيلاء على جبيل (بيبلوس) ، ولكنه تقهقر ، وعاد

(١) انظر مصر الخالدة من صفحة ٦٣٧ — ٦٣٩ .

من حيث اتى . لا ندرى تماما ما الذى كان يقصده توشراتا من هـــذه التحركات العسكرية . هل هو استعراض لقواته او أن ذلك كان محاولة منه للاتصال بالامراء الحوريين فى جنوبى سورية أو ربما أيضا بفرعون مصر . واذا صح ذلك الافتراض ، فقد كان لا فائدة منه ، فقد كانت القوات الحثية رهيبة . وقد اوجز لنا رب عدى Rib-Adda آمير جبيل والوالى لفرعون مصر نتيجة تلك الغزوة فيما يلى : « فليعلم سيدى الملك ان ملك الحثيين قد اســتولى على كل الدول التى اشتركت (؟) مع ملك بلاد ميتانى (؟) اى ملك ناخريما » (من الجائز أن المقصود بتلك الكلمة نهرينا، وقد كان هذا هو الاسم المعروف عند المصريين عن ميتانى) .

من ذلك يتبين ان جيوش شوبيلوليوماش قد وصلت فعلا الى حدود المملكة المصرية فى سورية . وتوقفت قواته . ولم يرغب فى مخاصـــمة فرعون مصر فى فترة لم يهزم فيها توشراتا . ومن الامور المسلم بها ، أن ملك ميتانى لم يصبح له سلطان على سورية . ولكنه من الجائز انه كان على صلة بمصر عن طريق قادش . وعلى اية حال ، فقد قاومت قادش الحثيين مدة طويلة كما سيأتى الحديث عن ذلك فيما بعد . وكان يعتبرها الحثيون ، حتى بعد سقوط توشراتا ، واقعة فى منطقة نفوذ مصر . وكان يحكم تواشراتا فى هذا الوقت فى مملكته التى امتدت الى بلاد الرافدين العليا وكذلك الى الولايات الشرقية .

وبالاضافة الى ذلك ، كانت توجد معاهدة من قديم الزمن بين الحثيين ومصر . وقد ابرمت حينما رغب فى ترحيل مواطنين من المدينة الاناضولية كوروشتاما Kurushtama الى الاراضى المصرية ليصبحوا رعايا فرعون (١) . ولكن الحالة السياسية تدفعنا الى افتراض ان يكون الجانب المصرى ممثلا فى احد الفراعنة الذين لا زال سلطانهم قائما على سورية ، وان الجـــانب الحثى ممثلا فى شخصية ملك يمتد سلطانه على الاقل حتى حدود طوروس، أى ملك يحكم قبل الثورة التى قامت ضد تودخالياش ، والد شوبيلوليوماش وعلى ذلك لابد ان ذلك قد تم قبل أن يظهر الميتانيون على المسرح ليفصلوا بين القوتين الكبيرتين فى ذلك الوقت مصر وخيتا .

من الصعب تحديد تاريخ مضبوط لهذا النجاح الاول الذى فاز به ملك الحثيين . ويظهـــر جليا من الوثائق أن الحـــادث قد وقع فى أيام عبدى ــ اشيرتا ʿAbdi-Ashirta صاحب امورو Amurru الذى توفى فى أيام امنوفيس الرابع .

---

(1) Houwinkten Cate, "The Date of the Kurustama Treaty." In Bi. Or. 20 (1963), 274.

لقد اضطربت سورية عقب انتصار الحثيين ، وكان لهذا الانتصار أثره فى تقلص سلطان الميتانيين على سورية ، ولكن لم يقبض الحثيون على زمام الامور فيها تماما . فلقد أصبحت بعض الولايات السورية موالية للحثيين ، وقد كان هذا التطور له أثره فى تعرضهم لانتقام الميتانيين . وبعض الامراء تحرر من التزاماته القديمة ، وصار فى الطريق الذى يرى فيه مصلحته .

قام شوبيلوليوماش بحماية الذين ساروا فى ركابه من أمراء سورية وغالبا ما أرسل فى هذا الوقت ولده تيليپينوش كحاكم محلى (كاهن) فى المدينة المقدسة كومانى Kumanni (Comana Cappadociae)

وقد أصبحت الولايات السورية الشمالية الملاصقة للحثيين موالية لهم تماما ، وأهم ولاية بين هؤلاء هى حلب . ولابد أنه كان يوجد بين كل من شوبيلوليوماش وملك حلب شبــه معاهدة ، وكذلك بينه وبين ملك موكيش (الالاخ) . كما بقى لنا بعد أجـــزاء من معاهـــدة ابرمت بين شوبيلوليوماش وملك تونب ، ربما تمت فى هذه الفترة . أما فيما يختص بأوغاريت التى كانت مخمية من الشمال بمرتفعات ، فهناك ما يشير الى أن ملكها اميشتامرو Ammishtamru بقى على ولائه للملك مصر (١) . وقد ظل ولده نيقمادو Niqmaddu الذى خضع بعد ذلك الى شوبيلوليوماش يراسل فرعون مصر ، حتى انه فيما يظهر تزوج بأميرة مصرية (٢) . كذلك أبرم شوبيلوليوماش معاهدة مع شاروپشا Sharrupsha صاحب بلادنوخاش Nukhash الواقعة جنوبى حلب . وقد نظر توشراتا الى هذه المعاهدة الاخيرة التى أبرمت مع نوخاش على أنها خيانة .

كان يوجد للميتانتين انصار فى نيا Neya وأراختو Arakhtu كما أن الطبقة الحاكمة فى ميتانى كانت من أصل حورى ، ولذلك لم يطمئن شوبيلوليوماش بعد ذلك اليهم ، بعد غزوته الاخيرة ، فنفى معظمهم فى الاناضول . وقد كان يصطاد فى الماء العكر بين هذه القوات : توشراتا ، ومصر ، والحثيون . وقد استفاد من هذا الوضع ملوك امورو . فهـــذا عبدى ــ اشيرتا وولده أزيرو Aziru هما الشخصيتان القويتان فى شمالى سورية فى هذا الوقت . وقد وجدت دولة الاموريين هناك منذ عهد مارى ، وكانت غالبا تقع غربى الاورنت الاوسط . وقد كان لجماعات الععبيرو أثرها فى توسع الاموريين نحو ساحل البحرالمتوسط . وكان مركز

---

(١) J. Nougayrol, Le Palais royal d'Ugarit, III, P. XXXVII.

(٢) C. F. A. Schafer (and others). Ugaritica, III (Mission de Ras Shamra, VIII). Paris, 1956, 164 ff.

نشاطها واقعا بين سومور فى الجنوب واوغاريت فى الشمال . كل ذلك قد حدث قبل أن يظهر شوپيلوليوماش على المسرح . لقد سبق أن اعترف امنوفيس الثالث بعبدى ــ اشيرتا كرئيس اموري . وقد جاء فى خطابات العمارنة (رسالة EA 101, 30 f.) أن امنوفيس الثالث قد اتخذه أداة لتحقيق سياسة مصر ليكبح جماح توشراتا فى سورية . وكان رب ــ عدى صاحب جبيل هو اول من وقع فريسة للاموريين ، ويؤرخ لنا بداية مضايقاته من زيارة قام بها امنوفيس الثالث الى صيدا (رسالة EA 85, 69 ff.) . وان غزو الحثيين لشمالى سورية لم تجعل حالة رب ــ عدى أقل خطورة من ذى قبل . كما توقف النفوذ المصرى ، فهذا پاخامناتى Pakhamnate ضابط الاتصال المصرى هجر مقر اقامته بسومور وغالبا انه قفل راجعا الى مصر (رسالة EA 62, cf. 67) . ولقد خاض عبدى ــ اشيرتا فى بحيرة مملوءة بوحل من نفاق ، فقد تظاهر بصداقته لفرعون وحاول مد سلطانه الى الداخل حتى دمشق وتوطيد اقدامه على الساحل ، مستفيدا من ذعر رب ــ عدى صاحب جبيل . وقد ظل رب ــ عدى يلح فى طلب المعونة وفرعون مصر لا يستجيب اليه ، كما لم يستجب اليه جيرانه . وعلى ذلك سقطت سومور . واغتيل حاكما مدينتى ارقاتا Irqata وأمبى Ambi وذلك نتيجة لتحريض عبدى ــ اشيرتا ، وقد استولى الامــوريون على هــذين المكانين وكذلك على شيجاتا Shigata وأرداتا Ardata . وقد ذكر رب ــ عدى أن عبدى ــ اشيرتا أصبح كأنه ملك ميتانى وملك كشى فى وقت واحد (رسالة Cf. 104, 19 ff.) (رســـالة EA 76, 9 ff.) . وقد هددت جبيل نفسها . وقد انقذت فى آخر فرصة حينما جاء قائد مصر وهو امانابا Amanappa ومعه بعض الوحدات (رسالة Cf. 117, 23 رسالة EA 79, 7 ff.) .

وعادت سومور وبعض المدن الى حظيرة المصريين مرة اخرى (رسالة AA 106; 107; 102) وفى الغالب أن الاستيلاء عليها مرة اخرى قد تم بعد الحوادث التى دفعت لقتل عبدى ــ أشيرتا . على أن وفاته لم تغير الحالة الســـائدة هناك . وبعــد أن توقفت المناوشـــات مؤقتا ، عادت الاضطرابات مرة أخرى على يد ولده أزيرو . واحتــل الاموريون وعلى رأسهم أزيرو مرة أخرى المدن الآتية : ارقاتا ، وأمبى ، وشيجاتا ، وأرداتا . ولم تسقط سومور بسرعة ، ولكن حوصرت ، وكان بلوغها بالبحر فقط . وقد بذل المصريون جهدا كبيرا فى البقاء عليها ، وقتل ضابط الاتصـــال المصرى لسومور فى المعركة . ولكن اخيرا جلت القوات المصرية عن المدينة . والآن أصبح رب ــ عدى وحيدا ، فواجه حالة يائسة ، خصوصا حينما اتحد زيمردا Zimredda صاحب صيدا مع أزيرو . واخيرا تركت له جبيل وسقطت حينما مكروا على رب ــ عدى ليفر ببدنه من المدينة ،

لكنه مات فى المنفى . وقد استولى أزيرو فى الوقت نفسه على نيا (رسالة EA 69, 27 f.) . والظاهر أن جميع تلك الحوادث قد وقعت قبل أو عند بداية الحرب السورية الثانية التى خاضتها جيوش الحثيين .

ليس من شك انه كان يوجد بين كل من شوبيلوليوماش وأزيرو شبه تفاهم ، وما من شك ان الامر قد انتهى بينهما بعقد معاهدة . ومن الغريب ان أزيرو نبه فرعون كثيرا الى القوات الحثية المرابطة فى أراضى نوخاش وذلك ليذكره فى احتمال اضطراره لمحاربة الشماليين . ولكن قبل أن يتازم الموقف ، وقبل أن يقوم شاپيلوليوماش بالتقدم نحو الجنوب ، استدعى فرعون الاموريين الى مصر (انظر الرسائل الآتية : EA 161, 22 ff.; 164, 20, 165, 14 ff.) . ومن الجائز أن فرعون كان يبغى من وراء ذلك استمالة أزيرو الى جانبه ، ليسر اليه بحديث او بخطة لحماية النفوذ المصرى فى سورية . وسواء أصح ذلك الافتراض أم لم يصح ، فقد استجاب أزيرو ، وقام بتمثيل دور غامض بمهارة سياسة . وبقى ولده ، فى مدينته ، يستمع الى التهم التى وجهت اليه لانه قد باع والده الى مصر (رسالة EA 169, 17 ff.) . واخيرا عاد أزيرو من بلاط فرعون سالما . وان المعاهدة التى أبرمها أزيرو مع نيقمادو صاحب أوغاريت والتى وطدت مكانته فى سورية ، غالبا أوحى اليه بها من مصر . وقد أميط اللثام عن حقيقتها بعد ذلك بقليل . وغالبا أن أزيرو قد دخل مع شوبيلوليوماش فى معاهدة رسمية . ولهذا السبب سار أخيرا على الطريقة الحثيــة فى الحكم .

وقد اخذ شوبيلوليوماش فى الوقت نفسه خطوة اخرى ذات طابع سياسى كبير : فقد تزوج أميرة بابليــة . وقد انتحلت اسم تاوانناناش Tawannannash ، وهو اسم أول ملكة حثية فى تاريخ الحثيين فى الايام الغابرة . وقد حكمت هــذه كملكة . وواضح أن الهــدف من وراء تلك الزيجة هو حماية نفسه من توشراتا صاحب ميتانى . وجدير بالذكر أن بورنابورياش Burnaburiash كان هو عاهل بابل .

* * *

. الحرب السورية الثانية لشوبيلوليوماش

لقد كان لنشاط شوبيلوليوماش الذى سبق أن أحرزه اثره فى تنبيه توشراتا الى ما سوف يحدث فى مستقبل الايام . ومن الطبيعى انه حاول أن يستعد لهذا اليوم العصيب . وقد سلك فى ذلك طريقين : أولهما تدخله فى بلاد نوخاش وثانيا حاول أيضا مضايقة الحثيين فى اشوا . وقد كان مثل هذا التصرف ذريعة للضربة الاخيرة لشوبيلوليوماش . فأعلن أن

بلاد نوخاش هم ثوار مشتركون مع موكيش ونيا ، وان الميتانيين قاموا بتدبير كل ذلك عمدا وبعنجهية . وفى نفس الوقت استعد بحرص حتى لا يقهر . فسعى قبل كل شيء الى عقد حلف مشترك بينه وبين أوغاريت مع أميرها نيقمادو . وبذلك العمل حافظ على الجانب الايمن فى طريقه الى ميتانى ، وأرسل وحدات من جيشه الى بلاد نوخاش ، وعبر هو بنفسه نهر الفرات عند آشو؟ حيث كان يهددها توشراتا . وبعد أن حصل من الملك انتاراتال Antaratal على التصريح له بالمرور عبر الشى Alshe وصل الى الحدود الشمالية الغربية لبلاد ميتانى نفسها . وبعد أن استولى على حصون كوتمار Kutmar وسوتا Suta ، اتجه بسرعة فطعن واش شوجانى عاصمة ميتانى طعنة قوية . ولما وصلها ، وجد أن توشراتا قد لاذ بالفرار .

ثم عاد شوبيلوليوماش الى الغرب مرة اخرى متجها نحو سورية فدخلها بعد ان عبر الفرات من الشرق ، وغالبا جنوبى حصون كركميش . وحينما وصل الى سورية سقطت مدينة وراء الاخرى . وكان يقوم فى كل مكان يحل به بعزل الحكام الحوريين الذين كان الميتانيون يعتمدون عليهم ويضع مكانهم غيرهم ممن يثق فيهم : أما عن الاقطار الثائرة فى هذه المنطقة على حسب ما جاء فى الوثائق هى : حلب ، موكيش ، نيا ، اراختو Arakhtu ، قطنة ، نوخاش ، قادش . وقد انتهت الحملة عند أپينا Apina (دمشق) ، أى عند الحدود المصرية فى سورية . ومن الغريب أن الاثبات لم يذكر فيها كركميش وأمورو فقد سبق أن ارتبطا بمعاهدة مع الحثيين .

لقد كان لهذه الحملة اثرها فى تغيير السياسة بوجه عام فى الشرق الادنى . فقد وضعت نهاية لامبراطورية توشراتا . فمن الجائز انه عاش فترة بعد هربه من واش شوجانى ، ولكن اغتيل فى النهاية ، ومن الغريب أن ولده من صلبه كورتيوازا Kurtiwaza كان بين المؤتمرين .

لم يستفد أرتاتاما وحده من القضاء على توشراتا ، بل تهلل لهذه الهزيمة كل من آلشى وآشور وقد قامت هاتان الدولتان بتقسيم أراضى ميتانى بينهما . فأخذت آلشى الجزء الشمالى الغربى ، وآشور الجزء الشمالى الشرقى . ولو أن مملكة ميتانى قد تقلصت وانكمشت ، الا أنه لم يقض عليها تماما ، فقد ظل كورتيوآزا حاكما عليها . وقد ظهر له منافس قوى فى شخص شوتاتارا Shutatarra (شوتارنا Shuttarna) ، والظاهر انه كان ابنا وخليفة لارتاتاما الذى صمد وحافظ على كيانه ، وعلى ذلك فقد اصبحت دولة الميتانيين ارضا شاغرة للملك حورى Khurri . ونفى شوتاتارا (شوتارنا) كورتيوازا الذى لجأ الى بابل الكشية . واخيرا ظهر فى بلاد شوپيلوليوماش وحاول أن يستدر عطفه ليعيده الى عرشه .

يهمنا بعد ذلك طريقة حكم سورية بعد القضاء على دولة ميتانى : فقد قام شوپيلوليوماش بوضع خطة لحكمها على أساس حكم الولايات . ففى شمالى سورية كانت توجد معاهدات . وقد جاء نيقمادو صاحب أوغاريت الى الالاخ عاصمة موكيش ، ليقوم فروض الطاعة والولاء الى شوپيلوليوماش وتولى السلطة من العاهل الكبير ، ونظمت الحدود بينه وبين موكيش ، وتعهد بتجهيز فرق من الجيش فى وقت الحرب ، وكذلك دفع جـزية سنوية . كل ذلك سجل فى وثائق سلمت الى نيقمادو ممهورة بخـاتم شوپيلليوماش وثالث زوجاته توان ناناش .

أبرمت كذلك معاهدة مع أزيرو واموررو . وقد أصبح بموجبها ازيرو حاكما مواليا للملك الحثيين الفترة الباقية من عمره والتى استمرت حتى أيام مورشيليش ، ابن شوپيلوليوماش . اما المعـاهدات التى ابرمت مع موكيش ونيا فلم تعثرنا عليها الايام حتى هذا الوقت . أما الاعترافات الاخرى بسلطان الحثيين فى داخل البلاد أو فى الجنوب فقد اخذت وقت طويلا لتنفيذها . ففى أول الامر ارسل شوپيلوليوماش العائلات الحاكمة الى الاراضى الحثية . ثم أعادهم ، غالبا بعد ذلك بسنوات قليلة .

بدأ توشراتا صراعه الاخير من بلاد نوخاش ، فحل مكان ملكها شاروپشا Sharrupsha الذى مات فى الاضطرابات التى قام بها حفيده تتى Tette ولم يرغب شوپيلوليوماش التدخل فى شئون قادش . وقد ابلغ أبى ــ ميلكى Abi-milki أمنوفيس فرعون مصر ما حدث . أما ايتاكاما Atiakama فقد ظاهرته القوات الحثية ، وعاونه أزيرو فى مد نفوذه نحو الحـدود المصرية . وقد وجـد أيتاكاما على بعـد قريب من شرقى قادش ، أى فى قطنة ، حقلا خصيبا لتحقيق محاولاته فى التوسع . وقد استطاع أحـد الشخصيات وهو أكيزى Akizzi أن يستولى على مملكة صغيرة ، وقد كان أكيزى ممن يعترفون بسلطان مصر . وقد ارسل الى فرعون ما يشير الى أن أيتاكاما قد حاول اغرائه للدخول فى مؤامرة ضد مصر . وقد أشار الى توطد الصلات بين أيتاكاما وتيواتى Teuwatti صاحب لاپانا Lapana وأرزاويا Arzawiya صاحب روهيزى . وقد قام أيتاكاما بمعـاونة الحثيين فى مهاجمة قطنة وغالبا استولى عليها واجبر اكيزى على الفرار . وكان ايتاكاما فى استطاعته التقـدم نحو أوپى Upi (دمشق) حيث كان پيرى أوازا Pirawaza ضابط اتصال كوميدو Kumidu ممثلا لفرعون (رسالة EA 53, 24 ff., 56 ff.) .

وقد كان لتقدم أشياع الحثيين نحو الجنوب الى وادى البقاع ، ونحو الشرق الى دمشق أثره فى عدم وقوف المصريين مكتوفى الايدى . وليس من شك فى أن دمشق كانت واقعة على الحدود المصرية . وفى الواقع أن

المصريين قد حاولوا القيام بمعاونة هؤلاء . والى القارىء الكريم الفقرات التى تولت بحث هذا الموضوع فى كتابى مصر لخالدة (صفحة ٦٣٨ ــ ٦٣٩): « وفى خطاب آخر اعترف ان اخناتون نفسه قد ارسل معونة فقال : « لماذا ارسل الملك (فقط) سريات مركبات للاستيلاء على المدن ، ولم يكن لديها المقدرة على اخذها » .

وهذا أبى ملكى حاكم صور يقرر أن المعونة قد اتت : « وجه الملك وجهه الى خادمه واعطاه جندا مصريين ليحمى مدينة الملك . »

وقد دلل بيرديا Biridya حاكم مجدو أن قوات مصر قد أرسلت ولكن سحبت بعد ذلك (رسالة EA 244, 2-12) . زد على ذلك ، أن الملك ربما فكر فى الابحار الى آسيا ، لانه يوجد عدد كبير من الخطابات من مختلف الحكام تشير الى انهم تلقوا أوامر الاستعداد لاستقبال وحدات من الجيش المصرى . وكذلك لاستقبال الملك . ففى الخطاب رقم EA 141, 18-30 من امونيرا Ammunira حاكم بيروت « الملك . . . كتب الى خادمه . . . استعد لجند الملك ! » . وفى خطاب وديا Widia حاكم عسقلون (رقم EA 324, 12-14) « لقد جهزت طعاما وشرابا وزيتا وحبوبا وثيرانا . . لجنود الملك . اننى جهزت كل شىء من أجل عساكر الملك » . وبعضهم قام بالافادة بأنه سيقوم بحماية الطرق التى ستسلكها عساكر الملك .

لابد أن نعلم ان الملك ومكتب الشئون الخارجية المصرية لم يتجاهلا الالتماسات التى ارسلت اليهما من حكام سورية وفلسطين . وكانا يعلمان ما يدور هناك ، وقد كانا يقومان فى الوقت المناسب بما يجب عمله .

كلمة أخيرة نختم بها هذا الموضوع وهى التاريخ : فلم نتأكد بعد من التاريخ المضبوط للقضاء على توشراتا . فقد ذكر توشراتا مرة عن وجود صداقة بينه وبين امنوفيس الرابع (اخناتون) مدة اربع سنوات (رسالة EA 29, 113) . واحتفظت جميع خطاباته بذكرى امنوفيس الثالث حيا ، كأنه كان على قيد الحياة لفترة بسيطة (أعنى انه اشرك ابنه امنوفيس الرابع معه فى الحكم وهو على قيد الحياة (١)) . أما الصراع الذى وقع بين أزيرو وريب ــ عدى فلابد أنه حدث قبل انتصار شوبيلوليوماش . وقد حدث ذلك الانتصار فى الايام الاولى لحكم آشور ــ أوباليت ملك آشور ، وكذلك قبل كوريجالزو Kurigalzu ملك بابل ، اى اثناء حكم بورنابورياش الثانى Burnaburiash اى حوالى عام ١٣٦٠ ق.م.

(١) انظر مصر الخالدة حيث مناقشة موضوع المشاركة (من ص ٦٠٣ الى ص ٦٠٨) .

قيام شوبيلوليوماش بمحاربة الحوريين

جاء فى الخبر أن شوبيلوليوماش ظل ستة أعوام يشن حملات على بلاد الحوريين أى شمالى سورية .

أول هذه الحلقات الخاصة بسلسلة الحملات فى هذه الفترة قد وجهت الى سهل العمق الواقع بين لبنان وانتى لبنان والتى كانت تعتبر موالية لمصر . وقد تم الهجوم بواسطة أحد قواد الملك . وفى السنة التالية لهذه الحملة وجهت الجيوش نحو حدود الفرات ، حيث توجد مملكة كركميش، وكان يقود جنود الحيثيين تيلپينوش Telepinush ابن الملك والذى كان يشغل وظيفة كاهن كومانى كما سبق أن أوضحنا ذلك . وكان لنجاحه المفاجىء أثره فى خضوع مملكتى أرزيا Arziya وكركميش ، وبقيت المدينة وحدها تقاوم . وقد عاد تيلپينوش الى بلاده لحضور بعض الطقوس الدينية العاجلة تاركا ادارة الحملة للقائد لوپاكيش Lupakkish . ولقد سهلت عودة تيلپينوش هجوم فرق الحوريين على الجيش الحثى المعسكر فى خورموريجا Khurmuriga (أو Murmuriga) ، وقد طوقتها وحاصرتها . وقد قام المصريون فى الوقت نفسه متأثرين فى الغالب بالغزوة الحثية على العمق — بمهاجمة قادش .

فى الحملة الثالثة من سلسلة الحملات التى نحن بصددها ، جهز شوپيلوليوماش ضربته الفاصلة بحذر وعناية تامة . فقام بتجميع قوات جديدة فى تجاراما Tegarma ، وعند حلول الربيع ارسلها الى سورية تحت اشراف ولى العهد ارنوواندااش Arnuwandash ، وكذا زيداش Zidash أحد القادة العسكريين . وقبل أن يتصل بهذا الجيش ، هزم الحوريون ورفع حصار خورموريجا . وفى الحال استطاع أن يتقدم ليحاصر مدينة كركميش ، ولا زال لديه فرق كافية ليرسل منها بعض الوحدات تحت أشراف لوپاكيش وتارخوندا — زالماش ضد المصريين . وفى الحال ابعدوا المصريين عن قادش ودخلوا ثانية الى العمق ، الامارة المصرية المتاخمة(١) .

وبينما كانت الجيوش تحاصر كركميش والفرق الاخرى قائمة فى العمق ، وصلت الى شوپيلوليوماش اخبار عن وفاة فرعون ، سمته تلك الوثائق Pikhururiyash پيپيخورورياش . وقد نوقش هذا الاسم مرات

---

(١) H. G. Güterbock, "Mursili's Accounts of Suppiluliuma's dealings with Egypt." In R.H.A., 18 (fasc. 66-67) (1960), 59 ff.

عدة وانتهى الراى الى أنه هو توت عنخ آمون(١) ، زوج ابنة اخناتون . وقد ارسلت ارملة هذا الفرعون رسالة(٢) الى شوپيلوليوماش ، جاء فيها ما يلى : « مات زوجى ، وليس لدى ولد . وقالوا عنك أن لديك أولادا كثيرين . ويمكنك ان تعطينى واحدا من أولادك ، ويمكنه أن يصبح زوجى . اننى لا ارغب فى الزواج من احد اتباعى ، اننى ممتنعة عن جعله زوجى . » ولقد كان هـذا العرض غريبا على شوپيلوليوماش حتى انه استدعى الاشراف لمشاورتهم الراى ، واستقر مبدئيا على أن يفحص الموضوع ، ان كان الطلب جادا أم لا . وقد ارسل الى مصر أحد كبار الموظفين ، خاتوشا ـ زيتيش Khattusha-zitish . واثناء غيابه فى مصر تم الاستيلاء على كركميش .

وقد عاد خاتوشا ـ زيتيش فى السنة الرابعة (بالنسبة لهذه الحملات) برسالة من ملكة مصر ، فيها تشكو بمرارة من عدم الثقـة والتردد ، ثم نجدها تضيف الى ذلك قائلة : « اننى لم أكتب الى أى قطر آخر ، لقـد كتبت الك فقط . . . سوف يصبح زوجى وملكا على مصر » . عند ذلك استجاب شوپيلوليوماش لرغبتها . وارسل زانانزاش Zannanzash الى مصر ، ولكن لم يصل هذا المبعوث الى وادى النيل . فقد اغتيل فى الطريق بواسطة حزب آخر لم يرض عن تحقيق رغبة الملك ، واننى ارجح انه حورمحب الذى كان من الشعب وترقى الى سلك الجنـدية ، فخدم فى بلاط امنوفيس الرابع وكذلك أيام توت عنخ آمون وآى ، كان هـذا المواطن على راس الاحرار من المصريين الذين دبروا خطة اغتيال هذا الامير الحثى . وبذلك العمل جنب حورمحب أبو الشعب وصديق الفلاح وطنه محنة كان سيقع فيها ، وهو تولى أجنبى عرش فراعنة البلاد ، ولربما او اتى هذا الامير لتغيرت صفحات تاريخ مصر . لكن استطاع هذا الفـلاح المصرى أن يوقف امتداد سلطان الحثيين . وقد بلغ العرش فاستقبله الشعب فى طيبة استقبالا رائعا مقدرا له صنيعه هذا . وقد حقق حورمحب للشعب امانيه فرفع عنه الظلم ورد له حقوقه ، ونجح فى كل ذلك لانه فلاح من الشعب ، قاسى كثيرا وتألم كثيرا ، وخالط الافراد ، وعـرف مواطن الضعف فوقاه الله وسدد خطاه . ولا زال اسمه خالدا وذكراه باقية ، فهو واحد من ابناء شعب مصر وصل الى العرش لكفاءته وامتيازه وموقفه الاخير الرائع .

---

(١) J. Vergote, Toutankhamon dans les archives hittites (Uitgaven van het Nederlands Hist.-Arch. Instituut te Istanbul, XII, 1961).

(٢) W. Federn, "Dahamunzu KBo V 6 III 8." In J.C.S. 14 (1960), 33.

وكان لقتل هذا الامير الحثى أثره فتحركت وحدات من الجيش الحثى في حمله الى العمق . وهى الحملة الخامسة فى سلسلة حملات هـذه الفترة الست ، وحين عودتهم حملوا معهم وباء قضى على كثير من الناس.

قام شوپيلوليوماش باعادة تنظيم شمالى سورية بعد سقوط كركميش: فقد عين ولديه پياشيليش ملكا على كركميش وتيلپينوش ملكا على حلب (وحتى هذا الوقت كان احدهما كاهنا لكومانى) .

ولقد كان لسقوط توشراتا أثره فى تحرير اشور الامر الذى لم يرتاح أبيه الحثيون ، وأدرك شوپيلوليوماش خطورة الموقف الناجم عن ذلك . وحتى يتفادى تلك النتيجة ، فكر فى تسخير كورتيوازا ، الامير الميتانى فى بلاطه . فهذا پياشيليش ، الملك الجديد لكركميش ــ وقد أصبح اسمه حاليا شاره ــ كوشوخ Sharre-Kushukh ــ كلف بالعمل على اعادته كملك على واش شوجانى . وغالبا ما يكون ذلك العمل هو الحلقــة السادسة فى الحملات الحورية ، وقد تضمنت حملة مسلحة تسليحا قويا . فلقــد بدأ الاميران الحملة من كركميش ، عابرين الفرات ، فهجما على اريته Irrite وقد ادرك سكان هذه المدينة والبلاد حولها ، بعد قتال مرير ، حيث وجدا انه لا فائدة من المقاومة ، فسلموا ثم سلمت بعد ذلك حران . واذا ماتقدمت الجيوش نحو واش شوجانى ، عند ذلك اصبحوا قاب قوسين او ادنى من الاصطدام مع الاشوريين ، اى مع آشور ــ اوباليت ، وكذلك مع ملك بلاد حورى . ولكن الجيوش الحثية قد استطاعت ان تدخل العاصمــة وسط هتاف الجماهير . وقد أصبح التقدم شرقى واش شوجانى صعبا ، وخصوصا بعد فقدان المؤنة . ولم يفقد الاشوريون المعركة وانسحبوا . وتقهقر شوتارنا فيما وراء الفرات العلوى ولم يستطع أن يقوم الا بمقاومة لا أهمية لها فيما وراء ذلك الخط . واصبح ذلك المكان الحد الشمالى الشرقى لمملكة كورتيوازا . وقد عقــد شوپيلوليوماش معاهدة مع الملك الجديد . وقد أصبح كورتيوازا عضوا من افراد العائلة المالكة وذلك بعد زواجه من احدى بنات الملك شوپيلوليوماش .

وفى الوقت الذى اتجهت فيه هذه الحملة الى بلاد ميتانى ، أو فى السنة التالية لها ، ارســل أرنوواندااش ولى العهد فى حملة ضد مصر . ولم يعرف تفاصيل ذلك .

مات شوپيلوليوماش حوالى عام ١٣١٦ ق.م. وربما وقع فريسة للوباء الذى جاء فى ركاب العساكر الحثية التى عادت من العمق . اما مصر،

فقد كانت فى الفترة الاخيرة من عهد العمارنة وقد شغلت بأمورها الداخلية نتيجة ثورة اخناتون الدينية وما اعقبها من اضطراب داخلى كل ذلك قد شغلها عن حدودها الشرقية . وكذلك الاشوريون قد كانوا يقومون باعادة تنظيم انفسهم بعد تحررهم من الميتانيين ، وعلى ذلك لم يستطيعوا بعد معارضة الحثيين والوقوف أمام تقدمهم . وعلى ذلك فقد انتهى الصراع من أجل سورية فى نهاية القرن الثالث عشر .

* * *

بلاد الاناضول من أيام شوبيلوليوماش إلى معركة المصريين مع مورشيليش

١ ـ اعادة تنظيم القوات الحثية

كيف كانت حال دولة الحثيين حينما ظهر شوبيلوليوماش على المسرح وحينما اشترك فى الحكم كولى للعهد وكقائد حربى ؟

جاء فى الخبر أن البلاد كانت حدودها جميعها معرضة لهجوم الأعداء . فجماعات كاسكا من الشمال قد هاجمت أراضى خاتى نفسها واحتلت نيناششا Nenashsha ، وقد قاموا بحرق العاصمة خاتوشا نفسها . وانقض ناس من ارزاوا ، الواقعة فى الجنوب الغربى على الاراضى السفلى واحتلوا تووآنووا Tuwanuwa واودا Uda ، واندفع الازيون Azzians من الشرق نحو الاراضى العليا واحتلوا شاموخا . وقامت جماعات من آراوانا Arawanna ، الواقعة فى الشمالى الشرقى ، ومن اشوا Ishuwa وارماتانا Armatana ، الواقعة فى الجنوب الشرقى بغزوات خفيفة وبلاد تيجاراما Tegarama فوصلوا بالتوالى على بلاد كششيا Khashshiya ومدينة كيزواندا . ومن ذلك يتضح أن المملكة الحثية قد قضبت حدودها وانكمشت وضاعت فى هذا الوقت جميع ملحقاتها على الحدود فى سورية وآسية الصغرى .

وقد نجح شوبيلوليوماش كولى للعهد فى توطيد الحالة فى الفترة الأخيرة من أيام والده تودخالياش . فقد قاد الجيوش الحثية بمهارة وأعاد البلاد الى حدودها الطبيعية ، خصوصا فى الشمال والشرق . وبعد أن تولى العرش استمر فى نشاطه بهمة متزايدة .

كان عليه أن يراقب بحذر وعناية ما يدور فى الحدود الشرقية عند بلاد آزى Azzi (والتى تسمى أيضا خاياشا Khayasha) ليس فقط لعلاقتها ببلاد خاتى بل أيضا لاعادة مكانة الحثيين فى سورية .

وقد استطاع شوبيلوليوماش فى خلال عشرين سنة اعادة الحدود

الشمالية كما كانت عليه من قبل . ولقد كان لكثرة تغيب الملك فى سورية ولضعف الحثيين أثره فى استمرار تعرض تلك الحدود الى هجوم الأعداء.

أما بلاد أرزاوا (وقد كانت تشمل كواليا Kuwaliya ، وخاپالا Khapalla ، وبلاد نهر شيخا Shekha-River) والتى كانت تشغل غربى آسية الصغرى كانت مستقلة أغلب فترة حكمه . وجدير بالذكر أن تارخوندا ــ رادو Tarkhunda-radu صاحب ارزاوا كان يراسل امنوفيس الثالث وقد تباحث الاثنان فى أمور خاصة بالزواج ، وكانت المراسلات تنم عن روح طيبة . وليس معنى ذلك أن شوپيلوليوماش لم يحاول المحافظة على سلطانه على بلاد ارزاوا ، ولكنه وطد هذا السلطان ونجح الحثيون فى تثبيت حدودهم ، الشمالية الغربية أكثر من الجنوبية الغربية .

وعند نهاية حكم شوپيلوليوماش ، وحينما كان مشغولا فى حربه مع الحوريين ، عادت بلاد ارزاوا للثورة عليه . وكانت الجهة الجنوبية لأرزاوا محمية بخانوتيش Khanuttish حاكم الأرض السفلى ، أما الجهة الشمالية لأرزاوا فقد قام على حمايتها امارة ويلوسا Wilusa الموالية للحثيين . ومن الجائز أن وها ــ زيتيش Uhha-zitish صاحب أرزاوا ــ والذى لابد أنه حل مكان تارخوندا ــ رادو ــ قد دخل فى علاقات مع بلاد اهياوا Ahhiyawa .

وسوف يظهر بعد ذلك وها ــ زيتيش على المسرح ويصبح من الأعداء الغربيين للحثيين . وقد أغرى مدينة ميلاواندا Millawanda ودفعها للمطالبة بالاستقلال واستحثها للدخول فى محالفة مع بلاد أهياوا . ولكن بلاد ميرا Mira لم تتدخل فى هذه الاحلاف ضد الحثيين ، وقد فر ماشخويلواش Mashkhiuluwash صاحب ميرا رافضا الثورة التى أثارها اخوة له ضد الحثيين . وقد استقبله الحثيون أستقبالا حسنا وتزوج أبنة الملك مواتيش Muwattish ووعد بأن يعمل الحثيون على اعادة الأوضاع فى امارته الى حالتها السابقة . وقد كان شوپيلوليوماش مشغولا فى الشئون السورية وذلك لتحقيق وعوده . وقد تطورت الحالة فى أرض نهر شيخا بنفس الروح التى سارت عليها فى بقية الامارات . فقد وضع ماناپا ــ تاتاش Manapa-Tattash فى المنفى بواسطة اخواته ، وقد وجد ملجأ فى كاركيشا Karkisha حيث حمته السلطات الحثية . وقد عاد الى بلاده . كما أن مورشيليش خليفة شوپيلوليوش قد استخدم ماشخويلواش صاحب ميرا لاعادة سلطان الحثيين فى آسية الصغرى .

ما من شك فى أن حملات سورية التى لم تنته ، والتى وجهت أولا

ضد توشراتا وأخيرا ضد المصريين والاشوريين والى أى قوات أخرى حاولت أن تقف فى وجه الحثيين ، كل ذلك كان له أثره فى اجهاد الخزانة الحثية . وما من شك ان سورية أخيرا قد وقعت فى قبضة يده فى نهاية حكمه ، ولكن أهملت الشئون الداخلية من الناحيتين السياسية والدينية . وحينما مات الملك ثارت عليه الاقطار المتطرفة . والى جانب أرزاوا ، فقد تضمنت الاثبات كيزوادنا وميتانى وأراواثا Arawana وكالاشما Kalashma التى تقع فى الشمال الغربى لآسية الصغرى ، ولوكا Lukka وپيتاششا Pitashsha فى الوسط ، وفوق هؤلاء جميعا جماعات تاسكا فى الشمال . وفى الواقع كانت البلاد حين وفاته فى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار كما كانت حينما تسلم شوپيلوليوماش عرش البلاد من قبل .

٢ – الامبراطورية الحثية فى عهد مورشيليش

كان ارنواوانداش Arnuwandash بن شوپيلوليوماش هو الخليفة المباشر ، لكنه كان مريضا . وكل الذى فعله فى الفترة القصيرة التى عاشها هو تثبيت أخيه پياشيليش ملكا على كركميش وتعينه أيضا فى وظيفة كبرى . وقد كان هذا الأخير هو دعامة الحكم الحثى فى الولايات الواقعة جنوبى طوروس ، وسوف يعرف بعد ذلك بالاسم الحورى شاره – كوشوخ .

تولى بعد ذلك الابن الأصغر لشوپيلوليوماش ، مورشيليش Murshilish ، وكان لازال صغير السن . كانت البلاد السفلى ، وهى الاقليم من هضبة الأناضول الذى يحمى الحدود تجاه بلاد أرزاوا ، يشرف على ادارتها خانوتيش Khanuttish . ومن سوء الطالع ، أنه مات مباشرة بعد تولى مورشيليش . وقد دفع ذلك الى النظر بعين الرعاية الى هذا الاقليم وتعزيز القوات المسلحة فيه لتوطيد أركان الحاكم الجديد .

كانت سورية أيضا مهددة بتدخل الآشوريين ، فقد كان من المنتظر أن آشور – أوباليت سوف يهاجمها فى هذه الفترة التى انتقل فيها الحكم الى مورشيليش وأمام تلك الظروف التى تنذر بالسوء عمل مورشيليش على تقوية أخيه شاره – كوشوخ ملك كركميش . ولقد كانت ميتانى فى هذه الفترة تسير فى فلك الآشوريين .

أما مصر فبالرغم من الثورة الدينية التى مرت بها بلادها أيام اخناتون وقيام حورمحب باعادة الأمور الى نصابها ، فان موقفها بالنسبة للحثيين كان مربكا .

وجه مورشيليش عنايته وجهوده فى العشر سنوات الأولى من حكمه نحو اعادة تثبيت قوة الحثيين ، خصوصا فى آسية الصغرى . وكان هدفه الرئيسى هو اخضاع ارزاوا الواقعة فى الجنوب الغربى لآسيا الصغرى . ولكن قبل أن يحقق هذه الرغبة ، كان عليه أن يحمى مؤخرته ، وذلك بالضرب على أيدى الثوار من جماعات كاسكا . وقد قام بذلك العمل فى السنتين الأولتين من حكمه وجزء من السنة الثالثة . وبعد ذلك أحس مورشيليش فى نفسه القدرة على ضرب أوها ــ زيتيش Uhha-zitish صاحب أرزاوا . وقد انحاز الى هذا الأخير الولايات الآتية : خابالا ، وميراكواليا وبلاد نهر شيخا . أما ويلوسا Wilusa فقد كانت موالية لمورشيليش كما كانت من قبل مع والده . ولكن أوها ــ زيتيش قد أغرى ميلاوندا ــ وغالبا أنها كانت مركزا هاما ــ على هجر الحثيين والوقوع فى أحضان ملك اهياوا Ahhiyawa . وأول خطوة قام بها مورشيليش هو التوجه الى ميلاوندا ، وقد نجح .

وقد استطاع فى السنة الثالثة القيام بحملته الرئيسية . وقد عاونه شاره ــ كوشوخ ، ملك كركميش بوحدات من سورية . أما القوات المعادية له من أرزاوا فقد كانت تحت اشراف بياما ــ اناراش Piyama-Inarash ابن اوها ــ زيتيش لان الاخير كان على فراش الموت . وقد استطاع مورشيليش أن يهزمه عند والما Walma على نهر أشتاربا Ashtarpa . وقد تبعه حتى دخل اپاشا Apasha عاصمة أرزاوا . ولكن فر أوها ــ زيتيش عبر البحر .

وبقى وراء مورشيليش بعد ذلك العمل على القضاء على مركزين من مراكز المقاومة هما الحصون الموجودة فى جبال أرين ناندا Arinnanda وپوراندا Puranda . وقد استطاع أن يستولى على الأول قبل نهاية العام الثالث وترك الثانى للعام المقبل . ثم تراجع الحثيون بعد ذلك الى نهر اشتاربا حيث أقاموا فى معسكر لهم الشتاء كله بينما عادت القوات السورية الى بلادها .

ولما حل الميعاد المناسب لاستئناف القتال ، توجهت الجيوش الى پوراندا فقهرتها . وقد مات آوها ــ زيتيش أثناء الشتاء ، ولكن ولد آخر له وهو تاپالازاناوليش Tapalazanaulish نظم المقاومة . ولما طلب منه التسليم رفض . وحملت عليه الجيوش الحثية حتى سلم الحصن وفر هو لاجئا الى ملك اهياوا . والظاهر أن مورشيليش طالب بتسليمه ، وقد أجيبت رغبته . واذا صح ذلك ، فلا بد افتراض وجود معاهدة تسليم اللاجئين بين كل من الحثيين واهياوا .

بعد ذلك النصر الذى احرزه الحثيون على أرزاوا ، تسابق أمراء أرزاوا كل وراء الآخر وسلموا دون مقاومة .

وقد أمضى مورشيليش السنتين الخامسة والسادسة وغالبا السابعة على حدود كاسكا . وتوجه فى السنة السابعة الى ازى ــ خاياشا Azzi-Khayasha الواقعة فى أقصى الشرق من الأناضول . وفى السنة التاسعة من حكمه جاءته أخبار تفيد بوقوع تهديدات فى سورية : من بلاد نوخاش وقادش . وقد ثبت الآن لمورشيليش انه اصبح على رأس المصريين رجل من الشعب هو حورمحب الذى أعاد النظام فيها وبدأ يفكر فى السياسة الخارجية . وقد قام شاره ــ كوشوخ ولى عهد الحثيين فى سورية بابرام معاهدة مع نيقمادو صاحب أوغاريت وطلب منه معونة حربية . وفى الوقت نفسه هجم العدو من خاياشا على الأراضى العليا واستولى على مدينة اشتيتينا Ishtitina وحاصر كانووارا Kannuwara . وقد اضطر مورشيليش الى العودة الى كومانى لأداء بعض الطقوس الدينية . وقد استطاع شاره ــ كوشوخ اعادة الأمور الى نصابها فى سورية واتحد مع أخيه فى كومانى ولكنه مرض ومات هناك .

وكان لوفاة شاره ــ كوشوخ أثره فى حدوث اضطرابات جديدة فى سورية ، فقد تحرك الآشوريون لمهاجمة كركميش . ووزع مورشيليش قواده على المناطق الثائرة . وذهب هو بنفسه الى اشتاتا على الفرات . وقد ضرب الثائرون من السوريين على أيديهم . واغتيل ايتاكاما صاحب قادش بواسطة ولده أرى ــ تشوب Ari-Teshub ، وقد عينه مورشيليش أميرًا على قادش . ولما وصل مورشيليش الى كركميش عين عليها ابن أخيه المتوفى شاره ــ كوشوخ . كما عين فى الوقت نفسه تالمى ــ شاروما Talmi-Sharruma بن تيليبينوش ملكا على حلب . ولقد كان ملك كركميش يلعب دور ولى عهد الحثيين فى سورية .

ومن الجائز أن مورشيليش قد جدد العهد مع نيقمپا Niqmepa ملك أوغاريت . الذى كان مرتبطا به والده شوپيلوليوماش مع نيقمادو والده .

ولقد عادت أرزاوا مرة أخرى للخروج على الحثيين ولكن تمكن مورشيليش من اخضاعها .

أما الحالة فى حدوده عند الفرات فقد كانت غير مستقرة . فلم يتوقف ضغط الآشوريين .

ولقد انشق سيانى Siyanni على أوغاريت فانقسمت البلاد التى

كان يمتلكها تيقمپا ، واعترف بذلك ملك الحثيين ، ووضــع سيانى تحت رقابة ملك كركميش . ولما اختلف بعض حكام المدن مع بلاد نوخاش ، مال الحثيون الى هذه المدن ضد ملك نوخاش . وقــد سار الحثيون على سياسة فرق تسد .

أما الاموريون فقد ناصروا الحثيين . فهــذا الرجل الكهل العتيــد أزيرو قد استمر على ولائه للحثيين . ولما مات عين الحثيون ولده دو ــ تشوب Du-Teshub مكانه وبعد ذلك أيضا عين حفيده توپى ــ تشوب Tuppi-Teshub .

ومن الراجح أن مورشيليش اما قام بنفســه على رأس حمــلة الى القسم العلوى من بلاد الرافدين أو انه أرســل أحدا من قواده . فقــد أشار مواتاليش Muwatallish خليفته على عرش الحثيين الى اعتبار ميتانى من الولايات الموالية له . وعلى ذلك فغالبا أن الحثيين قد أعادوها مرة اخرى الى حظيرتهم من أيدى الآشوريين فى العهد السابق .

لم تسعفنا الأيام عن وثائق تسجل نشاط مورشيليش الحربى . على أن حرب العصابات لم تتوقف عند حدود كسكا . وقد كان الملك لا يتوقف عن تأمين حدوده ضد هذه الجماعات وغالبا أن مورشيليش هو الذى بدأ بناء جسر على الحدود بين بلاد الحثيين وكسكا .

وخلاصة القول أن مورشيليش قد استطاع أن ينظم امبراطوريته وأن يحافظ على حدودها كما كانت أيام والده شوپيلوليوماش ممتدة من لبنان والفرات فى الجنوب الى مرتفعات بونتس Pontus فى الشمال ووصلت غربا الى آسية الصــغرى . ومن القــريب أن جزيرة قبرص Cyprus والتى تسمى بعــد ذلك الاشــيا (Alashiya) لم تدخل ضــمن مملكة الحثيين . لقد راسل ملوك قبرص رأسا أمنوفيس الرابع (اخناتون) ، وكانت عبارة عن ملجأ لهؤلاء الذين يتعرضون للخطر .

ولم تصلنا معلومات وافية عن الادارات الداخلية للأمبراطورية الحثية أثناء عهد مورشيليش . وجدير بالذكر أن نشير الى الخلاف الذى وقع بينه وبين تاوان ناناش Tawannannash الملكة الأخيرة لشوپيلوليوماش . وقد عاشت فيما بعد أيام زوجها ، وحكمت كملكة أثناء الجزء الاول من حكم مورشيليش . وقد اتهمت بكثير من التهم ، وأخصها أنها تسببت فى وفاة الزوجة الصغيرة للملك بالسحر الآسود . وجدير بالذكر أن تاوان ناناش أصلا اميرة بابلية .

غالبا أن مورشيليش حكم أكثر من اثنين وعشرين سنة . وقد سبق أن ذكرنا أن شوبيلوليوماش والد مورشيليش قد مات بعد وفاة توت عنخ آمون . (١٣٣٦ ق.م) . واذا افترضنا أن حكم مورشيليش قد استمر حوالى خمسة وعشرين سنة ، فمعنى ذلك أنه انتهى عام ١٣١٠ أو قبل ذلك بقليل . وغالبا أن الحملة التى جردها سيتى الأول على آسيا قد وقعت فى نهاية حكمه أو فى الأيام الأولى لحكم ولده مواتاليش Muwatallish

* * *

آسية الصغرى أيام حكم مواتاليش

قلة من الوثائق المعاصرة لعهده حدثتنا عن نشاطه ، لكننا عرفنا تاريخه من نصوص تركها أخوه الصغير ومنافسه خاتوشيليش .

لقد كانت العلاقات فى بادىء الأمر بينه وبين أخيه خاتوشيليش طيبة . وقد عين مواتاليش أخاه القائد الأعلى للقوات الحثية . وبالاضافة الى ذلك جعله حاكما على الأراضى العليا التى كانت تشمل المدينة الهامة شاموخا Shamukha . .

وقد قاد خاتوشيليش جيوش الحثيين فى حملات كثيرة دفاعية وهجومية . ولكن لم نعرف تفاصيل تلك الحملات . وفى بعض الأحيان قاد الحثيين الى أرزاوا بينما كان يقوم أخوه بالضرب على أيدى جماعات كسكا . ولقد حدثنا خاتوشيلبش عن عشر سنوات من حروب خاضها من أجل وطنه .

أما عن الحروب التى قامت ضد أرزاوا فلا نعرف تفاصيلها أيضا الا أن النتائج قد وصلت الينا من بعض الوثائق . ففى هذا الوقت كانت بلاد أرزاوا تتكون من اربع امارات : أرزاوا الأصلية ، ميرا ــ كواليا ، خاپالا ، ويلوسا . والنتيجة أن خضعت هذه الولايات الأربع واصبح حكامها موالين للملك العظيم . أما بلاد نهر شيخا فلم تصبح فى هذه الفترة ضمن أراضى أرزاوا . وقد خضعت جميع البلاد المجاورة للأراضى الحثية لملك الحثيين .

أما الحدود الشمالية ، فبالرغم من النتائج الطيبة لحملة أرزاوا ، فقد ظلت الحالة فيهــا غير مستقــرة . وما من شك أن كاسكا كانوا يقــومون بغارات خطيرة .

وبين كل هذه الأزمات ، كان يستعد مواتاليش للقيام بحملة كبيرة ضد

سورية . بدأ بتجهيز الجيش وتعزيزه بوحدات اضافية من التى استغنى عنها بعد التحصينات التى قام بها فى حدوده الشمالية ليتجنب هجمات جماعات كسكا . ومن الأمور التحفظية التى اتبعها أن نقل عاصمته من خاتوشا ، التى كانت على بعد قريب من الحدود ، الى تاتاششا Tattashsha . وقد بقى خاتوشيليش فى الشمال ليراقب تحركات جماعات كسكا . وقد ازدادت قوة خاتوشيليش حتى أصبح اقوى شخصية فى بلاد خاتى والثانى بعد الملك نفسه .

* * *

الحثيون وسورية من عام ١٣٠٠ الى ١٢٠٠

١ ـ الحكم الأخير لمواتاليش

حينما غزا شوبيلوليوماش سورية ، اعتبر قادش وامورو حدود الحثيين الجنوبية . وحينما تولى ملوك الأسرة التاسعة عشرة فى مصر عرش الفراعنة وضعوا نصب أعينهم اعادة سلطان مصر فى سورية .

لما تولى سيتى الأول الحكم (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ ق.م تقريبا) جرد حملة على سورية صورت مناظرها على الجدار الخارجى لردهة العمد الكبرى من الناحية الشمالية . كما ذكرت نصوص الكرنك أيضا القضاء على بلاد قادش وبلاد امورو . وقد كشف فى قادش نفسها وفى تل شهاب وفى حوزان عن لوح ذكر على كل منهما اسم سيتى الاول . وفى بعض مناظر الكرنك نرى سيتى الاول يحارب الحثيين وكان يحكمهم مواتاليش .

قام سيتى الأول فى السنة الرابعة والسنة الثامنة من حكمه بنشاط عسكرى نحو قبيلة معادية . وقد سجل الكتاب العسكريون غير حوادث الحملة ومراحلها والصور الطبوغرافية ثبت بأسماء البلاد التى قضى عليها . ولا نستطيع أن نصدق ما جاء فى هذه القائمة . ومن الجائز انها تشمل البلاد التى خضعت له بعد أن حاربها وانتصر عليها وكذلك التى خافت بأسه فقدمت له الولاء . وهناك قائمة اخرى كتبت على تمثال لفرعون على هيئة أبو الهول عثر عليه فى معبد سيتى الأول الجنازى بالقرنة ذكرت فيها أسماء منازل أصحاب الأقواس ، ثم بلاد خيتا وبلاد نهرين الخ .

لقد قام سيتى الأول بقتال الحثيين نتيجة للخطر الذى كان يهدد مصر من جراء طموحهم . وكان الحثيون يحاولون أن يعيدوا بناء مجدهم على حساب ما أصاب مصر . ولم يأت تفاصيل الحرب التى دارت بين المصريين ومواتاليش . وانما ذكرت فقط ان سيتى قد عاد من هذه الحرب منتصراً . ويقينى أن نتائج هذه المعارك لم تكن حاسمة . اذ اننا سنسمع بعد قليل خروج ولده رمسيس الثانى الى تلك الاقاليم .

ولما تولى رمسيس الثانى (١٢٩٠ — ١٢٢٤ ق.م تقريبا) أرسل اليه مواتاليش الرسالة الرسمية المألوفة فى مثل هذه المناسبات ، ولكنه لم يكن كما اعتبرته بعض الوثائق (١) المصرية من رعايا فرعون .

لقد أصبح الآن مواتاليش على أهبة الاستعداد للضربة الكبرى . وقد ذكرت الوثائق المصرية (٢) اثبات بفرق الجيش الحثى التى جمعها عاهل الحثيين . وقد جاء فيهما أن مواتاليش « قد جمع معه كل الدول من أطراف البحر الى أرض خيتا Kheta » .

وجدير بالذكر ان هذه الدول قد احصيت فى الوثائق المصرية ، واغلبها ذكر أيضا فى الوثائق الحثية . وقد القت هذه الوثائق التى ضمت أسماء الدول المختلفة ضوءا على اتساع نفوذ الحثيين أيام مواتاليش . وأول دولة ذكرت بعد خاتى نفسها نهرين ثم ارثو (أى ميتانى وارزاوا) . وكان يطلق على هاتين الدولتين بالحثية « دول كويروانا Kuirwana Countries » . ويلى ذلك مجموعة دول الأناضول : دردنى Drdny ، مس Ms ، پدس P'ds ، ارون Irwn ، قرقس Krks ، الك Lk . وجميعها ذكرت فى النصوص الحثية ما عدا الأولى ، وقد أمكن تحديد مكانها فى وسط وغربى الأناضول . ويضم الثبت احصاء الدول الجنوبية الشرقية وسورية ما يلى : قچودن ، كركميش ، اكرث ، قد ، نوجس ، موشانت ، قدش . وهى تقابل الأسماء الحثية الآتية : كيزوادنا Kizzuwadna ، كاركاميش Karkamis ، أوغاريت Ugarit ، (غالبا) خابا Khaba ، نوخاش Nukhash ، كينزا Kinza . ولم تذكر موشانت . وليس بغريب عدم ذكر امورو لانها كانت قد خضعت مؤقتا الى المصريين .

جمع مواتاليش تلك الحشود المختلفة بالقرب من قادش الواقعة على نهر الأورنت حيث دارت المعركة الفاصلة . وقد عرفت هذه المعركة أكثر من غيرها من المعارك فقد وضعها رمسيس الثانى وتباهى بذلك فى عدد من دور العبادة المصرية (٣)

(١) Pap. Anastasi, 2, 1 ff.

(٢) W. Helck, Die Beziehungen Aegyptens zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend v. Chr. (Aegyptol Abhandl. 5). Wiesbaden, 1962, 200 ff.

(٣) W. Wreszinski. Atlas zur altägyptischen Kulturgeschichte, II. Leipzig, 1935, pls. 16-25 (Abydos); pls. 63-64 (Luxor); pls. 92-95 (Ramesseum 1st courtyard); pls. 96-99 (Ramesseum 1 pylon); pls. 100-106 (Ramesseum 2nd pylon); pls. 169-178 (Abu Simbel).

« ففى معبد الاقصر : نقشت على البوابة الكبرى الخاصة برمسيس الثانى ، وعلى الحائطين الجنوبى والجنوب الشرقى للردهة ، وكذلك على الحائط الغربى من الخارج لردهة أمنحتب الثالث .

وفى معبد الكرنك : نقشت على الحائط الخارجى لردهة العمد الكبرى، وعلى الحائط الخارجى بين البوابتين التاسعة والعاشرة .

وفى الرمسيوم : نقشت على البوابة الثانية .

وقد زودت المعركة بكثير من الرسوم التوضيحية لبعض المواقع وبعض الحوادث التى كانت تحدث فى المعركة . والوثيقة الثالثة كما عرفها علماء المصريات هى « قصدية أو شعر بنتاؤر The Poem of Pentaur » ، وهى نصوص طويلة توصف حاليا كأنها اشعار ، وحقيقة الامر انها ليست شعرا بل هى حوادث تاريخية كغيرها من الحوادث التاريخية التى قام بتسجيلها المصريون القدماء عن أعمالهم الحربية . اما عن نسبتها لبنتاؤر فلم يكن ذلك الا لانه ناسخها وليس كاتبها الاول . قام بنتاؤر بتدوينها من أصل كان موجودا فى وقتها ولكنه فقد ولم يسجل عليها اسم صاحب من نقل منه النص . وقد اقتسم كل من متحفى اللوفر والمتحف البريطانى البردية التى لازالت محفوظة بهما . وقد لوحظت اخطاء فى النص الهيروغليفى أعيد تصحيحها من النسخ الثمان الموجودة بالكرنك والاقصر وابيدوس والرمسيوم ، بينما غالبا ما نشرت الرواية القصيرة والتى عرفت (بالتقرير) او (النشرة) من هذه المعابد نفسها ، غير أنه لم يعثر عليها فى الكرنك ولكن فى المقصورة الكبرى بأبو سمبل .

تحركت الجيوش المصرية وفى مقدمتها رمسيس الثانى على الحدود الشرقية عند ثارو فى ربيع السنة الخامسة من حكمه ، وبعد مسيرة شهر تقريبا وصل الى ارتفاع شاهق يستطيع أن يرى منه معاقل قادُش . وعلى بعد حوالى ١٥ ميلا ، وهى مدينة تل النبى مند ، وتقع فى الزاوية التى تتكون من المصب الشمالى لنهر الاورنت ورافد يأتى من الغرب (وهو ما يسمى الموقادية = انظر خريطة موقعة قادش أيام رمسيس الثانى مصورة فى نهاية كتاب مصر الخالدة ، نقلا عن كتاب Daumas (١)

وترجع أهمية موقعها الحربى الاستراتيجى الى انها كانت تقع بالقرب من

---

(١) F. Daumas. La Civilisation de L'Egypte Pharaonique (Paris 1965), p. 409).

مخرج المستوى العالى للوادى بين سهول لبنان المسماه البقاع . وكان على كل جيش يريد الاتجاه الى الشمال أن يسير على طول هذا الوادى وذلك لتجنب الطريق الضيق .

سبق أن ذكرنا (١) عند الحديث عن حروب سيتى الاول انه ستولى على قادش . ولكنها وقعت فى قبضة الحثيين . كان هدف رمسيس الثانى من وراء تلك الحملة أن يستولى على تلك المدينة . وقد قسم جيشه الى أربعة أقسام (آمون) و (رع) و (سوتخ) و (پتاح) ، وقد ظهر هنا الاله الاخير لاول مرة وهو رب (منف) . وقد قضى رمسيس ليلة على قمة التل السابق ذكره والذى يقع الى الجنوب من قادش . وفى صبيحة اليوم التالى تقدم الجيش ، وكان يأمل الاستيلاء على المدينة قبل أن يحل الظلام . وقد نزل على رأس فيلق آمون ، وعلى بعد حوالى ٦٠٠ قدما من مخاض الاورنت . والى الجنوب تماما من بلده شبتونا Shabtuna وهى بلدة ربلة الحديثة . اما الفيالق الاخرى فكانت خلفه تتبعه . وفى تلك المنطقة (منطقة شبتونا) جىء ببدويين ، اما قبل عبور النهر أو بعده . ولما استجوبا ذكرا أنهما كانا مع ملك الحيثين ولكن لهما رغبة فى الهروب مع فرعون . كما أخبرا رمسيس أن جيش الحثيين لا زال بعيدا عن هذا المكان فى أرض خالب Khaleb اى حلب Aleppo التى تقع الى الشمال من تونب . وهذه الاخبار كانت كاذبة من أساسها ، وأن هذين البدويين كانا جاسوسين ، وقد خدع رمسيس بمقالهما وتقدم هو وحرسه الى الامام وبدأ يضرب خيامه الى الشمال الغربى من حصن المدينة وعلى بعد حوالى ٦ أو ٧ أميال من المخاضة . وواضح أن الخطة الصحيحة هى ضرورة الانتظار حتى تصل بقية وحدات الجيش الى الشاطىء الايسر ، وعند ذلك يتقدم الجميع دفعة واحدة : وبدلا من أن يقوم رمسيس بتنفيذ هذا العمل تقدم الى الامام عدة أميال وضرب خيامه بين فيلق آمون وفيلق رع ، بينما كان فيلق بتاح فى الخلف البعيد ، اما فيلق سوتخ فكان بعيدا جدا حتى أنه لم يستطع الاشتراك فى المعركة ولم نسمع عنه بعد ذلك . وهنا قد وقع أمر لم يكن فى الحسبان ، فقد جاء أسيران حثيان وافشيا سرا كان له اثره على الجيوش الفرعونية . اذ ذكر أن جيش حلفاء الآسيويين جميعه قد اتفق على أن يختبىء الى الشرق من قادش ، وكانوا مجهزين بأسلحة قوية وعلى اهبة الاستعداد للقتال . وحدث فى هذه اللحظة أمر خاطىء كان له اثره السىء على الجيش المصرى ، فقد وجد رمسيس صعوبة كبرى فى الاتصال بقواده قبل ان يباغته العدو . وقد مروا حول المدينة فوصلوا جنوبها ثم عبروا النهر وقطعوا طريقهم بين فيلق رع ، وتقدموا ليضربوا معسكر آمون .

عندئذ أرسل رمسيس على وجه السرعة الى وزيره ليسارع فى العمل

---

(١) انظر كتاب « مصر الخالدة » .

عبى تقدم فيلق بتاح ، الذى حرر نفسه بصعوبة من غابة Robawi رابوى ، وبعث برسالة الى أطفال الملك للهرب خلف السياج المحيطة بالمسكر الذى لم ينته منه العمل بعد ويكونوا على أتم الاستعداد للقتال . وفى هذه اللحظة، كما جاء فى الروايتين الخاصتين بذكر حروب رمسيس كانت رغبته تمجيد نفسه ، من اجل ذلك تقدم هو بنفسه ، وكان اقدامه الشخصى واضحا تمام الوضوح الى أبعد حدود ، وصف نفسه بأنه أصبح وحيدا بعد أن تخلى عنه جيشه كله واحيط بالاعداء من الحثيين ، والذين جمع مليكهم جموعه الكبيرة من كل مساعديه حتى أقصى الغرب من الساحل الايونى ، ومن جيرانه فى آسيا الصغرى . واهم هؤلاء قوات أتت من بلاد نهرين وبلاد

أرثو وكانت هذه الاخيرة تعرف بالبابلية تحت اسم (أرازاوا) وقد جاء ذكرها فى رسائل العمارنة و (بوغازقوى) . وقوات من ارض بدس أو بدسا ويتاشا بلغة الحثيين ، وهى تقع الى الجنوب من بوغازقوى . وقوات من بلاد دورنى وهى غالبا ما تكون الدردنيل . وقوات من أرض ماسا وهى تقع عند الشاطىء الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى . وقوات من أرض قرقيش ، وكانت تقع الى الجنوب من ماسا . ووحدات من ارض لك أو لوكياوهى تقع على الساحل الجنوبى من آسيا الصغرى . وقوات من أرض كركميش وهى تقع فى أعالى نهر الفرات . وقوات من ارض قدى وهى تقع فى شمال سورية . وغيرها من القوات التى تجمعت كلها تحت قيادة ملك الحيثيين فى قادش .

أما عن مدينة قادش نفسها فقد سمعنا عنها أيام تحتمس الثالث حينما اقتحم هذا العاهل الكبير اقليم نهرين مر بقادش .

كان على رمسيس الثانى أن يواجه جيوش العدو وحده بعد أن تخلت عنه جيوشه ، وسنضع أمام القارىء ترجمة لطرف من الشعر لنعطى صورة من الاسلوب الذى قص علينا به رميسيس ذلك الحادث بعد ذلك أشرق جلالته مثل والده « منتو » وأخذ عدة الحرب ، وأحاط نفسه بدرعه ،وكان مثل «بعل» فى ساعة الشدة ، وكان زوج الخيول الذى حمل جلالته من الحظيرة العظيمة (اوسى ماع رع ستب ان رع) ، محبوب آمون ، وقد سميت (العربة) النصر فى طيبة . وبعد ذلك تقدم جلالته مسرعا ودخل فى صفوف الحثيين ، وكان وحده وحيدا ، ولم يكن أحد معه . وتقدم جلالته ليبصره ، فوجد أنهم أحاطوه من الجانب الخارجى بـ ٢٥٠٠ مركبة حربية وكذلك كل أبطال عظماء الحثيين وكثير من الاقطار الذين كانوا معه « ارزاوا » ، « ماسا » ، « بدسا » ، « كشكس » ، « اروين » ، « كيزودنا » ، « حلب » ، « أوغاريت » ، « قادش » ، « اوكيا » . وكان يوجد ثلاثة رجال على زوج من الخيول (العربة) ،

بينما لم يكن معى قائد ، ولا خادم للعربة ، ولا جندى من الجيش ولا حامل درع . وقد فر مشاتى ومركباتى أمامهم ، ولم يقف أحـد منهم ثانيـا ليقاتلهم . ثم قال جلالته : ما الذى يضايقك يا والدى آمون ؟ أيتجاهل الوالد ولده ؟ هل فعلت شيئا بدونك ؟ هل لم أتقدم وأتوقف الا حسب اوامرك ؟ اننى لا أعصى أى خطة من التى أمرت انت (بها) . ما أعظم رب مصر العظيم حينما يرى الاجانب يسحبون فى طريقه ! ما الذى يشعر (به) قلبك يا آمون نحو هؤلاء الاسيويين الذين يتجاهلون الاله ؟ ألم أقم لك كثيرا من الآثار وملأت لك معبدك بغنائمى واقمت لك منزلى لملايين السنين وأعطيتك ثروتى كملك دائم ومنحتك كل الاراضى لتزيد ثروتك ، وعملت على أن يضحى لك عشرات الآلاف من الماشية وكل أنواع الاعشاب الزكية الرائحة ؟ هل تركت عمـلا دون تنفيـذ ولم أنجز (هـذه الاعمـال) فى مقصورتك ، أقمت من اجلك ابواب كثيرة وشـيدت سـوارى أعلامهم بنفسى ، وأحضرت لك المسلات من (الفنتين) ، حتى اننى كنت حمالا للاحجار ، ومخرت من اجلك السفائن فى (الاخضر العظيم) ، لتحمل لك منتجات البلاد الاجنبية . ماذا سيقـول الناس اذا حل شيء بسيط لمن يحنى نفسه لمشورتك اى (لمن يخضع لرايك) » .

من كل ماتقدم نجد أن (رمسيس) تذكر ربه فى ساعة العسرة وتوجه اليه بالدعاء فهو واثق من عونه ، طامع فى بره ورحمته ، مؤمن باجابةطلبه، فهذا آمون يقول له « الى الامام » أمامك يا (مرى آمون رمسيس) اننى معك ... اننى أكثر نفعا من مائة ألف رجل مجتمعين معا فى مكان واحد » وعندما سمع فرعون ربه يناديه هدأت نفسه وأحس بقدرته على الجهاد ، اذ يقص علينا ما يلى « لقد وجدت عقلى ثابتا وقلبى مبتهجا وكان النجاح نصيب كل ما فعلته لانى كنت مثـل مونت عندما أشـد قوسى بيمينى ، وعندما كنت أحارب بيدى اليسرى لاننى كنت مثل بعل وقد وجدت ٢٥٠٠ عربه التى أحاطت بى كومة أمام خيلى ، وأضحى أعدائى عاجزين ، سقطت قلوبهم فى جوفهم خوفا منى ، وشلت أذرعتهم ، فلم يستطيعوا الرمى ، ولم يحركوا رمحا ، وألقيت بهم الى الماء فسقطوا كالتماسيح ، بعد أن وقعوا على وجوههم ، وذبحت منهم من أردت » . وظل يقاتل رمسيس أعداءه حتى قالوا : « ما هذا بشر آنه الاله سوتخ » و « بعل فى أعضائه » أى بعل نفسه . وولى رؤساء الجنود الادبار وفى ركابهم جنودهم .

ولما اقبل جنود فرعون أخذ يعنفهم لانهم انفضوا من حوله فى ساعة العسرة والضيق « لم يقف رجل واحد منكم ليمد يده لى وأنا أحارب » .

ثم يعود للحديث عن موقفه وحيدا مرة أخرى بعد أن يشير الى قوة آمون ومؤازرته له فيقول « سيتحدث عن ترككم اياى وحدى لا رفيق لى

ولا شريف معى ولا جنـدى يمد يده لى ، كنت احارب وحـدى ملايين البشر ، وكان معى النصر فى طيبـة و (موت الراضية) وهما فرساى العظيمان فأخذا بيدى حينما كنت وحيدا أحارب ممالك أجنبية كثيرة ، وانني لجاعل علفهما يوميا فى حضرتى ، لانني وجـدتهما (خير معين) لى وسط الاعداء ، وكذلك سائق عربتى « منا » وكذلك خدام قصرى الذين كانوا الى جانبى وشاهدوا القتال » .

بذل رمسيس جهدا كبيرا فى قيـادة مركبته وحده . والملاحظ أن رمسيس تباهى كثيرا بقوته فى هذه الساعة الحرجة . ولكن ظاهر فى كل من التقرير والمناظر المنقوشة أن رمسيس أنقذ حينما أتته فى ساعة الضيق فيالقه التى سبق ان اشرنا اليهـا وكانت مرابطة فى أرض امورو ، ومن الجائز أنهم جاءوا من المنطقة القريبة من طرابلس على طول الطريق والذى يمر فيه نهـر Eleutheros ، وعلى أية حال فقد قضـوا على الحثيين . وقد جاء فى الوثائق المصرية ذكر غرق عدد من عظماء الحثيين فى النهر أو أنهم سقطوا تحت سنابك خيل رمسيس ، ووجد بين الاعداء اخو ملك الحثيين ، والذى وصف نفسه أنه لم يشترك فى المعركة ووجـد جاثيا على ركبتيه . واخيرا جاءت فى أشعار بنتاؤر ان خطابا ورد من الحثيين يعجبون فيه من قوة فرعون مصر التى فاقت كل قوة ويطلبون منه وضع حد لتلك الحرب التى اكلت الاخضر واليابس ، وينتهى الخطاب بهـذه الكلمات « السلام افضل من الحرب ، أعطنا نسمة « الحياة » . وأما الواح بوغازقوى فتحكى قصة اخرى . فعلى لوح من هذه الالواح يسترجع (خاتوشيليش) حـوادث السنوات السابقـة ، ويروى كيف أن رمسيس قد هزم وانه تراجع حتى بلده (ابا ــ Aba) وهى تقع بالقرب من دمشق . وقد استطعنا ان نعرف من لوح آخر من الواح بوغازقوى أيضا أن (امورو) قد كانت غالبا من رعايا القوات المصرية منذ أيام سيتى الاول قد وقعت فى أيدى مواتاليش ، وقد عين هذا الاخير حاكما لها بدلا من الحاكم الموالى للمصريين .

ويقول النص الذى تركه خاتوشيليش : هزم أخى « مواتلى مملكة أبا أيضا وعاد الى بلاد خيتا ، ولكنه تركنى فى مملكة ابا » . ويميل كثير من المؤرخين الى اعتبار أن الحثيين هزموا المصريين وأخذوا منهم بلاد أمورو .

واذا دققنا الوثائق المصرية فان معنى ذلك أن رمسيس قد أحرز نجاحا كبيرا اذ انه قلل من الحصـون الفلسطينية ومنها دابور فى بلاد امورو وذلك فى السنة الثامنة من حكمه ، ومع ذلك اضطر لمهاجمة عسقلان التى لا تبعد كثيرا عن الحـدود المصرية ، والى الشمال قليلا من غزة .

وهناك حديث وقع فى مناسبة حينما حارب ضد مدينة حثية على حدود ترنب جاء فيه انه لم يرتبك وهو يضع درعه . »

قام مواتاليش بعد ذلك بتجديد المعاهدة التى سبق أن أبرمها تالمى ــ شاروما Talmi-sharruma ملك حلب ، وكان من بين شهود هذه المعاهدة شاخورونواش Shakhurunuwash ملك كركميش .

لقد فقد الحثيون كثيرا فى حربهم فى سورية . ولم يترك الآشوريون اعادة احتلال امورو وقادش (لأن نصر رمسيس كما سبق أن بينا لم يكن حاسما بالرغم من تفاخره بذلك) دون أن يعملوا شيئا . فبعد أن تولى أداد ــ نيرارى عرش آشور بمدة بسيطة ، هزم شاتوارا Shattuara ، ملك خانى جالبات Khanigalbat ، والذى لابد انه كان من نسل كورتيوازا Kurtiwaza وخلفائهم . وأخذ أسيرا الى آشور ، ولكن أطلق سراحه بعد أن أدى يمين الولاء الى أداد ــ نيرارى . ومعنى ذلك أن مناطق النفوذ الحثية والآشورية قد بدأت تصطدم بعضها البعض عند نهر الفرات .

وقد تعرض الحثيون فى شمال آسية الصغرى الى هجوم جماعات كاسكا التى انتهزت فرصة غياب خاتوشيليش وبدأوا يعودون الى اقتحام الحدود الشمالية لبلاد الحثيين . كما كان لتغيب الملك العظيم وكذلك أخيه أثره فى اعطاء فرصة لأعداء خاتوشيليش الشخصيين للعمل ضده والتآمر عليه .

٢ ــ أورخى ــ تشوب وخاتوشيليش

غادر مواتيليش الدنيا دون أن يترك وريثا شرعيا يخلفه . وعلى حسب القاعدة التى ذكرت منذ أيام تيليپينوش فى مثل هذه الحالة يتولى العرش الابن البكر لعشيقة الملك . وعلى ذلك فقد عين أورخى ــ تشوب Urkhi-Teshub ملكا . وقد اعانه خاتوشيليش على ذلك احتراما للقواعد التى نصت عليها الشريعة الحثية .

ولقد انتحل أورخى ــ تشوب اسم مورشيليش الثالث حيث وجد ذلك على خاتم رسمى عثر عليه فى راس شمرا (أوغاريت) . ولكن لم يناديه خاتوشيليش الا باسمه فقط .

ولكن ازداد نفوذ خاتوشيليش ، وقد تسمى ملك نيريك Nerik (المدينة المقدسة) وخاكپيش Khakpish لأنه خلص الاولى من أيدى

جمـاعات كسـكا . وقد بدأ يدب الخـلاف بين وخى ـ تشـوب وخاتوشيليش . وقد ثار الأخير على وخى ـ تشوب عندما رفض تعيينه حاكما على الاراضى العليـا . واصبح العـداء بينهما سـافرا واستطاع خاتوشيليش فى النهـاية أن ينتصر على أوخى ـ تشوب ويحاصره فى شاموخا ويأخذه أسيرا . واعلن خاتوشيليش نفسه ملكا . وأرسل ابن أخيه الى المنفى ، أولا الى سورية ومؤخرا اما الى بابل أو مصر أو عبر البحر الى الاشيا (قبرس) .

٣ ـ تولى خاتوشيليش الملك

سجل التـاريخ صفحات كثيرة من أيامه ، وهو نفسـه يحدثنا عن عهده قائلا : « ان الذين كانوا أصحاب ميول طيبة مع الملوك السابقين ، كانوا أيضا معى على وفاق وحب صـادق . لقد حافظوا على ارسـال البعثات وكذلك الهدايا . وما احتفظوا بارساله من هدايا لم يسبق أن أرسلوها لآبائى وأجدادى ... لقد غزوت كل البلاد التى عادتنى ، ولقد أضفت اقليما بعد اقليم الى بلاد خاتى . وأولئك الذين كانوا اعداء ايام آبائى واجدادى قد ناشدونى السلام » .

حينما تولى هذا الملك العظيم عرش بلاده كانت العلاقات بينها وبين مصر متوترة . وغالبـا أن رمسيس كتب الى الملك خطابا فاترا حينما تولى العرش ، وقـد رد عليه خاتوشيليش بنفس الأسلوب (١) . وان النجاح الذى أحرزه رمسيس فى فلسطين قد كان له اثره فى وجود حالة من التهديد تواجه الحثيين . وما زاد فى حالة التوتر هو مراسلة ملك ميرا Mira (٢) فرعون مصر . كذلك لم يكن خاتوشيليش متأكدا من اخلاص الاشوريين . وكان خاتوشيليش غير واثق من الاشوريين الذين يحتمل انهم استفادوا من انشغاله فى الحرب مع المصريين واندفعوا الى الفرات . وقد استطاع اداد ـ نيرارى الأول أن يدخل ميتانى وادعى لنفسه لقب « الملك العظيم » . وقد بان غضب خاتوشيليش فى خطاب أرسله الى عاهل اشور ، جاء فيه :

« بخصوص الاخوة ... التى تتحدث عنها ـ ماذا تعنى بالاخوة ؟ بأى عذر تتحدث عن الاخوة ....؟ اليسوا هم أصـدقاء اولئك الذين يراسلون بعضهم عن الاخاء ...؟ وما هو السبب فى أن اكتب اليك عن

(١) A. Goetze, "A new Letter from Ramesses to Khattushilish." In J.C.S.I. (1948), 244 ff.

(٢) E. Cavaignac, "La Lettre de Ramses II au roi de Mira." Dans R.H.A. 3, Fasc. 18 (1955), 25 ff.

الاخوة ؟ هل حقيقة ولدت أنا وأنت من أم واحدة ؟ كما لم يكتب إ(أبى) وجدى الى ملك آشور عن الاخاء ، حتى أنت لم تكتب لى عن (الاخوة) وللملك العظيم » .

لا يدل أسلوب هذا الخطاب على وجود صداقة قديمة بين الحثيين والاشوريين وقد دفعت هذه الحالة ملك الحثيين الى توطيد الصداقة مع ملك بابل والمساعدة المتبادلة مع كاداشمان – تورجو الكشى ليصوب ضربة حاسمة الى الاشوريين من الجنوب ولكن مات كاداشمان تورجو وخلفه كاداشمان الليل وكان صغيراً فلم تقبل حكومته الاستمرار على عهد أبيه .

ولم تستمر حالة القلق هذه عند الحثيين طويلا فقد اتفق كل من المصريين والحثيين . ففى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى وبعد ست عشر سنة من معركة قادش أبرم الملكان معاهدة الود والصداقة . وانتهى الصراع بين العاهلين الكبيرين .

وقبل ان نتحدث عن تلك المعاهدة نريد أن نعرف هل استطاع رمسيس الثانى أن يسترد شمالى سورية او الاقاليم الواقعة فى وادى الاورنت أو بلاد امورو . اننا نشك كثيرا فيما ادعاه رمسيس من انه استولى على كل ذلك . كما ان المعجزة التى ذكرها وهو هزيمته تلك الاعداد الكبيرة وحده لا يستطيع انسان ان يقبلها فى سهولة ، وانما أنقذه جيشه منها . حقيقة لا ينكر انسان شجاعة رمسيس وبأسه وقوته انما قد بالغ فى ذلك كثيرا ، وقد أراد رمسيس أن ينسب النصر لشجاعته الشخصية ، وهو فى ذلك لم يختلف كثيرا عن تحتمس الثالث حينما قاد جنده فى حصار مجدو . انما هناك فارق كبير بين تقرير كل من تحتمس الثالث فى حصار مجدو والمعركة التى دارت هناك ، وما قام به رمسيس الثانى فى معركة قادش . لقد بالغ (رمسيس الثانى) كثيراً فى تسجيل انتصاره فى قادش على المعابد الرئيسية كما سبق أن بينا ، بل ومن يدرى ربما أيضا على بعض دور العبادة التى زالت من الوجود . ان الاسهاب فى التسجيل على الصورة التى رأيناها ليدل على مركب النقص الذى كان يشعر به رمسيس من جراء تقصيره فى تنظيم فيالق جيشه ، فأراد ان يغطى هذا التقصير بكثرة التسجيل وقد لمسنا ذلك فى آثاره التى كان ينتحلها لنفسه ، فهى أيضا لون من سلوكه تلقى علينا ضوءا من تصرفاته وتفكيره واتجاهاته ، ومع ذلك فهو شجاع استطاع أن يخرج من الهزيمة مرفوع الرأس ، وبأسلوبه الدعائى استطاع أن يصور الهزيمة نصرا معتمدا على بعض الثغرات التى وجدت بين صفوف أعدائه ، ووقوع بعض أمرائهم فى الاسر ،

او غرقهم فى النهـر أو القبض على الجواسيس الى غير ذلك مما يحـدث فى الحروب .

سئمت مصر الحرب كما سئمها الحثيون ، ولا ندرى من الذى تقدم ولكننا نستطيع أن نستنتج أن كلاهما كان على اسـتعداد لعقد ميثـاق للسلام والود . أما عن تلك المعاهدة وهى معاهدة الصـداقة أو ميثاق السلام بين مصر والحثيين فقد أبرمها كل من رمسيس الثانى وخاتوشيليش وجاء ذكرها على نسخ مختلفـة فى كل من طيبـة وعاصمة الحثيين فى باغازقوى وبين كل من هاتين المدينتين حوالى ١٠٠٠ ميل وكان ذلك فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى وكتب النص الهيروغليفى على لوح أقيم على أحد حوائط الكرنك أما النص الحثى ففير كامل . وكتب على لوحين من الطين وبالخط البابلى المسمارى ، وهو صورة طبق الاصل من النص الهيروغليفى بتعبيراته وجمله . وانتهت المعاهدة بتحالف دفاعى هجومى بين كل من المملكتين ، كما أكدت ما كان موجودا من محالفات أيام حكم شوبيلوليوماش ويسرى مفعول هذا التحالف حتى فى حالة وفاة أحد الفريقين . فلا يتعدى أحد على حدود الآخر ، ويتعهد كل من الطرفين معاونة الآخر فى حالة اعتداء أى أجنبى عليه . وقد كان هنـاك شروط لتسليم مهاجرى كل من الجانبين ، واشارت المعاهدة على معاملة هؤلاء بالحسنى ، وعدم اعتبارهم مجرمين اذا ما أرادوا العودة الى بلادهم . ويختلف النص الهيروغليفى عن النص الحثيى فى انه استشهد بكثير من الآلهة من القطرين .

واضح فى النص الهيروغليفى أن الحثيين هم الذين طلبوا الصلح ، انما اعتقد أن الرسل الذين أتوا من بلاد الحثيين قد حضروا بعد اتفـاق سابق تم بين العاهلين فى مكان ما وأن مبعوثى خاتوشيليش قد جاءوا بعد محادثات سابقة وتنفيذا لاوامر ولم يكن مجيئهم لطلب الصلح . ويلاحظ أن المتن المصرى كان يبدأ بذكر ملك مصر قبل ملك الحثيين ، بينما المتن الحثيى يذكر ملك الحثيين قبل ملك مصر ، وهذا أمر طبيعى . ويلاحظ أن كلاهما يدعى أنه جعل نفسه فى معاهدة مع الآخر .

وقد لوحظ رغم تشابه النصين الهيروغليفى والمسمارى فى التعبيرات انهما لم يكونا نسخة طبق الاصـل وقع عليها كل من الطرفين كما هو المألوف فى المعاهدات او العقـود من هذا النوع ، وانما نلاحظ ان النص المصرى فى بعض الاحيان : حينما تعرض للرعايا الذين يقـومون بثـورة ضد عاهل الدولة لم يذكر ما يحدث فى الدولتين انما اهتم بالرعايا الذين يثورون ضده فيهاجرون الى خيتا فقد جاء فيه مثلا « اذا غضب رمسيس مرى آمون ملك مصر العظيم على خدم له وارتكبوا جريمة أخرى ضده ثم

ذهب ليقتل عدوه ، فان رئيس (خيتا) العظيم يجب أن يعمل معه للقضاء على كل فرد يغضب عليه » . أما فى المتن الحثى المقابل لهذا النص والخاص بالرعايا الثائرين من الحثيين فقد جاء فيه « واذا (غضب) خاتوشيليش الملك العظيم ملك أرض (خيتا) على خدم له ، وارتكبوا ذنبا ضده ، وأرسل الى « رياماساسا = رمسيس » الملك العظيم ملك مصر بهذا الخصوص ، فان جنود وعربات « ريامادساسا ماى امانا = رمسيس مرى آمون » يجب أن ترسل فى الحال وتقضى على كل من أصبحت غاضبا عليه .

على انه فى بعض الحالات الموجودة فى المعاهدة ذكر وجهة نظر الحاكمين فى النسخة الواحدة فمثلا فى حالة العفو عن المذنبين الفارين فقد جاء فيها ما يلى فى النص المصرى « اذا فر رجل من ارض مصر أو رجلان أو ثلاثة رجال وأتوا الى رئيس خيتا العظيم فان رئيس خيتا العظيم ينبغى عليه أن يقبض عليهم ويأمر باعادتهم الى (وسى ماع رع ستب ان رع) حاكم مصر العظيم ، أما الرجل الذى سيحضر الى « رمسيس » محبوب « آمون » حاكم مصر العظيم فيجب الا توجه اليه جريمة ، وان يضار فى بيته وزوجه أو يقضى على أطفاله ، ويجب الا يقتل ، والا يضار فى عينيه أو أذنيه أو فمه أو ساقيه ، ويجب الا توجه أية جريمة اليه » .

انتهت الحرب بين الحثيين والمصريين وقد بدات على ما يظهر أيام مواتاليش الذى مات أثناء تلك الحرب وتولى من بعده الملك خاتوشيليش الذى أبرم المعاهدة مع رمسيس الثانى (١٢٩٠ — ١٢٢٤ ق.م. تقريبا) وقد تميز هذا العهد بلون لم نره من قبل وهو ربط العلاقات بين الدول بالمعاهدات ، فهذا (كاداشمان تورجو) ملك بابل يعقد معاهدة مع خاتوشيليش . وفى أحد خطابات خاتوشيليش الى ولد هذا الملك البابلى الذى توفى وكان ملكها الجديد يدعى (كداشمان انليل الثانى) يقول له « ان والدك وأنا قد أبرما معاهدة رجعا فيها الى الاخاء ، ولم نحيد عنها يوما واحدا ، ألم اتفق على الاخاء والمحالفة الى الابد ؟ » . وقد تم فى هذه المعاهدة أيضا اعتراف كل من الطرفين بوراثة العرش لولى عهد كل منهما والوارث الشرعى لهما . وغالبا ان ذلك الشرط كان موجودا أيضا فى معاهدة الود والسلام بين مصر وخيتا . ومما يدل على وجود تحالف بين بابل والحثيين أنه جاء فى احد الخطابات الحثية ذكر لمصر فقد جاء ما يلى « وبعد أن كنت أنا وملك مصر متخاصمين كتبت الى والدك كاداشمان تورجو قائلا : ان ملك مصر فى حرب معى . وعلى ذلك كتب والدك قائلا : اذا أتت جنود ملك مصر فعندئذ سأذهب معك ، وسآتى وسط الجنود والعربات ، ولما كان والدك مستعدا للذهاب معى فهكذا الآن يا أخى » .

وهنا تظهر بعض العلاقات التى كانت موجودة فى هـذا الوقت بين بابل والحثيين واتفاقهما ضد مصر ، وأن خاتوشيليش كان فى حرب ضد مصر. والظاهر أن بعض الاقاليم التى تتوسط بابل والحثيين ومصر كانت ثائرة عليهم وتقطع سبل المواصلات بين بابل والحثيين .

وقد وجد من الخير ان تتحسن الصلات وتتحد الدولتان الكبيرتان فى تلك الايام ، وعادت المراسلات بينهما ، ويشير ما بقى من وثائق بوغاز قوى الى التهنئة بمعاهدة السلام كتبتها الزوجة الكبرى لرمسيس الثانى نفرتارى فقالت الى (پودوخيبا) ملكة الحثيين « اننى فى سلام وأرضى فى سلام واننى اتمنى لك يا أختى السلام ولارضك السلام ، تامل اننى اسمع انك يا أختى قد كتبت الى تسألينني عن سلامتى ، وانك قد كتبت الى عن علاقة الود الطيبة ، وعن علاقة الآخاء الطيب الذى بين الملك العظيم ملك مصر وبين الملك العظيم ملك ارض « خيتا » أخيه واننى أرجو أن يرفع رأسى (شاماش) و (تيشوب) وأن يمنح (شاماش) السلام لتحل الطيبة ، وان يمنح اخاء طيبا بين الملك العظيم ملك مصر وبين الملك العظيم ملك أرض خيتا أخيه الى الابد » .

وقد بقى ما لا يقل عن ثمانية عشر خطاب من رمسيس الثانى والكثير من هذه الخطابات فى حالة حفظ سيئة ومع ذلك استطعنا ان نعرف أن هذه الخطابات كانت توجه الى (پودوخيبا) ملكة (خيتا) التى لعبت دورا كبيرا فى هـذه العلاقات وأن أمر الاتصالات لم يكن قاصرا على خاتوشيليش وحده بل أيضا على زوجه پودوخيبا وكذلك على زوج رمسيس الثانى الكبرى (نفرتارى) ، ولكن كان لپودوخيبا) نشاط أقوى من نشاط نفرتارى .

ومن الغريب فى هذه المعاهدة التى أكدت عدم اعتداء كل من ملك مصر وملك الحثيين على أرض الآخر انها لم تحدد الحدود الفاصلة بين المملكتين العظيمتين . ويقيني أنه كان يوجد خط معترف به يمر فى مكان من الامكنة لا يجوز لاحد من الطرفين تجاوزه . والراجح ان الحثيين كانوا يعتبرون شمالى سورية ووسطها وكذلك الطرف الشمالى لساحل فينيقية من ممتلكاتهم ، وكانت تعتبر مصر وفلسطين حتى جبال الجليلة وكذلك مابقى من الساحل الفينيقى تقع فى أراضيها . على أن ذلك التقسيم مبنى على التخمين لا على الحقيقة ، وسيظل كذلك حتى تؤكده وثائق جديدة .

ومما يدل على أن السلام والوئام ظل فترة طويلة من الزمن يرفرف بجناحيه على كل من المملكتين أن رمسيس الثانى ظل ما يقرب من ست وأربعين سنة فى سلام بينه وبين الحثيين . وظلت تلك العلاقات الطيبة

حتى أيام ولده مرنپتاح ، فقد أرسل مرنپتاح حبوبا الى الحثيين وكانوا قد وقعوا فى مجاعة ، مما يدل على ان المعونة كانت متبادلة بين الفريقين .

وقد توطدت الصلات بين مصر والحثيين بزواج تم فى العـــام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس الثانى ، اذ تزوج هذا الاخير بابنة (خاتوشيليش) وحينما جاءت الى مصر سميت (Mahornefrure' or Manefrure') وجاء ذكر ذلك على نص طويل كتبت منه عـدة صور وعرضت على أنظار الجمهور (بالكرنك والفنتين وابو سمبل) وبدون شك فى معابد اخرى ولقد جاء على احد هذه الوثائق ما يلى :

(لقد كتب ملك « خيتا» العظيم مستعطفا جلالته سنة بعد الاخرى ولكن لم يعرهم (ملك مصر) رمسيس الثانى اهتماما ، ولما رأوا بلادهم قد ساء حالها تحت سلطان الارواح العظيمة لسيد الارضين (رمسيس) تحدث ملك « خيتا » العظيم الى عساكره وأشراف دولته قائلا : « ثم ماذا ان بلادنا قد خربت ، ان ربنا « سوتخ » حانق علينا ، ألم تجد علينا السماء بالماء الذى نحن فى حاجة اليه ؟ لقد نهبت أملاكنا ومتاعنا ، ولقد كانت كبرى بناتى فى المقدمة ، ونحن نحضر هدايا الولاء الى الاله الطيب ليمنحنا السلام ولنستطيع العيش) وقد شوهد فى أعلا اللوح ملك «خيتا » وكبرى بناته أمام فرعون .

وهذا النص الذى أمامنا هو جزء من نص طويل كان يتحدث فيــه كاتبه عن امتناع بلاد (خيتا) عن الانضمام الى بعض الرؤساء الاسيويين الذين كانوا يحملون الجزية الى (رمسيس الثانى) ، وقد ذكر النص أن رمسيس قد أعلن الحرب عليهم وخرب ديارهم . ثم يتحدث النص أيضا عن استعداد الحثيين كل عام لحمل الجزية الى رمسيس الثانى (فى الاسطر ٢٨ — ٣٠) . وأخيرا قبل رمسيس ملك الحثيين هدايا أتى بها هــذا الاخير الى مصر ومنها ابنته الكبرى كما هو واضح فى النص الموجود امامنا ويستطرد كاتب الوثيقة فيقول أن رمسيس حينما سمع خبر ارسال كبرى بنات ملك الحثيين اليه أمر بارسال بعثة شرف لتكون فى استقبال الاميرة (الاسطر ٣٤ ، ٣٥) . وقد حدثت معجزة اذ أن الرحلة كانت فى فصل الشتاء ، ولما كانت أحوال الجو رديئة فقد تغيرت حالة الجو الى الدفء اللطيف وذلك بفضل الاله (ست) . ووصلت بعثة الشرف وفى ركابها الاميرة ، وكان ذلك فى السنة الرابعة والثلاثين ، الشهر الثالث من الشتاء. وحينما وصلت الاميرة الى مصر أقيمت أفراح كبيرة . وقد اشترك ممثلو الدولتين فى الاكل والشرب معا ، وقد جاء فى النص انهم « كانوا على قلب (رجل) واحد مثل الاخوة ولم توجد ضغينة من واحد ضد الآخر » .

لقد اغرم رمسيس الثانى بالفتاة الحثية ورفع شأنها وقدرها تقديرا عظيما حتى أصبحت تلقب « بالزوجة الملكية العظيمة » . وتمثال رمسيس الثانى المحفوظ بمتحف (تورينو) يمثله بوجه رقيق وقد صورت الزوجة الملكية العظيمة على كرسيه بملامح مملؤة عذوبة ورقة وفتنة . ومن محاسن الصدف اننا لدينا حقيقة ثابتة وهى ان هذه الزوجة الأجنبية قد أخذت فى بعض الوقت الى الحريم الذى جهز الملك له مكانا فى بلدة تسمى (مى ور Miwer) ، وكانت تقع عند مدخل الفيوم ، هذا وقد عثر (بترى) فى هذا المكان على ورقة من البردى كتب عليها قوائم بملابس واردية خاصة بهذه الملكة .

من كل ما تقدم نرى أن هذا التحالف الذى تم بين مصر والحثيين فريد من نوعه فى التاريخ المصرى ، ولربما يتكرر مؤخرا فى العهد نفسه . وقد بقى هذا التحالف فى وعى الزمن فقد ذكر على لوح محفوظ بمتحف (اللوفر) أن أحد الملوك من قطر بعيد يطلب الى فرعونها تمثال الاله (خونس) يشفى ابنته . وقد درست النصوص ورجح أحد العلماء ان اللوح قد كتبه أحد الكهنة المصريين ليظهر فيها عظمة مصر وسلطانها ورجح أن السيدة كانت من بلاد الفرس وكانت تحكم فى مصر فى وقت كتابة اللوح . وذكر (جاردنر) ان اللوح يخبرنا أن الاخت الصغرى لزوجة رمسيس الثانى الحثية قد وصفت على اللوح بأنها ابنة ملك من قطر بعيد يسمى Bakhtan قد اصابتها روح شريرة وانه استدعى طبيب مصرى اسمه Dhuterahab الذى لم يستطع أن يشفيها فعاد الى مصر وارسل على وجه السرعة تمثال الاله (خونس) ليذهب عن الاميرة الأذى وسواء كانت هذه الرواية الغير تاريخية كما يقول (جاردنر) من خلق البطالمة أو ممن سبقهم ، فان موضوعها يشتم منه أنه ذا طابع مصرى صميم ويذكرنا هذا بارسال (عشتار نينوى) الى مصر لتبرىء (أمنحتب الثالث) . على اية حال فيخيل الى أن الرواية غير مؤكدة وانها أغلب الظن من خلق الكهنة الذين كانوا ائمة فى الاساطير والقصص .

ذكر O. R. Gurney ، انه يوجد قبل معاهد السلام التى ابرمت بين رمسيس الثانى وخاتوسيل معاهدتان ، بينما يذكر Wilson أنه كان يوجد أكثر من ذلك . ويقول ان أول المعاهدات الحثية المصرية كانت بين حورمحب ومورشيليش الثانى . ورسالة من رسائل تل العمارنة رقم EA 41.7 ff من شوبيلوليوماش الى اخناتون ، وهى تشير الى معاهدة قال فيها الملك الحثى أنه كان يحب أمنحوتب الثالث . وقد ذكر جاردنر ولا نجدون ان معاهدة التحالف بين خاتوشيليش ملك الحثيين ورمسيس الثانى قد تمت فعلا . وقد تأيد ذلك فى حوليات شوبيلوليوماش حينما جاءت رسل عنخ اس آن آمون للمرة الثانية « سأل والدى بعد ذلك عن

اللوحة الصغيرة الخاصة بالمعاهدة .. كيف أنهى اله العاصفة المعاهدة بين مصر وخاتى ، وكيف انهما استمرا صديقين . ولما قرأ الرسل بصوت مرتفع اللوحة امامهم ، ولقد خاطبهم والدى : ان خاتوشا ومصر كانا أصدقاء وايضا استمرت « (الصداقة) بينهما » . وعلى ذلك سوف يصبح الحثيون والمصريون اصدقاء .

وهذه المعاهدة مع عنخ اس ان آمون ، والتى تؤكد وجود معاهدة سابقة خالية من ذكر اغتيال الأمير الحثى Zannanza ، ولو أنه من حديث مورشيليش الثانى الذى سبق أن ذكرناه ، يتضح أن المعاهدة الاولى قد انتهكت بواسطة الحثيين قبل وفاته . ولكن من عبارة اخيرة فى حديث مورشيليش الثانى ، من الجائز أن تستنتج منها انه لم يتم فقط اخذ اسرى من المصريين الى خاتى بعد الحرب التى كان سببها هذا الاغتيال واعادتهم الى مصر ، ولكن أبرمت معاهدة اخرى . وغالبا ان المقصود بالعبارة الواردة فى معاهدة الصداقة بين المصريين والحثيين المعروفة ، بشأن معاهدة سابقة تكون غالبا أحدث معاهدة من هذا العهد .

لم تصلنا معلومات متصلة عما كان يدور فى آسية الصغرى فى هذه الفترة . فقد استمرت جماعات كاسكا فى الهجوم على الحدود الشمالية . وقد حاربهم خاتوشيليش خمس عشرة سنة ، وولده أيضا ما لا يقل عن اثنتى عشرة سنة . وقد حاول خاتوشيليش طوال الفترة الباقية من عهده ان يعيش فى سلام . وجدير بالذكر أن زوجة پودوخيبا Pudukheba الذى تزوجها كأمير حينما عاد من غزوه لمصر ، قد لعبت دورا كبيرا فى العلاقات بين مصر والحثيين . فقد كانت تكتب عادة الوثائق باسم كل من الملك والملكة . فكانت تكتب مثلا الخطابات الى مصر من نسختين ، احداها الى فرعون فى شخصية الملك ، والأخرى الى زوج فرعون فى شخصية الملكة (١) .

أما عن تأريخ عهد خاتوشيليش فيعتمد فيه على الحوادث المصرية . وفقد وقعت معاهدة الصداقة بين رمسيس الثانى وخاتوشيليش فى السنة الحادية والعشرين من حكمه (١٢٦٩) ، وقد ارسل خاتوشيليش

(١) E. Edel, "Die Rolle der Königinnen in der ägyptisch-hethitischen Korrespondenz von Bogazköy." Dans Indogerm. Forsch. 60 (1950), 72 ff.

بعد ذلك بثلاث عشرة سنة (١٢٥٦) الى البلاط الملكى . لقد بدأ خاتوشيليش عهده عام ١٢٨٦ تقريبا وكان يبلغ من العمر حوالى أربعين سنة ، وقد ماتت أمه فى السنة التاسعة من حكم والده مورشيليش عام ١٣٢٦ تقريبا . وقد عاصر خاتوشيليش وولده تودخالياش كاداشمان ــ انليل ملك بابل . وقد استمر الولد فى الحكم حينما تولى توكولتى ــ نينورتا الملك فى اشور . وكان هذا الولد ابنا للملك الحثيين من پودوخيبا ، وقد ولد له فى بداية السنة التالية لمعركة قادش . وامام تلك الظروف فغالبا أن خاتوشيليش قد مات عام ١٢٦٥ ق.م .

* * *

مجمل تاريخ بقية ملوك الحثيين

قبل أن يتولى تود خالياش العرش كان كاهنا كوالده خاتوشيليش . وحينما اعتلى عرش البلاد عمل على انعاش بلاده . وكانت العلاقات بينه وبين مصر طيبة . لكن آشور الناشئة قد أثارت اضطرابات جديدة ضد الحثيين . ونستطيع أن نشعر بالازمات السياسية من القوات المعاصرة التى جاءت فى معاهدة فى هذا الوقت مع امورو . وقد تضمنت أسماء مصر ، وآشور ، وكارودنياش (بابل) وأهياوا Ahhiyawa (غرب الأناضول) .

وقد استمرت كركميش تلعب دورها كمركز رئيسى للحثيين فى الشرق وسورية . وكان انى ــ تشوب Ini-Teshub ممثلا للملك العظيم فى كل شئون سورية . وكان يقوم بكثير من الفصل فى الدعاوى الكبرى ويقرر النفى الى قبرس . وقد وضعت امورو تحت رقابته أيضا مع تعيين ملك لها بمعاهدة أبرمت مع الملك العظيم الحثى .

أما علاقة الحثيين بالاشوريين فقد كانت متوترة أيام تودخالياش . ولو أنه كان على قيد الحياة أيام توكولتى ــ نينورتا الأول (١٢٤٤ ــ ١٢٠٨) ، وقد عاصر معظم عهد شالمانصر (١٢٧٤ ــ ١٢٤٥) . وقد شغل هذا الاخير بالقسم العلوى لبلاد ما بين النهرين مثلما فعل والده اداد نيرارى (١٣٠٧ ــ ١٢٧٥) . وقد وقع شالمانصر فى حرب مع الميتانيين وقد تدخل فى هذه الحرب انى ــ تشوب صاحب كركميش .

استمرت جماعات كاسكا فى هجومها على شمالى حدود الاناضول . ولكن أهم الحروب التى حدثت أيام تودخالياش هى حربه مع أرزاوا وقد كانت أهياوا تعاون الثائرين . وقد وصلت الينا اثبات بالمدن التى استولى عليها تودخالياش من أرزاوا .

ظهرت أهمية جزيرة قبرس للحثيين فى هذه الحقبة من تاريخهم . وقد كانت هامة لأنها أقدم مورد للنحاس ، وهو المعدن الرئيسى فى الحضارات منذ عهد البرونز ، كما انها لعبت دورا هاما فى المواصلات البحرية بين الشرق والغرب ، من مصر وسورية الى العالم الايجى . وقد أدرك الحثيون أهمية الجزيرة فى الاتصال البحرى التجارى بسورية

خصوصا حينما تتعرض الطرق البرية لهجمات أعدائهم . وقد فطن الحثيون الى أهمية تلك الجزيرة أيام تودخالياش . من اجل ذلك غزا قبرس ، ومن الجائز أن حكام سورية الموالين له قد عاونوه فى تلك الحرب . وقد خضعت الجزيرة للحثيين .

ثارت المناطق الغربية من الاناضول على تودخالياش وحاولت أن تكون اتحادا ضد الحثيين .

تولى ارنووانداش Arnuwandash الملك بعد والده تودخالياش وسط عواصف واضطرابات مختلفة فى جميع أنحاء الامبراطورية الحثية. وبدات الحالة فى سورية أيضا تنذر بالسوء . وقد استطاع المتحالفون من حكام غرب الاناضول أن يستولوا على جزيرة قبرس ، وتوطدت اركان حلفهم تماما . وقد استفاد توكولتى ـ نينورتا الأول (١٢٤٤ ـ ١٢٠٨) ملك آشور من تلك الأزمات التى تعرض لها الحثيون . وقد سجل لنا توكولتى ـ نينورتا أسره آلاف من الحثيين حينما تقدم الى نهر الفرات .

أما فرعون مصر الذى عاصر ارنووانداش فهو مرنبتاح (١٢٢٤ ـ ١٢١٤) . وقد بقى كل من الملكين على صلات طيبة . وقد احست مصر فى هذه الفترة ضغطا من الشمال الغربى ، من أجل ذلك وجد آل فرعون من الخير أن يكونوا على وفاق مع الحثيين . وقد أرسل مرنبتاح فى السنة الثانية من حكمه حبوبا الى الحثيين حينما مر عليهم البأس وعضهم الجوع فوقعوا فى مجاعة فانقذتهم مصر بقمحها (١) .

مات أرنوواندأش بدون وريث بعد عهد قصير . وقد تولى العرش بعد أخوه شوپيلوليوماش الثانى . وبدون شك حاول العاهل الجديد أن يسيطر على الموقف .

قام بابرام معاهدة مع تالى ـ تشوب Talmi-Teshub بن انى ـ تشوب ملك كركميش . وظلت أوغاريت موالية للحثيين حتى النهاية . وظل تالى ـ تشوب على صلات طيبة مع عامورابى Ammurapi آخر ملوك أوغاريت .

ولقد كانت أوغاريت الميناء التى تحركت منها جيوش شوپيلوليوماش الثانى الى قبرس ، وقد استطاع أن يغرق أسطول القبارسة ، واستولى على الجزيرة .

(١) BAR, III, § 580.

ومن الجائز أن الحثيين قد قاموا بتجريد حملة الى بلاد مابين النهرين العليا ليقطعوا الطريق على الاشوريين . ومن الجائز أن توكولتى — نينورتا كان على قيد الحيـاة . وقد استفاد الحثيون من اغتيـاله ومن فترة الضعف التى مرت على آشور . على أن موقف شوبيلوليوماش لم يكن قويا .

ثم تتعرض آسية الصغرى فى بداية القرن الثانى عشر وغيرها من الدول الى هجرات شعوب البحـر التى قضت على الحضـارة الحثية وهاجمت وادى النيـل . وجاء فى الوثائق المصرية عن تلك الجمـاعات ما يلى : « لم يستطع أحد أن يقف امامهم من خاتى الى ما بعدها . حطمت قود ، وكركميش ، وأرزاوا ، وقبرس (١) .

* * *

(١) BAR, IV, § 64.

الفصل الثالث

نظرة عابرة فى حضارة الحثيين

المجتمع الحثى

كانت بلاد الاناضول الوسطى فى العصور القديمة اكثر مطرا مما هى عليه الآن ، وعلى ذلك كثر بها الزرع والضرع . ونشأ بها فى الفترة الاولى من تاريخها ما يشبه حكم دويلات ـ المدينة وكانت الحكومات المحلية فى ايدى الشيوخ من أهل المدينة .

قام معظم أهالى مجتمع المدينة بفلاحة الارض ، ولكن كان هناك الى جانبهم طبقة العمال والتجار المتجولين . كما كان يوجد طبقد العبيد فى القـرون الاخيرة من الامبراطورية الحثية ، ولكن لوحظ فى التشريعات الخاصة بهم فى الدولة الحثية القديمة أن العبيد هنا يشبهون خصوصا ما يسمى بالبابلية muskenun ، لأن العبد كان عليه أن يقوم بدفع غرامة أو أخذ غرامة فى حالة اقترافه اثما أو تعرضه لأذى ، كما كان له الحق فى امتلاك الارض وممتلكات اخرى ، وانه كان شخصية لها حقوقها وعليها التزامات . وعلى ذلك لا نستطيع أن نسمى هذه الطبقة بالعبيد .

انتشرت القصور فى المدن بآسية الصغرى ، ولم يقتصر الامر على كوشار وخاتوشا وذلك لانتشار الحكام والملوك خصوصا فى فترة دويلات المـدينة . كان يوجد فى خاتوشا مجلس للشيوخ . وقد جاء فى حديث خاتوشيليش لولده حينما أراد أن يوصيه ما يلى « سوف لا يتحدث اليك شـيوخ الحثيين ، سوف لا يحدثك رجـل ... ولا (رجـل) خمـوا Khemmuwa ، ولا رجل تاماكيا ، ولا رجل ... ولا اى رجل من البلاد يتحدث اليك » . وبذلك نستطيع أن نفترض أن صلة الملك بالمجتمع تأتى عن طريق وزرائه . وكذلك كان يوجـد أيضا مجلس عمـوم يضـم كل القادرين على حمل السلاح من المواطنين والرؤساء الدينيين . وهنا نرى تشابها بين النظام الذى كان سائدا فى سومر ، حينما استشار جلجامش مجلس العموم ومجلس الشيوخ فى مدينـة اوروك فى حـربه مع اوما

كانت هناك ارستقراطية . فكان أقرباء الملك يشكلون طبقة خاصة ، عرفت « بالعائلات العظيمة » . وكان هؤلاء غالبا يسيطرون على الوظائف الرئيسية فى الحكومة . مثل رئيس الحرس الملكى ، ورئيس السقاة ، ورئيس أتباع القصر ، ورئيس السياس ، الخ . وكان يطلق على رؤساء المصالح « العظام ، الأمراء » و « رجال الصف الاول » . وكان الموظفون فى كل مصلحة يخضعون لاشراف ضباط يختصون بشئونها . وهناك ما يشير الى ان هؤلاء هم الرجال المحاربون واتباع الملك .

ما هى وظيفة الملك فى هذا المجتمع ؟

تعرض الحثيون فى بدء تاريخهم لأزمات كثيرة سببها التنافس على العرش ومحاولة النبلاء انتهاز فرصة وفاة الملك والتسابق نحو الوصول الى العرش . من أجل ذلك كان يحاول الملك حينما يحس بقرب أجله ان يعين من يخلفه . ولما جاء تيليپينوش الذى سبق أن أشرنا اليه أصدر قواعد خاصة بتولى العرش : وبذلك وضع هذا الملك أسسا ثابتة فى هذا الشأن حتى لا يعترض بعد ذلك النبلاء ومن فى مستواهم . وقد تحققت رغبة هذا العاهل ونجح تشريعه فمثلا عندما توفى مواتاليش الذى يبعد تاريخه عن تيلپينوش بحوالى مائتى عام ولم يترك من يخلفه على العرش انتقلت السلطة دون أدنى معارضة الى أورخى يتشوب وهو ابن احدى محظيات الملك الراحل .

ولقب الحاكم فى بلاد الحثيين ب « الملك العظيم تابارناش » وتابارناش غالبا ما يكون الجد الكبير للحثيين . ثم استعيض عن تابارناش بلقب آخر يشير الى العلاقة بالشمس ، كما كان الحال فى مصر الفرعونية ، اذ كان يلقب الملك « ابن رع » ورع تعنى هنا الشمس . كما وصف الملك الحثى بمحبوب الآلهة ، وهذا اللقب أيضا كان معروفا فى مصر الفرعونية . والفارق بين الملك الحثى والملك من آل فرعون . ان الملك الحثى لم يكن مؤلها فى حياته ، انما عرفت عبادة أرواح الملوك وقد عبر عن الملك المتوفى بتلك العبارة « انه أصبح الها » ، وهكذا الحال فى مصر الفرعونية فقد اعتبر الملك الها فى الآخرة حينما صوره المصريون فى نصوص الاهرام بالنجم الذى لا ينطفىء كما صور مشرفا على الموتى ويحكم بينهم وانه أوزوريس رب عالم الغرب . فالمصريون نظروا الى ملوكهم فى الدنيا والآخرة على انهم الهة أو انصاف الهة ، أما الحثيون فقد قدسوا أرواح ملوكهم بعد مغادرتهم الدنيا ، ولم يعترفوا بتأليه الملك فى الدنيا كما فعل المصريون القدماء .

كان الملك فى جميع مراكز الحضارات القديمة : فى الرافدين أو فى

وادى النيل القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وكذلك الحال فى الاناضول وفى فارس . كما ان الملك الحثى أيضا كان يفصل فى القضايا الكبرى لأنه يمثل أعلا سلطة قضائية فى الدولة كذلك كان حمورابى يمثل أعلا سلطة قضـائية فى الدولة وكذلك فراعنة مصر كانت تعرض عليهم القضـايا الكبرى . كان الملك الحثى هو الكاهن الاعظم . ولقد اهتم الملوك الحثيون بمشاركة الناس فى الاحتفالات بالاعيـاد الدينية حتى أحيانا يترك الملك الجيش يحارب ويعود الى البلاد ليشاهد تلك الاحتفالات ويؤدى الطقوس الدينية الخاصة بالالهة .

كان الملك يقوم بالتعبد للالهة على الطريقة التى رأيناها فى كثير من الحضارات القديمة رافعا يديه مبتهلا للالهة أو يقوم بتقديم بعض القرابين السائلة كما هو مسجل على كثير من الآثار التى عثر عليها فى الاناضول . أما رداء الملك فكان عبـارة عن لباس طويل وذلك على الطريقة الرافدية وليس على الطريقة المصرية القديمة ، ويضع فوق هذا الرداء شالا ثمينا لف فوق ذراع بينما ترك أحد الكتفين بدون غطاء . وفوق راسه طاقية أو بيده صولجان .

كانت مكانة المرأة فى المجتمع الحثى عظيمـة ، فقد تمتعت بكثير من الحرية ، ولقبت الملكة « تواناناش » نسبة الى الجدة الكبرى زوج الملك لابارناش . ولبعض نسـاء القصر الحثى أثر فى شئون الدولة ، فهـذه پودوخيبا زوج خاتوشيليش الثالث ذكرت كثيرا مع زوجها فى الوثائق الرسمية وراسلت ملكة مصر ، وبذلك تأثرت الحضارة الحثية بما كان متبعا لدى فراعنة مصر ، فهذه الملكة تى زوج أمنوفيس الثالث كان لها أثر كبير فى حيـاة زوجها وكثيرا ما قامت بالاشتراك معه فى الحفـلات الرسمية بل وكان لهـا أثرها فى سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، كذلك أمنوفيس الرابع (اخناتون) وزوجه نفرتيتى وأثرها فى سياسته الدينية. كذلك تلك الملكة التى أرسلت الى أحد ملوك الحثيين بعد وفاة زوجها تطلب منه ارسال أحد الامراء ليتزوجها . (انظر مصر الخـالدة ص ٦٥١ ـ ٦٥٢) .

كانت وظائف الدولة الكبرى قاصرة على أقرباء الملك : فمنهم رئيس الحرس الملكى ، ورئيس الحاشـية ، ورئيس السـقاة ، ورئيس أمناء المخازن ... الخ وهكذا الحال فى جميع مراكز الحضارات القديمة كان أقرباء أصحاب العروش يوكل اليهم الوظائف الرئيسية فى الدولة وذلك لعدم اطمئنان الملك فى اخلاص الناس .

وقبل أن تتحد البلاد تحت سلطان ملك واحد ، كان يوجد فى الأقاليم

ملوك ولكل منهم نبلاء . وقد ذكر تيليبينوش فى مرسومه أنه كان يشكل من هؤلاء مجلسا دعاه خاتوشيليش للاجتماع به . وغالبا كان هذا المجلس مكونا من المؤتمر العام للمواطنين . والظاهر أنه كان يحل هذا فى بلاد الحثيين محل محكمة القضاء ويدين هذا المجلس ــ وكان يسمى « البانكوس » ــ من يستوجب الامر ادانته ، ويشير تيليبينوس على البانكوس الى ضرورة تحرى الحقائق وتوجيه اللوم الى كل من يخالف القانون حتى ولو كان الملك نفسه ، فهل كان ذلك يدل على توسيع سلطة هذا المجلس أو أن ذلك على سبيل التذكير ، الله وحده يعلم .

ثم صمتت الوثائق الحثية بعد ذلك عن الحديث عن البانكوس ، فلاندرى ان كانت لا زالت بباطن أرض الأناضول وثائق أخرى ربما تنير لنا الطريق فى هذا الشأن أو أن الملوك قد تحولوا عن هذه المجالس وحكموا شعبهم حكما مطلقا .

أما غالبية الشعب الحثى فكان مكونا من الفلاحين والعمال من بناءين ونساجين ومشتغلين بالتعدين وصناع الأوانى الفخارية . وكان المواطن حرا فى كثير من الأحيان ، وفى قليل من الحالات سمعنا عن العبيد المرتبطين بالأرض . وكان للخدم حقوق وعليهم واجبات .

كان لكل دويلة فى الأناضول مجلس يشرف على ادارتها ، واختصت المراكز الدينية بنظام آخر ، وغالبا ما كان الكاهن الأكبر هو الذى يحكم تلك المدن .

ولما استطاع ملوك الحثيين توسيع رقعة بلادهم عينوا على هذه الأقاليم الجديدة أبناءهم كما سبق أن أشرنا الى ذلك عند قيام ملوك الحثيين بالحرب فى سورية الشمالية . كذلك قام أقرباء الملك والمخلصين من قواده بادارة هذه الأقاليم . ولكن رؤى بعد ذلك أن مثل هذا النظام ربما لا يحقق خضوع تلك الأقاليم خضوعا تاما لملوك الحثيين وخصوصا فى الاماكن النائية التى فتحوها . لذلك فضل الملوك بعد ذلك تعيين أشخاص موالين لهم من تلك الأقاليم أو الارتباط بمعاهدات مع الممالك الصغيرة الضعيفة . على أن البيت المالك ظل محتفظا لنفسه ولأفراد عائلته ببعض المراكز الرئيسية مثل حلب وكركميش .

كما أعطيت بعض الممالك التى خضعت للحثيين الاستقلال الذاتى مثل كيزواتانا والتى كانت تقع فى سهل قليقية وكان يقع تحت الحماية الحثية . كذلك عوملت أرزاوا معاملة فيها روح الاستقلال الذاتى .

كان على الولاة أن يقدموا كل عام أتاوة . وقد عمل الحثيون على ربط أسر الولاة بهم فصاهروهم . وتعاهد الولاة مع السلطات المركزية الحثية بمعاهدات كتبت على ألواح من معدن نفيس (فضة وذهب أو حديد) ثم تمهر بخاتم الملك . وجدير بالذكر أن الألواح فى بلاد ما بين النهرين غالبا ما كانت تكتب على طين مطبوخ أو حجر ، ولكن هنا كتبت على ألواح من معادن نفيسة لكثرتها فى الأناضول فى هذا العهد . كانت هذه الوثائق أو المعاهدات بمثابة تعليمات من السلطة المركزية للتابع عليه ان يسلكها ويحافظ عليها . الا أن هذا النظام لم يدم نتيجة لغزوات آشور والإمارات المختلفة فى أرزاوا ، ولذلك كثرت الحروب كما سبق أن بينا من أجل المحافظة على كيان الامبراطورية .

السياسة الخارجية

ظهر فى عصر شوبيليوليوماش ثلاث دول كبرى : مصر ، وبابل ، وميتانى . وتدل رسائل العمارنة على أن العلاقات بين هؤلاء وملك الحثيين كانت طيبة وتخاطبوا بلغة تدل على الأخاء والصداقة . وربطوا تلك الصداقة برباط المعاهدة ثم قضى شوبيليوليوماش على الميتانيين . وبذلك لم يبق على مسرح السياسة العالمية الا ثلاث دول كبرى مصر ، بابل ، خيتا .

وقد قام ملكا مصر وخيتا بعقد معاهدات كما سبق أن أشرنا الى ذلك على اسس من المساواة التامة وتبادل المصالح المشتركة . كذلك ارتبطت مصر أيضا ببعض الاتفاقات مع بابل وكذلك ارتبطت بابل مع الحثيين . وكان يهدف أصحاب هذه التيجان من وراء ذلك كله الى انشاء علاقات الأخاء . وقد تناولت هذه الاتفاقات انشاء تحالف هجومى دفاعى . وقد تعاهد المتعاقدان ضمان عرش بلاد زميله اذا ما توفى صاحبه . كما نصت تلك المعاهدات على اعادة اللاجئين وكان كل من المتعاقدين يكتب المعاهدة كلها ويرسلها الى زميله ليوقع عليها . من أجل ذلك وجدت اكثر من نسخة لمعاهدة قادش بعضها كتب باللغة المصرية القديمة والبعض بالأكدية على لوح بالخط المسمارى ، والنسخ الأولى عثر عليها فى مصر الفرعونية والنسخة الثانية عثر عليها فى بوغاز قوى .

ومن المعاهدات الحثية القديمة ما تعاقد عليه شوبيليوليوماش مع ملك كيزواتانا . وهى تدل على حنكة سياسية ومناورة تبين مدى تبرير الملوك فى سبيل تحقيق أهدافهم . والى القارىء النص كما ذكر جرنى

مترجما (١) « لقد هرب أهل ايسووا (هذا ما يقوله شـوپيليوليوماش) امام جلالتى ونزلوا ببلاد الحوريين . فأرسلت ، أنا الشمس ، كلمة الى الملك الحورى ، أقول « أعد رعاياى الى » . ولكن الحورى رد على جلالتى بالآتى : لا ، تلك المدن قـد ... جاءوا الى بلاد الحوريين واستوطنوها ، حقيقة انهم عادوا فيما بعد الى أرض خاتى كلاجئين ، ولكن الآن اختارت الماشية فى النهاية حظيرتها ، لقد جاءوا بصفة قاطعة الى بلادى . وهكذا لم يرد الحورى رعاياى الى ... وأرسلت أنا الشمس ، كلمة الى الحورى بالآتى : اذا انشق عليك بلد ما وانضم الى أرض خاتى فكيف يكون الحال ؟ وارسـل الحورى كلمة الى بالآتى : نفس الشيء تمـاما . والآن أن أهل كيزواتانا هم ماشـية حثية وقد اختـاروا حظيرتهم ، لقد هجروا أرض الحوريين وانضموا الى جلالتى ... وقد ابتهجت أرض كيزوآتانا أشـد الابتهاج بتحريرها » .

الشكل الاقتصادى لبلاد الأناضول

كان لبيئة الأناضول أثر كبير فى شكلها الاقتصادى ، فالهضـبة الوسطى قليل ماؤها . وفى الشمال حيث كان يقيم الحثيون تكثر الأودية والقنوات وتقوم بعض الزراعات . وشتاء الهضبة قارص البرودة وربيعها قصير . قاموا بزراعة الشـعير والقمح . وأما فاكهتهم فأخصـها الكرم واللوز . ومعادن جبال الأناضول : النحاس حيث كان يقوم بجلبه الآشوريون من كبدوكيا قبل قيام دولة الحثيين ، والفضة ، والحديد . وقد برع أهل آسية الصغرى فى صناعة الحديد وصهره والى القارىء طرف من رسالة خاتوشيليش الثالث الى أحد الملوك وغالبا ما يكون ملك آشور : « أما عن الحديد الذى كتبت لى عنه ، فالحديد الجيد غير متوافر فى بيت الختم فى كيزواتانا . وقد كتبت اليك أن هذا الوقت غير صالح لانتاج الحديد . انهم سينتجون حديدا جيدا ، لكنهم حتى الآن لم ينتهوا ، وعندما ينتهون سأرسله . أما اليوم فأنا مرسل اليك خنجرا من حديد » .

كانت وحدة الوزن الشقل ، و ٦٠ منها تساوى منا واحدا كما سبق ان بينا ذلك فى الحضارة فى بلاد ما بين النهرين . ومن الجائز أن الشقل الحثى كان أقل فى الوزن من الشقل البابلى (٨ر٤ من الجرام) .

صدرت الأناضـول الى بلاد الرافدين النحـاس واسـتوردت منها منسوجات وصفيح . وقد كانت الاشيا (قبرس) أيضا تمد بلاد الرافدين بالنحاس .

---

(١) الحثيون تاليف ا.ر جيرنى ترجمة الدكتور محمد عبد القادر .

عثر على بعض الوثائق فى بوغازقوى تشـــير الى وجود تشريعات فى بلاد خيتا تضم مائتى مادة . وكان القانون يختلف فى ولاية عن الأخرى . ومما يدل على ذلك تعليمات صدرت الى قواد الحصون الحثية فيها مايلى: « الحكم فى جنايات القتل ينفذ حسب شريعة كل قطر كما كان متبعا فى الماضى ــ ففى أى مدينة كان من المعتاد شنقه فانه يشنق ، وكذلك فى أى مدينة كان من المعتاد نفيه فانه ينفى » .

وقد تعرضت مواد القانون الى : الاعتداء ، وامتلاك العبيد ، والاعمال الصحية ، واجراءات الزواج ، وضرائب الاقطاع ، وشروط حيازة الارض، والجرائم الخاصة بالقنوات ، وجريمة الاحراق عمدا ، ومخالفات الخاصة بالبيع والشراء ، والجرائم الخاصة بالقنوات ، والسحر ، الى غير ذلك من الموضوعات المتعلقة بتحقيق العدالة .

لم يعثر حتى الآن على وثيقة حثية تضم القوانين كلها كما هو الحال فى قانون حمورابى . ولكن كل الذى وصلنا قضايا افتراضية حكم فيها حكما مناسبا على الطريقة التى سار عليها حمورابى .

أما عن دور القضاء الحثى فمعلوماتنا عنه هزيلة . كان ينظر شيوخ البلد المنازعات وذلك فى مدن المقاطعات ، وكانت هيئة المحكمة هى مجالس هذه المدن . وكان للدولة ممثل هو أحد ضـــباط الملك . ومن محـــاسن الصدف العثور على وثيقة فيها تعليمات لهذا الممثل جاء فيها ما يلى : « الى اى مدينة تعود ، استدع جميع سكان المدينة وكل من له قضـــية انصل له فيها وارضه . وذا كان لعبد رجل ، أو أمة ، أو امرأة من وانومبياس ، قضية ، افصل لهم فيها وارضهم . لا تجعل الدعوى العادلة باطلة أو الدعوى الباطلة عادلة ، احكم بما هو حق » . « والآن على قائد الحرس ، والعمدة ، والشيوخ أن يقيموا العدل بدون تحيز ، وعلى الناس أن يعرضوا قضاياهم » .

وعرف فى القضاء الحثى مبدأ التهديد بانزال العقوبات الصارمة على من يخالف القانون او حكم الملك .

وقد كان تجرى تحقيقـــات دقيقة فى القضـــايا الهامة مثل قضـــايا الاختلاس والاهمال ليظهر الحق .

ومن أمثلة هذه القوانين : (١)

اذا أحرق رجل حر بيتا فانه يبنى البيت من جديد ، ولكن لا يدفع تعويضا عن كل ما يحترق داخله سواء أكان رجلا أم ثورا أم شاة .

اذا قتل امرؤ تاجرا حثيا ، فانه يدفع ١/٢ ١ (؟) رطل من الفضة ويقدم منزله ككفالة (؟) ، فاذا (حدث ذلك فى اقليم لوويا أو فى اقليم بالا فانه سيدفع ١/٢ ١ (؟) رطل من الفضة ويرد البضاعة الضائعة ، اما اذا حدث هذا فى بلاد خاتى فعليه أن يدفن التاجر (أيضا ؟) .

وقد تبين لعلماء الآثار أن القوانين التى صدرت بشأن القتل فى كل من شريعة حمورابى وفى القوانين الاشورية عدم وجود مادة خاصة بالقتل ، كذلك فى التشريعات العبرية كان يسلم القاتل الى ولى الدم . وغالبا أن القتل فى القوانين الشرقية كان لا يزال معتبرا فى نظر الناس لا يدخل دائرة القضاء وانه كان يترك لانتقام أقرب شخص لمن قتل . وقد أثبت مرسوم تيليپينوش ذلك حين ذكر تلك العبارة « قاعدة الدم هى كما يلى : كل من يرتكب جناية دم فان كل ما يقوله ولى الدم يكون . فاذا قال اقتلوه يقتل، ولكن اذا قال يدفع الدية . فانه سيدفع الدية ، ولن يكون للملك كلمة فيها » .

ومن العادات المألوفة اعطاء أشخاص من عبيد كجزء من الدية عن عن القتل دون سبق اصرار . كما كان من المألوف فى الشرائع الشرقية مسئولية أقرب القرى فى دفع الدية الى أسرة المجنى عليه اذا مافر القاتل . وقد حدد القانون الحثى القرب بثلاثة أميال من القرية التى وقع فيها جريمة القتل كما جاء ذلك فى المادة ٤ .

ومن ذلك نرى أن عادة الثأر كانت لازالت موجودة فى المجتمع الحثى، وان الاثم كان يوجه الى عائلة مرتكب الجريمة كما جاء ذلك فى المادة ١٧٣ وفيها ما يشير الى أن عدم طاعة الملك تستوجب عقاب كل «بيت الجانى».

وتشابه عادة الزواج عند الحثيين بالزواج عند البابليين ، فيخطب العريس عروسه ويقدم لها هدية ولكن ليس هناك الزام فى الزواج بعد الخطبة لأنها لم تكن الزامية . ولكن لم تكن الهدية هى ما نتصوره ثمنا لعروس وانما كانت شيئا رمزيا عند الحثيين والبابليين وتأخذ العروس صداقا من والدها .

---

(١) الحثيون تاليف جورنى ترجمة دكتور محمد عبد القادر .

وحرمت بعض الشرائع الحثية الزواج من الأقارب مثل الأم والابنة وأم الزوجة واختها او ابنتها (من زوج آخر) أو زوج أبيه أو أخيه أثناء حياتهما . وقد نصت المادة ١٩٣ من الشرائع الحثية أنه فى حالة وفاة رجل ، فأرملته كانت تزوج أولا لأخيه ، فاذا مات أخوه ، فلأبيه ، فاذا مات الأب ، فلابن أخيه أو أخته . والظاهر أن هذه المادة قد استثنى فيها بعض المحرمات من أجل ذلك اضيف اليها تلك الفقرة وهى « لا عقاب عليه » . وفى الواقع لم يحرم زواج الأخ بأخته فى القانون الحثى فالملك أرنوانداش الأول كان غالبا متزوجا بأخته .

فنون الحرب

كان لتقدم فن صناعة المركبات اثر كبير فى تطور القتال بعد القرن السابع عشر ق.م. وقد سبق أن أشرنا الى معرفة السومريين لنوعين من المركبات احداهما مكونة من عجلتين والأخرى من اربع عجلات . وقد كانت العجلات فى كل مكونة من كتلة واحدة ، من اجل ذلك كانت ثقيلة . وغالبا ما كانت الحمر الوحشية هى التى تقوم بجرها كما سبق أن أوضحنا ذلك . ومع وجود الحصان فى بلاد الرافدين منذ أيام السومريين الا أنه لم يستخدم فى أغراض القتال . والراجح أن أهل كبدوكيا قد استخدموا الحصان لجر المركبات ذى الأربع عجلات . ثم ظهرت بعد ذلك المركبات الخفيفة والتى كانت عجلاتها ذات برامق فى القرن الرابع عشر ق.م فى بابل وفى مصر الفرعونية وفى ميتانى . وبذلك الاختراع تقدم فن القتال .

وقد زودتنا حفائر بوغاز كوى ببيانات كتبت على الواح من طين عن تدريب الخيل وترويضها على كل انواع السير بواسطة كيكولى الميتانى بلغة قريبة من السانسكريتية ، التى كانت لغة أهل شمال الهند . وقد استنتج العلماء أن هذه الجماعة الارية هى التى أدخلت وهى متجهة نحو الغرب كيفية تدريب الحصان على جر المركبات .

وقد صورت المركبات الحثية على صفحات جدران دور العبادة المصرية الى جانب المركبات المصرية . وهى تختلف عن المركبات المصرية ولو انه كان لكل عجلة من عجلات النوعين ستة برامق الا أن المركبة الحثية كانت أكبر حجما من المركبة المصرية فالأولى تتسع لثلاثة رجال بينما الثانية لا تتسع الا لرجلين . أما الأسلحة فكانت الرمح والقوس والدرع . وكان بالجيش الحثى مشاة أكثر عددا من سلاح المركبات . ولم يكن بينهم خيالة فيما عدا الرسل الذين وجدوا يمتطون الجياد . وبعض فرق خفيفة من الخيالة للهجوم المفاجىء . كما استخدم الجيش الحثى عمالا عسكريين لاقامة الحصون . أما مهمات الجيش فكانت تنقل اما على

مركبات ثقيلة لها أربع عجلات ، استخدم فى جرها ثيران ، أو على حمر . ولم نر أسطولا حثيا كما وجد عند المصريين القدماء .

أما عن أردية رجال الحرب الحثيين ، فمن الغريب انهم صوروا على صفحات جدران المعابد المصرية وعلى أجسامهم عباءة طويلة لها أكمام قصيرة ، بينما وجدوا على الآثار الحثية وقد تدثروا بقمص قصيرة ، تنتهى فوق الركبة ، واحيانا مئزر . وكان يضع المحارب فوق رأسه خوذة مزودة بغطاء للأذن وريشة وذؤابة من الخلف وقد تسلح بفأس القتال وسيف قصير . أما صدر المحارب فكان عاريا . وقد سلح الحثيون أيضا فى النفوس المصرية برماح طويلة .

نشطت الحروب فى أشهر الربيع والصيف لأن سقوط الجليد على هضبة الاناضول كان يقف عائقا فى سبيل تحركات الجيش . وكان الملك هو القائد الاعلى للقوات المسلحة . وقد امتاز الحثيون فى فن الحصار واستخدام المنجنيق . ووصف معركة قادش التى سبقنا أن اشرنا اليه يدل على مهارة الحثيين فى فن المعارك ولو لم تصل فرقة مصرية أخرى فى آخر لحظة لقضى على الجيش المصرى . كما حصن الحثيون مدنهم تحصينا قويا كانت مكونة من جدن مزدوجة ، فكان الجدار الرئيسى مرتفعا وأمامه جدار منخفض ثانوى يبعد عن الرئيسى بحوالى عشرين قدما . وكان الحائط الخارجى مكونا من كتل سميكة من الحجارة غير منتظمة الشكل . واقيمت أبراج مستطيلة على طول الحصن ، تبعد عن بعضها بحوالى مائة قدم . واقيم بين الاستحكامات بوابات . وكانت توجد انفاق فى أسفل الاسوار . ومن الوثائق المكتوبة عرفنا أنه كان يعين حراس لمراقبة الطرق ، وآخرون لغلق البوابات ليلا ، وآخرون لصيانة هذه الأسوار .

كان الحثيون يعتبرون المدن التى تفتح عنوة غنيمة شرعية لمن ينتصر ، ثم تنهب المدينة عادة بعد ذلك وتحرق تماما وتوهب الى اله العاصفة ، وينقل الأهالى من تلك المدينة ومعهم دوابهم الى خاتوشاش حيث يعملون عبدانا لكبار رجال الدولة . ولم نجد ألوانا من تعذيب كتلك التى رأيناها عند الآشوريين .

واذا ما قبل العدو الاستسلام كان يكتفى الملك الحثى بحلف يمين الولاء ، والى القارىء طرف مما ذكر جرني (١) فى كتابه عن الحثيين فى هذا الشأن بخصوص قضية مانابا ــ داناس أمير بلاد نهر شيخا : « حالما سمع مانابا ــ داناس ، بن مووا ــ الأسد ، (جلالته قادم) : بعث رسولا لمقابلتى ، وكتب الى بالآتى » :

---

(١) الحثيون ــ جرنى ترجمة دكتور محمد عبد القادر ص ١٥٥ .

« (سيدى) لا تذبحنى ، بل اتخذنى وليا ، وأما عن الأشخاص الذين التجأوا الى ، فانى سأسلمهم الى سيدى ، ولكن أجبته بالآتى : لقد حدث فيما سلف ، عندما طردك اخوتك من بلادك أبدا وصيت بك أهل كاركيسا ، بل ارسلت هدايا الى كاركيسا بالنيابة عنك . ولكن على الرغم من ذلك لم تتبعنى ، ولكنك تبعت أوخار زيتير عدوى . والآن هل سأتخذك وليا ؟ وقد كنت ذاهبا لأقضى عليه ، ولكنه أرسل أمه لمقابلتى ، فجاءت ووقعت عند أقدامى وتكلمت بالآتى : سيدنا ، لا تهلكنا ، ولكن خذنا ، يا سيدنا ، أولياء لك . ولأن امرأة جاءت لمقابلتى ووقعت عند أقدامى ، أظهرت العطف على المرأة ، ولهذا السبب لم أتقدم فى بلاد نهر شيخا » .

الديانة

بالرغم من تمكن ملوك الحثيين من ادماج دول المدن تحت راية واحدة وتركيز السلطة المدنية والعسكرية فى يد الملك ، فقد استمرت مراكز العبادة مستقلة لا يمسها أحد بسوء بل رفع من شأنها الملوك وأحيانا انتحلوا وظيفة الكاهن الأكبر . وقد كانت الالهة الشعبية العظمى تحمى الدولة والملوك . وكان للدولة دين رسمى . وقد تميزت المعبودات الحثية بسلاح يحمله الاله فى يده اليمنى ، بينما يضع فى يده اليسرى رمزا ، وكذلك بأجنحة ، وبحيوان مقدس يقف غالبا عليه .

وأهم آلهة الحثيين : اله الطقس ، وذلك طبعا كان نتيجة تعرض الاناضول لكثير من الاعاصير والسحب . وصور الاله فى الاناضول وهو يركب مركبة تجرها ثيران على قمم الجبال التى اخذت صورة البشر . وأهم دور عبادة خاصة باله الطقس كشف عنها فى منطقة طوروس وكذلك فى السهول الشمالية بسورية .

وعبدت الهة حورية مثل الالهة خيبات أوخيبيت وزوجها تيشوب ، وقد عبدا فى كومانى بكبدوكيا وفى حلب وغيرها . وتظهر خيبات على أنها سيدة محتشمة ، تقف أحيانا على أسد وهو حيوانها المقدس . ولهذين الالهين ولد كان يدعى شاروما أو شارما . ومن الالهة الحورية أيضا التى عبدت فى الأناضول : شاوشكا ، وكانت تعرف بعشتار ، وقد عبدت فى سوموحا وفى غيرها من مدن منطقة طوروس . وقد مثلت على هيئة مجنحة وقد وقفت على أسد . والظاهر أن الهة بلاد ما بين النهرين كانت غريبة على الحثيين .

وكان المركز الدينى الكبير فى قلب مملكة الحثيين فى أرينا ، وكانت مدينة مقدسة لم يتمكن أحد من تحديد موقعها ، وهى غالبا على بعد

قريب من خاتوشا ، وقد عبد فيها الهة الشمس (١) . والاله وروسيمو اله الطقس كان زوجا لها . وابنتـــان هما ميزولا وهولا ، وحفيـــدة هى زنتوخى .

والاله تليپنو اله الزراعة وكان يلعب دورا رئيســــــيا فى الاسطورة الحثية المعروفة بأسطورة الاله المفقود ، وربما يشبه الاله أدونيس عنـــد الفينيقيين وتموز عنـــد بلاد ما بين النهرين وأوزوريس عنـــد المصريين القدماء . وهو يمثل الحياة التى تموت فى الشتاء وتحيى فى الربيع .

وكان هناك اله يسمى (اله الريف) ومثل واقفا على أيل وفى يده أرنبا بريا وصقرا ويرجع تاريخ عبادته الى الألف الثالثة قبل الميلاد اذ عثر على نماذج منه من هذا التاريخ .

كانت الهة الشمس فى أرينا تعتبر « ملكة خاتى ، ملكة الســــماء والارض ، سيدة ملوك وملكات بلاد خاتى ، وموجهة حكومة ملك وملكة خاتى » . وبذلك كانت هـــذه الالهة هى حامية الملكية تعـــاون الملك حين البأس والشدة . ولم نعرف موقفها من آله الشمس الذى كان يظهر على أنه ملك الالهة ، وهو يشبه الاله شمش الاله البابلى الذى كان الها للحق والعدل . وقد توجه الملوك الى اله الشمس بالدعاء . وكان يعتقد الحثيون فى وجود اله شمس أو ربما الهة شمس فى العالم السفلى ، اذ انهم كانوا يعتقدون فى أن الشمس كانت تجوب فى هذا العالم فى رحلتها من الغرب الى الشرق . وجدير بالذكر أن المصريين القدماء قد فكروا فى مثـــل ذلك حتى أنهم تصوروا أن رحلة الشمس هذه كان لابد لها من مراكب تنقل الاله من الغرب الى الشرق والعكس . ومن الغريب أيضا انه وجد فى أحد النصوص الحثية ما يشير الى أن اله الشمس الحثى كان على رأســـه أسماك ، بل انه كان يوجد « اله الشمس فى الماء » . كل ذلك يدل عـــلى تأثر العبادة فى الأناضول بمعتقدات المصريين القدماء . وقد سبق أن ذكرنا أنه عثر فى الحفائر فى بعض مناطق بالاناضول على آثار من الدولة القديمة تدل على وجود صلات بين مصر الفرعونية من هذا العهد والأناضول .

لم يكن زوج الهة شمس أرينا هو الاله الشمسى ولكن اله الطقس كما سبق أن أوضحنا ذلك من قبل : وكان اله الطقس هذا مثل زوجه ، رب المعركة ، ويمثل الأمة خارجيا . وجدير بالذكر انه جاء ذكره فى المعاهدة التى أبرمت بين خاتوشيليش الثالث ورمسيس الثانى حينما أشـــير لى

(١) Liverpool Annals of Archaeology, VI, 1914, 3, p. 115 : The Sun — Goddess of Arinna.

انها « تخليد للصلات التى اقامها اله شمس مصر واله طقس خاتى ، لبلاد مصر وبلاد خاتى » .

وقد استطاعت الملكة پودوخيبا بما لهـا من قوة الشخصية أن تؤثر على دين الدولة الرسمى وتدخل دينا حوريا هو عبادة الاله خيبات . وقد وجدت هذه الالهة مصورة فى النقوش المعروفة فى ازيلى كايا Jasilykaya ؛ على بعد ميلين من بوغاز كوى) ورسم من خلفها ولدها شارما ، وغالبـا أنه مثل أمامها زوجها اله الطقس تيشوب . وصور على هيئة رجل ملتح ويقبض فى يده اليمنى على مقمعة وقد وقف على رمز لجبلين . وقد صور اله الطقس فى آثار آخر راكبا مركبة يجرها ثوران كما سبق أن أشرنا الى ذلك . ومن النصوص أمكننا معرفة أسماء الثورين والجبلين ، وأصـل هذه الاسماء حوريا ، فأحد هذه الجبال هـو جبل كاسيوس بالقرب من انطاكية التى تقع شمال سورية . كل ذلك يدل على التأثير الحورى فى العبادات الحثية .

وقـد صور فى ازيلى كايا المعبـودات المحلية ، فصـورت سيزولا ، وزينتوحى ابنة الهة شمس أرينا وحفيدتها . كما مثل فى ناحيـة الالهة الذكر أن تليبينو وهو ابن اله الطقس ويحمل سنبلة قمح (؟) ، وهو يمثل اله النبات . ومن الغريب أن اله الشمس قد مثل هنا فى مرتبة ثانوية وبعد اله القمـر (وكان هذا الأخـير الها غريبا فى بلاد الاناضول ومركزه الرئيسى حران فى شمال بلاد ما بين النهـرين حيث هاجر اليها ابراهيم الخليل فى رحلته من أور الى حران كما سبق أن بينا ذلك فى الفصل الخاص بابراهيم) . أما الصف الطويل من الأناث اللواتى مثلن هنا ولا يحملن رموزا الا عدد بسيط فغالبا كن يمثلن الانهار والينابيع التى لا أسماء لها (١) .

أما عن دور العبـادة الحثية فقد اتخـذت أشكال عدة بعضها وهى الهياكل الصغيرة لا سقف لها كما هو الحال فى ازيلى كايا ، وبعضـها له سقف . وفى بعض البلدان فى الاناضول كان المعبد هو مقر الحكومة ومنه تدار المدينة (كما كان الحال فى دويلات المدن السومرية) مدنيا ودينـا بموظفين مدنيين ودينيين .

وكشف فى بوغاز كوى عن خمسة معابد . وهى لا تختلف عن دور

---

(١) انظر مناظر الالهة على صخور هذه المنطقة فى
John Garstang, The Hittite Empire, London (1929), from pl. XXI to pl. XXV.

العبادة فى بابل وكريت فى بعض التصميمات فهى تتكون من حجرات صغيرة بنيت حول فناء كبير تبلغ مساحته بين ٥٠٠ الى ٣٠٠ متر مربع . والمدخل لقدس الاقداس فى المعبد البابلى يمكن للمصلين مشاهدة تمثال الاله الموضوع فيه من بعد قريب اما مدخل قدس الاقداس فى المعبد الحثى فكان جانبيا ، وكان على من يريد الدخول لمشاهدة تمثال الاله فى قدس الاقداس الحثى أن يدور دورة حتى يصل الى الباب . كل ذلك يدل على أنهم أرادوا ألا يسمحوا الا لعدد بسيط من المصلين دخول قدس الاقداس . ومن مميزات المعبد الحثى وجود فتحات عميقة فى الحائط الخارجى للمعبد كانت عبارة عن نوافذ تصل أحيانا الى مستوى الارض . بينما كانت بالمعابد البابلية فتحات نوافذها فى أعلا الحوائط ، وكذلك المعابد المصرية القديمة كانت توجد نوافذها فى مكان مرتفع من الحوائط الخارجية ، وأحيانا كانت توجد فتحات فى السقف . وأحيانا كان يوضع التمثال فى قدس الاقداس فى المعبد الحثى وقد اضيئت الحجرة بواسطة نافذتين كبيرتين وبذلك كان التمثال يقع فى ضوء قوى . وعلى العكس من ذلك فى قدس الاقداس فى المعابد المصرية القديمة حيث يوجد تمثال الاله فى جو مظلم تماما ، اذ لا توجد فتحات فى حوائط قدس الاقداس المصرى .

وكان المعبد هو بيت الاله كما كان عند أهل ما بين النهرين ، والكهنة خدام يقومون بتوفير كل شيء للاله خاصا بتمثاله فيقومون بغسل التمثال وكسائه الخ . كان الاله يعد ربا للمعبد وللشعب . فتقدم اليه القرابين من كل الانواع ، وعلى الأخص أول ثمار الارض والحيوانات الصغيرة السليمة . ووجدت التضحية البشرية فى بعض الحالات .

كان تقام احتفالات دينية دورية لهذه الالهة ، وكان لكل مركز عبادة تقويم للأعياد . وكان يعود الملوك من حملاتهم الحربية من أجل الاحتفال بأعياد دينية فهذا مورشيليش الثانى عاد الى خاتوشا من حملة حربية من أجل الاحتفال بعيد بورولى ، وكان يسجل الاحتفال مفصلا على ألواح ، والى القارىء صورة من أسلوب الوثائق التى تحدثت عن بعض هذه الاحتفالات : « يخرج الملك والملكة من بيت ــ خالينتووا ــ ويمشى خادمان من خدم القصر وأحد أعضاء الحرس أمام الملك ، ولكن العظام ، و (بقية) فتيان البلاد ، والحرس الخاص يمشون خلف الملك . ويلعب « عبدة التماثيل » الاركامى ، والهوهابال ، وجال جال تورى (ثلاث آلات موسيقية) خلف الملك وأمامه ... ويقف « عبدة تماثيل » آخرين وهم يلبسون رداء أصفر (؟) بجوار الملك ، وهو يرفعون أيديهم ويدورون فى أماكنهم ... ويدخل الملك معبد زابابا ويركعان مرة واحدة أمام الرمح ، ويتكلم عابد التمثال وينادى البشير ... ويجلس الملك والملكة على

العرش ... ويحضر خادمان من خدم القصر ماء للأيدى من جرة ذهبية ... يغسل الملك والملكة أيديهما ... ويدخل رئيس الاحتفالات ، ويعلن للملك . ليحضرن آلات (عشتار) . . . ويضع الطهاة صحونا جاهزة من الماء واللحم ... »

كان يعتقد الحثيون أن آلهتهم قد تسهوا أحيانا عن خدمتهم . وكانوا يعتمدون على العرافة فى معرفة الغيب على ثلاث طرق : فحص احشاء الضحية ، الطيرة ، وسؤال النساء العجائز . كل ذلك كان موروثا من البابليين . وفى ذلك لم يختلف الحثيون عن غيرهم من الشعوب القديمة خصوصا أهل ما بين النهرين .

عرف الحثيون السحر والسحرة ، واستخدم السحر فى طرد الامراض وطرد ما يقع من مصائب داخل البيت أو نقص المحصول أو الطاعون فى انجيش . كذلك استخدم السحر لانزال اللعنة على أعداء الانسان ، ولجلب الحظ السعيد .

أما عن عادات الدفن فمختلفة : فقد وجد عام ١٩١١ بالقرب من الطريق الى أزيلى كايا عدد كبير من قدور كبيرة ، وقد وضع كل قدرين منها معا بحيث أن تتواجه فوهة القدرين . وبداخل القدور أوان صغيرة قد احتوت على رماد جثث محترقة . وهى الجثث المحترقة الوحيدة التى عثر عليها من الالف الثانى قبل الميلاد . بينما وجد الأثريون فى بوغاز كوى قبورا وضع الجسد اما داخل قدرين كبيرين كانت فتحة كل منهما أمام الاخرى ، مثل الحالة التى حرقت فيها الجثث ، وقد وضعت الجثة فى حفرة تحت الارض داخل المنازل . وغالبا كان حرق الجثث خاصا بالشعب اما الملوك فكانت جثتهم تحنط على الطريقة التى وصفناها . وبذلك وجد فى المجتمع الحثى اختلاف بين الحكام والمحكومين فهذا خاتوشيليش الأول يقول فى احدى خطبه « واغسل جسدى ، بما يليق به ، ضمنى الى صدرك ، وادفنى فى الارض قريبا الى صدرك » .

وقد اشتركت الطقوس الحثية والهومرية فيما يلى حرق الجسم ، اخماد حطب المحرقة بالنبيذ ، لف العظام فى قماش فاخر أو وضعها فى زيت أو شحم .

وفى الواقع أن حرق الجثة لم يظهر فى بلاد اليونان الا بعد نهاية الحضارة الميكينية . وقد وجدت أدلة فى مدينة طروادة على حرق الجثث .

سبق أن تحدثنا عن اللغات التى انتشرت فى هضبة الاناضول ، غالبا أن الخط الحثى المسمارى قد ادخل أيام الملك خاتوشيليش الأول ، وفى خطبته المشهورة التى ألقــاها أمام الأمراء حينما اراد أن يعين الشــاب الصغير مورشيليش من بعده ليرث العرش .

وقد استخدم الملك فى خطابه هذا كلمة الافتتاح قائلا : « تحدث الملك لابارناش (غالبا هو اسم الملك الاصلى تيمنا باسم من سبقه من الملوك بهذا الاسم ثم غير بعد ذلك اسمه حينما حكم الى خاتوشيليش) العظيم الى رجال المجلس المحاربين وأصحاب المقامات العالية (قائلا) : انظروا ، نقد أصابنى المرض ، وقد سبق أن أعلنتكم ان لابارناش الشاب هو الذى سيجلس على العــــرش « أنا الملك دعيته ابنى ، واحتضنته ، ورفعت مكانته ، ورعيته دائما . ولكن أثبت نفسه شابا غير جدير أن يرى فلم يسكب دمعا يظهر رحمة ، وكان باردا قاسيا . فاستدعيته ، أنا ، الملك ، الى مضجعى (وقلت) : وبعد ؟ فلن يربى أحد (فى المستقبل) ابن شقيقته على أنه ابنه بالتبنى . فكلمة الملك لم يضعها فى قلبه ، ولكن وضع كلمة أمه الأفعى ، فى قلبه . وحسبى هذا فهو لم يعد ابنى ؟ وحينئذ خارت امه مثل الثور : لقد مزقوا اربا الرحم الذى هو فى جسدى وانا على قيد الحياة ، لقــد أهلكوه ، وانت ستقتله ؟ ولكن هل أنا أسأت اليه ؟ انظروا ، لقد أعطيت ابنى لابارناش بيتا ، لقد أعطيت له (أرضا زراعية) بوفرة ، واعطيت له اغناما كثيرة ، فليأكل الآن ويشرب . (وطالمــا هو صالح) يستطيع ان يأتى الى المدينة ، ولكن اذا جاء (مثيرا للفتن) . دندئذ لن يأتى ، سيبقى (فى بيته) .

ويدل أسلوب هذا الخطاب على حرية فى الحديث وعدم الالتواء ، وان الملك لن يكن متكلفا فى اسلوبه حينما يقول « انظروا ، ان مورشيليش هو الآن ابنى ... فى مكان الأسد (سيقيم) الله أسدا (آخر) . وفى تلك الساعة عندما تنطلق الدعوة الى السلاح ... أنتم ، خدمى والقادة من المواطنين ، يجب أن تكونوا (على أهبة لمساعدة ابنى) ... » ويخاطب ابنــه قائلا « حافظ على كلمــة أبيك . فاذا حافظت على كلمــة أبيك ، (فستأكل عيشا) وتشرب ماء . وعندما يتم النضج (بداخلك). فكل مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم تفعل بنفسك خيرا . (وعنــدما) تدرك الشيخوخة فأشرب حتى تشــــبع ؟ وعندئذ يمكنك أن تضــــع جانبا كلمة أبيك » (١) .

---

(١) جرنى : الحثيون ترجمة دكتور محمد عبد القادر ص ٢٣٠ ــ ٢٣١ .

وقد اهتمم الملوك بتلك المقـدمات والاعتراف بفضـل الاله ، فمن حوليات مورشيليش الثانى ما يلى « عندما أجلست أنا ، الشمس (من قبل كان يلقب نفسه أنا الملك) على عرش أبى ، وقبل أن أتحرك ضد أى قطر من أعدائى الذين اعلنوا على الحرب وجهت همى الى الاحتفـالات المتكررة الخاصة بآلهة شمس أرينا ... »

وقد امتاز الملك مورشيليش الثانى بتسجيل حولياته وقـد قام بتسجيل حكم أبيه شوبيليوليوماش . ولخاتوشيليش الثالث وثيقة رائعة عن توليه العرش وتبريره اقصاء ابن أخيه أورخى تيشوب . وهو يتوجه فى خطابه الى عشـتار ثم يقص علينـا كيف تخلص من أورخى تيشوب وأعدائه دون الانتقـام ثم يتوجه بالشكر الى عشتار لانتصاره وتكريس بعض المبانى لها . ثم يختم كلامه بالرجاء لحلفائه من بعده أن يكونوا عباد مخلصين للالهة عشتار .

ومن ذلك نرى أن الاسلوب الأدبى فى هذا المراسيم والخطب وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره تدل على تأثر الأدب بالحكم والادارة .

لم يوجد فى الأدب الحثى الا أساطير قليلة ، واغلب القصص الموجودة ترجع الى الديانة الحورية وذلك لتأثر الثقافة الحثية فى فترة من الفترات (بين الدولة القديمة والحديثة) بالحوريين .

الفـــن

لقد سبق أن تحدثنا عن عصر ما قبل التاريخ والمخلفات التى وجدت فى الاناضول من هذا العهد . وعثر بعد ذلك من الالف الثالثة على مقابر تضم مجموعة من تماثيل الحيوانات صنعت من الفضة والبرونز وكذلك أوان من ذهب وحلى من ذهب بعضها على هيئة قرص الشمس وبعضها على هيئة آيائل . وكذلك عثر من هذا العصر على تماثيل حجرية بدائية وأوان من الفخار عليها الوآن عديدة ورسوم هندسية ولها أشكال مختلفة وظل هذا الفخار مستعملا طوال المملكة القديمة الحثية .

ثم ظهرت النقوش مزدهرة فى الالف الثانى ق . م وذلك على الاختام الاسطوانية وأخرى قرصية نقلا عن بلاد ما بين النهرين . وكانت الرسوم على هذه الختوم من طراز اقليمى ، وتضم الكثير من شعائر بلاد الاناضول مثل عبادة الثور المقدس ، وهى دخيلة على الحثيين وربما وردت من بلاد ما بين النهرين أو من مصر الفرعونية . ولم انتهى الاستعمار الاشورى ندر وجود ختوم اسطوانية .

كذلك وجدت تماثيل انسانية مصنوعة من البرونز فى بوغاز كوى ولم يستطع أحد حتى الآن تقدير تاريخه بشكل مؤكد وغالبا انه استورد من سورية .

ثم ظهرت فى الدولة الحديثة الحثية نقوش غائرة على الحجر كانت على حجارة أسفل حوائط واجهات القصور والمعابد ، وبعضها يمثل الملك على هيئة كاهن يصلى الى الاله . وقد مثل الملك مرتديا العباءة والشال ويحمل الصولجان . وأهم النقوش من هذا النوع الدينى ما وجد فى ازيلى كايا وقد رسمت الالهة هنا على الطريقة البابلية الاشورية والمصرية القديمة أيضا فالجذع من الامام بينما الرأس والاقدام من الجانب .

كذلك وجدت تماثيل على هيئة أبى الهول وتماثيل اسود فى بوابات بوغاز كوى وغيرها وقد برزت فيها الاجزاء الامامية من الحيوان ولكن لم ينجح الحثيون فى صناعة التماثيل من هذا النوع كما نجح المصريون القدماء أو غيرهم .

وفى شمال سورية نجد خليطا من الفنون ولكن لم تستطع الحضارة الحثية أن تنافس حضارة بلاد ما بين النهرين فى هذا المضمار ولذلك تأثرت سورية كثيرا بقطبى الحضارة القديمة مصر الفرعونية وبلاد ما بين النهرين أكثر من تأثرها بالحثيين وذلك لأصالة هاتين الحضارتين وقوتهما .

* * *

ملوك الحثيين من ١٨٣٠ الى ١٦٠٠ ق٠م
ومن عاصرهم من ملوك الدول التى لها بهم اصلة فى تلك الفترة

التاريخ ق٠م	بابل	آشور	ماري	حلب	الحثيون
١٨٣٠ ـ ١٨٦٣	أپيل ـ سين		اياخدون ليم		
	سين ـ موباليت				
		شماشي ـ أداد الاول	اياسماخ ـ أداد		بتخانا
١٧٩٢ ـ ١٧٥٠	حمورابي				
		اشم ـ داجان الاول		ايارم ليم الاول	أنيتا
		موت ـ أشكور	زمري ليم	حمورابي الاول	
			خانا (غير مؤكد		
١٧٤٩ ـ ١٧١٢	ساموى الينو				
			ترتيب الملوك)		
	آبي شو		اشارليم	اياري ليم الثاني	
		بلو ـ باني	اسيخ ـ داجان	نيقهيبو	
		ليبايا	كاشتيلياش	ركابتوم	لابارناش
		شارما ـ أداد الاول	شونوخ راموا	حمورابي الثاني	
		ايثار (؟) ـ سين	أميمادر	ايارم ليم الثالث	خاتوشيليش الاول
١٦٤٦ ـ ١٦٢٦	أميصادوقا	بازايا	حمورابي		
		اولايا			
					مورشيليش الاول
		كيدين ـ نينوا			
		شارما ـ اداد الثاني			
١٦٢٥ ـ ١٥٩٥	سمسوديتانا	اريشوم الثالث			

ملوك الحثيين من ١٦٠٠ الى ١٣٨٠ ق٠م
ومن عاصرهم من ملوك الدول التى لها بهم صلة فى هذه الفترة

التاريخ ق٠م	آشور	ميتانى	الالاخ	كيزوادنا	الحثيون
١٥٧٧ ـ ١٥٧٢	شامشي ـ أداد الثانى				خانتيليش الاول
١٥٧١ ـ ١٥٥٦	اشمداجان الثانى	شوتارنا الاول			
١٥٥٥ ـ ١٥٤٠	شامشي ـ أداد الثالث		أليمى ليما الاول		زبدانتاش الاول
		پاراتانا			
				پيليا الاول	أموناش
١٥٣٩ ـ ١٥١٤	آشور ـ نيرارى الاول		ادريمى		
				پرياواترى	
١٥١٣ ـ ١٥٠٠	پوزور ـ آشور الثالث				خوزياش الاول
		ساوستاتار		اشيوتاخشو	تيليپينوش
١٤٩٩ ـ ١٤٨٧	انليل ـ ناصر الاول		أداد ـ نيرارى ؟		
					ألو وامناش
			نبقميپا		

التاريخ ق.م	آشور	ميتانى	الالاخ	كيزوادنا	الحثيون
١٤٨٦ ـ ١٤٧٥	نور ـ يلى (تدخل الميتانيين ؟)				
				شواناشور الاول	
					خانتيليش الثانى
			اليمى ليما الثانى	پيليا الثانى	زيدانتاش الثانى
١٤٧٤	آشور ـ شادونى				
١٤٧٣ ـ ١٤٥٣	آشور ـ رابى الاول	؟			خوزياش الثانى
١٤٥٢ ـ ١٤٣٣	آشور نادينهى الاول	ترخالياش الاول			
١٤٣٢ ـ ١٤٢٧	انليل ناصر الثانى				ارنوواندش الاول
١٤٢٦ ـ ١٤٢٠	آشور ـ نيرارى الثانى				تودخالياش الثانى
١٤١٩ ـ ١٤١١	آشور بلنيششو	آرتاتاما			خاتوشيليش الثانى
١٤١٠ ـ ١٤٠٣	آشور ـ ريم ـ نيششو	شوتارنا الثانى		تالزوش	
١٤٠٢ ـ ١٣٩٣	آشور نادينهى الثانى	توشراتا			تودخالياش الثالث
١٣٩٢ ـ ١٣٦٦	اربا ـ أداد الاول			شوناششورا الثانى	
١٣٦٥ ـ ١٣٣٠	آشور أوباليت				شوبيلوليوماش الاول

ملوك الحثيين من نهاية القرن الرابع عشر الى القرن الثانى عشر
ومن عاصرهم من ملوك الدول التى لها صلة بهم

التاريخ ق٠م	الحثيون	الميتانيون	المصريون	الاشوريون
١٤٠٥ ــ ١٣٦٧			امنوفيس الثالث	
		توشراتا		
١٣٦٧ ــ ١٣٥٠	شوپيلوليوماش		امنوفيس الرابع	
١٣٤٧ ــ ١٣٣٩			توت عنخ آمون	آشور أوباليت
١٣٦٥ ــ ١٣٣٠		كورتيوازا		
١٣٣٥ ــ ١٣٠٨			حورمحب	
	آرنو وانداش الثانى			
	مورشيليش الثانى			
١٣٢٩ ــ ١٣٢٠				انليل نيرارى
١٣١٩ ــ ١٣٠٨				أريك ــ دن ــ يلى
١٣٠٩ ــ ١٢٩١			سيتى الاول	

التاريخ ق٠م	الحثيون	الميتانيون	المصريون	الاشوريون
١٣٠١ — ١٢٧٥	مورواتاليش			أداد نيرارى الاول
		شاتوارا		
١٢٩٠ — ١٢٢٤			رمسيس الثانى	
	أورخى تشوب			
		واساشاتا		
	خاتوشيليش الثالث			
١٢٧٤ — ١٢٤٥				شالمانصر الاول
	تردخالياش الرابع			
١٢٤٤ — ١٢٠٨				توكولتى — نينورتا الاول
١٢٢٤ — ١٢١٤			مرنبتاح	
	آرنوانداش الثالث			
	شوبيلوليوماش الثانى			
١٢٠٧ — ١٢٠٤				آشور نادين أبلى

الباب الرابع

نظرات عابرة فى تاريخ وحضارة إيران

الفصل الأول

طبوغرافية المنطقة

تقع هضبة ايران بين بحرين أحدهما مغلق ويقع الى الشمال ، وهو بحر قزوين ، والثانى شبه مغلق وهو الخليج العربى . وترتفع الهضبة لتبلغ فى بعض الأحيان حوالى ١٧٠٠ مترا فوق سطح البحر ، وتتخلل الهضبة بعض الوديان القصيرة يتراوح طولها بين ٥٠ و ٧٠ كيلو مترا ، وتقع فيها أهم المدن الايرانية . وينبت فيها بعض الغابات من شجر البلوط والجوز . وقد تمكن الايرانيون من زراعة الحبوب والدخان وبعض المحصولات . وأكثر المناطق ازدحاما بالسكان هى المناطق الزراعية حيث الوديان مثل المنطقة حول بحيرة أورميا ، وحولها يقوم الايرانيون بزراعة القمح والشعير والقطن والأرز والدخان وبعض الفواكه .

وهضبة ايران فقيرة فى وديانها الزراعية ، فلا يجرى فى أرضها أنهار كبيرة كدجلة والفرات أو النيل . وسمحت طبيعة تلك الهضبة بوجود مراع . كما وجد فى بعض مرتفعاتها بعض المعادن وأحجار من نوع جيد ، وأخيرا نبع من بعض مناطقها الذهب الاسود الذى كان له اثر كبير فى نمو اقتصادياتها حديثا .

أثر البيئة الجغرافية فى حياة الناس

ترك معظم الاريين موطنهم فى جنوب روسيا واتجهوا الى سهول وسط آسيا ، ولم يبق الا عدد قليل من الاريين . وقد استقر الهيركانيين Hyrcanians على طول المنحدر الشمالى لمرتفعات alborz والسهل الساحلى السفلى الذى يقع تحت مستوى البحر . وقد اقام بعض الايرانيين فى الهضبة . وتقع مرتفعات زاجروس الى الغرب ومرتفعات البورز الى الشمال . وفى الشرق تأخذ الهضبة الايرانية فى الارتفاع متجهة الى مرتفعات هملايا ؛ وفى الجنوب تأخذ فى الانخفاض حينما تنحدر نحو الجنوب الى المحيط . ويقع بين هذه المرتفعات بعض الأودية والمنخفضات .

فيقع فى الوسط صحروات واسعة . صعب اجتيازها وقد غطيت فى بعض أجزائها ببحيرات مالحة ، وفى البعض الآخر غطيت بتربة مائلة الى الاحمرار وبتربة مشبعة بالأملاح . ومن الملاحظ أن مرتفعات ايران قاحلة فليس فيها أى شجر أو نبت . ويوجد بين المرتفعات والصحراوات أرض صالحة للزرع لكنها تفتقد المياه التى تعد نادرة ، ولا تسقط الأمطار فوق هذه المرتفعات الا قليلا وفى المنطقة بين Resht and Qazwin ولا يتجاوز متوسط ارتفاع مياه المطر فى أصفهان عن ٤ بوصة أو أقل .

وشمس ايران محرقة فيما عدا شهر سبتمبر وليالى نوفمبر شديدة البرودة ، وتسقط أمطار بسيطة فى الخريف بعضها ضباب خفيف ، واخيرا تتعرض البلاد الى رياح شديدة يصحبها ثلج . وفى ينـاير تغطى القرى بالثلج ، ويذوب الثلج فى الربيع بدون تجديد لمواعيد ذوبانه فتهدد النـاس فى القرى وتعرض قراهم الى الخطر . وتملأ الوديان بالميـاه . وحاول الايرانيون الافادة من هذه المياه حتى أنهم بنوا قنوات تحت الأرض .

عصر ما قبل التاريخ الايرانى

كانت هذه المنطقة آهلة بالسكان قبل أن يطلق على تلك الهضبة العظيمة ايران . فقد عثر على شظايا من حجر الأوبسديان تحت الرواسب منذ أواخر عهد الجليد بينما ترك انسان أواخر العصر الحجرى مخلفاته فى الهواء الطلق . وقد عثر على اطلال قرى قديمة قام الناس فيها فى هذه الأزمان منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد بفلاحة الأرض ، وتركوا وراءهم مخلفاتهم واخصها الفخار المصنوع بعجلة الفخارى والذى زينت جوانبه بزخارف مختلفة . وقد زودتنا عيلام فقط التى تقع الى الغرب من الهضبة بالكتابة ، وبذلك عرفنا تاريخ تلك المنطقة من هذا المكان ، خصوصا من المدينة المعروفة باسم سوسه

كذلك عرفنا تاريخ هؤلاء الناس من Videvdat, "the Antidemonic Law" ولو أنه ظهر فى Avesta التى كتبت قبل ميلاد المسيح بقليل الا أنها لها أهمية كبرى فى تاريخ حضارة ما قبل التاريخ فى تلك المنطقة . وقد كشف فى المنطقة من هذا العهد عن منازل لرؤساء المدن ، كانت تفيض بالغنا والثروة بما عثر فيها على مخلفات ، وقد ثبت أن هؤلاء كانوا يقومون بفلاحة الأرض . وقد استخدموا جلود الحيوان أو الأقمشة المنسوجة لأرديتهم أو لخيامهم . كما أقاموا أحيانا أكواخ من أغصان الأشجار .

أما عن أصل تلك الجماعات ، فغالبا ما يرجع الى جنس البحر

المتوسط . أما من الناحية الثقافية ، فهم متأثرون بسكان وسط آسيا ، خصوصا فى تفكيرهم الدينى . وقد جاء فى أخبار كتاب اليونان القدامى بعض المعلومات عن السكان الأول الذين عاش ورثتهم حتى أيامهم على طول الساحل الجنوبى للبحر الأسود .

وقد جاء فى أخبار الأفستا على سبيل المثال أن الجماعات التى كانت تسمى Derbics ، كانت تقوم بقتل الرجال الذين تزيد أعمارهم عن السبعين وتقدمهم طعاما لأقربائهم ، وتشنق العجزى من السيدات ويدفن . وأما الرجال الذين تزيد أعمارهم عن السبعين ، عند الكسپيين فقد كانوا يموتون جوعا ، وتترك جثتهم فى العراء تنهشها الطيور الكاسرة أو الحيوانات الضارية . وقد استمرت تلك العادات التى تنفر منها النفس الطيبة حتى أيام غزوة الاسكندر الأكبر . أما المرضي والعجزى فيلقى بهم أحياء انتظارا لمصيرهم المحتوم .

وفى نظر بعض المؤرخين ، لم يكن لهؤلاء السكان فى هذه الفترة آلهة يلجأون اليها فى الشدة والضيق ولكن كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة ، وكانت هذه الارواح أو الشياطين لا تحمل فى الغالب اسما . واحيانا تذكر أسماء هؤلاء .

اقدم منطقة قام بالتنقيب فيها علماء الآثار والتاريخ القديم هى منطقة تبة سيالك Tepe Sialk (١) . وكان سكانها قديما يقيمون حول بحيرة يصب فيها نهر صغير .

وقد بان لعلماء الآثار أن الزراعة كانت متقدمة فى هذه المنطقة حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م. وقد استطاع أهل سيالك ان يقوموا بفلاحة الارض وحفظوا حبوبهم وغذاءهم فى أوان فخارية مختلفة الأشكال والأحجام . وقد قاموا ببناء أكواخ من بعض الأغصان المغطاة بالطين .

ثم تطورت المساكن فصنعت من الطوب النى . وقد كانوا يقومون من الداخل بطلائها بالوان حمراء . وقد دفنوا موتاهم تحت أرضية هذه الاكواخ ورقدت الموتى على هيئة القرفصاء ، أو كما وصفها Ghirshman "Chien de fusil" (٢) ، وقد وضع الى جانبها بعض أثاث جنازى .

---

(١) R. Ghirshman, Fouilles à Sialk, T. I (Le Caire, 1938), T. II (Le Caire, 1939).

(٢) R. Ghirshman, Perse (Paris 1963).

وقد استخدموا الأختام القرصية لطمغ الأواني . ولم تدخل المعادن الا مؤخرا ، حيث كانت تستخدم الأحجار . وقد بدأ الفنان في هذه الفترة في صناعة أدوات الزينة : المرايا ، ودبابيس ، وصنعوا تماثيل من العظم والفخار . وقد استمر الأهالى فى صناعة الفخار باليد طوال الألف الخامسة ق.م. ولم يستخدم الفخاريون عجلة الفخار الا فى الألف الرابعة. وعند ذلك بدأ الفنان يقوم بصناعة أوآن فى غاية الروعة .

ثم ظهرت حضارة هذا العصر أيضا فى الألف الثالثة ق.م فى منطقة سوسة ، وهى منطقة تمثل الامتداد الطبيعى لبلاد ما بين النهرين . وقد نقل من بلاد ما بين النهرين استخدام الختوم الاسطوانية واللوحات الصغيرة .

وفى مستهل الاقامة فى سيالك ، كان يقوم اهالى هذه المنطقة بدفن موتاهم فى أرضية أكواخهم كما فعل أهل مرمده بنى سلامة فى العصر الحجرى الحديث فى مصر الفرعونية . ثم لما تقدمت بالسيالكيين الأيام بنو قبورا منعزلة عن المنازل .

لما نزل الجوتيون الى بلاد مابين النهرين شغلوا مدخل ايران الغربى ، وقد قاموا بمراقبة تحركات القوافل والتجارة . وقد تاثر الايرانيون كثيرا بالفن الرافدى . فتسللت الفنون الى الجهة الشمالية الشرقية بايران ، عند هيسار Hissar ، بالقرب من دمغان . وربما جاء اصحاب هذه الفنون من التركستان الروسية أو ابعد من ذلك ، من قلب آسيا الوسطى . وقد تحقق ذلك بعد العثور على مسكن فى ناحية زامين ــ بابا Zamin-Baba ، فى واحة بخارى ، شبيه بذلك الذى عثر عليه فى هيسار .

وازدهرت حضارة سيالك ايضا فى الالف الرابعة ق.م. عند اهالى كثيرين : قوم Qum ، وساوه Saveh ، ورى Rey ، وهيسار Hissar بالقرب من دمغان Damghan . كما ظهرت حضارة فى الجنوب كما سبق اشرنا فى سوسة وفى تل باكون Bakoun بالقرب من تخت چامسيد (پرسپوليس) .

وقد انتشرت الحضارة الايرانية فى عصر ما قبل التاريخ ، اى قبل الألف الثالثة قبل الميلاد فوصلت شواطىء البحر المتوسط ، وكما سبق أن بينا الى التركستان الروسية . والى شمال غربى شبه جزيرة الهند ، والى بلوخستان .

انتشرت حضارة سيالك وكانت لها صلة وطيدة بحضارة سوسة . وقد كان لفخار سوسة من الألف الرابعة ق.م أثره فى جميع حضارات غرب آسيا وأواسط آسيا . وليس هناك أدنى شك فى وجود صلات بين فخار سوسة وفخار بلاد ما بين النهرين . ويميل بعض العلماء الى اعتبار أن حضارة سوسة ايرانية ولم تتأثر بحضارة بلاد ما بين النهرين الا فى بعض الامور البسيطة . وقد سبق أن بينا عند الحديث عن الحضارة فى بلاد ما بين النهرين أن الكتابة قد نشأت فى منتصف عصر الوركاء ٣٥٠٠ ق.م وكذلك فى مصر الفرعونية فى نفس هذا التاريخ تقريبا ، كذلك أيضا فى عيلام ومركز حضارتها سوسة ، وقد ظهرت فيها الكتابة فى هذا العصر. وقد سمى العلماء هذه الكتابة باسم « قبل العيلامية » ، وقد كتب بها اهل سيالك . والكتابة هنا كانت تصويرية ، كتبت على بطاقات مثل تلك التى عثر عليها فى سيالك .

استطاع العيلاميون فى أوائل الألف الثالثة ق.م ان يمدوا سلطانهم على منطقة واسعة حتى الخليج العربى . وكثيرا ما شنوا غارات على بلاد ما بين النهرين كما سبق أن أشرنا الى ذلك عند الحديث عن تاريخ بلاد ما بين النهرين . وقد غزاها سرجون الاكدى . ولما ثارت أيام حفيده نرام ـ سين . قام هذا الأخير بقمع الثورة وعين حاكما أكاديا عليها . وبذلك انتشرت اللغة الاكدية فى عيلام .

ولما استقرت الأمور فى عيلام ، عين نرام ـ سين حاكما عيلاميا هو پوزور ـ انشوشيناك Puzur Inshushinak . وكان هذا مخلصا للاكديين ، وقد هاجم الجوتيين وأقام عدة منشآت فى سوسة ، واتسع نفوذه حتى أن جيرانه كانوا يخشون بأسه . ولما توفى نرام سين استقل پوزور ـ انشوشيناك ، وحاول غزو أكد لكنه فشل . ثم هاجمته القبائل الجوتية .

وظلت الهضبة الايرانية خلال الألف الثالثة مسرحا لهجمات كثير من جيرانها : من الجوتيين واللوبيين . ولم يعثر العلماء على آثار ذات قيمة فى هذه الفترة ، وأغلب الفخار الذى عثر عليه كان متأثرا بما هو موجود فى بلاد الرافدين . وبالاضافة الى ذلك فقد استخدموا بعض المعادن فى صناعة الحلى من الفضة أو البرونز . فلقد ثبت للعلماء أنه كان يوجد النحاس فى ايران ، وأنه نشأت مراكز هامة من اقليم باكتريا Bactria فى افغانستان .

وخلاصة القول أن أهل الهضبة الايرانية لم يكن لهم فى الألف الثالثة أو فى الألف الثانى قبل الميلاد أى وحده تجمع قبائلهم تحت سلطان رجل واحد .

***

الفصل الثانى

العيلاميون

العيلاميون هم من أصـــل اسيانى أو Zagro-elamite ، ولم ينحدروا من عائلة سامية أو هندية ــ أوربيــة . وبعض العلماء يضـمهم ضمن مجموعة الشعوب التى تتحدث اللغات القوقازية . وقد ازدهرت مملكتهم كما سنرى فيما بعد فكانت تشمل سهل سوسة وتحدها مرتفعات زاجروس ، وقـد امتدت الى الشرق حتى اصـفهان ، والى الغرب حتى بابل ..

ما الذى كان يحدث فى عيلام فى الألف الثانى وأيام اندفاع الكشيين ؟

سبق أن ذكرنا فى تاريخ بابل ان العيلاميين غزوا فى بداية الألف الثانى بابل ، وأن أحد حكامهم قد انشأ مملكة لارسا ، ثم استولى العيلاميون على ايسن وكونوا أسرة (أنظر اثبات ملوك لارسا وايسن ص ٢١٤) وامتـد نفوذهم حتى الوركاء وبابل . ثم قضى حمورابى على هؤلاء جميعا . وبعد أن استقرت له الأمور عزم على مهاجمة « ريم سين Rimsin » ، وقـد اتحدت بعض المدن فى بلاد الرافدين ضد ريم سين : ايسن ، بابل ، أوروك ، رابيقوم وغيرها تحت اشراف ملك أوروك اردامم Irdamene وقد نجح ريم سين فى القضاء عليهم . ثم بدأ يتجه نحو الشرق ، وعاد عام ١٨٠٢ الى أوروك ، وقد استطاع أن يستولى عليها وكذلك على نيپور ولكن توقف نشاطه الى الجنوب ، فقد واجهته قوات بابل تحت اشراف حاكمها سين موباليت Sinmuballit (١٨١٢ ــ ١٧٩٣) فهزمه عام ١٧٩٩ ، ولكن كان ذلك لفترة قصيرة ، فقد عادت قوات ريم سين الى ايسن فى العـام التالى .

وقام دامى قيليشو Damiqilishu (١٨١٦ ــ ١٧٩٤) حاكم ايسن فى السنوات الأخيرة من أيام استقلالها بتجديد تحصين المدينة لكن ذهبت جهوده مع الريح امام قوات ريم سين الذى استولى عليها . واعتبر نفسه بعد ذلك وبعد أن قضى على أعوان ايسن ملكا لسومر واكد . وقد كافأ ريم سين ضباطه وعساكره على ما بذلوا من جهود . وبدأ ينظم شـئون البلاد الداخلية فلم يؤمم الممتلكات الخاصة ولم يأخذ اغراضهم الشخصية ،

ولكنه أقام صعوبات فى سبيل امتلاك المنازل والأراضى ، وبذلك قضى على طبقة التجار الأغنياء .

ولما مات سين موباليت صاحب بابل تلاه ولده حمورابى ، وقد عمل حمورابى على تقـوية مملكته ، وفى عام ١٧٨٧ كان على أهبـة الاستعداد لمهاجمـة لارسا . وفى الحـال خضعت له ايسن وأوروك . ثم دانت له ايامو تبال Iamutbal وكانت من أملاك ريم سين . وقبل أن يهاجم لارسا نفسها شغل بحروب فى الشمال . وبعد أن تم القضاء على اشنونا وماري، بدأت آشور تبحث عن حلفـاء لها . فاتحـدت معها مالجوم Malgum جوسيوم Gutium وعيلام . وقد قهر حمورابى كل هؤلاء ووقعت اسن فى قبضة يده وحاصر مدينة ريم سين وقضى عليها عام ١٧٦٣ وأصـبح حمورابى سيدا على بابل جميعها .

كانت امبراطورية حمورابى من خلقه هو ، وكانت فى حاجة ماسة الى توجيهاته هو ، ولذلك تعرضت بعد وفاته الى الزوال لعدم وجود شخصية مثل حمورابى . وقد بدأ ولده سمسو الونا Samsuiluna (١٧٤٩ — ١٧١٢) فى الحفاظ على ميراثه . فقام بتخفيض الضرائب وشق القنوات واستمر على الانفاق على دور العبـادة . ولكن تعرضت البـلاد فى ايامه الأخيرة لهجمات الكشيين ، وقد ادعى أنه ردهم . وانشق الآشوريون عن البابليين ، واستطاع الكشيون فى النهاية أن يكونوا مملكة أضافوها على ما أخذوه من نهر دجلة .

ولقد كان لنجاح الكشيين أثره فى القضاء على امبراطورية حمورابى . وفى عام ١٧٤١ أثارت ايامو تبال تؤيدها عيلام تحت زعامة ريم سين الثانى وقد استطاع هذا الأخير أن يتقـدم نحو الجنوب فيسـتولى على أوروك وايسن ولارسا ويعلن أنه أصـبح ملكا من عاصـمة مملكة والده . ولكن استطاع سمسو الونا أن يقضى عليه ويأسره . وقد انسحب العيلاميون فى العام التالى ، ودكت أسوار أوروك وأور حتى أنه لم يجد الثوار فيمابعد ذلك حصنا يحتمون فيه . ولكن لم يدم انتصاره طويلا فقد اتحدت المدن الجنوبية فى بلاد الرافدين تحت أحد أفراد مملكة ايسن ، وقد اسـتطاع هذا القائد أن يقضى على الامبراطورية البابلية التى أنشأها حمورابى .

ثم ظهر الكشيون على مسرح السياسة والحرب . فمن هم (فى بعض المؤلفات يكتبون الكاسيون) ؟ لم يكن هؤلاء من الشعوب الهندو أوربية بل كانوا من الجنس الاسيانى ، ولكن امتزج هذا الجنس ببعض الشعوب الهندو أوربية .

ووطن الكشيين هولورستان Luristan ، وهو يمثل الجزء الأوسط من مرتفعات زاجروس ، ثم آمتد نفوذهم على هضبة ايران ، وقد كانت عاصمتهم فى فترة من الفترات اكباتانا • وهى غالبا تقع حاليا عند مدينة همدان • وقد امتازت تلك الجماعات بممارسة فنون الحرب واهتموا بالخيل حتى انه يعتقد بعض الناس انهم عبدوا الحصان •

وقد ظل الكشيون يحكمون بابل حوالى ٥٠٠ سنة • وقد استطاعت عيلام ان تتحرر من الاستعمار الكشي وذلك فى القرن الثالث عشر • وظهر من الحفائر التى اجريت فى بعض المواقع بالقرب من سوسة نشاط عمرانى واضح اذ عثر على زقورة •

ويعد پاخيراشان Pakhirishshan بن اكى ــ خالكى Ike-khalki هو المؤسس الحقيقى للأسرة العيلامية التى ازدهرت فى أيامها عيلام : وقد حكم غالبا أيام الملك البابلى نازى ماروتاش Nazimaruttash (١٣٢٣ ــ ١٢٩٨) • ولم يترك نصوصا من عصره، ولكن عرفنا تاريخه من نصوص متاخرة تدل على نشاطه فى اقليم اخيتك Aakhitek (١) • وجاء من بعده اخوه اتار ــ كيتاخ Attar-Kittakh ، وغالبا كان معاصرا للملك البابلى كادشمان تورجو (١٢٩٧ ــ ١٢٨٠) وقد استمر فى النشاط العمرانى الذى بداه أخوه • وعثر له فى سوسة على مقمعتين يحملان اسمه • وقد سمى نفسه فى أحدها ملك سوسة وانزان Anzan أو انشان •

وجاء من بعده ولده خومبان ــ نومنا Khumban-numena (١٢٨٥ ــ ١٢٦٦) وقد حمل اللقب الذى كان يحمله والده «ملك سوسة وانزان» بالاضافة الى القاب وطنية اخرى •

وخلفه ولده أونتاش ــ (د) جال Untash-(d) Gal (جال معناها العظيم) كان معاصرا لملك آشور شلمناصر الأول (١٢٧٤ ــ ١٢٤٥) ، والملك البابلى كاداشمان انليل (١٢٧٩ ــ ١٢٦٥) ، وكذلك الملك البابلى كودور ــ انليل (١٢٦٣ ــ ١٢٥٥) • وقد وصلت فى عهده اسرة اكى ــ خالكى قمة المجد • عديدة هى تلك المعابد واللوحات التى اقيمت فى عهده • وقد قام بحملة الى بابل أيام كاشتيلياش الرابع ، واحضر من هناك تمثالا لاله عثر عليه فى الحفائر التى اجريت فى سوسة وعليه نص بالاكدية يسجل ذكريات الاستيلاء على التمثال • وقد وصل العيلاميون الى نهر اوكنو Uknu (حاليا الكرخا) •

(١) G. G. Cameron, History of Early Iran, 106, Note 6. Chicago, 1936,

وقد تأثر العيلاميون كثيرا بالساميين ، فقد عثر على الكثير من الوثائق الرسمية المكتوبة بالاكدية ، وكانت هي اللغة الدولية في هذا العصر . ولكن ليس معنى ذلك أن شعور البلاد الوطني قد ضعف . فاللغة الوطنية كانت لها الغلبة .

وجاء على عرش عيلام بعد ذلك أونپاتار ــ (د) جال Unpatar-(d) Gal ولم يكن ابنا لاونتاش ــ (د) جال . وهناك احتمال في أنه كان عما لهذا الأخير .

لم يكن أونپاتار ــ (د) جال (١٢٤٥) نشطا كسلفه . وقد كان غير قادر على التدخل في الحوادث الدائرة على حدود البلاد . وقد كانت آشور في هذا الوقت تعيد سياسة التوسع في منطقة زاجروس والخليج العربي . فقد قام توكولتي ــ نينورتا الأول بحملة من مرتفعات تارسينا Tarsina ، على الضفة الجنوبية للزاب الأسفل ، حتى أرض جوتي ، بين اقليم زوقوشكي Zuqushki ولالار Lallar . وبعد ذلك تقدم جنوبا نحو بابل ، فقهر كاشتيلياش Kashtiliash ، وأخذه أسيرا ، وضم الى ملكه عددا من المدن الخاضعة لبابل ولعيلام . وقد تركت عيلام للآشوريين الاشراف على مدن تورنا ــ سوما Turna-suma في اقليم Me-Turnet ، وأولاياش Ulaiash بالقرب من منبع الكرخا ، على بعد قريب من ماندالي الحديثة . وقد وصلت الينا جميع هذه الأخبار عن طريق الوثائق الآشورية .

ولما مات أونپاتار ــ (د) جال ، جلس على عرش عيلام من بعده أخوه كيدين ــ خوتران Kidin-Khutran وحكم عشرين سنة (١٢٤٢ ــ ١٢٢٢) . وقد قام برد العدوان الآشوري . ولقد قام توكلوتي ــ نينورتا بتعيين أحد اتباعه ، انليل ــ نادين ــ شومي على عرش بابل بعد وفاة كاشتيلياش ، وانتهز كيدين ــ خوتران فرصة ضعف هذا الحاكم وتقدم نحو بلاد ما بين النهرين . فعبر دجلة ، وتقدم نحو قلب البلاد ، واستولى على نيبور وذبح الأهالي ، ثم تحول الى الشمال ، فعبر دجلة واستولى على دير Dèr وهدم المعبد الشهير لـ E-dingal-Kalamma واسر الأهالي ، وقد اضطر الملك البابلي الى الهرب .

ولم يعمر النصر العيلامي طويلا . فقد آستطاع تولكوتي نينورتا أن يسترجع بابل . وبعد أن أجلس على عرشها أولا الكشي كادشمان ــ خاربي ، وبعد ذلك بثمانية عشر شهرا اقام عليها البابلي اداد ــ شوم ــ ادين (١٢٢٤ ــ ١٢١٩) . لم يحاول العيلاميون اعادة الهجوم على بابل الا أيام حكم أداد ــ شوم ــ نصر (١٢١٨ ــ ١١٨٩) على بابل . وتقدم

كيدين ــ خوتران ، فعبر دجلة ، واستولى على ايسن ، وتقدم شمالا حتى ماراد Marad ، الى الغرب من نيپور . ووجد هنا فقط مقاومة ضعيفة ما لبث أن قضى عليها ، وعاد الى عيلام . ولكن قضى فى النهاية توكلوتى نينورتا على أحلام العيلاميين . واختفى كيدين ــ خوتران من المسرح السياسى . وانتهت عائلة اكى ــ خالكى . والى القارىء ثبت بأسماء ملوك هذه الفترة من العيلاميين ومن عاصرهم من ملوك اشور وبابل :

التاريخ ق٠م	عيلام	بابل	آشور
١٣٥٠			اشور ــ أوباليت
١٣٣٠	خورپاتيلا	كورى جالزو الثانى	
	پاخير ــ آشان	ناظيم اروتاخ	انليل نيرارى
			أريك ــ دن ــ ايلى
			أداد ــ نيرارى
١٣٠٠	اتار ــ كيتاخ	كاداشمان ــ تورجو	
	خومبان ــ نومنا	كادشمان ــ انليل الثانى	
	وتاش ــ (د) جال	كودور ــ انليل	
١٢٤٥	ونپاتار ــ (د) جال	شاجاراكتى ــ شورياش	توكولتى نينورتا
١٢٣٠	كيدين ــ خوتران	كاشيتلياش الرابع	الأول

ثم انتعشت بابل مرة اخرى أيام نيوخذ نصر الأول ، وقضى هذا الملك على مملكة عيلام وذكر انه أعاد تمثال الاله مردوك الى بابل . ولكن تعرضت بابل مرة أخرى لهجمات الاشوريين ، ومنذ أيام الملك تيجلات بيلاصر الأول بدأ الاشوريون يظهرون على مسرح السياسة بشكل واضح وبقوة فوصلوا حتى البحر المتوسط واخضعوا عيلام .

* * *

العمارة والفنون فى عيلام ما بين ١٦٠٠ الى ١٢٠٠ ق٠م

حينما تتبعنا نشاط العيلاميين الحربى والسياسى كنا نعتمد على وثائق غير علامية . وقد جاءت أخبارهم مكتوبة أحيانا فى عهد لاحق لعهدهم . وقد كشف عن بعض قوالب من الطوب سجل عليها تأسيس بعض المعابد . ومن هذه التسجيلات امكننا معرفة نشاط هؤلاء الملوك . وجميع النصوص التى كتبت على هذه القوالب عادة قصيرة ومتشابهة ، فهى تعطينا اسم المنشىء ، وسلسلة نسبه ، ولقبه ، والعبارة الآتية « قمت باقامة بناء كذا وكذا من أجل الاله ومنحته له » . وفى بعض الأحيان تصب اللعنة على كل من تخوله نفسه تشويه البناء ، ودعاء من الاله الى الملك

الذى قام بالبنـاء أو صـلاة لتجعل أيامه كلهـا رخاء وأن يعيش حياة طويلة .

ولدينا وثائق عديدة من أيام خومبان ــ نومنا Khumban-numena ومنها استطعنا أن نعرف انه قام ببناء مقصورة فى ليان Liyan كرست للاله خومبان (Gal) وزوجه كيريريشة Kiririsha ، وكذلك يخاخوتب Pakhakhutep تشويه وغالبا أن هؤلاء هم الالهة الذين كانوا يقومون بحماية المكان .

عديدة هى تلك المنشآت التى جاء عليها اسم أونتاش ــ (د) جال . وغالبا انه بنى بسوسة عشرين مقصورة . وقد عبد فى سوسة الكثير من الالهة البابلية : نابو ، سين ، أداد ، وزوجه شاله . وكذلك آلهة عيلامية : ان ــ شوشيناك In-Shushinak ، وخومبان Khumban ، وناهونتا Nahhunte ، وپينيكير Pinikir ، وأوپور كوپاك Upurkupak (١) ، الى غير ذلك من الالهة . وقد قام الملك بنحت تمثال لكل اله من هذه الالهة من الحجر أو المعدن ووضعه فى مكان ممتاز بالمعبد . وقد كشف عن حوالى اثنى عشر معبدا من هذه المعابد فى المدينة .

كذلك بنى فى سوسه زقورة ، وقد بنيت على غرار زقورات نيپور وبابل وغيرها من الأمكنة المقدسـة فى بلاد ما بين النهرين . وكان يعلو الزقورة المعبد العلوى الذى كان يسميه أهل عيلام كوكونو Kukunnu وهى تسمية أحيانا كانت تخلع على الزقورة كلها . وغالبا أن الزقورة قد وجدت قبل أيام أونتاش ــ (د) جال . فقد نسب أحد الاسلاف وهو كوكناشور Kuknashur الى نفسـه بنـاء أو ترميم كوكونو من طوب محروق . واهم شىء يلفت النظر وهو أن أونتاش ــ (د) جال قد وضع مكان الطوب المحروق لوحات صغيرة ملونة بالميناء . وأقام فى المقصورة العليا تمثالا للاله ، وآخر لنفسه . وأحاط البناء كله بسور وبأبراج .

ولم يقتصر نشاط الملك العمـرانى فى سوسـه فقط ، بل امتد الى العاصمـة الجـديدة التى انشـأها وسماها باسـمه دور ــ أونتاش Dur-Untash ، على المـكان الذى يسـمى حاليـا شوجا ــ زانبيل Choga-Zanbil . وقد ذكر انه « بنى وكرس للاله خومبان والاله ان ــ شوشيناك كوكونو بقوالب طليت بالميناء وطعمت بالفضة والذهب وبالاوبسيديان والمرمر » (٢) . وقد علق فى أحد الحجرات قيثارة .

---

(١) G. G. Cameron, History of Early Iran, 1936, 102 f. Chicago,
(٢) René Labart, Elam, C. 1600-1200 B.C., Cambridge 1963, p. 15.

وجاء على بعض قوالب الاشارة الى مقاصير اخرى للالهات الآتية : اشنى ــ كارات Ishne-karal ، وكيريريشه Kiririsha ، وپينيكير Pinikir ، ومانزات Manzat ، وانانا Inanna ، وبليت Bêlit ، والالهة الآتية : ناپراتب Napratep ، ونابو ، وشياشوم Shiashum ، وخومبان وس-ونكير ــ ريشـارا Sunkir-Risharra ، وكيـلاخ ــ سـوپير Kilakh-supir الخ . وكما كان الحال فى سوسه فكثير من هذه المقاصير كانت تبنى داخل المعـابد الكبيرة . كانت توجـد مقاصير اخرى خارج الأسوار .

وقد وجد فى سوسه الكثير من القوالب التى تحمل اسم أونتاش ــ (د) جال فى غير مكانها الاصـلى وأعيد بناؤها فى بعض المنشآت اللاحقة لعهده .

رائعة اطلال شوجا ــ زانبيل ، فالمدينة تقع على بعد اربعين كيلو مترا من الجنوب الشرقى لسوسه ، وقد بنيت على ربوة ، عند نهر Ab-i-Diz الملتوى . وقد أمكن لعلماء الاحافير عام ١٩٣٥ أن يستنتجوا من دراسة الاطلال التى كشفت فى الموقع وجود زقورة . واخيراً قام Ghirshman عام ١٩٥١ بالحفر هناك ولم ينشر بعد نتائج دراسته عن المقتنيات التى كشف عنها فى هذا المكان . ويذكر جيرشمان فى تقريره المبدىء أن البناء محاط بثلاث اسوار وتبلغ ابعاد الحائط الخارجى ١٢٠٠ × ٨٠٠ مترا وغالبـا ما كان سورا دفاعيا للمدينة . ووراء ذلك سـور آخر ، مربع أبعـاده (٤٠٠ متر مربع) ، وبداخل هذا السور آخر يضـم الزقورة ومساحتها المحيطة بها .

وتختلف زقورة شوجا ــ زانبيل عن زاقورات بلاد ما بين النهرين ، وتتضح هذه الاختلافات فى طريقة البناء وفى تصميم بعض أجزاء الزقورة . ففى شوجار زانبيل نجدها مربعة (طول ضلع الزقورة ١٠٥ مترا من كل جانب) . ولوحظ أن طابقين وجزءا من الطابق الثالث لا يوجد عليها رديم ، وعلى ذلك أمكن اعادة بنائها . ولوحظ وجود أساس ارتفاعه حوالى وبعرض ثلاثة أمتار وذلك لتقوية قاعدة الزقورة ضد ماء الرشح . وقد بنى فـوق ذلك أربعـة طوابق . واقيم فوق الطـابق الرابع المعبـد بتوج البناء .

ويرتفع الطابق الأول ثمانية أمتار فوق سطح الفناء . والثانى ١١ر٥٥ مترا وغالبا كان الطابق الثالث والرابع المهدمان لهما نفس الارتفاع (١) .

(١) A. Parrot, Zaggourats et "Tour de Babel" Paris, 1949 p. 35.

وعلى ذلك سيصبح المعبد على ارتفاع حوالى ٤٣ مترا فوق سطح الارض . ويبلغ ارتفاع البناء كله ٥٢٫٦٠ مترا .

وقد احيطت الزقورة بمعبدين للاله آن ـ شوشيناك . وقد بنيت عدة معارج ليتصل الفناءالخارج بأعلا مكان فى البرج . وكان بكل جانب من الزقورة باب . والسلم الذى بنى فى الجانب الجنوبى الغربى هو وحده الذى يصل الى ما وراء الطابق الاول ، وقد بنيت المعارج الاخرى غالبا بالتوالى لكل جانب من الجوانب الأخرى . وتختلف طريقة المعارج هذه عن زقورات بلاد ما بين النهرين . وهناك بعض الخلافات الأخرى البسيطة . فمثلا الطين المصنوع منه القوالب متجانس وغير مقوى بكسر من الحجارة كما هو الحال فى الطوب البابلى .

وقد احيطت الزقورة بأفنية واسعة مبلطة ويبلغ اتساع بعضها ٢٠ مترا . وفى الجانب الشمالى الشرقى ، وبالقرب من السلم الاوسط ، يوجد منحدر بين الفناء وقاعدة البرج . ويوجد فى الزاوية الشمالية لهذا المنحدر بناء دائرى ، والذى كان لابد من وجوده عند البابين الغربى والجنوبى الغربى . وكان لهذه الأبنية المستديرة أربع كوات niches متماثلة ، وقد زخرف بقوالب منقوشة . والنص لم يوصلنا الى معرفة الفرض من هذه الأبنية .

هذا وقد احيطت الزقورة بأبنية أخرى كانت معابد الآلهة . وبين السور الثانى والسور الخارجى موقع المدينة نفسها أو أن هذا المكان كان مخصصا لها ، لأن الظاهر أن المدينة لم ينته العمل فيها . وقد عثر فى هذا المكان على أطلال ثلاثة قصور ، وبقية من أطلال منزل خاص وبعض مقابر شخصية وعائلية وقد عثر فى أحد المقابر على هيكل سليم ، وبقايا جثتين محروقتين . وفى قبر آخر بعض رماد وعظام محروقة وضعت على الأرضية فى شكل مجموعات . وهذه هى الحقيقة الوحيدة فى عيلام عن حرق الجثث .

وبالقرب من القصر الذى أعطى رقم I بقايا بناء دينى وجد فى منطقة العمران . ومن النصوص التى وجدت تبين انه كان من أجل الاله نوسكو Nusku . ومن الفحص يتضح انه لم يكن لهذا البناء الذى كان على شكل حرف T سقف يغطيه .

وخلاصة القول أن حفائر شوجار ـ زانبيل قد زودتنا بمعلومات كثيرة عن العمارة العيلامية أيام أونتاش ـ (د) جال . وعن مواد البناء ، والتصميمات ، وطريقة القياس ، واستخدام العقد والقبو . وليس سهلا

تقدير تاريخ الفنون الاخرى التى كشف عنها فى عيلام امثال الحلى ، أو التماثيل التى عثر عليها فى الحفائر . ويحتفظ متحف اللوفر بلوحة باسم أونتاش ــ (د) جال وبها اطار على هيئة ثعبانين . ومثل الملك فى أعــلا اللوحة وقد وضع فوق رأسه قلنسوة زودت بثلاثة ازواج من القرون . ثم مثل الملك أيضا وفى صحبته زوجه ناپيراسو Napirasu . وفى مكان آخر من اللوحة حراس شبه مقدسين ، واحدالحراس على هيئة انثى ، عروس البحر ، وقــد توج الرأس بزوج من القــرون ، وينتهى النصف الأسفل من الجسم بزعنفتين صغيرتين استخدمتا كقدمين . وقد ضمت الى صدرها نهرين من المياه اندفعا من أربعة أوان . وفى المنظر السفلى اللوحة مخلوق شبه مقدس ، له لحية مستطيلة الشكل وعلا الرأس شعر نظم فى جدائل على الظهر . وشوه النصف السفلى للمنظر .

كما عثر على تماثيل من الحجر الجيرى من أيام أونتاش ــ (د) جال، واحدها يمثل الملك ، وقــد كتب على النصف السفلى للتمثال بالاكدية والعيلامية . كما عثر على تماثيل من البرونز للملكة باپيراسو (١) Napirasu ويبلغ ارتفاع التمثال المفقود الرأس ٢٠ر١ مترا ، ووزنه حوالى ١٧٥٠ كيلو جرام . ولم يعرف بعد الطريقــة التى استخدمت فى ســبك هذا التمثال الكبير الحجم ، ويعد هذا الاثر قطعة فنية رائعة فى فن التصنيع فى تلك العهود البعيدة فى القدم . وقفت الملكة واضعة يديها متقاطعة فوق صدرها ، وارتدت ثيابا مطرزة ملتصقة تماما بكتفيها وصدرها ، ووضعت نقبة (جونلة) طويلة تغطى القدمين . وقد قام الفنان باخراج هذا التمثال، بما فى ذلك الطيات المختلفة فى المعدن ، والتطريز ، والأشرطة ، والتطعيم ــ مثل الحلى الموجودة فى الاصابع وفى الرسغين ــ فى غاية الدقة والاتقان . وقد كتب على هدب النقبة نص عيلامى موجه من الالهة الى كل من تخوله نفسه تشويه التمثال أو محو اسم الملكة .

ويظهر من ذلك كله أن عيلام لم تكن أقــل فى تذوقها للفــن من بابل وآشور فى هذه الفترة .

* * *

(١) G. Contenau, Manuel d'Archéologie Orientale, Vol. II, 914 ff.

أول المعبودات فى عيلام هى الالهة پينيكير Pinikir ، وقـد ظهر اسمها فى معاهدة نرام ــ سين ، بينما كان ثان الالهة ، ان ــ شو شيناك وهو آله ذكر . وقد كان لوضع هذه الالهة فى مركز الصدارة بين الالهة فى عيلام له قيمته من ناحية تقدير الالهة الاناث . وأمر آخر نلاحظه فى الأرباب العيلاميين ، وهو أن الاله ان ــ شوشيناك اله سوسه ، قد تطور من اله محلى الى أن أصبح الها وطنيـا وطغى على الالهـة الرئيسـية القديمة . وفى أيام أونتاش ــ (د) جال كان هو « الاله العظيم » .

لقد تعددت الالهة فى عيلام كما تعددت فى بلاد ما بين النهرين . وقد اختلفت آلهة المدن وانتقلت اليها عبادات كثيرة من بلاد ما بين النهرين عبر زاجروس . وفى أيام أونتاش ــ (د) جال كان لبعض الالهة البابلية مقاصيرها فى المدينة المقدسة الجديدة شوجا ــ زانبيل وقد وضح التأثير البابلى فى الديانة وذلك فى استخدام الألقاب الاكدية للالهة ، وفى أشكال دور العبادة ، وأحيانا فى بعض الاحتفالات مثل الاحتفال بشروق الشمس . ولا نعرف الاسباب التى دعت الى انتشار بعض العبادات فى عيلام وعدم ظهور غيرها . ويجب أن نعلم أن أسرة أور الثالثة وحكام أكد قـد كان نفوذهم قويا على عيلام ، وكان لذلك أثره فى حضارة البلاد ، بينما تركت طقوس أور وأكد آثارا بسيطة فى الديانة العيلامية . ولكن تأثرت منطقة سوسه كثيرا بديانة أريدو ، وهى المدينة المقدسة للاله ايا . ولم تكن أريدو وحدها هى التى أثرت فى ديانة عيلام ، فقد كانت أيضا للالهة عشتار ربة أوروك مكانة كبرى . فقد أرسل اليها الملك تاماريتو (وكان معاصرا لاشور بانيپال) ثلاثة خيول مطهمة .

وقد كانت معظم الالهة العيلامية تتخذ أشكالا لا يمكن وصفها ، ولا نعرف أسماءها الحقيقية . وقد وجد الكتاب الاكديون صعوبة كبرى فى التقـريب بينها وبين الهتهم : فقد كان نينورتا يتشابه مع ثمانية الهـة عيلامية ، وادد يشبه ثلاثة ، وشمش يشبه اثنين من الالهة العيلامية .

وأهـم الالهـة العيلاميـة هى : جال Gal ، وان ــ شـوشيناك In-Shushinak ، وكيريرايشا Kiririsha . وغالبا ما كان يتحد الاله الذى كان يسـمى فقـط باللقب جال « العظيم » بالاله ان ــ

شوشيناك ، وغالبا ما كان يسبقه . ووضع تمثال كل بجانب الآخر فى دور العبادة ، وكان يطلق عليها « أمراء الالهة » . وقد افترض لقراءة جال ، قراءة أخرى وهى خومبان . وقد كان البابليون يساونه بالاله مردوك ، الخالق ، رب بابل . ولقد كان هذا الآله ، الاله الشخصى لملوك هذه الأسرة العيلامية التى عاشت فى تلك الايام .

كان للاله ان ــ شوشيناك مكانته وقد كان متصلا بسوسه ، والتى بدأت مدينة بسيطة ، وانتهت بأن أصبحت عاصمة امبراطورية . وقد ذكر اسمه فى المعاهدة التى أبرمت مع نرام ــ سين ــ بعد سادس اله ، بينما اعترف بعبادته أيام أونتاش ــ (د) جال وسلفه خارج حدود منطقة سوسيانا Susiana ، اذ ذكر اسمه على القوالب المنقوشة للمعبد الذى بنــاه خومبان نومنا Khumban-numena فى جزيرة بوشيره Bushire وهى حاليا تقع أمام الساحل الفارسى فى الخليج العــربى . وقد بلغت عبادته ذروتها أيام شيلخاك ــ ان ــ شوشيناك Shilkhak-In-Shushinak الذى أدخل عبادته أو أعاد ادخالها فى مدن كبيرة : سوسه ، واكالاتوم Ekallatum ، ومارت Marrut ، وپيتار Peptar ، وشيلخاك ــ تالاك Shakhan-tallak ، وغيرها . وقد كتب على لوحة مهشمة من أيام هذا الملك ، قيــامه بتأسيس ٢٠ مبنى : وقــد أمكن قراءة ١٤ منها ، كرست عشرة منها للاله ان ــ شوشيناك ، بينما لم يذكر خومبان ، وبينيكير ، وسوخسيپا Sukhsipa ، ولاكامار Lakamar الا مرة واحدة .

ولقد شبه الآشوريون « رب سوسه المؤله » بالالهين البابلين نينورتا وأدد ، ولكن غالبا ما كانوا يعتبرونه « اله الملك » أكثر من اعتباره كاله للعاصفــة أو اله للخصب أو اله للحرب . وقد كان يشــبه خومبان ، فيسمى « الاله العظيم » ، « الخالق العظيم » ، ولكن أكثر الالقاب صلة بطبيعته هى : « حارس مدينتنا » ، « الهى ، مليكى ، جــدى » . وكان الملوك يعتبرونه مانح السلطة لهم ، ويقــدمون له الشــكر لمعاونتهم فى الحرب وفى السلم . ولكن « حارس المدينة » هذا ، و « اله الملك » هذا كان فى نظر العيلاميين من القوى الخفية الغامضة . وحينما وصف اشور ــ بانيپال القضاء على سوسه قال « لقد حملت ان ــ شوشيناك الى اشور ، اله غرائبهم ، الذى يقيم فى مكان خفى ، والتى لا يسمح لأحد أن يرى قوته القاهرة المقدســة » وبالرغم من انتشار عبادته ، فقــد ظل دائما ان ــ شوشيناك فى الجوهر الها لسوسه وشوجا ــ زانبيل ــ ولم يعتبر أبدا انها لعيلام ولم يأت ذكره بين نصوص صخرة مالامير Malamir .

كانت كيريريشة Kiririsha الهة الثالوث الرفيع فى هذه الفترة ، خصوصا حينما كرمت ك « ســيدة ليبان » حيث أقام لها خومبان ــ

نومنا معبدا تقاسمته مع الاله خومبان والالهة الحارسة الأخرى للمكان ، وكذلك اقام لها مقصورة خاصة احتفظ بها الملوك الذين أتوا بعد ذلك . وليس هناك ما يدل على أن أونتاش ـ (د) جال قد كرس لها دارا للعبادة فى سوسه ، ولكن هناك ما يدل على انه كان لها فى شوجا ـ زانبيل مقصورة اشتركت معها الهة أخرى وهى اشنه ـ كاراب

كانت پينيكير Pinikir الالهة العظيمة فى الشمال ، ولم تعرف عبادتها فى مالامير وليبان . وقد بنى لها معبد خاص بها فى سوسه منذ زمن بعيد . وقام أونتاش ـ (د) جال بترميمه واضاف اليه بناء آخر كما اقام لها فى سوجا ـ زانبيل مقصورة وقد استمرت عبادة پينيكير عبر التاريخ فى سوسيانا ، لأن شوفيتور ـ ناهونتا لا زال يلقبها « ملك الالهة » . وكذلك ذكرها أشور بانيپال بين الالهة التى هدمت دور عبادتها . وقد شبهتها ثبت الاشوريين من عهده بالالهة عشتار .

ومن بين الالهة العيلامية العظمى ، الاله ناهونتا ، فقد قام أونتاش ـ (د) جال ببناء معبد جديد له فى سوسه وشوجا ـ زانبيل ، حيث قام بوضع تمثال ليشكر الاله لأنه استجاب لدعواته وحقق رغباته . وكان هذا الاله فى نظر العيلاميين يشبه الاله شمش اله العدالة البابلى لذلك أعتبروه اله العدالة . وازدهرت عبادته فى عيلام ، وكان معبده فى سوسه من أقدم المعابد . وقد سمى بعض الملوك انفسهم « خدام ناهونتا » . واعتبروه الحامى لهم وحدهم . وقد قدره ملوك عائلة شيلخاك ـ ان ـ سوشيناك فظهر كثيرا فى أسمائهم .

والى جانب هذه الالهة العيلامية ، ذكرت الوثائق العيلامية من هذا العهد الهة بابلية بنى لها أونتاش ـ (د) جال معابد فى سوسه وشوجا ـ زانبيل : نابو ، وسين ، وأدد ، وشاله ، وانانا ، ونوسكو . وقد ظهر فى النصوص القديمة ان بعض الالهة البابلية كانت تعبد فى سوسيانا ، وقد استمرت عبادتها حتى بعد استقلال عيلام .

ولقد عامل العيلاميون الالهة الدخيلة عليهم والهتهم الاصلية سواسية ، فقدم للجميع على سواء التماثيل .

قمنا بسرد أهم الآلهة فى عيلام . انما ليس ذلك كافيا لمعرفة ديانة

العيلاميين ولكن ليس لدينا معلومات كافية عن الطقوس التى كانت تؤدى ايده الآلهة . فيما عدا العثور على بعض الأوانى الخاصة بالتطهير كذلك تقديس الثعبان . ولكن لا زال أمر معرفة الطقوس الخاصة بهذه الآلهة وما تخفيه من أسرار غامضة . حقـا اننا وصلنا الى معـرفة الكثير من أسمائهم وصلة بعضها بالآلهـة فى بلاد ما بين النهرين ، انما لا زلنا أمام مشـكلة كبرى وهى الديانة الوطنية لعيلام ، فهى حتى آخـر المقتنيات الحديثة غير معروفة للعلماء ، ولا زالت الارض فى عيلام تحتفظ بكثير من الاثار التى نرجو فى المستقبل القريب أن تكشف عنها الاحافير لتنير لنا الطريق لمعرفة ديانة العيلاميين الوطنية الأصيلة .

* * *

الفصـــل الثـالث

ما قبل الايرانيين

قبل ان نبدا هذه النظرة العابرة فى تاريخ وحضارة المصر الخاص بما قبل الايرانيين ، أرى من الخير ان أشير فى كلمات قصار عن الشعوب التى سكنت تلك المنطقة :

الجوتى او الجوتيون Guti : شعب جبلى ، من اصـــل اسيانى أو "Zagro-elamite" ، وقـــد أقام فى الجـــزء الأوســـط من مرتفعـــات زاجروس . وقد اندفعوا الى بلاد ما بين النهرين فى نهاية الألف الثـــالثة ق.م الميلاد (انظر الباب الأول من هذا الكتاب) وقد قضـــوا على الأسرة الاكدية .

الكشيون أو الكاسيون Kassites : شعب من اصـــل اسيانى او "Zagro-elamite" ، وكان يقيـــم فى الجـــزء الأوســـط من مرتفعـــات زاجروس ، وهى منطقة لورستان الحالية . وقد غزوا بلاد ما بين النهرين كما سبق أن ذكرنا فى الباب الأول من هذا الكتاب ، وقـــد حكموا فى بابل من القرن السادس عشر الى القرن الثانى عشر ق.م .

الحوريون Hurrites : سكن هذا الشعب شمالى بلاد ما بين النهرين وحول بحيرة ڤان منذ الألف الثالثة ق.م . وفى الألف الثانى ، انتشروا فى سورية وفلسطين . وقد ضغط عليهم الســـاميون فانكمشوا منـــذ نهاية الألف الثانى وأثناء الألف الأول ق.م الى غربى وجنوبى بحيرة ڤان . ولغة هؤلاء لم تكن سامية ولا هندو ــ أوربية ، ويميل بعض العلماء الى اعتبارها من اللغات القوقازية .

اللولوبيون Lullubi : شعب جبلى كان يقيم فى القسم الشمالى من مرتفعات زاجروس ، وكان يكون جزءا من مجموعة الشعوب التى تنتمى لاصل اســـيانى أو ما سمى "Zagro-elamite" . وقد امتـــد اقليمهم حتى بحيرة أورميا وربما الى أبعد من ذلك شمالا . وفى أيام مملكة اورارتو

(من القرن الثامن ــ الى القرن السابع ق.م) ، كانت تعرف بلادهم تحت اسم زاموا Zamua ، والتى غالبا ما كانت احدى قبائلهم . ويعتقد بعض العلماء أن الچورچيين Georgiens هم فرع شمالى من اللولوبيين . وقد كانت لهم مملكة قوية فى نهاية الألف الثانى ق.م ، واصطدمت هـذه بالآشوريين . ومنـذ القرن التاسع ق . م اختفى اسم اللولوبيين ، وحل محله اسم زاموا الذى سبق أن ذكرناه .

ليسيا Lycie : اقليم فى آسية الصـغرى ، يحده جنـوبا البحر المتوسط . استولى عليه كورش وضمه الى الامبراطورية الفارسية .

ليديا Lydie : اقليم فى آسية الصـغرى ، يحده غربا بحر أيجة ، وجنوبا مياندر Meandre . كانت عاصمته ساردیس . وقد استولى على هذا الاقليم كورش وضمه الى الامبراطورية الفارسية .

نائرى Nairi : منطقة تقع الى الشرق من منـابع الفرات ، وتضم بحيرة ڤان ، وتمتد حتى وادى اراكسى Araxe . واتحدت بواسطة أحد أمرائها فى القرن الحادى عشر ق.م. ، واصبحت مملكة أورارتو Urartu (أو اراَرات Ararat) .

الفريچيون Phrygiens : شعب أصله هندى ــ أوربى . هاجر من البلقان الى آسية الصغرى . واقام أولا فى الشمال الغربى لشبه جزيرة آسية الصـغرى ، ثم اندفع الى الداخل . وكانت عاصمة فريچيـا أيام جورديوس Gordios وميداس Midas (من القرن الثامن الى القرن السابع ق.م.) هى جورديون Gordion .

أورارتو Urartu : شعب له صلة بالحوريين ، واصل لغته قوقازى . وقد قامت مملكة أورارتو فى أثناء النصف الثانى من القرن التاسع ق.م. حول بحيرة ڤان ، وامتد سلطانهم فى القرن الثامن ق.م. الى الجنوب من بحيرة أورميا ، والى الشرق حتى اراكس ، ووصلت فى الشمال الى حدود البحر الأسود ، ووصلت فى فترة ازدياد نفوذها فى الغرب الى سورية الشمالية حتى حلب والى شرقى آسية الصغرى ، وفى بداية القرن السادس انضمت الى ميـديا . وكانت أورارتو مركزا هاما للمنتجـات المعدنية .

المنــا Manna : وهؤلاء هم من العـائلة التى اصطلح على تسـميتها "Zagro-elamite" وهم أقرباء اللولوبيين واختلطوا بالحوريين . ومنـذ

بداية القرن التاسع الى الثامن ق.م. بدأت تظهر أسماء ايرانية بين المنا . وقد ذكرت مملكتهم جنوب بحيرة أورميا لأول مرة فى النصف الثانى من القرن التاسع ق.م. وكانت عاصمتها اسيرتا Isirta ، التى تقع على بعد ٥٠ كيلو مترا الى الشرق من المدينة الحديثة ساكز Sakkez . وقد كانت هذه المملكة فى القرن الثامن ق.م غالبا اقوى مملكة بعد أورارتو ، وقد فاقتها فى نهاية هذا القرن . وقد اتحد السكيثيون مع المنا فى القرن السابع ق.م وعاونوها ضد الصراع الذى كان قائما بينهما وبين الآشوريين وقد قضى آشور بانيبال على المنا وأصبحت المنا من رعايا الآشوريين ، ثم ساروا فى ركاب الميديين حينما انتصر هؤلاء على الآشوريين .

السكيثيون Scythes : شعب من أصل ايرانى ، جاء من غربى آسية من روسيا الجنوبية ، وغالبا عن طريق القوقاز (أنظر الخريطة رقم ٣٠) وقد جاء ذكرهم فى النصوص الاشورية ، وكذلك ذكرهم هيردوت ، كما جاء ذكرهم فى العهد القديم تحت اسم اسجوزا Asguza ، واسكوزا Iskuza . وقد ارتبطت هجرتهم الى آسية الغربية بهجرة السيمريين فى القرن الثامن ق.م. وقد كان السكيثيون بداة رحل ، على هيئة قبائل محاربة وكانوا يرتزقون من القتال فعملوا مع الميديين ومع الآشوريين . ويؤرخ تسللهم الى الشرق بالقرن السابع ق.م ، وقد مروا فى هذه الفترة بمنطقة الشرق الأدنى من القوقاز حتى فلسطين ، ومن أورارتو حتى ايران . وقد ذكر اسمهم فى كثير من الوثائق التى عثر عليها فى الأقاليم التى مروا بها . وغالبا أن السكيثيين قد رجعوا الى شمال القوقاز فى القرن السادس ق.م .

هذا ويرى البعض احتمال أن يكونوا هم الجماعات التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم تحت اسم يجوج وماجوج كما سبق أن ذكرنا ذلك فى ص ١٠١ .

السيمريون Cimmeriens : شعب من أصل ايرانى ، جاء من جنوب روسيا عن طريق القوقاز الى غرب ايران ، وكذلك نزل فى آسية الصغرى فى القرن الثامن ق.م (؟) .

* * *

تمهيـــد :

اننا نجهل تماما التـــاريخ الصحيح لوصـــول الايرانيين الى هضـــبة ايران . وغالبـــا ما جاء وها فى أوائل الألف الأول قبل الميـــلاد ، لأنه فى النصف الثانى من القرن التاسع ق.م. ذكر الفرس والميديون لأول مرة وفى حوليات ملوك آشور ، بين سكان ايران فى الشمال الغربى كما سنفصل ذلك فيما بعد .

وكانت هناك مداخل كثيرة فى الهضبة أمام الغزاة . وأن المنفذ الموجود فى الجبل بالقرب من بحيرة أورميا ، يعتبر أحد المنافـــذ الهامة التى سلكها الوافدون من الغرب ومن الشمال الغربى . ومنـــذ ســـنوات قليلة قام السوفيت بحفائر فى السهل الموجود بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين (أو البحر الكسبى) شمال Atrek ، فكشفوا عن حضـــارة تشبه تماما تلك التى كشف عنها فى سيالك ، وقد اعتبر الجغرافيون هذه المنطقة مدخلا ثانيا للهضبة .

ما هو اذن الطريق الذى ســـلكه الايرانيون ؟ فعلى حسب ما ذكره Biruni ، فان الملك الأسطورى Siyavush ، الذى أنشد Firdousi والخاصة بكتاب الملوك قـــد جاء الى ايران ليؤسس الأسرة الأولى الملكية شورازمى Chorasmie وهـــذه الأخيرة كانت قطرا يقع على الضـــفتين السفليتين لنهر Axus (آمو ــ داريا Amu-Daria قديما) وحول بحر ارال . وكانت جزءا من الســـترابية الســـادسة عشرة أيام الاخمينيين . وهذا يجعلنـــا نفترض أن الايرانيين قـــد جاءوا عن طريق القوقاز ، وهو طريق غزوة السكيثيين Scythes والســـيمريين Cimmeriens بعـــد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون . وهذا الرأى يتعارض مع الرأى القـــائل بأن دخول الايرانيين قـــد جاء من الشـــمال الشرقى بالقـــرب من بحر آرال Aral . ومن هنـــاك ، مرت الجماعات الهنـــدو ــ آرية والتى لم تكن هجرتها الى الهند قبل ذلك ، وحسب الدراسات الأخيرة من ١٢٠٠ الى ١٠٠٠ ق.م. وهنـــاك رأى ثالث ، وهو أن الايرانيين استخدموا الطريق المزدوج حول بحر قزوين .

والى القارىء خريطتان (رقم ٣١ ، و ٣٢) تبينان تحـــركات تلك الجماعات ، وقد آثرت أن أضعهما دون تعريب من كتاب
R. Ghirshman, Perse (1963)

وانما قمت بشرح تلك التحركات متتبعا ماجاء فى الخريطتين كما يلى :

ومن الخريطة رقم ٣١ يتبين ما يلى : ـ

١ ـ ان القبائل التى نزلت من Transoxiane فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، اندفعت الى شرق البحر الكسپى ودارت حوله من الجنوب ، فى شمال الهضبة الايرانية ، فوصلت شمال بحيرة أورميا ، ومرت شمال بحيرة ڤان حتى وصلت غرب كول تبه بآسية الصغرى .

٢ ـ تحركت الشعوب الهندو ـ أوربية فى الألف الثانى قبل الميلاد فدخلت الى آسية الصغرى عبر البسفور .

٣ ـ تحركات الهندو ـ ايرانيين (الاريين) فى النصف الثانى من الألف الثانى ق.م. وقد اندفعت هذه الجماعات من أربعة مناطق الى أقاليم مختلفة : ـ

(أ) جاءت من المنطقة الواقعة بين بحر آرال والبحر الكسپى . وخرجت فى شعبة واحدة حتى وصلت الى اقليم باكتريا ، وانقسمت قسمين ، قسم اتجه الى الهند ، والقسم الثانى دخل هضبة ايران فوصل حتى هيسار وشرق بحيرة هواسى Haoussi .

(ب) جاءت هذه الجماعة ، أيضا من المنطقة الواقعة بين بحر آرال والبحر الكسپى (الى الشمال قليلا من المنطقة السابقة) ، ودارت حول البحر الكسپى من جنوبه . واستقرت بعض جماعات منها فى هضبة ايران ، عند جيان Giyan وما حولها . واستمرت جماعة أخرى منها ، فعبرت جبال زاجروس ونهر دجلة ، ونزلت فى بلاد ما بين النهرين ، ثم دارت الى الشرق فنزلت جماعات منها غرب بحيرة أورميا (جماعات الجوتى Guti واللولوبى Lullubi) وجماعات أخرى نزلت عيلام ؛

(جـ) جاءت هذه الجماعات من القوقاز ، ونزلت الى الجنوب حتى وصلت الى الشمال الغربى من الهضبة الايرانية .

(د) جاءت هذه الجماعات من غرب البحر الأسود فعبرت البسفور ومرت جنوب بوغاز كوى بآسية الصغرى ، واتجهت الى الشرق ، فمنعرج الفرات ، ونزلت الى شمال سورية وفلسطين .

ملاحظة : العلامة △ الموجودة فى الخريطة تبين مناطق الانتشار .
ومن الخريطة رقم ٣٢ يتبين ما يلى : ـ

١ ـ تحركات الميديين والفرس ، فى نهاية الألف الثانى ، وبداية الألف الأول ق.م .

اندفعوا من القوقاز ، ولما وصلوا الى حدود الهضبة الايرانية من الشمال . خرجت منهم جماعة واتجهت وحدها الى الجنوب الشرقى حتى وصلت الى غرب بحيرة هواسي . واما بقية تلك الجماعات ، فقد سارت متحدة مع بعضها شرقى زاجروس ، وعلى حدود الهضبة الايرانية من الغرب ، ثم انقسمت الى الجنوب من بحيرة أورميا الى قسمين ، قسم اتجه الى الشرق حتى وصل الى كرمان ، وقسم انحرف الى الجنوب الشرقى حتى وصل الى غرب پرسيپوليس مارا بعيلام وانشان وپارسوماش .

٢ ـ تحركات السيمريين Cimmeriens : نزلوا من شمال البحر الاسود من منطقتين : المنطقة الشرقية : اندفعت جماعاتها فوصلت حتى غرب بحيرة أورميا . المنطقة الغربية : اتجهت جماعاتها شمال البحر الأسود حتى وصلت الى شرقه ، وانقسمت هناك قسمين ، قسم اتجه الى الشرق ، فاستوطن جنوب القوقاز ، واتجه القسم الثانى الى الغرب حول البحر الأسود حتى وصل الى الشرق من سينوپه Sinope وانقسم الى ثلاث شعب : شعبة اتجهت الى سينوپه والثانية استمرت حتى جنوب بحر مرمرة ، والثالثة عبرت هضبة آسية الصغرى كلها فوصلت الى ساحل البحر المتوسط عند لابرندا Labranda .

٣ ـ تحركات السكيثيين (من القرن التاسع الى القرن السابع) : نزلت تلك الجماعات Scythes من شمال البحر الكسپى ، عند نهر أورال Aral واتجهت الى غرب البحر الكسپى . وعند دربند Derbend الواقعة على ساحل البحر الكسپى الغربى اتجه فريق منها الى الشرق قليلا واستقر على ساحل البحر نفسه . وفريقان آخران اتجها الى الغرب قليلا ، فاستقرا فى القوقاز . وفريق آخر اتجه الى الجنوب ، فدخل هضبة ايران ، فى القسم الشمالى الشرقى منها ، ودار حول بحيرة أورميا ، جنوب مرتفعات زاجروس ، واتجه الى الشمال الغربى ، فوصل بحيرة ڤان . وانقسم هناك الى قسمين : قسم عبر بلاد ما بين النهرين ، عند بلاد ميتانى ، واندفع الى الجنوب عبر بادية الشام حتى وصل الى شرق الاردن ، شرق البحر الميت ، عند سكيثوپوليس

Scythopolis. (بيشان) . أما القسم الثانى ، فقد اتجه الى الشمال الغربى ، حتى وصل الى الجنوب من نهر الهاليس ،وبالقرب من البحيرات المالحة وتوزع الى ثلاث شعب ، شعبة اتحدت الى بحر مرمرة ، والشعبتان الأخرتان اتجهتا الى ساحل البحر المتوسط (أى جنوب آسية الصغرى).

* * *

سيالك :

ظهر فى هذا الموقع مخلفات من عصر ما قبل التاريخ بعد أن قامت البعثة الفرنسية فى الأعوام : ١٩٣٣ – ١٩٣٤ – ١٩٣٧ بالكشف عنها . وهى تقع بالقرب من مدينة كاشان ، وعلى بعد ٢٥٠ كيلو مترا الى الجنوب من طهران ويقع على تل سيالك الخاص بما قبل التاريخ ، وفى طرفه الجنوبى شرفة هائلة تبلغ مساحتها ما يقرب من ٢٥٠٠ مترا مربعا . وعلى ارتفاع ما يقرب من ٢٠ مترا فوق سطح الأرض ، كانت توجد مساكن كبار رجال المدينة التى اختفت تماما . كما كان توجد مساكن اخرى أسفل تلك التى ذكرت خصصت لأفراد الشعب .

وقد لوحظ تغيير فى دفن الموتى . فلقد أصبح الناس من الفترة القريبة من العصر التاريخى لا يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل ، ولكن فى السهل ، الى الغرب من التل حيث أقيمت مدينة كبار رجال المدينة فى مكان مرتفع ، ومن أسفلها منازل عامة الشعب "La Ville haute et la Ville basse" ، وقد أحيط كل من المدينتين بسور خارجى له بروز وغور كذلك الذى نراه فى بلاد ما بين النهرين يحيط بعض المعابد وكذلك فى مصر الفرعونية يحيط بعض القبور من العصر الباكر فى تاريخ مصر والذى استمر حتى أيام الأسرة الثالثة وشوهد بشكل واضح فى منشآت هرم زوسر بصقارة . هنا أيضا فى سيالك كشف ايضا عن « مدينة الأموات » ، وهى جبانة كبيرة عثر فيها على أكثر من مائتى قبر . وكانت قبور الأغنياء عبارة عن حفرات تحفر فى الأرض ، وبعد أن يقبر الموتى ، ويوضع معهم الأثاث الجنازى المناسب لكل ، تغطى الحفرة بكتل من الحجارة أو من الطين ، على شكل صنمى (جملونى) .

وجدت آثار زخارف قليلة ولكن لم تكن فى الجبانة ، بل على سطح الشرفة الكبيرة . وهى عبارة عن رسوم لحيوانات بارزة أحيانا ومن الطين، ولكن ليس فيها اتقان بل بدائية .

وقد كشف فى جبانة سيالك عن اثاث جنازى من القرون الأولى

للألف الأول قبل الميلاد . وقد عثر فيها على بعض أسلحة الحرب من البرونز . والظاهر أن أهالى سيالك من هذه الفترة لم يعرفوا استخدام الذهب . فقد كانت حليهم من الفضة ومن البرونز ، وقد وجد الرجال يضعون خوذات من جلد تعلوها صفائح من فضة مشغولة ، بينما وضعت السيدات على شعورهن زينة من جدائل . ووضعن أقراط أخصها ماكان على هيئة عنقود من الفخار أو المعدن ، وكذلك كان يعلو الدبوس رأس غزالة أو أسد .

كان الفخار هو المادة التى كانت تستخدم بكثرة . ومن القطع الفخارية المعروفة من هذا العهد الجرة الكبيرة من الفخار الذى يحتفظ بها متحف طهران ، وغالبا ما كانت تقليدا لاناء معدنى . وقد أراد الفنان أن يعطيها الشكل الحيوانى (١) . وعليها بعض الرسوم وتحت ما بقى من الميزب رأس لها عينان .

وقد عثر فى سيالك من هذا العهد على أوان فخارية كانت مخصصة للتطهير ، وقد زينت صفحات هذه الأوانى بأشكال هندسية ومعها بعض الرسوم الحيوانية . ومن النادر أن نجد رسوما نباتية ، ولم يعثر على رسوم من هذا العهد تمثل الانسان الا على ثلاثة من هذه الأوانى (أنظر الصور من رقم ٧ الى رقم ١٤ من كتاب Ghirshman السابق ذكره فى الملاحظة رقم ١ من هذه الصفحة) . وقد لوحظ فى الرسوم الانسانية أن الرأس والساقين قد رسما من الجانب الأيمن ، بينما رسم جسم الانسان من الأمام . ويظهر من الرسم (صورة رقم ٧) أنها لرجل ناضج وله لحية طويلة . وقد قبض فى يسراه على حربة ، وفى اليمنى على درع مستطيل ، ووضع فى الحزام خنجرا . وعلى ذلك فهو محارب أو صياد . وهناك فخار كشف عنه أيضا فى جبانة سيالك عليه رسوم حيوانية رسم على بعضها أسد فاغر فاه ، أو حصان .

وعثر أيضا فى جبانة هورڤين Hurvin التى تقع فى وسط ميديا ، وعلى بعد ٨٠ كيلو مترا الى الغرب من طهران . وكان أهل هذه المنطقة يمارسون الزراعة أكثر من حرفة الرعى التى كان يمارسها أهل سيالك . وكشف فيها عن فخار ملون ، أحيانا أسود وأحيانا أحمر . وقد كانت الأوانى كلها خاصة بالطقوس ، وعلى هيئة طائر ، ولها ميزب طويل . ولا يوجد عليها رسوم . ومن الأشكال الغريبة من الفخار التى عثر عليها فى هورڤين ما يسمى Askos ، وهو عبارة عن اناء على هيئة حذاء فى

(١) R. Ghirshman, Perse (1963), Lig. C.

مجموعة خاصة بباريس (انظر المرجع السابق ص ٢٠) . وعثر فى هورڤين على تماثيل صغيرة من البرونز لمحاربين وعلى حلى مفطاة بقشرة رقيقة من الذهب ، ودبابيس ومرايا من البرونز .

وأما هاسانلو Hassanlu ، التى كانت تقع بالقرب من بلدة سولوز Solduz ، وعلى بعد قريب من الشاطىء الجنوبى الغربى لبحيرة أورميا . وقد ظهرت فى بداية الألف الأول قبل الميلاد ، مملكة منا Manna ، وقد وضح لنا معرفة حضارة القسم الغربى من الهضبة فى هذه الفترة حيث كان الاحتلال الايرانى قد أثر على هذا الاقليم .

وقد كشف عن جبانة فى السهول التى تتخلل المرتفعات ، وقد وجد الموتى فى المقابر وبجوارهم بعض الأثاث الجنازى ، وكذلك أربعة هياكل عظمية لخيول كانت مخصصة للتضحية . ولكن لم يعثر على العربة .

ومن الفخار المكتشف فى هذه القبور والحلى الذهبية ، فاننا نستطيع أن تقول أن جبانة هاسانلو كانت متصلة بالحضارة السابقة للايرانية . Proto-iranienne ، أكثر من هورڤين (انظر صورة رقم ٢٥ من كتاب Ghirshman) ، اما الحلى فقد كانت كبيرة الحجم وأكثر ثراء من سيالك وهورڤين (انظر صورة رقم ٢٧ من المرجع السالف ذكره .)

وأهم شىء تمتاز به تلك الجبانة هو التضحية بالحصان ، وهى بدون شك صفة مأخوذة من الشعوب السكيثية . وعلى ذلك كان بدون شك فى هذه المنطقة تسللات سكيثية عبر القوقاز والشمال الغربى لايران فى القرن الثامن ق.م. ومن الجائز أيضا فى القرن التاسع . كذلك تحقق لنا بذلك وجود علاقة وطيدة بين السكيثيين والميديين فى المنطقة الجنوبية من بحيرة أورميا ، حيث كان التأثير الأوراتى واضحا فى الفترة التى انشئت فيها جبانة هاسانلو ، وكانت واقعة كما سبق أن أشرنا فى أراضى مملكة مانا Manna القديمة ، ووضح لنا بذلك صلتها بالسكيثيين .

اما التأثر الأوراتى فى مقابر هاسانلو ، فقد اتضح لنا من نص للملك Menua (نهاية القرن التاسع ق.م) والذى حفر على صخرة عند تاش ــ تبه Tash-tépé التى تقع فى الجنوب الشرقى لبحيرة أورميا ، بالقرب من مدينة مياندواب Miyanduab ، على بعد قريب من هاسانلوا. كذلك عثر بالقرب من الميت فى جبانة هاسانلو على لوحة من البرونز زخرفت برأس غزالة ، وهو حيوان رمزى للشعب السكيثى . وكانت هذه اللوحة غالبا تستخدم كصدرية Pectoral ، وكان لا يعرفها الا رجال أوراتوا ، واتخذها السكيثيون الايرانيون حلية .

ولا بد أن الذى دفن فى هذا القبر (الذى لم ينشر بعد وأنما أشار اليه Ghirshman فى كتابه الذى نشره عن الفرس حديثا عام ١٩٦٣ ص ٢٤ . وما بعدها) فى هاسانلو كان لأحد السكيثيين . وقد أمكننا معرفة تاريخ هذا القبر من شكل السهام التى كانت تشبه أوراق الغار ، والتى لا تبتعد كثيرا عن منتصف القرن الثامن .

كذلك عثر على اناء من ذهب خالص فى ما يسمى بالقصر (؟) ، وقد زين بعدة زخارف تتصل بالدين وموضوعاتها لها علاقة ببعض حضارات مختلفة نشأت فى شرق الاناضول وشمال سورية ومرتفعات زاجروس ، منذ نهـاية الألف الثانى الى بداية الألف الأول ق.م. وهى تختلف عن الفن الايرانى ، وغالبا ما تكون من عمل فنانين محليين كانوا ربما يعملون عنـد أحـد أمراء مملكة مانا (انظر صـورة رقم ١٠ ، ٣١ من كتـاب Ghirshman) .

لم يعرف لنا الفن فى املاش Amlach الا منذ حوالى سبع سنوات فقط ، وكل الذى نعرفه عن هذه الحقبة من الحضارة السابقة للايرانية قد كشف عنها بواسطة الفلاحين للمنطقة الجبلية الواقعة جنوب غربى البحـر الكسپى ، وكانت تتضمن أثاثا جنـازيا كان محفوظا فى المقـابر ومؤرخا بين القرنين التاسع والثامن ق.م. ولقد بلغت صناعة الأوانى الفخـارية والتماثيل الحيوانية ، خصوصا تلك التى مثلت على هيئـة عجول مصنمة شأوا عظيما (انظر صورة رقم ٣٤ من الكتاب المذكور آنفا وهى تصور آناء Rhyton على هيئة عجل مصنم ، ويرجع تاريخه بين القرنين التاسع والثامن ، وقـد عثر عليه فى املاش) . وعرفوا صناعة الذهب والفضة ، فقدصنعوا منها أوعية زينت برسوم حيوانية جميلة وأشكال مختلفة (انظر الصور أرقام ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨) . كذلك اشتهر هؤلاء الناس بصناعة أدوات القتال ، فهذا مقبض سيف (صورة رقم ٤٥) على هيئة آلهة عارية ، وقد شكلت رمانة السيف على هيئة رأسى حصان . وقد لوحظ أن هذه المنطقة لم تتأثر بالفن الرافدى وانما تأثرت بالفن عبر القوقاز .

* * *

السيمريون والفن اللوريستانى

عثر فى الأودية العليا لزاجورس ، والى الجنوب من كرمان شاه بالمملكة الصغيرة (اليبى Ellipi) منذ عام ١٩٢٨ على جبانة بها مقابر مملوءة بأثاث جنازى من البرونز والحديد ، وكانت هذه الجبانة بعيدة عن المساكن ، وبذلك سلكوا نفس الطريقة التى سار عليها أهل سيالك من دفن موتاهم بعيدا عن مساكنهم .

وقد كان لهؤلاء السكان مراكز دينية يلتقون فيها . وقد سلك الميديون السبيل نفسه فى تجمعهم فى مراكز دينية ، لأن عاصمتهم التى كانت تقع عند همدان قد عرفت قبل أن تصبح مدينة ملكية ، تحت اسم هانجماتانا Hangmatana والتى تعنى « مكان الالتقاء » .

ولقد وجدنا منذ القرن الثامن السيمريين وقد اتحدوا مع الاورارتو، وقد انقسم هؤلاء الى فريقين : الفريق الأول اندفع الى آسية الصغرى ، بينما تسلل الفريق الثانى الى شرقى آشور وقد استقر فى تلك المنطقة يحمل اسم الكسشيين (الكاسيين) والذين تسموا بعد ذلك باللوريستان Luristan . وقد كانوا فرسان مهرة فى ركوب الخيل وترويضها . ونحن نجهل تماما ما حمله هؤلاء من موطنهم الاصلى ، وغالباما ستكون أدوات حرب أو زينة للخيل من المنطقة القوقازية التى جاءوا منها . وما من شك فى أن هناك علاقة وطيدة بين السيمريين والميديين خصوصا فى المعتقدات الدينية . وقد ظهر من المقتنيات التى عثر عليها فى المقابر أو فى أمكنة العبادة ثراء كبير وتقدم فى الصناعة مع تنوعها ، كل ذلك يدل على قوة هؤلاء الناس . وواضح انهم تأثروا بالفن الرافدى خصوصا فى تلك التحفة (Idole) .(صورة رقم ٥٢) وهى تعطينا لونا من التأثير الرافدى فيما يختص بالرسوم التى تصور صراع بطل بين حيوانين ، وهو غالبا ما يمثل الاله الايرانى سراوشا Sraosha ، وقد كان حاميا لاهورامزدا ، ويقضى بين الاموات مع الالهين مثرا Mithra وراشنو Rashu . وقد كان ذراعه هو المقمعة التى يقضى بها على الشاطين التى تقف أمام أهورامزدا . وكان حيوانه الرمزى هو الديك ، الذى كان عليه أن يوقظ الناس كل يوم ليقوموا بتأدية واجباتهم الدينية . كان يراقب هذا الاله أرواح الموتى وهى تمر فوق الصراط أو الجسر الذى

كان يسمى Cinvat ، فاذا كانت أعماله حسنة دخل الجنة واذا كانت سيئة سقط فى الهاوية (وكان هذا الصراط ضيقا جدا كحد السيف) . وعلى ذلك لم يكن هذا بطلا وانما الها لعب دورا كبيرا فى العقائد الايرانية القديمة أليس فى ذلك شبه كبير بما جاء فى كتب الدين التى نزلت بعد ذلك .

وقد اتحدت عباده هذا الاله مع أخته Ashi « المربية La Bonne (كانت هذه الآلهة أخت Sraoshe ، وهى تمثل آلهة الخصوبة وحماية المتزوجين الشبان والشابات ، وكانت تقوم بتوزيع السعادة والجمال والثراء على السيدات) التى جاء ذكرها فى (Yasht 17) (وهو يكون الجزء القديم من الافستا Avesta) .

ومن الاشياء الغريبة التى كشفت فى معبد Sorkh Dum سورخ دوم بمنطقة لوريستان ، دبابيس وضعت عادة داخل حوائط المعبد (انظر الأشكال من ٥٧ الى ٦٣ من المرجع سالف الذكر لجيرشمان) وهى موزعة على متاحف كثيرة وفى مجموعات خاصة بأوربا وامريكا . ولم يهتد العلماء الى السر فى وضع هذه الدبابيس فى المعابد . ولهذه الدبابيس المصنوعة من البرونز أقراص ، وهى مؤرخة ما بين القرنين الثامن والسابع ، وزينت من الداخل بالالهة الأم للشعوب الاسيانية التى كانت تنتشر من آسية الصغرى الى سوبسه ، وهى غالبا تمثل الالهة Ashi ، اخت الاله Sraosha ، ومما يؤيد هذا الرأى أن بعض هذه الاقراص قد زين بسمك ورمان ، وهذان هما رمزا هذه الالهة . وأحيانا تحاط هذه الالهة بسباع أو آيائل وهما من الحيوانات الخاصة بهذه الالهة . وكانت هذه الالهة تعاون السيدات على الحمل وانجاب الاطفال .

كما عثر على كثير من التماثيل البرونزية لذكران واناث من البرونز ، وبعضها كان يمثل بعض المحاربين (انظر شكل ٦٨ من كتاب جيرشمان) . وكذلك مجموعة تمثل عائلة فوق حصان (رجل وامرأة شكل ٦٩ من كتاب جيرشمان) .

وكما عثر فى مقابر هوزفين على مجموعة من التمائم الصغيرة التى كانت توضع فى العقود والأساور أو الاقمطة ، كذلك الحال فى لوريستان ، فقد كشف عن مئات بل آلاف من التمائم على هيئة حيوانات أو طيور . وغالبا أنها كانت رموز حيوانية لآلهة يضعها الناس تبركا أو حماية من الشر .

وقد لوحظ أن السكيثيين وكل الشعوب التى لها صلة بهم كانوا

يدفنون مع موتاهم خيولهم . وقد بين لنا قبر هاسانلو ، وهو الوحيد الذى عرف فى ايران ــ ولكن ليس معنى ذلك انه فريد ــ صحة هـذه النظرية . وقـد قام أهالى لوريستان بالاستعاضة عن هـذه الدواب بالألجمة Mors توضع تحت رأس الموتى ، وذلك لخدع الموتى بسلامة الرحلة فى العالم الآخر ، وقد فحص الكثير من هذه الالجمة فوجد أنه لا يوجد أى أثر لاستخدامها وليس هناك أى أثر لأسنان الحيوانات التى تحتك بها ، وقد كانت ثقيلة لدرجة أن بعضها يزن كيلو جرامين .

كذلك عثر فى مخلفات تلك المنطقة على جميع أجهزة الخيل والعربة . وقد زينت بزخارف مختلفة .

وقد عثر على فؤوس من البرونز مختلفة الاشكال فى مقابر لوريستان زين سلاحها برسوم ووجد على أياديها بعض تماثيل (انظر الاشكال من رقم ٧٩ ــ ٨٢ ــ من كتاب جيرشمان) ، وكذلك عثر على خناجروسيوف واخصها ما يحتفظ به المتحف البريطانى (انظر شـكل ٨٣ من المرجع سالف الذكر) وهو خنجر له يد مفرغة ، وقد طعمت بالعظم والعاج أو الخشب وعلى السلاح زخارف منحوتة .

كذلك كشف فى معبد Sorkh Dum على دروع نذرية ، وجدير بالذكر أنه فى مملكة أورارتو ، كان من الاشـياء المألوفة أن تعلق الدروع على حـوائط المقاصير . وقد وجد فى نينوى على نقش يوضح مجمـوعة من الدروع مثبتة على واجهة حائط معبد موساسير Musasir ، وكان مركزا رئيسيا للاله هالدى Haldi (من الآلهة الاوراتية الرئيسية ، وهو اله وطنى ، وكان يكمل الثالوث المشكل منه ومن الاله تيشبا Techeba والالهة أوردينى Ardini ، ومعبده الرئيسى فى موساسير التى تقع غربى بحيرة أورميا) . وقد سلب سرجون الثانى هذا المعبد عام ٧١٤ ق.م وقد ذكر الكتاب الاشوريون أنه من بين هذه الاسلاب « ستة دروع من ذهب » و « اثنى عشر درعا متينة من الفضـة » كانت معلقة على يمين ويسار مقر الاله هالدى .

وقد وجـدت دروع مستديرة ، وكان وسطها مزينـا برأس بشرى Umbo (انظر شكل ٩٠ من كتاب جيرشمان) . والدرع المستدير ، والمزود وسطه بصورة بشرية Umbo لم يكن اختراعا يونانيا . ولكنه عرف فى الشرق . وقد وجدنا عند الاورارتيين هذا الدرع ولكن زين من الوسط بصور حيوانية . ولكن ايران كانت القطر الوحيد ، فى الشرق ، الذى قام بزخرفة هـذا Umbo برأس بشرى . كمـا عثر على جعب

للسهام زينت برسوم حيوانية ، واحسن مثل بقية من لوحة خاصة بجعبة محفوظة بمتحف المتروبوليتان بالولايات المتحدة الامريكية (انظر صورة رقم ٩١ من كتاب جيرشمان) .

كذلك عثر على أساور من ذهب وبرونز وحديد ، وكذلك عثر على أشرطة من ذهب وفضة كانت تستخدم لزينة الجبهة وقد زخرفت بمناظر صيد . وعثر على مرايا ودبابيس .

أما معارفنا عن فخار مقابر لوريستان فبسيطة ، وغالبا ان الفخارى كان يقلد الأوانى البرونزية (انظر صورة رقم ١٠٢ من كتاب جرشيمان) . كذلك وجدت أوعية صغيرة : كؤوس واكواب عليها نقوش كثيرة) وهى تشبه صناعة البرونز الذى كان موجودا فى الصين فى عهد الممالك المحاربة .

ولم نعرف الا اناء واحداً من عجينة الزجاج الشفاف ، وهى قنينة صغيرة لها اذنان من مجموعة خاصة بطهران أصلا من أحد قبور لوريستان (من القرن الثامن ــ السابع ق.م) صفراء صدفية اللون ، زينت بأكليل أسود وهى تشبه الزجاج المصرى القديم والمحفوظ جزء كبير منه فى احد ردهات متحف القاهرة (الحجرة رقم ١٢ بالدور العلوى ، ومؤرخ من الأسرة الثامنة عشرة فى القرن الرابع عشر ق.م) . اما عن المنطقة الذى كان يصنع فيها هذا الزجاج ، فغالبا فى مركز عيلامى ، والارجح فى سوسه ، لأن الزجاج قد بلغت صناعته شأوا بعيداً فى عيلام فى الألف الثانى ق.م. فقد كشف عن باب من الخشب فى معبد بانشوشيناك Inshushinak ، بنى فى زقورة شوجا ــ زانبيل ، بالقرب من سوسه، فى حوالى ١٢٥٠ ق.م ، وقد زين بمئات من القطع من عجينة الزجاج ، بيضاء اللون ، وزينت بأشرطة من عجينة الزجاج سوداء اللون .

ويتضح من تلك الدراسة العريقة للفن اللوريستانى انه متقدم جداً فى صناعة المعادن من ناحية التنوع فى الاشكال والزخارف . وواضح انه كان متأثرا بالاورارتيين .

فى وسط القرن التاسع ق.م. اتحدت عدة امارات صغيرة فى اقليم نائرى Nairi فى مساحة واسعة حول بحيرة ڤان Van وكونت دولة سميت أورارتو Urartu وقبل نهاية هذا القرن ، انتهزت فرصة ضعف آشور ، ومدت حدودها وسيادتها الى ما وراء بحيرة ڤان . ومن عام ٨١٠ الى ٧٤٣ ، وأيام حكم ملوكها الثلاثة : منوا Menua ، وارجيشتى

الأول Argishti I ، وسادور الثانى Sadur II استطاع الاورارتيون أن يصلوا الى منفذين فى البحار المحيطة بهم : ففى الغرب ، كانوا يشرفون على حلب ، ووصلوا الى البحر المتوسط ، وفى الشمال ، بعد غزو اقليم كولهاى Kulhai (La Colchide) ، وصلوا الى البحر الاسود . وفى الغرب والشمال ، استطاعوا أن يتصلوا بالعالم اليونانى .

وفى هذا الوقت ، وطبقا لما جاء فى الوثائق الاشورية ، وصل الفرس Les Perses الى الغرب والجنوب الغربى من بحيرة أورميا Urmiya. ووصل الميديون الى الجنوب الشرقى ، فى اقليم همدان . وفى هذا الوقت أيضا ظهرت أسماء الايرانيين فى جيش ملوك أورارتو . والظاهر انالفرس لم يطيلوا اقامتهم فى الشمال الغربى من ايران . وفى القرن الثامن ، كانوا يتحركون ويرسمون خطة للاتجاه نحو الجنوب الشرقى متتبعين منحنيات مرتفعات زاجروس . ولا نعلم تماما الفترة التى عاشوا فيها تحت الاحتلال الاورارتى . وقبل أن يغادروا حدود أورارتو ، وقبل أن يغزو نهائيا فارس Fars ، كانوا قد عرفوا الكثير عن الحضارة الاورارتية ، ونقلوا عنهم الكثير من الخواص المعمارية التى نجدها فى پاسارجاد وپرسپوليس .

وقد أصبحت ميديا مسرحا رئيسيا للعمليات الاشورية ضد أورارتو . وقد أثر الفن الاورارتى كثيرا فى الفنون الايرانية . فمثلا الشرفة التى ظهرت فى سيالك ، لها ما يناظرها فى شرفة ماسچيدى سوليمان .

ولقد كانت منازل توشپه Tushpa ، عاصمة أورارتو مكونة من عدة طوابق . وقد عثر فى توپراك ــ كالى Toprak-Kalé على لوحة من البرونز تمثل رسما لمنزل (انظر شكل ٣٥٤ من كتاب جيرشمان ، وهى تمثل منزلا أورارتيا) . وقد نقل تصميم المنازل الاورارتية الى الحضارة الايرانية . والسقف الصنمى (الجمالونى) = Toit en pignon الخاص بقبر كورش أصله أورارتى (١) .

وأن تمثيل الحيوانات المختلفة الذى وجد على جدران فخار سيالك ، وهورفين ، وهاسانلو ، وأملاش ، ولورستان . قد وجد أمثاله على جدران فخار أورارتو .

---

(١) وجدير بالذكر ان السقف الصنمى عرف فى الحضارة المصرية منذ الايام الاولى فى الدولة القديمة فوجد فى هرم خوفو وغيره من المبانى الفرعونية التى بنيت فى النصف الثانى من الالف الثالثة ق.م.

وقد استخدم فى كل من القطرين ، تماثيل الرجال والدواب قوعد للأوانى (انظر شكل ٣٥٧ غالبا من أورارتو يمثل قاعدة مصباح على هيئة تمثال صغير لامراة فوق قاعدة لها ثلاثة أرجل تنتهى برؤوس طيور (١)) وقد وجد فى لوريستان مثل هذا النوع من القواعد .

ويحتفظ المتحف البريطانى بين ودائعه على تمثال صغير من البرونز لآلهة جالسة على مقدمة حصانين(انظر شكل ٣٥٨ من كتاب جيرشمان) ، وهذا التمثال من اصل اورارتى . ولقد كان الحصان هاما فى حياة الاورارتيين السياسية والاقتصادية . وقد اشارت النصوص الاورارتية الملكية الى الاف من هذه الدواب تربى فى الهضاب المرتفعة ، ومن الجائز انه كانت توجد عند هؤلاء الناس آلهة كانت لها صلة بالحصان . وعلى ذلك فمن الجائز أن هــذا التمثال البرونزى كان يمثــل Potina hippon أو « ســيدة الاحصنة » ، مثل أتينا Athéna فى اليونان ، اذا أعتمدنا على البرونز الذى كشف فى الاكروبول بأثينا . وفى أحد المجموعات الخاصة بطهران (انظر شكل ٥٦٩) زوجان جالسان على مقدمة حصانين ، والمجموعة كلها من البرونز . وكما تعــددت الآلهة الاحصنة فى ايران ، كذلك الحــال فى اليونان . ففى اتيكا Attique كان الاله پوسيدون Poseidon فى صورة حصان شريكا لأثينا ، وكان مذبحهما فى أثينا Athènes . ولكن فى أولمپى Olympie ، كان آرس Ares هو الشريك لأثينا Athéna . وقد مثلت تلك الآلهة للدلالة على الحصان منفردة أو معها اله ذكر فى الفن الاورارتى ، كما مثلت أيضا ، وبالطريقة نفسها فى الفن اللوريستانى ، وعادة يصعب علينا التمييز بين الاثنين ، واما أن كان هذا من صناعة مدرسة أورارتية أو مدرسة لوريستانية .

وبمتحف اللوفر تمثال صغير من البرونز (انظر شكل ٣٥٩ من كتاب جيرشمان) يمثل احد المحاربين ، فتعلوا خوذة التمثال (الريشة) وهى التى نراها دائما فوق رؤوس المحاربين الاورارتيين ، فنجدها فى بوابة بالاوات Balawat التى اقتبسها اللوريستانيون منهم . وكذلك فى حالة القربان . والعادة الاورارتية هى ان توضع الدروع والجعاب فى المقاصير ، وكذلك الحال فى لوريستان (فى معبد سورخ دوم Sorkh Dum وقد كانت العربات من الاشياء التى تهدى ! فهذا سرجون الثانى وجد ٣٣ عربة فى معبد موساسير Musasir وكذلك عثر فى كنز Oxus على عربتين وهى من احسن المقتنيات الذهبية فى هذا الكنز . وقــد قام

(١) فى مجموعة توت عنخ آمون بالمتحف المصرى بعض الكراسى الصغيرة الخاصة بالملك تنتهى برؤوس طيور .

(١) بوصف احد العربتين وصفا رائعا مع عمل عدة مقارنات Dalton بينها وبين ما وجد من عربات أخرى فى الحضارات القديمة . وتعد عربة هذا الكنز فخر الصناعة الباكتارية .

كذلك ذكر روسا Rusa ملك اورارتو انه حصل على عرشه بفضل خيوله ، وبفضل قائد عربته وكذلك داريوس ذكر ايضا (حسب ما اورده هيردوت فى كتابه الجزء الثالث ، الفصل ٨٥ ، من انه حصل على التاج بفضل فارسه وحصانه . أليس هذا يذكرنا ايضا بما ذكره رمسيس الثانى فى معركة قادش (١٢٨٥ ق.م. تقريبا) ، وحينما أحاطت بهجنود الحثيين فيقول « كنت احارب وحدى ملايين البشر ، وكان معى (النصر فى طيبة) و (موت الراضية) وهما فرساى العظيمان ، فأخذا بيدى حينما كنت وحيدا أحارب ممالك اجنبية كثيرة ، واننى لجاعل علفهما يوميا فى حضرتى ، لاننى وجدتهما (خير معين) لى وسط الاعداء ، وكذلك سائق عربتى (منا) .. » .

ما من شك أن الحضارة المصرية والحضارات التى قامت فى الشرق القريب كله قد اشتركت فى كثير من المعتقدات والافكار .

وأخيرا سلك الفرس طريقة الاورارتيين فى المراسلات أو المراسيم الملكية فلم نجد فى النصوص البابلية أو العيلامية ، ولكن فى النصوص الاورارتية فقط تقسيم النص الملكى الى أجزاء ، يبدأ كل جزء منها « هكذا يقول الملك .. » ، وهذا ما نجده فى النصوص الاخمينية ، ومن الجائز أنهم نقلوه عن طريق الميديين .

* * *

---

(١) O. M. Dalton, The treasure of the Oxus with other examples of Early Oriental Metal-Work, Third edition, (London 1964), XXXVII-XLII, pl. IV, and fig. 20.

الفن السكيثى والكونى إيرانو - أورارتى

ظهر فى غرب نهر الفولجا بالاتحاد السوفيتى من ١٠٠٠ الى ٩٠٠ق.م. آثار حضارة ربما تكون سابقة للسكيثية Protoscythe ، وقد حلت فى جنوب روسيا محل الحضارة السيمرية . ولم تتوقف تحركات السكيثيين واحتلوا الكثير من تلك المناطق متجهين الى القوقاز . وقد عثر على اثار لتحركاتهم بالقوقاز فى القرن الثامن قبل الميلاد أو قبل ذلك (ربما فى القرن التاسع) . وفى القوقاز ، وتحت ضغط مملكة اورارتو ، تعرض السكيثيون الى التهديد ، من اجل ذلك كون هؤلاء اتحادا بين القبائل ، وازدادت قوتهم بعد أن جاءت اليهم موجات هجرات سكيثية جيدة من روسيا الجنوبية ، وقد قاموا فى القرن السابع ق.م. بغزو الاقاليم الواقعة جنوب عبر القوقاز .

وقد سبق أن ذكرنا ما كان من امر اتحاد السكيثيين مع الاشوريين ، وقد كانوا من قبل من انصار الميديين ، وكان ذلك عقب ثورة كاشتاريتى Kashtariti عام ٦٧٣ . وقد عينت خطابات اسرحدون الى الاله شمش جيشهم « فى اقليم المانيين Mannéens » . ومنذ هذا العهد (حوالى ٦٧٤) غالبا ما أصبح مستقبلهم متصلا بمملكة مانا Manna وهى حاليا كردستان الايرانية ، الى الجنوب من بحيرة أورميا .

وفى حوالى ٦٦٠ — ٦٥٩ ، تعرضت مملكة مانا التى شاركت ثوار الميديين الى الهزيمة امام الاشوريين ، واخذت حصون زوية Ziwiyé ونهبت البلاد . وازدادت الحالة سوءا فثار الشعب ، واغتيل الملك ، وطلب ولده وخليفته معاونة اشور بانيبال ضد شعبه . ولا ندرى ماذا فعل الملك الاشورى ، الذى لم يكن راغبا فى معاونة رجل مهزوم وتركه للسكيثيين .

وان احتمال وجود مملكة سكيثية عبر القوقاز ، فى العهد السابق لهجرتهم فى القرن السابع ق.م. امر مقبول الى حد ما . ويميل بعض العلماء امثال Diakonou الى امتداد سلطان السكيثيين فى هذه الفترة حتى جنوب نهر Araxe اراكس ، ويحتمل انهم وصلوا الى الحدود الشمالية لمملكة مانا . وان احتمال انضمام المانيين الى السكيثيين

بعد حوادث عام ٦٥٩ أمره جائز . ويمكننا ان نذكر أيضا أن السكيثيين قد ظلوا دائما حلفاء للاشوريين . ومن ناحية أخرى ، فقد تحدثت النصوص الاشورية عن بارتاتوا Partatua فوصفته بأنه « ملك » وليس « رئيسا » ، وقد كان هذا اللقب لسالفه اشپاكاى Ichpakai

وقد كانت هذه المنطقة غنية وتلائم اقامة البدو ، والمحاربين ، والفرسان ، وقد اتخذها السكيثيون قاعدة لتحركاتهم العسكرية . وقد قاموا بالهجوم على أورارتو ، ودخلوا حتى كاپادوس Cappadoce حيث ضربوا السيميرين حلفاء الاورارتيين . وقد اندفعوا في غزواتهم المخربة في سورية وفلسطين ووصلوا حدود مصر (انظر هيردوت الجزء الاول ، الفصل ١٠٥) . وحوالى عام ٦٥٣ — ٦٥٢ ، حاربوا ميديا ، جارتهم من الشرق ، وخضعت لهم ميديا ٢٨ سنة . وقد اشتركوا مع الميديين في حربهم ليديا

أما عن حضارة السكيثيين ، فيمكننا تقسيمها الى أربعة مراحل . فالمرحلة الاولى تقع في الاقاليم الشمالية للقوقاز ، والمرحلة الثانية تقع عبر القوقاز ، والمرحلة الثالثة تقع في كردستان أو بلاد مانا ، والمرحلة الرابعة تقع في اقليم كوبان Kouban ، شمالى القوقاز وعند أسفل نهر دنيپر Dniepr الذى يصب في شمال البحر الاسود .

واحسن فنون السكيثيين المعروفة لدينا هو ما ظهر في المرحلة الرابعة وذلك بفضل الحفائر التى أجريت في تلك المنطقة . واقدم القبور التى كشفت لا يعدو تاريخها ٥٨٠ — ٥٧٠ . وقد بنيت من الخشب ، وتضم القبور ، الى جانب الامير المدفون ، حاشيته ، وخيوله الذى ضحى بها ، وأثاث جنازى من أشياء معدنية . وقد ازدهر الفن السكيثى ازدهارا كبيرا خصوصا في التماثيل الحيوانية مثل الوعول .

وقد اضاءت لنا طريقة دفن الموتى نورا على عادات السكيثيين ، فحينما كانوا يقيمون عبر القوقاز Transcaucasie (الفترة الثانية) . كشف عن قبر بالقرب من بحيرة سڤان Sevan ، حيث وجد بجوار رئيس من الرؤساء ثلاثة عشر من العبيد . قد ضحى بهم . وكذلك عثر في هلندورف Hellendorf واذربيجان Azerbaidjan على مقابر أخرى ، ضحى فيها برجال وخيول .

وقد كان لاقامة القبائل السكيثية في عبر القوقاز ، الى الشرق ، والى الشمال الشرقى لحدود أورارتو ، قد جعلهم على صلة مباشرة بهذه

الملكة . وقد أوضحت النصوص الاورارتية هذه الجيرة . وفى منتصف القرن الثامن الذى وضح فيه تراجع أورارتو عن سورية الشمالية وعن شرقى اسية الصغرى ملأت هذه المملكة السكيثية حدودها الشرقية بالحصون . ولقد تأثر السكيثيون كثيرا بالحضارة الاورارتية .

اما عن عمارة القبور الخاصة بالسكيثيين ، فمنها القبر الصخرى لكيزكاپان (١) Kizkapan ، وهى تمثل صورة منحوتة فى الصخر لاحدى مقابر السكيثيين المعروفة من روسيا الجنوبية الى عبر القوقاز . وعلى ذلك لم تكن اذن مقبرة زوية هى الوحيدة التى تنتسب للسكيثيين .

ومن المقتنيات الاثرية فى كنززوية ، الصدريات les pectoraux وقد تأثرت بالفن الاورارتى . واذا كان استخدام الصدريات قليلا فى اشور وبابل ، فانه كان على العكس من ذلك معروفا فى الحضارةالاورارتية وجدير بالذكر ان الصدريات معروفة فى الحضارة الفرعونية قبل ذلك بزمن بعيد من النصف الثانى للالف الثانى قبل الميلاد . ووجدت مصورة على بعض تماثيل الدولة القديمة فى مصر الفرعونية اى منذ منتصف الالف الثالثة ق.م .

وقد وجد فى توبراك كالى Toprak Kalé (وهى المقر الاورارتى الثانى بعد عاصمتهم توشپاڤان ، بالقرب من بحيرة ڤان ، وكان بها قلعة وأطلال منشآت معمارية ملكية) على تمثال صغير من البرونز لرجل تحلى بصدريه شبه هلالية . وقد اقتبس السكيثيون استخدام الصدريات من الاورارتيين .

وقد لوحظ أن الملوك الاشوريين لم يضعوا صدريات . وليس لدينا الا تمثال صغير من الرخام محفوظ بمتحف بوسطن بالولايات المتحدة الامريكية ، هناك احتمال كبير أنه أشورى أكثر من آن يكون أورارتى .

وقد كانت زوية Ziwiyé هى المقبرة الخاصة بالامير السكيثى التى عرفت اثارها استخدام الصدريات عند السكيثيين . ولم يوجد من المقابر السكيثية الفنية من روسيا الجنوبية ماعثر عليها بعد زوال حضارة السكيثيين من شمال القوقاز ، ولا يمكن تفسير وجودها فى زوية الا ان يكون هذا الرئيس الذى دفن كانت له صلة وطيدة بأورارتو فسار على

(١) قبر محفور فى الصخر ، بالقرب من Sourdache نحت فى المرتفعات بالقرب من منحنى الزاب الصغير ونهر Shahrizor فى الكردستان الأيرانية بالقرب من الحدود الايرانية .

نهجهم . ولا ندرى ان كانت هذه الصدرية قـــد عملت خصيصا له أم أهديت اليه .

وقد ظهر استخدام الصدريات عنـــد السكيثيين الغربيين فى القرن الخامس ق.م. اذ ظهر فى دالبوكى Dalboki (بلغاريا) صدرية عليها رسوم هندسية وحيوانية (انظر شكل ٣٧٤ من كتاب جيرشمان) ، وهى من الذهب ومحفوظة بمتحف اشمول باكسفورد . وأخرى من تربنيشتشى Trebenichtché (بلغاريا) من القرن السادس ق.م. من الذهب ومحفوظة بمتحف صوفيا (انظر شكل ٣٧٥) . وقد صنعت هـــذه الصدريات متأثرة بالفن السكيثى .

اما عن الصدريات التى عثر عليها فى زوية (انظر الاشكال من صورة رقم ٣٧٦ من كتاب جيرشمان ، فواضح فيها التأثير الاورارتى فالحيوانات المجنحة او الخرافية المصورة عليها ليست اشورية وانما متأثرة بالفن الاورارتى . كذلك يحتفظ متحف المتروپوليتان بجزء من صدرية (صورة رقم ٣٧٧) . وقد زينت الصفوف الثلاثة الباقية من الصدرية بمناظر ففى وسط كل صف الشـــجرة المقدسة ، وعلى يمينها ويسارها موكبان متشابهان الى حد ما ، ولكنهما يختلفان من صف الى آخر . ومن الجائز أيضا أن الفنان السكيثى قد تأثر أيضا بالفن الاشورى الى جانب الفن الاورارتى ، ذلك لان بعض هذه المناظر فيها الطـــابع الاشورى .

كذلك توجد رابطة بين الفن السكيثى واللوريستانى . فقد عثر فى كنززوية على لوحة من الذهب (شكل ٣٨٣ من الكتاب المذكور) مؤرخة من القرن السابع ق.م. وهى محفوظة بمتحف المتروپوليتان . وواضح أن موضوع الرسوم الموجودة عليها متأثرة بالفن الاشورى ولكنها ليست بأيدى أشورية . وقد قام جيرشمان بتحليل تلك الرســـوم ومقارنتها بغيرها من البرونز الذى عثر عليه فى لوريستان وأوضح التأثيرات الفنية المختلفة التى مرت على هذه المنطقة .

اما فخار زوية فيعد خير شاهد على تجانس تلك الحضارة الميدية ــ السكيثية ــ السيمرية والتى ربما تعود الى القرن العاشر ق.م. ففى الاناء المكتشف فى زوية ، والمصنوع من الفخار الاحمر ، مثل الميزب على هيئة مقدم طائر ، وهو فى الواقع مقتبس من فخار سيالك . وكذلك تأثر بالفن اللوريستانى . وقد عثر فى زوية على اناء rhyton بأشـــكال مختلفة (انظر الاشكال : ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦) وقد وجدت هذه مع أوعية صغيرة من الفخار المطلى بالميناء التى زينت صفحاتها من الخارج بورق

أزهار ، ورسوم حيوانية . (شكل ٣٩٨) . وجدير بالذكر أن استخدام الاوانى rhytons على هيئة كؤوس لها رؤوس حيوانية قد وجد بكثرة فى ميديا من القرن الثامن ــ السابع ق.م . وقد قسم جيرشمان الـ rhytons الى اربعة أقسام ١ ــ على هيئة بطة (شكل ٣٩٤) وقد وضع عنق القنينة فى ظهر الطائر ٢ ــ رأس حيوان ، استطالت رقبته ، وهو شبيه بما عثر عليه فى كنز همدان من عهد الاخمينيين ٣ ــ وهو على هيئة كأس وقاعه مكون من راس حيــــوان شبيه بالكبش أو التيتل mouflon (شكل ٣٩٦) ٤ ــ وهذا النوع على هيئة قرن حيوان وقد عثر عليه فى كالارداشت Kalardasht وينتهى بشكل غزالة (شكل ٤٠٢) (١) .

وان هذه الاشكال الاربعة للاوانى من الذهب ، والبرونز ، والفخار المطلى بالميناء او العادى ، كل ذلك يدل على ايثار الايرانيين فى هذا الوقت هذا النوع من الاوانى .

واما فيما يختص بالاناء rhyton الموجود على شكل بطة والذى عثر عليه فى زوية فهو معروف منذ الالف الرابع ق.م فى صناعة الفخار فى سوسة . وكذلك ايضا هو معروف فى مصر الفرعونية وغــيرها من الحضارات قبل هذا التاريخ كثيرا (٢) . واما الاناء الذى تنتهى قاعدته برأس كبش فمعروف فى الفن الاشورى من القرن الثامن ق.م.

---

(١) وجدير بالذكر انه يوجد فى مخلفات المصريين القدماء . وقبل هذا العهد الذى نحن بصدده اوعية من هذا النوع كانت خاصة بمواد العطور والتجميل (انظر مقال باسمى فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد الاخير ١٩٦٦) .

(٢) J. Vandier, Manuel d'Archéologie

الفصل الرابع

الميديون

لم يكن الميديون أو الماذيون الا احـــدى القبائل الهندو أوربيـــة التى اندفعت الى الهضـــبة الايرانية فى أوائل الألف الأول قبل الميـــلاد . وقد ذكروا لأول مـــرة فى الوثائق الآشـــورية عام ٨٣٤ ، فى منطقـــة همـــدان Hamadan ، ولكن فى هذا الوقت كانوا يشكلون بطونا ترتبط بعضها البعض بصلة القرابة وبذلك لم يكونوا أمة متحدة .

ميديا الأولى

عرف الميديون والفرس لأول مرة حينمـــا جاء ذكرهم فى حوليـــات الآشوريين التى كتبت عام ٨٣٤ ، أيام شالمناصر الثالث ، فيها ما يشـــير الى تسلمه جزية من ملوك Parsua ، الذين كانوا يقيمـــون غرب بحيرة أورميا Urumia ، ووصوله الى بلاد مادا Mada . وذكر شماشي - اداد بيكني الخامس عام ٨٢٠ انه وجدهم عنـــد مكان يطلق عليه حاليـــا Parsuash ، على بعد قريب من جنوبى كيرمان شاه Kirmanshash الحديثة . وغزا تيجـــلات بيلاصر الثالث Parsua ، وتســـلم جزية من رؤساء الميديين حتى مرتفعات بيكنى Bikni .

وقد جاء فى الخبر أن الملك الميدى الصغير Diaiaukhu قد تم القبض عليه ونفى الى سورية عام ٧١٥ ، وذكر هيردوت (الجزء الأول : الفصـــل ٩٦ وما بعده) انه هو الذى كان يسمى Deioces الذى اصـــطلح على اعتبـــاره مؤسس الامبراطورية الميدية . أما الحاكم الثـــانى على حسب ما اصـــطلح عليه فهـــو Cyxares I ، وقـــد كان هو الحاكم المســـمى Uaksatar الذى قام بدفع الجزية الى سرجون الثانى عام ٧١٤ . وقد تعرض سنحاريب لهجمات بعض فرق ايرانيـــة ، وكان غالبـــا زعيم المهاجمين هو أحد زعماء الاخمنيين . وكان ابنه Teipses (Chishpish) « ملكا عظيما ، ملكا على مدينة انشان Anshan » . وولد ل Teipses ولدان : اريارمنس (Ariyaranna) Ariarannes وكورش Kurash ينطق أيضا Cyrus .

الامبراطورية الميدية

ميديا الثانية

اندفعت جماعات من وسط آسيا ، جاءت من وراء أبنــاء عمومتهم الى الهضبة ، وتركوا مخلفات لهم من حلى الخيل ، والسكاكين ورؤوس حراب فى لوريستان Luristan . وقد جاء فى أخبار هيردوت : (الجزء الأول ، الفصــل ١٠٢) أن Phraortes فراورتس حكم ميــديا ثلاث وخمسين سنة : أى على وجه التقريب من ٦٧٥ ــ ٦٥٣ .

وقد ذكر Ariyaramnes بن Teipses أن أهورامزدا قد منحـه Parsa ، بما فيهــا من خيــول قوية ، ورجال أقوياء . ثم وصف غزو الوطن المستقبل للفرس ، والذى كان يسميه اليونان Peris ، ويســمى حاليا فارس . وقد كان اخوه كورش يحمل اللقب الآتى : « الملك العظيم لمدينة انشـان » . أما هو نفسه فكان يلقب « الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك بارسا Parsa » . ولكن زعامته لم تدم طويلا ، فقد دخل الميديون البــلاد وأصــبح الفرس تابعــين للميــديين . وقــد كانت العاصــمة Hangmatana هانجماتانا (اكباتانا) وتقع على ارتفاع ٦٢٨٠ قــدما فوق سطح البحر وصيفها معتدل وشتاؤها شديد البرودة حتى أنه يصل الى ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر ، ويبلغ ارتفاع الثلج حوالى ثلاثة أقدام .

ومن هانجماتانا ، يستمر الطريق متجها الى الشــمال الشرقى نحو قزوين Qazvin ، وآلى الشرق متجها الى راجا Raga ، التى أخذت ميديا الثانية اسمها منها ، وعاصمة ايران الحديثة ، طهران ، هى الوريث الحقيقى لمدينة راجا .

ميديا الثالثة :

كانت راجا تشبه اكبتانا فى أنها كانت نقطة التقاء تجارى هام . فمنها يخرج الطريق الثانى الى الغرب . وهنــاك طريق ثالث عبر قزوين والى تبريز والى السهول حتى بحيرة Urumia أو الى آشور . وهذه المنطقة تشكل ميديا الثالثة ، والتى اطلق عليها فيما بعد أذربيجان .

وقد أقامت القبائل الميدية الرحل فى منــاطق ميديا الثلاث . وقــد صورتهم النقوش والرسوم الآشورية بشعور قصيرة معصوبة بشبكة ، ولهم لحى قصيرة مجعدة الشعر . وقد وضعوا قميصا وفوقه رداء على هيئة فروة الغنم ، وانتعلوا حذاء طويل الرقبة وقاية لساق الرجل من

الجليد . وقد تسلحوا بالحراب الطويلة ويحتمون بدروع مستطيلة . وقد استطاع فراورتس Phraortes بهذه الجماعة الشبه رعاة وبمعاونة الفرس أن يغزوا آشور ، وهزم ومات فى معركة عام ٦٥٣ .

واستقلت مرة أخرى Parsa . وبعد ذلك بعامين (٦٥١ ق.م) ، اتحد كورش الأول مع عيلام وأرسل معونة الى شمناش ــ شوم ــ أوكين صاحب بابل والذى ثار على أخيه آشور بانيبال امبراطور آشور . وقد اشار أحد كبار الموظفين الرسميين من آشور الى عودة ملك عيلام Humbanigash الى أرض هيدالو Hidalu ، مع بعض الرجال من Parsuash . وقد جاءت أخبار من عيلام الى آشور بانيبال من ولى عهده فى بابل ، بل ــ ابنى Bel-ibni ، تشير الى الاستيلاء على Parsuash .

وسمع كورش ملك Persuash بعد غزو عيلام بقليل والقضاء على سوسه ، على قوة آشور فأرسل ولده Arukku بجزية الى نينوى .

جاء من وراء Phraortes ولده سياكسارس Cyaxares (Uvakhshatra وقد عمل على اعادة تنظيم الجيش الى حملة الحراب ، والأقواس ، والفرسان . والظاهر أن Cyaxares هو الذى قام بتغيير الملابس والأسلحة : وقد تميز الميديون بأرديتهم التى تقرب من ملابس الايرانيين وبلحية مدببة وشارب وشعر مجعد مربوط فوق الرقبة ، وقد تزينوا بأقراط وعقود .

ولما غادر آشور بانيبال دنياه تولى الملك من بعده ملوك ضعاف . واضحى خلفاء Ariaramnes وكورش اتباع Cyaxares . وتقهقر مرة أخرى الآشوريون وأصبحت نينوى مهددة من الميديين . وقضى عليها عام ٦١٢ ، وعقد Cyaxares معاهدة سلام مع نابوبولاصر . وبعد ذلك بعامين ، وعندما هزم آشور ــ أوباليت عند حران ، قضى Cyaxares على الآشوريين وتقدمت جيوشه الى نهر الهاليس Halyes بعد حروب دامت خمسة أعوام انتهت عند موعد كسوف الشمس (٢٨ مايو عام ٥٨٥) . وأصبحت حدود مملكته الغربية نهر الهاليس .

وقد قامت اربع قوى ــ ميديا ــ كلديا ــ ليديا ــ مصر ــ فى ذلك الوقت بتقسيم الشرق الأدنى بينهم . ولكن ميديا وحدها هى التى يمكن تسميتها بالامبراطورية .

الميديون والبابليون

لقد تم اتحاد الميديين تحت رعاية فراورتس Phraortes ، الذى قتل فى معركة وقعت عند نينوى عام ٦٥٣ كما سبق ان اشرنا الى ذلك ولكن أصبح الميديون بعد ذلك رعايا السكيثيين Scythians لأكثر من ثلاثين سنة ، وكانت تلك الجماعة الأخيرة قبائل رحل من المحاربين الشماليين الذين كانوا ينشرون الرعب فى آشور ، وآسية الصغرى ، وسورية ، وفلسطين . واستطاع أخيرا سياكسارس Cyaxares ابن وخليفة فراورتس طرد السكيثيين ، وتعلم كثيرا من الخطط الحربية للسكيثيين فى اعادة تنظيم جيشه حتى اصبح قوة كبيرة لا يستهان بها . وسيظهر هذا الجيش على حدود آشور .

وفى صيف عام ٦١٤ توجه سياكسارس مباشرة نحو نينوى وحاصرها . ولكن لسبب غير معروف ترك حصارها متجها الى مدينة تجاورها وهى تاربيسو Tarbisu ومن الجائز انه أحس بعدم قدرته على الاستيلاء على العاصمة ، أو أن تدخل السكيثيين دفعه الى عدم تحقيق هدفه . وبعد أن سقطت تاربيسو ، ارتد الميديون الى دجلة وشرعوا فى الهجوم على آشور ، والتى لم يستطع نابوپولاصر الاستيلاء عليها فى السنة السالفة . ولم تفلت المدينة هذه المرة ، فقد ابيدت تماما واخذ اهلها أسرى او قتلوا .

وقد ضاعت تلك الفرصة على نابوپولاصر ، وقاد جيشه الى الشمال نيعاون الميديين . وقد كان الغزو الميدى مفاجئا حتى أن البابليين لم يستطيعوا أن يصلوا اليهم بعد سقوط آشور . وقد تقابل نابوپولاصر مع سياركسارس بالقرب من أطلال المدينة وأبرما معاهدة صداقة غالبا ما مهرت بزواج نابوخذ نصر ابن نابوپولاصر من اميتيس Amytis حفيدة سيكاساريس .

وقد قاد الآشوريون عام ٦١٣ غزوة الى وسط الفرات معتمدين على الثوار الموالين لهم من البابليين . وقد دفعت الثورة نابوپولاصر الى المبادرة بالظهور فى المعركة ، وبعد ان استولى على جزيرة مدينة راهيلو Rahilu اتجه مصعدا تجاه حصن اناتو Anatu ، والذى كان أيضا مقاما على جزيرة . وقد بنى طريق من شاطىء النهر وجهزت وسائل الحصار على الحوائط . ولكن اثناء المعركة ظهر الجيش الآشورى ، وانسحب على وجه السرعة نابوپولاصر .

وواضح انه لم يحدث فى هذه السنة حصار لنينوى ، وأن هذا كان قريب الاحتمال لأنه لم يوجد غزو ميدى . وامتحن الميديون باضطرابات

داخلية وكذلك طلبوا من السكيثيين ان يقفوا الى جانبهم ضد الآشوريين. على اية حال ، فقد ظهر سيكاسارس فى السنة التالية كقائد للميديين والسكيثيين المتحالفين واتحدوا مع قوات بابلية وذلك فى حملة اخيرة فاصلة على العاصمة الآشورية . وتحرك هؤلاء الحلفاء متجهين نحو دجلة واحاطوا المدينة وبداوا حصارها . واخيرا فى يولية او اغسطس ، وبعد ثلاثة شهور من القتال ، استطاعوا ان يجدوا مدخلا فى مكان من الأسوار كان ضعيفا من جراء الفيضانات المرتفعة . وقد قهرت المدينة ونهبت واحرقت . وحمل الميديون منها الأسلاب ، وعادوا مرة اخرى الى بلادهم، وظل نابوپولاصر يشرف على اقاليمها .

والآن مع سقوط نينوى ، لم يقض تماما على آشور . وفى اثناء الحصار قام جماعة من الآشوريين تحت اشراف شريف اسمه آشور اوباليت ، ادرك أن المدينة قد هلكت ، فدبر طريقة لخلخلة صفوف البابليين وفر الى الغرب . وعبروا نهر الخابور ، واتجهوا راسا الى حران ، عاصمة الاقليم الآشورى الذى كان غالبا يحكم منه آشور اوباليت كمحافظ . وقد تبعهم نابوپولاصر حتى الخابور ، وكان يجمع الغنائم ، ويجبر المدن الواقعة غرب نينوى ليدفعوا له الجزية ، ولكنه لم يستطع العبور والاستيلاء على حران . وقد كان ذلك له اثره فى أن الآشوريين قاموا بتعيين آشور اوباليت كملك جديد لهم وقرروا خوض معركة اخرى .

ولم يصلنا اى شيء عام ٦١١ عن الميديين . وعاد البابليون الى الفرات وامضوا الصيف فى نهب وهدم المنطقة حول حران . وبالرغم من احرازهم بعض النجاح البسيط والاستيلاء على الأقل على مدينة واحدة ، فان نابوپولاصر لم يانس فى نفسه القوة الكافية للقضاء على العاصمة الآشورية الجديدة بمفرده ، وعاد مرة اخرى الى بابل . واعاد الكرة فى السنة التالية ولكن لم ينجح فى شيء . وقد اتحد الآشوريون فى حران بقوات من المصريين . وفى الخريف . وغالبا بناء على نداء من نابوپولاصر ، ظهر جيش ميدى لمعاونته وقد ذعر المصريون والآشوريون حتى أنهم تركوا حران وفروا عبر الفرات . وقد تحرك الميديون والبابليون نحو المدينة الغير محصنة ، ونهبوها ، وهدموا معبد اله القمر قبل أن يعودوا الى بلادهم فى الشتاء . وقد تركت حامية ميدية تعاونها فرقة بابلية لحماية المدينة من اى هجوم آشورى .

وقام آشور اوباليت فى الربيع التالى بقيادة قوات من المصريين والآشوريين ضد حران وذلك لاعادة الاستيلاء عليها قبل ان تصلها المعونة من بابل . وحينما علم بذلك نابوپولاصر اتجه راسا الى الشمال ، ولكن قبل ان يصل الى حران ، رفع الحصار عنها ولم يعد هناك حاجة الى

معونته . وما من شك أن القوات التى كانت قائمة هناك كافية للقضاء على هذا الحصار ، أو أن الميديين قد تمكنوا من الوصول قبل البابليين . وقد مر نابوپولاصر على وجه السرعة بجانب المدينة وتحرك فى المرتفعات الشمالية الشرقية ، وأحرق القرى ، وترك فرقا للحماية ورقابة سكان الجبال . ومن الجائز انه كان يبحث عن آشور أوباليت الذى لم يذكر اسمه ، أو انه كان يعاون الميديين فى تقدمهم عبر اورارتو Urartu متجهين الى ليديا بآسية الصغرى . واستمرت الحملة فى خريف عام ٦٠٨ وقد نهبت كثير من المدن الجبلية وهدمت .

وفى ذلك الوقت كان المصريون على أهبة التحرك ، فهذا نيكاو فرعون مصر قد قرر مساندة الآشوريين فى سورية واتجه نحو كركميش . وحينما وصل الجيش الى مجدو ، وجد الطريق مغلقا بجيش صغير ليهودا تحت أمرة ملكها يوشع Josiah ، وقد كان هذا الأخير من سنوات قريبة خاضعا للآشوريين ورفض تقديم معاونة لهم . وقد هزم المصريون يهودا ، وقتل يوشع وتقدم الجيش المصرى الى سورية .

لم يفعل نابوپولاصر شيئا فى هذه الآونة فقد اعتلت صحته . وعاد الى بلاده عام ٦٠٧ وترك العرش لولده نابوخذ نصر . وقد استطاع نابوپولاصر بالرغم من ذلك كله فى الخريف أن يقود جيشه مرة اخرى فعبر الفرات وأخذ بلدة كموهو Kimuhu ، الواقعة جنوب كركميش وأصبحت هى رأس الجسر أمام القوات المصرية عبر النهر . وقد ترك فرقه لحماية المدينة ، وعاد الى بابل عام ٦٠٦ .

وكانت كموهو هامة للمصريين وقد حوصرت المدينة . ومرة اخرى استدعى نابوپولاصر مرة اخرى جيشه واتجه نحو النهر ولكن كان متأخرا . وبعد أربعة شهور من الحصار سقطت كموهو .

وفى عام ٦٠٥ اضطر نابوپولاصر للمرة الثانية اما لمرضه أو لكبر سنه أن يترك قيادة جيشه مرة أخرى لنبوخذ نصر . ولا ندرى لم تقهقر المصريون عن كموهو وقوراماتى Quramati وقد اخذهما نبوخذ نصر وقد أشعل النار فى كموهو وتراجعت جيوش المصريين الى الجنوب وتبعها نبوخذ نصر . ولما علم بوفاة والده فى ١٥ اغسطس عاد بسرعة ووصل الى بابل فى ٦ سبتمبر واعتلى عرش والده . ثم عاد فى نهاية هذا العام الى سورية ، ثم عاد الى بابل فى الربيع ليلتمس العون من الاله مردوخ وليحتفل بعيد رأس السنة . وقد اعترفت به الولايات الآتية : صور وصيدا ودمشق ، ولكن عسقلون وملكها آخون Achon فضل طلب المعونة من المصريين . ولم تصل اليه المعونة ولم تستطع عسقلون مواجهة

نبوخذ نصر . وقـد هدمت المدينة وعزل ملكها ، وعين اجا Aga أحـد الولاة البابليين فى مكانه .

وقد آنس نبوخذ نصر عام ٦٠١ فى نفسه القوة للقيام بحملة نحو مصر كما سبق ان اوضحنا ذلك فى غير هذا المكان . ولكنه اخطأ التقدير . وفى معركة غير محددة بالقرب من الحدود المصرية اضطر الى العودة الى بابل . وقد كانت خسارته كبيرة لدرجة انه امضى السنة التالية هناك لصناعة مركبات حربية ، ولتدريب الخيول والعمل على تجهيز جيشه . ولقد واجهت نيكاو فرعون مصر الصعوبات نفسها ، لأنه لم يحاول التقدم نحو آسـيا واكتفى بعمليـات التجسس فى الولايات البابليـة ، وعاد نبوخذ نصر فى ديسمبر عام ٥٩٩ الى سورية . فأخذ أولا يتقرب من قبائل العرب الرحل فى الأقاليم الصحراوية الذين كانوا على وفاق مع المصريين .

وبينما كان يقوم نبوخذ نصر بغزو فينيقية عام ٥٧٣ ، كان حلفاؤه من الميديين قد قاموا بمعركة ضد مملكة ليديا فى غرب آسية الصغرى . وقد انتهى الخـلاف بتعيين محكمين ، فقـد مثـل الميـديون نابونيـدوس Nabonidus ، وكان من كبار موظفى بابل وقد كان غالبا مكلفا فى ذلك الوقت بغزو قليقية . وهذا يدل على العلاقات الطيبة التى كانت لا تزال قائمة بين الميديين والبابليين : ولكن قبل نهاية عهد نبوخذ نصر بدأ التشكك فى ولاء الميديين ، ولذلك اقام حائطا كبيرا شمال بابل من سيبار Sippar الى أوبيس Opis وزودها بشبكة من القنوات حتى يعرقل الهجوم عليها من الشمال .

الفن الإيرانى فى القرن السابع

تمهيـــد

اندلعت الثورة ضد الآشوريين ، وكان كاشتاريتى Kashtariti زعيم الميديين هو المحرك لها . وذلك فى عام ٦٧٣ : وقد كون الثائرون حلفا قويا مشكلا من مملكة مانا ، والسكيثيين والســيمريين . وقـــد حاول أسرحدون ، ملك آشور ، أن يقضى على هذا الاتحاد . فقد سلك فى أول الأمر مؤاخاة بعض القبائل الميدية التى خرجت عن هذا الاتحاد . وقـــد كشف Mallowan فى نمرود (كالح) عن نصوص آشورية تشير الى ابرام معاهدة بين ملك آشور وأمير الميديين راماتيا Ramateia .

وقد نجحت الدبلوماسية الآشورية فى تحويل السكيثيين عن تحالفهم مع الميديين ومؤازرتهم الآشوريين . وقد تأيد هذا التحالف الجديد بزواج الرئيس الجديد للسكيثيين ، بارتاتوا Partatua من اميرة اشورية . وقد استطاع كاشتاريتى ، والذى عرفه هيردوت تحت اسم Phraorte (الجزء الأول ، الفصـــل ١٠٢) ، أن يكون على الأقل حكومة مستقلة . وقد حارب ولكنه قتل . وقد كان لهزيمته اثرها فى أن احتل السكيثيون ميديا ثمان وعشرين سنة . وجاء من بعده ولده سيكاساريس . وقـــد كان حكمه (كما ذكر هيردوت ٤٠ سنة) يعتبر من السنين المزدهرة فى تاريخ ميديا . وقد اتحد مع البابليين كما رأينا ، وقضى على قوة الآشوريين وامتد بحدود مملكته حتى آسية الصغر . واتخذ لنفسه عاصمة ، وهى اكباتانا (همدان الحديثة) ، والتى تخفى فى تلالها الكثير من الآثار الميدية والاخمينية والفرثية .

قام سيكاساريس بتوحيـــد الميـــديين ، وذلك باعادة تنظيم الجيش والادارة ، وعلى أية حال فقد كانت هـــذه الجموع تتشـــكل فى الواقع من الميديين والسكيثيين والسيمريين .

الفن الميدى

لا نعرف الا القليل من فن العمـــارة الميدى . وليس لدينـــا الا بعض

القبور المنحوتة فى الصخر هى التى تنير لنا الطريق فى هذا الشأن ، وهى تمتاز بجزء أمامى بارز auvent ، يعتمد على عمد فى المدخل . وتحتوى هذه المقابر على مدخل ، وحجرة أو حجرتين جنازيتين (أنظر شكل ١١٣ من كتاب جريشمان) . والأعمدة مستدير شكلها ، وتيجانها على هيئة لوحات مربعة مشغولة لتتشابه بالخشب ، وفيها شبه من سعف النخيل ، و قد تشابهت ايضا بالتيجان الايونية . (انظر شكل ١١٥ من كتاب جريشمان) .

ومن الدراسة المقارنة لمقابر كيزكاپان Kizkapan وساكاڤاند Sakavand ، يتضح لنا التأثير السكيثى والتأثير اللوريستانى ، ومقبرة كيزكاپان المنحوتة فى مرتفعات كردستان العراقية تتصل بمجموعة القبور الصخرية للميديين . وكذلك واضح فيها الزخارف الميدية السكيثية . ففى اعلا الأعمدة ثلاثة أقراص ، منقوشة ، وهى رموز للآلهة اهورمزدا ، ومثرا ، واناهيته أو اهورمزدا ، وماه Mah ، واناهيته . وفوق الباب صور رجلان واقفان الى جانبى مذبح للنيران . ويقبضان على قوس من النوع السكيثى . وعلى ذلك يذكر هيردوت (فى الجزء الأول ، الفصل ٧٣) أن فن استخدام القوس عند الميديين مقتبس من السكيثيين . ولباس راسهما متشابه ، ولكن يرتدى الرجل الأيسر رداء قصيرا ، ومعطفا طويلا اكمامه متدلاه . واذا اعتبرنا أن القوس كان فى عرف الايرانيين رمز السلطة الملكية ، فعلى ذلك لن يكون هذا الذى مثل على واجهة القبر كاهنا ، بل أميرا وخليفته (؟) .

وان انتصار الميديين على الآشوريين ، واتساع حدود مملكتهم حتى قلب آسية الصغر ، قد زاد فى ثروة البلاد التى كانت من قبل فقيرة . وقد اشتهرت الإرستقراطية الميدية بالثراء الفاحش . وقد كثرت المشغولات الذهبية التى امتاز بصناعتها صياغ مهرة ، تعلموا تلك الصناعة من الآشوريين وكذلك من المانيين والاورارتيين الذين استغلهم ملوك الآشوريين من قبل .

ولقد انتشرت الصناعات الميدية حتى تجاوزت حدودها ، وقد قدرها السلاف ، لأن اسم النحاس بالروسية هو med ، وحينما استورد الرومان هذا المعدن من قبرس Chyprus سموه Cuprun .

كنز أوكسوس (١) Oxus

لقد كان لهذا الكنز أثره فى اماطة اللثام عن هذا الفن الميدى والذى

---

(١) نهر فى آسية الوسطى ، ينبع من Pamirs بامير ويصب فى بحر آرال . ويسمى حاليا امو ــ داريا Amou-Doria ويشمل الحد بين افغانستان والجمهوريات السوفيتية
O. M. Dalton, The Treasures of the Oxus with other examples of early Oriental Metal-Work, Third Edition (London 1964).

لم يظهر فى تلك الايام الا فى غمد من ذهب محفوظ بالمتحف البريطانى مؤرخ بين القرن السابع والسادس ق.م. (انظر صورة رقم ١١٨ من كتاب جريشمان) ، وقد صور عليه مناظر فارسين ملكيين يصطادون سباعا بالحربة والقوس . وقد ظهر فى هذا النقش مجموعة من التأثيرات المختلفة الآشورية (فى غطاء الرأس الملكى) ، السكيثية (الاطار المشكل على هيئة رؤوس طيور) ، الأورارتية (Volutes على هيئة رأس حيوان) ، كل ذلك قد شكل تشكيلا متناسقا حتى آخرج ما اصطلح على تسميته بالفن آلميدى ، وهو يمثل الفن الايرانى قبل الاخمينى ، وهو يؤرخ من القرن السابع وبداية القرن السادس ، ويستمر الى القرن الرابع ق.م .

وقد ضمت مخلفات هذا الكنز عشرات من لوحات ذهبية ، حفر عليها اشخاص ، اغلبها يقبض على Foroughi (باقات من سيقان تمثل الطبيعة النباتية الخاصة بالقربان) وتضم معها أحيانا زهرة وحربة أو اناء . وفى الواقع هذه المناظر فى مجموعها كانت تمثل ما يقدم من المصلين الى الآلهة فى المعبد . فقد كان كل يمثل وهو يقدم طلبا شخصيا بما يهمه : فالنسوة ينشدن الاطفال ، والرعاة يبغين كثرة المرعى ، ويطلب الفخارى والصائغ الذى يقدم اناء أن يكون ناجحا فى مهنته ، والمحارب يرجو الانتصار على عدوه .

وقد كان بمعبد Sorkh Dum بلورستان مصانع شبيهة بتلك التى تقوم بصناعة هذه الاشياء السابق وصف مناظرها . (انظر مجموعة Foroughi بطهران) .

ومن الدراسة الدقيقة لهذا الكنز أمكن معرفة ملابس الميديين آلتى كانت عبارة عن رداء يربط بحزام ، وقد شد به حربة قصيرة سكيثية ووضع على رأسه غطاء يسمى backlyh (وهو غطاء رأس خاص بالرعاة صنع من الصوف على هيئة قبعة مدببة مزودة بشريطين طويلين ، يتدليان حول الرقبة . ولا زال يستخدم حاليا فى روسيا) ، ويضع حذاء له رقبة . وقد حدثنا هيردوت عن غطاء الرأس آلميدى فى الجزء الأول من كتابه ، الفصل ١٣٥ .

وكذلك فان تمثيل الحصان على بعض هذه الآثار يعبر عن تقديس لهذا الحيوان .

وقد عثر فى اكباتانا (همدان) عام ١٩١٣ بواسطة البعثة الفرنسية

التى قامت بالحفر هناك على جرة من البرونز أمكن اعادة ترميمها (انظر صورة رقم ١٢٢ من كتاب جيرشمان وهى محفوظة بمتحف اللوفر) . وشكلها كلاسيكى ، ولها ميزب طويل ، مثبت فى بطن الاناء بواسطة سبع مسامير (برشام) لها رؤوس شبه كروية ، ولها يد على شكل الركاب (الذى يثبت فى قدمى راكب الحصان) ، وقد ثبت على بطن الاناء من الجانب المواجه للميزب صورة شخص له أجنحة . وتتشابه هذه الجرة مع أخرى من لوريستان محفوظة بمتحف اللوفر أيضا وتحت رقم AO 15553 . والاناء فى مجموعة ميدى .

وبمتحف Cincinati للفنون بطهران كأس من الذهب لها عروتان على هيئة وعل مزدوج نصفه العلوى ، وزينت رقبة الكأس برسوم على هيئة سعف النخيل ، وزين كتف الكأس بسباع مجنحة ، وزخرف بطنه بخطوط بارزة Cannelures à arêtes (انظر صورة رقم ١٢٥ من كتاب جيرشمان) . وجدير بالذكر أن متحف القاهرة للآثار الفرعونية يحتفظ بين ودائعه على اناء من ذهب وفضة له عروة على هيئة وعل .

وكشف عن كميات من الآثار الذهبيـة والفخـارية فى كالارداشت Kalarasht ، فى الوادى من القسم الاوسط من سلسلة مرتفعات البورز Elbourz ، الى الجنوب من البحر الكسپى ، يمكن ضمها الى الفن الميدى من القرنين الثامن والسابع منها كأس من ذهب (انظر صورة رقم ١٢٧ بكتاب جيرشمان وهى محفوظة بمتحف طهران) وكذلك خنجر من ذهب أيضا .

السكيثيون والقبر الملكى بزوية Ziwiyé

كشفت الأحافير التى اجريت بواسطة الفلاحين فى عام ١٩٤٧ عند موقع يسمى زوية بالقرب من مدينة ساكى Sakkez (انظر خريطة رقم ٣٠) الى الجنوب من بحيرة أورميا عن حضارة السكيثيين . وكانت هذه المنطقة فى القرن السابع ق.م خاضعة لمملكة مانا Manna ، وكانت متحدة مع الميديين ضد الاشوريين . وبعد أن هزم المانا (٦٦٠ ــ ٦٥٩ ق.م. تقريبا) احتلها السكيثيون . وضموها لمملكتهم . وقد استخدمت قاعدة حينما فرضوا سلطانهم على الميديين ، وحينما قاموا بغزواتهم الى آسية الصغرى . واسم مدينة Sakkez الحالية مشتق من التسمية القديمة Sakka او Scythes . وقد عثر على كثير من الوثائق التاريخية والقطع الفنية فى Ziwyé لهؤلاء الفرسان من المحاربين .

وكان من نتائج انتصار سيكاكساريس ملك ميديا على ماداياس Madyes

ابن پارتاتو Partatua أثره فى القضاء على السكيثيين . فهل استطاع بعد هذه الخسارة (حوالى ٦٢٥ ق.م) أن يقبضوا على زمام أمور مملكة مانا ؟ والظاهر انه لم يعد كل السيكثيين الى القوقاز . وعلى حسب الوثائق البابلية فقد اتحد السكيثيون مع الجيش الميدى . وقد كان اوفياء مع الحلفاء الاقوياء ، فتركوا الاشوريين . ولم تؤسس المملكة السكيثية الا فى حوالى عام ٥٩٠ ق.م.

واذا اعتمدنا على ما جاء فى هيردوت (الجزء الثالث ، الفصل ٩٢) الذى اشار الى وجودهم فى نهاية القرن السادس ، او بداية القرن الخامس وقد اطلق عليهم « اصحاب الخوذات المدببة » وانهم كانوا قسما من الميديين . وقد تأكد من أن « كنز زويه » لم يوجد فى خبيئة قام بعملها بعض السادة من الذين استولوا عليه ، ووضعوه فى غار فى الجبل ، ولكن وجد فى قبر ملك سكيثى قوى . وبعد ان حنطت جثة الملك ، وضع على عربة مرت بين القبائل حتى المكان المعد لدفنها ، وهو عبارة عن قبر محفور او حجرة نظمت من اجلها . وقد ذكر هيردوت فى الجزء الرابع الفصل ٧١ ، انه قد تم خنق ودفن احدى عشيقات الملك ، وسناق وطباخ ، وفارس ، وسكرتير ، وحاجب ، وخيول ، والاشياءالاولى التى كان يمتلكها الملك ، وكذلك اوان من الذهب ، كل ذلك قد جهز له مكانا على كل مساحة القبر .

وعثر على اجزاء من تابوت من البرونز ، واشياء خاصة بالملك من معادن نفيسة : عقود ، غمد سيف ، درع ، اوان ، واثاث جنازى من العاج المنحوت أو المطعم . وكانت بعض الاشياء خاصة بالسيدات . من ذلك مثلا الدبابيس (٤ من ذهب ، ٢١ من فضة ، ١٥ من برونز) وعتارب Libules (٤ من ذهب ، ٣٨ من فضة) . كل ذلك الاشياء المتعددة دلت على مراكز من كانوا يشغلون هذا القبر . عديدة هى تلك العناصر الصغيرة الذهبية التى كانت مخصصة لثياب العظام من الناس وكانت الاسلحة الذهبية والفضية من مخصصات الملك ، ولكن السهام حراب من حديد ، تدفعنا الى الاعتقاد بأنه ضحى بحراس . كذلك عثر على بعض نواقيس صغيرة كانت تعلق فى رقاب الخيول ، واجزاء عديدة من جهاز الخيل .

هناك شبه كبير بين الزخارف الموجودة على تابوت زوية wiyé وكذلك المنحوتة على العاج الذى يزين عرش أسرحدون ، والذى يبين ولاء الميديين ، وقد احضروا الجزية . وان التطور السياسى ، فى هذا الجزء الغربى من ايران ، يشير الى حكم ملك سكيثى حوالى ربع قرن

من الزمان ، قد حل مكان الاشوريين وانه بدأ يتقبل الجزية من الميديين .

وهذه الزخارف الأفقية والراسية ، وما فيها من تأثير اشورى تدل على اثر الفن الاشورى فى هذه المنطقة (انظر صورة رقم ١٣٤ من كتاب جيرشمان) . ومناظر صيد والثور .

وعثر بزوية (صورة رقم ١٣٧ من كتاب جيرشمان) على صدرية Pectoral من ذهب من عناصر فنية مختلفة : سكيثية وايرانية ــ اورارتية من نهاية القرن السابع ، ومحفوظة بمتحف طهران : والزخارف عبارة عن موكبين من أشخاص لهم بنية خاصة مركبة ، يتجهون الى شجرة الحياة التى أحيطت بزوجين من الحيوانات ، وفى الاطراف سنور سكيثى وارنب . وقد زينت الحواشي برسوم على هيئة جوز الصنوبر .

كذلك عثر فى زوية على ختم اسطوانى من الذهب ، وقد ضاع جزء كبير منه (صورة رقم ١٤٠ من الكتاب المذكور) ، وهو متأثر بالفن الاورارتى .

كذلك عثر فى زوية على طبق (صورة رقم ١٤٢ من الكتاب المذكور آنفا) من الفضة تعلوه بعض قشر من ذهب وعليه رسوم وزخارف سكيثية من حيوانات مختلفة تعدو وغيرها ، وبعضها ورد من آسية الصغرى ، وبعضها اورارتى . كذلك عثر فى زاوية على جزء من حزام من ذهب فيه تاثير الفن السكيثى (صورة رقم ١٤٣) . وكذلك على أساور من ذهب (صور أرقام ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠) . أما عن الاسلحة الحربية السكيثية فقد عثر على الكثير بها متأثرا بالفن السكيثى ، من سيوف وخناجر وأجزاء العربات الحربية . ثم أخيرا تمثال صغير من الخشب (صورة رقم ١٧٣ من كتاب جيرشمان) وكان أصلا مغطى بمعدن على الطريقة اليونانية التى تعرف بـ Sphyrelata والمعروفة عند اليونان واستخدمت فى آسية الصغرى . وهو المثل الوحيد الذى عثر عليه من هذه الصناعة فى هذه المنطقة . والرداء الذى كان يرتديه صاحب التمثال ليس آشوريا ولا اورارتيا ، ولكن كان خاصا بأحد الرعاة . وغالبا انه قد تاثر بالفن اليونانى .

من كل تلك المخلفات التى عثر عليها فى قبر زوية ، نستطيع أن نتبين الدور الذى لعبه السكيثيون فى آسية الصغرى أثناء القرن السابع . وكذلك أيضا هذه الفنون قد مهدت للفن الايرانى فى عهد الفرس

الاخمينيين ، وكذلك ايضا ظهر فيها الفن الميدى . ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن نفصل الميديين عن السكيثيين والسيمريين .

وقد عثر فى كنز Oxus على تماثيل صغيرة من ذهب لسيدات ورجال بعضهم باكترى . كذلك راس لرجل بدون لحية (شكل ٣٠٠) ، كان أصلا يضع فى اذنيه قرطا . ومن القطع الفنية الرائعة التى عثر عليها فى هذا الكنز عربة بها مقعد من الذهب ، يجرهاأربعة خيول . وبجوار سائق العربة رجل آخر . وكلاهما ايرانيان .

ولقد جاء فى حوليات سرجون الثانى ، ان الملك الاشورى قد وجد فى معبد موساسير Musasir ، مع ثلاثين عربة من الفضة ، « تمثال أورسا Ursa (Rusa I روسا الأول) بحصانيه ، وسائق العربة ، بكرسيه (والجميع) من البرونز المصبوب ، و (تمثال) آخر عليه ما يلى : لقد قهرت بحصانى الاثنين وسائق عربتى ويداى مملكة أورارتو » .

ويشكل كنز Oxus فنا مركبا ، فيه أحيانا تأثير أورارتى (مثل تلك الأسود التى ترتكز على مخالبها الخلفية) ، وأحيانا تقاليد ايرانية وردت من سيالك (مثل مخالب النسر) ، وأحيانا تأثر بالفن اللوريستانى (جناح الماردة التى على هيئة أبى الهول وتنتهى براس طائر) (صورة رقم ٥٤١ من الكتاب المذكور أيضا) .

وان الكثرة الغالبة لصناعة الحلى تدفعنا الى افتراض أن هذه الصناعة كانت متقدمة . وغالبا أن هذا الكنز كان مكرسا للالهة أناهيته ، وهى عشتار البابلية الا انها لم تكن من مهمتها الحرب .

وعثر على حلى أخرى فى أمكنة مختلفة بالامبراطورية مثل كنز همدان وغيرها تشمل Rhyton من الذهب وأوان من ذهب وكؤوس من ذهب وصحون .

كذلك عثر على بعض قطع صغيرة من اطباق من ذهب وفضة وبرونز وأساور وزينة للشعر وسيوف . وكذلك بعض التماثيل الصغيرة والاطباق والكؤوس المصنوعة من الحجارة .

أما الاشياء المصنوعة من العاج ، فبعضها كشف عنه فى سوسه (انظر صورتى ٥٦١ ، ٥٦٢ من كتاب جيرشمان) .

وان اختراع الكتابة المسمارية ، للتعبير بها عن الفارسية القديمة ،

يرجع الى أيام Teispes ، لأننا نعـرف لوحة من ذهب من أيام ولده أريارامنا Ariaramne . ولم تكن تلك اللغة والكتابة ميسرة فى الفترة التى تم فيها الانتقال من المملكة الصغيرة الى امبراطورية فارس الا على نطاق ضيق وللقـادة من الحـكام فقط . وان السرعة التى تكونت بها الامبراطورية كانت تتنافى مع تمكن الفارسية للتعبير بها فى كل اللغات . وعلى ذلك انتشرت اللغة الارامية فى كل أنحاء آسية الصغرى حتى ايران الغربيـة ، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك عند الحـديث عن الارآميين . واصبحت أيام الاخمينيين لغـة حـرة lingua franca فى آسـية ، واستمرت تستخدم ، على وجه الخصوص فى الشئون الادارية للدولة ، من مصر حتى الهند ، حيث عثر على وثائق كتبت بالارآمية ، سبق أن تحدثنا عن بعضها . واذا صح أن العيلاميين قدكتبوا بالعيلامية ، وأن البابليين كتبوا بالبابلية ، فان دواوين الحكومة الفارسية قد استخدمت الارامية .

كانت تكتب اللوحات بالمسمارية ويوقع عليها ، بالختوم الاسطوانية المحفورة ، فقد كانت تدار على طين لم يجف فيطبع عليها ما يراد اظهاره من مناظر ونقوش . أما البردى والرق فكان يحتفظ به للكتابة ، بالحبر بالارامية ، واليونانية ، ولغات آسية الصغرى ، والفينيقية . وتلف هذه الوثائق على هيئة مدارج ، ثم تربط بشريط وتمهر على طين لم يجفه بختم قرصى أو اسطوانى .

ومن الختوم الاسطوانية التى عاشت من الفن الاخمينى ، ما يحتفظ به الكثير من الهواة ودور التحف . وقد نقل الينا جيرشمان فى كتابه عن الفرس الذى كثيرا ما أشرنا اليه الكثير من تلك المناظر (من ٣٢٩ — ٣٣٢ ، ٥٦٣) بعضها يمثل مناظر صيد (وهذا الخاتم من أيام داريوس العظيم اذ وجد اسمه مكتوبا عليه « شكل ٣٢٩ ») وعليه نقش من ثلاث لغات ، وبعضها مثل الملك فيه وهو يتعبد أمام مذبح للنيران وفوقه أهورا مزدا ، وبعضها يمثل معركة بين الميديين والسكيثيين .

ومنذ بداية القـرن الخامس ق.م ، تأثر الفـن الايرانى باليونانى ، فظهرت النقوش والرسوم على الفصوص الصغيرة Gemmes (أنظر أشكال ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦) ، وفيها تظهر مناظر الصيـد بحركات الحيوانات المختلفة فيها الكثير من التحرر . والبعض يمثل معارك ، وبعضها يمثل الحيوانات وهى تعدو . ونستطيع أن نسمى هذا اللون من الفنون « الفن اليونانى الفارسى » .

وخلاصة القول فى الاتجاهات الفنية التى أشرنا اليها ، هو أننا لاحظنا

أن الميديين والفرس قد اتحدوا تحت تاج واحد ضم امبراطورية كبيرة بها حضارات عريقة فى القدم . ولم يتجاهل الملوك العظام الاخمينيين ، كورش العظيم وداريوس مركز تلك الحضـارات ، واحترموا ما لها من عبـادات وأصـول فنيـة . وكانت هـذه من الاسـباب التى اطاحت بالامبراطورية الفارسية ، فى الوقت التى ظهرت فيه قوة جديدة ، وهى مقدونيا .

كان الفن الفارسى الاخمينى ملكيا . ولقد لعبت النقوش التى لا تحصى والتى ملأت جـدران القبـور الصخـرية الملكية (فى نقشى روسـتام ، وبرسبوليس) ، والسلالم والبوابات الخاصة بالقصور (پاسارجاد ، وپرسپوليس) دورا كبيرا فى اظهار ما كان لهؤلاء الملوك من قوة وسلطان.

كذلك كان لاستخدام العمـلة والتجارة الخارجية اثرها فى انتشار الحضارة .

أما من ناحيـة تطور الحلى والأوانى المصنوعة من معـادن نفيسـة وأدوات الزينـة فلم تتطور تطورا ملموسا . واقتبست الكثير من فنها من الحضارات التى جاورتها .

* * *

الفصل الخامس

الأخمنيون

تمهيد

ذكرت بلاد Parsua التى تقع الى الجنوب والجنوب الغربى من بحيرة اورميا لأول مرة فى حوليات الاشوريين من أيام شلمناصر الثالث عام ٨٣٤ ق.م. وفى هذا الموقع استطاعت قبائل الفرس أن تحط رحالها، وذلك قبل التقدم فى هجرتها الى الجنوبى الشرقى ، متتبعة مرتفعات زاجروس . وقد استقروا فى القرن السابع قبل الميلاد عند پارسوماش Parsumash ، عند مرتفعات بختيارى Bakhtiari ، الواقعة الى الجنوب الشرقى من سوسه ، فى منطقة عيلامية . وفى الفترة التى قام فيها النزاع بين العيلاميين والاشوريين ، نشأت مملكة فارس على يد اخمينس Achéménès .

وكان يحمل تياسپس Teispes (٦٧٥ — ٦٤٠) ابن وخليفة اخمينس لقب « ملك مدينة انشان Anshan » ، والتى يرجح العلماء انها مدينة مسچيدى سليمان Dasjidi-i Solaiman الحالية . ولما كانت عيلام قد انهارت فى هذه الفترة ، فقد استطاعت Parsua أن تضم الى املاكها مقاطعة پارسا Parsa (فارس حاليا) . وعند وفاته قسمت مملكته بين ولديه : Ariaramne ، ملك بلاد پارسا ، وكورش الذى سيصبح « الملك العظيم » لپارسوماش . ولم تستطع المملكتان الصغيرتان أن تقفا أمام نهوض الميديين تحت اشراف سيكاساريس . وقد اتحدا تحت تاج واحد وذلك بفضل قمبير (٦٠٠ — ٥٥٩) بن كورش الأول ، وقد ظهر عهد جديد للفرس وذلك عقب انتصار كورش العظيم (٥٥٩ — ٥٣٠) على آستياج Astyage ، ملك الميديين ، واتحد بذلك الفرس والميديون .

وعلى ذلك تدين ايران للأخمينيين فى تكوينها كوحدة سياسية . وكما سنرى فيما بعد أن الجهود التى بذلها كورش العظيم وداريوس (٥٢١ — ٤٨٦) كان لها اثرها فى تكوين امبراطورية عظيمة جمعت بلاد

ما بين النهرين ، وسورية ، ومصر ، وآسية الصغرى ، وبعض المدن والجزر اليونانية وجزءا من الهند .

كورش

ثار كورش Cyrus صاحب انشان على الميدين ، وفى ذلك الوقت اتجه نابونيدوس نحو الغرب ، ومن تما Tema — التى تقع فى شمال الصحراء العربية وعلى بعد حوالى ١٠٠ ميلا شرق خليج العقبة ، وكانت مركزا طبيعيا للتجارة العربية ،ومكانا لالتقاء طرق القوافل من دمشق الى الشمال ، وشبا Sheba الى الجنوب ، والخليج العربى الى الشرق ومصر الى الغرب — أراد نابونيدوس أن يجعلها بابل الثانية لأنه اراد أن تكون هى العاصمة الجديدة لامبراطوريته . وترك ابنه بلشازآر Belshazzar حاكما على بابل .

ولم يكن كورش فى عام ٥٥٣ الا ملكا صغيرا ، ولما عاد نابونيدس من الصحراء العربية وجد سلطان كورش قد بدأ يزداد بسرعة لم يكن يتصورها ، ولم يستطع مقاومة نفوذه .

لقد كان كورش صاحب انشان من عائلة هندو — أوربية كانوا قد دخلوا المنطقة فى نفس الوقت الذى دخل فيه الميديون . فقد وجدوا أولا فى السجلات الاشورية فىمنتصف القرن التاسع تقريبا ، حينما كانوا يقيمون فى غرب وجنوب غرب بحيرة أورميا Urumia، ولكن فى المائة والخمسين سنة التالية تحركوا تدريجيا الى الجنوب نحو الاراضى العيلامية ، وأخيرا استقروا فى المنطقة التى كانت تسمى پارسوماش Parsumash ، التى تقع الى الشرق من شوستار Shustar الحديثة فى جنوب پرسيا Persia . وقد كانوا أولا موالين للعيلاميين ، ولكن كان لأفول نجم العيلاميين اثره فى اتساع سلطان تلك الجماعة فى الاقاليم المحيطية بانشان ، شمال غرب پارسوماش ، وپارسا Parsa وهى فارس الحديثة ، والتى منها اشتق الاسم المعروف بالفرس . ولقد دفع زيادة قوة الميديين بعد سقوط نينوى الى الانتقال الى فترة من الحكم الاقطاعى، أثناؤه تزوج قمبيز ، وهو أمير من سلالة الفرس ابنة آستياجس Astyages ، ملك الميديين . ونتيجة لتلك الزيجة ولد كورش ، الذى أصبح ملك انشان عام ٥٥٩ ، وبسرعة بدأ البحث فى تحرير بلاده . ولقد تحالف مع نابونيدور عام ٥٥٦ ، ثم ثار على سيده عام ٥٥٣ ، وكان ذلك حينما غادر ناپونيدوس البلاد متوجها فى حملة الى الغرب فى الصحراء العربية . وقد تمكن كورش بعد ثلاث سنوات من الكفاح

خلع جده واستولى على عرش الميديين . وقد أنفق السنتين التاليتين لكسب أجزاء أخرى من الامبراطورية . وفى هذا الوقت عرض جوبيراس Gobyras ــ ضابط قديم فى جيش نبوخذ نصر وحاليا يعمل محافظا لاقليم جوسيوم Gutium من الاقاليم البابلية ــ خدماته على ملك الفرس. وفى عام ٥٤٧ كان كورش على أهبة الاستعداد لنشر سلطانه . فعبر دجلة بالقرب من اربلا Arbela ، وقاد جيشه الى الغرب عبر الخابور مارا بشمال سورية متجها الى آسية الصغرى .

وقد وصل فى الخريف الى نهر الهاليس Halyes حيث دار قتال مع كرويسوس Croesus صاحب ليديا . ولما لم يحصل كل منهما على نصر حاسم ، عاد كرويسوس الى عاصمته فى ساردیس وبدأ يلجأ الى اعوانه ليساعدوه ، ومن بين هؤلاء الذين استجابوا له وعاونوه نابونيدوس . ويحتمل ان بابل كانت قد تحالفت مع ليديا ، وكان ذلك فى الغالب عند نهاية أيام نبوخذ نصر ، وذلك فى محاولة لكبح جماح الميديين ، ولكن وجد نابونيدوس نفسه فى موقف حرج اذ خوطب بطلب امدادات من فرق عسكرية لمحاربة حلفائه الفرس . ولحسن الحظ لم يتركه كورش ليقر قرارا فى هذا السؤال الحرج . وتبع كرويسوس بسرعة الى عاصمته ، وفاجاه ولم يكن مستعدا . وسقطت ساردیس ، وقتل كرويسوس عام ٥٤٧ .

وتحولت ليديا الى ولاية Satrapy تحت اسم Saparda or Sardis وعين عليها الوالى الفارسى Tabalus . كما عين احد المواطنين Pactyas ليتولى الاشراف على خزائن كرويسوس

وفى عام ٥٤٧ عرض كورش على اليونان ، الذين كانوا رعايا الليديين مدة طويلة ، بعض الشروط السخية التى رفضتها حكومات المدن فيما عدا Miletus واستغاث ثوار اليونان باسبرطة التى كان يقدرها كورش .

وفى اثناء عودة كورش الى اكباتانا ، ثار Pactyas ، واستخدم الكنوز التى كان يشرف عليها فى استئجار مرتزقين يونان . وظل Tabalus محاصرا فى قلعة ساردیس حتى اتت امدادات تحت اشراف الميدى Mazares وطردوا الثوار وجردوا الليديين من الاسلحة . وقد هرب Pactyas الى Cyme ولكنه سلم فى النهاية .

كانت الخطوة التالية للفرس هو اخضاع بلاد اليونان نفسها التى رفضت الخضوع للفرس . ولقد قاوموا بشجاعة ، ولكن منفردين ، وقد

تمكن الفرس من القضاء عليهم الواحد تلو الآخر واضحى جميع شاطىء البحر يحمل اسم ولاية فارسية تحت اسم Yauna or Ionia ولم تكن سترابية حقيقية ، لانه لم يكن لها ستراب خاص ، ولكن كانت تقع تحت اشراف ستراب ساردیس . وعلى العكس فقد كان اليونان على طول الدردنيل (كان يسمى قديما Hellespont) تحت حكم ستراب يسمى Mitrobates .

وقد عرف الفرس من الفترة القصيرة التى اصطدموا فيها مع اليونان ان هذه الجماعة كافراد ممتازين فى الحرب والغارة ، مهرة . وقد ادرك الفرس روح المنافسة والعداوة الموجودة بين دويلات المدن اليونانية ، وانهم فى امكانهم توطيد صداقة بين احد الولاة ضد الآخرين .

وعلى ذلك فقد تغير ميزان القوى فى غرب اسية فى خلال سنوات قليلة . ولم تصبح بابل فى أمن من الشمال والشرق ، وعلى العكس فقد أصبحت تواجه قوة جديدة ناشئة تعضدها موارد آسية الصغرى وايران واصبح واضحا ان الامبراطورية البابلية لابد ان تكون هى الهدف التالى ولكن لسبب غير معروف لم يدرك نابونيدوس فى عاصمته الصحراويةالتى انشأها فى تما ذلك . والحادث الذى يستحق الذكر فى هذا الوقت هو وفاة والدة الملك عام ٥٤٧ فى دوركاراشو ، بالقرب من سيبار . ولقد استمر حداد بلشازار ولدها والجيش فى بابل ثلاثة أيام ، وبعثوا رسالة الى نابونيدوس فى تما . وقد جاءت تعليمات من عاصمته هذه فىالصحراء العربية تشير الى اطالة فترة الحداد ، ولكن لم يصلنا ما يدل على أن نابونيدوس نفسه قد عاد الى بابل .

وبعد أن هزم كورش كرويسوس ، آستطاع بعدها ان يمد نفوذه نحو سورية بدون تعب . ومن الغريب أن بلشازار لم يقم بأى مجهود لحماية المنطقة الشمالية من أجل والده الذى كان مشغولا فى الصحراء العربية ويقع عليه جزء كبير من اللوم لسماحه لكورش التقدم فى حملة من الدعاية صارخة ، ظفر بها على الكهنة المحليين والامراء برشاوى سخية ، ويدفعهم على انه هو المحرر لهم من ظلم البابليين ، ولم يلتفت الى فكرة الاستعمار . وبهذه الطريقة ضاعت سورية وفلسطين من الامبراطورية البابلية بدون أى قتال ، وظفر كورش عام ٥٤٠ بقبائل البدو الضاربين فى الصحراء حول تما . وبذلك أصبح موقف نابونيدوس حرجا ولم يجد من يؤيده . كما اضحت خطوط اتصاله ببابل معرضة للانقطاع فى اية لحظة ، وتعرضت عاصمته الجديدة الى خطر داهم . ولم يكن امامه شىء يفعله غير تركها ويتوجه رأسا وبسرعة الى بابل . وعلى ذلك تقوضت امبراطوريته الجديدة الغربية والتى كان يعقد عليها امالا كبيرة بدون نضال .

ولم يجد نابونيدوس حينما عاد الى بابل فرصة للراحة . فقد تعرضت البلاد الى مجاعة ، وقام أصحاب القطر البحرى على طول ساحل الخليج العربى بثورة ، واضحت جيوش كورش فى ديالى ، على اهبة حملة فاصلة . وقد كان امل البابليين الوحيد هو الحماية داخل الحائط المحصن الذىاقامه نبوخذ نصر والميديون من سيپار وپيس Opis وهناك انتظر نابونيدوس لقتال الفرس . وفى مارس عام٥٣٩ أقيم الاحتفال بعيد راس السنة لاول مرة فى سنوات بعيدة ، ولكن كان كورش قد هجم على الحصن الميدى . وقد استدعى الى بابل على وجه السرعة الالهة المحيطة بالمدن للرعاية والحماية ، ولكن دعاة كورش كانوا منتشرين فى مدن عدة ، ورفضوا ان يرسلوا الهتهم . ولما كان الهجوم مستمرا ، نما اليأس ، ولما كانت وپيس على وشك السقوط ، قامت ثورة عقيمة فىبابل وقد قضى على تلك الثورة نابونيدوس ، ولكن كلفه ذلك جهودا كان هو فى حاجة اليها . لقد استولى الفرس على وپيس وتقدمت وحدات الجيش الفارسى عبر الحائط الميدى ولم تواجهها أية مقاومة . وتقدم كورش الى سيپار . وعاد الى العاصمة جوبيراس Gobyras محافظ جوسيوم الذى كان قد هاجر الى پرسيا منذ عشر سنوات وسقطت سيپار فى ١١ أكتوبر وبعد ذلك بيومين ودخل جوبيراس والجوتيون من رجاله الى بابل . وعلى ذلك سقطت الامبراطورية التى انشأها نبوخذ نصر على أيدى أحد ضباطه .

ولم يكن نابونيدوس فى العاصمة حينما سقطت . ولما سمع أن سيپار قد استسلمت ، قام بمحاولة يائسة فهرب الى الجنوب الغربى متجها الى الصحراء حيث كان يحاول انشاء عاصمة جديدة . ولكن قطع عليه البدو الرحل الذين كانوا من احلاف كورش الطريق واجبروه على العودة الى بابل ، حيث أسر ، وغالبا انه قتل بأيدى الجوتيين .

دخل كورش بابل فى ١٣ اكتوبر عام ٥٣٩ بدون قتال ، وعين Gobyras ستراپا على الاقليم الجديد Babirush ، وقد اعلن كورش مايلى « اننى كورش ، ملك العالم ، الملك العظيم ، الملك القوى ، ملك بابل ملك سومر واكد .. »

وقد اعاد تماثيل الالهة الى أمكنتها فى دور العبادة ، كما امر بترميم ما يحتاج الامر الى ترميمه من تلك الدور . كما أعاد تماثيل الهة سوسه الى عيلام ، والهة اشور الى العاصمة القديمة وكذلك بقية الالهة الاخرى الى دور العبادة فى مختلف المدن الواقعة بين اشور وبابل .. وقد حياه اليهود الذين كانوا فى السبى .

كل ذلك كان لونا من الوان الدعاية ليكسب ود اهل الرافدين وقد خضعت له جميع بلاد الرافدين .

قيام كورش باعادة اليهود من السبى

حينما دخل كورش بابل كان بهـا جالية يهـودية هى التى أسرها نبوخذنصر ، وليس من شك أن هؤلاء اليهود قد عاونوا الفرس على فتح بابل من أجل ذلك كافأهم باعادتهم الى فلسطين . فأصدر امرا بذلك كما جاء فى (عزرا ٦ : ٣ ـ ٥) واعتبر اليهـود كورش مخلصـا أرسله الله لينقذهم من الذلة والمهانة التى كانوا فيها (اشعيا ٤٤ : ٢٨ ، ٤٥ : ١) .

أما عن الاعداد التى سباها نبوخذنصر ، فلا يمكن تحديدها بالضبط ، فقد قيل انها بلغت حوالى ٥٨٠٠٠ نسمة ، وان الذين منحوا حق الهجرة الى فلسطين من اليهود فى هذه الايام حوالى ٤٢٣٦٠ كما ذكر عذرا ونحميا (عزرا ٢ : ٦٤ ، نحميا ٧ : ٦٦) .

وقد جاء فى المزمور ١٣٧ فى هذاالشأن ما يلى :

١ ـ على انهار بابل هناك جلسنا ـ بكينا ايضا عندما تذكرنا صهيون .
٢ ـ على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا .
٣ ـ لانه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحين قائلين رنموا لنا من ترنيمات صهيون .
٤ ـ كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة .
٥ ـ ان نسيتك يا أورشليم تنس يمينى .
٦ ـ ليلتصق لسانى بحنكى ان لم أذكرك ان لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى .
٧ ـ يابنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا .
٨ ـ طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة .

على أن بعض اليهود الاغنياء المسبيين آثروا البقاء فى بابل ، وقد وجد ذلك فى الوثائق التجارية الخاصة بتلك الفترة . وكان مركزهم الرئيسى على نهـر الخابور (حزقيال ١ : ١ ، ٣ ـ ٣ : ٣ ، ٢٣) . وعرفت هـذه الجماعة تحت اسم الدياسپورا Diaspora اى الجمـاعة التى أقامت خارج فلسطين .

وفى تلك المناسبة أود أن أشير الى ان كلمة يهودى نسبة الى احـد أفراد مملكة يهودا . ثم سمى بها كل فرد من هؤلاء الذين رجعـوا من السبى . ثم أطلقت بعد ذلك على أفراد هذاالشعب المشردين فى جميع

أنحاء المعمورة . أما اسرائيل فهى نسبة الى اسرائيل . واعتقد أن كلمة عبرى أو عبرانى هى التعبير الدقيق لهذه الجماعات .

عاد هؤلاء اليهود تحت زعامة زرو بابل Zero babel (متى ١٢ : ١٢ ، نحميا ١٢ : ١ ــ ٩) (وهو مشتق من الاكدية زرو ــ بابيلى Zeru-babili بمعنى « ذرية بابل » ويطلق عليه أيضا « شش بازار "Shesh-bazzar عزرا ١ : ٨ و١١ ، ٥ : ١٤) وحينما عاد زروبابل وفى ركابه كنوز الهيكل التى كان قد اخذها من قبل نبوخذنصر عين حاكما على تلك الجماعة لفترة من الزمن . وقد عمل داريوس على اعادة بناء هيكل اليهود على نفقته ، وتم ذلك عام ٥١٥ ق.م.

واستمر سيل هجرة المسبيين من بابل الى فلسطين أيام ارتكسركسس (٤٦٤ ــ ٤٢٤) ومن هؤلاء فريقان أحدهما برئاسة نحميا والآخر برئاسة عزرا . ووصل الاول حوالى عام ٤٤٤ ق.م. وقد أعاد بناء أسوار مدينة أورشليم ومن الذين عارضوه فى هذا العمل أحد الزعماء العرب وهو جشمو Gashmu الذى يحتمل أن يكون من أصل عربى يرجع الى قبيلة ثمود (أو التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم تحت اسم ثمود) التى كانت تقيم فى فلسطين . وقد ظل نحميا يعيش تحت حماية الفرس بين عامى ٤٤٤ ــ ٤٣٢ . وبذلك تمتع اليهود أيام زرو بابل ونحميا بحكم ذاتى . ولكن لم تستخدم اللغة العبرية الا فى الامور الدينية واستخدم اليهود الارامية لغة رسمية .

الفرس فى فينيقية

اعتمد الفرس على الاسطول الفينيقى فى حربهم مع اليونان ، وقد رحب الفينيقيون بذلك لانهم ارادوا أن يقضوا على منافسيهم فقدموا لاكسركسس ٢٠٧ سفينة وقام الفينيقيون بحفر قناة عبر البرزخ حول جبل آتوس . لكن حطم الاسطول فى معركة سلاميس عام ٤٨٠ (١) .

وقع داريوس فى حرب مع اليونان وهزم جيشه فى معركة مراثون عام ٤٩٠ . وقد عمل اليونان على القضاء على استبداد الفرس فى آسية الصغرى وقد مجد الشعراء والكتاب اليونان شهداء حرب الحرية ورفعوهم الى مصاف الابطال . ويعد النزاع الذى قام بين الفرس واليونان هو المرحلة الاولى فى الصراع بين الشرق والغرب والذى سنسمع عنه بعد ذلك بقليل ويستمر حتى أيامنا هذه .

(١) Herodotus, Book VIII, chs. 86. 89-90, 96.

سمح الفرس لارواد وجبيل وصيدا وصور بالحكم الذاتي (كانت سورية وفلسطين وقبرس المرزبانة التي كانت تسمى مرزبانة « عبر نهرا » ومعناها « عبر النهر » الفرات ـ سفر عزرا ٦ : ٦ ، ٨ ، ١٣) . وتشكل كل من هذه المدن الاربع دويلة صغيرة . وحدث في القرن الرابع أن اتحدت تلك الدويلات الاربع الفينيقية وجعلت طرابلس مركزا لادارة مؤسساتها الاتحادية . واتحدت طرابلس التي كانت تتكون من ثلاثة مراكز لممثلي صور وصيدا وارواد تحت اسم « أثار » وذلك في السنة الاولى من حكم ارتكسركسس الثالث اوخس (٣٥٨ — ٣٣٨) ، اذ جاء ذلك مسجلا على أحد العملة المؤرخة من عام ١٨٩ — ١٨٨ ق.م. واطلق عليها اليونان تريپوليس Tripolis وهي تصحيح للكلمة العربية طرابلس . وقد ذكر ديودور الصقلي(Diodorus, Book XVI, ch. 41) انها كانت عاصمة الفينيقيين في هذه الفترة اذ كان يعقد فيها المجلس العام الفينيقي الذي يشترك فيه ما يقرب من ثلثمائة ممثل .

ثار الفينيقيون من أهل القسم الصيداوي من طرابلس على أرتكسركسس عام ٣٥١ على الفرس ، واندلع لهيب الثورة في كل انحاء فينيقية وأعانت مصر الثوار الفينيقيين ضد المغتصبين الفرس أيام ملك صيدا تينس Tennes . وقام الصيداويون بقطع اشجار حديقة الملك واشعلوا النيران في حظائر خيل الفرس . واستعانوا بجنود مرتزقة وغيرها من عتاد الحرب . وسار ارتكسركسس من بابل بجيش كبير ، بلغ مشاته ، كما ذكر ديودور ٣٠٠,٠٠٠ وفرسانه ٣٠,٠٠٠ . وفي تلك الاثناء قام الفينيقيون بطرد حكام الفرس من تسع مدن فينيقية . ولما اصبح ارتكسركسس قاب قوسين أو أدنى من صيدا هرب مليكها تنيس . غير أن الصيداويين لم يستسلموا . وقاموا بحرق السفن الموجودة في الميناء واعتصموا بمنازلهم حتى أكلتها النيران فاحترقت وحرق من فيها . وبذلك فضلوا الموت احرارا على البقاء عبيدا للفرس . وقيل أن أكثر من اربعين ألف نسمة من هؤلاء الاحرار قد أكلته النيران ، وقليل هم الذين عاشوا ونقلوا الى بابل . وبذلك دمرت مدينة صيدا للمرة الثانية اذ كان أسرحدون هو أول من دمرها عام ٦٧٧ .

* * *

العودة الى الحديث عن كورش

بعد أن وصل كورش الى بابل في التاسع والعشرين من اكتوبر سنة ٥٣٩ كان حريصا على أن يحافظ على الفكرة الطيبة التي أوجدها بين البابليين عنه . فمنح البابليين رضاه وبدأ على الفور تعويضهم عن

الاضرار التى لحقت بهم على أيدى نابونيدوس . فقام بترميم ما هدم من دور العبادة ، والغى أعمال السخرة التى كان قد فرضها نابونيدوس ، وعاد الكهنة والمواطنون الى تأدية العبادات القديمة التى كانت سائدة قبل أيامه . وبدأ فى الوقت نفسه حملة منتظمة كان هدفها تصوير ذكريات العهد الغابر تصويرا مظلما . فاصدر بيانا مطولا يبين فيه بالتفصيل اعمال نابونيدوس السيئة واهانته الالهة ، وما كان من التجاء الاله مردوك فى حالة يائسة الى كورش العادل لينقذ بلاده من الكارثة . وفى رواية اخرى، كتبت بأسلوب شعرى حتى يتمكن الناس من تذكرها فى سهولة ويسر ، كانت موجهة غالبا الى هؤلاء الذين لا يستطيعون قراءة الاوامر الملكية . وقد انتشر فى جميع انحاء البلاد أن الالهة قد أرسلت كورش ليحررها ونظمت حملة من الدعاية فى الاقاليم لتفصيل ذلك واثباته . ولقد أعلن كورش على البابليين أن الاله مردوك هو الذى وهبه النصر ، واعلن ايضا على مواطنى أور أن الههم سين هو الذى اضاء له الطريق ، بينما اعتبر اليهود أن الاله يهوه هو الذى منحه الظفر والغلبة . وقد محا كل آثار نابونيدوس من دور العبادة والمدن . فشوهت النصوص وأحرقت التماثيل، ولم يبق شيء فيها يذكر البابليين بمليكهم السابق .

ولقد استطاع كورش أن يجنى ثمار سياسته التى اتخذها تجاه رعاياه الجدد . فجاءه الملوك وهو فى بابل من جميع الانحاء ، من الخليج العربى الى البحر المتوسط يحملون الجزية التى فرضت عليهم ويقبلون أقدامه . وقد انتشر فى جميع انحاء البلاد زوال عهد الظلم والفساد . وكان كلما احس ببقاء أى آثار لنابونيدوس قام على الفور بمحوها . وأعاد بناء دور العبادة فى الاقاليم البعيدة . وقد كلف جوبيراس فى بابل بالادارة ، وغالبا انه لم يكن هو محافظ غوسيوم الذى مات بعد أيام قليلة من دخول كورش المدينة . ولقد أبقى على معظم الموظفين البابليين فى وظائفهم ، وبقدر الامكان لم يغير شيئا مما لم يكن متصلا اتصالا مباشرا بحكومة نابونيدوس الفاسدة . حتى أنه لما ماتت زوج الملك السابق فى نوفمبر عام ٥٣٩ أعلن الحداد رسميا لمدة أربعة شهور .

ولم تتغير حياة البابليين الخاصة حينما تغيرت الاسرة الحاكمة . وبعد سقوط نابونيدوس بأيام قليلة ارخت الوثائق بالسنة التى اعتلى فيها كورش العرش ، وتشير هذه الوثائق الى عدم توقف النشاط التجارى . وقد استمرت العائلات التجارية والمؤسسات فى الازدهار وراجت السوق البابلية كما كانت من قبل . ولم يحدث تغيير الا فى بعض الوظائف الكبرى . وبقى كورش نفسه فى المدينة اثناء شتاء عام ٥٣٩ — ٥٣٨ ليهيمن على ولايته الجديدة ، وحينما عاد الى اكباتانا فى

بداية الربيــع ، ترك على بابل ولده قمبيز ممثــلا له . واقام فى مارس عام ٥٣٨ باحتفالات رأس السنة الجديدة ، وقد تلقى موافقة الاله على انتحال والده لقب « ملك بابل » . وعاش السنوات الثمان التاليــة فى سيپار ، مركزا جهده فى الوتيرية الادارية ، وتأدية الطقوس الدينية . واستمر جوبيراس فى بابل كستراب أو حاكم على ولاية « بابل والاراضى عبر النهر » وهذه الاخيرة تشمل سورية ، وفينيقية ، وفلسطين . ومعنى ذلك انه أصبح ملكا على مساحة واسعة ، ولكنها كانت ملكية محدودة . ولو انه كان مشرفا على الادارة المدنية والتشريعية لولايته وكان له حق التجنيد فى داخل هذه الولاية ، فقد كان لايتمتع باستقلال تام حتى أن كاتم سره ، والامين على المال ، وقائد الحامية فى عاصمته مسئول مباشرة امام الملك . والى جانب ذلك ، كان للملك موظف يسمى « عين الملك » يقــوم كل عام بزيارته ، وهو فى الواقع مفتش ملكى كان يعمل استعلامات كاملة عن حالة كل ولاية .

وكانت الحالة هادئة أيام حكم كورش . وفى بداية عام ٥٣٠ قرر الملك العظيم القيام بحملة ضد ماساجتاى Massagetae على أقصى حدوده الشمالية الشرقية . وعلى حسب العرف الذى كان سائدا فى فارس قام بتعيين خليفة له قبل مغادرة البلاد ، فاعترف بقمبيز ملكا على بابل ، ونائبا عن الملك فى الامبراطورية . ولما قتل كورش فى معركة فى صيف عام ٥٣٠ تولى العرش بعده قمبيز على كل الاملاك الفارسية . وقد كان من أثر ذلك أن حدث تغيير طفيف فى بابل ، حيث كان الملك الجديد مقيما فيها منذ عام ٥٣٨ ، واستمر جوبيراس فى وظيفة ستراب .

* * *

قمبيز

توجه قمبيز الى الغرب لغزو مصر ، وقد استطاع الفرس من قبل الاستيلاء على آسية الصغرى ، واستمالوا بعض المرتزقة اليونان من الذين كانوا يعملون فى الجيش المصرى ...

لقد استطاع الفرس ان يستولوا على آسيا الصغرى ، واستمالوا بعض المرتزقة اليونان من الذين كانوا يعملون فى الجيش المصرى ، فهذا احدهم واسمه Phanes of Halicarnassus يختلف مع آمازيس وبترك الخدمة فى الجيش المصرى ليلتحق بخدمة قمبيز ، وقد كان لذلك اثره السىء نحو مصر اذ نقل هذا الجندى المرتزق كل اخبار الجيش المصرى لقمبيز مما كان له اثره فى التعجيل بالانتصار على المصريين .

تقدمت القوات الفارسية ، وكانت تستخدم ايضا جنودا مرتزقة من اليونان كالمصريين تماما ، والتقت الجيوش عند بلوزيوم Pelusium وانتصر الجيش الفارسى . وقد ذكر هيردوت الذى جاء بعد ذلك التاريخ بحوالى قرنين من الزمان ، انه شاهد عظام بعض جثث الموتى الذين قتلوا فى هذه المعركة . وقد مهد قبطان البحر Udjaharresne اوجا حار رسن السبيل للاستيلاء على المدينة الاستراتيجية سايس ، وبذلك غدر بالجيش المصرى . ثم حوصرت هليوبوليس حتى سلمت ، وفر بسماتيك ليعتصم بمنف ، ولكن استولى عليها قمبيز . وقد ذكر هيردوت وغيره انه عامل بسماتيك معاملة طيبة فى أول الامر ، ولكن اتهم بعد ذلك بتدبير مؤامرة ، فاخذ بالصارم العنيف ومات .

ولقد استمر النشاط التجارى لليونانيين فى نوقراطيس ولكنها كانت تحت رحمة قمبيز ، ولكنه فشل ، لان الفينيقيين رفضوا محاربة اهلهم اذ تجرى فى عروق القرطاجنيين الدماء الفينيقية .

ركب قمبيز بعد ذلك النيل فوصل طيبة ، ومنها استطاع عبر الصحراء ان يصل الى الواحة الخارجة . ولكنه لم يستطع الاستيلاء على واحة آمون (سيوه) . وقد ارسل رجالا من القنتين يتجسسوا له من الاثيوبيين ، الذين كانوا قد بنوا مملكة حول نباتا ، وقد تأثرت هذه المملكة

بالثقافة المصرية . وقد ملئت تقارير هؤلاء الجواسيس بالاعاجيب . فقد ذكر هؤلاء أن الاثيوبيين غالبا يعمرون طويلا ، اذ تبلغ اعمارهم ١٢٠ سنة وبعضهم أيضا يتجاوز هذا السن . وكانوا يأكلون اللحم المشوى ، ويشربون اللبن بكثرة . وكان يضع فى المساء رؤساء العاصمة لحوما مشوية فى مرج من المروج التى تقع خارج المدينة ، ليأكلها اى شخص فى اليوم التالى . وكان ملكهم اطول قامة من أى رجل من رجال تلك المملكة . ومن الاخبار العجيبة عن تلك المملكة والتى جاءت فى كتابة المؤرخين الاقدمين ، أنه حتى الاسرى كانوا يوثقون فى أغلال من ذهب ، ولكن كان البرونز نادرا وقيما ، وكانت تصنع توابيت الموتى من الزجاج ، فيرى خلالها جثث الموتى ، وكان يحتفظ بهم فى المنزل مدة عام ، وتقدم طوال هذه المدة القرابين من أجلهم ثم تقام لهم قبور حول المدينة . وقد وصل قمبيز ــ كما ذكر المؤرخون الاقدمون ــ الى حدود اثيوبيا (السودان الحالى فى ذلك الوقت) ولكنه فشل فى الاستيلاء عليها . وقد أصبحت مصر بعد ذلك مرزبانة (مقاطعة) من المقاطعات الفارسية ، وكانت تسمى Mudraya ، وعاصمتها ممفيس واستمرت الحاميات تحمى الحدود ، فى دفنه بشرق الدلتا ، وفى ممفيس والفنتين حيث كانت تقيم أعداد كبيرة من المرتزقة اليهود .

جاء فى أخبار هيردوت عن قمبيز أنه كان جبارا قاسيا ملحدا ، وانه قام بقتل العجل أبيس . وهذا الخبر الذى ذكره هيردوت لا يعتمد على الحقيقة . ففى السنة السادسة (عام ٥٢٤) حينما كان قمبيز فى حملته الى اثيوبيا ، مات العجل المقدس . وولد العجل أبيس التالى فى السنة الخامسة من حكم قمبيز ، وعاش حتى السنة الرابعة من حكم داريوس . وعلى أحد التوابيت التى كشفت فى السرابيوم الخاص بعجول أبيس بممفيس وجد نقش على غطاء هذا التابوت المصنوع من الجرانيت الاشهب النص التالى « حورس ، سماتوى ، ملك مصر العليا والسفلى ، مس توى رع Mestiu-re' ، ابن رع ، قمبيز ، ليته يعيش الى الابد ، صنع لوالده أبيس أوزوريس ، تابوتا كبيرا من الجرانيت ، الذى كرسه من أجله ملك مصر العليا والسفلى ، مس توى رع ، ابن رع ، قمبيز Cambyses مانح الحياة كلها ، والثبات كله ، والنجاح كله ، والعافية كلها ، والسعادة كلها ، وقد توج ملكا على مصر العليا والسفلى الى الابد » . وهذا النص صورة طبق الاصل مما كان يتبع فى مصر نحو هذا العجل المقدس من جانب فراعنة مصر السابقين .

وقد مثل قمبيز على اللوحة على طريقة الفراعنة ، فقد حليت جبهته بالصل وقد خر راكعا امام عجل أبيس . وقد حدثنا النص المنقوش على اللوحة كيف جيء بمومياء العجل فى مقرها الاخير الذى اعده له ملك مصر

العليا والسفلى سليل رع ، وذلك بعد القيام بجميع المراسيم الخاصة بتحنيط العجل وكلف بعض الناس بتجهيز الاقمشة الخاصة بكفنه ، وآخرون أحضروا تمائم ، وكل الاشياء القيمة من أجل مومياء العجل أبيس . كل ذلك قد تم بأوامر صادرة من قمبيز . وفى السنة السادسة من حكم قمبيز ، قام حاكم قفط الفارسى Atiyawahy بالاشراف على بعثة الى الصحراء الشرقية فى محاجر وادى الحمامات وذلك لقطع حجارة من أجل ترميم بعض دور العبادة .

لقد عمل قبطان الاسطول الملكى أوجا حار رسن على اظهار عظمة مدينة سايس ، مقر الألهة العظيمة نيث Neith . وقد شكى لجلالته من اقامة الاجانب فى معبد الالهة نيث ، وأصدر جلالته الاوامر باخلاء المعبد منهم . كما أمر جلالته بهدم منازل المرتزقة من جيوش اليونان ، وتطهير المعبد ، واعادة كل عبيده ، وتجديد أعيادها وحفلاتها ، وكذلك الالهة الاخرى كما كانت من قبل .وزار قمبيز بنفسه سايس ، ودخل المعبد ، وصلى للالهة نيث ، وقدم القرابين كما كان يقدم كل الملوك .

لم يكن حظ المعابد الاخرى كحظ معبد سايس . فقد نقصت القرابين التى كانت تقدم الى هذه المعابد أيام امازيس الى النصف . وربما دفع ذلك بعض الناس الى اعتبار أن قمبيز كان قاسيا لانه لم يهتم ببقية دور العبادة الاخرى . وقد جاء فى بعض أوراق البردى الارامى أن اليهود فى الفنتين ، بعد هذا التاريخ بحوالى قرن من الزمان كانوا يتفاخرون بعدم مساس معابدهم بينما هدمت دور العبادة الاخرى فى حملة قمبيز على مصر .

أما عن حالة البلاد العامة فى فترة احتلال الفرس هذه ، فقد وصل الى أيدينا بعض أوراق من البردى كتبت بالديموطية من اقليم أسيوط ، (والذى سمى بعد ذلك اقليم Lycopolis) منها ما يشير الى أنه فى السنة الثامنة من حكم قمبيز استمر اتفاق اثنين من الاشخاص وكانا أولاد عم ، على التنظيم الخاص بأملاكهما التى وزعت من قبل على آبائهما أيام حكم امازيس . وبالاضافة الى ذلك ، وفيما يختص بالعقار الثابت ، وحق استخدام المياه ، فقد كانت هناك اشارات على أن بعض هذه الدخول كانت تقدم الى رئيس كهان هذا الاقليم ، للانفاق منها على كهنة معبد رب الاقليم وقد كشف عن بردى فى أسيوط يحدثنا عن قوائم شهرية من النبيذ والزيت كانت تقدم الى رئيس الكهنة والى حاكم الاقليم .

والى القارىء الكريم طرف مما جاء على تمثال على هيئة ناووس محفوظ بمتحف الفاتيكان لقائد السفن السابق الاشارة اليه اوجا حار رسن .

« جاء الى مصر الرئيس العظيم لكل أرض أجنبية قمبيز ، كان معه الاجانب من كل قطر . ولما وضع فى ملكه كل هذه الارض ، نزلوا هنـاك ليصبح الحاكم العظيم لمصر والرئيس العظيم لكل أرض أجنبية . عيننى جلالته رئيس أطباء ، وعمـل على أن أكون بجواره كرفيق ومدير للقصر ، وقد لقب مثـل ملك مصر العليا والسفلى ، مس توى رع 'Mestiu-re' واجتهدت فى أن أعرفه عظمة سايس التى كانت مركزا لـ (نيث) العظيمة الام التى انجبت رع ، والتى كانت تعتبر فاتحة الولادة .. » .

وينتهى النص بذكر معبد نيث وبعض المقاصير التى كانت فى العاصمة سايس ، ثم ينتقل النص فى التحدث عن شىء آخر ، اذ يقول اوچا حار رسن :

« قدمت ملتمسا الى جلالته ملك مصر العليا والسفلى قمبيز يتضمن (ثبتا) بجميع الاجانب الذين سكنوا معبد نيث ، ليرحلوا من هناك ، وأن يعود معبد نيث الى عظمته الكاملة كما كان فى الزمن الماضى . وامر جلالته بطرد الاجانب الذين اقاموا فى معبد نيث ، وهدم منازلهم جميعا ، وكذلك كل ما زاد عن حاجتهم ، ونقل كل امتعتهم خارج حائط هذا المعبد . وامر جلالته أن يطهر معبد نيث ويوضع فيه كل رجاله ، ومعهم كهنة المعبد . وامر جلالته بضرورة أعطاء الدخول الى نيث العظيمة ، أم الالهة ، والى آلهة سايس الكبرى (المعروفة) من قديم الزمان . وامر جلالته أن تقام أعيادهم ومواكبهم كما كان يتم عملها قديما . وما فعل جلالته ذلك الا لاننى عملت على تعريف جلالته بعظمة سايس ، انها مدينة كل الالهة ، انهم يستون على عروشهم الى الابد » .

واضح من النص ان أوچا حار رسن يتباهى بالتأثير على قمبيز لحماية الهة مدينة سايس وخصوصا آلالهة نيث ، وبالرغم بما فى اسلوبه هذا من المبالغة الا انه وفاء منه نحو وطنه لا يجوز لاحد أن ينكره له ، خصوصا أن حديثه كان موجها الى ملك منتصر من دولة لا تدين ديانة المصريين القدماء . ومن ناحية اخرى ، ليس من شك فى أن قمبيز نفسه كان مقتنعا بوجهة نظر أوچا حار رسن ، فحما دور العبادة المصرية كما راينا وقد استطرد أوچا حار رسن فى حديثه ذاكرا أن قمبيز خر ساجدا أمام آلهة مصر ، كما كان يفعل كل ملك من قبل ، واقام لها حفلا كبيرا . كل ذلك يتعارض مع ما ورد فى حديث هيردوت فى هذا الشأن خاصا بقمبيز كذلك يتعارض مع الوثيقة اليهودية المؤرخة بعام ٤٠٧ ق.م والتى تتحدث عن « هدم كل معابد الالهة المصرية » .

وليس غريبا عدم استطراد اوجا حار رسن فى تفصيل كيفية فتح مصر على يد قمبيز ، فالمصريون لا يحبون دائما أن يسهبوا فى الحديث من هزيمتهم ، اذ نجده يشير الى تلك المحنة اشارة خاطفة ، على حد تعبيره « وقوع كل أرض مصر فى محنة كبرى » .

وفى أثناء فترة غياب قمبيز فى حملته على مصر ، كانت توجد اضطرابات كثيرة فى البلاد . ففى مارس ٥٢٢ نادى بارديا Bardiya شقيق قمبيز الذى كان قد تركه مشرفا على ميديا وأرمينيا وكابدوسيا بنفسه ملكا . وقد تمكن فى منتصف ابريل من السيطرة على بابل ، وفى يولية تم الاعتراف به فى جميع انحاء الامبراطورية . وقد ذعر قمبيز حينما سمع ذلك الخبر فى اثناء عودته من حملة مصر مات كمدا . وتاريخ هذه الفترة قاتم ومعقد وخصوصا لاننا نعتمد اعتمادا كبيرا على داريوس ، وقد تشابه بكورش فى نشر حملة من الدعاية كبيرة اخفت كثيرا من الحقائق التاريخية .

ذكر هيردوت (Herod. 166) ان قمبيز قد ترك على مصر أحد اقربائه حاكما (Satrap) ، وهو أرياندس Aryandes . كما ذكر ايضا (ibid. III 62 ff) انه فى اثناء عودة قمبيز الى بلاده ، تلقى خبرا وهو فى اكبتانا Acbatana بالقرب من جبل كرمل ، ان بارديا Bardiya اخاه قد اغتصب العرش وغالبا ما قتل قمبيز فى هذا المكان . وأعلن فى أول يولية عام ٥٢٢ ق.م بارديا امبراطورا على كل البلاد حتى الخاضعة لفارس . ولكن لم يستمر على العرش طويلا ، وادعى العرش Gaumata الذى اغتاله داريوس Darius فى ٢٩ سبتمبر عام ٥٢٢ عند بلده تسمى Sikayauvatish

* * *

داريوس الاول

بعد وفاة برديا فكرت حكومات الولايات فى تعيين داريوس امبراطورا على عرش الفرس . وما من شك أن بابل رفضت ذلك . وبمجــرد أن وصلت الانباء الى المدينة عن اغتيال برديا ، اندلعت الثورة فى (٣ اكتوبر عام ٥٢٢) على يد نبوخذنصر الثالث بن نابونيدوس . واذا صدقنا رواية داريوس ، سيصبح محرك الثورة هو نيدينتو ــ بل Nidintu-Bel بن اينايرا Ainaira المدعى أنه نبوخذنصر بن نابونيدوس . وانتظر البابليون بجيشهم على طول دجلة ، وكانوا يعتقدون أنه لا يمكن خوضه، ولكن عبرت عساكر داريوس دجلة ، وكانوا يعتقدون انه لا يمكن خوضه ، فى معركة مكشوفة على الارض . وتقدم الفرس نحــو بابل وتقابلوا مــع نبوخذ نصر ومعه بقية من جيشــه عند مدينة زازانا الواقعة على شاطىء الفرات . وكان مصير القوات البابلية الغرق فى ماء الفرات ، وفر ملكهم الى العاصمة حيث قبض عليه داريوس وقتله . ومنذ أواخر ديسمبر عام ٥٢٢ قضى على استقلال بابل تماما .

وقد شغل داريوس بعد ذلك فى اخماد الثورات التى اندلعت فى جميع انحاء الإمبراطورية ، وقد كان داريوس قادرا على القضاء على كل ثورة اقليم على انفراد . وفى سبتمبر عام ٥٢١ كانت معظم الولايات الشرقية تحت يده ، ولكن لما كان قاب قوسين أو أدنى من النصر ، جاءته الانباء عن ثورة أخرى فى بابل . وكان المحرك لها غالبا هو نبوخذ نصر الرابع ابن نابونيدوس ، ولو انه غير معروف تماما نسبته ، وربما كان قائد الثورة أرمينيا يسمى أرخا Arkha بن هالديتا Haldita حسب رواية داريوس . وقد بدأت الثورة فى قرية بسيطة هى دوبالا Dubla ، على بعد قريب من جنوبى بابل ، وانتشرت بسرعة فى جميع مدن المنطقة . وفى نهاية سبتمبر عام ٥٢١ احتل الثوار مدينة بابل وأعلن الثائر نفسه ملكا . والظاهر أن داريوس لم يهتم بأمر هذه الثورة لانه لم يشترك بنفسه فى اخمادها بل أرسل جيشا تحت اشراف القائد انتافرنس Intaphernes وقد استطاعت هذه القوة القضاء عليها بسرعة . وقبل نهاية نوفمبر أعدم نبوخذنصر الرابع واتباعــه على الخوازيق ، ونهبت القبور الملكية فى المدينة وهدم الكثير من حصونها . ولم نسمع عن الستراب جوبيراس ، ولكن غالبا انه قتل فى هذه الثورة ، وعين بدله هيستانس Hystanes حاكمــا .

وكان يرغب داريوس حينما يستقر السلام فى جميع أنحاء الامبراطورية عدم امكان اعادة الفوضى مرة أخرى . ولقد انتشر نظام السترابية ، وظهر شعور وطنى نحو الحفاظ على هذا النظام واحترامه أكثر من أيام كورش وقمبيز . وفى الوقت نفسه رسمت خطة لتوحيد القانون فى الامبراطورية كلها ، وزيد بالتدريج عدد المشرعين الفرس والاداريين فى المناصب الكبرى . كما عنى بانشاء شبكة من الطرق كبيرة تصل امهات المدن ، ولو أن هذا كان الفرض منها فى أول الأمر ليستخدمها اتباع الملك وحملة كتبه ورسائله الى المدن ، ولكن الى جانب ذلك كانت تسير عليها قوافل التجارة ويتم فوقها تحركات القوات المسلحة . ولم تتوقف التجارة مع بابل نتيجة لهذه الاضطرابات الجديدة . وقد عملت الحكومة على رفع الستراب هيستانس بفرض الضرائبه وقيادة فرق من رجال جيشه فى حروب الملك ، وقد كان داريوس يستريح فترة الشتاء فى قصر نبوخذنصر وطبقا للقانون الفارسى كان يعين حالة خروجه للحرب خليفة له . وفى أول الامر كان ولده البكر أرتوبازانس Artobaznas يشغل هذه الوظيفة ولكن اعفى هذا مؤخرا وحل محله ابنه الاصغر اكسركسس Xerxes وقد سار داريوس على نهج كورش بأن جعل ولده ممثله الشخصى فى بابل .

وقام بين عام ٤٩٨ وعام ٤٩٦ ببناء قصر جديد الى الغرب من قلعة نبوخذنصر الجنوبية ببابل وأقام فيها أكسركسس . وكان عبارة عن ردهة كبيرة من الاعمدة وامامها أروقة وقد احيطت جوانبها بأبراج مربعة . وقد غطيت ارضية القصر بألوان حمراء ، بينما كانت قواعد العمد من الحجر الجيرى الاسود ، بينما زخرفت الحوائط بالاجر المصقول مثل الذى كان مستخدما فى قصر نبوخذنصر . وكثير من الرسوم كانت تمثل حيوانات مختلفة ، وجدير بالذكر أن هذا غالبا هو المكان الذى قام بوصفه Ctesias على أنه من عمل سميرامس . وكان يقوم اكسركسس فى هذه الردهة بتصريف الاعمال الوثيرية الخاصة ببابل ، وأصدر منه عام ٤٨٦ مرسوما يقضى بفرض ضرائب للصرف منها على الحروب التى قام بها ضد اليونان (وسنفصل ذلك فيما بعد) .

غزو الفرس لآسيا اليونانية

حفظت مملكة ليديا فى آسية الصغرى اليونان من تقدم الامبراطورية الاشورية ، حفظتها ايضا مدة حوالى ٦٠ سنة من الوقوع فى صدام مع امبراطورية ميديا . ولما اكتسحت ليديا وزالت حدودها ، واجه اليونان امبراطورية ناشئة .

وفى بداية الغزوة ضد ليديا ، دعا كورش الايونيين الذين يعملون فى جيش Croesus صاحب ليديا لزيارته . لكنهم رفضوا ، فغضب كورش ، وبعد ان سقطت ساردیس Sardis ، وطلبت المدن اليونانية مفاتحة الغازى ، رفض أية شروط . ولم يتعاقد مع احد الا اهل Miletus الذين لم يكونوا موالين لليديين . وبدأ الاخرون يدافعون عن أنفسهم . ولما كان لدى كورش مشروعات اخرى دعته الى التوجه نحو الشرق ، ترك مهمة العمل فى آسية الصغرى لاحد قواده .

وقد كان لعدم اتحاد يونان آسية الصغرى ان وقعوا غنيمة للفرس . ففرض عليهم Harpagus ضرائب باهظة . وقد حاول اليونان فى آسية الصغرى Ionians Aeolians طلب المعونة من اسبرطة .

وبعد أن سقطت بابل فى يد كورش كما سبق الاشارة الى ذلك ، وامتدت حدوده الى ارمينيا ، وهيركانيا Hyrcania ، وبارثيا Parthia وباكتريا Bactria ، ووسط افغانستان . كانت آخر منطقة يخضعها شعب Massagetsc ، وهم من الشعوب السكيثية بالقرب من بحر ارال ، وجاء فى بعض الروايات أنه قتل فى معركة دارت بينه وبينهم ، وان مليكتهم قد وضعت رأسه فى حوض من الدماء . وكل ما وصل الينا من معارف مؤكدة ان جثته قد دفنت فى پرسيا Persia .

داريوس وخضوع ايونيا

اهتم داريوس بتنظيم ادارة مستعمراته . فوسع نظام الستراپيات وقسمت المملكة الى عشرين ستراپية . فالى الغرب من نهر الهاليس ، كانت تتكون مملكة ليديا القديمة من ثلاث مقاطعات ، ولكنها خاضعة لستراپيين: فالايونية والليدية كانت تحت حكم حاكم واحد يقيم فى ساردس ، والفريجية Phrygian التى كانت تضم مدن Propontis تحت حكم حاكم يقيم فى Dascylion داسكيلون . ولم يتدخل هؤلاء الحكام (Satraps) فى الشئون الداخلية للمدن اليونانية ، والتى كان يقوم بحكمها بعض المستبدين من الحكام الذين كانوا يفعلون ما يشاءون ، طالما انهم كانوا يقومون بدفع الجزية فى وقتها ويزودون الملك ببعض الوحدات العسكرية اذا مادعا الامر الى ذلك . وقد احب هؤلاء القساة من الحكام الملك الفارسى لانه صان هيبتهم ، من أجل ذلك لم يثر يونانيو آسية الصغرى فى وجه داريوس حتى حينما مرت عليها ازمات . ولقد قام داريوس بتحسين التجارة والطرق المؤدية اليها فى كل انحاء بلاد الامبراطورية . وقد اتخذ نظاما للعملة كان قد ادخله Croesus الى ليديا . وقد سبق أن اشرنا

عند حديثنا عن الفينيقيين أن داريوس ادخل العملة التى كانت تسمى daric . وقد قسم الطريق الملكى الذى كان يطرقه التجار والبعثات المختلفة بين سوس وساردس الى مراحل ، أقام عند كل مرحلة محطة . وقد بلغ طول هذا الطريق ١٥٠٠ ميلا ، كان يقطعها السابلة مشيا فى ثلاثة شهور . وكان يمر الطريق فى قلب فريجيه Phrygia ، بالقرب من قبر Midas ،مارا بسينوس Pessinus و Ancyra ، ويعبر الهاليس الى بتيريا Pteria ، ثم يعبر الهاليس مرة اخرى ، متقدما الى مازاكا Mazaka وكومانا Comana ، وبعد ذلك طوروس حتى يصل الفرات عند ساموساتا Samosata . وفيما وراء الفرات ، يتاخم طريق المرتفعات التى تربط بلاد ما بين النهرين فى الشمال ، مارا بنيسيبيس Nisibis ثم يصل الى نينوى على نهر دجلة ، وفيما وراء أربله Arbela ،يتجه الطريق الى الجنوب الشرقى حتى نهر خوسبس Chosspes الى سوس . كان الطريق ممهدا وأمنا ، وقد قرب وسط آسيا من البحر الايجى ، وقد ساعد على فتح الشرق .

داريوس وحملته على أوربا وغزو تراقيا Thrace

غزا كورش الشواطىء الشرقية لحوض البحر المتوسط ، وقد أتم وحافظ قمبيز على هذا الفتح ، فتقدم الى الجنوب واخضع مصر كما سبق أن أوضحنا ذلك فى غير هذا المكان . وبقى على داريوس أن يتمم ويحافظ على امبراطوريته فى النامية الشمالية وذلك بالاستيلاء على تراقيا Thrace . وبعد أن استتبت له الامور فى بلاده ، بدأ يعد لحملته على أوربا . ويحتمل أنه كان فى خطته الاولى أولا اخضاع الشعب التراقى Thracian حتى نهر الدانوب ، وجعل هذا النهر الحد الشمالى لامبراطوريته ، وثانيا مد سلطانه غربا على مقدونيا . وكان التراقيون أهل حرب وقتال ، وبلادهم جبلية . وعلى ذلك فقد كان المشروع الفارسى يتطلب قوات كبيرة لتحقيقه . وقد استغل داريوس مهارة أحد أهل ساموس من المهندسين يدعى ماندروكلس Mandrocles فبنى جسرا من القوارب عبر البسفور Bosphorus ، الى الشمال من بيزنطة Byzantium ولما عبرت الجيوش ، أمر داريوس أن تقام لوحتان على الجانب الاوربى ، يسجل عليهما أسماء الشعوب التى كان يتكون منها جيشه ، وقد كتبت باليونانية والمسمارية عام ٥١٢ ق.م. وقد ذكر هيردوت أنه شاهد هذين الاثرين . كذلك اقلع أسطول كبير من الرعايا اليونان التابعين للفرس حول شاطىء تراقيا المطل على البحر الاسود ، ووصلوا حتى مصب الدانوب وذلك لمعاونة الجيوش البرية .

لم تحفظ لنا الايام شيئا من تفاصيل هذه الحملة (الحملة الاولى) . وكل ما وصلنا هو أن بعض القبائل قد خضعت لداريوس . والظاهر أن الثراقيين قاموا ببعض الاستعدادات لمواجهة الحملة . وقد اتحدت القبائل التى كانت تسكن شمالى الدانوب مع تلك التى تقيم فى جنوبه . وهؤلاء هم الجماعة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وهى القبائل السكيثية التى دخلت بعض جماعات منها الى بلاد الفرس كما سبق أن شرحنا ذلك فى غير هذا الموضع . وكان طبيعيا أن تتجه القبائل التى تسكن جنوب الدانوب الى جيرانهم لمعاونتهم ضد هذا الغزو الاسيوى . دخل الاسطول اليونانى التابع لداريوس مصب الدانوب ، واقيم جسر من القوارب مرت عليه جيوش داريوس متجهة الى سكيثيا Scythia . ولكن لماذا قام داريوس بهذه الجولة فعبر الدانوب ؟ لم يستطيع احد حتى الآن أن يعرف ماذا كان يقصده داريوس من وراء ذلك . من الجائز انه أراد أن يدخل الرعب فى قلوب جيران الثراقيين ، ولكن ليس هذا وحده هو الهدف الذى كان يريد تحقيقه داريوس . ولكن حدث أن قواد الاسطول اليونانى رغبوا فى العودة وتخلوا عنه . وعاد داريوس فعبر مضيق Hellespont وترك على قيادة جيشه مجابازوس Magabazus . واستطاع هذا الاخير أن يؤسس مستعمرة فارسية حتى نهر Strymon ستريمون ، وقد تقدم نحو الغرب فوصل الى نهر Axius اكيوس ، واعترفت مقدونيا بملك الفرس لهذه المنطقة .

ولقد استمر استعمار الفرس للقسم الشرقى من شبه جزيرة البلقان اليونانى رغبوا فى العودة وتخلوا عنه . وعاد داريوس فعبر مضيق Lemnos وامبروس Imbros .

وقد فسرت حملة داريوس على انها لم تكن ضد تراقيا ، ولكنها كانت محاولة من داريوس للقضاء على السكيثيين فى جنوب روسيا ، وعلى ذلك لم تكن الحملة على تراقيا الا خطوة أولى فى سبيل تحقيق هذا الهدف . كل ذلك لان داريوس أراد أن ينتقم من السكيثيين الذين غزوا ميديا منذ مائة عام من قبل .

ثورة الايونيين على الفرس

حقا ان غزو الفرس لثراقيا ومقدونيا خطوة فى التقدم نحو أوربا ، الا انها لم تكن موجهة نحو اليونان . ذلك لان المحاولة لفتح اليونان لم تبدأ الا بعد ذلك بحوالى عشرين سنة ، وفى السنوات الاثنتى عشر التى جاءت من وراء عودة داريوس من تراقيا ، ولم تحدث اى مناوشات كبيرة بين الفرس والاوربيين .

ولقد حاول الاثينيون وحلفاؤهم ان يتجهوا الى سارديس لمعاونة الايونيين للخلاص من نير الفرس . ولكنهم فشلوا بعد أن أشعلوا النيران فيها . وقد ذكر هيردوت أن داريوس أمر أحد عبدانه أن يذكره ثلاث مرات كل مساء بقوله « سيدى ، تذكر الاثينيين » .

وقد امتدت الثورة الى الجنوب فوصلت كاريا Caria وقبرس ، والى الشمال الى بروبونتيس Propontis (حاليا بحر مرمرة) . ولكن استطاع الفرس أن يقضوا على الثائرين فى كل هذه المناطق .

وأهم حادث فى ثورات الايونيين هو حصار ميلتوس Miletus حيث ركز الفرس كل قواتهم . فقد حاصرها اسطول الفرس الذى بلغ حوالى ٦٠٠ سفينة . وقد وقفت سفن الاسطول اليونانى فى جزيرة Lade وقيل أن عدده بلغ ٣٥٣ سفينة ، لكنها لم تكن منظمة ، ولم تكن الفرق العسكرية متحدة تحت اشراف قائد واحد . وقد استطاع الفرس أن يقتحموا المدينة ، وذبح الرجال ، وارسل السيدات والاطفال الى سوس. وقد قام الفرس بحرق معبد أبولو Apollo على غير رغبة من داريوس لانه كان يقدر هذا الاله ، وواضح ذلك من خطاب له الى ستراب فريچيه جاء فيه أن ابولو دائما « يخبر الفرس عن الحقيقة » .

وقد تبع الاستيلاء على ميلتوس ، اخضاع كاريا ، التى كان قد نجح الثوار فيها من الزمن .

ولقد كان للقضاء على ثورة الايونيين أثر عميق عند الاثينيين ، وقد لمسنا ذلك فى شعر لـ Phrynichus الذى جعل من فاجعة ميلتوس موضوعا للدراما .

الحملتان الاوربيتان الثانية والثالثة

موقعة مارثون Marathon

كان على الفرس بعد أن قضوا على ثورة الايونيين أن يقوموا بثلاثة أمور : كان عليهم أن يعيدوا تنظيم آسية اليونانية ، كذلك كان عليهم أن يعيدوا غزو أوربا الفارسية ، كما كان عليهم أيضا أن يأخذوا الدويلات اليونانية التى اثارت الحرب على الفرس واحتلت سارديس بالصارم العنيف .

وقام ستراب ايونيا Artaphernes بالعمل على حصر مساحة

أراضى أيونيا ، ونظم جباية الضرائب . كما اصدر امرا بعدم قيام حروب بين المدن . ومع ذلك كله كانت هناك اشياء كثيرة لابد من عملها . ولقد علمت ثورة الايونيين الفرس ان نظام الحكم الاستبدادى لهـــذه البلاد أصبح فاشلا . وقد دعاهم ذلك الى سياسة عكسية . فقد الغى نظام الحكم المطلق واستعيض عنه بالحكم الديموقراطى .

أرسل Mardonius ماردونيوس زوج ابنة داريوس الى ثراقيـا لينتقم من المدينتين (اثينا وارتريا Eretria) اللتين عاونتا ثوار ايونيا . وابحر اسطول على طول الشـاطىء ، واخضع جزيرة ثاسوس Thasos (بالقرب من شاطىء ثراقيا) وقد خضعت كل من ثراقيا ومقدونيا . ولكن لم تتم الحملة الى اليونان حيث وقعت كارثة للاسطول اذ غرقت بعض وحداته فى عاصفة . وعاد ماردونيوس بعد ان حقق جزءا كبيرا من أهداف الفرس .

لكن لا ازل داريوس مصمما على الانتقام من اثينا وارتريا ، فان صلتهم بحريق ساردس كانت دائما تؤلمه ، وكان الملك يعتبرها وصمـــة عار فى جبينه . وبالاضافة الى ذلك فان احد قادة اليونان ، هيپياس Hippias كان مبعدا فى سوسة ، أسرع فى حمله الى المدينة التى طرد منها . وقد استقر الرأى على ان الحملة الجديدة لا ترسل بطريق ثراقيا ومقدونيا ، ولكن تتجه رأسا عبر بحر ايجه . وقد صدرت الاوامر للمدن الفارسية التى تقع على ساحل البحر بتزويد سفن الاسطول بكل ما يحتاجه ، كما أرسل ملك الملوك الى المدن الرئيسية فى اليونان الحرة الذين قاموا بابلاغ أهلها أنهم سوف لا يقعون فى حرب مع الفرس ان قاموا بدفع ما يدل على خضوعهم . واسندت رئاسة الجيش الى داتيس Datis (ابن اخت داريوس) وارتافرنس Artaphernes ، وقد صحبهما هيپياس الذى كان يمشم أن يحكم مرة أخرى فى وطنه . وحسب رواية هيردوت ، فقـــد بلغت وحدات الاسطول ٦٠٠ سفينة ابحرت من ســـاموس ، فأرست مراسيها فى ناكسوس Naxos . وقد فر اهل المدينة الى الجبال ، واحرق الفرس المدينة (لانها كانت مدينة اريستاجوراس Aristagoras الذى أشعل نار الثورة فى ايونيا) . وظل الاسطول يضع مراسيه فى جزيرة تلو الاخرى ، ويخضع جزر أرخبيل Cyclades ، ومر الاسطول فى القناة الطبيعية الموجودة بين أوبوية Euboea وأتيكا Attica ، واخضعوا فى طريقهم كاريستوس Carystos ، ثم وصلوا الى أراضى ارتريا . ومن الغريب أن كلا من اثينا وارتريا لم يستعدا للقاء هذا الاسطول . واحرق الفرس ارتريا واسروا سكانها .

ثم تقدم الفرس ورست سفنهم فى خليج مارثون Marthon (1)

وقد كان عدد جيش الاثينيين حوالى ٩٠٠٠ آلاف رجل تحت امرة كاليماخوس Callimachus . وقد انزل الفرس بعض رجالهم من السفن ، خصوصا كل الفرسان واتجهوا الى اثينا بحرا وبرا . ولم تستمر معركة مارثون طويلا ، وكانت خسارة الاثينيين فيها بسيطة ، فقد قتل منهم ١٩٢ جنديا ، اما خسارة الفرس فقد كانت كبيرة (حوالى ٦٤٠٠ جنديا) وقد استطاع الاثينيون أن ينتصروا . وقد سجل نصر الاثينيين على كتلتين من الرخام كشفت عنهما الايام . كما سجل نصر مارثون هذا أيضا على العملة اليونانية وذلك بوضع تاج من الزيتون على رأس الالهة اثينا . وكذلك على الجانب الاخر من العملة القمر فى تربيعه الثالث بغرض بيان ميعاد المعركة . وقد صورت معركة مارثون بعد ذلك بحوالى ربع قرن فى Portico of Frescoes . وقد صور الاثينيون وحلفاؤهم من البلاتيين Plataeans وهم يتقدمون نحو البرابرة ، بينما صور الفرس وهم يلوذون بالفرار ، وفى منظر آخر صورت السفن الفينيقية ، وقد قام اليونان بذبح الاعداء الذين حاولوا الوصول الى السفن .

ان دفاع اليونان عن اوربا ضد برابرة آسيا ، (كما كان يسميهم المؤرخون اليونان) ، وان فشل طاغية من طغاة الشرق بواسطة تحالف المدن الحرة ، وان هزيمة جيش كبير واسطول ضخم بواسطة أعداد بسيطة من القوات . كل ذلك قد ظل عالقا بأذهان اليونان فالفوا فى ذلك قصصا وروايات اخصها وصف هيردوت نفسه ، اذا ما تصورنا أن ما كتبه فى هذا الشأن لم يكن الا قصة من القصص . حقا ان هناك الكثير من المبالغات انما الوضع النهائى هو تمكن اليونان من قهر الفرس .

* * *

الاصلاحات الداخلية فى مصر والتشريعات فى عهد داريوس :

تولى داريوس الحكم فى سن الثامنة والعشرين وكان والده وجده لا زالا على قيد الحياة . وبعد أن استتبت الامور فى امبراطوريته ، قام فى شتاء ٥١٩ ــ ٥١٨ على رأس جيش كبير متوجها الى الغرب فوصل ممفيس دون أن تصادفه اية مقاومة . وهناك وجد الناس يضعون أثواب الحداد على عجل أبيس ، فأمر داريوس بمنح كبيرة من الذهب لكل من يكتشف

(1) J. B. Bury, History of Greece, Third edition, London 1963, fig. 78.

عجل أبيس جديد ، وبذلك العمل استطاع أن يستميل الناس اليه . وتم دفن العجل السابق على الطريقة التى كان يتبعها الفراعنة ، وتمت مواراة جثته فى نوفمبر عام ٥١٨ ق.م.

قام داريوس باصدار شريعة على نمط شريعة حمورابى فنجده يقول « تحت رعاية اهور مزدا (الاله الفارسى) ... اننى احب الحق واكره ما ليس بحق . فلن يحدث ان يسىء عبد لاى مواطن ، وكذلك لن يسىء مواطن لعبد ، اننى احب الحق واكره كل من يقر الكذب . اننى لا اغضب واكظم غضبى ، واننى لا أثق فى كل من يتحدث ضد العدالة .. »

وكتب داريوس قبل ٣٠ ديسمبر عام ٥١٨ بعد أن عاد الى بلاده الى حاكمه فى مصر الذى اعاده الى وظيفته وهو Aryandes قائلا : « دعهم يحضروا لى حكماء الرجال من بين المحاربين والكهنة ، وكتاب مصر ، الذين اجتمعوا فى دوز العبادة ، ودعهم يكتبوا الشرائع الاولى لمصر حتى العام الرابع والاربعين لحكم الفرعون امازيس . دعهم يحضروا لى هنا شريعة فرعون ، وشرائع المعبد والناس » .

ولقد جاء على تمثال أوجا حار رسن ما يفيد اهتمام داريوس بشئون مصر العلمية فنجده يستطرد فى الحديث قائلا : « بينما كان جلالته داريوس فى عيلام ، ـ كان ملكا عظيما على كل الاقطار الاجنبية وحاكما عظيما على مصر ـ أصدر أوامره لى بالعودة الى مصر وذلك لترميم مصلحة بيت الحياة (أو Scriptorium) المهدمة والتى ترعى الطب » . وقد تولى أوجا حار رسن هذه الوظيفة وهى الاشراف على اصلاح مدرسة الطب لاننا نجده يقول « لقد جاء بى الاجانب من بلد الى أخرى حتى وصلت الى مصر ، كما أمر سيد الارضين . وقد نفذت كل ما أمر به الملك . لقد زودتها بكل الموظفين ، من أبناء الرجال البارزين ، ولم يوجد بينهم ابن رجل فقير » ، ويتباهى أوجا حار رسن قائلا : « لقد جعلتهم مشرفين على كل رجل متعلم ، حتى يتعلموا كل المهن . وأمر جلالته أن يعطى لهم كل شيء حسن ، ويتدربوا على كل مهنهم . وقد قدمت لهم كل شيء مفيد ، وكل الادوات التى أشير اليها فى الكتابات ، كما كان يجرى من قبل . وقد فعل جلالته ذلك لانه يعرف فضل هذا العلم لانقاذ الرجل المريض ، وكذلك ليعمل على خلود اسم كل الآلهة ، ومعابدهم ، وقرابينهم ، والاحتفال بأعيادهم الى الابد » .

وقد اهتم داريوس باعادة فتح القناة التى كانت توصل البحر الاحمر بالنيل والتى قام بشقها من قبل نيكاو الثانى أو قبل ذلك . وقد اقيمت خمس لوحات كبيرة من الجرانيت على جانبى القناة لتخلد ذكرى هذا

العمل أيام داريوس . وقد جاء فى النصوص المسمارية فى هذا الشأن على لسان داريوس ما يلى : « اننى فارسى . استوليت على مصر من Parsa (فارس) . وقد أمرت بأن تحفر هذه القناة من نهر النيل ،الذى يجرى فى مصر الى البحر الذى يصل من فارس . وقد حفرت تلك القناة كما أمرت ، ومرت السفن من مصر عبر هـــــذه القناة الى فارس بمقتضى رغبتى » .

وقد جاء ذكر حفر هذه القناة كاملا فى الوثائق المصرية ، جاء فيها حديث الاله الى داريوس ، يقول له الاله الذى مثل مرتين على هيئة اله النيل . ففى أحدهما يخاطبه بما يلى : « لقد أعطيتك كل الاراضى ، وكذلك فنخو Fenkhu (غالبا هم أولئك الذين كانوا يقيمون على ساحل آسيا الصغرى) ، وكل الاراضى الاجنبية ، وكل الاقواس » وفى الاخرى يقول له : « أعطيتك كل الناس ، وكل الرجال ، وكل البشر من جزن البحار » . وهذا الاسلوب من الاساليب التى كانت توجه الى فراعنة الاسرة الثامنة عشرة . وجاء على اللوحة أيضا على طريقة أسلوب الفراعنة أن الملك قد منح « كل الحياة ، والتوفيق ، والعافية ، وكل السرور ، وكل القرابين مثل رع ، وكل الطعام ، وكل شىء طيب ، وكذلك ليظهر كملك لمصر العليا والسفلى مثل رع الى الابد ، وقد عبدته كل الاقطار وكل البلاد الاجنبية» . وقد كتبت أسماء المدن المهزومة داخل خرآطيش مسننة على الطريقة التى كان يكتب بها المدن المهزومة عند الفراعنة ، ومثل الاعداء بملابس مختلفة وقد خروا راكعين لسلطان داريوس . وقد لقب داريوس بملك الملوك ، ابن Hystaspes . الملك العظيم ، ولكن الى جانب ذلك لقب بجميـــع القاب الملوك المصريين . فقد لقب بابن نيث ، سيدة سايس ، وكان أيضا صورة من الاله رع ، الذى أجلسه على عرشه ليتم ما كان قد بداه . ومنذ أن كان نطفة فى رحم امه ، ولم يكن قد خرج الى هذا العالم ، فقد منح كل ما كانت تطلع عليه الشمس ، وذلك منذ أن اعترفت به نيث كولد لها . فقد منحته ، هذاالقوس الذى فى يده ، ليتغلب على أعدائه كل يوم ، كما فعلت من قبل مع ولدها رع . انه قوى ، يحكم أعداءه فى كل الاقطار . وكابن نيث ، قام بتوسيع حدوده ، وجاءه الناس من كل مكان يقـدمون له الجزية .

وقد حدثتنا اللوحة عن كيفية شق القناة وكيف تم تنفيذها . وقدم الى فارس ٢٤ سفينة محملة بالجزية .

قام داريوس باصدار الاوامر لاصلاح القوانين كما سبق أن ذكرنا ، وقد قام الكتاب بكتابة القوانين . ولم ينته هذا العمل بعد مدة قصيرة ،

لان القوانين فى مصر لم تكن مجموعة كما هو الحال فى مسلة حمورابى . ولذلك لم تتم اعمال التقنين الا فى عام ٤٩٥ ق.م. وقد كتبت نسخة على ملف من البردى باللغة الاشورية ، واخرى بالديموطية .

ومما يدل على تحقيق الاصلاح فى الشرائع ، حالة حدثت بين المرتزقة اليهود فى الفنتين مؤرخة بالسنة ٤٩٥ ، وخلاصتها ان امراتين استبدلتا أرض مع ثالثة . وقد لوحظ أن الضمان قد كتب كما يلى : « وبعد الآن ، وفى مستقبل الايام ، سوف لا نستطيع أن نطالبك بهذه الارض من نصيبك ونقول : اننا لم نعطها لك . سوف لا يستطيع أخ او اخت ، او ابن او بنت ، أو قريب . وكل من سوف يطالبك فيما يخص نصيبك الذى أعطيناه لك ، سوف يدفع لك مبلغ خمس karasb ونصيبك لك » .

كان لدى الجالية اليهودية بردية تحمل تاريخ حياة داريوس بالارامية . وبدون شك فانها نسخة رسمية أرسلها الملك نفسه .

سار داريوس على سنة الفراعنة فى اقامة دور العبادة الخاصة بالآلهة المصرية . فقامت بعثات لقطع الحجارة من محاجر وادى الحمامات ، وقد جاء ذكر المهندس خنوم ايب رع الذى خدم مع والده فى المحاجر فى السنة الرابعة والاربعين من حكم آمازيس ، فقد جاء ذكره بين العام ٤٩٦ الى العام ٤٩٢ فى وادى الحمامات . وقد قام هذا المهندس ايام داريوس بالاشراف على ترميم معابد مختلف الآلهة المصرية : مين ، وحورس ، وايزيس بناحية قفط ، وآمون ، وموت ، وخونس ، بناحية طيبة .

وقد بدات الواحة الجنوبية (الخارجة) تصبح مركزا رئيسيا لتجارة الصحراء الغربية وذلك بعد دخول الجمل وتحسين وسائل الرى فى الواحة على الطريقة التى كانت متبعة فى الهضبة الايرانية . وكان يوجد بعاصمة الواحة : هيبس معبد للاله آمون . فأقام داريوس فى المكان نفسه معبدا للاله آمون من الحجر آلرملى على غرار معابد المصريين القدماء . وقد زينت صفحات جدران حوائطه بنقوش ورسوم فرعونية ، ومثل داريوس يقدم القرابين للآلهة المصرية وثالوث المنطقة وعلى راسه آمون وبقية أفراد الثالوث (موت وخونس) . وقد زينت الحوائط بالكثير من نقوش استعيرت من كتاب الموتى .

كذلك عثر على آثار لداريوس فى بوصير بالدلتا ، ووجد اسمه داخل خرطوش على بعض عناصر معمارية كشف عنها فى الكاب . وقد جاء اسمه فى اثبات الذين قاموا ببعض الانعامات من ملوك مصر بين عام ٥٠٧ — ٥٠٤ ،

وسجل ذلك على حوائط معبد ادقو . وقد صور أحد الاشخاص على لوحة راكعا أمام حورس والصل متوسلا للملك داريوس حياة سعيدة .

وقد جاء فى بعض الاخبار أن الستراب Aryandes ، وقد كان هو الحاكم على مصر من قبل داريوس قد خان مليكه وقام بصهر النقـــود الذهبية المضروبة باسم داريوس وباعها سبائك . و لما علم بأمره داريوس عزله ، وقيل انه قتل . وقد عين مكانه Pherendates وقد تقدم اليه كهنة خنوم رب الفنتين بثبت يضم اسماء بعض الكهنة ليختار منهم رؤساء اداريين لدور العبادة المختلفة طبقا لمرسوم أصدره داريوس فى هذا الشأن. وقد هرب الكثير من هؤلاء بعد أن تم تعيينهم ، بينما ادعى البعض انه يقوم بالعمل فى وظائف مماثلة .

كذلك يمكننا ان نضيف الى اخبار ذلك العصر وثائق طريفة ، كتبت على قرطاس من البردى باللغة الديموطية عثر عليها فى قرية الحيبة التى تقع شرقى النيل ، مركز الفشن محافظة بنى سويف ، وقد قام بترجمتها F. Ll. Griffith . وغالبـــا ما كانت تتضمن شــكوى كتبت فى الســنة التاسعة لحكم داريوس بواسطة احد كتبة المعابد المعمرين ، وهو Peteese كان يشكو من ظلم وقع عليه هو نفسه وعلى عائلته من كهنة آمون بالحيبة (كان يسمى هذا الموقع قديما Teudjoi) التى كانت موطنا لهذا الكاتب الكهل ، وكذلك كانت للشكوى صلة بكهان الهة أخرى ، وكانت تدور هذه الشكاوى على مسائل مادية . ورواية Peteese التى يقصها علينا معقدة ومختلطة ، بل ومتشعبة ، فهى تعود بنا الى الماضى وحوادث حدثت منذ ١٥٠ سنة ، الى السنة الرابعة من حكم پسماتيـك الاول . ففى هــذا الوقت قام احد اسلافه وسميه Peteese أيضا بترميم معبد آمون بالنيابة عن ابن عمه ، ومع ذلك فهذا Peteese آخر فى نفس الوقت ، كان رئيســا لمكان اقامة السفن فى هيراكليوپوليس مجنا ومحافظا شرعيا على مصر العليا (ومن هنا حدث الخلط) . ولما قدم Peteese الجد الاكبر لكاتبنا الذى نحن بصدده هذه الخدمات كوفىء من الادارة (والراجح انه كوفىء فعلا من Peteese المحافظ الشرعى على مصر العليا) بالاشراف على الكهان وذلك جزاء ما قدم من ترميمات لدار آمون .

كان لكاتبنا Peteese الذى عاش ايام داريوس سلالة تعرضت حياتها فى اربعة اجيال سالفة له بحوادث قاتمة ، ملئت بالاغتيال والسجن والمحن القاسية ، كل ذلك أعاد سرده علينا كاتبنا فى العهد الفارسى ، وذلك ليقدم لمن يشكو له اسباب النزاع القائم بينه وبين من يشكو منهم . كان أعداء صاحبنا من مختلف الشخصيات ، وكانوا على صلة ببعض أصحاب النفوذ

والسلطة فى الدولة ، وكان هؤلاء يحاولون تجريد عائلة Peteese من حقوقها ، وقد ظاهر هؤلاء جماعة اخرى سميت « بالكهنة » .

أول شيء فعله داريوس بعد أن استتبت له أمور البلاد هو اصلاح القوانين فى كل الامبراطورية . فقد جمع القوانين من جميع أنحاء الامبراطورية وقام بمراجعتها واصدر قانونا تحت اشرافه .

وقد سبق ان بينا فى الباب الاول من هذا العرض الخاطف لتاريخ الشرق الادنى القديم اهتمام اهل الرافدين باصدار تشريعات مختلفة واخصها شريعة حمورابى . ولما دخل كورش تلك البلاد حاول أن يقتبس بعض مواد هذا السجل القانونى .

ويعد داريوس ايضا من ائمة الذين سجلوا فى الحضارات القديمة وثائق لتنظيم البلاد ونشر العدالة على اسس قانونية لا تقل عما سبق أن أصدره حمورابى ، حتى اننا نلاحظ أن كثيرا من قوانين داريوس بن Hystaspes ، الاخمينى ، الفارسى ، ابن فارسى ، الارى من بذرة مقتبسة تماما من سجل حمورابى المعروف .

فالمقدمة فى الشريعتين واحدة ، فكلاهما يتوجه الى الالهة : فهذا حمورابى يتوجه الى آنو وأن — ليل ومردوخ ، وهذا داريوس يتوجه الى الاله العظيم آهورا مزدا . كما أن حمورابى يذكر انه انما يحكم برغبة الالهة : انو وان — ليل . كذلك داريوس يقول : « اناداريوس ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك الاراضى لكل لسان ، ملك هذه الارض البعيدة آرية » .

وكما فعل حمورابى حينما وضع لوحه المشهور تحت رعاية الاله شمش ، كذلك فعل داريوس ، اذ جعله من عمل اهورمزدا . كما أن حمورابى بعد المقدمة الخاصة بشريعته ، اعطانا ثبتا بالمدن ودور العبادة داخل بلاد بابل وخارجها التى قام بترميمها ، فهذا داريوس يقول « تحت رعاية أهورمزدا ، هذه هى الاقطار التى استوليت عليها فيما وراء فارس ، واننى انا حاكمهم ، وانهم احضروا الى الجزية » ويلى ذلك ثبت بأسماء الستراپيات التى تضمها امبراطوريته .

واذا ما تذكرنا ما قاله حمورابى من قبل فى مقدمة شريعته (انظر ص ١٨٠) نجد داريوس يسلك الطريق نفسه قائلا :

يقول داريوس الملك : تحت رعاية أهورمزدا ، اننى صاحب خلق ومبادىء : اننى احب الحق واكره ما ليس بحق ، ولم يحدث أن عبدا قد أقام عقبة لمواطن ، كذلك لم يحدث أن مواطنا قد اقام عقبة فى وجه

اى عبد . اننى أحب العدل . اننى أكره كل رجل كذاب . اننى لا أغضب واقمع فى قلبى كل غضب . وكل من يسىء ، أعاقبه بمثل ما أساء به . ولم يحدث أن أساء انسان ولم يعاقب على اساءته . وأننى لا اثق فى كلمة شخص تحدث ضد العدالة والصدق » .

وجدير بالذكر ان حمورابى حينما انتهى من كتابة شريعته ذيلها بلعنة الالهة أن لم يقتف خلفاؤه من بعده طريقه المستقيم وتصب اللعنة على كل من يمحو اسمه ويضع غيره (انظر من ص ١٧٩ الى ص ١٨٥) .

وهكذا يقول داريوس : أنت يا من تصبح ملكا بعد ذلك : احذر الكذب، فالرجل الذى يكذب يهلك تماما .

وهكذا يقول داريوس : ان هذا الذى فعلته تحت رعاية أهورمزدا فقد فعلته فى السنة نفسها . وانت يا من سوف تقرأ ما فعلته ــ الكلام الذى سجل على اللوحة ــ صدقنى الا تسير وراء الكذب .

وهكذا يقول داريوس : وتحت رعاية اهورمزدا ، هناك الكثير مما فعلته لم يكتب على اللوحة ، من أجل ذلك لم يكتب حتى لا يقول من يقرأ هذه الوثيقة بعد ذلك أن كل ذلك قد فعلته ، ولكن يقول : « كلها كذب » .

وهكذا يقول داريوس : ليس بين الملوك الذين سبقونى من قام بمافعلت فى عام واحد تحت رعاية اهورمزدا .

وهكذا يقول داريوس : هل تصدق ما فعلت ، وتتحدث كلمة صدق الى الناس . اذا لم تخف هذه الكلمة ولكن تخبرها الناس ، عند ذلك يصبح اهورمزدا شفيعك ، ولسوف يكثر نسلك ، ولسوف يطول عمرك . ولكن اذا شوهت هذا الكلام ، فسوف يقضى عليك اهورمزدا ، ولسوف يهدم بيتك .

وهكذا يقول داريوس : من اجل ذلك امدنى اهورمزدا بعونه ، وكذلك من وجد من الالهة الاخرى ، لاننى لم أكن شريراً كما لم اكن كاذبا ، كذلك لم افعل سيئة أيا كانت ، لا انا ولا ذريتى . لقد سرت على طريق العدالة ، فلم استخدم العنف لا مع الاقوياء ولا مع عبيد الارض .

واذا ما بصرت بهــذه اللوحة ، واذا لم تشــوه هذه التماثيل واذا ما ساعدتك قوتك على المحافظة عليها ، فلسوف يصبح اهورمزدا صديقك ولسوف يكثر نسلك ، ولسوف يطول عمرك ، ولسوف يبسطها اهورمزدا، ولسوف ينجح كل ما تفعل .

وهكذا يقول داريوس : اذا ما شاهدت هذه اللوحة وهذه التماثيل ومحوتها ، واذا لم تقدم الى هذه التماثيل القربان ، ولم ترمم مكانها ،

فلسوف يلعنك اهورمزدا ولسوف تكون عقيما ، ولسوف يهدم اهورمزدا كل ما تصنع .

ما من شك بعد الذى مر بنا أن داريوس وكبار موظفيه حينما كتبوا هذا السجل كان لديهم نسخة من شريعة حمورابى . ومن الجائز جدا انه استخدم اللوحة الاصلية التى كانت محفوظة فى معبد Inshushinak فى سوسة والمحفوظة حاليا بمتحف اللوفر ، او غيرها من اللوحات الاخرى .

ولقد جاء فى نصوص صخرة بهيستن Behistan ما يلى : « هكذا يقول داريوس الملك : بناء على رغبة أهورمزدا اقمت لوحات اخرى ، لم تكن قائمة من قبل ، من طين مطبوخ أو على جلد مجهز . وامرت ان تمهر باسمى وبخاتمى . وقد تليت على السجلات والاوامر . وقد أمرت ان تنقل الى كل الاقطار البعيدة الى رعيتى .

من ذلك نرى أن هذا السجل Lawbook قد صنف من اجل سكان غرب آسية جميعا . وكتب على رق بالارامية ، من أجل ذلك سهل تداوله لان تلك اللغة كما سبق أن ذكرنا كانت سائدة فى جميع ممالك آسيا الغربية .

الاصلاحات الداخلية الاخرى

لم يكن داريوس مشرعا ممتازا أو اداريا ممتازا فقط بل كان ايضا تاجرا كبيرا ، وقد اطلق عليه هيرودوت huchster (هيردوت الجزء الثالث ، ٨٩) . لانه ذكر لنا أن كورش وقمبيز لم يفرضا ضرائب على رعاياهم ولكن تلقيا هدايا وقد حدد داريوس جزية على كل اقليم والتزامات أخرى من اجل ذلك أطلق عليه هذا الوصف بمعنى البائع المتجول .

ثم فكر تفكيرا اقتصاديا آخر وهو انه وحد نظام القياس الخاص بالموازين والمكاييل . فكان هناك الدراع الملكى ، وهو عبارة عن قطعة من الحجر الجيرى طولها ١٨ بوصة وعليها اسم داريوس . اما الموازين ، فكما كان الحال فى مصر الفرعونية وبلاد الرافدين : فقد كانت الموازين تتخذ فى مصر صورا حيوانية على هيئة عجل ، وكذلك فى بلاد الرافدين على هيئة أسود ، فقد عثر لتيجلات بيلاصر الثالث ، وشيلمناصر الخامس ، وسنحاريب على موازين على هيئة سباع وكتب عليها بالارامية اسماء هؤلاء الملوك ، وعدد « المنا » (اى الارطال) التى تزنها . وقد وجد مثلا تمثال لاسد يمثل صنجة ميزان فى سوسة . كما عثر فى ابيدوس الواقعة على الدرنيل على صنجة على هيئة اسد . كما ادخل داريوس وحدة موازين اخرى تسمى karsha . وقد عثر فى اطلال برسوپوليس وكرمان وغيرها

صنج على هيئة هرميات (وجدير بالذكر وجودصنج موازين على هذه الهيئة فى مخلفات مصر الفرعونيــة) ، وتزن ما لا يقــل عن ٢٢ رطلا . وهناك موازين اخــرى على هيئــة بط . وجدير بالذكر انه فى اقصى اطــراف الامبراطورية الفارسية كانت تستخدم هذه الموازين . فعلى سبيل المثال عند الجالية اليهودية التى كانت تقيم فى الفنتين ، اشار فيها احد الرعايا من المرتزقين اليهود انه دفع ديونه على حسب الصنجة الملكية . وكان اصغر الموازين ، يسمى ballur (وهو يساوى حبــة الفول) ، وكان معروفا انه من الموازين الرافدية : والعشرة ballurin تشكيل ربع Quarter والاربعة ارباع تشكل ما يسمى Shiqlu = shekel (المعروف فى بلاد الرافدين) والعشرة (اشقال) تكون karsha واحدا .

وهناك موازين اخرى فمثلا : ١٦٠ she = شقل shiqlu ، ٦٠ شقل = منا mana ، ٦٠ منا = biltu او talent . واعلى وحدة فى الموازين هو talent ويزن ٦٦ رطلا تقريبا .

وفى بداية الالف الثانى ق.م. كانت تقدر حسابات معبد الشمس فى سيبار ببلاد الرافدين بحلقات أو « رؤوس شماش » من الفضة . وهذا هو أول ما يحتمل ان نسمية عمله . وقد جاء فى بعض الوثائق الفرعونية ايضا ما يفيد أن احدا من الاهالى باع آخر متاعا واستبدله بحلقات من معدن . ثم شــاهدنا بعد ذلك فى منتصف الالف الثانى ق.م. فى مصر الفرعونية مناظر وزن الجزية ممثلة بحلقات من معدن . وقد استخدم الاشوريون بعد ذلك الفضة فى القروض الهامة ، والرصاص فى العمليات التجارية البسيطة ، ثم حل النحاس محل الرصاص ، وبعد ذلك استخدم البرونز مكان النحاس .

لقد ذكر هيردوت (الجزء الاول : الفصل ٩٤) أن اليونان قد تعلموا من الليديين استخدام العملة . كذلك يحتمل أيضا أنهم عرفوا منهم أيضا اسماء صنج الموازين Shiqlu = Siglos'mana = mna'biltu = talenton بينما « راس عشتار » وهى صنجة أيضا أصبحت تسمى stater عند اليونان . وتزن هذه الاخيرة عند الليديين ما يقرب من ٢١٧ حبة .

وقد اتخذ الفرس العملة فصور داريوس فى اغلبها على هيئــة ملك نحيل ملتحى وقد وضع رداء ملكيا ، وعلى راسه تا جالحرب ، ويقبض فى يمينه حربة والجعبة على كتفه الايسر ، وقبض فى يده اليسرى على القوس ، وهذه العملة هى الـ Daric . وقد انتشر استخدام العملة فى جميع انحاء الامبراطورية الفارسية ومع ذلك كله فقد استمرت المبادلة ، فكان يتناول بعض العمال الذين كانوا يعملون فى الاعمال الملكية مرتباتهم حبوبا وما شابه ذلك .

لم يؤمن داريوس بتعدد الالهة ، فقد كان أهورمزدا هو الهه الوحيد ، ولكن حكم داريوس امبراطورية كان ينتشر فيها تعدد الالهة . من أجل ذلك عمل على احترام شعور الناس فوجدناه فى بعض النصوص يذكر « أهور مزدا والالهة الاخرى » . ولكننا نجده فى بعض نصوصه يقول « ولكن الهة الكفار لا شىء » .

ولو أن أهورمزدا قد جاء ذكره فى النصوص الملكية ،وكذلك صورته على هيئة انسان مجنح أو ما شابه ذلك وجدت أيضا فى القصور فى پرسيپوليس وسوسة وصخر Behistan بيهيستن أو قبر داريوس، لكننا نعرف القليل من طقوسه ، ولم نتأكد تماما عن المكان الذى قدس فيه وفى نقوش قبر « نقش الرستم » صور الملك يقدم ضحية على مذبح بسيط بينما يحلق أهورمزدا فوق راسه وهذا يدل على أن العبادة كانت تؤدى فى الهواء الطلق . وقد ذكر هيردوت (الجزء الاول : الفصل ١٣١) ان الفرس لم يكن لهم دور عبادة . على أنه كان يوجد معبد لاهورمزدا وآلهة ايرانية أخرى ــ شبهوا فى ذلك الوقت بالالهة اليونانية بـ زيوس ، هيرا ، أثينا ، أپولو ، هيلوس ، أرتميس ــ فى الناحية الشمالية القريبة من پرسيپوليس ، مؤرخة من العهد السابق للاخميتيين .

لقد تأثر داريوس بأفكار Zoraster زردشت الذى ولد عام ٦٦٠ ومات حوالى عام ٥٨٣ ق.م. والذى نادى بالوحدانية .

وقد كتبت تعليمات زردشت أولا فيما سمى Gathos ، وقد كان يقوم بتلاوته على أنصاره ومريديه . ثم ظهر بعد ذلك ثلاث أناشيد دينية أخرى هى :

Ahuna Vairya, Ashem Vohu, Airyena Ishyo لكن لوحظ أن النصوص الرسمية لم تتحدث عن اهورمزدا كاله واحد . وبالاحرى ، فقد كان أعظم الالهة ، وكان يذكر الى جانبه الالهة الاخرى .

* * *

تولى اكسركسس الأول العرش

عثر فى أساس بعض المنشآت فى پرسيپوليس على لوحة من الحجر الجيرى كتب عليها النص التالى « يقول اكسركس Xerxes الملك : كان لداريوس أولاد آخرون ، ولكن بناء على رغبة أهورمزدا ، جعل منى والدى داريوس أعظم شخصية بعده . ولما غادر والدى الدنيا ، عينت ملكا بناء على رغبة اهورمزدا على عرش والدى (١) » .

لقد حدث ذلك فعلا ، ولكن ليس هذا كل الحقيقة . فعلى حسب العرف الذى كان سائدا فى ايران ، كان من الواجب على الملك فى ايران ان يعين خليفة له قبل أن يخرج الى حرب ربما يحدث له فيها ما لا يحمد عقباه . ولقد كان ارتوبازانس Artobazanes الابن البكر لداريوس وكان معروفا منذ عام ٥٠٧ انه خليفة داريوس ، حيث جاء على وثيقة بابلية أنه « ابن ملك عيلام . ولكن تولى اكسركسس العرش لان امه كان يجرى فى عروقها الدماء الملكية بينما الابن البكر كانت امه من عامة الشعب ، من اجل ذلك فضل اكسركسس على أخيه الاكبر .

وبعد وفاة داريوس فى نوفمبر عام ٤٨٦ وافق البابليون على اكسركسس كملك لهم وقد عاش بينهم اثنى عشر عاما . وبعد ان تولى العرش قام بزيارة بابل ، وقد لفت نظره فى تلك الزيارة اشياء كثيرة جعلته يرتاب فى ولاء اهل بابل ، من اجل ذلك حينما عاد الى عاصمة ملكه أصدر تعليمات وتوجيهات ضد بابل ، وحدث تغيير فى القاب الملك . ونحن نعلم انه من أيام انتصار كورش كان يعرف ملوك الفرس « بملك بابل » ، ولكن الان ظهر لقب جديد وهو « ملك فارس وميديا » يتصدر اللقب السابق وذلك ليوضح ثانوية مكانة بابل . وكانت توجد عناصر ثائرة فى بابل تشعل نيران الثورة باستمرار . وقد اندلعت الثورة فى المدينة وقتل الستراب زوپيروس Zopyrus . وقد اعلن أولابلشيمانى Belshimmani نفسه ملكا على بابل (فى أغسطس عام ٤٨٢) وتلاه فى سبتمبر شماس اريبا Shamasheriba وبعد ذلك اتى فى الحال الجيش الفارسى تحت قيادة مجابيزوس Megabyzus وثار اهل بابل . وقد هدمت اسوار

(١) R. G. Kent, Language, IX (1933), 35 ff.

المدينة ومعابدها ، بما فيها من مقصورة مردوك العظيمة ، وصهر تمثال مردوك نفسه الذهبى . وبهذا المسلك عمل اكسركسس على ان يمحوا من الاذهان سلطان مردوك الدينى حتى يقضى على أى تفكير فى ثورة مقبلة والغيت سترابية بابل ودخلت ضمن اشور ، بينما شكلت من البلاد الكائنة فى عبر النهر سترابية مستقلة . وفرضت ضرائب باهظة على بابل وانتزعت المقاطعات الكبيرة الخاصة بالتجار الاغنياء واعطيت الى الفرس . ولم يتخذ بعد ذلك اكسركسس نفسه لقب « ملك بابل » واصبح اسم « البابليين » من الامور الممنوعة رسميا .

الاستعدادات التى قام بها اكسركسس لغزو اليونان

كان الحادث الرئيسى فى فارس اثناء العشر سنوات (من ٤٩٠ — ٤٨٠) التى مرت بين الغزوة الاولى والثانية لليونان هو وفاة داريوس . وبعد الفشل الذى كان غير منتظرا لقواته فى مارثون ، صمم على اعادة الكرة ، وبدأ يقوم باستعدادات . وبعد مرور أربع سنوات اندلعت الثورة فى مصر (٤٨٦ — ٤٨٥) ، وكان الامر يتطلب منه القضاء عليها على الفور . ولكن تأخر ذلك لوفاة الملك ، ولم يتم الا أيام اكسركسس بن Atosso الذى تولى العرش . والآن هل يتم العمل لارسال حملة الى اليونان ، للانتقام من اولئك الذين سقطوا فى ساحة القتال فى مارثون واعادة ما كان للفرس من عظمة فى هذا الوقت . وقد جاء فى الخبر ان اكسركسس نفسه لم يكن موافقا على ارسال حملة الى اليونان ولكن اضطر للموافقة على الحرب بناء على راى ابن عمه ماردونيوس Mardonius . ومن ناحية أخرى ، أوضح هيردوت فى تاريخه نصح عمه ارتابانوس Artabanus المجرب الحكيم بعدم الدخول فى تلك المعارك خشية الفشل . وقد تردد كثيرا اكسركسس وأخيرا استجاب لرغبة ماردونيوس وذلك بعد رؤية رآها اكدت له الدخول فى الحرب . فهل لنا أن نصدق تلك الرواية التى رواها هيردوت . أمر ذلك علمه عند الله وحده .

واضح أن الحملة لابد أن تكون برية وبحرية معا . وقد قامت استعدادات واسعة لحفر قناة (يبلغ طولها حوالى ميلا ونصف الميل) عبر برزخ جبل آثوس Athos . وجدير بالذكر انه فى حملة ماردونيوس الى ثراقيا ومقدونيا قد فقد جزء كبير من الاسطول غرقا وذلك فى الدوران حول هذه الراس من الارض . ولذلك فكر الفرس فى شق قناة آثوس وذلك لتقوم السفن بمصاحبة القوات البرية على طول شواطىء ثراقيا . وغالبا أن العمل قد تم واستخدمت القناة ، ولو أن بعض الكتاب المتاخرين يتشككون فى ذلك الموضوع . وحينما تم ذلك العمل ، أقام العمال جسرا فوق نهر ستريمون Strymon لمرور الجيش .

وتقدم اكسركسس من سوسة عام ٤٨١ متجها نحو ساردیس . وقد قابل وحدات جيشه الشرقية عند كريتاله Critalla في كبدوكيا . وسجل فى كلانيا Celaenae أن پيثيوس Pythius ، أغنى شخصية فى الامبراطورية الفارسية أخـذ على عاتقه تمويل الجيش وكل ما يحتاجه الملك . فقد بلغت ثروته حوالى أربعة ملايين من الدرايك الذهبى . وقد أمضى اكسركسس الشتاء فى ساردیس .

تقدمت جيوش اكسركسس الى هليسپونت Hellespont حيث بنى جسران بالقرب من سستوس Sestos وابيدوس Abydos وذلك بمعرفة مهندسين فينيقيين ومصريين . ولكن لم ينفذ ذلك العمل بدقة ، من أجل ذلك هدمتهما عاصفة قوية . وكان غضب اكسركسس على ذلك شديدا وامر بأن تضرب اعناق المهندسين . وقد كلف غيرهم باعادة بنائهما . ونظم صفان من السفن ، فربطت كل مقدمة سفينة فى مؤخرة الاخرى . وكان يضم اقرب خط الى پروپونتيس Propontis ٣٦٠ سفينة ، والثانى ٣١٤ سفينة . ووضع فوق كل من الصفين من السفن ست حزم ضخمة — اثنان من الكتان ، واربعة من البردى — . وقد تركت فى ثلاثة مواضع فجوات بين السفن وتحت الحزم وذلك لامكان مرور المتاجر بين أيوكسين Euxine والبحـر الايجي . ووضعت كتل من الخشب فوق الحـزم ، وثبتت فى أمكنتها بواسطة طبقة أخرى من الحزم . واقيم على هذه الاسس طريق من الخشب والتراب ، وعلى كل جانب اقيمت سياج من خوازيق ، ارتفاعها كاف لمنع مشاهدة الحيوانات المارة رؤية المياه . وقد قيل أنه صنع لاكسركسس عرش من رخام اقيم على الشاطىء كان يشاهد منـه مرور جيشه ، الذى بدأ عند مطلع الشمس ، وقد تم عبوره فى يومين .

وقد اتحد الجيش مع الاسطول عند دوريسكوس Doriscus فى تراقيا وعلى ذلك عمل الاثنان سويا . وقام اكسركسس فى سهل دوريسكوس باعادة استعراض قواته واحصائها ، ويتساءل هيردوت قائلا : لم يكن هناك قطر من آسيا لم يوجهه اكسركسس نحو هلاس Hellas . وقد عدد منهم ستة واربعين شعبا مع وصف أرديتهم . فالفرس انفسهم ، الذين كانوا تحت امرة اوتانس Otanes ، وضعوا غلالة من زرد وسروال ، وكان معهم دروع من اغصان مجدولة ، واقواس كبيرة ، ورماح قصيرة . ثم يأتى بعد ذلك وصف الميديين والسيثيين ، والهيركانيين ، والاشوريين والبكتيريين والهنـود والكسيين والاثيوبيين الخ . أما الاسطول فـكان مكونا من الفينيقيين والمصريين والقبارسة وبعض رعاياهم من اليونان الخ . وقيل أن عدد سفنه قد بلغت ١٢٠٧ بارجة حربية ، بالاضافة الى ٣٠٠٠ زورق . اما عن عدد الجنود ، فقد وردت رواية غريبة : كان يوضع عشرة

آلاف رجل فى مكان محدود بحائط بنى لهذا الفرض • ويمر جميع المترجلة فى هذا السياج • وقد ملىء هذا المكان ١٧٠ مرة ، وعلى ذلك يكون عدد المحاربين قد بلغ ١ر٧٠٠ر٠٠٠ رجلا • أما عدد الفرسان ، فقد بلغ ٨٠ر٠٠٠ الفا ، بالاضافة الى ذلك بعض الوحدات الاضافية التى لم تذكر • كما يلاحظ ان يضاف الى تلك الاعداد بحارة السفن — ٢٠٠ بحار لكل بارجة ، ٨٠ لكل زورق • وعلى ذلك كان مجموع رجال تلك الحملة ٢ر٣١٧ر٠٠٠ رجلا تقريبا • وقد اضيف الى هذا العدد الضخم الامدادات من رجال محاربين من ثراقيا ومقدونيا • كما كان الى جانب المحاربين عديد من الخدم ومتعهدى الطعام والستراب وغيرهم ، وقد ذكر هيردوت أن عددهم كان لا يقل عن الجند • وقد بلغ مجموع الجيش أكثر من خمسة ملايين من الرجال ، فيما عدا الخصيان والعشيقات •

وليس من شك فى أن مثل هذه الاعداد خيالية ولا يمكن تصديق تلك الرواية التى أوردها هيردوت وهو الذى اعتمدنا عليه فى هذا الشأن ، وانما اردنا أن نضعها تحت بصر القارىء ليستنبط منها فقط ضخامة جيش اكسركسس دون تصديق ما جاء فيها تصديقا تاما •

تقدم اكسركسس من دوريسكوس Doriscus الى ثرما Therma بجيشه الذى كان مقسما الى ثلاثة فيالق • وعند عبوره نهر ستريمون، وبالقرب مكان يقال له التسعة طرق Nine Roads ، ضحى بتسعة من الشبان والعذارى الوطنيين • واتصل بأسطوله عند ثرما • وفى رواية هيردوت عن وصف هذا الجيش الكثير من الخيال الذى لا يمكن للمؤرخ ان يعتمد عليه •

الاستعدادات اليونانية لمواجهة هذا الغزو

كان اليونان على علم تام بما قام به الفرس من استعدادات • وقيل ان اكسركسس ارسل من ساردييس رسلا الى كل الحكومات اليونانية ، فيما عدا أثينا واسبرطة • وقد اتحدت هاتان الحكومتان (اثينا واسبرطة) لمواجهة هذا الغزو • وفى خريف عام ٤٨١ عقدا مؤتمرا هيلينيا فى اسثموس Isthmus تشاوروا فيه عن الاحتياطات الواجب اتخاذها ضد الفرس • وقد أرسلت كثير من المدن ممثلين لها ، وقد سمى هذا المؤتمر Synedrion of Probuloi او Congress of Representatives وكان المؤتمرون تحت رئاسة اسبرطة • وقد بلغ عدد ممثلى المدن ٣١ عضوا • وقد امتنع عن هذا المؤتمر مدن كثيرة : بعض مدن ثيسالى Thessaly ، ومعظم مدن بؤوتيه Boeotia ، الى جانب جماعات صغيرة فى شمال اليونان — اللوكريين Locrians ، والماليين Malians ، والاخيين Achaeans

والدولوپيين Dolopians وغيرهم . وغالبا ان الفرس كانوا قد غزوا هذه الشعوب .

وافق المؤتمرون على زعامة اسبرطة لهذا الحلف الدفاعي . كما اتفق المؤتمرون على ارسال من يتجسس لهم من الفرس في آسية الصغرى . كذلك أرسلوا الى مختلف الحكومات اليونانية في طلب التطوع للدفاع عن البلاد . كما حصلوا على وعود بمعاونة من كريت Crete وكوركيرا Corcyra وسيراكوزا Cyracuse . ولكن لم تنجح تلك المفاوضات ولم ترسل اية امدادات .

ولما تمت الاستعدادات الخاصة بالدفاع عن اليونان ، وعين القادة ، اجتمع المؤتمرون غالبا مرة اخرى في الربيع واعطى حق التصرف في كل شيء الى القادة مجتمعين من وقت لآخر في سبيل الدفاع ، كل ذلك تحت اشراف القادة الاسبرطيين . وقد كان الملك ليونيداس Leonidas هو قائد جيش الحلفاء ، واوريبياداس Eurybiadas ــ وهو اسبرطي انما لم يكن من احد افراد العائلات المالكة ــ كان قائدا على أسطول الحلفاء .

وكان لدى اليونان وقت كاف للاستعداد ، وذلك لتقوية انفسهم وبناء سفن جديدة . وقد كانت اثينا غالبا هي اكثر المدن تحمسا .

معركتا ثرموپيلى وارتميزيوم

وفي الوقت الذي وصل فيه اكسركسس الى هليس پونت ارسل الثيساليون رسالة الى الحلفاء بضرورة تحصين ممر تمپه Tempe وعلى ذلك فقد أرسل عشرة آلاف من المترجلين المحاربين . ولكنهم حينما وصلوا الى المكان وجدوا أن الفرس قد دخلوا من طرق أخرى من مقدونيا الى ثيسالى . ولم يستطع العشرة آلاف محارب الوقوف أمام تقدم الفرس وسلمت منطقة تمبه .

وكانت منطقة الدفاع الاخرى هي ثرموپيلى Thermopylae ممرا ضيقا بين البحر والجبل ، يفصل تراخيس Trachis من لوكريس Locris ، وكانت بوابة اليونان الشرقية . وقد صمم اليونان على الدفاع عن ثرمرپيلى ، وتوجه ليونيداس الى هناك وكان معه سبعة آلاف رجل . وقد حاول الفرس عبور المضيق بين ايوبۆيه Euboea وماجنيسيه Magnesia . ووقف الاسطول اليوناني بالقرب من ارتميزيوم Artemisium على الساحل الشمالي من ايوبۆيه .

ووصل الجيش الفارسي في يولية الى ثرموپيلى ، ورسا الاسطول

الفارسى على ساحل ماجنيسيه Magnesia بين كاسثانية Castlıanaea، وراس سپياس Sepias (انظر شكل ٨١ من كتاب History of Greece: J. B. Bury, Third edition 1963, Oxford عديدة هى سفنهم حتى انهم لم يتمكنوا من ارسائها كلها على الشاطىء ، فنظمت فى ثمانية صفوف متوازية مواجهة للشاطىء . وبينما هى كذلك هبت عاصفة قوية فاغرقت عدداً كبيرا منها .

ثم وصلت بعد ذلك سفن الفرس الى افتيا Aphetae . ومن هناك أرسلوا فرقة من ٢٠٠ سفينة لتدور حول أيوبُيه Euboea . وقد استطاع اليونان أن ياسروا من السفن الفارسية ثلاثين سفينة . وقد هبت عاصفة شديدة فقضت على الكثير من السفن الفارسية .

ثم دارت معركة ثرموپيلى بين الفرس واليونان ، وقد قتل فيها اخان لاكسركسس . وقد جاء الطيبيون الى اكسركسس واخبروه انهم ما جاءوا الى هذه المعركة الا مجبرين . ولم ينجح اليونان رغم جهاد الاسبرطيين فى قهر الاسطول الفارسى .

معركة سلاميس

تقدم الجيش الفارسى فى اغسطس عام ٤٠٨ بعد ذلك الى الجنوب مارا بلوكريس Locris ثم الى فوكيس Phocis وبعد ذلك الى بؤوتيه Boeotia دون أن يجد أدنى مقاومة . وتقدم الاسطول اليونانى بعد ذلك الى خليج سالاميس (انظر شكل ٨٢ من الكتاب سالف الذكر) وارسى مراسيه فيها وقد زود بسفن أخرى .

ووصل اكسركسس الى اثينا فى ١٧ سبتمبر عام ٤٨٠ وقد أبحر فى الوقت نفسه اسطوله الى مرفأ Phaleron فاليرون . فوجد المدينة خالية الا من شريط بسيط ، وقد احتلت قوات الفرس الجزء السفلى ، ثم اقتحمت القوات بقية المدينة وذبحوا اليونان ، وهدموا دور العبادة واحرقوها .

وبعد أن سقطت المدينة ، اجتمع قادة اليونان ، واتفقوا على الا تتراجع قواتهم الى البرزخ وينتظرون هناك لقتال الاسطول الفارسى . وكان معنى هذا التقهقر ، هو ترك اجينا Aegina ، وسالاميس ، ومجارا Megara . وقد عارض الاجيون والاثينيون والمجاريون فى ذلك . وقد عارض فى ذلك أيضا ثمستوكلس Themistocles . وذهب الى أوريبياداس Eurybiadas

واقنعه بفائدة القتال فى المياه الضيقة بسلاميس أكثر من القتال فى المياه المكشوفة بالبرزخ . وقد عقد اجتماع آخر للقادة اليونان ، واشتدت المناقشة فيه بين الاثينيين والكورنثيين .

وانتهت المناقشة بان رسا الاسطول اليونانى بين سالاميس واتيكا ، حيث كانت توجد جزيرة صغيرة : هى بسيتاليا Psyttalea (انظر شكل ٨٢ حيث موقعة سالاميس مصورة فى كتاب J. B. Bury) وحيث توجد منطقة جبلية من جزيرة سالاميس داخلة فى المياه . وقد وقف الاسطول اليونانى بالقرب من مدينة سالاميس ، الى الشمال من انف الجبل الممتد فى المياه . وقد وقف الاسطول الفارسى عند مدخل مياه سالاميس وأمام بسيتاليا ، واغلقت وحداته كل هذا المدخل (كانت سفنه فى هذا المدخل مكونة من السفن الفينيقية والايونية) . وقد قام ثميستوكلس بخدعة حربية ، اذ ارسل عبدا يقال له Sicinnus سينسنوس الى المعسكر الفارسى يحمل رسالة منه شخصيا ، ويذكر فيها لاكسركسس أنه سوف تبحر سفن الاسطول اليونانى فى المساء . وقد صدق اكسركسس ما جاء بهذه الرسالة ، وبنى خطته على مهاجمة الاسطول اليونانى ليلا ليمنعه من الهرب من المنطقة بين سالاميس ومجارا Megara ، فارسل مائتى سفينة مصرية لتحيط الانف الجنوبى لسالاميس ، ورست أمام هذا المخرج . وقرر ان يدخل المعركة فى الصباح .

وفى فجر يوم ٢٠ سبتمبر تقدم الفرس ، وابحر الفينيقيون فى المياه بين بسيتاليا والارض الرئيسية ، بينما ابحرت السفن الايونية فى المياه بين بسيتاليا وسالاميس . وحينما ظهرت السفن الفينيقية تقدمت السفن الاثينية ، ومنعتهم من الاتصال ببقية الاسطول الفارسى . وانعزلت السفن الايونية الاخرى فى المضيق الضيق بين سالاميس وبسيتاليا .

حارب الفرس بقيادة اكسركسس بحماس شديد ، ولكن لم يساعدهم موقفهم على الانتصار . وفى المساء أبيد جزء كبير من أسطول اكسركسس الكبير ، وفر الباقى من المعركة .

كان نصر اليونان فى سالاميس ضربة قوية فى ظهر الجيش الفارسى . وكان غضب اكسركسس على الفينيقيين لا حد له ، وقد خشى على ضياع سلطانه البحرى وانتقاله الى اليونان . وكان على اكسركسس ان يحافظ على من بقى من وحدات جيشه ، من أجل ذلك اهتم بخطة التقهقر . فتوجه على الفور ما بقى من سفن الاسطول الفارسى الى هلس پونت لحماية الجيش المتقهقر . ووضعت القوات البرية تحت اشراف ماردونيوس

الذى تخلف بعض الوقت فى ثسالى Thessaly . وعاد اكسركسس ومعه ٦٠ ألف من الرجال الى هلس پونت .

وحينما وصل الى هلس پونت ، كان الجسر لا اثر له . اما انه أبيد بواسطة عاصفة أو أن سفنه قد أستخدمت فى عمليات النقل . فركب الاسطول حتى أبيدوس ، وتقدم الى سارديس التى اتخذها مركز قيادة الجيش . أما ركبـه الذى كان مكونا من ٦٠ ألف جنـدى فقد عاد الى الجيش الرئيسى فى ثسالى .

لدة حاول ثميستوكلس اقناع قادة الاسطول تتبع الاسطول الفارسى الى هلس پونت ، ليضربوه ضربة ثانية ويدمروا الجسر . لكنهم لم يقبلوا الذهاب الى هلس پونت .

كان للنصر الذى أحرزه اليونان فى سالاميس أثره الكبير فى نفوسهم . والتقى القادة فى اسثموس Isthmus ليوزعوا الاسلاب بينهم .

الاستعدادات لحملة اخرى

اضطر الجيش الفارسى كما سبق أن ذكرنا الى الانسحاب شمالا . وفى ربيع عام ٤٧٩ اتحد ماردونيوس بأرتابازوس Artabazus والقـوات التى كانت فى ركاب اكسركسس . وقد بلغ عدد هـذه القوات حـوالى ١٢٠ ألف جندى . واتجهت البقية الباقية من الاسـطول الى ساموس لحماية أيونيا . وقد وقع فى هذا الوقت خلاف بين الاثينيين والپلوپونيزيين وقد استفاد ماردونيوس من هذا الخلاف . فقد أرسل سفيرا ، وهـو الملك الاسكندر صاحب مقدونيا . وقد حاول هذا الاخير أن يصفى الجو المتوتر والاضرار التى لحقت الاثينيين من الاحتلال الفارسى . وأرسلت اسبرطة فى الوقت نفسه رسلها الى أثينا لابطال مفاوضـات الاسكندر ، وعرضوا عليها معونة مالية . وقد قال الاثينيون للاسكندر « عليك أن تقول لماردونيوس أن الاثينيين قالوا : طالما أن الشمس تتحرك فى فلكها ، فاننا لن نتفق مع اكسركسس » .

اندفعت قوات ماردونيوس الى بؤوتيه Boeotia ، ولم يتوجه رأسا الى طيبة ، ولكن سار شمالا الى دسليا Decelea فوصل تاناجرا Tanagra ووصل الى نهر اسوپوس Asopus وقد كان حدا فاصلا بين طيبـة وپلاتيا Plataea . وقد أقام ماردونيوس حصنا على الشاطىء الشمالى لنهر اسوپوس .

معركة بلاتيا

كانت أرض هذه المعركة محددة شمالا بنهر اسوپوس ، ومن الجنوب بمرتفعات سيثايرون Cithaeron . ويخرج منها ثلاثة طرق الى بوؤتيه : فالى الشرق الطريق من اثينا الى طيبة ، وفى الوسط ، من اثينا الى پلاتيا ، وفى الغرب ، من مجارا Megara الى پلاتيا (انظر شكل ٨٣ من كتاب J.B. Bury) وقد استطاع الجيش اليونانى أن يقضى على قوآت ماردونيوس الذى قتل فى هذه المعركة .

تقدم الجيش اليونانى بعد الانتصار فى المعركة الى المدينة الرئيسية لمقاطعة بوؤتيه ، وطلب من الرؤساء الميديين التسليم . ولما لم يوافقوا حاصرتهم جيوش اليونان ، وفى النهاية سلموا .

لقد انتصر اليونان فى معركة پلاتيا بسهولة ، وكان ذلك بفضل شجاعة الاسبرطيين . وكان موقف الاثينيين ضعيفا ، خصوصا عند جبال سيثايرون .

ولقد كانت معركة سيثايرون مع معركة سالاميس من المعارك الحاسمة فى التاريخ . وبعد أن قتل ماردونيوس ، تولى قيادة جيش الفرس بعده ارتاباوزس Artabazus على رأس قوة بلغت ٤٠١ الفا من المقاتلين ، وبدأ هذا الاخير العودة الى هلس پونت .

وبعد تلك الحوادث ، سوف نرى أن بقية القرن الخامس الذى نحن بصدده والنصف الثانى من القرن الذى يليه ، سيتأثر فيه غرب آسيا فقط بمسلك اليونان والفرس ، وسوف يتغير ميزان القوى ، فسوف ترزخ فارس تحت نير فاتح كبير ، هو الاسكندر المقدونى ، الذى سيقضى على مملكة الفرس ويحقق ما فشل فى انجازه اكسركسس ضد حكومات اوربا الحرة .

كان اكسركسس ملكا ضعيفا ، وقد تولى العرش فى شرخ الشباب ، حوالى ٣٥ سنة ، وقد درب على ولاية العرش حوالى ١٢ سنة كولى للعهد فى بابل . هذا وقد تولى عرش ايران من عام ٤٨٦ الى عام ٤٦٥ .

عاد اكسركسس الى عاصمة ملكه وفى نفسه مرآرة من عدم تمكنه القضاء على ثرموپيلى Thermopylae ، وسالاميس Salamis ، وپلاتيا Plataea وميكاله Mycale وعاش البقية الباقية من عمره مهتما باقامة العمائر والشئون الدينية .

مجمل تاريخ ملوك الفرس من ارتاكسركسس الاولى الى ارسس

بعد أن اغتيل اكسركسس تولى بعده العرش ابنه الصغير ارتاكسركسس . وفى عام ٤٦٢ استرد كهنة مردوك أراضيهم ، وعادوا للاقامة فيما بقى من دور عبادتهم ، وفى نفس الوقت اقيمت لوحة للالهة عشتار فى بابل . ولكن لا زال عالقا فى نفوس الناس من اهل بابل ما أصاب المدينة أيام اكسركسس ، حيث قام هيردوت بوصف ذلك حينما زار بلاد ما بين النهرين عام ٤٥٠ ق.م. فذكر انه كانت تفرض ضريبة سنوية عليها بما يقرب من ثلاثين طنا من الفضة ، وهى اعلا جزية بين ولايات الامبراطورية ، والى جانب ذلك كان على البلاد أن تقدم امدادات ومعونة الى الجيش الفارسى والبلاط لمدة اربعة شهور من كل سنة . وحتى بلاط الستراب نفسه كان عبئا ثقيلا ، فهذا تريتانتيخمس Tritantaechmes كان يقوم يوميا بجمع ضرائب لسد النفقات ، وكانت هذه كافية لان تملأ ثلاثة عشر جالونا من الفضة . كما كانوا يقدمون له العلف اللازم لخيوله التى تستخدم فى الحرب ، ولثمانمائة طلوقة (خيول التكاثر) ولستة عشر ألف فرس ، وكان يمتلك عديدا من الكلاب حتى أن أربع قرى اعفيت من الضرائب فى نظير تقديمها الطعام اللازم لها والعناية بها . ومن ذلك نرى ان الفرس كانوا يمتصون دماء أهل بابل حتى ان الناس أصبحوا فى حالة من البؤس لا يمكن تصوره وقد قيل أنهم كانوا يقدمون بناتهم للبغاء . وبالاضافة الى تلك المصائب . كان على اهل بابل ان يقدموا كل عام لملك الفرس خمسمائة من الاولاد لخصيهم . وعلى ذلك كان لابد ان تندلع الثورة فى بابل ، ولكن كان ارتاكسركسس قويا وطال حكمه حتى انه استطاع أن يقضى على اى ثورة فى مهدها .

وبعد وفاة ارتاكسركسس عام ٤٢٤ ، انتهى عهد الاغتيال ومؤامرات القصر فى عام ٤٢٣ حينما اعترف بأوخس Ochus بن ارتاكسركسس من محظية بابلية ، فى بابل كداريوس الثانى . وبعد أن استقبل استقبالا مضطربا مشوشا فى بابل ، توجه الى سوسة ، وعين على بابل حاكما ملكيا آخر ليرعاها ، لان داريوس سار على سنة سلفه فى تعيين ابنه البكر ارساسس Arsaces كخليفة رسمى ومقره بابل . وقد هدأت المدينة تحت رقابته الى عام ٤٠٤ حينما مرض داريوس ، وفى أيامه الاخيرة استقر مقامه فى قصر أمه ببابل حيث عاجلته المنية .

ولقد تعرض ارساسس ، الذى خلف والده تحت اسم أرتاكسركسس الثانى Artaxerxes II ، لمناوشة أخيه الاصغر كورش الذى لم يكن راضيا عنه ، والذى كان يشغل وظيفة ستراب آسية الصغرى . وفى عام ٤٠١ تقدم كورش نحو الفرات ومعه ثلاثة عشرة الف من المرتزقين اليونان

لينتزع العرش . وقد واجهته مقاومة بعض القوات عند قرية كوناكسا Cunaxa ، التى لا تبعد أكثر من ستين ميلا عن بابل . وقد دارت معركة كان يحتمل أن ينتصر فيها كورش لو لم يعرض نفسه بغير روية حتى قتل . وقد وصلت أنباء الهزيمة الى باريستاتيس Parysatis والدة كل من ارتاكسركسس وكورش ، فعادت الى بابل . وكانت هذه السيدة من أصل بابلى ، وكانت دائما تعطف على ولدها الصغير ، فأسرعت لتقضى على كل من اشترك فى مصرعه . فقد مثلت بمن قام بقطع رأسه بأمر من ارتاكسركسس ، فسلخ حيا وصلب . وفى الوقت نفسه قبض بطريق الغدر بواسطة رجال ارتاكسركسس على قواد المرتزقين اليونان الذين عاونوا كورش وارسلوا الى بابل لينالوا جزاءهم . وبالرغم من الجهود التى بذلتها باريساتيس لانقاذ معاونى ولدها التى كانت تجله فقد نفذ فيهم حكم الاعدام ودفنوا فى بابل . وان القصة التى تحدثت عن عودة عشرة آلاف من المرتزقة اليونان الى البحر الاسود لم تشر اليها الوثائق البابلية ولكن جاءت فى تاريخ كتاب اليونان فقط .

وفى السنة التالية وضعت باريساتيس السم لزوج ارتاكسركسس فى سوس ونتيجة لذلك نفيت لفترة الى بابل . ولم تلعب مدينة بابل أى دور سياسى ظاهر فى هذه الفترة . وظل الملك الفارسى يستخدم المدينة كمشتى ، فقد كان مقيما فيها عام ٣٩٥ حينما زاره الادميرال الاثينى كونن Conon وقد كان يبحث عن ذهب فارسى ليتمكن من مواجهة الصراع بينه وبين اسبرطة . وقد انتهى هذا الصراع حينما تعب الطرفان ، وسعى ملك فارس بينهما للصلح ، ولكن ما تمكن ارتاكسركسس الحصول عليه من الذهب والذى لم يتمكن أسلافه من تحقيقه بالقوة قد حطمته الثورات التى اندلع لهيبها فى كل انحاء البلاد الواقعة غرب الفرات ، ولما انتقل العرش من ارتاكسركسس بعد أن قتل عام ٣٥٨ الى ولده ارتاكسركسس الثالث الذى كان متعطشا لسفك الدماء ، ولكنه كان قادرا على اعادة مجد الفرس ، اخذ الستراببين الثائرين بالشدة والعنف واصلح شأن الامبراطورية تماما ، ولكن فى نوفمبر عام ٣٣٨ دس السم الى الملك ، وحل محله ولده ارسس Arses ، وقد كان غير قادر على تحقيق النهضة التى بدأها سلفه . وقبل هذا الذى حدث ، تسابقت كل من اثينا والقوة الجديدة فى مقدونيا لمعاونة الفرس ، ولكن فى السنة نفسها التى اغتيل فيها ارتاكسركسس استطاع فيليب صاحب مقدونيا القضاء على أية مقاومة يونانية لقوته . وانتهز فرصة وفاة ملك فارس ، وبدأ يستعد للحملة على الامبراطورية الفارسية .

وقد دس السم الى ارسس أيضا عام ٣٣٦ ، وجاء من بعده داريوس الثالث . ولكن مات فيليب فى يولية من العام نفسه وتلاه ولده الاسكندر ، الذى استطاع أن يقضى على الامبراطورية الفارسية ويغير وجه التاريخ .

* * *

الفصل السادس

نظرة عابرة على الفن الفارسى الاخمينى

العمارة والنحت

الفن الفارسى الاخمينى فن ملكى . وعلى ذلك سيتأثر بالملوك ، فقد سما الفن فى أيام كورش وداريوس ثم توقف فترة طويلة أيام اكسركسس وارتاكسركسس .

وأهم الآثار هى القصور . وقد بدأت العمارة فى هذه القصور منذ الألف السابع ق.م ، فى الفترة التى مرت القبائل الفارسية من حياة الرعى الى الحياة التى كان فيها شبه استقرار مثل ذلك الأثر الذى وجد فى Masjid-i Solaiman ، والذى يشكل شرفة صناعية تتكىء على الجبل (انظر صورة رقم ١٧٦ من كتاب جيرشمان عن فارس الذى نشر عام ١٩٦٣) وقد أحيط البناء بسور له بروز وغور مكون من كتل من الصخر كبيرة الحجم . وكشف عن بقايا قرية كانت قائمة حول الشرفة .

وهذا اللون من العمارة جديد فى هذه الهضبة . والدولة الوحيدة التى استخدمت هذا الطراز من المبانى هى أورارتو ، التى كانت قائمة بالقرب من الفرس ، حينما كانوا يقيمون بالقرب من بحيرة أورميا .

وقد عثر أيضا على بعد ٢٥ كيلو مترا من شمال شرقى باردى ـ نيشاند Bardi-i Nishandeh على بناء شبيه بالسابق . ومن الجائز أن هذين الموقعين يمثلان المراكز الملكية الأولى للفرس .

وبعد أن اتحدت المملكة ، نقل قمبيز الاول عاصمته من ماسجى سليمان الى پاسارجادا؟ فى منطقة غنية ومتمركزة وسط قبائل الفرس التى تنتشر فى ايران من الناحية الجنوبية الغربية والى الجنوب من الصحراء الكبرى الوسطى فى اتجاه كرمان .

ولو أن الفن فى پاسارجادا استمرار لما كان قائما فى ماسجى سليمان ، الا أن هناك اختلاف فى البرنامج المعمارى بالمركزين الملكيين .

ولم يبــق لقمبيز الأول الا شرفة ومعهــا المنطقــة الجبليــة المسماة Takht-è Madar-è Solaiman أو « عرش والدة سليمان » . وتذكرنا هذه الشرفة بما عثر عليه فى ماسجى سليمان . والشىء الجديد هنا هو تهذيب الحجارة . وهذا الفن حتى أخذه الفريجيون Phrygiens ، وانتشر فى أورارتو حيث عرفه الفرس .

ويبلغ طول مجموعة هذه المبانى حوالى كيلو مترين ونصف الكيلو متر . ولمــا اصبح كورش الكبير ملكا على المملكة الميــدية ــ الفارسـية (حوالى ٥٥٠ ق.م) اقيمت القصــور الحقيقــة من الحجــارة وزينت بمنحوتات زخرفية . وقد تحولت پاسارجادا الى عاصمة للامبراطورية فى عهد كورش الكبير .

واما قصر كورش ، فله مدخل فى الزاوية الجنوبيــة الشرقية من السور المحيط بالبناء كله . ويدخل الزائر بعد ذلك فى ردهة رفع سقفها على صفين من الاعمدة ، يتكون كل صف منها من اربعة عمد . اما الابواب الرئيسية ، فقد فتحت فى الجوانب الضيقة ، وقد أحيطت بتماثيل كبيرة لثيران مجنحة .

وعلى بعد ٢٠٠ مترا ، ومن الناحية الغربية ، قصر الاجتماعات (انظر التصميم شكل ١٨١ من كتاب جيرشمان) ، وهو مكون من ردهة بهــا عمد . والرواق الرئيسى مكون من صفين من العمد ، يبلغ عددها ٢٤ عمودا تفتح فى الناحية الشمالية ، على الجانب العريض للبنــاء . ومن الأشــياء التى تلفت نظر الزائر ، الأعمــدة المصنوعة جسمها من الحجر الجيرى الأبيض الناعم ، وقد وضعت على قاعدة مربعة من حجر أسود ، وتاج العمــود من حجر اسود وعلى هيئة الجــزء الأمامى لثيران وأسود وخيول .

وهناك قصر آخر يسمى قصر الاستقبال (انظر شكل ١٨٢ من الكتاب المذكور حيث ظهر تصميم البناء) .

لذلك لم تقتصر العمارة فى پاسار جادا على المنشآت المدنية بل أيضا اقيمت دور للعبادة ، ولا زالت فى المنطقــة أطلال تشير الى ذلك ، منها مذابح للثيران . كذلك قبر كورش فى پاساجادا ، ويطلق عليــه حاليــا « قبر ام سليمان » ، وقد أقيم فى الطرف الجنوبى من الموقع ، وسط فناء مستطيل الشكل أحيط بحائط بنى من الطوب النى . وقد بنيت الحجرة الجنازية فوق ست طبقات (مداميك) من المبانى ، بارتفاعات مختلفة (انظر شكل ١٨٥ من كتاب جيرشمان) . ولهذه الحجرة فتحة

في الناحية الشمالية ، لا يزيد ارتفاعها عن ٣٥ر١ مترا . وقد بنى القبر من كتل من الحجر الجيرى الأبيض الشبيه بالرخام هذبت بعناية فائقة . والسقف سنمى الشكل ، صنع من الحجر . ويبلغ ارتفاع ذلك البناء كله حوالى ١١ مترا .

وفى الواقع تذخر پاسارجادا ، والتى كانت تسمى قديما پارساجادا Parsagade والتى تعنى « معسكر الفرس » ، بما فى ذلك المعنى من صفات ، فقد مثل فيها الفن الفارسي ولو انه فيه بعض التأثير الاشورى ، مثل تلك الثيران المجنحة وبعض التأثيرات الحثية ، والبابلية ، وبعض الرموز المصرية فى تيجان بعض الأعمدة . ومع ذلك كله فان هذا الفن صورة لحضارة متقدمة ، فقد استطاع الفنان أن يصهر فى بوتقته جميع تلك الفنون ويخرج فنا جديداً له طابعه . وسوف نرى ان فن پرسيپوليس يولد فى وادى مورغاب Murgnab الواقعة فيه پاسارجادا . ولكن لما تولى داريوس الملك وامتدت امبراطوريته من مصر الى الهند ومن الدانوب حتى Yaxarte ، أصبحت تلك العاصمة صغيرة بالنسبة لتلك الامبراطورية . وبالرغم من أنها هجرت سياسيا الا أنها كانت مركزا دينيا كبيرا حتى نهاية الامبراطورية ، فقد شهد معبدها جميع حفلات التتويج الخاصة بالملوك . واختار داريوس سوس Suse لتصبح عاصمة سياسية وادارية . ولقد امتحنت تلك المدينة العيلامية القديمة حينما نهبتها جيوش أشور بانيپال حوالى عام ٦٤٠ ق.م ، وكانت تقع على بعد حوالى ١٠٠ كيلو مترا من الخليج العربى الذى يسير فيه طريقان بحريان يتجهان الى أملاك الامبراطورية الفارسية : الهند ومصر . وكانت هناك ثلاثة طرق برية تربط سوس ، من جانب ، الى برسيپوليس وذلك بواسطة « الأبواب الفارسية » ، بين فاهليان وشاهبور ، ومن جانب آخر ، الى اكباتانا ، عبر اوريستان ، وأخيرا الى بابل ، وذلك عن طريق دجلة . وأقميت القلعة على المعبد العيلامى ، وتقع القصور الملكية الى الشمال الشرقى منها ، وتقع العاصمة نفسها الى الجنوب من القصور . وقد أحيطت هذه الاقسام الثلاثة بسور كبير ، وقد حفر امامه اخدود هو النهر الصغير شاهور Chahour لحماية المدينة . ومن بين الأجزاء الأربعة الرئيسية لقصور الاخمينيين (البوابة الأثرية) وردهة الاجتماعات وردهة الاستقبال ، والأحياء السكنية) واننا لا نعرف ، فى سوس ، بشكل واضح ، الا اثنين فقط : وهى ردهة الاجتماعات ودور السكنى . وقد ضاعت أجزاء كثيرة من هذين البناءين منذ الازمان الغابرة .

وقد أقيم القصر ، بما فيه من ردهة الاجتماعات أو ما يسمى (عپدانا Apadana) على شرفة مثل ذلك الذى مر بنا فى ماساچى

سليمان ، أو فى البداية ، فى پاسارجادا (انظر رسم تخطيطى لهذه المجموعة فى شكل ١٨٨ من كتاب جيرشمان) . وتخطيط ردهةالاجتماعات يشبه ردهة پاسارجادا بما فيها من ردهة وسطى محاطة بثلاثة أروقة وزواياها الشمالية مكونة من حجرتين مربعتين . وقد رفع سقف ردهة الاجتماعات بستة صفوف من العمد من الحجر فى غاية الدقة والاتقان ، وكان جسم العمود مضلعا Cannelé ، والقاعدة مربعة ، وينتهى بتاج زخرف بمقدمة ثورين . ويبلغ ارتفاع كل عمود حوالى ٢٠ متراً . ولو أن مقدمة الثيران هذه الفارسية قد نقلت من اصل اشورى او بابلى ، ولكنها فى فارس مثلت تمثيلا واقعيا يستحق التقدير . وكان بكل رواق صفان مكونان من ستة عمد كانت قواعدها على هيئة ناقوس ، وقد زين بزخارف مختلفة .

وبعد الحفائر التى أجريت فى موقع قريب من سوس ، وهى تشوجا ـ زانبيل Tchoga-Zanbil ، تبين أن قصر داريوس ، فى سوس ، قد نقل من تصميم لقصور عيلامية كانت غالبا مقامة فى هذا الموقع الذى أضحى الآن تلا من التلال الاثرية . وكان يفتح الباب الرئيسى فى الجزء الغربى من السور الخارجى ، وهو يواجه الرواق الغربى لردهة الاجتماعات = (عپدانا Apadana) .

وقد كشف فى سوس عن نص ، يقص علينا الكيفية التى اتم بها داريوس هذا العمل . فبعد أن بدأ النص بالابتهال الى الهه العظيم اهورمزدا ، عدد الملك المواد المختلفة والفنانين الذين عملوا فى هذا البناء فقد ذكر ان الكتل الخشبية الكبيرة من شجر الارز قد استوردت من لبنان ، وان الذهب قد جيء بين من ساردیس Sardes وباكتريان Bactriane ، وانهم احضروا له اللازورد والعقيق من سوجديان Sogdiane ، والفيروز من شوراسمى Chorasmie ، (وهى قطر كان كان يقع حول جانبى شاطيء نهر L'Oxus السفلى "Amou-Daria" وحول بحيرة ارال وكان يشكل جزءا من الستراپية ١٦ من ستراپيات الاخمنيين) ، والفضة والابنوس من مصر ، وكانت زخرفة الحوائط (؟) من ايونيا ، والعاج من اثيوبيا واراشوزى Arachosie (مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الفارسية ، بين La Drangiane من الغرب والهند من الشرق ، وحاليا تقع فى بالوتشيستان) وخشب يسمى Yaka من كرمان Kerman (مقاطعة فى الجنوب الشرقى من ايران) ، وجاندهارا Gandhara (وهى قطر قديم على حدود الهند وافغانستان ، بالقرب من پشاور Peshawar) ، والحجارة الخاصة بالاعمدة ، من منطقة بعيلام . وأما النحاتون الذين قاموا بنحت الحجارة ، فقد ذكر

داريوس انه جيء بهم من ايونيا وساردس . واما الصياغ الذى قاموا بتصنيع الذهب ، فكانوا من ميديا ومن مصر . وعمل عمال ساردس والعمال من المصريين فى صناعة الأثاثات الخشبية . وذكر داريوس أن البابليين قاموا بصناعة الطوب المحروق . وقام الميديون والمصريون بزخرفة الحوائط . وقد بين هذا النص فوق ذلك امتداد سلطان الملك على كل هذه الممالك .

وقد اخبر ارتاكسر كسس الثانى فى احد النصوص أن قصر سوس قد حرق أيام جده ارتاكسركسس الأول ، وانه لم يتم بناؤه الا أيامه هو .

وجميع زخارف ردهة الاجتماعات L'Apadana والقصر كانت من قوالب من الطوب المغطى بالمينـاء (briques émaillées) ولم تستخدم الحجارة الا فى الاعمدة والعتب الخاص بالابواب .

ويحتفظ متحف اللوفر ببعض مناظر فى غاية الجمال والروعة اخذت من قصر داريوس الكبير بسوس ، يمثل بعضها حملة الاقواس من الحراس الملكيين (انظر صورة رقم ١٩٠ من كتاب جيرشمان) ، والبعض Lion-griffon (صورة رقم ١٩١) ، والبعض يصور ثورا مجنحا (صورة رقم ١٩٢) وجميع هذه المناظر الملونة قد صنعت من قوالب مغطاة بالميناء .

ولم يمض وقت طويل على الانتهاء من العمل فى قصر سوس ، دون ترك پاسارجادا ، ويقرر داريوس بناء عاصمة اخرى فى پرسيپوليس Persépolis ، فى موطنه الاصلى فارس Le Fars (انظر شكل ١٩٩ منظر لبعض اطلال المدينة من الجو) . وقد سلك مهندسو الملك الطريق الذى اتبعوه فى پاسارجادا من اقامة شرفة تستند الى الجبل وهنا كان الجبل هو Le "Kuh-i Rahmat" أو "Montagne de la Misericorde"

لن تصبح تلك المدينة عاصمة دبلوماسية او ادارية . وان النزعة الاستقلالية التى مرت بمختلف شعوب الامبراطورية ، والتى عرفت من الثورات الدامية حينما تولى داريوس العرش ، دفعت الملك الشاب أن يركز السلطة فى يده ، على قاعدة من المساواة والعدالة . وقد اختار من بين العائلات الكبيرة الفارسية والميدية وعينهم حكاما على الستراپيات المختلفة . وقد احتفظ كل شعب من شعوب الامبراطورية بلغته ، واتجاهاته ، ودينه ، وفنه ، ولكن كان كل شعب يعترف بأفضال الحكومة المركزية . وكان للامبراطورية ثلاث لغات رسمية ، وكان يقوم

كتاب الدواوين بالمراسلة بلغة أخرى رابعة وهى الارامية ، والتى كانت منتشرة من مصر الى الهند . وقد استمرت سياسة كورش الدينية . فلم يكن هناك ديانة امبراطورية ، ولكن لما كان الملك قد تولى العرش بمشيئة الاله الاعظم ، الخالق لكل شيء ، اهورا مزدا ، اكتسب العالم الفارسى نوعا من الوحدة .

وقد كان كل ما بنى فى پرسيپوليس يمجد الشعور الوطنى . اقيمت الاحتفالات كل عام ، عند بداية الربيع ، حيث العيد الكبير للديانة المزدية : وهو النيروز Now Rouz رأس السنة . ويشهد كبار رجال الدولة من الفرس والميديين تحت رعاية الاله الاعظم أهورا مزدا ، وبحضور ملك الملوك العرض العسكرى وتقدم القرابين من كل الشعوب التى تتشكل منها الامبراطورية ويوضع كل ذلك تحت العرش رمزا للخشوع والطاعة . وقد منع الأجانب من الاشتراك فى مشاهدة هذا العرض . حتى أن Ctésias ، الطبيب اليونانى ، الذى كان مقيما فى بلاط ارتاكسركسس الثانى (٣٥٨ — ٤٠٤) كان يجهل ذلك .

وقد عثر فى ردهة الاجتماعات فى قصر پرسيپوليس على صندوقين من الحجر يضم كل منهما لوحتان صغيرتان ، أحدهما من ذهب ، والاخرى من فضة ، ومعهما بعض قطع من نقود . وقد نقش النص من ثلاث لغات : الفارسية القديمة ، والعيلامية ، والبابلية . وقد ذكر ما يلى : داريوس الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك الاقطار ، ابن ڤيشتاسپا Vishtaspa الاخمينى . يقول داريوس الملك : « هذه هى المملكة التى امتلكها من شعب بلاد Çakas (١) الذين كانوا بالقرب من Sogdiane حتى كوش (٢) ، ومن الهند حتى ساردیس . هذا هو ما وافقنى عليه أهورا مزدا ، انه هو أكبر الالهة . ان أهورا مزدا يحمينى ، وكذلك يحمى قصرى » .

وبمنى Apadana و ردهة الاجتماعات سلمان فى الجوانب الشمالية يصلان الى الداخل . ويتكون زخارفهما من ثلاثة أقسام : فى الوسط ، فى الواجهة ثمانية حراس يقدمون للملك ، بينما نجد فى الزوايا ، مثل انتصار الخير على الشر بأسد يصرع ثورا (انظر الصورة رقم ٢١٢ من كتاب جيرشمان) . وقد زين الجزء الخارجى من السلم بمناظر الطبيعة . وفى الجزء الداخلى صور الحراس الفرس على درجات السلم (انظر شكل ٢٠٩ من كتاب جيرشمان) حيث يمر الملك وكبار رجال الدولة . وقد

---

(١) شعب من اصل سكيثى ، جاء من التركستان الصينية وامتزج مع Yue-tche نيفزو المملكة اليونانية البكترية (حوالى ١٣٠ ق.م) .

(٢) السودان .

صور على الحائط الداخلى لردهة الاجتماعات موكب ثلاث وعشرين دولة خاضعة للامبراطورية ورجال البلاط ، من الفرس والميديين وفى ركابهم خيولهم ، وعربات الملك ومعهم حراس من أهل سوس .

ويشاهد الملك وحاشيته العرض العسكرى من مقصورته الملكية (Loge royale) وقد برز من الشرفة أمام الرواق الغربى لردهة الاعمدة. ونرى فى هذا الاحتفال الآثار التى أوصى بها داريوس الاجيال اللاحقة . ويقدم السوسيون الاسلحة والاسود . والارمنيون أوعية من معادن نفيسة ، وخيولا ، والبابليون كؤوسا ، واقمشة مطرزة ، وجواميس ، والليديون صناع مشهورين ، ومنتجات معدنية ، والخيول ، والسوجديون Sogdiens ، الخراف والاقمشة ، والكاپادوسيون او الفريجيون خيولا وملابس مطرزة ، والساكاس Les Çakas أو « أصحاب القلنسوات المدببة » الخيول ، والحلى ، والملابس ،والهنود ، الاسلحة والبغال . وقد رسم بين كل جماعة والأخرى شجيرة وهى (Pinus Prutia) . وهى تبين ما قام بغرسه داريوس فى هذه الساحة الواسعة ، أسفل الشرفة . ومن الفحص تبين من شكل الافصان ، أن عمرها يبلغ من عشر سنوات الى خمس عشر سنة . هذا وقد تعددت الوان هذه النقوش (انظر الاشكال الآتية فى جيرشمان وهى ٢١٦ تمثل نقشا على السلم الشرقى من Apadana السوسيين والارمنيين وحراس من الفرس . وشكل ٢١٧ يمثل حراسا من الفرس ، ٢١٨ يمثل حراسا من السوسيين ، ٢٢٠ يمثل سوريين أو ليديين ، ٢٢١ منظر أحد البابليين ، ٢٢٣ وفدا من البابليين ، ٢٣٠ يمثل راس أحد الباكتاريين ، ٢٣١ يمثل احد الحجاب من الميديين يقود شورازمى) .

وبعد أن ينتهى الحفل الخاص بعيد رأس السنة (النيروز) ، يتجه الملك وكبار رجال الدولة الى "Tripylon" ، وهو بناء صغير له ثلاثة أبواب . ويسير الملك على سلم فسيح ومعه حامل مظلته (انظر شكل ٢٣٣ من كتاب جيرشمان) ، وحامل مذبته .

وسوف يقام مثل هذا الاحتفال فى قصر داريوس الذى يزخرف سلاله بخدم يصعدون درجات السلم ويحملون اطباق وقوارير وحيوانات . مخصصة للأكل من أيام اكسر كسس (أنظر صورة رقم ٢٤٤ ورقم ٢٤٥) .

كان قصر داريوس قد أصبح صغيرا ، من أجل ذلك حل مكانه بناء

أكثر اتساعا . وعلى اية حال ، لم يكن هذان القصران من المنازل الخاصة : كان الملك يستقبل فيه زواره ويقيم فيه الحفلات الرسمية .

وحينما ينتهي الاحتفال ، يعود الملك وندماؤه مرة أخرى الى الريپليون Triplyon ، ولكن فى هذه المرة يمرون من الباب الشرقى . وهنا نجد نقوشا مثل فيها داريوس جالسا على عرشه ، وقد استند الى ثمانية وعشرين شعبا ، ممثلة على اسفل العرش ، ووقف من خلفه اكسركسس ، الأمير الوارث . (انظر شكل ٢٤٦ من كتاب جيرشمان) ، وقد اقيم العرش تحت ظلة زينت بزخارف رائعة ، يعلوها الاله آهورامزدا مصففا جناحية .

وقد صور فى ردهة المائة عمود (انظر شكلى ٢٤٨ ، ٢٤٩) ، الملك (وهنا ارتاكسركسس الأول حفيد داريوس الأول) وحاشيته من خلفه يدخلون هذه الردهة وهى « ردهة العرش » . صور ارتاكسركسس الأول ، بعد ربع قرن من وفاة جده ، وقد اتم هذا البناء ، حيث نقشت اروع المناظر واعظمها قصور ملك الملوك وهو يتقبل ممثلى الدول وهم يقدمون هداياهم .

وقبل أن يصل الملك ليجلس على العرش ، صور رؤساء البعثات السياسية ، وقد احيطوا برجال من اتباعهم ، وقد حملوا نفس الأشياء وبداوا يتوجهون الى ردهة العرش ، ويصعدون السلم الكبير من الشرفة ، ويعبرون les "Propylées" الخاص باكسركسس ، وقد اشارت النصوص انه باب « كل الاقطار » وحينما يخرجون من الباب الغربى ، يسيرون فى طريق طويل خاص بالمواكب ، الذى يصل أمام الحائط الشمالى لسور ردهة الاجتماعات Apadana . ويخرجون بعد ذلك من باب كبير .

وبعد ذلك يدخل كل رئيس بعثة فى الردهة ليضع تحت العرش هداياهم . وقد صور على صفحات جدران ردهة المائة عمود الملك البطل "heros royal" يصرع حيوانا ، حقيقيا أو مركبا (انظر الأشكال من ٢٥٠ الى ٢٥٣) ، وفى هذا اشارة الى تمكن الامبراطورية من القضاء على اعدائها الاقوياء . واذا ما انتهت البعثات من مهمتها يعودن من حيث أتوا من طريق المواكب ، الى أن يخرجوا من الباب الكبير لاكسركسس .

وتصف نقوش الأبواب الشمالية لردهة العرش الحلقة الأخيرة الخاصة باحتفالات عيد راس السنة فى پرسيپوليس . وقد جاء هنا موضوع تمثيل الملك على عرشه ممثلا تمثيلا صادقا (انظر شكل ٢٥٥ حيث مثل الملك

داريوس وهو محفوظ بمتحف طهران) . وقد جلس الملك امام مذبحين للنيران (موقدين) وهو يتقبل الهدايا من الاقاليم . وقد أحيط الملك بجملة المدبات ، والأسلحة الملكية ، وحراسه ، وقد صف هؤلاء الحراس في خمسة صفوف من اسفل العرش . ويحملون الهدايا التى قدموها الى الخزانة Tresorerie .

وقد كشف فى فناء الاروقة من الجزء الاوسط للخزانة Tresorerie أمام ردهة ٩٩ عمودا عن نقشين . والمناظر فيهما مألوفة : فهى تصور الملك (وغالبا ما يكون داريوس يتبعه ولده اكسركسس ، واتباعه . وغالبا ما كان Tresorerie ردهة مؤقتة للعرش ، قام ببنائها داريوس . والحقيقة انه فى اثناء حياة داريوس ، كان الجزء الأكبر من شرفة پرسيپوليس مكانا واسعا ، وقد اتم وحده بناء قصره والتريبيلون Tripylon . اما ردهة الاجتماعات Apadana فقد اقيمت ايام أكسركسس ، وبنى ارتاكسركسس ردهة العرش فقط .

كان لداريوس الفضل فى انشاء عاصمة جديدة خصصت لاظهار عظمة وقوة الفرس ، كما أن هذه الاحتفالات قد تمت فى ايامه . وقد بدأ بناء Tresorerie لتودع فيها الثروات التى كانت تفد من المستعمرات . ولما كان داريوس فى حاجة ماسة الى ردهة للعرش ليستقبل مبعوثيه الى الأقاليم . فقد كانت هذه هى ردهة ٩٩ عمودا ، يسبقها فناء له أربعة أروقة ، حيث نقش عليها النقشان السابق الاشارة اليهما . وقد بنيت على وجه السرعة ، لأنها صنعت من الطوب النى والخشب ، ولم يكن بها من الحجر الا قواعد العمد . أما الاعمدة فقد صنعت من الخشب ، وقد طليت بالجص الذى زخرف بخطوط حلزونية زرقاء وحمراء وبيضاء .

والى جانب ذلك ايضا ، فان مركز الابهة والعظمة كلها فى هذه المجموعة من ايام داريوس نجدها فى الجانب الجنوبى للشرفة .

أما ردهة المائة عمود ، التى تقع الى الشمال من ردهة العرش المؤقتة لداريوس ، والتى تشكل الجزء الثالث من Tresorerie ، فغالبا أن الذى أقامها اكسركسس . ولما ازدادت ثروات البلاد اخذت الردهة المؤقتة لداريوس واضيفت الى Tresorerie ، ثم بنى بعد ذلك ردهة للعرش .

من كل ذلك نستطيع ان نتصور ان داريوس لم يكن ليبغى من وراء تلك المنشآت اقامة حصن . ولكن على العكس كان يود أن تكون پرسيپوليس ملتقى شعبه .

ومن الأشـــياء التى تلفت النظـــر فى هـــذه المجموعة من المبـــانى فى پرسيپوليس تلك العمد الرائعة الذى استطاع مهندسو الملك أن يزينـــوا هاماتها بأربعة أنواع من التيجان (انظر الأشكال من ٢٦٣ الى ٢٦٨) والتى لم نجدها فى سوس . فقـــد وجدت الثيران تحمـــل سقف Apadana وردهة العرش . واما النوع الثانى من التيجان فيتمثل فى الأسود المزودة بالقرون ، وقد وجدت فى الفناء الجنوبى لـ Tripylon وعلى الأعمـــدة العليا لرواق Apadana . وثالث التيجان هو ما كان على شكل مقـــدمة مزدوجة لـ عقاب Griffon ، وقـــد كشف عن اثنين من هـــذا النوع من التيجان شمالى الحـــائط الشمالى لســـور Apadana . والنوع الرابع ما كانت له تيجان على هيئة انسان .

ما من شك أن العمارة الايرانية قد تأثرت بالفنون الســـابقة لها : المصرية ، والعيلامية ، والبابلية ، والحثية ، والاورارتية ، والآشورية .

فالشرفة الايرانية مقتبســـة من اصـــل اورارتى . وتصميم معبـــد پرسيپوليس نفسه تصميم أورارتى . وقصر سوس هو وحده الذى صمم طبقا لمعبد عيلامى ، والسبب فى ذلك يرجع الى الجو الحار الموجود فى سوس ، الذى دفع المهندس أن ينظم المبنى حول فناء متوسط داخلى . ولكن لم ينجح الفنان الايرانى تماما فى مزج هذه الفنون المختلفة ويخلص بفن ايرانى له صبغته الخاصة به ، كما لم ينجح فى نقل بعض هـــذه العناصر المعمارية تماما . وقد فقدت هذه العمارة وزخارفها وعمدها وتيجانها عدم معرفته لتشريح الاجسام الذى مهرت فيه الشعوب القديمة الاخرى .

لقد تأثر الفن الفـــارسى أيضـــا بالفن اليـــونانى . فقد كشـف فى دار الخزانة فى پرســـيپوليس عن تمثـــال لـ بنلوب Pénélope ، مؤرخ من النصف الثانى للقرن الخامس ق . م (أنظر شكل ٢٧٢ من كتاب جيرشمان) . كذلك كشف عن فخار يونانى من النصف الثانى للقرن الخامس فى سوس .

لم يكتف الامراء الاخمينيون بمقر اقامة واحد ، فهذا كورش قبل أن يبنى پاساجاردا ، اختار سوس عاصمة ، وبعد ذلك اكبـــاتانا ، وبابل . وجاء من بعده داريوس ، فبعد اقامة قصـــيرة فى بابل ، اختار ســـوس وپرسيپوليس .

وقد انشئت شبكة من الطرق كبيرة بين المراكز المختلفة فى الامبراطورية وعواصمها لتسهل انتقـــال البلاط الملكى وحركة التجـــارة . ومن بينها الطريق الذى كان يصل سوس وپرسيپوليس . وقد بقى عنـــد چين —

چين (١) Djin-Djin بالقرب من فاهليان Fahlian بقايا بناء صغير (سلاملك) ملكى لازال باقيا منه قواعد اعمدة ناقوسية الشكل ولها طراز سوسى أو پرسيپولى (انظر شكل ٢٧٣ من كتاب جيرشمان) وكان فى هذا المكان عند أحد مرتفعات زاجروس يأخذ عساكر الملك قسطا من الراحة . ويقع هذا الموقع بالقرب من نهر كبير ، فى قطر به أشجار . فبعد أن يقيموا فيه فترة يواصلون رحلتهم التى سيواجهون فيها بعد ذلك طرقات صعبة .

وكان يوجد طريق آخر ، يمر بلوريستان ، ويربط سوس باكباتانا ، حيث كانت مصيفا للقصر . وليس لدينا من هذه العاصمة الا قاعدة عمود من الحجر الجيرى القاتم يحمل اسم ارتاكسركسس الثانى .

لقد سبق أن أوضحنا كيف تم للايرانيين احتلال بابل أيام كورش عام ٥٣٩ . ولم يفعل داريوس بالمدينة أى ضرر بالرغم من انها قامت بثورة . ولكن اكسركسس هدمها . ولكن انتعشت مرة أخرى وأصبحت العاصمة الرابعة للامبراطورية أيام ارتاكسركسس الأول .

لقد كان لهذا العاهل الأخير عشيقات بابليات ، من اجل ذلك اقام كثيرا فى بابل ، وهذا داريوس الثانى (وكان ابنا من احدى عشيقاته) قد عين قبل أن يصل الى العرش ، سترابا على بابل .

ومن الطبيعى أن الملوك وحكام الأقاليم قاموا ببناء الكثير من المنازل . ولم نعثر فى بابل الا على بناء ، سمى Apadana (ردهة الاجتماعات) .

ولا يتفق العلم الحديث مع ما ذكره هيرودوت ، الذى ادعى انه لم يكن للفرس دور للعبادة ، ولا مذابح ، ولا تماثيل للآلهة . وحقيقة الأمر انه كان للفرس معابد كانت تتصل بالقصور الآشورية ، كما كانت توجد معابد للاله آهورامزدا . ولقد كان الفرس يهرقون الدماء من أجل آلهتهم . وقد كان المجوس هم الذين يقومون بذلك . وقد كان المجوس ، قبيلة كهنوتية من أصل ميدى ، يشغلون وظائف هامة . وقد كانوا يرافقون الجيش ، ليقوموا بأعمال قربان التضحية ، يتلون الأناشيد ، ويجهزون شراب Haoma (٢) ، ويقومون على حراسة القبوز الملكية ، ويرعون « النار المقدسة » فى المعابد . وتؤدى العبادة الرسمية فى الهواء الطلق .

---

(١) مدينة فى اقليم فارس Fars ، على بعد ٦ كيلو مترا الى الغرب من Fahlian

(٢) شراب مقدس كان يستخدم فى الحفلات الدينية عند قدماء المصريين . وكان يجهز من نبات خاص .

وفى ناحية نقشى روستام Naqsh-i Rustam ، التى لا تبعد كثير عن پرسيپوليس مركز دينى رائع ، حيث وجدت بقايا نقوش عيلامية ، منحوتة فى الصخر ، توضح الاتجاه نحو الطقوس المزدية الفارسية . ومعبد للنار (شكل ٢٧٧ من كتاب جيرشمان) .

وتجاه قبر داريوس الى الأسفل ، معبد على هيئة برج مربع الشكل ، يسمى حاليا « كعبة زاردشت » .

كذلك قام الفرس بنحت تماثيل لآلهتهم ، واخصها ما كان للاله آهورمزدا الذى مثل على هيئة نصف جسد انسان يخرج من قرص مجنح (انظر شكل ٢٦٨ من كتاب جيرشمان) . وما من شك انه مقتبس من مصر الفرعونية اذا كانت الأجنحة فى قرص الشمس المجنح تمثل السماء بواسطة أجنحة الاله حورس ، الاله العظيم ، وكان طائره المقدس الصقر . ولكن لم يكن آهورمزدا الها فريدا . ومنذ أيام ارتاكسركسس الثانى كثرت الآلهة : مثرا Mithra ، آله الشمس ، والعقود ، والمخلص ، وهو اله ايرانى قديم . واناهيته Anahita ، الهة المياه ، والخصوبة ، والولادة .

ويرى Wikander أن برج نقشى روستام يمثل معبدا لأناهيتة ، حيث كان غالبا يوجد تمثال الالهة . ويرى Berose أن الالهة كانت مبجلة فى ساردس، وبابل ، ودمشق، وسوس ، وآكباتانا ، وپرسيپوليس ، وباكترس Bactres . وقد صورت اناهيتة صاحبة باكترس على ظهر عملة للملك اليونانى الباكترى ديمتريوس Démétrius (أوائل القرن الثانى ق.م). والثالوث اهورامزدا ــ مثرا ــ اناهيتة ، الذى عبد أيام الاخمينيين ، عبد أيضا فى أرمينيا ، حيث أشار الى ذلك المؤرخون الاقدمون .

وبالرغم من الجدل الذى أثير حول برج نقشى روستام ، فانه لايمكن الا أن يكون معبداً لأناهيتة .

ومنذ بداية الحكم الاخمينى انتشرت عبادة اهورامزدا فى الامبراطورية بعد أن قام زاردشت ببعض التحسينات .

لقد اعتقد زاردشت أن الموتى لا يصح دفنهم فى الأرض ، ولا حرقهم ، ولا اغراقهم فى الماء ، خوفا من تدنيس العناصر الثلاثة المقدسة وهى الأرض ، والماء والنار . وعلى ذلك كان من الواجب ترك الجثث فوق الجبال أو فوق الأبراج التى كانت تقام من أجل هذا الغرض ، ثم تختفى العظام الضامرة فى مكان مخصص للعظام (معظمة) ، وتوضع فى قبور محفورة أو مقامة فى الهواء الطلق .

ولم تكن الاخمينيون زرداشتيين ، لأنهم دفنوا جثث موتاهم أيام داريوس ، فى السفح الوعر لنقشى روستام (مقابر داريوس ، واكسركسس ، وارتاكسركسس الأول ، وداريوس الثانى) أو فى الجبل ، خلف شرفة پرسيپوليس (مقابر ارتاكسركسس الثانى والثالث ، وداريوس الثالث) .

وكان القبر المنحوت فى الصخر Da-u Dukhtar أو « المربية والأميرة » ، والذى يقع على طريق پاساجاردا الى ماسچيدى سليمان ، لأحد أسلاف كورش العظيم .

كلمة الختام فى الفنون

تقدمت الفنون فى المجتمع الاخمينى ، ويرجع الفضل فى ذلك الى استخدام العملة ، والتجارة العالمية التى امتدت فى مساحة واسعة ، وقد سلكت طرق بحرية وبرية . وقد أتمت لوحات پرسيپوليس ما جاء فى ميثاق سوس ، كل ذلك كشف عن وجود تنظيم امبريالى للأعمال . ويعد الخطاب الذى كتب فى سوس ، فى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد على وجه التقريب ، بواسطة الأمير ارسام Arsame ، ستراب مصر الى نهتهور Nehthor ، ناظر أملاكه المصرية ، وثيقة قوية ، جاء فيها : « فيما يختص بالنحات المسمى هانزانى Hanzani ، فان تابعى باجاسارو Bagasaru جاء به الى سوس ، اعطه ، ونساء بيته نفس الأشياء التى أعطيت للمساعدين الآخرين حتى ينحت لك تمثال فارس ... ، وكذلك لينفذ لك تمثال حصان وفارسه الذى أرجو أن يشبه ما سبق أن صنعه لى وكذلك منحوتات أخرى . واستعجل (الرجل) حتى يمكنه أن يحضره بدون تأخير وبمنتهى السرعة » . ولم يقتصر الامر على احضار فنانين مصريين الى الفرس ، بل أيضا فان عظماء الفرس الذين كانوا يقيمون فى مصر ، كلفوا المصريين بعض الأعمال لتجميل منازلهم .

ازدادت النقوش فى المنشآت المعمارية أكثر من التماثيل ، وبقى نحت التماثيل قاصرا على الاشياء الصغيرة : رؤوس تماثيل ، أو النذور التى كانت فى المعابد .

وان الرأس التى عثر عليها فى ممفيس ، والمحفوظة بمتحف اللوفر تتصل اتصالا وثيقا بهذا الاتجاه (شكل ٢٩٣ من كتاب جيرشمان) ، وهى تشبه من ناحية السلالة رأس أخرى فى مجموعة خاصة (شكل ٢٩٢) . نحتت من نفس المادة (حجر جيرى) وبنفس المقياس . وقد تحرر الفنان فى نحته أحدها بينما التزم الى حد كبير الحقيقة الواقعية فى الاخرى .

والتمثال الصغير الوحيد الذى وصل الينا ، هو النصف العلوى فقط غالبا لأحد الميديين (؟) (أنظر شكل ٢٩٥ من كتاب جيرشمان) يحمل أسدا صغيرا . وقد صنع من الأزورد . ويلاحظ دائما أن الفنان فى المنحوتات الاخمينية ، قد عالج الشعر واللحية بصفوف متوازية من خصلات الشعر ، بينما استدار الشارب فى نهايته ، والانف محدبة . أما الحيوان الصغير الذى يضعه الرجل بين يديه فقد مثل ثوره فارغا .

* * *

ديانة الايرانيين (١) :

قدس الايرانيون السماء ، وكانت تسمى عندهم Doyaosh ، وهى شبيهة بالاله اليونانى زيوس ، لقد كان يمثل الرب « أهورا » ، أو العاقل « مزدا » . وبعد ان تقدمت الايام اتحدت الكلمتان « اهورا ـ مزدا » = « الرب العاقل » .

ويأتى بعد ذلك الاله مثرا Mithra فى المرتبة الثانية من الالهة وقد عبد فى بلاد ميتانى ، وعبده بعض الاريين فى الهند . وكان يمثل فى بعض مظاهره الشمس نفسها ، وكان يعد اله العدالة ، وكانت تقام له الاعياد يضحى فيها بثيران احيانا حتى أيام الاخمينيين . كما كانت تقدم اليه الخيول قربانا فى أول أيام السنة . وكان يمثل اله الحرب . ومن مظاهره أيضا انه هو الريح ، وانه هو الثور ذو القرون الذهبية ، والحصان ذو الاذان الذهبية ، وانه الجمل ، وانه الغراب الاسود ، والكبش الوحشى والوعل ، ومن الجائز تمثيله على هيئة شاب أو رجل بالغ . ولم يقتصر الامر على منحه النصر للاريين وحماية روح الثورة المقدسة ، فبالاضافة الى ذلك ، فانه يهب للرجال الخصوبة الجنسية والصحة .

المزج فى الزردشتيه :

واضح من النقوش التى تركها داريوس الاول على صفحات جدران قبره تأثره بتعاليم زاردشت . ولكنه لم يتبع هذه التعاليم فى جميع شئونه وكذلك الحال عند خلفائه . وقد لوحظ ان النصوص الرسمية الخاصة بالامبراطورية لم تتحدث عن أهورا مزدا كاله واحد . وبالاحرى فقد كان يمثل الاله العظيم بين الالهة ، وكان يذكر الى جانبه الالهة الاخرى .

---

(١) Marijan Molé, Culte, Mythe et Cosmologie dans L'Iran Ancien, Paris 1963.

والى جانب ذلك وجدنا فى جميع انحاء الامبراطورية الايرانية تقديسا لاله الشمس فهذا ارتاكسركسس الاول يضع مثرا Mithra رسميا فى المرتبة الثانية بعد اهورا مزدا . وهذا ارتاكسركسس الثانى يتقرب على وجه الخصوص الى الالهة اناهيته Anahita = ارتميس - Artemis اليونانية وقد أقام لها التماثيل فى بابل ، وسوس ، واكباتانا ، وفارس ، وباكترا ، ودمشق ، وساردیس . وقد مثلت وعلى راسها تاج من ذهب به مائة نجم مثمنة الاشعة - وهى نجمة بابل الخاصة بالالهة عشتار - بها عصاب للراس . وتضع فى اذنيها اقراط من ذهب مربعة الشكل ، وعلى صدرها عقد من ذهب . وارتدت ثوبا مطرزا بالذهب . وقد شد الرداء بحزام ، وتقبض فى يدها على baresma ، وهى حزمة مقدسة من بعض الاغصان . وانتعلت حذاء لامعا مطعما بالذهب .

وقد اعتبروها نهرا يفيض بالماء صيفا وشتاء ، وانها صاحبة قنوات طويلة . وقد تصورها الايرانيون انها تجهز نطف الرجال لاخصاب النساء وكانت هى المسئولة عن حفظ الجنين فى الرحم . وبعد الوضع تقوم على جعل اللبن يسيل فى صدر المراة . وكانت تمنح الرجل الصحة والعافية وتنمى حقوله ومراعيه .

كذلك ظهرت الهة هندية اوربية اقل فى المرتبة من اهـــورامزدا ، اخصها Atar (اله النار) عرفت الى جانب اهورا مزدا .

معرفة اليونانيين الديانة الايرانية :

عرف يونانيو القرن الرابع الديانة الايرانية أكثر من هيردوت . فحوالى ٣٩٠ استطاع پلاتو ان يحدثنا عن mageia of Zoroaster . ووصلت الينا معلومات عن الديانة الايرانية المعاصرة عند اكسنوفون Xenophon فيما كتبه تحت عنوان Education of Cyrus نصائح كورش . وعلى حسب أوامر ماجى Magi ضحى بالعجول الى زيوس والى الهة اخرى ، ولكن خصصت الخيول للشمس . وجد فى المواكب الدينيه مركبة يجرها خيول بيضاء لونها ولها ناف من ذهب من اجل زيوس ، ويليها مركبة اخرى للشمس ، وثالثة لم يذكر اكسنوفون شيئا عنها . ويأتى فى آخر الموكب رجال يحملون نارا على مذبح كبير للنار . وحينما يصـــل الموكب الى الحوش المقدس ، يضحى المصلون الى زيوس ويقومون بحرق العجول كذلك يقومون ايضا بحرق العجول من اجل الشمس ، وبعد ذلك الى الابطال المحليين .

وكان اكسنوفون على علم بان القسم كان لمثرا ، والذى كان يقام له

احتفال كل سنة كما اخبرنا بذلك كل من كتسياس Ctesias ودوريس Duris المؤرخان اليونانيان . وقد بين Deinon ان ضحية الماجى Magi كانت تقدم فى الهواء الطلق لانهم كانوا يعتقدون ان الماء والنار هما الرموز الوحيدة للالهة .

كان بلاتون يتصور أن زاردشت ابنا لاهورا مزدا نفسه . قلة من علماء اليونان الذى لم ينس ان هـــذا النبى العظيم كان معاصراً لوالد داريوس هيستاسپس Hystaspes ولكن تصوره المواطنون الايرانيون شبه اله . ولكن جرى العرف عند كتاب اليونان على ان زاردشت ولد فى عصور ماقبل التاريخ . وقد تعددت القصص عن نشاته ، والله وحده يعلم حقيقة امره .

وقد كتب ارسطو كتابا ضاع سماه Magian ، مع انه كان ينكر على الماجى ممارستهم ما اصطلح على تسميته بالسحر magic وقد اشار الى ان الفلسفة الحقيقية تبدأ من الماجى والبابليين والاشـــوريين « الكلدانيين » . ويرى أرسطو وغيره من فلاسفة اليـــونان ان الماجى يؤمنون بحقيقتين : الروح الطيبة وهى زيوس او اهورامزدا ، والروح الشريرة ، وهى Hades أو Ariemanius ويضيف Theopompus and Eudoxus الى ذلك ايمان الماجى بالعالم الآخر .

هذا وقد اقيمت دور العبادة للالهة اناهيته فى جميع انحاءالامبراطورية أيام ارتاكسركسس الثانى . وعنـــد نهاية العهـــد الهيلينى عرفت ديانة الماجى للمثقفين اليونان .

* * *

الفصل السابع

حملة الاسكندر الأكبر على الشرق واصطدامه بداريوس الثالث

تمهيد :

قام فيليب بتجهيز حملة كبرى على فارس . ومنذ خريف عام ٣٣٨ ، كان من بين الاسس التى اتفق عليها فى اتفاقية كورنثا ، منع أى مواطن من مدن هذا الحلف ، الموافقة على العمل فى جيش اى قوة خارجية ــ وقد كان هذا الاجراء موجها ضد فارس ، حيث كان يعمل فيها الكثير من المرتزقين من انحاء بلاد اليونان منذ خمسين سنة ، وكان لدى الفرس أحسن المترجلين من تلك الجماعة . ومنذ ربيع عام ٣٣٧ ارسل فيليب فيما وراء هلس پونت ، تحت اشراف پارمنيون Parménion ، وقد كان من احسن قواد مقدونيا ، ومعه عشرة آلاف رجل . وقد مرت حوادث فى الفترة التالية منعت فيليب من الاستمرار فى الصراع مع فارس التى لا زالت تتمتع بموارد مالية هائلة وبقوات كبيرة تعد اكبر قوة فى البحر المتوسط فى هذا الوقت .

لقد كانت الفرس بالنسبة لفيليب من الجيران الخطيرين . وقد استطاع فيليب ان يقضى على الثغرات فى بلاد اليونان ، واخضع Byzantium وبذلك أمن فيليب الشاطىء الأوربى عند البسفور وهلس پونت .

وقد دب نزاع فى قصر فيليب ، على اثر خلاف بينه وبين أوليمپياس Olympias أم الاسكندر وذلك لزواجه من اخرى . فتركت اوليمپياس المملكة ومعها ولدها الاسكندر ، وعادت عام ٣٣٦ . وقد اغتيل فيليب بواسطة شاب من الاشراف ، هو پاوسانياس Pausanias . ومن الجائز أن أوليمپياس أو الاسكندر نفسه كان له أصبع فى هذا الحادث .

وليس مؤكدا أن الاسكندر قد فكر أولا فى تحقيق خطة والده الكبرى الآسيوية . وكان الخطر فى هذا الوقت من برابرة الشمال . وقد كرس الفترة الأولى من عام ٣٣٥ لحملة حربية حتى الدانوب للقضاء على ثورة الليريين Illyrie .

بعد أن تولى الاسكندر عرش مقدونيا (١) ، وجد نفسه مهددا بأعداء من جميع جوانب مملكته . فاتجه أولا الى اليونان واخصفها وانتخب الاسكندر فى كورنثا قائدا مكان والده .

وقد اختير الاسكندر قائدا عاما لحملة آسيا . وقد أحس قبل قيامه بهذه الحملة أن اهل ثراقيا يستعدون للقيام بثورة ضده ، فقضى على الثورة فى مهدها . وقد حاولت فارس أن تثير الشعب فى بلاد اليونان فلوحت للقادة فيها بالذهب . وقبل أن يبدأ الاسكندر حملته على آسيا بخمس سنوات ، ارسلت اثينا سفراء الى سوسة تطلب من ارتاكسوكسس اعانات مالية ، ولكن رفض الملك طلبهم . وقد أرسل ستراب فريجيا ــ وغالبا تحت مسئوليته ــ معونة . ثم تنبهت بالتدريج فارس الى قوة مقدونيا . وقد قام الملك الجديد داريوس بالعمل على عرقلة احلام الاسكندر فى غزو آسيا . فبدأ يثير الفتن فى بلاد اليونان ويقدم لحكوماتها المنح ، وقد قبل بعضها هذه المنح . فقدم الى أثينا ثلاثمائة تالنت ولكنها رفضتها علنا ، ولكن وافق شخصيا دموستنس Demosthenes على هذه المنحة ، على أن تنفق فى الرغبات التى يراها الملك العظيم . وقد اشيع أن الاسكندر قد قتل فى ثراقيا . وبعد أيام ظهر كذب هذه الاشاعة ودخل طيبة واخذها فى سبتمبر عام ٣٣٥ . وتوالت انتصاراته فى اليونان بعد ذلك ، فهذه اثينا تهنئه بانتصاره على طيبة . وبسقوط طيبة انتهى صراع الاسكندر فى أوربا . وأنفق البقية من حياته فى آسيا .

الاستعدادات لحملة الاسكندر على الامبراطورية الفارسية

امضى الاسكندر الشتاء كله فى الاستعداد وتنظيم بلاده داخليا لغيبة طويلة ، ثم توجه فى الربيع الى آسيا . أما من ناحية خططه وتنظيماته ، فلم تسعفنا الأيام بشىء واضح ، ولكن يمكننا أن نقول فى ثقة واطمئنان ، أن خطته فى الغزو كانت مدروسة دراسة وافية ، وأنه ما انطلق فى هذا الغزو كمغامر يسطو على كل ما تقع عليه يده وصادفه فى طريقه . لقد اندمجت خطته الأصلية بعد ذلك فى خطة ثانية كبيرة ، والتى لم يكن ليتصورها حينما غادر مقدونيا ، لانه كان فى حاجة الى معرفة جغرافية آسيا الوسطى . ولكن فى الخطة الأولى كان هدفه غزو مملكة فارس ، ليخلع الملك العظيم من عرشه ويحل محله ، وليكيل لفارس بالصاع الذى كال به اكسركسس لمقدونيا وبقية هلاس Hellas . وحتى يحقق هذه

(١) قمت بالاستعانة فى هذا الفصل بالمرجعين الآتيين :
a) Jean Hatzfeld, Histoire de la Grèce Ancienne, Paris 1965.
b) J. B. Bury, History of Greese, Third Edition, London, 1962.

الخطة ، كان عليه أولا أن يحمى ثراقيا ، وقد فعل ذلك . أما الغزو نفسه، فقد كان له ثلاث مراحل . المرحلة الأولى غزو آسية الصغرى ، والمرحلة الثانية غزو سورية ومصر ، وقد كانت هاتان الغزوتان قبل تقدمه الى بابل وسوسة وهى المرحلة الثالثة ، يعنيان ليس فقط امتلاكه أراض ، بل يهدفان الى ايجاد قواعد عسكرية لغزو آخر . وكانت النقطة الضعيفة فى مشروع الاسكندر هو افتقاره الى أسطول قادر على القوة البحرية الفارسية . ولذلك اعتمد على اتحاد كورنثا ، وقد قدمت له أثينا وحدها ٢٠٠ سفينة .

وقد اضطر الاسكندر لترك جزء كبير من الجيش الوطنى فى مقدونيا ليحميها من أعدائها فترة غيابه . وترك حكومة البلاد فى يد وزير والده انتيپاتر Antipater . وقد قيل أن الاسكندر قد قام بتنظيمات قبل مغادرته البلاد ، يلمس فيها المؤرخ عدم التفكير فى العودة الى وطنه مرة أخرى . فقد قام بتقسيم كل أملاكه الملكية والغابات والدخول بين أصدقائه، وحينما سأله پرديكاس Perdiccas عما تركه لنفسه ، أجاب « الامل » . وعند ذلك أبى پرديكاس أن يأخذ شيئا منها ، وصاح « اننا نحن الذين ننزل المعركة معك فى حاجة فقط الى مقاسمتك الامل » .

كانت الامبراطورية الفارسية فى هذا الوقت ضعيفة يحكمها ملك ضعيف . فهذا ارتاكسركسس يتفاخر بقوته ، ويعيد سلطانه على آسية الصغرى ، ويقمع الثورات فى فينيقية وقبرس ، ويغزو مصر التى حاولت التحرر من نير الاستعباد الفارسى . وفر نقتانبو الى بلاد النوبة . وقبض الملك الفارسى على زمام الأمور فى مصر . وقد كان لسوء معاملة ارتاكسركسس المصريين وغيرهم من شعوب الامبراطورية أن اغتيل فى قصره . وبعد أن مرت البلاد بأزمات فى الحكم كما سبق أن بينا ، تولى العرش داريوس كودومانوس Darius Codomannus عام ٣٣٥ أو داريوس الثالث .

يحاول بعض الناس أن يبرر ضياع الامبراطورية الفارسية الى عدم قدرة داريوس الثالث على الحرب وانه لم يكن قائدا ممتازا . ولكن من ناحية أخرى فقد كانت لديه القدرات الآتية :

أولها ، كان لديه قوات من الرجال تفوق قوات الاسكندر ، وثانيها ، كانت لديه أموال طائلة فى خزائنه فى سوسة ، وبقصره فى پرسيپوليس ، وثالثها ، كان لديه أسطول يشرف على حماية شاطىء آسية الصغرى ، وسورية ومصر ، ورابعها ، ولو انه كان لايوجد تماسك فى هذه الامبراطورية

الواسعة ، فلم يحدث تبرم بالحكم فى اقاليمها . فيما عدا مصر التى لم تقبل حكم الأجنبى لها ، وثارت ضد المستعمر كما فصلنا أمر ذلك من قبل . أما الثورات التى كانت تقوم فى غير مصر من وقت لآخر لم تكن حركات وطنية بل طموح حكام الستر ابيات . واذا لم يكن الملك الفارسى محبوبا ، فلم يكن على الأقل مكروها ، وقد كان البرابرة الشرقيون البواسل ، من هيركانيا أو من شواطىء أوكسس Oxus على استعداد تام للمحاربة فى صفه . كل ذلك كان يفتقر الى قائد ممتاز يدير هذه الامبراطورية ويدافع عنها ، فليس هناك من فائدة للجموع الكثيرة بدون قائد ماهر ، وليس المال قادرا على خلق العقول الراجحة القوية . كذلك ايضا لم تكن الامبراطورية الفارسية لتسير مع التطورات فى اليونان اثناء السنوات الخمسين الأخيرة ، كما كانت تعتمد فى جيشها على المرتزقين اليونان . ولم يكن للقادة الفرس ميل لتعلم فن الحركات الحربية (Tactics) التى يمارسها أعداؤهم ، والبحث عن طرق جديدة لمقاتلتهم . ينتظرون تحركات العدو . لقد كانوا يعتمدون على الكثرة فى العدد ، والشجاعة الشخصية ، والعربات السكيثية المسلحة .

كان جيش الاسكندر مكونا من حوالى ٤٠٠٠٠ من الرجال : ١٢٠٠٠ مقدونى هم نواة المترجلة ، بالاضافة الى ٧٠٠٠ رجل من دول حلف كورنثا، ٥٠٠٠ مرتزقة و ٨٠٠٠ من حملة الاقواس وراشقى المقاليع الثراقيين . أما الفرسان فقد بلغوا حوالى ٥٠٠٠ من الرجال ، منهم ١٨٠٠ من المقدونيين، وكانوا يمثلون زهرة اشراف المملكة ، كما كان معه مجموعة من المهندسين تعمل فى شئون الحصار . وقد سادت هذا الجيش قوى معنوية كبيرة اذ كان الرؤساء يعملون الى جانب الجند . وكما سبق أن ذكرنا أن النقطة الضعيفة فى جيش الاسكندر هى الأسطول . فلم يكن لديه الا ١٨٠ سفينة.

غزو آسية الصغرى

قام پارمنيون بالقوات التى صحبها الى آسيا ، بينما كان الاسكندر مشغولا فى اوربا بالعمل على بناء قواعد حربية فى ايوليس Aeolis وايسيا Aysia . وقد كلف الملك العظيم داريوس ممنون صاحب رودس، وكان من القادة المرتزقة المشهورين ، الوقوف فى وجه الغزو المقدونى . وقد فشل ممنون فى اعادة الاستيلاء على Cyzicus سيزكوس على الساحل الآسيوى لبحر مرمرة ، ولكنه احتل لامپساكوس Lampsacus وقد أجبر المقدونيين على رفع الحصار عن پيتانى Pitane وردهم الى ساحل هلس پونت .

قام الاسطول بنقل الجيش من سستوس Sestus (على الساحل

الأوربى) الى ابيدوس (على الساحل الآسيوى) ، بينما تقدم الاسكندر نفسه الى الايوس Elaeus (على الساحل الأوربى) . ثم تقدم الى سهل تروى Troy.

شكل حكام الستراپيات جيشا للدفاع عن آسية الصغرى قوامه ٤٠٠٠٠ رجلا . ومن الأخطاء التى وقع فيها داريوس انه لم يجعل هذا الجيش تحت اشراف ممنون صاحب رودس بل جعله تحت اشراف القواد المختلفين ومن بينهم ممنون . وتقدمت قوات الاسكندر الى الشرق من أبيدوس واخضعوا لامپساكوس ، وپرياپوس Priapus ، وهذه الاخيرة مدينة واقعة عند مصب نهر جرانيكوس Granicus.

وتقدم بعد ذلك الاسكندر فى سهل أدراستيان Adrastean . وقد وقعت معركة على نهر جرانيكوس بين شهر مايو ويونية من عام ٣٣٤ وقد استطاع الاسكندر ومعه قائده پارمنيون أن ينتصر علي الفرس الذين فروا.

كان على الاسكندر بعد ذلك ان يستولى على المدن الساحلية التى كانت تحميها البحرية الفارسية . من اجل ذلك كان على الاسكندر أن يعتمد على البحرية الاثينية . وبعد معركة جارنيكوس ، وبعد أن قسمت الأسلاب ، ارسل ٣٠٠ عدة حرب كاملة الى اثينا ، تقدمة الى اثينا .

ولقد دفع النصر كالس Callas (احد قادة الاسكندر) عدم تغيير اى شىء فى سترابية هلس فريجيه Hellespontine Phrygia وتقدم الى الجنوب ليحتل سترابية ليديا وصخرة ساردس . واستولى الاسكندر على قلعة ساردس . وعين اساندر Asander اخو پارمنيون سترابا على ليديا ، واتجه الاسكندر بعد ذلك الى المدن الايونية . وقد توقف النصر هنا على قوة الاحزاب السياسية . فقد حيا الديمقراطيون مخلصهم الاسكندر ، ولكن حكومة الخاصة مالت الى الفرس . فمثلا كانت حكومة الخاصة فى افسوس Ephesus لها اليد العليا ، ولكن حينما قرب جيش الاسكندر تركت الحامية المدينة وبدأ الناس يذبحون اعضاء الحكومة الخاصة (Oligarchs) . وقد هدأ الاسكندر هذه الثورة واقام حكما ديمقراطيا . ولقد اقام فترة من الزمن فى المدينة .

اما المرحلة الثانية بعد ذلك فهى ميليتوس Miletus عام ٣٣٤ ، وهنا لأول مرة يتعرض لمقاومة قوية . كان يرأس الحامية الفارسية يونانى ، الذى فكر أولا فى التسليم ، ولكن علم ان الأسطول الفارسى على أتم استعداد للدخول فى المعركة . وتقدم الأسطول المقدونى واحتل مرفأ لادى

Lade ، وذلك قبل أن يصـل الأسطول الفارسى . ولمـا جاءت السفن الفارسية فوجدت ان المرفأ قد احتلته سفن المقدونيين ، فارسوا مراسيهم عند راس ميكالى Mycale . وكانت مدينة ميلتوس مكونة من قسمين ، المدينة الخارجية التى احتلها الاسكندر بسهولة حينما وصل ، والمدينـة الداخليـة وقد كانت محصنـة بحـائط واخـدود . فاقام الاسـكندر استحكامات حول المدينـة الداخلية ، كما وضـع وحدات من الجيش فى جزيرة لادى . وشدد الحصار على ميلتوس ، واغلق الأسطول الميناء حتى يمنع الفرس من احضار امدادات .

وقد نصح پارمنيون الملك عدم الوقوع فى معركة على المـاء ، لأن عدد سفن العدو اكثر من عدد سفن المقدونيين ، لكن الاسكندر لم يقبل هـذا الراى . وقام بدراسة الموقف من جميع جوانبـه ، وقـرر أن يهـزم قوة الفرس البحرية على اليابس . ولو كانت ارسلت له اثينـا امدادات بحرية لتغير الموقف ، ولكن يئس الآن من وصول معونةاليونان ، بل انهسرح أسطوله بعد سقوط ميلتوس فقط اذ اصبح لا فائدة فيه ، وعمل على سد الطريق فى البحر وذلك بربط كل المواضـع القوية على شـواطىء البحر المتوسط الشرقية . وقد شغله تنفيذ هذا المشروع السنتين المقبلتين ، ولكن كان له اثره فى نصره على آسية الصغرى ، وسورية ومصر .

والمعارضة الواضحة أمام هذا التصرف الخاص بتسريح الاسطول ، فانه فى حالة هزيمة الملك واضطراره للتقهقر ، لن يصبح لديه اسـطول لينقل عليه جيشه من آسيا الى أوربا ، وفى هذه الحال يستطيع أسطول العدو ، وذلك باحتـلاله المضـايق فى طرفى بحر مرمرة (قديما يسـمى Propontis) يقطع عليه خط الرجعة . ولكن الاسكندر كان مؤمنـا بخطته الحربية ، وكان عالما بأنه سوف لا يتقهقر .

تقدم الاسكندر بعد ذلك الى كاريا Caria فقد استقر فيها البقيـة الباقية من الحامية التى هربت من جرانيكوس كذلك القائد ممنون واقام فى مدينـة ماوسولوس Mausolus . وقـد تولى ممنـون الدفاع عن هاليكارناسوس Halicarnassus بحرا وبرا ، فقد حفر خندقا عميقـا حول المدينة ، وزودها بالطعام لحصار طويل الأمد ، ووضـع حاميات فى المدن الصغيرة المجاورة . وقد قاومت المدينة فترة طويلة .

وجدير بالذكر أن الاسكندر فى وقت من الأوقات كان سيصبح سيدا على هاليكارناسوس . فقـد رغب الأمير پكسوداروس Pixodarus واحد من اخوة ماوسولوس ليربط بيته ببيت المقدونيين برباط المصاهرة ، وكان الاسكندر هو الذى سيتزوج احدى بنات هذه العائلة ، ولكن رفض

والده فيليب ، وتزوجت هذه السيدة من أمير فارسى الذى تولى الحكم بعد وفاة والد زوجته . وكان هناك فى هذه الأسرة مدع آخر ، ادا Ada زوجة أخت ادريوس Idrieus . فقد تولت الحكم بعد زوجها ، ولكن عزلها أخوها پكسوداروس . وقد لجأت الى الاسكندر ليحميها ، فلما استولى على هاليكارنسوس ، تنازل لها عن سترابية كاريا .

ولما حل الشتاء ، قسم الاسكندر جيشه الى قسمين ، ارسل احدهما تحت اشراف پارمنيون ليمضى الشتاء فى ليديا ، بينما تقدم هو بالقسم الآخر الى ليكيا Lycia . وقد اذن لبعض الضباط الصغار بالعودة الى مقدونيا لتمضية بعض الوقت مع عائلاتهم ، وكلفهم باحضار قوات أخرى فى الربيع . واختار جورديون Gordion ، فريجيه كمقر لقواته .

ولم يجد الاسكندر أية مقاومة من المدن الليكية ، من اجل ذلك ترك لها نظامها التى كانت تسير عليه . وتقدم على طول ساحل پامفيليا Pamphylia وقد سلمت له الكثير من المدن الساحلية مثل مدينة پرج Perge واسبندوس Aspendus . وعاد الى الداخل من پرج واتخذ طريقه بين مرتفعات پيسيديا Pisidia ، وقد استولى على ساجالاسوس Sagalassus ، ثم نزل الى سلاناى Celaenae ، حصن الفريجيين القوى ، وترك هناك حامية ، واتجه الى جورديون على نهر سانجاريوس Sangarius ، عاصمة مملكة فريجيه .

وبينما نجد الاسكندر قد استولى على سترابية ليكيا وفريجيه ، فقد فقد حاليا بعض المواقع فى بحر ايجة . فقد عين ممنون مشرفا على الاسطول الفارسى ، وقد استولى على جزيرة شيوس Chios ، وجزء كبير من جزيرة لسبوس Lesbos ، وحاصر ميتيلنى Mytilene ، وقد توفى أثناء الحصار ، ولكن سرعان ما سلمت ميتيلنى .

اتحدت قوات الاسكندر عام ٣٣٣ فى جورديون ، وجاءته وحدات أخرى من مقدونيا . وتقدم بعد ذلك الى كاپادوسيا عن طريق Ancyra وخضعت له تلك السترابية ، ثم نزل الى الجنوب فوصل تيانا Tyana وأبواب قيلقية Cilician gates .

وقد وقعت للاسكندر فى طارسوس Tarsus حادثة سيئة . فبعد أن قطع الاسكندر الطريق فى شمس محرقة ، نزل للاستحمام فى المياه الباردة لنهر سيدنوس Cydnus الذى يجرى بين مرتفعات طارسوس . وقد انتابته حمى شديدة ، وخشى منها الأطباء المرافقون على حياته . ولكن قام طبيبه فيليب الاكرنانى Philip of Acarnania والمشهور بمهارته الطبية بتجهيز دواء له . وبينما كان يقوم باعداد الدواء فى فسطاط الملك ،

تسلم الاسكندر خطابا . فلما فضه وجده من پارمنيو Parmenio يحذر فيه من فيليب ، زاعما أن داريوس قد رشاه ليدس السم لسيده . فأخذ الاسكندر الكأس ، واعطى فيليب الخطاب ليقرأه ، وبينما يقرأ فيليب ، يتناول الاسكندر الدواء . كان للاسكندر ثقة كبيرة بفيليب فشفى من مرضه .

موقعة اسوس

عبر داريوس الثالث الفرات على راس جيش كبير ، وقد ترك الاسكندر يخضع آسية الصغرى ، ولكنه الآن قد حضر بنفسه ليقف أمام تقدمه وطموحه . ولم يسرع الاسكندر فى مقاتلته ، وقد كان لتاخره ، كما سنرى ، أثر كبير فى نجاحه . وقد أرسل پارمنيو مع فريق من الجيش لحماية الممرات من قليقية Cilicia فى سورية ، وتوجه الاسكندر نفسه للقضاء على غربى قليقية . وزار اولا انخيالوس Anchialus ، ثم توجه الى سولى Soli . ومن هذا المكان اتجه نحو الجماعات القيلقية التى تعيم فى المرتفعات ، واستولى على كل المنطقة فى سبعة أيام . وبعد ذلك عاد الى الشرق ، وتقدم الى اسوس تحت مرتفعات آمانوس Amanus وذلك فى اكتوبر من عام ٣٣٣ .

كان داريوس مرابطا على الجانب الآخر من المرتفعات ، فى سهل سوشوى Sochoi . الذى كان يستطيع منه أن يدير المعركة بسهولة . وكان هناك طريقان من اسوس الى سورية . احدهما يتصل مباشرة بها مارا بممرات جبلية صعبة ، بينما يدور الثانى حول الشاطىء الى ميرياندروس Myriandros ، وبعد ذلك يمر فى مرتفعات امانوس . واختار الاسكندر الطريق الذى اختاره من قبل كورش . اتجه الاسكندر الى ميرياندروس بعد أن ترك المرضى فى اسوس ، ولكن فوجىء هناك بريح عاصف ممطر ، وقد كان ذلك فى بداية الشتاء . وقد احيط داريوس الثالث علما عن طريق ارسامس Arsames بالقدوم المفاجىء للاسكندر ، منتظرا كل يوم نزوله من المرتفعات . ولما لم يأت ، وذلك بسبب تأخره فى قليقية ، والذى سبق أن اشرنا الى فائدته (رب ضارة نافعة) ، فقد فكر داريوس أولا فى الامساك عن التقدم . ولكن بعد ذلك قرر داريوس ونبلاؤه التقدم للقاء الاسكندر . فعبر الجيش الفارسى الممرات الشمالية للامانوس ووصل الى اسوس ، وقام بتعذيب وقتل المرضى الذين تركهم الاسكندر فى اسوس . ولا يصح أن نلوم الاسكندر على ما حدث لهؤلاء المرضى ، لأنه لم يكن ليتصور أن أعداءه سوف يرتكبون مثل هذا الجرم . ولما وصلت الأخبار الى الاسكندر عن مجىء داريوس الى اسوس ، فسر من ذلك ،

وأرسل زورقا للاستطلاع . ولما تأكد ان غريمه قد أصبح تحت يده ، تقدم عائدا من ميرياندروس بين ابواب البحر فى سهل اسوس الصغير .

ويجرى نهر بيناروس Pinarus فى سهل اسوس ، فيقسمه الى قسمين . وتتشابه تلك المنطقة بأخرى سبق ان حارب فيها الاسكندر ، حيث نهر جرانيكوس الذى يجرى فى سهل أدراستيا Adrastea . وقد تحصن الفرس بنهر بيناروس ، ذلك الخندق الطبيعى شديد الانحدار . وعند السحر سار الجيش المقدونى . ولما علم داريوس بقدومهم ، اندفع للقائهم (أنظر شكل ١٨٧ من كتاب J. B. Bury) . وكانت مقدمة الجيش بفرسانه عبر النهر وبعض الفرق الخفيفة وذلك ليطوق جيش الاسكندر الفارسى المكونة من وحدات مترجلة ثقيلة ــ كانت عبارة عن ١٥٠٠٠ من المرتزقة اليونان ، وبعض فرق شرقية أخرى تسمى كارداكس Kardakes ووقف حملة الأقواس على الجانب الأيسر امام الكارداكس ، وحملة الأسلحة الخفيفة فى اقصى الجناح الشمالى قريبا من المنحدرات السفلى المرتفعات . وكان داريوس نفسه خلف وسط هذا الخط . ولما رتبت صفوف الفرس ، عاد الفرسان الى شمال النهر ، واقاموا فى الجناح الأيمن ، بالقرب من البحر .

تقدم الاسكندر ، على طريقته المألوفة فى تنظيم الجيش ، فقد كانت المترجلة Phalanx فى الوسط ، و hypaspists على اليمين . وفى بادىء الأمر وضع الثيساليين وكذلك فرسان المقدونيين فى الجناح الأيمن، وذلك لتقوية هجوم فرسانه ، ولكنه عندما وجد أن جميع فرسان الفرس قد تمركزوا على الجانب الأيمن من البحر ، اضطر الثيساليين أن يعبروا الى امكنتهم الخاصة على يساره . وقد وضع قوات خفيفة فى اقصى اليمين، ليواجه الخطر الذى يهدد مؤخرة جناحه الأيمن من قوات الفرس على منحدرات الجبل . وقد سلك نفس الطريق الذى سلكهفى جرانيكوس، وذلك بأن جعل فرقة الفرسان الثقيلة هى التى تقوم بالهجوم على القسم الشمالى من منتصف خط العدو .

لم تتحمل ميسرة الجيش الفارسى هجوم الاسكندر على رأس فرسانه . وتقدمت المترجلة ببطء ، وحينما عبروا النهر وتسلقوا شاطئه المنحدر ، ارتبك خط القتال ، وقد اخذت خيالة اليونان الثقيلة Greek hoplites تضغط عليهم بشدة على حافة النهر . واذا كانت مترجلة Perinthus قد تقهقرت لتعرضت ميمنة جيش الاسكندر ولفقد المعركة ، ولكن ثبتت مترجلة Phalangites فى أمكنتها ، حتى استطاعت وحدات hypaspists معاونتها فى القضاء على جناح العدو .

وبعد ذلك ادار الاسكندر المعركة عند المكان الذى كان فيه داريوس فى عربته الحربية وحوله بطانته من الفرس ، ولما اختلط الحابل بالنابل جرح الاسكندر فى ساقه . وبعد ذلك فر داريوس بعربته ، وقد تبعه الكثير من ميسرة جيشه . اما على ساحل البحر ، فقد عبر فرسان الفرس النهر وحملوا كل ما وجدوه امامهم ، ولكن وسط نجاحهم وصلهم خبر هرب داريوس ، فذعروا وعادوا أدراجهم وقد تبعهم الثيساليون . واندفع كل الجيش الفارسى الى الشمال ، الى ممرات امانوس وقد وقع آلاف منهم تحت سنابك خيل المقدونيين . لم ينتظر داريوس ليرى ذلك المصير وذعر فى أول لقاء له مع الاسكندر ، حتى انه نسى أمه وزوجه اللتين كانتا معه فى معسكره فى أسوس . وحينما وصل الى الجبل ترك من ورائه عربته ، ودرعه ، ورداءه الملكى وامتطى فرسا لينجو بحياته .

وقد تتبع الاسكندر داريوس حتى الأصيل ، وقد وجد إثره على جانب الطريق ، وعاد بعد ذلك الى معسكر الفرس . وتناول العشاء فى فسطاط داريوس ، وقد وقع على مسمع منه لغط وولولة نسوة من فسطاط على بعد قريب منه . فسأل من هذه النسوة ، ولماذا يقمن فى هذا المكان ، فأحيط علما انهن والدة وزوج واطفال داريوس الثالث . وقد أشيع بينهن أن الاسكندر قد عاد بدرع ورداء داريوس ، فظن أنه مات ، من أجل ذلك كانت ولولتهن ونحيبهن . فأرسل الاسكندر اليهن احد أصدقائه ليهدأ من روعتهن وليخبرهن ان داريوس لا زال على قيد الحياة ، وانهن سوف لا يلحق بهن اى أذى ، وانهن طالما يخضعن لسلطان الاسكندر سوف يبجلن ويعاملن كسيدات القصور ، لأنه لم تكن بين الاسكندر وداريوس الثالث عداوة شخصية . وفى مسلكه هذا دل على نبل فى الخلق قل أن نجده فى تلك العصور البعيدة ، ومعاملة الأسرى التى كانت تسود هذه العهود وما فيها من قسوة بالغة .

وعند الطرف الشمالى لبوابات البحر باسوس بنيت مدينة تحمل اسم الاسكندر سميت الاسكندرية . واصبح الطريق ، بعد فتح اسوس ، مفتوحا أمام الاسكندر الى سورية . وكما كان عند فتح جرانيكوس ، أصبح الطريق أمامه الى آسية الصغرى أيضا مفتوحا ، وعلى ذلك فقد كان القتال أيضا على نهر بيناروس هو مفتاح الطريق الى سورية ومصر . وقد استطاع الاسكندر ان يقضى على جيش يفوقه عددا بقيادة داريوس نفسه الذى قفل راجعا الى بلاده . وقد كتب داريوس الى الاسكندر كتابا ، راجيا فيه اعادة الأسرى الملكيين ، كما رجاه أن يعقد معاهدة صداقة وتحالف بينهما . والى القارئ رد الاسكندر :

« غزا أسلافك مقدونيا وما بقى من اليونان ، وبدون ما اثارة أوقعونا فيما نكره . ولقد عينت قائدا لليونان ، واجتزت آسيا وذلك للانتقام من تلك المكاره ، لأنك كنت أول المعتدين . وأمر آخر ، هو أنك عاونت أهل پرينثوس Perinthus الذين كانوا مسيئين فى حق والدى ؛ وقد ارسل اوخس قوة الى ثراقيا ، التى هى جزء من امبراطوريتنا . بالاضافة الى ذلك ، فان المتآمرين الذين قتلوا والدى ، كانوا بتحريض منك ، كما تتباهى أنت بنفسك فى خطاباتك . وقد قمت بمعاونة باجواس Bagoas فى اغتيال ارسس Arses (ابن اخوس) ، وجلست على العرش بدون وجه حق ، وخلافا لما تقضى به شريعة الفرس ، وتقوم بكتابة خطابات فى غير موضعها الى اليونان ضدى ، تحثهم فيها على الثورة ، وأرسلت الى الاكيدومونيين Lacedaemonians ، وغيرهم من اليونان ، لنفس الغرض كميات من المال (والتى لم تقبلها المدن الأخرى ، فيما عدا الاكيدومونيين) ورشا رسلك أصدقائى ، وحاولوا أن يشوهوا السلام الذى سعيت فى تحقيقه فى بلاد اليونان . ومن ثم تقدمت لقتالك لأنك أنت البادىء بالشر . اننى سيطرت على المعركة ، على قوادك أولا ، وحكامك (الستراب) ، والآن أنت نفسك وجيشك ، وتملكت بلادك وذلك بفضل الآلهة . اما أولئك الذين حاربوا الى جانبك ، ولم يقتلوا ، واحتموا بى ، فهم تحت رعايتى ، وهم مسرورون فى رحابى ، ومن الآن سوف يحاربون معى . اننى سيد آسيا جميعها ، وعلى ذلك عليك أن تحضر الى . واذا كنت فى خوف من سوء المعاملة ، أرسل بعض اصدقائك ليأخذوا الضمانات الكافية . انك تحضر فقط الى لتسأل وتتسلم والدتك وزوجك وأطفالك ، وكل شيء لك رغبة فيه . وفى المستقبل ، كلما تراسلنى ، أرسل الى كملك عظيم على آسيا ، ولا تكتب (كما تكتب) لند ، ولكن أخبرنى عن كل ما تحتاج ، كأنك (تكتب) لسيد يحكم على جميع ما تملك . وخلافا لذلك ، سوف أعاملك كمجرم . وإذا خاصمت المملكة ، فانتظر ، وقاتل من أجلها مرة اخرى ، ولا تهرب ، لأننى سوف اتبعك أينما تكون » .

وقد أرسل داريوس الى دمشق الكنوز التى جاء بها معه الى سورية، وذلك خوفا عليها من الضياع أثناء عبوره ممرات آمانوس . وقد أرسل الاسكندر پارمينيو فى طلبها . وحينما بلغ پارمينيو دمشق وجد فيها بعض مبعوثى اليونان ، كانوا قد جاءوا من قبل الى معسكر داريوس قبل المعركة بقليل ــ اسبرطى ، واثينى ، واثنين من طيبة . اعتقل الاسكندر الاسبرطى واعتبره أسيرا ، واحتفظ بالاثينى كصديق ، وأطلق صراح الطيبيين . وأن الأصل فى الصفح عن الطيبيين سببه هو شعوره الطيب نحو تلك المدينة . لقد أوضحت الحوادث ، أن اليونان التى اختارت

الاسكندر قائدا لها ، كانت تدبر المكائد له عند الفرس . ولما عرف أن داريوس قد عبر الفرات ، كان الناس فى أثينا يتمنون الهزيمة للمقدونيين ويقعون فريسة للجيش الفارسى . وقد ظهر فى سيفنوس Siphnos وزار آجيس Agis الملك الاسپرطى القادة مطالبا بمال وسفن وذلك لتدبير خطة للثورة على مقدونيا . وفى أثينا أثار هيپريادس Hypereides الحرب ، ولكن دموستينس Demosthenes اشار عليه بألتريث . وجاءت بعد ذلك الأخبار تفيد بأن الاسكندر قد كسب المعركة . وقد أسرعت فرقة من الاسطول الفارسى لانقاذ ما يمكن انقاذه من ساحل آسيا ، وقد أمكن الابقاء على ما يقرب من ثلاثين ثالثت وعشر سفن ، أخذها آجيس لانقاذ جزيرة كريت .

غزو سورية

بنيت الخطة بعد ذلك على اقتفاء اثر داريوس ومفاجاته قبل أن يستعد مرة أخرى . ولكن ليس من الصواب من الناحية الحربية أن يندفع الاسكندر فى قلب الامبراطورية الفارسية وترك سورية ومصر خلفه دون ان يخضعا لسلطانه ، وكذلك أسطول فارسى يمخر عباب سواحل **البحر المتوسط** . وان النصر الذى احرزه الاسكندر فى اسوس لم يغره الى الميل عن خطته التى لا مفر منها . وان القيمة الحربية التى جناها الاسكندر من وراء هذا النصر ، هو أن الباب أصبح أمامه مفتوحا نحو سورية ومصر . وكما كان اخضاع آسية الصغرى شرطا عسكريا لاخضاع سورية ومصر ، وعلى ذلك فكان غزو سورية ومصر شرطا عسكريا لغزو بلاد ما بين النهرين وايران . وقد كان من المنطق تتبع حلقات هذا الغزو ، طالما أن فينيقية كانت لديها الجزء الأكبر من أسطول العدو ، وأن القضاء على المدن الفينيقية له أثر فعال نحو القضاء على القوة البحرية لفارس .

لقد سمح ملوك الفرس للتجار الفينيقيين مزاولة أمورهم التجارية طالما كان الاسطول الفينيقى فى خدمة الفرس . وكانت هذه المدن الفينيقية فى شبه استقلال كما سبق أن شرحنا ذلك عند الحديث عن المدن الفينيقية أيام الحكم الفارسى (انظر ص ٢٧٧ وما بعدها) . ولم تتحد هذه المدن تماما فحينما ثارت صيدا على فارس ايام أرتاكسركسس أوخوس ، ووعدت كل من صور وأرواد الوقوف الى جانبها . ولكن لم ينفذا وعدهما وتركا صيدا فتحولت التجارة اليهما . وقد خضعت صيدا لأوخوس ، وحرقت المدينة .

ولقد كان عدم اتحاد المدن الفينيقية له اثره فى نجاح غزو الاسكندر فينيقية . ولم تعمل سفنهم فى الدفاع عن مدنهم ضد الغزو المقدونى .

ولم تثق أية مدينة فى الأخرى . وهذه بيبلوس ، والتى الى حد ما قد حلت مكان صيدا وارواد ، قد سلمت للاسكندر . وجردت صيدا من كل شيء . وقد عمل الاسكندر على اعادة ما كان لصيدا من سلطان . حتى أن احد ملوكها قد نحت على تابوته الاسكندر نفسه . وقد قام الفنـان على احد جانبى هذا التابوت بتصوير المعـركة التى دارت بين الفرس واليونان ، وقد صور الاسكندر الأكبر وعلى رأسه غطاء من جلد الأسـد والتف حوله الجنـد ، وصور على الجانب الآخر صيد السباع والوعول وقد قام الاسكندر بالاشتراك فى حلبـة الصيد . وغالبا أن هذا التابوت من صنع آحد الفنانين اليونان المقيمين فى فينيقية .

توجه الاسكندر فى ديسمبر عام ٣٣٣ الى صور . وقد قابله سفراء هذه المدينة على الطريق ، واعترفوا له انهم على أتم الاستعداد للاستجابة لرغباته . وأبدى الاسكندر رغبته لزيارة المدينة ،من أجل التضحية فى المعبد العظيم لهرقل . ولكن زيارة مقدونى كانت بعيدة عن رغبـة أهل صور . فلم تقهـر بعد فارس ، وكانت سياستهم هو التريث وترقب الحوادث ، وتجنب اقحـام انفسهم باتحـاد مبكر مع مقدونيا . وقد احسوا أنهم مانعتهم حصونهم فى الجزيرة ، التى كانت تحميها ٨٠ سفينة، فيما عدا السفن الأخرى التى كانت لدى الاجيين . وعلى ذلك فقد دعوا الاسكندر للتضحية فى صور القديمة على الأرض الأصلية ، ولكنهم رفضوا أن يستقبلوا فارسى أو مقدونى فى المدينة .

كان اخضاع صور هاما جدا كما وصف ذلك الاسكندر فى اجتماع بقواده وقبطاناته . ولن يكون المقدونيون فى آمان اذا ما تقدموا الى مصر ، او تتبعوا داريوس ، بينما الفرس أسياد البحر ، وان الطريقة الوحيدة للقضاء على قوتهم البحرية ، هو الاستيلاء على صور ، وقد كانت هى أهم مركز بحرى على الساحل ، واذا ما سقطت صور ، سيصبح الاسطول الفينيقى ، والذى كان يعد اضخم وأقوى جزء فى البحرية الفارسية ، تحت سلطان المقدونيين . كانت صـور تعد مفتاح الشرق كله فى هـذا الموقف وفى تلك الفترة .

كان لابد من أجل الاستيلاء على صور الاعتماد على أسطول قوى . وقد كانتعملية الاستيلاء على صور هذهأكبر عمل حربى قام به الاسكندر، كانت المدينة محاطة بأسوار كبيرة عالية ، وقد بنيت بعناية فائقة ، وكانت قائمة على جـزيرة تبعد عن اليابس بمضيق لا يزيد اتساعه عن نصف ميل . وقد انشىء المرفآن على الجانب المواجه للقارة الاسيوية ، وسمى الشمالى « الميناء الصيدى Sidonian Harbour » وكان له مدخل ضيق،

وسمى الجنوبى « الميناء المصرى Egyptian Harbour » . وحتى يتمكن الاسكندر من الاستيلاء على هذه الجزيرة ، خصوصا وانه لم يكن لديه الأسطول الكافى لحصارها ، قرر ان يبنى جسرا بين الجزيرة والساحل السورى . وقد كان القسم الأول من المشروع سهلا ، لأن المياه كانت ضحلة ، ولكن لما تقدم العمل فى بنـاء هذا الحاجز ، واصبحوا على بعد قريب من الجزيرة ، اخـذ المضيق فى العمق ، وجد العمـال صعوبة فى اتمام العمـل . فخرجت سفن من الموانى على الجانب الآخـر يصوب عساكرها سهامهم على الرجال الذين يقومون بالعمل . وقد قام الاسكندر ببناء برجين على الجسر لحماية هؤلاء العمال ، ونقل ادوات الحرب على هذين البرجين ليرد على حملة السهام فى الزوارق . وقـد ربط بهذه الأبراج الخشبية ستائر من الجلد لتحمى البرجين والعمال من السهام التى ترمى من أسوار المدينة . ولكن اهل صور كانوا مهرة . فقد اقاموا سفينة للحريق ملئت بخشب جاف قابل للاشتعال ، واختاروا يوما تهب فيه ريح طيبة ، وجروها بالقـرب من السد ، واشعلوا فيها النيران . ونجحت المكيدة ، وعلى الفور احاطت النيران المنبعثة من السفينة المحترقة بالبرجين ، وحرقت كل ادوات الحرب ، وقد عزلت عنها السفن التى كانت تجـرها ، وحاول المقدونيون اخمـاد النيران . وقام اهـل صور بالتجديف من جزيرتهم فى قوارب ، وحطموا الخوازيق فى الجزء الذى لم ينته العمل فيه بعد .

ووقف الاسكندر أمام هذا الحادث ثابت الجاش ، وقام الاسكندر وحده بالعمل بهمة ونشاط . كان لا بد من الاستيلاء على صور ، وقد صمم على اخـذها . فقام بتوسيع الجسر كله ، حتى يمكن بنـاء ابراج أخرى ووضع أجهـزة حرب . وقد ذهب الى صيدا لاحضـار زوارق نبيرة . ولما حضرت القطع البحرية لارواد وبيبلوس والتى كانت تعمل فى ايجه ، علموا أن مدينتهما قـد خضعتا للاسكندر ، فتركوا الاسـطول وتوجهوا الى صيـدا ، التى اختارها المقدونيون مقـرا ومقاما . بلغت السفن الفينيقية حوالى ٨٠ سفينة ، بالاضافة الى تسع زوارق كبيرة من رودس وعشر من ليكيا وقليقية . واتحد بعد ذلك ملوك قبرس ، وزودوا الاسطول فى صيـدا ب ١٢٠ سـفينة ، وبذلك اصبح تحت يد الاسكندر أسطول مكون من ٢٥٠ قطعة بحرية ، ومع ذلك لا زال حصار هذا المعقل القوى عملا عظيما وفوق قدرة البشر .

وبينما كانوا يتجهون بالأسطول الى صيـدا ، ويقـوم المهندسون بصناعة آلات حصار جديدة لهدم أسوار صور ، قام الاسكندر بحملة على راس فرق خفيفة ليعاقب الوطنيين من قطاع الطرق الذين اغاروا على

مرتفعات أنتى لبنان Antilibanon ، فأثاروا الرعب فى المنطقة التى أصبحت غير آمنة منهم . وغالبا انه استقبل فى هذه الآونة رسلا من داريوس الثالث ، الذين عرضوا عليه فدية كبيرة من أجل أسرى البيت المالك ، وكذلك عرضوا عليه تسليم جميع الأراضى الواقعة غرب الفرات ، واقترحوا أيضا زواج الاسكندر من ابنة داريوس ليصبح بذلك حليفه . وقد نوقشت الرسالة فى مجلس ، وقال پارمنيو انه لو كان فى مركز الاسكندر لوافق على تلك الشروط . وقال الملك « اما انا ، لو كنت فى مركز پارمنيو لوافقت عليها » . صمم الاسكندر على تنفيذ خطته فى الغزو حتى النهاية ، ولم يقبل اية شروط . وقد امر الرسل أن يخبروه أنه لن يقبل مالا ولا أرضا بديلا لامبراطورية داريوس ، من أجل ذلك فكل البلاد واملاك داريوس هى له . وانه له أن يتزوج ابنة داريوس اذا أراد سواء رغب فى ذلك داريوس أو لم يرغب ، واذا كان داريوس يرغب فى اية منحة ، فيجب عليه أن يحضر بنفسه لطلبها

تقدم الاسكندر من صيدا الى صور باسطوله كله ، وكان يرغب فى جذب الصوريين الى حظيرته . وتراس هو الجناح الأيمن ، بينما كان كراتيروس Craterus وپنيتاجوراس Pnytagoras ملك سالاميس القبرسية على راس الجناح الأيسر . ولما ظهر الاسطول صعق أهل صور وفزعوا . ومن قبل ، كانوا يرغبون فى النزول الى المعركة ، ولكن الآن وجدوا انهم لن ينجحوا امام تلك الجموع ، وقاموا بسحب سفنهم بنظام ليسدوا منافذ الموانىء . ووضع الاسكندر السفن القبرسية فى الجانب الشمالى للحاجز الذى بناه وذلك ليسد المرفأ الصيداوى ، ووضع السفن الفينيقية فى الجانب الجنوبى ليسد المرفأ المصرى . وقد اقام فسطاطه تجاه هذا المرفأ الأخير على الساحل السورى .

وقد استطاع مهندسو الاسكندر أن يتمموا الحاجز حتى الجزيرة وزودوه بالعتاد الحربى . وقد أصبح كل شىء على أتم الاستعداد لضرب السور الشرقى . ووضعت بعض آلات الحرب على الحاجز ، وبعضها على سفن متنقلة أو سفن قديمة . ولكن لم تضغط قوات الاسكندر بقوة على السور ، الذى بلغ ارتفاعه ١٥٠ قدما وكان سميكا ، وقد رد المحاصرون على المهاجمين دفعة واحدة بحراب قوية . بالاضافة الى ذلك ، ان السفن التى كانت تحمل بعض العتاد الحربى لم تستطع أن تقترب من الأسوار وتسدد ضربات صائبة قوية ، فقد كانت فى قاع البحر صخور كبيرة تمنع اقترابها . وقد قرر الاسكندر انه لابد من ازالتها مهما كان الثمن . وقد رست سفن فى الموقع مزودة بآلات لرفع الصخور . وقد صار العمل ببطء وقد حاول الصوريون تعطيله . وقامت السفن

المغطاة بالتصويب من الموانىء ، وقطعت حبال مراسى السفن ، فاندفعت مع التيار . وحاول الاسكندر أن يواجه ذلك العمل وذلك بوضع زوارق شبيهة بسفن الأعداء بالقرب من المراسى ، ولكن لم تنجح فكرته تلك فى انقاذ سفنه ، طالما ان الفطاسين الصوريين كانوا يسبحون تحت الماء ويقطعون الحبال . وكان المخرج الوحيد هو ربط المراسى بسلاسل من حديد بدلا من الحبال ، وبهذه الطريقة امكن سحب الصخور وتمكنت السفن من الاقتراب من السور .

وعاد الصوريون الى حيلة أخيرة . فقد بسطوا شرع سفنهم كلها التى كانوا عليها فى مدخل الميناء الشمالى ، وخلف هذه الستارة الكبيرة التى حمتهم من عدوهم ، جهزوا سبعة سفن بالعساكر ، ثلاثة قوارب لهـا خمسة مجاذيف ، وثلاثة أخرى لها أربعة مجاذيف ، وقد زودت بأرزن واشجع البحارة ، وانتظروا ساعة الظهيرة ، وحينما قام بحارة سفن الحصار بالنزول الى البر ، وكان عادة يقوم الاسكندر بالعودة الى خيمته ، قاموا بالتجديف بدون ادنى صوت الى الفرقة البحرية القبرسية، التى قهرت جميعها . فاغرقوا بعض السفن مرة واحدة ، وجذبوا الباقى الى الساحل . وحدث أن بقى الاسكندر فى هذا اليوم بعض الوقت ــ أكثر مما تعود عليه ــ فى السفن الراسية فى الجانب الجنوبى للحاجز ، وقد كشف عما حدث ، فأوقف الجزء الرئيسى لهذه السفن بالقرب من الميناء المصرى وذلك ليمنع العدو من القيام بأية حركة على هذا الجانب ، واخذ معه بعض المراكب ذات الخمسة مجاذيف ، وخمسة سفن سريعة ذات الشرع ، وأبحر حول الجزيرة . وقد رأى سكان المدينة الاسكندر وما قام بعمله ، واشاروا على بحارتهم الذين شغلوا بهدم السفن القبرسية الجانحة . ولكن لم تر الاشارات ولم تسمع حتى أصبح الاسكندر قاب قوسين أو أدنى منهم . ولما شاهدوه قد حضر ، كفوا عن عملهم ، وأسرعوا الى الميناء ، ولكن كانت معظم مراكبهم قد عطلت سفن الاسكندر قبل أن تصل الى مدخل الميناء . وعلى ذلك أصبحت سفن صور لا فائدة فى وجودها فى الموانى ، وغير قادرة على الدفاع عن الجزيرة .

وهنا يبدأ الصراع بين مهندسى صور ومهندسى الاسكندر . فقد تحملت الحائط التى بنيت تجاه الحاجز أدوات الطابية ، وجميع طرق الهجوم ، كما أن الجزء الشمالى من الحائط الشرقى نفسه ، ولو انه قد تم تطهير مياهه من الصخور الكبيرة ، الا انه اصبح غير صالح . وعلى ذلك فقد اتحدت جهود المحاصرين على الجانب الجنوبى بالقرب من الميناء

المصرى . واخيرا هــدم جزء من الحائط ، وكان قتال فى هذه الفجــوة ، ولكن صد الصوريون الهجوم فى سهولة ويسر . ولقد شجع ذلك الاسكندر اذ عرف مواطن الضعف ، وبعد يومين ، أستعد لهجوم كبير .

وأبحرت السفن فى اغسطس عام ٣٣٢ ومعها أدوات الحصار الى الحائط الجنوبى ، بينما انتظرت سفينتان على بعد قريب ، احدهما كانت مملوءة بعســـاكر (hypaspists) تحت امرة ادمتوس Admetus والأخــرى بفيلق آخــر ، وكانا على استعداد حينما اخــذت الحائط فى التدهور ، فاندفع البحارة فى الفجوة ، ووقفت السفن امام المرفاين ، ليصبح طريقهم قويا فى الوقت المناسب ، وجهز البقية بفرق خفيفة ، بعد أن تزودوا بعدة الحرب ، ونظموا فى نقط مختلفــة حول الجزيرة ليربكوا المحاصرين ويمنعوهم من التمركز فى النقطة الرئيسية للهجوم . وعملت فجــوة كبيرة ، وابحــرت سفينتان الى الموقع . وقــد هدمت الجسور ، وصــعدت عساكر hypaspists تحت اشراف أدمتوس . وقد طعن هذا الأخير بسهم ، ولكن اخذ الاسكندر مكانه ، ورد الصوريين عن الفجــوة . وبعد ذلك سلمت ابراج المــدينة ، واصبح كل الحائط الجنوبى تحت يد المقدونيين ، وتمكن الاسكندر من أن يجد طريقه على طول الشرفات الى القصر الملكى ، والذى كان أحسن قاعدة للهجوم على المدينة . ولكن كانت المدينة قد فتحت من مواقع أخرى . ولقد صعقت سفن الميناءين الصيداوى والمصرى بوحدات البحرية القبرسية وغيرها ، واصبحت الســفن الصــورية غير قادرة ، واندفعت فرق الجيش الى المــدينة . وكان آخر موقف للمواطنين فى مكان يقــال له Agenorion وقد قيل أن ثمانية الف منهم قد ذبح ، ومن بقى ، وكان حوالى ٣٠٠٠٠ قد بيعوا ، فيما عــدا الملك ، ازميلكوا Azemilco ، وقليل من كبــار الشخصيات الذين أطلق صراحهم .

من كل ذلك يتبين أن حصار صور كان طويلا وشاقا ، وكان لسقوط صور أثره فى استيلاء الاسكندر على سورية ومصر ، وتفوقه البحرى فى شرقى البحر المتوسط وسقطت بعد ذلك دمشق ، ولم يلق أية مقــاومة حينما تقدم نحو مصر ، حتى وصل الى حصون غزة ، وكانت محاطة بسور متين بنيانه ، أقيم فوق ارض مرتفعة ، وكان هناك ما يقرب من ميلين تفصل المدينة عن الشاطىء ، وعلى ذلك لم يكن هناك فائدة من حصارها بحريا .

لقد كلف داريوس خصيه الأمين باتيس Batis بالعناية بغزة ، وقد

زودت بالمؤن حتى تتحمل حصارا طويلا . وقد رفض باتيس التسليم ، اعتمادا على قوة التحصينات ، ومن النظرة الأولى أبدى مهندسو الاسكندر صعوبة اقتحامها . ولكن الاسكندر قد تعود التغلب على كل أمر صعب . ولن يترك مكانا هاما على الخط بين دمشق ومصر فى أيدى العدو . فأمر ببناء أسوار حول المدينة حتى يستطيع ان يصوب عساكره من فوقها سهامهم نحو العدو . وكانت أثمن فرصة لديه فى الجانب الجنوبى الذى كان العمل فيه متقدما . ولما وضعت ادوات الحصار فى مكانها وبدأ الجند فى التصويب نحو المدينة ، وقد جرح الاسكندر فى كتفه . ولكن فى النهاية تمكن من دخول المدينة . وقد ذبح الكثير من اهلها ، واسر الأطفال والنسوة ، واصبحت غزة حصنا للمقدونيين .

غزو مصر

بعد أن استولى الاسكندر على غزة ، انقطعت صلة مصر بفارس ، ولم يبق على غزوها الا بضعة أيام . ولم يكن المصريون على استعداد للمقاومة ، وقد رأى مازاسس Mazaces الستراب الفارسى ما حدث لفينيقية وسورية ، وقد كان الأسطول المقدونى راسيا فى ميناء بلوزيوم Pelusium وانه ليس لديه اية قوة ، فكر فى التسليم حتى يكسب ود الاسكندر . وصل الاسكندر الى منف ، وهناك قدم للعجل ابيس وللآلهة الاخرى ، وعلى ذلك كسب رضاء الناس عليه الذين وازنوا بين بره وعطفه وتعصب أوخس ملك فارس . وبينما كان الاسكندر يحسن معاملة المصريين ويحترم معتقدات المصريين والحضارة المصرية ، كذلك عمل على ادخال الحضارة اليونانية فى وادى النيل ، فأقام بعض الألعاب الرياضية والمباريات الشعرية فى منف ، وجاء بأعظم الفنانين من اليونان الى مصر .

وركب الاسكندر مياه الفرع الكانوبى من منف حتى وصل شاطىء البحر المتوسط . وعلى ساحل ذلك البحر ، وشرقى راقوتيس Racotis بين بحيرة مريوط Mareotis والبحر ، اختار موقع مدينة جديدة تجاه جزيرة فاروس Pharos . وقد قيل أن الملك نفسه قد خطط الأرض الخاصة بالاسكندرية ــ مكان السوق وأسوار المدينة ، ومقصورة ازيس والمعابد الهلينية . وقد أوصل الأرض الرئيسية بالجزيرة بجسر بلغ طوله سبع استادات Stdes (ما يقرب من ميل) ، وعلى ذلك انشأ مرفأين . وقد عاشت المدينة تحمل مشاعل الحضارة فترة طويلة من الزمن . كما انها اخذت مكانة صور التجارية ، واصبحت أكبر ميناء فى شرقى البحر المتوسط .

توجه بعد ذلك الاسكندر الى معبد آمون بواحة سيوة ، وقد خضعت

له برقة Cyrene . وقد قيل ان الاسكندر لم يخبر احدا عما طلبه من الاله آمون ، كما لم يخبر أحدا عن جواب آمون له ، فيما عدا أن جوابه قد اعجبه . وقد اعتبره الكهنة ابنا لآمون . اما عن طريق عودة الاسكندر الى ممفيس فغير مؤكده ، فذكر بطلميوس انه عاد رأسا عبر الصحراء ، واما ارستوبولوس Aristobulus فيقــول انه عاد بطريق پاراتونيون Paraetonion.

وقد قام الاسكندر فى منف بتنظيم الجهاز الحكومى ، فوكل الحكم الى اثنين من الأمراء الوطنيين ، وعين حكاما يونان للمقاطعات العربيـــة وليبيا . وأما الشئون المـــالية ، فقــد وكل بها كليومنس النقراتيسى Cleomenes of Naucratis ، وعين وزيرا للمالية . وعين الكثير من المشرفين العسكريين حفاظا على البلاد من الثورات .

* * *

معركة جاوجاملة Gaugamela.
وغزو بابل

عاد الاسكندر من مصر فمر بصور ، وأمضى فيها بعض الوقت مشغولا بأمور سياسية وادارية ، وكذلك فى اعداد خطط الحملة المقبلة . وقام على رأس قوة قوامها ٤٠ الف من المترجلة وسبعة آلاف من الفرسان ، فبلغ ثاپساكوس Thapsacus الواقعة على الفرات وذلك فى اغسطس عام ٣٣١ . وقد بدأ فى بناء معبرين ، ولكن مازايوس Mazaeus الفارسى ، الذى كان بقواته على بعد قريب من هذا المكان ، عمل على تعطيل اتمام هذا العمل . ولما وصل الاسكندر ، انسحب هذا الفارسى ، وانتهى العمل فى المعبرين ، وتمكن جيش الاسكندر من عبر الفرات .

توجه الاسكندر بعد ذلك الى بابل ، ولم يتخذ طريق كورش وغيره من القادة ، ولكن اختار هو طريقا آخــر عبر شمالى ما بين النهرين ، ونزل محازيا نهر دجلة على ضفته الشرقية . وقــد لوحظ فى حمــلات الاسكندر فى آسيا أنها كانت منظمة من حيث عمليات النقل والإمدادات ، كذلك ايضــا فى تحركاته فى بلاد غريبــة ، كأنه كان لديه خريطة عن تلك المناطق . ما من شك أن الاسكندر كان الى جانب امتيازه كقائد ، كان أيضا ممتازا فى الادارة ، وغالبا أن الاسكندر قد استعان باليهود الذين كانوا منتشرين فى ميديا وبابل . وقد تأكد للعلماء أن الاسكندر قد اعتمد على الجنس الاسرائيلى عند تأسيس الاسكندرية فى مصر الفرعونية .

فقد دعا مستعمرة يهودية للاقامة فيها ، واصبح لهم حقوق المواطنين ، واقام في حى منفصل ، وظلوا فيه محتفظين بتقاليدهم الوطنية .

لقد ثبت من بعض من قبض عليهم من الفرس ان داريوس ومعه جيش كبير على الضفة الأخرى للنهر ، وقد قرر النضال . لم يعبر الاسكندر دجلة من نينوى ، كماهو المالوف ، بل من بزابدة Bezabde . ثم تقدم الى الجنوب ، وفى طريقه علم ان داريوس ، فى سهل قريب من جاوجاملة Gaugamela الواقعة على نهر بومودوس Bumodus . وقد كان جيشه اكثر عددا ممن كان معه فى اسوس . وبعد ان اخذ الجنود فترة راحة بلغت أربعة أيام ، تحرك الجيش ليلا ووقف على مرتفع يطل على سهل رابط فيه العدو . وقد عقد الاسكندر مجلس الحرب ، واثيرت مشكلة المبادرة بالهجوم ، ولكن پارمنيو اشار بالتاخر يوما حتى يتمكنوا من الاستطلاع على استعدادات العدو . وقد وافق المجلس على اقتراح پارمنيو ، وعسكرت الجيوش من اجل القتال . وقد امتطى الاسكندر جواده فى سبتمبر عام ٣٣١ فى هذا السهل ، وقد لاحظ ان الفرس قد طهروه من الشجيرات واية عقبات تعرقل تحركات سلاح الفرسان .

وقد أمضى الفرس الليلة التالية بعدة الحرب ، لان معسكرهم لم يكن محصنا وكانوا يخشون هجوم المقدونيين ليلا . وقد نصح پارمنيو الاسكندر فى النزول الى المعركة ليلا ، ولكن الاسكندر فضل عدم خوض المعركة فى الظلام . فقال لپارمنيو « اننى لا اختلس النصر » وفضل أن يحارب فى وضح النهار ، ويكسب معركة بقوة سلاحه وكفاحه ، وفضل أن يحارب فى معركة مكشوفة .

وفى اول أكتوبر من عام ٣٣١ تقدم داريوس الملك العظيم وسط جيشه ومن حوله بطانته وحرسه من الفرس ، وفى كل جانب مرتزقة من اليونان ، وعساكر من الهنود ومعهم بعض الأفيال ، وبعض الكاريين . وقد قوى قلب الجيش بخط آخر من وحدات بابلية ، وبعض رجال من شاطىء الخليج العربى ، وآخرين ممن كانوا يقيمون فى شرق سوسه . وكان بالجانب الأيسر ، الكادوسيون الذين كانوا يقيمون جنوب غربى ساحل البحر الكسپى ، وبعض رجال من سوسه كانوا بالقرب من قلب الجيش ، ويأتى بعد ذلك خليط من المترجلة والفرسان ، وفى أقصى اليسار وحدات من الشرق البعيد ، من اراشوسية Arachosia وباكتريا . وكان بهذا الجناح الف من الفرسان البكتريين ، ومائة من المركبات المسلحة الاسكيثية ، وفرسان من الاسكيثيين الضاربين حول بحيرة آرال . وكان بالجانب الأيمن ، فرق من القوقاز ، والهيركانيون ،

والتاپوريون من الجنوب الشرقى لشواطىء البحر الكسپى ، والپارثيون ، الذين سيكونون فى المستقبل مملكة شرقية جديدة ، والساكيون Sacae من منحدرات الهندو – كوش ، والميديون ، واهالى ما بين النهرين ، وشمال سورية .

أما عن جيش الاسكندر ، فقد كان جناحه الأيسر ، كما هى العادة ، تحت اشراف پارمنيو ، وكان يضم الفرسان الثيساليين والمخلصين من اليونان ، وقلب الجيش كان مكونا من ست فرق من المترجلة Phalanx أما الجناح الأيمن فكان من المترجلة hypaspists ، وثمانى فرق ممن كانوا يسمون بالرفقاء Companions ، وكانت الفرقة الملكية الكلوتية Clitus فى اقصى اليمين . وكان بالجناح الأيمن بعض الفرق الخفيفة ، ورماة السهام ، وحملة الأقواس . وكان كل هم الاسكندر هو حماية المؤخرة والجناحين كما كان الحال فى موقعة أسوس . وحتى لا يقع فى مأزق ، قام الاسكندر بوضع قوات طوارىء خلف كل جناح وكذلك خلف المؤخرة . فكان خلف الجناح الأيسر الثراقيون من المترجلة والفرسان ، وبعض المخلصين من الفرسان اليونان ، والمرتزقة الفرسان من اليونان ، ووضع خلف الجناح الأيمن ، قدامى المرتزقة اليونان تحت اشراف كلياندر Cleander ، وحملة الأقواس من المقدونيين ، وبعض رماة السهام من الاجريانيين Agrianian ، وحملة الرماح الركبان . وفرقة الفرسان الخفيفة من الپاونيين Paeonian ، وفى أقصى اليمين ، المرتزقة الجدد من اليونان تحت اشراف منداس Menidas .

وحينما اخذ الاسكندر فى التقدم ، كان هو وميمنة جيشه تجاه قلب جيش داريوس ، وقد احيط بميسرة العدو . من أجل ذلك حمل الاسكندر على ميمنة عدوه منحرفا ، وحتى حينما تقدم الفرسان السكيثيون والتحموا بقواته الخفيفة ، استمر فى تقدم فرقه الثقيلة من الفرسان فى الاتجاه نفسه . وقد اصبح داريوس قلقا لأن تحركات عدوه على هذه الطريقة سوف تجعل ميمنة المقدونيين خارج الارض التى مهدها وجهزها من أجل المركبات السكيثية ، ولما لم يترك اية فرصة للمصير المميت لهذه المركبات ، أصدر أوامره الى فرسان السكيثيين والبكتريين والهجوم على جناح الجيش ، وذلك لمنع أى تقدم نحو الميمنة ؛ وقد اصطدم هؤلاء بالمرتزقة الجدد تحت اشراف منيداس ، ولكنهم كانوا قلة ، فارتدوا ، وانتظروا حتى جاء الپاونيون والمرتزقة القدامى لمعاونتهم . ففر الفرس ، ولكن بعد وقت قصير ، عادوا بعد أن جاءتهم امدادات أخرى . وحميت المعركة . وبعد ذلك أطلق مركباته السكيثية لتقضى على فرق الرفقاء والمترجلة من hypaspists . ولكن استقبلهم حملة

الأقواس ، ورماة السهام من الارجيانيين بوابل من السهام والنبال ، وقد تمكن بعض هؤلاء من القبض على أعنة الخيول ، وجروا سائقى المركبات من مقاعدهم ، بينما قام hypaspists بسرعة وبجراة بالاندفاع بمركباتهم نحو عدوهم .

وبذلك تقدم الجيش الفارسى كله ، وانتظر الاسكندر برهة لينقذ الفرسان . وقد أرسل حملة الحراب الركبان ليعاونوا فرقة الفرسان الخفيفة ، الذين ضغطت عليهم القوات السكيثية والبكترية ، وحتى يكبح جماح هذه القوات ، ارسل داريوس فرقا من الفرسان الفرس لمعاونة اخوانهم . ولكن كان لانسحاب هذه القوات اثره فى ايجاد فجوة فى الجناح الأيسر ، وقد استطاع الاسكندر أن يدخل من هذه الفجوة على راس فرسانه ويقسم قوات عدوه الى قسمين . وبذلك أصبح الجانب الأيسر من قلب جيش العدو مكشوفا ، واندفع الاسكندر عليه . وبعد لأى ، تقدمت المترجلة Phalanx المدججون بالسلاح الى الامام والتحموا بفريق من قلب الجيش الفارسى . واشتد القتال فى المكان الذى يوجد فيه ملك الفرس ، وما حدث فى اسوس تكرر وقوعه فى جاوجاملة ، فقد فر الملك العظيم داريوس ، وتبعه الفرس ، وقد سحبوا فى فرارهم قوات المؤخرة . .

وبذلك نقص أو هزم قلب الجيش الفارسى والقسم القريب من الجناح الايسر بواسطة Phalanx, the hypaspists and the Companions وفى الوقت نفسه ، قد كان للصراع القوى الذى قام به فرقة الفرسان الخفيفة على اقصى الميسرة أثره فى انتصار المقدونيين .

وجدير بالملاحظة ان فرق Phalanx فى تقدمهم الخاطف قد عجزوا عن مسايرة الركب ، وعندما كانت فرقة Craterus فى اقصى الشمال ، وسط المعركة ، كانت الفرقة التى تحت اشراف سيمياس Simmias وهى الثانية من الشمال ، فى المؤخرة . وقد رأى سيمياس أن الفرسان الثيساليين فى الجناح الأيسر قد ضغط عليهم من اعدائهم ، وقد أوقف فرقته ، وذلك ليتظاهر بعمل حركة لمساعدتهم . واندفع الفرسان الهنود والفرس فى الفجوة الموجودة فى الجيش المقدونى (عند المترجلة من Phalanx) ، ولكن بدلا من مهاجمة المترجلة من المؤخرة ، اتجهوا رأسا الى معسكر المقدونيين ليخلوا سبيل الأسرى الملكيين . كل هذا اعطى فرصة للمرتزقة اليونان والثراقيين من خط المؤخرة واعادة تنظيمهم وتجمعهم مرة ثانية . وداروا حول المعسكر ، وهاجموا قاطعى الطرق فى

المؤخرة ، وانقذوا المعسكر . وعاد فرسان داريوس ، وحاولوا قطع طريقهم .

كان پارمنيو فى تلك الآونة فى أشد الحاجة الى المعاونة . فقد كان عساكر داريوس من اهل بلاد ما بين النهرين والسوريين من اقصى الجناح الفارسى الأيمن هاجموا فرسانه فى الجانب أو المؤخرة . وقد أرسل پارمنيو على وجه السرعة رسالة الى الاسكندر يطلب معونته ، وقد كف الاسكندر عن مطاردة غريمه الهارب ، الى اعادة المعركة فى جناحه الأيسر . وعاد وفى ركابه فرقة الرفقاء ، وقد اصطدم بجماعة كبيرة من الفرسان الفرس والپارثيين والهنود ، وكانوا قد تراجعوا تماما ، ولكن فى صفوف منظمة . وتبع ذلك قتال يائس ، وغالبا ما كان هو أكبر شىء مهيب فى كل هذه المعركة ، ولم يقاتل الفرس من اجل النصر ، ولكن من أجل النجاة بحياتهم . ولقد وقع فى ساحة القتال ستون من الرفقاء ، ولكن كان النصر مرة أخرى لسكندر ، فامتطى جواده واتجه لمعاونة پارمنيو . ولكن هذا الأخير لم يصبح فى حاجة الى معونة . فقد دافع الثيساليون عنه وانقذوه قبل وصول الاسكندر . وبانت نهاية الامبراطورية الفارسية .

لم يتأخر الاسكندر فى ساحة القتال ، ولم يتوان فى اعادة تعقب داريوس ، وكان قد وقف عن تعقبه ، فامتطى جواده واتجه شرقا أثناء الليل فى اثره ، فوصل الى اربلة Arbela فى الغد . ولم يجد الملك فى اربلة ، ولكن وجد مركبته ، ودرعه ، وقوسه . فقد هرب داريوس الى مرتفعات ميديا ، واتجه بسرعة أريوبارزانس Ariobarganes مع فلول المنهزمين من الجيش جنوبا الى فارس Persia . ولم يتعقب الاسكندر داريوس ، كذلك لم يتعقب الستراب مازايوس ، ولكن تابع طريقه الى بابل .

ولما وصل الاسكندر الى بابل ، فتحت ابوابها وجاءه أهل بابل وكهانهم والكثير من رؤسائهم . وسلم الستراب مازايوس Mazaeus الذى قاتل قتالا مريرا فى هذه المعركة ، من أجل المدينة والقلعة . وقد سار الاسكندر فى بابل على الطريقة التى أتبعها فى مصر . فقد ظهر كأنه حام للديانةالوطنية التى كانت قد تأثرت بديانة الفرس . وأعاد بناء دور العبادة البابلية التى كانت قد هدمت ، وأخصها معبد Bel . وقد استبقى مازايوس فى وظيفته سترابا على بابل .

* * *

غزو سوسيانا وپرسيس

وبعد أن استراح الاسكندر وجيشه فى بابل ، تقدم فى ديسمبر عام ٣٣١ الى سوسه ، مصيف البلاط الفارسى . ولقد خضعت له سوسه من قبل ، فحينما كان فى اربلة ، ارسل اليها فيلوكسنوس Philoxenus وفى صحبته فرق خفيفة . وقد وجد فى القلعة كنوزا هائلة من الذهب والفضة . ومن بين الأشياء التى وجدها الاسكندر فى سوسه من متعلقات اليونان تمثال على هيئة مجموعة تمثل هارموديوس Harmodius واريستوجيتون Aristogiton والتى تسمى tyrant-slayers (١) والتى كان اكسركسس قام بنقلها من اثينا ، وكان للاسكندر شرف اعادة هذا الأثر التاريخى الى مكانه الاصلى .

ترك الاسكندر بعد ذلك سوسه ويمم وجهه شطر قصور كورش وداريوس فى قلب مرتفعات الهضبة الفارسية ، وقد كانت هذه محمية بالمرتفعات الشاهقة ، وكذلك بجيش اريوبارزانس Ariobarzanes الذى انقذه من واقعة جاوجاملة . وقد كان غالبا السبب فى اسراع الاسكندر نحو Persis هو خوفه من ان داريوس ربما ينزل بقوات جديدة من ميديا قبل أن يقضى على اريوبارزانس . ومهما كانت الاسباب فقد وجد انه من الخير له الاستيلاء بسرعة على Persis . فقد اتجه الى الجنوب الشرقى ، وحينما عبر نهر پاسيتيجريس Pasitigris فكانت أول عقبة صادفته قبائل الاوكسايا Oxian الجبلية ، والذين كان ملوك الفرس أنفسهم يقدمون لهم هدايا تجنبا من آذاهم وبطشهم ولمناشدتهم السلام والوئام . وقد استحوزت هذه القبائل على الممرات التى كان يمر بها طريق الاسكندر ، ولكن سار الاسكندر فى جنح الظلام ، وتمكن من اثارة اعجابهم ببطولته . ومن ثم اضطر الاكسيون الى تقديم هدايا سنوية الى الاسكندر سيد آسيا ، كانت مكونة من مائة حصان ، و٥٠٠ ثور للجر ، وثلاثين الف رأس من الماشية .

تقدم بعد ذلك الاسكندر لتحقيق هدفين ، أولهما الغزو ، وثانيهما الكشف ، لان الإغريق كانوا يعرفون كل تلك المنطقة التى مر بها الاسكندر حتى هذا المكان ، ولكن ما وراء ذلك فقد كان مجهولا للاوربيين .

---

(١) وهما الينيان (هارموديوس ، واريستوجيتون) صديقان قاما بقتل طاغيين هما اولاد بيسيستراله Piristrate وهما : هيپارقة Hipparque وهيپياس Hippias (٥١٧ ق . م) .

قسم الاسكندر جيشه الى نصفين : سار النصف الاول تحت اشراف پارمينو على طول الطريق الرئيسى ، وقاد الاسكندر النصف الثانى بواسطة ممر قصير بين المرتفعات الى المعبر الضيق الذى يكون المدخل الى Persis وكان يسمى الابواب الفارسية . وكان اريوبارزانس معسكرا هناك باربعين الف من المترجلين وسبعمائة من الفرسان ، يقوم على حراسة الممر الصخرى الذى حصنه بسور . وقد تبين للاسكندر فى أول الهجوم ان الممر منيع حصين ، ولكن لا بد من اخذه ، لانه الطريق الوحيد للمدن الملكية الفارسية . وقد تحير الاسكندر فى أول وهلة ، لكنه كان بطلا قادرا على التغلب على الصعاب . وقد غطى الثلج فى هذا الموسم هذه الممرات حتى أصبح امر اجتيازها صعبا . ترك الاسكندر كراتروس Craterus مع بعض الفرق امام الممر ، واصدر اليه الاوامر بالهجوم حينما يسمع أبواق المقدونيين من الجانب الاخر . وقام هو فى الليل مع بقية القوات وكانت تضم الفرسان ، وثلاث فرق من phalanx و hypaspists وبعض الفرق الاخرى الخفيفة ، وتقدم بعد ذلك احد عشر ميلا فى الدرب السحيق المغطى بالثلج . ولما وصل الى النقطة التى كان لابد ان يغير اتجاهه لينزل الى معسكر الفرس ، قام مرة اخرى بتقسيم قواته ، وارسل قسما منها فعبرت نهر اراكسس Araxes وقطعت خطة التقهقر الفارسية . واخذ هو بقية رجاله من المترجلة ، والرفقاء وبعض الفرق الخفيفة ، واسرع الى المعسكر وقضى على الجيش الفارسى او على الاقل على جزء كبير منه قبل مطلع الشمس . وانتشر الحراس فى الجبل ، وحينما دويت أصوات الابواق على حافة الخنادق ، صعق اريوبارزانس وقد هوجم من الجانبين ، فمن الامام هاجمه كراتريوس واقتحم السور الخارجى ، ومن المؤخرة انقض عليه الاسكندر . وقد تمزق الجيش الفارسى شر ممزق وهربوا أمام الجيوش المقدونية . وهرب أريوبارزانس مع نفر بسيط الى المرتفعات .

أسرع الاسكندر فى الاستيلاء على القصور الملكية ، والمغطاة حاليا تحت الرمال ، الواقعة فى وادى مرفداشت Mervdasht وكان قديما خصبا ولكنه حاليا مقفر ، وقريبه من مدينة استاشر Istachr والتى يعتبرها الفرس أقدم مدينة فى العالم . وكان يوجد فى استاشر قصر ملكى أيضا ، ولكن القصور العظيمة كانت تقع على بعد اميال ، فى أسفل الجبل ، وعلى أرض عالية الى حد ما ، تجاه منظر خلفى من الصخرة الاسود . ويصعد الزائر الى القصر بدرج عظيم ، وبه مداخل كبيرة ، واربعةابنيةرئيسية : القصر الصغير لداريوس ، والقصر الكبيرلاكسركسس وردهتان بعمد كبيرة . وتدل اطلال هذه المنشآت على عظمتها ، وانها كانت أقوى فى عمارتها من تلك التى كانت قائمة فى سوسة ، وقد راها

الاسكندر ، كذلك كانت افخم أيضا من تلك التي كانت قائمة في اكباتانا وشاهدها الاسكندر منذ قليل . في مهد الملكية الفارسية هذه ، قامت المدينة والقصر معا ، وقد خلع عليها الفرس اسم پرسيپوليس Persepolis بمعنى « مدينة الفرس » وقد كانت « اغنى المدن تحت الشمس » . وقد قيل انه كان يوجد بخزائنها ١٢٠ الف تالنت من الكنوز الذهبية .

وقد تقدم الاسكندر بعد ذلك الى پاسارجادا ، مدينة كورش ، وقد وجد فيها الاسكندر كنوزا كتلك التي وجدها في پرسيپوليس .

وقد بقي حوالى اربعة شهور — من يناير عام ٣٣٠ الى ابريل من العام نفسه يحول القصور الفارسية في پرسيپوليس الى مراكز لقيادة الجيش والادارة ، وقد خضعت له في تلك الفترة كارامانيا Caramania او كيرمان Kirman ، وقد قام ببعض الحملات التفتيشية للضرب على ايدى قطاع الطرق . ولكن اهم حادث كان متصلا باقامة الاسكندر في پرسيپوليس هو الحريق الذى شب في قصر اكسركسس .

وفاة داريوس الثالث :

اقام في هذا الوقت الملك داريوس الثالث في اكباتانا هو وبطانته ومواليه ، خصوصا حكام الاقاليم (الستراپيات) التى لم تهزم : ميديا ، وهيركانيا Hyrcania ، واريا Areia ، وباكتريا ، اراشوزيا Arachosia ودرانجيانا Drangiana . ومن الجائز انه بعد موقعة جاو جاملة كان الاسكندر يأمل قبول بعض المشروعات التى تقدم اليه من خصومه المنهزمين ، والذين كانوا اكثر خضوعا بعد تلك المعركة اكثر من الفترة التى اعقبت معركة اسوس . ومن الجائز انه كان على استعداد لان يترك لداريوس الجزء الشرقى من مملكته ولقبه الملكى ، ولكن كحاكم موال ، ويكتفى هو لفترة من الزمن بالامبراطورية التى ربحها بما في ذلك سوسة وپرسيپوليس . ومن الجائز ان بقاءه فترة من الزمن في پرسپوليس بحجة استقبال بعض العروض من هؤلاء الخصوم . ولكن لم يبد داريوس اى اشارة . كانت ميديا منيعة ، وكان لديه جيش كبير من الستراپيات الشمالية .

تقدم الاسكندر على وجه السرعة نحو اكباتانا حينما علم أن داريوس قد جهز جيشا كبيرا هناك لمنازلته . ولما اصبح على بعد قريب من المدينة علم ان داريوس قد لاذ بالفرار الى الشرق ومعه كنوزه الى الابواب الكسپيه Caspian Gates . ولما وصل الاسكندر اكباتانا عاصمة

ميديا ، تمهل من أجل عمل بعض التنظيمات قبل أن يتتبع داريوس فى البرارى الشمالية . فقام بتسريح بعض الوحدات ، وكافأ بعضها ومنح بعضها حق العودة . وبقى فى خدمته قلة من الرجال . وقد كلف پارمنيو بالعناية بكنوز Persis وقد نقلت فى مخازن حصينة فى اكباتانا ، وبقيت تحت اشراف الخازن هارپالوس Harpalus ومعه فرقة كبيرة مقدونية وتقدم بعد ذلك پارمنيو شمالا الى كادوسيا Cadusia وعلى طــول شواطىء البحر الكسپى ، حيث التقى مع الملك .

واسرع الاسكندر بالقسم الرئيسى من جيشه للقبض على داريوس ، مارا بمدينة راجه Ragae ، وهى تقع الى الجنوب قليلا من عاصــمة ايران حاليا (طهران) ، فوجد ان داريوس قـــد تجاوز Caspian Gates بمسيرة يوم الى الشرق . ولما يئس من اللحاق به ، انتظر فى راجه قبــل أن يتقدم الى پارثيا Parthia عبر الممر الكسپى . ولكن فى خلال ذلك الوقت شعر تابعوه ان نجم داريوس بدأ فى الافول ، وحينما فكر فى البقاء للقتال مرة أخرى بدلا من الاستمرار فى التراجع الى باكتريا ، لم يقبل ذلك الراى الا البقية الباقية من المرتزقة اليونان ، الذين لا زالوا مخلصين لداريوس ، ومن الجائز أنهم خافوا العقاب المنتظر لهم نتيجة انشقاقهم عن اليونان . وكان بسسوس Bessus ستراب باكتريا من أقرباء الملك وقد شعر كثير من الناس فى هذا الوقت انه فى استطاعته انقاذ البيت الاخمينى والذى عجز عن حمايته داريوس . وقد دبرت مؤامرة : فقبض على داريوس ، وأوثق فى منتصف الليل ، ووضع فى محفة ، وحمل كاسير الى باكتريا ، وعلى أثر ذلك تفرق جيشه . فارتحل المرتزقة اليونان الى الشـــمال فى المرتفعات الكسپية ، وعاد الكثير من الفرس يستسمحون الاســـكندر . فوجدوه عنـــد الجـــانب الپارثى للابواب الكسپية Caspian Gates ، وابلغوه ما حدث . ولما علم أن داريوس قد اسر وان بسسوس هو خصمه ، أسرع الاسكندر للحاق به تاركا القسم الرئيسى من الجيش يتبعه على مهل ، وتقدم هو مرة واحدة بخيالته وببعض المترجلة ولم تتوقف ملاحقته حتى ظهر اليوم التالى ، واستمر على تلك الحال يوما وليلة بنفس السرعة . واشرقت عليه الشمس فى طهاره Thara وقد كان هذا هو المكان الذى كبل فيه داريوس بالحديد ، ولقد ثبت من مترجمه ، الذى بقى بسبب المرض ، أن بسسوس ورجاله قد كانوا ينوون تسليم داريوس لو كان الاسكندر قد أسرع فى ذلك . استمر المطاردون لداريوس فى تعقبه ليلة أخرى . ووصلوا فى الظهيرة الى قرية حيث اقام المطاردون اليوم السابق ، وعلم الاسكندر انهم فكروا فى الســـير ليلا . فسأل الاسكندر الاهالى عن وجود طريق قصير ، فأخبروه بوجود طريق قصير لكنه يفتقر الى الماء . وعند ذلك أصدر الاسكندر أوامره بأن يترجل

خمسمائة من فرسانه ، واعطى خيولهم الى الضباط والى الرجال الاقوياء من المترجلة الذين كانوا فى ركابه . وبدأ السير فى المساء على رأس تلك الجماعة حوالى خمسة واربعين ميلا حتى وصل الى مكان عدوه . وقد فروا أمام الاسكندر . وقد طلب بسسوس والمتآمرون من رجال داريوس — والذى غالبا قد فك وثاقه — ان يمتطى حصانا ، وحينما رفض داريوس طعنوه ولاذوا بالفرار ، بعد ان جرحوا بغال المحفة وقتلوا قائديها . وقد وجدت البغال ذابلة ظمىء على بعد حوالى نصف الميل من الطريق . ووجد الاسكندر جثة داريوس ، فارسلها الى الملكة الام ، ودفن آخر ملوك الاخمينيين مع من سبقه من أفراد عائلته فى پرسيپوليس .

سياسة الاسكندر :

وقبل أن نتقدم فى دراسة بقية حملة الاسكندر أر ى من الخير أن نشير الى السياسة التى اتبعها ذلك الفاتح الكبير تجاه البلاد التى خضعت له بعد موقعة جاوجاملة . لقد اتبع الاسكندر سياسة التسامح . لم يحاول ان يطبق طريقة مماثلة لكل الدول ، ولكن سمح لكل دولة أن تحتفظ بنظامها . وقد وضع أساسا عاما — وهو توزيع السلطة ، وقد كان ذلك العمل يتعارض مع الطريقة الفارسية فى الحكم . فلقد كان الحكم الفارسى يقضى بأن يكون الستراب هو الحاكم الوحيد ، يقوم بالشئون الادارية والعسكرية . وقد وكل الاسكندر فى أغلب الحالات الادارة الداخلية الى الحاكم ، وعين بجواره ، ومستقل فى سلطته ، ضابط مالى ، ومشرف عسكرى . وقد كان الغرض من هذا التقسيم هو ضمان عدم قيام ثورات ضده . أما عن سياسته الدينية ، فقد سبق أن اشرنا اليها عند حديثنا عن حملته على مصر وبابل .

اما عن سياسته كخليفة لملك الملوك : فكر الاسكندر فى تكوين امبراطورية أوربية أسيوية ، لم يصبح فيها الاوربيون سادة على الاسيويين ، ولكن حكم الاوربيون والاسيويون على قدم المساواة بملك ، وهذا يختلف عن وجهة نظر اليونان تجاه البرابرة . وقد بدأت الفكرة تظهر بعد معركة جاوجاملة . فقد استقبل امراء الفرس وحكامهم (Satraps) الذين خضعوا للاسكندر استقبالا طيبا واعتمد الاسكندر على الكثير منهم . ولقد درس الاسكندر صفات اشراف فارس واحترم سجاياهم الطيبة . وقد وكل ادارة بعض الاقاليم الشرقية الى حكام من الفرس ، فهذا مازايوس عين سترابا لبابل ، كما أن بلاط الاسكندر نفسه لم يصبح أوربيا تماما . فقد احاط نفسه ببعض الشرقيين ، وعلى ذلك فقد دخلت بعض الصور التى كانت قائمة فى البلاط الشرقى : فقد ظهر الاسيويون منبطحين امام سيداسيا ، كذلك اتخذ الاسكندر الملابس الفارسية للملوك فى الحفلات

الملكية ، حتى لا يظهر فى عيون رعاياه الشرقيين اجنبيا . وكانت الفكرة التى دفعت الى هذه السياسة جديدة وجريئة ، قام بتنسيقها الاسكندر ، وحاول أن يقضى على السياج الموجودة بين الشرق والغرب ، ولكن صحبت بنون من الفطرسة لم نجدها فى القسم الاول من اعمال الاسكندر ، وقد ادخلته فى مآزق مع عشيرته . ولم يوافق المقدونيون على الطرق الجديدة التى اتبعها الاسكندر ، فكرهوا التطبع بالطباع الفارسية . كانت الملكية المقدونية غير كافية لتحقيق فكرة الامبراطورية عند الاسكندر ، ولكن لسوء الحظ انه لم يكن لديه نموذج الا الملكية الفارسية ، وقد احيطت بسياج كانت كريهة للروح اليونانية المتحررة . وقد امضى الاسكندر حياته فى حل المشاكل الصعبة ، السياسية والعسكرية ، وكان همه أن يخلق ملكية تجمع بين مصالح الشرق دون المساس بمصلحة الغرب .

غزو هيركانيا ، واريا ، وباكتريا ، وسوجديانا :

لقد فر قتلة داريوس : فهذا بسسوس اتجه الى باكتريا ، بينما ذهب نابارزانس الى هيركانيا ، وقد حدد هربهم باتجاه حملة الاسكندر . ولم يكن فى استطاعته تتبع بسسوس ومن خلفه عدو فى الاقليم الكسپى ، وعلى ذلك ، كانت اولى تحركاته . هو عبر سلسلة مرتفعات البورز Elburz التى تفصل شواطىء البحر الكسپى عن پارثيا ، وكذلك اخضاع بلاد تاپورى Tapuri وماردى Mardi . لقد سلم الضباط الفرس الذين الذين تراجعوا الى هذه الاقاليم الى الاسكندر وقد استقبلوا استقبالا طيبا ثلم يقتل نابارزانس . اما المرتزقة اليونان الذين لجأوا الى المرتفعات التاپورية فقد اتفقوا على التسليم بشروط . فكل الذين دخلوا فى خدمة الفرس ، قبل اتفاقية كورنثا Synedrion of Corinth اودعوا كرهينة يونانية من أجل مقدونيا ، واعتقوا ، ومن بقى أجبر على الخدمة فى الجيش المقدونى بنفس الاجر الذى كان يدفعه لهم داريوس . لم يلق الاسكندر بالا على الشاطىء الجنوبى المتلىء بالاشجار للبحر الكسپى ، واصدر أوامره الى پارمينو للتقدم نحو اكباتانا ، والاستيلاء على بلاد كادوسى Cadusi الواقعة على الجانب الجنوبى الغربى للبحر الكسپى . ولم يتمهل الاسكندر نفسه . وبعد أن أمضى ليلة عند زادراكارتا Zadracarta واقام هناك بعض البطولات الرياضية ، تقدم شرقا الى سوسيا Susia وهى مدينة تقع فى شمال اريا ، وقد التقى هنا مع ساتيبارزانس Satibarzanes . حاكم أريا وقد سلم ، وعينه الاسكندر فى سترابيته وهنا وصل الى علم الاسكندر أن بسسوس قد انتحل لنفسه ملك الامبراطورية الفارسية تحت اسم ارتاكسركسس . فبدأ الاسكندر توا على السير الى باكتريا . ولكن تأخر تقدمه حينما جاءته انباء تشير الى أن ساتيبارزانس قام بثورة ، وعلى ذلك كان لابد من انقاذ ولاية أريا ، وكانت

تشجمها ولايتى اراشوسيا Arachosia ودرانجيانا Drangiana وكانتا تكونان سترابية باراسانتس Barsaentes ، أحد قتلة داريوس فقفل الاسكندر فى عودته مسرعا وبرفقته نفر من جيشه ، وظهر عند ارتوكوانا Artocoana ، عاصمة اريا بعد يومين . ففر ساتيبارزانس يبحث عن بسوس فى باكتريا ، وقد اقتفى جيش الاسكندر اثرالوحدات الفارة وقهرها . ولم يصبح هناك أية مقاومة ، وتقدم الاسكندر جنوبا الى درانجيانا فوصل الى اقليم Seistan ، عند مدينة ، يحتمل ان تكون هرات Herat ، والتى انشأ الاسكندر على انقاضها عاصمة وحصنا للاقليم الجديد ، وقد سميت الاسكندرية . (اسكندرية الاريين Alexandria of the Areians) . وقد خضعت درانجيانا دون وقوع صدام ، واما الستراب الذى هرب الى الهند فقد قهر وقتل .

وقد وقع عند پروفثاسيا Prophthasia ، عاصمة درانجيانا مأساة ، ولم يستطع المؤرخ ان يحكم على صحة ما جاء بها . فقد وصل الى مسامع الاسكندر أن فيلوتاس Philotas ، ابن پارمينو يدبر مؤامرة ضد حياته . فجمع الملك مجلس المقدونيين واوضح التهم ضد هذا القائد . وقد بين فيلوتاس انه احيط علما بمؤامرة لاغتيال الاسكندر ، ولكنه لم يذكر شيئا عنها ، ولكن هذه كانت واحدة من التهم الموجهة ضده . ولو ان المقدونيين وجهوا التهمة الى فيلوتاس ، وقد رشق بحرابهم الا ان الكثير منهم لم يكن مرتاحا للتطورات التى حدثت فى سياسة الاسكندر فى الشرق . وقد مات فيلوتاس ، وقد أصبح فى ترك پارمينو حيا خطورة سواء ان كان اشترك فى هذه المؤامرة ام لم يشترك . وقد ارسلت رسالة على وجه السرعة الى ميديا ، تحمل توصيات الى بعض قادة جيش پارمينو لقتله . واذا صحت التهمة التى وجهت الى فيلوتاس — وليس من شك فى صحتها — فكان من الواجب على الاسكندر الا يأخذ الوالد بذنب الابن . خصوصا وانهم فى ميدان القتال بعيدين عن أوطانهم . وقد كان قتل پارمينو عملا تعسفيا ضد خيانة مشتبه فيها . والظاهر انه لم تكن هناك حقائق ضده ، وما من شك انه لم توجد محاولة من جانبه .

وفى الوقت نفسه غير الاسكندر خططه . فبدلا من السير فى طريق باكتريا ، والتى كان قد قرر من قبل سلوكه ، يمم وجهه شطر افغانستان فأخضعها ، وعبر مرتفعات هندو — كوش ، ونزل بعد ذلك فى سهل أوكسوس Oxus من الشرق . وتقدم أولا جنوبا لحماية سيستان Seistan والاقاليم الشمالية الغربية لبلوخستان والتى عرفت فيما بعد تحت اسم جدروسيا Gedrosia . وقد أمضى الاسكندر فترة من شتاء عام ٣٣٠ — ٣٢٩ عند جماعة تسمى ارياسپى Ariaspae

وقد كانوا من الجماعات المسالمة ويقيمون فى جنوبى سيستان ، وقد منحهم جزءا من الارض ، واطلق حرياتهم ، وقد كانوا غير خاضعين لاى ستراب ، ثم خضعت بعد ذلك جدروسيا وعين ستراب جدروسى فى پورا Pura عاصمة الاقليم ، ولما حل الربيع ، تقدم الاسكندر الى الشمال الشرقى حول نهر هالماند Halmand . وانشأ الاسكندر فى اقليم اراشوسيا ، عند موقع مدينة كانداهار Caudahar ، والتى غالباماتكون تحريفا لاسم مدينته الجديدة الاسكندرية . ثم واصل سيره فى المرتفعات مارا بمدينة غازنى Ghazni ، الى اعالى نهر كابول ، ووصل بعد ذلك الى أسفل سلسلة مرتفعات هندو ــ كوش . وهذه المرتفعات وغيرها من المرتفعات المجاورة ــ باميرس Pamirs ، والهمالايا Himalaya قد أطلق عليها اليونان اسما عاما وهو Caucasus قوقاروس . ولكن مرتفعات هندو ــ كوش قد اختصت باسم لها : پاروپانيسوس ، بينما كانت تسمى الهيمالايا ، ايمايوس Imaus . وقد أمضى الاسكندر شتاء عام ٣٢٩ ــ ٣٢٨ عند أسفل مرتفعات هندو ــ كوش ، وانشأ اسكندرية اخرى لتحمى هذه المنطقة ، على بعد قريب من شمالى كابول ، وقد ميزت بهذا الاسم Alexandria of Caucasus . وبينما هو فى تلك المنطقة ، احيط علما بأن ساتيبارزانس لازال فى الخارج بآريا ، يشعل نار الثورة ، وقد أرسل اليه بعض القوات التى قضت عليه .

عبر الاسكندر مرتفعات قوقاسوس فى الربيع الباكر . ثم وصل بعد ذلك الى دراپساكا Drapsaca ، وهى احدى حصون حدود باكتريا ، ثم تقدم غربا الى باكترا Bactra عاصمة باكتريا .

اما المدعى بسوس ارتاكسركسس كان قد سلب شرقى باكتريا وبدده وذلك من اجل ايقاف تقدم جيش الاسكندر ، ولكنه هرب عبر نهر أوكسوس Oxus حينما دنا الاسكندر ، وقد هجره فرسانه . لم يستطع أحد الوقوف امام قوات الاسكندر ، وقد انضمت ولاية اخرى الى الامبراطورية المقدونية بدون قتال . ولم يضيع الاسكندر الوقت فى تتبع غريمه فى سوجديانا التى تقع بين نهرى اوكسوس وچاكسارتس Jaxartes والتى يجرى فيها أحد روافد نهر اوكسوس وهو نهر صغير يسمى Sogd سوجد والذى يمر بجوار مدينتى سمرقندوبخارى. قام بسوس بحرق قواربه . وما أن وصل الاسكندر الى شواطىء اوكسوس ، بعد مسيرة ما يقرب من ثلاثة أيام ، اضطر أن ينقل جيشه بوسائل النقل البدائية المصنوعة من الجلود (الظروف = القرب بالعامية) ، والتى يقوم الاهالى فى وسط آسيا باستخدامها حتى أيامنا هذه . وقد قام جنود الاسكندر ، بدلا من نفخ جلود الاغنام بالهواء ،

حشوها بالحلفاء . وعبروا النهر عند كيليف Kilif حيث كان اتساع النهر ما يقرب من ثلثي ميل ، وتقدموا في الطريق الى ماراكاند Maracanda المدينة الرئيسية في هذه المنطقة ، والتي تعرف حاليا تحت اسم سمرقند ..

لم يكن لدى بسوس اية معونة شمالي أوكسوس . وكان معه بعض الحلفاء من السوجاديين وعلى راسهم سبيتامنس Spitamenes ودتافرنس Dataphernes ولكن لم يكن في ذهن هذين الرجلين وامثالهما التضحية ببلادهم من اجل مدع مثل بسوس ، وقد ارسلوا الى الاسكندر يعرضون عليه تسليم المغتصب . وارسل الاسكندر بطلميوس لاجوس على راس فرقة من ستة آلاف رجل للقبض على بسوس ، وقد وجدوه في قرية محصنة ، كان قد هجرها اصدقاؤه . وبناء على اوامر صادرة من الاسكندر ، القي بسوس عاريا ومكبلا في الاغلال على الجانب الايمن للطريق الذي مر عليه جيش الاسكندر . وعندما رآه الاسكندر سأله عن السبب في القبض على داريوس واغتياله .. فاجابه بسوس انه اقدم على هذا العمل مع غيره من اشراف الفرس ، وذلك لارضائه . وقد نكل بالمغتصب بسوس وارسل الى باكترا ليلقى مصيره المحتوم .

ولكن لم يتوقف الاسكندر عن التقدم ، وقد عمل على ضم سوجديانا وجعل حدوده الشمالية نهر جاكسارتس (تانيس Tannis) (١) . وقد عسكر في سمرقند وتقدم الى الشمال الشرقي ، فاستولى على سبعة حصون كان السوجاديون قد بنوها للدفاع عن انفسهم ضد الغزاة . وانشأ الاسكندر عند نهاية الطرف الشمالي الشرقي لامبراطوريته مدينة جديدة سماها ايضا الاسكندرية القصوى Alexandria the Ultimate وذلك في عام ٣٢٨ . ولم يتشكك احد في موقعها ، فهي التي سميت بعد ذلك خوجند Khodjend ..

لم يكن اشراف السوجداييين مثل اكابر الفرس ، فقد كانوا على استعداد للنضال من اجل حريتهم . وبينما كان يقوم الاسكندر بتخطيط مدينته الجديدة ، وصل الى مسامعه ان البلاد التي تقع وراءه مسلحة ، وكان سبيتامنس هو قائد تلك الحركة وقد عاونه الكثير من قادة

---

(١) خدع اليونان بهذا النهر وتخيلوه النهر المشهور والذي يسمى Tannis والذي يصب في بحيرة ماوتيك Maeotic ، وكانوا يعتبرونه الحد الفاصل بين اوربا وآسيا . وسموا الرعاة الضاربين في الشمال وفيما وراء هذا النهر ((السكيثيون الاوربيون)) ولكن وقعوا في هذا الخطأ ، لانهم ظنوا ان البحر الكسبيي ماهو الا خليج من خلجان المحيط .

الاكسيارتس Oxyartes والسوجاديين . هذا وقد قهر الجنـــود المقدونيون الذين تركوا فى السبع حصون ، وحوصرت حامية سمرقند فى القلعة . وقد تجمع السكيثيون وبعض قبائل من ماساجتى Massagetae وارادوا ان يخرجو الاسكندر من اراضيهم . ومر الاسكندر بفترة حرجة وذلك فى صيف عام ٣٢٨ . فعاد أولا لاسترداد الحصون ، وقد استولى عليها فى يومين وحرق خمسة منها . وقد قاومت كيروپوليس Cyrupolis ولكن استطاع الاسكندر الاستيلاء عليها فى النهاية بعض مقاومة عنيفة من اهاليها ، وقد جرح الاسكندر فى هذه الملحمة . وقد كان من نتائج سقوط حصن كيروپوليس ، سلمت المدن السبع التى بنيت فيها الحصون سالفة الذكر وقد ربط البقية الباقية من سكان هذه الامكنة فى الأغـــلال حتى وصلوا الى المدينة الجديدة ، الاسكندرية فأقاموا فيها وعمروها . وقـد بنيت أسوارها بالطوب النى . وقد استطاع الاسكندر ان يطرد السكيثيين وتتبعهم حتى سهول الاستبس . وقد أصابه بعض البأس من شدة حرارة الجو .

وبعد أن شفى الاسكندر من مرضه ، وجاءته نجدة فى ماراكاندا ، لاذ سپيليتامنس غربا الى مدينة سوجديانا . وقد تتبع المقدونيون سپيتامنس وكانوا يأملون طرده من البلاد ، ولكنهم كانوا متهورين فهلكوا جميعا . ولما علم الاسكندر بهذه الكارثة ، أسرع الى سمرقند بالفرسان وفرق خفيفة فبلغها بعد ثلاثة أيام . وعند قدومه ، انطلق سپيتامنس ــ الذى كان قد عاد الى حصار سمرقند ــ هاربا الى الغرب ، وقد تتبعه الاسكندر ، وقد عبر نهر سوجد وتتبع غريمه والسكيثيين الى حدود الصحراء . واسرع الى سوجديانا فدمر البلاد ، وتقدم الى الجنوب الغربى فوصل الى نهر اوكسوس ، وامضى شـــتاء عام ٣٢٨ ــ ٣٢٧ عنـــد زارياسپا Zariaspa وقد قام بسسوس من قبل باغتيال داريوس فى هذه المدينة . وقد أدين فجدعت انفه وقطعت اذناه وسيق الى اكباتانا ليلقى مصيره . وفى ذلك سلك الاسكندر طريقة الشرق فى الانتقام من قتلة الملك واعتبر نفسه خليفة داريوس . وقد كان لمسلك الاسكندر فى الانتقام على الطريقة الشرقية اثره فى نظر المقدونيين الذين رافقوه فى هذه السنوات ولم يألفوا معاملة الاسرى بتلك الروح التى سلكها الاسكندر فى ايامه الاخيرة .

قامت ثورات فى سوجديانا فاضطر الاسكندر الى العودة الى نهـر أوكسوس مرة اخرى فى بداية عام ٣٢٨ وامضى بعض الوقت فى سمرقند . وقد استطاع الاسكندر ان ينتصر فى النهاية . وقد قام السكيثيون بقتل سپيتامنس ارضاء للاسكندر . وبالقضاء على هذه الشخصية ، انتهت المقاومة ، ولم يبق امامه الا الاستيلاء على الاقاليم الوعرة الواقعة جنوبى

سوجديانا ، والتى كانت تسمى پاراتاكن Paraetacene . وقد كانت صخرة سوجديانا ، التى تتحكم فى ممر هذه الاقاليم تحت اشراف أوكسيارتس Oxyartes ، وقد استولى عليها نفر من الجنود المقدونيين وكان من بين الاسرة روكسانا Roxane ابنة اوكسيارتس . وقد شغف بها الاسكندر بالرغم من انه لم يكن ميالا للنساء ، وقرر الزواج منها ، وعند عودته الى باكترا بعد الاستيلاء على حصون اخرى فى پاراتاكن اقتسم رغيفا من الخبز مع عروسه وذلك طبقا للتقاليد الخاصة بالبلاد واقيمت حفلات الزواج عام ٣٢٧ . وبالاضافة الى ما فى هذا الزواج من معان سياسية ، فقد كان ايضا عن رغبة فهو رمز اتحاد اسيا واوربا .

غزو الهند :

عبر الاسكندر مرتفعات هندو ــ كوش ، ووصل الى الاسكندرية فى عشرة أيام ، وتوجه بعد ذلك الى مدينة اخرى ، وغالبا انه سماها نيكايا Nicaea ، وهى ربما تكون كابول Kabul وذلك فى عام ٣٢٧ ، وقد بقى هنا حتى منتصف نوفمبر لينظم الولاية ، وليجهز لحملة المستقبل . وقد ترك نفرا من وحداته فى باكتريا ، ولكن لازال معه حوالى ٣٠ الف من الرجال ــ من الاقاليم الاسيوية (من الباكتريين ، والسوجدنيين ، والداهيين Dahae والساسيين Sacae) .

لم يكن لدى الاسكندر اية معلومات عن شبه جزيرة الهند . ولم يكن الاسكندر هو أول الاريين الذين جاءوا الى الهند ، فقد كان الرعاة الاريون يندفعون من الشمال الغربى للهند من وسط آسيا من أقاليم مرتفعات هندو ــ كوش . وقد تمكن داريوس من ضم أراض من الهند الى امبراطوريته ، وكانت هذه تمده ببعض الرجال التى اشتركت معه فى حروبه وقد كان يظن (فيما كتبه الكتاب اليونان) أن الهند هى الدولة التى تقع فى اقصى الجانب الشرقى من العالم .

وكان يقيم فى شمال غربى الهند فى هذه الفترة ولايات غير متجانسة وكان يحكم المقاطعات الواقعة بين نهر اندوس Indus ونهر هيداسپس Hydaspes الامير اومفيس Omphis ، وعاصمته تاكسيلا Taxila . وكان أخوه ابيسارس Abisares حاكما على هازارا Hazara والاجزاء القريبة من كشمير . ولقد قام امير تاكسيلا بزيارة الاسكندر فى Nicaea ، مقدما اليه فروض الطاعة والولاء ، وطالبا منه المعونة لاخضاع الهند . وقد قدم الى الاسكندر أيضا أمراء آخرون .

أما عن طريق الاسكندر : فقد نزل من السهل العلوى لكابول متجها

الى البنجاب على طول الشاطىء الايمن لنهر كابول عبر البوابة الكبرى لممر خيبر Khyber . وقد قام الاسكندر بتقسيم جيشه الى قسمين فقد اخذ هفاستيون Hephaestion ثلاث فرق من Phalanx ونصف الفرسان المقدونيين ، وكل الفرسان المرتزقة ، وتقدم عن طريق ممر خيبر ، وصدرت أوامر لبناء معبر على نهر اندوس . اما القسم الثانى فقد كان تحت اشراف الاسكندر ، ويشمل الوحدات الخفيفة ، وقد كان طريقه الاقطار الوعرة الواقعة شمالى النهر . وقد امضى الشتاء فى القضاء على الجماعات التى تقيم فى تلك المناطق .

وقد عبر نهر اندوس فى ربيع عام ٣٢٦ ، وسار الى الشرق من تاكسيلا فى مسيرة ثلاثة ايام . وقد استقبل امير تاكسيلا الاسكندر استقبالا حافلا ، وتجمع فى المدينة بعض الامراء الصغار يقدمون للاسكندر فروض الطاعة والولاء . وقد نظمت الولايات الجديدة . وقد وضع على راس المنطقة التى تقع غربى نهر اندوس سترابا جديدا ، وهو فيليب بن ماخاتاس Philip son of Machatas . وترك فى تاكسيلا حاميات مقدونية ، بعضها شرقى نهر اندوس ، وكان نهر اندوس هو الحدود الشرقية لنفوذ الاسكندر ، ولم يفكر فى التقدم فيما وراء الاندوس ، ولكنه اراد فقط ان يعمل على حماية امبراطوريته بايجاد وسيلة منظمة للحفاظ عليها .

تقدم الاسكندر جنوبا الى نهر هيداسپس Hydaspes حيث واجهته مقاومة بسيطة . وقد تحدى الاسكندر الامير پوروس Porus ، وجمع جيشا كبيرا وعسكر على الضفة اليسرى للنهر وذلك لمنع العبور . وقد عسكر المقدونيون فى مناخ حار ممطر على الضفة اليمنى للنهر ، بالقرب من چالالپور Jalalpur تجاه قوات پوروس التى كانت تحميها الافيال . وقد قام الاسكندر بعدة مناورات لارباك عدوه . فقد امر بجمع كميات كبيرة من القمح ، كأنه ينوى الاقامة مدة طويلة ، وطارت الاشاعات انه سينتظر حتى انتهاء فصل الامطار . وابقى قواته دون تحرك ، وفى ليلة من الليالى سمعت أبواق المقدونيين ، وتحرك الفرسان الى حافة النهر ، وظن العدو ان الاسكندر سيعبر النهر . فتحركت افيال پوروس الى الشاطىء . ولكن كانت تحركات الاسكندر خدعة فقط . وفى كل ليلة كان فى معسكر المقدونيين حركات كأن الجيش على أهبة الاستعداد للعبور ، وينزعج الهنود من تحركات المقدونيين ويقبلون على الاستعداد ، ثم لا يجدون شيئا واستمرت تلك العمليات مدة من الزمن حتى تعب پوروس . وعندما أحس الاسكندر بأن غريمه قد ضجر من تلك العمليات الخادعة ، دبر خطة لعبور النهر فى منطقة بها جزيرة مملوءة بالاشجار وعبر الجنود على ظروف من جلد مملوءة بالحلفا كتلك التى عبر عليها الجنود نهر اوكسوس ، وترك

على الساحل قوة كافية فى المعسكر مع كراتروس Craterus وأصدر اليها الاوامر بعدم العبور ، الا حينما يقوم پوروس بالعبور بكل جيشه او بعد هزيمته . ووقفت قوات أخرى فى نقط بين المعسكر والجزيرة ، وذلك العبور والمعاونة فى ساعة العسرة . وجاء الملك فى المكان المحدد مساء وقاد رجاله فى عبورهم النهر ، فى ليلة مملوءة بالزوابع والامطار . ركب الاسكندر فى قارب مزود بثلاثين مجدافا . واستطاع هو ورجاله عبور النهر . عند ذلك أمر الاسكندر رجاله بالاستعداد للمعركة الكبرى والثالثة بين المعارك التى خاضها فى حملاته (١) .

كان جيش الاسكندر فى معركة هيداسپس مكونا من : ٦٠٠٠ من hypaspists ، وحوالى ٤٠٠٠ من المترجلة ، ٥٠٠٠ من الفرسان ١٠٠٠ من حملة الاقواس السكيثيين . وامتطى الاسكندر جواده ومعه الفرسان واتجه نحو معسكر پوروس تاركا المترجلة تلحق به . وقد رأى الاسكندر جماعة تتقدم نحوه تحت امرة ابن پوروس ، وقد بلغوا حوالى الفا من الفرسان وستين مركبة عند تقدم الاسكندر فذبح الامير وكذلك اربعمائة من رجاله .

تقدم پوروس نفسه على رأس جيشه بعد أن ترك قوة بسيطة تحمى الساحل تجاه كراتروس . ولما وصل الى منطقة رملية تصلح لتحركات الفرسان ومركبات الحرب نظم خطة القتال : فوضع فى الامام ٢٠٠ فيلا بين كل فيل والآخر ١٠٠ قدم ، ووقف خلف الافيال المترجلة من جيشه والتى بلغ عددها ٢٠٠٠٠ رجلا على الاقل . ووضع فى الجناحين الفرسان، والتى يحتمل أنها بلغت حوالى ٤٠٠٠ فارسا . أما قوات الاسكندر : فقد وضع الـ hypaspists أمام الافيال التى كانت من الاسلحة الرئيسية والقوية فى الجيش الهندى . ومن المستحيل مهاجمة هذه الافيال من الامام . وكانت الطريقة المثلى هى الهجوم بواسطة الفرسان من الجانب ولم يتقدم سليوكوس Seleucus وبقية قادة المترجلة الا بعد أن تبدأ المعركة . وقد ركز الاسكندر هجومه كله على الجناح الايسر . وقد احتفظ بكل فرسانه فى الجناح الايمن . وقد وكل كاونوس Coenus بقيادة جزء من القوات ليحمل على العدو من اليمين ، وكذلك كان على استعداد لضرب المؤخرة ، وفى امكانه أيضا الاشتراك مع الفرسان الذين يواجهون الجناح الايمن للعدو ، حتى يكونوا على أهبة الاستعداد لمعاونة اخوانهم فى الجانب الايسر . اما حملة الاقواس من السكيثيين فقد كانوا يقفون امام فرسان جيش العدو . أما الاسكندر نفسه وبصحبته البقية الباقية من وحدة

---

(١) انظر شكل ٢٠١ من كتاب Bury

الفرسان الثقيلة فقد كان على راس القوة التى تندفع من الجانب . وقد ارتكب پوروس خطأ جسيما ، وذلك بنقله بقية وحداته من الجناح الايمن . وقد انقض على مؤخرة هذا الجناح كاونوس . وقد حمل الاسكندر على عدوه حملة قوية ، وقد تقهقروا الى الخلف واحتموا بالافيال . وقد واجه الهنود بأفيالهم فرسان المقدونيين ، وفى الوقت نفسه اندفع مترجلة المقدونيين وقاتلوا امام الافيال . ولكن دخل أفيال اخرى منها فى صفوف الـ hypaspists ، وقاموا بهدم ما واجههم . ولما سمع فرسان الهنود بنجاح سلاح الافيال تقدموا ، ولكن عادوا أدراجهم وقد وقع كثير من الهنود تحت سنابك الخيل . ولما أن ظهر الاعياء على الافيال ومن بصحبتها انقض الاسكندر ، واصدر أوامره الى hypaspists للتقدم ، وأعاد هو تشكيل قوته ودخل من الجانب . وقد تمزقت وحدة الفرسان الهندية . وتقدم الـ hypaspists لمقاتلة مترجلة العدو ، واستطاعوا القضاء عيلها وهرب جزء كبير منها امام العدو . وقد عبر كراتروس وبقية الجيش المقدوني النهر دون أن تصادفهم اية مقاومة ، واشترك مع الاسكندر فى مطاردة العدو ، ولما وجد پوروس أن اغلب قواته قد تمزقت ، ومات جزء كبير من أفياله أو أصبح بدون راكب ، لم يفر — كما فر من قبل داريوس مرتين — ولكن بقى يقاتل فوق أحد الافيال حتى طعن فى كتفه بلايمن ، وهو الجزء الوحيد من جسمه الذى كان غير مغطى بالزرد . وبعد ذلك استدار واتجه وجهة أخرى . وقد أعجب الاسكندر ببطولته ، فارسل اليه ليعود . وعندما التقى الاسكندر بالامير پوروس ، ساله الاسكندر عما يريده ، فقال پوروس : « عاملنى كملك » . فقال الاسكندر : « حرصا على كرامتى سأفعل ذلك ، ليتك تسأل عن منحةلك » . فأجاب پوروس : « هذا كل ما أطلبه » .

وقد أحسن الاسكندر معاملته ، فأعاده الى مملكته وجعلها تحت حماية المقدونيين . وقد أنشأ الاسكندر بالقرب من المعركة التى دارت رحاها على شاطىء نهر هيداسپس مدينتين ، فعلى الشاطىء الايمن ، مدينة بوسفالا Bucephala ، وقد تسمت باسم جواد الاسكندر الذى قتل فى هذا المكان فى سن متقدمة ، وعلى الشاطىء الايسر ، مدينة نيكايا ، وهى مدينة النصر .

وقد ترك الاسكندر كراتروس يقوم ببناء المدينتين ، وتقدم هو الى الشمال ليستولى على جلاوساى (Glausai) ، وهم شعب جبلى يقيم على حدود كشمير ، ثم عبر نهر اسسينس Acesines (يبلغ عرضه فى المكان الذى عبر منه ميلا ونصف الميل) ، وقد فقد جزءا كبيرا من القوات فى منطقة ابن اخ پوروس ، وكان عدوا لعمه . وقد أرسل هذا الابن الاخ رسالة الى الاسكندر تدل على خضوعه وذلك قبل الدخول فى المعركة ،

ولكن كان مكتئبا وجلا من المعاملة الطيبة التى لاقها عمه پوروس من الاسكندر ، من اجل ذلك لاذ بالفرار الى الشرق . وقد أسرع الاسكندر لتتبعه ، فعبر نهر هيدراوتيس Hydraotis ، وكان عبوره سهلا ، على العكس من سالفه ، ولكنه ترك هيفاستيون للتقدم جنوبا ، واخضع بلاد پوروس الصغير ، وكذلك البلاد الموجودة بين النهرين . وجاءت الاخبار تفيد أن الكاثايين Cathaeans ، وكانوا محاربين اجراء ممتازين ، لم يستطع كل من پوروس وأبيارس منذ مدة غزوهم ، قرروا الدخول معه فى معركة ، وحولوا الاسكندر عن متابعة غريمه . وقد تقدم نحو مدينتهم الرئيسية سانجالا Sangala التى كانت محصنة بحصون قوية ، ومحمية من جانب بجبل ، ومن الجانب الآخر ببحيرة . ومن الجائز أنها كانت بالقرب من امريتسار Amritsar ، الى الشمال الغربى من لاهور ، وبعد قتال مرير تقهقر المدافعون الى المدينة . وقد حاولوا الفرار عبر البحيرة فى جنح الظلام ، ولكن كشف الاسكندر خطتهم ، وملأ شواطىء البحيرة بالجنود . وبعد ذلك استولى على المنطقة ، وخضع له الجيران .

وقد حاول الاسكندر التقدم بعد ذلك الى Ganges ، ولكن حدثت ازمة على شواطىء نهر هيفاسيس ، فقد امتنع الجيش عن التقدم ، وقد قوى فكرة الامتناع ما وصلهم من معلومات تفيد بأنهم سوف يضطرون لعبر صحراء الفندفى رحلة تمتد الى احد عشر يوما فى صحراء جرداء حتى يصلوا الى الاقاليم الخصبة فى Ganges . وقد جمع الاسكندر القادة وكان المتحدث بشعورهم كاونوس Coenus ، وقد فض الاجتماع ، ودعاهم الاسكندر فى اليوم التالى ، وأعلن أنه ينوى التقدم هو نفسه ، ولن يكره أى رجل على اللحاق به ، ولسوف يترك المقدونيين يعودون الى مقدونيا ، وسوف يعلم الاهل هناك بتركهم مليكهم فى أرض الاعداء . وعاد الاسكندر الى فسطاطة ، ورفض لقاء رفاقه يومين ، أملا أن تلين قلوبهم . ولكن ولو ان استياءه قد اغضبهم ، الا انهم لم يتراجعوا عن رأيهم . وفى اليوم الثالث ضحى من اجل عبور النهر ، مستشيرا الالهة التى جاء ردها بنصحه بعدم العبور والتقدم . عند ذلك اعلن الملك أنه سوف لا يتقدم وسيعود فسر الجنود من هذا القرار . لقد أقام الاسكندر على شاطىء هيفاسيس اثنتى عشرة مقصورة للالهة الكبرى .

ولما انتهى كراتروس Craterus من بناء المدينتين على نهر هيداسپس أبوسفالا ، ونيكالا ، قام باعداد أسطول كبير للنقل ، كان يقوم بنقل جزء كبير من الجيش حتى يصلوا نهر اندوس ومنه الى المحيط . وقد كان الاسطول تحت امره نيارك Nearchus ، وكان قائد سفينة الملك أونسيكريتوس Onesicritus ، وقسم الجزء الباقى من الجيش الى

قسمين ، سارا على الشاطىء تحت اشراف هيفاسيتون وكراتروس .

وتقدم الجيش والاسطول واخضعوا كل البلاد التى مروا عليها . وقد قاومتهم قبائل مالى Malli على نهر Ravee ، وقد تتبع الاسكندر جيوشهم حتى مدينتهم الرئيسية سانجالا Sangala ، والتى لم يعرف موقعها بشكل مؤكد حتى الآن . وقد استطاع الاسكندر ان يستولى على المدينة . وقد حدث فى هذه الآونة حادث يدل على بطولة الاسكندر . فقد جىء بسلمين ليصعد عليهما الجنود السور الشرقي . وقد صعد الاسكندر على احدهما وقام بذبح الهنود الذين وجدهم فى المبنى . وقد اندفع جنود الاسكندر على السلمين ، ولكن كسر السلمان ولم يصعد الا ثلاثة من الجنود فقط . وقد التمس اصدقاء الاسكندر منه أن يقفز ، وقد اجابهم بالقفز على العدو . وترجل على قدميه . وقد وقف يواجه جيش العدو . وقد استطاع بسيفــه ان يقطــع راس قائدهم وغيره ، وقد صرع اثنين منهم بالحجارة ، ولم يستطع من بقى منهم أن يقترب منه . وبعد لأى ، ظهــر رفاقه الثلاثة وقفزوا لمعاونته . وقــــد سقط أحــــدهم وهــــو Abreas برمية رام . وقد جرح الاسكندر فى صدره . واستمر يحارب لكنه لم يستطع البقاء طويلا . فقد كان جرحه ينزف دما كثيرا . وقد قام رفيقاه الآخران Peucestas ، و Leonnatus على حراسته حتى جاءت نجدة . ولما لم يكن لدى المقدونيين سلالم ، قاموا بوضع اوتاد فى الحائط ، وصعد القليل منهم واشتركوا فى المعركة . وقد نجح بعض هؤلاء فى فتح أحد البوابات ، وبعد ذلك تمكنوا من الاستيلاء على الحصن . وقد قام الجند بقتل كل الرجال والنساء والولدان لانهم ظنــوا ان الاسكندر قد مات . ولكن ولو أن الجرح كان خطرا ، الا انه شفى . وقد طارت الاشاعات بوفاته حتى وصلت المعسكر حيث كان الجيش الرئيسى منتظرا عند نقطة التقاء نهر Ravee رافى بنهر شناب Chenab . وقد حمل الاسكندر فى قارب ، ولما رآه جنده حيا فرحوا . ولما وصل الى الشاطىء . رفعوه برهة على ظهر جواده ليراه الجند . وبعد ذلك سار خطوات قليلة . كل ذلك لتبديد ما اشيع عن وفاته .

خضــع له المــالى Malli تماما عام ٣٢٥ وتبعهم الاوكسيدراسس Oxydraces ، الذين يقيمون الى الجنــــوب من مالى . ولم تضم هذه المنطقة الى پوروس ، ولكن اضيفت لسترابية فيليب . و لما شفى الاسكندر من جرحه ، أبحر الاسطول جنوبا ، وقد خضعت له تلك القبائل وقدمت اليها الكثير من الهدايا ومنتجات الهند : احجار كريمة ، اقمشة دقيقــة ، أسود اليفة ، نمور . وعند نقطة التقاء اربعــة روافد بنهر اندوس انشأ الاسكندر اسكندرية جــديدة لتصبح مركزا تجاريا بين البنجاب ونهــر

اندوس السفلى ، وكذلك لتكون حصنا للحدود الجنوبية لولاية فيليب . تقدم الى الجنوب ، فوصل الى عاصمة سوجدى Sogdi . وقد اعاد الاسكندر بناءها كمستعمرة يونانية ، وبنى فيها أرصفة للسفن ، وكانت معروفة تحت اسم Sogdian Alexandria ، وقد كانت مركزا لسترابية تمتد حتى ساحل البحر ، كان يشرف عليها پيثون Peithon بن أجنور Agenor .

كانت تتميز امارات السند الغنية والاهلة بالسكان عن الولايات الشمالية بالسلطة السياسية الكبيرة التي يتمتع بها البراهمة ، وقد قاومته بعض القبائل وخضع له البعض الا انهم سرعان ما ثاروا عليه . وقد أمضى ربيع هذا العام في اخضاع تلك المناطق . ووصل الاسكندر الى پاتالا Patala التى تقع عند رأس دلتا الاندوس فى منتصف الصيف . وقد جاء فى الخبر انه أرسل كراتروس على رأس وحدات من الجيش الكثيرة الى اراشوسيا Arachosia بجنوب افغانستان وذلك للقضاء على ثورة قامت هناك . أما الأسكندر نفسه فقد سار عبر بلوخستان ، واصدر أوامره الى كراتروس ليلقاه فى كيرمان Kirman بالقرب من مدخل الخليج العربى . وابحر قسم آخر من الجيش بطريق البحر متجها الى مصب الرافدين . وقد أراد الأسكندر ان يجعل من پاتالا ميناء كبيرا كميناء الاسكندرية الذى انشاه فى مصر . وقد كلف هيفاستيون بتحصين القلعة وبناء ميناء بها كبير . وابحر هو جنوبا لزيارة المحيط الجنوبى . وقد كان هذا الوقت هو موعد هبوب زوابع المنسون التى تهب من الجنوب الغربى ، ولم يكن يألفها المقدونيين ، من أجل ذلك فقدوا الكثير من السفن . وقد كلف أحد ضباطه المخلصين ، نيارك Nearchus باكتشاف طريق بحرى يصل الشرق بالغرب . وقد بدأ الاسكندر بالسير برا فى الخريف ، ولكن انتظر نيارك حتى اكتوبر ، لتعاونه الرياح التى تهب من الشرق .

عودة الاسكندر الى بابل :

سار الاسكندر بعد ذلك على ساحل المحيط الهندى فى صحراء جدروسيا Gedrosia ، والتى تعرف حاليا بمكران Mekran ، وكان القصد من ذلك هو تأمين أسطول نيارك ، وكذلك للقضاء على جماعة الاورتيين Oritae .

قام الاسكندر على رأس ٣٠ ألف رجل من دلتا نهر الاندوس ، وعبر نهر أربيس Arbis ، فاخضع جماعة الاورتيين ، واختار احدى قراهم الرئيسية رامپاكيا Rampacia لتأسيس مستعمرة اسكندرية الاورتيين . وقد كانت هامة لتحقيق مشروعه الخاص بالطريق البحرى ،

وبعد ذلك اتجه الى صحراء جدروسيا . ولم يلق أية مقاومة فى هذه المنطقة وذلك لعدم وجود أهالى كثيرين فى تلك المنطقة الصحراوية . وقد لاقى الجيش صعوبات كثيرة فى تحركاته فى منطقة صحراوية قفراء ، كما انه كان على الجيش أن يجمع بعض المؤن للاسطول . ثم اتجه بعد ذلك الجيش الى الشمال الغربى حتى وصل الى پورا Pura عاصمة ستراپية جدروسيا . وقد قيل أن ما فقده الاسكندر فى هذه المنطقة يفوق أى فقدان سابق . وقد استمرت الرحلة من اغسطس حتى أكتوبر ٣٢٥ .

وبقى فى پورا فترة ، ثم تقدم الى كيرمان حيث التقى بكراتروس الذى أخضع الثورة فى اراشوسيا . وجاءت اليه الاخبار تشير الى أن الاسطول قد وصل الى ساحل كيرمان ، (بدأ نيارك من أكتوبر ٣٢٥ وانتهى عند كيرمان فى شهر ديسمبر ٣٢٥) ، وقد صعد نيارك الى المعسكر ، وقد خفف مجيئه هموم الاسكندر ومتاعبه . وبدأ نيارك يقص على مليكه قصص البطولة التى قام بها والمصاعب التى واجهته وغرق ثلاثة سفن عند كوكالا Cocala . وقد رفض نيارك اتمام الرحلة وذلك بالابحار فى الخليج الفربى ، وقد ذهب هفاستيون بدلا منه ، (هناك راى يقول أن نيارك ذهب حتى النهاية وقد سبق أن أشرنا الى ذلك . انظر ص ١٢٧ — ١٢٨ . ويلاحظ اختلاف فى التواريخ اذ ذكرنا ان الرحلة قامت عام ٣٢٤ واستمرت ١٣٠ يوما) بينما تقدم الاسكندر عبر المرتفعات بين پرسپوليس وپاسارجاداى .

وهكذا عاد الاسكندر الى المنطقة التى مر بها من قبل . وجدير بالذكر، انه لم نسمع عن ستراب أيا كان أصله فارسى أو مقدونى قد عامل مواطنيه معاملة حسنة . وبعضهم ظن أن الاسكندر سوف لا يعود من الشرق فاستقلوا باماراتهم . وقد قام الاسكندر فى كيرمان وبيرسيس وسوسه باعادة سلطته واخذ بالصارم العنيف كل من فكر فى الثورة عليه من الحكام والضباط . فعزل الكثير من الحكام (Satraps) أو قتلهم . وكان اتروپاتس Atropates ستراب ميديا من بين القلة التى اخلصت للاسكندر . ولكن حامية ميديا لم تقم بواجبها خير قيام . وقد قضى الاسكندر باعدام ضابطين وستمائة جنديا وذلك لقيامهم بنهب دور عبادة هذه الستراپية وقبورها . ومن الاشياء التى أسف لها الاسكندر أشد الاسف هو فتح قبر كورش فى پاسارجاداى ونهبه وانتهاك حرمة المعابد. وقام الاسكندر بعقاب وتعذيب الماجيين حراس القبر ، ولكنه لم يهتد للكشف عن المعتدين .

لقد فر أحد الوزراء المذنبين وهو هارپالوس Harpalus حينما علم

بقرب قدوم الاسكندر . ولم يكن هذا الوزير فى أول أمره مخلصا للاسكندر وقد عفا عنه ، وكلفه بادارة الشئون المالية للامبراطورية . ولقد بدد أموال سيده فى الحياة الصاخبة التى كان يعيشها فى بابل ، ولما بلغت اخبـاره الاسكندر وهو فى الهند ، وجد من الخير أن يعود . قام هارپالوس بأخـذ كمية كبيرة من المال ، وذهب الى قليقية ، واستأجر حاشية مكون من ٦٠٠٠ من المرتزقة ، وأقام فى امارة ملكية بطوروس مع جليكرا Glycera احدى الفانيات اليونانيات .

وقد أثبت الاسكندر فى معاملته حكامه الظالمين من الفرس أو اليونان معاملة واحدة على انه بدأ تحقيق مشروعاته التى تهدف الى القضاء على الحدود التى تفصل الشرق عن الغرب . فقد أزال الحواجز التى تفصل المشرق عن المغرب . وأماط اللثام عن حضارة الشرق وتجارة أهل البحر المتوسط ، ولكن كان هدفه أن يعمل شيئا أكثر من ذلك ، كان يرغب فى ادماج آسيا وأوربا فى وحدة متجانسة ، من أجل ذلك ابتكر عدة وسائل لتحقيق هذا الفرض . أولا : فكر فى أن ينقل اليونان والمقدونيين الى آسيا ، والاسيويين الى أوربا ويقيموا اقامة طويلة مستمرة وقد حقق هذا الفرس والمقدونيين ، وقد بدأت هذه السياسة فى سوسه . تزوج الملك نفسه المخطط وذلك بانشاء عدة مدن مختلطة فى الشرق . وثانيا : المصاهرة بين ستاتيرا Statira ابنة داريوس ، وتزوج هفاستيون صديقه أختها ، وقد تزوج عدد من الضباط المقدونيين بنات عظماء من الفرس . وقد تزوج الجميع فى يوم واحد وعلى الطريقة الفارسية : وقيل ان الاسكندر دعا ٩٠٠٠ زائرا ، كذلك قيل ان عشرة آلاف مقدونى سلكوا طريقة الضباط وتزوجوا اسيويات ، وقد كوفىء هؤلاء من الاسكندر بسخاء . وجدير بالملاحظة ان الاسكندر أيضا كان متزوجا الاميرة سوجديانا ، لقد سار على سنة الفرس فى تعدد الزوجات ، فتزوج كذلك سيدة ملكية ، پاريساتيس Parysatis ، ابنة اوخوس . كل هـذه الزيجات كانت أهدافهـا سياسية لان الاسكندر لم يتصف بأنه كان ملحا فى طلب النساء . ولم يقع أبدا تحت تأثير امرأة . ثالثا : المساواة فى الخدمة العسكرية . فبعد وفاة داريوس بقليل ، قرر الاسكندر تدريب كل الشبان من المواطنين فى الولايات الشرقية تدريبا عسكريا على الطريقة المقدونية ، وتمرينهم على الاسلحـة المقدونية . وعلى ذلك ، بنيت مدارس عسكرية فى كل ولاية ، وبعد خمسة أعوام كان لدى الاسـكندر ٣٠٠٠٠ من البرابرة (على حد تعبير المؤرخ الاوربى القديم) المدربين هلينيا تحت تصرفه . وقد استدعى هذا الجيش فى سوسه ، وقد خلق مجيئه شـعورا من عدم الارتياح بين المقدونيين ، الذين ظنوا أن الاسكندر يرغب فى الاستغناء عن خدماتهم . وقد وضحت خططه لتطوير جيشه وذلك بتجنيده الفرس والباكتريين والاريين وغيرهم .

من الشرقيين فى فرق الفرسان المقدونيين ، وتسجيله تسع من الفرس المتازين فى الفرقة الملكية Agema .

ترك الاسكندر سوسة الى اكباتانا . وركب الماء فى نهر باسيتيجريس الى الخليج العربى ، ثم قام بالقاء نظرة على جزء من الشاطىء ، ونزل فى دجلة ، ورفع الحواجز التى وضعها الفرس لمنع الملاحة . وقد اتحد به الجيش فى الطريق ، ووقف عند اوپيس Opis . وهنا عقدالاسكندر من المقدونيين مؤتمراوقد اعفى كل من لايصلح للخدمةالعسكرية من كبارالسن أو الجرحى ، وقد بلغ عددهم حوالى ١٠٠٠٠ آلاف رجلا . وقد ظن ان هذا القرار سيلقى ارتياحا من الجنود ، ولكن على العكس فقد قوبل باستياء ، فعلا صوتهم ، وقالوا « تعفينا كلنا » واضاف بعضهم بعنف « اذهب وقاتل مع والدك آمون » . ومن الجائز ان الملك قد اخذ حينما سمع ذلك . ووثب الاسكندر من فوق المنصة واشار على ثلاثة عشر من الاشخاص المشاغبين ، وطلب من الـ hypaspists القبض عليهم واعدامهم عند ذلك دب الرعب فى الباقين . وعاد الاسكندر الى المنصة وسط صمت عميق ، واعلن فى مرارة تسريح الجيش كله . وعاد الى قصره ، وفى اليوم الثالث استدعى اشراف الفرس والميديين وعينهم فى المناصب التى كان يشغلها المقدونيون . وتحولت الفرق المقدونية الى جيش من البرابرة . وحينما علم الجند المقدونيون الذين كانوا فى معسكراتهم ، تبلبلت افكارهم ، واسرعوا الى ابواب القصر يطلبون العفو من الاسكندر ومصالحته . وقد عفا عنهم .

عاد الكثير من الجنود المدربين تحت اشراف كراتروس وپوليپرشون Polyperchon الى مقدونيا ، وتركوا الأطفال الذين ولد لهم من الزيجات الآسيويات . وقد حل كراتروس محل انتيپاتر نائبا عن الملك فى مقدونيا ، وكان على انتيپاترا ان يحضر الى آسيا بفرق جديدة . مثل هذا التنظيم لم يكن مرغوبا فيه بالرغم من العلاقات الغير طيبة التى كانت موجودة بين انتيپاتر ، والملكة الأم ، والتى كانت خطاباتها الى الاسكندر مملوءة بالشكاوى والتهم .

أمضى الاسكندر الصيف وبداية الشتاء فى العاصمة الميدية ، اكباتانا . وقد حدث فى هذه العاصمة حادث حزن له الاسكندر حزنا عميقا ، فقد مات صديقه الوفى هيفاستيون ، وصام ثلاثة أيام ، ولبست البلاد كلها حلل الحداد . وقد أرسلت الجثة الى بابل لحرقها ، وقد تكلفت المحرقة اموالا طائلة . فجهز لها منصة كبيرة ، قام المهندسون بتصميمها ، فهدموا جزءا من سور المدينة ، واخذت الحجارة الصغيرة المتخلفة ، وكومت

وســـويت فى مكان بارز الى الشرق من القصر الملكى حيث لفحت حـــرارة النيران سطحها العلوى وصيرته محمرا .

اتجه الاسكندر الى بابل فى نهاية العام (٣٢٤) ، وقام بالقضاء على جماعات من قطاع الطرق . ولما قرب من مشارف بابل ، لقى جماعة من الكهنة اشاروا عليه بعدم دخول المدينة لان الاله قد أوحى اليهم بأنة ليس من الخير للاسكندر دخول المدينة . ولم يستمع لحديثهم ودخل على رأس جيشه الى المدينة . وقام باعادة بناء معبد مردوك بهمة ونشـــاط . كما انه كان قد هدم فى هذا الوقت برج اتمن انكى Etemenanki ، فأزال المهندسون الرديم . وقـــد قدر لهذا العمـــل ما يربو من عشرة آلاف من العمال يعملون مدة شهرين . وحينما بدء العمل ، وضعت الانقـــاض فى مكان غير بعيد من محرقة هيفاسيون . وقـــد قام بالكشف عن ذلك كله Koldewey فى حفائره التى اجراها فى بابل عام ١٩١٤ فى مجلد قيم (١) .

* * *

الاستعدادات للحملة البحرية حول الجزيرة العربية

ووفاة الاسكندر

كان للاسكندر مشاريع بحرية كبيرة ، وكان له رغبة فى الكشف عن المحيط الشمالى والجنوبى . وقد أرسل فعلا هراكليدس Heraclides وبرفقته جماعة من صناع السفن الى مرتفعات هيركانيا Hyrcania ، وذلك لقطع الخشب من الغابات ، وبناء أسطول للابحار فى البحر الكسبى، والكشف عما كان يظن فى هذا الوقت من صلته بالمحيط الشرقى . ولكن كان مشروعه الجدى المباشر هو الدوران البحرى وغزو الجزيرة العربية . وقد فكر فى أن يجعل موانىء الخليج العربى فينيقية الثانية ، وقد أرسل الى الساحل السورى للبحث عن بحارة لاستعمار شواطىء البلاد الأصلية والجزر . وكان يامل فى انشاء طريق للتجارة منظم من الاندوس الى دجلة والفرات ، وبعد ذلك تمر التجارة فى قنوات تصل النيل بالبحر الأحمر .

اراد الاسكندر ان تكون بابل هى عاصمة امبراطوريته ، وقـــد كانت ارادته صائبة . كان يود ان تكون محطة بحرية ومركزا تجاريا بحريا ، وشرع فعلا فى حفر ميناء عظيم يتسع لألف سفينة .

R. Koldewey, The Excavations at Babylon, London, 1914.

.اقلع نيـــارك على الفرات والتقى مع الملك فى بابل . ولكن كان هــذا الأسطول غير كاف لمشروع المستقبل . فصدرت الأوامر الى فينيقية لبناء سـفن جـديدة : ١٢ triremes(١) ، ٣ quadriremes ، ٤ quinqueremes ، ٣٠ زاورقابمجاديف . وقد بنيت هذهمن قطع خشبية، ثم نقلت على اليابس الى ثابساكوس Thapsacus على الفرات ، وركبت هناك . وبنيت الى جانب ذلك فى بابل سفن أخرى من خشب السرو . كان لابد أن تقوم الرحلة فى الصيف ، ولكن شغل الملك فى رحلة الى الفرات . ونتيجة لحدوث فيضان مفاجئ فى الفرات ، غمر سهل بابل بالميـاه . صدر الامر بحفر قناة جنوبى بابل بحوالى ٩٠ ميلا لتستقبل المياه الزائدة فى المستنقعات التى كانت تمتد الى مسافات بعيدة الى الجنوب الغربى . وقد أغلقت القناة فى الخريف بهويس لمنع المياه من ترك واديها . ولكن كان الهويس معطلا ، ولكن الاسكندر ابتكر مكانا أحسن من السابق ، يصـل القناة بالبحر فى نقطة مختلفة . وأبحر فى القناة ، وضل طريقه لفترة بين المستنقعات ، ثم اختار موضعا لمدينة جديدة ، حيث بادروا بالبـدء فى بنائها .

وعند عودته الى بابل ، استقبل بعض وحدات جديدة وصلت اليه من كاريا Caria وليديا ، ٢٠٠٠٠ الف من الفرس قام بتجنيدهم پوسـستاس Peuscestas . لقد شرع الاسكندر فى انجاز تحسينات عسكرية فى الجيش كانت محل دراسة له سابقة . وأدخل تنظيمات جديدة كانت الى جانب أهدافها العسكرية ترمى الى ادماج القـدونيين والفرس وتحقيق حلمه الكبير وهو اقتران أوربا بآسيا .

وكان كل شئ يسير وفق خطة محكمة ، وتستعد البلاد للحملة الى الجنـوب. واقيمت فى بداية شهر يونيـة عام ٣٢٣ وليمة ملكية لتكريم نيارك Nearchus ورفاقه من البحـارة قبل البـدء فى رحلة المحيط بقليل . وبينما كان الاسكندر عائدا الى غرفته فى سـاعة متأخرة ، دعاه صديقه مديوس Medius لتمضية بقية الليل لتناول بعض الشراب . وقد ظل فى فراشه فى اليوم التالى فترة طويلة ، وفى المساء تناول العشـاء مع مديوس ، واعقب ذلك وليمة للشرب . وبعد أن استحم وتناول طعام الافطار فى الصباح الباكر من اليوم التالى انتابته حمى شديدة ، وغرق فى نوم عميق . وحينما استيقظ ، أصر على اعـداد القربان اليومى كمـا تعود ، ولكن لا زالت الحمى تلازمه ، فلم يستطع السير ، وحمل الى المذبح

(١) تسمية لسفن يونانية حربية لها ثلاثة صفوف من المجاديف ، quadriremes سفن لها أربعة صفوف من المجاديف ، quinqueremes سفن لها خمسـة صفوف من المجاديف .

على سريره . وقد أمضى اليوم فى الفراش ، وقد شغل مع نيارك فى اعداد الحملة البحرية والتى حدد تاريخها من الآن بعد اربعة أيام . وقد حمل الى النهر فى ليلة من الليالى ، ونقل الى الضفة الأخرى وأقام فى منزل هناك . وقد ظل فى هذا المنزل ستة أيام ولا زالت الحمى لا تفارقه ، ولكن كان دائما يقوم بتقديم القربان ، ويجبر يوميا على ارجاء قيام الحملة البحرية يوما بعد يوم . وبعد ذلك ساءت حالته ، وأعيد الى القصر فى ٢٥ يونية ، حيث تمكن من النوم ، ولكن لم تفارقه الحمى . ولما جاءه ضباطه ، وجدوه غير قادر على التحدث . واشتد المرض ، وأشيع بين الجنود المقدونيين أن الاسكندر قد مات . فاندفعوا الى أبواب القصر وهم يصرخون ، واضطر الحرس لادخالهم . وقاموا بانتظام بالمرور بجوار فراش مليكهم الشاب ، لكنه لم يستطع الكلام ، فلم يحدثهم ، وقد تمكن من ان يحيى كل واحد منهم بايماءة بسيطة برأسه وباشارة بعينيه . وقد أمضى پوسستاس وبعض الرفاق الليلة فى معبد سراپيس وسألوا الاله ان كان فى نقله الى المعبد أمل فى شفائه ، وقد سمعوا صوتا يحذرهم من احضاره وتركوه فى مكانه كما هو . وقد مات فى احد ليالى شهر يونية قبل أن يتم عامه الثانى والثلاثين ، فى اليوم الثالث عشر من يونيه عام ٣٢٣ ق . م .

* * *

ثبت بأسماء الملوك الذين حكموا فى الهضبة الايرانية ومعاصريهم

١ ــ الفرس من القرن العاشر ق.م حتى الاخمنيين (٥٥٠ ق.م) .

الهضبة الايرانية		شرقى آسية	
الميديون	الفرس	بلاد الرافدين	أورارتو
القرن التاسع			
٨٢٥ ــ ظهر الميديون فى منطقة أورميا	٨٣٤ ــ ظهر الفرس فى منطقة پارسا	شالمناصر الثالث (٨٥٨ ــ ٨٢٤)	تكونت مملكة أورارتو منوا Menua ملك أورارتو (٨١٠ ــ ٧٨١)
القرن الثامن			
المؤسس هو ديوسس Deiocès (٧٢٨ ــ ٦٧٥) أسس اكباتانا	اخمينس رأس عائلة الاخمينيين	شالمناصر الرابع (٧٨٢ ــ ٧٧٣) حوليات سرجون الثانى (٧٢١ ــ ٧٠٥)	ارجشتى الأول ملك أورارتو ارجشتى الثانى ملك أورارتو (٧١٤ ــ ٦٨٥)

القرن السابع

غزوة السيمريين
فراورتس
(٦٧٥ — ٦٥٣
غزوة السكيثيين
سيكاساريس
(٦٥٣ — ٥٨٥)

تيسپس
(٦٧٥ — ٦٤٠)
كورش الأول
ملك
(٦٤٠ — ٦٠٠)
اريا رامن
ملك بلاد پارسا
(٦٤٠ — ٦١٥)

أسر حدون
(٦٨٠ — ٦٦٩)
اشور بانيپال
(٦٦٨ — ٦٣١)
القضاء على
نينوى
٦١٢

القرن السادس

استياچ
(٥٨٥ — ٥٥٠)

قمبيز الأول
ملك
پارسوماش
وپارسا
(٦٠٠ — ٥٥٩)

نبوخذ نصر الثانى
(٦٠٥ — ٥٦٢)

نهاية مملكة
أورارتو

مردانة ابنة استياج
تزوجت
قمبيز الأول

نهاية المملكة الميدية
(٥٥٠)

٢ — الفرس الاخمينيون (٥٥٩ — ٣٣٠ ق.م) .

الملوك	بلاد الرافدين	مصر
القرن السادس		
كورش الثانى (٥٥٩ — ٥٣٠) المؤسس الحقيقى لأسر الاخمينيين قمبيز الثانى (٥٢٩ — ٥٢٢) داريوس الأول (٥٢١ — ٤٨٦)	استيلاء كورش الثانى على بابل (٥٣٩) قمبيز الثانى ملك بابل (٥٢٩)	بسماتيك الثالث (٥٢٦ — ٥٢٥) الاحتلال الفارسى (٥٢٥ — ٥٠٤)
القرن الخامس		
اكسركسس الأول (٤٨٥ — ٤٦٥) ارتاكسركسس الأول (٤٦٤ — ٤٢٤) اكسركسس الثانى (٤٢٤) داريوس الثانى (٤٢٣ — ٤٠٤)	بابل العاصمة الرابعة للامبراطورية الفارسية	الاحتلال الفارسى الثورة فى مصر
ارتاكسركسس الثانى (٤٠٣ — ٣٥٩) ارتاكسركسس الثالث (٣٥٨ — ٣٣٨) ارسس (٣٣٧ — ٣٣٦) داريوس الثالث كودومان (٣٣٥ — ٣٣١)	الاسكندر الأكبر فى بابل (٣٣١) وفاة الاسكندر ٣٢٣	نقتانبو (٣٧٨ — ٣٥٠) الاحتلال الفارسى الثانى (٣٤١ — ٣٣٣) غزو الاسكندر (٣٣٢)

كانت للامبراطورية عواصم أربعة هى : بابل ، وسوسه ، وبرسيبوليس واكباتانا .

فهرس الاعلام التاريخية الكبرى

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(حـ)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

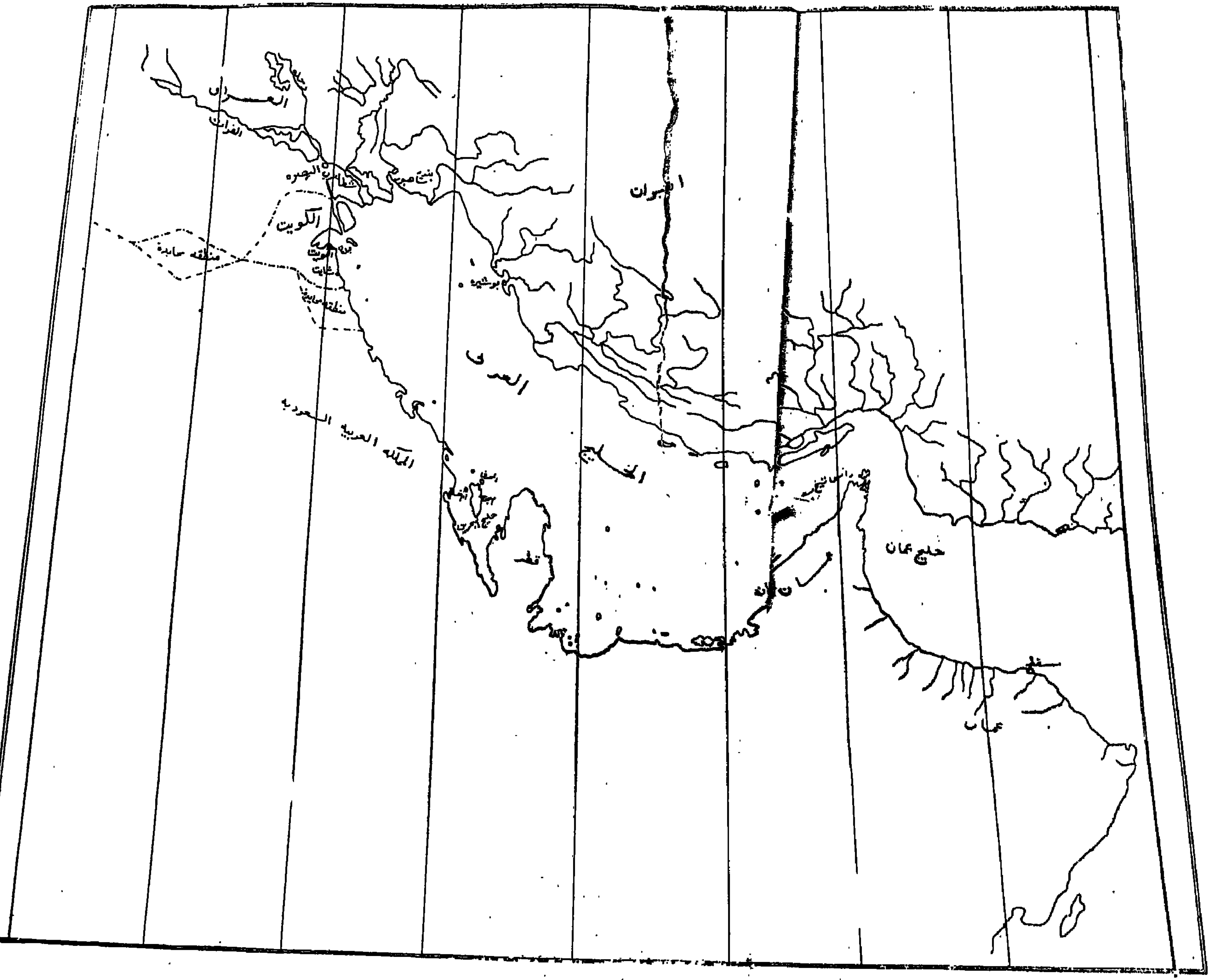
(هـ)

(و)

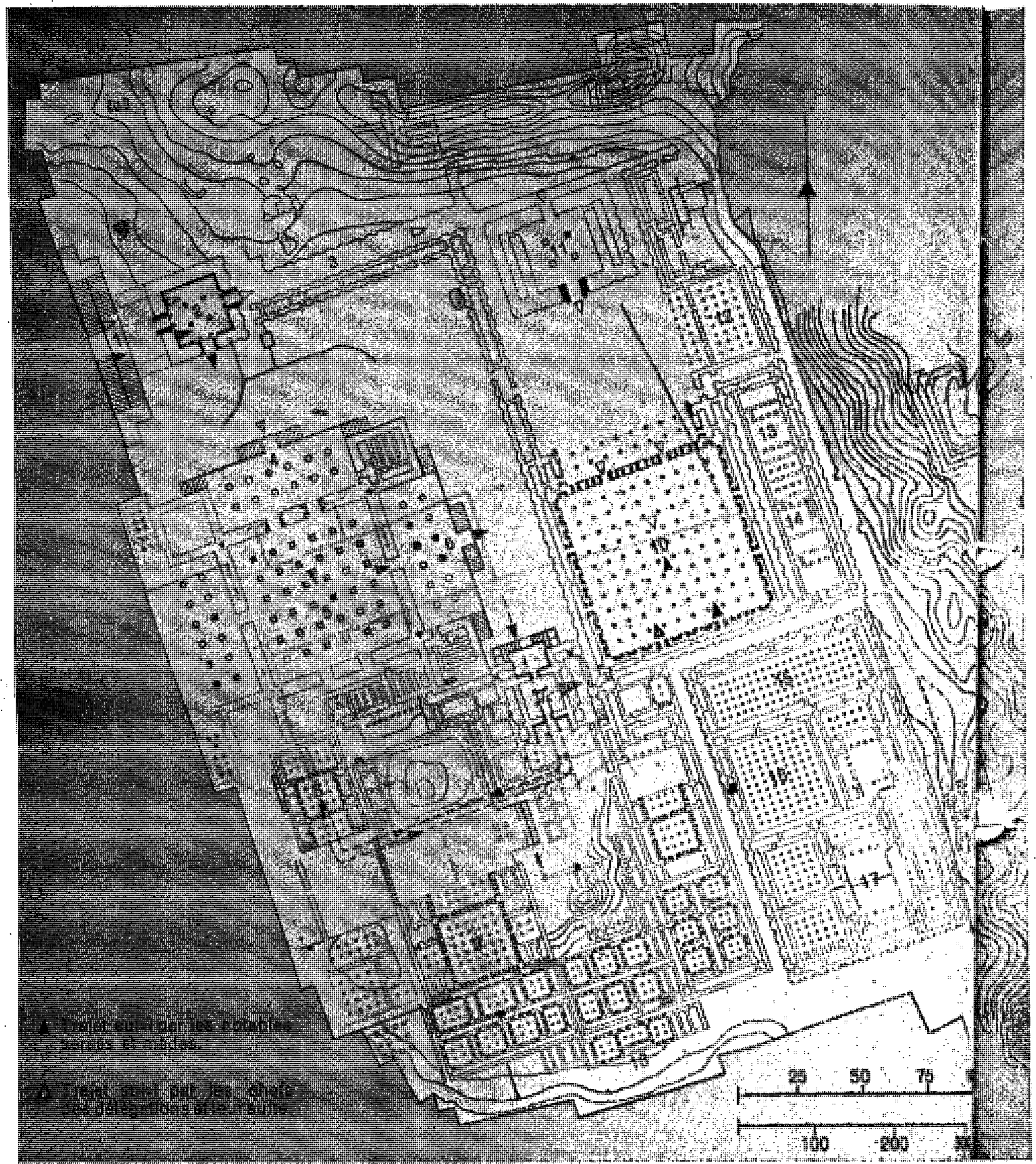
فهرس الموضوعات

انتهى طبع هذا الكتاب بحمد الله تعالى فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٧

خرائط وأشكال



شكل ١٧ (أنظر ص ١٢١)



تصميم عام لپرسپوليس :

١ ـ السلم الكبير .

٢ ـ البوابة الكبرى لاكسركسس وهى بوابة « كل الاقطار » .

٣ ـ طريق الموكب .

٤ ـ السلم الشمالى لردهة الاجتماعات Apadana

٥ ـ ردهة الاجتماعات Apadana .

٦ ـ السلم الشرقى لردهة الاجتماعات

٧ ـ Tripylon .

٨ ـ قصر داريوس المخصص للمآدب الرسمية .

٩ ـ قصر اكسركسس المخصص للمآدب الرسمية .

١٠ ـ ردهة المائة عمود أو « ردهة العرش » .

١١ ـ بوابة كبيرة لم تتم .

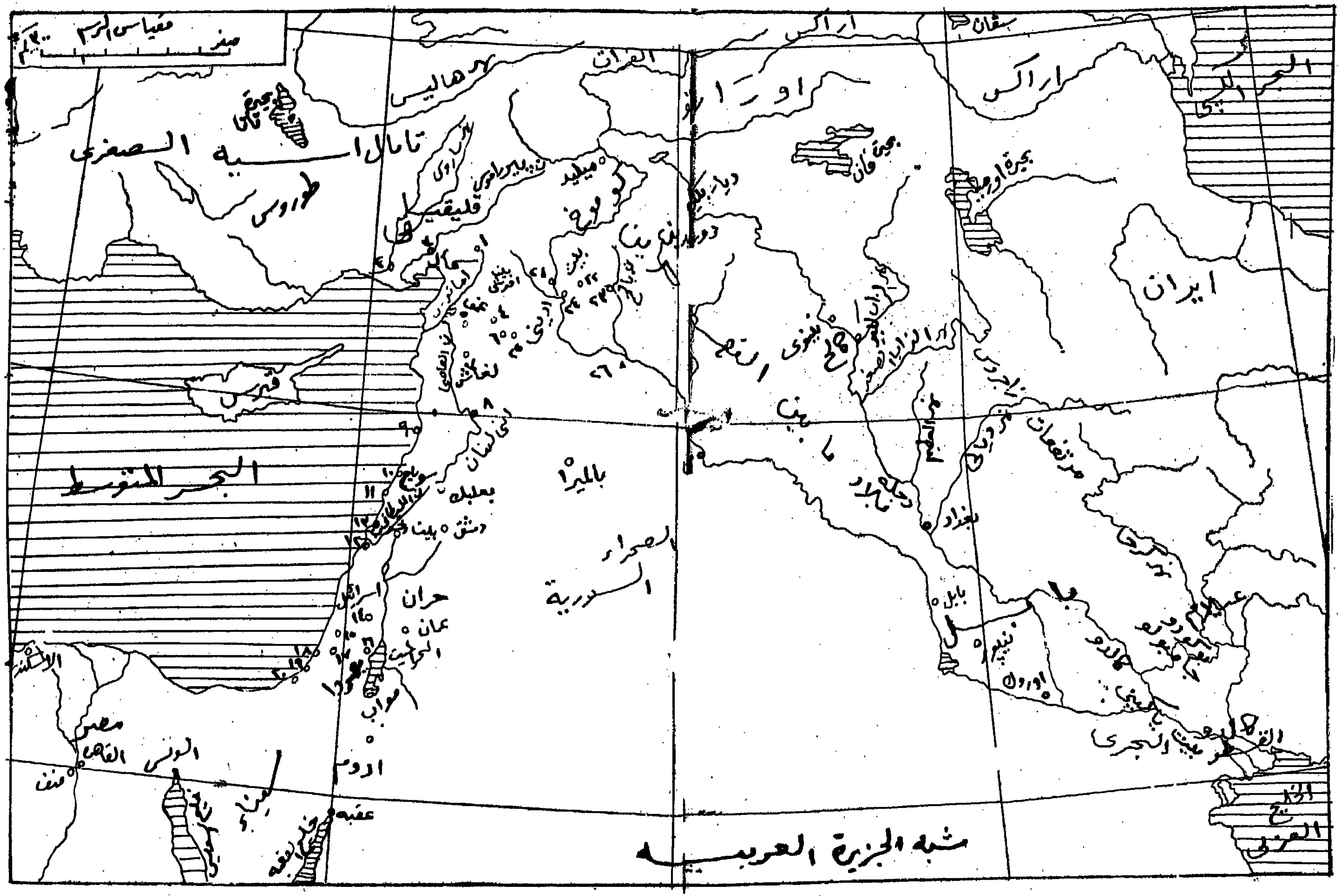
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ـ الحى الحربى .

١٥ ـ ردهة المائة عمود (وهى تمثل القسم الثالث من الخزانة الملكية)

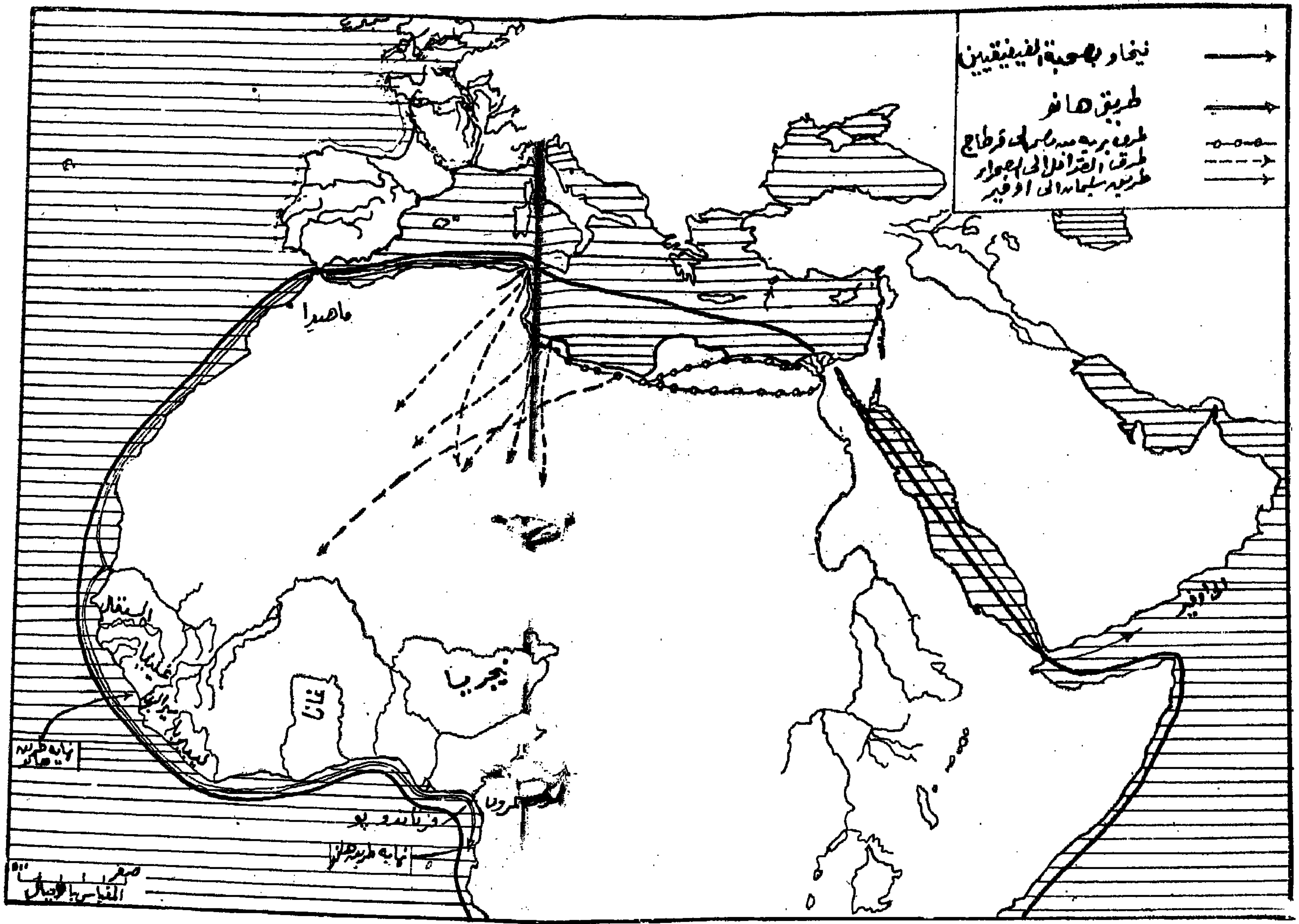
١٦ ـ ردهة تضم ٩٩ عمودا (وهى تمثل القسم الاوسط من الخزانة الملكية) .

١٨ ـ الواجهة الجنوبية للشرفة التى تطل على السهل . وفى وسطها : المقصورة الملكية .

١ ــ سنچرلي .
٢ ــ اصنة .
٣ ــ كارتب .
٤ ــ ارباد .
٥ ــ كولاني .
٦ ــ حلب .
٧ ــ خزرك .
٨ ــ حماة .
٩ ــ ارواد .
١٠ ــ بيبلوس .
١١ ــ بيروس = بيروت
١٢ ــ صور .
١٣ ــ صيدا .
١٤ ــ ساماري .
١٥ ــ جزر .
١٦ ــ أورشليم .
١٧ ــ لچش .
١٨ ــ عسقلون .
١٩ ــ غزة .
٢٠ ــ رفح .
٢١ ــ كركميش .
٢٢ ــ ارسلان تاش
٢٣ ــ حران .
٢٤ ــ تل بارسيب .
٢٥ ــ نائير .
٢٦ ــ جبل بشرى .

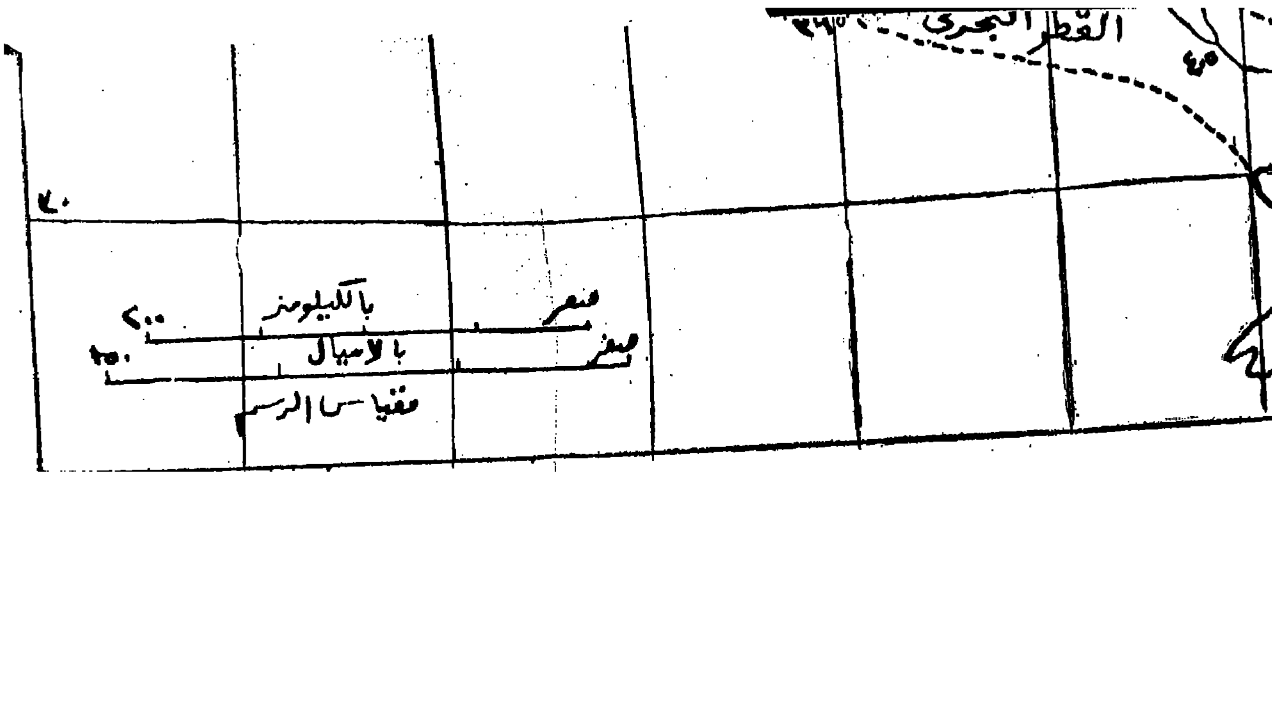


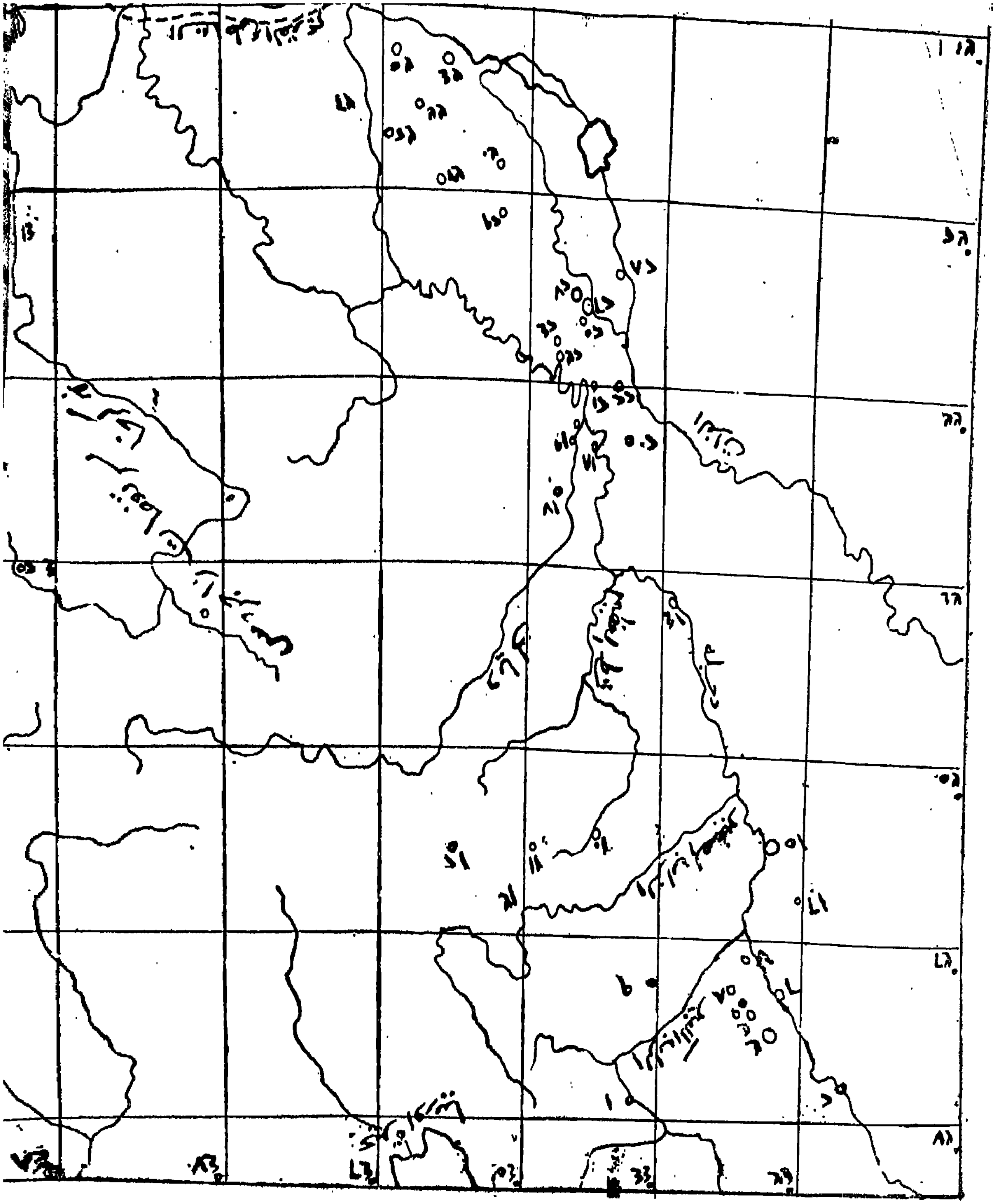
شكل ٢٦ (انظر صفحة ٣٢٩ ، وصفحة ٣٣٢)



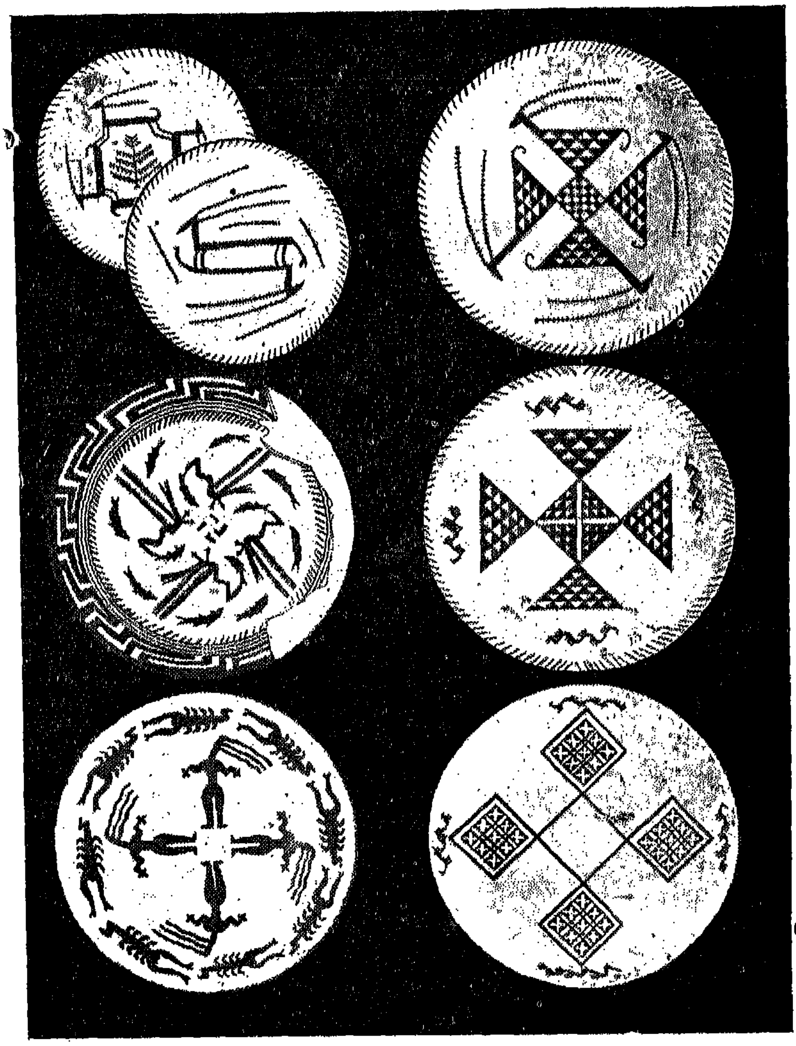
انتشار التجارة الفينيقية والكشف

شكل ٣٦ (انظر صفحة ٣٢٩ وصفحة ٣٣٢)


القطر البحري
٤٥
٤٠
بالكيلومتر
صفر
٢٠٠
بالأميال
صفر
٢٥٠
مقياس الرسم

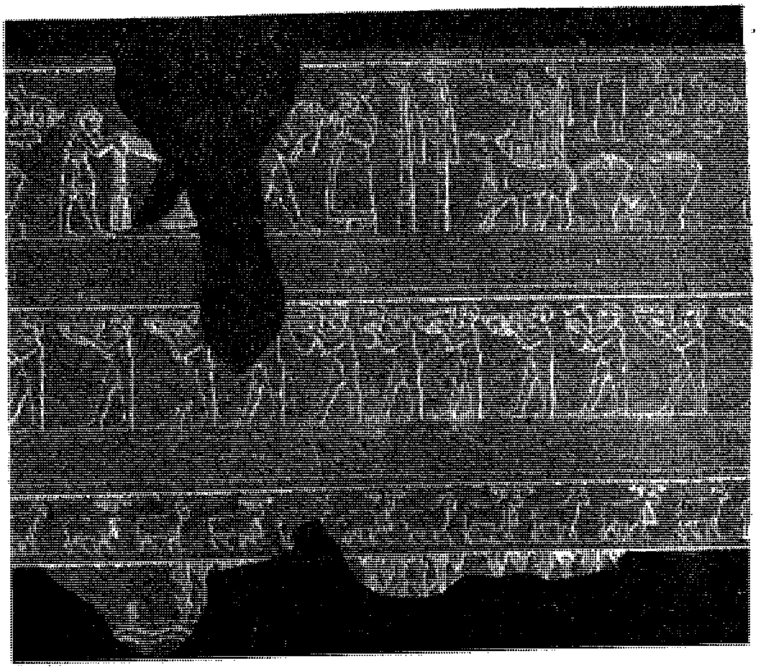






شكل ٢

(انظر صفحة ٢٧)



شكل ٣

(انظر صفحة ٣٠ ، ٣١)



(أ)

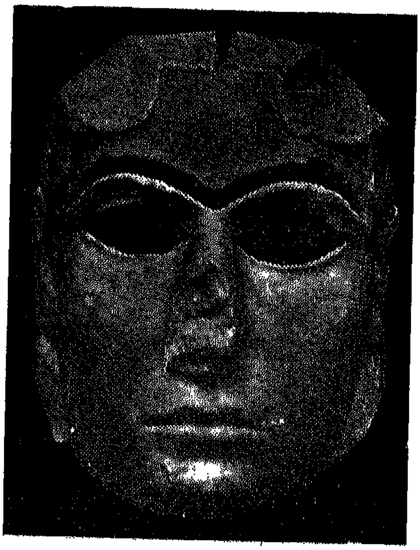
(ب)

شكل ٤ أ منظر زورق جنازي ببرلين
شكل ٤ ب منظر جنازي ببغداد

(انظر صفحة ٣١)

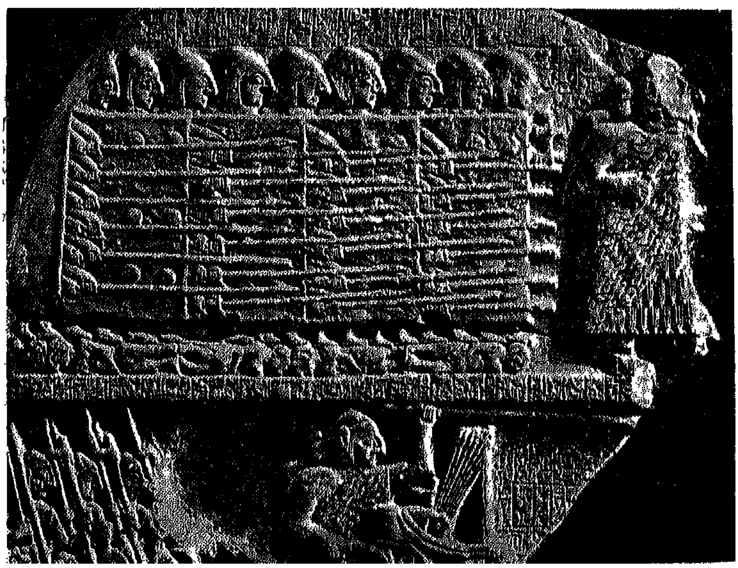


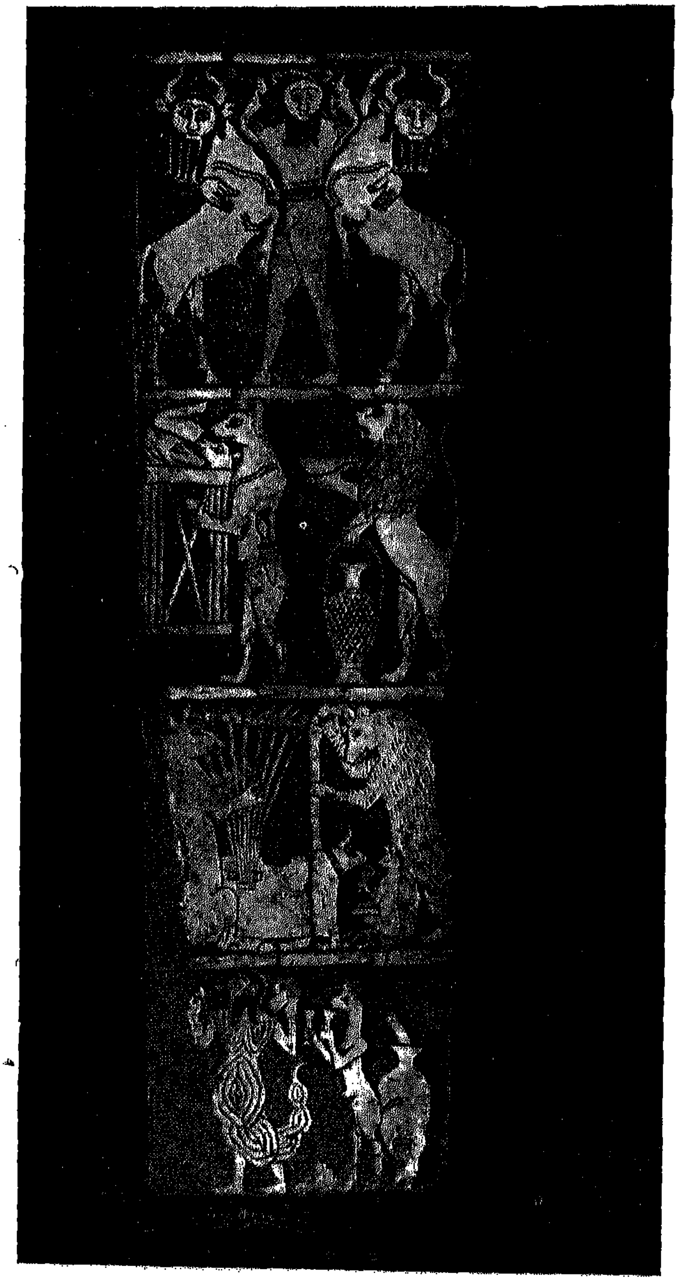
شكل ٦ ، ٧
(انظر صفحة ٣٢)



شكل ٨
(انظر صفحة ٣٢)

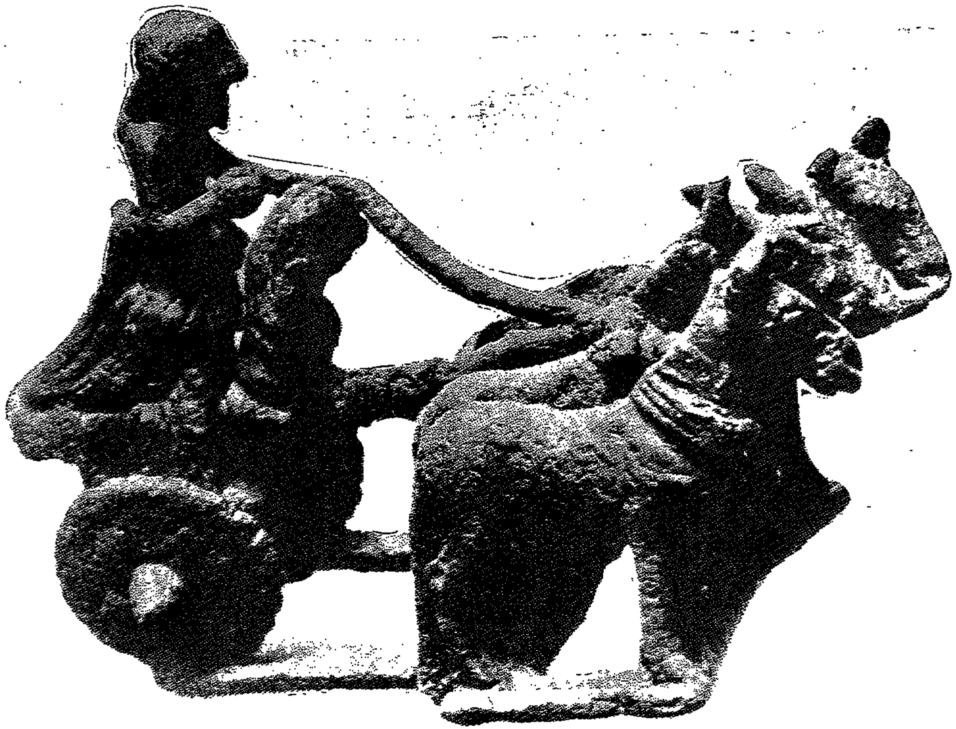
شكل ٩
يمثل جزء من مسله العقبان
(انظر صفحة ٣٨)





شكل ٩ مكرر

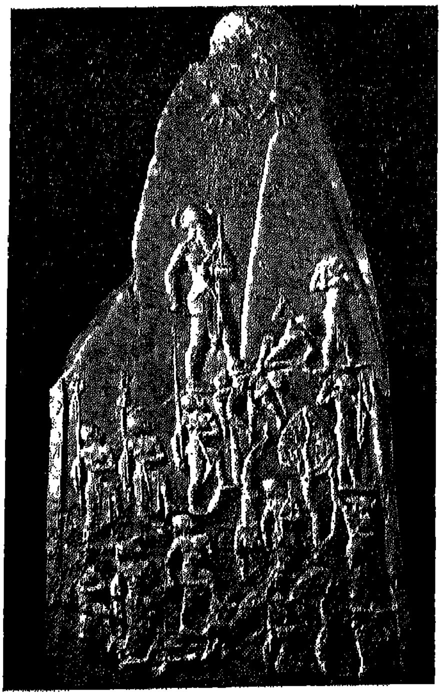
(انظر صفحة ٤٨)



شكل ١٠ (انظر صفحة ٤٨)



خوذة Mes-Kalam-shar (انظر صفحة ٥٨)



شكل ١٣ (انظر صفحة ٩٥)



شكل ١٦ (انظر صفحة ٧٤)



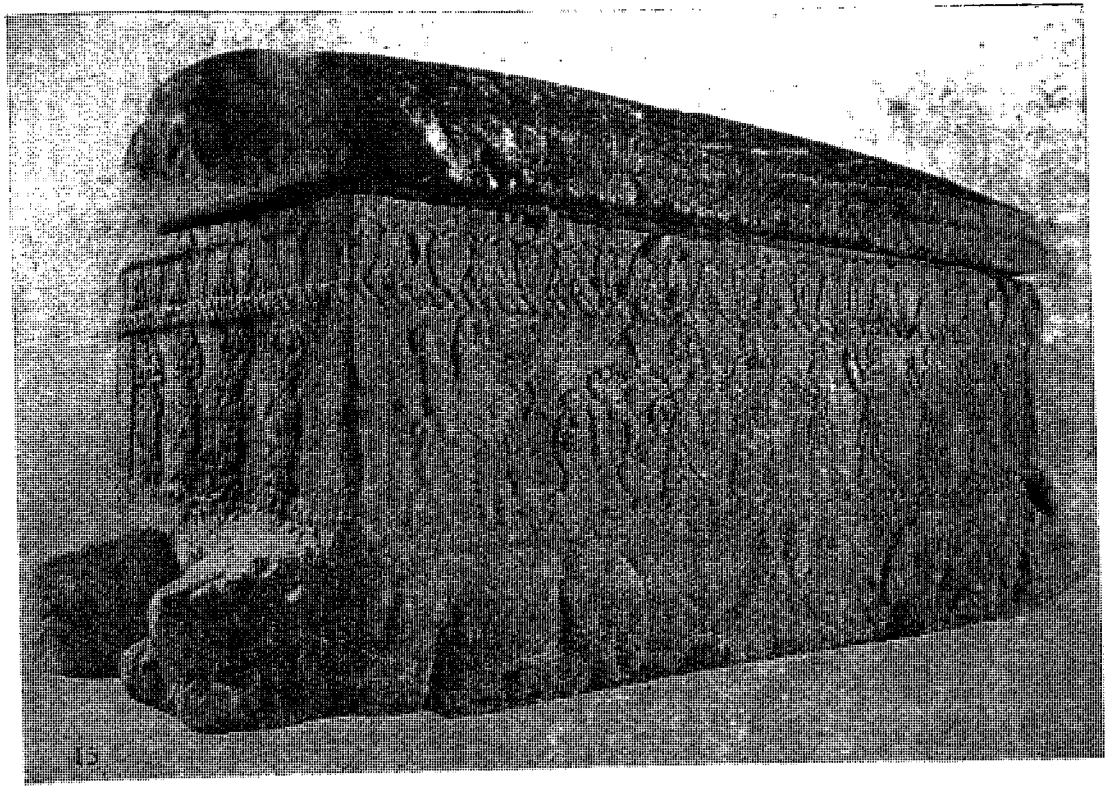
القرن السابع والعشرين ق . م محفوظه بمتحف كوبنهاجن   شكل ١٤ يمثل جوديه (أنظر صفحة ٧٠) مع مقارنته بتمثال آخر من



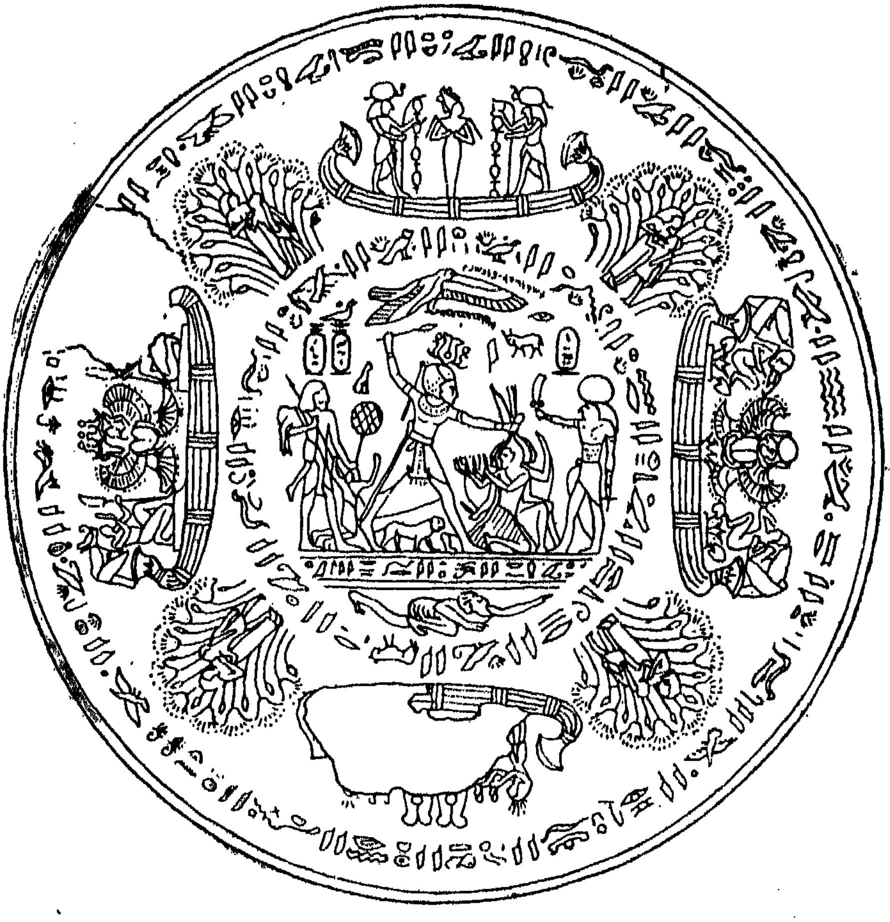
شكل ١٥ يمثل جوديه وبين يديه اناء يتدفق منه ماء الخصوبة (ضمن مجموعة خاصة) مع مقارنته بتمثال آخر محفوظ بمتحف كوبنهاجن يمثل جوديه متعبدا .



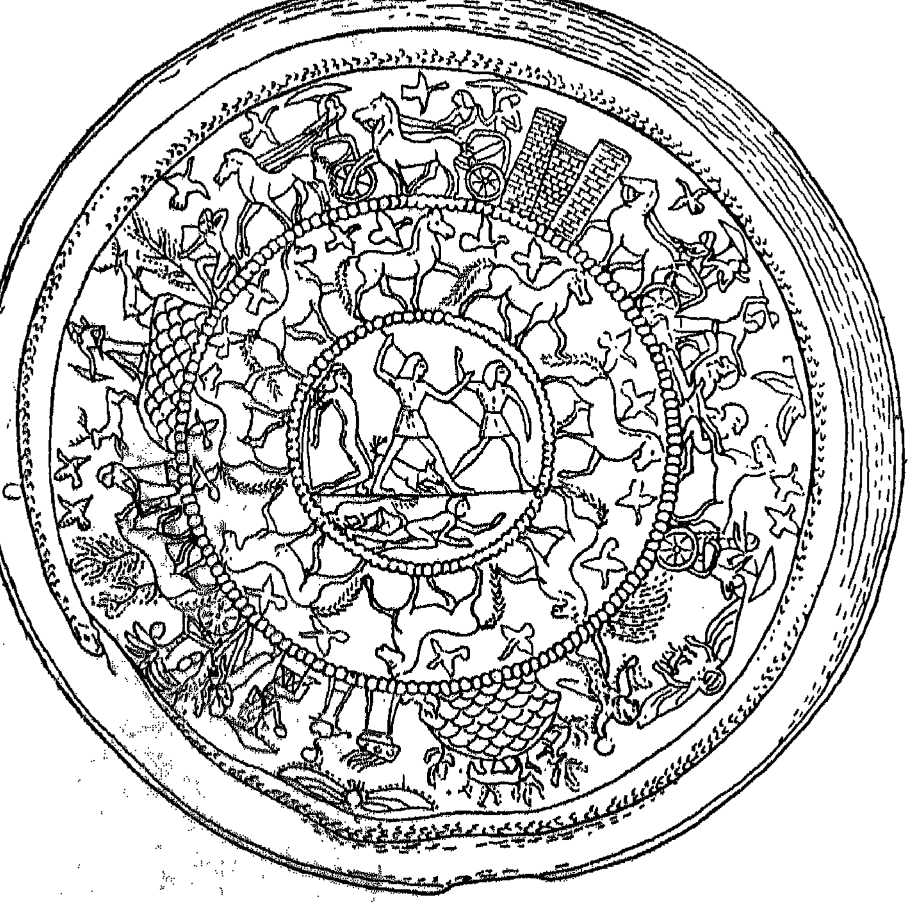
شكل ١٨ (انظر صفحة ١٢٥)



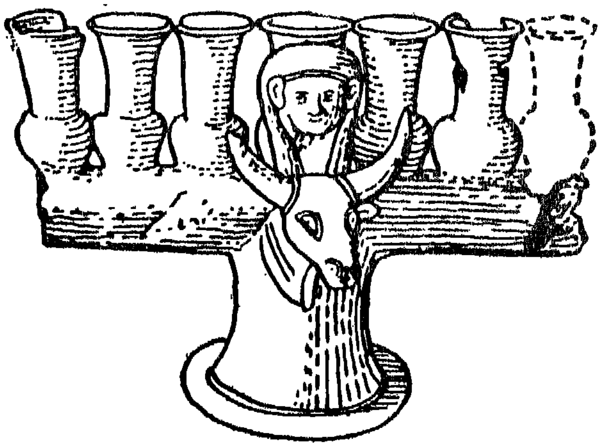
شكل ١٩ (أنظر صفحة ٣١٣)



شكل ٢٠ (انظر صفحة ٣١٧)



شكل ٢١ (انظر صفحة ٣١٧)



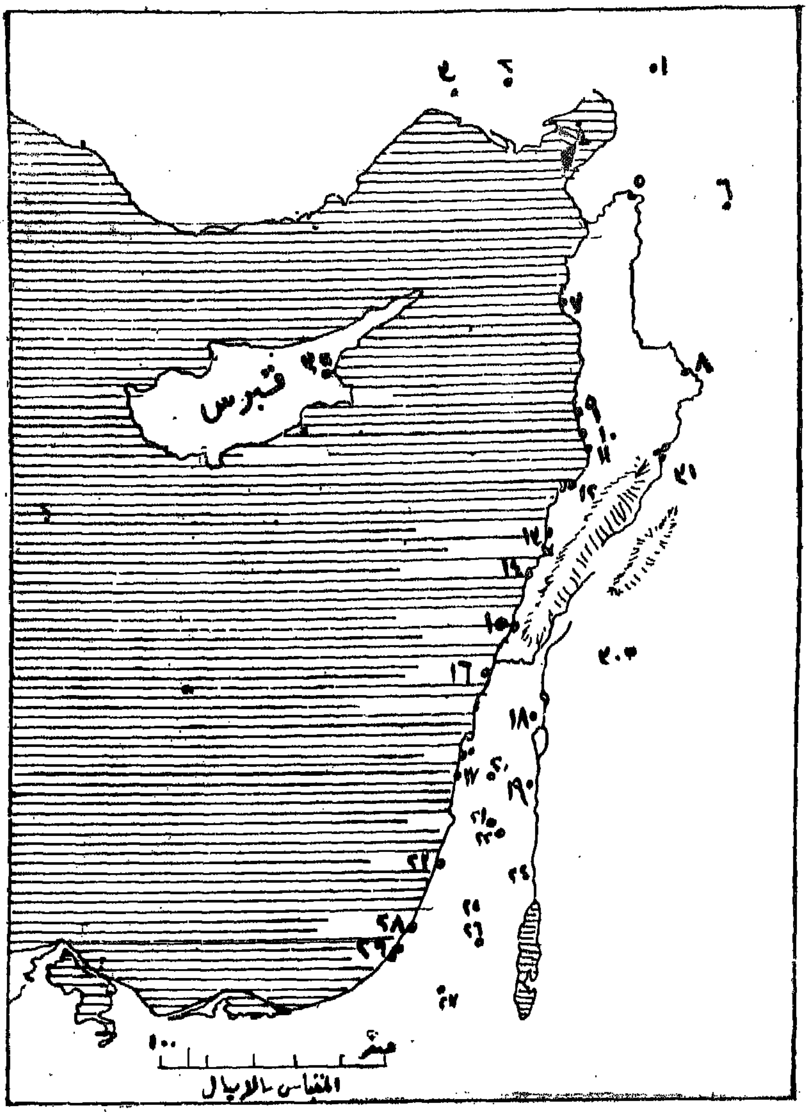
شكل ٢٢ (انظر صفحة ٣٢٠)



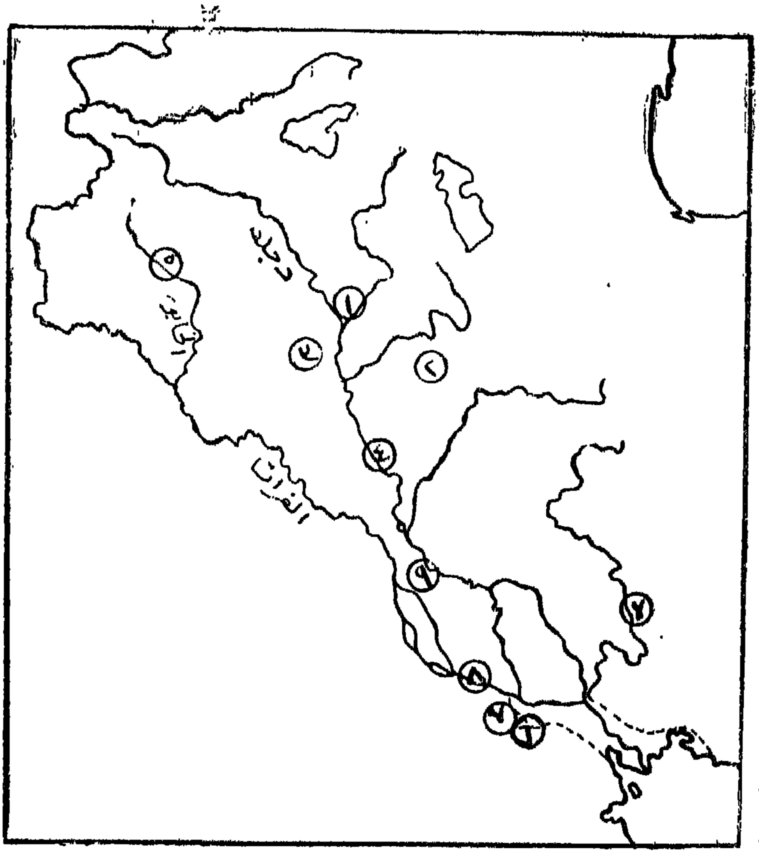
شكل ٢٤ (انظر صفحة ٣٢٢)



شكل ٢٥ (انظر صفحة ٣٢٤)



١ ــ سنجرلى .	٢ ــ أضنه .	٣ ــ طارسوس .
٤ ــ خليج اسكندرونه .	٥ ــ الالاخ .	٦ ــ حلب .
٧ ــ أوجاريت .	٨ ــ حماة .	٩ ــ ارادوس .
١٠ ــ ماراثوس .	١١ ــ سيمرا	١٢ ــ طرابلس .
١٣ ــ بيبلوس (جبيل) .	١٤ ــ بيروت	١٥ ــ صيدا .
١٦ ــ صور (Tyre)	١٧ ــ دور .	١٨ ــ حاظور .
١٩ ــ بيت شان .	٢٠ ــ مجدو .	٢١ ــ سامريا .
٢٢ ــ شكيم .	٢٣ ــ يافا .	٢٤ ــ چيركو .
٢٥ ــ اورشليم .	٢٦ ــ جبرون .	٢٧ ــ بير سبع .
٢٨ ــ عسقلون .	٢٩ ــ غزة .	٣٠ ــ دمشق .
٣١ ــ قادش	٣٢ ــ سالاميس .	



١ ـ ملفمات .

٢ ـ چارمو .

٣ ـ حسونة .

٤ ـ سامراء .

٥ ـ حلف .

٦ ـ أريدو .

٧ ـ سوس والعبيد .

٨ ـ أوروك .

٩ ـ چمدة نصر .



شكل ٣١ (ص ٥٦٥)



شكل ٣٢ (ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧)

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ا	١٣	دولة	دوله
ح	١	جهورة	جمهرة
و	٣٥	النطط	النطق
٥	١٦	من	بين
٦	١٩	Inflectiona	Inflectional
٧	١	قصلين	فصلان
١٣	٧	تيرتياري	ترسياري
١٤	٤	الوفء	الدفء
١٦	١٨	القشرة	الفترة
	٢٦	Neolithie	Neolithic
	آخر سطر	الأويسيدين	الأويسدين
		ملقارت	ملقعات
٢٠	١٢	(المسيوليثى)	تشطب
٢٤	٩	المعادن فى	المعادن بسيطة فى
٣١	١٠	بغداد	براين
٣٦	٣٦	أقوامها	أقوامه
٤٠	١٠	قوت	قوة
٤٢	٩	وأوما(ايلى)	ايلى حاكم أوما
	٢٢	فيها	تشطب
٤٣	٢٦	وارتبطتا	وارتبطت
٤٥	١	conex	convex
	١٠	محاطا	محاط
	٢٤	عيش	تشطب
	٢٩	ديلله	ديالى
٤٨	٨	٩.	٩ مكرر
٥٥	١٧	كتاب	كتاب (١)

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٦	٢٦	elecrtum	electrum
٥٧	٣٠	أذن	أذنان
٦٥	١	ذكر	ذكرى
	٣	أخوة	أخاه
	١١	عنها	عنه
		وكانت نقلت	وكان قد نقل
	١٧	تسع	تسعة
٦٧	١٨	Ur-Namwu	Ur-Nammu
٧١	٥	للإلهتين	للإلهين
	١٩	هذه	هذا
	٢٠	ومكن	ولكن
٧٤	٢٧	أسرتى	أسرتنا
٧٥	٧	أسرتى	أسرتنا
٧٦	١٥	Ashnunat	Ashnuna
٨٠	١١	وانتشرت إلى	ظهرت فى
		حتى	ثم
٨١	١٨	٣٤٠٨	٢٠٤٨
٩٠	٢٣	كتسكتا	كتسكا
٩٢	٨	وفى	وقى
٩٧	٢٣	ونجحت	ونجت
١٠٠	٢٥	وملك	ملك
١٠٤	٢٠	جاءت	جاء فى
	آخر سطر	الآلاف	آلافا
		يهوباقين	يهوياقين
١٠٧	٤	عهد	مهدها
	١٧	السادس	تشطب
١١٨	١٥	شكل	هرساك أو خرساك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢١	١١	هورام شهر	خورم شهر
	٢٨	بنيت	يقبت
١٢٣	١١	عليه	عليها
	١٣	ملك	أمير
١٢٤	٢	حوله	حول
	١٩	يضاف مايلى :	وفى فيلكا أيضا ختوم مربعة
١٢٧	٣١	٣٢٤	٣٢٥
١٢٣	٢٧	عملوا	حملوا
١٧٢	٢	Legends	Legend
	١٧	والبابلى	كالبابلى
١٧٣	١٩	العبارة	العبادة
١٧٨	١٩	٩٨٠	١٩٨٠
١٨٢	٢٥	ثم بحث	وتبحث
٢٠٤	٢٧	عرضه	عرض
٢١٤	١٢	٨١٤٤	١٨٤٤
	١٤	١٨٢١	١٨١٢
٢٣١	٧	عظيمة	عظمية
٢٣٦	٢٣	العبرانيون القسم	العبرانيون فى القسم
٢٣٨	١٢	أمانة	أمامة
		صر	مصر
٢٤٧	١٧	سلستى	سلستين
٢٥٢	٥	Ousoos	Ousos
٢٥٣	١٢	قبوس	قبرس
٢٥٥	١٢	يرجع	يرجح
٢٥٦	١٢	قام	قامت
	٢٠	تصورا	تصوروا
٢٥٧	١	أمره	أمرها

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٥٧	٢٤	ساق	ساقوا
٢٦٠	١٧	اليون	اليونان
٢٦٧	٢٤	آلسيا	الاسيا
٢٧٢	٢٩	ابتعل	ابعل
	آخر سطر	ايزابل	ايزابيل
٢٧٣	٦	قبل	قيل
٢٧٤	٥	أما بق	أما ما بق
	٢٣	يضاف مايلى :	وبعض المناوشات الأخرى
	٢٤	يجدد	يجددا
٢٧٨	١٥	عليهم	عليه
	٦	صيدا	صور
٢٨٠	٢١	الفوكيون	الفوسيون
٢٨٢	٥	الفوكى	الفوسيين
٢٨٤	١٠	Melgort	Melgart
٢٨٧	سطر ٤ من الملاحظة	اليونية	الهونية
	سطر ٥	لعاصمة مقاطعتها	لمقاطعتها
٢٩٥	١١	الاله	الالهه
٢٩٨	١٨	الرحل	الرجل
	٢٤	انشبوا	انقسموا
٣٠٣	آخر سطر	نابفيت	تابفيت
٣٢٩	٢١	١٩	٢٦
٣٣٢	٢١	١٩	٢٦
٣٣٣	٢١	١٩	٢٦
٣٣٥	١٧	Lairgerie	Lavigerie
٣٣٨	١٤	سكتة	سكنه
٣٤١	٢	بما	بها

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤٢	٦	العربية	الغربية
	٢٧	٩٢	٢٩
٣٤٣	آخر سطر	العربية	الغربية
٣٤٤	١٠	حارب	حاريت
	٣٢	التى	التى لا
٣٤٥	٩	بل برسيب	تل- برسيب
	٢٦	ساچور	ساخو .
٣٤٨	١٩	Ioram	Joram
٣٥٠	٣	Ioab	Joab
	١٠	الفرق	ضد الفرق
	٢٤	الاراميين	الاراميون
٣٥٤	١١	يحون	ريمون
	٣٠	السامى	السامرة
٣٥٦	١١	Joram	Joram
٣٥٧	١٨	يضربه	يضربه ضربة
٣٦٤	٦	فى	فى فينيقية
٣٦٧	٨	قون	قوّن
٣٦٨	١٨	يتشوب	آيشوب
٣٧٦	أول السطر	الساميين الاقدمين	الساميون الاقدمون
	١٧	نبينه	بيذاه
٣٧٧	٢	يهودا	يهوه
	٤	سيمحبون	سيمحون
٣٧٨	٢٤	عهر	عهد
٣٧٩	٥	بنى	نى
٣٨١	٦	تيجلات بيلاصر	أشطب
٣٨٤	٩	ونقلها	ونقله
٣٨٦	١٢	ايشالم ـــ فهرب	ايشالوم ـــ وهرب
		يشطب سطر ١٨	

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٨٧	١٣	الشرعى فى عرش	العرش الشرعى فى
	٣١	كان	المكان
٣٨٨	أول سطر	معاريون	معاريين
	٢٢	وجدا	وحد
٣٩٠	٢١	رحعيام	رحبعام
٣٩٦	١١	فسلمت	فسملت
	٢٨	يهوقامين	يهوياقين
٣٩٨	٦	عصير	عصيره
٤٠٧	١٤	لأن	لأنه
٤١٠	١٦	وجه	وجهه
	آخر سطر	يحاهد	يجاهد
٤١١	٣	انشان	إنسان
٤١٥	٣	ومن	وما
٤٢١	٦	أما	أنا
	٨	ياشدوخ	ياشدرخ
	١١	الضعيفان	الضعيف
		وكان	وكان لا
٤٣١	٢٧	حضروا	حصروا
٤٣٤	١٦	القوى	القرى
٤٤٢	٧	اثر	أثرا
٤٤٧	١٨	وزج	زوج
٤٥٨	٣١	شاخويتها	شاخويتا
٤٦١	٢	وهى	وهى عاصمة
٤٦٨	٢٨	موشيليش	مورشيليش
٤٧٥	٢٢	تواشراتا	توشراتا
٤٧٨	١٢	١٨٣٥	١٣٨٥ أو ١٣٧٣
٤٧٩	آخر سطر	١٠٤٥	١٤٠٥

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٨٦	٤	ليقوم	ليقدم
٤٩٠	١٥	وجدا	وجد
٤٩٧	١٥، ١٧	كسكا	كاسكا
٥٠١	٢٥	وضعها	وصفها
٥٠٧	٢٠	يتشوب	تيشوب
٥٠٨	١، ٢، ٤	وخى	أورخى
٥٢١	١٧	يتشوب	تيشوب
٥٦٣	١٢	٣٠	٣١
٥٦٩	آخر سطر	أوراتوا	أورارتو
٥٧٠	٢٢	منها	منهما
	٢٥	رأسى	رأس
٥٧٦	١	قوعد	قواعد
٥٧٨	٩	جيده	جديدة
٥٨٧	٢٢	بابوبولاصر	نابوبولاصر
٥٩٤	١٢	وضعوا	وضعوه
٦٠٠	٢٤	المحيطية	المحيطة
	٣٠	نابونيدور	نابونيدوس
٦٠٤	٩	عذرا	عزرا
٦١٤	٩	يشطب من أول :	وكانوا حتى الأرض .
٦١٧	١٩	النامية	الناحية
٦١٩	١٨	الزمن	مدة طويلة
٦٢٦	١٣	من بذرة	تشطب
	٢٣	يعد	بعد
٦٢٨	٣١	الدرنيل	الدردنيل
٦٢٩	٨	تشكيل	تشكل
٦٣٤	١٨	وبالقرب	وبقرب
٦٤٠	١	الأولى	الأول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٤٥	٢٢	بين	به
٦٥٩	آخر سطر في الملاحظة	Greese	Greece
٦٦٢	٢٨	بيتوس	ميلتوس
٦٧٧	٣	وأقام	وأقاموا
٧٠٣	١٧	٢٣٣	٢٢٣

الناشر
دار النهضة العربية
٣١ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧